مذكرات موسى صبرى

٥٠ عامًا
فى قطار الصحافة

دار الشروق

مذكرات موسى صبرى

٥٠ عامًا

فى قطار الصحافة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت . ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس . SHOROK 20175 LE

من هو..؟

قيل لى من أصدقاء عديدين، بعد أن انتهيت من فصول هذا الكتاب، وعرضت عليهم خلاصة لما حوته صفحاته.. قيل لى: يجب أن تقدّم نفسك إلى القارىء!

قلت: الكتاب كله، هو تجربتى الحيّة فى دنيا الصحافة قرابة نصف قرن من الزمان..

قالوا: هذا صحيح.. ولكن من أنت؟.. وكيف نشأت؟.. كيف صنعت الأيام طفولتك، وشبابك، حتى طرقت أبواب القصر الكبير.. قصر صاحبة الجلالة..

قلت: حديث النفس مكروه..

قالوا: إذا لم يكن صادقاً. إذا كان مجرد استعراض لما لا تتحلّى به من صفات.. إذا تحدّثت مثل تلك الراقصة المشهورة التى يعرف الناس جميعاً، أنها أمّية لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك فهي تروى كيف تعلّمت فى المدارس الفرنسية، ولماذا أهداها «دادى» عزبته فى الصعيد!

قلت: لست جان جاك روسو.. لأكتب اعترافاتى. أنا مجرّد صحفى، أتاحت له سطور الصحافة أن يعرفه بعض الناس..

قالوا: أكتب لـ «بعض الناس» هؤلاء، حتى يعرفوك من الداخل.. المهم أن تكتب بصدق وأمانة..

* * *

وهكذا ولدت فكرة هذا الفصل من الكتاب الذي يسبق المقدمة وباقي الفصول..

إنه ليس مقدمة..

إنه «البطاقة الشخصية».. التي أستخرجها لنفسي، وبإرادتى، من بطون الأيام..

* * *

لعلّني لا أذكر من طفولتى.. إلا عندما كنت في الخامسة من عمري..

كنا نسكن شقة صغيرة، في مدينة المنيا، تطلّ بلكونتها على فناء مدرسة اسمها مدرسة مجلس المديرية..

وعرفت أن أبى هو «باشكاتب» المحكمة..

وكان الناس ينادونه، كما كانت أمى تناديه.. باسم «كامل أفندي»..

وكانوا ينادون أمي.. بـ «الست برنسة».. أو «أم صبرى»..

وعرفت أن اسمى «موسى صبري».. وليس موسى فقط.. أو صبرى فقط.. الإسم من الكلمتين. ولكن «صبرى» هو اسمى فى الأسرة، وبين معارفنا، وأقارب أبى وأمي..

وكان أبى يروي لأصدقائه.. لماذا كان هذا الإسم من كلمتين.

كان مولدي في مركز «الفشن».. التابع لمديرية بني سويف. وكان والدي كاتباً بمحكمة الفشن.

قال إنه حلم بملاك بشره بأنه سيرزق ولداً.. واختار الملاك للولد اسم موسى..

ولما ولدت.. رفضت أمي بشدة هذا الاسم.. وقالت.. لا أحب أن يناديني أحد بـ «أم موسى».. وأصرت على أن يكون اسمي «صبري»..

واشتد الخلاف بينهما.. كل يصر على الإسم..

وأخيراً.. تدخل «القسيس».. واقترح حلاً للخلاف، أن تكتب أوراق

صغيرة عديدة، منها ما يسجل عليه اسم «موسى». . ومنها اسم «صبري». . ومنها ما يجمع بين الإسمين «موسى صبري». . ثم تطلق البخور، ويصلى القسيس، أن يختار الله الاسم الذي يباركه. . ثم يخرج القسيس ورقة من «السلة». . وكل الأوراق كانت مطوية. .

ووافقت أمي. . وأخرج القسيس الورقة بعد الصلاة. . وكان مكتوباً بها «موسى صبري». .

وهكذا سجل أبي اسمي في شهادة الميلاد. .

ولكن أمي، وقد أحسست منذ طفولتي، أنها سيدة قوية البأس، لها نفوذ وسطوة، واعتزاز بنفسها، وبأسرتها. . استخدمت معي الاسم الذي كانت تريده وهو «صبري». . وشاع الاسم بين كل الأقارب والأصدقاء. . وكان أبي يناديني به أيضاً. .

وحتى الآن. . وبعد أن بلغت السادسة والستين من عمري، فإن أخي الأصغر (٤٢ سنة) وشقيقاتي، والأقارب القريبين. . ينادونني «صبري». .

وسمعت البعض يقول لأبي:

ـ نحن نصدقك يا كامل أفندي. . ولكن لعلك اخترت له اسماً من كلمتين. . لكي يكتب ويعرف باسم «موسى صبري كامل». . وهذا الاسم لا يميز إذا كان مسيحياً أو مسلماً، وبذلك تأمن عليه من أي اضطهاد أو تعصب. .

وكان أبي ينكر بشدة، هذا الاستنتاج. . وكان يقول لهم. . أصدقائي كلهم مسلمون. . اسماعيل أفندي الباشمحضر. . علي أفندي البمبي سكرتير المحكمة. . محمد حلمي أفندي سكرتير بنك التسليف. . ونحن معهم أسرة واحدة. .

ولكن والدي، لم يسجل شهادة ميلادي، في ١٦ أغسطس ١٩٢٤. . وهو تاريخ مولدي. . لقد سجلها بعد ذلك بشهر وستة عشر يوماً، أي في «٢ اكتوبر». . وسبب ذلك، أن أمي وأبي، أخفيا عن الجيران أنني ولدت. . خوفاً من الحسد، لأنني مولود ذكر. . ولما أطمأنا أنني في صحة وعافية. . قررا تسجيل مولدي!

وأعتقد أن هذه فكرة أمي، التي فرضتها على أبي.. لأنها كانت تؤمن بخطر «العين»..

وكان والدي، يوافق أمي صامتاً ولكنه ينتهز أية فرصة، لكي يسفه هذه المعتقدات.. ولكن صوتها كان هو الأقوى دائماً..

ولذلك فقد انحزت بعواطفي، منذ طفولتي، إلى أبي..

رأيت أنه الجانب الأضعف.. ولكنه كان عنيداً، ولا يستسلم بسهولة، وإن كان يفضل المسالمة، تجنباً للنكد!..

وأراد أبي أن يوفر عاماً من عمري، في الدراسة.. قرر أن يدخلني مدرسة مجلس مديرية المنيا، في السنة الأولى الابتدائية، وعمري ٦ سنوات.. كانت السن الرسمية للقبول ٧ سنوات.. ونادراً ما يدخل طفل في هذه السن المدرسة الابتدائية.. الغالبية من سن ٩ أو ١٠ سنوات أو أكثر..

واختصر أبي مرحلة «رياض الأطفال».. وكان يعلمني القراءة والكتابة والحساب وبعض الكلمات الإنجليزية في منزلنا، كل يوم، ساعتين، أو ثلاث ساعات..

كان قد حصل على الشهادة الإبتدائية من مدرسة أخميم التابعة لمديرية سوهاج، وكانت أسرة أبيه.. الجد والجدة والأعمام والخالات.. كلهم يسكنون في بيت واحد، وكالعادة في ذلك الوقت، كانوا يعدون خزين العام من الخبز الجاف، والجبن، وغير ذلك، ليكفي الأسرة كلها.. كما كانوا يصنعون «العرقي» من البلح، وهو شراب مخمر، يدير الرؤوس.. وكانت الأسرة كلها، بتتابع الأجيال، تعمل في صناعة الغزل بالأنوال اليدوية، وينتجون الحرير الأخميمي المشهور..

وعلمني والدي، منذ بدأت أنطق بالكلمات.. أن أحفظ أسماء جدودي، حتى سابع جد واسمه «المعلم».. نسبة إلى أنه المعلم في صناعة الغزل.. وحتى الآن لا أزال أحفظ هذه الأسماء: «موسى صبري كامل، شنودة، سكر، بسطوروس، منقريوس، منصور، مليكة، المعلم».

ورأيت جدي لأبي. . سكر.

وكان يرتدي الزعبوط الأسود والعمامة البيضاء الكبيرة فوق رأسه، وكانت جدتي (زوجته) سيدة بيضاء جميلة. . وكان الإثنان يدعوان دائماً، إلى الأمانة، والصدّق، واحترام الكبير، والطاعة، والصلاة في الكنيسة. .

وكانت كلماته تصدر لي في شكل أوامر. .

وكان الإثنان، يزوراننا، مرة كل عام، للإقامة معنا، شهراً أو أقل. .

وكان أبي باراً بهما. . حريصاً دائماً على إرضائهما. . سعيداً بزيارتهما. .

وأدركت أن أبي، ورث طباع الشهامة، والشجاعة، والإلتزام بالصدق والنزاهة، من أبيه. . جدي سكر.

حصل أبي على الشهادة الإبتدائية، في سن صغيرة نسبياً بالنسبة لجيله. . واستهواه أن يتوظف، وألا يكمل الدراسة الثانوية، حتى يستقل بحياته. . ويحصل على المرتب الكبير. . ستة جنيهات حينئذ.

وعين كاتباً في وزارة الحقانية (العدل الآن). . وكان يحضر الجلسات مع القاضي، بما يسمى الآن، سكرتير المحكمة. . وكان هو الذي يقرأ القضايا، ويلخصها للقاضي، ولشغفه إلى المعرفة، كان يقرأ كتب القانون التي تفيده في تفهم موضوع الدعوى. . وأثناء نظر إحدى القضايا، شك في سلوك القاضي، واقتنع من الحكم الذي كتب «مسودته» قبل الجلسة، وبما ترامى إلى سمعه، أن القاضي حصل على رشوة. . وشاء أن يفضح هذا القاضي. وبعد انعقاد الجلسة. . وعندما نطق القاضي بالحكم، قذف والدي بدوسيه القضية في وجه القاضي، علناً. وأمام الناس. . وترك المنصة.

وأجرى معه تحقيق على الفور، وصدر قرار بفصله. .

فماذا يفعل؟ . .

دخل امتحان الشهادة الابتدائية، مرة أخرى، في العام التالي، من منازلهم. . ونجح بتفوق، وتقدم بطلب وظيفة إلى مصلحة السجون. . وعين كاتبا بها، دون أن يدري أحد أنه سبق أن فصل، وكان عدد الطلبة محدوداً جداً، وكانوا يعينون جميعاً. ولأنه هوى القانون. . ولعناده في أن يعود إلى

وظيفته الأولى، سعى بعد ثلاثة أعوام، إلى أن ينقل كاتباً بالمحاكم. .

وكان يصحبني خلال العطلة إلى مكتبه في محكمة أسيوط، بعد أن نقل إليها من المنيا، وكنت قد حصلت على الشهادة الابتدائية، من مدرسة أسيوط الابتدائية الأميرية. . وكنت فخوراً به كل الفخر، لأن جميع زملائه كانوا يكنون له احتراماً خاصاً، كما كان معروفاً بأن أحداً من المتقاضين، أو راغبي توثيق العقود، لا يجرؤ أن يقدم إليه هدية أو رشوة. . أو يرسل له في المنزل قفصاً من «الفراخ» أو الفاكهة أو صفيحة جبن. . كما كان شائعاً بين كتبة المحاكم في ذلك الوقت. . وكان يقدمني إلى القضاة الذين يعمل معهم. .

وكانوا يعاملونني بكل المودة. . وألمس احترامهم لـ «كامل أفندي». .

كما صحبني خلال دراستي الثانوية، لزيارة كبار المحامين في أسيوط. . وكان يقول لهم أنني سأدخل كلية الحقوق بعد أن أحصل على شهادة التوجيهية. . وهكذا عرفت الأستاذ حامد جودة. . الذي تولى رياسة مجلس النواب في الأربعينات. . والاستاذ عاذر جبران عضو مجلس الشيوخ عن أسيوط. . والأستاذ حسين أبو زيد (وزير المواصلات بعد ثورة ٢٣ يوليو) والأستاذ حماد الحسيني (والد المرحوم عاطف الحسيني المحامي المشهور). . وغيرهم. .

وبدأت أشعر بالاختلاف الكبير بين أبي وأمي. . الذي نتج عنه في نفسي انحياز كامل لأبي!

كان كلاهما متديناً. . وإن اختلفا في المذهب. .

أمي تحب الكنيسة البروستاتينية. . وهو مذهب بعيد عن الطقوس، والصور، والتماثيل، اتجهت إليه أسر الطبقة الراقية (إن صح التعبير) من المسيحيين في أسيوط. . ولعل هذا ما جذب أمي إليه، لأنها كانت ترى أنها تنتمي إلى هذه الطبقة. . لأن والدها محام في ملوى (عندما كانت المحاماة بلا مؤهل). . وكانت ترى أن بقطر حبشي ـ وهذا اسمه ـ كان من أسياد القوم، وتحتفظ له بصورة كبيرة بالجبة والقفطان والشارب المفتول. . وتروي لنا القصص الخيالية عن «العز» الذي كانت تعيش فيه، وخاصة أن شقيقها الذي توفي، كان صديقاً

للخديو. . ولا يتخذ الخديو قراراً إلا بعد استشارته. . وعلمنا بعد ذلك أنه كان مجرد موظف صغير في قصر عابدين. . وأن اسمها «برنسة» الدارج . . هو في شهادة الميلاد «برنسيسة» أي الأميرة. . إلى آخر هذه القصص التي كانت تتباهى بها على أبي وأسرة أبي. .

وكانت قارئة دؤوبة للإنجيل، وتحفظ آياته وقصصه، وتجيد الكتابة بلغة عربية سليمة، لأنها درست المرحلة الابتدائية، في مدارس الأمريكان. . وكنت ألمس أن أقاربها، عندما يحضرون لزيارتنا، يكنون لها توقيراً خاصاً. . ويجلسون أمامها في حلقة، كأنهم تلاميذ صغار، بملابسهم القروية، وشواربهم الضخمة. . وهم من بلدة صغيرة اسمها « البياضية » تقع على الجبل، في حدود مدينة ملوي. . وقد اشتهرت هذه البلدة بجرائم القتل والثأر. . كانوا يجيئون لاستشارتها، ولكي تفصل في خلافاتهم. . وهي صاحبة الرأي المطاع. . ولا أنسى أن قريباً لها، ارتكب جريمة قتل للثأر، وتظاهر بالجنون حتى يفلت من العقاب، وأودع مستشفى العباسية (الأمراض العقلية). . وكانوا يجيئون لزيارته بين الحين والحين. .

وكان يوم الثلاثاء ـ خلال دراستي الثانوية في أسيوط من ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ ـ هو يوم الاستقبال لوالدتي. . حيث تزورها في المساء صديقاتها من السيدات، وتقدم لهن الشربات، والمغات، والكحك والفطائر. . ورغم أن أبي هو كاتب المحكمة، وأصبح الباشكاتب. . إلا أن ضيوف والدتي من العائلات الكبيرة في أسيوط. . وقد انتقلنا من شقة إلى شقة، حتى استقر بنا المقام في شقة كبيرة في عمارة تملكها أسرة «الهلالي» ومنهم نجيب باشا الهلالي رئيس الوزراء قبل ثورة ٢٣ يوليو. . وكانت من سبع غرف. . منها حجرة كبيرة للخزين. . وكان أثاث المنزل محترماً، يتفق مع كل مظاهر أمي. . وحجرة الجلوس «الاستقبال» من «موبيليا» فخمة أو هكذا كنت أراها.

وكان مرتّب والدي قد وصل إلى ثلاثين جنيهاً. . وكان هذا يكفينا ويفيض علينا أنا وشقيقاتي الأربع ثم شقيقي الأصغر. . ولكن والدي كان يحرص على أن يقتني كل ما هو جديد. .

وعندما اشترى «اسماعيل أفندي» الباشمحضر جهاز راديو صغيراً، وكان

الراديو هو صيحة الحضارة. . قرّر والدي أن يشتري راديو فيلبس ضخماً (موبيليا) وبه أيضاً «فونوغراف». . وكان ثمنه كبيراً، ولكنه اشتراه بالتقسيط. . وتحمل الدين. . فقد كنا نزور اسماعيل أفندي لكي نستمع إلى الراديو. . وكان أصدقاء اسماعيل أفندي يجتمعون في منزله ليلة الجمعة مرّة كل شهر لسماع أم كلثوم. . وصحبني أبي معه في إحدى هذه الليالي. . وكان البرد قارساً وغلبني النوم. . ولذلك نشأت نافراً من صوت أم كلثوم. . حتى كبرت وعرفتها. .

وكانت لدينا حجرة «السفرة». . والكراسي الأسيوطي الكبيرة، والكنب في حجرة الصالة الكبيرة. . واشترى أبي الأسرة «النحاس». . ذات الأعمدة الطويلة بالناموسية. . وكانت حجرة نومه مع أمي. . راقية الأثاث أيضاً. . وساعده على ذلك، أن ابن عمه كان نجار موبيليا في أسيوط، واسمه «عم نسيم». . وكان والدي باراً بجميع أقاربه، ومعظمهم من الفقراء. . الأفندي فيهم مثل أبي هو عم «سامي أفندي». . ابن عم والدي الكاتب بالمديرية. . والباقون على قد الحال، منهم عامل المطبعة الذي فشل في الدراسة. . ومنهم «عم مسعد أفندي» وكيل المحامي الذي علّم ابنه وأصبح صرافاً. . ولكنهم جميعاً في أسيوط كانوا يملكون منازلهم. . وحيث كانت العادة عند «الأسايطة». . كل أسيوطي يحرص على شيئين، مهما كان فقيراً. . أن يعلّم أبناءه، وأن يبني له بيتاً ولو كان من حجرتين. .

وكانت أمي في لحظات الشجار مع أبي، تفاخر بعائلتها. وضاعف هذا من انحيازي أيضاً إلى والدي الذي بدأت أرى فيه المثل الأعلى. . أنه متديّن أيضاً، وقد اختار المذهب القبطي. . وهو يصلّي قبل النوم. . وهو يبدأ تناول الطعام معنا، ونحن حوله، بعبارة لا أنساها «ربّ دمها نعمة واحفظها من الزوال يا ربْ» ثم يقسّم علينا، كل واحد منا، «النايب» من اللحم أو الدجاج أو أي طعام. . وكان ينهرنا إذا قال أحد منّا أنه لا يحب هذا الطعام. . وكان يردّد هذه نعمة ربّنا علينا، ونحمده سبحانه وتعالى، لأنه أتاحها لنا. . ولذلك كان يأكل هو أي شيء. . ودائماً يردّد «أسألك الستر يا رب». . وهو إذا ذهب إلى الكنيسة للصلاة، لا يخطر أحداً. . ولا يتباهى بأنه كان في الكنيسة. . وكان يزور جميع أقاربنا الفقراء، ويعطيهم في السرّ معونات مالية أو عينية. . كأن

يشتري شالاً أو قطعة قماش للقريبة. . وكنا لا نعرف بهذه الزيارات. . التي اكتشفناها بعد وفاته. . وكان انتماؤه المصري عميقاً. . هو أول من حدّثني عن سعد زغلول، والأحزان والدموع التي ملأت مصر كلها عند وفاته. . وروى لي أنه كانت لدينا سيدة تغسل الملابس، عندما جاء نبأ وفاة سعد زغلول. . تركت الغسيل وخرجت إلى الشارع تصيح وتلطم الخدود. . وحدثني عن ثورة عرابي التي كانوا يطلقون عليها هوجة عرابي. . ولم يكن يعرف التعصب أبداً. . ولذلك لم يكن يبدي لي أية ملاحظة، عندما كنت أفتح الراديو، لكي أستمع إلى القرآن. . وكانت الاذاعة في ذلك الحين مقصورة، على بعض الأحاديث، والقرآن الكريم، وبعض الأغاني. . وقد استهواني ترتيل القرآن كثيراً. . ولكن أمي كانت تقفل الراديو في غضب. . وكانت تنهرني. . وكانت تقول: «آدي آخرة لعبك مع ولاد المسلمين. . ». . ورفضت منها هذا التدخّل فيما أحب وما لا أحب. . وكنت قد تجاوزت العاشرة من عمري. . وكان ردي على ذلك، أنني اشتريت مصحفاً. . وبدأت أقرأ فيه. . ونهرتني. . وطلبت من أبي أن يعاقبني، ولم يستجب لها. . واسترقت إليه السمع ذات مساء ينصحها، بأن تأخذني باللين. . وكنت قد وصلت إلى سن البلوغ. . الرابعة عشرة. . وهذا سن العناد وتكوين الشخصية. . هكذا قال لها أبي. ولذلك، فعندما وجدتني أضع المصحف تحت مخدة سريري، وضعت هي إلى جوار المصحف، إنجيلاً. . وتودّدت إليّ لأقرأ الانجيل. . وأغرتني أن أذهب إلى مدرسة الأحد التابعة للكنيسة القبطية. . حيث كان الشباب المسيحي، يستمع إلى المواعظ، وينشد التراتيل الدينية على الموسيقى. . واستهواني ذلك أيضاً، ولكنه لم يحجب استمتاعي بسماع القرآن في الراديو. . وأخيراً تقبلت مني أمي ذلك، ولم تعد تقفل الراديو. . وبدأ يخرج من وعيي الباطن شعور كنت أعبّر عنه. . بأن كله كلام ربّنا. . الانجيل والقرآن. .

ونما في أعماقي هذا الشعور. . لأنني رأيت آيات القرآن تحض على الخير والفضيلة والصدق وتنهى عن المباذل. . وهذا نفس ما أقرأه في الانجيل. . فلماذا التفرقة؟. . ونما هذا الشعور عندما دخلت الجامعة عام ١٩٣٩. . وبدأت أمارس السياسة الوطنية. . وأحضر اجتماعات حزب الوفد، واستمع إلى مكرم عبيد باشا. . ويدوي في أذني شعار الدين للّه والوطن للجميع. . «وأنا مسيحي

ديناً ومسلم وطناً . . » وبدأت أقرأ عن تـاريخ سعـد زغلول وثورة ١٩١٩ . . ثم اعتقلت بعد تخرّجي من الحقوق، في عام ١٩٤٣، في معتقل الزيتون . . وطلبت من الأستاذ جلال الدين الحمامصي، الذي كان معتقلاً قبلنا أنا وزملائي الطلبة، مصحفاً وبه تفسير الآيات . . فأحضره لي من مكتب والده كامل بـك الحمامصي الذي كان يزوره ويقدم له كل ما يحتاج إليه من كتب . . وكان يملك في منـزله، مكتبة كبيرة . . وحفظت في المعتقل نصف القرآن . . كنت أقرأ في فترة الصباح، وأجود، وأتفهّم التفسير . . وأحفظ . .

وبعـد أن هربت من معتقـل الزيتـون، مع أنـور السادات (وكـان معتقلاً قبلنا أيضاً، مفصولاً من الجيش برتبه يوزبـاشي) . . قبض عليّ، وأودعت سجن الأجانب لفترة من الوقت. وهناك إلتقيت بـالشيخ أحمـد حسن الباقـوري المدرّس بالأزهر حينئذٍ . . وَمَثَّلَ هذا اللقاء نقطة تحوّل في حياتي . . لقد اقـتربت من هذا الرجل الذي تحوّل إلى أخ أكبر لي، ونقلنا معاً إلى معتقل «مـاقوسـة» في المنيا . . وكان قد ملأ حجرته في المعتقل، بمؤلفات عديدة، في الدين والفقه والتاريخ . . واستمـرّت صلتي بالبـاقوري، إلى أن فقـدته مصر . . وكـان الشاهـد على عقـد زواجـي في عـام ١٩٥٨ في كنيسة مصر الجـديدة، كـما كان الشـاهد عـلى عقد زواج ولدي الأكبر المهندس أشرف في كنيسة الجيزة عام ١٩٨٥!

وهـذا الرجـل العظيم، هـو صورة مضيئـة تمثّل الفهم الحقيقي لـرسـالـة الأديان، وتمثّل سماحة الاسلام قولاً وعملاً وسلوكاً . . وقد وهب جهده الأكـبر للدعوة إلى تعاون الأديان لبناء المجتمع المثالي الـذي نرجـوه . . وكان يفـرّق بين التعصّب للدين، وهـذا واجب كل متـديّن . . والتعصّب في ظل الـدين، الذي يستغلّ الدين فقط لدعوة التعصّب . .

وكان يرى أن زوجتي هي ابنته الغالية، وكنت أرى أنني الأخ الأكبر لبناته ليـلى وعـزة ويمنى . . ولعلّني تعمّقت في فهم رسـالـة الإسـلام، بعـد معـاشرتي للبـاقوري، ولأسرتـه، ولصهره فضيلة الشيـخ عبد اللطيف دراز وكيـل الأزهـر الأسبق، وأحد أبطال ثورة ١٩١٩ . . (وهو والـد المستشار يـوسف دراز مساعـد المدعي الاشتراكي السابق) . .

وكان الباقوري في السنوات الأولى من الثـورة، يخطب في كنـائس مصر،

داعياً رائعاً، إلى الوحدة الـوطنية، ومحـاضراً ممتازاً في تـلاقي الأديان عـلى الخير والبر والفضيلة.

وتزوجت انجيل رياض في عام ١٩٥٨، وكـانت طالبـة في السنة النهـائية بكلية الصحـافـة، وتتمـرن في صحف أخبـار اليـوم.. وفي فـترة الخطبـة التي استمرت عاماً، صارحتها برأيي.. وهو أنني لا أرى خلافاً بين الأديان.. وأنني أقرأ القرآن وأتأثر به كما أقرأ الانجيل وأتأثر به.. وقد احترمت مشاعري تمامـاً، وأيدت فكري.. وقد كانت مسيحيـة متديّنـة، تداوم عـلى الصلاة في الكنيسـة وتقبل على الصوم.. وتحمل قلباً نقياً شفيفاً.

وعندما ولد ابننا الأول أشرف.. اقترحت عليها ألا تعمّده في الكنيسة كما تقضي بذلك الطقوس المسيحية، وهو غسل الطفل بعد ولادتـه بالمـاء المقدس في الهيكل.. وبذلك يصبح مسيحياً.. وقلت لها.. لقـد ولدنـا بديننـا المسيحي، ولا إرادة لنـا في الاختيـار، وكـذلـك أصـدقـاؤنـا المسلمـون.. ولـدوا بـدينهم الاسـلامي، ولا إرادة لهم في الاختيار.. ولـذلك فـإنني أريد أن نـترك أشرف، حتى يكبر.. وهو الذي يختار الـدين الذي يميـل إليه بـوجدانـه.. وأقرتني عـلى وجهـة نظري.. ثم ولـد بعده بعـام ونصف عام ابني الثـاني أمجد (مصرفي).. وتركناه أيضاً بغير تعميد..

ووصـل أشرف إلى الخامسـة من عمره.. وأمجـد إلى الثالثـة والنصف.. وكانا يسألان عندما يشاهدان قارئاً على شاشة التليفـزيون، يتلو القـرآن.. ماذا يقـول هذا الشيـخ.. وكانت إجـابتنا ـ انجيـل وأنا ـ واحـدة.. أنه يتلو كـلام الله.. تماماً مثل الكلام الذي تسمعانه في الكنيسة..

وكانا يسألان: ما الفرق؟.

وكنا نجيب: الشيخ يتحدث عن الاسلام.. والقسيس (أبـونا) يتحـدث عن المسيحية.. والكلام واحد..

ثم أصيب أشرف بمرض عضال..
وكذلك أمجد.. بما يشبه شلل الأطفال..

وهنا كانت المعركة العائلية.. أمي وأبي.. وأمها وأبوها.. جاءوا لزيارتنا

معاً. . وقالوا عن إيمان كامل، إن هذا درس وتحذير من المسيح لنا. . لأننا لم نعمّد الطفلين. .

وامتلأت زوجتي بخوف داخلي. . وكانت مرتبطة بالطفلين، بعاطفة غير عاديّة. . ورأينا منعاً للاصطدامات العائلية، مع أسرتينا. . أن نقوم بتعميد الطفلين. . في هذه السن. . وقد جرت التقاليد كما قلت أن يكون التعميد بعد أيام من الولادة. .

وتعرض ابني أشرف، في روضة الأطفال، لموقف آلمه، وأبكاه. . وجاءني يشكو. .

ـ أنت تقول أنه لا فرق بين المسيحية والاسلام. . وكلّه كلام ربّنا. .

أجبت: نعم.

قال: لقد كنت أحضر حصّة الديانة الاسلامية. . ولما اكتشفت المدرسة وجودي. . طلبت مني أن أغادر الفصل لأنني مسيحي. . وكان منظري مهيناً وأنا أترك الفصل. .

وأكّدت له أنها مخطئة. . وتوجّهت إلى المدرسة مع والدته. . وأفهمنا المدرسة، أنها سلكت سلوكاً معيباً. .

ولا بأس أن أقول أنني واجهت وأنا في سن الثامنة والعشرين. . اختباراً صعباً. . كانت مشكلتي هي البحث عن زوجة صالحة، أثق بها، وتهيىء لي السعادة التي تشجّعني على النجاح في مهنتي التي أعشقها وأعيشها ليل نهار. .

ووقع اختياري على فتاة، كانت بكل الموازين. . هي التي أرجوها لبيت الزوجية. وكنا نعرف الأسرة عائلياً. وكان والدها، الذي وصل إلى منصب الوزارة، صديقاً لوالدي. . وكانت تزورنا. . وهي صديقة لشقيقاتي. .

والمشكلة أنها مسلمة. .

ولم تكن بيننا عاطفة حب. . ولم يحدث يوماً أنني لمست يدها. . وكنت أكن لها إحتراماً كبيراً، مقتنعاً بأنها الزوجة المثالية. .

وقررت أن أشهر إسلامي، حتى نزيل العقبة الوحيدة أمام زواجنا. . فإذا كـان يجوز زواج المسلم بـالمسيحيـة، فـإن زواج المسلمـة بـالمسيحي غـير جـائـز شرعاً . .

ولكننا اتّفقنا على أن يتمّ زواجنا برضاء الأسرتين. .

وقصدنا كخطوة أولى، إلى عمها، وهـو رجل مثقف، درس في أمـريكا، وحصل على الدكتوراه. في تخصّصه. . لإقناعه أولاً . . ثم تكون الخطوة التالية، وهي والدها. . ثم والدي ووالدتي. . فقد كانت أمها متوفاة. .

وتظاهر العمّ بأنه يوافقنا تماماً على قرارنا. . ووعدنـا بالسعي لـدى شقيقه لإقناعه. .

وبدأ الخبر يتسرّب إلى الأسرتين. . واشتعلت النيران!

امتنعت أمي تمـاماً، عن الحـديث معي، في هذا المـوضوع، لأنها كـانت تعلم بعنادي. . وأن تدخّلها قد يدفعني إلى هذا الزواج، وبسرعة. .

وتركت الأمر لأبي. .

قال لي: والد فلانة. . صـديقي. . والأسرتان متحـابتان. . وفـلانة هـذه ممتازة خلقاً وتربية ويتمنّاها كل رجل. . ولكننا لا نستطيع أن نواجه المجتمع بمـا أنت مقدم عليه. . واعلم أن لـك شقيقات أربعـاً. . ومعنى هذا، أنـه لن يقدّم أحد على الزواج من أي واحدة منهن. . وأنت تعرف ماذا سيقال عنا في أسيـوط وملوى. .

وقبل أن يسمع مني أي تعليق. . قال لي:

ـ لم أجلس معك، لأناقشك، أو لأسمع منك أي تعليق. . جلست معك لأبلغك بما أستقرّ عليه رأيي.

وأخرج من جيبه «أنبوبة» بها عشرين حبة أسبرين. ثم قال:

ـ إذا تم هذا الزواج. . فـأنني سأتنـاول هذه الحبـات العشرين، وأشرب معها زجاجة كحول. . وهذا يسبب الموت المحقق. . لأنني لا أستطيع أن أواجه المجتمع. . بعد فعلتك. .

وتركني . . وبقيت صامتاً . .

ثم اتصل بي والدها الوزير . . وكان يناديني يا ابني يا حبيبي . . وكان فخوراً بنجاحي الصحفي . . وقال لي أنني أعرف كم يحبّني . . وأنني أعرف الروابط بين العائلتين . . فيا ابني لا تحرجني بتصرّف لا أستطيع أن أدافع عنه أمام مجتمع أسيوط . . وأنت تعرف التقاليد . . وأنت تعرف رأي والدك الذي اتصل بي وتفاهمنا معاً على موقف واحد . . وأملنا في رجاحة عقلك وتقديرك السليم لموقف العائلتين . . أن تتراجع عن قرارك . .

ثم قال في لهجة حزينة، والدموع تملأ عينيه:

ـ لا تكن أنت يا ولدي الحبيب، الذي يجرحني ويدميني في شيخوختي . . ويعمل لي فضيحة . .

وأجبته على الفور:

ـ عمي . . أنت تعرف الصداقة الشريفة التي تربطني بفلانة ابنتك . . وأنت تعرف احترامي لك . . ولن أكون الابن العاق الذي يسبّب هذا النوع من المشكلات للأسرتين . .

ووعدته . . بأن الموضوع انتهى تماماً . .

وأسدل الستار، على القصة، واستمرت صلتي بوالدها، كما كانت من قبل . . واستمرت صلة الأسرتين . . وتزوجت أنا . . وتزوجت هي . . والروابط النقية دائمة بين الجميع .

* * *

وأعود إلى طفولتي وصباي في أسيوط . .

اكتشفت وأنا في الخامسة من عمري . . أن لي أخوين يكبرانني . . وأنهما من أم أخرى، توفيت . . ثم تزوج والدي من أمي وهما لا يزالان طفلين . . وأنها قامت على رعايتهما . . حتى حصل الأكبر واسمه «ابراهيم» على شهادة الكفاءة . . وعينّ في وظيفة كتابية بوزارة العدل . . وتركنا إلى وظيفته، قبل أن أدرك أنه ليس شقيقي . . وكان معنا الأخ الثاني الذي حصل على شهادة

البكالوريا. . وكان يريد أن يكمل تعليمه الجامعي. .

ونشأت بيني وبينهما رابطة قوية. .

وكانا يناديان أمي بـ «يا خالتي». .

ولما سألتها: «لماذا لا يقولان لك يا ماما. . مثلي. .»؟. . أفهمتني أنهما من أم أخرى توفيت. . وأنني ابنها الأقرب إلى قلبها.

ولم أسترح لعبارتها إنني أقرب إلى قلبها. . وبعنادي أمامها، منحازاً لوالدي، في أي حوار ينشأ بينهما. . شعرت بالاقتراب أكثر وأكثر من إبراهيم وخليل. . وكانا يحبانني حباً جماً. . وكنت أعلن لهما رفضي لأية تفرقة في العائلة، أو تمييز لي، من ملبس أو مأكل. . وكانت هي سيدة مدبرة، تطبخ، وتتولى خزين المنزل من المربى والمخلل والجبن. . وكانت تخبز العيش في غرفة بسطوح العمارة التي كنا نسكنها في أسيوط. . وكانت العمارة من ثلاثة أدوار. . والسطوح به فرن، وعشش الدجاج والبط والأوز. . رغم أنها كانت ترتدي أحدث الأثواب وتفصل ملابسها لدى خياطة مشهورة في أسيوط. . وكانت تقوم بتفصيل ملابسنا جميعاً. . البيجاما لي ولأبي. . والفساتين لشقيقاتي. . وكان لديها دائماً، ما توفره وتحتفظ به في دفتر بوسته للتوفير. . كما كان لها مصاغها في يديها، عبارة عن أسورة ذهبية بشكل ثعبان. .

وكانت أمي لا تغفر لي خطأ. . وأكبر الأخطاء التي لا تغتفر، هي الكذب. .

وقد حدث أنني ركبت «موتوسيكلاً» وراء أحد الجيران الذي كان يتباهي أمامنا بشراء والده له هذا الموتوسيكل. . وكان يعرض علينا «لفة». . نركب وراءه، ونمسك به. . واعترضه «مطب» عميق، واهتز الموتوسيكل، ووقعت على الأرض ولكنني تشبثت بيدي بالرفرف، وجرني بعض الوقت فتهتكت ركبتاي وسال منهما دم غزير. . وعدت إلى البيت، ودخلت إلى الحمام مباشرة، وغسلت الجرح. . وكنت في خوف عظيم، لأن أبي وأمي حذراني، من ركوب الموتوسيكل من قبل. . وسألاني في وقت واحد:

ـ ماذا جرى. . ما هذا الدم؟. .

وأجبت: كنت ألعب جون في الكورة.
وصرخت والدتي:
- وكمان بتكذب.. الولد ده لازم يتربى..
وصرخ أبي عندما حاولت أن أعلق:
- اخرس.. احنا ربيناك أنك تكذب.. يا قليل الأدب..

وأسرع إلى دولاب أجزاخانة صغير في الحمام.. وأحضر قطناً وشاشاً وصبغة يود، وطهر الجرح، وربط الركبتين.. وبعدها أمرني غاضباً:
- ادخل في أوضة النوم..

ودخلت.. وأوقفني ملتصقاً بعمود السرير، وربطني من الصدر، والوسط، والقدمين بالسرير.. وأحضر مسطرة.. ضربني بها، على ظهري، وبطن القدمين.. أكثر من عشرين مرة.. وهو يقول:
- تحرم الكذب.. تحرم الكذب..

وتركني مربوطاً في السرير.. حتى أغمي عليّ.. وفك وثاقي.. وارتميت على السرير..
وكانت أمي تقول بصوت مرتفع غاضب وهو يضربني:
- أديله كمان.. خليه يتعلم الأدب.. ربينا وضحينا.. وبعدين يطلع كذاب.. إخص..
ولم تصدق أنه أغمي عليّ..
- وغطاني والدي بملاءة.. ورش وجهي بالكولونيا.. حتى أفقت وهو يردد:
- تحرم.. تحرم تركب موتوسيكل.. تحرم تكذب..
وقلت:
- حاضر.. خلاص حرمت..
كان العقاب أقرب إلى التعذيب..

ولكنني تعلمت ألا اكذب، مهما كان المبرر، وتعلمت أن من يكذب يستحق أكبر عقوبة، وعرفت أن أمي، قاسية في قرارها.. وأن هذا منهجها بحكم نشأتها في أسرة جبلية حادة الطباع..

من كثرة حديث أبي، عن ثورة ١٩١٩.. وهوجة عرابي.. والحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل.. قررت أن أقرأ تاريخ مصطفى كامل.. ووجدت ثلاثة كتب صغيرة في مكتبة بلدية أسيوط.. وانفعلت بحياته.. حتى أنني كنت أبكي عندما أصل إلى قصة موته في سن صغيرة.. وكنت لا أزال في الثانية عشرة من عمري أو بعد ذلك بقليل.. وألقيت محاضرة في قسم «الصبيان» عن مصطفى كامل، في جمعية الشبان المسيحية في أسيوط.

ولم يكن أبي يعترض على اشتراكي في المظاهرات الوطنية، في مدرسة أسيوط الثانوية.. وكنت أهتف في هذه المظاهرات، مع الهاتفين.. يسقط «هور ابن الطور» احتجاجاً على تصريحات لهذا السياسي البريطاني.. وكان أبي يشرح لي ما كان غامضاً على فهمي.. وكانت أمي تخشى عليّ من رصاص البوليس.. وكانت تتهم أبي بأنه يحرضني على هذا العبث.. مالناش دعوة.. أنا عاوزة الولد يتعلم ويكبر ويبعد عن الكلام الفارغ ده..

ونجحت في التوجيهية. هكذا أصبح اسم هذه الشهادة بعد أن كان البكالوريا، وأصبح الآن الثانوية العامة..

وكنت أهوى الرسم.. وأمضي العطلة في الرسم بالفحم، مقلداً الصور المطبوعة التاريخية.. وكنت أشتري الورق والأقلام من مصروفي.. وحصلت على الجائزة الأولى وأنا في العام الأخير بمدرسة أسيوط الثانوية، وكانت عن صورة لمحمد علي باشا..

وكنت في ذلك الوقت أحب فاروق، ولي العهد.. وكان يسمى أمير الصعيد.. وكانت كل الناس تحب هذا الأمير الوسيم من صوره.. وزار أسيوط مرة، ورسا بباخرته على النيل، وافتتح معرض المدرسة الثانوية.. وظلت المدينة ساهرة طوال الليل، لأنه راجت الإشاعات، أنه سيقود سيارته ويتجول في المدينة بلا حراسة..

وهربت من البيت، وتجولت في الشوارع ليلاً، لكي أرى الأمير المحبوب.. وكان ذلك بدافع من مشاعري.. فقد كنت ضائقاً، عندما كنت في المدرسة الابتدائية بالمنيا عام ١٩٣٠ ، أن قادنا ناظر المدرسة إلى محطة

المنيـا ، ووقفنا فى الشمـس الملتهبة ، وحفظـونا هتـافات لاسماعيـل صدقي بـاشا، رئيس الوزارة. . أحسست أنني أكَرّهُ على عمـل بـلا فهم. . وكنت أسمـع أبي يلعن حكم إسماعيل صدقي، ويذكر الوفد دائماً بالخير. .

ولم تمنعني هواية الرسم، التي كان يشجعني عليهـا مدرس الـرسم الاستاذ عناية الله إبراهيم، والد زميلنا الكاتب المعروف الآن راجي عنايـت. . لم تمنعني من هواية التمثيل. . ودخلت فرقة التمثيل بتشجيع والدي أيضـاً، وكان يـدربنا أحد هواة هذا الفن في أسيوط، وهـو سعد أفنـدي المحضر بالمحكمـة الكلية. . كـان صاحب مـوهبة خـارقة. . يمثـل ويخـرج. . واختـار لنـا روايـة «هـاملت» لشكسبير. . وقمت بدور هاملت. . كما قـدمت في حفلة المدرسـة بين الفصـول منولـوجاً ، لا أزال أذكره . . « يـا اخواتى أنا هتجنـن إكمن مراتـى سبور . . لما تحب تدلعنى ترمينى من رابع دور» . . .

وكان والدي يسمـح لي بالـذهاب إلى سينـما أسيوط. . مـرة كل شهـر. . ولكن في «الترسو». . والتذكرة ثمنهـا عشرة مليمات. . وعبثـاً حاولت أن أدخـل الدرجة الثانية، وثمن التذكرة خمسة وعشرون مليماً. . ولكنـه رفض. . وبهرتني أفـلام شيرلي تمبـل، معجزة السينـما الأمريكيـة الطفلة (التي أصبحت سفـيرة في عهد الرئيس كارتر والتقيت بها في البيت الأبيض في مأدبة أقامهـا كارتـر لتكريم السادات). . كما بهرتني أفلام عبد الوهاب. . وبالذات الوردة البيضاء. . وكنت أحفظ أغاني عبد الـوهاب. . ولا تـزال عالقـة بذاكـرتي حتى الآن. . وأغنيها في الحمام. . وفي حجرة نومي. . ثم سمح لي والـدي بالاشـتراك في جمعية الشبـان المسيحية في أسيوط، لأزاول النشاط الاجتماعي، وبعض الرياضة، والرحلات، والنشاط الثقافي. . وكانت تقام المناظرات في هذه الجمعية، التي يتناظر فيها كبار المحامين وكبار الأطباء والمعلمين. . وكان موضوع هذه المناظرات طريفـاً. . مثل «أيهما أجدى للمجتمع. . المحامي. . أم الطبيب». .

كل ذلك فتح أمامي آفاق معرفة وأحلام. .

كان والدي يشجع ذلـك عن عمـد. . فهذه سن البلوغ. . وكـان يخشى عليّ من الانحراف. . ولذلك وافق على كل هذه النشاطـات. . وكذلـك أمي، التي كـان ينغصهـا شيء واحـد. . وهـو أنني لست مـواظبـاً عـلى الصـلاة في

الكنيسة.. وأنني منجذب إلى القرآن..

ولكنني كنت منجذباً بمشاعري أيضاً إلى الجنس الآخر..

وقد أرسلتنى أمى ، يوماً ، لكى أبلغ رسالة إلى صديقتها ، زوجة (فلان) أفندي.. وذهبت إليها، فقالت لى : سأذهب معك إلى أمك لقد اشتقت إليها.. وكنت في العاشرة من عمري. ولم تجد حرجاً أن تخلع ملابسها أمامي، وتبدو أمامي عارية وهي ترتدي ملابس الخروج..

واختلست البصر إلى جسمها...

كانت هذه أول مرة، أرى فيها امرأة عارية..

وكان المشهد غريباً بالنسبة لي..
مجرد مشهد غريب..

ولما وصلت إلى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة.. شعرت بمظاهر البلوغ.. وكنا نجتمع.. كل أبناء الشارع في حي الحمراء بأسيوط.. ونتحدث عن هذه الأشياء.

وذات يوم كنت أنام في حجرتي.. وكانت في آخر الشقة، وزارتنا أسرة صديقة. سيدة وكريمتاها. وكانوا من القاهرة. والأم تدخن وتتزين. والبنتان يضعان المساحيق، ويرتديان أثواباً قاهرية.. وسألت الكبرى عني.. فأجابت أمي أنني في حجرتي..

وجاءت لتراني.. لعلها كانت في السادسة عشرة من عمرها..
ودخلت الحجرة.. وإذا بها ترتمي عليّ بصدرها، في هدوء، وتقبلني.. وقبلتها كما أشاهد في الأفلام.. وشعرت بلهيب في جسدي.. وتحقق لي معرفتي بمظاهر البلوغ.. ثم تركتني.. وحاولت أن استبقيها.. ولكنها عادت إلى الصالة، خشية أن يشعر أحد..

ولم نشاهد أبداً، في تلك الفترة.. أواخر الثلاثينات.. شاباً يسير مع فتاة في الطريق العام.. أو يلمس أصابعها.. وكانت لنا أسرة صديقة تسكن في ڤيلا قريبة تملكها.. وكان ولدهم، زميلي في الفصل، يذهب إلى المدرسة في

عربة حنطور. . وكنت كثيراً ما أشاركه ركوب الحنطور، وكان طوال الطريق، في شارع الخزان الرئيسي. . يترقب مرور عربة حنطور أخرى، بها طالبتان شقيقتان، يتوجهان بها إلى الكلية الأمريكية. . وإذا جاء الحنطور المرتقب. . أمر سائقه أن يسير على مهل. . لمجرد أن يطل، ويقول لهما «صباح الخير». . وكانتا تردان بابتسامة. . وكان يعيش في قصة حب خيالية. . لمجرد أنها ردت بابتسامة!. . ويروى عن أحلامه. . وأنه يريد أن يتخرج لكي يتزوجها. .

وكانت تسكن فى الدور الثانى . . سيدة يونانية فاتنة الجمال . . وكانت والدتها طبيبة أسنان ، وتوفيت وأصبحت تسكن وحدها . .

وكنت أسمع أبي وأمي يتهامسان، على سلوكها. . وأنها على علاقة بأحد الأثرياء من أسرة الهلالي الذين يملكون العمارة. . وكنت أتظاهر بأنني لا أسمع ولا أعرف شيئاً. .

وكانت لها موهبة خاصة، في قراءة الفنجان. .

وحضرت إلينا مرات معدودة. . وقرأت الفنجان لأبي الذي كان يهوى أفكار التنجيم، وتحضير الأرواح. .

وكان لا يهمني أن أسمع ما تقول عن الفنجان. . بقدر اهتمامي بالتطلع عطشاً إلى جمالها الفتان!. . حتى دعتني يوماً لكي تقرأ فنجاني. . وتصورت أنها عشقتني!. . وسرح بي الخيال. وقصدت إلى شقتها في الموعد، وأنا في أبهى ملابسى ، وأجلستنى إلى جوارها ، بعد أن لعبت على البيانو الذى كانت تجيده . . ثم حدثتني عن مستقبلي كما تراه في الفنجان. . ولا شيء أكثر!

وكنت ملتهباً. . ولم أجرؤ أن ألمس يدها. . وخرجت وهي تودعني بمودة، وتنصحني. . خللي بالك على نفسك من بنات مصر. . أنت لك مستقبل كبير. . وتركتها، لكي أسير في الطريق الطويل المؤدي إلى شاطىء النيل. . وأنا حائر الفكر. . هل عاملتني كطفل صغير. . أم أنني كنت أجبن من أن أثبت لها رجولتي!

وحتى ذلك الوقت. . وحتى حضوري إلى القاهرة في سبتمبر ١٩٣٩ ـ

لدخولي الجامعة، لم أكن أعرف كيف تكون العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة.. ولا كيف يتم الحمل والولادة.. كل شيء مجهول أمامي.. ولا أحد يرشدنا إلى هذه الحقائق في الحياة..

وهكذا كان مجتمع أسيوط في ذلك الوقت..

ولذلك كان غريباً أن أرى في مدرج الحقوق عندما دخلت الجامعة سبع طالبات! وكنا أبناء الصعيد نجتمع في ركن من المدرج، وكل أبصارنا متجهة إلى الزميلات.. ولا نسمع شيئاً من المحاضرة..

صورة جديدة علينا لم نألفها..

وكان السؤال الذي يطاردني.. كيف تكون العلاقة بين الرجل والمرأة..

ولذلك.. سعدت جداً، عندما اتفق بعض زملائي من أسيوط، الذين يكبرونني سناً، على أن يحضروا «مومساً» من منطقة «وش البركة».. التي كانت تمارس فيها الدعارة، برخص من وزارة الصحة والداخلية.. لكي نمارس معها الجنس، مقابل مبلغ صغير من المال، اقتسمناه معاً..

وكنت أسمع عن «وش البركة» لأول مرة في حياتي!

وحذرني خالي ألفى بقطر حبشي (وكان زميلي في الدراسة ويكبرني بثلاثة أعوام، وقد أصبح مستشاراً في النقض) من هذه المغامرة الخطيرة.. لأنني قد أصاب بمرض خطير.. ولكن لهفتي على التجربة، أصمت أذني عن سماع النصيحة..

وجاء دوري.. وعلمتني هذه المومس، وهي مشفقة عليّ، ضاحكة من سذاجتي، كيف يكون!

استراحت نفسي، أنني أثبت رجولتي.. وأنني عرفت..

لقد كان صغر سني (١٥ عاماً) ونحول جسدي، يسببان لي شعوراً بالنقص.. لأن كل زملائي أكبر كثيراً.. ولذلك كنت أحلق ذقني بالموسى كل يوم ثلاث أو أربع مرات لكي ينبت شاربي!.. ولذلك تعلمت التدخين.. حتى أكون رجلاً كبيراً..

ولكن الجنس بعد التجربة الأولى، استمر من المحرمات بالنسبة لي..

حاصرتني نشأتي الدينية. . وأنبت ضميري أنني ارتكبت معصية كبرى. . ولكن أجـواء الكبت التي عشنـاهـا في أسيـوط، وتحـريم الكـلام عن الجنس الآخـر. . جعلتني أشعر بسعـادة كبرى، عنـدما أسر لي زميـل في المـدرج، أنـه حصل على كتاب خطير. . «رجوع الشيخ إلى صباه». . وهو من التراث القديم الذي يروي بالأسماء والصفات، مغامـرات جنس بكل تفصيـلاتها. . وأعـطاني الكتاب. .

وبدأت أقرأه في نهم. .

وفجأة. . حضر والدي من الصعيد!

وأخفيت كل آثار السجائر. . كما أخفيت هذا الكتـاب في «الصندلـة». . وكنت أرتجف خوفاً أن يكتشف شيئاً. .

هذه الحالة. . مع تأثري بروحانيات المسيحية في تراتيل مـدرسة الأحـد، وروحانيات القـرآن في تلاوتـه التي كنت مدمنـاً على سماعها. . ثم اقـترابي من هـوايـة أبـى فى القـراءة عن الغيبيـات وتحضير الأرواح ، وأجـواء طقـوسهـا . كلهـا أنبتت في كياني، نزعة إلى التصوف والرومانسية. .

كان أبي في طفولتي، يقرأ تلالاً من الكتب الصفراء عن علم الأرواح.

وكانت سهرة الخميس، في المنيا، عندمـا كنت دون السابعـة من عمري، تجري في حجـرة الجلوس، المقفلة عـلى والـدي وأصـدقـائـه من هـواة تحضـير الأرواح. . وعايشت خيالات هذه الأجواء. . وخاصة عندما كانوا يسمحون لنا في بعض الجلسات بالحضور، ونسمع أصواتاً في الظلام. . يقولون أنها أصوات الأرواح. . ثم هـوى والدي، تحضـير الأرواح في طبق أبيض بـه مـاء. . ورأى أنني أصلح أن أكـون وسيطاً. . وكـانوا يهيئـون لـذلـك، بتـلاوات من القـرآن والإنجيل. . في حجرة خافتة الضوء. . ويسألني والدي بعد التلاوة. . هل ترى الآن شيئاً؟. . وأقول أنني أرى نقطة تتحرك. . وأذكر أنهم كانوا يريدون معرفـة أسرار اختطـاف طفـل لأسرة ثريـة . . وكـانـت عصـابات الخطـف منتشرة فى ذلـك الحـين. . ويسألـون الـروح التي يحضرونها. . إذا كـان المخـطوف في الجبـل. . فلتظهر علامة. . ويسألونني هل ترى عـلامة؟. وأذكـر أنني كنت أرى أشياء. . أو هكذا بدا لي في ذلك السكون وتلك الرهبة. .

وكل ذلك، نمى خيالي. . إلى أجواء بعيدة عن الواقع. .
وبدأت أتذوق الشعر. .
وأستمتع به، كما أنتشي بترانيم الأديان. .
ثم أشعر بالتجرد. . وأكتب معبراً عن مشاعري. .

وذات يوم. . غضبت أمي، وطلبت من أبي أن يمزق كل الكتب الصفراء، وأن يمتنع عن عقد جلسة تحضير الأرواح الأسبوعية. .

لقد استيقَظَتْ ليلاً، على أصوات في حجرة النوم، تتحدث إلى أبي الذي كان يحاورهم وهو نائم. . أو هكذا هيىء لها. . وأضاءت الأنوار. . وهي تصيح. . البيت كله عفاريت. . وَهَرَّب أبي كل كتبه، وأخفاها عند أحد أصدقائه. . وأصبحت جلسة الأرواح تعقد في منزل آخر. .

وكانت ترى أن كل ما يجري. . كفر بالله. .
وكان أبي يرى أن الأديان تعترف بالأرواح. .

وكنت أتابع هذه الحوارات بينهما. . وكانت تنهره غاضبة. . أريد أن يتربى ابني بعيداً عن أجواء العفاريت. .

ورغم المعصية الكبرى التي ارتكبتها مع «المومس». . فإن ضميري انتصر أخيراً. . وأصبحت أطلب المغفرة في صلاتي كل ليلة. . أجلس على سريري وأطفىء الأنوار وأتحدّث وحدي إلى الله. . هامساً. . أو بصوت مرتفع. .

وكانت صلاتي مركّزة في أن يعين الله والدي، على أن نكمل تعليمنا أنا وشقيقاتي. . ثم شقيقي الأصغر. .

كانت الأعباء قد تضاعفت. . وهو مصرّ على أن نتعلّم جميعاً في الجامعة. . ولم يعد مبلغ الثلاثين جنيهاً، ليكفي. .

وباعت أمي مصاغها. .

وبدأ هو يستدين بفائدة مرتفعة جداً. . وهذا ما يسمّونه بـ «الفايظ» في أسيوط، وقد اشتهرت به هذه المدينة. وكان بها رجل بالغ الثراء، وصاحب اسم كبير، قيل أنه صنع ثروته من هذا «الفايظ». .

وكنت أسافر إلى أسيوط، في عطلة نصف السنة.. وعطلة الصيف، بقطار الصعيد في الدرجة الثالثة، وأشعر بالمعاناة.. واكتشفت أن والدي لم يسدّد إيجار الشقة على مدى ٦ أشهر.. وأعرف أنه يرتدي نفس «البدلة» التي كان يرتديها منذ أربع سنوات.. ومع ذلك كان يشتري لي بدلة جديدة.. ثم ابتكر الترزية، أن البدلة تقلب.. ويعاد تفصيلها.. وهكذا «قلّب» لي أكثر من بدلة قديمة..

وفي الليسانس.. كان حذائي قد تآكل تماماً..

وكان شقيق أمي، قد توفي.. ومن بين ما ترك، حذاءً جديداً، لم يستخدمه.. وتقرّر أن أستخدم هذا الحذاء.. وجرّبته.. وكان ضيّقاً.. وقالت أمي، إن الجلد سيرتخي بالاستعمال.. ووافقت ولكنه سبّب لي أوراماً وآلاماً شديدة.. وأنا أذهب إلى الجامعة سائراً على الأقدام من شقتنا في حارة ذي اليدين في الجيزة، ثم شارع المدارس، حتى الجامعة.. وتحمّلت، لأنني كنت أعرف أن أبي أصبح عاجزاً عن شراء حذاء لي.. (كان يسكن في هذه الحارة محمود السعدنى.. والرسام طوغان)..

وعندما أصبح لي قلم.. كتبت قصة هذا الحذاء بعنوان «جزمة خالي».. وغضبت أمي.. وقالت لي: ليه بس الفضائح دي.. أنت الآن صاحب اسم مرموق..

وقال أبي.. هذا كفاحه ويجب أن يسجله.. لا عيب في حياة الانسان، ما دام يمارس الحياة في شرف..

وكانت مصاريف كلية الحقوق ٣٥ جنيهاً.. عدا أثمان الكتب والمذكرات.. وكان أبي يرسل لي كل شهر ثلاثة جنيهات.. تغطي كل مصروفاتي، في السكن، والمأكل، وشراء الكتب..

وكنت أسكن شقة بالدور الأرضي، بها حجرتان.. واحدة لي والثانية لزميلى فى السكن « بلدياتي من ملوى» .. وكان أجرها ١٢٠ قرشاً . وهو قد استحضر طباخاً من ملوى أجره ثمانون قرشاً. وكان يعيننا ما نحضره معنا، من العيش الشمسي، والبتاو والجبن والسمن..

وكانت أمي، تزوّدنا عند سفري بالدجاج والأرانب المحمّرة والقراقيش.. وهي التي تصنع كل شيء بيديها..

وكانت تكتب لي الخطابات، مع خطاب أبي، وتنصحني دائماً، أن أتجه إلى الله، وأن أصلي في الكنيسة.. الصلاة في المنزل لا تصلح.. الكنيسة هي بيت الله.. والصلاة يجب أن تكون في بيت الله، وتستشهد على ذلك بآيات من الانجيل..

وتقدمت بطلب لكي أحصل على المجانية.. ورفض هذا الطلب على مدى السنوات، رغم أن والدي كان يقدم ما أصطلح عليه بشهادة الفقر..

وكان يصيبني ألم عظيم.. عندما أذهب إلى سكرتير العميد، لكي أسأله عن مصير طلبي.. وكان الرد في غلظة.. مرفوض!

وكان لنا زملاء في الدراسة، يحضرون إلى الكلية في سيارات كبيرة، ولها سائق.. ويدخنون السجائر الغالية (Craven- A).. وكانوا يرتدون أغلى الثياب.. وكنا نسمع أنهم حصلوا على المجانية.. لأنهم أبناء رجال لهم شأنهم في البلد..

وهكذا استشعرت الظلم الاجتماعي..

ولكنني لم أشعر بالحقد.

نمى في ذلك إيمان بأن الحياة كفاح.. وأن عليّ أن أنحت الصخر، لكي أثبت وجودي، بكفاءتي وتفوّقي..

وفي هذه المعاني، التقيت مع عبد الرحمن الشرقاوي.. وكان شاعر الحقوق.. ولم يكن يعاني، عنتاً مادياً.. وأصبحنا نشاركه علبة «السجائر الكرافن».. وتوثّقت الصلة، لما جمعنا حب الفن والأدب.. وكنا نتبادل كتب طه حسين والعقّاد والحكيم، ونعقد حلقات المناقشة حولها.. وانضممنا إلى فريق التمثيل بالكلية.. وعشقنا حياة المسرح، والبروفات، وأجواء الاخراج.. مثلنا رواية «فاطمة الزهراء».. وقامت بالبطولة الهاوية حينئذٍ «أمال زايد».. وكان خطيبها الضابط يحضر معها البروفات.. ومثلنا رواية «شايلوك».. وأخرجها زكي طليمات.. وكتب لنا الشرقاوي مسرحية شعرية من فصل

واحد.. عن طالب يعاني في المذاكرة.. وتدخل عليه فتاة تعبّر عن أنها القانون الدولي.. وتحاوره.. ثم أخرى تعبّر أنها قانون المرافعات.. وهكذا.. ومثلت دور هذا الطالب.. وجاءت أول فتاة تقول:

أنا الدولي.. أنا الدولي
يخاف الناس من وصلي..
ولست بصعبة النيل..
وأرد عليها بشعر لا أذكره الآن..
وتدخل ممثلة قانون المرافعات.. وتنشد:
أنا التنفيذ يا هاجر
ألست على بالقادر.

كما مثلنا إحدى روايات الريحاني.. ولعلها محكمة الخطر برياسة «كشكش بيه».. من تأليف بديع خيري..

وكانت البروفات تجري في مسرح الأزبكية.. المسرح القومي الآن..

وعندما تنتهي البروفات، كنا نذهب إلى مطعم صغير للفول والطعمية والبيض والجبن.. ونتناول عشاءنا.. وأذكر أن طبق الجبن الرومي المقلية في الزبدة، كان ثمنه ٢٥ مليماً (قرشان ونصف) وهو أغلى طبق.. ويقع هذا المطعم خلف دار الأوبرا.. وهناك التقينا بالنجوم الصاعدة حينئذٍ.. أنور وجدي ويحيى شاهين وفنانات أذكر منهن وداد حمدي.. كان مرتب أنور وجدي ويحيى شاهين سبعة جنيهات..

وفي هذه الأجواء.. أجواء الشعر والأدب.. والمسرح.. نما الوجدان الفني في كياني.. وأصبحت متّصلاً بأسرة الفن، عندما عملت بالصحافة.. وقرأت في تاريخ المسرح والنقد وترجمت سير كتاب القرن التاسع عشر العالمية.. فلوبير.. وكنزى.. أو سكاروايلد.. والأمريكى الساخر.. مارك توين.

ومع أن الجنيهات الثلاثة كانت أقل من أن تفي بحاجاتي اليومية.. إلا أنني كنت أوفّر عشرة قروش لكي أشاهد مسرح يوسف وهبي في شارع عماد الدين مرّة كل شهر.. وسعيت إلى التعرف إلى فاخر محمد فاخر ومحمود المليجي

وعلوية جميل. . . ثم عرفت فاطمة رشدي وسيد بدير. . وسعيت في مرحلة قصيرة بعد تخرجي في عام ١٩٤٣ أن أحترف التمثيل! . . ونصحني المخرج إبراهيم عمارة أن أبتعد تماماً عن هذا الميدان. .

* * *

وكان يمكن في ليسانس الحقوق أن أتحول إلى قاتل!

كانت المصروفات قد تراكمت من سنوات سابقة.. فقد قبل العميد الدكتور محمد صالح (أستاذ القانون التجاري) ومن بعده الأستاذ علي بدوي (أستاذ القانون الجنائي) أن يقسطا المصروفات على والدي. . كل شهر خمسة جنيهات. . ولكن في السنة الأخيرة كان هناك متأخر من السنوات السابقة، وكان يسمح لي بالامتحان رغم المتأخرات. . ولكن العميد الجديد في السنة النهائية، أصرّ على حرماني من الامتحان إذا لم أسدد مصروفات السنة، ثم المتأخرات. . وأرسلوا لي إنذاراً بالحرمان من الامتحان. وشعرت بمعاناة قاسية. .

لم أكن أنام الليل. . وأنا أعرف ظروف والدي. . لقد استدان واستدان. . وتضخمت فوائد «الفايظ». . بل أنه اضطر أن يرهن دبلة زواجه مقابل الحصول على جنيهين! . . إلى هذا وصل الحال. .

والعجيب أن أبي الذي وصفته في مقالات عديدة. . بأنه «قديس». . ولا أزال. . كان ينام مستريح الخاطر، بعد أن يصلي بكلمات قصيرة. .

كان ممتلئاً إيمانا بالله . . وبأنها ستفرج!

وكانت أمي تعجب. . كيف أنه يستطيع النوم. . وهي قلقة طوال الليل. . لا ترى بصيصاً من نور. .

كان يهوي شراء أوراق «اليانصيب». . كانت الورقة بقرش واحد. . وكان يشتري ورقة كل يوم أو أكثر. . وكان مؤمناً أنه سيكسب «البريمو». . كما كان يقال في ذلك الوقت. .

وقبيل الامتحان بأيام. .

جاءتني برقية من أبي «اطمئن. . أرسلت المصروفات بحوالة تلغـرافية إلى العميد. . والتفاصيل بالبريد»!.

لقد كسب البريمـو. مائتي جنيـه. سددت جميـع ديونـه، حتى آخر مليم، بعد خصم الضرائب، وإكرامية من باع له الورقة!

شعرت أنها معجزة. .
وتضاعف إيماني بالله. . وعمقت مشاعري الدينية. .
ولكنني أصبت بارتباك ذهني مدمّر. .
خشيت أن أرسب في الامتحانات ، رغم أنى كنت أتابع المذاكرة بهمة كبرى. .

مرحلة القلق على المصير، قبل المعجـزة، هيأت لي أنني نسيت كـل حرف قرأته. . وكنت أصلّي لكي أستعيد ثقتي بنفسي. .

وذهبت إلى امتحان الشفهي في مادة القانون الدولي. . وكان الممتحن هـو الأستاذ الدكتور حامد زكي (الوزيـر الوفـدي بعد ذلـك). . وصارحتـه بأنني في حـالة نفسيـة بدّدت كـل ما في ذهني من معلومـات. . وطلب مني بكل مشـاعر الأبـوة، أن أجلس في ركن الغرفـة، وأعطاني صحيفـة «المقطم» المسـائية، لكي أقرأها حتى أستريح. . وعدت إليه بعـد وقت. . ووجّه لي سؤالاً. . وأجبت. . وشجعني. . أنت ممتاز. . لماذا كنت مرتبكاً. .

وهكذا . . نجحت بتفوّق فى ليسانس الحقـوق عام ١٩٤٣ . . وكانت الدفعة كلها من سبعين طالباً . . على ما أذكر . ومن زملاء الدفعة المستشار ممدوح عطية وزير العدل الأسبق ، والمستشار فاروق سيف النصر وزير العدل الحالي ، وأحمد فؤاد رئيس بنك مصر السابق ، والمستشار محمود كيرة رئيس النقض الأسبق. وسعد فخرى عبد النور وعلى الشلقانى المحاميان الشهيران . . وأحمد خليفة وزير الشئون الاجتماعية الأسبق . . وغيرهم .

وتغيّر مصيري. . ولم أصبح قاتلاً؟!
ولكن كيف. .

كنت قد قررت، بعد أن سدّت أمـامنا كـل الأبواب. . وبعـد أن فقدت الأمل في دخولي الامتحان تماماً. . أن أسعى للحصول على مسدس. . من أحد

أبناء الصعيد من عائلة «القرشية».. وأن أتدرّب على إطلاق الرصاص.. وأن أقتحم حجرة العميد.. وأطلق عليه كل ما في المسدس من رصاصات.. ثم أعلن أنني قتلت العميد، لأنه رجل ظالم، وحرمني من الامتحان.. بسبب فقري!

كانت فكرة خيالية، مستحيلة التحقيق بطبيعة الحال.. فأنني لا أستطيع وحتى اليوم، أن أشهد دجاجة تذبح.. بل كثيراً ما اتجه باقتناعي، إلى فلسفة النباتيين، وأرى من الوحشية أن نأكل اللحوم المذبوحة.. رغم أن الأديان حلّلت ذلك..

ولكن.. الشعور بالظلم، يمكن أن يدفع الانسان إلى الجريمة..

ولذلك، فإني أعذر الشباب الذي يعاني في حياته.. ويتجه إلى التطرف.. وأرى أن مشكلة التطرف، في أعماقها، مشكلة اجتماعية أولاً وأخيراً..

وبمشاعر التحدي لأي خلل بالعدالة.. تظاهرت مع عبد الرحمن الشرقاوي وسعد كامل وآخرين، دفاعاً عن العميد علي بدوي.. عندما عزلته حكومة الوفد من منصب العميد، ونقلته إلى جامعة الاسكندرية، لأنه رفض استثناء أبناء أقطاب الوفد الأثرياء، من الشروط التي وضعها للقبول في الحقوق.. وأعلن أنه إذا استثنى طالباً واحداً، فيجب أن يطبق الاستثناء على المئات.. وهذا ما لا تتسع له الكلية.. واعتقلنا، وحقّقت معنا النيابة العسكرية.. وكان هناك أمر عسكري يقضي بعقوبة الفصل من الجامعة، والحبس، إذا ما تجمهر أكثر من ثلاثة طلاب معاً!.. ثم أفرج عنّا بعد وقت قصير..

وبمشاعر التحدي للفساد والظلم الاجتماعي.. كنت من شباب الوفد.. وكان يتزعم طلبة الحقوق.. حافظ شيحا..

واختار عبد الرحمن الشرقاوي أن يكون من دعاة الحزب الوطني..

ثم تجمعنا معاً، ضد الوفد، عندما بدأت تظهر قضايا الفساد التي أثارها مكرم عبيد باشا..

واشتركنا معاً في مظاهرات عديدة..

وسيطرت علينا جميعاً.. قضية الاستقلال الكامل.. وجلاء الاستعمار لبريطاني عن مصر..

وحدث في عطلتي الصيفية، في عام ١٩٤٠.. وكنت أسير في أحد شوارع أسيوط، أن رأيت جندياً بريطانياً مخموراً، يركب عربة حنطور.. وفقد الجندي وعيه، وأهان العربجي الذي كان يضع طربوشاً فوق رأسه.. وضرب الطربوش بيده وهو يقهقه.. ثم رمى الطربوش على الأرض.. وهيأت له حالة السكر، أن ينزل من الحنطور، ويدوس الطربوش بقدميه..

وهنا تصدّيت له في عنف، رغم نحول جسدي وأنا في السادسة عشرة من عمري.. وصرخت بالانجليزية.. أنت تهين رمز المصرية.. وسبّني.. فسبّيته.. وتجمّع الناس، وحرّضتهم عليه.. واشتركنا جميعاً في ضربه.. وأخذناه إلى قسم البوليس.. وهنا حضر جنود بريطانيون، من شرطتهم العسكرية.. فقد كانوا يعسكرون في منقباد القريبة من أسيوط.. وكانت لهم شرطة تتجول في المدينة للرقابة على جنودهم عندما ينزلون أسيوط.. وكان يرأسهم رجل عاقل.. وفض الناس، وقبض على الجندي المخمور، وأبعده في سيارة عسكرية اختفت به.. ولما رآني الوحيد الذي يتحدّث الانجليزية، ويتكلّم في عصبية شديدة.. دعاني بذوق، إلى أن أشرب معه فنجاناً من الشاي، في فندق «سافوي» القريب من القسم.. وجلست معه في بهو الفندق.. وقال لي أنه يقدر مشاعري، ويحترم الطربوش، الذي يرمز لمصر.. وأن الجندي سيعاقب أشد العقاب..

وفي القاهرة.. كنا نشاهد المناظر المؤذية لكل مشاعرنا.. الترام آخر الليل، مليء بالجنود المخمورين.. استراليين ومن كل دول الكومنولث.. وكثيراً ما كانت تثور معارك في البارات، ومحلات القهوة الكبيرة في شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن).. مثل «الأمريكين» وغيرها.. وكنا نرى جنود الاحتلال فى كل مكان.. ورأينا لأول مرة المجندات.. وكان مركزهن في القاهرة، في ثكنات قصر النيل (مقر الجامعة العربية الآن).. وفي القلعة.. ولهن مكاتب في عمارات سيف الدين الكبيرة بشارع قصر العينى.

كانت هذه الرؤى، تثير مشاعرنا المصرية. . وتضاعف من إيمـاننا بقضيـة الجلاء والاستقلال الكامل. .

كما كانت محاضرات عدد من أسـاتذة الحقـوق. . أمثال الأستـاذ الدكتـور وحيـد رأفت، والأستـاذ محمـد العشـماوي (بـاشـا) والأستـاذ الـدكتـور زكي عبد المتعال. . وفضيلة الشيخ عبد الـوهاب خـلاف. . والأستاذ الـدكتور وديـع فرج. . وغيرهم. . تمزج دائماً، بين العلم والواقع الوطني. . داعية إلى الطهارة الوطنية، وتحرير مصر من كل آثار الاستعمار. .

زكي عبـد المتعال هـو أول من نبهنـا إلى شراء الانجليـز للقـطن المصري بأرخص الأسعار، وبيعه لنا مصنعاً بأغلى الأسعار. .

وحيد رأفت كان داعيا للديمقراطية البرلمانية. .

العشماوي كان يحذر من مفاسد الأحزاب.

الشيخ خلاف. . بكل وقاره، يدعو إلى العدلِ الاجتماعي. . ويذكرنا دائماً ببيت من الشعر. . .

ولأمـــر مـــا وسر غـــامض قـد تسعد النـطفـة أو يشقى الجنـين
فولـيـــد تـســـجـــد الـــدنيـــا لـــه ووليـــد في زوايـــا الْمُهْـمَـلِيـن. .

وكان يسخر من الشباب العابث، ويدعونا إلى القيم النبيلة. .

شـبـــاب خـنـــع لا خـــير فـــيـهـــم وبـــورك في الشبـاب الـطامحينـــا. .

وكنا نسعى دائماً إلى مدرجات كلية الآداب. . لسماع محـاضرات الأستاذ الدكتور طه حسين. .

وهكـذا تولّـدت فينـا قيم الـطهـر، والالتـزام بـالمبـدأ، وسلوك الفضيلة، والانتماء إلى الوطن. .

وبعـد أن تخرجنـا. . أصبحنا نتمنى أن يكـون لنا، أصغـر موقـع في أيـة صحيفة. . وكنت أجوب شوارع القاهرة، ليلاً، مـع عبد الـرحمن الشرقاوي. . ونحن نردد. . سوف نحفر الصخور بأظافرنا. . حتى تكون لنا كلمة. .

ثم كان اعتقالي، بعد التخرج.. وبعد أن صدر قرار بتعييني في وظيفة معاون نيابة.. بمساعدة الأستاذ الدكتور طه حسين.. وكان يوم اعتقالي، هو اليوم المحدد لي أن أؤدي القسم القانوني أمام النائب العام..

وكان والدي قد حضر من أسيوط، ليشهد أسعد مناسبة في حياته.. لقد تحقق حلمه، هاهي ذي ثمرات تضحياته الكبرى..

ومع ذلك.. فقد قال لي وهم يصحبونني إلى ما وراء الأسوار..

ـ ولا يهمك.. ما دمت مؤمناً بما فعلت..

وكان ما فعلته هو التظاهر في الجامعة ضد فساد الحكم...

وهو توزيع الكتاب الأسود الذي طبعه مكرم عبيد سراً، وحوى كل فضائح فساد الحكم الوفدي..

أما أمي.. فقد بكيت طويلاً.. وزارتني في المعتقل باكية، متوسلة لي أن أكتب تعهداً بعدم الاشتغال بالسياسة.. كما كان مطلوباً للإفراج عنى ورفضت.

وكانت رسائلها لي في المعتقل، قطعاً من الأدب الرفيع.. وكلها استشهاد أيضاً بآيات الإنجيل..

وكان عبد الرحمن الشرقاوي، وكل أسرته.. هم سندي في القاهرة، خلال اعتقالي..

وقرأت في المعتقل تاريخ مصر.. من مكتبة الأستاذ محمد صبيح في المعتقل.. وكان من زعماء مصر الفتاة..

وقرأت كثيراً في التاريخ الإسلامي.. من مكتبة الأستاذ الباقوري.. وتضاعف تشبثي بطهارة القول والعمل.. والانتماء إلى تراب مصر..

وكنت أنشد مع شباب مصر الفتاة:

يا ظلام السجن خيم...
اننا نهوى الظلاما..
ليس بعد الليل إلا..
فجر مجد يتسامى..

وخرجت إلى الحرية بعد عام كامل..

وعملت بالصحافة.. مستقلاً عن الأحزاب التي فقدت فيها كل أمل للخلاص.. وعمل الشرقاوي، فترة في إدارة التحقيقات بوزارة المعارف مع أحمد بهاء الدين وفتحي غانم.. ثم تفرغ للصحافة والأدب.. بعد أن اتجه إلى الفكر الماركسي..

وتضاعف مرتبي في سنوات قليلة..

وأصبحت قادراً على مساعدة والدي، الذي انتقل إلى القاهرة.. ودخلت شقيقاتي كليات الآداب والحقوق والتجارة.. ودخل شقيقي الأصغر كلية الزراعة..

وعملوا جميعاً بعد التخرج..

وتجمعنا حول أمّنا في مرضها..

وكنت لا أزال أعيش قصة حب عذرية بدأت في عامي الثالث بكلية الحقوق..

بعد رذيلة المعصية مع المومس.. اتجهت إلى أن أتطهر..

وانجذبت إلى فتاة كانت تحضر بروفات جمعية التمثيل مع آمال زايد.. وروت لي قصة حياتها.. فهي ضحية مجتمع ظالم.. وتقمصت دور المنقذ لها بكل الإيمان والطهارة.. ولم أكن لأستطيع حتى أن ألمس يدها.. كان ذلك بالنسبة لي إثماً كبيراً.

ولم أكن أعلم، أنها على علاقة بزميل لنا في الفرقة.. علاقة ساقطة بكل ما في الخطيئة من آثام..

ولم أكن أقبل، أن أسمع هذه الحقيقة المؤلمة.. فهي الملاك النقي الطاهر في عيني ووجداني، وحسي وشعوري..

وفجر في هذا الحب طاقات الإبداع في الكتابة إليها.. والكتابة عنها.. وكدت أنصرف عن متابعة المحاضرات.. وأنقذني كل من عبد الرحمن الشرقاوي والدكتور محمد زكي شافعي (وزير الاقتصاد في السبعينات).. واستطاعا أن يدبرا لي، ما أشهده بعيني.. لأعرف أنني أعيش في وهم

طهارة.. وكانت صدمة قاصمة.. ولكنني أمضيت عام اعتقالي، وأنا مثقل بالذكريات.. حتى استطعت أن أنسى!

* * *

واستمر والدي.. هو الرائد والمنار لي في كل خطوات حياته..

واستلهمت منه القدرة الخارقة على التضحية من أجل الغير.. ولكنني لم أصل إلى بعض قليل من قدرته.. وكثيراً ما يدفعني موقف إلى عطاء.. وأتردد في بذل هذا العطاء، بدافع أنانية أو حب للذات أكثر. ثم أذكر والدي، فأقدم على العطاء..

علمتني مشاهد أصحاب الديون، وهم يطرقون باب شقتنا في أسيوط.. وخاصة أجر الشقة الذي كان يتأخر سداده شهوراً طويلة.. علمتني هذه المشاهد، ألا أستدين أبداً، مهما كانت الظروف.. مع تقديري أن ديون أبي كانت من أجلنا..

* * *
* * *

.. بكل هذه المؤثرات، في بنائي وتكويني.. طرقت أبواب العمل الصحفي.

آمال كلها طهر، تطلعات إلى غد مضيء كلها أمل.

وبدأت تجربتي مع كل الأحزاب. كنت أحضر الاجتماعات العامة. كنت أسعى إلى لقاء القادة والزعماء. وتوغلت في العمل الصحفي، وفي استكشاف الساحة السياسية، لأفاجأ بفساد وعفن. مصروفات سرية. كلمات وأخبار يختفي وراءها مطمع. رؤوس أموال تسيطر على الإعلانات. صراعات ومناورات ومؤامرات من أجل الوصول إلى الحكم. سيطرة على مقدرات البلاد من القصر الملكي والسفارة البريطانية. شرارات توهج وطني من حزب مصر الفتاة. اتهامات متبادلة لا نهاية لها.

وجاهدت النفس، أن أقتحم هذه الغابة، وأنا متمسك بقيم الطهارة، وشجاعة الموقف، ونزاهة القصد.. وكلها قيم تشبعت بها، من سلوك أبي،

وفلسفته في الحياة.. وعرفت أن الصحفي يعاني طويلاً لينتقل من صناعة الخبر الصحفي، إلى كتابة مقال الرأي... وكان صدري يغلي بتمرد على كل الأوضاع.. حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو، تعبيراً صادقاً عما أحسه كمواطن من الملايين المفترى عليهم، الذين يعانون الفقر والحرمان والحياة القاسية..

وكنت من غلاة المتحمسين لثورة ٢٣ يوليو.. ثم وضعتنى الثورة، فى خندق الخصوم، عندما دخلت الانتخابات البرلمانية فى فى عام ١٩٥٧ ضد مجدى حسنين أحد نجوم الثورة.. ووضعت فى القائمة السوداء بلا مبرر، لأننى كنت ضد الفساد، ولم أكن ضد الثورة.. وتسببت لى هذه الخصومة، فى الوقف عن العمل، وعزلى من رياسة تحرير الأخبار أكثر من مرة.. ولكن مرتبى لم ينقطع عنى، ولم أتعرض لقبض أو اعتقال.. وتحمست للمبادىء الاشتراكية فى الستينات، وقرأت الكثير عنها، وخاصمت الشيوعية، والتطرف الدينى، والعنف.

لم أنقطع عن العمل الفني في الصحافة وهو «إخراج» الصحيفة.. كما لم أنقطع عن العمل السياسي، بالتحقيق الصحفي، والخبر، ثم مقال الرأي.. واقتربت كثيراً من مؤسسة الرياسة في عهد السادات، ثم عهد حسني مبارك.. وفي غمار كل ذلك، لم أبتعد عن هواياتي الأدبية والفنية، في كتابة القصة القصيرة والرواية الطويلة، والخواطر الرومانسية.. وكنت ـ ولا أزال ـ صاحب وجود في الدائرة الفنية.. وهكذا نشأت لي روابط عديدة وعميقة، مع أهل المسرح والسينما، ودنيا الطرب والموسيقى، ونجوم الإذاعة والتليفزيون.. ودفعني هذا التواجد إلى علاقات عاطفية، أسعدتني وأشقتني.. وصقلت خبرتي بالحياة والناس. وقد عبرت عن كل ذلك، بالكلمة.. ولم تكن حياتي الخاصة مغلفة بالأستار.. وسبب لي ذلك كثيراً من القيل والقال.. وتعرضت لحملات شرسة أرادت أن تشوّه صورتي، باختلاق الأكاذيب عن حياتي الخاصة.. ولكن ذلك كله، لم يؤثّر في احترام الجميع لسلوكي الصحفي. وأحمد الله، أنني استطعت أن أقوى على ضعفي البشري أمام كثير من المغريات.. ونشأ أبنائي الثلاثة، فخورين، بأن أحداً، لم يستطع أن يمس أباهم، في غمار الصراعات السياسية، في نزاهته أو طهارة قلمه..

* * *

وأحسب أنني في هـذه السطور، استـطعت أن أقدم نفسي، لقـارىء هذا الكتاب. . بصورة واقعية، بعيداً عن الزهـو والتعـالي والادّعاء. . وليس منـا، من هو بريء من ضعف الإنسان، وأخطاء الإنسان. . ولكن المهم ـ أن نحاول دائماً ـ أن نرتفع إلى مستوى المسئولية. . مسئولية الإنسان نحو أسرته الصغيرة، ونحو مجتمعه الكبير. . ونحو رسالته في الحياة.

ولسنا ملائكة.
ولسنا نعيش في الجنة.
كلنا خاض ويخوض صراع الخير والشر.
ولا أحد يزعم أن حياته خير مطلق. .
ولا أحد يريد لحياته أن تكون شراً مطلقاً. .

وفي هذه الحلبة، المستمرة استمرار الحيـاة، قد ننتصر عـلى غيرنـا، وننهزم أمام أنفسنا. . وقد ننهزم أمام غيرنا، منتصرين على أنفسنا. .

وهكذا تدور الأيام. . إلى أن تحين السـاعة المحتـومة. وهي آتيـة لا ريب فيها.

الحقيبة.. والمسافر.. والقطار!

تضخمت الحقيبة. انتفخت. لم تعد تتسع لكل منا يحمله المسافر. أصبحت حقائب عديدة. أرهقه أن يحملها وحده في هذا القطار. قطار الصحافة الذي لم يتوقف عن المضي إلى الأمام.. ولو بغير قضبان!.. إنه يقف قليلاً أو طويلاً في بعض المحطات، ولكنه يستأنف السير.. بطيئاً متأنياً، أو سريعاً مندفعاً. لصوص كثيرون هاجموا القطار. حاولوا أن يحطموه. القطار صامد. وعجلاته الحديدية الصلبة تطوي الطريق الصعب..

وهكذا ركب قطار الصحافة من المحطة الأولى، ذات يوم منذ ٤٧ عاماً. ووقفت على الرصيف قرابة عام، حتى استطعت الحصول على «تذكرة» في الدرجة الثالثة.. وقفزت إلى مقعدي، سعيداً، عامر القلب بالأمال.. انني سأرى العالم السحري الجديد، الذي ينقلني إليه القطار. وكنت أقول لنفسي، وأنا في نشوة ركوب القطار.. وداعاً لعربة الكارو.. وعربة الحنطور.. والموتوسيكل.. التي حاولت أن أتشعلق بها لأرى العالم السحري من بعيد.. أصبحت الآن راكباً، وبتذكرة أنظر من النافذة، وأتجول في عربات القطار، وأشاهد المحطات، وأتحدث مع زملائي وزميلاتي، المسافرين والمسافرات مثلي..

ولم أترك مقعدي في هذا القطار العجيب.. يوماً واحداً!

لم أنزل في محطة فرعية، لكي أستقل قطاراً آخر..

لم أعد أعطى لنفسى فرصة لكى أستريح من مشقة الرحلة الطويلة، التي اقتربت من نصف قرن من الزمان.. ولا يزال القطار مندفعاً إلى محطة مجهولة

ليست على أي حدود. . ولا أزال مستمتعاً بالرحلة. . بعد أن تغير مقعدي، إلى عربة الدرجة الثانية. . ثم عربة الدرجة الأولى، المكيفة الهواء. .

الرحلة طويلة . . نعم . وبلا منتهى . ولكنها ممتعة !

المحطة الأخيرة لا وجود لها في هذه الرحلة. نعم. إنها محطة نهاية العمر. . ولكن لا حياة لي إلا في هذا القطار!

وهأنذا. وبعد أن شاب مني الشعر والقلب، أنتحي ركناً من القطار، لكي أفرز ما ثقلت به الحقائب. . وأعرضها في سطور كتابي.

البعض يهوى مثلي هذه الرحلة. . ولعله يستمتع بذكريات المسافر. .

والبعض يبهره هذا القطار من بعيد، ويريد أن يعرف حكايات المسافرين به. . وأنا واحد منهم. . أروي له بعضاً مما عشته وعانيته في الرحلة الطويلة. . والبعض لا يزال على الرصيف ينتظر تذكرة. .

والبعض استطاع أن يقفز إلى عربة من القطار قبل أن يتحرك. .

هذا البعض. . وهذا البعض. . لعله يريد أن يعرف شيئاً من أسرار الرحلة التي يبدأ مشوارها. . من رواية مسافر قديم. .

ومن أجل هؤلاء جميعاً. . أقنعت نفسي، أن أقدم هذه السطور عن رحلتي التي لم تتم فصولا!

* * *

حقائبي عديدة. . مختلفة الألوان والأشكال والأحجام. . ومنها ما تآكل جلده. . وتمزق رباطه. . وتبعثرت محتوياته. . ومنها ما حمل ملابس قديمة لم تعد صالحة للاستعمال، ولكنها تمثل ذكريات عزيزة وغالية. ومنها ما يحفظ أمانات التزمت بالمحافظة عليها، وعدم التفريط في سريتها. .

ولم يكن أمامي أن أنتقي ما أعرض منها قبل الآخر. . كلها عن رحلات متصلة ، وأحداث متداخلة ، لأن الرحلة الطويلة واحدة . . وهكذا لم أستطع أن أقدمها بترتيب زمني. . أو تبويب أكاديمي. . وعرضت البضاعة كلها على مائدة

واحـدة. . وللمتفرج أن يختـار ما يتفحصـه إذا أعجبه. . أو يعـرض عنها. . أو ينقل بصره بينها. . وكلها من «حقيبة مسافر ٥٠ عاماً في قطار الصحافة». .

* * *

الرحلة بدأت من أوائل الأربعينات. .

وهكذا عشت الصحافة قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وعرفت أن صحافتنا خضعت للرقابة الحكومية الصارمة، قبل الأربعينات وبعدها. . ولم ترفع الرقابة إلا في أوائل عام ١٩٥٠، عنـدما تـولّى حزب الـوفد الحكم. . وفي ٢٦ يناير ١٩٥٢، احترقت القاهـرة بالنـيران، وفرضت الأحكـام العرفية، وعادت الرقابة على الصحف. .

وفي ظـل صحافـة بلا رقـابة خـلال العامـين ١٩٥٠ و١٩٥١. . كـانت حكومة الـوفد تصـادر الصحف المعارضـة. وتقدم الصحفيـين للنيابـة العامـة، وتغلق صحيفـة الحـزب الاشـتراكي (بـزعـامـة أحمـد حسـين) بقـرار من مجلس الوزراء. .

وفي ظل صحافة بلا رقابة، سيرت حكومة حزب الـوفـد المظاهرات من أنصارها لكي تهاجم دار «أخبار اليوم» وتحطم زجاج جدرانها، وتجـري المعركـة بين المعتدين. . وبين عمال ومحرري الدار الذيـن هبوا للدفاع. . ويسقط قتيـل. وفي ظـل صحافـة بـلا رقـابـة، كـانت الحكـومـة تفـرض سلطانها عـلى بـائعي الصحف، وتمنعهم من أن يحملوا صحف أخبار اليوم. .

ولكنني تعلمت الكثير في سنـواتي الأولى، وأنـا أعمـل في مجلة صغـيرة محدودة الانتشار اسمها «بلادي» أصدرها الحـزب السعدي، وكان في الحكم عام ١٩٤٤. عرفت أن الحكومات تدفع مصروفات سريـة لبعض الصحف، ولعدد من الصحفيين. .

وعرفت أن بعض أصحاب الصحف، يتاجرون في بيـع ورق الطبـاعة في السـوق السوداء. . كـانت هناك «كـوتة» من الـورق مخصصة لكـل صحيفة. . وكان الفرق بـين السعر الـرسمي، وسعر السـوق السوداء كبـيراً. . وقد أثـرى بعض أصحاب الصحف من هذه التجارة!

وعرفت بعد ذلك في «سنة أخرى» سطوة الاعلانات على تحرير الصحف. .

كانت شركة قناة السويس، تخصص مبالغ سنوية تصرف لعدد من أصحاب الصحف. . وفي مقابل ذلك، لا تنشر شكوى ضد شركة القناة. . وتكتب الموضوعات الإعلانية التي تساند الشركة. .

وكان المليونير أحمد عبود باشا، على خلاف مع حكومات متعاقبة على دفع الضرائب المقررة على شركاته ومصانعه. . الحكومات التي يناصبها العداء، تطالبه بالضرائب وتشن الحملات الصحفية ضده. . والحكومات التي على وفاق معه. . والتي يخدمها بنفوذه السياسي لدى السفارة البريطانية، تغمض العين عن مطالبته بالضرائب المستحقة عليه، وهي بالملايين.

وراجت قبيل الثورة، قصة المليون جنيه التي تفاوض على أن يدفعها للملك فاروق، مقابل إعادة حكومة الوفد إلى الحكم!

وعرفت في أول عهدي بالصحافة، أن غالبية المشتغلين بالعمل الصحفي، لا يحملون أية مؤهلات عالية. .

وكان هدف جلال الحمامصي، عندما رأس تحرير جريدة «الزمان» المسائية التي أصدرها ادجار جلاد (باشا) في عام ١٩٤٧ أن تكون أسرة التحرير من خريجي الجامعة. . وحقّق هذا الهدف في معظم العاملين بالزمان. . ودخل الصحافة حسين فهمي وعلي حمدي الجمال، وزكريا لطفي جمعة، ومحمد عبد النبي، وعصمت عبد الجواد وجميلة كامل. . وغيرهم. .

وتابعت في سنواتي الأولى بقطار الصحافة، صراعات سياسية قاسية، ظهرت في الصحف الحزبية. . كان أبرزها الحملات المستمرة ضد مصطفى أمين وعلي أمين. . وتوجيه أبشع الاتهامات إليهما. . وقد التزما بمبدأ ألا يردا على أي هجوم عليهما. . كانا مؤمنين بأن النجاح واستمراره هو الرد المفحم.

وكانت الصحافة في غالبيتها الضخمة، من حيث الحجم ورؤوس الأموال، في ملكية روّاد لبنانيين أو متمصرين. . الأهرام، وصحف دار الهلال (المصور والاثنين ـ الهلال ـ اللطائف المصورة). . وكان يملك «المصري»

مصريون. . ثم كانت «أخبار اليوم» في نوفمبر عام ١٩٤٤ فتحاً مصرياً لصحافة حديثة، ومدرسة جديدة في الصحافة. .

وفي هذه المرحلة من أوائل الأربعينات حتى قيام ثور ٢٣ يوليو. . كنت شاباً حائراً، مثل غيري من الشباب. . لا أعرف إلى أين؟. . وكيف الأمل. . والحياة السياسية الحزبية انحدرت إلى أسفل قاع. . والقصص عن الفساد والثراء الحرام تزكم الأنوف. . والروايات عن استهتار الملك في كل بيت. . والعائلات الكبرى هي التي تحكم مصر. . والاقطاع يعامل الفلاح المعْدِم أحطّ معاملة. . والمجالس النيابية هي مجالس المصفقين. . والاتهامات بتزوير الانتخابات مستمرة. . والسفير البريطاني هو الحاكم بأمره. .

* * *

كانت صورة بشعة. .

وسعيت إلى لقاء رجال السياسة والزعماء. .

عرفت الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ـ وكان يسمى حزب البيوتات ـ وكان هو الرئيس المثقف الوحيد لحزب. وسألته:

ـ أنت الرئيس المثقف الوحيد لحزب. . كيف لا يقدم حزبك برنامجاً إصلاحياً؟. .

وأجابني الرجل:

ـ اسمع يا ولدي. . لا أمل في أي صلاح لهذا البلد، ما دام القرار فيه للانجليز والقصر الملكي.

وعرفت مكرم عبيد باشا. . النجم المسيطر في حزب الوفد، قبل فؤاد سراج الدين باشا. . وكان يلقب بـ «المجاهد الكبير» و «ابن سعد». . وكان لقب مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد «الرئيس الجليل». .

ورأيته يدافع عن مجيء الوفد إلى الحكم بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، على أسنة حراب الانجليز. . ويقنع الجماهير بخطاب ملتهب قال فيه: إن الذين

يتهمون الوفد بأنه جاء على أسنة الحراب، كانوا يتوسّلون للنحاس باشا. . خذنا معك في الوزارة يا باشا؟.

وهو الذي دبّر خطابين متبادلين بين السفير البريطاني والنحاس باشا، ويلتزم السفير في خطابه بعدم التدخل في الشئون الداخلية!

ورأيت مكرم عبيد وهو يؤله النحاس باشا في خطبه وكلماته. .

ورأيت مكرم عبيد، وهو يوجّه إتهامات الفساد إلى النحاس باشا، وينفصل عنه. .

وكان مكرم عبيد قادراً على إلهاب مشاعر الشباب. . عندما يريد أن يوجههم إلى مظاهرات في الجامعة. . كان يقول. . لقد سمع سعد زغلول عن أسمى والدور الذي أديته وأنا طالب في مدرسة الحقوق. . واستدعاني. وكان كل شاب يريد أن يسمع مكرم عبيد عن اسمه. . ويستدعيه!. . وهكذا كان الشباب يتظاهر. .

وعندما كان مكرم عبيد يريد أن يهدىء من مشاعر الشباب التي ألهبها. . كان يخطب متحدثاً عن المقاومة السلبية التي قادها غاندي في الهند. . ونجحت في هز الامبراطورية دون مظاهرات ودون عنف!

وعرفت علي ماهر باشا. . الزعيم المستقل الذي أبعد عن الحكم، سنوات طويلة، وساءت العلاقات بينه وبين الملك، وهو الذي قام على تنشئته في أول أيام تنصيبه على العرش. . ورأيت كيف يسعى علي ماهر إلى العودة إلى الحكم، بكل المناورات. . وكيف يعقد التحالفات السرية مع هذا الحزب أو ذاك. . وكيف أعيته السبل للوصول إلى رضاء الملك. .

وعرفت ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الحزب السعدي، وهو الرجل الذي حكم عليه بالاعدام في ثورة ١٩١٩. . وكان شاباً ثائراً. . كيف انتهى به العمل السياسي إلى أن يصبح رئيساً لديوان الملك. . وأنهى بذلك دوره. . وقد طلب مني يوماً أن أنقل رسالة منه إلى نجيب الهلالي باشا قبيل الثورة. . أن يتحالفا معاً بعد أن وصل إلى علمه أن الملك يكلّف الهلالي بتأليف الوزارة. . واعتذر الهلالي عن عدم قبول العرض. .

وارتبطت مشاعري . . بحزب مصر الفتاة الذى أصبح الحزب الاشتراكي. . وبهرني أحمد حسين زعيم الحزب، خطيباً، وكاتباً، وسجيناً، وهارباً من السجن. . ومتهماً وراء القضبان بحرق القاهرة. . وهو الذي نشر في صحيفة الحزب صورة مشهورة للعرايا النائمين على الأرصفة وكتب تحتها «هؤلاء رعاياك يا مولاي». .

وعشت معتقلاً لمدة عام في معتقل الزيتون (١٩٤٣). . حيث لقيت أنور السادات وكان ضابطاً شاباً برتبة يوزباشي مفصولاً من الجيش. . وعرفت محمد صبيح نجم حزب مصر الفتاة الذي دفعني إلى قراءة تاريخ مصر. . وعرفت أحمد حسن الباقوري في سجن الأجانب، وصادقته في معتقل «ماقوسة» بالمنيا. . ثم عرفت فتحي رضوان الذي انشق على الحزب الاشتراكي، وألّف الحزب الوطني الجديد. . وكان يصدر صحيفة «اللواء» التي طبعتها أخبار اليوم. . وكانت سطورها صرخة ثورية. .

ورأيت الجلسة التاريخية في مجلس الشيوخ التي قدم فيها مصطفى مرعي استجوابه الشهير عن الأسلحة الفاسدة والمال الحرام في خزائن حاشية الملك. . وقد هزّ هذا الاستجواب مصر من أقصاها إلى أقصاها. . وكان أن عاقبت حكومة الوفد الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ علي سماحه بهذا الاستجواب. . بعزله من رياسة المجلس. . كما استصدرت مراسيم ملكية بطرد أعضاء المجلس من المعارضين، وعيّنت بدلهم شيوخاً من حزب الوفد. .

ولقيت فؤاد سراج الدين باشا، في ذلك الوقت، في مكتب ابراهيم عبد الوهاب (بك) سكرتير عام مجلس الشيوخ. . وسألته عن هذا الاغتيال الدستوري. . ولكنه كان سعيداً. . وعلّل ما جرى بأنه تصحيح لأوضاع دستورية! . . وكان الخاصة والعامة يعرفون أنه تم إرضاءً للملك. . وكسباً لمقاعد وفدية. . أي أن الفائدة كانت مشتركة بين القصر والوفد!

وعايشت أحداث الاغتيالات. .

اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس الحكومة في البرلمان. اغتيال النقراشي باشا رئيس الحكومة في مبنى وزارة الداخلية. اغتيال القاضي الخازندار. المتفجرات

في حي اليهود.. وفي دور السينما والمتاجر العامة.. اغتيال حسن البنا مرشد الاخوان.. محاولة اغتيال النحاس باشا..

وباختصار كانت مصر كلها في اضطراب شديد..

وكان الشباب حائراً.. وكنت واحداً منهم..

ولم تكن الصحافة تعبيراً كاملاً صادقاً، عن حقائق ما يجرى في النور أو في الظلام.. ولكن كانت هناك ومضات في نبض الصحف..

* * *

ثم كانت المرحلة الثانية في قطار الصحافة مع انطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. وفي حكم عبد الناصر. حتى مات.. كانت الصحافة تحت الرقابة الصارمة، باستثناء فترات قليلة.. وأصدرت الثورة صحيفة «الجمهورية».. ثم أممت الصحف.. ودخلت الثورة معارك عديدة ضد خصومها وأعدائها.. وتحوّل الحكم إلى حكم التنظيم السياسي الواحد.. أي الحزب الواحد.. وأصبح عبد الناصر هو الحاكم الفرد.. ووقعت صراعات عديدة بين قيادات الثورة وعبد الناصر.. واتسع سلطان المخابرات والحكم البوليسي، إلى درجة الرهبة والتخويف والتفزيع والاجراءات المطلقة المقيدة للحرية.. وضمّت المعتقلات «الاخوان المسلمون» و«الشيوعيين».. ثم تحالفت الثورة مع الشيوعيين بعد أن حلّوا تنظيماتهم، وبدأ عبد الناصر الاجراءات الاشتراكية.. وأصبح الشيوعيون جزءاً من النظام في تنظيمه السياسي وصحافته.. ورويت القصص العديدة الهامسة، عن حوادث قتل في المعتقلات والسجون.. إلى آخر ما هو مرصود تاريخياً..

* * *

والسؤال.. أين كانت الصحافة المصرية من كل ذلك؟..

الصحف كلها قبل تأميمها، كانت مؤيدة للثورة.. والصحف كلها بعد التأميم، كانت مؤيدة، وزادت عليها العناصر الشيوعية..

لقد جاءت ثورة ٢٣ يوليو، تعبيراً صادقاً عن آمال الشعب.. وكان التأييد طبيعياً..

ولكن عبد الناصر كان يريد أن تكون له صحافته..

وبدأ بانشاء «الجمهورية».. ولكنها لم تنجح..

فلجأ عبد الناصر إلى أن يكون له الصحفي الأوحد المعبّر عنه.. واختار محمد حسنين هيكل.. وترك عمله في أخبار اليوم.. وأصبح رئيساً لتحرير الأهرام.. ثم رئيساً لمجلس إدارته.. ثم رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم مع الأهرام!

وأصبح هيكل هو الصحفي الوحيد الذي يتصل بجمال عبد الناصر.. وتطورت العلاقة إلى مشاركة في الحكم..

وتحولت كل الصحف ـ باستثناء الأهرام ـ إلى نشرات روتينية.. وتميز «الأهرام» بأخبار الدولة واتجاهات عبد الناصر.. ومقالات هيكل التي تبرّر كل قرار.

واختل تماماً ميزان عدالة النشر..

إتهام الثورة، لأي إنسان، يعني إدانته في الصحف مع قرار الاتهام..

لا مناقشة لأي قرار سياسي..

رئيس الدولة هو الذي يعيّن رؤساء مجالس الادارة ورؤساء تحرير الصحف.. وفرضت عضوية الاتحاد الاشتراكي، شرطاً لعضوية نقابة الصحفيين.. وشرطاً للعمل الصحفي.. وكان عبد الناصر يصدر قرارات الفصل والتعيين بالتليفون.

وقد كنت من مؤيدي ثورة ٢٣ يوليو.. بكل الحماسة والاقتناع والايمان..

وفي غمرة الحماسة للتحولات الاجتماعية والاشتراكية التي قادها جمال عبد الناصر.. فقدنا الوعي، كما قال توفيق الحكيم، أمام سحر زعامة عبد الناصر.. ونسينا قضية الحرية والديمقراطية..

ولكن القلم لم يركن إلى الاستسلام على طول الخط..

كانت هناك انتفاضات.. ودخلت انتخابات مجلس الأمة عام ١٩٥٧..

تحت شعـار «كاتب حـرّ لم يركـع لحاكم». . «سـأكـون صـوت المعـارضـة تحت القبة». .

وشـطب اسمي من الانتخابـات قبل التصـويت. . وأقفلت الدائـرة عـلى منافسي مجدي حسنين وكان أحد أقطاب الثورة. .

وكان العقاب. . وضع اسمي في القائمة السوداء. . قائمة الممنـوعين من السفر إلى الخارج إلا بإذن المباحث العامة، ومكتب رئيس الجمهورية. .

وأوقفني جمـال عبد النـاصر عن العمل، عنـدما انتقـدت صوت المـذيعـة همّتْ مصطفى وهي تصف استقباله في الجزائر. . وقلت انه مثل صوت المعيز!

ثم صدر قرار بمنعي من الاشتغال بالصحافة. . بعـد مقالات كتبتهـا عن فساد الحكم خلال محـاكمة شمس بـدران وعباس رضـوان. . بما سمي بمؤامـرة عبد الحكيم عامر ضد نظام الحكم. .

ثم عـدل القـرار إلى فصـلي من ريـاسـة تحـريـر «الأخبـار». . ونقـلي إلى «الجمهورية» مع عدم السماح لي بالكتابة. .

ثم أعادني أنور السادات إلى «الأخبار» قبيل موت عبد الناصر. .

وأقـول أن رحلة قطار الصحـافة في تلك السنـوات، كـانت رحلة صعبـة قاسية. . ولكنهـا تفجّرت بـأخبار الثـورات والانقلابـات. . في العراق وسـوريا واليمن والسودان وكوبا. .

وكان تحقيق هذه الثورات، عملاً صحفياً جديداً، في رحلة القطار. .

وفي عام ١٩٦٨ أردت أن أهتدي إلى إجابة عـلى السؤال الكبير الحـائر في نفسي. . أيّهما أوفق وأنجح. . النظام الرأسـمالي أم النظام الاشتراكي؟. . وقمت برحلة صحفية طويلة (٣ أشهر) إلى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية وبولندا والاتحاد السوفيتي والهند ومـاليزيـا وهونـج كونـج واليابـان. . وسجلت تحقيقات الـرحلة الطـويلة فى كتـاب تحت عنوان « شيـوعيون فى كـل مكان » . . وكـانت عـرضاً لمزايـا

النظامين. . ولعيوب النظامين. . وكان المد الاشتراكي هو الظاهرة الواضحة في تلك الأيام منذ اثنين وعشرين عاماً.

* * *

ثم مات عبد الناصر. .
وتولّى أنور السادات. .

وتغيّرت أوضاع الصحافة بنسبة كبيرة جداً. . وقاد السادات، عصر التحوّل من الحكم الشمولي، إلى حكم الأحزاب. . وسقط الاتحاد الاشتراكي. . وقامت أحزاب المعارضة. . وصحف هذه الأحزاب. . وألغيت الرقابة على الصحف. . وأقفلت المعتقلات. . وتم الافراج عن كل المعتقلين السياسيين. .

وبدأت مرحلة جديدة، كان للصحافة فيها دور كبير. .
مرحلة البناء الجديد. . بين الأنصار والخصوم. .
ولكن بقيت مشكلة «الصحف القومية». . من يملكها؟. .

وأنشأ السادات مجلس الشورى، ليكون مالكاً للصحف القومية . . ولكنه مالك وهمي. . وتصدر عنه فقط قرارات تعيين رؤساء مجالس إدارات الصحف، ورؤساء تحريرها. . ورئيس الدولة هو الذي يختار. . ومجلس الشورى يعلن الاختيار. . ورئيس الدولة يختار بعد التشاور مع قيادات صحفية. . ومع عدد من المسئولين المرتبطة مواقعهم بالعمل الصحفي. .

أما الصحف الحزبية. . فهي خارجة تماماً عن هذا الاطار. . ورئيس الحزب هو الذي يختار رئيس تحرير صحيفة الحزب. . وهو في الوقت نفسه رئيس لمجلس إدارة الصحيفة. .

وحفلت فترة حكم السادات، حتى اغتياله. . بمعارك صحفية هائلة. . وانطلاقات ديمقراطية هائلة. .

الصحفيون والكتاب أنصار الحكم الشمولي في جانب. .

والصحفيون والكتاب أنصار المرحلة الديمقراطية الجديدة في جانب. .

ثم كُتّاب من أنصار الماضي قبل الثورة.. يمجدون هذا الماضي، رغم أنهم كانوا من خصومه..

وهكذا بدأ الازدهار الديمقراطي..

وقطار الصحافة في هذه المرحلة، عامر بالروايات في كواليس الصحافة..

* * *

وفقدنا السادات...

وتولى حسني مبارك..

ولا يزال قطار الصحافة يمضي في رحلته من عام ١٩٨٠..

كل الزهور تفتحت..

آفاق النقد الصحفي السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. اتسع مداها بغير حدود.. وأصبح من كتاب الأعمدة في الصحف القومية، من يمثلون المعارضة المتطرفة..

وانطلقت الصحافة الحزبية إلى أقصى آمالها..

وبقيت مشكلة من يملك الصحف القومية بلا حل.. وظهرت الحاجة إلى صياغة جديدة، غير ملكية مجلس الشورى.. وبدأ الحديث عن تعديلات في قانون الصحافة لإباحة حرية إصدار الصحف دون شروط..

ورحلة القطار مستمرة..

ورؤى الحقائق.. يسجلها قلم المسافر فى هذا الكتاب..

* * *

ويثور في النفس سؤال..

هل لو دارت بي عجلة الزمان إلى الوراء نصف قرن من الزمان.. هل كنت أسعى إلى الوقوف على رصيف المحطة الكبرى، وأحاول القفز إلى عربة القطار.. لكي أعيد رحلة نصف القرن من الزمان؟..

لست أدري!

لقد حصلت على مقعدي في قطار الرحلة الطويلة، وأنا أهوي الرسم..

وتصورت أنني سأكون رسام كاريكاتير. . ورسمت فعلاً بعض وجوه السياسة، ونشرت رسومي. . وحاولت في الوقت نفسه القصة القصيرة. . وكانت تنشر لي كل أسبوع قصة قصيرة على مدى أشهر. . ودخلت مسابقة للقصة القصيرة الواقعية، تحت اسم مستعار. . وفزت بالجائزة الأولى وبنشر القصة. . ولكن هواية الخبر الصحفي، جذبتني. . ثم شدتني إلى التحقيق الصحفي. . ثم إلى المقال الصحفي. . ورحلات المخاطرات. . كما أنني لم أبتعد يوماً، عن حبر المطبعة، وتوضيب الصفحات، وعمل سكرتير التحرير. . وعشقت بكل دمي وأنفاسي حياة الصحافة ليل نهار. . وتسممت الأنفاس. . وتسمم الدم. . بهذا الفيروس الذي لا علاج له. . الصحافة وأنا يقظ وأنا حالم وأنا نائم. . الصحافة وأنا أتناول طعامي. . وأركب السيارة أو الطائرة أو استرخي في النادي. . الصحافة وأنا في سهرة مع أصدقاء. . الصحافة وأنا زوج وأب. . الصحافة وأنا مريض وأنا معافى. . الصحافة في يوم العطلة. . كل حياتي وروابطي بالأيام، تحولت إلى صحافة. . حتى إذا نبض القلب بالحب، أو فار الجسد بنزوة. . فالعشيقة الأولى ملتصقة بكياني. . غانية الورقة المطبوعة تحاصرني!

أنا لا أبالغ في هذا الوصف. . فإلى هذا انتهيت. . ولدت إنساناً، وأعيش صحفياً، وسوف أموت صحفياً. .

ولكنني جاهدت النفس، ألا يموت الإنسان في كياني. .

حاولت دائماً أن أنتصر لهذا الإنسان. . والصحفي حامل الحقائب، يؤدي واجبه، ولا يترك القطار في رحلة العمر. .

ولست أدري حتى الآن. . هل انتصر الإنسان. . أو انتصر الصحفي. . ولكن الذي أدريه أنني لم أشأ أن أترك القطار أبداً. .

موسى صبري

الفصل الأول

أول لقاء مع مصطفى أمين

الحيوان السياسي في مصطفى أمين ـ هتفنا ضده في كلية الحقوق عام ١٩٤٢ ـ خالد محيي الدين يرأس أخبار اليوم ـ مناورات مصطفى أمين مع الشيوعين ـ بعد تأميم القناة ـ «مصمص» و «ابن البلد» ـ فؤاد العجلاتي والصحافة ـ دموع على مصطفى كامل ـ محاضرة في سن الرابعة عشرة! ـ حكايتي مع أستاذ اللغة العربية ـ مجلة من نسخة واحدة رأست تحريرها ـ تهريب الرسائل من المعتقل إلى مصطفى أمين ـ لقاء أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الاهرام ـ لقاء حافظ عفيفي باشا رئيس بنك مصر ـ لقاء مصطفى أمين في مكتبه في «الأهرام» ـ مقال عني يكتبه أمامي بتوقيع ابن البلد ـ المقال يظهر في مجلة «الاثنين» .

أول لقاء مع مصطفى أمين..

في مصطفى أمين زعامة لا شك في ذلك.
وفي كيانه يعيش «الحيوان السياسي» كما يقول التعبير الأمريكي..

وقد لمست ذلك وأنا لا أزال طالباً في كلية الحقوق جامعة القاهرة في عام ١٩٤٢ إذا لم تخنِ الذاكرة، وكنت في السنة الثالثة.

نشأ حينذاك حدث سياسي، وقمنا بالمظاهرة - كالعادة - ثم فوجئنا برجل ضخم الجثة، أصلع الرأس، يقف خطيباً بين الطلبة يحاول أن يفسر لهم هذا الحدث، بغير ما فهموه، وتظاهروا بسبب هذا الفهم ضد الحكومة القائمة.
وتعالت الأسئلة: من هو؟..

وجاءت الإجابات: انه مصطفى أمين رئيس تحرير مجلة «الاثنين»..
ولم نستمع إلى تفسيراته، وصحنا: إنزل.. إنزل..
وهتف البعض، يسقط الدخلاء..
وترك موقع الخطابة وهو يبتسم..

* * *

وكلمات مصطفى أمين في الاجتماعات التحريرية التي كان يعقدها في «أخبار اليوم» - وقد بدأت أحضرها منذ يناير ١٩٥٠ - هي أيضاً نوع من الخطابة الصحفية..

وسلوكه في «أخبار اليوم» بعد أن أممت، وبعد أن عين جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية، خالد محيي الدين (الشيوعي) رئيساً لمجلس إدارة أخبار

اليوم ، ومصطفى أمين صاحبها ، لا يزال يعمل بها . . سلوكه يؤكد أن مصطفى أمين رجل سياسة ومناورة . . وأنه يعرف متى يحنى رأسه للعاصفة ، ومتى يتصدى للمعركة .

كان المفروض أن يكون مصطفى أمين، في وجود خالد محيي الدين، مشرفاً صحفياً . . فقال لخالد محيي الدين: أنت عليك الاشتراكية . . وأنا على الصحافة!

وأول مقال كتبه خالد محيي الدين في «أخبار اليوم» اختار عناوينه مصطفى أمين، وأخرجه للنشر على أمين . .

وأذكر أنهما قالا لخالد محيي الدين في ذلك الوقت: «كتابة مقال في أخبار اليوم بقلم خالد محيي الدين . . هو في حد ذاته، حدث، وخبر كبير . . ولذلك يجب أن يظهر المقال في إخراج صحفي متميز» . . وكانا يقصدان أن أخبار اليوم أكبر قلعة ضد الشيوعية في مصر . . تنشر مقالاً لزعيم الشيوعيين في مصر . . هذا خبر.

وأراد مصطفى أمين ألا يظهر ضيقه، بهذا الانقلاب الشيوعي في «أخبار اليوم»، فانتهز فرصة عقد اجتماع عام لأسرة تحرير «أخبار اليوم» . . تكلم فيه الشيوعيون بالغمزات واللمزات، ووقف مصطفى أمين خطيباً يمتدح جمال عبد الناصر، لأن أعضاء مجلس الثورة طلبوا الحكم الدكتاتوري . وكان جمال عبد الناصر صاحب الصوت الوحيد الذي طلب الديمقراطية، وترك الاجتماع، وهدد بالاستقالة، إذا لم يقر مجلس الثورة الحكم الديمقراطي! . .

ولكن الشيوعيين علقوا على ذلك، بكلمات افتقدت الذوق والكياسة . . تحمل معنى السخرية من تأييد مصطفى أمين للثورة أو للقرارات الاشتراكية . .

وعندما أعلن جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس، كان من رأي مصطفى أمين الذي لم يعلنه، أن هذه نهاية جمال عبد الناصر . . وأن الدكتاتور يسقط من خطأ عظيم واحد . . وكان يتوقع ضربة دولية تجهز على عبد الناصر . . ولكن مصطفى أمين لم يتردد بعد العدوان الثلاثي في عام ١٩٥٦ ، وضرب بور سعيد، أن يركب طائرة عسكرية، بتكليف من

عبد الناصر، تسير على ارتفاع منخفض، حتى لا يرصدها رادار الأعداء..
ووصل إلى بيروت ومعه صور إنسانية التقطها مصطفى شردي مراسلنا في بورسعيد لضحايا العدوان العسكري من المدنيين، ونشرت في صحف العالم، ووصلت إلى الأمم المتحدة.. وكان هذا عملاً وطنياً عظيماً، شكره عليه جمال عبد الناصر.. كما سافر علي أمين إلى لندن، وأقنع رئيس حزب العمال البريطاني أن يؤيد موقف مصر.. وبذل جهداً وطنياً مشكوراً، كان موضع تقدير كبير من عبد الناصر..

والأمثلة عديدة على جريان السياسة في دم مصطفى أمين، في حياة حافلة بالأحداث الكبرى، انتهت إلى الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في عهد عبد الناصر.. حتى أفرج عنه أنور السادات بعد قرابة تسع سنوات أمضاها في السجن، وخرج بعدها مصاباً بعدة أمراض أحدها تصلب الشرايين.. ولكنني أريد أن أبدأ قصة تعرفي على مصطفى أمين من بدايتها ومن قبل أن أعمل معه في «أخبار اليوم» منذ يناير ١٩٥٠ حتى اليوم!.. أي لأكثر من ٤٠ عاماً..

* * *

كنا نعرف اسم مصطفى أمين، ونحن طلبة في الجامعة في أوائل الأربعينات. كان كما قلت رئيس تحرير مجلة «الاثنين».. وكانت أوسع المجلات المصورة انتشاراً (٦٠ ألف نسخة)... وكانت تصدر عن دار الهلال التي يملكها حينئذ إميل وشكري زيدان.

وكان قبلها يكتب في آخر ساعة التي يملكها محمد التابعي. و«روز اليوسف» التي تملكها السيدة روز اليوسف. واشتهر اسمه المستعار «مصمص».. ثم «ابن البلد».. وكان أسلوبه جذاباً. حديثاً في الصحافة المصرية، مليئاً بالتشبيهات المثيرة.. وكان يكتب ما يشبه «اليوميات» عن طفولته وشبابه وتعاليم والدته الصارمة في البيت، وحبه لبنت الجيران، وقصصه مع «الدادة».. ونوادر الشبه الكامل بينه وبين علي أمين لأنهما توأمان..

وكنت في ذلك الحين أشتري مجلة «الاثنين» كل أسبوع. وأحتفظ بها بعد اليوم الجامعي لقراءتها بعد الغداء، وأنا مستلقٍ على سريري الصغير. في الشقة التي أسكنها في حي الجيزة، ويشاركني فيها أحدُ الزملاء...

كنت أقرأ كل سطور المجلة، باستمتاع ونشوة. وأهمها مقالات مصطفى أمين، والقصة القصيرة الأسبوعية الممتازة، التي كان يكتبها يوسف جوهر. .

وكنت أحب الصحافة إلى درجة الهيام. . ولكن لم يكن يدور بخلدي، أنه من الممكن لي أن أصبح صحفياً بعد التخرج في كلية الحقوق. كان هذا يمثل لي الأمل المستحيل. .

وبدأت هوايتي للصحافة، وأنا بعد فى العاشرة من عمرى فى عام ١٩٣٤. . وكنت في الشهادة الابتدائية، وكانت أسرتي تقيم في مدينة أسيوط في قلب صعيد مصر. .

كنا نسكن في الدور الثاني، من بيت قديم، وكان بالدور الأول «دكان» لتأجير العجل، يملكه رجل فقد ساقيه اسمه «فؤاد العجلاتي». . وكان يعمل سائق قطار، ثم بترت ساقاه بعد حادث قطار، واستقر به الأمر أن يجلس على مقعد صغير، ويدير محله لتأجير العجل. . وكان من هواة الصحافة والسياسة.

كان بائع الصحف ينادي على صحفه في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر بعد وصولها بالقطار من القاهرة، وكان يقدمها جميعها الى عم فؤاد لقراءتها، ثم إعادتها إليه مقابل بضعة ملاليم. .

لم يكن عم «فؤاد» يقرؤها وحده. . كان يحيط نفسه بعدد من الأصدقاء يجلسون حوله أمام الدكان. وكان يقرأ لهم المساجلات السياسية الساخنة في ذلك الوقت. . التي كان يشارك فيها العقاد وطه حسين ومكرم عبيد وتوفيق دياب وعبد القادر حمزة. . وغيرهم من ألمع كتاب العصر. .

وكان «عم فؤاد» وفدياً متحمساً. . وكانت طريقة إلقائه مثيرة جذابة مما دفعني إلى أن أسترق الرؤية والسمع كل يوم بعد عودتي من المدرسة. من نافذة في شقتنا فوق محله. . .

وأصبح ذلك عادة مسلية، تحوّلت إلى هواية. . وبدأت أمي تنهرني وشخط أبي بغضب أكثر من مرة، لكي التفت إلى دروسي. . وأذاكر. .

وانتقلت إلى المدرسة الثانوية في أسيوط. . وقامت المظاهرات من أجل فلسطين، وكنت أسير في هذه المظاهرات، وأردد الهتافات بعاطفة وطنية ملتهبة، دون أن أدرك حقائق الأحداث السياسية. . وكان أشهر الهتافات «يسقط هور ابن التور» وذلك بعد تصريح الوزير البريطاني صمويل هور ضد حقوق الشعب الفلسطيني. . كما كنا نهتف في المظاهرات ضد الانجليز بحياة استقلال مصر والسودان. . والصومال إن أمكن. . وأذكر أن فاروق «أمير الصعيد» عندئذ ـ قبل أن يصبح ملكاً ـ زار مدينة أسيوط، ورست باخرته في النيل، وسهرت المدينة كلها حتى الصباح نتوقع ظهور الأمير الشاب متنكراً في أية ساعة من ساعات الليل. وكان فاروق محبوباً من الشعب، وكان وسيم القسمات، أنيق المظهر. . وزار المدرسة الثانوية، وتفقد معرض منتجات الطلبة، وانبهرنا لرؤيته. . . وعبّرنا عن ذلك بالمظاهرات والهتافات. .

ولكنني لم أكن حتى ذلك الوقت قرأت تاريخ مصر المعاصر والحديث.

وبدأنا نقرأ في الصحف عن تاريخ الحزب الوطني، بعد موت رئيسه الزعيم الشاب مصطفى كامل، ثم تولى محمد فريد رياسة الحزب. وهروبه إلى أوروبا حتى لا يحاكم ويقضي عليه بالحبس بسبب سطور كتبها. . ورياسة حافظ رمضان للحزب الوطني. .

وهذا ما دفعني إلى الذهاب كل يوم جمعة إلى مكتبة بلدية «أسيوط»، لقراءة الكتب التي ألفت عن حياة مصطفى كامل. . وكانت محدودة. . وكنت أقرأ سطورها بعاطفة ملتهبة معجباً بهذا الزعيم الشاب الذي يتحدى الاستعمار. . وعندما أصل إلى السطور التي سجلت وفاته في سن مبكرة. . كنت أبكي حزناً عليه. .

وهكذا بدأ تكويني السياسي. . إعجاباً بلا حدود بنضال الزعيم الشاب مصطفى كامل، حتى أنني ألقيت محاضرة عنه ولم أكن بلغت بعد الرابعة عشرة من عمرى ، فى قسم الأشبال بجمعية الشبان المسيحية بأسيوط . .

ولعل ذلك صرفني عن دروسي.. وفوجئت ذات يوم بأستاذ اللغة العربية الأستاذ أحمد سالم، يقذف في وجهي بكراسة «الإنشاء العربي» وهو يصرخ: «صفر..» ثم يقول لزملائي في الفصل: «هذا الطالب يا أفندية أجدر به أن يفصل من المدرسة، لأنه مهمل، ولا يفقه شيئاً في اللغة العربية»..

وكان صديقاً لوالدي.. وأبلغه أنني لا أكتب جملة عربية صحيحة واحدة.. وأنه طلب فصلي...

وتعهدني والدي، بمذاكرة اللغة العربية. وحفظ الشعر. وكتابة موضوعات الإنشاء.. وكان رحمه الله ضليعاً في اللغتين العربية والانجليزية.. على الرغم من أنه لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية التي كانت تدرس معظم موادها باللغة الإنجليزية..

وبدأت أحب كتابة موضوعات الإنشاء.. وبدأت أحب اللغة العربية.. واستهواني أن أستمع إلى تلاوة القرآن الكريم من الراديو. وكان لا يزال اختراعاً حديثاً.. ثم اشتريت مصحفاً أقرأ فيه الآيات وأتلوها..

ولكن الأستاذ أحمد سالم، أعطاني في موضوع الإنشاء بعد ذلك اثنين من عشرة، وقذف بالكراسة في وجهي وهو يردد: «هذا الطالب يا أفندية لا يكتب جملة واحدة صحيحة».. ولم يكن ذلك عدلاً.. لأنه لم يقرأ موضوعي، وأعطاني رقم ٢ على عشرة بحكم العادة..

ولم أقبل الظلم..

وثرت لأوّل مرة في حياتي على أستاذي. وصرخت: «هذا ظلم..».

وغضب الأستاذ وصرخ: «وكمان بترد عليّ يا كلب..»

وجرى ورائي، بالمسطرة، لكي يهذبني.. وتركت الفصل. واستدعاني الناظر، وقرر فصلي يوماً واحداً لسوء أدبي!

وكان هذا الحادث، بداية تحد جديد.. في اتقان اللغة العربية..

واستهواني أسلوب مصطفى أمين. . في مجلة «الاثنين»
كما تأثرت بأسلوب فكري أباظة في مجلة «المصور».

وكنت أهوى الرسم. . وبدأت أقلد رسام الكاريكاتير «صاروخان». . وكانت والدتي غاضبة من أنني بدأت أضيع مصروفي على الورق. . وكانت تنصحني أن أشتري الحلوى والبسبوسة. . أحسن ألف مرة، من ضياع الفلوس في الورق. .
وبدأت أفكر في إصدار مجلة. .

وأقنعت رئيس قسم الأشبال، بجمعية الشبان المسيحية، بإصدار المجلة. . وكوّنت منها أسرة تحرير. . وكتبناها بالقلم الرصاص. . ثم بالآلة الكاتبة. . وطبعاً عيّنت نفسي رئيساً للتحرير!

وكم تمنيت ـ حينئذ ـ أن أعرض هذه «المجلة» على مصطفى أمين أو فكري أباظة. ولم يصدر منها إلا عدد واحد، انتقلت بعده إلى الجامعة، في كلية الحقوق. . واشتركت في إصدار مجلة كلية الحقوق. . التي كانت تصدر مرة واحدة في العام الدراسي. .

وخلال ذلك كله، وحتى تخرجت في الكلية عام ١٩٤٣، لم أر مصطفى أمين إلا تلك المرة، التي خطب فيها أمام الطلبة، وهتفنا بسقوطه!

وكان يحمسنا على هواية الصحافة، وجود إحسان عبد القدوس معنا، طالباً في الحقوق وكان يسبقنا بعام، وكان له وضع خاص، لأنه كان محرراً في مجلة روز اليوسف التي تصدرها والدته. . وكان ينشر أخباراً عن الجامعة. .

ونجحت في امتحان الليسانس وأنا أواجه ظروفاً مادية قاسية. . وصدر قرار بتعييني في النيابة العامة (ولهذا قصة طويلة). . ثم هاجم البوليس منزلي في الجيزة في اليوم الذي كان محدداً لي لاداء اليمين القانونية أمام النائب العام. . وقادني البوليس السياسي إلى المعتقل. . حيث أمضيت قرابة عام، وعرفت أنور السادات اليوزباشي المفصول من الجيش، وجلال الحمامصي سكرتير تحرير

صحيفة «المصري» والنائب السابق «المفصول من مجلس النواب». . في معتقل الزيتون.

وهناك ـ في المعتقل ـ سمعت اسم مصطفى أمين يتردد!

وكنت قد لقيته ـ لأول مرة ـ في مكتبه بصحيفة «الأهرام» بعد تخرجي. . وبعد أن رفضت نقابة المحامين قبولي في جدول المحامين.

لقد قيل في أحاديث المعتقلين أن مصطفى أمين استطاع أن يقابل جلال الحمامصي سراً في المعتقل، ذات ليلة في كشك المراقبة القريب من باب المعتقل، بترتيب خاص مع ضابط المعتقل. . وأنه حضر ليبلغه آخر تطورات الموقف السياسي. . وأن الأمل في سقوط حكومة الوفد أصبح قريباً جداً. . !.

وهنا فكرت أن أرسل أخبار ما يجري في المعتقل إلى مصطفى أمين رئيس تحرير «الاثنين» آملاً في نشرها. .

وكنا نهرب الخطابات مع «حلاق» المعتقل. . مقابل أجر معلوم، وكان يخبىء الخطابات في حذائه. .

وتهللت فرحاً عندما كنت أقرأ بعض هذه «الأخبار» منشورة في مجلة «الاثنين». . تحايلاً على الرقابة التي كانت مفروضة على الصحف بشدة وضراوة. ولكن مصطفى أمين اشتهر في ذلك الوقت بقدرته على خداع الرقيب وتحرير الأخبار الهامة!. .

* * *

ووجدت في أرشيف «أخبار اليوم». . وفي ملف مصطفى أمين، خطاباً كنت قد أرسلته إليه من داخل معتقل المنيا، وهربته مع حلاق المعتقل. . وتاريخ الخطاب ٩ أبريل ١٩٤٤.

كتبت إليه في هذا الخطاب:

حضرة المحترم الأستاذ المفضال مصطفى أمين رئيس تحرير «الاثنين».

احييك تحية مختنقة. نعم فهي تحية معتقل خنقت حريته، فهكذا وجه تحيته. ليس عندي ما أبدأ به خطابي إلا إعجابي المطلق، معبراً في ذلك عن مصداق شعوري وحقيقة شعور زملائي، من له في الاعتقال منهم ٣ سنوات، لم يقرأ كلمة انصاف يواجه بها الرأي العام. ومن له سنتان، ومن له عام، ومن أعتقل منذ أسبوع . بل من حل علينا معتقلا منذ يوم واحد فقط !

أكتب إليك من معتقل المنيا، وبه ٣٩ معتقلاً، وقد ارفقت بهذا الخطاب اسماءهم، وأسباب اعتقالهم الغريبة، والمدة التي قضاها كل منهم في اعتقاله بين سجن الأجانب، ومعتقل الزيتون، وسجن الأجانب ببورسعيد، ومعتقل المنيا، ومختلف أقسام البوليس قبل اعتقالهم.

طالعتنا مجلة «الاثنين» في الأسابيع الماضية بفكرة الإفراج عن بعض المعتقلين. ثم كان الأسبوع الماضي، وإذا بنا نقرأ النبأ وقد تحول إلى كذبة ابريل على لسان ابن البلد. ثم طالعنا مندوب «الأهرام» بحديث له مع وزير الداخلية يقرر فيه الأخير أنه سيفرج بل وأفرج ويفرج عن كل معتقل سياسي متى زالت أسباب اعتقاله. ففهمنا من ذلك أنه:

١ ـ سيفرج عن أولئك الذين اعتقلوا في دار سينما ستوديو مصر لمجرد تحيتهم لسعادة الدكتور ماهر باشا، إذا ما أقفلت دور السينما في مصر، أو على الأقل إذا ما صرح ماهر باشا بأنه اعتزم عدم الذهاب إلى دور السينما إطلاقاً!!

٢ ـ سيفرج عن الطلبة الجامعيين المعتقلين من مختلف الكليات ولهم في الاعتقال أربعة أشهر ويزيد، ودنت مواعيد امتحاناتهم، وقطعت كل صلة بينهم وبين محاضراتهم في معاهدهم، بل ومنهم من في معاهد عملية مثل كلية الزراعة، سيفرج عن هؤلاء متى قرروا عدم الاستمرار في تعليمهم الجامعي. أو متى قرروا الانضمام الى لجنة الطلبة التنفيذية الوفدية في معاهدهم!!

٣ ـ سيفرج عن أولئك العمال الذين اعتقلوا لشبهة أنهم اشتركوا في طبع مفخرة الكتلة الوفدية المستقلة، ألا وهو الكتاب الأسود. ولهم في الاعتقال حتى الآن حوالي عام كامل، إذا ما أقلعت جبهة المعارضة عن إصدار نداءاتها، وإذا ما امتنع سعادة مكرم عبيد باشا عن مهاجمة الإنجليز والحكومة بهذا الأسلوب المرعب والمفزع!

٤ ـ سيفرج عن طلبة المعاهد الدينية من شبين الكوم وأسيوط والقاهرة إذا ما صدر قانون بالغاء هذه المعاهد، أو إذا ما صدر حكم عسكري بتعميم الأمية في القطر المصري!

٥ ـ سيفرج عن الاستاذ جلال الحمامصي إذا ما اعتزل السياسة. وأنتم تعلمون أن وزير الداخلية طلب منه فعلاً الحد من نشاطه السياسي، وبذلك يفرج عنه! . . وأنتم تعلمون أن وزير الداخلية قرر الإفراج عنه في وقت ما ولم يتمكن من التنفيذ!

٦ ـ سيفرج عن أولئك الذي اعتقلوا بتهمة أنهم يعملون ضد الإنجليز، أو انهم يتصلون بدول المحور، ومنهم من له في الاعتقال ٣ سنوات، وكلهم مصريون، وقد اعتقل أغلبهم من غير تحقيق إطلاقاً، وحقق مع الباقي محققون أجانب «إنجليز» بدون تدخل من السلطات المصرية. . إذا ما انضمت مصر إلى دول المحور!

* * *

وكتبت في نهاية الخطاب:

وختاماً، نرجوكم أن تستمروا في حملتكم القوية الحقة على أولئك الذين يستغلون الأحكام العرفية، استغلالاً دنيئاً لمصلحة أنفسهم، أولئك الذين جابوا مديريات الصعيد مدعين لأنفسهم بتمتعهم بثقة الشعب، وأغلبية الأمة، ومع ذلك يخشون بل يرتجفون من طلاب جامعيين لم يتعدوا في أعمارهم الخامسة والعشرين!!

استمروا في حملتكم، قواكم الله، وحفظ أقلامكم حرة نزيهة رافعة لستار كثيف من ظلاّم، أمام الرأي العام، حتى لا تضلله الدعايات الدنيئة التي يبثها أولئك الظالمون الأدعياء.

ولكم منا كل تقدير واحترام. .

معتقل المنيا في ٩ أبريل ١٩٤٤

موسى صبري كامل

ثم كتبت حاشية للخطاب هذا نصها:

مـرفق بهذا كشف بـأسماء معتقـلي المنيا، وبعض معتقـلي الزيتـون، ومدة اعتقـالهم والسبب في اعتقالهم. عـدا من هم معتقلون في بور سعيـد. وعدا من هم مزجوج بهم في مختلف سجون الأقسام من الشباب الأبريـاء، ومن في سجن مصر بتهم زائفة لا أساس لها من الصحة بقصد التنكيل، نتيجة لشهوة البقاء في الحكم.

* * *

وأفرج عنا بعد سقوط حكومة الوفد في اكتوبر ١٩٤٣.. وتـولى الدكتـور أحمد ماهر رئيس الحزب السعدي رياسة وزارة ائتلافية..

* * *

وأعود إلى قصة لقائي الأول مع مصطفى أمين.. قبل اعتقالي.

كان لقاء مثيراً بالنسبة لي.. وجرى فيه الكثير..

كنت أريد العمل بالصحافة..

وقررت أن أطلب لقاء انطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام..

وطلب هذا اللقاء، كان طموحاً يتجاوز المعقول. لقد كان انطون الجميل حينئذ هرماً كبيراً، وكان عضواً بمجلس الشيـوخ. وكان يكتب مقـالاً قصيراً في الأهرام بغير توقيعه، يهز الدنيـا، ومن مكان نشر المقـال الثابت، ومن أسلوبـه، كان الناس يعرفون أنه مقال أنطون الجميل.. وكـان مكتبه في الأهـرام، ملتقى لكبـار رجال الحكم والسيـاسة، وقيـادات القلم في مصر.. فكيف لي أن أجرؤ على طلب هذا اللقاء..

ولكنني تـوجهت إلى مبنى «الأهـرام» وكـان يقـع في شـارع اللواء في قلب القاهرة، وطلبت مقابلة سكرتير الباشا..

واستقبلني شـاب بـدين بـاسم الـوجـه، وسـألني بلهجـة لا تخلو من الدهشة..

ـ لماذا تريد أن تقابل أنطون باشا . .

وشرحت له قصتي . . وتعاطف معي . . واستطاع أن يجعلني أقف أمام انطون باشا . .

وكان موقفاً رهيباً . .

ولكن الرجل استقبلني باحترام وحنان، وأنا ابن التاسعة عشرة، نحيل الجسد، مشتعل القلب، والعينين بالطموح!

وقال لي بلهجة لبنانية بعد أن استمع إلى قصتي: اسمع يا ابني . . أنا لا أستطيع أن أجد لك عملاً في الأهرام . .

وقاطعته في أدب: ولو بخمسة جنيهات . .

وأكمل حديثه: الأهرام تصدر الآن بسبب ظروف الحرب، في ٦ صفحات فقط منها صفحة للوفيات . . ثم مساحات للإعلانات، ولدينا عدد ضخم من المحررين، لو نشرت لكل منهم ثلاثة أسطر فقط لاحتجنا إلى عشرين صفحة . . ومعنى ذلك، أن كثيراً منهم لا يؤدى أى عمل . . ولذلك فإن تعيينك استحالة .

ثم صمت لحظات، عندما رأى أثر الصدمة على وجهي . . وقال:

ـ ولكنني سأتحدث إلى صديقي الدكتور حافظ عفيفي باشا رئيس بنك مصر . . وأطلب إليه أن يوفر لك عملاً . .

وحدد لي فعلاً موعداً مع حافظ عفيفي باشا . . وذهبت إلى لقائه في بنك مصر . . ولفت نظري أن صوته رفيع جداً، لا يتناسب مع قسمات وجهه، وقال لي إن أنطون باشا حدثه في أمري، وأنه سيبحث لي عن عمل في البنك . . وكتبت له عنواني، ليرسل لي خطاب التعيين . . وانصرفت بغير راحة نفسية، فلم أكن أتصور عملاً يشبع مزاجي في مصرف! وكم تمنيت أن يسمح لي بالعمل في المحاماة.

* * *

وأعود إلى لقاء أنطون الجميل باشا لأشكره بحرارة على استقباله لي . .

ورحابة صدره. . وقررت وأنا أغادر مبنى الأهـرام، أن يكون نضـالي في المرحلة المقبلة. . لا للعمل بالصحافة، ولكن لتعديل قانون المحاماة. وكانت حجتي أن القانون يبيح توكيـل من كان عمـره ١٨ عامـاً في أي عمل قـانوني. . فكيف لا يباح لـه الاشتغال بالمحامـاة . . وهى وكالة ؟ . . ثـم أن القانون يبيح تعيين خـريج الحقـوق في وظائف النيـابة العـامـة. . بـدءاً من التـاسعـة عشرة من العمـر. . ومسؤوليات النيابة خطيرة. في تطبيق قانون العقوبات على مرتكبي الجرائم. .

وفكرت في أن أطلب لقاء مصطفى أمين، لكي يدافع عن تعديل القانون في حملة صحفية!

وكـان مصطفى أمـين في ذلك الـوقت، يعمـل ـ مـع رئاسـة تحـريـر مجلة الاثنين ـ رئيساً لقسم «الأخبار» بجريدة «الأهرام». . وهذا ما أبلغني به سكرتير أنطون باشا. . وقال لي: تعال في أي وقت بعد الساعة السابعة مسـاء، وسوف يقابلك مصطفى أمين على الفور!

وعدت إلى مبنى الأهرام في اليوم التالي. .
وقال لي أحد السعاة: ماذا تريد؟. .
قلت: الأستاذ مصطفى أمين. .
وقادني إلى صالون صغير، وطلب مني الجلوس حتى يخطره. .

وبعد لحظات، رأيتني أمام مصطفى أمين وجهـاً لوجـه، ولأول مـرة، في صالون صغير. كان بـالقميص والبنطلون، وقميصـه من التيل الأبيض. كبـير الرأس والجسد. غزير الحاجبين، عيناه براقتان حادتان. وبين شفتيه سيجارة.

سلم علي بترحيب. . وسألني وأنا واقف. .
ـ ماذا تريد مني؟. .

وقدمت نفسي، وشرحت له قصتي. لقد تخرجت في كلية الحقوق وعمري ١٨ عـامـاً و٨ أشهـر. . والقانـون يمنع اشتغـالي بـالمحـامـاة قبـل سن الحـاديـة والعشرين. .

وانفعل سريعاً بالقصة. وسألني: هل بذلت أي جهد مع نقابة المحامين؟

قلت: نعم.. قابلت محمود بسيوني بك نقيب المحامين.. وقدمت إليه مذكرة.. وناقشته طويلاً، ولكن دون جدوى.. وهو لا يريد أن يعدل نص القانون.

وأنصت مصطفى أمين إلى كلماتي المتحمسة ونحن واقفان.. ثم قال: تعال معى..

وقادني إلى مكتبه.. حجرة صغيرة جداً.. بها مكتب صغير يضيئه مصباح كهربائي.. وأمام المكتب مقعدان، ودعاني للجلوس..

ورأيته يمسك قلمه ويكتب على «فرخ» ورق مسطر!

وتابعته مبهوراً..

كان يكتب بسرعة ملحوظة، لم يشطب حرفاً، ولم يرفع القلم من السطر الأول حتى السطر الأخير.. ثم قدم لي الورقة وقال: اقرأ..

ولم أصدق نفسي. قرأت سطوره وأنا أحاول التركيز.. أن المفاجأة أذهلتني. المقال كله عني. وعن أن الدولة تعاقب النبوغ.. وكتب أن نابليون كان يقود جيوش فرنسا وهو دون الحادية والعشرين.. ولكننا نعاقب في مصر من يحصل على ليسانس الحقوق ويتفوق في سن مبكرة، بدلاً من أن نكافئه.. وطالب بتعديل قانون المحاماة.. وسألني: ما رأيك؟.. هل لك ملاحظات..

أجبت: مقال عظيم لم أكن أتوقعه..

ثم قال: انتظرني.. سأعرض المقال على أنطون باشا.. وقد ينشر في «الأهرام».. أو في مجلة «الاثنين» إذا رفضه انطون باشا..

وتركني وعاد بعد بضع دقائق.. يقول: إن نشره في مجلة الاثنين أنسب للموضوع.. وسيكون النشر في العدد المقبل.. أو الذي يليه..

وكان توقيع المقال باسم «ابن البلد»..

وتركت مكتبه سعيداً.. بل في قمة السعادة، بعد أن قلت له: أريد أن أصارحك بشيء؟..

قال: تكلم.. قل ما تريد..

قلت: لقد قرأت في الصحف الوفدية، أن محرراً اسمه محمد علي غريب، هو الذي يكتب لك مقالاتك.. وأنت فقط توقع!.. وما رأيته اليوم، يؤكد لي كذب هذا الافتراء!..

وأعجبته الملاحظة وضحك بصوت خشن..

وسرت في شوارع القاهرة، وأنا أحلم بنشر المقال عني، كنت أتصور أنني سأصبح مشهوراً بعد هذا المقال!

* * *

وانتظرت على أحر من الجمر، يوم صدور مجلة «الاثنين».. بعد أن كنت أبلغت أسرتي، وأصدقائي بأن مصطفى أمين سيكتب عني..

وكانت صدمة عندما تصفحت المجلة، ولم أجد المقال!

وفكرت أن أزوره مرة أخرى، أو أتحدث إليه بالتليفون، لأسأل عن موعد النشر، وقلت لنفسي، لعله عدل.. فلماذا أحرجه؟..

ومرت سبعة أيام، وأنا في ضيق شديد..

ثم صدرت «الاثنين» وبها المقال، في برواز على عامود كامل!.. قرأته عشرين مرة..

اشتريت عشرة أعداد.. من ميدان الجيزة، حيث كان مسكني..

وركبت الترام من الجيزة حتى ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن) ولم يكن لي مقصد.. بل كنت أريد أن أرى ركاب الترام وهم يقرأون المقال عني!..

وأبرقت إلى والدي في أسيوط، أن يشتري مجلة «الاثنين»!

وتصورت أن نقابة المحامين سوف تهتز.. وأن القانون سوف يعدل.. وحلمت بنفسي أرتدي روب المحاماة!

ولكن الأقدار كانت تخفي لي صفحة جديدة من عمري.. سوف أكون صحفياً.. وسوف تجري بي الأيام، لكي أعمل مع مصطفى أمين بعد سبع سنوات فقط في «أخبار اليوم»!!

الفصل الثاني

مع طه حسين منذ ٤٧ عاما!

لقاء مع فكري أباظة ـ نصيحة من إبراهيم المصري . . لا تعمل بالصحافة ـ استاذ بكلية الآداب ينصحني بلقاء طه حسين ـ وقف فكري أباظة عن العمل ومنعه من الكتابة في عهد عبد الناصر ـ اعتذار في الأهرام ـ السادات يكرم فكري أباظة ـ حوار عاصف في قصر رأس التين بالاسكندرية ـ كلمة خطيرة لفكري أباظة في عيد الفن ـ سيد قطب مدير مكتب طه حسين ـ رسالة من طه حسين إلى وزير العدل صبري أبو علم باشا ـ لقاء جديد مع طه حسين بعد ١٧ عاماً في مكتب صلاح سالم ـ خلاف حول ما نشيت الجمهورية ـ طه حسين يهدد بالاستقالة . .

الفصل الثاني

مع طه حسين منذ ٤٧ عاما!

قررت بعد لقائي الأول مع مصطفى أمين في مكتبه بـ «الأهرام» . . أن أجرب حظي مع فكري أباظة رئيس تحرير «المصور» . .

في ذلك الوقت (عام ١٩٤٣) كان فكري أباظة ملء الاسماع والأبصار . . وكانت مجلة «المصور» تباع باسمه في الشوارع . كان باعة الصحف ينادون «فكري أباظة . . المصور» . . وكان مشهوراً بأسلوبه الرشيق في السياسة وغير السياسة . . واخترع ما سماه «الجاسوسة الحسناء» التي كانت تمده بالأخبار الهامة . . وكان خطيباً مفوهاً في البرلمان ، له صولات وجولات . وكان على أحسن الصلات بكل الأحزاب الحاكمة وغير الحاكمة رغم أنه نائب معارض يمثل الحزب الوطني القديم . . وقد رفض أن يكون وزيراً ، لأن مبدأ الحزب الوطني «لا مفاوضة مع الإنجليز إلا بعد الجلاء» ، كان لا يتفق مع مبادىء كل الأحزاب الأخرى التي كانت تسعى إلى التفاوض مع الإنجليز لتحقيق الجلاء . . وكان كاتباً خفيف الظل ، عندما يتحدث عن مغامراته العاطفية ، وقصص حبه التي وزع فيها قلبه على جميع جميلات العالم في مختلف العواصم ! . . وعرف عنه في ذلك الوقت عشقه لممثلة مسرحية ذائعة الصيت . وفوق ذلك كله كان يتحدث في الراديو مرة كل أسبوع ، في موضوعات اجتماعية ، بصوته الأجش الخلاب ، وأسلوب سخرياته اللاذعة . .

كان هدفي من السعي إلى فكري أباظة أن يكتب عني ، كما كتب مصطفى أمين . . كنت أريد أن يعدل قانون المحاماة ، حتى يسمح لي بعضوية نقابة المحامين قبل بلوغ الحادية والعشرين التي يحتمها القانون . .

وسألت في نقابة الصحفيين.. كيف استطيع أن أقابل هذا الصحفي الكبير؟.. وقيل لي أنه يذهب إلى مكتبه في الساعة الثامنة من الصباح.. ووصفوا لي عنوان مبنى صحيفة المصور..

وذهبت مبكراً إلى المبنى..

وعند باب المصعد رأيت الكاتب القصصي الكبير ابراهيم المصري.. كنت أقرأ رواياته التاريخية على صفحات المصور بكل إعجاب.. وكان صاحب أسلوب جذاب في الكتابة عن الروحانيات، وأغوار النفس البشرية..

وسألته: هل أنت الأستاذ ابراهيم المصري؟..

فأجاب: نعم..

قلت: إنني من أشد المعجبين بك..

قال: ماذا تفعل هنا؟..

قلت: أريد لقاء فكري أباظة.. كما أنني أهوى الصحافة..

قال: أحذرك من الاشتغال بالصحافة.. إنها مهنة قاسية.. ولا تخدعك مظاهر الشهرة والأسماء..

قلت: لماذا؟..

قال: إن الكاتب في مصر لا يتمتع بالحرية.. إنه لا ينشر إلا ما يريد صاحب الجريدة أن ينشر!

وجاء المصعد.. وبعد لحظات كنت في مكتب فكري أباظة..

قدمت له ما كتبه عني مصطفى أمين.. وشرحت قصتي..

ومثل ما فعل مصطفى أمين أمسك القلم.. وكتب على الفور مقالاً قصيراً، ولم يتوقف القلم في يده..

فرق واحد بينه وبين مصطفى أمين، أنه كان يستخدم ريشة يغمس سنها في محبرة أمامه.. ولم يقدم لي المقال لأقرأه كما فعل مصطفى أمين.. وحاولت أن أبدأ معه حديثاً، لكي أعمل في الصحافة.. ولكنه أفهمني بأنه لا مجال على الإطلاق.. وتركته، وأنا سعيد بأن كاتباً كبيراً مثله، يكتب عني، بعد مقال مصطفى أمين.. وأذكر أن عنوان مقاله كان «جناية النبوغ»..

وظهر المقال القصير في العدد التالي من «المصور». .

ولكن ماذا أفعل بهذين المقالين؟. .

إن نقيب المحامين في ذلك الوقت محمود بسيوني قطب الوفد الكبير، لم يتحرك!. . وذهبت إليه في نقابة المحامين وقدمت له مذكرة قانونية. . واستقبلني بترحاب كبير، لأنه كان يعرف والدي، وكنا نسكن في منزل يقابل مكتبه للمحاماة في أسيوط. . ولكنه استخف بمطلبي تعديل قانون المحاماة. .

والتقيت مصادفة في الطريق باستاذ للغات الشرقية في كلية الآداب، من أبناء الصعيد. . وقال لي:

ـ لا أحد في هذا البلد يستطيع أن يحرك قضيتك إلا الدكتور طه حسين. . إنني اختلف معه، وهو لا يطيقني. . ولكنه رجل مبادرات. . وهو شخصية قوية لها مكانتها في حكومة الوفد، رغم أنه سكرتير وزارة المعارف. . ولكنه أقوى من الوزير. . وله كلمة مسموعة. .

وسألت: وأين أقابله؟. .

أجاب: في مكتبه بوزارة المعارف. . إن مكتبه مفتوح لكل الناس. .

وقررت أن أحاول. .

ولكن. . قبل أن أروي قصة اللقاء الأول مع الأستاذ الدكتور طه حسين. استأذن القاريء في عودة إلى فكري أباظة. .

فكري أباظة في الستينات. ولا أذكر التاريخ بدقة.

كان قد كتب في بابه الضاحك الباكي في المصور سطوراً عن الدكتاتورية في أسبانيا. .

وصدر قرار من جمال عبد الناصر بوقفه عن العمل!

لقد فسرت كلماته على أنها غمز لحكم عبد الناصر. .

وبقي الرجل في بيته، وحرم من الذهاب إلى مكتبه. . وكان يعاني معاناة قاسية، لأنه تعود على مدى نصف قرن من الزمان، أن يخرج من منزله في الصباح المبكر، ليتوجه إلى مكتبه سيراً على الأقدام. . وكان على الرغم منه ينزل

من بيته بعد وقفه عن العمل، ويسير في الشارع، فيجد نفسه متجهاً إلى مبنى «المصور»! . . فيعود أدراجه محطم النفس.

وكان يمضي كل يومه في النادي الأهلي، وهو عضو بارز فيه، وله «شلة» وكانت أحاديثه مع أصدقائه، حزينة دامية بعد وقفه عن العمل.

وبعد أشهر. . تم اتفاق على أن ينشر فكري أباظة اعتذاراً في الصفحة الأولى من «الأهرام». . وكلنا شعرنا بقسوة هذا الاعتذار على نفس الكاتب الكبير. . أو شيخ الصحفيين كما كنا نلقبه. . ولكن ذلك كان هو الحل الوحيد لعودته إلى مكتبه وقلمه. .

ولما تولى أنور السادات. . أراد أن يخفف من وقع ما جرى على نفس فكري أباظة. . وكان السادات قد دعا رؤساء تحرير الصحف إلى اجتماع في استراحته بالقناطر الخيرية، عقب عودة الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء من رحلة الى الاتحاد السوفييتي حاول فيها إصلاح العلاقات التي تدهورت بين القاهرة وموسكو، وبعد أن فاجأ السادات الاتحاد السوفييتي، بقراره بإخراج الخبراء العسكريين السوفييت من أرض مصر وكانوا قرابة خمسة عشر ألفاً!

كان السادات يجلس على «كنبة» وإلى يمينه الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء. . وفوجئت بالسادات يقول: «تعال يا عم فكري أقعد جنبي. . اقعد أنت على الكرسي يا عزيز. . »

وانتقل فكري أباظة من مقعده، وجلس إلى يمين السادات على الكنبة. . وكان ذلك تكريماً له. . ومسحا لآثار الماضي من قلبه. .

وجرت بينه وبين السادات بعد ذلك صلات طيبة. . وكان يدعوه إلى كل الاجتماعات، ويداعبه، وينشد رأيه إذا اختلف المجتمعون حول قضية. . وأذكر من ذلك اجتماعاً عقده السادات لرؤساء تحرير الصحف، وعدد من الكتاب، في إحدى قاعات قصر رأس التين بالإسكندرية. . كان ذلك في عهد تولى الدكتور عبد العزيز حجازي منصب النائب الأول لرئيس الوزراء. . وكان السادات يرأس الوزارة. . وكان قد أطلق حرية الصحافة. .

ونشرت الصحف القومية (لم تكن صحافة الأحزاب قد نشأت بعد). .

أخباراً مثيرة عن أزمة اختفاء الصابون. . وكانت الظروف الاقتصادية قاسية. . وتعطل استيراد الصابون، بسبب الافتقار الى العملة الصعبة. . ونشرت «الأخبار» في ذلك الحين خبراً في الصفحة الأولى، عن مواطن مات بالسكتة القلبية من طول الوقت الذي أمضاه واقفاً في طابور الجمعية المزدحم. . انتظاراً للحصول على صابونة واحدة. .

وشكا الدكتور حجازي للرئيس السادات، من عدم تعاون الصحافة معه، وعدم تقدير الصحفيين للظروف الاقتصادية القاسية. . كما شكا من نشر أخبار كاذبة عديدة. .

وعقد السادات هذا الاجتماع. . لكي يعلن عدم رضائه عن هذا الأسلوب، وقال إن هذا استغلال خاطيء لحرية الصحافة. . وكان متألماً. . وقال: من حقي عليكم أن أعاتب. .

وحاول مصطفى أمين أن يخفف من توتر الموقف، ووقف ليقول:

ـ نحن سعداء، لأننا نعيش عصر حرية الصحافة. . ولأننا نسمع رئيس الجمهورية يعاتب ولا يعاقب. .

ووقف فكري أباظة وقال للسادات: أنت المسئول. . أنت أطلقت الحرية بعد كبت طويل. . الحرية الآن هي انفجار غازات حبيسة. . ولا بد أن يخرج البركان من جوفه قذائف وحمماً. . وهذه هي الحرية التي أنت رائدها. . وهذا طبيعى بعد كبت طويل. . ولذلك نرجوك صلحاً مع الصحافة التي لن تنسى لك، أنك أطلقت حريتها» .

وارتاحت نفس السادات. . وقال له: شكراً يا عم فكري. .

وأصدر السادات بعد ذلك، قراراً بتعيين الدكتور حجازي رئيساً لمجلس الوزراء. . رداً على هجوم الصحافة عليه!

وفي احتفال عيد الفن، الذي اعتاد السادات أن يدعو إليه. . تقدم فكري أباظة إلى منبر الخطابة، وتحدث عن الفن وأثره في نهضة الشعوب. . وتحدث عن السادات الفنان، ثم عرج إلى حديث السياسة. . وتحمس في

الهجوم على البلاد العربية. . وقال إن مصر ليس لها مصلحة من محاربة اسرائيل. . وكان السادات في ذلك الوقت على أطيب العلاقات مع الدول العربية، وكان يستعد للحرب. .

ولكنه لم يغضب من كلمات فكري أباظة. . واستقبله في «البنوار» الذي يجلس فيه، وقال له: الكلام ده لو صدر من غيرك يا عم فكري، كان يبقى لي معاه حساب. . لكن أنا عارف إنت بتقوله بنية طيبة. . ».

* * *

وأعود ـ بعد هذا الاستطراد ـ إلى قصة اللقاء الأول مع عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين. .

قصدت إلى مبنى وزارة المعارف. . وسألت عن مكتبه . .

وأشاروا لي إلى حجرة مدير مكتبه. ودخلت، ووجدتها مليئة بعشرات الزائرين. . كأننا في سوق. ولمحني مدير المكتب أتقدم إليه. وشجعني، وسألني: أي خدمة؟ . . وعرفته، إنه الأستاذ سيد قطب (الذي أعدم بعد ذلك في عهد عبد الناصر بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم مع آخرين من جماعة الاخوان المسلمون).

ورويت له مطلبي. . وقدمت له عدد مجلة «الاثنين» وبه مقال مصطفى أمين، وعدد «المصور» وبه مقال فكري أباظة. .

وقرأ الرجل المقالين. . وقال لي: تفضل بالجلوس. . انتظرني. . سأعرض الأمر على الدكتور طه. .

وجلست أتفرس في وجوه الزائرين المزدحمين. . وفقدت الأمل، أنني سألقى طه حسين، فكلهم جاءوا قبلي. .

وبعد أقل من عشر دقائق، خرج سيد قطب من مكتب طه حسين، وعيناه تبحثان عني. . وأشار لي بيده وقال: تفضل. . الدكتور طه يريد أن يراك. .

ودخلت إلى المكتب. . ورأيت الرجل جالساً في قمة الأناقة، بقسمات

وجه كلها راحة وهدوء. وتحجب عينيه نظارة سوداء وإلى جواره سكرتير له، أمامه آلة كاتبة.. انتزع منها فرخاً من الورق، ثم أخذ ختماً، وختم به الورقة.. ثم طبقها ووضعها في مظروف..

كل ذلك جرى في لحظات..

وسمعت صوت سيد قطب يقول: هذا هو الطالب..

وخرج صوت طه حسين المنغم، ليسألني بلغة عربية ذات جرس ورنين:

- إرو لي حكايتك... وكيف حصلت على الليسانس وعمرك كما تقول ثمانية عشر عاماً وثمانية أشهر؟.. وهل امتيازك فقط في صغر السن، أم أنك من المتفوقين؟..

وتحدثت أمامه في انطلاق شجعني عليه هذا الترحيب العاطفي، وقلت إنني متفوق ونجحت بنسبة ٧٥ في المائة..

وأجاب: عظيم.. عظيم..

ثم قال لسكرتيره: سلمه الرسالة..

ثم قال لي: لقد تحدثت بالتليفون إلى صديقي صبري أبو علم باشا وزير العدل بشأنك.. وقد وعدني بأنه سوف يعينك في وظيفة معاون نيابة بالنيابة العامة.. وكتبت له هذه الرسالة التي في يدك الآن.. إذهب إليه على الفور، وسوف يقابلك..

وتلعثمت الكلمات على لساني.. وأنا أردد: شكراً.. شكراً يا سيدي..

وقال: أسرع ولا تضيع وقتاً.. وإذا طرأت أية معوقات، إخطرني بها..

وخرجت.. وأنا لا أصدق نفسي..

كيف يمكن أن أعين في النيابة العامة، وهي وظائف مقصورة على أبناء الطبقة الراقية، وأبناء المستشارين والوزراء؟..

وأخرجت الرسالة من المظروف وقرأتها..

اهتز جسدى من شدة التأثر. لقد قدمنى طه حسين إلى وزير العدل، وكأننى

ابنه! . . وكان ختامها: ولـذلك أرجـو أن يعين في النيـابة العـامة، كـما وعدتني معاليك بذلك، في حديثنا التليفونى !

وأسرعت إلى مكتب وزير العدل ودهش مـدير مكتبـه، لإصراري في ثقة على مقابلـة الوزير . . وقلـت له فى حماسة : معي خطاب شخصي لمعاليه من طـه حسين. ورفضت أن أعطيه الخطاب، واضطر الرجل أمام إلحـاحي، أن يدخـل إلى الوزير ليبلغه. . واستقبلني وزير العدل، وأصدر أمـراً بإحـالتي إلى الكشف الـطبي. . ثم حاول بعض المـوظفين في إدارة المستخـدمـين، إيجـاد عقبـات. . ولجـأت مرة أخـرى إلى طـه حسـين. . وتحـدث إلى وزيـر العـدل وانتهت كـل الإجـراءات. . ثم طـرأ مـا حـال دون تسليمي عمـلي (الأمـر العسكـري باعتقـالى) . . وأفرج عنـى بعد عـام . . وأشتغلت بالصحـافة. . ودارت الأيام . . وجـرت الأعوام. . وراء الأعـوام. . حتى كنـا عـام ١٩٦٠!. . أي بعـد هـذه الوقائع بسبعة عشر عاماً!

عـرض على صـلاح سـالم عضـو مجلس الثـورة، ورئيس مجلس إدارة دار التحـريـر، أن أتـرك مؤسسـة أخبـار اليـوم، لكي أعمـل معـه رئيسـاً لتحـريـر الجمهورية. . (ولذلك قصة سأرويهـا في فصل مقبـل). . وكان ذلـك بناء عـلى قرار من جمال عبد الناصر.

وكـان صلاح سـالم، قـد اتبـع أسلوب صحيفـة «الأخبـار» في أن يكـون للصحيفـة عـدد من رؤسـاء التحـريـر، تكتب أسماؤهم في الصفحـة الأولى. . للإفادة من شهرتهم ومكانتهم، على أن يكون من بينهم رئيس تحرير تنفيـذي هو الذي يؤدي عمل رئيس التحـرير في إخـراج الصحيفة. . وهـو المسئول الـوحيد قانوناً عن النشر.

ولـذلك ، فقـد تعاقـد مع الأستـاذ الدكتـور طه حسين ، واحـدا من رؤسـاء التحرير . . وكان الباقون . . كامل الشنـاوى وناصر الدين النشاشيبى . . وإبراهيم نوار . . ثم كاتب هذه السطور . .

وعندما بـدأت عملي كـرئيس تنفيذي للتحـرير. . كـان طه حسـين يزور الصحيفة، في مكتب صلاح سالم الذي قدمني إليه. .

وكان طه حسين، قد نسيني، ونسي قصتي معه.. بطبيعة الحال، فقد كنت واحداً من المئات والآلاف، الذين كان يقدم لهم عونه..

وقلت له وأنا أسلّم عليه:

سيّدي.. طبعاً سيادتك لا تذكرني.. لقد قدّمت لي أكبر مساعدة في حياتي في عام١٩٤٣..

قال:

ـ الحقيقة لا أذكر.

ورويت له ما فعله معي..

فعلق ضاحكاً:

ـ والآن أصبحت أنت رئيساً للتحرير.. مثلي في صحيفة الجمهورية..

قلت له:

ـ عفواً سيدي.. أنا مجرد صحفي يشرفني أن أكون واحداً من آلاف تلاميذك ومريديك.

وبدأت أباشر مسئوليّتي اليومية، بفهم أن وضع اسم طه حسين على الصحيفة كرئيس للتحرير، هو مجرد منصب شرفي.. وكان هذا ما أبلغني به صلاح سالم..

وذات يوم اتصل بي صلاح سالم تليفونياً، ليقول لي:

ـ الدكتور طه حسين يتحدث معي وهو متألم.. وقال انه لا يقبل مرتباً بغير عمل.. وقد اتفقت معه، على أن تتصل به تليفونياً مساء كل يوم، لكي تعرض عليه مانشيتات الصحيفة وأهم الأخبار.. وأرجو أن تفهم أن هذا مجرد إجراء شكلي لإرضاء الرجل.

قلت:

ـ يسعدني أن أتصل بأستاذنا طه حسين كل مساء.

وبدأت أتصل كل مساء بالدكتور طه حسين فى منزله.. وكان فى ذلك الوقت، يعاني من اعتلال صحته.. وكان يمضي معظم وقته في بيته، يقرأ له

سكرتيره الكتب التي يريدها. . وأهم المقالات في الصحف. . ويستقبل عدداً محدوداً من زائريه. وكانت زوجته حريصة على ألا يرهق نفسه.

وكنت أكتب باب «اليوميات» في الصفحة الأخيرة، مرة كل أسبوع. . ومرة قال لي طه حسين في التليفون:

ـ لقد أمتعتني «يومياتك». . لقد عادت بذاكرتي إلى يوم أن ولدت ابنتي. . كأنك كنت تعبّر عن مشاعري في ذلك اليوم، وأنت تكتب عن مشاعرك عند مولد ابنك. .

وأضاف:

ـ إنك صاحب أسلوب شائق. . وأحبّ أن أقرأ لك. . ولعلك الوحيد الذي أقرأ له في «الجمهورية» غير كامل الشناوي.

وكنت أعتبر هذه الكلمات، أوسمة تقدير أعتزّ بها، من عميد الأدب العربي. وكنت دائماً أتألّم، عندما أعود إلى ذكريات الجامعة، واسترجع ما حدث من بعض الطلبة الحزبيين ضد طه حسين. . فقد تجمهر ذات يوم الطلبة الذين يعارضون حزب الوفد، وهاجموا مكتب طه حسين، وهتفوا بسقوطه، وتطاولوا في محاولة اعتداء عليه. . وعيره بعضهم في الهتافات بأنه أعمى. .

وردّ عليهم طه حسين، إننى أشكر الله أن أفقدني بصري، حتى لا أراكم.

وكان هذا الحادث الهمجي، موضع استنكار الطلبة والأساتذة، الحريصين على قدر طه حسين ومكانته. .

* * *

وأعود إلى عملي بالجمهورية مع طه حسين. .

كنت أتحدث إليه يومياً بالتليفون، وأقرأ له المانشيتات. . وكان ينهي حديثه معي بشكري. . واستمر ذلك قرابة شهر كامل. . وكنت سعيداً، وكان راضياً.

ثم حدث ما عكر هذا الاتصال. .

سألني: ما هو المانشيت الذي اخترته؟.
قلت: المانشيت الأحمر هو «ديجول في أزمة». .

قال: أحسب أن المانشيت غير دقيق، لأن ما رويته لي من الأخبار لا يرتقى إلى. . مستوى الأزمة. . والأصح أن يكون المانشيت «ديجول في حرج». .

قلت: لو أذنت لي يا باشا في ملاحظة. . إن كلمة حرج، صعبة القراءة في العنوان الصحفي الكبير. .

قال: شكلها. .
قلت: المانشيتات تكتب بغير تشكيل. .
قال: لا أرى صعوبة في قراءتها. .
قلت: حاضر. .

واستشرت كامل الشناوي، وكان مكتبه ملاصقاً لمكتبي. . فقال لي:

ـ ابق المانشيت كما هو. . وأنا سأسوي الأمر مع طه باشا بعد ذلك. . إنه رجل سلس وسوف يقدر أن العبارة الصحفية غير العبارة الأدبية. .

وظهرت الجمهورية بمانشيت «ديجول في أزمة». . وغضب طه حسين، وأبلغ صلاح سالم، أنه لا يريد أن يستمر في الاشراف على المانشيتات والأخبار الهامة. . وهدد بالاستقالة. .

ونسينا «أزمة ديجول» لتثور «أزمة طه حسين»!

* * *

وسويت هذه الأزمة. . وثارت أزمات أخرى في صحيفة الجمهورية، وسوف أعرض لها في فصل مقبل. .

وأعود الى قرار وزير العدل بتعييني في النيابة العامة الذي لم ينفذ بسبب اعتقالي في اليوم المحدد لكي أحلف اليمين القانونية أمام النائب العام. .

ولكن. . لماذا صدر الأمر العسكري باعتقالي؟. . وماذا جرى في المعتقل؟. .

الفصل الثالث

المغامرة الأولى.. الهرب من المعتقل مع أنور السادات!

حكومة الوفد تقيل عميد الحقوق علي بدوي عام ١٩٤٣ - النيابة العسكرية تحقّق معنا - شلة مقهى «الأسترا» - في التخشيبة بقسم الموسكي - مفاجأة عند الفجر - إلى معتقل الزيتون - رؤية أنور السادات لأول مرة - ليالي المعتقل - الحمامصي يخطرني باختياري للهرب من المعتقل - السادات يطلعني على خطة الهرب - التدريب على الزحف - الحمامصي يخشى إصابتي برصاصة - تنفيذ الهرب من حجرة الأرانب - في منزل مكرم عبيد باشا - السفر إلى أسيوط - الاختباء في ملوى - السفر إلى شبين القناطر - معتقل مفرج عنه يكتشف وجودي - القبض على أمام سينما استديو مصر - محاولة الهرب - إعتقالي في زنزانة بسجن الأجانب - النقل إلى معتقل ماقوسه - مجيء الباقوري - الزعيم الشيوعي أنور كامل معنا - معركة بالسكاكين بين اثنين من حزب الوفد - إطلاق الرصاص على المعتقل - نجاة الباقوري من الموت - رفع الرايات البيضاء - الأفراح بعد سقوط حكومة الوفد وتولي أحمد ماهر رياسة الوزارة.

الفصل الثالث

المغامرة الأولى..
الهرب من المعتقل مع أنور السادات!

كانت المغامرة الأولى في حياتي، هي الهرب من معتقل الزيتون عام ١٩٤٣، وكان الهرب مع أنور السادات!

وقد نشرت قصة الهرب في مجلة «بلادي» عندما بدأت احترف الصحافة. وأذكر أن القصاص المشهور حلمي مراد، رآني في ذلك الوقت، وهنأني على كتابة هذه القصة. . وقال لي: «انها بأسلوب متمرّس محترف». وتصور أن غيري هو الذي كتبها لي. .

ما هي قصة الاعتقال؟. .

ثم ما هي قصة الهرب؟. .

عندما رأيت أنور السادات لأول مرة في معتقل الزيتون عام ١٩٤٣، كنت قد تخرّجت في كلية الحقوق، ولم أجاوز التاسعة عشرة من عمري. كنت واحداً من آلاف الشباب المتحمّس، ضد الاستعمار البريطاني، وضد فساد الحكم، ولكنني كنت أيضاً من الضائعين التائهين. لا ثقة في شيء. لا ثقة في أحد. الحاضر مظلم. والمستقبل أكثر إظلاماً. وكانت حكوم الوفد برياسة مصطفى النحاس قد صدمتنا في ذلك الحين بتصرف رأيناه قمة الفساد، وكنا لا نزال طلبة في الليسانس قبل التخرج. كان المرحوم الأستاذ علي بدوي عميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة، رجلاً له مهابة وكرامة. . وله في قلوب الطلبة حب وتقدير وإعزاز. وكان يعمل على رفع مستوى كلية الحقوق. فقرّر ألا يقبل في السنة الأولى بها إلا عدداً محدوداً. ولكن قيادات حزب الوفد في ذلك الوقت، كانت لهم أبناء يريدون دخول الحقوق، فطلبت الحكومة من العميد أن

بقبل عدداً استثنائياً ولكنـه رفض. وكان عنيـداً صارمـاً. وكانت إجـابته: «إذا قبلت استثنـاء واحـداً. . فيجب أن أقبـل كل المتقـدمين». ورفض الاستثنـاء، فصـدر قـرار مجلس الـوزراء بـإقـالتـه من منصب العميـد، ونقله إلى جـامعـة الاسكندرية أستاذاً بها. وصدمنا هذا القرار. وتجمهرنا في مدرج الليسانس على غير موعد. وهتفنا بحيـاة العميد الشجـاع وسقوط الفسـاد والاستثناء. وكـانت زعامة هذا التجمهر من عبد الرحمن الشرقاوي وأحمد السيد حمد (الوزير بحكومة السـودان بعد ذلـك) وسعد كـامل زميلنـا في «الأخبار» وأحمـد صـادق عـزام. . والحق أنني لست أدري أين هـو الآن. . وقـد كـان بعـد ذلـك من القيـادات الماركسية في الخمسينيات، وأصدر صحيفة.

وقبض بوليس الجامعة علينا. وتقرّر إحالتنا إلى النيابة العسكريـة للتحقيق معنا، فقد كانت الأحكام العرفية معلنة، وكان هناك أمر عسكـري يعاقب مجـرّد تجمّـع أكثر من أربعـة طلبة في مكـان واحـد، بـالحبس، والفصـل النهـائي من الجـامعـة! وكـان لا بـد من تحقيق إداري في الكليـة، قبـل تحقيق النيـابـة العسكرية. . وتولى هذا التحقيق المرحوم الأستـاذ الدكتـور وديع فـرج. . الذي حـاول نصحنـا قبـل أن يبـدأ التحقيـق، بـالإنكـار . . وقـال لكـل واحـد منّـا على انفراد. . «هناك مواقف ليس فيها أبيض وأسود. . ويجب أن يسيطر العقـل على الحماسة. . ولا داعي لأن يدفع الانسان بنفسه إلى التهلكة بلسانه. . ». .

وحضر التحقيق معنا المرحوم الأستاذ عبد المجيد الشرقاوي المحامي، ابن عم عبد الرحمن الشرقاوي. . وانتهينا من التحقيق الاداري، بالانكار الكـامل، باستثناء عبـد الرحمن الشرقـاوي. . الذي اتفق معنـا على أنـه سينكر. . ولكنـه سجّل الحقيقة كاملة، على نفسه فقط في التحقيق.

ثم جاءت النيابـة العسكريـة. . ورأى رئيسها. . ان الأمـر لا يستأهـل، استمـرار القبض، أو توجيـه الاتهام. . ورغم أن التحقيق استمـر حتى منتصف الليل إلا أنه قرّر الافراج عنا بالضمان الشخصي بعد أن تفـاهم مع المسئـولين في الحكومة حينئذٍ.

أقول. . كنت واحداً من التـائهين. . لا أعـرف إلى أين. . وكنت أحضر اجتمـاعات كـل الأحزاب. وأستمـع إلى زعمائهـا يخطبـون. وكنت أواظب عـلى

حضور اجتماعات حزب مصر الفتاة وانفعل بكلمات أحمد حسين. . وكنا نجتمع كثيراً «شلة واحدة». . عبد الرحمن الشرقاوي وشاكر كيلاني. وعقيل أحمد عقيل (الذى أصبح وكيلاً لوزارة خارجية السودان) . ثم نقيباً للمحامين . . وتوفى إلى رحمة الله. . وزكي شافعي (وزير الاقتصاد الأسبق). . كنا نجتمع إما في بوفيه كلية الآداب وإما في محل «استرا» صباح الجمعة بميدان قصر النيل (التحرير الآن). . ونتناقش في الكتب الجديدة وكان أهمها كتب العقاد وطه حسين. . ونتبادل الجدل السياسي. . ولكن أحداً منا لم يستقرّ على اتجاه سياسي واضح، اللهم إلا مقاومة الاستعمار البريطاني وتحدّي حكم الوفد وفساده. . وكنت أذاكر مع عبد الرحمن الشرقاوي وعقيل. . في منزل عبد الرحمن الشرقاوي بالحلمية. . حيث نأكل ونشرب وننام، وكأنه منزلنا كلنا. .

ولكنني انجذبت في آخر شهر لي بالحقوق. . إلى مكرم عبيد بعد أن انسلخ عن الوفد وكون حزب الكتلة. . وكنت متحمساً لحضور اجتماع أسبوعي كان يعقده للشباب في مكتبه بشارع قصر النيل. . وكنت أنفعل. . وأخطب في هذه الاجتماعات. .

المهم. . أننا اعتقلنا بعد حادث عميد الحقوق المرحوم علي بدوي وأخذونا بعد الافراج عنا من النيابة العسكرية في سيارات «بوكس» إلى مختلف أقسام البوليس بالقاهرة. وكان نصيبي قسم الموسكي، حيث أمضيت عشرة أيام في «التخشيبة». . وكان المفروض أن أنام على الأرض الأسفلت. . ولكن مأمور القسم، تحمل مسئولية أن أنام على عدد من ألواح الخشب. . وكانت تجربة مثيرة. . ولكنني كنت سعيداً بها، وأنا متشبث بالمثالية الرفيعة في السلوك السياسي بكل طهارة هذه السن. .

وعدنا إلى الدراسة. .

* * *
* * *

وتخرّجت. . وكان من دفعتنا. شباب ممتاز فعلاً، تولّى أهم المناصب بعد ذلك كما ذكرت من قبل .

وصدر قرار تعييني فى النيابة العامة وتحدد اليوم الذى أحلف فيه اليمين أمام النائب العام . وحضر والدى من أسيوط ليحضر هذه المناسبة التاريخية بالنسبة لعائلتى !

* * *
* * *

وفي فجر ذلك اليوم. . استيقظنا على طرق شديد على الباب. .

وفتحت الباب. . ودخل عدد من البشر أعلنوا عن أنفسهم. ضباط من القلم السياسي (ما يطلق عليه الآن مباحث أمن الدولة) واحتجزوني في حجرة. . وفتشوا البيت تفتيشاً دقيقاً حتى عثروا على نسخة من «الكتاب الأسود» كنت خبأتها فوق «سيفون» دورة المياه ومسودات من خطب كنت ألقيها في الجامعة مندّداً بفساد حكومة الوفد. . (الكتاب الأسود أصدره مكرم عبيد سراً، ويتضمن وقائع عن فساد الحكم الوفدي).

وقال لي أحدهم: عليك أن تعدّ حقيبة صغيرة بها بعض ملابسك!

قلت: إلى أين. . ؟

قال: حتى المحافظة. .

وهمس والدي في أذنيّ وأنا أعد الحقيبة. . بأن سيارة بوليس بالخارج، كما أن المنزل محاصر بعدد من رجال البوليس بالملابس المدنية. .

ولم أكن ضائقاً. . بل كنت سعيداً!

هأنذا أواجه تجربة سياسية أخرى. .

أما والدي. . وعلى الرغم من إدراكي لوقع الصدمة عليه فقد قال لي أمام ضباط القلم السياسي:

ـ لا تفكر في شيء. . إلا أنك تفعل ما يرضي ضميرك. .

وقادتنى رحلة الفجر إلى مكتب ضابط كبير فى القلم السياسى (اسمه حمدي بك). . وكان رجلاً سمح الوجه باسم العينين. . استقبلني بالترحاب وتحدّث معي ناصحاً:

ـ أنت في مقام ابني. . وأنت شاب متفوّق لك مستقبل كبير. . أنت لست من هؤلاء المحترفين للعمل الحزبي مقابل المزايا والمصروفات السرية. . لماذا تترك مستقبلك وتنزلق إلى هذا المنحدر.

وكنت طبعاً رافضاً لهذه النصائح. .

واستمرت رحلة الفجر في البوكس تقطع شوارع القاهرة وكلنا صامتون. .

ـ إلى أين؟

ـ ستعرف بعد قليل. .

ثم وقفت السيارة أمام بوابة حديدية ضخمة. . تتوسّط سوراً طويلاً على جانبيها. . والسور محروس من الخارج بجنود مسلّحين على مسافات متقاربة. .

استطعت أن أستنتج أننا في إحدى ضواحي القاهرة. .

وفتحت البوابة. .

ودخلت ومعي ضابط القسم السياسي. . لأرى حديقة واسعة يتوسطها مبنى من ثلاثة أدوار. . ومشينا حتى وصلت إلى سلّم للمبنى.

ورفعت بصري لأرى وجوهاً تطلّ من النوافذ وعيوناً متلهّفة لكي تعرف الزائر الجديد. .

وسمعت صوتاً يردّد اسمي!

وعرفت أنني الآن فيما يسمى بمعتقل الزيتون. .

* * *

* * *

لا أريد أن أطيل في التفصيلات. .

رأيت مجتمعاً جديداً. . وغريباً!.

مجموعة من كل أحزاب المعارضة. وهذا مفهوم. ولكن الباقين من أعمار متباينة وجنسيات مختلفة فيهم اليوغسلافي واللبناني والروسي الأبيض. وهؤلاء معتقلون بأمر السلطات البريطانية لإتهامهم بأنهم عملاء المحور. . عملاء لألمانيا النازية واليابان. .

سعدت بهذا المجتمع الجديد. . وبدأت أتعرّف على أعضائه. . كان معنا من المنتمين لحزب الكتلة عدد محدود. أحمد حسني مفتّش التحقيقات بوزارة المعارف. . وكان أخيراً مديراً فنياً لمكتب البرت برسوم سلامة عندما كان وزيراً لمجلس الشعب. . ثم سعد النشار طالب الحقوق وكان أقرب صديق لي. . ولا أذكر غيرهما. ولكن النجم اللامع المعروف كان جلال الدين الحمامصي.

وكنت أعرف من قبل معظم أعضاء مصر الفتاة. . وخاصة الأستاذ محمد صبيح الذي كان يصدر حينئذٍ كتاباً شهرياً عن اعلام مصر واعلام الاسلام. .

ولفت نظري شاب أسمر اللون، هادىء الحركة، كثير التأمّل يفضل الوحدة كثيراً، والجلوس في الحديقة متأمّلاً سارحاً ببصره في الخيال. . وهو يرتدي قميصاً وبنطلوناً من اللون «الكاكي». . وفي هذا الملبس البسيط، هو أنيق ونظيف. .

وكنت أراه معظم الوقت مع جلال الدين الحمامصي. . وكان له بين الجميع توقير خاص، ومهابة رغم مظهره المتواضع.

وعرفت أن اسمه أنور السادات.

ما قصته؟. . ولماذا اعتقل؟. .

سمعت همساً كثيراً، وروايات عديدة عنه، إنه بطل. وهو خطير. لقد فصلوه من الجيش وكان برتبة اليوزباشي. . وله قصة لا أحد يعرف سرّها وحقيقتها. . لقد كان يدبّر عملاً ضخماً للاتصال بهتلر وكان يعاونه شاب اسمه حسن جعفر وهو معتقل أيضاً، إنه أحمر الوجه أخضر العينين أصفر الشعر، يتحدّث العربية بلكنة مضحكة، إن والده مستشار مصري ووالدته ألمانية. . ونشأ في ألمانيا. . وقبض عليه في القاهرة في قضية أنور السادات.

ومن أيضاً؟!. .

الطيّار حسن عزت، إنه أيضاً بطل قصة خطيرة في سلاح الطيران المصري لا نعرف تفصيلاتها. وكان حسن عزت رغم التصاقه بأنور السادات مختلفاً تماماً عنه. السادات هادىء صامت. وحسن عزت حركة مستمرة، وفم لا يتوقف عن الكلام..

* * *

واندمجت في حياة المعتقل..

الاستيقاظ مبكراً، قراءة الصحف، المناقشات السياسية المفتوحة في كل غرف المعتقل. ثم السهرة في المساء في غرفة رشيد النحال رئيس شباب حزب الأحرار الدستوريين. (عضو الوفد الآن). وكان حلو الصوت. وكان يغني أغنيات أسمهان.. وكان أنور السادات يجلس متربّعاً، يهزّه الطرب لأغاني أسمهان بالذات.

وكنا نتنسّم الأخبار من خارج الأسوار..

* * *

ووجدتني أسعى إلى التعرّف على هذا الضابط الأسمر المفصول أنور السادات. انه مستمع جيّد. كلامه قليل. وتعليقه الغالب على ما يسمع هو إيماءة من رأسه. يقول بعدها بصوته العميق «صح.. صح».. ولست أدري لماذا كانوا يطلقون عليه اسم «الحاج».. صباح الخير يا حاج.. ازيّك يا حاج.

وأمضيت في المعتقل ٦ أشهر على هذا النحو.

لم أتجاوز أبداً خارج أسوار المعتقل. لم أرَ الشارع إلا من نافذة المعتقل.. وهو شارع الزيتون الرئيسي.. ولعلّ اسمه شارع طومان باي.

وذات صباح طلبني جلال الدين الحمامصي للتحدّث معه في غرفته. ثم أغلق الباب بالمفتاح..

وقال: سأفضي إليك بسرّ سياسي خطير.. وحذار من البوح به لأي إنسان..

قلت: خيراً..

قال: هل لفت نظرك شيء في أخبار الصحف.

قلت: لا..

قال: هناك خبر هام.. ان النائب ابراهيم دسوقي أباظة (باشا) (والد الكاتب ثروت أباظة) عضو الأحرار الدستوريين قدم استجواباً للحكومة عن سوء معاملة المعتقلين السياسيين..

قلت: وما أهمية ذلك..

قال: لقد فكرنا هنا بأن من واجبنا الوطني أن ندعم هذا الاستجواب..

قلت: وكيف؟..

قال: هذا هو السرّ.. لقد قررنا أن يهرب عدد من المعتقلين هنا.. ووقع الاختيار عليك من ضمن من تقرر هربهم!!

وشرح لي جلال الحمامصي التخطيط الكامل للهرب وباب حجرته مقفل بالمفتاح. قال:

ـ الفكرة التي تدارستها مع أنور السادات، هي أن يهرب عدد محدود من المعتقلين، يمثلون مختلف الاتجاهات. خطة الهرب وضعها أنور السادات وسوف يبلغك بها وهو الذي سيحدّد موعد الهرب. أننا نريد أن نساند الاستجواب المقدّم من ابراهيم الدسوقي أباظة عن سوء معاملة المعتقلين. إن وقوع الهرب، وتعريض الهاربين أنفسهم للقتل برصاص الحراس، دليل على أن المعتقلين يعاملون معاملة سيّئة.. وإلا لما أقدموا على هذه المجازفة التي يمكن أن تعرّضهم في حالة فشلها للموت.

ثم أعطاني جلال الحمامصي عدداً من الخطابات المكتوبة داخل أظرفها وقال:

ـ سيكون من مسئوليتك أن تضع هـذه الخطابـات في صندوق بـريد بعـد الهـرب. الخطابـات بصيغة واحـدة تقريبـاً، وهي مـوجّهـة إلى رئيس الحكـومـة ورئيس مجلس النواب والسفير البريطاني وعدد من المسئولين. وخطاب منها موجّه إلى مكرم (باشا)..

وسألت:

ـ ماذا في هذه الخطابات؟..

وأجاب:
ـ الخطابات مذكور فيها أن عدداً من المعتقلين قد قرّر الهرب، مدركين أن ذلك يعرّضهم للقتل.. وأنهم سيختارون مواقع سرّية لاختفائهم بعد الهرب.. وأنهم سوف يضربون عن الطعام حتى الموت في أماكن الاختفاء. وسوف يوافون الحكومة بتقارير منتظمة عن حالتهم الصحية ولن يعـدلوا عن الاضراب إلا إذا أعلنت الحكومة إلغاء الأحكام العرفية والافراج عن المعتقلين.

وتسلّمت الخطابات من جلال الحمامصي وخبّأتها في مكـان أمين بحجـرتي في المعتقل. وتوجّهت إلى الحجرة التي كان يقيم فيها أنور السـادات مع آخـرين وهي حجرة واسعة.

* * *
* * *

وروى لي أنور السادات ـ عـلى انفراد ـ وكنت في قمّـة الانتباه والفـرحة، خطة الهرب، قال:

ـ لقد اختارك جلال الحمامصي ممثـلاً عن الشباب في الهـرب ووافقت على هذا الاختيار.

سوف نهرب من حجرة الأرانب ـ لا أحد من الحرس يشكّ في أي معتقل يدخل هذه الحجرة لأنه معروف أن المعتقـل الروسي الأبيض يـربى فيها الأرانب منذ زمن طويل. وهو المكان الوحيد الذي يصلح للهرب لأسباب عـديدة. أولاً إنها ملاصقة لغرفة تغيير نوبات الحراسة. وهذا التغيـير وتسلّم البنادق يستغـرق

عشر دقائق أو أكثر، كل ست ساعات ويصاحبه هرج ومرج وأحداث.

خلال هذه الدقائق كل يوم نتمكن من أحداث حفرة على شكل دائرة تتّسع لجسم انسان فى سقف الحجرة ولدينا سلّم فى حجرة الأرانب. سنحتاج إلى بريمة لخرم السقف سنأخذها من المعتقل اليوغسلافي. وسأقوم أنا وحسن عزت بمهمة «تقوير السقف».

ثم قال لي:
- في الموعد المحدّد للهرب.. سندخل فرادى إلى حجرة الأرانب، خذ معك غياراً واحداً فقط. ورأيي أن تدخل إلى الحجرة دخولاً طبيعياً دون أن يلحظك أحد. عندئذٍ ستصعد على السلم حتى تصل إلى القطعة المقوّرة من السقف.. ستخرج بنصف جسدك ثم تميل بهذا النصف حتى تلتصق بالسقف وتزحف بعد ذلك حتى تخرج باقي جسدك.. لتصل إلى ما فوق الحائط الذي يفصل بين حجرة الأرانب وحجرة السلاح.. الزحف هنا لن يحدث صوتاً لأنه ليس ثمة فراغ.. ستصل بالزحف إلى السور الخارجي.. هذا السور ليس عليه حراسة من الخارج لأنه يؤدي إلى حديقة القصر المجاور. ستقفز إلى سور هذه الحديقة.. ثم قفزة أخرى إلى الأرض وهي فضاء على ناصية القصر.. ستكون هناك سيارة في انتظارنا في الموعد المحدّد..

* * *
* * *

ثم طلب مني أنور السادات أن نلتقي في يوم آخر، لكي يدرّبني على طريقة الزحف.

وحدث.. طلب مني أن يكون الزحف على الكوعين والركبتين لأن هذه الطريقة لا تحدث صوتاً على الاطلاق. ودرّبني في الحجرة على ذلك..

وأصبحت أمضي الليل حالماً برؤى الحرية!

أولاً.. المغامرة مثيرة جداً لمن في مثل سني (أقل من ١٩ سنة)..

ثانياً.. اختياري لكي أكون في فرقة الهرب دليل على الثقة برجولتي وشجاعتى وأهليتى لكتمان الأسرار.

ثالثاً. . الخروج إلى الشارع لأول مرة بعد ستة أشهر على الأقل وكيف سأرى الحياة والناس. . وأصدقائي. . وأسرتي في أسيوط. . وأين أختبىء. . إلى آخر هذه الأحلام الممتعة. .

وبعد يومين أو ثلاثة طلبني أنور السادات وقال لي:

ـ لقد أكملنا حفر السقف. . وبقي أن نضع لوحاً من خشب «الابلاكاش» ليغطي الفجوة في السقف. . بحيث إذا رأى أحد السقف من أحد الأدوار العلوية في مبنى المعتقل فإنه لن يلاحظ شيئاً. .

وقال لي:

ـ سنضع هذا اللوح الخشبي غداً عند الظهر. . وعليك أن تصعد إلى سقف المعتقل، وتراقب العملية حتى تنتهي. . وحتى تطمئن إلى أن وضع اللوح الخشبي يخفي الحفرة تماماً. . ولن يلاحظها أحد. .

وفعلاً تم ذلك. .

ورأيت اللوح الخشبي يستند على سقف حجرة الأرانب ويغطي الحفرة ونزلت وأبلغت السادات بذلك. .

لقد استغرقت مهمة الحفر بضعة أيام. وكانت شاقة. كان السادات يمسك بالسلم ليصعد حسن عزت ويجري بالبريمة عملية الحفر. . وكان التراب ينهال عليهما. . ثم كانا يتبادلان الامساك بالسلم. . والحفر. . وكل ذلك كان يتم في بضع دقائق كل ست ساعات. . هي دقائق تغيير الحراسة. .

وبعدها. . أخطرني أنور السادات بساعة الصفر. .

ـ «بعد يومين. . عند آخر ضوء. . والليلة غير قمرية. .».

ووصلت نشوتي إلى قمتها!

* * *

وفي اليوم التالي. . «أي قبل موعد الهرب بيوم واحد» طلبني جلال الحمامصي وأقفل باب حجرته ثم فاجأني بقرار غريب.

قال لي:
ـ أنـا الذي اختـرتك للهـرب. . ولكني عدلت عن قـراري وأطلب منك عدم الهرب.

وهزّتني الصدمة. . وسألته:
ـ لماذا؟. .

وقال:
ـ هـذه عمليـة خـطيرة. . ويمكن أن تتعـرّض فيهـا لإطـلاق الـرصـاص عليـك. . وأنا أعتـبر نفسي مسئـولاً عنـك هنـا في المعتقـل كـأخ أصغـر. . وأن ضميري أرهقني كثيراً وأنـا أفكّر في احتـمال إصابتـك ولذلـك فإنني عـدلت عن قراري وأبلغت بذلك أنور السادات. .

قلت: هذا مستحيل. . أنا مستعد تماماً للهرب ولن أعدل.
قال: ستفصل من الحزب. .
قلت: أنا لست عضواً في الحزب لكي أفصل. . أنا فقط مؤيّد للحزب.
قال: سوف أمنعك.
قلت: من المستحيل أن يمنعني أحد.
قال: سيكون هذا التصرّف منك نهاية علاقتي معك. .
قلت: أنا متمسّك بعلاقتي بك. . ولكنني سوف أهرب.

وانتهى الحوار. ورفض الحمامصي ـ وهو المعروف بعنـاده أن يسلّم عليّ. . وأسرعت إلى أنور السادات وأبلغته بما جرى. . ووافقني على وجهة نظري. .

* * *

وجاءت اللحظات الحاسمة. .

ولففت بيجامة وغيـاراً دخلياً وأمضيت النهـار بطولـه متوتّـر الأعصاب في انتظار الخلاص.

وغربت الشمس. .

ومرقت إلى حجرة الأرانب. . دون أن يلحظني أحد.

وفي دقائق كانت هذه الحجرة التاريخية تضم: أنور السادات، حسن عزت (طيار)، أحمد حسني (قانوني)، محسن فاضل (الرئيس السابق لمكتب مصر للطيران في باريس)، وأنا.

الظلام حالك.. والحديث بالهمس..

وقال السادات: حسن في الأول.. لكي يصل إلى السيارة وأنا سأمسك لكم السلم.. وسأكون آخر من يتسلقه.

ومرّت اللحظات طويلة وأنفاسنا تحصى الثواني.. أي خطأ.. أو أية مفاجأة يمكن أن تعرّضنا للهلاك..

وأمسك السادات بالسلم.. وصعد حسن عزت.. وقد انهال علينا التراب وهو يخرج جسده من الفتحة.. ونزلت فوق رؤوسنا كأنها شلّال مياه بهدير مرتفع..

وصعد الثاني.. والثالث.. وأذكر أنني كنت الرابع..

وحدثت المفاجأة..

في كل خطة مهما كانت محكمة.. هناك دائماً احتمال غير متوقّع..

كان في حديقة القصر المجاور كلب «وولف».. ما أن أحسّ بهذه الحركة حتى أخذ يعوي عواءً متصلاً.. وبصوت يهدر كل سكون..

وخشيت فعلاً في هذه اللحظات أن ينهار كل شيء..

ولكن أنور السادات صعد.. وزحف.. وقفز.. وفي لحظات كنا جميعاً في السيارة المنتظرة وقد حلّ الظلام الكامل..

وتبادلنا التهنئة بالحرية.. وتبادلنا القبلات.. واندفعت السيارة في طريقها..

وأخذنا نضحك طويلاً ونحن نعلق..

- ترى متى يمكن أن يكتشف ضابط المعتقل أننا هربنا؟

- لن يكتشف ذلك إلا بعد العشاء.. وبعد إجراء التمام..

- إذن.. حوالي الثامنة والنصف أو التاسعة..

ـ فعلاً . . ليس قبل ذلك . .
ـ ترى كيف سيتصرّفون؟ . .
ـ ستكون أولاً مفاجأة لكل المعتقلين باستثناء جلال الحمامصي . .
ـ لا بد أن يفتحوا تحقيقاً على الفور . .
ـ الضابط النوبتجي سيفصل . .
ـ أو يأخذ جزاء شديداً . .
ـ المهم أن الخطة نفذت بنجاح . .
وفجأة وعلى غير انتظار . . سمعنا دوي فرقعة شديدة . .
وتوقفت السيارة . .
لقد انفجرت إحدى العجلات . .
ـ مشكلة كبرى . . لأنه لا يوجد ستبن . .
هكذا قال حسن عزت :

وهنا تكلّم أنور السادات على الفور . . «كلنا سيغادر السيارة على الفور وعلى كل واحد أن يتصرّف بمفرده» . .

وتبادلنا القبلات . . واختفى الجميع في الظلام . .

* * *

وتركت السيارة وأغلب الظن أننا كنا وصلنا إلى العباسية . ولم أكن قد فكرت . . أين أختبىء؟ ولمن ألجأ في القاهرة؟ . . كما أنني لا أملك في جيبي أكثر من جنيهين! . .

لا أذكر هل ركبت سيارة تاكسي . . أم استخدمت الأتوبيس أو الترام . . ولكنني أذكر أنني توجهت إلى منشية البكري في مصر الجديدة حيث يوجد منزل مكرم عبيد (باشا) . . وضغطت على زرّ الجرس . . وفتح الباب وسألت:

ـ الباشا موجود . .
ـ نعم . . من أنت . .
ـ أبلغوه بأنني قادم من معتقل الزيتون أحمل رسالة خاصة إليه . .

وجلست في «الهول». . وخرج لي المرحوم الأستاذ محمد مخلوف. . كان من أقطاب حزب الكتلة. . ورويت له ما جرى. . وأخذني من يدي إلى صالون داخلي حيث كان يجلس مكرم عبيد. . واستقبلني الرجل استقبال الأبطال وأعدت على مسامعه القصة كلها. . وسلمته الرسالة الموجهة إليه. . وشدّ على يدي مشجعاً. . وانصرفت. .

وأذكر انني اقترضت من المرحوم الأستاذ مخلوف ثلاثة جنيهات. ومن منزل مكرم عبيد اتجهت إلى ميدان باب الحديد. . ثم إلى محطة مصر حيث يوجد صندوق بريد ضخم وأنزلت الرسائل في الصندوق وأنا طوال الوقت أتلفّت حولي. . خشية أن يوجد من يراقبني أو يعرفني. . ومن ميدان باب الحديد اتجهت إلى شارع الظاهر. . ودخلت إلى مطعم كنت أعرفه. . وتناولت عشائي. . وأنا أفكّر. . ماذا سأفعل؟. . أين سأختبىء؟. .

وأخيراً استقرّ فكري على أن أذهب إلى أسرتي في الصعيد. .

وأسرعت مرّة ثانية إلى باب الحديد. . وتزاحمت على نافذة تذاكر الدرجة الثالثة. . وأسرعت إلى القطار حوالي منتصف الليل لكي أهبط في أسيوط. . وطوال الطريق كنت أتصوّر أن كل راكب يتفحصني ويتفرّس في وجهي. . وتصادف مرور فرقة بوليس للتفتيش على مجرم هارب من العدالة. كان أفرادها يوجهون ضوء البطاريات إلى أوجه المسافرين. . واستقر النور على وجهي. . واضطربت وتظاهرت بالنوم العميق. . حتى أحسست أنهم جاوزوني إلى باقي عربة القطار. .

ووصلت أسيوط قرب الفجر. .

وتسللت سيراً على الأقدام إلى منزلنا القريب من المحطة في شارع الهلالي. .

* * *

وصعدت إلى الدور الثالث حيث كنا نسكن. . وطرقت الباب طويلاً وأنا

أخشـى أن يستيقظ الجيران مـن ضجيج طـرقى . . فقـد كان الكـل فى شقته فى نـوم عميق . .

واستيقظ والدي . . وسأل قبل أن يفتح :

ـ مين ؟ . .

قلت :

ـ أنا . . صبري .

وصبري هو اسمي العائلي.

وفتح الباب . . واحتضني وقبّلني . . وسألنى :

ـ ماذا جرى؟ . . كيف حضرت؟ . . هل أفرج عنك؟ . .

والتقطت الكلمة الأخيرة من سؤاله . . وكذبت. وقلت :

ـ نعم . . إفراج . .

ثم أردت أن أحتاط وقلت له :

ـ ولكن الافـراج تقرّر بشرط . . وهـو أن أبقى في سكني بـالقـاهـرة تحت المراقبة لبضعة أشهر . .

واستيقـظت أمي واحتضنتني وبكت . . وهللت شقيـقـاتي . . وتنـافس الجميع في تقديم الطعام . .

ثم سألني أبي :

ـ أين ملابسك . . وحقيبتك؟ .

وأجبت :

ـ فى القاهرة . . أنا حضرت فقط لرؤيتكم . .

ولكن والدي تشكّك في إجاباتي وانفـرد بي جانبـاً أثناء إنشغـال والدتي في إعداد الطعام وقال لي :

ـ ما هي الحقيقة؟ . . لم أتعوّد منك الكذب . .

وأفضيت له بالحقيقة . . ووعدني بأن يحتفظ بالسرّ عن والدتي وشقيقاتي . . حتى لا يصيبهن الفزع . . ثم قال لي :

ـ والآن . . يجب أن تعود إلى القاهرة فى أول قطار . . وتبحث لك عن مخبأ . . لأنهم سيطاردونك هنا . .

قلت: لا . . سأذهب إلى ملوى . . إلى أقارب والدتي . . هناك لا يعرفني أحد . .

ووافق والدي . .

وأسرع هو إلى المحطة واشترى لي تذكرة . . وعاد ليبلغ والدتي بضرورة سفري . .

وبكت طويلاً وهي تسأل: متى يكون الافراج الكامل!

قلت: بعد بضعة أشهر . .

ثم صحبني والدي إلى المحطة وودعني وهو ينصحني بالحيطة والحذر.

* * *

وكانت مفاجأة لأقارب والدتي في مدينة ملوى . . وكل ما قلته أنه أفرج عني وقد جئت لأستريح . . ولا أريد مغادرة المنزل أبداً . .

ورحبوا بي كثيراً . .
ولكنهم نشروا الخبر بين كل الأقارب . .
وبدأ الزوار يتوافدون لتحيتي . .
فكان لا مفرّ من أن أترك ملوى . .

وتركتها فعلاً بعد ثلاثة أيام إلى القاهرة وفكرت في أن أذهب إلى مدينة «شبين القناطر». هناك قريب لوالدتي يعمل في شركة لحلج الأقطان . . وهو بعيد عن السياسة تماماً . . وسوف يرحّب بي بكل كرم . .

ومن محطة كوبرى الليمون في القاهرة . . اتجهت في وضح النهار إلى شبين القناطر . . واستطعت أن أستدل على موقع عمله . . وترك لي هو وزوجته حجرتها . . وأمضيت أياماً في قمّة السعادة. أكتب وأقرأ وأتمشى في شوارع

المدينة الصغيرة وأزور مصنع حلج الأقطان.. إلى أن فوجئت ذات يوم وأنا في حديقة صغيرة بمن يتجه إلى تحيّتي والسلام عليّ بحرارة..

انه أحد زملاء المعتقل.. وكان قد أفرج عنه!

وأصابني ارتباك عظيم.. وسألني: أين تقيم هنا.. لقد سمعت عن قصة هربكم.. وأنا في خدمتك!

لم أكن على صلة وثيقة به في المعتقل.. وهو عامل من أعضاء مصر الفتاة. وقد تشكّكت في سبب الافراج عنه. وداخل الأسوار تثور الشكوك دائماً وتنطلق الاشاعات.. وكانت هناك قصة يهمس بها بعض أعضاء مصر الفتاة وهي أنه عميل القلم السياسي.. وقد يكون هذا مجرد كذب.. ولكن أجواء المعتقلات والسجون تتيح دائماً لمثل هذه القصص أن تنتشر!

وكنت قد أمضيت عشرة أيام في شبين القناطر.. ولكنني بعدما التقيت بهذا الشاب الذي لا أذكر اسمه.. قررت أن أترك المدينة وعلى الفور..

وفوجىء قريبي.. ولماذا هذا القرار المفاجىء؟..

فقلت.. أريد فقط أن أزور خالي في القاهرة.. وهو زميلي في الحقوق.. وتخرّج في نفس الدفعة هذا العام..

ووافقت الأسرة على رحيلي.. بشرط أن أعود لهم في اليوم التالي..

* * *

ركبت القطار.. وكان ذلك في الرابعة بعد الظهر.. ونزلت إلى باب الحديد.. وقررت أن أسير في شوارع العاصمة على غير هدى..

كنت قد اشتقت إلى مثل هذه الجولة.. ومنذ هربي من المعتقل وأنا لم أرَ من القاهرة شيئاً.. كانت مثل هذه الجولة بالنسبة لي متعة كبرى بعد أكثر من ستة أشهر في المعتقل..

وقررت أن أبدأ بشارع عماد الدين.. وبعدها اتجه إلى الظاهر حيث

يسكن خالى الفى بقطر حبشى (أصبح مستشارا بمحكمة النقض) لكى أتدبّر معه أمر اختفائي . .

واخترت شارع عماد الدين لأنه مزدحم بالناس . . ولا شك أنني سأضيع وسط هذا الزحام . .

ووصلت إلى رأس الشارع . . واتجهت إلى حيث توجد سينما «ستديو مصر» وكانت أكبر دار تعرض الأفلام المصرية . . وأخذت أتفرّج على صور الفيلم المعروضة في ساحة الدخول . . وكأنني قروي يزور القاهرة لأول مرة!

وتركت سينما ستديو مصر واتجهت إلى شارع يواجهها تقع فيه السينما الأخرى الكبيرة واسمها «سينما كوزمو» . . ولست أدري الآن مصيرها . .

وفي منتصف هذا الشارع كانت توجد قهوة يجلس إليها أهل الفن . . ولفت نظري أن النجم الضاحك حسن فائق كان جالساً . . وأنا من هواة النجوم . . فتفرست فيه طويلاً وأنا أتأمل وجهه . الضاحك . . وفجأة رأيت شخصاً إلى جواره يصيح بأعلى صوته :

« هوه . ده أمسكوه » !

وتسمّرت في مكاني . .

أذهلتني المفاجأة . .

اتضح لي أن هذا الشخص هو ضابط المعتقل الذي هربنا في نوبته! . . وكان يرتدي الملابس المدنية!

هل يمكن أن تأتي المصادفة بحدث مثل هذا . .

أعود من شبين القناطر إلى القاهرة . . لأسير في هذا الشارع بالذات . . وأتوقف بإرادتي أمام الضابط الذي هربنا خلال نوبته في المعتقل!

وأمسكني بيده ، في عصبية ، وهو يردّد :

- خربت بيتى . . الله يخرب بيتك . .

ولكنه ضغط بيده على ذراعي النحيل بشدة وكأن أصابعه تحولت إلى «كلبش» حديدي . .

وقال لي وهو يدفعني أمامه بكل وقاحة:
ـ امشي معايا..
وبدأ الناس يتجمعون في هذا الشارع المزدحم..

فقلت له:
ـ ارفع يدك.. ودعني أسير إلى جوارك باحترام.. وإلا فإنني سأصيح بأعلى صوتي في الناس.. أنني معتقل.. وسأهتف بسقوط مصطفى النحاس (رئيس الوزراء).. وسأحدث فضيحة سياسية كبرى..

وتدبر الضابط الشاب معنى كلماتي.. ولم يجب.

فعاودت القول:
ـ لن يلحق بي أي ضرر.. ماذا ستفعلون بي أكثر من اعتقالي.. لا شيء. ولكن الضرر سيصيبك أنت.. أنت الذي تسبب بسوء تصرفك في فضيحة سياسية..

واقتنع الرجل..

وسرنا معاً بهدوء وانفض زحام الناس حولنا.. واتجهنا إلى شارع ابراهيم باشا الذي يتقاطع مع الشارع الذي كنا نجتازه..

فقلت له: إلى أين سنذهب؟..

قال: إلى المحافظة..

ولما اقتربنا من التقاطع.. أخذ ينادي على تاكسي..

وانتهزت هذه اللحظات. التي انشغل فيها عني بمناداة التاكسي.. وأطلقت سَاقَيّ للريح!

جريت بأقصى سرعة في شارع ابراهيم باشا متجهاً إلى ميدان الأوبرا.. وجرى الضابط ورائي وهو يصرخ:
ـ امسك.. حرامي.. حرامي..

ونظرت خلفي ووجدت عـدداً كبيراً من النـاس يجري وهـو يردّد صرخـة الضابط.. امسك حرامي.

وتـطوّع أحـدهم ومـد قـدمـه أمـامي فـوقعت.. ولكنني نهضت سريعـاً وتابعت الجري.. ثم وجـدت شارعـاً جانبيـاً على يميني فـانحرفت إليـه وإذا به شارع مسدود..

ولم يكن بد من التسليم!

وعـادت قبضـة الضـابط الحـديـديـة تمسـك بـذراعي.. وأوقف سيـارة تاكسي.. وقفت بنا عند دار المحافظة في باب الخلق..

* * *

لا أريد أن أطيل. وضعت في حجرة انتظاراً لصدور القرار بشأني. وأطلّ رئيس القسم السيـاسي برأسـه وهو يفتـح البـاب لـيراني.. ثم أغلق البـاب ولم يتحدّث إليّ.

وبعد أقل من ساعة.. كنت أنقل مع حراسه في سيارة «بوكس» إلى مبنى جديد على معرفتي.. يتكون من دورين من الطوب الأحمر اللامع. وعرفت أنـه سجن الأجانب.

وأقفلوا على باب زنزانة صغيرة، بها سرير وبطانية.

* * *

وذات صباح.. قال لي الحارس.

- استعد.. سوف ترحل..

- ألا تعرف.. إلى أين؟

- سمعت المأمور يقول أنك ذاهب إلى معتقل ماقوسه..

- وأين هذا المعتقل..

- بجوار مدينة المنيا في الصعيد..

* * *

وصل القطار إلى مدينة المنيا . .

ومنهـا نقلتنا سيـارة بوكس مـع حارس وهـو ضابط قليـل الكـلام . . إلى طريق زراعي خارج المنيا . . حتى وصلنا إلى قرية ماقوسة.

المعتقل هنا . . قصر أيضاً ! . . يملكه أحد ثراة القرية، وقد استأجرته منـه حكومة الوفد لكي يكون معتقلاً . .

وإدارة المعتقل منفصلة عنه . لهـا مبنى من دور واحد خـارج المعتقل، بـه قائد المعتقل وعدد من الضبـاط الشبان، كـان أحدهم مشهوراً لأنه لاعب كـرة معروف واسمه «العشرى» . .

ومررت على الادارة . . ثم دخلت مـع أحد الضبـاط إلى مبنى المعتقل من باب ضيق . . وعرفني بمكاني في إحدى الحجرات . .

والمكـان قصر أنيق فعلاً من دورين فقط . . ولـه شرفة كبـيرة ويطل عـلى حديقة جميلة التنسيق . .

والأعداد هنا كبيرة، فوق اتساع الحجرات . .

ووصـل الشيخ البـاقوري بعـد ذلـك (التقيت بـه في سجن الأجـانب). وخصصت له حجرة تطل على النيل . .

وكان هناك حجرات تتسع لثمانية أشخـاص . . المهم أنه كـان واضحاً أن عـدد المعتقلين أكثر من اتسـاع الحجـرات، ولأول مـرة ألتقي في حيـاتي بمعتقـل شيوعي !

انه أنور كـامل . ولم ألقـه بعد ذلـك ـ أي بعد خـروجنا من المعتقـل ـ إلا نادراً . . ولعله الآن في شركة أو مصنع كبير بعد أن هجر الفكر الشيوعي .

كان شاباً مثقفاً . . وحـاول أن ينشر الدعوة بين الشبـاب . . وكان يحتفظ بنسخة من دستور الاتحاد السوفيتي لكي يبرهن لنا على أن الديمقـراطية الحقيقيـة قائمة في هذا البلد .

وقام بتحفيظنا نشيداً شيوعياً . . يتحدث عن حقوق الانسان . .

وكان هادىء الطبع، منطقي الحجة.. محبوباً من زملائه، مشاركاً في أي قرارات إجماعية..

ورأيت لأول مرة عمال الطباعة الذين طبعوا الكتاب الأسود في منازلهم.. كما رأيت أعضاء مكتب مكرم عبيد، كلهم معتقلون.. ورأيت عدداً كبيراً من طلبة الأزهر..

ولكن المفاجأة الكبرى.. كانت في وجود اثنين من زعامات العمال في حزب الوفد!

واحترنا في أمرهما..

وتردّد أن فؤاد سراج الدين (سكرتير حزب الوفد) ووزير الداخلية حينئذٍ.. هو الذي قرر اعتقالهما حتى يمداه بتقارير كاملة عن سلوك المعتقلين..

وكان الاثنان معروفين بأنهما من قادة المظاهرات العمالية.. ومن معتادي الصدام مع البوليس بالعصى والطوب والحجارة!

ولأول مرة.. اختلفا!

وقررا أن يتبارزا أمامنا.. وفي يد كل منهما سكين!

وبدأ الأول المبارزة بأن أمسك بلوح خشبي من ألواح السرائر وضرب به جبهته.. وانقسم اللوح إلى اثنين!.. ثم صرخ صرخة القتال..

وأقمنا دائرة حولهما وهما يتبارزان بالسكاكين..

مشهد فريد وخطير.. حتى تدخلت إدارة المعتقل وفضت الاشتباك!

* * *

ثم وقع في المعتقل حادث جليل..

فوجئنا ذات ليلة بقدوم أكثر من أربعين معتقلاً.. جاءوا بهم من معتقلات أخرى.

ولم تكن هناك أسرة لهم.. ولم يكن في الحجرات متسع لمزيد من الأسرة حتى لو أتت الحكومة بها..

وعقدنا اجتماع احتجاج . .
ولكن أحداً لم يستجب للاحتجاج . .

وعقدنا اجتماعاً ثانياً وقررنا تخريب المعتقل . . وكان القرار أن نـرمي بكل أثـاث المعتقل إلى الـطريق العام عـلى النيل من نـوافذ المعتقـل . . من الدواليب والأبواب والنوافذ . . والأسرة . . ولم يبق لنا إلا المراتب فقط .

وكـانت الفكرة أن رمي أثـاث المعتقل في الـطريق العام سوف يعوق هذا الطريق . . وسوف تتوقف كل لوريات النقل والسيارات الخاصة . وسـوف ينتشر الخبر . . وهذا يحرج الحكومة .

ونفذنا الفكرة . . ونحن سعداء . .

وأمضينا الليلة الأولى على المراتب ونحن نغني جميعاً نشيد مصر الفتاة .

«يا ظلام السجن خيم . . اننا نهوى الظلاما» .
«ليس بعد الليل إلا . . فجر مجد يتسامى» .

ثم بدأنا في الصباح التالي . . الخطوة الثانية .

تحطيم بلاط الشرفات . . وتخريب الأرضيات الخشبية . . والسلم الخشبي الثمين داخل المبنى .

وهنا تلقينا إنذاراً . . ولم نكن نتصوّر أنه جادّ .

ثم لاحظنا أن قوات ضخمة من البوليس بدأت تحاصر المعتقل في الحقول على شكل نصف دائرة . .

وفعلاً بدأوا إطلاق الرصاص!

واحتجبنا وراء الحائط . . وكان الرصاص يمضي فوق رؤوسنـا من النوافـذ المفتوحة لكي يستقر في الجدران . .

واستمرت هذه المعركة للارهاب أكثر من ساعة . .

وكادت رصاصة أن تودي بحياة الأستاذ الباقـوري . الذي كـان يجلس في

حجرة الدكتور حسن نور الدين (حزب وطنى قديم)، ولولا أن وقع فنجان القهوة من يده فانحنى لكى يرفعه . . لكانت الرصاصة قد استقرت فى صدره . .

وكنا نظهر بين الحين والحين لكي نقذف في الهواء بطوب البلاط والأعمدة التي حطمناها. . ولكن كان دفاعاً يائساً. . المهم أن أحداً لم يصب من المعتقلين على الرغم من أنهم أطلقوا آلاف الرصاصات.

وجاء رجال الأمن بعد أن رفعوا مناديل بيضاء. . ورفعنا نحن أيضاً ملاءات السرائر البيضاء. . إعلاناً لهدنة يتم خلالها التفاهم. .

وسجلنا احتجاجنا على هذا الأسلوب البربري. .

ولكن الوضع استمر على ما هو عليه. . وأمضينا بقية فترة اعتقالنا ننام على مراتبنا على الأرض!

ثم أفرج عني، عندما سقطت حكومة الوفد، وتولى الدكتور أحمد ماهر رئيس الحزب السعدي رياسة الوزارة.

الفصل الرابع

من أسوار المعتقل.. إلى سجن الصحافة!

إجتماعات مكرم عبيد باشا مع الشباب ـ أول درس فى الصحافة من الحمامصى ـ جمهور المعتقل ـ معتقل ماقوسه ثم الافراج ـ صحيفة الكتلة ـ فى مجلة بلادى ـ حديث نبوية موسى ـ نصائح أستاذى الأول محمد نجيب ــ مع فنانة مشهورة لأول مرة ـ مدحت عاصم فى مجلة بلادى ـ علقة لجليل البندارى فى حمام منزل الموسيقار محمد عبد الوهاب ــ المصروفات السرية ـ الاتجار فى ورق الصحف فى السوق السوداء ـ العمل مع الأستاذ زكى عبد القادر فى مجلة « الفصول » ـ الموضوع ثمنه جنيه واحد مهما كان عدد الصفحات ـ فبركة البرقيات الخارجية ـ أمينة الصاوى ـ كتابة القصة القصيرة ورسم الكاريكاتير ـ مع الرسام رخا فى منزله ـ درس من توفيق صليب ـ مقتل أحمد ماهر فى مجلس النواب ـ الحمامصى يصدر مجلة « أخبار الأسبوع » .

الفصل الرابع

من أسوار المعتقل.. إلى سجن الصحافة!

داخل معتقل الزيتون في عام ١٩٤٣ . . نبتت بذرة اشتغالي بالصحافة. وكان جلال الدين الحمامصي هو الذي أنبت هذه البذرة.

كان لقائي في المعتقل بجلال الدين الحمامصي، مفجّراً لمشاعر عديدة في وجداني . .

كنت أراه فقط، في مكتب مكرم عبيد باشا، في الاجتماعات التي كان يعقدها مكرم باشا لشباب الجامعة، وكنت في السنة النهائية بكلية الحقوق. كان الحمامصي نائباً مشهوراً، وهو الذي قام بالدور الأول في طبع الكتاب الأسود الذي أصدره مكرم عبيد بعد انفصاله عن الوفد، عن فضائح فساد الحكم . . وزادت شهرته عندما قرّر مجلس النواب الوفدي، فصله من عضويته بعد انضمامه إلى «كتلة» مكرم عبيد . . وكان في الوقت نفسه صحفياً في جريدة «المصري» . . وصل إلى منصب سكرتير تحرير، وقد احترف الصحافة، وترك مهنة الهندسة. كنت أراه أنيقاً، وسيماً، من أبناء البيوتات . . وكانت له مكانة خاصة لدى مكرم عبيد . .

وأذكر أننى كنت أخطب فى هذه الاجتماعات ، بكل الحماسة والإيمان وطهارة القلب . . وكان لمكرم عبيد تأثير ساحر فى إثارة مشاعر الشباب .

وكنا نخرج من الاجتماعات ، بكل إلتهاب الحماسة ، وكل منا يقرر أن يكون له دور بارز فى المظاهرات الجامعية فى اليوم التالى . . وبذلك نكون نجوماً على مسرح السياسة . . وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى فى ذلك الحين . .

ثم رأيت جلال الحمامصي في المعتقل. . كانت له حجرة خاصة في الدور الثالث. وكانت مفروشة بأناقة من أثاث منزله. وكان بها عدد من المؤلفات القيمة. أرسلها والده كامل بك الحمامصي. وكان له احترام خاص بين المعتقلين. .

وقدمت له نفسي. . وعرف مني هوايتي للصحافة. . وبدأ يحدثني كثيراً عن العمل الصحفي. وكنت حتى ذلك الحين، مقتنعاً بأن الصحافة تبدأ بكتابة المقال السياسي. . وأفهمني أن الصحافة، خبر، وصورة، وإخراج صحفي. . وهو أول من أدخل نظام الاخراج الصحفي الحديث في الصحافة المصرية، برسم الصفحات قبل جمع الحروف. وهكذا تولدت بيننا صداقة صحفية، كان هو فيها الأخ الأكبر. .

وكان المعتقل، عبارة عن منزل من ثلاثة أدوار، يتوسط حديقة كبيرة. . يستخدمها المعتقلون في زراعة الخضر. . وكان يحيط به سور على الشارع، وسور على قطعة أرض فضاء، وسوران ملتصقان ببيوت أخرى. وكانت الحراسة المسلحة، كل ستة أمتار، من الداخل والخارج، وكانت تتغير كل ثماني ساعات. وكان ممنوعاً على المعتقلين الاقتراب من الحراس، وكانت الأوامر لدى الحراس بإطلاق الرصاص على أي معتقل يحاول الهرب. كان الدور الأول مخصصاً لإدارة المعتقل. . والدوران الثاني والثالث لحجرات المعتقلين، على قدر ما تتسع الحجرة من أسرة، وكنا نقبض سبعة جنيهات شهرياً، مقابل الطعام الذي كان يشرف على إعداده الأستاذ محمد صبيح أحد زعماء مصر الفتاة. وكان يعودنا كل أسبوع طبيب أسنان . . وفى حالات المرض ، كان المعتقل يخرج فى سيارة تاكسي مع حراسة إلى أطباء قصر العيني. ومن أطرف ما كان يجري، هو تحايل بعض المعتقلين على العلاج في الخارج، وصرف الأدوية ثم بيعها!. . وكان رشيد النحال (رئيس شباب الأحرار الدستوريين في ذلك الوقت) ومعه زميل آخر أصبح صحفياً هو عبد السلام وفا ، يتظاهران بالقىء ، ويطبخان غذاءً خاصاً!. . لهذا الغرض.

وكـان المعتقل خليـطاً غريبـاً من الاتجاهـات السياسيـة. شباب من كـل الأحـزاب المعارضـة للوفد. ثم معتقلون بـأمر الانجليـز، للشك في اتصـالاتهم باليابان وألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية . . وكان معنا معتقل من أصل روسي، وآخر من أصل يوغوسلافي وثالث من أصل سوري . . وكلهم لهم أدوار في السياسة الخارجية لا نعرفها . .

ثم عرفت أنور السادات . .

إنه ضابط، برتبة يوزباشي (ثلاثة نجـوم) مفصول من الجيش، مـع زميله الضـابط الطيّـار حسن عـزت المفصـول أيضـاً من الجيش . . وكـانـا في حجـرة واحدة. ولم أكن أعرف شيئـاً عن أسباب اعتقـالهما، سـوى أنهما من المناهضـين لسيطرة الانجليز على الجيش المصري في ذلك الوقت.

وكـان السـادات يتميّـز بـالأنـاقـة، رغم أنـه لم يكن يملك إلا قميصـين، وبنطلونين، من قماش الزيّ العسكري . . ولكنه كان يكويهما بعناية، ويبدو وعلى رأسه قبعة من القش، وفي قدميه صندل جلد . . وكأنه «لورد»!

وكان السادات حريصاً على أن يتحدث معنا، عن تاريـخ مصر، وتاريـخ الاستعمار البريـطاني . . وصحـح لي أكـثر من معلومـة، وأنـا أنـاقشـه في هـذا التاريخ . . وهذا حفزني أن أقرأ كل مؤلفات عبد الرحمن الرافعي في المعتقل عن تاريخ مصر . .

واجتذبتني بعد ذلـك، تلاوة القـرآن الكريم، واستعـرت من الحمامصي، مصحفاً كبيراً به تفسير الآيات . .

وكنـا نقرأ الصحف . . ونجتمـع معاً عـلى موائـد الغـذاء . . وفي الليـل كـانت السهرة في إحـدى الغرف، وكـان السادات صـاحب صوت جميـل، وهو يغني أغنيات «أسمهان» مع رشيد النحال كما سبق أن ذكرت.

ثم كان الهروب . . ثم الاعتقال من جديد فى ماقوسة ، ثـم الإفراج وكنت قد أمضيت وراء الأسوار عاماً كاملاً .

وتولى الدكتور أحمد ماهر رئيس الحزب السعدي رئاسة الـوزارة، واشترك فيها مكرم عبيد وزيراً، وكان قد خرج من المعتقل الى الوزارة.

وأصبحت طليقاً في القاهرة. .
وضاعت، وظيفتي في النيابة العامة. .

وكان حلمي أن أشتغل بالصحافة. . وكنت أجوب شـوارع القاهـرة، في الليل مع عبد الرحمن الشرقاوي، ونحن نحلم. . ونحن نردّد لأنفسنا، أن مقالاً واحداً ينشر لنا في صحيفة خير من وظيفة النائب العام!

وتصوّرت أن حلمي أصبح قريب المنال، عنـدما قـرأت أن حزب الكتلة الذي يرأسه مكرم باشا، قرّر إصدار صحيفة يومية باسم «الكتلة» يشرف عـلى تحريرها جلال الدين الحمامصي. . ويكتب فيها أحمد قاسم جودة. .

وطلبت لقـاء الحمامصي في مكتبـه الجـديـد بجـريـدة الكتلة الجـديـدة. . واستقبلني بحرارة، ولكنه صارحني بأنه يأسف، لاستحالة عملي في الجريـدة. . لأنها جديدة. . ويجب أن تعتمد على المحترفين لا الهواة!

كانت صدمة كبرى. .

خرجت إلى الطريق العام، ولم أستطع أن أسيـطر على دمـوعي. . وقابلني مصـادفـة في الـطريق الـدكتـور فؤاد حسنين أستـاذ العلوم الشرقيـة في كليـة الآداب. . وعلم بأسباب غمي. . وقال لي: «اذهب إلى محمود سمهان بلدياتنـا من الصعيـد. . أنه يستعـد لإصـدار مجلة جـديـدة تعـبّر عن الحـزب السعـدي الحاكم. . وسوف تجد عملاً لديه».

وهـذه هي المصادفـة الثانيـة مع الـدكتـور فؤاد حسنـين، الـذي سبق أن

نصحني بلقاء الدكتور طه حسين، قبل إعتقالي.. مما رويته في فصل سابق..

وعرفت العنوان.. وإذا بي أفاجأ بأن المجلة الجديده تصدر في غرفة واحدة.. بها صاحب المجلة محمود سمهان، وسكرتيرته، وباقي المحرربن!

واستقبلني الرجل استقبالاً شهماً.. وعلمت منه أنه عائد من فرنسا، بعد أن درس الصحافة، وأنه أصدر مؤلفاً عن تاريخ الصحافة أهداه لي.. وهو نجل النائب السعدي «عبد العليم سمهان بك» من نجوم السياسة في الصعيد.. وقال لي: تستطيع أن تبدأ العمل من اليوم!.

وكان أول ما فكّرت فيه إجراء حديث مع سيدة شهيرة في ذلك الوقت، هى السيدة نبوية موسى، مديرة أول مدرسة للبنات فى مصر.. وكانت شهيرة لأنها رائدة.. ولأن النحاس باشا أمر باعتقالها في سجن الأجانب، بعد أن أرسلت له خطاباً وقحاً بدأته بالعبارة التالية: «حضرة صاحب المقام الرقيع».. وكان لقبه «صاحب المقام الرفيع» بالفاء لا بالقاف طبعاً..

والتقيت بها، وكتبت الحديث في سؤال وجواب في اثنتي عشرة صفحة، على ما أذكر، وتقرر نشره بالعدد الأول من المجلة!

وكانت سعادتي فائقة، وذهبت إلى المطبعة حيث يصدر العدد الأول، وأمضيت الليل بطوله جالساً أمام ماكينة الطباعة من الناحية التي تخرج منها الملازم مطبوعة.. لكي أرى اسمي في كل عدد في ذيل الحديث!

ولكن الحديث ظهر في عمود واحد فقط.. أي ما يقابل ثلاث ورقات من الكتابة!

وكانت هذه هي المناسبة التي عرفت فيها الصحفي القدير الأستاذ محمد نجيب. كان يعمل في «الأهرام».. في قسم مراجعة «الأخبار».. وهذا القسم يختار له أدق الصحفيين، وأقدرهم على الصياغة الصحفية، وعلى تحري صحة الأخبار قبل نشرها. واستعان به محمود سمهان، لكي يعمل في المجلة الجديدة «بلادي» مديراً للتحرير..

طلب منى هذا الرجل أن أجلس إلى جواره .. وقال لى : « اسمع يابنى .. أننى ألمس فيك موهبة صحفية ، وقدرة على اللغة العربية السليمة .. ولذلك لن أبخل عليك بأي جهد.. أطلب منك أن تجلس معي، وأنا أراجع أخبارك أو موضوعاتك، لكي تعرف ماذا أشطب، ولماذا.. وما هو الصحيح وما هو الخطأ.

وكان الأستاذ محمد نجيب، هو الذي راجع حديثي مع نبوية موسى، واختصره إلى ثلاث ورقات فقط وأعده للنشر..

وكانت دروس الأستاذ نجيب لي، خير معين لي، على الاستمرار في العمل الصحفي، وعلى النجاح.. ولم تكن دروسه صحفية فقط.. بل كانت أيضاً دروساً وطنية. فقد كان من أعضاء الحزب الوطني القديم.. وله ذكرياته الممتعة.

...

ثم عرضت على محمود سمهان رئيس التحرير أن أجرى حديثاً مع عبد المجيد باشا صالح وزير الري، وكان في حزب الأحرار الدستوريين. وكان رجلاً كبير الحجم، أنيقاً، ارستقراطياً.. حدّد لي موعداً، ودخلت عليه في مكتبه، فلم يقف لاستقبالي.. وهذا ما جرح مشاعري.. ثم تركني واقفاً أمامه، ولم يعرض على أن أجلس.. فما كان مني إلا أن قلت له: أنا زميل ابنك في كلية الحقوق، وهو صديق..

ولكن الرجل ذهل، ولم يكن ليصدق أنني متخرّج في الجامعة، لصغر سني، ونحالة جسمي.. وهنا عرض عليّ أن أجلس، وطلب لي فنجان قهوة!.. وأجريت الحديث.

وكان صغر حجمي يسبّب لي حرجاً شديداً.. فلم يكن أحد ليصدق أنني جامعي!

وكانت أول تجربة لي مع الوسط الفني، عندما طلب مني محمود سمهان، أن أتوجه إلى منزل فنانة معروفة لإجراء حديث معها.. وحدّد لي هذا الموعد..

كانت نجمة إغراء ذائعة الصيت.. وكنت سعيداً أنني سأراها!.. ولكنني

كنت مرتبكاً وخاصة عندما بقيت «ملطوعاً» في صالـون المنزل أكثر من عشرين دقيقة!

وفجأة دخلت إلى الصالون. .

ويا لهول ما رأيت وأنا ابن العشرين!

كانت ترتدي روباً حريرياً هفهافاً، يكاد لا يخفي شيئاً من جسدها الفائر . . وقالت لى وهى ترحب بى بحرارة كأننى صديق قديم . .

ـ أنا آسفة جداً، للتأخير. . عندي ارتكاريا. .

ورفعت ثوبها، وهي تريني آثار هذه الارتكاريا في أعلى ساقها. . ولك أن تتصور ما أحسست به في تلك اللحظات!

وأجريت الحديث، وكان كله عن علاقة الرجل بالمرأة. . وكانت لها آراء بالغة الجرأة. . وقد استمرت صداقتي مع هذه النجمة المشهورة طوال سنوات اشتغالي بالصحافة، حتى توفيت إلى رحمة الله. . وقد كتبت مذكراتها، ونشرتها في مجلة «الجيل» عندما رأست تحريرها. . وكانت على مودة بالغة مع كل نجوم الصحافة. .

وفي مجلة «بلادي» التقيت بالفنان الكبير مدحت عاصم. .

كان في قمة الشهرة، لا تخلو أعمدة الصحف من اسمه في أبواب الفن والمجتمع. وكان جميل الوجه، أنيق الملبس، قوي البنيان. . وجاءت شهرته بسبب أنه كان أول مدير للقسم العربي في الاذاعة المصرية. . وهو الذي قدم إلى الميكرفون فريد الأطرش وعبد العزيز محمود. . وكانت غرامياته هي حديث الصحف أيضاً. وشن عليه مصطفى أمين حملة ضارية. . وأخرج مدحت عاصم من الاذاعة. . وكان يهوى الكتابة، وهو صاحب أسلوب. .

وقد اختار هذا الرجل صداقتي، ودعاني إلى منزله أكثر من مرة، وكان يلتهم كميات ضخمة من الطعام، ويستطيع أن يرفع السيارة الشيفروليه الثقيلة بيديه! . .

وعرف بلحن أبدعه للمطربة أسمهان لأغنية «دخلت مرة جنينة». . وكان

يؤلف موسيقى تجمع بين الغرب والشرق. درس الموسيقى في ألمانيا، وكان قد سافر لدراسة الطب، ولكن جذوره ممتدة إلى الموسيقى الشرقية. .

وكان بيته في العباسية تحفة فنية. . اختار الدور الأول، وبناه من الداخل بشكل البواكي بالمشربيات، وكل مقاعده على النهج الشرقي. . مع وجود «البيانو» الذي يعزف عليه.

وفي هذا البيت كان يجتمع الصحفيون والفنانون والأدباء حيث تدور الحوارات الأدبية، وتجري المباريات الموسيقية، وكثيراً ما كان مدحت عاصم يفضل أن يبقى مع ضيوفه عارياً بالشورت فقط. . ويجلس إلى البيانو ليعزف من ألحانه. .

وقد سخر منه الناقد الفني جليل البنداري، ووصف موسيقاه بأنها مجرّد أصوات مزعجة. . وحدث بعد ذلك أن دعاه الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى الغداء حيث وجد جليل البنداري مدعواً. وبعد الغداء طلب أن ينفرد بجليل البنداري حيث قاده إلى الحمام، وأقفل بابه، وانهال عليه ضرباً! . . وعاد إلى المائدة وكأنه لم يفعل شيئاً. . وخرج جليل البنداري يصرخ من أوجاع الضرب!

وشجعني مدحت عاصم بكل مشاعره. . عندما قررت أن أترك الصحافة وأعود إلى أسيوط حيث تقيم عائلتي لأشتغل بالمحاماة. . نهاني عن ذلك، وقال لي أنه يتنبأ لي بمستقبل عظيم. . وقال لي بأسلوبه القاطع. . بعد عامين ستكون سكرتيراً للتحرير. . وبعدها بثلاثة أعوام ستكون أصغر رئيس تحرير في مصر سناً . . فلا تدفن موهبتك . . وكنت قد ضقت ذرعاً بالعمل الصحفى ، بعد أن اكتشفت خباياه! وما كان أبشعها!

اتضح لي أن الحكومة كانت تقدم مصروفات سرية شهرياً، لصاحب المجلة. . ووقع في يدي هذا الكشف من سكرتيرته. . ووجدت به أسماء جميع العاملين بالمجلة، وأمام كل منهم المرتب الذي يتقاضاه شهرياً، وهو ما تقدمه الحكومة لصاحب المجلة. . وكنت أتقاضى في ذلك الحين أربعة جنيهات، أقبضها على أربع دفعات. . جنيه واحد كل يوم سبت! . . وإذا به قد وضع أمامي أنني أتقاضى ١٢ جنيهاً. وكان شوكت التوني المحامي، يكتب مقالاً

أسبوعياً مجاناً. . ولكن صاحب المجلة وضع أمام اسمه في الكشف مائة جنيه. . وهكذا!

ثم اكتشفت شيئاً آخر، أشد إفزاعاً. .

كان ورق الصحف، يصرف من وزارة التموين بسعر رسمي. . ولكنه كان يباع في السوق السوداء بأضعاف أضعاف هذا السعر. . وهكذا كان صاحب المجلة يحصل من وزارة التموين على كميات كبيرة، لا يستخدم منها في الطباعة إلا جزءاً صغيراً، ويبيع الباقي في السوق السوداء!. .

كل ذلك كان جديداً على مداركي. . وأنا من كنت أتصوّر أن الصحافة فكر ومبدأ ودفاع عن حقوق الجماهير!

ولذلك قرّرت أن أترك العمل الصحفي. . ولكن مدحت عاصم وقف حائلاً دون ذلك. . وفعل نفس الشيء معي الأستاذ محمّد نجيب الذي كان يعاملني كولده. . وقال لي أن مستقبلاً باهراً ينتظرني. . كما قدمني ـ لزيادة مواردي ـ إلى صديقه الأستاذ محمد زكي عبد القادر وكان يعمل في «الأهرام». . وكان يصدر مجلة شهرية باسم «الفصول» تحتوي على مترجمات أدبية وسياسية، وأبحاث تاريخية وطنية. . واتفق معي الأستاذ زكي عبد القادر على أن أقدّم له ما أستطيع أن أحرّره شهرياً. . وسعدت بذلك. فقد كنت أريد أولاً أن أرى زكي عبد القادر الذي يكتب عاموداً يومياً في الأهرام باسم «نحو النور». . انتقل به إلى «الأخبار» بعد ذلك إلى أن توفاه الله، ويكتب هذا العمود الآن مرة كل أسبوع ابنه زميلنا سمير عبد القادر.

وأسرعت إلى مكتبة هاشيت، واشتريت مجلات انجليزية، ومجموعات من القصص العالمي باللغة الانجليزية. . وترجمت في أول الأمر موضوعين إجتماعيين مما كانت تنشره مجلات علم النفس. . مثل «كيف تسعد في الحياة؟». . «كيف تختار أصدقاءك». . وقدمتها إلى الأستاذ زكي عبد القادر. . ونشر الموضوعين، وقدم لي مظروفاً مغلقاً به جنيهان. . وتصورت أن أجر الصفحة جنيه واحد. . ولذلك ترجمت في العدد التالي قصة للأديب الروسي تشيكوف بعنوان «القبلة» في ٩ صفحات. . وموضوعاً خفيفاً آخر في صفحتين. . أي أن المجموع

١١ صفحة، وكان هذا يعني أنني سأقبض أحد عشر جنيهاً. . وهذا مبلغ عظيم. . ولكنني فوجئت بالمظروف الذي قدّمه لي الأستاذ زكي عبد القادر وبه جنيهان فقط!. . وهنا فقط عرفت أن أجر الموضوع الواحد، هو جنيه واحد، مهما كان عدد الصفحات!

ثم اكتشفت في مجلة «بلادي» أن كل ما ينشر منسوباً إلى مراسلين في الخارج. . هو موضوعات مترجمة محرّرة في مكتب المجلة!

وكيف؟. .

اشترك معنا في التحرير الأستاذ محمد عبد العزيز اسحق. وكان «بلديات» صاحب المجلة، وقد درس الفلسفة في كلية الآداب، واختار منهجاً تصوفياً في الحياة. . فهو لا يكتب إلا بعد أن يقفل النوافذ، وعلى ضوء كهرباء خافتة، ثم يحرق البخور أمامه. . ويأكل الفستق!. .

وقد قدم له صاحب المجلة، عدداً من المجلات الأمريكية التي تنشر عن السينما. . فكان يترجم الموضوعات، ويسبقها بعبارة: «هوليود ـ مراسل بلادي الخاص»!. . ثم فعل ذلك بالنسبة للموضوعات السياسية أيضاً!

وكل ذلك، كان غريباً ومذهلاً بالنسبة لي!

أما الأخبار الداخلية التي تنشر في المجلة، فكان يكتبها محررون قدامى يعملون في أكثر من مجلة. . وكانت أخباراً تافهة مثل «عقد اجتماع سري هام هذا الأسبوع، ستظهر نتائجه الخطيرة قريباً»!. . وكان ثمن الخبر عشرة قروش!.

وفي بلادي التقيت بصحفية ذات نشاط وجمال، وكان اسمها «أمينة الصاوي». . وهي التي كتبت أخيراً، المسلسلات الدينية للتليفزيون المصري. . وتوفيت في حادث تصادم. . ونشأت بيننا مودّة، وكانت تشجعني أيضاً على البقاء في الصحافة. . وكان معنا محررة ذات جمال ساحر، شقراء، خضراء العينين، متخرّجة في كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية. . وكانت بالغة الأناقة. . ووقع في غرامها الزعيم المغربي الشاب علال الفاسي، وكان لاجئاً بالقاهرة. . وعرض عليها الزواج، واعتذرت عن عدم القبول، وكان يريد أن يهيّئها لكي تكون زعيمة الحركة النسائية بالمغرب. . ثم تزوجت من قريب

لها.. وأصيب علال الفاسي بصدمة.. وخاصة لأنها توفيت إلى رحمة الله وهي تضع مولودها الأول!

* * *

واقتنعت بالبقاء.. وتدرج مرتبي من أربعة جنيهات إلى ثمانية إلى اثني عشر جنيهاً.. وبدأت أكتب القصة القصيرة، التي كنت أهيّيء أجواء كتابتها في مطعم «ايزافتش» المشهور في ميدان قصر النيل «التحرير الآن».. وهو مطعم فول مشهور!.. ثم أنني كنت أقدّم الرسوم الكاريكاتورية للمجلة. فقد كان الرسم هوايتي.. وكنت أتصوّر أنني سأكون رساماً صحفياً كبيراً.. ولعل هذا ما جعلني أتطوّع بأن أذهب أسبوعياً إلى منزل الرسام الكاريكاتيري «رخا»، لكي أحصل منه على رسوم مجلة بلادي.. كان رخا في ذلك الوقت يرسم لأكثر من ١٢ مجلة.. بمكافأة عشرة جنيهات من كل مجلة.. وكانت المشكلة معه في المواعيد، وكان لا ينتهي من رسومه بعد تحديد أكثر من موعد. إلا قبيل طبع الجريدة!.. وكنت أجلس أمامه في منزله لكي أتأمل كيف يرسم.. وكان هو صاحب فكرة الرسم أيضاً.. وقد ابتكر ـ مع مصطفى أمين ـ شخصيات عديدة في الرسوم الكاريكاتورية مثل شخصية «ابن البلد» الذي يعبّر عن ضمير مصر.. و«مخضوض» باشا.. وهو السياسي العجوز الذي يخشى من أي قرار.. ثم بعد ذلك كان له في «أخبار اليوم» شخصية «رفيعة هانم» و«السبع أفندي».. وغير ذلك كثير. وكنت آخذ الرسوم، وأذهب بها إلى محل صنع الكليشيهات فى باب اللوق.. وأنتظر حتى تنتهى وآخذها إلى المطبعة فى شارع قصر العينى حيث توضيب الصفحات.. ثم أعمل فى توضيب الصفحات.. وفى ليلة طبع الجريدة أبقى حتى الصباح..

كان العمل الصحفي بكل أنواعه وأشكاله.. هو حياتي الجديدة الجميلة!

* * *

ولن أنسى درساً تعلمته، من الأستاذ توفيق صليب. كان هذا الرجل من ثوار ١٩١٩.. وقد حكم عليه بالاعدام مع ابراهيم عبدالهادي، ثم خفّف الاعدام إلى السجن.. وخرج من السجن ليشتغل بالصحافة. وكان ـ وهو بالسجن ـ يكتب عاموداً يومياً في شهر رمضان، عن أدبيات الصيام.. ثم عيّن

مديراً عاماً للرقابة على المطبوعات. . وكان يتردّد على مجلة بلادي. . وذات يوم أعطاني صحيفة انجليزية ، لكي أترجم منها موضوعاً سياسياً . . وترجمت الموضوع ، وكان عنوانه"Labour party comes to power " وترجمتها «حزب العمال أتى إلى القوة»! . . وقذف توفيق صليب بالأوراق في وجهي غاضباً. «تتخرجون في الجامعة، ولا تعرفون لغة أجنبية». . لأن الترجمة الصحيحة لكلمة Power هنا. هي السلطة لا القوة. . ومن ذلك اليوم، اشتريت قاموساً، وكنت أمضي ساعات طويلة في ترجمة موضوعات ليست للنشر، ولكن للتدريب على اللغة الانجليزية. .

ثم بدأت أحضر جلسات مجلس النواب، مندوباً برلمانياً عن «المجلة». . وما كان أسعدني عندما جلست في شرفة الصحافة لأول مرة. . وذات مساء، حدث هرج ومرج. . وترك النواب القاعة، ثم قيل أن أحمد ماهر رئيس الوزراء قتل في البهو الفرعوني الذي يفصل بين مجلسي النواب والشيوخ. . فنزلت من شرفة الصحافة. . وكان الجو رهيباً. . ورأيت الحراس يغلقون أبواب المجلس. . ورأيت السفير البريطاني سير مايلز لامبسون (حاكم مصر الحقيقي في ذلك الوقت) يدخل بكل هيلمانه. . وخشيت أن يقبض على البوليس السياسي، فأنا معتقل سابق. . وكنت أخشى ألا يسمحوا لي بالخروج. . وقدمت بطاقتي وسمحوا لي. . وكان هذا أكبر خطأ صحفي ارتكبته. . صحفي يهرب من مكان حادث خطير وهو قتل رئيس الوزراء! . . ولكن الخوف من القبض عليّ، كان أقوى من النهم الصحفى ! .

وخلال ذلك أصدر جلال الدين الحمامصي. . مجلة «أخبار الأسبوع». .

كان هو صاحبها ورئيس تحريرها. . وكان ذلك، بعد أن ترك صحيفة الكتلة. . وحزب الكتلة، بسبب مهادنة مكرم عبيد باشا لمصطفى النحاس باشا. حيث لقيه في مناسبة عامة، وطبع على خده قبلة! . . وأطلقت عليها الرسوم الكاريكاتورية اسم: «قبلة الموت»!

وكنت لا أزال متألماً من أن الحمامصي، رفض أن أعمل معه في جريدة «الكتلة». . ولذلك، فقد زرته في مكتب مجلته الجديدة. .

وبدأ فصل جديد من حياتي. .

الفصل الخامس

٥ جنيهات في ذمة جلال الحمامصي

ـ الصراع بين الحمامصي والتوأمين ـ مسابقة عن قصة واقعية ـ الاستقالة من مجلة بلادي ـ الحمامصي يرفض المصروفات السرية من النقراشي باشا ـ الصفحة الأدبية في صحيفة «الأساس» اليومية ـ الفنان عبد السلام الشريف يرسم الصفحة ـ الصحافة الملعونة.. وملعون الصحافة ـ إدجار جلاد باشا يصدر صحيفة الزمان المسائية ـ المطربة أحلام في حفل أسرة الزمان ـ أزمة بسبب المصور مصرف ـ قضية اغتيال أمين عثمان ـ اغتيال النقراشي ـ الحمامصي يبكي في مكتبه ـ حرب فلسطين ـ أخبار اليوم تلطش مصدرنا ـ عصمت عبد الجواد تتزوج اللواء محمد نجيب قائد الثورة ـ صفحة عن الجيش ـ حافظ اسماعيل محرر الصفحة ـ العمل في البرلمان ـ ماذا وراء استجواب المحلة الكبرى؟ ـ نجاح الوفد في الانتخابات والاستقالة من الزمان ـ جلاد يعرض على رياسة التحرير ـ كامل الشناوي يتفق معي على العمل في الاهرام ـ الحمامصي يتدخل ـ التعاقد مع أخبار اليوم ـ فشل هيكل في منعي من العمل في أخبار اليوم ـ على أمين يطلب منى أخبار البرلمان بعد ساعتين !

الفصل الخامس

٥ جنيهات في ذمة جلال الحمامصي!

طوال عملي بمجلة «بلادي» كان سؤال يطاردني.. لماذا رفض جلال الدين الحمامصي أن أعمل معه في جريدة «الكتلة»؟.. ولذلك كنت أزور الحمامصي في مكتبه الجديد بمجلة «الأسبوع» التي أصدرها من ماله الخاص.. وهو ما قدمته له السيدة والدته.. وأتعمد أن أطلعه على إنتاجي المنشور في مجلة «بلادي»، لكي أثبت له أنني كنت أصلح للعمل الصحفي معه.. وكان الحمامصي يحسن استقبالي في الشقة الصغيرة، بجوار مبنى الأهرام، حيث كنت ألتقي أيضاً مع زميلنا في المعتقل الشيخ عبد الرحيم فودة، من علماء الأزهر وكان قمة في الخلق الكريم.

وكان الحمامصي قد أصدر «الأسبوع» بعد صدور «أخبار اليوم» في ١١ نوفمبر ١٩٤٤.. وكانت قد أحدثت ضجة كبرى في عالم الصحافة. لقد احتكرت الأقلام الكبيرة مقابل مرتبات خيالية فى ذلك الوقت (مائة جنيه المرتب الشهرى) .. كما تعاقدت مع مراسل خاص لها فى لندن .. وصدرت فى شكل جريدة يومية.. وكان ذلك مجازفة كبرى، ولكنها نجحت.. وصدرت عشرات الصحف في الوطن العربي تقلد أخبار اليوم.. وكانت سلسلة المقالات التي يكتبها مصطفى أمين بعنوان «لماذا ساءت العلاقات بين الوفد والقصر» بالغة الإثارة.. وكانت دفاعاً عن الملك أمام جليطة تصرفات مصطفى النحاس باشا.. وكانت الجماهير تنتظر يوم السبت لمتابعة قراءة هذه السلسلة الناجحة.. وأذكر بعد ذلك أن السادات قال لي إنه كان يذهب إلى ميدان المحطة في الصباح المبكر من يوم السبت، ويجلس على مقهى ويطلب كوباً من

الشـاي بالحليب، ورغيفـاً من العيش «الفينو» الأبيض. . لكي يستمتـع بقراءة مقـال مصطفى أمـين. . وهكذا بلغ تـوزيع أخبـار اليوم رقمـاً قياسيـاً في ذلك الوقت وهو ١٠٠ ألف نسخة. .

وكان هناك دائماً، تنافس خفي بين جلال الحـمامصي وبيـن التوأمـين! . . وكلهم من دميـاط. وأصدر الحـمامصي «الأسبـوع» لكي تكـون مجلة مستقلة. . ولكنها سقطت منذ العدد الأول، وكان التوزيع متواضعـاً. . واتهم الحمامصي كـلا من مصطفى وعلي أمين بأنهما اشتريا النسخ من الأسواق يوم صدورها. . وأعتقد أنه إتهام غير صحيح.

وقد أعلنت مجلة «الأسبوع» عن مسابقة بين القرّاء للقصص الـواقعية، مـع جائزة ٥ خمسة جنيهات للقصة التي تنشر. وقد كتبت قصة قصيرة بـاسم مستعار. وبعثت بهـا في البريـد. . وفوجئت بـأنها القصـة الفـائـزة. وقـد نشرت بـالاسم المستعار. . ثم ذهبت إلى جلال الحمامصي وطالبته بمبلغ الجائزة. . ودهش عندما علم أنني كاتب القصة!

وفي هذه الجلسة، سألني عن مـرتبي في «بلادي» وكـان اثني عشر جنيهاً، وعـرض على أن أعمـل معه سكـرتيراً للتحـرير بمـرتب ١٦ جنيهاً. . وسعـدت بالعرض، لأنه فيه أولاً ردّاً لاعتباري. . ثم أنني كنت أحب العمل مع صحفي على مستوى جلال الحمامصي. وكان له في نفسي احترام كبير. .

واستقلت من «بلادي». . وبدأت العمل في «الأسبوع». .

كانت حروفها تجمع في مطبعة جريدة «الجورنال دي جيبت» التي يصدرها ادجـار جلاد بـاشا. . وأقبلت عـلى العمل في نشـاط ونهم. . وكـان الحـمامصي يرسم الصفحات، وكنت أنفـذها. ولكن ذلـك لم يستمر أكـثر من أسبوعـين. . وبعدهما استدعاني الحمامصي وأبلغني النبأ المؤلم. . لقـد قرّر إغـلاق المجلة، بعد الخسائر الفادحة التي تكبّدها من أموال والدته. .

وكانت صدمة كبرى. . ولكنه طمأنني بأنني سأعمل معه في مكان آخر!

وعلمت منه أن محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء، طلب لقاءه، وعرض عليه تعـويض خسائـر «الأسبوع» من المصروفـات السرية. . وقـال له:

«إن الحكومة لا تشتريك ولا تشتري قلمك.. ولكننا نريد لمجلة نظيفة ذات مبادىء أن تستمر». ولكن جلال الحمامصي رفض هذا العرض. وهذا موقف يجب أن يسجّل له في تاريخ الصحافة.

في ذلك الوقت (١٩٤٧) كان الحزب السعدي الحاكم، يستعد لإصدار جريدة يومية باسم «الأساس».. وقد عرضوا على جلال الحمامصي أن يكون رئيساً للتحرير.. وقبل دون أن يكون عضواً في الحزب.

ورسم الحمامصي «ماكيت» للصحيفة الجديدة، وخصّص الصفحة الأخيرة، لكي تكون الصفحة الأدبية.. وعهد إليّ، بالاشراف على هذه الصفحة وإخراجها يومياً.. وخصصوا لي، ولزملائي في الصفحة حجرة كبيرة. عمل معي الفنان عبد السلام الشريف، ومعه تلميذ موهوب له اسمه صبري حنا (ترك الصحافة واشتغل بالاعلان بعد ذلك) والخطاط محمود ابراهيم.. وكانت الصفحة تنشر قصصاً، وأحاديث وأخباراً أدبية، ومختارات من الأدب الغربي.. بإخراج جديد، بريشة عبد السلام الشريف..

ونجحت الصفحة.. كنا نعمل بها بروح فريق متجانس.. كنا نعمل ونأكل ونضحك على مكاتبنا طوال النهار، حتى ساعة متأخرة من الليل.. وكتب فيها محمد شرف وعباس سيد أحمد وكثير من الأدباء الشبان في ذلك الوقت. ونشرت في هذه الصفحة سلسلة مقالات كتبتها عن اعلام الأدب الغربي.. في القرن التاسع عشر. (ديكنز - فلوبير - مارك توين - وغيرهم)، وكان يراجع لي هذه المقالات، مودّة، صديق العمر عبد الرحمن الشرقاوي الذي بدأ يتجه الى الماركسية في ذلك الوقت، ولكن خلاف الرأي لم يؤثر يوماً على صداقتنا العميقة..

كنا دولة مستقلة داخل الجريدة. حجرتنا في الدور الثالث، بعيدة تماماً عن التحرير اليومي الاخباري للجريدة.. كان الدور الأول يضم حامد جودة رئيس مجلس النواب والمسئول الحزبي عن الجريدة، وجلال الحمامصي رئيس التحرير، وعبد الحميد الحديدي رئيس قسم الترجمة (وكان يعمل بالاذاعة أيضاً).. وباقي الأقسام الاخبارية التي كان يرأسها الأستاذ محمد صبيح بعد

انفصاله عن مصر الفتاة.. وكان زميلنا محمد مصطفى غنيم (نائب رئيس تحرير صحيفة الأخبار للشئون الخارجية الآن) يعمل سكرتيراً للتحرير..

ولن أنسى أبداً، أيام عملي في هذه الصفحة الأدبية.. كان الخطاط محمود ابراهيم مغرماً بالرياضة، فكان يبدأ عمله، بالشقلبة على المكاتب، والقيام بحركات رياضية صعبة وكنا نصفق له.. أما عبد السلام الشريف فقد كان من هواة الحوارات الغريبة التي لا يرتبط فيها جواب بسؤال.. فمثلاً يقول: «الجو اليوم حار جداً.. فأرد عليه: «ولكن أسعار الطماطم ارتفعت»، ويعلق: «استقالة الوزارة كانت مفاجأة»، فأرد: «لقد تزوجها بعد قصة حب عنيفة». إلى آخر مثل هذه الحوارات التي لا معنى لها، ولكنها كانت تضفي روح مرح، على عملنا الشاق..

وأذكر أن شاباً نحيلاً دخل حجرتنا ، وقال إنه متخرّج فى كلية الآداب قسم الفلسفة ، أنه يترجم من اللغة الألمانية ، وقدّم لى قصة مترجمة ، وبهرت أنه يعرف الألمانية ، ونشرت القصة .

وأصبح هذا الشاب بعد ذلك، الكاتب الكبير أنيس منصور!

وقد كتبت هذه الواقعة في كتاب «الصحافة الملعونة» الذي أصدرته في الستينات وأنا رئيس لتحرير «الأخبار».. وأنيس منصور كاتب بها.. وإذا بي أفاجأ أنه غاضب، وكتب عموده «مواقف».. يهاجم الكتاب هجوماً قاسياً، ويختمه بأنني «ملعون الصحافة»!.

ولم أعترض على نشر المقال ، ولكننى قلت لاحسان عبد القدوس ــ رئيس مجلس الإدارة حينئذ ــ إننى لم أسىء إلى أنيس منصور . . ولا أريد أن تتحول « الأخبار» إلى معارك بين العاملين فيها لأننى حتماً سأرد عليه . . وقرّر احسان عدم نشر المقال.

وحتى اليوم ، لم أعرف ، لماذا غضب أنيس منصور ونحن صديقان حميمان وإعجابي بإبداعه بلا حدود . ولم نتفاتح في هذا الموضوع !

وفشلت صحيفة « الأساس » .

كان توزيعها محدوداً، ومصاريفها باهظة..

وكانت أبرز حملاتها الصحفية، حملة عنيفة ضد رجل الأعمال المليونير أحمد

عبود (المنحاز الى الوفد وصديق الانجليز) لعدم دفعه للضرائب . .

وفوجئت ذات يوم، وبعد ثلاثة أشهر، بعرض من جلال الحمامصي، أن أعمل معه سكرتيراً للتحرير في جريدة يومية جديدة، سيتولى رياسة تحريرها، وكان العرض مصحوباً بزيادة مرتبي من ٣٠ جنيهاً (في الأساس) إلى خمسة وثلاثين جنيهاً في الجريدة الجديدة . .

ما هي الحكاية؟ . .

كان اسم «ادجار جلاد باشا» علماً في الساحة الصحفية والسياسية! . . كان يملك صحيفة «الجورنال دي جيبت» التي تصدر يومياً باللغة الفرنسية . . وهو من أصل لبناني، ولا أعرف جذوره في مصر . . وكان على صلة وثيقة بالملك فاروق في ذلك الوقت، كمستشار له في السياسة الخارجية. كان جلاد باشا كاتباً ممتازاً باللغة الفرنسية، ولم يكن يعرف الكتابة باللغة العربية . . بل كان حديثه أشبه بلهجة الخواجات.

لقد قرر هذا الرجل، المعترف له بأنه صحفي ممتاز، أن يصدر جريدة يومية مسائية باللغة العربية . . وقرر أن تكون مستقلة . . وهو يريدها جريدة عصرية . . وكان يملك المطبعة، واستعد لشراء ماكينات لجمع الحروف باللغة العربية . . وتعاقد مع جلال الحمامصي على أن يرأس تحريرها.

وقرر الحمامصي، أن يشتغل بالصحيفة الجديدة، شباب من خريجي الجامعة . . فقد كانت أزمة الصحف، أنه فيما عدا الأسماء اللامعة، فإن العدد الغالب من الصحفيين لا يحملون أية مؤهلات . . وهكذا اختارني لسكرتارية التحرير، كما اختار صديقه حسين فهمي الموظف بوزارة الشئون الاجتماعية، سكرتيراً للتحرير أيضاً . . واختار قريبه علي حمدي الجمال خريج كلية الزراعة، وصديقه محمد عبد النبي (زراعة) وزكريا لطفي جمعة (حقوق) . . وماهر نسيم (آداب) . . وعدداً آخر من الشبان الجامعيين . . لكي يكونوا أسرة «الزمان»، واستعان بعدد محدود من الصحفيين المتمرسين القدامى.

سعدت بهذا العمل الجديد . .

وأقام ادجار جلاد باشا حفلاً ساهراً للتعارف مع الأسرة الجديدة. وأذكر أن المطربة أحلام غنت في هذا الحفل، أغنيتها الجديدة المشهورة «يا عطارين

دلوني الصبر فين أراضيه». . وهي من نظم مأمون الشناوي، وتلحين محمود الشريف.

وبدأنا في إعداد البروفات. . للصدور.

خصص لنا دور في مبنى «الجورنال دي جيبت». . ولكننا كنا نشعر بالغربة. . لأن كل المبنى يشغله من لا يتحدثون إلا الفرنسية! . . ولعل ذلك جعلنا نتماسك ونترابط بالمشاعر المصرية.

وكانت فكرة جلال الحمامصي، هي الاعتماد بشكل أساسي على الصورة الصحفية. . ولذلك أختار المصور الصحفي المشهور «مصرف». . وطلب «مصرف» مرتباً كبيراً. . واعترض جلاد باشا. . وكانت هذه أول أزمة بين رئيس التحرير وصاحب الجريدة، وأصر الحمامصي على تعيين مصرف، وأصر جلاد على عدم تعيينه!

ثم استدعاني جلاد باشا، إلى مكتبه المجاور لمكتبي. . وقال لي: سأقول لك خبراً محزناً. .

ـ خير. . يا باشا. .

ـ مصرف مات. .

صرخت: لا حول ولا قوة إلا بالله. .

وهنا قال جلاد باشا: هل يعني هذا ألا نصدر «الزمان»؟

قلت: طبعاً. . لا. . لن تتوقف الجريدة لأن مصوراً مات. .

وهنا قال ادجار جلاد: اذهب وقل هذا الكلام لصديقك جلال الحمامصي. . افترض أن مصرف مات. . ولا داعي للعناد. وأنا صاحب الجريدة الذي يقدر مدى تحمل ميزانيتها. .

وتجمعنا فعلاً، حول جلال الحمامصي، واقنعناه بعدم العناد في هذا الموضوع. . وانفرجت الأزمة!

* * *

ووصل توزيع «الزمان» المسائية إلى ٧٠ ألف نسخة. . وكان هذا رقماً

قياسياً في توزيع الصحف المسائية، وكانت «البلاغ» الوفدية توزع خمسة آلاف نسخة.

وقد وقعت أحداث ضخمة عديدة، كانت فرصة لخدمة صحفية ممتازة، رفعت التوزيع. كان هناك قضية اغتيال أمين عثمان باشا الوزير الوفدي، وكان المتهم الأول فيها حسين توفيق، كما كان أنور السادات في قائمة الاتهام.

كانت قضية رأي عام، وخاصة أن حسين توفيق كان شاباً صغير السن، وكان والده وكيل وزارة، كما أن زملاءه في القضية كان بعضهم دون العشرين ومنهم سعد كامل (المحرر بالأخبار الآن) ووسيم محمد خالد (كان محرراً في الجمهورية قبل أن يموت بأزمة قلب)..

واستخدم جلال الحمامصي، عدة أسلحة صحفية لجذب القارىء.. أولها الصورة، وكان ينشر الصور في مساحات كبيرة، ثم الرسم، وكان يقدمه من قاعة الجلسة الفنان حسن فؤاد، ثم التعليق التحليلي على ما دار في الجلسة وكان يكتبه حسين فهمي كل يوم..

وكان مندوبو «الزمان» يتفقون مع المحامين في المساء، لكي يعرفوا ماذا سيدور في جلسة الصباح، وكنا نعد ذلك ليلاً.. ثم نتلقى الأخبار منذ افتتاح الجلسة في التاسعة صباحاً حتى موعد الطبعة الأولى في الحادية عشرة صباحاً.. ثم نتابع الطبعة الثانية حتى الثانية بعد الظهر..

كانت القضية مثيرة، وشهد فيها أكبر عدد من الزعماء السياسيين.. وكان يدافع عن المتهمين ألمع المحامين مثل فتحي رضوان وغيره.. وقد أجرى التحقيق فيها محقق متمرس هو كامل القاويش، وكان يطمع أن يكون نائباً عاماً.. واستطاع أن يوقع بين المتهمين، وأن يعد قرار اتهام متكاملاً.

وكانت أيضاً أحداث الانفجار فى متاجر اليهود مثل داود عدس ، وفى سينما مترو، ثم في حارة اليهود.. وكنا نخدم هذه الأحداث بالصورة أيضاً.. وكانت الجماهير تتابع هذه الانفجارات، على أمل معرفة الفاعلين..

وكان أيضاً اغتيال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء ووزير الداخلية (رئيس الحزب السعدي)، عند باب المصعد داخل الوزارة، عندما تقدم منه

شاب (من الأخوان المسلمين) يرتدي زي ضابط بوليس وأطلق عليه، الرصاص وأرداه قتيلاً[1]. .

وكان المعروف من التحقيقات واعتراف المتهم أنه من شباب الحزب الوطني. وكان محاميه فتحي رضوان. . وعلمت أخيراً أنه كان من «الإخوان المسلمون». . وكان حسن البنا مرشد الاخوان هو الذي وكل فتحي رضوان للدفاع عنه. . واستأمنه على هذا السر. . ولم يبح فتحي رضوان بالسر إلا منذ سنوات قليلة قبل وفاته لأحد أصدقائه الخلصاء الذي أبلغني بهذه الحقيقة التاريخية!.

ووقع الحادث في الصباح. . وجمع جلال الحمامصي، أكبر عدد من المحررين، وأصدر تكليفاته. . فرقة تتابع التحقيق في الحادث، في مقر الوزارة، وفي دار النيابة العامة. . محرر يسجل من الأرشيف تاريخ حياة النقراشي. . محرر يتوجه الى منزل النقراشي. . محرر يسأل السياسيين عن صدى الحادث. . واستمر يشرف على متابعة هذا العمل السريع، بكل نشاط. . وكتب مقالاً يرثى فيه النفراشي، وبعد أن انتهت الطبعة الأولى، أغلق الحمامصي باب مكتبه، وانهار في بكاء ساخن. .

كان جلال الحمامصي، قريباً جداً إلى النقراشي، وكان شقيقه علي الحمامصي (كان أميناً في القصر الملكي) متزوجاً من ابنة زوجة النقراشي. . ولكن الحمامصي تناسى عواطفه تماماً، حتى انتهى إصدار العدد. . وانهار يبكي.

وكانت أيضاً حرب فلسطين. .

وكانت تعمل معنا زميلة صحفية نشطة هي عصمت عبد الجواد. . وكانت تربطها صلة قرابة بالضابط كمال عبد الحميد، رئيس أركان حرب اللواء المواوي قائد حملة فلسطين. . وقد أعلنت الهدنة، واتفقت معه أن يجيء من ميدان القتال إلى دار الجريدة، لكي يروي لنا كل ما حدث قبل وبعد إعلان الهدنة.

وكان موعد وصوله يوم الجمعة. .

---

(١) سبق ذلك اغتيال الدكتور أحمد ماهر رئيس الحزب السعدي.

ولكننا صدمنا صدمة كبرى، عندما علمنا أن «أخبار اليوم» حاصرت كمال عبد الحميد، وأنه ذهب إلى مصطفى أمين، وانتزعوا منه كل ما يمكن أن يكتب عن الهدنة . لقد جاءنا النبأ بعد الظهر ، وأبلغنا بما حدث ، وشككنا أن أخبار اليوم دفعت له مكافأة ضخمة . . ولكننا استطعنا أن ننتزع منه، ما لم يدل به إلى مصطفى أمين . . وصدرنا في اليوم التالي . . وكانت خبطة صحفية ممتازة رغم ما نشرته أخبار اليوم في الصباح . .

وبمناسبة الحديث عن زميلتنا عصمت عبد الجواد، التي تركت الصحافة بعد ذلك . . أذكر أنه بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو . . نشأت صلة بينها وبين اللواء محمد نجيب . . وتطورت هذه الصلة إلى زواج واحتفظ الاثنان بالسر . . لكنني عرفت الخبر!

وكنت أعمل في «أخبار اليوم» في ذلك الوقت . . ولما علم مصطفى وعلي أمين مني ذلك، عرضا عليها أن تعمل في «أخبار اليوم» بأي مرتب تقدره! . . ولكنها اعتذرت، ولم أعرف سبب الاعتذار.

وكنا نقدم اسبوعياً، صفحة خاصة للشباب، وللبرلمان، وللفلاح . . وهكذا . وأذكر أن دخل مكتبي بعد انتهاء حرب فلسطين ـ ثلاثة شبان . . قدموا لي أنفسهم على أنهم ضباط من الجيش، وقال أحدهم أنهم يريدون نشر الروح العسكرية بين الشعب، وتعريف القراء بالجيش . . وهم يقترحون أن تصدر «الزمان» صفحة أسبوعية عن الجيش . .

وطلبت منهم، أن أستأذن ادجار جلاد باشا في هذا الشأن . . ورحب ترحيباً كبيراً ، وكنت أتوقع غير ذلك. ثم اتضح أنه رحب على أساس أن يجتذب هؤلاء الضباط إلى صف الملك . . وبذلك يقدم خدمة إلى السراي!

وبدأوا فعلاً في كتابة هذه الصفحة . . وكنا ننشرها. وعرفت بعد الثورة أن الثلاثة كانوا من الضباط الأحرار!

ودارت الأيام . . وإذا بمحرر هذه الصفحة، هو حافظ اسماعيل مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر! . . وقد تدرج في المناصب، وأصبح سفيراً في موسكو وباريس، ورئيس الأمن القومي مع السادات وأصبح زميلاه سفيرين كذلك .

ومع عملي سكرتيراً للتحرير، الذي يبدأ في السابعة صباحاً.. حتى ساعة متأخرة من الليل، قررت أن أعمل محرراً برلمانياً أيضاً!

كانت الصحافة هي يومي وليلي.. ولا أذكر أنني تأخرت عن موعد بداية العمل أكثر من دقيقتين، فقد كان جلال الحمامصي، يمر على المكاتب، ويترك لنا ملاحظات.. مثل «مررت عليكم الساعة ٧ و ٣ دقائق ولم أجدكم»!.

كنا في قمة الانضباط..

ولكنني كنت أقتنص وقتاً، أذهب فيه إلى مجلس النواب، لمتابعة الجلسات الهامة، وكتابة تعليق أسبوعي..

وقد تعلمت درساً خلال عملي محرراً برلمانياً، وهو أنني يجب أن أبحث عما وراء أقوال النواب في الجلسات العلنية تحت القبة!

لقد بهرني نائب قدم استجواباً إلى الحكومة، عن خلل العمل بشركة المحلة الكبرى.. وأثار النائب وقائع صارخة، وكان خطيباً لامعاً.. وانفعلت باستجوابه، وكتبت تعليقاً متحمساً.. ثم اتضح لي بعد ذلك، أن هذا النائب كان يريد أن يكون عضواً بمجلس إدارة شركة المحلة، ولما لم يعين.. قدم هذا الاستجواب!

وخلال سنوات العمل في الزمان، كانت تثور أزمات بين الحمامصي وجلاد باشا.. سببها.. الاختلاف حول حدود سلطة صاحب الجريدة، واختصاص رئيس التحرير؟..

وحدث أكثر من مرة، أن ترك الحمامصي العمل، وسافر إلى الإسكندرية.. وكنا نسافر إليه جميعاً، ونقنعه بالعودة..

وفي ديسمبر ١٩٤٩ ثارت الأزمة الكبرى.

جرت الانتخابات النيابية..

وكانت «أخبار اليوم» قد شنت حملة صحفية ضد انتخاب حزب الوفد.. حتى أنها أصدرت ملحقاً مصوراً خاصاً، لعدد أخبار اليوم الذي صدر قبيل التصويت، فيه عرض لقصص الفساد في حكومة الوفد.

ثم بدأت تظهر نتائج الانتخابات.. ووضح أن الوفد في طريقه إلى الفوز

بالغالبية. . وطلبني إدجار جلاد. وأملاني عناصر مقال ينشر باسمه. . يحوي تأييداً لحزب الوفد . وقد بدأت أكتب مقالات جلاد ، قبل ذلك بعدة أشهر . كان كما قلت كاتباً سياسياً ممتازاً باللغة الفرنسية. . وكنا نترجم مقالاته التي تظهر في صحيفة الجورنال ديجبيت بالفرنسية، في السياسة الخارجية، وننشرها في الزمان. . ولكنه أراد أن يكون معروفاً لقراء العربية، وأن يكتب في السياسة الداخلية. . واستدعاني ذات مساء إلى مكتبه وقال لي: سأقول لك الفكرة بالكلام العربي البلدي. . وعليك أن تصيغها باللغة العربية.

وفرحت ، فهذه أول فرصة لى للتدريب على كتابة المقال السياسى القصير . وأذكر أنني أمضيت ساعات طويلة، في كتابة أول مقال له. . ثم بعد ذلك جرى القلم في يدي. .

واندهشت لاتجاه جلاد باشا، لتأييد حزب الوفد، رغم أن اتفاقنا معه أن تصدر الجريدة مستقلة.

وقال لى بكل وضوح . . وأنا أتذكر نص كلماته : « ياحبيبى . . الوفد جاي الحكم بأغلبية. . معنى كده أنه لازم يتعاون مع السراي. . وأنا موقفي مع الملك». .

وكان رأى جلال الدين الحمامصي، قاطعاً، في استحالة أن تتحول الجريدة، إلى صحيفة تؤيد الوفد. .

وكان جلاد باشا يخشى أن ننشر أخباراً أو مقالات ضد الوفد من وراء ظهره. . ولذلك فقد كان يرسل شاباً عينه حديثاً، سكرتيراً له هو الشافعي عبد الحميد (سفيرنا لدى ألمانيا الاتحادية أخيراً) إلى المطبعة ، لكى يراجع البروفات. وقد جرح هذا التصرف مشاعرى . . لأنه يعنى عدم الثقة . .

وقررت الاستقالة!

ولم يكن في جيبي إلا خمسة عشر قرشاً!. . ولكنها حماسة الشباب، وطهارة الإيمان بالموقف المبدئي.

وناقشت جلال الحمامصي في ذلك، وصارحني بأن هذا قراره أيضاً. .

وحاول جلاد باشا أن يقنعني بالعكس. . وقال لي: «إنني احترم حرية الرأي. . ولعلك تذكر أنني عندما دخلت انتخابات نقابة الصحفيين لمنصب النقيب. . وكان منافسي هو الدكتور طه حسين، إنك صارحتني بأنك ستعطي صوتك لطه حسين. . ولم أغضب عندما سمعت مبررات رأيك. . ولكن موضوع الوفد هنا ليس موضوع حرية رأي. . ولكنه سياسة دولة. أنا صاحب جريدة مستقلة. . نعم. . ولكنها غير معارضة. وإذا جاء الوفد إلى الحكم، بغالبية في الانتخابات فكيف أعارضه؟» . .

ولكنني لم اقتنع. .

وفي جلسة أخرى، عرض علي جلاد باشا، أن أبقى. . وقال لي أنه سيعينني رئيساً للتحرير. . وسأكون أصغر رئيس تحرير لجريدة يومية في مصر. . علاوة على أن مرتبي سيرتفع من ٤٥ جنيهاً إلى ١٠٠ جنيه. .

ولكنني شكرت له تقديره، واعتذرت عن عدم قبول العرض. .

وقرر زملاء آخرون الاستقالة. . واتفقنا أن نتوجه إلى «الأهرام» لمقابلة كامل الشناوي، لكي ينشر خبراً عن استقالتنا الجماعية وأسبابها. .

وكان ادجار جلاد قد أعطاني علاوة ١٠ جنيهات بعد عام من العمل، وفي العام التالي أعطاني مكافأة ١٠٠ جنيه، تعويضاً عن العلاوة الثانية التي استحقها . وقال لى إنه لايريد إغضاب حسين فهمى زميلى فى سكرتارية التحرير ، لأنه لايستحق علاوة . .

ولكنه ـ عندما سويت حسابي ـ بعد الاستقالة خصم مبلغ المكافأة من مستحقاتي!

وفي اليوم التالي قدم جلال الدين الحمامصي استقالته. .

وقررنا مجموعة من الشباب. . علي حمدي الجمال وأنا والآخرون، أن ننشر استقالة جماعية في صحيفة الأهرام. وتواعدنا على اللقاء في مكتب كامل الشناوي في المساء.

ورحب بنا الرجل، وكانت هذه أول مرة أراه في مكتبه. . وقدم لنا «القرفة» الشراب الذي يقدم لضيوف الأهرام. . وغاب عنا بعض الوقت، ثم

عاد ليقول إن الخبر سينشر غداً. ثم انتحى بـي جانبـاً، وقال لي.. «لا تنصرف مـع زملائـك. أريـدك في شيء هـام». وانصرفـوا.. وبقيت ليقـول لي كـامـل الشناوي، إن استقالتي لن تنشر معهم، وإن مكتباً قد أعد لي في «الأهرام» فقـد صدر قرار بتعييني!

وفي الصبـاح المبكر، اتصـل بي جـلال الحـمامصي تلفـونيـاً، يسـألني عن أخبـاري.. فرويت لـه مـا جـرى. ولكنـه قـال لي، إنني سـأعمـل في «أخبـار اليوم».. وقد حدد لي موعداً مع مصطفى أمين عند ظهر اليوم التالي..

ولما شرحت له استحالة ذلـك، لأنني أعطيت كلمتي لكـامل الشنـاوي.. قال لي إنه سيعمل في أخبار اليوم ويريدني معه.. وهو سيتكفل بالإعتذار لكامل الشناوي..

ومررت على «الأهرام» في الصباح التـالي، وتركت رسـالة اعتـذار رقيقة. ثم توجهت إلى مبنى أخبار اليوم، وكان من ثلاثة أدوار للقاء مصطفى أمين..

وكنت أتمنى فعـلاً أن أعمـل في «أخبـار اليـوم».. دار مصريـة، يملكهـا مصريون، ويعمل فيهـا مصريون.. ثم هي الـدار اللامعـة.. وكنت أمر أمـام مبنى أخبار اليوم كل يوم أكثر من مرة وأنا في طريقي إلى «الزمان».. الـذي يقع في نفس الشارع.. شارع الصحافة. وكنت أمني نفسي أن أعمل بها يوماً!

إنها تضم ألمـع النجوم الكبـار، وهم يتناولـون الغداء معـاً ظهر كـل يوم جمعة.. توفيق الحكيم، أحمد الصاوي محمد، سعيد عبـده، المازني، التـوأمان، وأملي أن أتناول معهم هذا الغداء!

ولكن حدث في اليوم السابق، على موعدي مع مصطفى أمـين، وبعد أن تحدث إلى جلال الحـمامصي، أن زارني صديق العمـر عبد الـرحمن الشرقاوي في منـزلي، وكان يعمـل في أخبـار اليـوم.. ولمـا قلت لـه إنني سـأعمـل في أخبـار اليوم.. فاجـأنـي بأن محمـد حسنين هيكـل كان يجلس مـع محرري أخبـار اليوم بالأمس، وقال لهم إن موسى صبري لن يعمل في أخبار اليوم ولن يدخلها!

وعجبت!

ولولا أن ناقل الرواية هو عبد الرحمن الشرقاوي لما صدقت. . لأنني لم أرَ هيكل من قبل، إلّا مرة عابرة، عندما جاء إلى مبنى «الزمان»، ليزور صديقه محمد عبد النبي. . بل إنني كنت معجباً به لتحقيقاته في فلسطين. وكان أحد الأسماء اللامعة في أخبار اليوم، مع محمد البيلي وسعد التائه ورمسيس نصيف.

وأكد لي الشرقاوي، صدق روايته، لأنها حدثت في حضوره!!

وتوجهت إلى لقاء مصطفى أمين في تمام الساعة الثانية عشرة ظهر يوم أول يناير ١٩٥٠.

واستقبلني بترحاب، وسألني عن العمل الذي كنت أؤديه في «الزمان». . ثم قال لي: أريد منك نقداً لأخبار اليوم وآخر ساعة. .

فقلت له: إنكم منحازون لحكومة السعديين. .

أجاب: غير صحيح. . بدليل أننا نشرنا موضوعاً هاماً في آخر ساعة ضد مرسي بدر وزير التعليم واتهمناه بالرجعية. .

قلت: هذه جزئية، ولكن سياستكم العامة تأييد أحزاب الأقلية. . ضد الوفد، رغم أنني ضد الوفد. . ولكنني أفضل الإستقلال عن كل الأحزاب. .

وناقشني في أمور أخرى. . ثم قال لي: سأكتب الآن قراراً بتعيينك محرراً برلمانياً لأخبار اليوم وآخر ساعة. .

ثم سألني: كم مرتبك في «الزمان». .

وأجبت: ٤٥ جنيهاً. .

وقال لي: أنا آسف. لا أستطيع زيادة مرتبك، لأن أحسن محرر في أخبار اليوم وهو محمد حسنين هيكل يتقاضى أقل من هذا المرتب.

قلت: لا يهمني المرتب. . ولكنني أطلب أن أكون محرراً برلمانياً لأخبار اليوم فقط دون آخر ساعة.

ولما سألني عن السبب، حكيت له ما رواه لي الشرقاوي، وقلت له ليس

من المعقول أن هيكل يبادرني العداء دون سبب، ولما كان هو نائب رئيس تحرير آخر ساعة. . فإنني لا أريد التعامل معه.

ورفض مصطفى أمين هذا المنطق. وقال لي لو كنت أنت محرراً في أخبار اليوم، لكان من حقك أن تبدي رأيك في محرر جديد سوف يعين. كما أنك عينت وهذا يدل على أن كلام هيكل لا أثر له.

وكتب قرار التعيين، واتصل بعلي أمين في التليفون، وقال له: موسى صبري في الطريق إليك.

كان مصطفى أمين يعمل في مكتب فسيح بالدور الثاني (يعمل في هذا المكتب الآن محمد وجدي قنديل رئيس تحرير آخر ساعة). . وكان علي أمين في مكتب بالدور الأول. .

واستقبلني علي أمين بمثل ترحاب مصطفى أمين. . ولم يضيع الوقت في أي حديث مع المحرر الجديد. . وقال لي: غداً تصدر آخر لحظة (ملحق تابلويد) مع آخر ساعة. . وأريد اليوم أخباراً من البرلمان!

كان هذا امتحاناً صعباً، فالساعة وصلت إلى الواحدة بعد الظهر. . وهو يريد أخباراً على الفور. ولكنني قررت أن أنجح في الامتحان.

وأسرعت بسيارتي الصغيرة التي كنت قد دفعت القسط الأول من ثمنها (٣٣٨ جنيهاً) من المكافأة التي كنت حصلت عليها من الزمان. . (١٠٠ جنيه). . وقصدت على الفور إلى مكتب ابراهيم عبد الوهاب سكرتير عام مجلس الشيوخ. . ثم إلى الدكتور سيد نوفل مدير مكتب الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ. . ثم مررت على جميع أصدقائي سكرتيري لجان مجلس النواب. . وبعد ساعة ونصف الساعة كنت قد جمعت حصيلة لا بأس بها من أخبار مجلسي الشيوخ والنواب!

وعدت إلى أخبار اليوم، وقدمتها على الفور إلى علي أمين الذي أبدى إعجابه بهذا النشاط.

كان هذا هو لقائي الثالث مع مصطفى أمين. .

رويت قصة اللقاء الأول، في فصل سابق.. ثم جاء اللقاء الثاني في منزل جلال الدين الحمامصي، ونحن نعد لإصدار جريدة الزمان، وقد طلبت مجموعة الشباب من جلال الحمامصي، أن نلتقي بمصطفى أمين. ودعاه إلى الشاي معنا في منزله، وأمضى معنا مصطفى أمين أكثر من ساعتين، يروي لنا النكات على مصطفى النحاس باشا.. وأعجبنا بشخصيته إعجاباً شديداً.

وصدرت آخر لحظة مع آخر ساعة صباح الأربعاء.. وكان علي أن أقدم أخباراً إلى أخبار اليوم، حتى يوم الجمعة.. لأنها تصدر يوم السبت..

وكان هذا هو الامتحان الثاني..

الفصل السادس

من الأسلحة الفاسدة.. إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٦

قضية الأسلحة الفاسدة ـ النائب العام له زوجتان ـ استجواب مصطفى مرعي في مجلس الشيوخ ـ برقية إلى مصطفى مرعي ـ مناظرة في قاعة ايوارت بالجامعة الأمريكية ـ عزل الأعضاء المعارضين من مجلس الشيوخ ـ المباحثات السرية مع السفير البريطاني ـ تشريعات الصحافة ـ اصطلاح. . يا مرحب ـ المنافسة بين «المصري» و«الأخبار» ـ زواج حمدي فؤاد من هدى توفيق ـ أحمد رجب في القاهرة ـ عريضة زعماء المعارضة ـ زواج فاروق من ناريمان ـ مظاهرات حريق القاهرة.

الفصل السادس

من الأسلحة الفاسدة.. إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٦

أثيرت قضية الأسلحة الفاسدة خلال حكم الوفد قبل حريق القاهرة. قام بالحملة الصحفية الناجحة إحسان عبد القدوس. وكان عدد من ضباط الجيش يمدونه بالأخبار. وقام حلمي سلام على صفحات «المصور» بدور هام في قضايا داخلية عديدة، واتضح بعد ذلك أنه كان على صلة شخصية بجمال عبد الناصر وعدد من الضباط الأحرار.

وقد أحيلت القضية إلى النيابة العامة. وأوحت تصريحات النائب العام محمد عزمي، أن هناك ضغوطاً عليه. وقامت أكثر من أزمة بسبب موقف عبد الفتاح الطويل باشا وزير العدل، الذي أكد أنه أتاح كل الفرص للنائب العام دون ضغط.

وكان علي أن أتابع النائب العام، وقد كان يجري التحقيق في الإسكندرية. وظفرت منه بأكثر من حديث صحفي.. ولكن المفاجأة عندي، أنني عندما كنت ألاحقه في منزله، اكتشفت أنه متزوج من اثنتين!

ولكن النائب العام لم يثبت على موقفه. واهتز وتراجع في أخطر قضية سياسية في ذلك الحين.

وقدم مصطفى مرعي عضو مجلس الشيوخ، استجوابه المشهور عن الرشاوي التي حصل عليها رجال الحاشية الملكية، وموضوع الأسلحة الفاسدة.. وقد حضرت هذه الجلسة التاريخية. وكان فيها مصطفى مرعي في قمته.. أداءً وبياناً وشجاعة اتهام.. وسجلت كل ما ذكره من اتهامات..

وقـدمت المـوضـوع إلى مصـطفى أمـين وكنت في منتهى الحـماسـة. . وشـطب مصطفى أمين بعضاً من عبارات مصطفى مرعي القاسية. . ودفعتني حماستي أن أرسل برقية تهنئة إلى مصطفى مرعي على موقفه الوطني. . وكان قد غـادر قاعـة مجلس الشيوخ إلى الإسكندريـة، حيث سافـر منها إلى الخـارج. وقد أخـذ عليه هذا الموقف، بأنه هـروب من المعركـة. . وقيل إنـه خشي من أن يغتالـه زبانيـة الملك، ولكنه قال إنه كان على موعد سابق خارج الحدود.

* * *

وهنـا أتوقف قليـلاً. . دارت الأيام. وقـامت الثورة. وعـرف تاريخيـاً أن الأسلحـة الفاسـدة هي أحد الأسبـاب التي دعت الضبـاط الأحـرار للتفكـير في الثـورة. ثم نظرت محكمـة الجنايـات القضيـة خـلال العـام الأول من الثـورة. وقضت ببراءة جميع المتهمين من جريمة تقديم أسلحـة فاسـدة، أو الحصول عـلى كسب غير مشروع في بيعها للجيش. وأذكر أن فؤاد جلال وزير الإرشاد القومي، والرقيب العام على الصحف، جاء إلى صالة تحرير «الأخبـار» في ساعـة متأخـرة من الليـل، وهو في قمـة الإضطراب، وطلب رؤيـة «بروفـات» الحكم. . وأمر بمنـع نشرها. . وهـو يردد في غضب: «هـذا الحكم يهدم أسـاسـاً قـامت عليـه الثورة». . وهكذا حجب الحكم عن الرأي العام.

* * *

ولى مع مصطفى مرعي نادرة طريفة. .

لقد حضرت مناظرة في قاعـة إيوارت بـالجامعـة الأميركيـة كان مصـطفى مرعي وأحمد حسن الباقوري خـطيبيها. وقـد هزتني كلمـة مصطفى مـرعي عن المـوقف السياسي، وسيـطرة الإنجليز. . كـانت كلمـة بليغـة، بعبـارات قـويـة منتقاة. . ثم أضفى عليها إلقاء مصطفى مرعى، ووقفته المهيبة جلالاً . . وصفقنا له طويلاً. .

ولـما عـدت إلى أخبـار اليـوم، بعـد أن كتبت تلخيص المنـاظـرة. . قلت لمصطفى أمين إنني لم أستطـع أن أسجل كل كلمة مصطفى مرعي. . ومن الخير أن تنشر كاملة. فطلب مني أن أتصل به لاستكمالها. وطلب مني مصطفى مرعي

أن أزوره في منزله. وذهبت.. وقرأت له ما كتبت.. وأخذ يكمل لي الجمل التي فاتتني. ثم رأيته يخرج ورقة من جيبه يستعين بها.. واكتشفت أن الكلمة كانت مكتوبة. وأنه حفظها، وألقاها فى المناظرة.. وبدا كأن كلماتها بنت الساعة!

أعود إلى قاعة مجلس الشيوخ.. لقد تولى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية. والنجم اللامع المسيطر على الحكومة وحزب الوفد ورئيس الحزب.. الرد على الإتهامات التي وجهها مصطفى مرعي.. وكان موفقاً في رده، وإن لم يستطع أن يقلب الصورة.. وقال عبارة في خلال رده، رأينا ترجمتها العملية بعد أيام!.. قال فؤاد سراج الدين، إنه شعر أثناء إلقاء مصطفى مرعي لاستجوابه، إن كرسي رياسة المجلس يهتز!.. ولم نفهم ماذا يقصد.. وبعد أيام صدرت مراسيم ملكية، بعزل الدكتور محمد حسين هيكل رئيس المجلس من رياسة المجلس، وكان رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين.. كما عزلت المراسيم كل أعضاء المجلس من المعارضين، وعين بدلاً منهم أعضاء وفديون.. وكان ذلك ضربة قاصمة للديمقراطية.

ويوم صدور هذه المراسيم الملكية، قابلت فؤاد سراج الدين في مكتب ابراهيم عبد الوهاب، وناقشته في هذا الأمر الخطير، وعلله، بأن تعيين هؤلاء الشيوخ كان باطلاً أصلاً وهذا تعليل يدخل في باب الألاعيب السياسية.

وفي ذلك الوقت كانت تجري مباحثات بين السفير البريطاني، وحكومة الوفد، حول الجلاء. وكان الدكتور محمد صلاح الدين، يجري هذه المباحثات، في مكان مجهول بالإسكندرية. وقررت أن أكشف هذا السر المجهول. وعرفت عنوان منزل الدكتور صلاح الدين، ورابطت قريباً منه بسيارتي الصغيرة منذ السابعة صباحاً، ومعي المصور عبد اللطيف.. وانتظرنا حتى نزل الوزير، وركب سيارته.. وتابعناه.. حتى اتجه إلى غرب الإسكندرية، ناحية برج العرب.. ودخلت السيارة من باب سور كبير يؤدي إلى حديقة.. وإلى منزل كبير، ولم يعترض أحد. واختبأنا خارج المنزل، حتى جاء السفير البريطاني، وقفز عبد اللطيف من السيارة، والتقط العديد من الصور. وظهر على الفور، ضباط الأمن، واستولوا على الفيلم.. وأخرجونا. وظللنا مرابطين فوق سطح

منزل قريب. . حتى خرجت سيارتا السفير والوزير. . وكتبت الخبر في آخر لحظة، عن مكان الاجتماع، ومدته، ورقم السيارتين، وكان مانشيت الصفحة الأولى! . ولكنهما تابعا المباحثات بعد ذلك، في مكان سري آخر!

وكانت وزارة الوفد قد تحولت إلى «زيطة» . . بسبب التناقضات القائمة بين الوزراء، وتحولهم إلى شلل وأحزاب داخل الحزب الواحد. . ففي تلك المرحلة، كان فؤاد سرج الدين ينفذ سياسة الوفاق مع الملك. وكان النحاس باشا يسرف في التصريحات التي تتحدث عن حكمة الملك ووطنيته وتوجيهاته السامية. . وطلب الملك اصدار تشريع يمنع الصحف، من نشر أخبار الأسرة المالكة، بعد أن تسربت فضائح كثيرة عن هذه الأسرة. وكلف سراج الدين، النائب اسطفان باسيلي بتقديم هذا التشريع. . واحتجت الطليعة الوفدية برياسة النائب عزيز فهمي نجل عبد السلام فهمي جمعة (باشا) رئيس مجلس النواب. . وعقدت الاجتماعات المعارضة للقانون في نقابة الصحفيين. . واضطر فؤاد سراج الدين إلى التراجع، بعد أن انضم الدكتور محمد صلاح الدين علناً إلى النواب الثائرين. . ثم كان الخلاف بين الوزراء حول المباحثات مع الانجليز. . وكان الدكتور حامد زكي وزير الاقتصاد يتصل بالسفير البريطاني، وينقل رسائل منه إلى النحاس باشا. . مما أثار الدكتور صلاح الدين ضد هذه الاتصالات التي تجري من وراء ظهر وزير الخارجية. . ثم عين عبد الفتاح حسن باشا وزيراً، وسافر إلى كابري لأداء اليمين الدستورية أمام الملك في هذه الجزيرة، وكان الملك قد سافر إليها للترفيه عن نفسه، وكانت صحف ايطاليا تنشر الأخبار العديدة عن مباذل الملك، وعن الراقصة سامية جمال، التي أطلقت عليها أخبار اليوم اسم راقصة مصر الرسمية، لأن الملك استدعاها للسفر إلى كابري، لكي ترقص في سهراته. . وكان حلف اليمين في هذه الجزيرة، فضيحة بالنسبة لحكومة الوفد. . كما أقالت الحكومة شيخ الأزهر الذى صرح بعبارة مشهورة « اسراف هناك . . وتقتير هنا» . . وكان يقصد اسراف الملك على مباذله في الخارج، وتقصير الحكومة في مرتبات علماء الأزهر. .

كما بدأت تظهر بوادر الحركات الشيوعية. . فقد حدث في ثلاث قرى،

ان هاجم الفلاحون قصور الاقطاعيين. . وكانت هذه الحوادث لها دلالتها الخطيرة. .

وانتشرت في ذلك الوقت، فضائح فساد أحد الوزراء الذي كان يضارب فى بورصة القطن ، مستغلاً منصبة الوزارى . . وشاع أنه كان يقبض الرشاوى، ويحدد رقمها، بأسلوب معين. . وهو أن يقول لطالب الوساطة مرحب. . وهذا يعني مائة جنيه. وإذا قال خمس مراحب فهذا يعني ٥٠٠ جنيه وهكذا. .

المهم. . أن الوزارة كانت زيطة!

وكان ذلك، مجالاً خصباً، للحصول على الأخبار، من الوزراء المختلفين. .

وكانت المنافسة ملتهبة بين «المصري» و«الأهرام» و«أخبار اليوم». . وكان أنشط مخبر صحفي في ذلك الوقت هو أحمد فهمي ابن شقيقة أحمد أبو الفتح. وكان يرأس مكتب المصري في الإسكندرية طوال فترة الصيف . كما كنت أرأس مكتب أخبار اليوم. وكنا نتحايل في تدبير «المقالب» للانفراد بالأخبار الصحفية. . كان يحدث فعلاً أن يحصل أحمد فهمي على خبر هام، وكان يريد أن يشعرنا بأنه لم يفز بأي خبر في ذلك اليوم. . ويدعونا إلى العشاء فى فندق سان ستيفانوا . . و ذلك لكى يعطلنا ، حتى يكون أحد زملائه فى المصري، قد أملى الأخبار الهامة التي حصل عليها تليفونياً إلى «المصري» في القاهرة. . وكان يفقد أعصابه عندما اختفى، ولا يعرف أين أكون. . ثم أظهر فجأة، لأقنعه أنني كنت في زيارة عائلية. . وكنت خلال ذلك، قد قمت بجهد صحفي كبير، للحصول على خبر هام. . ولكننا كنا على أوثق روابط الصداقة. وكنا نهنيء بعضنا البعض إذا انفرد أحدنا بخبطة صحفية!

واستطعت في تلك الفترة، أن أجند عامل تليفون فندق سان استيفانو، لحساب «أخبار اليوم». . وكنا نعطي له مرتباً شهرياً، لكي يبلغنا باتصالات النحاس باشا. . أو السيدة حرمه!

وفي ذلك اليوم، وفي خضم العمل الصحفي الشاق ليل نهار. . كنت

أبحث عن زوجة. وقدم لي زميلنا محمد عبد الجواد، صحفية جديدة بدأت العمل الصحفي، اسمها هدى توفيق، وتعارفنا.. وفجأة، طلب زميلي حمدي فؤاد أن يقابلني.. وجرى اللقاء، على لسان كان يمتد إلى داخل البحر من الكورنيش.. وقال لي: هل ستتزوج هدى توفيق؟.. قلت له.. لم أقرر هذا.. ولكن محمد عبد الجواد قدمها لي للتعارف. وخفت صوته، وحبس دمعه، وهو يقول لي شبه مرتجف: أنني أحبها.. أنني أعبدها. وقد قررت الزواج منها، وسأجعلها ملكة، وقلت له مبروك.. ودعوت جميع زملائنا إلى عشاء بأحد المطاعم، واحتفلنا بخطبة حمدي فؤاد إلى هدى توفيق. ويعمل حمدي فؤاد (الآن) مديراً لمكتب الأهرام في واشنطن.. وقد أصبح ألمع محرر دبلوماسي في الصحافة المصرية.. ووصلت هدى توفيق إلى منصب نائب رئيس تحرير «الجمهورية».. وأصبحت من أنجح صحفيات مصر!.. وهي تعمل الآن في واشنطن أيضاً، مراسلة للجمهورية، ولعدد من الاذاعات.

ولفت نظري، وأنا أراجع الأخبار المرسلة إلى القاهرة، أخبار مكتوبة بخط جميل، وبالحبر البنفسجي.. وكلها أخبار جيدة عن الجامعة.. وسألت عن كاتب هذه الأخبار.. وقدموا لي شاباً، متخرجاً في كلية الحقوق بجامعة الاسكندرية.. وقدم هو لي مجلة كان يصدرها في الجامعة، على نمط آخر لحظة.. وبهرني أسلوبه الكاريكاتوري الساخر.. وعندما عدت إلى القاهرة، بعد رحلة الصيف، طلبت من على أمين، استدعاء هذا الشاب اللامع إلى القاهرة، ليعمل في مجلة «الجيل»..

وكان هذا الشاب، هو أحمد رجب الذي أصبح ألمع كاتب ساخر في مصر!

انتهت أشهر الصيف.. وعدنا إلى القاهرة. والتهب الموقف السياسي، بالأحداث الساخنة بين الوفد والمعارضة.. وقدم زعماء المعارضة عريضة إلى الملك، كتبت في مكتب على أمين في أخبار اليوم.. بل كان هو صاحب فكرتها.. تحذره من الفساد المستشري حوله.. ومنعت حكومة الوفد نشر هذه العريضة.. وقدمت المعارضة، وثيقة إلى القصر، تثبت أن النحاس باشا كان على صلة بالروس.. ثم اتضح أنها وثيقة مزورة.. وكانت صحيفة الحزب

الاشتراكي بزعامة أحمد حسين، تدعو إلى الثورة. . وسجلت حدثاً صحفياً، لم يحدث في تاريخ الصحافة. وهي أنها نشرت صفحتين كاملتين، لمواطنين عرايا وحفاة ومرضى، يبيتون على الأرصفة بلا غطاء في صقيع الشتاء. . وكتب تحتها «هؤلاء رعاياك يا مولاي». .

وكانت صحيفة الحزب الاشتراكي، تصادر كثيراً. . كما حدث أن أمر فؤاد سراج الدين بمصادرة كل صحف مصر ذات صباح (الأهرام ـ المصري ـ آخر ساعة) عندما نشرت هذه الصحف، خبراً عن الأسرة المالكة. .

ثم استصدر فؤاد سرج الدين قراراً من مجلس الوزراء، بالغاء صحيفة الحزب الاشتراكي. .

وأعلن زواج الملك فاروق من ناريمان، وكانت مخطوبة إلى محام شاب هو زكي هاشم الذي أصبح بعد ذلك وزيراً للسياحة. . وتبارى أقطاب الوفد في تقديم الهدايا للملك، وتنازل كل أعضاء مجلس الشعب عن مكافآتهم البرلمانية، لشراء هدية إلى الملك، باستثناء نائب واحد هو ابراهيم شكري ممثل الحزب الاشتراكي. وكان قد تقدم بمشروع للحد من الملكية الزراعية، رفضه مجلس النواب ، كما قدم أحد الشيوخ مشروعاً مماثلاً إلى مجلس الشيوخ رفضه المجلس. .

عشنا هذا الجو العنيف، الذي أوجد ازدهاراً صحفياً. . ولكننا كنا نحس، أن شيئاً ما سيحدث!.

وأعلن مصطفى النحاس الغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد. .

وقالت صحف أخبار اليوم، أنها تؤيد القرار الوطني، ولكنها تعلم أن هذا القرار صدر لامتصاص غضب الجماهير، وإلهاء الناس عن فضائح فساد الحكم.

وبدأت المقاومة الشعبية في منطقة القناة. .

حتى جاء يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢. . وحاصرت القوات البريطانية قسم بوليس الاسماعيلية، وأنذرت ضباط القسم بالتسليم أو الضرب بالمدفعية. وقد اتصل ضباط القسم بوزارة الداخلية في القاهرة، لأخذ الرأي، فأمر فؤاد

. سراج الدين وزير الداخلية ضباط القسم بالمقاومة إلى آخر نقطة من دمائهم. ولم يكن لدى الضباط إلا قوة بسيطة من الجنود وعدد من البنادق القديمة. وقد رفض الضباط والجنود المصريون الانذار البريطاني، وقاوموا بسالة... واستشهد بعضهم.

وبسبب هذا الموقف بدأت مظاهرة صباح ٢٦ يناير في القاهرة..

واتسعت المظاهرات.. وفي ساعات تحولت القاهرة إلى مدينة تحترق!

الفصل السابع

حضرت تأليف الوزارة
فى عوامة بعد منتصف الليل!

اللقاء الأول مع دكتاتور أخبار اليوم ـ جليل البنداري يحاول التجريح ـ أول وآخر تكذيب رسمي ـ تحقيق داخل مستشفى الأمراض العقلية ـ طه حسين يعلن مجانية التعليم ـ عرفت الدكتور محمد حسين هيكل باشا والدكتور محمد هاشم باشا وأصبحت ضيفاً على مائدة علي ماهر باشا ـ محاولتان للرشوة من وزير وفدي ونائب سعدي ـ صداقة عبد الفتاح حسن باشا ـ عرض مصروفات سرية من علي ماهر ـ حملة أحمد رجب على الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ـ أزمة في الكويت بسبب هدايا الأمير ـ المقالات البترولية ـ موارد سرية من شركة قناة السويس ـ اعلانات عبود باشا ـ أزمة الفاسي ـ شركات توظيف الأموال والصحف ـ الملك سعود يدفع مليون دولار لصحفي لبناني ـ عبد الناصر يسيطر على صحف لبنان بالأموال ـ السادات يرفض الدفع ـ فضيحة توزيع أراضي الدولة على أسرة حرم رئيس الوزراء ـ دور الدكتور أحمد حسين في كشف الفضيحة ـ النحاس يصرخ: مين ابن الكلب ده؟ ـ استقالة الدكتور أحمد حسين ـ أرشدت كامل الشناوي إلى بيت الوزير المستقيل ـ لقاء مع نجيب الهلالي باشا ـ عرض من ابراهيم عبد الهادي باشا ـ في دار الاسعاف يوم حريق القاهرة ـ الذهاب مع علي أمين إلى عوامة علي ماهر في سيارة اسعاف ـ رياسة الوزارة تهرب من علي ماهر وتعود إليه في نفس الليلة! ـ أحمد حسين يرفض الاشتراك في الوزارة ويطلب تنازل الملك عن أملاكه للشعب ـ ٤ وزارات حتى قيام الثورة.

الفصل السابع

حضرت تأليف الوزارة
في عوامة بعد منتصف الليل!

بدأت عملي في أخبار اليوم (يناير ١٩٥٠) بروح متوثبة.. تولت وزارة الوفد برياسة مصطفى النحاس مسئوليتها، وعين فيها وزيران كانا استاذين لي في كلية الحقوق. الدكتور حامد زكي ودكتور زكي عبد المتعال.

واستطعت أن أحصل من مكتبي الوزيرين على عدة أخبار مستثمراً وضع أنني تلميذ لهما. وقدمت هذه الأخبار صباح يوم الجمعة، إلى مصطفى أمين، الذي طلب مني أن أقدمها إلى سكرتير التحرير حسين فريد، بعد أن أقر نشرها.

ورأيت حسين فريد لأول مرة..

دخلت إلى مكتبه، وكان منشغلاً برسم ماكيتات الصفحات.. وألقى على نظرة خاطفة، ثم انصرف إلى عمله وتركني واقفاً أمامه.. وتحملت.. وبعد أكثر من ثلاث دقائق، اتجه ببصري لي وسألني:

- أيوه.. فيه حاجة..

قلت في هدوء:

- أنا موسى صبري المحرر الجديد..

قال ببرود:

- أيوه. عارف.

قلت:

- هذه مجموعة أخبار طلب مني مصطفى بيه أن أقدمها إليك..

ومد يده وأمسك بالأخبار، وألقى ببصره عليها في تعال شديد، ثم تركها أمامه.

وقال لي:

ـ طيب خلاص.

وخرجت من مكتبه وأنا في قمة الغيظ، من هذه المعاملة المتعالية البـاردة. وكنت قد سمعت أنه دكتاتور أخبار اليوم!

وشكـوت إلى مصطفى أمـين، هـذا الأسلوب في التعـامـل.. وقـال لي: عليك أن تحل مشاكلك بنفسك.. وعليك أن تنشىء علاقة صداقة معه.. قدم له دعوة إلى السينما.. أو أعزمـه على الغـداء.. وعجبت أن مصطفى أمـين هو الذي ينصحني بذلك. هل يعني هذا أن حسين فريد أقوى منه؟.. واحترت في أمر التعامل مع هذا الدكتاتور..

وكانت هذه أول صفعة لي في «أخبار اليوم»..

ثم جاءت الصفعة الثانية..

أثنـاء مروري في الـطرقة التي تتفتـح عليها حجـرات التحـريـر، سمعت صوتاً عالياً يقول في سخرية.. «هوه ده مـوسى صبري الـلي بيقولـوا عليه؟».. وتوقفت. ونظرت إلى الغرفة التي صدر منها الصـوت، فإذا بـه جليل البنـداري وحوله عدد من الأشخاص.. وبادرني بلهجة ساخرة.. أنت موسى صبري؟.. وضحك. وضحك من حوله.

وشعرت أنه تعمد التهوين من شأني..

ولم أرد عليه. ونظرت إليه باحتقـار شديـد.. وتوقف الضحـك. وبقيت واقفاً للحظات، وأنا أدير بصري في الحجرة، وكأنني أفحص هـذه الوجـوه. ثم وجهت إليه حديثي بكلمات جـافة.. وأنـا أسألـه: هل تـريد شيئاً من موسى صـبري؟.. هل تصـورت أننا أصـدقاء لتضحـك معي؟.. وانصرفت دون أن استمع إلى اجابته.

وعلمت بعد ذلك، أنه صديق قريب جداً من محمد حسنين هيكل، وأنه

أراد استقبالي بهذا الأسلوب الكاريكاتيري سخرية مني، وارضاء لهيكل!

ولكنه جاء بعد ذلك، إلى مكتبي، واعتذر لي. . وأصبحنا بمرور الأيام مجرد زميلين. . ثم اقتربنا أكثر ونشر معي حديثاً في أخبار اليوم، استغرق صفحة كاملة، بمناسبة صدور كتابي «قصة ملك و ٤ وزارات» بعد الثورة. . وما قالته أم كلثوم من أنها كانت تقرأ الكتاب، وانقطعت الكهرباء، فأشعلت شمعة واستمرت تقرأ الكتاب طوال الليل حتى أنهته!. . وقد اشتهر عن جليل البنداري طول اللسان، واستخدام الألفاظ البذيئة مع أصدقائه. . ومع الفنانين والفنانات الذين يكتب عنهم. . ولكنه لم يجرؤ يوماً ـ إلى أن مات رحمه الله ـ أن يتطاول علي بكلمة نابية.

وكان جليل البنداري، مؤلفاً للأغنية، وكاتب حوار جميل، وكان ينشر اسبوعياً في أخبار اليوم تحقيقاً ممتعاً مع أحد الفنانين، لأنه كان صاحب أسلوب ساخر فريد. وكان يطلق أسماء على أهل الفن. . مثل التفاحة أو قطعة المارون جلاسيه أو اللورد أو العمدة. . وغير ذلك. وكان الفنانون يحبونه رغم طول لسانه لأنه كان طيب القلب. .

ثم جاءت الصفعة الثالثة. .

أرسل الدكتور حامد زكي (باشا) وزير الاقتصاد، تكذيباً للخبر الذي نشر لي!. . ولعلها المرة الأولى والأخيرة، التي يصدر فيها تكذيب رسمي لخبر كتبته طوال سنوات اشتغالي بالصحافة. . حتى كتابة هذه السطور. .

وكنت واثقاً من صحة الخبر. .

ودخلت إلى مكتب مصطفى أمين، وعرضت عليه ما يؤكد صدق الخبر، وقال لي أنه يصدقني، ولكنه سينشر التكذيب.

واقترحت على مصطفى أمين أن أسافر إلى بنى سويف، لكتابة تحقيق عن موظف حاول الانتحار بسبب غلاء المعيشة، ووافق. ونشر التحقيق في الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم، وفي ذيله اسمى بالبنط الصغير (١٢). . وكنت في قمة السعادة. .

ثم اقترحت أن أكتب تحقيقاً من داخل مستشفى الأمراض العقلية في

العباسية، عن مواطن أدخل إلى المستشفى على أنه مجنون، لأسباب سياسية، وهو رجل في قمة العقل. واستعنت في هذا التحقيق، بزميلتي عصمت عبد الجواد، وكانت لا تزال تعمل في «الزمان».. وتوجهنا ومعنا المصور إلى المستشفى، وقابلنا الأطباء، واستطاعت زميلتي عصمت، أن تنشيء مودة سريعة مع أحد الأطباء الذي مكننا من لقاء «المجنون العاقل» وتصويره، واعتبرها مصطفى أمين خبطة صحفية، وهنأني عليها..

وكانت هناك اتهامات من أحزاب الأقلية، بتزوير الانتخابات.. فقمت بجولة في بعض «المديريات» وحققت هذه الاتهامات.. ونشرت التحقيقات عنها.. وكانت ناجحة..

وخلال ذلك تابعت عملي كمحرر برلماني..

واخترت أن أكتب صورة وصفية لجلسة مجلس النواب، التي أعلن فيها الوزير الدكتور طه حسين باشا، مجانية التعليم.. وتابعت بالقلم، طه حسين، عندما رفع يده يطلب الكلمة.. ثم يقف، ويتقدم منه سكرتيره ويمسك بيده، ويقوده إلى درجة السلم، التي يخطو إليها، ليقف إلى المنصة.. وينصت النواب، ويحل صمت رهيب، ثم يبدأ طه حسين كلمته.. وليعلن أن التعليم كالماء والهواء حق للجميع.. ولذلك قررت الحكومة مجانية التعليم، فيما عدا التعليم الجامعي..

ودوت القاعة بتصفيق خرافي..

ونشرت هذه الصورة القلمية، في الصفحة الأخيرة من «أخبار اليوم».. واتصل بي صديقي حسين عزت سكرتير الدكتور طه حسين، بعد النشر، وعاتبني، لأنه من وجهة نظره، لم يكن لائقاً، أن أصف كيف تحرك الوزير من مقعده إلى منصة المجلس، وكان ردى، أن هذا فخر لطه حسين.. وقدوة لكل الشباب، أن يروا الوزير الضرير، يعلن أخطر قرار وهو في أرفع مناصب الدولة.

وهكذا بدأت أدخل إلى أسرة أخبار اليوم.. وأعامل من الجميع، كمحرر ناجح.. وبدأت أوثق صلتي بعدد من السياسيين من مختلف الأحزاب،

وقد كنت أتردد على مقار هذه الأحزاب في مختلف المناسبات، لتبين منهجهم في العمل، وللحصول على الأخبار.

عرفت الدكتور محمد حسين هيكل (باشا) رئيس حزب الأحرار الدستوريين.. وكنت أعجب أن رجلاً مثقفاً وصاحب قلم رائع مثله، يرأس أكثر الأحزاب المصرية رجعية.. وكنت أتصور دائماً، أنه مهيئاً لأن يقود حركة إصلاح، وأن يعلن برنامجاً تقدمياً لحزبه.. وأذكر أنني ناقشته في ذلك ذات يوم.. فقال لي: «اسمع يا بني. لا أمل في أي إصلاح، ما ظلت مصر محكومة من السفارة البريطانية، ومن القصر الملكي».

وعرفت الدكتور محمد هاشم (باشا)، استاذ الحقوق، وزوج ابنة حسين سرى باشا السياسي المعتقل الذي رأس الوزارة أكثر من مرة.. وقد عين الدكتور هاشم وزيراً، في الوزارة الائتلافية التي قسمت الدوائر الانتخابية وأشرفت على الانتخابات.. وكان المتفق عليه أن تسفر الانتخابات عن نتائج متوازنة بين جميع الأحزاب.. ولكن الدكتور هاشم هو الذي خطط، لكي يتيح لحزب الوفد الحصول على الغالبية.. ونشأت بيني وبينه صلة وثيقة، أفادتني كثيراً في معرفة الكثير من أسرار السياسة والحكم..

وكان مكتب ابراهيم عبد الوهاب سكرتير عام مجلس الشيوخ، مزاراً لكبار السياسيين وأعضاء مجلس الشيوخ.. وقدمني إليهم.. ثم قدمني إلى الزعيم المستقل علي ماهر، الذي وضعني في قائمة المدعوين على الغداء في عوامته كل يوم أربعاء، وكانت هذه المائدة تضم عدداً محدوداً من مريدي علي ماهر.. وكان يروي لنا ذكرياته السياسية مع الملك فاروق الذي لم يستقبله من سنوات ومع زعماء الأحزاب والمناورات الحزبية.

وعرفت ابراهيم عبد الهادي باشا، زعيم الحزب السعدي.. وكان رجلاً له احترامه ، وهو ممن وصلت رقابهم إلى حبل المشنقة فى ثورة ١٩١٩ .. وكان خطيباً مفوهاً.. له وصف لمصطفى النحاس باشا، لا أستطيع أن أنساه، واقتبسته في مناسبات كثيرة.. وصفه بقوله: «إنه من أخضع نفسه لهواها، فهواها، فهوى!»..

وفي مجلس النـواب، أحسن عبـد السـلام فهمي جمعـة بـاشـا، رئيس المجلس، وقـطب حزب الـوفد استقبـالي، وأجـريت معـه كثـيراً من الأحـاديث الصحفية. وكان على علاقات متوترة مع النحاس باشـا، لأنه اختـار فؤاد سراج الدين سكرتيراً عاماً للحزب. . وكـان عبد السـلام باشـا جمعه هـو الأحق بهذا المنصب . . ولذلك فإن عبد السلام جمعة باشا ، كان يأتمننى على أسرار كثيرة فى أعـماق نفسه. . وقـد زرته في طنـطا أكـثر من مـرة. . وكـان ابنـه عـزيـز فهمي المحامي، نائباً يقود الطليعة الوفدية، وهي الجناح التقـدمي في الحزب، الـذي كان يناوىء الاتجاهات الرجعية في الوفد التي يمثلها فؤاد سراج الدين.

وقد فوجئت خلال العام الأول من عملى فى « أخبار اليوم » . . بمحاولتين لرشوتي بالمال!

الأولى كانت من حزب الوفد!

والثانية كانت من الحزب السعدي!

كان ذلك في صيف عام ١٩٥٠ . .

كنت أمضي في الاسكندرية ثلاثة أشهر من كل عام حينما تنتقـل الحكومـة إلى العاصمة الثانية. . كان هذا هو التقليد قبل الثورة. . وكنت أشرف في هـذه الفترة الصيفية على مكتب «أخبار اليوم» بالاسكندرية.

وقـد وقعت في ذلك الحـين حوادث واضـطرابـات. . كـانت لهـا دلالات خاصة. وكان المشتبه فيه أن القوى الشيـوعية وراء هـذه الحوادث وكلهـا هجوم من الفلاحين على بيوت الاقـطاعيين في القـرى، كما أشرت الى ذلـك في فصل سابق.

وعقد عبد الفتاح حسن وزير الداخلية بالنيابة حينئذ مؤتمراً صحفياً أجاب فيـه عـلى كـل أسئلة الصحفيـين. ووجهت إليـه ثـلاثـة أسئلة عن هـذه الاضـطرابات. وقـال بعد أن أجـاب عليهـا: أرجـو من الصحفي السـائـل أن يسجل إجابتي كما قلتها. . فهذا ما نأمله في الأمانة الصحفية.

وصدرت «آخر لحظة» في اليوم التالي. . ونشرت إجابـات الوزيـر كما هي دون عبث بها.

ويـظهر أن الـوزير لم يكن مـطمئناً قــط إلى أن صحيفـة تعـارض الحكم بعنف وقسوة. . يمكن أن تكون أمينة في النشر. .

وعندما وصلت إلى بولكي (مقر الوزارة). . وجدت من يخبرني بأن مـدير الأمن العام يطلبني. . فتوجهت إليه في مكتبه وكان الأستاذ حسين صبحي.

قال لي: ان الوزير يشكرك ويقدر أمانتـك وقد كلفني أن أقـدم لك هـذا الخطاب. .

وتسلمت المظروف فوجدته منتفخاً. . وأدركت أن به مالاً. . فاعتـذرت، وأعدت إليه المظروف، واستأذنت في الإنصراف.

ولاحظ حسـين صبحي غضبي وألمي، وكـان الـرجـل رقيقـاً في اختيـار العبارات على أنها مجرد هديـة، وليس المقصود شراءك وقـال إن زملائي تسلمـوا الهدية بلا حرج.

وفي اليـوم التالي، دعـاني عبد الفتـاح حسن إلى منـزلـه بـالاسكنـدريـة، واستقبلني بروح صداقـة ومودة، وقـال أن ما حـدث كان خـطأ غير مقصـود. . وفتح أكثر من موضوع للمناقشة السياسية التي بـدا فيها محـايداً غـير متحزب. . ومن يومها توثقت صداقتنا إلى أن مات. . وأنا أكن له عظيم الاحترام. .

وكان عبد الفتاح حسن، من أقرب الناس إلى فؤاد سراج الدين. . وبـدأ عمله معه فى وزارة الداخلية ، إلى أن أصبح وزيراً للشئون الاجتماعية ، ولم يسعده فى بدء حياته الوزارية ، أنه أقسم اليمين الدستورية ، أمام الملك فى جزيرة كابري. . حيث كان الملك يمضي إجازتـه لاهياً وعـابثاً، ولم تكن لـذلك سـابقة دستورية.

وفي يوم حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، خطب عبد الفتـاح حسن في ميـدان الأوبرا، وفشـل في أن يوقف تـدفق المظاهـرات. . وكان لـه دور كبير في تدبير أعـمال للمصريين الذيـن قاطعوا العمل مع معسكـرات الجيش البريـطاني في القناة بعد الغاء معاهـدة ١٩٣٦. . . واستمر عبـد الفتاح حسن عـلى أحسن العلاقات مع الخصوم السيـاسيين. . وكنت دائمـاً أداعبه بـالقول: «ليس فيـك

عيب إلا اقتناعك بفؤاد سراج الدين». . وكان هو يداعبني بـالقول: «إنني متهم بحبك!». .

وكـان عبد الفتـاح حسن محامياً بارزاً، يجيـد الخـطابـة، ولا يخـطيء في الارتجـال، وانتخب في مجلس الشعب في عهـد الســادات. . وكـان إذا تكلم، خطف المشاعر والأبصار، وأنصت إليه الجميع، وعنـدما تـطاول النائب الشيـخ عاشور عـلى شخص الرئيس السـادات في إحدى الجلسـات وهتف بسقوطـه. . احتـج عبد الفتـاح حسن بعنف. . وكان من مؤيـدي فصـل النـائب. . ولكنـه اضطر أن يتراجع عن هذا الموقف، لأن فؤاد سراج الدين اتخذ موقفاً آخر!

وكان السادات لا يـطمئن إلى عبد الفتـاح حسن. . وكان يرى أنه أخطر معارض في مجلس الشعب. . وأن «نابه أزرق» كما كان يقول. . لأنه كان قـادراً على تخدير النواب بكلماته، إلى أن يصل إلى ما يريد!. . وقال لي الســادات أكثر من مرة، أن عبد الفتاح حسن قادر على ابتلاع المجلس كله!.

وقـد اعتقله الســادات في أحـداث سبتمـبر. . ولكن صلتي بعبـد الفتـاح حسن لم تنقطع قـط بروح مودة صادقة. . كـان فعلاً معـارضاً صعب المـراس، ولكنه كان أبداً مهذباً عف اللسان.

وكانت المحاولة الثانية من النائب السعدي سامح موسى، كان يرأس لجنة الشئون المالية، وكان على ثراء واسع، ويعتـبر من أبناء الـطبقة الارستقـراطية، وكنت أتابع عمله في هذه اللجنة، وأنشر عنها أخباراً كثيرة. وذات يوم طلبني في التليفون، لكي أقابله في نادي «كلوب محمد علي». .

وكـان هذا النـادي، هـو مجتمـع بـاشـاوات مصر، وكبـار السيـاسيين. . وقصـدت إليـه، وانتـظرت في حجـرة فخمـة، حتى حضر إلي. وشكـرني عــلى نشاطي، ثم أخرج من جيبه مجموعة أوراق مالية، أعدهـا في مظروف، وقـدمها لي كهدية بسيطة!

واعتذرت. . وأكدت رفضي لهذه الإهانة. . وارتبك الرجل واعتذر. . ولم اكتب عنه بعد ذلك حرفاً واحداً. .

وكان التقليد في مجلس النواب، أن المحررين البرلمانيين يتقاضون شهرياً، مبلغاً من المال. .

ثم جرت بعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، محاولة أخرى لإعطائي مصروفات سرية، أنا وزميلي علي حمدي الجمال. تولى علي ماهر الحكم وكان ساعده الأيمن هو صديقنا ابراهيم عبد الوهاب الذي عين وزيراً، وعلى الرغم من معرفة ابراهيم عبد الوهاب الوثيقة لنا. . إذا به، يدعونا إلى مكتبه، ويعرض بلباقة على كل منا مبلغاً شهرياً من المصروفات السرية. .-واعتذرنا عن عدم قبوله بطبيعة الحال. . وضحك ابراهيم عبد الوهاب طويلاً وهو يقول: أنا كنت متأكد. . بس كنت عاوز امتحنكم. . تصوروا. . جاء صحفي إلى رفعة الباشا (علي ماهر) وأعطاه خمسمائة جنيه. . ولكنه نشر بياناً للحكومة في صفحة منزوية. . وغضب الباشا، ولكن ابراهيم عبد الوهاب قال له: أنت عطيته ٥٠٠ يا باشا، واللي قبلك كان بيعطيله ألف (١٠٠٠).

وأذكر بهذه المناسبة أن زميلي وصديقي أحمد رجب، تعرض لواقعة رشوة. كان ذلك في عام ١٩٥٤، عندما رأست تحرير مجلة «الجيل». . وكان أحمد رجب هو مدير التحرير. وقد ابتكر اسماً للشيخ عبد الباسط عبد الصمد قارىء القرآن الذي ظهر بنجاح في ذلك الوقت. . وهو اسم «الشيخ براندو» إشارة إلى الممثل الأمريكي مارلون براندو معبود النساء في ذلك الوقت. . وابتكر صوراً لمارلون براندو بعمامة الشيخ عبد الصمد. . وسبب القصة أن سيدة سورية جاءت إلينا، وشكت من أن الشيخ عبد الصمد كان ضيفهم في منزل الأسرة في مدينة حلب. . وأنه وقع في غرامها، ووعدها بالزواج، ولكنه عاد إلى مصر. . ولم تسمع عنه. وجاءت إلى مصر، وتهرب من لقائها، فذهبت تشكو إلى الشيخ الباقوري وكان وزيراً للأوقاف. . ولكن ماذا يستطيع الباقوري أن يفعل لها!

وبدأ أحمد رجب حملة ساخرة. . وفوجئنا بالشيخ عبد الصمد يحضر إلى مكتبنا في أخبار اليوم، وانتحى بأحمد رجب جانباً في الحجرة، وعرض عليه مبلغاً من المال، حتى يوقف الحملة!

ولكن المصروفات السرية لم تكن مقصورة على الداخل، لقد انتقلت إلى

خارج مصر، إلى الدول العربية المنتجة للبترول. وكانت مورداً ضخماً لعدد من الصحفيين المصريين الذي أهانوا سمعة الصحافة المصرية في هذه البلاد.

في عام ١٩٦١.. كلفني المرحوم صلاح سالم رئيس مجلس إدارة دار التحرير أن أسافر إلى الكويت. كانت الأزمة الكبرى التي ثارت بسبب تهديد عبد الكريم قاسم بغزو الكويت.. وترتب عليها أن طلب أمير الكويت تدخلاً عسكرياً بريطانيا..

كان الموقف بالغ التعقيد.

كانت العلاقات بين مصر ونظام عبد الكريم قاسم متدهورة.. وكان شعب الكويت ينتظر من جمال عبد الناصر تدخلاً عسكرياً لحماية الكويت..

وفي كل مكان حللت به.. كان السؤال.. أين مصر؟.. أين قوات مصر؟ وكان يشجع على إنماء الشعور المعادي لمصر، عدد من الفلسطينيين الذين يعملون في مكاتب أمراء الكويت ووزرائها. كان هؤلاء يرون في العاملين المصريين بالكويت منافسين لهم وانتهزوا هذه الأزمة.. وأثاروا زوبعة ضد مصر..

كانت هذه هي الأجواء عندما وصلت إلى الكويت.. مع عدد من الزملاء الصحفيين الذين يمثلون كل الصحف.

وكانت حكومة الكويت ترى أن «اكرامنا» واجب حتى نجيد التعبير عن وجهة نظر الكويت.. فى صحف مصر. وزارنى فى الفندق مستشار أمير الكويت. ورددت له الزيارة في مكتبه وقبل أن انصرف قدم لي مظروفاً كبيراً.

- ما هذا..
- هذه هدية من سمو الأمير وهدايا الأمير لا ترفض.
- هدية سمو الأمير عندي.. هي أن أتمكن من أداء عملي الصحفي..
- هل تشكو من شيء؟
- لا..
- إذن.. فهدية سمو الأمير يجب أن تقبل.. وأنا لا أستطيع تحمّل مسئولية رفضك لها.

ـ هـذا شأنـك يا سيـدي. . ولا تحـرجني وإلا غـادرت الكـويت في أول طائرة.

وانصرفت وأنا في قمة الألم. وخاصة أن هـذا المستشار كـانت تربـطني به علاقة تعارف في القاهرة. وشعرت بإهانة بالغة. وتدخل المستشار القانوني (وهو مصري) لأمـير الكويت. دعـاني إلى عشاء في منـزله ودعـا عدداً من المسئـولـين الكويتيين. وصفيت الأزمة بالاعتذار لي. وكان الاعتـذار أقسى على نفسي. لأن أحد المعتذرين قال لي: «أعذرنا يا أخي كثيرون من زملائك لم يرفضوا هدايـانا» وأخذ يعدّد الأسماء وكأنه أراد أن يقول لي مع الاعتذار. . لا داعي لهذه الكبرياء الفارغة باسم صحافة مصر.

* * *

وأذكر أنني صادفت في الكويت شاباً مصرياً كان يزعم هنـاك أنه صحفي وقد كتب مؤلفاً دعائياً عن أحـد الأمراء. وتسـوّل بحجة تكـاليف الكتاب مـالاً كثيراً. وعندما عدت أبلغت الـدكتور عبـد القادر حـاتم وزير الأعـلام بذلـك. وقبض على هذا الشاب في مطار القـاهرة عنـد عودتـه وحقّق معه وضبـطت معه أموال كثيرة. .

* * *

وتـطور الأمر في بعض الـدول العربيـة المنتجة للبـترول، من هذه الهـدايا العينيـة إلى الهدايـا الاعلانيـة، وزحف كثيرون إلى هـذه الـدول للتعـاقـد عـلى إعلانات سيـاسية. . وليس لي اعـتراض على الاعـلان إذا كان من يحصـل على الاعـلان يحترف هـذه المهنة في الصحيفـة التي يعمل بهـا. ولكن الاعـتراض أن عـدداً من الصحفيين تحـوّلوا إلى «جـلاب إعلانـات». وهذا مكمن الخطر. ولا يزال الداء قائماً حتى الآن.

وكـان من بين الأسبـاب التي استند إليهـا جمـال عبـد النـاصر، في تـأميم الصحف، اعتراضه على إعلانات الدول العربية. وقال في اجتماعه بالصحفيين، أنـه لا يهمـه المـوارد التي تحقّقهـا هــذه الاعـلانــات. . وإذا كـان الأمــر أمـر

«فلوس». . فلنفتح كاباريهات ونتاجر في الأعراض، لنأتي بالموارد. . هكذا قال. .

وامتنعت الصحف بعض الوقت، عن هذه الاعلانات. . ثم عادت إليها بالتدريج، وهي مؤممة، ولم يعترض عبد الناصر.

وأذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر اتصل تليفونياً ذات صباح بالمسئول عن احدى المؤسسات الصحفية الذي تحوّل بعد ذلك إلى مركز قوة خطير. . وكان ذلك أثناء زيارة ضيف عربي كبير للقاهرة.

قال عبد الناصر للصحفي الكبير: يا أستاذ. . أنت نايم. . لقد وضعت مبالغ في بنك كذا بأسماء فلان وفلان. . من الصحفيين الذين يعملون في الشئون العربية.

وحقّق المسئول عن المؤسسة فيما نسب إلى الاثنين واتضحت براءة أحدهما وطلب من الثاني أن يستقيل. وأخيراً اكتفى بأن يرد المبلغ.

وخلال عملي في صحيفة «الزمان» الذي بدأ في عام ١٩٤٧، واستمر ثلاث سنوات، اكتشفت أن هناك موارد للصحيفة مقابل عدم النشر!

أذكر أن عمالاً من شركة قناة السويس، تقدّموا لي بشكوى، ونشرت هذه الشكوى. . فثار «نيقولا نحاس» المدير الاداري للجريدة، وزوج شقيقة ادجار جلاد باشا صاحبها. . ولم أفهم سبباً لثورته. . ثم عرفت أن شركة قناة السويس تدفع مبلغاً سنوياً للصحيفة، بدون نشر أي إعلانات، مقابل عدم نشر أي موضوعات ضد الشركة. .

وفي عامي ١٩٥٠ و١٩٥١. . نشرت كل صحف مصر، صفحات إعلانية عديدة، في شكل موضوعات تحريرية، خلال المضاربات الشهيرة في سوق القطن. . وكانت هذه الاعلانات تشكّل مورداً ضخماً جداً للصحف. . وكان كل مضارب يعبّر عن وجهة نظره ومصالحه في هذه الاعلانات. .

وخلال أعوام عديدة متصلة قبل الثورة، كانت هناك الصحف التي لا تنشر خبراً واحداً ضد المليونير أحمد عبود صاحب الشركات العديدة، والذي

كان متّهماً من حكومة الحزب السعدى بالتهرب من الضرائب . . بينما كانت صحف أخرى تهاجم عبود بشراسة. والصحف التي لم تهاجم المليونير، كانت تنشر له إعلانات تحريرية ضخمة، وبمبالغ طائلة. وقد أعجب أحمد عبود، بأسلوب محمد حسنين هيكل، واشترط على أخبار اليوم أن يكتب هو الاعلان عن شركاته. . وكتب هيكل فعلاً، عدداً كبيراً من هذه الاعلانات، وكان أجره بإيصالات موجودة في «أخبار اليوم» عشرة جنيهات عن الموضوع الواحد

ومن الأمور التي أثارت جدلاً كبيراً، في عامي ١٩٨٧، ١٩٨٨. . الاعلانات التي نشرت بمبالغ طائلة عن «الشيخ الفاسي». . وثارت أزمة بين رئيس تحرير الأهرام، وأحمد بهاء الدين، لأن الثاني كتب عموداً يهاجم فيه الشيخ الفاسي، وأجّل رئيس التحرير نشره. . ثم سوّيت الأزمة، بغير نشر العمود. واحتجت مشيخة الطرق الصوفية في مصر، على نشر هذه الاعلانات، ووصفتها بأنها مضللة. . وكذلك نشرت كل من «اكتوبر» و«المصور» إعلانات الشيخ الفاسي في مساحات كبيرة. . ثم توقف النشر، بعد تدخلات رسمية.

ثم ثارت قصص إعلانات شركات توظيف الأموال. . وقد نشرتها جميع الصحف، قومية وحزبية. . وكانت صحيفة الوفد تهاجم شركة الريان في أخبارها، وتمتنع عن نشر هذه الأخبار التي في صالحه. . ولكن الريان تعاقد معها على إعلانات بعدة ملايين. . وتحولت الصحيفة إلى مدافعة عن الريان. . وهاجم رئيس تحريرها، كل من هاجم الريان. . ووصف ما ينشر ضده بأنه مؤامرة ضد الريان، ستضرب الاقتصاد المصري!

وكان هدف شركات توظيف الأموال، هو شراء تأييد الصحف لها، أو في القليل عدم مهاجمتها. . ولكن هذا الهدف لم يتحقّق إلا في صحيفة الوفد. . كما اتخذت صحيفة «الشعب» لسان حاله حزب العمل، موقفاً مؤيداً في غالبه. .

ولجأت شركة الريان، إلى التعاقد مع إدارة أخبار اليوم وإدارة الأهرام، على مطبوعات بعدة ملايين. . ولكن هذه العقود لم تمنع صحف أخبار اليوم، والأهرام بعد ذلك من اتخاذ موقف ضد شركة الريان.

وكانت هذه الشركة قد لجأت إلى حيلة شيطانية، لشراء ذمم المحررين في كل صحف مصر.. وهي أنها عرضت ـ من خلال صحفي عضو مجلس النقابة ـ أن تقدّم قروضاً للصحفيين.. لا ترد!.. بمعنى أن الصحفي، يسدد القرض من أرباح تعطى له!.. وقد رفض مجلس إدارة «أخبار اليوم» هذا العرض، واعتبره رشوة.. كما رفض مجلس نقابة الصحفيين هذا الأسلوب..

وخلال لجوء الملك سعود إلى مصر، بعد خلافه مع الأسرة الحاكمة السعودية.. عرض عليه صحفي لبناني كبير، أن يروج له في صحف لبنان والصحف العربية.. وتقاضي منه مقابل ذلك مليون دولار، ترك له الملك سعود أمر التصرف فيها مع الصحفيين الذين سيقومون بالدعاية للملك..

ثم حضر صحفي لبناني إلى القاهرة، وطلب من الملك نقوداً.. فكان الرد أن النقود دفعت، وكان المفروض أن يكون قد قبض..

وعاد الصحفي إلي لبنان، يثير زوبعة في نقابة المحررين اللبنانيين.. وثارت المناقشات علناً.. هل مبلغ المليون دولار هو من حق الصحفي الكبير الذي قبضه.. أو هو من حق زملائه أيضاً..

ومن النكات التي كان يرويها المرحوم سليم اللوزي صاحب الحوادث، الذي اغتالته القوى السورية بعد أن عذّبته بوحشية.. أنه عندما ذهب إلى الكويت خلال أزمته مع عبد الكريم قاسم، قال له وزير الاعلام الكويتي:

ـ انت لا تحضر إلى هنا يا فلان، إلا لكي تقبض «المصاري»..

فأجابه سليم اللوزي ضاحكاً:

ـ سمو الأمير. طال عمرك.. وهل تعتقد أنني حضرت إلى هنا، لكي أتثقّف في جامعة وزارة الاعلام الكويتي!

وقد بدأت مصر في عهد عبد الناصر، عملية شراء صحف لبنان!

كان عبد الناصر، في قمة قوته ونفوذه وتأثيره الساحر على الجماهير العربية.. وكانت بعض الصحف العربية، قد بدأت تهاجم جمال عبد الناصر مأجورة من القوى المناوئة له..

وقرّر عبد الناصر السيطرة على جميع صحف لبنان، باستثناءات قليلة.. وكان ملحقنا الصحفي في بيروت هو الذي ينفذ هذا القرار.. وكان هو الذي يدفع للكتاب والصحفيين، بإيصالات يوقعون عليها.. وقد أطلق عليه لقب «رئيس تحرير عموم صحف لبنان»! لأنه كان يختار الموضوعات التي يكتبونها..

ولكن مصر لم تستطع أن تستمر طويلاً في عملية الدفع.. وخاصة أن دولاً عربية أخرى زايدت على مصر، في المبالغ التي تدفعها.. وهي أقدر من مصر في الدفع.. وهكذا تحوّلت صحافة لبنان بالتدريج، إلى صحافة غريبة عن لبنان.. كل دولة عربية أصبح لها صحيفة تمولها.. ودخل القذافي في هذا الميدان من أوسع الأبواب!

وقد عرفت نكتة أطلقها «شارل الحلو» رئيس لبنان، عندما استقبل الصحفيين اللبنانيين في مكتبه، فقال لهم ساخراً: أهلاً بكم في وطنكم الثاني لبنان!

وعندما تولى السادات الحكم، اتخذ قراراً بعدم الدفع لأية صحيفة. وقال ببساطة «ليس لدينا فلوس.. وليكتبوا ما يشاءون»!.. ولكن كان عدد قليل من الصحفيين اللبنانيين، يقبض من خلال مكتب الرئيس. وكان أشرف مروان يقوم بهذه المهمة.

ولكن تحوّل الأمر إلى أسلوب آخر، خلال عهد السادات.

بدأت صحف الكويت، وهي تعبّر عن تيارات مختلفة، استكتاب الصحفيين المصريين الذين يعارضون حكم السادات، مقابل مبالغ طائلة.. وبكل أسف، اندفعت أقلام عديدة إلى هذا المضمار.. بحجة أن الهجوم على السادات، لا يعني الهجوم على مصر!.. وما حدث يشكّل في رأيي أبشع نقطة سوداء على ثوب الصحافة المصرية.

* * *

ولعل أخطر تحقيق صحفي سياسي قدمته إلى «أخبار اليوم» كان في صيف عام ١٩٥١..

كنت أرأس بعثة «أخبار اليوم» في الاسكندرية في أشهر الصيف، وأشرف على مكتب أخبار اليوم، لأن الحكومة كانت تمضي ثلاثة أشهر في العاصمة

الثانية. . وكان النحاس باشا رئيس الحكومة يقيم في فندق سان ستيفانو، وكـان ذا شهرة عالمية . .

كنت قـد أقمت روابط قويـة، مع الـدكتور أحمـد حسـين (بـاشـا) وزيـر الشئون الاجتماعية. لم يكن وزيراً وفدياً، ولكن والده كان عضـواً في الوفـد. . وقد اختير وزيراً، بعد نجاحه وكيلاً لوزارة الشئون، وكان يمثّل حركة الاصلاح الاجتـماعي في مصر. . وقبـل الـوزارة، ولكن تبـينّ لـه بعـد وقت قصـير، أن استمراره فيها مستحيل. . فقد كان الوزراء الـوفديـون يتهمونـه بأنـه شيوعي، وأطلقـوا عليه الـوزير الأحمر، لمجرد أنـه طالب بـوضع حـد أدنى لأجـور عـمال الـزراعـة. . وحـاول الـدفـاع عن هـذا المشروع، في مجلس الشيـوخ. . ولكن المجلس رفض دفاعه أيضاً.

وكـان الدكتـور أحمد حسـين ضائقـاً، بوقـائع الفسـاد الذي استشرى في الحكم بين عدد من الـوزراء، وبين أسرة زوجـة رئيس الوزراء، السيـدة زينب الوكيل، التي كان لها نفوذ كبير. .

وكنت أتردّد عليه كثيراً. . وذات يوم قال لي:

ـ كان يزورني وكيـل وزارة قريبي. . وكان ضائقـاً بأن الفسـاد وصل إلى أن أرض الدولة المخصصة للمعدمين والفقراء، قد أعطيت لأقارب زوجة رئيس الـوزراء. . وقد وزعت الأرض عـلى أكثر من ٢٠ شخصـاً من بينهم أطفـال. . وقد جاءت هذه الأوراق إلى مكتبه، لأنـه مختص بإقـرار العقود النهـائية. . وقـد حاول الدكتور أحمد حسين، أن يأخذ منه هذه الوثـائق للاطـلاع عليها، ولكنـه رفض خوفاً من المسئولية. .

وقال لي الدكتور أحمد حسـين، أنه سيحـاول إقناعـه بلقائي، لكي أطّلع بنفسي على هذه الوثائق، وأسجّل المعلومات الدقيقة. . وفعلاً نجح في إقنـاعه، بعـد أن طمأنـه تمامـاً، إلى أنني رجل مؤتمن، ولن أذيـع شيئاً يفهم منـه أن لـه علاقة بهذا الموضوع. .

واتفقنا على زيارة الرجل في منزله بالاسكندرية. . وأطلعنا الرجل على كل الوثائق، وسجلت كل المعلومات بالدقة الكاملة. . وكانت هناك وثائق ناقصـة،

استكملها في زيارة أخرى. . ثم بقي علينا أن نحدّد درجة قرابة السيدات والأطفال، وساعدتنا في ذلك السيدة عزيزة حسين زوجة الدكتور أحمد حسين، باتصالها بسيدات كثيرات. .

واستغرق هذا الجهد أكثر من شهرين. . وأعددت الموضوع كاملاً، واتصلت بمصطفى أمين، الذي نشره في «أخبار اليوم» في الصفحة الأولى بالمانشيت الأحمر. . وكانت أكبر خبطة صحفية، تكشف فساد الحكم.

وظهرت «أخبار اليوم». . وكانت قنبلة مدوية في الساحة السياسية!

وأصدرت وزارة الوفد، بياناً هزيلاً، لم يستطع أن ينفي الوقائع الخطيرة. . واستمروا في صياغة البيان حتى ساعة متأخرة من الليل، وطلبوا من الصحف ضرورة نشره. . وتأخرت المطابع. . وأخرت الحكومة موعد قيام قطار الصحافة من القاهرة إلى الاسكندرية. . وكنت قد طلبت من مصطفى أمين عدم كتابة اسمي على الموضوع، حتى أستطيع الاستمرار في العمل ممثلاً لأخبار اليوم لدى الحكومة في بولكلي!

واستمرت أخبار اليوم في نشر كل الوقائع ثلاثة أسابيع متصلة. .

وحدث أن الصحفيين ـ وأنا معهم ـ كانوا منتظرين عند باب المصعد في الفندق، نزول النحاس باشا. . وانفتح الباب، وإذا بالنحاس باشا يصرخ وهو يرفع عصاه. . « فين ابن الكلب ده . . » . .

وتأكدت في لحظات أنه يقصدني. . فجريت إلى بهو الفندق، ومنه إلى دورة المياه، حيث اختبأت فيها أكثر من عشرين دقيقة. . وخرجت بعدها، ليضحك زملائي الصحفيون قائلين لي: إن النحاس باشا كان يقصد ضرب ابن شقيقه، وهو موظف في وزارة الأوقاف، وكان يتطاول على الوزير اسماعيل رمزي باشا. .

ثم انفردت بعد ذلك، بنشر خبر استقالة الدكتور أحمد حسين باشا، من الوزارة. . وكان رأيه قد استقر على الاستقالة، وحاول عثمان محرم باشا إقناعه بالبقاء، ولكنه رفض وأصرّ، لأنه فقد الأمل تماماً في أي إصلاح، ولم يكن أحد من الصحفيين يعلم بقصة تفكيره في الاستقالة حتى قدمها. . إلا أنا. .

وأحدث هذا الخبر دوياً كبيراً . . لأنه يدل على تفكّك الوزارة، ويؤكد قصص فساد الحكم، التي اضطرت وزيراً إلى الاستقالة . .

وكان أحمد حسين يرى أن الثورة على الأبواب، ما لم يحدث إصلاح جذري. وكان يرى أن الملك، هو من أسباب الفساد. وأنه لصّ كبير. . وعليه أن يتبرّع بالأرض الزراعية الشاسعة التي يملكها للشعب . .

وتضامن الدكتور عباس عمار وكيل الوزارة في الإستقالة . . مع الوزير أحمد حسين . .

وكان يمثل الأهرام في الإسكندرية كامل الشناوي . .

وتألم الشناوي من انفراد أخبار اليوم، بخبر الإستقالة . . وكان يقيم في فندق وندسور وكنا نجتمع حوله كل ليلة، بعد الإنتهاء من عملنا . . وكثيراً ما كان يدعونا إلى العشاء والسهرة . .

وفي ذلك اليوم، رأيته متألماً . . وكان لا يعرف الدكتور أحمد حسين. ولا أين يقيم . . فقال لي إنه على موعد مع أحمد حسين، وسألني إن كنت أريد الذهاب معه . . ورحبت . . وفي الطريق، أدركت أنه دعاني معه، لكي أرشده إلى منزل أحمد حسين. وتظاهرت بأنني لا أعرف غرضه . . وأوصلته فعلاً إلى منزله وتركته . .

وأمده أحمد حسين بأخبار جديدة عن الإستقالة . .

وكنت في قمة السعادة أنني انفردت بالأخبار الهامة . .

وكان أحمد حسين في ذلك الوقت، يبذل نشاطاً سياسياً كبيراً، بهدف أن يتولى نجيب الهلالي باشا، المنشق على الوفد، رياسة الوزارة. كان يرى أن الهلالي سياسي نظيف، وأنه قادر على القيام بثورة تطهير، تشمل رجال الملك، ورجال الأحزاب . . وأراد أن يقدم الهلالي إلى صحافة الغرب، فقدم إليه صحفيون إنجليز وأمريكيون لامعون ، كتبوا عنه أكثر من مقال . كما كان أحمد حسين يجتمع بعبد الفتاح عمرو باشا سفيرنا في لندن، في محاولة لأن يبذل دوراً لكي يتولى الهلالي الحكم. وقد عرفني الدكتور أحمد حسين بالهلالي باشا في منزله . .

ووجدته رجلاً بالغ الأناقة في الملبس والتعبير. . حريصاً على كل كلمة يقولها. . وكان عبد الفتاح الطويل باشا الوفدي الكبير، والوزير اللامع في وزارة الوفد، قد عرض على الهلالي باشا أن يتعاونا في إسقاط الحكومة. . ولكن الهلالي تهرب منه. . ولما سألته. . قال لي إن تجربته مع الطويل باشا، أنه يتراجع بعد أن تبرد حماسته. .

وأذكر أنني في ذلك الوقت، قابلت ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الحزب السعدي في منزله بالإسكندرية، وقال لي إنه سمع أنني على علاقة طيبة بالهلالي باشا. . وطلب مني أن أبلغه عن قبوله الإشتراك معه في وزارة قومية للتطهير. . وأبلغت ذلك للهلالي باشا، الذي طلب مني أن أبلغه أن أحداً لم يعرض الوزارة عليه. . وبالتالي فإن هذا التفكير يكون سابقاً لأوانه. .

ثم وقع الحدث الخطير. . حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢. .

وكنت أغطي أخبار الحريق من شوارع القاهرة. كان المشهد رهيباً. كل مبنى في شوارع القاهرة الرئيسية تحول إلى نار وفحم ورماد. غربت الشمس. وكانت القاهرة لا تزال تحترق. . ولا أحد يعرف المصير. .

وتوجهت إلى دار الأسعاف لكي أعرف عدد الضحايا والمصابين. وهناك التقيت بالدكتور محمود ماهر رئيس قسم الإسعاف لكي أسأله. . ودق التليفون، وكان المتحدث هو شقيقه علي ماهر باشا. وقال له شقيقه إنني موجود. وأعطاني السماعة. سألني علي ماهر عن الأخبار. ثم علق قائلاً: هذه هي نتيجة سياسة سراج الدين. . طبعاً بعد أن يأمر فؤاد سراج الدين جنود البوليس أن يقاوموا قوات جيش منظم لا بد أن تنتهي إلى هذا. ثم سألني: أين مصطفى أمين؟. . أرجو أن يتصل بي فوراً. .

وتركت مبنى الإسعاف. ولم أجد مصطفى أمين في دار أخبار اليوم. وجدت علي أمين. قررنا الذهاب إلى علي ماهر في عوامته بالزمالك. كانت حكومة الوفد قد أعلنت الأحكام العرفية قبل إقالتها، وصدر قرار بمنع التجول. أرسل لنا الدكتور محمود ماهر، سيارة إسعاف، ذهبنا بها إلى العوامة. .

كانت الساعة حوالي العاشرة مساء. .

وكان علي ماهر قد قابل الملك في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي الساعة التاسعة والنصف مساء، كان علي ماهر قد أرسل إلى القصر أسماء وزرائه، وكتاب تأليف الوزارة الجديدة.

ووصلنا إلى العوامة..

وكان علي ماهر يتناول العشاء ومعه الدكتور محمود ماهر وابراهيم عبد الوهاب ومحيي الدين فهمي (ابن عم علي ماهر).

كانوا ينتظرون إرسال مرسوم الإعفاء من الحكم إلى مصطفى النحاس.. ووصول مراسيم تأليف الوزارة. إلى علي ماهر.

وأمسك علي ماهر قلماً وراح يخط على ورقة زرقاء خطوطاً طويلة ودوائر صغيرة. وكان القلم يقف بين أصابعه بضع لحظات.. ويمعن في التفكير الطويل ثم يعود. فيحرك القلم على الورقة الزرقاء ويرسم خطوطاً عريضة.. ويعيد الضغط على الدوائر التي سبق أن رسمها.. كان الإرهاق يبدو على كل ملامح وجهه. ما عدا نظراته.. فقد بقيت نظرات شابة لامعة.

ثم أمسك القلم من جديد..

وكتب نداء إلى الشعب..

وأعد كشفاً بالأوامر التي سيصدرها عندما يبلغ رسمياً بعد دقائق أن الإقالة سلمت إلى مصطفى النحاس..

ثم دق جرس التليفون. وكان رنينه مدوياً مثيراً في جو السكون والصمت والترقب الذي خيم على الجلسة. وأسرع محيي الدين فهمي للرد. وناول علي ماهر السماعة وهو يقول له:

ـ حافظ باشا عفيفي..

وسمعت علي ماهر يجيب بصوت حانق بعد لحظة من وضعه السماعة على أذنه:

ـ طيب.. طيب.. وهو كذلك.

وعاد علي ماهر إلى المائدة مكفهر الوجه مقطب الجبين. وسكت لحظات. فاستولى الوجوم على الحاضرين. وتطلعت أعيننا إليه تريد أن تسأله:

ـ ماذا جرى؟..

وأخيراً تكلم علي ماهر.

وفي صوت ضعيف هادىء قال لنا:

ـ لقد تأجل تأليف الوزارة..

وعاد القلم الصغير إلى أصابعه ليرسم الدوائر الضيقة من جديد على الورقة الزرقاء. وأطرق لحظة ثم قال:

ـ يظهر أنهم أخذوا برأيي الذي أبديته في الصباح وهو تأجيل تأليف الوزارة..

فتراكم الصمت في غرفة المائدة. وأصبح أمامنا علي ماهر رئيس الوزراء في غمضة عين رئيس وزراء سابقاً..

وقطع صوت علي أمين هذا الصمت الثقيل، وقال لعلي ماهر:

ـ وإذا لم تؤلف رفعتك الوزارة الليلة فلن تؤلفها..

وامتقع وجه علي ماهر. وتابع علي أمين كلامه:

ـ إنني أخشى إذا لم تتألف الوزارة الجديدة الليلة، أن يسوء الحال. وقد يتجه فاروق اتجاهاً آخر ليس من مصلحة الشعب.

وقال ابراهيم عبد الوهاب حائراً: طيب وما العمل؟

علي أمين:

ـ يجب أن يتحدث علي ماهر فوراً إلى حافظ عفيفي، ويبلغه أنه إذا لم يؤلف الوزارة الليلة فإن الحالة ستسوء..

الحاضرون:

ـ يا محيي بك (محيي الدين فهمي) أطلب حافظ عفيفي في التليفون.

وطلب حافظ عفيفي، وقام علي ماهر ليتحدث إليه.. وقال ابراهيم عبد الوهاب لعلي أمين:

ـ كن إلى جواره وهو يتحدث . .

فتبعه علي أمين ووقف إلى يساره . .

علي ماهر:

ـ يا حافظ باشا . . الأستاذ علي أمين بجانبي ويرى أن تؤلف الوزارة فوراً الليلة، كما أن هناك أنباء من وكالات الأنباء بأن القوات البريطانية ستزحف من الإسماعيلية إلى القاهرة.

حافظ عفيفي:

ـ لقد اتفقنا على تأجيل التأليف إلى غد . .

وانتهت المحادثة التليفونية.

ولما وضع علي ماهر السماعة قال له علي أمين:

ـ لقد نجحت المؤامرة ضدك في القصر. يجب أن تدق التليفون فوراً لحافظ عفيفي وتقول له . . إذا لم أؤلف الوزارة الآن فلن أؤلفها على الإطلاق . .

وتردد علي ماهر لحظة، ولكنه أمسك التليفون وقال لحافظ عفيفي وهو يضغط على كل كلمة:

ـ قل للملك إذا لم أؤلف الوزارة الآن فلن أؤلفها.

حافظ عفيفي:

ـ سأرد عليك بعد خمس دقائق.

وخضع فاروق لإنذار علي ماهر. وقبل أن يؤلف الوزارة عند منتصف الليل يوم ٢٧ يناير . .

* * *

وهكذا كانت نصيحة علي أمين، هي التي وضعت علي ماهر باشا على مقعد الحكم . .

وفي هذه اللحظات وصل علي خليل رئيس الإذاعة إلى العوامة . .

وتوجهنا جميعاً في موكب، إلى مبنى رياسة الوزارة . . ووصلنا في الساعة الواحدة صباحاً!

أضيئت كل الأنوار. . وبدأ رئيس الوزراء يباشر عمله، ويتصل بالوزراء الجدد ليبلغهم بأن يستعدوا لحلف اليمين في الصباح التالي. .

وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة، في حياتي الصحفية، التي أحضر فيها مولد وزارة. . في عوامة، بعد منتصف الليل. .

* * *

وكان غريباً ألّا يدخل الدكتور أحمد حسين باشا الوزارة الجديدة، وهو من دعاة التطهير ونزاهة الحكم. .

وتوجهت إلى أحمد حسين، لأسأله عن أخباره. . واتضح ما يلي. .

لقد استدعاه علي ماهر إلى لقائه. وصحبه معه في السيارة التي توجه بها إلى قصر عابدين للقاء الملك. واستمر النقاش بينهما في السيارة حتى وصلت إلى باب قصر عابدين.

وسألت الدكتور أحمد حسين:

ـ هل قبلت الإشتراك في الوزارة؟

ـ فأجاب بحزم: لا. . لن أدخل الوزارة.

قلت: ولماذا؟

قال: لقد ناقشت علي ماهر طويلاً بعد أن قال لي: إنه يعتمد علي في تقديم إصلاح اجتماعي ضخم للبلاد. . ولكني أحسس أنه غير مقتنع برسالة التطهير. .

قلت: ماذا حدث؟

قال: قلت له هذه فرصة ذهبية. يجب أن يصارح الملك بالحقائق. ويجب أن يطلب منه قبل تأليف الوزارة طرد جميع رجال الحاشية. وقلت له يجب أن يحاكم المفسدين محاكمات عاجلة وسريعة حتى يطمئن الشعب إلى أن يد القانون قد وصلت إلى الكبير قبل الصغير. قلت له بصراحة: هل أنت مستعد لأن تحاكم وتحبس أي سياسي مهما كبر شأنه عن الجرائم التي اقترفها في حق هذا البلد؟ . .

وكان رد علي ماهر أنه مؤمن بكل كلمة قلتها له. ولكنه يرى أولاً أن تؤجل هذه المسائل الداخلية فترة قصيرة ولتكن ثلاثة أشهر فقط. حتى تواجه البلاد الإنجليز يداً واحدة..

كما قال إن الدستور نص على طريق معين لمحاكمة الوزراء يجب الإلتزام به..

ومضى الدكتور أحمد حسين يقول:

ـ لم أترك علي ماهر إلا عند باب قصر عابدين، ولا أعتقد أنه سيواجه الملك بأشياء أخرى قلتها له.

وسألته: ماذا طلبت أيضاً؟

أجاب: قلت لعلي ماهر أن يطلب من الملك أن يعلن تنازله عن أملاكه أو على الأقل عن نصفها للشعب. وهذا عمل يقابله الشعب الساخط على فاروق بالتقدير والحب. فالشعب المصري، شعب طيب القلب. يندفع إلى الحب. والحسنات تنسيه السيئات. ولن يستعيد الملك حب الشعب الذي فقده إلا إذا قدم الدليل.. وبذلك يعطي الملك أيضاً قدوة حسنة للأغنياء وتحرر البلاد من اتهامها في العالم الخارجي بأنها بلاد الإقطاع والحريم. إن كلمة «باشا» تعني الآن في الصحف الأجنبية أميراً من أمراء الإقطاع أو قاطع طريق.. والوعي العام في البلاد قد تقدم إلى درجة لا يمكن تجاهلها. ولن تكافح الشيوعية بالزج في السجون، وتكميم الأفواه. بل بالاتجاه العملي الصادق نحو الإصلاح الإجتماعي.

وتعاقب على مصر أربع وزارات منذ ٢٧ يناير ١٩٥٢، حتى قامت الثورة في ليلة ٢٣ يوليو..

ولي في هذه المرحلة ذكريات لا تنسى.

الفصل الثامن

من ٢٦ يناير إلى ٢٣ يوليو.. أخطر الأحداث

قلق علي ماهر من موقف الصحافة ـ تاريخ المصروفات السرية ـ كريم ثابت يطلب منصباً وزارياً ـ أزمة حل البرلمان الوفدي ـ خلاف حول تطهير الحكم ـ مفاجأة بعد منتصف الليل ـ الملك يرفض لقاء علي ماهر ـ مظاهرات تهتف بسقوط الملك وتمزق صوره ـ حكمدار العاصمة يهدد مدرسة بالمصفحات ـ الدكتور أحمد حسين يرفض الإشتراك في وزارة الهلالي ـ سافرت إلى ميت يعيش لإحضار أحمد حسين ـ يرفض الوزارة وهو في السيارة ـ مع مصطفى أمين في منزل الهلالي ـ مع الحمامصي في مكتب الهلالي للمحاماة ـ لماذا رفض الهلالي الوزارة فى ٢٦ يناير ـ الضمان لعدم تدخل الملك هو الإستقالة ـ فشل المفاوضات مع الإنجليز ـ قصة الورد والشوك ـ الرقابة على حديث تليفوني بين حرم النحاس وفؤاد سراج الدين ـ رشوة مليون جنيه لتغيير الوزارة ـ فشل حملة التطهير ـ رسالة الملك إلى الهلالي ـ على مائدة القمار ـ حكمة الفيلسوف أحمد لطفي السيد ـ حديث مع حسين سري باشا بعيداً عن السياسة ـ أطلقت شاربي بعد لقاء حرم سري باشا ـ بهي الدين بركات ينام رئيساً للوزارة ويستيقظ بلا وزارة! ـ أقمت في منزل سري باشا خلال تأليف الوزارة ـ هاشم خدعني ـ نقل اللواء محمد نجيب إلى منقباد ـ لقاء الواحدة بعد منتصف الليل مع حيدر باشا ـ مذكرة باعتقال عشرة ضباط هم الضباط الأحرار ـ البلد يحكمها خدام ـ الهلالي يضع شروطاً خمسة لتأليف الوزارة ـ السادات يذيع بيان الثورة ـ أحداث ليلة ٢٣ يوليو ـ الإتصالات بين الهلالي وقيادة الثورة ـ لقاء الهلالي والملك ـ علي ماهر يقول: الموقف في يدي ـ اعتقال حيدر باشا ـ مع علي ماهر في القطار إلى الإسكندرية ـ الملك يتمسك بمحمد حسن وبوللي ـ عزل الملك. .

الفصل الثامن

من ٢٦ يناير إلى ٢٣ يوليو.. أخطر الأحداث..

تولى علي ماهر رياسة الوزارة، وأنا على أوثق الصلات به وبوزيره الأول ابراهيم عبد الوهاب. . وكانت هذه فرصة ذهبية، لكي أكون المندوب السياسي الأول لأخبار اليوم. .

وكان علي ماهر قلقاً على موقف الصحافة من وزارته.

وأذكر أنه دعاني مرة إلى منزله، وكان وحده، قبل أن يتولى الوزارة، ليسألني عن الاتجاهات الحقيقية الخفية في دور الصحف نحوه.

قلت له:

- أن بعض الصحف ستؤيدك، لأنها تؤيد كل وزارة، والباقي يتوقف على اتصالات «رفعتك» الشخصية ومواجهتهم بالحقائق وتقدير المسئولية.

قال:

- ولكن الحزبية والأغراض الشخصية هي التي تحرك دور الصحف في مصر.

قلت:

- أطلق حريات الأقلام يا رفعة الباشا، إلى أقصى حدودها. دعهم يكتبون ما يعتقدون. وأنت ستعمل للخير، فلماذا تخشى أحداً؟. .

قال: إنني أول المؤمنين بحرية الصحافة. وقد استقلت مرة من لجنة الدستور بسبب إصراري على النص على حرية الصحافة، ولكنني أطالب الصحافة أن تتحرر من استعباد المصالح والأغراض لها. لقد بلغ التهجم على

خيار الناس وبغير وجه حق درجة يؤسف لها، ويجب أن يوضع لها حد.

قلت: وكيف؟

قال: في رأيي أنه يجب تقرير عقوبة مالية ضخمة على الأنباء الكاذبة، حتى يأمن الصالحون من نشر التهجم عليهم..

قلت: هل تريد أن تؤدي أكبر خدمة للصحافة المصرية؟

قال: طبعاً..

قلت: إذن امنع المصروفات السرية منعاً باتاً. ستجد من يؤيدك بحق. ومن يعارضك بغير هدى. هذه هي البقعة السوداء في ثوب الصحافة..

وقال علي ماهر:

- إنني أعلم أن بعض الصحف المعارضة للحكومة كانت تقبض مصروفات سرية من هذه الحكومة وهذا هو المؤلم. لقد كانت فكرة المصروفات السرية في بادىء الأمر، أن تعطى مرتبات صغيرة لا تتجاوز العشرين جنيهاً، لمندوبي الصحف في رياسة مجلس الوزراء، كبدل ملابس، لأنهم مضطرون إلى أن يظهروا بمظهر لائق، ومشرف أمام السفراء الأجانب، ولأنهم كثيراً ما يضطرون إلى تناول طعامهم أثناء استمرار العمل في مجلس الوزراء، وقد لا تكون صحفهم قادرة على تعويضهم. وهذا ما كنت أفعله وأنا رئيس حكومة. ولكنني أرى أن الأمور قد تطورت.

ولكن الصحافة هي التي أسقطت وزارة علي ماهر، ولم يستمر في الحكم أكثر من شهر واحد!

لقد قبل علي ماهر أن يكون في وزارته كل من مرتضى المراغي وزيراً للداخلية، وزكي عبد المتعال وزيراً للمالية.. والاثنان كانا يعملان لحساب الملك!.. الذي لم يكن يطيق بقاء علي ماهر في الحكم لأسباب تاريخية.

وكنت أعرف كل أسرار الموقف السياسي، من لقائي المستمر مع علي ماهر رئيس الوزراء وابراهيم عبد الوهاب وزيره الأول..

وفي الأسبوع الأول من الوزارة، طلبني ابراهيم عبد الوهاب، ليقول لي، إن كريم ثابت جاء للقائه، وطلب منه أن يكون وزيراً لشئون القصر في

الوزارة، وبذلك يحمي علي ماهر من المؤامرات التي تدبر ضده. . وكان إبراهيم عبد الوهاب لا يتصور أن يسعى كريم ثابت إلى منصب وزاري وهو مستشار الملك الأول!

ورفض علي ماهر.

وكان الملك يريد حل البرلمان الوفدي. . وساءه أن يزور علي ماهر، مصطفى النحاس في منزله في أول يوم لتوليه الوزارة. . وأن يتحدث عنه في مجلس النواب ويصفه بأنه «سلفه العظيم». .

وكان علي ماهر لا يريد حل البرلمان. . لأنه قاعدة سياسية له. فهو مستقل ولا يسانده حزب. . وكان من رأيه أن مجلس النواب، سيسانده في مباحثاته مع الإنجليز من أجل الجلاء. . وكان يتصور أن المباحثات ستستغرق ثلاثة أشهر على الأقل. . ولذلك فقد استصدر مرسوماً ملكياً بحل البرلمان، بغير تاريخ. . ووضعه في درج مكتبه، لكي يستخدمه إذا ما اضطر لذلك. . عندما يغير مجلس النواب الوفدي موقفه منه. . وكانت هذه هي وجهة نظره التي شرحها لي.

وقد ناقشت علي ماهر في أنه لا بد أن يبدأ بقضايا التطهير من الفساد. . وقال لي أنه لا يستطيع. . لأن التطهير يجب أن يشمل رجال القصر، كما يشمل رجال الأحزاب. . ولا بد من تعديل قانون محاكمة الوزراء حتى يمكن محاكمة الوزير السابق الذي يثبت فساده. . وهذه العملية سوف تستغرق وقتاً طويلاً. . ولا بد من مباحثات الجلاء أولاً. .

وكنت قد علمت أن وزير الخارجية الأمريكي اتشيسون قد أرسل مبعوثاً إلى مصر، لكتابة تقرير عن الحالة، لكي تحدد أمريكا سياستها في مساندة مصر في مباحثات الجلاء مع الإنجليز، أو عدم التدخل. . وقد قابل هذا المبعوث نجيب الهلالي. . وعلمت أن التقرير الذي كتبه المبعوث الأمريكي، يطالب أولاً بتطهير الحكم من الفساد. .

وقابلت رئيس الوزراء. . وطرحت أمامه معلوماتي فقال لي:

ـ أنا الذي أرسم سياسة بلدي، وليس الأمريكان أو الإنجليز، فليقل المبعوث الأمريكي هذا ما يشاء، وستعرف البلاد غداً كيف أواجه الموقف.

ومن اتصالاتي بالأجواء المعارضة، علمت أن المؤامرة تدبر للأطاحة بعلي ماهر.. وأن المتآمرين يستثمرون كراهية الملك لعلي ماهر.. وخاصة أنه رفض تعيين كامل القاويش نائباً عاماً، كما تردد في تعيين أحمد طلعت حكمداراً للعاصمة.. وكان فاروق يتصور أن أحمد طلعت هو الذي يحمي حياته..

وقلت لإبراهيم عبد الوهاب: المؤامرات تحاك لإخراج علي ماهر.. لماذا لا يطلب مقابلة الملك ويشرح له مواقفه وأسبابها..

وضحك إبراهيم عبد الوهاب، وقال لي: هل تتصور أن علي ماهر لم يقابل الملك منذ تأليف الوزارة!.. وقد طلب المقابلة أكثر من مرة ولم يتلق جواباً حتى الآن..

قلت: ولكن الوزارة ستطير.

قال: طظ.. يعني هيجيبوا مين غيرنا يواجه هذا البلاء.. ومن أصلح لهذا البلد من علي ماهر؟..

ومضى علي ماهر في طريقه.. وحدد مع السفير البريطاني، موعد لقاء لبدء المفاوضات في وزارة الخارجية في الساعة التاسعة من صباح السبت ٢٩ فبراير..

ثم وقعت المفاجأة..

وقد عايشت هذه المفاجأة طوال الليل.

لقد أرسل وزير الداخلية في ساعة متأخرة من الليل، المرسوم الملكي بحل البرلمان الوفدي إلى الصحف لنشره!.. وكان علي ماهر لا يريد هذا الحل، واحتفظ بالمرسوم بدون تاريخ..

وسمع ابراهيم عبد الوهاب بذلك، من أحد الوزراء..

واتصل بي، وسألني عن صحة ذلك، فقلت له أن أخبار اليوم تصدر غداً وفي صفحتها الأولى مانشيتات حل البرلمان..

وكانت الساعة قد وصلت إلى الثانية صباحاً.. واتصل ابراهيم عبد الوهاب بوزير الداخلية مرتضى المراغي بوصفه الرقيب على النشر، وطلب إليه الأمر بعدم النشر.. ولكن مرتضى المراغي رفض..

ابراهيم عبد الوهاب: الباشا سيفاجأ بنشر الخبر.

المراغي: خليه يكلمني..

ولم يستطع ابراهيم عبد الوهاب أن يوقظ علي ماهر في هذه الساعة المتأخرة من الليل..

واستيقظ علي ماهر في الصباح.. ليفاجأ بالنشر.. ثم يفاجأ بأن السفير البريطاني اعتذر عن عدم لقائه.. ولم يكن أمامه إلا أن يقدم استقالته.

وكان القصر قد اتصل بالسفير البريطاني، في الصباح المبكر، وأبلغه أن الملك قرر تغيير الوزارة.. فلم يكن هناك معنى أن يبدأ معه جلسة مباحثات.

وطلب علي ماهر أن يقابل الملك.. ورفض طلبه!

وذهب إلى القصر، ورمى استقالته على مكتب حافظ عفيفي رئيس الديوان، وانصرف!

ولم يكن علي ماهر، يعلم أن اتصالات قد استؤنفت مع نجيب الهلالي منذ أسبوع لكي يرأس الوزارة الجديدة..

إن هذه الأجواء التي عشتها عرفتني الكثير، من أسرار ما يدور من وراء الستار، في القصر الملكي، وبين السياسيين!

وبدا لي أن الملك ورجاله لاهون تماماً عن مشاعر الغضب ضد فاروق ومباذله التي أصبحت على كل لسان. وخرجت مظاهرات تهتف بسقوط الملك، وتمزق صورته. وحدث ذلك في مدرسة ثانوية، فدخل أحمد طلعت في فناء المدرسة بمصفحاته، واستدعى ناظر المدرسة، ووجه إليه إنذاراً بأن يعمل على إنصراف الطلبة خلال ثلاث دقائق وإلا كان مسئولاً عن النتائج. وجلس أحمد طلعت في فناء المدرسة ينظر إلى عقرب الساعة، وبعد أن تحرك العقرب إلى الدقيقة الثالثة، كان الناظر قد اقنع الطلبة بالإنصراف: رفقاً بحياتهم.

ولذلك تمسك به الملك، رئيساً لأمن العاصمة (حكمدار)..

وقد أصدر نجيب الهلالي بعد أن رأس الوزارة، بعد علي ماهر، مرسوم حل البرلمان، وكان نواب الوفد وشيوخه يعتزمون الاجتماع في البرلمان، تحدياً

لمرسوم الحل. وحاصر أحمد طلعت مبنى البرلمان، بقوات الشرطة، ومنع زكي العرابي رئيس مجلس الشيوخ حتى من الدخول إلى مكتبه. .

* * *

تولى نجيب الهلالي رياسة الوزارة الجديدة. . وبدأ جهدي الصحفي في متابعة أخبارها.

وكان أول خبر صحفي حصلت عليه، هو رفض الدكتور أحمد حسين الاشتراك في الوزارة الجديدة مع أنه كان من أكبر مؤيدي نجيب الهلالي. . وهو الذي عرفني به، على أساس أنه رجل الساعة الذي سينقذ البلاد من الفساد. .

كان مفهوماً وبيقين، أنه وزير في الوزارة الجديدة. ولهذا وضع نجيب الهلالي اسمه وزيراً للشئون الاجتماعية في مرسوم تأليف الوزارة منذ الظهر، ولم يتمكن من الاتصال به لأنه كان متغيباً عن القاهرة في عزبة صهره الدكتور سيد شكري في بلدة «ميت يعيش». . وأخذت على عاتقي أن أبلغه بذلك. وسافرت إليه. وعدنا إلى القاهرة في السابعة من المساء.

وكان كلما طال الوقت على استدعاء الهلالي، يتخبط بين مشاعر التفاؤل والتشاؤم. .

واتصل به أكثر من شخص، خلال وجودي معه في منزله بالزمالك، وأبلغوه أن الهلالي لا يزال في منزل حافظ عفيفي. وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة، فيقول:

ـ عال. . لا بدّ أن الهلالي متشدد. . ليته يقول لا إلى النهاية، ويرفض فيفيق هذا الملك المجنون ويعلم أن في البلد رجالاً.

وعلمنا من هذه الاتصالات أن هناك طلبات عديدة من القصر صمم الملك عليها، وأن الهلالي يعترض.

ثم وصلت سيارة من مجلس الوزراء إلى منزل الدكتور أحمد حسين، وركب السيارة، وسأل ضابط البوليس الذي كان يقودها:

ـ من هم الوزراء؟

ـ فريد زغلول، ومحمود غزالي، ومرتضى المراغي وزكي عبد المتعال.

واستقر رأي الدكتور أحمد حسين ـ وهو في السيارة ـ على ألا يشترك في الوزارة الجديدة، بعد أن سمع هذه الأسماء.

وروى لي بعد لقائه بنجيب الهلالي، أنه بادر الهلالي بقوله:

ـ أرجوك يا باشا أن تعتبرني وزيراً بغير وزارة!

وبهت الهلالي، فلم يكن يتصور أن الدكتور أحمد حسين هو الذي يتخلى عن معاونته في أخرج اللحظات!

وصمت الابن الخجول وقال: أنت مني في منزلة الوالد. واعتقد أنني لا أستطيع أن أشارك في المسئولية بمنصب وزاري، وأنا في خدمتك من غير وزارة!

فقال الهلالي: أعلم أن هذه قطيعة بيني وبينك.

وحضر حافظ عفيفي، وحاول عبثاً أن يقنع الدكتور أحمد حسين.

وكان نجيب الهلالي، يتوقع دعوته لتأليف الوزارة قبل أن يلغي مصطفى النحاس المعاهدة.

وبعد أن عاد فاروق من كابري، تأخر أربعة أيام في مقابلة النحاس باشا، رغم أنه أقام حفلاً لموظفي القصر، ورغم أنه ذهب إلى فندق سان ستيفانو حيث يقيم النحاس باشا، ولكنه استخدم التليفون وانصرف.. وفي هذه الأيام ارتفعت أسهم نجيب الهلالي، وكان قد أدلى بحديث إلى كامل الشناوي نشر في «الأهرام» هاجم فيه الوفد، وكان لا يزال عضواً به، وكان يطالب بالتطهير.

ولكن اتصالات القصر به شابتها السرية الكاملة.

وقد زرته مع مصطفى أمين في منزله بالاسكندرية، قبل عودة الملك من كابري ـ إبان حكم الوفد ـ.. وبعد هذه الزيارة تأكدنا أنه يستعد لرياسة الوزارة..

سأل الهلالي مصطفى أمين: ما مدى نفوذ كريم ثابت الآن؟

مصطفى أمين: ستعلن استقالته من القصر بعد يومين.

الهلالي: هل معنى هذا أن نفوذه تقلص؟

مصطفى أمين: لا . . فهو ذكي نادر الذكاء، وهو يستطيع أن يسترد نفوذه في أي وقت شاء، وهو قد استقال لأنه شعر أن السفينة كلها على وشك الغرق. ولكن الحرب يا باشا ستكون عنيفة جداً. إن القصر مليء بالعناصر الفاسدة التي ترى أن الفساد الموجود في الحكم هو حليفها الطبيعي. ولا يمكن أن توافق على حكم نظيف إلا مضطرة مرغمة.

الهلالي: وحسن يوسف؟

مصطفى أمين: لا يستطيع أن يكسب المعركة. سلاحه الوحيد أنه رجل نزيه. وهو أضعف سلاح في قصر الملك.

الهلالي: الموقف مظلم جداً. وقد وصلنا إلى الانحلال والإجرام. لقد أقدم المجرمون على إلغاء المعاهدة بدافع قذر هو تغطية الفساد، المسألة الأولى الآن هي تنظيف القصر. .

مصطفى أمين: أننا الآن كرجل اجتمع في جسده المفتت مائة مرض خطير، واحد منها كفيل بقتله.

الهلالي: ولكنني متفائل. فالرغبة في الحياة قد تنتصر على الموت.

مصطفى أمين: وهل استشارك أحد في الموقف؟

الهلالي (يحاول أن يهرب من الجواب بتوجيه سؤال): وما هو موقف حافظ عفيفي باشا . .

مصطفى أمين: معلوماتي أنه استشير في الموقف. وأبلغ أن هناك اتجاهاً إلى اختياره رئيساً للديوان.

الهلالي: وماذا كان جوابه؟

مصطفى أمين: لم يقبل ولم يرفض.

الهلالي: هذا هو ما يجب أن يفعله رجل السياسة. لا يفتح الباب ولا يغلقه. بل يتركه «مواربا» وينتظر. فالأمور مرهونة بأوقاتها. وهذه طريقتي.

مصطفى أمين (مبتسماً): لقد فهمت.

واكتفى الهلالي بأن رد على الابتسامة بابتسامة . .

وانتهت الزيارة. وخرج أحدنا يسأل الآخر في صوت واحد: ما رأيك؟ . .

وأجبنا في لحظة واحدة: الهلالي هو رئيس الوزارة الجديدة.

وعندما علمت أن أيام علي ماهر في الحكم أصبحت محدودة. . وأن الاتصالات بدأت تجري مع الهلالي من وراء ظهره. . قصدت إلى مكتب الهلالى بميدان مصطفى كامل، مع جلال الحمامصي. وكانت خلاصة أقواله:

ـ لقد وصلنا إلى الدرك الأسفل. والمهمة كما قلت وما زلت وأقول شاقة وعسرة ومضنية. لقد كنت أقرأ منذ أيام في كتاب أجنبي، عالج فيه كاتبه انتشار الرشوة والفساد في بلده. وقال أن مبدأ «البقشيش» أصبح معترفاً به من رئيس وزراء ذلك البلد. . وهذا هو حالنا. نحن الآن في فوضى. وقد قدمت أنا علي ماهر على نفسي. وكنا تقابلنا مرة وتناقشنا في شئون البلد. ووجدته متفقاً معي في كل آرائي، ولكنني أفاجأ الآن بعدوله عن آرائه!

فقلت للهلالي باشا:

ـ علي ماهر يقول أن التطهير من الفساد، ليس أمراً سهلاً. وهو يحتاج إلى وقت طويل. والمهم أن ننتهي أولاً من المسألة الخارجية.

فقال الهلالي: التطهير من البلاء أمر بسيط وسهل. والوثائق والمستندات موجودة، وهناك اتهامات واضحة للعيان وتناولتها الصحف، وقدمت أدلتها. وهناك شكاوى لدى شركات ضد أشخاص معروفين بتهم دامغة ثابتة. والمهم أن يعاقب عدد محدود قليل من الأشخاص ليكونوا عبرة لغيرهم.

ثم قال الهلالي:

ـ وكيف ننجح في قضيتنا الخارجية ونحن ملطخون؟ . . ليست لدينا قوة مادية نلزم بها الغاصب أن يخضع لمطالبنا الخارجية. انها حق نطلبه ونسعى إلى تحقيقه. فكيف أطلب حقاً من الأجنبي، والحق داخل بلادي مهضوم. . .

وهنا سألته:

ـ إذا كان هذا رأيك. . فلماذا رفضت يا باشا الوزارة يوم ٢٦ يناير؟ . .

إذا كنت قدمت علي ماهر، فأنت إذن المسئول عن فشل سياسته. فليس معقولاً ألا تنفذ أنت إلى أغوار أعماق علي ماهر..

فضحك الهلالي وقال:

ـ أنا حقيقة مسئول، ولكن كانت لها ظروف..

لقد قال الهلالي، انه رفض الوزارة يوم ٢٦ يناير، لأن حافظ عفيفي زاره ومعه الياس اندراوس باشا. وهو من الحاشية الفاسدة للملك.. فكيف يقبل هذا؟..

وقال حافظ عفيفي ان اندراوس ذهب معه بالصدفة.. لقد فرض نفسه عليه.

ولكنني أعتقد أن الهلالي رفض، لأنه كان متردداً، وخاصة بعد حريق القاهرة وتطور الموقف الى ما لم يكن في الحسبان. لقد فضل الهلالي أن يطيل فترة انتظاره قريباً، من المسرح، لكي يتفرج على الفصل الأول. أراد أن يواجه علي ماهر التجربة قبله، ليكون استعداده أقوى لتولي الوزارة بعده..

واستمرت وزارة نجيب الهلالي أربعة أشهر، لقد قدم استقالته في ٢٧ يونيو.

وكانت أشهراً حافلة بالأزمات!.. وهذا الجو هو صيد ثمين للصحفيين. ولكن وجود الرقابة على الصحف، منع نشر كثير من الأسرار. وهكذا كنت احتفظ بمذاكراتي بما لم ينشر، وهذه ذخيرة للصحفي أعتز بها.

لقد كنت من الراغبين أن يشترك الدكتور أحمد حسين في وزارة الهلالي.. ولكن حجته في عدم الاشتراك كانت قوية.

لقد اعترض الملك على اختيار محمود محمد محمود للمنصب الوزاري، وسبب اعتراض الملك، أنه رئيس ديوان المحاسبة الذي سجل الرشوة التي تقاضاها كريم ثابت..

كما اعترض الملك على اختيار اللواء محمد نجيب لوزارة الحربية.. وسبب

اعتراضه أن ضباط الجيش انتخبوه رئيساً لمجلس ادارة النادي، على الرغم من رغبة الملك.

كما أدخل كلا من مرتضى المراغي وزكي عبد المتعال في الوزارة، وهما من رجال الملك.. ثم أدخل محمد غزالي المشهور بصلته بالانجليز..

وسألت نجيب الهلالي: ما هو الضمان لعدم تدخل الملك في قراراتك.. وخاصة التطهير.

وأجابني الهلالي: لقد وجه لي كامل مرسي باشا هذا السؤال وقلت له.. كتاب استقالتي هو الضمان..

وقال لي أحمد حسين، وكنت أتناول الغداء معه، ومعنا علي أمين:

ـ لقد بدأ الهلالي معركة فاشلة. كان يجب ألا يقبل الوزارة مطلقاً. يجب أن يفهم الشعب أنها وزارته وليست وزارة الملك. وكان لا سبيل إلى ذلك، إلا طرد رجال الحاشية فوراً. وإذا رفض الملك، فعليه أن يعلن للشعب.. لماذا رفض الملك. وهذه خطوة إلى الأمام. يجب أن تتخذ مواقف حاسمة. يجب أن يفهم هذا المجنون أن البلد ليست عزبته. وأنا أفضل أن تأتي وزارة فساد أخرى حتى «تتطربق» فوق دماغه.

وكان أحمد حسين يرى أن البلاد على أبواب أحداث خطيرة. الجيش ثائر. وطبقات الشعب تغلي من السخط. والحكم تعفن من الفساد، والانجليز على الأبواب، والشيوعيون يعملون بنشاط. كل هذا لا يدركه هذا المجنون وعليه أن يتحمل نتائج عبثه واستهتاره.

ولكن أحمد حسين كان يريد معاونة نجيب الهلالي.. ولذلك بدأ اتصالاته بالدبلوماسيين الأمريكيين والانجليز. قابل مستر كافري السفير الأمريكي عدة مرات، واستطاع أن يقنعه بضرورة اعلان الجلاء والوحدة من جانب الانجليز قبل الدخول في أية مباحثات. واتفق معه على إرسال برقية دبلوماسية إلى أتشيسون وزير الخارجية الامريكية بهذا المعنى.

ولكن مفاوضات الهلالي الاستطلاعية مع الجانب البريطاني، انتهت إلى

الفشل. . كان يقول للسفير البريطاني: قل لمستر ايدن انه إذا كان يخشى الشيوعية، فان أمامي في مصر ثورة لن تخمد إلا بتحقيق أماني الشعب المشروعة.

لقد روى الهلالي قصة فشل المفاوضات. قال:

«زارني عبد الخالق حسونة وزير الخارجيّة في منزلي وأطلعني على ما تلقاه من السفير البريطاني. وأويت إلى مخدعي لاستيقظ في الصباح وفي يدي الاعلان بالجلاء والوحدة الذي طلبته. ثم قابلت السفير في اليوم التالي. وتبينت أن النهار قد محا كلام الليل. وإذا بالرجل «يلحس» كل ما قاله قبل ذلك! . . وإذا بالموقف كما هو لم يتغير ولم يتبدل. ثم عرفت السر. انها جريمة. انها خيانة وطنية. فقد اتصل الوفد بالانجليز، وعرض الوفد عليهم التفاهم. عرض عليهم أن يقبل الورد بشوكه».

وعلم الهلالي أن الوسيط هو المليونير أحمد عبود. وقال الهلالي أن هذه الرواية سمعها طبيبان كبيران من شخصيات أجنبية لها اعتبارها إذا روت أسراراً.

واتصل بي الدكتور أحمد حسين، وطلب منّي أن أوافيه إلى منزله على الفور.

وقال لي أنه كان مع الهلالي منذ لحظات، وأنه سمع منه قصة الورد والشوك. وطلب مني أن أنشر القصة.

فقلت له: هذا اتهام خطير، ولا أستطيع أن أنشر القصة بغير دليل، إلاّ إذا كانت على لسان رئيس الوزراء.

فقال لي: ان الهلالي على استعداد لأن يؤيّد القصة.

واتفقنا على أن أكتب الخبر الخطير، ثم اتصل برئيس الوزراء، ليؤيّده في تصريح على لسانه.

وكتبت القصة من غير أسماء أبطالها. واتصلت تليفونياً برئيس الوزراء، الذي قال بعد أن قرأتها عليه: «أضف إلى الخبر، أن رئيس الوزراء عرض هذا

الموضوع الخطير على مجلس الوزراء، وأنه سيعرضه مرة ثانية على المجلس».

وكان دليل الاثبات لدى الهلالي، هو محادثة تليفونية مراقبة بين السيدة زينب الوكيل حرم مصطفى النحاس ، وفؤاد سراج الدين سكرتير حزب الوفد .

السيدة: الراجل كان بيتغدى عندنا النهارده.

سراج الدين: وإيه الأخبار.

السيدة: عال قوي. وهو زار الجماعة، وكل شيء سيعود كما كان في أقرب وقت.

ودلت رقابة البوليس على أن الذي تناول طعام الغداء هو المليونير أحمد عبود.

وقال الهلالي، في عنف، تعليقاً على هذه القصة:

ـ هذه جريمة. هذه خيانة. أفهم أن تصل الحرب إلى أقصى مداها في خلاف داخلي. ولكنّي أطعن من الخلف وأنا أطالب بحق بلادي. هذا هو الاجرام.

ثم استطعت أن أحصل على قصة صحفية عرفت بقصة المليون جنيه. . .

نشرت الصحف صورة لأحمد عبود وكريم ثابت والياس اندراوس وهم في مطار القاهرة في طريقهم إلى باريس على طائرة واحدة.

وكان الهلالي يعلم أن واحداً من رجال حاشية فاروق في أوروبا. . ثم عرف أن هذا السفر لإجراء اللقاء بينهم. لقد كان معروفاً داخل القصر الملكي، أن الملك قرر اخراج الهلالي في شهر أكتوبر. هكذا عرف الهلالي. . ولكن هذا اللقاء في أوروبا كان بقصد التعجيل بإخراج الهلالي. وقد عرض عبود أن يدفع مليون جنيه للملك والحاشية، مقابل ذلك، وروى الهلالي القصة لعدد من وزرائه، ثم قرر أن يقدم استقالته.

واستدعى صلاح الشاهد تشريفاتي الرياسة وقال له:

ـ يا صلاح. . سأرفع استقالتي غداً إلى الملك.

ـ خير يا دولة الباشا . . هل جد شيء!
ـ نعم . . لقد علمت من مصادر لا يرقى الشك إلى صحتها، أن بعض رجال الحاشية قبضوا مليوناً من الجنيهات، للعمل على اسقاط وزارتي.

وأسرع صلاح الشاهد إلى السيدة أصيلة، والدة الملكة ناريمان (قريبته) وطلب إليها أن تحذّر الملك.

وأراد حافظ عفيفي أن يثني الهلالي عن الاستقالة ففشل، ثم قال للهلالى أنه متضامن معه في الاستقالة. ولما أبلغ الملك أنه يريد الاستقالة، كان رد فاروق: علشان الناس تصدق أني قبضت فلوس لإخراج الهلالي. فعدل حافظ عفيفي عن الاستقالة.

وفشلت حملة التطهير التي أراد الهلالي أن يقودها . . لقد تألفت لجان التحقيق، وإذا بأوراق خطيرة تختفي من الملفات الحكومية. كما أن الموظفين العليمين بالخبايا والأسرار راوغوا. وشكا الوزراء. وشكا رؤساء لجان التطهير من أن الموظفين في رعب وفزع. فهم يخشون تقلبات الأيام، وما كان أسرعها. وكانوا يخشون عودة الوفد إلى الحكم، فعمدوا إلى إخفاء الحقائق، فزعا من المستقبل القريب والعقاب القريب!

وكانت خطة الهلالي أن يبدأ التطهير مع السياسيين . . وان الاستمرار سيوصل حتماً إلى حاشية فاروق.

وقال الهلالي: أنا اتفقت مع حافظ عفيفي على ذلك . .
وقد تسربت أنباء هذا الاتجاه إلى حاشية فاروق.

ومن هنا شرعوا في حملة واسعة ضد التطهير. وتلقى الملك تقارير ومذكرات من رجال الحاشية بأن التطهير مقصود به رجال الحاشية ثم الملك نفسه. وقد ضبطت حاشية فاروق خطاباً سرياً أرسلته حكومة الهلالي، تطلب فيه من السماسرة أن يبلغوا عن جميع عمليات المضاربة في القطن التي قام بها الياس اندراوس مستشار الملك. وقالت الحاشية لفاروق: أن المقصود ليس الياس اندراوس بل هو الملك نفسه. وأن الحكومة تبحث عن أسرار وراء عمليات مضاربة لفاروق تحت أسماء مستعارة.

وأبلغ رجال الحاشية كل ذلك إلى فاروق. وأرسل الملك إلى نجيب الهلالي يسأل: ما هو المقصود بالتطهير؟ . . وهل المراد به كما يشاع أن يصل إلى رجال الحاشية . .

ورد الهلالي رداً دبلوماسياً. لم ينف. ولم يثبت. وإنما قال أن التطهير يمسك بخناق كل ملوث، وأنه لا يتصوّر أن بجانب الملك ملوثين.

وبدأ الملك يرفض مقابلة الوزراء. وكان الهلالي يظن أن حافظ عفيفي رئيس الديوان يقابل الملك. ثم اكتشف بعد ذلك أنه لم يقابل الملك إلا مرتين خلال ثلاثة أشهر! . . وأن الحلقة الوحيدة للاتصال بالملك هي الشماشرجي محمد حسن!

وبدأ فاروق يسخر من الهلالي في مجالسه الخاصة بنادي السيارات بالاسكندرية علناً، وعلى رؤوس الاشهاد. وكان يقهقه طويلاً كلما سمع نكته يطلقها أحدهم هزءاً بوزيره الأول.

حدث مرة أن أمر الملك بطرد أحد أبناء البيوتات اللاهية من نادي السيارات. لقد كان يلعب الورق على مائدة الملك، وكان حذراً. إذا كسب تحايل على ترك اللعب، وإذا خسر تحايل على عدم التمادي في الخسارة. فغضب عليه فاروق الذي كان يريد من الجميع أن يخسروا ليكسب هو. . وأمر بطرده من حظيرته. . وانتهز أحدهم هذه الفرصة وقال لفاروق: «والله يا مولانا. . فلان ده عامل زي نجيب الهلالي، ولا طلع ولا نزل».

وقهقه الملك طويلاً بضحكته الضخمة، وكان ذلك قبل أن يستقيل الهلالي بأيام. وطلب من قائل النكتة أن يعيدها. فارتفع ضحك الملك. وانصرفت شلة الملك عند الفجر وهم يرددون: لقد انتهت أيام الهلالي في الحكم . .

وهكذا كنت طوال فترة حكم الهلالي، أسمع الكثير، وأدوّن، واكتشف الجديد في أعماق المسرح السياسي المصري . . كان مسرحاً لاهياً عن حقائق الأوضاع في قلوب الجماهير . .

كانت البلاد في حالة فوضى . .

وكان الشباب في حالة يأس كامل. وكنا نجلس حول لطفي السيد باشا فيلسوف الأجيال. لنقول له أن الأبواب مسدودة.. ولكن الرجل الكبير كان متفائلاً دائماً. كان يقول لنا: أنني مؤمن بأن كل جيل أفضل من الجيل الذي سبقه.. ولذلك سيخرج رجال من هذا الجيل يضيئون الأنوار..

ولم نكن نصدق..

وطوال فترة حكم نجيب الهلالي، ومن قبله علي ماهر.. كنت التقي بالسياسي الشاب الدكتور محمد هاشم زوج كريمة حسين سري.

وكنت أثق فيه ثقة كاملة.. وكان يستدرجني لأروي له كل الأخبار التي أعرفها. ولم أكن أعرف، أنه كان يلعب دوراً كبيراً، مع كريم ثابت وراء الأستار.. لإسقاط وزارة الهلالي، وتكليف حسين سري برياسة الوزارة!

اكتشفت ذلك، بعد أن ألف سري باشا وزارته في الاسكندرية!

وكنت أعرف حسين سري معرفة سطحية، وكان مشهوراً بأنه لا يعرف الابتسامة. وأنه دائم التكشيرة. بل قيل أنه كان لا يضع في مكتبه وهو وزير أو رئيس وزراء مقعداً أمام المكتب، حتى لا يجلس أحد..!

وقدمني إليه الدكتور هاشم في منزله بالزمالك، وهو يؤكد لي أنني سألتقي بانسان مختلف تماماً عن الصورة التي يعرفها عنه الرأي العام. وأذكر أنني أجريت معه حديثاً بعيداً عن السياسة، في الآداب والفنون. واكتشفت أنه يحفظ الشعر، ويقرأ الأدب.. وأنه يداعب أحفاده في منزله، بأن يسير على أربع لكي يركبوا فوق ظهره.. شخصية أخرى مختلفة تماماً عن السياسي «الكشر» الذي لا يبتسم!

كما عرفت السيدة قرينة حسين سري باشا. وكانت قريبة للملكة فريدة. وكانت سيدة مجتمع محترمة، لها دور كبير في الجمعيات الخيرية. وهي التي جعلتني أطلق شاربي. لقد قالت ضاحكة عندما رأتني لأول مرة.. مش معقول أنك صحفي مهم.. أنت لسه صغير قوي!.. وخرجت من لقائها، لأطلق شاربي..

* * *

وكان تكليف حسين سري باشا برياسة الوزارة مفاجأة لكل الأوساط. .

فقد كان المعروف أن الدكتور بهي الدين بركات باشا، هو الذي كلّف بتأليف الوزارة، بعد استقالة نجيب الهلالي وبعد تعسّر اختيار سري لأعضاء وزارته ثلاثة أيام. وكان بهي الدين بركات رجلاً مشهوراً له بالنزاهة واستقامة الرأي وكان صديقاً لحافظ عفيفي. وقد زاره رئيس الديوان، وكلفه باسم الملك بتأليف الوزارة. وكان متردداً ولكنه أقدم. وبدأ مشاوراته السياسية. ونام ليلته، ليستكمل تأليف الوزارة في الصباح.

وقد أتى لنا بهذه الأخبار، علي حمدي الجمال، وكان على صلة وثيقة بالدكتور بركات. .

ولكن الرجل استيقظ في الصباح، ليقرأ في الصحف أن حسين سري ألف الوزارة!!

وما أن علمت بتكليف حسين سري بتأليف الوزارة بعد استقالة الهلالي حتى اتصلت على الفور بالدكتور محمد هاشم في فيلا حسين سري بالاسكندرية. وقال لي: ادخل بسيارتك من الباب الخلفي، حتى لا يراك الصحفيون المجتمعون أمام الفيلا. وقد فعلت. وبقيت في منزل حسين سري باشا ثلاث ليال كاملة، أغادره في ساعة متأخرة من المساء. لكي أكتب الأخبار، وأتركها في الصباح لزميل لي في مكتب أخبار اليوم بالاسكندرية، ليمليها للجريدة. . ثم أتوجه إلى منزل حسين سري من الباب الخلفي. . ولم يلحظ ذلك أحد من الصحفيين. .

وعشت في قلب المعمعة!

هذه هي التجربة الثانية لي في حضور تأليف الوزارة. .

التجربة الأولى. كانت حضور تأليف وزارة على ماهر في ٢٦ يناير، في عوامة بعد منتصف الليل، بعد أن وصلت إليها في سيارة إسعاف!

وهذه هي التجربة الثانية. . صحفي في منزل رئيس الوزراء، يراقب كل شيء، لمدة ثلاثة أيام، بعد أن دخل إلى «الفيلا» من الباب الخلفي. .

وهي تجربة مثيرة . .

لقد استمرت مناورات تأليف الوزارة ثلاثة أيام كاملة . . ولم تؤلف! . . حسين سري في فيلته . . والملك في نادي السيارات على الشاطىء ابتداء من التاسعة مساء، يلعب القمار . . ووسيطان بين حسين سري والملك، هما الياس اندراوس وكريم ثابت!

وسمعت أطرف ما يمكن أن يسمع في هذه المناسبة . . كان الوسيطان يختاران اللحظة التي يكسب فيها الملك، فيضحك . . فيقدمان له الاسم الذي يريدان اختياره! . . وإذا خسر قدما له الاسم الذى يريدان أن يرفضه الملك!

لعبة غريبة !

وتركت منزل حسين سري باشا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل . . وفي جيبي كشف بأسماء ـ الوزراء، كما شاهدتهم، وكما أبلغني بهم الدكتور محمد هاشم . .

وقصدت إلى فندق سيسيل، حيث كان يقيم مصطفى أمين، وأيقظته من النوم، وأبلغته بالأسماء بعد أن صعدت إلى غرفته . . ولكنه قال لي: هناك اسم ناقص:

ـ من هو؟
ـ كريم ثابت . .
ـ مستحيل . .
ـ لقد خدعك الدكتور هاشم. ان دخول كريم ثابت الوزارة، هو ثمن تأليف الوزارة . .

وأدركت أنها مصيبة . .

معنى هذا انها وزارة فساد، وما رفضه علي ماهر قبله حسين سري!

وأسرعت في الصباح إلى الدكتور هاشم، أعتب عليه غاضباً، أنه أخفى عني الحقيقة . . وقلت له ان هذا مسمار في نعش الوزارة. وقال محمد هاشم، ان هذا هو الحل السليم. كل الوزارات كانت تشكو من تدخل وسطاء غير رسميين

باسم الملك في شئون الحكم. . لقد جعلنا الوسيط غير المسئول، وزيراً مسئولاً. . وبذلك تكون لا مشكلة. . كل وزارة تصطدم بالملك وجنونه ولا بد من مروض، وكريم ثابت خير من يروضه!

قلت: إن المصيبة أن حسين سري سيجعل كريم ثابت رجلًا مسئولاً. إنه غير جدير بالمسئولية. إن الشعب يطالب بشطبه تماماً من عالم الدولة. انه أحد الفاسدين الذين أفسدوا الملك.

وقال الدكتور هاشم: هذه يدي. وهذا عهد بيني وبينك أمام الله. لك أن تحتقرني إلى الأبد، إذا وجدتنا سنطأطىء الرأس أمام الملك. إن لحسين سري مواقف في رياسة الديوان لم يسجلها رجل من قبله. ولكنه صامت لا يتكلم. ولن يتغير حسين سري.

قلت: إن الشعب لن يقبل هذا الكلام؟

ولمّا لم تحل أزمات تأليف الوزارة في مساء اليوم الثالث. اقترح حسين سري أن يكون اللواء محمد نجيب وزيراً للحربية فرفض الملك، وصمّم على اختيار مرتضى المراغي الذي اعتذر عن عدم القبول. ثم طلب الملك تعيين اللواء حسين فريد، ورفض حسين سري. وأخيراً. . وفي ساعة متأخرة من الليل، صعد حسين سري إلى غرفة نومه. واستدعى الياس اندراوس وطلب منه إبلاغ الملك، بأنه يرفض تأليف الوزارة، ويرشّح الدكتور بهى الدين بركات أو مرتضى المراغي.

وجاء اليوم التالي. . أول يوليو.

استدعى حسين سري، المرشحين للوزارة، وأبلغهم قراره برفض الوزارة. وانصرفوا ولكن الدكتور هاشم أبلغهم بالبقاء في فنادقهم.

وفي الصباح صدرت الصحف بأنباء تكليف بهي الدين بركات باشا بتأليف الوزارة الجديدة.

لقد اتصل به حافظ عفيفي، وطلب إليه الحضور إلى الاسكندرية. ورأى بهي الدين بركات أن يستشير الفيلسوف أحمد لطفي السيد.

فقال له لطفي السيد: سأقول لك رأي الفيلسوف، لا رأي السياسي. أرفض على الفور ولا تقبل على الاطلاق.

ثم قال له: وأقول لك رأي السياسي. أقبل الوزارة، ولكن أعرض عليهم من الشروط، ما ينتهي بهم إلى أن يرفضوا تكليفك بالوزارة. أنت رجل نظيف شريف، لا يمكن أن تتعاون مع ملك قذر لا يرجى صلاحه.

وبدأ بهي الدين بركات مشاوراته. اجتمع بحسين سري. ثم زكي العرابي عن الوفد. وحدّد مواعيد في الصباح التالي للاجتماع بابراهيم عبد الهادي ومكرم عبيد وحسن الهضيبي. ونام في العاشرة مساء.. واستيقظ في الصباح ليقرأ أن حسين سري ألف الوزارة الجديدة!!

لقد خشي الملك أن تحدث اضطرابات، بسبب بطء بهي الدين بركات في مشاوراته.. التي قد تستغرق أسبوعاً!.. ومستحيل أن تبقى البلد بلا وزارة أحد عشر يوماً.

ولكن الأزمات بدأت مع الملك، من اليوم التالي!

طلب الملك من حسين سري إخراج حيدر باشا من الجيش!

مصطفى صادق عم الملكة ناريمان يطلب من رئيس الوزراء، إعانة لشركة سعيدة للطيران التي يتولى إدارتها!

الملك يطلب إبعاد ١٢ ضابطاً من الجيش وحلّ مجلس إدارة نادي الضباط (الذي تكون بالانتخاب برياسة محمد نجيب وعضوية المرشحين من الضباط الأحرار.. ولم يكن أحد يعلم انهم في تنظيم سري)..

حيدر يصدر قراراً بحل مجلس ادارة النادي، دون أن يخطر رئيس الوزراء!

ثم كانت مفاجأة جديدة..

قرر اللواء محمد نجيب تقديم استقالته من الجيش، بعد أن قرر حيدر نقله إلى منقباد دون أن يعرف رئيس الوزراء..

وكان ذلك في ١٥ يوليو.. وكنا في القاهرة.

انتصف الليل، وتوجه محمد هاشم إلى مكتبه في وزارة الداخلية. ليجتمع بكل من مصطفى أمين وكريم ثابت. مصطفى أمين يقدم للوزير نص استقالة اللواء محمد نجيب ويقول أن الجيش في حالة غضب وكل الدلائل تشير إلى حدوث انقلاب، إذا لم يعدل الملك عن قرار نقل محمد نجيب.

ثم أرسل محمد هاشم مدير مكتبه إلى منزل اللواء محمد نجيب، وأحضره معه إلى منزل الدكتور هاشم في الزمالك، واجتمع به حتى الثالثة صباحاً.. وحصل منه على وعد بعدم القيام بأي إجراء..

ويعود الدكتور هاشم إلى الاسكندرية، ليبلغ حسين سري بلقائه بمحمد نجيب، ويقترح عليه تعيينه وزيراً للحربية.. ولكن الملك يصرّ على إخراج محمد نجيب من الجيش، ويطلب تعيين حيدر باشا وزيراً للحربية!

وقرر حسين سرى أن يستدعى حافظ عفيفى ، ويبلغه أنه قرر الاستقالة .

وكان ذلك يوم ١٩ يوليو.

وهذا مشهد لن يضيع من ذاكرتي أبداً.

الساعة الواحدة والنصف صباحاً. كنت أجلس مع الدكتور محمد هاشم في الشرفة الخلفية لفيلا حسين سري على شاطىء البحر.

قال لي: إن محمد وصفي رئيس حرس الوزارات، تقدّم إليه بمذكرة يقترح فيها اعتقال عشرة من ضباط الجيش، يرى هو أنهم يتزعمون حركة التذمر داخل الجيش، وقد رفض محمد هاشم هذا الاقتراح لأنه بعد التحري عن هؤلاء الضباط العشرة، اتضح أنهم يمثلون الضباط الشرفاء الذين يدافعون عن كرامة الجيش، وأن سمعتهم طيبة للغاية، ويرى محمد هاشم أنه حرصا على الصالح العام يجب أن تجاب مطالب الجيش.

وحوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، سمعنا وقع أقدام عسكرية، وسمعنا صوتاً يسأل: «الباشا موجود؟»..

كان الطارق هو الفريق محمد حيدر باشا بملابس مدنية.

واستقبله محمد هاشم، وقال له حيدر أنه جاء رسولاً من عند الملك لحل

الأزمة، وأنه ينصح بعدم التمادي.. وإلا أنت عاوز تعمل عرابي تاني في مصر؟..

واقتراح حيدر، هو خروج حسين سري عامر ومحمد نجيب من الجيش، وتعيين محمد هاشم وزيراً للحربية، وطلب إيقاظ حسين سري لمعرفة رأيه.

وأيقظ هاشم الرجل الذي أصرّ على بقاء محمد نجيب في مكانه، وفصل حسين عامر.. واختار محمد هاشم لوزارة الحربية. ولم يستقبل حيدر الذي انصرف غير راض.

وأصبح يوم ٢٠ يوليو.. وجاء حيدر للقاء حسين سري في الساعة الثامنة.. وقال له حسين سري باختصار: إن البلد في موقف خطير جداً، وان تذمّر الجيش سوف يتحول إلى ثورة من ساعة إلى أخرى، وانه لن يعدل عن استقالته.

وفي صباح يوم ٢٢ يوليو، تسلّم حسين سري من حافظ عفيفي رئيس الديوان، كتاب الملك بقبول استقالته، وكان جافاً عنيفاً، فيه اتهام له بأنه هرب من الموقف. وقال حافظ عفيفي له: معك حق يا باشا.. لكن أنا أعمل ايه إذا كانت البلد يحكمها خدام!

وفي اليوم السابق، كان الملك قد كلّف نجيب الهلالي بتأليف الوزارة..

* * *

وقصدت مع زميلي علي حمدي الجمال، إلى منزل الهلالي. قال أنه لم يقبل بعد، وسيحدّد موقفه بعد تناول طعام الغداء مع فريد زعلوك.

وبعد الغداء، فهمنا من الهلالي أنه وضع خمسة شروط لقبول الوزارة، وافق عليها الملك، وهي إخراج كريم ثابت من الاذاعة (كان مستشار الاذاعة)، وأن يكون حافظ عفيفي هو الرسول الوحيد بين الوزارة والملك، وأن يختار الهلالي وزراءه دون تدخّل، وأن تبعد العناصر الفاسدة من الحاشية ثم إلغاء الأحكام العرفية.

وقد حضرنا مشهداً فريداً..

كانوا يبحثون في دفتر التليفون عن أسماء تصلح للمناصب الوزارية!

ووافق الهلالي على اختيار اسم اسماعيل شيرين زوج الأميرة فوزية شقيقة الملك، وزيراً للحربية!.. وكان هذا خطأ كبيراً انزلق إليه الهلالي دون أن يقدر أن هذا الاختيار سيثير تذمّر ضباط الجيش، رغم سمعة شيرين الحسنة.

وكان الهلالي سعيداً.. بأنه هو المنقذ بعد فشل علي ماهر وحسين سري.. وآوى إلى مخدعه في منتصف الليل مستريح البال!.

وقيل لنا أن حلف اليمين أمام الملك في الصباح التالي ٢٢ يوليو.

وأراد الهلالي أن يصدر في المساء بياناً من مجلس الوزراء، بأنه تقرر إخراج كريم ثابت من الاذاعة، وإبعاد الياس اندراوس من القصر.. وقال له فريد زعلوك: استريح دولتك الليلة.. وغداً نصدر البيان..

ولكن هذا الغد.. أتى بجديد..

لقد بدأ موقف خطير يتفجّر في العاشرة والنصف مساء!!

والحق أنني كنت في قمة الارهاق، وقصدت إلى «البنسيون» الذي أسكنه في حي كليوباترة حوالي التاسعة مساء..

ولم أعرف ليلتها ماذا جرى.. ولكنني فوجئت في الصباح، ببيان حركة الجيش يلقيه أنور السادات من الاذاعة.. وقد عرفته من صوته، فلم يذع اسمه حينئذ.

فأسرعت على الفور إلى مقر الوزارة في بولكلي..

وعرفت أن الهلالي قدّم استقالته.. وأنه في الطريق إلى لقاء الملك!

وروى لي فريد زعلوك ما جرى طوال الليل، قال:

ـ تلقيت أول أخبار عن ثورة الجيش في الساعة العاشرة والنصف من مساء ٢٢ يوليو. كانت إجراءات حلف اليمين قد انتهت حوالي الخامسة بعد الظهر وقصدت بعد ذلك إلى منزلي. ثم اتصل بي نجيب الهلالي تليفونياً وأبلغني بما وصل إلى علمه. قال لي: إن مرتضى المراغي وزير الداخلية تلقى أنباء تقول أن هناك حركة غير عادية بين قوات الجيش في القاهرة، مما يوحي بأن القوات

تنوي القيام بثورة. وقد أبلغـه أحمد طلعت من وزارة الـداخلية في القـاهرة أنـه يستطيع القبض على قادة هذه الحركة وأن أسماءهم قد عرفت.

وقال لي الهلالي أنه طلب من مرتضى المراغي عدم اتخاذ أي إجراء مضاد.

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً فوجئت بالتليفـون يرنّ مـرة أخرى في منزلي، وكان المتحدث هو اللواء محمد نجيب.

وقال لي: لقد اتصل بي مرتضى المراغي وزير الداخلية وأبلغني أن هنـاك حركة في الجيش وطلب مني أن أحاول تهدئتها.. فماذا أفعل؟..

فقلت له: إذا كان عندك استعداد روح..

فقال: أنا لا أستطيع اتخاذ أي إجراء إلا إذا تلقيت أمراً كتابياً.

فقلت له: تصرف في حدود مسئوليتك كما تقدرها أنت. وإذا كان الوزير الـذي أصدر إليـك الأمر في الاسكنـدريـة فـما هي الـوسيلة لكي يبلغـك أمـره كتابياً؟..

فقال: على كل حال أنا موجود في منزلي.

ثم أعـطاني رقم تليفونـه في المنـزل، وطلب مني أن اتصـل بـه اذا عن لي ذلك.

وانتهت المكالمة. وقررت أن أتوجه فوراً الى منزل نجيب الهلالي في سيدي بشر، لأطلب اليه أن نتابـع الموقف من مكتبـه في دار الوزارة ببـولكلي، وقـدت سيارتي، وفكرت في الطريق أن أتوقف في بولكلي. فـوجدت مـرتضى المراغي في مكتبه. فسألتـه عن الأخبار. فقـال لي انه يتـابع الاتصـالات لمعرفـة الأخبار. . وأظهر امتعاضاً لوجـودي المفاجىء. وفهمت بعـد ذلك سبب هـذا الامتعاض. لقد كان مـرتضى المراغي عـلى اتصال بـالقصر أولاً بأول، وكـان لا يريـد لي أن أحضر هذه الاتصالات وما يدور فيها.

فتركته.. ولم أقل له أنني عائد مع رئيس الوزراء.

وفعـلاً.. انتظرت الهـلالي حتى إرتدى مـلابسه، وركب إلى جـواري في

السيارة. . ووصلنا الى مكتبه وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة والنصف صباحاً بقليل.

وسمعنا أن قوات الثورة استولت على محطة الاذاعة. وأنها ستذيع بياناً في السابعة صباحاً.

وطلب نجيب الهلالي من اسماعيل شيرين وزير الحربية أن يتصل تليفونياً بالملك. . فطلب الرقم وتحدث الى الملك ثم أعطى سماعة التليفون الى الهلالي. وتحدث الهلالي حديثاً قصيراً طلب فيه من الملك أن يفوضه في أن يتصل بالقوات الثائرة وأن يبحث معهم مطالبهم، فأعطاه الملك تفويضاً كاملاً لمواجهة الموقف.

وفي الساعة السادسة والنصف صباحاً، طلب نجيب الهلالي التحدث الى اللواء محمد نجيب في قيادة الجيش بالقاهرة. لقد طلبناه بالمنزل ولم نجده. فطلبناه في القيادة. وكانت الأخبار قد توالت بأن القوات البريطانية في القناة تقدمت نحو القاهرة. وكان نجيب الهلالي يخشى أيضاً وقوع أي صدام بين قوات الجيش المصري. فتحدث الى اللواء محمد نجيب وقال له: أنه أصدر أوامره الى قوات البوليس بعدم التعرض مطلقاً لقوات الجيش الثائرة. كما قال له أنه يطلب اليه العمل على تجنب أيّ احتكاك بين قوات الجيش المصري نفسها لتجنيب البلاد إراقة الدماء.

ثم قال له نجيب الهلالي: إذا كان لكم مطالب. . أنا مستعد للحضور فوراً في طيارة عسكرية. وأنا مفوض بالتفاهم معكم. وسأفهم ردكم من إذاعة البيان في الإذاعة الساعة السابعة. إذا أذيع البيان، فمعنى ذلك بالنسبة لي أنكم ترفضون التفاهم. .

وانتهت المكالمة.

وتأخرت إذاعة البيان عشرين دقيقة.

ولما أذيع البيان. قال لنا الهلالي: خلاص أنا مش رايح.

فطلب مرتضى المراغي أن يسافر على الطائرة الى القاهرة لمحاولة الاتصال بقيادة الثورة.

ولكن الهلالي طلب إليه عدم السفر. . وألح مرتضى المراغي فقال له الهلالى : سافر بشرط التزام الأوامر التى أصدرتها .

وبقينا حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً بدون أي اتصال بالثورة. . وكان كل الوزراء قد توافدوا على قاعة مجلس الوزراء. . وكان الموقف لا يزال غامضاً بالنسبة للجميع.

واقترحت أن اتصل باللواء محمد نجيب كمحاولة أخيرة لتحديد الموقف. فطلبته في القيادة.

وقلت له: خلينا نتكلم بصراحة وبدون كلفة. إحنا عاوزين نعالج الموقف للمصلحة العامة. نريد أن نعرف مطالب الثورة وموقفها من الحكومة المسئولة.

وكان الرد أن الثورة لها اعتراض على شخصين في الوزارة هما اسماعيل شيرين وزير الحربية ومرتضى المراغي وزير الداخلية. . والثورة تفضل وزارة يرضى عنها الجميع ولا تظهر أنها متحيزة لفريق ضد فريق. وأن الاختيار للوزارة الجديدة متجه إلى علي ماهر. .

وانتهت المكالمة وقال نجيب الهلالي للوزراء: الموقف أصبح واضحاً. وما يجب أن نعمله هو الاستقالة.

وبدأ نجيب الهلالي يكتب خطاب الاستقالة. واقترح بعض الوزراء أن ينص في خطاب الاستقالة على أنّ الوزارة تقدم إستقالتها على الرغم من أن أهدافها هي نفس الأهداف التي قامت من أجلها ثورة الجيش. ولكن الهلالي رفض ذلك وفضل أن تكتب الاستقالة عادية، حتى لا يفسر موقف الوزارة على أنه: مع أو ضد «الحركة».

ثم اتصلت تليفونياً بمرتضى المراغي في القاهرة، وكان قد اتخذ مكتب وزير الحربية مقراً له.

وسألته عن تطور الموقف في القاهرة فقال أنه على اتصال بقيادة الثورة في مبنى قيادة القوات المسلحة. وأنه يطلب إليهم الحضور الى مكتبه، وهم يطلبون إليه الحضور اليهم. وأن المفاوضات لا تزال مستمرة.

فأبلغته باسم نجيب الهلالي أن الوزارة قدمت استقالتها، وأنه لا داعي لمتابعة الاتصال، وأنه مطلوب منه أن يحضر إلى الاسكندرية.

والواقع أننا طلبنا منه الحضور خوفاً عليه من الاعتقال.

ولكن اتضح لنا فيما بعد أنّ كل الاجراءات التي اتخذها مرتضى المراغي، كان يقوم بها بالاتفاق مع القصر دون إخطار الوزارة بها. وكان دائم الاتصال بالقصر بعد كل خطوة يخطوها.

وحوالي الظهر توجه نجيب الهلالي الى قصر المنتزه لمقابلة الملك.

* * *

واستقبله فاروق مرتدياً عباءة حمراء، وكان بادىء الاضطراب والارتباك.

وشرح نجيب الهلالي للملك كل ما دار منذ العاشرة والنصف من المساء، حتى قررت الوزارة تقديم استقالتها.

وقال له: أنني أنصح جلالتك أن تتجنب أمرين: الاتصال بالانجليز أو بالأمريكان وأرجو أن تتذكر مأساة توفيق.

فأجاب الملك بأن مستر كافري السفير الأمريكي اتصل به فعلاً ولكنه رد عليه بأن الحركة بسيطة وسيقضى عليها في وقت قريب.

ثم سأل الملك نجيب الهلالي: من ترشح لرياسة الوزارة؟

فأجاب الهلالي: أعتقد أن الثورة اتفقت فعلاً مع علي ماهر ليرأس الوزارة الجديدة.

فقال الملك: مستحيل..

فسأله الهلالي: لماذا؟

فقال الملك: لقد اتصل علي ماهر تليفونياً بالقصر، وطلب أن يتحدث

الي مباشرة، فتحدثت اليه وقال لي بالنص «ان بعض ضباط الجيش زاروه في منزله الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وطلبوا اليه أن يؤلف الوزارة ولكنّه رفض وطردهم من منزله وقال لهم أنه لا يقبل تكليفاً بتشكيل الوزارة إلا من سيد البلاد». .

فقال الهلالي: تأكد يا جلالة الملك أن علي ماهر بدأ اختيار وزرائه فعلاً. .

فقال الملك: مستحيل. . أنا أعرف علي ماهر من زمان. .

فقال الهلالي: تأكد مما أقول. وأنا أعرف منك بعلي ماهر. وهذا هو أسلوبه.

ونصح نجيب الهلالي الملك في هذه المقابلة بأن يتنازل عن العرش لطفله مع تأليف مجلس وصاية.

وانتهت المقابلة بعد ثلث ساعة. وعاد نجيب الهلالي الى دار الوزارة في بولكلي وأبلغ الوزارة بأن استقالة الوزراء قبلت وأن الملك كلف علي ماهر بتأليف الوزارة الجديدة.

وطلب الهلالي من حافظ عفيفي أن يتصل بعلي ماهر، ويكلفه بتأليف الوزارة وكان حافظ عفيفي ينتظر الهلالي في بولكلي.

واتصل حافظ عفيفي بعلي ماهر تليفونياً. فرد عليه علي ماهر بجفاء وقال انه لم ينته بعد من تأليف الوزارة. وطلب اليه أن يعاود التحدث معه بعد ساعة ليملي عليه أسماء الوزراء .

وبعد ساعة طلبه حافظ عفيفي. . فرد علي ماهر بأن مشاوراته لا تزال مستمرة. وطلب اليه أن يتصل به مرة أخرى في الخامسة مساء. وطلبه حافظ عفيفي في الخامسة مساء وقال له: الموقف خطير ويستدعي السرعة من رفعتك. .

فقال علي ماهر: على كل حال. . الموقف في يدي. وأنا بكرة جاي ومعي أسماء الوزراء.

واستمر الوزراء «السابقون» مجتمعين مع نجيب الهلالي حتى السابعة مساء. وخشوا أن يكون مرتضى المراغي قد اعتقل. وكان انتظارهم من أجله. ثم عرفوا أن المراغي وصل الى منزله في الاسكندرية. قادماً في سيارته بالطريق الزراعي.

وانتهت رواية الأستاذ زعلوك.

* * *

وكان الشعب منذ الصباح الباكر يتجمع في كل شوارع وميادين القاهرة والاسكندرية يصفق ويهلل. ويتكتل حول أجهزة الراديو في القاهرة وحول أكشاك السجائر. . ليستمع الى بيان الثورة ويهتف للجيش. .

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٣ يوليو استدعى الفريق محمد حيدر كبار ضباط الجيش في الاسكندرية وقال لهم:

ـ كل واحد منكم مسئول عن قطاعه. إن ما حدث في القاهرة من بعض الضباط هو مجرد زوبعة في فنجان.

وعاد كبار الضباط الى مكاتبهم في معسكرات الاسكندرية. . واستطاع الضباط الشبان اعتقالهم في نفس المعسكرات. .

وقرر الضباط الأحرار في الاسكندرية اعتقال حيدر باشا، واتصل احدهم بفندق سان ستيفانو تليفونياً وطلب التحدث اليه، ولما سئل من هو؟ قال: أنا حفني محمود.

فأمسك محمد حيدر بالسماعة. ليتحدث إلى من تصور أنه حفني محمود.

وأقفل الضابط السماعة على الفور. فقد كان المقصود التأكد من وجود حيدر في الفندق. وبعد دقائق وصلت سيارة عسكرية الى فندق سان ستيفانو وتم اعتقال حيدر.

وكانت كل معسكرات الجيش في الاسكندرية قد أعلنت تأييدها للثورة واستولى على زمامها الضباط الأحرار. وكانت تعليمات جمال عبد الناصر: كل

شيء يجب أن يتم بهدوء دون إراقة دماء. ودون عمليات استفزازية.

وكان الضابط المكلف بتنفيذ التعليمات من جمال عبد الناصر قبل اعلان الثورة هو أحمد حمروش.

* * *

وقررت العودة الى القاهرة..

وقصدت في الصباح المبكر (٢٤ يوليو) إلى فيلا علي ماهر بالجيزة. كانت السابعة صباحاً. رأيت ابراهيم عبد الوهاب. كان حذراً معي لأول مرة. كل ما قاله لي أن رفعة الباشا ذاهب الآن الى الاسكندرية لمقابلة الملك. اسرعت إلى محطة القاهرة. ركبت القطار الخاص الذي ركب فيه علي ماهر مع عدد من ضباط الجيش، وكان معه من الوزراء ابراهيم عبد الوهاب، وسعد اللبان، وزهير جرانه.

تزاحمت الجماهير في فناء المحطة، وهتفت للجيش في حماسة متدفقة. إنسابت الدموع من عيني علي ماهر.

جلس علي ماهر في القطار، يقرأ المذكرة التي تسلمها من قيادة الثورة، بمطالب الجيش. وكان أولها إخراج جميع رجال الحاشية. وكان علي ماهر يتصور أن الأمر سوف يقتصر على هذا.

وروى علي ماهر أن أنور السادات قصد إليه في منزله أمس، ومعه إحسان عبد القدوس. وطلب منه تشكيل الوزارة.

وروى لي السادات بعد ذلك، أنه لم يكن يعرف عنوان منزل علي ماهر، فاتصل بإحسان عبد القدوس، الذي ذهب معه في السيارة الجيب لهذا الغرض.

وصلنا إلى الاسكندرية، قصد علي ماهر إلى فندق سان ستيفانو. إتصل بالقصر، تحدد موعد لقائه بالملك في الساعة الواحدة بعد الظهر.

زاره في الفندق بعض أقطاب الوفد، الذين قصدوا الى قصر رأس التين

وقيدوا اسماءهم في سجل التشريفات بعد هذه الزيارة. كما زاره ابراهيم عبد الهادي.

وقد بسط لهم علي ماهر مجريات الأمور. وكان محيي الدين فهمي سكرتير عام مجلس الوزراء، وابن عم علي ماهر، قد دعاه وأعضاء الوزارة الجديدة لتناول الغداء في منزله وكان مدعواً أيضاً إدجار جلاد صاحب جريدة الزمان والجورنال ديجيبت.. وكان على صلة طيبة بدوائر القصر. ووجه لي محيي الدين فهمي الدعوة لتناول الغداء معهم..

وعاد علي ماهر من القصر حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر. وانفرد طويلاً بادجار جلاد، وأطلعه على تفصيلات المقابلة قبل الغداء.. وكان ادجار جلاد هو الساعد الأيمن لعلي ماهر منذ عرضت عليه الوزارة..

* * *

وفي الساعة السادسة عقد مجلس الوزراء ودعا علي ماهر مندوبي الصحف ليتلو عليهم بياناً جاء فيه أن جلالة الملك تفضل ووافق على معظم مطالب الجيش.

وعرف وقتئذ أن الملك تمسك بكل من محمد حسن وبوللي.

ثم عاد علي ماهر وطلب من مندوبي الصحف أن يعدلوا هذا التصريح، وان يذكروا أن الملك وافق على جميع مطالب الجيش..

إن الذي حدث بعد ذلك، هو أن الجيش صمم على جميع طلباته.

واتصل علي ماهر بالقصر، وأبلغ الملك ضرورة إقرار جميع المطالب، وخضع الملك.

وجاء حافظ عفيفي في اليوم التالي إلى مكتب علي ماهر، وقدم استقالته وقال له:

ـ رجاء لي يا باشا ألا تعلن استقالتي مع باقي رجال الحاشية الذين طلب الجيش إخراجهم.

وعاد علي ماهر إلى سان ستيفانو لكي يستيقظ في الفجر!

لقد بقيت مرابطاً في بهو الفندق، حتى الصباح، جاءت الأخبار بأن الخطوط التليفونية بين القاهرة والاسكندرية قطعت. ثم أخبار أخرى بأن قوات الجيش تتحرك الى الاسكندرية.. ورأيت علي ماهر يدخل غرفة مدير الفندق، ويحاول الاتصال بالقاهرة.. وهو يردد:

- «لم نتفق على هذا. لم نتفق على هذا»..

وعند الساعة الرابعة صباحاً، استطاع علي ماهر أن يتصل بقيادة الثورة عن طريق ثكنات مصطفى باشا. ولم يعرف شيئاً.

ولم ينم علي ماهر طوال الليل.

وفي تلك الساعات وصلت أنباء جديدة الى السيدة أصيلة والملكة ناريمان. وقيل لهما أن الأمر أبعد من إخراج رجال الحاشية. ولم تصدقا. ولم يصدق فاروق كذلك وقال لهما: لقد أجبت جميع مطالبهم.

وكان يجلس معنا في بهو الفندق، سياسي مستقل هو النائب السابق محمود رشيد «زوج كريمة اسماعيل صدقي».. الذي كان يتكلم بأعلى صوت.. ويؤكد أن الجيش سيعزل الملك عن العرش.. وكنّا بين مصدق ومكذب.

٢٥ يوليو:
حضر أنور السادات لمقابلة علي ماهر في دار الوزارة.

كانت قوات الجيش قد وصلت إلى الاسكندرية وعسكرت في مواقع قريبة من قصر الملك. تكلم أنور السادات مع علي ماهر في مطالب الجيش، ولم يفتح فمه بكلمة واحدة عن المفاجأة الكبرى.

مضى اليوم وفيه رائحة أحداث جديدة غير مفهومة. ولكن علي ماهر كان مطمئناً إلى أن كل شيء يجري على ما يرام.

وسهرنا في فندق سان ستيفانو حتى انبثق نور الصباح. ونحن نتوقع أن حدثاً ضخماً سيقع بين لحظة وأخرى.

وكان الملك أيضاً ساهراً مع زوجته ووالدتها وأقاربها في قصر رأس التين. لقد انتقل من قصر المنتزه ليتحصن ضد مفاجآت الثورة.

٢٦ يوليو:

الملك يتصل تليفونياً بعلي ماهر في سان ستيفانو في الثامنة صباحاً ويسأله: هم عاوزين ايه.. فيه ضرب نار.

علي ماهر يسرع إلى رأس التين، وينجح في وقف اطلاق النار من القوات المحاصرة للقصر.

لقد انطلقت رصاصة من القصر فردّت عليها قوات الجيش على الفور.

علي ماهر يعود إلى الرياسة، ويفاجأ بطلب من قيادة الثورة بعزل الملك على أن يغادر البلاد قبل السادسة من المساء.

السنهوري يكتب صيغة التنازل. سليمان حافظ يحصل على توقيع الملك.

السفير الأمريكي يرجو تأمين حياة الملك.

علي ماهر يطلب وداعاً رسمياً للملك. ويرفض طلب رجال الصحافة أن يشهدوا اللحظات الأخيرة.

* * *

وهدرت شوارع الاسكندرية منذ الصباح، بكتل الشعب التي أخذت تتجمع وتلتقي عند الفناء الفسيح أمام قصر رأس التين. عشت هذه الساعات التاريخية بين الجماهير ومعي زميله صحفية من «الأخبار»..

وبدا القصر من بعيد. بدا في بنائه كقلعة من قلاع القرون الوسطى وكان يمتد أمامه طريق طويل يسير هابطاً من المرتفع حتى مشارف شارع الكورنيش التي حصنت في دوائر كبيرة بجنود الجيش والدبابات. والمدافع. وكان الطريق الطويل خالياً تماماً إلا من ثلاث سيارات طوته صاعدة على عجل. وكان كل من فيها، صامتين. رئيس الوزراء. ثم السفير الأمريكي ثم الأميرتان فايزة وفوزية. واختفت السيارات الثلاث بمن فيها داخل القلعة.

وبدت نوافذ سور القلعة المرتفع . . بدت نوافذه الصغيرة خالية إلا من وجه أو وجهين يرقبان جموع الشعب الثائر الصاخب الصائح ، ووراء حصار الجند والدبابات والمدافع مصوبة فوهاتها إلى الحصن المنهار.

رجال وكهول ونساء وأطفال. آلاف تندفع وراء آلاف ، تجمع بينهم وجوه مهللة ، وصرخات مدوية ، وهتافات ترعد أصداؤها في الفضاء . .

كانوا لا يرون شيئاً مما يجرى وراء سور القلعة الرهيبة . ولكنهم رأوا عند الساعة السادسة تماماً ، العلم الأخضر الكبير ، الذي كان يرتفع فوق أعلى مكان في قلعة الملك . رأوا هذا العلم ، ينسلخ من ساريته ، ويهبط رويداً رويداً حتى يختفي .

فعرفوا أن الطاغية قد ذهب .

فإذا بكل هذه الآلاف ، تقفز فوق أرض الطريق ، وكأن موجة عنيفة قد رفعتها ، ثم تضرب الأرض بأقدامها . سريعاً . سريعاً . وتعود وتقفز ثم تدب على الأرض . وتهتز وتهلل . وتصيح إلى الجحيم . إلى الفناء . إلى الموت . .

* * *

وانتهى عهد فاروق . .

* * *

وحوالي الساعة الثامنة مساء . . كنت في مكتب أخبار اليوم بالاسكندرية ، اكتب قصة هذه اللحظات المثيرة . . وأمليتها بالتليفون . وتلقاها مني جلال الدين الحمامصي .

الفصل التاسع

علب حلوى من الذهب..
في فرح ابنة الباقوري!

طلبت «الحاج» أنور في ثكنات مصطفى باشا بالاسكندرية ـ الافراج عن مصطفى أمين وعلي أمين بعد التهمة الكاذبة ـ نشر صورتي لأول مرة في الصفحة الأولى لأخبار اليوم مع السادات يوم عزل الملك ـ رحلة علي ماهر إلى مرسي مطروح ـ اخراجه من الوزارة ـ اعلان أسماء أعضاء مجلس الثورة ـ محاكمات خميس في كفر الدوار والحكم باعدامه ـ كيف ترافعت دفاعاً عن خميس ـ لقاء مع محمد نجيب لإعفاء خميس من الإعدام ـ الحكم قرار سياسي ـ تعييني نائباً لرئيس تحرير الأخبار ـ مصطفى أمين يبعد هيكل عن آخر ساعة ـ استقالتي من أخبار اليوم ـ مصطفى أمين يسوي الموقف بيني وبين هيكل ـ سلسلة ملك و ٤ وزارات في آخر ساعة ـ قفل صحيفة المصري ـ مقال تاريخي لأحمد أبو الفتح ـ أنور السادات في أخبار اليوم ـ تعيين أحمد حسين سفيراً فوق العادة في أمريكا ـ غداء من الكباب والطعمية في الأزهر ـ بين الباقوري والقس ابراهيم سعيد ـ عبد الناصر يبكي أمام الباقوري ـ الوقيعة بين الباقوري وعبد الناصر ـ حملة تشهير ضد الباقوري ـ استجوابي مع مصطفى وعلي أمين في السجن الحربي ـ اختياري رئيساً لتحرير «الجيل».

الفصل التاسع

علب حلوى من الذهب..
في فرح ابنة الباقوري!

كان أول اتصال لي بالثورة، حديثاً تليفونياً مع أنور السادات، وهو في ثكنات الجيش بمصطفى باشا بالاسكندرية..

كان قد قبض على مصطفى أمين وعلى أمين، لم نكن نعرف الأسباب، ثم قيل أن الاتهام هو اتصال تليفوني جرى بين علي أمين في القاهرة، ووزارة الخارجية البريطانية، وأن صحفياً بجريدة «المصري» تقدم بهذا البلاغ ضدهما.

وتلقيت مكالمة تليفونية من الاستاذ محمد التابعي في القاهرة، يطلب مني أن أتصل بأنور السادات، لكي أنقل إليه رجاءه في ضرورة الافراج عن التوأمين.

وعلمت أن ضباط الثورة مجتمعون في ثكنات الجيش بمصطفى باشا. وطلبت رقم التليفون الموجود في دفتر التليفون، وطلبت ممن رد على أنني أريد التحدث مع أنور السادات، وبعد لحظات كنت أستمع إلى صوته.

أبلغته رجاء الاستاذ التابعي، بعد السلامات والتحيات، وحدثته باللقب الذي تعودنا أن نتحدث به إليه في معتقل الزيتون: «يا حاج»..

وكان رد أنور السادات، أن هذا الموضوع سيفصل فيه خلال وقت قصير جداً. وأن الثورة لن تظلم أحداً.

واتضح لي بعد ذلك، أن قيادات الثورة كانت مجتمعة لاتخاذ قرار بشأن الملك فاروق، عزله أو محاكمته والحكم عليه بالإعدام. وكان جمال سالم داعياً إلى إعدامه. ولكن انتصر رأي جمال عبد الناصر وهو الاكتفاء بعزله.

وفي صباح اليوم التالي، حضر أنور السادات إلى مجلس الوزراء في بولكلي، وسألته عن قضية مصطفى أمين وعلي أمين. فأعلن أنه ثبتت براءتهما مما نسب إليهما، وأنه سيصدر بياناً بذلك، يتضمن الاعتذار لهما. .

ونشرت «أخبار اليوم» صورتي وأنا أتحدث إلى السادات في الصفحة الأولى. . وكنت سعيداً بذلك، لأنه يحدث لي لأول مرة في حياتي!

وقرر علي ماهر السفر إلى مرسي مطروح للاجتماع بضباط الجيش هناك. . واختارني للسفر معه. وسافر معي المصور حسن دياب (الذي أصبح فيما بعد المصور الخاص للرئيس جمال عبد الناصر). .

ومررنا في الطريق إلى مطروح، على استراحة لفاروق. . ودخلنا هذه الاستراحة، وتفقدنا حجراتها، وكانت بسيطة من دورين. . ورقدت على سرير فاروق، وطلبت من حسن دياب أن يلتقط لي صورة تذكارية. .

وقال لي علي ماهر: ها أنت ترى أنها استراحة بسيطة جداً. . فلا داعي للمبالغات غير الصحيحة في النشر. .

ووصلنا إلى مطروح، حيث كانت ترابط هناك فرقة من الجيش. . واجتمع بهم علي ماهر. . ودهشت أنه كان يتحدث عن تحديد الملكية الزراعية ـ وهو أول مشروعات الثورة ـ بأسلوب من يريد من الضباط أن يعترضوا على هذا المشروع، بحجة المحافظة على الثروة الزراعية وعدم تفتيتها!

وكان علي ماهر قد دعا عدداً من كبار ملاك الزراعيين إلى اجتماع في مبنى مجلس الوزراء بالقاهرة لكي يناقشوا القانون الجديد. . وكان واضحاً بطبيعة الحال أنهم ضد القانون الذي يسلبهم ما يملكون. .

وأدركت أن خلافاً كبيراً يقوم بين علي ماهر وقيادات الثورة. . وأن حكومته لن تعمّر طويلاً. . وقد كان. وخرج علي ماهر من الحكم، وتولى جمال عبد الناصر رياسة الوزارة. .

وقد كنا لا نعرف أسماء أعضاء مجلس الثورة، وكان ذلك ممنوعاً من النشر، ولكنهم حضروا إلى «أخبار اليوم» وعقدوا مؤتمراً صحفياً مع المراسلين

الأجانب، ردّدوا فيه قصة الثورة.. وعرفنا أسماءهم ووجوههم. واستطاع مصطفى أمين أن يحصل على تصريح من جمال عبد الناصر، بنشر أسماء أعضاء مجلس الثورة، ونبذة عن حياتهم، وتحليل شخصياتهم..

ثم فجأة وقعت أحداث في مصانع النسيج في كفر الدوار. لقد تظاهر العمال، وحرقوا جزءاً من المصنع، كما أطلق الرصاص، ووقع عدد من الضحايا..

وكلفني مصطفى أمين أن أسافر على الفور إلى الاسكندرية، ومعي عدد من المحررين كان ألمعهم عبد السلام داود.. لمتابعة هذه الأحداث..

ووصلنا إلى «كفر الدوار» ودخلنا إلى موقع الأحداث بتصريح خاص، فقد كانت المنطقة كلها محاصرة، ومنع الدخول فيها.. كان ذلك في الرابعة مساء.. وقيل لنا أن محاكمة المقبوض عليهم، سوف تبدأ في التاسعة مساء!

وحضر علي ماهر، وتفقد الموقع.. ولم يعلق بشيء..

وبدأت المحاكمة في حجرة صغيرة، بمحكمة عسكرية رأسها عبد المنعم أمين عضو مجلس الثورة، وكان حسن ابراهيم عضو المجلس من بين أعضائها.. ومثل الادعاء العسكري «مراد».. ولم يسمح لأحد بالحضور سوى الصحفيين، وكان عبد المنعم الصاوي (وزير الاعلام والثقافة بعد ذلك) يمثل صحيفة المصري..

وأحضروا المتهم الأول واسمه «خميس».. وهو شاب دون الخامسة والعشرين، أبيض البشرة أصفر الشعر، هادىء الأعصاب.

وتلي الاتهام.. وسأل رئيس المحكمة، المتهم:
ـ هل لديك محام؟..

المتهم: لقد حوصر المصنع، ومنع الاتصال مع أي شخص من الخارج.. فكيف أحضر محامياً..

الرئيس: يمكن للمحكمة أن تختار لك محامياً عسكرياً.. هل تقبل.
المتهم: لا...

وهنا وقف عبد المنعم الصاوي، وقال للمحكمة:
ـ أن من بين زملائنا الصحفيين، محام، هو موسى صبري..

وسألني رئيس المحكمة:
ـ هل تقبل الدفاع عن المتهم؟..

وأجبت:
ـ أقبل في حالة واحدة.. إذا هو قبل. وأرجو إتاحة الفرصة لي للاجتماع به..

ورفعت الجلسة، وانفردت بالمتهم في حجرة جانبية.. وحاورته لكي أؤكد له، أن من حقه أن يرفض إذا لم يكن يثق بي، كما أكدت له أنني سأكون محاميه الحافظ لأسراره. وأنني لن أبيع ضميري بأي ثمن..

واطمأن خميس، وعدنا إلى قاعة الجلسة الصغيرة، وأعلن خميس موافقته.

وبدأت المحكمة تستدعي الشهود، وكلهم من رجال الأمن، وشهدوا جميعاً، بأنهم رأوا المتهم محمولاً على الأعناق، يهتف هتافات عدائية، ويقود المظاهرات.. حتى وقع الاشتباك وأطلق الرصاص ووقع الضحايا..

وقد وجهت سؤالاً واحداً إلى كل الشهود:
ـ هل تم القبض على المتهم قبل اطلاق الرصاص أو بعده..

وكانت اجابتهم جميعاً:
ـ قبل اطلاق الرصاص.

واكتفيت بهذا السؤال، وكانت اجابتهم تعني أنه بريء من تهمة القتل، وبذلك يفلت من عقوبة الاعدام.

وانتهت الجلسة الأولى في ساعة متأخرة من الليل، وأمضينا ليلتنا في مباني استراحة الشركة..

وبدأت الجلسة الثانية.. باستجواب شهود آخرين..

وإذا بهم يشهدون، بأن القبض على المتهم جرى بعد اطلاق الرصاص!

وقـال لي جلال نـدا، وهو من ضبـاط الجيش المؤيدين للثـورة، أن هـذه الأقوال الجديدة، رتبت مع الشهود الجدد، لمحو آثار شهادات الأمس. .

ثم كانت مرافعة الادعاء الذي طالب بأقصى العقوبة. .

وخلال ذلك كله، حاولت أن أحصل من خميس على كلمة واحدة، تفسر موقفه. . ولكنه لم يفه لي بحرف واحد، واكتفى بالإنكار فقط. .

وبـدأت مرافعتي. . وركـزت على أقـوال الشهود في الجلسة الأولى، عن القبض عـلى خميس قبل إطـلاق الـرصـاص. . ثم تحـدثت طـويـلاً. . عمن هم أصحـاب المصلحـة في التـظاهـر ضـد الثـورة؟. . ليسـوا هم العـمال. ولكنهم الباشوات والرأسماليون الذيـن يديرون هذا المصنـع. . والذيـن جاءت الثـورة، لكي تنتزع منهم حقوق العمال. . أسألوا الياس انـدراوس وأمثالـه، ولا تسألـوا خميس.

ولكن صدر الحكم باعدام خميس.
ولم أحضر محاكمة زميله البقري.

وقررت أن أقدم لـرئيس الجمهوريـة اللواء محمد نجيب، التـماساً بـاعادة النظر في الحكم، وإعفائه من عقوبة الاعدام.

ولجأت إلى زميلي المحامي النابه سامي فهمي منقريوس الـذي كان يعمـل في مكتب سابا حبشي باشا. . وكتب الالتماس. .

وعدت من الاسكندريـة، في نفس القطار الـذي نقل فيـه خميس، مقيداً بالاغلال، وقدمت الالتماس إلى الرئيس محمد نجيب.

وطلب محمـــد نجيب من المتهم أن يتكلم بـأي شيء؟. . أن يـــذكـر أي واقعة يمكنه أن يستنـد إليها، لكي ينقـذ رقبته من حبـل المشنقة. . ولكن خميس ظل صامتاً!! وكان ذلك في مكتب اللواء نجيب برياسة مجلس الوزراء.

وهكذا نفذ حكم الاعدام .

وجـرت السنوات بعـد ذلك. وكتب زميلنـا الماركسي أحمـد حمـروش، أن مصطفى خميس كان عضواً في تنظيم شيوعي. .

وقد لاحظت أن كثيراً من الباحثين الأجانب، قد حضروا إلى القاهرة على مدى سنوات، لكي يحققوا موضوع إعدام خميس. . ولاحظت أنهم من اليساريين. مما زاد يقيني أن مظاهرات كفر الدوار دبّرها الشيوعيون الذين كان لهم موقف مضاد من ثورة ٢٣ يوليو. . ويتهمونها بأنها حركة برجوازية لصالح الامبريالية الأمريكية!. . وتطورت الأمور بعد ذلك بسنوات، وتحالفت التنظيمات الشيوعية مع جمال عبد الناصر، وحلّت نفسها، وعملت في تنظيم الاتحاد الاشتراكي. . وكان منهم من يشكلون التنظيم الطليعي السري للاتحاد الاشتراكي!! ثم تولوا مناصب عامة في أجهزة الاعلام. . في الصحافة والاذاعة والتليفزيون.

وحدث في يناير عام ١٩٥٣، أن التقيت مصادفة بعضو مجلس الثورة عبد المنعم أمين في سان فرانسيسكو. وكان قد أبعد عن مصر، وعيّن سفيراً في بون، ثم أخرج من منصبه، فقام بجولة في أمريكا. . كإجازة. وسألته: لماذا حكمتم بالاعدام على خميس؟. . وقال لي أن مجلس الثورة، قرر هذا الحكم السياسي، حتى يكون عبرة لباقي العمال. . وخاصة أن الثورة كانت في أول أشهرها ولم تكن قد ثبّتت أقدامها بعد.

* * *

جاءت الثورة وكانت صحيفة «الأخبار» اليومية قد صدرت في ابريل من نفس العام. . أي قبل قيام الثورة بحوالي أربعة أشهر. .

ورأى مصطفى وعلي أمين أن تضم الصحيفة اليومية الجديدة، أكبر الأسماء الصحفية، ورأينا لأول مرة الكاتب الكبير محمد توفيق دياب في أخبار اليوم، وقد كان اسماً كبيراً في الساحة الحزبية، وكان صاحب جريدة يومية باسم «الجهاد». . وله سجلات سياسية معروفة، تعتمد على البراعة اللغوية. . وجعلوه مشرفاً على القسم الخارجي، لإجادته للغة الانجليزية. . ولكنه لم يستمر طويلاً. واختير جلال الحمامصي، رئيساً تنفيذياً للتحرير. . واخترت أنا وعلي حمدي الجمال نائبان لرئيس التحرير التنفيذي، وعلينا مسئولية إصدار الجريدة، وكنا نتناوب السهر حتى الطبعة الأخيرة ثلاثة أيام لكل منا. .

وعيّن في مناسبة إصدار الجريدة اليومية، محمد حسنين هيكل رئيساً

لتحرير آخر ساعة. وقد تمّ التعيين بناء على اقتراح من هنري توفيق بحري سكرتير تحرير آخر ساعة، لكل من مصطفى وعلي أمين.

وقد تكتل محررو آخر ساعة قبل ذلك، لعزل هيكل من آخر ساعة عندما كان نائباً لرئيس التحرير. واجتمعوا مع مصطفى أمين، وقدموا استقالة جماعية، في حالة استمرار هيكل في العمل. وأقرهم مصطفى أمين على وجهة نظرهم، وأصدر قراراً بعزل هيكل.

وكان علي أمين متغيباً في الخارج، وبعد أن عاد ألغى قرار مصطفى أمين في يوم عودته.. واجتمع بمحرري آخر ساعة ورحّب باستقالتهم جميعاً!.. وقال لهم في عصبية وغضب: هيكل سيبقى.. ومن يريد الاستقالة فان الباب أمامه مفتوح!

ولم يستطع مصطفى أمين أن يدافع عن قراره. كان علي أمين يرى في هيكل أكثر من ابنه. وكنت في ذلك الوقت، لا أزال محرراً حديثاً في أخبار اليوم..

ولم أتحمّس للعمل في آخر ساعة كما ذكرت في فصل سابق.. ثم حدث ما جعلني أقدم استقالتي من أخبار اليوم، بسبب موقف لهيكل.

كان معهد الطيران قد وجّه دعوة لتوفيق بحري سكرتير تحرير «آخر ساعة»، ولي، للطيران إلى الغردقة في رحلة تدريبية.. وركبنا طائرات تدريب، لا تتسع إلا لقائدها، ولشخص واحد فقط.. وكانت مجازفة خطيرة. وأمضينا ليلتين في الغردقة، وعدنا إلى القاهرة على نفس الطائرات. والتقط بحري صوراً عديدة. ثم جاء إلى مكتبي، وقال لي أنه يريد نشر موضوع عن هذه الرحلة. وطلب مني أن أكتب هذا الموضوع، ثم ينقله هو بخطه لكي ينشر. ولما سألته لماذا؟.. قال لي: «إن هيكل لن ينشر الموضوع، لو كان بخطك»...

وكتبت الموضوع، ونقله بحري، ونشر التحقيق المصوّر. وقدمت استقالتي إلى مصطفى أمين يوم صدور آخر ساعة.. وذكرت الأسباب. واضطر بحري إلى الانكار. ودعاني مصطفى أمين إلى مكتبه، حيث وجدت هيكل..

وقال مصطفى أمين انه لا يريد الدخول في تفصيلات أسباب الاستقالة. . ولكنه يدعونا إلى أن نمدّ أيدينا. ونبدأ صفحة جديدة. .

وقال: الذي يحب أخبار اليوم أكثر. . يمدّ يده أولاً.
وانتهت الأزمة شكلاً. . ولكن بقي ما في النفوس. . كما هو.
وسافر هيكل بعد الثورة في رحلة إلى الخارج.

وأشرف كامل الشناوي في غيابه على آخر ساعة. . وقدمت له سلسلة تحقيقات، جمعتها في كتاب بعنوان «قصة ملك و ٤ وزارات» وهي تروي الأحداث السياسية التي عايشتها منذ حريق القاهرة في ٢٦ يناير، حتى قيام الثورة في ٢٣ يوليو. . وقرر أن تنشر في صفحتي الوسط. . وفاجأني بأن وضع عليها اسمي مسبوقاً بـ «قلم». . وكانت هذه قمة التقدير الصحفي. .

ونشرت ثماني حلقات من هذه التحقيقات وهيكل في الخارج، وأرسل لي من الخارج رسالة يهنئني فيها عليها. . ولكنه عندما عاد، غير موضع نشرها من صفحتي الوسط!

حدث هذا وأنا أباشر مسئوليتي نائباً لرئيس تحرير الأخبار. .

وقد صدرت «الأخبار» بتوزيع ضعيف لعله لم يتجاوز ٢٤ ألف نسخة. . ثم قفز التوزيع. بعد أن أغلقت الثورة صحيفة «المصري». . وكانت أوسع الصحف اليومية إنتشاراً. .

كان المفروض أن «المصري» هي لسان حال حزب الوفد. . ولكن رياسة أحمد أبو الفتح لتحريرها ، اتجه بها إلى الدفاع على الحريات . . ومهاجمة سياسة فؤاد سراج الدين الذي كان مسيطراً على الحزب، والحكومة، ومجلس النواب، وفكر مصطفى النحاس. وحقّق ذلك للصحيفة رواجاً كبيراً، وخاصة بعد وقوفها ضد التشريعات المقيدة لحرية الصحافة، حماية لمباذل الملك، التي قدمها النائب اسطفان باسيلي. بإيعاز من فؤاد سراج الدين، ونجحت صحيفة المصري، مع الطليعة الوفدية. في إسقاط هذه التشريعات، قبل أن ترى النور.

وكتب أحمد أبو الفتح مقالاً تاريخياً عن هذه التشريعات، يجدر أن أسجّله في هذه الذكريات.

كتب بعنوان:

«أيها الباكون على الديمقراطية».

«يقال أن الغرض من هذه التشريعات الجديدة، هو حماية الديمقـراطية.. فيـا أيها البـاكون عـلى الديمقـراطية، إن الـديمقراطيـة تستنكر وسـائلكم. فهذه الوسائل هي الحصن الحصين للشيوعية ومبادئها. وهي الوسائل الفعالـة، لإثارة البغضاء والكراهية ضد القوانين.

أيها الباكون على الديمقراطية.

هل تجولتم في القرى، ودرستم حال السـواد الأعظم من الشعب، ورأيتم كيف يبحث عن الخبز فلا يجده.. ويتلمس الدفء من بـرد الشتاء القـارس فلا يجده. وهل عرفتم كيف تهد الأمراض بدنه، حتى صيرتـه هياكـل متحركـة، لا تجد دواء، ولا تجد حتى الأسمال تستر بها أبدانها.

أيها الباكون على الديمقراطية.

هـل عـرفتم عـدد المتعـطلين من أبنـاء مصر، وكم أسرة تبيت عـلى الطوى؟.. هل فكـرتم كم يبلغ عدد صرعى السـل في كل عـام. وهل رأيتم ألوف المصابين بهذا الداء الوبيل الذين تلفظهم المستشفيات لعدم توافـر الأماكن لاستقبالهم؟

* * *

ثم يقول أحمد أبو الفتح:

هل تجولتم بعد منتصف الليل في أرجاء العاصمة، وفي مدن مصر كلها، ورأيتم تلك الكتل البشرية، التي تفترش الشوارع والأزقة وقد تجرّدت أجسادهم الهزيلة مما يسترها، وخوت بطونهم مما يسد الرمق؟..

هل رأيتم كل هذا، مما يملأ الصفحات من صنوف الذل والهوان، والجوع والحرمان، والمرض واليأس التي يعانيها السواد الأعظم من الشعب.

هل رأيتم هذا كله، أيها الباكون على الديمقراطية. . أم أنتم عنه في غفلة. . وإذا كنتم قد رأيتم. . فأين أنتم؟

أين البرامج المدروسة، وقد أخذت بها كل الدول إلا مصر؟
أين مشاريع التأميم الكبرى، وقد نفذتها كل الدول إلا مصر؟
أين الاشتراكية الحقة، وقد اعتنقتها كل الدول إلا مصر؟
أيها الباكون على الديمقراطية.

إن في الحياة المنحطة التي فرضت على الشعب، تكمن الشيوعية، وفي الخوف والمرض والجوع تترعرع مبادئها.

إن في تشريعاتكم، وقوانينكم، وسجونكم تجد الشيوعية المرتع الخصب.

فإذا كانت هذه وسائلكم في مكافحة الشيوعية، فليطمئن كل داعية إليها، وليقبع في داره. فليست الشيوعية في حاجة إلى من ينشر مبادئها، ما دمتم موجودين تشرعون التشريعات وتسنون القوانين.

* * *

وختم أحمد أبو الفتح مقاله التاريخي بقوله:

«إن منطق هؤلاء المشرعين، هو أنه لا حول ولا قوة إلا بالقوانين والسجون. وهم لا يعلمون أن سجون مصر جميعاً، لن تكفي الساخطين الثائرين. . وهم لا يعلمون أنهم لو فتحوا في كل حي، وفي كل قرية، بل وفي كل حارة وزقاق سجناً . . فإنهم لن يستطيعوا أن يوقفوا ثورة الجوع والحرمان واليأس».

* * *

وكانت «أخبار اليوم» مستمرة في حملتها العنيفة ضد حكم الوفد. . وقد تعرضت دار أخبار اليوم لعدوان إرهابي، من حزب الوفد، عندما اتجهت إليها المظاهرات، وحطمت نوافذها وأبوابها الزجاجية. . وأطلق الرصاص، وتوفى أحد الأشخاص، وخرج عمال أخبار اليوم ومحرروها يدافعون عنها. . وكان موقفاً رائعاً يعبّر عن وحدة الأسرة في أخبار اليوم.

كـانت معارضـة أخبار اليـوم لحكومـة الوفـد، وسلوك فؤاد سراج الـدين ساخنة. . وعندما احترقت القاهرة في ٢٦ ينايـر ١٩٥٢، كشفت «أخبار اليـوم» عن أن فؤاد سراج الـدين ترك مكتبـه، وانشغل في تـوقيـع عقـد شراء عمـارة. وكانت التحقيقات التي تنشرها أخبار اليوم عن حريق القاهرة متجهة إلى تحميل سراج الدين مسئولية حريق القاهرة. .

وعلى الرغم من أن أخبار اليوم نشرت العـديد من التحقيقـات والأخبار، ضـد فاروق والأسر المـالكة. . ممـا دعا الحكـومة إلى مصـادرتها أكـثر من مرة. . ولكنها ـ ولسبب لا أدريه ـ ساندت الملك فاروق عندما قامت حركة الفدائيين في منطقة القناة. . ونشرت أنه صاحب تبرّع للفدائيين بثلاث آلاف جنيه، قـدمت إليهم من «مجهـول». . وذلك بعـد إلغاء المعـاهدة المصريـة البريـطانية. وبـداية حركة الفدائيين في منطقة القناة.

المهم. . قامت الثورة. .

وكانت لي صلة سابقة بأنور السادات كما قلت. .

ولكنني لم أسـع إلى عقد صـلات مع قيـادات الثورة العسكـريـة. . لقـد اكتفيت بصلتي بالمدنيـين المشتركـين في أول وزارات الثورة. . الشيـخ الباقـوري وحسين أبو زيد، والدكتور نور الدين طراف، وفتحي رضوان. .

وكنت أرى أنور السادات متردداً على أخبار اليوم. .

ومرة وجدته في مكتب جلال الحمامصي. . وسألته: لماذا لا تستعـين الثورة بوطني نظيف مثل الدكتور أحمد حسين؟. .

وأجابني السادات مستنكراً: أحمد حسين الأمريكاني!

ولكن حـدث بعد ذلـك، أن طلب جمال عبـد الناصر من الـدكتور أحمـد حسـين أن يكون سفـيراً فوق العـادة لمصر في أمريكـا، في مهمـة محـددة، وهي توثيق العلاقات المصرية الأمـريكية. . وقبـل أحمد حسـين هذه المهمـة بشرط أن يكـون اتصالـه مباشرا بجـمال عبد النـاصر. ولقيت الـدكتـور أحمـد حسـين في واشنـطن عام ١٩٥٣، وكـان ضائقـاً بتدخـل الملحق العسكري وكتـابة تقـارير عنه. . وشكا إلى عبد الناصر الذي نقل الملحق العسكري. . ولكن مهمة أحمـد

حسين تعثرت، بسبب رفض أمريكا مدناً بالأسلحة.. ثم اتجاه عبد الناصر إلى المعسكر الشرقي.. وقدم أحمد حسين استقالته أكثر من مرة.. ورفضها عبد الناصر.. ولكن عبد الناصر استغنى عن خدماته بعد ذلك.. وبقي على صلة طيبة به.. وكان ذلك بعد أن أعلن دالاس سحب تمويل السد العالي.

* * *

ومرة أخرى رأيت السادات في مكتب مصطفى أمين في ساعة متأخرة من الليل، كان عبد الناصر قد أمر بإبعاد ثروت عكاشة من مجلة «التحرير».. وترك ثروت عكاشة «المجلة»، بعد أن أخذ معه المقالات المعدة للنشر.. ولم تكن في المجلة ورقة واحدة.. ولجأ السادات إلى أخبار اليوم.. وقدم له مصطفى أمين مواد تحريرية تكفي عددين من المجلة، لا عدداً واحداً.. وكانت هذه الموضوعات معدة لآخر ساعة والأخبار.. ونفذ هذه العملية العاجلة توفيق بحري.. وصدرت مجلة التحرير في موعدها..

* * *

ومرة ثالثة تناولت مع السادات طعام الغداء، في الأزهر.. بدعوة من الشيخ عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر، وكان معنا الشيخ الباقوري زوج كريمة الشيخ دراز.. وأكلنا من صينية على الأرض الكفتة والكباب والطعمية والفول والمخلل..

ولكنني كنت ألقى الشيخ الباقوري تقريباً كل يوم.. وأعرف منه الأخبار الصحيحة عن مجريات الأمور.. وقد كان للشيخ الباقوري موقف في مجلس الوزراء، ضد اختيار صهره الشيخ دراز شيخاً للجامع الأزهر، تجرد فيه من عاطفته الشخصية.. مما أغضب الشيخ دراز وسبب للباقوري مشكلات عائلية!

وثارت في وقت لاحق، بوادر فتنة طائفية.. وقرر الشيخ الباقوري، أن يخطب في الكنائس، وكان يصحبني معه.. وكانت خطبه قمة في الدعوة إلى تآخي الأديان، وله عن التعصب تعبير مشهور.. كان يقول.. «علينا أن نتعصّب للدين.. لا أن نتعصب في ظل الدين..» وكان يقول أن التعصب

للدين هو انحياز للقيم الرفيعة والمثل العليا . . أما التعصب في ظل الدين، فهو استثمار للدين لتحقيق غايات ذاتية . .

وكان هناك قس مشهور، هو القسّ ابراهيم سعيد راعي الكنيسة البروستانتية . .

وأذكر أنه لم يقدّر المعنى الرائع الذي دفع الباقوري إلى الخطابة في الكنائس . . وقد انتهز فرصة وجود الباقوري في الكنيسة ذات يوم أحد، وألقى ابراهيم سعيد خطاباً عن الخلاف بين المسيحية والاسلام . . ولم يكن موفقاً أبداً. وقد أمضيت يوماً حزيناً بعد هذا الخطاب، ولكن الباقوري لم يتأثّر!

وقد حمل الباقوري لواء السماحة إلى أن مات . . وكان هناك شعور غامض لدى بعض الأقباط، أن عبد الناصر فيه نزعة تعصّب، لأنه لم يختر ضابطاً قبطياً واحداً بين الضباط الأحرار . . ولكنني كمواطن قبطي، لم ألمس هذه النزعة أبداً في سلوك عبد الناصر أو قراراته . . ولو كان كذلك لما سمح للباقوري بالخطابة في الكنائس ولفترات طويلة . .

وحاول الكثيرون الدسّ بين الباقوري وعبد الناصر، منتهزين فرصة محاكمات الأخوان المسلمين، وكان الباقوري يرسل تبرّعات إلى أسر المعتقلين من الأخوان، بالاتفاق مع جمال عبد الناصر.

ويوم تنفيذ حكم الاعدام على أحد قيادات الاخوان المسلمين . . قابلت الباقوري في الظهر، وتناولنا الغداء معاً، وروى لي أن عبد الناصر طلبه في الصباح المبكر، واستقبله في حجرة نومه، بالبيجاما . . كان عبد الناصر في صراع نفسي قاس. وكان يسأل الله أن يكون حكم الاعدام عادلاً. وأخذ يحدث الباقورى طويلاً ، عن أن كل شيء جرى للصالح العام . . وبكى عبد الناصر .

واستطاع الباقورى أن يجفف دموعه ، وأن يخفّف من ألمه . . وكان الباقوري سعيداً بذلك، كل السعادة . .

ولكن دعاة الوقيعة بين الباقوري وعبد الناصر . . نجحوا . .

وبدأت قطيعة بين الرجلين .وفي يوم حفل زفاف ليلى كريمة الباقوري. أخطرت رياسة الجمهورية، الشيخ الباقوري، أن عبد الناصر وقرينته في طريقهما إلى منزله للتهنئة بالزفاف..

ولكن.. انتهى الفرح.. ولم يحضر عبد الناصر..

وفي اليوم التالي، تقرّر إقالة الباقوري من الوزارة، وعينّ كمال رفعت وزيراً للأوقاف، وانطلقت عشرات الاشاعات، التي تشوّه الباقوري..

قالوا إن الباقوري صرف من أموال الأوقاف على ممثلة سينما. وأسرعت إلى الباقوري في منزله استوضحه الأمر، واتضحت الحقيقة. اتصل الدكتور نور الدين طراف وزير الصحة، بصديقه الباقوري وطلب إليه قراراً من أجل الخير. قال له إن حامد عبد العزيز مندوب الأهرام في وزارة الصحة، له ابنة تدرس في جامعة كاليفورنيا بأمريكا. وإنها أصيبت بمرض خطير في صدرها، ووالدها عاجز عن علاجها، لأن التكاليف في أمريكا مرتفعة جداً.. وهو لا يملك في وزارة الصحة أي بند مالي، يعين به هذه الطالبة المصرية، واستجاب الباقوري، وقرر أن يصرف لهذه الطالبة مائتي جنيه، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وأنهت الطالبة دراستها في أمريكا. وجاءت إلى مصر. وأصبحت نجمة سينمائية اسمها لبنى عبد العزيز!.. ولم يلتق بها الباقوري طوال حياته.

كما زعمت الإشاعات أن الباقوري وزع على المدعوين في فرح كريمته، علباً ذهبية للحلوى.. أي أن الفرح تكلف عشرات الألوف.. وهذا كذب. فقد حضرت الفرح وكان آية في البساطة!

هذا نموذج للإشاعات التي أطلقت لتشويه الباقوري، الذي قرر الإعتزال عن الناس، وحدد إقامته بإرادته في بيته في مصر الجديدة، وبنى حجرة في الحديقة أنشأ بها مكتبة، عكف فيها على القراءة.. وكان كل مساء يجلس في الحديقة مع زائر مستمر لم ينقطع عن زيارته قط هو وزير الري المهندس أحمد الشرباصي، الذي استطاع بعد ذلك، أن يصلح ما بين عبد الناصر والباقوري.. وكان لقاء عاطفياً ملتهباً بمشاعر المودة.. وقال عبد الناصر

للباقوري.. «لقد ارتديت ملابسي يوم زفاف ابنتك، وطلبت من زوجتي أن تصحبني.. ثم عدلت في آخر لحظة. وكان ما كان..»

وفي السنة الأولى بعد الثورة، تعرضت لحادث مفاجىء.. وهو استدعائي من قبل رئيس البوليس الحربي، لاستجوابي في واقعة نشرتها في آخر ساعة!

لقد تناولت في سلسلة «قصة ملك و٤ وزارات» أزمة وقعت في وزارة حسين سري مع حزب الأمة السوداني.. وغضب اللواء محمد نجيب، واعتبر النشر مهدداً للعلاقات بين مصر والسودان.. وقال في ثورة انفعال إنه سيشنق مصطفى وعلي أمين في ميدان الأوبرا!.. وأمر بالقبض عليهما، وعلى كاتب الموضوع وهو أنا.. وهذا ما أبلغتني به الزميلة عصمت عبد الجواد، إنها سمعته من اللواء نجيب في بيتها بالجيزة.

حضرت إلى «أخبار اليوم» عند الظهر، وعلمت أن ضابطاً من البوليس الحربي، حضر إلى أخبار اليوم واصطحب معه مصطفى وعلي أمين.. وإنه ترك إشارة لي بالتوجه إلى مقر البوليس الحربي بمجرد حضوري..

وكنت أحتفظ في مكتبي بأوراق، خشيت من تأويل معانيها، إذا عثر عليها.. وأعطيتها لكامل الشناوي قبل التوجه إلى مبنى البوليس الحربي، وأخذها مني كامل الشناوي دون اعتراض، ولكن بقلق بدا من نظرات عينيه..

وفي البوليس الحربي، وجدت التوأمين.. وأخذت أقوالي، وقرر أحمد أنور رئيس البوليس الحربي الإفراج عنا.. وانتهت الأزمة.

ولما عدت إلى أخبار اليوم.. سمعت من كامل الشناوي، ما عبر عن انزعاجه الشديد، لأنني تركت أوراقي معه!

كان في قمة الإرتباك.. حتى اطمأن بعد الإفراج عنا!

وذات يوم.. طلبني مصطفى أمين، وفاجأني بالقول:

ـ لقد اخترناك رئيساً لتحرير «الجيل»!

كانت مجلة «الجيل» مصورة أسبوعية تصدر عن دار أخبار اليوم، وكان

يرأس تحريرها اسماعيل الحبروك الذي استقال من أخبار اليوم، وارتبط بعمل اخر..

وفكرت لحظات قصيرة، وقلت لمصطفى أمين:

ـ موافق.. وأشكرك على هذه الثقة.. ولكن بشرط واحد..

ـ ما هو؟..

ـ أن يكتب اسمك على المجلة، رئيساً للتحرير.. وأن نستثمر هذا في الدعاية للمجلة في أوضاعها الجديدة.. وبعد أن اطمئن إلى زيادة التوزيع.. يكتب اسمي رئيساً للتحرير..

ووافق مصطفى أمين.. وعلمت أن اقتراح تعييني رئيساً للتحرير، جاء من هنري توفيق بحري الذي كان قد اقترح تعيين هيكل رئيسا لتحرير آخر ساعة.

وبدأت العمل رئيساً لتحرير الجيل، علاوة على عملي نائباً لرئيس تحرير الأخبار..

وضعت سياسة للمجلة، ووافق عليها علي أمين.. وهي أن تكون مجلة للشباب، تقدم فيها نماذج التفوق الشبابي في الأدب والفن والرياضة وغير ذلك، بحيث نفرد صفحات لحديث مع بطل رياضي شاب.. أو كاتب قصة شاب حقق فوزاً كبيراً.. وهكذا. كما يكون من سياسة «الجيل» فتح آفاق جديدة للعمل أمام الشباب.. وعلى أن يكون الجانب السياسي محدوداً، وبحيث نكون أميل إلى المعارضة.

وطلبت من علي أمين أن ينقل أحمد رجب من مكتب أخبار اليوم في الإسكندرية، إلى القاهرة، ليعمل معي.. ووافق علي أمين.. ولم يكن يعرف أحمد رجب.

كما طلبت بعد ذلك، بناء على طلب أحمد رجب، تعيين حسن شاه وكانت تتدرب في مكتب الإسكندرية، محررة في المجلة في القاهرة، ووافق علي أمين

واستعنت بمجموعة من الشباب حديثي التخرج من الجامعة.. صافيناز

كاظم. سناء فتح الله. سناء البيسى. انجيل رياض (زوجتي فيما بعد).. عبد المنعم القصاص خريج الفنون الذي أصبح سكرتيراً للتحرير.. أمينة شفيق وكانت لا تزال طالبة بالجامعة الأمريكية وتتمرن في «الجيل».. ومفيدة حلمي (تعمل فى صحف الكويت) واسماعيل يونس ومحمد كامل (عمل بعد ذلك مخرجا بالتلفزيون) وغيرهم..

الفصل العاشر

مغامرات «زهرة الفاكهاني».. وقصص أخرى!

قضية الشيوعية الكبرى - اعتصام الدكتورة درية شفيق في نقابة الصحفيين - زواج ليلى فوزي من أنور وجدي، وزواج ليلى مراد من فطين عبد الوهاب - معركة مقالات مع مصطفى وعلي أمين وكامل الشناوي عن السعادة الشقية! - هجوم على أم الملكة ناريمان دفاعاً عن فريد الأطرش - ناهد رشاد نجمة المجتمع المصري - وصيفة الملكة تعيش في البدروم! - صدام مع أم كلثوم - في عيد ميلاد علي أمين - أزمة مع آمال فهمي - قصة ليلى هي حديث المجتمع - الطفلة يسرية في السويد - حسن شاه تعمل كومسارية أوتوبيس - مفيدة حلمي مربية أطفال - معركة مع الدكتور كامل مرسي نائب رئيس جامعة القاهرة - الشيخ السبكي يتهم عميد الآداب بتحويل الكلية إلى كاباريه - اكتشاف زبيدة ثروت - مشروع اصنعها بنفسك - ظهور الرسام صلاح جاهين - مغامرات صافيناز كاظم في أوروبا وأمريكا - حكاية الشيخ براندو - زواج فاتن حمامة وعمر الشريف ومأساة المنتج السينمائي رمسيس نجيب - اكتشاف المطرب الجديد كمال حسني - الملكة دينا في القاهرة بعد طلاقها من الملك حسين - مغامرة أحمد بهجت وأمينة شفيق في بور سعيد - زواج عبد المنعم القصاص - أحمد بهجت يقدم الشاب الناجح غالي شكري - معركة الإنتخابات ضد مجدي حسنين ودور ليلى دوس - إلقاء البيض والزبالة فوق رأسي في حي المنيرة - نشيد عبد الحليم حافظ - فتحي غانم في «أوبرا ڤينا» بالقميص والبنطلون - رحلة إلى القطب الشمالي. . مذكرات محمد التابعي - ابراهيم شكري يمضي شهر العسل في السجن - السادات وابراهيم المصري - مولد الملحن سيد مكاوي - اكتشاف محمد سالم - هـ ٣ يعيد الشباب - أحمد رجب يفضح النقاد - حوارات مع سلامة

موسى عن وجود الله ـ البحث عن صورة لفايزة أحمد ـ أول لقاء مع عبد الحليم حافظ ـ زواج عبد الوهاب من نهلة القدسى بعد طلاقه من إقبال نصار ـ مفاجآت الزواج والطلاق بين أهل الفن ـ وزير وفدى يبكى أمامى !

الفصل العاشر

مغامرات «زهرة الفكهاني».. وقصص أخرى!

كانت أسرة «الجيل» أسرة مثالية. . كنا مجموعة من الأصدقاء، يصل بينهم عشق للعمل الصحفى ، ونهم إلى السبق ، وحماسة فى الوصول إلى الخبر الجديد، والفكرة المبتكرة، والتفوق.

واهتممنا بالرسائل الخارجية التي تقدم للشباب، تجارب الشعوب الأجنبية ، والصور التى لا نعرفها عن هذا العالم الكبير . كان زغلول السيد يكتب من لندن، واسماعيل الحكيم من موسكو، وممدوح صالح من جنيف، وميشيل داجاتا من روما، ونشأت تغلبي من دمشق، وبديع سربيه من بيروت. . وكانت خيرية خيري دائمة الترحال في مختلف دول العالم.

ووضع اسمي على المجلة رئيساً للتحرير في مارس ١٩٥٤، بعد أن ارتفع توزيعها، واطمأننت أننا في طريق النجاح. . وكان علي أمين يعقد لنا اجتماعات عديدة، ويقدم كثيراً من الأفكار. . وكانت هذه الإجتماعات، محاضرات ممتازة فيالفن الصحفي. . وكان يركز على أن تكون الصحافة منارة أمل. . ودعوة إلى حياة المستقبل. . وتشجيعاً للشباب أن يبتعد عن الوظيفة «الميري» وينطلق إلى آفاق عمل جديدة. . واتبعنا سياسة إصدار الأعداد الخاصة، عن الصيف، والأرواح، والحب، والسينما والموضة. . واتجهت تحقيقاتنا إلى مختلف المحافظات، للتعريف بشبابها، وإخراج صورة المرأة فيها إلى النور. .

وكان عام ١٩٥٤ عامراً بالأحداث الجسام. .

أحداث الديمقراطية في هذا العام، والخلاف بين مجلس الثورة ومحمد

نجيب. . وعن الإستفتاء على رياسة الجمهورية. . كتبت «لن أنتخب محمد نجيب». . وكانت حجتي أنه يريد عودة أحزاب الماضي، وفي ذلك عودة إلى مفاسد الحياة السياسية قبل الثورة. .

وكانت هناك قضية الشيوعية الكبرى التي حكم فيها على هنري كوريل، وسعد كامل، ومصطفى كمال صدقي، والدكتور شريف حتاتة. وسجنت فيها تحية كاريوكا مائة يوم بسبب علاقتها بالمغامر مصطفى كمال صدقي. .

ثم كانت محاكمات مؤامرة اغتيال جمال عبد الناصر في نوفمبر ١٩٥٤.

وبدأت حملة على الملحنين الذين يسرقون الألحان الغربية. .

كما قمنا بحملة عنيفة ضد الدكتورة درية شفيق ـ وكانت من زعيمات الحركة النسائية ـ وغيرها من السيدات اللائي أضربن عن الطعام في نقابة الصحفيين حتى تحصل المرأة على حقها في دخول البرلمان. لم نكن ضد حقوق المرأة، ولكننا كنا ضد ترك الأمهات لبيوتهن. . والإضراب في النقابة بما لا يتفق مع الإحترام الواجب للمرأة. . وكتبنا الكثير تحت عنوان «لن نخسر شيئاً إذا شيعنا جثث المضربات عن الطعام في موكب جنائزي رهيب»!!

كما حملنا على الكاتب محمود تيمور، الذي قدم مسرحية بعنوان «المزيفون». . وكانت هجوماً قاسياً على الصحافة. . كان من أبطال المسرحية، صحفية تبيع عرضها. . وقلنا «سبحان الله في هذا الأدب الذي تدبجه القريحة العبقرية، ليخرج على الناس سباً وشتماً وتجريحاً واتهاماً بالباطل ونزولاً إلى مهاترات السوقة ونباح الأزقة». .

وفي ذلك العام، تزوجت ليلى فوزي من أنور وجدي، وولد عمر الشريف نجماً سينمائياً جديداً في فيلم «صراع في الوادي» من إخراج يوسف شاهين، وتزوجت ليلى مراد من المخرج فطين عبد الوهاب، وزفت العروس هدى سلطان، وغنت ليلى مراد «ليه خلتني أحبك». . وكان حديث المجتمع الفني عن مشاجرة داخل الاستديو، بين زينات صدقي والمطرب عبد العزيز محمود، اعتدت فيها زينات صدقي على المطرب بعلقة ساخنة. .

ودخلت في معركة مقالات مع مصطفى أمين وعلي أمين، حول معنى

السعادة، تدخل فيها كامل الشناوي، لإنهائها بعد أن زاد التهابها، وكاد أن يؤثر على روابطنا الشخصية. .

كتبت في ٢٥ يناير مقالاً بعنوان «السعادة الشقية» وقلت فيه: «عرفت الأرض سعداء كثيرين من طراز مصطفى وعلي أمين. كل منهم ولد إنساناً، وكلهم ماتوا أطباء ومحامين ووزراء وعباقرة وصحفيين، ولكن قليلين جداً، هم الذين استطاعوا أن يجاهدوا أنفسهم، وأن يحتفظوا حتى موتهم، بلقب ميلادهم الأول وصفة وجودهم الأسمى. . صفة الإنسان.

وليس مهماً يا سيدي أن تضحي بمسرات الحياة في سبيل حب عملك، وإيجاد صحافة مصرية كبيرة. . ولكن الأهم هو ألا تضحي بإنسانيتك وأنت تحقق هذا الهدف الضخم، والإنسانية هي أن تشعر بدموع الآخرين: فتبطىء السير لتمسحها، ولو تأخر موعد الوصول إلى محطة النجاح».

وعلق علي أمين بمقال تحت عنوان «سعادة الكبار» قال فيه:

«إن السعادة التي يتصورها الفيلسوف «النونو» موسى صبري، تصورتها حين كنت في التاسعة من عمري. . ولكنني كبرت. إن الفيلسوف النونو ينسى أن الله وزع الوظائف على الناس، وأنه ليس من واجب كل صاحب رسالة أن يتوقف ليمسح دموع العشرات من الكسالى والحمقى». .

ثم كتب كامل الشناوي تحت عنوان «معركة حمقاء. . المشتركون فيها حمقى وأنا أكثرهم حماقة». . وقال: «لست أدري لماذا دخلت هذه المعركة الحمقاء، معركة «الشقاء السعيد» كما قال مصطفى أمين، أو «السعادة الشقية» كما قال موسى صبري، أو «سعادة الكبار» كما قال علي أمين! . . إن موسى صبري لم يفعل شيئاً أكثر من أنه أشفق على مصطفى وعلي أمين من شقاوتهما وإرهاقهما. . فكيف نلوم من يشفق، وكيف يوجه اللوم له، من يشفق عليهم؟ . . ولكن الواقع أن موسى صبري هو الجاني، فإن الشفقة لا ينبغي أن تمتد إلا لمن يشكو، وإلا كانت حماقة»! . .

وفي ذلك العام ١٩٥٤ . . أصيب فريد الأطرش، بأول نوبة قلب، ألزمته الفراش وهددت حياته بالموت، لقد نقلت وكالات الأنباء من القاهرة، أن

الملكة السابقة ناريمان سوف تتزوج من فريد الأطرش. وعلقت أصيلة هانم والدة ناريمان على هذا الخبر ، بكلمات أهدرت كرامة فريد الأطرش. . أخفها تساؤلها : « من يكون هذا الفريد الأطرش ؟ . . إنه ليس أكثر من مطرب ! » . .

وكان فريد الأطرش، على صلة صداقة بأسرة ناريمان، وكان يدعوهم في منزله، وكان يتلقى دعواتهم. . فأصابته هذه الكلمات في مقتل. . وكانت أزمة قلبية حادة أنقذه الأطباء منها بأعجوبة. .

وكتبت رسالة مفتوحة إلى ناريمان بعنوان «سيدتي الملكة السابقة. . رفقاً بأهل الفن» وقلت فيها: «ليس من حق السيدة ناريمان، أن تنال طائفة ـ يجب أن يكون لها مكانتها في مجتمعنا ـ بالتجريح والتحقير. . هذا أسلوب بلاه الزمن الذي أسرعت عجلاته إلى الأمام. . وأهل الفن، هم أهلنا المفترى عليهم، لأن ذنبهم أنهم دائماً تحت الأضواء. . وإن ما يدور وراء البيوت المحجبة، لهو أقسى بكثير مما يفعله أهل الفن بلا حجاب، وتحت ضوء الشمس». .

ولم أكن على صلة وثيقة بفريد الأطرش، كانت صلة عادية، وقد عرفنا به كامل الشناوي ذات ليلة قبل الثورة. لقد أصطحبني كامل الشناوي، أنا وعدد من الزملاء، إلى سهرة قال أنها مجهولة. . وسوف نعرف عندما نصل إلى المكان!

وتوقفت سيارة كامل الشناوي، أمام منزل فى الزمالك، وتبعنا كامل الشناوي إلى الدور الأول، حيث وجدنا صالات فسيحة، وزحاماً، ورجالاً ونساء في ملابس السهرة، وكؤوس وضحكات، ورقصاً شرقياً. . ثم قدمنا كامل الشناوي إلى الداعي الذي نعرفه، وكان المطرب فريد الأطرش. .

ثم علمنا أن هذه السهرة، هي احتفال بالسيدة ناهد رشاد وزوجها الدكتور يوسف رشاد. وكانت ناهد رشاد في ذلك الوقت، هي وصيفة الملكة صاحبة النفوذ في القصر الملكي، لأنها قريبة إلى قلب فاروق. . وكان يوسف رشاد هو الطبيب الخاص للملك. .

وكان كل من في السهرة ينتظر قدوم الضيفين المشهورين. .

وحوالي الواحدة صباحاً. . ظهرت ناهد رشاد مع زوجها. . في ثوب سهرة

أبيض، يكشف عن كتفيها. . وكانت ذات جمال وبهاء. . وكان لها حضور أخاذ وكان كل من في السهرة يحاول التقرب إليها وإلى زوجها. .

* * *

* * *

وجرت الأيام. . وقامت الثورة. وسقط فاروق. وتدهورت الأحوال بناهد رشاد وزوجها. . حتى أنهما سكنا في بدروم عمارة بالجيزة. . بأثاث بسيط لا يزيد على أثاث شقة موظف في الدرجة الثامنة!!

وقد رأيتهما في هذا الوضع المؤلم. .

كان لي صديق يعمل في رياسة مجلس الوزراء، وهو من هواة قراءة الطالع. . وقال لي: هل تريد أن تعرف الطالع من فنجان القهوة؟. . ورحبت. وزاد فضولي عندما قال لي أن التي تقرأ الطالع هي ناهد رشاد!!

وتواعدنا. . وفوجئت بوجودهما في هذا الجحر المتواضع، الذي امتلأت حيطانه برطوبة المياه. . وكانت مريضة، مستلقية على كنبة بملابس البيت. . وانطفأ بريق الجمال، وضاعت الأناقة. . وكان يوسف رشاد يشكو من جلطة في قدمه، فجلس على مقعد، ومدد قدمه على مقعد آخر. .

كان ذلك في السبعينات بعد أن تولى السادات رياسة الدولة. . ورويا لي الكثير عن علاقتهما بالسادات، وكيف بدأت عندما كان السادات ملازماً في سلاح الاشارة بمرسي مطروح. . وكان يوسف رشاد طبيباً ضابطاً، وأراد الاطمئنان على أسرته باستخدام جهاز سلاح الاشارة. . ومن هنا نشأت الصلة، التي دعمها ولع السادات باللغات. . واستعانته في الترجمة بالدكتور يوسف رشاد. . وتطورت هذه العلاقة قبل الثورة. وكان السادات يتظاهر أنه من رجال الملك، وكان ينقل أخبار الملك إلى التنظيم السري الذي يرأسه جمال عبد الناصر. . واستدان السادات من يوسف رشاد في أيام محنته بعد أن فصل من الجيش. . ونجح يوسف رشاد في أن يعيده إلى الجيش. . ثم قامت الثورة، وعندما تقرر اعتقال يوسف رشاد، هدد السادات بالاستقالة من مجلس الثورة، وروى لزملائه خدمات يوسف رشاد له. . وهكذا منع اعتقاله. ثم سعى إلى أن

يعمل في شركة أسماك في الغردقة. وكان دائم المودة معه إلى أن مات. وكانت السيدة جيهان السادات دائمة الزيارة لهما. . وبعد أن ترمّلت ناهد رشاد إلى أن ماتت فى الثمانيات!

وشربت القهوة. . وقرأت لي السيدة ناهد رشاد طالعي، ولم يكن يهمني الطالع، بقدر ما أثار كل فضولي، هذه الحياة المتقشفة المرهقة التي يعيشانها. . فقد سكنا في هذا البدروم. . وكانت لهما شقة على النيل، أجراها مفروشة، حتى يقتاتا من ايجارها!

ثم وجها لي الدعوة مع زوجتي أن احتفل معهما بليلة رأس السنة. . وذهبنا، ولم يكن معهما غيرنا، وعبد المنعم أمين عضو مجلس الثورة المبعد. . ويكفي أن أذكر أنه لم يكن لديهما أكواب زجاج تكفينا. . وما أقسى القدر!. . كان أكبر رجال الدولة قبل الثورة، يتمنون لفتة صداقة من يوسف رشاد أو من زوجته!. . وكانت صورهما في الرحلات الملكية، وفي سهرات المجتمع، تتنافس الصحف على نشرها!

وفي ذلك العام ١٩٥٤. . اتصلت لأول مرة في حياتي بالسيدة أم كلثوم. . واصطدمت معها صداماً قاسياً!

كان ذلك في شهر يوليو عندما تم توقيع اتفاق الجلاء. وطلب مني مصطفى أمين أن اتصل بالسيدة أم كلثوم، وأعطاني رقم تليفونها، لكي أسألها عن كيف عرفت بنبأ توقيع الجلاء. . وكيف ذهبت إلى الإذاعة، وتحدثت في الميكرفون تقدم نشيد الجلاء الذي سبق أن غنته في حفلة الجيش. .

واتصلت بها، وروت لي القصة. . وكتبتها، وأرسلتها قبل النشر إلى مصطفى أمين لمراجعتها على أساس أنها صديقته. . وراجعها، ونشرتها في «الجيل». .

وبعد النشر، كنت في الاسكندرية، أجلس في بهو فندق سيسيل مع كامل الشناوي، وفتحي غانم. . وفجأة ظهرت أم كلثوم. كانت تقيم في الفندق، واتجهت من المصعد لتحية كامل الشناوي. . وقدمني إليها: موسى صبري. .

فإذا بها تسلم علي، من طرف أصابعها، في تعال سخيف، وهي تقول بسخرية:

- وايه يعني؟..

وفقدت أعصابي.. وارتعشت.. وقلت لها في استعلاء أكثر:

- وايه يعني أم كلثوم!

وقالت:

- وايه يعني اللي بتكتبه في الجيل..

قلت:

- أنا لا أكتب إلا الحقيقة..

وأدرت ظهري.. وكامل الشناوي مرتبك بيننا..

ثم عرفت أنها غاضبة، للقصة التي نشرناها عن يوم اتفاقية الجلاء.. وطلبت من كامل الشناوي أن يقول لها في أية مناسبة مقبلة، أنني نشرت نص كلماتها.. وأن المنشور عرض على صديقها مصطفى أمين قبل النشر.

والحق أنني لم أجد فيما نشر، مدعاة لغضبها.. ولكن كامل الشناوي أبلغني، أن المنشور فهم منه، وكأنها خرجت من بيتها إلى دار الاذاعة بقميص النوم.. أو هكذا هي فهمت.

ودهشت من هذا الفهم الغريب..

ودارت الأيام.. وأصبحنا صديقين!

كان يوم عيد ميلاد علي أمين.. واقتصر في الدعوة إلى منزله، على أم كلثوم.. ومصطفى أمين.. وأنا.. وطبعاً زوجته خيرية خيري.

وكان علي أمين يحتفظ بتسجيل لأغنيتها التي لحنها لها عبد الوهاب.. وأدرنا التسجيل، وكنت أنا في حالة طرب شديد.. واستعدت مقاطع من الأغنية عدة مرات!.. وعبرت عن اعجابي الشديد. وقد كان هذا مسلكاً طبيعياً مني، انطلقت فيه بكل مشاعرى بمنتهى الصدق..

وأعجب هذا أم كلثوم. . التي كانت في قمة السعادة لنجاح اللحن. .

وعندما أصدرت كتابي «قصة ملك و ٤ وزارات». . أهديته لها. . وفاجأتني في اليوم التالي، بأن تحدثت إلي في التليفون، قائلة، أنها أمضت طول الليل ساهرة تقرأ كتابي. وقد انقطع التيار الكهربائي، فاستعانت بشمعة أكملت القراءة على ضوئها، حتى آخر صفحة!

وكان ذلك أروع تحية لي من أم كلثوم. .

ودعتني بعد ذلك. للسفر معها إلى أسوان. . ولم أتمكن من تلبية الدعوة. وظلت علاقتي بها طيبة، إلى أن ماتت. وكنت في الخارج.

وحدث خلال ذلك، ما عكر صفو هذه العلاقة، ولكنه كان سحابة صيف، ما لبث أن انقشعت.

قالت لي أمال فهمي ذات يوم: أن أم كلثوم لا تزال تحب مصطفى أمين؟. .

قلت: كيف؟. .

قالت: كنت أروي لها ما حدث في حفل استقبال حضرته. . واذا بها تسألني عشرات الأسئلة عن مصطفى أمين الذي كان بالحفل. . ماذا كان يرتدي؟. . ومع من تكلم؟. . وماذا قال؟. .

وبكل البراءة. . رويت هذه القصة لمصطفى أمين. وفوجئت بأمال فهمي تحضر إلى مكتبي في قمة الحزن. لقد روى مصطفى أمين لأم كلثوم، ما قلته له . . وعنفتها أم كلثوم بعنف. .

وأسرعت الى مكتب مصطفى أمين. . . وسألته: هل قلت لأم كلثوم ما قلته لك؟. . وأجاب: نعم. . وأنا آسف.

واستطعت أن أسوي الموقف بين أمال فهمي وأم كلثوم، وانتهت الأزمة!

* * *

وكـان من أهداف «الجيـل». . أن نهتم بالقصـة الانسانيـة. . وأن نشعـر القارىء أن جريدته في خدمته. . وأننا نصنع قدوات في الترابط الإنسانى . .

وهكذا تبنت «الجيل» قصة «ليلى». .

انها فتـاة في العشرين من عمرهـا، من أسرة فقيرة، أصيبت بـالسرطان، وقرر الأطباء أن عمرها محدود. .

وقد قدمتها الصحفية نادية العسقلاني إلى علي أمين. .

وقررنا أن نـوفر كـل ألوان السعـادة، لليلى. . في أيـامها البـاقية. زارهـا المشاهير. ارتدت الفساتـين التي تتمناهـا. شاهـدت المسرحيات التي تـريدهـا. تناولت طعامها في أكبر الفنادق والمطاعم. . وتقدم للزواج منها شاب على خلق، كان يعلم بمأساتها، اسمه شعبان محمد ابراهيم وهو مهندس زراعي. وأقمنـا لها فرحاً ضخماً. غنت فيه صباح وعبد الحليم حـافظ ومحمد عبـد المطلب ونجـاة الصغـيرة ومحمد قنـديل، وحـورية حسن. ورقصت زينـات علوي وثريـا سالم. وعزفت ثلاث فرق موسيقية هي فرق أحمد فؤاد حسن، وسعد العريان، ومحمود أحمـد. وأضحك المـدعوين المنولـوجست سمسم والـزعبـلاوي والشنكحـاوي وحسن حسان. .

وأصبحت «ليلى» حديث المجتمع المصري. .

ثم قـدمت زميلتنـا ابتسـام الهـواري الـطفلة «يسريـة» المـريضـة بشلل الأطفال، وعمرها ١١ سنة. ان والـدها مـوظف بسيط مرتبـه الشهري عشرون جنيهاً، وقرر الأطبـاء أن علاج يسريـة ممكن في السويـد، ولكن العلاج يتكلف ألفي جنيه، في معهد «نورباكا» باستكهولم. وبدأنا حملة تبرعات من أجل الطفلة التي عاشت ١١ سنة مشدودة إلى مقعد لا تستطيع تركه !. . وكـانت التبرعـات من مختلف فئـات الشعب. هنـاك من تـبرع بخمسـين قـرشـاً. . أو بعشرة جنيهـات. . وجمعنا ٥٣٧ جنيهـاً و ١٥٠ مليمـاً. . وتكفلت دار أخبـار اليـوم، بباقي المبلغ. . وسافرت ابتسام الهواري مع يسرية الى السويد. . وكان شعـارنا في هذه الحملة الانسانية: «أفعل شيئاً من أجل يسرية». .

ثم بـدأنا نحـارب العـادات القـديمـة في المجتمـع، بـأسلوب الصحـافـة

العملية. . أردنا أن نشجع الفتيات على اقتحام مجالات عمل جديدة. . مثل أن تعمل كمسارية في الأتوبيس، وسائقة تاكسي، وجرسونة في المطاعم الكبيرة. . كل هذه الأعمال كانت من المحرمات. .

وبدأت حسن شاة التجربة الأولى. . اتفقنا مع شركة اتوبيس أن تعمل بها حسن شاه. وارتدت ملابس الكمساري، وتعلمت كيف تصرف التذاكر، وأمضت أياماً تمارس هذه المهنة، والركاب والراكبات، يعتقدون أنها كمسارية حقيقية. . وكان مصور «الجيل» يسجل الحدث. . ونشرنا هذا التحقيق. ونشرنا الآراء المؤيدة لأن تعمل المرأة كمسارية. . وفتحت شركات النقل أبوابها للفتيات. .

وتقدمت عايدة محمد المغاوري الطالبة بقسم العلوم السياسية بكلية التجارة (جامعة القاهرة) لكي تعمل كمسارية. . وأعلنت أنها من المتفوقات في الدراسة، وسوف تعمل بعد تخرجها في وزارة الخارجية. . ولكنها تعمل الآن كمسارية وهي طالبة، لكي تشجع المرأة على العمل. . ونشرنا لها تحقيقاً مصوراً كبيراً. .

وأول كمسارية عينت في شركة النقل، كانت حاصلة على ليسانس الحقوق. . واستقبل الجمهور التجربة بالتشجيع. . ولكن راكبات الاتوبيس، نصحن أول كمسارية، بالزواج بدلاً من هذه البهدلة!

واقتحمت الصحفية مفيدة حلمي، تجربة العمل، كمربية أطفال لدى أسرة كبيرة. . ولم تكن الأسرة تعلم أنها صحفية. . ونجحت التجربة، وكان مصور الجيل، يلتقط لها الصور من منزل مجاور. . وأقبلت الجامعيات على هذا النوع من العمل. .

ونجحت فكرة اشتغال الفتيات جرسونات في المطاعم الكبرى. . وها نحن نرى الآن كل مطاعم الفنادق الكبرى. . بل مطاعم المدن الصغيرة، مليئة بالفتيات الجرسونات ومعظمهن من خريجي الجامعات. .

كل هذه الآفاق الجديدة فتحتها مجلة «الجيل». . وان كان ذلك أوقعنا في معركة عنيفة مع الدكتور كامل مرسي نائب رئيس جامعة القاهرة، حين دعا علي

أمين طلبة الجامعة أن يعملوا في مطبخ المدينة الجامعية، مقابل اقامتهم في المدينة. . واحتج كامل مرسي باشا واعتبر هذه الدعوة، إهانة لكرامة التعليم. . وأيده في ذلك الوقت الدكتور مصطفى نظيف رئيس جامعة عين شمس!

وفى ذلك الوقت ، أعلنت كلية الآداب بجامعة القاهرة ، عن حفلة تجرى فيها مسابقة بين الطالبات في الغناء. . وأعلن فضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكي عضو هيئة كبار العلماء الحرب على عميد الكلية الدكتور عز الدين فريد. وقال الشيخ السبكي أن كلية الآداب تحولت إلى كباريه، وأصبحت مسرحاً للمهازل، ومهبطاً للغواية التي تصدع سمعة الأمة وأخلاقها. . وقال أنها كلية الاباحية والإلحاد والوجودية. .

وغضب الدكتور عز الدين فريد، وكان رجلًا متحرراً. وأبلغ النيابة العامة، ضد الشيخ السبكي، واتهمه بالقذف والسب، وأعلن على صفحات «الجيل» أن الشيخ تطفل على الجامعة، ولا يعرف ما هي الوجودية، ولم يقرأ عنها سطراً واحداً. .

وتابعت «الجيل» هذه المعركة التي نشبت على صفحاتها. . وساندت عميد الآداب. . وأخيراً تدخل فضيلة الشيخ محمود شلتوت للصلح بين العميد والشيخ السبكي.

وأردنا أن نقاوم عادة الزواج بواسطة الخاطبة. . وتنكرت المحررة مفيدة حلمى فى ثوب ، شابة حاصلة على دبلوم ، وتريد عريسا . . وكان معها الصحفي نهاد رجب، يصور كل خطواتها من بعيد بواسطة العدسات المكبرة. ولجأت المحررة الى «أم زكى العايقة». . التى عرفتها بالعريس معبود النساء. . كما لجأت أيضاً إلى الشيخ الصفتي الذي كان يصف نفسه بأنه موفق رؤوس الطبقة الراقية في الحلال. . واتضح أنه يريد أن يغريها لكي تبيع نفسها. . وهكذا كشفت في عدة تحقيقات مصورة، بأسلوب «الصحافة العملية». . عن عمليات النصب التي تجري بواسطة الخاطبة والخاطب. .

وأردنا كذلك أن نقدم وجوهاً جديدة للعمل في السينما، من الفتيات الجامعيات. . وأعلنا عن مسابقات في هذا المجال. . وفازت «زبيدة ثروت»

(والدها ضابط بحرى كبير) بالجائزة الأولى فى مسابقة أجمل وجه وأجمل عيون. . وأنتج لها حسن رمزي فيلماً أخرجه حسين حلمي المهندس، وكان البطل أمامها هو كمال الشناوي. وقد بدأت القصة السينمائية، بالقصة الواقعية، وهي فوزها في مسابقة «الجيل». . ولذلك صورت الرواية في أخبار اليوم. . وفي مكتبي. . وظهرت في الفيلم، في دوري الطبيعي، وهو رئيس تحرير مجلة «الجيل». . ثم أصبحت زبيدة ثروت من أشهر نجوم السينما. .

وخلال ذلك، حدثت واقعة في كلية الهندسة جامعة الاسكندرية، كان بطلها الطالب أحمد عبد المجيد، والطالبة بلقيس. كانت هي الطالبة الوحيدة بين خمسمائة طالب. . ولكنها كانت صاحبة شخصية قوية. . وقد حاول الطالب أن يغازلها، فعنفته، وصفعته على وجهه صفعة نارية!. . وكانت أزمة. وتعصب الطلبة لزميلهم. . وتحدت بلقيس، وأعلنت في شجاعة، أنهم مراهقون، لا يفهمون معنى الزمالة، ولا يحترمونها. . ووقفت «الجيل» مدافعة عن الطالبة. . واضطر الطالب، أن يعتذر علناً للطالبة، بخطاب أرسله الى «الجيل». . وقبلت الطالبة بلقيس اعتذاره. . وعرف الطلبة كيف يحسنون معاملة زميلة لهم. .

وكنا ندعو، الى وسائل التغلب على الغلاء. . وتبنت «خيرية خيري» مشروع «أصنعها بنفسك». . وخصصت حجرة كبيرة، لهذا المشروع. . وكانت «خيرية» تقدم كل أسبوع، طريقة عمل أشياء كثيرة في المنزل، دون اللجوء الى شرائها مصنعة بثمن مرتفع. . كما تبنينا كل مشروعات «ايفون ماضي» لإقامة مصانع تفصيل الملابس الجاهزة، بحيث يتكلف الثوب المحترم مائة وخمسين قرشاً وثوب العمل اليومي خمسين قرشاً فقط. . وبذلت ايفون ماضي جهداً ضخماً، لكي تقتحم هذا المجال الجديد. . لم نكن نعرف في مصر، حتى في ذلك الوقت، الملابس الجاهزة. . وايفون ماضي هي أول من فكرت في ذلك. . وشجعت «الجيل» دعوتها بعشرات التحقيقات الصحفية. ولكن الحكومة لم تقدم لها أي عون.

ودعونا الى رشاقة المرأة. . وقدمنا برامج التخسيس العملية. . لقد اخترنا سيدة اسمها «سعدية» كانت من صاحبات الوزن الثقيل جداً. . وأشرف الأطباء وأصحاب التخصص في العلاج الطبيعي، على تخسيس «سعدية». .

وكـانت أخبارهـا ثابتـة في الجيل لأشهـر عـديـدة. واستفـادة كثـيرات من هـذه التجربة.

واكتشفنا في «الجيل» لأول مرة، الرسام صلاح جاهين!

كانت شقيقته متخرجة في كليـة الحقوق، وتعمـل محررة تحت التمـرين في «الجيل». . وقالت لي أن شقيقها صلاح يهوى الرسم ويريد التقـدم برسـومه. . وزارني في موعد حددته له. . وعرض رسـومه، ورأيتهـا رائعة. . ولكنني فشلت في إقنـاع علي أمـين بأن يعمـل معنـا صـلاح جـاهـين في الجيـل، بمـرتب عشرة جنيهات!. . وبعد سنوات لمع اسم صلاح جاهين، في مجلة «صباح الخـير» التي تبنته. . وطلبه علي أمين للتعاقد معه بمرتب مائتي جنيه. . وعمل في أخبار اليـوم بضعة أشهر، ولكنه استقال. . كان يزعجه أن الجرسون الذي يقـدم له الشـاي والقهـوة في أخبار اليـوم يرتـدي «جاكت» أبيض، وقميص بـه بـابيـون أسـود، وبنطلوناً أسود. . كان يـريد الشـاي الكشري الذي يقـدمه لـه جرسـون بلدي غلبـان في دار ـ روز اليـوسف!. . ولكن زوجـة صـلاح جـاهـين الأولى وهي الـرسامـة «سوسن» كـانت تعمل معنـا في «الجيل» وكنت دائمـاً. . أداعب علي أمين، بهذه القصة. .

وقدمنا بعد ذلك صلاح جاهين على صفحات الجيل. . رساماً وشاعراً. .

وكتب عنه أحمد رجب بعنـوان «صلاح جـاهين عمـره ٢٥ سنة. . شـاعر الشعب ابن المستشار». . وكان صلاح قد لمع في صباح الخير، رساماً وشاعراً. . روى أحمد رجب قصة انفعال صلاح جاهين بـآلام الشعب. . كيف بدأت؟. . كان صلاح في مكتب والده رئيس النيابة بهجت أحمد حلمي، عندما كـان يحقق في حوادث اعتداء أسرة البدراوي على الفلاحين في قرية بهوت. وهاله أن المرارة والاستسلام واليأس يسيطر عليهم، عندما قادوهم الى السجن أمامه، وهو يسير وراءهم . . وشاهد أماً عجوزاً محطمة تحاول أن تلقى برغيف لـولدهـا السجين بينهم، ولكن السجان ضربها في شـدة وطوح بـالرغيف بعيـداً. . وبكى صلاح جاهين. . ولكنه أحس بعزاء كبير عندما رفع فلاح من عبيد الأرض، رأسه من بـين القطيـع المسوق ليقـول لسادة الأرض والإقـطاع والله . . والله. . آخرتكم

سودة . . وأحس الفتى صلاح ابن رئيس النيابة بالطرب. واهتز لهذا القسم. وجفف عينيه وشعر براحة عميقة. . وكان هذا المشهد نقطة تحول في أفكاره. . وكتب شعراً مطلعه:

يالي قاعدين على المصاطب
تنهجوا ساعة المغارب . .

وأصبح والده مستشاراً بمحكمة الاستئناف. . وألحق ولده بكلية الحقوق. . ولكن الابن ترك الحقوق ليواصل دراسته في كلية الفنون الجميلة التي التحق بالقسم الحر بها. . ثم بدأ يكسب بعرق جبينه من العمل في الصحف. . وكان يرسل بعض النكت الكاريكاتورية الى الرسام عبد السميع في «روز اليوسف». . وكان عبد السميع يشجعه بنشر بعضها. . ثم عرفه أحمد بهاء الدين. . واختاره للعمل في صباح الخير حيث تفتحت مواهبه. . ثم طلع على الدنيا بديوانه الشعبي «كلمة سلام» وغنت له أحلام «يا حمام» أجمل أغنية كتبت بعد جلاء الانجليز. . ثم غنت له أم كلثوم. . ومثله الأعلى شارلي شابلن، وهوايته في وقت الفراغ. . الأكل! . . وآخر تشنيعة قالتها عنه أم كلثوم انه «بيخس على بره»!

وهذه فقرات فقط من مقال أحمد رجب عن صلاح جاهين الذي نشر في الجيل في ٢٦ نوفمبر ١٩٥٦:

وأردنا أن نشجع الشباب على السفر الى الخارج. .

وقامت صافيناز كاظم المحررة بالجيل، بأروع مغامرة يمكن أن تقوم بها فتاة مصرية. قررت أن تسافر الى لبنان، واليونان وإيطاليا والنمسا. . وفي جيبها عشرون جنيهاً فقط . وكانت تنتقل من دولة إلى دولة فى سيارات المسافرين التى توقفها وتطلب ايصالها : "AOTOSTOP" . وكانت معها الكاميرا . . ونشرنا لها تحقيقات صحفية ممتازة عن هذه المغامرة. وقدمت لهذه الرحلات بمقال قلت فيه: «ليس الهدف أن تقوم صافيناز كاظم بدور بهلوان يتشعبط على الشمال في البواخر والقطارات والسيارات. وليست هي رحلة النسيان. . إن هذه الرحلة عمل خطير، تقوم به فتاة عربية لأول مرة في التاريخ، لتسجل خواطرها

ومتاعبها، والصعاب التي لاقتها. حتى يرى ملايين العرب الشباب أمامهم، تجربة حية يقوم بها شباب أوربا في رحلاتهم الصيفية، وحتى يفيدوا من التجربة، عندما يفكرون في الإقدام على مثلها، لتوسيع مداركهم، وللتعرف بشعوب العالم، دون أن تقف الجيوب الخاوية، عقبة أمامهم».

وقد بدأت صافيناز كاظم الرحلة، على ظهر لورى من القاهرة الى بورسعيد.. وعلى ظهر باخرة من بورسعيد الى بيروت حيث أقامت في لبنان، في خيمة صغيرة في معسكر الكشافة الذي لجأت اليه فوق قمة الجبل!

وقد التقى سعيد فريحة، صاحب دار الصياد، بصافيناز كاظم في لبنان، فدق صدره بيده، وجحظت عيناه الزرقاوان، وقال لها في هلع «ليش يا بنتي تعملي في روحك كده.. شو بده علي أمين؟.. يعمل فرقة كوماندوز»؟

وكان أجر رحلتها على سطح الباخرة أربعة جنيهات.. ونزلت بيروت ومعها ١٦ جنيهاً فقط!.. ثم صعدت الى الجبل حيث معسكر الكشاف المسلم في «رويسات صوفر».. وكانت تدفع نصف ليرة (٧ قروش مصرية) أجراً للمبيت.. ثم توجهت في الصباح الى دار الصياد، حيث عملت في الأرشيف لتنظيمه.. وقبضت أول أجر مائة ليرة أي ١٦ جنيهاً مصرياً!.. وكانت في وقت فراغها تستكشف لبنان، وتكتب رسائلها الى الجيل..

ثم ركبت صافيناز الباخرة ـ على السطح طبعاً ـ الى ميناء بيريه مقابل ١٣ جنيهاً، ورفض قبطان الباخرة أن تعمل على ظهر المركب.. ثم سافرت الى أثينا، حيث أقامت في قبو مظلم طوله متران وعرضه ثلاثة أمتار، وتسكنه ٢١ فتاة من هواة الرحلات حول العالم بجيوب خاوية!

وأمضت أياماً صعبة في أثينا.. حتى استطاعت أن تحصل على تذكرة بستة جنيهات على سطح باخرة من بيريه الى ايطاليا..

وفي روما قابلت صافيناز كاظم الكاتب الروائي البرتومورافيا، وأمضت معه ساعتين ونصفاً. وكتبت أنه أبخل من توفيق الحكيم.. وقال لها انه لن يذهب الى القمر إلا إذا كانت تذكرة مجانية.. وكان يعتقد أن السفر الى القمر سيكون عادياً جداً في عام ١٩٧٠!.. وكان يهرش في رجله وهو يحدثها!..

وروى لها أنه فصل من المدرسة خمس سنوات، لم يبرح خلالها السرير لأنه كان مريضاً في عظام ساقه.. ولم يتمكن والده المهندس من إرساله الى المدرسة كما كان يتمنى.. ويقول «وهكذا أنقذت لحسن الحظ من اضاعة وقتي في المدرسة. وتعلمت في السرير وحدي اللغة الانجليزية والفرنسية وتعلمت أيضاً أن أقرأ كثيراً، وكتبت أول قصة وكان عمري سبعة عشر عاما ونجحت كثيراً.. وهكذا كما ترين.. ما زلت أكتب للآن!».

وبحثت صافيناز عن عمل في روما، ووجدت عملاً في وكالة أنباء بعشر جنيهات لمدة عشرة أيام.. وبأسلوب الاتوستوب سافرت الى ميلانو.. ثم الى زيوريخ في سويسرا ثم الى هامبورج في ألمانيا..

وهكذا تابعت رحلتها الأسطورية، وكتبت عن تجاربها في رسائلها، ما يصلح أن يدرس في معاهد الصحافة!.

وكانت مغامرة صافياز كاظم الثانية في أمريكا!

جمعنا لها قرضاً حسناً.. دفع علي أمين مائتي جنيه، ودفع أحمد بهاء الدين مائة جنيه، وكذلك أنا..

وسافرت صافيناز في محاولة لدراسة الدراما.. ولقيت متاعب عديدة.. وكانت تكتب لي رسائل خاصة على مناديل الورق!.. وعملت في أكثر من مدينة.. وسددت دينها لعلي أمين وبهاء ولي.. وعادت ساخطة على المجتمع الأمريكي.. ثم تحولت صافيناز كاظم الى السياسة..

واستهوتها المبادىء اليسارية في أول الأمر.. وتزوجت أكثر من مرة وفشلت في زواجها.. وتحولت الى أقصى اليمين، وآمنت بالتطرف في الدين.. وتحجبت.. وامتنعت عن السلام باليد لأي رجل.. وهي تقول «نحيي ولا نسلم».. واشتغلت بالسياسة.. واشتركت في مظاهرات في الجامعة.. واعتقلت أكثر من مرة.. وأصبحت عنيفة في معارضتها، حتى انها ـ مع صداقة العمر ـ أتهمتني في انتخابات نقابة الصحفيين، بأنني عميل الامبريالية والاستعمار!.. وكانت قد عملت في «دار الهلال» بعد عودتها من أمريكا، ثم

فصلت. وبقيت بـلا عمل سنـوات. ثم عادت الى دار الهـلال. ولم أعد أراهـا كثيراً. .

كانت صافيناز كاظم تمثل المرح والأمل في أسرة «الجيل». .

كـانت تحب الموسيقى، وتغني أغنيـات فيروز، وتـرقص الدبكـة اللبنانيـة وتتزين . ولكن شخصيتها انقلبت تمـاماً الى النقيض. . ولم أعـد أراها كثـيراً، إلا في انتخابات نقابة الصحفيين، حيث تقوم بدور ايجابي دائماً. .

وأعود الى حسن شاه (رئيسة تحرير الكواكب الآن). . لقـد قدمت خـلال عملها في الجيل، أحاديث صحفية رائعة، مع فيلسوف الجيل أحمد لطفي السيد الذي قال أن أدباء مصر الشبان خطافون. . ومـع أم كلثوم التي قـالت «عندمـا أسمع صوتي أشعر بالضيق». . ثم تساءلت مستنكرة: من قـال أنني وصلت الى المجد؟. . كما أجرت تحقيقاً رائعاً أثار ضجـة في حينه، عن انتحـار طفل عمـره ١٣ سنـة، لف حبلاً حـول عنقه وتـدلى من شجرة حتى مـات!. . وكـان آخـر مغامراتها الصحفية في الجيل تنكرها في شخصية بنت بلد ترتدي المـلاية اللف، واسمهـا «زهرة الفكهـاني»!. . وقد هجـرها خـطيبها الـذي تحبـه، وهي تجهـل القراءة والكتابة. . وقد لجأت الى كتبة على الرصيف بباب الخلق والخليفة وأمـام محكمـة نور الـظلام الشرقية. . وكلهم كتبـوا لها خـطابات وعـرائض لكي يعود اليهـا خـطيبهـا. . وكشفت حسن شـاه في هـذا التحقيق عن استغـلال السـذج الأميين. .

وعلى صفحات الجيل. . ابتكر أحمد رجب شخصية الشيخ براندو!

كان النجم الأمريكي مارلون براندو في قمة شهرتـه العالميـة. . وقد أطلق عليه وصف معبود النساء. .

وذات يوم اقتحمت غرفتنا، سيدة سـورية في الأربعـين من عمرهـا قالت أن اسمها «هدية». . وكانت عصبيـة مذعـورة. . قالت أنها من حلب. . وكـان القارىء الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ينزل ضيفاً عـلى أسرتها في حلب. . وقـد جمع بينهما الحب، ووعدها بالزواج، ولكنـه سافـر واختفى. . وهي قد حضرت

الى مصر للبحث عنه، وإلزامه بتنفيذ وعده. . وكانت قد لجأت أيضاً الى الشيخ الباقوري وزير الأوقاف. .

وهنا جاءت الفكرة لأحمد رجب، أن يصور الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وكأنه مارلون براندو. . وانطلقت ريشة عبد السميع تبتكر الصور الكاريكاتورية عن مغامرات الشيخ براندو. .

وقد زارنا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في «الجيل». . وطلب وقف الحملة، وانتحى بأحمد رجب جانباً، ودس في جيبه بعض الأوراق المالية!!. . وغضب أحمد رجب. وأصر على الاستمرار في الحملة!

وانتهى الأمر بأن رفعت السيدة «هدية» دعوى تعويض ضد الشيخ عبد الباسط وطالبت بعشرين ألف جنيه وكان محاميها عيسى عبد الحق.

وخلال رياستي لتحرير «الجيل». . ثارت قصة زواج فاتن حمامة من عمر الشريف!

لم أكن أعرف شيئاً عن الاشاعات التي راجت في الوسط السينمائي، عن حب فاتن حمامة للنجم الجديد عمر الشريف، بعد طلاقها من المخرج عز الدين ذو الفقار. .

اتصل بي المنتج رمسيس نجيب، وقال لي ان فاتن حمامة في خطر وانني الوحيد الذي أستطيع إنقاذها!

ـ وكيف يا رمسيس. .

قال لي انها أحبت الممثل الجديد عمر الشريف، وانها قررت الزواج منه ومعنى ذلك انهيار صورة فاتن حمامة، أمام الرأي العام الذي يحب فيها الفتاة الطيبة المثالية في كل أدوارها. . وخاصة أن عمر الشريف مسيحي الديانة. . وهذا أمر لن يتقبله المجتمع. وقال لي رمسيس انه شريك لفاتن في شركة انتاج. . وهذا الزواج سوف يؤدي إلى خراب بيته!

ـ وماذا تطلب مني؟

قال لي رمسيس، ان فاتن تحترم رأيي، لأنني محايد. وهو يرجوني أن اتصل بها، وأقابلها، لاقناعها بخطورة هذا الزواج على مستقبلها الفني، وخاصة أن ماجدة سوف تستغل هذه القصة في الدعاية ضد فاتن. . وقد بدأ ذلك، بالترويج لأن عمر الشريف يهودي!

واتصلت بفاتن حمامة. . وقابلتها في شقتها الصغيرة، بعمارة برج الزمالك. وروت لي القصة، بكل نقاء وصدق.

قالت أنها تزوجت من عز الدين ذو الفقار، هرباً من تسلط أسرتها عليها. . ولكنها لم تجد السعادة مع عز الدين يوماً واحداً. . انه عنيف لا يعرف كيف يعاملها كزوجة، وهو دائم التهديد لها بمسدس يضعه تحت مخدة السرير، عند أي خلاف أو مشاجرة. . وقد تحملت الكثير في صمت. . ثم جمعها القدر بعمر الشريف، وهو شاب مثقف، متخرج في كلية فكتوريا، ومن أسرة محترمة، ويبادلها الحب. . وهذه حياتها الخاصة، ومن حقها أن تعيش سعيدة. .

وطلبت مني أن أزورها في استوديو مصر لأرى عمر الشريف. .

ورأيته فعلاً، ووجدت فيه شاباً شديد الجاذبية، أنيقاً، مهذباً. .

وكان رد فعلي، أنني تحمست للحب. . وتحمست لزواج فاتن من عمر. . وقلت لها: إننا في الجيل سنقف الى جانبك. .

كما عرفتها بعلي أمين. . وحضرت إلى أخبار اليوم. . ووعدها علي أمين بالدفاع عنها. .

وطلبت رمسيس نجيب الذي كان متلهفاً على معرفة نتيجة زيارتي لفاتن وقلت له:

ـ لقد قررنا الدفاع عن قلب فاتن. . وحياتها الخاصة هي من حقها. .

وكاد يغمى عليه وسماعة التليفون في يده!

وكتب علي أمين مقالاً ملتهباً في «الجيل» بعنوان «دموع فاتن حمامة». . قال فيه: «إن فاتن حمامة من أعظم ممثلات السينما في الشرق. . لقد أسعدت بتمثيلها الملايين، ومن حقها على هذه الملايين أن يقفوا الى جوارها في هذه

الأزمة. . أن يتمنوا لها السعادة مع الرجل الذي اختارته، أو حتى مع الرجل الذي أخطأت في اختياره!. . فمن حق الفنان أن يتمتع بالحرية الشخصية التي يتمتع بها الشخص العادي. من حقه أن يخطىء في اختيار من يحب، لقد استعملت فاتن حمامة هذا الحق. . ومن واجب كل الذين أحبوها أن يخرجوا اليوم مناديلهم ويجففوا لها دموعها ويقولوا لها: مبروك!»

وكتبت في «الجيل» أيضاً تحقيقاً عن «قصة العذاب في قلب فاتن حمامة». . في أربع صفحات، رويت فيه أسرار شقائها في زواجها من المخرج عز الدين ذو الفقار. . وكنت قد سمعت منها الكثير، الذي جعلني منحازاً اليها. وكانت فاتن قد سافرت الى لبنان، لكي تمضي شهراً تحاول فيه أن تنسى حبها لعمر الشريف. . ولكنها لم تبق في لبنان أكثر من اسبوعين، بعد أن تيقنت أنها تصارع دون جدوى أنبل شعور ملأ كيانها لأول مرة في حياتها!. . ثم تم الزواج بمباركة أسرة عمر الشريف!

وعلى صفحات «الجيل». . اكتشفنا مطرباً جديداً. .

كان ذلك في أوائل عام ١٩٥٥، ومصدر الاكتشاف هو المذيع حسني الحديدي!

وصاحب الصوت الجديد، ظهر في برنامج الهواة أمام الميكرفون، وغنى أغنية «توبة» لعبد الحليم حافظ. . وأثار ذهول المستمعين، لدرجة أن الإذاعة أجرت مسابقة بعد ذلك. . أذاعت الأغنية بصوت عبد الحليم حافظ. . وبصوت المطرب الجديد، دون أن يذكر من يغني وطلبت من المستمعين أن يحددوا صاحب الصوت. . ولم يستطع أحد أن يميز!.

كان اسمه «كمال». . وأصبح اسمه «كمال حسني» تيمناً باسم «حسني الحديدي». . وقد درس في معهد التجارة، واشتغل في البنك الأهلي. .

واستمعنا إليه في أكثر من سهرة. . وقررت أن أتبناه، بعد أن أستمع إليه جميع الملحنين في مصر. . وكان القرار أنه صوت ممتاز. .

وكتبت تحقيقاً طويلاً في «الجيل». . أشرت إليه في الصفحة الأولى من

الأخبار يوم صدور الجيل.. بعنوان «صوت جديد يهزّ مصر».. اقرأ التفاصيل على صفحات الجيل!

وأحدث النشر دوياً، وخاصة أن الملحن محمود الشريف، قرّر أن يتبنّى كمال حسني.. ولكن كمال الطويل رفض، مراعاة لمشاعر عبد الحليم حافظ، الذي تصوّر في ذلك الوقت، أن كمال حسني سيقضي عليه!

وعلّق كل كتاب مصر، على الصوت الجديد..

وكتب عنه محمد حسنين هيكل في يومياته في «أخبار اليوم»..

وبين يوم وليلة أصبح كمال حسني حديث مصر، من أقصاها إلى أقصاها.. وتعاقدت معه ماري كويني على الظهور في فيلم أمام شادية.. ولحّن له محمود الشريف ومنير مراد.. ثم تهرّب الموجي بعد أن كان متحمّساً.. مراعاة أيضاً لصديقه عبد الحليم حافظ.. حتى محمد عبد الوهاب هاجم كمال حسني، دون أن يراه، ودون أن يسمعه.. وكتبت مقالاً هاجمت فيه عبد الوهاب على هذا الحكم الظالم..

وبدأ كمال حسني يسجّل اسطوانات جديدة.. وكان المطرب محمد فوزي، يملك شركة اسطوانات.. وبنى استديو للتسجيل في منزله في الهرم.. وكنت مع كمال حسني عند تسجيل الأغنية.. وفوجئنا بحضور عبد الحليم حافظ!

كان عبد الحليم قلقاً.. واستمع إلى صوت كمال حسني، وزاد قلقه!.. ولكنه هنأ كمال حسني على صوته الجميل!

واستمر النشر عن كمال حسني، عدة أشهر.. وطلبته أكثر من شركة إنتاج سينمائي، ولكن ماري كويني، احتكرت عمله في تعاقدها..

وظهر الفيلم، ولم يلق نجاحاً كبيراً، ولكنه لم يسقط.. وكنت مع كمال حسني في كل خطواته.. ولكن المؤامرات حيكت ضده من كل أصدقاء عبد الحليم حافظ.

ثم سافرت أنا إلى أمريكا، حيث أمضيت أربعة أشهر خارج مصر..

وعـدت لأجد أن كـمال حسني لم يستطع أن ينتصر عـلى قـوى الحـرب. . كلهم كانوا يتعاملون مع عبد الحليم حافظ. وكلهم تراجعوا، بعد أن تحمّسوا. .

ومات الصوت الجديد، الذي هزّ قلوب مصر فعلاً. .

وأصبت بغمّ عـظيم. . وكـان من أكـبر دواعي فشـل كـمال حسني، أنـه تزوج!. . وأفقده الزواج حرية الحركة!.

وبعد هذه التجربة المرة بالنسبة لي، لم أتصدى للترويج لأي صوت جديد بعد ذلك!

وفي ذلك الوقت، عرفت الملكة دينا. .

كـان قد ثـار خلاف بينهـما وبين الملك حسـين، وحضرت إلى القـاهـرة، لتعيش في قصرها بالمعادي وهي مطلقة. .

لقد قدمتني إليهـا صديقـة مشتركـة. . وكنت أزورها مـرة كل أسبـوع. . ووثقت بي، وفتحت قلبهـا. . وطلبـت مني أن تـتعـرف إلى الأسـتـاذ محمـد التابعي. . وكذلك طلبت أن يزورهـا مصطفى أمـين. . وزارها التـابعي فعلاً، ودافع عن قضيتها، كانت خاصة بطفلتها من جلالـة الملك حسين. . واسـتراحت لذلك، ولكنها غضبت أشد الغضب من مصـطفى أمين، الـذي نشر في «أخبار اليوم» ما كانت لا تريد نشره. . وكان في لقائه معها قد سعى إلى الحصـول على مذكراتها، ولكنها اعتذرت عن عدم نشرها. .

وفي ذلـك الوقت روج الكـاتب الفلسطيني نـاصر الدين النشـاشيبي، أنه على علاقة حب بالملكة دينا. . وكان ذلك غير صحيح. .

وحدثت واقعة طريفة. .

لقـد زارها المـطرب فريـد الأطـرش، وعـرض عليهـا الـزواج. . ولكنهـا اعتذرت في ذوق وكياسة، بحجة أن تقاليد العـائلة تفرض عليهـا الزواج من فـرد من العائلة. . وكان فريد الأطرش يريد أن يستثمر هذا، في الدفاع عن كرامته، بعد الصفعة التي تلقاها من الملكة السابقة ناريمـان. . وخاصـة أن فريـد الأطرش كـان يعتزّ دائمـاً بأنـه «أمير». . قبـل أن يكون فنـانـاً. . وكـان يـدعـو الأمـراء

السعوديين إلى بيته بهذه الصفة. . وكان يعتز بأن الملك حسين يزوره ويتناول عنده العشاء، ويمضي السهرة في بيته. .

واستمرت الملكة دينا في إقامتها في القاهرة، وكانت فعلاً مثالاً للخلق القويم، والحرص الكامل على سمعتها. . حتى تزوجت أخيراً، من مناضل فلسطيني، أسرته اسرائيل عند غزو لبنان، ثم أفرجت عنه. . وانقطعت صلتي بها تماماً. .

وفي عام ١٩٥٦، وقع العدوان الثلاثي على مصر. .

ولعبت «الجيل» دوراً كبيراً، في التشجيع على التطوع في الحرس الوطني، للتدريب على السلاح. . وقد تدفّق على الحرس الوطني آلاف من الشباب، والغريب أن كثيراً من شباب الأسر الاقطاعية التي أوذيت من الثورة تقدموا للتطوع. . كانت في البلاد صيحة وطنية كبرى. . وقدمت الاذاعة ١٤ نشيداً وطنياً في عشرة أيام، كان أنجحها نشيد «الله أكبر» الذي نظمه عبد الله شمس الدين، ولحنه محمود الشريف، وأصبح على كل لسان. .

ونشرنا تحقيقات عديدة عن «دروس في المقاومة الشعبية» لتعبئة الشعب ضد أي غزو متوقّع. . كما نشرنا قصص العائلات التي قاتل من أبنائها عدد كبير. . وكانت عائلة السيد الرفاعي صورة رائعة للوطنية. . الابن الأكبر للأسرة كان ضابطاً بفرقة الصاعقة، والثاني كان قائد الحرس الوطني بجامعة عين شمس، والثالث والرابع كانا ضابطين بالمشاة، والابنة متطوعة في الهلال الأحمر مع والدتها!

ونشرنا قصص أمهات عديدات تحت عنوان «وحيدي ذهب إلى المعركة». .

وكانت المغامرة الكبرى، هي التي قام بها محرر جديد ومحررة جديدة. . المحرر هو أحمد بهجت (الكاتب في الأهرام الآن) والمحررة هي أمينة شفيق (الكاتبة في الاهرام الآن أيضاً). .

كان أحمد بهجت حديث التخرج في الجامعة، ومن هواة الصحافة. حدثني عنه خاله محمد علي رشدي وزير العدل في وزارة علي ماهر. وكنا على

مائدة على ماهر. . قال لي أن له ابن أخت يهوى الأدب ويريد أن يتدرب في الصحافة. . ورحبت به. وجاء أحمد بهجت. . وقلت له أنني سأجربه في تحقيق صحفي، يركب فيه قطار الصعيد حتى أسوان ويكتب عن تجربته. . ونفذ التحقيق الصحفي، وكتبه، وحكمت عليه بأنه سيكون له مستقبل كبير في الصحافة. .

أما أمينة شفيق، فقد كانت طالبة مثالية في الجامعة الأمريكية. . كانت متفوقة، واستحقت المجانية لتفوقها، ولكنها تنازلت عنها لفتاة فقيرة. . وكانت أمينة شفيق، جميلة، مهذبة، جادة، استحقت احترام الجميع. .

المغامرة، هي أن يدخل أحمد بهجت في زي صياد سمك إلى بور سعيد، وكذلك أمينة شفيق متنكرة في شخصية فلاحة. . وكان عليهما أن يعبرا بحيرة البردويل، ويتعرضا لتفتيش القوات البريطانية. . وكان عليهما في بورسعيد أن يغطيا أحداث العدوان. . وكانت مغامرة رهيبة. . أقبل عليها الاثنان بشجاعة وعزيمة. .

ونجحت المغامرة. . وانضمت أمينة شفيق هناك، إلى فرقة المتطوعين المثقفين الذين كانوا يصدرون المنشورات والنشرات. . وكلهم من الماركسيين. . وكان من بينهم عبد المنعم القصاص سكرتير تحرير الجيل. .

وكتب الاثنان تحقيقات صحفية رائعة. .

وخلال الرحلة. . حدث ما هو مضحك. .

لقد ركب أحمد بهجت وأمينة شفيق، قارباً صغيراً في بحيرة البردويل. . وكان الجو بارداً واضطرا أن يلتحفا معاً بغطاء واحد ثقيل. . وخلال هذه الرحلة، تصور أحمد بهجت أنه وقع في حب هذه المحررة المثالية أمينة شفيق. ولما رحلا إلى بورسعيد، دبر لهما مصطفى شردي حجرة في منزل، للمبيت فيها. . لم يكن هناك إلا حجرة واحدة!. .

وتصور أحمد بهجت أنه سينام على الأرض، وترك السرير لأمينة شفيق، التي ارتمت على السرير بملابسها الكاملة، ثم أعطت ظهرها لأحمد بهجت

الواقف حائراً في الحجرة. وقالت له بلهجة آمرة.. أحمد.. أنا سيبالك نص السرير!

وارتمى أحمد بهجت على النصف الآخر من السرير، وراحت هي في نوم عميق.. أما هو فقد أمضى الليل ساهراً، وفي دهشة من جرأة هذه الفتاة، وسلامة سلوكها..

ثم أمكن بعد ذلك تدبير سرير آخر..

وخلال إقامتها في بورسعيد.. كانت هي تختفي بين المثقفين.. وكان هو يجوب المدينة ليسجل ويكتب.. ولكنه قرر أمراً..

قرر أنه سوف يتقدم لخطبة أمينة شفيق، بمجرد العودة إلى القاهرة.. وسرح به خيال أحلام الحب!

وعندما فعل ذلك، كانت الصدمة الكبرى..

قالت له أمينة: شكراً.. لقد ارتبطت بعبد المنعم القصاص في بورسعيد واتفقنا على الزواج!..

وسمعنا القصة في الجيل من أحمد بهجت.. وضحكنا طويلاً على خيبة أحمد بهجت!

وبعد زواج أمينة، من الماركسي عبد المنعم القصاص، تأثرت أفكارها، ودرست الماركسية، وأصبحت من أقوى دعاماتها.. وهي دائماً موضع مودة واحترام كل زملائها.

وأحمد بهجت هو الذي قدم إلى قراء الجيل، شاباً مكافحاً، كمنوذج للشاب العارق الذي يتحدى كل العقبات.. ثم أصبح هذا الشاب، كاتباً كبيراً، وناقداً فنياً شهيراً.. وهو الأن «الدكتور غالي شكري»..

كان الموضوع الصحفي بعنوان «قصة كفاح.. أبوه فراش ونال ٣ شهادات عالية».. ونشرنا صوراً لهذا الشاب المكافح الذي روى قصة حياته.. كان والده تاجر قماش، ولكن الأسعار انهارت مع الحرب وانقطع تصدير القماش.. فاضطر أن يعمل فراشاً بالمدرسة الانجليزية في منوف..

وتعلم ابنه بنفس المدرسة وحصل على شهادة «المترو كليشين» وعمره ١٤ عاماً. . وكان ترتيبه الأول، ثم مرض والده، واضطر الابن أن يعمل خادماً في مستشفى هرمل بمنوف. . ثم انتقل إلى القاهرة، واشتغل بائعاً في متجر بالموسكي. . ثم قومسيونجي. . ثم مدرساً خصوصياً للانجليزية لطلبة الابتدائي. . وجمع مبلغاً من المال ودخل الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٩ قسم الصحافة. . وكان يعمل في الاجازات الصيفية. وحصل على دبلوم وعمره ١٧ عاماً. . وعمل مدرساً في الفيوم، وأنفق على أسرته. . وخلال ذلك حصل على دبلوم في الأدب الانجليزي بالمراسلة. ، ثم درس الزراعة في مدرسة الزراعة الثانوية بمنوف. . وكان يقدم تحقيقات صحفية إلى مجلات صغيرة. .

* * *

قلت أن الجانب السياسي في مجلة «الجيل» كان محدوداً. .

ولكن كانت لي تجربة سياسية مرة في عام ١٩٥٧. .

أعلن جمال عبد الناصر، عن الانتخابات لمجلس الأمة الجديد. وقال ان الانتخابات ستكون حرة مائة في المائة. . وهي دعوة لكل المشتغلين بالعمل العام أن يتقدموا. .

وقررت أن أدخل المعركة الانتخابية، واخترت دائرة قصر النيل في القاهرة، وكانت تضم أحياء الزمالك وجاردن سيتي ومعروف والمنيرة. .

وكان خصمي في المعركة الصاغ مجدي حسنين أحد الضباط الأحرار، ورئيس مديرية التحرير، التي قامت لاستصلاح أرض الصحراء. . وتكلفت مبالغ ضخمة لا تتناسب مع العمل، مما أكد فشل المشروع. . وتقدمت. . ودفعت رسوم الترشيح. . وبدأت أخطط للدعاية الانتخابية.

ونصحني مصطفى أمين، ألا أقدم على ذلك. . ولكنني أصررت. . ولم يقف عقبة أمامي. وسمح لي بأن أقبض مرتب شهر مقدماً. . سلمه لي بصفة شخصية دون أن يسجل في حسابات أخبار اليومية حتى لا يتهم بمناصرتي.

وشجعتني ليلى دوس. وكانت شخصية اجتماعية مشهورة ومحبوبة، ووالدها الوزير الأسبق توفيق دوس باشا، وارتبط اسمها بمشروع تحسين الصحة، الذي قام على التبرعات لرعاية مرضى السل. . وعرفت منها أنها

رفضت الزواج من ابن امبراطـور الحبشة وولي العهد. . وكـانت تسكن في قصر والدها بالزمالك. .

كنت على صلة عاديـة بها. . ولكنهـا اتصلت بي وشجعتني، وعرضت أن تعقد الاجتماعات الانتخابية في بيتها. . واتفقت معهـا، على أن تعلن تـرشيحها لنفسهـا في دائـرة قصر النيـل. . وبعـد مضي بضعـة أيـام، تعلـن تنـازلهـا عن الترشيح، وتأييدها لي بعد أن اقتنعت أنني أصلح المرشحين. .

وكان هذا الموقف يعبر عن شجـاعة كبـيرة. . فقد نصحهـا محمد حسنـين هيكل، ألا تقدم على تأييدي. . بل كانت نصيحته تحمل شكل التهـديد، بـأن تتحمل نتيجة قرارها. . وقالت لي: لن أتراجع.

وبـدأت أنشر إعلانـات انتخابيـة، في مكان ثـابت، في باب المجتمـع في الأخبار لا تتجاوز ثلاثة أسطر. .

وتعـاون معي عدد من شبـاب الجامعـات، مقـابـل عشرة جنيهات لكـل منهم. . في تـوزيع المنشـورات عـلى المنـازل. وكنت قـد أحضرت خـريـطة من المساحة، للدائرة الانتخابية، بكل شوارعها، ومساحاتهـا. . وخططت لتغـطيتها جزءاً جزءاً. .

وتـطوع لرسم المنشـورات الفنان عبـد السـلام الشريف. . وكتب الخط، الفنـان قدري. . الـذي تطوع أيضـاً لكتابـة اللافتـات الانتخـابيـة الكبـيرة من القماش. . وكل ذلك كان يتكلف جنيهات معدودة. .

ودعت ليلى دوس إلى أكثر من اجتماع في منزلهـا. . وكذلـك دعت السيدة زينات الجداوي. . وقـدمت زميلات ليـلى دوس المنشورات إلى محـلات الزهـور لارسالها مع كل باقة ورد . . وإلى باعة اللبن والزبادى لكى تصل إلى البيوت فى الصباح. . كما استعانت السيدات بدفتر التليفون للتحدث مع كل من له تليفون في الدائرة، ولدعوته إلى انتخابي. .

وكنت قد قررت أن أعقد اجتماعاً فى كل عمارة ، وذلك بأن يدعو أحد سكـانها باقي السكـان إلى فنجان شاي في شقته، ثم أحضر لكي ينـاقشـوني. . وفعلت هذا الفنانة سامية جمال، بـالنسبة لسكـان عمارة ليبـون في الزمـالك، وهي

أكبر عمارة. . ونـاقشني سكانها، ومن بينهم الـدكتور عـلي عيسى أستاذ أمـراض القلب. .

وكانت دعوتي الانتخابية قائمة على أنني النائب الـذي سوف يقـول لا. . تحت قبة المجلس. وأيّد انتخابي في منشوري المطبوع فضيلة الشيخ عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر، والأستاذ مصطفى مرعي، وزميلي أنيس منصور.

وتـوافد عـلى مكتبي شباب كثير، من مختلف أنحاء الـدائـرة. . وبعضهم عرض التبرع بالمال. . وتقدم إلى عامل ميكانيكي ومعه مصاغ زوجته متبرعـاً به في حملتي الانتخابية. . وشكرته وأعـدت إليه المصـاغ، وقد لازمني هـذا العامـل حتى نهاية الانتخابات. . وكان يشرف على إقامة اللافتات في الشوارع. .

ولعـل أقوى لافتـة، وكانت حـديث الناس، هي التي علقتهـا في شـارع قصر النيل، تحت لافتة لمنافسي مجدي حسنين. .

كانت لافتته تقول «انتخبوا مجدي حسنين مؤسس مديرية التحرير». .

وكتبت في لافتي: «انتخبـوا مـوسى صـبري الـذي لم يؤسس مـديـريـة التحرير».

كانت هذه اللافتة، حديث المدينة، لأنها تعني أنني فخور بـأنني لم أؤسس هذا العمل الفاشل. .

والحق أن صاحب الفكرة، هو علي أمين. .

ووقعت ضغـوط عـلى الشيـخ دراز حتى أصـدر بيـانـاً في الصحف، فيـه تراجع عن تأييدي. .

وأبلغ مجدي حسنين الرئيس عبد الناصر، أنني أصرف أموالاً باذخة، وأن السفـارة الأمريكيـة تمول حملتي الانتخـابية. . وأبلغني ذلـك مصـطفى أمـين. . فقدمت له كشفاً بكل مواردي في الحملة الانتخابية، وهي ٢٠٠ جنيه قرضاً من زوج شقيقتي المحـاسب ريـاض نـاشـد. . ومـرتب الشهـر المقـدم. . ولا شيء أكثر!.

واقتنع عبد الناصر، بأنها كذبة من مجدي حسنين. .

ولكن مجدي لم يتوقف عن تجريحي. لقد طبع منشوراً، على أنني أنا الذي أصدرته.. والمنشور دعوة إلى مقاومة الشيوعية، بما يوحي بأنني عميل أمريكي، وطلبوا من مندوب الجمهورية في مجلس الوزراء، محمد البطوطي، أن يقدم هذا المنشور إلى جمال عبد الناصر عند خروجه من المجلس.. ويسأله رأيه.. وفعلاً، حدث، وعلق عبد الناصر بكلمات ضدي! ولكنني أعلنت في الصحف، أن هذا المنشور مدسوس علي..

وكانت الناس متجاوبة معي، لسبب بسيط.. هو أن مجدي حسنين كان يمر في الدائرة بعدد كبير من السيارات الحكومية، وهي سيارات مديرية التحرير، في موكب رهيب.. وكنت أمر بعده، وحدي، في سيارتي الصغيرة.. وعندما يتجمع الناس، كنت أوقف على سطح السيارة، وأخطب في الناس، شارحاً برنامجي الإنتخابي.. هذا المظهر المتواضع جذب لي عواطف الناس..

وقد حدث في ليلة، أن اتفق مجدي حسنين مع سكان إحدى العمارات، أن يلقوا علي الماء والبيض والزبالة.. وأنا أخطب فوق سيارتي.. ولم أهتز.. وتجمع الناس أكثر حولي، وتعاطفوا.. وفي الصباح التالي، زارني عشرات من شباب حي المنيرة، يعتذرون عما حدث.. وهكذا كنت أكسب كل يوم أنصاراً..

ولكن أبرع وأحدث الأسلحة الإنتخابية، كان نشيد عبد الحليم حافظ!

زارني عبد الحليم حافظ في مكتبي، وقال لي إنه مستعد أن يغني نشيداً يدعو لانتخابي.. وفعلاً كتب الشاعر عبد العزيز سلام النشيد وأذكر منه «موسى صبري انتخبوه.. كاتب حر وبتحبوه.. انتخبوه.. انتخبوه» ولحنه بليغ حمدي.. وسجلناه في ستديو مصر، مع فرقة أحمد فؤاد حسن الذي قبض ثلاثين جنيهاً أجر الفرقة الموسيقية.. وقال لهم عبد الحليم قبل التسجيل، إننا في معركة، وهذا هو السلاح السري في المعركة، وطلب منهم أن يبقى الأمر سراً..

وطبعنا شريط التسجيل، على عدة أجهزة تسجيل.. وكنت أذهب إلى المقاهي وأدير شريط التسجيل، ويتجمع الناس، ثم نوزع عليهم المنشورات،

وأقف خطيباً بينهم. . وكان هذا يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، في حي معروف وحي المنيرة. .

وكنت أنشر في الصباح، إعلاناً صغيراً من أسطر تقول: موعدكم اليوم مع نشيد عبد الحليم حافظ في حي معروف!. . وهكذا. .

وجن جنون مجدي حسنين. .

واتجهت كل الأنظار إلى هذه الدائرة. .

وتلقى عبد الناصر تقارير، بأنني سوف أكتسح مجدي حسنين!

وفوجئت ذات يوم في الصباح ببيان من عبد الحليم حافظ في جميع الصحف، تكلف نشره مئات الجنيهات، يقول فيه، إنه غنى هذا النشيد، ولم يكن يعلم أن المنافس في الدائرة هو مجدي حسنين أحد ضباط الثورة الأحرار!

وكان هذا صدمة لي، لأن عبد الحليم كان يعرف تماماً. . وعلمت من مصطفى أمين، أن جلال معوض وعدد من. . أنصار مجدي حسنين، حاصروه في ملهى الأوبرج. . واضطروه إلى إعلان هذا البيان، وشعر عبد الحليم أنه مهدد في مصالحه. .

وقررت أن أرد عليه ، وأن أكشف الحقيقة . . ولكن مصطفى أمين نصحني بأن أقدر ظروف عبد الحليم حافظ. . وأنه فنان صادق، وله مصالحه. . وفعلاً لم أرد.

واحتدت المعركة الإنتخابية. .

وتضاعف التأييد الشعبي لانتخابي. .

ثم فوجئت بقرار من جمال عبد الناصر يعلن فيه إقفال ٥٥ دائرة انتخابية، على المرشحين فيها من الضباط الأحرار. . بمعنى عدم السماح بمنافس لهم في هذه الدوائر. .

وانتهت المعركة. .

وأصبح مجدي حسنين عضواً في مجلس الشعب. .

ثم شاعت قصص الفساد عن مديرية التحرير.. ونوقش الأمر في مجلس الأمة، برضاء من جمال عبد الناصر.. وكتبت المقالات ضد مجدي حسنين.. ولكن عبد الناصر عاد، وأصدر أمراً بوقف الحملة ضد مجدي حسنين.. ثم اشتغل مجدي حسنين بأعمال الإستيراد والتصدير.. وكان وكيلاً عن واردات الصين الشعبية.. وأصبح من الأثرياء! وصدر قرار بوضعي في القائمة السوداء التي تضم الممنوعين من السفر إلى الخارج، والغريب أن هذا المنع استمر بعد تعييني رئيساً لتحرير «الجمهورية».. ولم يرفع إلا بعد وفاة جمال عبد الناصر. وكنت ألاقي الأمرين، حتى أحصل على إذن السفر، بعد موافقة مباحث أمن الدولة، ثم مكتب سامي شرف سكرتير الرئيس.

* * *

وخلال عملي في «الجيل» قمت برحلة إلى لبنان.. ثم رحلة إلى إيران خلال الصدام بين الدكتور مصدق رئيس الوزراء وشاه إيران.. ثم النمسا والقطب الشمالي.. ثم دعيت من وزارة الخارجية الأمريكية إلى جولة ثلاثة أشهر في ولايات أمريكا.. كما غطيت أحداث الفتنة في لبنان عام ١٩٥٦.. وثورة العراق بقيادة عبد الكريم قاسم.. وما بعدها. وكل ذلك سوف أعرضه عند الحديث عن الرحلات الصحفية..

ولكن يبقى في ذاكرتي من رحلتي إلى النمسا ـ وكنت ضمن وفد صحفي ـ حواراً ضاحكاً مع سيدة نمساوية لن أنساه..

سألتها: هل صحيح أن مياه نهر الدانوب زرقاء!..

قالت: اشرب يا صديقي زجاجة من النبيذ وأنت تراه أزرق!

وسألتها: ولكن من سماه بالدانوب الأزرق؟

قالت: شاعر سكران!

وكنا نرى أوبرا فيينا الشهيرة لأول مرة في حياتنا، ولا يسمح بدخول الأوبرا إلا بالملابس الرسمية، أو الداكنة على الأقل.. واكتشف زميلنا فتحي غانم عند وصولنا إلى الفندق أن حقيبته فقدت. وكان يرتدي القميص والبنطلون، وكان تواقاً إلى دخول الأوبرا.. وقد ذهبنا، وشرحنا لهم ظروف فقد الحقيبة ووافقوا على دخول فتحي غانم!

وعندما قلت لمرافقتي: أرى أنه لا يوجد مقعد خال.

أجابت: إنها كارثة لو فقدنا الإحساس بهذا الفن العميق، وتحولنا إلى ارجوازات تدق طبول الروك أندرول!

ومن ڤينا، طرنا إلى «أسلو» على طائرات «كارافيل» التي كانت تستخدمها شركة S A S لأول مرة، باعتبارها أسرع من الصوت.. ومن «أسلو» اتجهت بنا الطائرة إلى القطب الشمالي وقطعت المسافة في ساعتين و١٥ دقيقة، مساء الأربعاء، ١٢ يونيو ١٩٥٨.. وهذه هي المنطقة المتجمدة في شمال النرويج، حيث تبقى الشمس من ٥ يونيو حتى ٩ يوليو لا تشرق ولا تغيب.. ويسمونها أرض شمس منتصف الليل. وكانت درجة البرودة ٢٥ تحت الصفر!.. وأعطونا شهادات بأننا وصلنا إلى القطب الشمالي، وكان المطر غزيراً..

ونشرت تحقيقات عن ثورة العراق في «الأخبار».. واختصصت الجيل بحديث مع العقيد وصفي طاهر الذي قتل نوري السعيد رئيس الوزراء.. وكان حارساً له!.. ونشرت ثلاث لقاءات مع عبد الكريم قاسم. وأذكر أننا في أحد أعداد الجيل نشرنا صورة عبد السلام عارف على الغلاف.. وغضب عبد الكريم قاسم، وكان قد بدأ يشعر أن مصر تدعم عبد السلام عارف ضده!

* * *

ونشرنا في «الجيل» مذكرات الأستاذ محمد التابعي..

وكانت في قمة الإثارة، لأنها أزاحت أسراراً كثيرة، لما كان يجري داخل القصر الملكي، وروع الناس، عندما قرأوا لأول مرة، قصة الحب التي جمعت بين الملكة نازلي، وأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي الذي تزوجها بعقد عرفي، ثم قصة حب أحمد حسنين للمطربة أسمهان.. كما أزاح محمد التابعي، الستار عن أسرار الخلاف بين مصطفى النحاس، ومكرم عبيد، ودور السيدة زينب الوكيل زوجة النحاس باشا في هذا الخلاف.. كما روى التابعي قصة زواج مصطفى النحاس باشا كاملة..

وقدم التابعي لمذكراته بمقال مشوق قال فيه: «من الذي يستطيع دائماً أن يقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق. وإذا نشرت مذكراتي فهل أقول فيها كل ما أعرف، وكل ما سمعت، وكل ما رأيت.. وبين الذين سوف تتناولهم

هذه المذكرات من انتقلوا إلى رحمة الله. ونحن اليوم نحيطهم بهالة من الإجلال والإكبار.. وفيهم من لا يزال على قيد الحياة، ومن هو معدود من الأعلام والصفوة الممتازة في هذا البلد.. هل أقول كل ما أعرف عن هؤلاء وهؤلاء..»
وهكذا أوحى التابعي للقارىء أنه سيقول الشيء الكثير.. وفعلاً حدث!

وكان من أهم ما أذاعه التابعي، ما كان قد علمه من أن الإنجليز كانوا ينوون اختطاف أم كلثوم وعبد الوهاب، إذا ما نجح روميل في غزو القاهرة وانسحب الإنكليز من مصر، وذلك حتى لا تستخدمها الإذاعة الألمانية في الدعاية ضد الحلفاء!.. «فقد كان يكفي أن يعلن راديو القاهرة أن أم كلثوم أو عبد الوهاب سوف يغني هذا المساء، لكي ينصت العالم العربي كله إلى إذاعة راديو القاهرة الذي يسيطر عليه الألمان، وهذا هو الخطر في حرب الدعاية».. وهذه نص كلمات التابعي.

وقدمنا إلى قراء «الجيل» قصة النائب الذي قضى شهر العسل في السجن!.. إنه ابراهيم شكري رئيس حزب العمل الآن، وعضو الحزب الإشتراكي البارز برياسة أحمد حسين في ذلك الوقت.. كان من قادة مظاهرات الجامعة في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ في ذكرى عيد الجهاد، وأصابه رصاص الإنجليز، وسقط إلى جواره الشهيد عبد المجيد مرسي.. ونقل الشباب الضحايا والمصابين على عربة كارو إلى قصر العيني، وتصور ابراهيم شكري أنه سيموت، فهتف « نموت وتحيا مصر حرة » .. وكان قد قبض عليه فى عام ١٩٣٣ وكان فى الأيام الأولى من شهر العسل. ثم قبض عليه في عام ١٩٤٦.. ونجح في انتخابات مجلس النواب في عام ١٩٥٠، وكانت أول صولاته اعتراضه على إصلاح اليخت الملكي المحروسة من أموال الدولة.. ثم قدم استجواباً عن حفلات البر التي تقام باسم الخير فى الظاهر وهى ملذات فاروق فى الحقيقة ، وهاجم الأميرات وقال إنه لا يصح أن يظهر حكام أمة إسلامية بهذا المظهر الوقح أمام العالم.. وقال له رئيس مجلس النواب: إنك تهاجم كل ما يتصل بالملك، وهذا لا يليق مطلقاً من أحد أعضاء برلمان الشعب!.. وأغفل الملك دعوته مثل كل النواب إلى حفل شاي أقامه بقصر عابدين بمناسبة زواجه.. ورد على ذلك، بأنه أرسل خطاباً رسمياً إلى سكرتير مجلس النواب، يرفض فيه الإشتراك في الهدية التي

كانت ستقدم إلى الملك. . وأخذ مبلغ الإشتراك، ووزعه على سعاة المجلس علناً. . ثم قبض عليه واعتقل بمعسكر هاكستب ومنه إلى سجن مصر، بعد أن حكم عليه بالسجن ٦ أشهر. ثم قامت الثورة وحررته. .

كما قدمنا لقراء «الجيل» الكاتب الروائي نجيب محفوظ، الذي فاز بجائزة الدولة عام ١٩٥٩ في أكثر من تحقيق صحفي. . وقدمنا الكاتب الروائي ابراهيم المصري الذي باع كل أثاث بيته، ومكتبة بها ٤ آلاف كتاب، لكي يقاوم المرض. . ولا يزال يكتب وينتج. . وكان ذلك في ابريل ١٩٥٩.

ولكن الدولة لم تهتم بابراهيم المصري. . حتى تولى السادات رياسة الجمهورية. . وكان في اجتماع كبير مع الصحفيين، وكان يروي لهم عن المؤلفات التي قرأها في السجن وتأثر بها. . وأخذ يتلو من مذكراته، صفحات سجلها عن كلمات لابراهيم المصري. .

واتصلت بالرئيس السادات. . ورويت له مأساة ابراهيم المصري، بعد أن تقدم به العمر، ولم يعد له مورد، يهيء له حياة بسيطة. . وكنت قد زرت ابراهيم المصري. وقرر الرئيس السادات له معاشاً استثنائياً، وأصدر قراراً بتعيينه عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب. . ولم يكن ابراهيم المصري ليصدق أن السادات يهتم به كل هذا الاهتمام. . وكان ما أسعده أن السادات تأثر بكلماته، وهو في السجن.

وفي عالم الفن. . بدأنا في تلك الفترة ـ منذ ثلاثين عاماً ـ في تسليط الأضواء على ملحن ضرير. . اسمه سيد مكاوي!. . كان يسكن في المساكن الشعبية بأبو الريش. وقد تفجرت ألحان سيد مكاوي العاطفية، بعد أن وقع في حب فتاة كان يدرس لها الموسيقى. . ولحن أغاني «ده أنا أفديك بعيني. . وأكتر منهم إيه؟». . «وغيرك أنت ماليش». . و«لو بتحبني. . لو بتعزني. . خاصمتني ليه؟». .

وكان سيد مكاوي يعاني من ضيق ذات اليد. . وهذا أهم سبب منعه من الزواج ممن أحبها. . ومن أطرف ما نشرناه، حوار دار بينه وبين والدته التي قالت له:

ـ أمال يا بني عبد الوهاب متجوز ازاي. . يعني هوه أحسن منك؟. .

ورد عليها سيد: أيوه طبعاً. . عبد الوهاب أحسن مني. . عنده الموهبة
فترد عليه الأم: موهبة إيه؟. .

يحتضنها في مودة ويقول: موهبة التحويش يا أمه!

واكتشفت الجيل «محمد سالم» الذي أصبح بعد ذلك مخرجاً كبيراً في التليفزيون المصري. . كنت قد لقيته في لوس انجلوس عند زيارتي لأمريكا عام ١٩٥٤. . لقد سافر لكي يدرس الإخراج في جامعة كاليفورنيا. . وانقطع عنه المرتب الذي كان يرسله له والده الأستاذ محمد أبو سالم المفتش السابق بوزارة التربية والتعليم. . وبدأ يعول نفسه. . واشتغل بائعاً للخردوات، وعاملاً في دار سينما. . ثم مدرساً للرقص. . وعندما انتهى من دراسته أرسل لي خطاباً، أنه عائد إلى القاهرة، ويتمنى لو استطاع العمل في التليفزيون الذي كان الدكتور عبد القادر حاتم يعد لإنشائه، وحضر. وقدمته للدكتور حاتم الذي رحب به وعينه على الفور. .

ثم كانت لنا في «الجيل» قصة طويلة، بعد أن أعلنت العالمة الرومانية «أنا أصلان» عن اكتشافها الجديد «هـ ـ ٣» الذي يعيد الشباب. . وكانت تدير معهداً باسمها فى بوخارست يضم ١٢٠٠ مريض ومريضة ، ويعاونها فى أبحاثها ٣١ طبيباً قدمتهم لها الحكومة الرومانية للاستمرار في تجاربها التي أحدثت أكبر دوي في الهيئات الطبية العالمية.

وحصلنا على هذا الدواء. . وجربه الأستاذ التابعي. .

ثم اتفقنا مع الدكتور أنور المفتى ، لإجراء تجربة عملية على عدد محدد من المصريين. . ثم ننشر نتائج هذه التجارب. . وكان لذلك ضجة كبيرة في مصر!

وأذكر أنني سألت الأستاذ التابعي عن أثر هذا الدواء. . فاحمر وجهه، وبدا الغضب في صوته وهو يقول: أنا جربته علشان عندي شوية إرهاق. .

ولا أنسى مداعبة للأدباء، ابتكرها أحمد رجب. .

لقد اختار مقالاً قصيراً قديماً، كتبه توفيق الحكيم. . وعرضه على عدد

من الكتـاب والصحفيين، عـلى أنه بقلم أديبـة ناشئـة. . وطلب منهم الرأي في هذا المقال. . فقال عباس محمود العقاد: «هذه سطور كاتب في منتصف الطريق يستحق التشجيـع». . وقال إحسـان عبد القـدوس «أفكار قـديمة وأسلوب غـير صالح للنشر». . وقال أنيس منصور «والله أسلوب مش بطال» وقال عـلي حمدي الجمال: « صفر على عشرة ».

أما أحمد بهاء الدين فقد قال «هذا هو أسلوب توفيق الحكيم»!

وكتب أحمـد رجب الحقيقـة تحت عنـوان «آراء صريحـة جـداً في أسلوب توفيق الحكيم»!

وقد كرر أحمد رجب هذه المداعبة عندما انتقل لفترة مؤقتة إلى دار الهلال. وكتب رواية من تأليفه على أنها من تأليف كاتب اللامعقول فـردريك دورينـمات بعنوان الهواء الأسـود. وكان الحـوار كلامـاً فارغـاً غير مفهـوم. وأرسل منـدوباً صحفياً يعرضها على كبار الكتاب ومخـرجي المسرح. وادعى أحدهم أنـه قرأهـا من قبل في أصلها الفرنسي وقد مثلت هذه المسرحية الزائفة في معهد تمثيل بغداد باعتبارها من عيون الأدب المسرحي الحديث.

وكانت أبواب المجتمع والأبواب الفنية من أنجح ما نشر في الجيل. .

وكـان المفكر الكبـير سلامـة موسى، من كتـاب الجيـل، وكـان يكتب في الموضوعات الإجتماعية، وفي الأدب والفن. .

وقد انضم سلامـة موسى، إلى أسرة أخبـار اليوم، بعـد أن قرر مصـطفى وعلي أمين الاستعانة بعدد من الكتاب التقدميين. وقد شاركته حجرة واحدة، لوقت غير قصير. وكان يقـول لي أنه يـأكل ويتحـرك بالأسلوب العلمي، يختـار الطعام المفيـد القليل، ويمشي كـل يوم من منـزله في الـظاهر حتى أخبـار اليوم. ويشرب كل يوم كأساً واحداً من الويسكي، كدواء لتليين الشرايين. وكان يقدر أنه سيعيش مائـة عام!. . ولكنـه توفي في سبتمـبر ١٩٥٨ بعد أن جـاوز الستين بقليل.

وكان يهوى الحوار العلمي. . كان يسألني. . هل تؤمن بوجود الله؟ . .
فأجيبه نعم. .
ويسأل: إذن. . قدم لي عشرة أدلة على وجود الله. .
وأجيبه: ولكنه يقول لي: سأقدم لك عشرين دليلاً على عدم وجود الله. .

ويروي أدلته.

وأربكني. . ورجوته ألا نتناقش في الدين. . واستجاب ضاحكاً، وهو يقول: هذا دليل على أنك ضعيف الإيمان!

ومرة داعبته. .
ـ هل تمارس الجنس في هذه السن؟. . ألم تخن زوجتك قط؟. .

وروى لي قصة ممتعة. .

وكان آخر مقال كتبه قبل وفاته بعنوان «الفن في حياتنا». . وطالب فيه بجعل الرقص مادة أساسية في التعليم الابتدائي والاعدادي. وقال: «ليس الرقص غريباً علينا. أن أسلافنا أيام الفراعنة كانوا يرقصون رقصات فنية رشيقة أنيقة، حبذا لو درسناها وأحببناها. إن أسلافنا كانوا يرقصون، لماذا لا نرقص مثلهم؟». .

وكان يقصد بطبيعة الحال، الرقص الايقاعي. . والباليه. وكان يرى أن الرقص الشرقي تعبير عن غرائز منحطة!

وعودة إلى حديث الفن. . أقول، ان فايزة أحمد لمعت كمطربة في عام ١٩٥٦. . كانت مطربة مغمورة، لم يسمع عنها أحد. ثم غنت في الإذاعة لحناً لمحمد الموجي لأغنية «أنا قلبي إليك ميال» وتدفقت آلاف الرسائل على الإذاعة، تطلب سماع الأغنية. . وبحثنا عن فايزة أحمد ولم نجدها. وحاولنا أن نعثر على صورة لها، وأخيراً وجدنا الصورة في مجلة فنية مغمورة كان يصدرها عبد الشافي القشاش. . ثم أصبحت فايزة أحمد اسماً كبيراً. . وكان جلال معوض يتلو

أسماء من طلبوا أغنيتها في الاذاعة لأكثر من ربع ساعة.. ويعتذر عن عدم تلاوة باقي الأسماء.. ولم يكن عبد الوهاب ليصدق!.. ثم قربها إليه ولحن لها.. وقدمت صافيناز كاظم تحقيقات ممتعة عن شخصية فايزة أحمد.

وفي تلك السنوات ما بين ١٩٥٣ ـ ١٩٥٩.. لمعت صباح، ونجاة الصغيرة.. وشادية وعبد الحليم حافظ.. وكان الجمهور يهتم بالأغنية، اهتماماً كبيراً..

وقد لاقى عبد الحليم، متاعب عديدة، حتى أثبت وجوده، وحتى اعترف به الجمهور، واعترفت به الصحافة..

ولا أزال أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها عبد الحليم حافظ..

كان ذلك في منزل زميلنا توفيق بحري، سكرتير تحرير «الجيل».. قال لنا: إنه سيدعونا مع عدد من الأصدقاء، للعشاء في منزله.. وسوف يقدم لنا مطرباً جديداً، اسمه عبد الحليم حافظ.. وذهبنا إلى العشاء.. وحاول عبد الحليم حافظ أن يجذب انتباهنا، وهو يغني أكثر من مرة، ولكننا انصرفنا عنه إلى الحديث وتناول الطعام. ثم جاءت فتاة بدينة خفيفة الروح اسمها نجاة. قالوا انها شقيقة صباح، وانها صاحبة صوت جميل، وطلبنا منها أن تغني.. وكانت مطربة السهرة!

وكانت الصحف في ذلك الحين، تهتم بزواج وطلاق النجوم. في تلك الفترة طلبت السيدة اقبال نصار الطلاق من محمد عبد الوهاب. وحاول عبد الوهاب أن يمنع هذا الطلاق بكل الوسائل. ولكنها تركت المنزل، وأصرت على الطلاق.

وكنت أتصور أن عبد الوهاب يتمتع بحياة زوجية سعيدة.. وخاصة بعد أن أنجب عدداً من الأبناء، ولكنني أجريت حديثاً مع عبد الوهاب، وكانت زوجته حاضرة، ولما عدت إلى مكتبي، اتصلت بي تليفونياً، لتقول لي: إن كل ما قاله لك عبد الوهاب عن السعادة الزوجية غير صحيح. إننا نواجه خلافات فظيعة..

وأحب عبد الوهاب السيدة نهلة القدسي. . وتم زواجهما بعد الطلاق.

كما تم طلاق صباح من عازف الكمان المشهور أنور منسي، في يوليو ١٩٥٥، بعد زواج استمر ٢٨ شهراً. وكانت قصة حبهما على كل لسان. ونشر أنور منسي رسالة تلقاها من صباح في ابريل ١٩٥٥ تعبر عن حبها «زوجي العزيز. . إذا قلت لك أنني أحبك، فإنني أكذب عليك لأنني أعبدك. أنت حياتي وروحي وقلبي وربنا يخليك لي إلى الأبد». . ووقعتها زوجتك إلى الأبد. . صباح.

وأحبت صباح بعد ذلك المذيع أحمد فراج. . وأشهرت إسلامها، وكان يطلب منها أن تؤدي فروض الصلاة. . وكانت تحضر برنامجه الديني الأسبوعي في التليفزيون نور على نور. . وحاولت أن تجعل من أحمد فراج نجماً سينمائياً، ومثل أمامها فيلماً. . ولكنه فشل، ثم افترقا بالطلاق. . وعاشت صباح حياتها من مغامرة إلى مغامرة. . تحاول دائماً أن تتحدى الزمن.

وتزوجت فاتن حمامة من عمر الشريف في يناير ١٩٥٥ كما ذكرت من قبل.

وطلقت شادية من زوجها عزيز فتحي نجل المستشار محمد فتحي. . وكان هذا هو زواجها بعد طلاقها من عماد حمدي!

وقد علمتني تجربة عملي في الجيل، ومخالطتي لأهل الفن، أن مفاجآت الزواج والطلاق لديهم. . عادية جداً!. .

لقد دعاني النجم الضاحك اسماعيل ياسين إلى سهرة في منزله. كان مدعواً إليها عماد حمدي وزوجته شادية. وقد جلسا طوال الليل، وحتى الفجر ملتصقين. . وكانا يتبادلان القبل أمامنا. . وفي الصباح سمعنا عن طلاقهما!

وفي تلك الفترة، ولدت أعنف قصة غرام بين الموسيقي أحمد فؤاد حسن والراقصة نجوى فؤاد. . ونشرت عنهما التحقيقات المصورة العديدة. . وانتهت قصة الحب، وقالت نجوى أن مليونيراً عرض عليها الزواج!

واشتهرت ماجدة بمعاركها مع المخرجين. . وكان أشهرها، خلافاً كبيراً

بينها وبين المخرج عز الدين ذو الفقار، اثناء اخراج فيلم «جميلة». . وتوقفت ماجدة عن العمل، وأعلنت أنه مخرج فاشل وطلبت منه أن يلزم حدوده. وقال عز الدين ذو الفقار أنها ممثلة ضعيفة مغرورة متصورة نفسها أنها فاتن حمامة!

* * *

وفي عام ١٩٥٧ أثرنا أزمة لفضيلة الشيخ الباقوري وزير الأوقاف. . كتب زميلنا جنيدي خلف الله حديثاً على لسانه، لم يستأذنه في نشره. . ويبدو أنه نقل آراء الباقوري بأسلوب متعجل غير دقيق. . ونشرنا الحديث، وكانت عناوينه: «الباقوري يقول: من حق المرأة أن تصلي عارية اليدين حاسرة الرأس. يجوز للرجل أن يعانق عروسه ويقبلها قبل الزواج». . وأثارت هذه الآراء ضجة عنيفة مؤلمة ضد الباقوري. . ونشر حديثاً في «الأخبار» بعد صدور «الجيل» بيومين يصحح فيه ما نشر على لسانه. ولم يستطع الانتظار أسبوعاً حتى يصدر العدد التالي من الجيل، وفيه التصحيح. . ولكن الباقوري لم يغضب كعادته. . متسامحاً رحب الأفق.

* * *

ولعل أبرز أحداث عام ١٩٥٨ السياسية، هو سفر جمال عبد الناصر في أول رحلة إلى الاتحاد السوفييتي. وصحب معه وفداً صحفياً ضم مصطفى أمين وفكري أباظة وجلال الحمامصي وهيكل. . ودعا عبد الناصر إلى مأدبة عشاء، على ظهر بارجة حربية. . ولاحظ عدم وجود الصحفيين على موائد العشاء. . وسأل عنهم، وعلم أنهم يتناولون عشاءهم وحدهم في أسفل الباخرة. . فطلب دعوتهم إلى الموائد الرئيسية. . وكان مصطفى أمين في ذلك الحين في قمة حماسه لجمال عبد الناصر. . واتصل بي بالتليفون من موسكو. . ونشرت المكالمة في مقالتي بالجيل:

ـ ألو. . ألو. . موسكو على التليفون.

ـ أيوه مين؟

ـ أنا مصطفى أمين.
ـ إيه الأخبار؟

ـ شيء رائع لا يصدقه العقل. انهم يتحدثون هنا عن عبد الناصر، كما يتحدثون عن المعجزات.. ان وصوله إلى طشقند والجو صحو، واستمرار صفاء السماء أكثر من ساعة حتى دخوله إلى قصر الضيافة، ثم نزول الأمطار بعد ذلك، أصاب الناس بلوثة!.. إنهم يقولون إن الطبيعة تشترك أيضاً في الترحيب بعبد الناصر!

* * *

حادث انساني وقع لي أثناء رياستي لتحرير الجيل، التي امتدت من مارس ١٩٥٤ حتى آخر ديسمبر عام ١٩٥٩.. لا أستطيع أن أنساه.

اتصل بي وزير وفدي سابق، كان من أعلام السياسة والمجتمع، وهو من أبناء الصعيد. طلب مني أن ألقاه في مكتبه للمحاماة، الواقع أمام سينما ريفولي.

وذهبت إليه في الموعد المحدد.. وسلم علي، وفجأة رأيته يبكي بحرارة.. واهتز جسده اهتزازاً شديداً.

ـ خير يا باشا..
ـ يا ولدي، لقد طلبت لقاءك لأنني أعرف أنك صعيدي، ولك احترام للتقاليد ولسمعة الأسر..
ـ تحت أمرك يا باشا..

ـ بنتي.. زوجناها لشاب.. واتضح أنه لا أخلاق له.. لقد طلقها بعد يومين.. وأرجوك أن تعمل على عدم نشر ذلك، في الجيل أو في أخبار اليوم..
ـ لك مني هذا يا باشا.. اطمئن.

وانصرفت، وأنا في قمة التأثر الحزين. ولا يزال هذا اللقاء، عالقاً بذاكرتي، كأنه تم بالأمس. هذه الفتاة كانت عاراً على أسرتها.. وتحدث كل

تقاليد المجتمع، وأصبح والدها عاجزاً عن السيـطرة عليها وهى تنتقل من د
رجل إلى رجل آخر. . وتزوجت أربع مرات. . وقامت بمغامرات عديـدة. .
انتهى بها المطاف إلى نهاية قاسيـة. عملت جرسـونة في «بـار» فى بيروت، تة
الخمور للسكارى!

* * *

الفصل الحادي عشر

اجتماعات.. ظهر الجمعة.. ورئيس التحرير القاتل

الاجتماع المفتوح برياسة مصطفى أمين يوم الجمعة ـ انقلاب ضد رئيس قسم الإستماع في «الأخبار» وإذاعة البيان الأول! ـ الدكتور صبحي عبد الحكيم يعمل فى أرشيف أخبار اليوم ـ عبد الناصر يستعين بالأرشيف في اختيار الوزراء ـ رصاصتان من مسدس السيدة محاسن ميخائيل أبو سيف ـ طبيب مزيف في مستشفى بولاق ـ رئيس التحرير يقتل زوجته ويكتب قصة الجريمة لجريدته! ـ زنزانة السجين تتحول إلى مكتب رئيس تحرير. .

الفصل الحادي عشر

اجتماعات.. ظهر الجمعة.. ورئيس التحرير القاتل!

استقلت من «الأخبار» ومن «الجيل» في ٢٩ ديسمبر ١٩٥٩، وتولى أنيس منصور رياسة تحرير «الجيل» من بعدي..

وكانت تجربتي في العمل نائباً لرئيس التحرير، في «الأخبار» منذ صدورها في ابريل عام ١٩٥٢، نافعة، ومثيرة، ومتشعبة..

واستحدث مصطفى أمين، شيئاً جديداً.. في العمل في «الأخبار».. كان يعقد اجتماعاً مفتوحاً ظهر كل يوم جمعة، يحضره المحررون، والإداريون، والعمال أيضاً.. وفي هذا الإجتماع، يتلو أحد المحررين ما يسمى بـ «كشف الإنتاج».. وهو يحدد إنتاج كل محرر كما وكيفا.. ثم يجري النقاش، في «الأخبار» الهامة التي تميزنا بنشرها.. ثم يعلق مصطفى أمين، على العمل الصحفي بصفة عامة خلال الأسبوع المنصرم.. ويقدم اقتراحات لموضوعات صحفية للأسبوع الجديد.. كما إنه كان يدعو الصحفي الذي يكون عائداً من رحلة صيفية في الخارج، إلى الحديث في الإجتماع، عن تجربته في البلد الأجنبي..

وكنت بالغ الحرص على حضور هذا الإجتماع.. ولم يفتني اجتماع واحد.. بل إنني جمعت كل تسجيلات هذا الإجتماع، فيما أعتبره مؤلفاً رائعاً عن الصحافة.. وسوف أعرض في هذا الفصل، لتفصيل ما دار في أحد الإجتماعات..

كما استحدث مصطفى أمين، قسماً جديداً، في «الأخبار» لم يكن مألوفاً في الدور الصحفية، وهو قسم الإستماع.. هذا القسم في الدور الأعلى في

المبنى، وبه أجهزة التقاط لاسلكية قوية.. ثم أجهزة تسجيل.. وبه عدد كبير من المحررات والمحررين يعملون في نوبات تستمر لمدة ٢٤ ساعة.. ومهمتهم الإستماع إلى جميع إذاعات العالم، بمختلف اللغات.. ثم تسجيل الأخبار الهامة، وتفريغها.. ويراجعها رئيس القسم واسمه الأستاذ ميخائيل، وتطبع منها نسخ توزع على رؤساء التحرير، ومديري التحرير، ورؤساء الأقسام.. وكان الإنتاج اليومي، يصل إلى ما بين ٤٠ و٦٠ صفحة يومياً. وكان من المهم أن يسجل أيضاً، أن عاصمة ما، لم تعلق على حدث هام.. فهذا الصمت، يعني موقفاً سياسياً.. كما كان هذا القسم، يسجل خطب الرئيس عبد الناصر، وتفرغ، وترسل إلى المطبعة تباعاً.. وينتهي إرسالها بعد عشر دقائق من انتهاء الخطاب!

وكان الأستاذ ميخائيل رئيس القسم، بالغ الحسم والحزم، لا يسامح محرراً تأخر عن موعده خمس دقائق.. لأن العمل في القسم مرتبط بمواعيد الإذاعات الخارجية.. ثم ابتكر الاستاذ ميخائيل نظاماً جديداً، بحيث يكتب المحرر على الآلة الكاتبة ما يسمعه مباشرة من الإذاعة.. السماعة على أذنه، وأصابعه على الآلة الكاتبة.. وكثيراً ما التقط الأستاذ ميخائيل أخباراً سياسية باللاسلكي، تكون مرسلة من سفارة إلى الخارج، أو ما بين عاصمتين خارجيتين.. وكان مصطفى أمين يقدم هذه الأخبار إلى الرئيس جمال عبد الناصر.

وقد عمل الأستاذ ميخائيل حتى جاوز السبعين من عمره، ولكنه لم يفقد نشاطه أو حزمه.. أو توقيع العقوبات القاسية على المهمل والمقصر.. ولم يتحمل هذا الضبط والربط عدد من المحررين والمحررات.. واتفقوا سراً، على إحداث انقلاب بعد منتصف الليل، أثناء غيبة الأستاذ ميخائيل، واستولوا على مكتبه، وأصدروا البيان الأول بنجاح الإنقلاب، وتنحية الأستاذ ميخائيل!.. وكان ما حدث مثار دعابة ضاحكة، وجرى تحقيق مع زعيم الإنقلاب، وأوقف عن العمل.. واستمر ميخائيل في الرياسة أكثر حزماً!

كما كان اهتمام مصطفى أمين بالأرشيف بالغاً. وقد عين فيه ثلاثة من أساتذة الجامعة، أحدهم الدكتور صبحي عبد الحكيم (أستاذ الجغرافيا) الذي أصبح رئيساً لمجلس الشورى أخيراً.. وكانت مهمة الأساتذة الثلاثة، المراجعة

العلمية لكل بروفات الجريدة، بحيث لا ينشر اسم مدينة أو اسم سياسي خطأ. . وبحيث نتفادى أي خطأ تاريخي في مقال لكاتب، أو تحقيق. . وكان زعماء سوريا، يشكون من أن الصحف المصرية تنشر أسماءهم وأسماء المدن السورية، بأخطاء مهنية. .

والأرشيف يحوي الصور، والمقالات والأخبار التي تنشر عن موضوع معين، كما أنه يضم قسماً للشخصيات العامة، وصورها وتاريخ حياتها. . وكان مصطفى أمين يهتم دائماً بالصف الثاني في كل المواقع الهامة، الذي يتوقع له أن يصل إلى الصف الأول في الساحات السياسية أو الإجتماعية. . وكثيراً ما استعان جمال عبد الناصر، بأرشيف أخبار اليوم، في التعديلات الوزارية، عند اختيار وزراء جدد. . ولكن هذا الأرشيف ـ بكل أسف ـ حكم عليه بالإعدام، بعد تأميم «أخبار اليوم». . وعندما تولى كمال رفعت (من الضباط الأحرار) رياسة مجلس إدارة أخبار اليوم، كان يعين في الأرشيف، من لا مؤهلات لهم، متصوراً أنه مثل أرشيف الوزارات. . ثم بدأت الصحف العربية تسطو على هذا الأرشيف، وكان موظفو الأرشيف، يبيعون صوره وملفاته إلى هذه الصحف. . ولم نتمكن من إصلاح ما فسد، حتى بعد أن توليت رياسة مجلس الإدارة في عام ١٩٧٦. . وأخيراً استطاع طلعت الزهيري رئيس مجلس الإدارة بعدي، أن يستخدم الأفلام (الميكروفيلم) والكمبيوتر في تجديد شباب الأرشيف. .

وأعود إلى اجتماعات «الجمعة» في أخبار اليوم. .

أقدم في هذه الصفحات. . ما حدث في اجتماع واحد. .

كان الخبر الذي نشرته «الأخبار». .

«في منتصف النهار. . وأمام قسم عابدين وأمام مئات من الناس في الشارع الكبير قفزت السيدة البدينة من سيارة التاكسي، وهي تمسك مسدساً في يدها، وأطلقت رصاصتين على الرجل الذي يطاردها ثلاثة أعوام بعد وفاة زوجها ليتزوج منها. رصاصة من الإثنتين أصابت قلب الرجل ومات بعد نقله إلى المستشفى».

* * *

قـدم مندوب الحـوادث، في «الأخبار» هـذه القصـة ونشرت في الصفحـة الأولى مع صورة السيدة القاتلة. .

وعلق مصطفى أمين على ذلك بقوله أن هذا الخبر نشر ناقصاً. .

إن المسدس الذي استخدمته السيدة محاسن ميخائيل أبـو سيف، مرخص وهـذا وجه الغـرابة. . ولكن المنـدوب لم يهتم بهذا الخـبر. . كان يجب عليـه أن يتوجه إلى وزارة الداخلية ويسأل. . هل يمنح الترخيص بحمل السلاح في مصر للمرأة؟؟. . ومتى اتخذ هذا القرار؟. . وكم سيدة في مصر تحمل بندقية مرخصة أو مسدساً مرخصاً. .

ولم يهتم المندوب كذلك، أن يبحث في أرشيف وزارة العدل. . هـل هذه أول سيدة ترتكب جريمة قتل بمسدس؟. . إن المعـروف أن المرأة تلجـأ إلى السم في جـرائم القتل. . ولكن هـل توجـد سـوابق لنسـاء مصريـات قتلن بـإطـلاق الرصاص؟. .

وكـان يجب على المنـدوب أن يـذهب إلى منـزل المتهمـ: ويبحث ظـروف حيـاتها الإجتـماعية. لقـد كتب في الخبر أنهاأرملة، وأن القتيل كـان شريكهـا في محلات تجارية بعد موت زوجها واختلف معها. كان يجب على المندوب أن يقدم أسرتهـا إلى القراء. لقـد اتضح بعـد ذلـك أن لهـا خمسـة أبنـاء أكـبرهم في سن الخامسة عشرة. . وكـان يجب أن يسجل أثـر هذا الحـادث في نفوسهـم. . مـاذا يقول الإبن عندما يعلم أن أمه قتلت رجلاً برصـاصة مسـدس؟ هل كـان يعلم أنها تملك مسـدساً؟. . هـل استخدمتـه قبـل الآن؟ ومـا معلومـات الأبنـاء عن القتيل؟. .

. . هل كان يداوم على زيارة الأسرة؟. . هل كانوا يحبـونه؟ كلهـا أسئلة صحفية إنسانية هامة كان يجب أن يهتم بها مندوب الحوادث. .

وكـان يجب أن يعرف عنـوان القتيل. . وأن يقـدم معلومـات أسرتـه عن عـلاقتـه بهـذه السيـدة. . بـل كـان يجب عـلى المنـدوب أن يجـري مسرعـاً إلى المستشفى ليسجل آخر كلمات قالها القتيل قبل أن يلفظ آخر أنفاسه. .

إن هذه الحادثة قصة صحفية نادرة . . ولذلك كان يجب أن تقدم إلى القارىء كاملة .

* * *

ثم وقع حادث آخر غريب. لقد اكتشف مستشفى بولاق أن أحد أطباء الإمتياز فيه، الذين يكشفون على المرضى، هو طبيب مزيف. . لقد استطاع أن يقدم خطاباً إلى إدارة المستشفى من جامعة الأزهر بأنه تخرج في كلية الطب، وأن الجامعة تطلب تدريبه في مستشفى بولاق.

وذهبت المندوبة وصورت الطبيب المزيف. . واتضح من التحقيق الأول، أن له سوابق في النصب والإحتيال. وأن التي اكتشفت وجوده في المستشفى هي زوجته التى نصب عليها وطلقها . . وقد كانت مصادفة وهى تزور مريضاً فى المستشفى أن ترى زوجها السابق النصاب يعمل طبيباً. . فأبلغت مدير المستشفى. .

قدمت مندوبة «الأخبار» القصة ناقصة. .

وقال مصطفى أمين: لقد كان يجب أن تسرع إلى جامعة الأزهر. وتحصل على صورة من خطاب ترشيحه للعمل طبيباً فى المستشفى . . وتبحث . . هل هذا الخطاب مزور وكيف تم تزويره. . ومن المسئول؟ وكان يجب أن تقابل زوجته المطلقة، أثر اكتشاف الجريمة. . لتروي لها قصة زواجه منها وكيف احتال عليها. . كان يجب أن تبحث عن كل ضحايا هذا المحتال الذي امتاز بالوسامة والأناقة حتى تحذر القارئات من أمثاله. .

وانطلق المحررون . . وقدموا أكثر من قصة صحفية إنسانية عن الحادثين ، استمر نشرها أكثر من أسبوع، وأثارت انتباه القراء واهتمامهم. والهدف من النشر هنا ليس الإثارة أو استغلال غرائز القراء بالترويج لقصص الجريمة والجنس. إن هذه القصص علامات نور على طريق الحياة. لقد ثبت أن نشر الجرائم في الصحف، يساعد على التقليل منها. إن النشر أحد أساليب الوقاية من الجريمة، والمهم. . كيف يعالج المحرر موضوع الجريمة؟. .

* * *

ثم روى مصطفى أمين قصة أشهر جريمة قتل كتبت في الصحف الأمريكية عام ١٩١٨ . إنها جريمة الرجل الذي قتل زوجته لينقذها من متاعب حياته المالية وكان مقرراً أن ينتحر بعد قتلها. . ولكنه تراجع. . وقدم نفسه إلى قسم البوليس واعترف بجريمته.

إن قاتل زوجته هنا. . هو رئيس تحرير مشهور!!

إن قصة هذه الجريمة تدرس في معاهد الصحافة. وقد كتبت بقلم رئيس التحرير القاتل الذي قرأ في الصحف ما سجله مندوبو الجرائم في الصحف عن جريمته، فلم تعجبه. . وثارت فيه غريزته الصحفية الكامنة، فكتبها كما يجب أن تنشر!

وهذا هو الصحفي الذي لا ينسى العشيقة الأولى والأخيرة. . الصحافة. . حتى وهو يدبر جريمة قتل. . ثم ينفذ الجريمة. . ثم يعجز عن الإنتحار. . ثم يحاول الإختفاء. ويفشل، فيسلم نفسه إلى قسم البوليس. وهكذا كتب القصة الصحفية التي هو بطلها:

«قتل رئيس تحرير أكبر جريدة يومية في نيويورك زوجته. أطلق عليها رصاصة من مسدسه وهي نائمة بجواره في السرير. هرب تشارلز تشابين رئيس تحرير جريدة «الإيفننج وورلد» بعد أن ارتكب جريمته الشنعاء. قبل زوجته في جبينها بعد أن قتلها! ذهب إلى البوليس وقال أنا القاتل! فشل البوليس قبل ذلك في العثور عليه. نشرت صحف نيويورك في صفحتها الأولى نبأ جريمته بالعناوين العريضة. نشرت صورته ليقبض عليه من يعثر عليه! لم يستطع أن يعرفه أحد!

إن صورة القاتل اختلفت عن صورة رئيس التحرير المنشورة!

إن الجريمة والندم والخوف غيرت ملامحه!

رآه ألوف الناس وفي أيديهم الصحف التي نشرت صورته ولكنهم لم يعرفوا أنه القاتل!».

ذلك هو تشارلز تشابين. أي أسطورة رئيس تحرير «الإيفننج وورلد» المسمى

شارلي «الشجاع». فبالرغم من الصدمة القاسية التي تلقاها في حادث إرث عمه فقد استمر تشابين في معيشته المستهترة المترفة التي تشبه معيشة أصحاب الملايين. . وقد تسنى له ذلك من مضاربات البورصة التي انغمس فيها، فظل سنين طويلة يعمل بنصيحة محرري الصحيفة الإقتصادية في حي المال في «وال ستريت»، وهكذا أثرى كثيراً، ثم خطر لذلك الأناني أن يعرف عن الأسهم والمستندات أكثر من الذين يقدِّمون له النصح، وتمادى في شعوره واعتقاده هذا حتى جرَّ على نفسه المتاعب، ففي صيف سنة ١٩١٨ وقع في أزمة مالية خطيرة تعذَّر عليه الخروج منها.

وكان تشابين شديد الكبرياء فبعد أن اضطر إلى الاستدانة من أصدقائه لم يجد أمامه مخرجاً من محنته التي جرَّها على نفسه إلاَّ الانتحار. ولكن قبل أن يقتل نفسه قرر أن يقتل زوجته أيضاً. وقد اتخذ ذلك القرار الخطير بعد أن سأل أقاربه ما إذا كانوا مستعدين أن ينفقوا على زوجته إذا مات مفلساً. وقد تلقى على ذلك السؤال إجابات فاترة جعلته يتخذ قراره بقتلها. . وذات ليلة وهو يتقلب على فراشه من القلق قال لنفسه «لا أستطيع، أن أموت كالجبان وأتركها تتحمل الفقر والعار بعد موتي» وقد قال تشابين: بكيت الليل بطوله وأنا أتألم مما سوف يحدث.

ولم تسمح حالة تشابين المالية أن يعيش هو وزوجته بعد ذلك في فندق بلازا حيث بلغ حسابه ثلاثة آلاف دولار. واضطرا لأن ينتقلا إلى جناح صغير في فندق متواضع هو فندق كمبرلاند عند تقاطع شارع برودواي بالشارع الرابع والخمسين. وفي مستهل سنة ١٩١٨ بدأ الإثنان يتركان الفندق ويقومان برحلات قصيرة اعتبرتها الزوجة إجازات. أما تشابين فكان يحمل معه في تلك الرحلات مسدساً بوليسياً أخذه من صديقه ضابط البوليس. لقد كان في نيته أن يقتل به نيلي زوجته ثم يقتل نفسه.

وفي أولى تلك الرحلات التي قام بها الإثنان خارج المدينة كاد أن ينفذ تشابين خطته. لقد أخذ نيلي إلى واشنطون ليحتفلا بذكرى زواجهما التاسعة والثلاثين. وفي الليلة التالية للاحتفال، انتظر تشابين حتى استغرقت نيلي في النوم، ثم انحنى والتقط المسدس من تحت السرير ورفعه ليصوبه إلى مؤخرة

رأسهـا. وفجأة ـ كـما قال ـ ظهـر له شبـح أمه وقـد وقفت في الحجرة عـلى بعد خـطوات قليلة من السرير. . «ولم تكن تلك السيـدة العجـوز التي رأيتهـا قبـل موتها ببضعة أيام وقد أنهكها المرض، بل كانت تلك الأم الجميلة التي عبدتها في طفـولتي. . وقفت تنظر إلي وعـلى فمها تلك الإبتسـامة العـذبة وتهـز رأسها كـما كـانت تفعل في طفـولتي عندمـا تؤنبني عـلى خـطأ ارتكبتـه. وفجـأة اختفت من أمـامي. . ولا أدري ما إذا كـان الشبح هـو روح أمي أم كـان من فعـل مخيلتي المحمومة. وعلى كل حـال لم أرتكب جريمتي في تلك الليلة، بـل أخذت زوجتي بين ذراعي وقبلتها بينما أخذت أردد صلاة خافتة أعبر فيهـا عن شكري لله عـلى بقائها على قيد الحياة» . .

وللأسف لم يدم ذلك الحال طويلاً، فسرعان ما أخذ زوجته الى اتـلانتيك سيتي لينفذ خطته. ومع أن شبح أمه لم يظهر له في تلك المرة، إلا أنه لم يقو عـلى قتلها عندما حانت ساعة التنفيذ.

وفى اليوم التالى عندما ذهبا إلى محطة السكة الحديد مرّ بامرأة تبيع أقلام رصاص. ولما رأتها نيـلي قالت لزوجها تلك العبارة التي قررت مصيرها وهي «يا لها من مسكينة! كم يكون فظيعاً لو حدث لي مثلها». ففي القطار وجد تشـابين نفسه يتذكر وجه بـائعة الأقـلام، وقد قـال في ذلك: «كـان وجه بـائعة الأقـلام يغيب عن مخيلتي ويحل محله وجه زوجتي. فكنت أراها مريضة شاحبة هزيلة تمد يدها الى المارة تستجديهم، لذا رأيت حلاً واحداً ينقذها من ذلك المصير»

وعندما وصل الاثنان الى نيويورك وجد تشابين نفسه يفكر بهدوء وتـرو في قتـل نيـلي وقتل نفســه. وعبر رئيس التحـرير عن الأفكـار المشـوشـة التي تسبق إرتكاب الجريمة فقال: «كان تفكيري في تلك اللحـظة واضحاً، فقد اهتديت الى نفسي وتأكدت مما يجب علي أن أفعله. وكنت لم أذق النوم منذ أكـثر من اسبوع. وكـانت أعصابي متـوترة. وفمي يكـاد يحترق من وخـز ابر متـوهجة كـدت أجن منهـا. كما خشيت أن يـدور الجنون بعقـلي ويمنعني من تنفيذ مـا اعتزمتـه. فـماذا يكون المصير إذا جننت. . فقتلت نفسي وتركت زوجتي. تركتها للألم والجـوع بعد حبها لي وتفانيها في خدمتي طيلة حياتنا الـزوجية الـطويلة؟ وكانت تلك الفكـرة عذاباً لي عجبت كيف احتملته واحتفظت بعقلي في نفس الوقت.

ومع ذلك كان حب تشابين الأول للصحافة، ففي محطة بنسلفانيا أرسل نيلي الى فندق كمبرلاند، بينما ذهب هو الى الجريدة حيث أشرف على العمل في حجرة التحرير. وعمل كعادته بقسوة ونشاط طيلة بعد الظهر، أي يوم الجمعة ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٨. وقبل أن يترك الجريدة صرف شيكاً من بائع السجائر في مدخل الدار بمائة دولار. وكانت حالته المالية قد تدهورت بحيث أنه يعلم أنه لا يملك ذلك المبلغ لكن لم يمنعه ذلك من صرف الشيك.

وفي عطلة نهاية الأسبوع لم يترك الزوجان جناحهما في فندق كمبرلاند. وفي عصر يوم الأحد ١٦ سبتمبر جلس تشابين الى مكتبه في الفندق ليكتب رسالة الى مدير أعمال الجريدة «دون كارلوس سايتز» قال فيها: «أشعر أنني على حافة انهيار عصبي، كما أشعر باقتراب الدقيقة التي سأنهار فيها تماماً. فعندما تتسلم هذا الخطاب سأكون قد فارقت الحياة. ولما كانت زوجتي صديقة حميمة لي فإني لا أستطيع تركها وحيدة في الحياة».

وفي المساء نزل تشابين الى الدور الأول من الفندق وأرسل الخطاب إلى سايتز، وطلب أن يقدم لهما طعام العشاء في جناحه في الدور الحادي عشر. لكن لم يذق أحدهما الطعام، إذ كانت نيلي مضطربة لحالة تشابين النفسية وأفعاله، بينما لم يكن تشابين في حالة يستطيع معها الأكل. وفي الوقت المناسب استعد الاثنان للنوم ووضع تشابين المسدس في مكانه المعتاد تحت السرير بحيث يستطيع تناوله بسهولة. ولم يستقر الاثنان في سريرهما إلا بعد منتصف الليل. وقد صمم تشابين أن يطلق رصاصة في مؤخرة رأس نيلي حتى لا يشوه جمالها. ولمدة ست ساعات متواصلة نامت نيلي نوماً هادئاً على ظهرها، ولم يتمكن تشابين أثناءها من قتلها ـ وقبل السادسة صباحاً بقليل نامت نيلي على جانبها الأيسر فحانت بذلك اللحظة التي ينتظرها تشابين. وكان في أثناء الليل قد نقل المسدس تحت وسادته فمد يده اليه بسهولة وقبض عليه. ثم رفع رأسه وارتكز على مرفقه وصوب ماسورة المسدس الطويلة الى نقطة تقع فوق أذن نيلي اليمنى. وفي تلك المرة لم يجد صعوبة في الضغط على الزناد واطلاق الرصاصة.

وبعد أن أطلق النار على رأس زوجته المستغرقة في النوم حانت اللحظة

التي يجب أن يصوب فيها المسدس الى نفسه غير أن قواه خانته.

* * *

وتلت تلك الحوادث ظروف غريبة. فلم تمت نيلي بمجرد اطلاق النار عليها، والغريب في الحادث أن أحداً من نزلاء الفندق لم يستيقظ من صوت الرصاص بل ظلت نيلي غائبة عن الوعي فأخذها بين ذراعيه وأخذ يحدثها عن الحب والسعادة. وأخيراً بعد السابعة والنصف شهقت السيدة النحيلة واسترخت بين ذراعيه. وعرف تشابين أنها ماتت فخر على ركبتيه بجوار السرير وأمسك بيدها وأخذ يصلي لله أن يفهم مقصده ويغفر له..

ثم جاءت اللحظة الحقيقية التي يجب أن يصوب تشابين فيها المسدس إلى نفسه ويتم المأساة التي دبرها.. وحتى إذا خطرت له الفكرة وقتئذ فإنه لم يعترف بها، وبدلاً منها تصرف وكأن يوم الاثنين ١٧ سبتمبر هو يوم عادي، فبعد نصف ساعة أي في الثامنة صباحا جاء خادم الفندق إلى باب الجناح بجرائد الصباح.. ففي السنين الأخيرة تنازل تشابين عن عادة الذهاب إلى حجرة تحرير «الا يفننج وورلد» فى السابعة صباحاً، فعندما دق الصبى على الباب. كان تشابين مستيقظاً ومرتدياً بدلة رمادية صيفية ورباطاً برتقالياً للرقبة. وكانت النظارة مثبتة على أنفه ومتصلة بشريط حريري أنيق وفي عروته زهرة جميلة، فأخذ الجريدة من الخادم بلا كلام، ولكن عندما رأى الخادمة في الممر قال لها «سهرت مسز تشابين طيلة الليلة الماضية لذا أريد أن تنام الى ساعة متأخرة هذا الصباح».

وبعد أن أغلق الباب كتب عبارة: «الرجا عدم الإزعاج» على ورقة بنية من ورق لف البضاعة. وبدبوس من دبابيس قبعة نيلي ثبت الورقة على الباب من الخارج. ثم وضع المسدس في جيبه ولبس قبعته وأخذ ينفخ في سيجاره الذي تعود أن يمضغ طرفه مع قطع الحلوى.

وفي مدخل الفندق قابل مدير إعلانات الجريدة الذي يسكن في نفس الفندق وطلب منه أن يبلغ الجريدة أنه سيتأخر قليلاً، وقال: «لدى أعمال أريد إنجازها». لكن لم يبد عليه أنه يريد إنجاز ذلك العمل، فقد توقف قليلاً عند حلاق الفندق ليحلق ذقنه، ومع أنه قال فيما بعد: «كان تفكيرى مشلولاً وشعورى

ميتاً إلا أنه بدأ الحلاقة في حالة عادية. وفي الساعة التاسعة وقف منتصباً حليق الذقن على الرصيف ونادى على سيارة أجرة لكنه لم يطلب من السائق أن يمرق به الى بارك رو كما هي عادته كل يوم، بل طلب منه أن يوصله الى محطة السكة الحديد. ومن هناك استقل سيارة أخرى أوصلته الى حديقة سنترال بارك وكأنه قصد بذلك تضليل السائق الأول.

* * *

وقال تشابين أنه كان في نيته إطلاق رصاصة على رأسه في سنترال بارك ولكنه لم يفعل، بل ظل يمشي ساعات طويلة في الحديقة. وقد قال «خيل إلي أنني أينما مشيت كنت أجد مئات الأيدي التي تمتد إليّ تريد خطف المسدس ومنعي من تنفيذ خطتي».

ومع أن مخيلة تشابين كانت مليئة بهذه الأوهام إلا أن تفكيره كان سليماً، فبعد انتصاف النهار بعد مدة طويلة خطر له أنه سيلفت الأنظار إلى نفسه بلفة ودورانه في الحديقة والمسدس في جيبه. كما أيقن أن جثة نيلي سيكتشفها أحد وسيبدأ المسئولون البحث عنه. وفي نفس اللحظة التي مرت بخاطره هذه الأفكار تسلم دون ساتيز خطاب تشابين وقرأه فانزعج لما جاء فيه واتصل بمدير فندق الكمبرلاند بالتليفون وأبلغه الخبر. فطلب المدير البوليس ودخل الاثنان جناح تشابين ووجدا على البيانو في الحجرة الأولى نوتة موسيقية، وفي الحجرة الثانية وجدا العشاء الذي لم يمسه أحد.. وفي حجرة النوم وجدا جثة نيلي.

* * *

وسرعان ما ظهرت ملاحق الصحف تحمل العناوين العريضة التي تعلن «البحث عن تشابين لإتهامه بالقتل» وفي الوقت نفسه كان تشابين يستقل قطاراً تحت الأرض، إذ رأى أنه في القطار لن يلفت إلى نفسه الأنظار كما كان في الحديقة . وقد كتب عن ذلك فيما بعد يقول : «ركبت طيلة اليوم ، قطاراً بعد قطار، وكنت أنزوي في ركن العربة وكأني جثة هامدة، ثم ذهبت إلى حديقة «بروسبيكت» وانتظرت خروج الناس منها حتى تتاح لي فرصة قتل نفسي. ولكن حل الليل وفررت من الظلال التي تعكسها الأشجار على الأرض. وكانت

السماء تمطر. فجلست على مقعد وتخيلت أنني قد مت. لقد تجمد دمي من شدة البرد ولم أعد أقوى على التفكير أو الحركة».

* * *

ومن الطريف أن جلوس تشابين على المقعد في الحديقة قد أتاح له فرصة رفع المسدس الى رأسه، فبينما هو يفعل ذلك اقترب شرطي منه فخاف تشابين وهرب إلى أقرب محطة قطار تحت الأرض فاستقل قطاراً إلى آخر الخط، حيث وجد أن باب الحديقة قد أغلق. ومرة أخرى أخافه اقتراب شرطي منه فعاد الى ركوب القطار ثانية، وسرعان ما شعر بدافع يرغمه على الاطلاع على الجرائد. ففي إحدى المحطات اشترى نسخة ووجد نفسه يحملق في اسمه وقد نشر بعرض ثمانية أعمدة وتحته مقال يذكر فيه كاتبه الحادث ويقول أن البوليس يرجح موت تشابين نظراً لما ذكره تشابين نفسه في خطابه إلى ساتيز. لذلك صعد تشابين إلى الشارع وذهب الى أقرب مركز للبوليس، وهناك ـ ولآخر مرة في حياته ـ استغل نفوذه الصحفي ومعرفته بكل ضباط البوليس الكبار في المدينة، فقرر ألا يسلم نفسه إلا إلى واحد منهم. لذا قال للرجل الذي وجده أمامه في مركز البوليس: «أرسل في طلب الكابتن بيرتي حالاً فلن أحدث أحداً غيره». .

* * *

وبعد ذلك بساعة كان تشابين يعترف في مقر البوليس لرئيس النيابة ولفيف من كبار ضباط البوليس. وكان متمالكاً لأعصابه وفي حالة معنوية جيدة. وقد أدهش مستمعيه بقوله: «هذا هو أسعد أيامي منذ أن وقعت في ورطاتي المالية» ثم وقع على اعترافاته وترك نفسه للمسئولين يقتادونه إلى الزنزانة رقم ١١١٦ حيث يكثر الحراس في الممرات، وحيث تضيء الكهرباء في كل زنزانة طيلة الليل. ووضع تشابين في جناح القتلة. لكن لم يظهر عليه أنه قد نزل إلى ذلك المستوى الوضيع، بل نام على السرير الحديدي الصغير نوماً عميقاً لمدة اثنتي عشرة ساعة. وبعد أن استيقظ من نومه طلب بعض الحلوى والسيجار، كما طلب جميع صحف نيويورك وأخذ يأكل الحلوى وهو يقرأ تفاصيل جريمته واعترافه. وكان يقرأ بعين الصحفي المدقق فلم يعجبه كثيراً ما قرأ. ومن سجنه كتب تحقيقاً صحفياً يعبر عن شخصيته قال فيه: «بالرغم من معرفتي الأكيدة

بالصحفيين. . فإنني لا أفهم كيف استطاع هؤلاء الكتاب تشويه الخبر بهذا الشكل» .

* * *

لقد كتبت هذه القصة الصحفية النادرة منذ سبعين عاماً. وليست قيمتها في أنها تقرأ الآن، ولكن في أنها نشرت في اليوم التالي للحادث، وأن رئيس التحرير القاتل، شعر أن هذا واجبه الصحفي!

لقد أنقذ رئيس التحرير القاتل من الإعدام بالكرسي الكهربائي وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً. . ودخل السجن وأصدر جريدة كانت توزع في كل سجون أمريكا. . وتحولت زنزانته الى حجرة رئيس التحرير. .

إن الانفعالات التي سجلها بدقة، هي مادة علمية للباحثين في علم الاجتماع.

إن واقعيتها تؤكد لمن يفكر في قتل من يحب لإنقاذه، ثم الانتحار. . تؤكد له أنه من الممكن ألا يجرؤ على تنفيذ الانتحار ويصبح مجرد قاتل أناني لاكما أوهم نفسه أنه سينتشل من يحب من متاعب الحياة التي يقاسيها. .

ولكنها أولاً وأخيراً، تثبت أن الصحفي الحقيقي، لا ينسى الصحافة، حتى لو تحول الى قاتل. .

الفصل الثاني عشر

دموع.. في محاكمات الثورة

محاكمة عدلي لملوم أمام المحكمة العسكرية في مدينة المنيا ـ ٣ رجال وسيدة في قاعة المحكمة ـ بين الرئيس القائمقام حتاتة والمحامي علي أيوب ـ الأم الشجاعة ـ المتهم بالقتل صديق رئيس المحكمة ـ انفجارات حارة اليهود وغيرها ـ لقاء بين الهضيبي والدكتور أحمد حسين ـ الجهاز السري المسلح في جماعة الإخوان ـ صورة لمحاكمات محاولة اغتيال جمال عبد الناصر ـ طلعت رئيس الجهاز السري ـ هنداوي دوير الذي سلم المسدس للقاتل ـ ابراهيم الطيب لا يهتز ولا يدافع عن نفسه ـ الحوار الباكي بين جمال سالم والمهندس الدكتور محمد كمال خليفة.

الفصل الثاني عشر

دموع.. في محاكمات الثورة

جرت في السنوات الأولى لثورة ٢٣ يوليو، ثلاث محاكمات هامة..

الأولى كانت محاكمة خميس والبقري في قضية مظاهرات مصانع كفر الدوار.. وقد تناولتها في فصل سابق، حيث شاءت الأقدار، أن أتحول من صحفي إلى محام عن المتهم خميس، أمام المحكمة العسكرية.. وكانت الثورة في هذه القضية، تتصدى لأية حركة عمالية.. مناوئة للثورة. ثم تصدّت الثورة، لتحرك اقطاعي، تمثل في شاب اسمه عدلي لملوم يمثل أسرة إقطاعية.. وقد أتى بأفعال أظهر بها التحدي لنظام الحكم القائم.. وتقرر محاكمته عسكرياً في سبتمبر عام ١٩٥٢، في مدينة المنيا..

وقد سافرت الى المنيا، وأقمت هناك، حتى نهاية المحاكمة، وكنت أبعث الى «الأخبار» برسالة يومية عن المحاكمة.. ثم تعليقات تحليلية نشرتها في حينها..

ثم كانت محاكمة قيادات الإخوان المسلمين أمام محكمة الثورة برياسة جمال سالم.. بعد محاولة اغتيال جمال عبد الناصر، في ميدان المنشية بالاسكندرية.. وقد كنت أحضر هذه المحاكمات يومياً.. وكان زميلي لطفي حسونة يسجل يوميات المحاكمة.. وكنت أكتب تعليقاً تحليلياً عن هذه المحاكمة..

وأقدم في هذا الفصل.. مقالاً نشرته بعنوان «٣ رجال وسيدة.. في قاعة المحكمة العسكرية» عن محاكمة عدلي لملوم، ثم مقالاً بعنوان «المتهم بالقتل صديق رئيس المحكمة» عن محاكمات الأخوان..

المقال الأول

«٣ رجال وسيدة في قاعة المحكمة العسكرية»

كانت قلوب الجماهير التي ازدحمت بها قاعة المجلس العسكري بالمنيا طوال ثمانية أيام تنتقل بعواطفها بين أربع شخصيات تملأ القاعة. . ثلاثة رجال. . وسيدة. .

الرئيس

وكان الرجل الأول في القاعة. وهو رئيس المجلس العسكري. وشخصية هذا الرجل تلتقي عندها ثلاث كلمات. . جلد لا يعرف الملل. وتفكير وقاد يحسم الأزمات. ودقة سريعة إلى أعمق الجزئيات.

لقد رأس ١٥ جلسة في ثمانية أيام في الصباح والمساء. وامتد بعضها إلى منتصف الليل. واستمع إلى ٢٨ شاهداً. وناقش أربعة محامين، اثنين منهم حملا الروب الأسود أكثر من ربع قرن. . وكان يتشاور في كل صغيرة وكبيرة مع زملائه السبعة وينتهي إلى رأي لامع في لحظات. . وكان في كل هذا يشعر المدعي العسكري العام، أنه أمام المجلس العسكري بما يقدّم فقط من حجج وأدلة وبراهين. وليس لزيّه العسكري ثقل خاص في ميزان العدالة. . وكثيراً ما لفت نظره إلى أن هذا السؤال الذي يلحّ عليه لا يجب أن يوجه إلى شاهد. وكثيراً ما قال له: هذا السؤال يا حضرة المدعي يجب أن يسبقه سؤال آخر. .

. . ويشعر الدفاع أن القضاء العسكري هو تحرّ سريع عادل عن الحقيقة. . والحقيقة مجردة إلا من الحق الصراح. . وفي هذا دار حوار عنيف جميل بينه وبين الأستاذ علي أيوب. . فقد ألحّ الأستاذ علي أيوب المحامي عن المتهم في توجيه سؤال بعينه إلى أحد الشهود، وكان يهدف من سؤاله إلى تشكيك المجلس العسكري في صحة أقوال هذا الشاهد. . واتجه الرئيس إلى منع توجيه هذا السؤال. . فثار الأستاذ علي أيوب وقال ان هذا من حق الدفاع. . وابتسم القائمقام حتاته ولم يعترض على أن السؤال من حق الدفاع، وإنما أوضح أن من حق المجلس حماية الشاهد من هذا السؤال. فزادت ثورة الأستاذ على أيوب وصاح بأعلى صوته: إذن أنا متهم بالتهجم على شاهد. .

فأسرع الرئيس يردّ في عبارات تؤكد أن ما تبادر إلى ذهن الدفاع، لم يفكر فيه المجلس على الاطلاق. . ثم اتفقا على صيغة يوجه بها السؤال. وتصافيا في لحظات. . واختفت الزوبعة.

وقال لي الأستاذ علي أيوب بعد ذلك: عندما رأيت القائمقام حتاتة يدير الجلسات بهذه الحنكة والمهارة، خلته رجلاً من رجال القانون. فقيل لي أن ثقافته عسكرية. . فقلت: لا بد أن له خبرة طويلة في رياسة المجالس العسكرية. . فقيل لي (أبداً). . ومضى الأستاذ علي أيوب يقول: فعجبت حقاً لأنني لو رأيته في ملابس مدنية ما كنت أشك لحظة في أنه مستشار قديم تمرس على مقعد القضاء. .

وكان في الجلسات ذا قلب كبير. . سمح لوالدة عدلي لملوم أن تجالس ولدها طوال فترة الاستراحة، ولم يرد لها طلباً بزيارته في السجن. وكان كلما لمح عدلي متململاً في مقعده، تبدو عليه حركات الحيرة والارتباك. . ترك كل شيء. . ترك الشهود. . وترك الدفاع. . واتجه إليه وقال له بما يشعره بالطمأنينة، والحنان: ايه يا عدلي. . عاوز حاجة؟ . .

فينتفض عدلي كمن مسته رحمة من السماء: عاوز أكلّم المحامي يا سيادة الرئيس. .

فيقول له الرئيس في احترام: اتفضل. .

وفي اليوم الأول من المحاكمة، طغى على قاعة الجلسة جو رهيب. . فالسيارات المصفحة تحيط بمبنى المحاكمة. والحراس من رجال الجيش بأسلحتهم ونظراتهم الصارمة الحادة داخل القاعة وخارجها. . وكل من يقف يؤمر بالجلوس. وبدأ المدعي المحاكمة بخطاب مثير طالب فيه برأس هذا المتهم المستهتر العابث. الذي يريد أن يحمي الاقطاعيين ويحارب الاصلاح. .

والحق أن هذا الجو كان كاتماً للأنفاس. مطلقاً للشائعات. وإذا بالرئيس بعد لحظات يضفي على هذه الرهبة، التي كان من الطبيعي أن يبدأ بها الموقف، لوناً طريفاً من الدعابة والمرح نفذ إلى قلوب المتفرجين قبل المتهمين! فشعر

الناس بأن الحلة العسكرية لا تعني قوة وجبروتاً. وأن لابسيها هم بشر لهم قلوبهم ولهم عواطفهم ولهم ضمائرهم..

ذكر أحد الشهود أنه أسرع بالهرب عندما سمع أول طلق ناري. فكان الرئيس يقول له مداعباً في ثنايا بعض الأسئلة: أنا عارف أنك فكيت بعد أول عيار لكن قول لنا ايه اللي سمعته من الناس..

فيقول الشاهد: أنا لم أر شيئاً..

فيضحك الرئيس: أيوه.. ما أنا عارف أنك جريت هوى.. إنما ايه اللي سمعته..

وكان أحد الشهود يسبق كل جملة من شهادته بعبارة (وعلى فكرة).. فكان يقول: وعلى فكرة أول ما شفتهم رحت ماسك البندقية.. وعلى فكرة أول ما شافوني طلعم جري.. وعلى فكرة أنا قبضت على المتهم (عطية محمود) في الحارة..

فكان الرئيس يوجّه له الأسئلة ويسبقها أيضاً بعبارة (على فكرة).. فكان يسأله: وعلى فكرة بأه.. لما شفتهم كانوا بيقولوا ايه؟.. وعلى فكرة قاومك أو لم يقاوم عندما قبضت عليه؟.. وعلى فكرة أين سرت بعد القبض عليه ؟ ..

ولاحظ شهود الجلسة أن الرئيس يضفي عناية خاصة بطفل خفيف الروح يبدو عليه الذكاء وسرعة البديهة أثناء الجلسة.. وقصة هذا الطفل طريفة حقاً. فقد قدم نفسه لأعضاء المجلس العسكري في النادي الرياضي بالمنيا حيث كانوا يقيمون.. وعرض على رئيس المجلس أن يعلمه إحدى الألعاب الرياضية بالنادي. وكان في الجلسات أثناء الاستراحة يقصد إلى حجرة الرئيس ويسأله عن إجراءات المحاكمة العسكرية ويطلب إليه أن يفسر له التهمة الموجهة إلى عدلي لملوم.. فيقول له: قل لي يا (أنكل) ليه عملتم مجلس عسكري؟..

وعندما تأخرت إحدى جلسات المساء، أشار الرئيس على الطفل (سوسو) أن ينصرف لينام.. وانصرف الطفل.. فكانت لهذه المظاهر العاطفية أثرها في قلوب جماهير الأهلين في المنيا، الذين كانوا يروون كل مداعباته مع هذا الطفل ويقولون (والله رئيس المجلس ظريف جوي وابن حلال)..

المحامي

وكان الرجل الثاني في قاعة المحاكمة.. هو الأستاذ علي أيوب.. لقد تأخّر حضوره يوماً فانطلقت الشائعات. قالوا أنه لن يحضر.. وقالوا لا بل سوف يحضر. وحول الحضور وعدم الحضور خلقت عشرات القصص.

وقد فوجيء علي أيوب المحامي يوم حضوره بتحية طريفة.. فقد نزل من الفندق في طريقه إلى دار المحاكمة. ووقف عند دكان صغير يشتري صندوق سجائر. فسمع اثنين يتحاوران باللهجة الصعيدية:

الأول ـ جال ايه جايبين علي أيوب.
الثاني ـ يا خوي المحامين دول ما يختشوش.
الأول ـ هو فيه حد يجدر يطلع ولد لملوم من المشنقة.
الثاني ـ يا عم سيبك.. المحامين عاوزين فلوس وخلاص..

فابتسم علي أيوب ـ وهو الذي روى لنا هذه القصة ـ ابتسم ولم يعلق طبعاً بشيء لأن المتحاورين كانا يجهلان شخصيته.

وبعد أن انتهى من مرافعته في منتصف الليل في اليوم السابق لنهاية المحاكمة. تسابق العشرات إلى تهنئته على دفاعه الرائع. وفي هذه الليلة كانت الجماهير التي شهدت الجلسة، تكفي لملء ثلاث قاعات في حجم قاعة الجلسة.. وقد ابتكر علي أيوب عبارة في دفاعه.. ستجري في سطور التاريخ.. وسيتبناها المحامون أمام المحاكم في كل قضية يهاجمون فيها رجال البوليس. فقد أطلق علي أيوب عبارة «الاقطاع الاداري» على رجال الادارة الذين يلفقون التهم ويتحكمون في الضعفاء..

وعندما استهل علي أيوب دفاعه بقوله ناقلاً عن نقيب المحامين في باريس عن لويس طاغية فرنسا ـ أنهم يطالبون برأسي. وقد جئت لأدافع عن الحقيقة.. خذوا الأولى بشرط أن تستمعوا إلى الثانية.. عندما بدأ علي أيوب بهذا الاستهلال.. ارتفعت في القاعة أصوات الاستحسان والارتياح من السيدات والرجال.. الله.. الله..

وقد استطاع علي أيوب طوال جلسات المحاكمة أن يثبت أقدام الدفاع على أرض صلبة. . فأوجد موازنة تعلو وتنخفض في كفتيها بين الادعاء والدفاع وفقاً لتطورات القضية ومفاجآتها. . فعندما يتقدّم شاهد يبدو عليه أنه يخفي بعض الحقيقة. . يجول علي أيوب ويصول. ويوجّه بدل السؤال عشرين سؤالاً. ولا يملّ ولا يكلّ. حتى يأتي على فريسته. وكان يصل إلى سؤاله الحقيقي بعد السؤال التاسع عشر. وكثيراً ما كان يوجه للشاهد سؤالاً عابراً. . ثم يوجه له نفس السؤال بعد ساعة متلاحقة من الأسئلة يكون الشاهد خلالها قد نسي إجابته على السؤال الأول. إذا كان ممن يتناسون الحقيقة.

وكان لا يترك شاهد إثبات دون تعليق ساخر عنيف. حتى رزقه الله بشاهد هو جندي بوليس صعيدي اللهجة ذاهل النظرات. غريب المنظر. جاء ليتشاجر مع المحامين. . ولكن في أسلوب مضحك طريف. . وسأله الأستاذ علي أيوب: كم رصاصة انطلقت؟

فأجاب وهو يشيح بيديه: وده سؤال يا بوي. . هوه أنا كنت جاعد أعد الرصاص. .

فيسأله: إنما يعني تقدر تقول لنا الوقت الذي أطلق فيه الرصاص بالتقريب.

فيجيب الشاهد وهو في شبه ثورة مضحكة: تجولشي كنت ماسك ساعة في يدي؟

ثم يلتفت الشاهد إلى رئيس المجلس ويقول: هم عاوزين يلفوا عليّ؟

وضحك علي أيوب مرة ومرتين وثلاثا. . ورأى الشاهد (قد استحلى) أن يجيب بهذا الأسلوب الذي أضحك جمهور القاعة. فنهره بعنف حتى ارتبك الشاهد وأقلع عن أسلوبه. ونبه علي أيوب رياسة المجلس، بأسلوب لبق أن من واجبها أن توقف هذا الشاهد عند حده عندما صرخ موجها كلامه للشاهد (يجب أن تعلم أن الدفاع يستطيع أن يحمي نفسه). . وهنا تدخل رئيس المجلس بأسلوب لبق أيضاً. . وأوقف الشاهد عند حده. .

وغادر علي أيوب المنيا. وكان حديث المدينة هو مرافعة علي أيوب. .

وكان الرجل الثالث في القاعة هو عدلي الملوم. لا لشخصيته المميزة في شيء. ولكن لأنه الاسم الأول في القضية.. والقصص المثيرة التي رويت ولا تزال عن هذا الشاب ألبسته أهمية خاصة في نظر جماهير المشاهدين. فالفكرة الغالبة عن عدلي الملوم أنه شاب معتد بنفسه إلى درجة تسول له إهانة الآخرين في كرامتهم وآدميتهم.. وأنه متهوس يرتكب من الحماقات ما يجلب له احتقار البعض وخوف البعض الآخر.. وأنه زير نساء سكير. هذه الفكرة التي ترويها القصص عن عدلي الملوم ـ وقد تكون فيها مبالغات غير معقولة وخاصة بعد أن وضعت يداه في قيد السجن ـ هي التي كانت متسلطة على عواطف الناس خلال المحاكمة.

فكان كل حاضر للجلسة. يختزن قصة في ذهنه عن هذا المتهم. ويحاول أن يتعرف مدى صحتها على لمحات وجهه وحركاته ولفتاته أثناء المحاكمة. ولذلك كان محط الأنظار.

وقد قرأ الكثيرون قصة المحاكمة لا في كلمات المدعي. ولا في شهادات الشهود ولا في خطب الدفاع. ولكن على وجه عدلي الملوم.. كان في اليوم الأول محتقن الوجه ممتد الشفتين إلى الامام وهذه حركة عصبية تنتابه في حالات الضيق والغضب نافراً (نافشاً) كأنه ديك حانق.

عندما رآني في القاعة.. أشار إلى أن أقترب منه وابتدرني سائلاً في حيرة:

ـ إنه رأيك ؟

قلت: خير..

فسألنى وهو يريدنى أن أؤكد له هذا المعنى: أنت شايف كده ؟

فقلت له: ربنا يسهّل كل عسير.

ويوم أن ترافع المدعي العسكري مطالباً برأسه. طغى عليه اضطراب عنيف.. وتململ في مقعده ينقل بصره الزائغ بين هيئة المجلس العسكري وهيئة الدفاع.. وأمه في المقعد الأول. وكانت أصابع يده اليمنى تتحسس رقبته دون

أن يدري. وركب العربة المصفحة عائداً إلى السجن وهو يقول لحراسه: أنا عاوز أسبرين.. عندي صداع.. صداع.. صداع يا ناس.. أسبرين..

ولم يتناول الطعام الذي تعدّه له أمه كل يوم.. وهو يقول:

ـ مش عاوز أكل.. ماليش نفس.. مانيش جعان..

ودخل الحارس إلى غرفته فوجد (تفاحة).. فقال عدلي: مانيش حاكلها.. انها غطا للقلة..

وانتابه خوف مروع. وقد حدث أن أحد كبار ضباط البوليس نهره في فترة الاستراحة لأنه وجده يدخن سيجارة. وتعاليم السجون تمنع التدخين. وأطفأها بقدمه وقال لعدلي: سأحرّر لك محضراً..

فإذا بعدلي يرجوه ملحاً ألا يفعل.. فأبى رجل البوليس. فاستنجد عدلي بضابط آخر ألا يحرر المحضر!

ويوم أن ترافع علي أيوب.. كان عدلي الملوم مبتهجاً.. مستريح الأعصاب هادىء الخاطر.. لدرجة أنه كان يرتل أغنيات بدوية وهو في السيارة المصفحة عائداً إلى سجنه!

.. والأم

وكانت السيدة الأولى في القاعة.. هي أم عدلي الملوم.. لقد وصفها الجميع بعبارة واحدة.. أن عشرات الرجال، لا يستطيعون أن يتحملوا العبء الذي حملته هذه السيدة في شجاعة.

وكان يتنازعها عاملان.. وحيدها ورأسه في مهب الريح.. وشماتة الشامتين من عائلة الملوم أولاً.. ومن خصومها ثانياً..

كانت تجلس في الصف الأول من القاعة ولكنها مميزة لو جلست بين الآلاف. فلها هيبة وعليها وقار. وفيها جرأة وثبات. كانوا يخشون على عواطفها أن تضعف أو تلين. فضعفت عواطف السيدات الغريبات، فقد أثارت فيهن مشاعر الأم.. أما الأم فظلت ثابتة حتى آخر لحظة من المحاكمة.. وولدها

ينصرف إلى مستقبله المجهول. . فاحتضنته وقبلته لأول مرة بعد تسعة أيام. وذرفت دمعة ولكنها أسرعت بإخفاء آثارها. . حتى لا يلمحها الشامتون. .

وعندما عقدت اجتماعاً للمحامين في بهو الفندق. جلست في صدر المنضدة وعلى يمينها ويسارها علي أيوب الوزير السابق. واللواء عباس زغلول المدير السابق لإدارة الجيش، وعبد الحميد الساوي المحامي الذي أمضى في فرنسا خمسة عشر عاماً وكانت هي رئيسة هذا الاجتماع.

قالت لهم في شبه تهديد: إذا ما دعيتونيش للشهادة. . أنا هاجف في المحكمة وأجول اللي أنا عاوزاه. .

وحاول المحامون عبثاً أن يثنّوها عن هذه الفكرة. . ولكنها صممت فأذعنوا. .

وكانت ترمي شهود الاثبات طوال الجلسة، بنظرات قاتلة، ولم يجرؤ شاهد منهم أن يوجه نظره إليها. .

وعندما فوجيء الناس. بشهود النفي وقد انقلبوا إلى شهود إثبات. نظر إليها ولدها وكأنه يسألها: هل هؤلاء هم الشهود الذين جئت بهم ليدفعوا عني الإتهام؟. .

فردت عليه هادئة ناطقة: اصبر ولا يهمك شيء. .

وكانت في حجرتها بالفندق لا تقابل أحداً. . ومضت عليها أربعة أيام لم تذق خلالها طعاماً أو شراباً. . ويدخل عليها خادم الفندق فلا يراها إلا نائمة تبكي. . أو راكعة تصلي. ولكن شيئاً من آلامها لم يبد عليها خارج حجرتها. .

وودعت ولدها في اللحظات الأخيرة. . وهي تقول بلهجتها العربية. . ووقفتها الثابتة. . روح شد حيلك. . بريء. . بريء. . والله بريء.

وهكذا تنقلت الأبصار في القاعة المقدسة. بين قاض في ثوب عسكري. ومحام دخل معركة قاسية. وشاب هزته الأعاصير. وسيدة. . كانت. . وبحق. . رجل الموقف!

المقال الثاني

المتهم بالقتل.. صديق رئيس المحكمة

قالت لي: سأذهب معك..

قلت: مستحيل..

قالت: افترض أنني سمعت الخبر خارج الجريدة.. وذهبت على الفور.. هل كان يمكنك أن تمنعني.

قلت: ولكن حياتك ستكون معرضة للخطر.. ربما انفجرت قنبلة..

قالت: يا سيدي.. عمر الشقي بقي..

وجاءت معي زميلتي عصمت عبد الجواد ـ المحررة بجريدة الزمان ـ إلى حارة اليهود ومعنا مصور الجريدة نحقق حوادث الإنفجارات المفاجئة التي قضت على أرواح عديدين.. وكان معروفاً أن «الأخوان المسلمون» هم مدبرو هذه الحوادث.. وقد تلاحقت الإنفجارات بعد ذلك في عمارة «شيكوريل» بشارع «فؤاد الأول».. وفي شركة الإعلانات الشرقية.. وفي هذه الفترة أيضاً خلال عام ١٩٤٨ وقع اغتيال أحد رؤساء محاكم الجنايات المستشار الخازندار.

وأمضينا أكثر من أربع ساعات بين المنازل المتهدمة. والجثث المشوهة.. وكنا ننتقل مع رجال الشرطة في حذر من بيت إلى بيت.. وكان خبراءالقنابل يكشفون لنا الطريق.. وكانت هذه الأحداث، مظهراً للقوة التي يتمتع بها «الاخوان المسلمون».. ودليلاً على أنهم جماعة منظمة تملك من الوسائل ما تستطيع أن تحقق به أغراضها.. ولم أكن أحمل شعورا معادياً للأخوان.. وكان من بين زعمائهم من كان في اعزاز الأخ الشقيق وخاصة فضيلة الأستاذ أحمد حسن الباقوري الذي التقيت به لأول مرة ذات ليلة في سجن الأجانب عام ١٩٤٣.. ثم نقلنا معا إلى معتقل المنيا حيث أمضينا حوالي خمسة أشهر.. واستمرت صلتنا الوثيقة بلا انقطاع منذ ذلك الحين حتى وفاته. وكان الباقوري يمثل الجناح المعتدل غير المتطرف في جماعة الأخوان.. ومبلغ علمي أنه كان من معارضي حوادث الإرهاب والاغتيال.. حتى انفصل عن الاخوان في عام ١٩٥٢، حينما اختارته الثورة وزيرا، وخيره الإخوان بين الاستقالة أو قبول المنصب الوزاري.. لأنهم كانوا يقاطعون الإشتراك في حكم الثورة.. واختار

الباقوری بلا تردد أن يستقيل ، لأنه كان من المؤيدين للتعاون الكامل مع الثورة ومساندتها حتى تحقق أهدافها. . وكان الباقوري يسعى دائماً أن يكون للأخوان روابط طيبة مخلصة غير متعصبة مع كل العناصر التي تقاوم فساد الحكم. . ولذلك قبل عضوية مجلس إدارة جمعية الفلاح التي أنشأها الدكتور أحمد حسين في عام ١٩٥١ بعد استقالته من وزارة الوفد، وضمت الدكتور نور الدين طراف وفؤاد جلال وابراهيم بيومي مدكور والدكتور سيد شكري، وغيرهم من العناصر الوطنية النظيفة. . وقد سعى الباقوري إلى لقاء بين المستشار الهضيبي رائد «الأخوان المسلمون» والدكتور أحمد حسين، وكنت وسيط هذا اللقاء الذي انتهى بقطيعة كاملة بين الدكتور أحمد حسين والهضيبي . . لأن مناقشة الهضيبي معه لم تكن حواراً سياسياً بقدر ما كانت تأنيباً قاسي اللهجة جارح الكلمات للدكتور أحمد حسين لأنه لا يعرف شئون دينه. . وأنه لو كان درس الإسلام لما اتخذ غير «الأخوان المسلمون» جماعة يعمل من أجلها وفي سبيلها. .

ويجري التاريخ بنا حتى يقع حادث محاولة اغتيال جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية في عام ١٩٥٤ واعتقال الشخص الذي أطلق الرصاص. . واعترافه، ثم تطور التحقيق إلى اعترافات خطيرة عن جهاز سري مسلح كان المدبر له أن يقوم بعدة حوادث اغتيالات لرجال الثورة. . ثم يستولي على الحكم بقواه المسلحة التي ضبطت منها مخابىء تكفي لتسليح جيش!

ومن هنا بدأت محاكمات الأخوان أمام محكمة الشعب برياسة جمال سالم. . وطلب مني مصطفى أمين أن أحضر هذه المحاكمات. . لأسجل لقطات إنسانية عما يجري في المحاكمة تنشرها «أخبار اليوم» و «آخر ساعة» و «الجيل». .

وما كلفني به رئيس التحرير هو لون جديد من صحافة المحاكمات. .

فأنت مطالب أن تقدم جديداً لقاريء المجلة الأسبوعية لم ينشره التسجيل اليومي للمحاكمات في الصحف اليومية.

وهذا الجديد لا بد أن تجلس من أجله خلال المحاكمات. وكل مشاعرك متفتحة لالتقاط الزاوية التي تكتب منها. .

تماماً مثل مصور الجريدة الذي يمسك بعدسته ثلاث ساعات أو أربع

ساعات لكي يسجل صورة واحدة تكون هي حديث الناس.

ومن الممكن أن تنتظر الساعات الطويلة دون أن تحصل على اللقطة التي تريدها. وفي خلال الإنتظار يمكن أن تتجه إلى أكثر من وسيلة..

قد تركز اهتمامك على أخطر متهم.. ذلك الذي اكتسب شهرة أمام الناس.. فتتابع انفعالاته لحظة بلحظة. وتقدم للقارىء الأسبوعي قصته كاملة منذ اليوم الأول للمحاكمة حتى صدور الحكم..

وقد تركز اهتمامك على الجماهير التي تشاهد المحاكمات.. وخاصة المرأة.. إن حضور النساء مثل هذه المحاكمات السياسية التاريخية.. مادة صحفية متدفقة تصل إلى قلوب القراء.. ستجد من بينهن هاويات محاكمات.. أو قريبات لممثل الإتهام.. أو عاشقة مجهولة لأحد المتهمين.. أو زوجة محام كبير..

وقد تركز اهتمامك على متهم خفيف الظل.. يحدث كثيراً أن يكون المتهم المعترف بالقتل مع سبق الإصرار.. من هواة النكتة.. ولا تتركه هذه الهواية حتى وهو يقف أمام قضائه واثقاً من أن مصيره حبل المشنقة..

وقد تركز اهتمامك على متهم يلح عليك أن تحترم وقفته وتقدر كلماته على الرغم من أنك تستنكر فعلته الشنعاء..

المهم هو أن تلتقط خيطاً جديداً أغفل الإهتمام به محرر الجريدة اليومية الذي يسجل المحاكمات..

وكان في هذه القضايا أكثر من خيط..

كان اهتمام الناس مركزاً حول شخص «الهضيبي».. المستشار السابق الذي عاش عمره جالساً إلى منصه القضاء يكافح الجريمة.. فإذا به اليوم في قفص الإتهام، متهماً بالإتفاق الجنائي على قلب نظام الحكم!

وبعد بدء المحاكمات اتجه اهتمام الناس إلى «طلعت» الرئيس التنفيذي للجهاز السري.. إنه أخطر أعضاء الجهاز.. وهو الذي أدار «معركة» الاغتيالات، وهو المسئول عن تنفيذ المخطط للوصول إلى الحكم في بحر من الدماء.. اتجه اهتمام الناس إليه لأنه كان لا يتحدث إلا بالنكته!.. وكان

يضطر القضاة أن يضحكوا على الرغم منهم. . القضاة الذين كان مقرراً أن يأمر باغتيالهم! . .

ولكن هناك فريقاً آخر من المتهمين. . كانوا يمثلون صوراً صحفية تاريخية إذا اهتم بهم قلم الصحفي. . ولم تكن لهم شهرة بين الجماهير. .

هنداوي دوير المحامي الذي سلم المسدس إلى القاتل وقال له: على بركة الله. .

ابراهيم الطيب الذي اعترف بدوره الخطير في الجهاز الإرهابي. . ولم يتراجع عن موقفه منذ القبض عليه. . حتى صدور الحكم بإعدامه. .

ثم أستاذ الهندسة الدكتور محمد كمال خليفة صديق جمال سالم رئيس محكمة الشعب. . والذي كافح جمال سالم طويلاً لكي ينقله من كلية الهندسة إلى مصلحة الطرق والكباري مديراً لها وهو المصري الوحيد المتخصص في هندسة الكباري. . وهو الإنسان العالم المهذب المشهود له بدماثة الخلق من الجميع. .

ولذلك فقد اخترت أن أقدم للقاريء صور هؤلاء الثلاثة في الساعات الأخيرة للمحاكمة. .

ونشرتها في مجلة الجيل في ٦ ديسمبر ١٩٥٤ بعنوان «الساعات الأخيرة». . وذلك عدا صوراً أخرى نشرتها في «أخبار اليوم». .

وقد اخترت أن أسجلها في هذا الكتاب. . لأن جميع المشاهدين للجلسة من محامين وصحفيين وزائرين. . اغرورقت عيونهم بالدموع خلال هذه الساعات. .

الساعات الأخيرة:

حرصت أن أشهد الساعات الأخيرة في محاكمات محكمة الشعب. . أردت أن أكون شاهد عيان لهذا التاريخ عندما نرويه لأبنائنا. . رغبت أن أعيشها دقيقة دقيقة، لا على قسمات الوجوه الظاهرة. ولكن في أعماق النفوس المستترة.

رأيت هنداوي دوير المحامي يدافع عن نفسه أمام محكمة التاريخ. رأيت القلق المرتجف المنبعث من خباياه. يحاول مرة أن يركن إلى استقرار. فيجاهد

وجهه أن يبدو راضياً. . ويصارع عباراته أن تخرج سلسة. ويكافح معانيه أن تنطلق مفهومه. . واضحة. . لكن القلق كان هو المنتصر، حتى عندما استجمع كل أعصابه وجلس يستمع إلى كلمات الإدعاء. . وصوت عبد الرحمن صالح المدعي العام يملأ القاعة مشيراً بسبابته إلى المتهم: باسم الشعب يا قضاة الشعب. . أطالب برأس هذا المتهم.

وقف القلم لحظات في يد هنداوي دوير، وقد كان يدون في ورقة وضعت أمامه نقط الرد على اتهام الدفاع. . وعلت وجهه ابتسامة ضعيفة هزيلة كأنها تقول: لا. . سأدافع عن رقبتي. . سأقنع قضاتي أني أستحق الحياة. .

وقال له جمال سالم رئيس محكمة الشعب. في أدب جم. ونداء رقيق: هترافع عن نفسك يا هنداوي. . ما هو أنت محامي.

ووقف هنداوي دوير بقامته المديدة. وهز رأسه مرتين إلى أسفل وقال: أيوه يا أفندم. .

الرئيس: اتفضل.

قرأ من الورقة التي اهتزت في يده عبارة كاملة كان قد سجلها. . قال إذا كان الإدعاء يرى أن حياته تتعارض مع حياة الشعب. . فإنه يقدم حياته طائعاً مختاراً.

ولم يستطع هنداوي أن يستمر في دفاعه مرتباً عباراته. أو موصلاً بين معانيها، ولكنه كان يستجمع أفكارا متباعدة. ويرد على اتهامات متفرقة غير موصولة. . ولم يضع يده على النقط الأساسية التي تفيده في رد الإتهام عن نفسه. . أراد أن يقول لقضاته أنه شاب مكافح. . وأنه اشترك في الحرب الفدائية ضدالإنجليز في القنال. . وضد اليهود في إسرائيل. . ولاحظ الرئيس أن هنداوي سيبني دفاعه على هذا الإتجاه. فنبهه أكثر من مرة إلى أن المحكمة مستعدة للسماع. . فمن حقه أن يتكلم كما يشاء. . ولكنه يلفت نظره إلى الإنتقال إلى مناقشة وقائع الإتهام. . وحددها له الرئيس أكثر من مرة. ويبدو أن هنداوي كان يعتقد أن استطراده في بيان تاريخه الشخصي كشاب مصري وطني. هو الذي سيدفع عنه حبل المشنقة. . ولذلك فإنه رجا الرئيس أن يفسح صدره

في الإستماع إليه.. وقد كان.. وتكلم هنداوي كما أراد.. استطاع أن يتمالك أعصابه بضع دقائق. ثم بدا يناقش الإتهام.. وهنا كان يقف كثيراً ليرتب عباراته.. ثم يتكلم.. ثم يتوقف.. ثم يستطرد موضحاً أنه على الأقل لم يكن متحمساً للجريمة.. بل كان متردداً في طلبه من محمود عبد اللطيف وهو يعطيه المسدس أن ينفذها..

وهنا تلا له رئيس المحكمة أقواله السابقة في محضر التحقيق. وفي محضر جلسة المحكمة عندما استدعى شاهداً.. وهي قوله:

ولما صمم محمود عبد اللطيف على السفر إلى الإسكندرية.. قلت له طيب روح توكل على الله..

وكان هنداوي في موقف لا يستطيع فيه أن يفسر هذه العبارة بأقل من مدلولها..

فقال: حقيقة أنا لا أذكر أنني قلت هذا تماماً..

ـ ولكن دي أقوالك يا هنداوي..

ـ أنا لا أنكرها.. ولكني أقول صادقاً أنني كنت متردداً.. ولم أتحمس للجريمة..

وكان الإدعاء قد حاصر هنداوي في نقطة هامة.. كان هنداوي يقول أنه ترك عائلته في المنيا، وحضر فور سماعه بارتكاب الجريمة إلى القاهرة ليسلم نفسه ويعترف بكل شيء ولا هدف له إلا خدمة العدالة. ثم كشف الإدعاء أن هنداوي لم يعترف بشيء مطلقاً في بدء التحقيق.. بل أنكر في الصفحات الثلاثين الأولى أن له علاقة ما بمحمود عبد اللطيف.. وقال الإدعاء: لا تصدقوه يا حضرات القضاة في أنه أراد خدمة العدالة.. أنه لم يعترف بشيء إلا بعد أن ووجه وحوصر باعتراف كامل من محمود عبد اللطيف..

ولم يحاول هنداوي في دفاعه أن يبرر هذا الموقف.. ولكنه قال وهو ينتزع الكلمات من وجدانه: أنني لا أطالب بثمن اعترافي.. لا أريد أجراً عن ذلك.

وانتهى دفاع هنداوي.. وتملكه إحساس صادق أن التوفيق جانبه..

فجلس مقطباً حاجبيه، متجهاً بعينيه إلى وجوه القضاة. . لم يكن ينظر إليهم. . كنت أشعر أنه ينظر إلى المجهول!

* * *

وبعد الإستراحة التقليدية دخل إلى القاعة إبراهيم الطيب. . المحامي أيضاً. ورئيس منطقة القاهرة في الجهاز السري. قصير القامة. كبير الرأس. جاحظ العينين. يزن موضع خطواته. كما يزن عباراته تماماً. قدمت له ورقة بيضاء. وقلماً أسود طويلاً. . ولكنه تركهما أمامه. ولم يرفع يده لحظة ليمسك القلم. بل أسند يديه على صدره في هدوء. . وجلس يستمع. وكنت أراه يستمع بعينيه ويرى بأذنيه!

لم يلتفت إلى المدعي العام وهو يصفه بالشره إلى الدم. والتعطش إلى الجريمة. والنهم إلى كراسي الحكم والسلطات. ولم يتململ همسة واحدة والنداء العالي بإعدامه بنفس الحزام الناسف الذي أراد هو أن يعدم به رئيس الوزراء يجلجل في قاعة المحكمة. ولم ينفعل وجهه بأي بادرة إحساس بشيء. هدوء كامل مسيطر على كل حواسه. وكأنه يجلس وحيداً في عزلة باعدت بينه وبين كل ما يحيط بإنسان. . بل خيل إلى أنه كان يريد أن يستحث المدعي العام أن ينتهي من دفاعه سريعاً على قدر ما يستطيع!. . كنت أراه وكأنه على موعد هام خارج القاعة. ويريد أن ينهي هذه المهمة. . مهمة محاكمته. ثم ينصرف!. . ولكن بشرته. وقسمات وجهه. والجلسة الهادئة التي اختارها. . كلها لم تكن لتعبر عن شيء. .

رئيس المحكمة ـ تفضل قول دفاعك يا ابراهيم. .

ويقف ابراهيم الطيب في انحناءة مهذبة، مستسمحاً المحكمة وهو يبتسم احتراماً وتبجيلاً أن تعفيه من الدفاع. .

ـ أنا متشكر. . ليس لي أن أي دفاع أكثر مما قلته في محاضر التحقيق وأمام حضراتكم كشاهد في القضية السابقة.

ـ ولكن يجب أن تترافع يا ابراهيم. .

ويكرر ابراهيم الطيب انحناءته المهذبة.. ويكرر رجاءه إلى المحكمة أن تعفيه قائلاً فى صوت ضعيف واضح النبرات .. منسجم التنغيم : ليس عندى من جديد أضيفه.

الرئيس: طيب اتفضل اقعد..

ويجلس الطيب.. وأحاول عبثاً أن التقط تعبيراً واحداً على وجهه.. فلا أرى أمامي إلا الصورة التي ارتسمت لي مختفية في أعماقه.. إنه على عجل. يريد أن يغادر القاعة سريعاً!!

وتتشاور المحكمة. تصمم على إعطاء الفرصة للمتهم أن يحمي رقبته.. ويقول جمال سالم:

ـ إذا لم تشأ الدفاع عن نفسك فسننتدب لك محامياً..

فيقف ابراهيم الطيب ليقول:

ـ إذن فسأوجز دفاعي.. وبدأ يتكلم وانتهى في أقل من ثلاث دقائق.. ولم يعبر عن أي شعور بالندم. أو استنكار لما حدث.. بل قال إنه اجتهد ليصل إلى تغيير نظام الحكم.. وربما أخطأ في الإجتهاد!

وكان أعضاء المحكمة كلهم آذاناً صاغية لكل كلمة قالها ابراهيم. الطيب. ويبدو لي أنهم احترموا اعترافه الصريح.. وأي اعتراف كان يبديه؟.. كان يقول لهم إنني اشتركت في مؤامرة اغتيالكم.. ولم أهدف إلى أي مطمع شخصي!!.. كان يقولها بعبارة مؤدبة تفيض احتراماً وتقديراً لسامعيها.. للذين قرر اغتيالهم.. ودبر القضاء على حياتهم برصاص المسدسات وتفجير الديناميت، وطلقات المدافع، وإفناء الأحزمة الناسفة!

رد المدعى العام مفنداً دفاع ابراهيم الطيب..

ومرة أخرة سأله رئيس المحكمة.. هل تريد أن تعقب على تعليق الإدعاء.. فيقف الطيب.. ويبتسم في حياء.. ويعتذر عن عدم التعقيب في رقة وأدب..

ويستمر واقفاً.. وكله رجاء صامت أن يستجيب رئيس المحكمة إلى

رجائه. . فيقول له جمال سالم مشيراً إليه أن يجلس ويستريح: طيب يا ابراهيم. . ثم تقرر المحكمة حجز قضيته للحكم. . وما يكاد الرئيس يعلن رفع الجلسة حتى يسرع ابراهيم الطيب في خطاه منصرفاً على عجل. .

شيء واحد ضايقه. . هو تجمع المصورين حوله. وتسليط عدساتهم إلى وجهه المعبر عن لا شيء. . ولكنه لم يتكلم. . ولم يعترض. . بل اكتفى بنظرة صامتة إليهم. لم أجد فيها معنى لتقدير عملهم. .

وأطوى صفحات المتهمين الآخرين. . أطويها لأقف عند صفحة واحدة. بهرتني. ألهبت حواس الإنسان في نفسي. عشتها بكلي. . أثارت دموعي فبكيت. . والتفت حولي. فرأيت كل العيون تشاركني في دموعي. . ولو بغير دموع. .

لم أكن أمام رئيس محكمة. . وأمام متهم. . بل كنت أمام صديقين أو شقيقين. أحدهما يعتصر الكلمات من قلبه في مرارة وألم وهو يحاسب الثاني. . ألم أقل لك يا كمال. . ألم أحذرك. . ألم أنصحك. . بدل المرة مرات. . هل كانت نصائح مخلصة؟

فيجيب المتهم الدكتور محمد كمال خليفة مدير مصلحة الطرق والكباري:

ـ نعم. . أنا لا أنكر. . ولم أنكر أنها كانت نصائح مخلصة. .

الرئيس (في ألم أعنف): كنا نريد أن نتجنب هذا الموقف. . كنا نريد أن نتجنب هذا المصير. .

ويضيف قلب الصديق معبراً في صوت نابض:

ـ البلد كلها كانت بتقول إننا بنحابي الاخوان. . خايفين من الاخوان. . ضالعين مع الاخوان. . وما كانش بيهمنا الكلام. . وأظنك تعلم أنني كافحت سنة ونصف لغاية ما جبتك مدير مصلحة الكباري. . ونقلتك من كلية الهندسة. .

المتهم: هذا صحيح. .

الـرئيس: أنا بـاقول الكـلام ده علشان أبـرأ ذمتي.. ليه؟.. (ثم يـوجه الرئيس كلامه إلى الحاضرين).. مش لأنه أمين.. يصـح نلاقي أمنـاء ونزهـاء كثير.. ولكن لأنه الوحيد في مصر الذي يصلح لهذا العمل..

ويلتفت جمـال سالم.. إلى كـمال خليفة متسـائـلاً: عـرفت الآن مـع أي اناس كنت بتشتغل..؟ عرفت مدى إيمانهم؟.. عرفت ازاي كانوا بيستخـدموا الدين للتضليل؟ ولكنك رفضت إلا أن تستمر..

ويقدر المتهم هذه الروح البارة.. وتبدو إجاباته متفقة مع سـلامة منـطقه وهو يناقش رئيس قضاته.. إنه يعبر عن نفسه في صدق عندمـا يقـول: إنني لم أكن أتصور أن عقلاء يصلون إلى ارتكاب هذه الأعمال الجنونية..

الرئيس: أهو حصل يا سيد كمال..

فيطرق كمال خليفة قليلاً.. ويلتفت إلى رئيس المحكمـة قائـلاً في ثقة من أن سامعه مصدق لكل كلمة تخرج من فمـه: أرجو أن تقـدروا أنني كنت دائماً آمل في الإصلاح.. كل إنسان يعيش على الأمل.. ولا يستطيع إلا هذا..

الرئيس (يهزّ رأسه أكثر من مرة آسفاً): أدي.. الأمل.. أدي النتيجة..

ولعـل القارىء يسـألني.. لم بكيت؟ وأجيب نيابـة عن جميع من شهـدوا هذا الموقف من المحاكمة.. كانت عواطفنا مشفقة على هذا المتهم.

الفصل الثالث عشر

رحلة ناجحة.. بعد قصة حب فاشلة!

قالت لي الفنانة التي أحببتها.. لن تراني بعد اليوم! ـ علي أمين يقرر سفري إلى إيران في رحلة صحفية هي رحلة نسيان! ـ نهلة القدسي في طهران! ـ الكل ينتظر من ينتصر ـ هرب الشاه إلى روما ثم عودته ـ مصدق يحكم وهو نائم على سرير سفري ـ الشاه سجين القصر ـ آية الله كاشاني سيد الموقف ـ لقاء في الجبل مع الإرهابي نواب صفوي ـ محاولة اغتيال الصحفي «الكسروي» ـ جريمة قتل أمام القضاء ـ لقاء الإرهابي والإمبراطور ـ نواب صفوي في القاهرة ـ كاشاني (٧٠ سنة) يتزوج فتاة عمرها ١٤ عاماً ـ رحلة إلى «قم» لمقابلة إمام الشيعة ـ خطاب توصية إلى صاحب الأنفاس المقدسة ـ الشاه يتنازل عن أملاك بهلوي والصحف الشيوعية تسخر من ذلك! ـ مصدق يقول لي: لا خلاف مع الشاه ـ أنقذني سفير الأردن ـ مع السادات في إيران ـ المشهد الرهيب في أسوان ـ السادات يصارح الجمسي بنواياه ـ السادات يهاجمني على شاشة التليفزيون بسبب الشاه.

الفصل الثالث عشر

رحلة ناجحة.. بعد قصة حب فاشلة!

في يونيو عام ١٩٥٣.. واجهت تجربة عاطفية قاسية.

أحببت فنانة مشهورة في ذلك الوقت، وكنت في قمة السعادة، تصورت أن العالم كله يرقص معي. كنت أرسل لها باقات الزهور وعليها كلماتي المتدفقة من أعماقي. وكانت ملهمة تعرف كيف تعامل الرجل. قالت لي يجب أن تؤلف كتاباً عن الأجواء السياسية التي عشتها قبل الثورة. وبدأت أكتب فعلاً أول مؤلف سياسي لي بعنوان «قصة ملك و٤ وزارات».. وازددت اقتناعاً بأنها الحياة كلها..

كنت أراها كل يوم. وأبيت في منزلها، وبدأ ذلك عندما ارتفعت حرارتي إلى أربعين درجة، وأسرعت إليها، لأنني لم أكن أستطيع أن أمضي يوماً دون رؤيتها.. وخشيت علي من التهاب رئوي، فبقيت في منزلها، وهي ممرضتي!

وذات يوم فاجأتني بعبارة قالتها في بساطة:

- سأتزوج غداً..
- كيف؟.. وحبنا..
- حبنا خيال جميل. ولكن الزواج واقع أجمل..
- وأنا؟..
- هذه مشكلتك.. ولن تراني بعد اليوم.

وتركت شقتها، فاقداً لبصري وبصيرتي. أصبحت كالطير الذبيح. وحاول صديقاي علي حمدي الجمال، وتوفيق بحري، إقناعها بمجرد رؤيتي.

ولكنها رفضت! . . وكنت أدور بسيارتي حول عمارتها بعد منتصف الليل، أتلمس نوراً مضيئاً من نافذتها، وأنا في حالة جنون، عندما أتصور أنها بين ذراعي غيري، ولو كان زوجاً!!

وعرف علي أمين بمأساتي.

قال لي: يجب أن تسافر الى بلد بعيد. . لكي تنسى.

قلت: لست مليونيراً. .

قال: أقصد أن تسافر في رحلة عمل قاسية تأخذ منك كل وقتك وجهدك. .

قلت: الى أين؟. .

قال: الى ايران. . الموقف هناك في قمة الخطورة. وقد عاد هيكل من ايران وكتب ان ايران فوق بركان. . الآن تفجر البركان. . وعليك أن تحقق آثار الانفجار. .

كانت هذه أول رحلة صحفية لي. .

وأمضيت يوماً في «الأرشيف» أقرأ كل ما نشر عن ايران في الأعوام الأخيرة. الشاه على وشك أن يتنازل عن العرش، ومصدق رئيس الوزراء أعلن عليه الحرب. . والسياسيون يتساقطون في الشوارع بالاغتيالات. . والإرهاب يسيطر. .

ورفض سفير ايران أن يعطيني «فيزاً» للدخول الى ايران. . حتى جاءته الموافقة من طهران. . وقال لي زميلي وصديقي عبد الحميد يونس، رئيس قسم القضايا والحوادث في «الأخبار». . «عليك أن ترفع رأسنا. . تحقيقات هيكل كانت ناجحة. . ولن تكون تحقيقاتك أقل نجاحاً. ابذل المستحيل لكي تثبت جدارتك. . نجاحك نجاح لنا جميعاً». .

وركبت الطائرة إلى ايران. .

وقصدت إلى الفندق الذي أوصاني هيكل به. كان البقاء فيه مؤلماً.

تليفون واحد في الفندق. والمياه تنـزل من الصنبور سـوداء. . واهتديت الى فنـدق جديد. ولشد ما كانت مفاجأتي عندما وجدت صورة الفنانـة المصرية في إعـلان كبير على حائط يواجه الفندق بمناسبة عرض فيلمها في طهران!

وهكذا لم تهرب من بصري!

وقابلت القائم بأعمالنا في طهران. لم يجـب على سؤال واحد وجهتـه اليه، لكي تتضـح لي صورة المـوقف. قررت أن أزور كـل صحف ايران. ووجـدتها عـامـرة بـالصحف الشيـوعيــة التي تهـاجم الشــاه بـأعنف المقــالات والصـور الكاريكاتورية. . وقيل لي إن أنجح دبلوماسي في ايران هـو عبد المنعم الـرفاعي القائم بالأعمال في سفارة الأردن. وزرته في بيته، واستقبلني مـع زوجته السيـدة نهلة القدسى (زوجة الموسيقار محمد عبد الوهاب بعد ذلك) . . واكتشفت أنه على أطيب العلاقات مع كل أطراف المأســاة هناك. الشـاه ومصدق وبعض قيـادات الجيش، وآيات الله . .

قال لى : الكل ينتظر الآن ، من ينتصر. مصـدق. . وفي هـذه الحـالـة يسقط الشاه. أو الشاه. . وفي هذه الحالة يختفي مصدق. ولكن لا أحـد يستطيـع الاستنتاج. . كل يوم مفاجأة!

المأساة في قمة الصراع الدامي. كـل القوى المتضـاربة عـلى المسرح وجهاً لوجه. مصدق يملك بين يـديه كـل السلطات، وقد أطلق سراح أعضـاء حزب «توده» الشيوعي وأغمض عينيـه عن كل مـا تنشره صحفهم هجومـاً عنيفاً عـلى الشاه وأسرته. والشــاه قـد استعاد قوته بعد أن سيرت مظاهرات مدبـرة تؤيده وتهتف ببقـائه، لـذلك عـدل عن السفر إلى اسبـانيا مخـالفاً لإتفـاقه المسبق مـع مصدق. وكل القوى الأجنبية تؤدي دورها . .

مصدق يركز حركته ضد الانجليز (بعد اعـلانه تـأميم البترول) ولا يـريد أن يقطع الحبل مع الأمريكيين لعلمه أنهم يدبرون أمراً في الخفاء لصالح الشاه. والقائد العسكري الجنرال زاهدي رجل الشاه استطاع أن يهرب من بيته قبل أن يعتقله مصدق ولجأ إلى البرلمان حيث يقيم في حمـايته طبقـاً للدستور الايـراني. . والقـوى العشائـرية تؤيـد الشاه بـالدافـع الـديني. . والقـوى الـدينيـة المشتغلة

بالسياسة لا تؤيد مصدق ولا تؤيد الشاه.. ولكنها إنقسمت على بعضها.. وقوى الأحزاب الرجعية الاقطاعية تنكرت لمصدق وبدأت عملها مع القوى الخارجية.. وميزانية الدولة مهددة بالإفلاس!

وبدأت عملي بالتجول في شوارع طهران، ووجدت ترحيباً من كثيرين عندما عرفوا أنني مصري.. ورأيت صورة الامبراطورة السابقة فوزية (شقيقة الملك فاروق) معلقة في كل متجر على رغم طلاقها من الشاه. كانوا يحبونها. وإعلانات الأفلام المصرية تصف يوسف وهبي بأنه معبود المصريين، وليلى مراد بأنها ملاك القاهرة، وكاريوكا بأنها ساحرة الشرق، وهاجر حمدي بأنها صاحبة أجمل جسد في العالم!

وقررت أن التقي بكل أطراف المأساة السياسية..

لقد انتهت الأحداث في ذلك الحين، بهرب الشاه الى روما..

وتصور الدكتور مصدق أنه سيطر على كل شيء..

ولكن.. تحرك الجنرال زاهدي واستولى على الحكم، بتدبير خططته المخابرات الأمريكية..

وعاد الشاه إلى عرشه..

واختفى مصدق إلى الأبد!

* * *

إنني أريد في هذه السطور من الذكريات أن أقدم للقارىء ما كان جديداً علينا جميعاً..

الدكتور مصدق، الذي كان يحكم ايران، ويعمل على إسقاط الشاه، من حجرة صغيرة، بها سرير سفري يرقد عليه وهو يرتدي البيجاما والروب، وأمامه عدد من التليفونات!.

ولعله أول رئيس حكومة في العالم، حكم بلاده بهذا الأسلوب!

الشاه الذي تنازل عن أملاكه للفلاحين المعدمين، أملاً في الحصول على ثقة الشعب.. ولكنه بقي سجيناً في قصره..

رئيس البرلمان آية الله كاشاني.. الذي كان يعلن.. أمرت الشاه بالبقاء في ايران، وامتثل للأمر.. والذي كان يأمر علناً بحوادث الإرهاب والاغتيالات!

نواب صفوي، الشاب الإرهابي، المختفي في الجبال.. وسلاحه الاغتيال.. وقوى الدولة لا تستطيع أن تصل إليه..

صورة غريبة لا تجدها في أي بلد في العالم..

* * *

ولعل أخطر ما تعرضت له، هو لقائي بالإرهابي نواب صفوي المختفي في الجبال.. وهي مغامرة صحفية لم تتكرر في حياتي..

كانت صحف ايران قد نشرت نبأ وصولي ممثلاً لصحف أخبار اليوم، وبعد أيام من وصولي وجدت خطاباً مقفلاً لي في ادارة الفندق، ولما فتحته قرأت هذه العبارة مكتوبة باللغة الفرنسية:

«إن نواب صفوي زعيم فدائيان إسلام، على استعداد لمقابلتك غداً في الساعة الرابعة بعد الظهر. الرسول سيحضر في الثالثة والنصف»..

وقررت أن يتم اللقاء.

وقبل الثالثة والنصف بدقائق كنت أهم بمغادرة حجرتي بالفندق، وإذا بنقر على الباب وفتحت. ورأيتني وجهاً لوجه أمام شاب يرتدي «بدلة بسيطة، طليق اللحية، تبدو عليه الوداعة والسكينة. حياني مبتسماً، وتكلم باللغة الايرانية التي لا أفهمها، ولكنني سمعت أسمي فقط بين عباراته الايرانية الطويلة، وحاولت أن أتفاهم معه بالانجليزية أو الفرنسية ولكنه كان يجهلهما تماماً. فأشرت بيدي إلى صدري قائلاً له: أنني أنا الشخص الذي تقصده. ثم تفاهمنا بالاشارات، على أن ألحقه وأسير بعده ببضع خطوات حتى يركب سيارة ثم اتبعه الى داخل السيارة.. وقد كان!

وانطلقت بنا السيارة إلى خارج المدينة..

وهنا ربط منديلاً على عيني، حتى لا أرى شيئاً. وبعد حوالى الساعة،

وقفت السيارة. ونزلت، وفك الرباط.. ودخلنا منزلاً صغيراً، وصعدت معه سلماً متهدماً، الى حجرة صغيرة. وطلب مني أن أخلع حذائي.. ولم يكن بالحجرة إلا سجادة صغيرة ومرآة محطمة. ثم فتح الباب فجأة ودخل نواب صفوي!

شاب نحيل، شاحب الوجه، أصفر السحنة، تشع عيناه الواسعتان ببريق غريب.. ثم لحية متناثرة مرسلة، وعلى رأسه عمامة كبيرة سوداء تصل الى أذنيه.. وسلم علي مرحباً باللغة العربية بلكنة غريبة على سمعي..

وكنت في دهشة!.. أهذا هو الإرهابي الذي يخشى الشاه، كما يخشى مصدق أن يغتاله؟.. أهذا هو الرجل الذي ارتكب أول اغتيال في وضح النهار وفي قاعة القضاء، وقال إنه لن يمثل أمام القضاء، لأنه لا يوجد في ايران قضاة جديرون بمحاكمته؟!

وبدأ حديثه معي عن جمعية فدائيان إسلام التي يرأسها..

قال: «جمعية فدائيان إسلام، ترتكز على التربية الاسلامية والمبادىء الإسلامية الحقيقية. والحكومة الحاضرة بعدما تحققت وتشكلت إنحرفت عن السير الذي تعاهدت بالسير فيه، وهو إجراء الأحكام الاسلامية التي تحيي المهج، والتي ترائى المناظر المبهجة في البشرية الحقيقية الحية. وما كان مسلك حكومة مصدق هذا إلا لضعف علمهم وضعف عقلهم وشعورهم وعجزهم عن الوصول إلى الحقائق الاسلامية العالية»..

وكان معروفاً، أن الزعيم الروحي لهذه الجمعية هو آية الله كاشاني، وكان هو الذي يأمر بالقتل والاغتيال.. ولكن حدث بينهما خلاف، وقال لي نواب صفوي: «كان كاشاني من أحد معاهدينا على الله وعلى رسوله وعلى الاسلام. ولكنه خالفنا من وجهة ما خالفنا به الحكومة». وقيل في ايران أن كاشاني فقد كثيراً من نفوذه، بعد انفصال فدائيان عن زعامته.

وقال لي نواب صفوي عن الشاه:

- «نرى الشاه ضعيفاً عاجزاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً. ولن نساعده لأنه ليس بشخصيته صالحة، كما أن الحكومة ليست صالحة. وكل من انحرف

عقله عن مصير التفكير الصالح، وحقيقة الاسلام العملي، هو لا يكون صالحاً ولا مصلحاً. . وهو ومصدق في ذلك سواء. ونحن لا نؤيد خروجه، ولا نؤيد بقاءه. ولا ندافع عن الحالتين، لأن هدفنا في درجة أعلى من هذه التفاهات». .

ثم التقيت بهذا الشاب الإرهابي، مرة ثانية، بنفس الأسلوب. . وكان ذلك في السابعة من الصباح. . ولكنني وجدته هذه المرة في حديقة مهجورة!. .

وروى لي قصة محاولته اغتيال صحفي اسمه «الكسروي»!

قال أنه كان «هتاكاً للإسلام والمسلمين» فيما يكتب. . ولذلك «أردت أن أقتله بيدى ، شرعاً وديناً ، وغيره وحمية » . . واجهته يوماً فى الطريق العام . وكان معي أخ لي، وكان معه أربعة عشر عوناً له يسمون الجماعة الحربية. . وكان معي مسدس صغير، فضربته بمسدسي، ولكن المسدس لم يؤثر أثراً تاماً، واستمرت الحرب بيننا في الشارع ثلاث ساعات، ولكنه لم يمت. وأردت أنا أن انتهي من قتله، حتى أقتل بيد الحكومة في سبيل الله. فضربته بعد المسدس بما أتى في يدي. فانكسرت جماعته وهربوا. . وبقي الكسروى بيدنا والناس مجتمعون، وبعد أن ظننت أنه مات أو سيموت عاجلاً، وقفت الى جوار جثمانه وألقيت الكلمة في الناس. فحبسنا في السجن بطهران، وانتشرت القضية في الجرائد، وكنت أدعو الله في السجن أن يميته بما ضربته ويرزقنا الشهادة في سبيله اجراً. وكان الكسروي مريضاً محتضراً في بعض أوقاته في المستشفى، ولم يمت. . وما عرفت تدبير الله في هذا. ثم أخرجت من السجن، وشكلت الجماعة على كل للإسلام، متهيئين لإراقة دمائهم في سبيل الإسلام وأعلنت هذا، فانكسرت الجرائد التي كانت تحمي دعايات كسروي المضللة، وخافراً منا، ولم يكتبوا بعد شيئا من سوء سريرتهم وسكنت الجماعات القليلة التابعة لهم، وما كانوا ينقلون ويبشرون بغير الإسلام.

وبعد ثلاثة أشهر، خرج الكسروي من المستشفى، وواجهته يوماً في دائرة المحكمة العسكرية التي دعتنا للمحاكمة. فرأيت أن ليس بيدي سلاح حتى أقتله، وكان هناك جندي بيده بندقية، فأردت أن آخذ البندقية من يده لأقتل كسروي في المحكمة. وأخذتها. ولكنني لم أجد أمامي أحداً. لقد خاف

الجند وخاف القضاة وخاف الكسروي. وشرد جميع من في المحكمة.. وتعطلت جلسة محاكما (يقصد المحاكمة)..

وخرجت من المحكمة. ولم أجب دعوة القضاة بعد ذلك. ولم أعد الى دار القضاء، وأرسلت الى القضاء أقول: أرى رسمية في محاكمتكم حتى أجيب دعوتكم، لأنكم منحرفون عن دين الله والإسلام، وحكومتكم غاصبة. وكان رأيي ان الكسروي هو الذي يجب أن يحاكم، لا نحن.. لأنه اعتدى على الدين. ولذلك فقد جمعت توقيعات الآلاف بأنه يجب على الحكومة أن تأتي بالكسروي الى إدارة العدل في المحكمة الشرعية، ليحاكم هناك على كفره بدين الله. وقد أجابتني الحكومة الى ما طلبت! وتحدد موعد المحاكمة. وكنت قد عقدت العزم في ذلك اليوم على قتله، لأن هذا هو جزاؤه الوحيد. فذهب تسعة من إخواني المندوبين لقتله في المحكمة. وقتلوه. وقتلوا تابعه وحارسه «حداد».. وشرد الجنود. وشرد القضاة. وشرد الناس وقد كانوا ثلاثة آلاف أتوا لشهود محاكمته.. وعاد مندوبونا من غير مزاهم.

ثم قال نواب صفوي:

ـ كان الكاشاني في ذلك اليوم محبوساً بيد «قوام السلطنة» رئيس الوزراء وأردت أنا أن يخرج.. وانتهزت فرصة إقامة حفلات العزاء في موت السيد الحسين القوس (من كبار رجال الدين) ومجيء الوفود الرسمية من العراق ومن حكومة ايران للعزاء.. وقيام «الحسين علي راشد» خطيباً مؤبناً للفقيد عن الحكومة في المسجد الهندي بالنجف.. انتهزت الفرصة، وصحت بين آلاف الحاضرين، وقلت له:

ـ «اسكت.. اسكتوا.. اسكتوا كلكم».. فسكت وسكتوا..

ووجهت كلامي الى وفد حكومة ايران قائلاً: أكلمكم في طرف الحوزة العلمية.. ومن طرف المسلمين، أنكم تناقضون في رأيكم وتضادون، لأنكم تحبسون عالماً، وتظهرون اليوم الأسف لموت عالم.. تقتلون عالماً، وتعزون العلماء لموت عالم؟.. لأن القتل هو قتل الأثر، والأثر المقتول بيدكم هو كاشاني، لأنه محبوس، فكأنه ميت.. وهذه سياسة كاذبة..».

وأكمل نواب صفوي حكايته وبريق عينيه الشارد، قد استحال الى بريق نصر خاطف. . وقال:

«وقام مندوب رئيس الوزراء يقول لي: «أيها السيد نواب صفوي. . «فقطعت عليه القول وصحت فيه: لا تخاطبني هكذا. . ما تكلمت أنا باسمي. . ولكني تكلمت من طرف الحوزة العلمية. . قل أيتها الحوزة العلمية. . لا تفرد القضية. . ».

فقال كذلك. . وقال ان الكاشاني محبوس بإرادته! وأن في يده أن يصبح حراً طليقاً. .

فقلت له: أكذبك. . وأكذب حكومتك. . وإني أطلب إطلاق سراحه في خلال اسبوع. . وهذا أمر من الحوزة العلمية. . ».

وعاد نواب صفوي الى النظر الي، وبريق النصر يضيء عينيه وقال: واستخلص الكاشاني من ذلك اليوم الى اسبوع.

* * *

وكنت قد سمعت في طهران، أن مقابلة تمت بين نواب صفوي، والامبراطور، وأردت أن أسمع منه قصة هذا اللقاء وما جرى فيه. . فسألته إن كان حقاً ما سمعته:

فقال: نعم. .

قلت: لم قابلته؟

قال: كان لي صديق علمت أن الحكومة تريد إعدامه. . وهو صديق كريم عزيز. . فرأيت أن أقابل الشاه لأحدثه في هذه القضية. .

قلت: وماذا جرى؟

قال: أول ما لاقاني الشاه بادرني بالسلام قائلاً: السلام عليكم، فرددت عليه التحية: وعليكم السلام. .

ثم سألني: كيف الأحوال؟

فأجبته: جيد وجيد وجيد.. جيد حال من هو مؤمن، ولا حال غيره..

فقال الملك: أنا مؤمن..

فقلت له: لا يكفي القول.. بل يجب أن يكون للإيمان أثر ظاهر بقدر استطاعتك، فالمصباح إذا قال أنا مصباح، وليس له نور.. فهذا لا يكفي، يجب أن تقوم بواجبك كمسلم.

فقال الملك: سأقوم بواجبي إن شاء الله.

وتابع« نواب صفوي» وصف لقائه للشاه فقال: وتكلمنا حول قضايا مختلفة فنصحته وقبل نصائحي ظاهراً، ولكن لم أر بعد تلك الملاقاة أثراً عملياً لنصائحي التي كانت فيها له قوة وعلم وبقاء ونفوذ.

فسألت «نواب صفوي»: ولكن ماذا عن صديقك الذي كانت الحكومة تنوي إعدامه..

فأجاب «صفوي»: لقد عفى عنه..

قلت: إذن قدم لك الشاه خدمة جليلة.

فقال لي رجل الارهاب في ايران: «لقد تشرف بخدمتي.. لأنه لا شرف أعلى من خدمة المسلم للاسلام».

ولكن هناك قصة اختفت وراء مقابلة الشاه لنواب صفوي، واستجابته لطلبه العفو عن صديقه المحكوم عليه بالاعدام.

لقد أراد الشاه يوماً أن يكسب صداقة هذا الشاب الارهابي، بعد أن أعلنها حرباً عواناً ضد والده الامبراطور رضا شاه بلهوي.. بل ضد جثمان والده عندما نقل من مصر إلى طهران، وكانت حكومة ايران قد أعدت العدة لدفن رفات الشاه السابق في «النجف الأشرف» بجوار ضريح سيدنا علي، تنفيذاً لوصيته قبل موته..

فقام زعيم فدائيان إسلام خطيباً بين الجماهير والعلماء، يحارب هذه الرغبة قائلاً: «يا قوم.. كيف تلبسون بدعة البهلوية، لباس السنن النبوية..».

وشرح لي «نواب صفوي» هذه القصة فقال: قمت ضد هـذا الطلب في النجف الأشرف في الحفلات الرسمية التي تشكلت استعداداً لاستقبال جثمان الشاه السابق وأثبت كفر البهلوي «أي الشاه» وزندقته وضلالته. وأنه حرام دفنه في مقبرة مسلم من المسلمين؟.. فكيف في مقبرة ملوك الاسلام.. حـول المقبرة المطهرة لأمير المؤمنين صلوات الله عليه؟..

وكـان أحد رؤسـاء القبائـل في هذه المنطقة يجمـع العرائض من الأهلين ملتمسـين دفن رفات الشـاه في مقابـر «النجف الأشرف».. فقصد إليـه نـواب صفوي، ودار بينهما الحوار الطريف التالي:

نواب صفوي: ماذا بيدك؟.. لم تهتك حرمات الاسلام؟
رئيس العشائر: لماذا؟
نواب صفوي: لأنك سويت توقيعات وكتبت افتراءات.
رئيس العشائر: وماذا يخصك أنت وهذه شئون العرب والعجم..؟

نواب صفوي: اسكت واختنق.. من أين أنت يابن اليهودية؟ من أبوك من جدك؟.. أمن اليهود أم الترك أم المغول؟.. أعـرق نسب عربي هـو نسبي الذي يتصل برسول الله، وهو من أحيا الروح في العرب والعجم..

وقال لي زعيم فدائيان إسلام وهو يروي هذه القصة: فخاف مني وسكت وقال: أجدت.. أجدت.. أشهد أنك من رسول الله، وأشهـد أنك ابن أمـير المؤمنين وابن فاطمة!

فأجابه نواب صفوي: أني كذلك.. وأنت من أنت؟
رئيس العشائر: ولكن ماذا تريد مني أن أفعل..

نواب صفوي: أعطني التوقيعات.. فأعطاه الرجـل ما جمـع من عرائض الأهلين، فمزّقها زعيم الأرهاب في ايران وأحرقها أمامه!

وتم لنواب صفوي ما أراد، ولم يدفن رفات الشاه في مقابر «النجف» بـل دفن في قرية من قرى طهران!

* * *

وفي عـام ١٩٥٤ ـ حضر نواب صفـوي إلى القاهـرة، للاتصـال بالثـورة المصرية، ولقيته مع الشيخ الباقوري في أكثر من جلسة. وكانت زيارتـه موضـع ريبة وشكوك في مصر. وقيل أنه أصبح عميلاً للمخابرات الأمريكية.

وفي ٢٣ نوفمبر ١٩٥٥، نقلت إلينا وكالات الأنباء، أنه قبض عـلى نواب صفـوى بتهمة التحـريض على اغتيـال حسين عـلاء رئيس وزراء ايـران، قبـل سفره إلى بغداد، لحضـور اجتماع أعضـاء دول حلف بغداد. ثم تقـرر محاكمتـه أيضاً عن جريمة سابقة وهي تدبير اغتيال رازماراه رئيس الوزراء السـابق في عام ١٩٥١، وقد حكم عليه بالإعدام، ونفذ الاعدام رمياً بالـرصاص في ١٨ ينـاير ١٩٥٦.

* * *

ثم قابلت آية الله كاشاني. . وهو شيخ جاوز السبعين من عمـره. . وكان من مؤيدي مصدق، ثم عاد وشنّ عليه حرباً شعواء. . وبدأت صحف مصدق تهاجمه، وانطلقت المجلات الفكاهية تنشر له صوراً كاريكاتـورية مهينـة. . وهو غارق بعمامته بين نساء عاريات، أو ترسمـه كالكبش وبـين أسنانـه وبين مخـالبة مجموعة من الفتيات الصغيرات. . وكان معروفاً أن كاشاني كثير الزواج. . وكان أخـر زواج له من فتـاة لم تجاوز الـرابعة عشرة من عمـرها!. . وهي ابنـة تاجـر ايراني كبير قدمها له هدية!

ونجح كاشاني في انتخابات رياسة النواب، وكان منذ عامين قد أمر بقتـل رازمـاراه رئيس الورزاء، وقتلتـه جمـاعـة فـدائيـان إسـلام التي يـرأسهـا نـواب صفوى. . وأعلن كاشاني أنه يبارك هذا القتل!

وقد لقيته في جمع كبير من مؤيديه، وقال لي أنه كتب رسالة إلى الشاه قال له فيها لا تخرج، فامتثل للأمر ولم يخرج، ولم يستطع مصدق أن يفعل شيئاً.

وهـو لا يـرأس جلسـات مجلس النـواب، لأنـه يعتقـد أن آيـة الله فـوق المجلس، وفوق هذه المناصب، وأن زعامته الدينية للعالم الاسـلامي لا تنزل إلى مقعد رياسة المجلس.

وتساءل في حواري معه: «إذا مت أنا.. فماذا يصنع العالم الإسلامي من بعدي؟.. أليس هذا حقيقياً!؟»

وهو يعتقد أنه هو الذي جعل الانجليز يتراجعون، عندما حاولوا إعاقة تأميم البترول. وقال لي «أنا الذي أمرت بإقفال البنك الانجليزي، وقلت للشعب لا تتعاملوا معهم فلم يتعاملوا.. وأنا الذي عطلت التجارة في جميع أسواق ايران.. وقلت: لا تبيعوا، فأقفلوا جميع الأسواق.. وقد أراد الانجليز أن يفرضوا علينا قوام السلطنة، ولكنني بعون الله أسقطته في أربعة أيام»..

خلاصة أقوال هذا الزعيم، أن ايران كلها، بيده هو.. «لقد زارني اليوم زعماء العشائر، وهم مائتا ألف رجل مسلح، وسألوني: ماذا نفعل الآن؟.. فقلت لهم: «لا تعملوا شيئاً.. انتظروا.. انتظروا حتى أعطيكم الأمر».

* * *

ثم قيل لي في ايران، أن أخطر زعيم، صاحب الكلمة الحقيقية.. هو «آية الله بروجردي» إمام الشيعة في إيران والعراق وكافة الدول الاسلامية. وهو يقيم فى « قم» .. كما يقيم خليفته آية الله خومينى . كان اجماع من رأيتهم.. أن إشارة خاطفة من يده هي أمر نافذ لا يعصي في شعب ايران من أقصاها إلى أقصاها. كلمة منه هي حد السيف القاطع، وهي كفيلة بأن تنحني لها أعلى الرؤوس وأضخم الهامات، التي لا تملك أمام هذه الكلمة من قم إلا الطاعة الغمياء بلا مناقشة أو جدل. وهو الذي بعث برسول إلى الشاه يطلب منه عدم مغادرة ايران كما كان يريد مصدق!.

وقررت أن أسافر إلى مدينة «قم» للقائه.. وقال لى من استشرتهم فى الأمر، أن لقاءه صعب.. وأن الوزراء يبقون ثلاثة أيام في قم، حتى يأذن لهم! وأخذني صديق، إلى ممثل «آية الله بروجردي» في طهران.. وأعطاني خطاب توصية لكي يقابلني.. بشرط ألا أتحدث في السياسة. وذهبت إلى قم على مسيرة ثلاث ساعات بالسيارة من طهران وقصدت إلى منزله ثلاث مرات. وفي كل مرة يرجئون الجواب. وفي اللقاء الثالث.. قالوا أنه من المحتمل أن يقابلني بعد أربعة أيام!.

وعدت إلى طهران دون أن ألقاه.

وهذا هو نص الخطاب الذي حملته:

قال الخطاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. . .

أعرض على مقامكم القدسي الأعلى، ووجودكم المبارك المشمول دائماً بالألطاف والعنايات، يا وليّ عصر أرواحنا ومن له الفداء. . على كافة المسلمين. جناب موسى صبري مندوب جريدة أخبار اليوم بالقاهرة يريد أن يتشرّف إلى حضرتكم المقدسة العليا باشتياق فوق العادة لكسب الفيض والافتخار، وهو في تشرفه ليس له غرض سياسي أبداً. هو فقط يريد زيارة أيديكم وأرجلكم المباركة لكسب الافتخار. . وإن شاء الله تعالى يحصل منكم على هذه الاجازة لأجل أن يقبل أناملكم المباركة وينال هذا الشرف.

ولي أمل من معاليكم الطاهرة أن تدعو لي بأنفاسكم المقدسة في هذه الايام والليالي المباركة.

الأحقر: محمد الموسوي البهبهاني عفى عنه

وهكذا يكتبون اليه، كأنه آلهة على الأرض.

* * *

والتقيت بالدكتور مصدق. . وهو راقد بالبيجاما على السرير السفري الصغير. .

وكان حواري معه غريباً. أن الرجل يتكلم بصوت هامس، ويتحدث عن الشاه بكل التقدير والاحترام، وينفي أنه يوجد أي خلاف. . فقد سويت كل الخلافات. . وهو يخفي كل ما يدبره للشاه. تسيير المظاهرات ضده. . الحملة الصحفية المهينة للشاه في الصحف والمجلات. إظهار تنازل الشاه عن كل أملاكه للدولة، وكأنه أمر تافه لا يستحق الاشارة. .

لقد صدر الأمر الملكي الذي تنازل به الشاه عن جميع أملاكه للدولة يوم وصولي إلى طهران. وكنت أتصور أن هذا التنازل الضخم سيحدث ضجيجاً

سياسياً مروعا بين أفراد الشعب وفي أنهر الصحف، وكان في طهران أكثر من خمس صحف يومية كبيرة من بينها صحيفة شيوعية اسمها «شهباز» أي الصقر. . وكلها تصدر في المساء. . كنت أتصور أن هذه الصحف ستملأ الأنهر الطويلة تعليقاً على هذا النبأ الهام. . وقد كنا ننتظر من ملك مصر أن يتنازل عن واحد في المائة من أملاكه. . فكان يتمادى في اغتصاب تفاتيش الأوقاف. . كنت أتصور هذا. ولشد ما كانت دهشتي عندما رأيت الصحف اليومية الحكومية والمحايدة. . تنشر النبأ في عمودين صغيرين وبعناوين لا تكاد تقرأ وفي أمكنة مغمورة من صفحاتها وبدون أي تعليق. .

. . أما صحيفة «شهباز» الشيوعية لسان حال «جمعية ملي مبارز باستعمار» أي جمعية الشعب لمكافحة الاستعمار. . فقد نشرت في صدر صفحتها الأولى وبعناوين بارزة ملتهبة تقول:

«قصة أملاك بلهوي» هذه الأملاك الواسعة كيف غصبت من الشعب؟».

«لماذا فكر الشاه في التنازل عن هذه الأملاك التي تدر له عوائد سنوية قيمتها مليونان من الجنيهات؟».

ومضت الجريدة تقول أن الشاه قد فكّر في هذا الاتجاه الخيري للشعب، وهو تمثيل خداع ويخفي وراءه المؤامرات التي يدبرها هذا العميل الاستعماري ـ أي الشاه ـ ضد مصلحة الشعب. لقد ظهرت في البلاد حركات حرة لاسترداد حقوق الشعب وكانت البلاد مركزاً وسنداً للوزارات التي تقتل حقوق الشعب، أما الآن وقد انتصرنا، فإن الشاه يتظاهر بتفكيره في الأمور الخيرية. .

وشرح المقال كيف اغتصب والد الشاه هذه الأملاك الواسعة من الشعب بالسرقة والنصب ـ وقالت الصحيفة: في اليوم الذي اغتصب فيه رضا شاه بهلوي عرش البلاد على يد الاستعمار الانجليزي كان خاوي اليدين. . فمن أين أتت لزوجته وأبناؤه وبناته هذه الأملاك الواسعة وهم متعطلون عن أي عمل؟. . انها من دم الشعب الذي عذب وقتل وجلد وسجن ونهب وسلب. . ولذلك فاننا ننادي بوجوب قطع يد البلاط عن التدخل في أمور الحكم حتى لا تتاح فرصة للشاه مرة أخرى فيعود إلى اغتصاب أملاك الشعب من جديد. يجب

أن نسد أمامه كل السبل وأن نكون على حذر تام من كل المؤامرات الاستعمارية الفاسدة التي يمثلها وراء الكواليس. يجب أن نتنبه تماماً هذه المرة حتى لا نخدع.. وحتى ننزع السلاح، وبكل وسيلة، من يده. ويجب أن تعاد إلى الشعب كل هذه الملايين التي استنزفها كعوائد من دم الشعب وهرّبها إلى بنوك أمريكا وانجلترا وسويسرا.. لأن للشاه في بنوك أمريكا فقط رصيداً يتجاوز ٥٠٠٠ مليون دولار نقداً.. نهبها وسلبها من الشعب.

ثم قالت جريدة شهباز: «ومما يدعو إلى السخرية أن يكون تنازل الشاه عن أملاكه بشرط أن تقدم الدولة كل عام ٦ ملايين دومان «العملة الايرانية» إلى الجمعيات الخيرية التي تدار تحت رعاية «أشرف» شقيقته!.. هذا شيء مضحك، فالشعب يعرف أن هذه الجمعيات والمنظمات التي تدار تحت ستار الخير لا تستخدم إلا المرتشين والأفاقين ومن لا أخلاق لهم. الشعب يعرف هذا ويعرف أن هذه الملايين الستة ستوضع تحت تصرّف الأميرة أشرف التي تقام في قصرها المسابقات لأجمل النساء، وأحلى الخصور.. إننا نطلب من الحكومة أن تبطل هذا (الفرمان) حتى لا يستطيع الشاه أن يتدخل في شئون الشعب.. يجب أن نهدم مراكز كل المؤامرات الاستعمارية..».

وقد اخترت هذه الفقرات القليلة من هذا المقال الذي يملأ أربعة أنهر من الجريدة.. وهي أخف الفقرات هجوماً على الشاه ووصفاً له..

ولم يكن هذا المقال هو الوحيد.. ففي مساء كل يوم كانت تصدر شهباز وفي صدرها مقال جديد أشدّ عنفاً وأقسى هجوماً.. وكنت أتوقع أن رئيس تحرير هذه الجريدة واسمه (رهيم نامفر) سيحال إلى محكمة الجنايات وخاصة أن مصدق أصدر قانوناً خاصاً يقرر عقوبة السجن لكل من يعيب في الذات الملكية.. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث.

بل صدرت مجلة (حاجي بابا).. بعد ذلك بيومين.. وهي مجلة هزلية حكومية وليست شيوعية وفيها رسوم كاريكاتير للشاه.. كلها سخرية وتحقير من شأنه.. ومن شأن أشقائه الأمراء.. فهذا هو الشاه وقد رسم بشكل «ناموسة» ومصدق رئيس الوزراء ينفخ في المطهر مبيد الحشرات وقد كتب تحتها «بمناسبة حلول فصل الصيف».. ورسم ثالث للشاه وقد استلقى على سرير

صغير وأمامه صور لأربع نساء عاريات. . كتب تحتها ما يفهم منه أن هذا هو العمل الوحيد الباقي للشاه بعد سفر زوجته إلى روما. ورسم رابع للشاه كتلميذ صغير يحاول أن يرفع يده في حجرة للدراسة مستأذناً في الكلام وأمامه الأستاذ مصدق ممسكاً بعصا يهوي بها على أنفه!!

ورسم خامس للشاه بملابسه العسكرية التي نقش عليها العلم البريطاني وقد وقف شامخاً بأنفه يسند يده إلى ظهره وارتكز بأقدامه على فتاة تعبّر عن حقوق الشعب وأمامه رسم لوالده يصفق له ويشجعه. . كل هذا وأكثر منه في الأسبوع الذي أعلن فيه الشاه تنازله عن جميع أملاكه للدولة.

أما صحيفة «اطلاعات» اليومية المحايدة فقد اكتفت بأن تعلق على هذا النبأ في اليوم التالي بقولها: إن تنازل الملك عن أرضه للدولة يعتبر نهاية للخلاف بين الحكومة والقصر.

والواقع أن هذه الأراضي الواسعة كانت مثار أزمة عنيفة بين مصدق والشاه. . الشاه يريد أن يوزعها على المعدمين من الفلاحين، ومصدق يعارض هذا الاتجاه ويطلب ضمها إلى أملاك الدولة مع استثمار عوائدها في شئون التعليم والصحة بواسطة الجمعيات الخيرية حتى تعم فائدتها على الجميع. وكان من رأي مصدق أنه ما دام توزيع الأراضي على المعدمين ليس من سياسة الدولة العامة، فإن توزيع أراضي الشاه على عدد محدود من الفلاحين سيثير ثائرة الباقين الذين لم يوزع عليهم. .

وقال لي مصدق: لا خلاف مع الشاه. الموقف يلخص في عبارة واحدة. الحكومة خادمة الشعب، والعرش رمز يجب أن يحترم منا ومن الشعب. وعلى الحكومة والعرش أن ينفذا إرادة الشعب. . وتنازل الشاه عن أرضه للفلاحين غير جائز. التنازل يكون للدولة. لسنا حكومة ثورية أيها الأخ المصري. انني حكومة إصلاح يسير بالتدريج، وتوزيع الأراضي ليس من سياسة الدولة العامة. فلماذا نوزع أراضي الشاه فقط؟ . . وقبل الشاه وجهة نظري. وباقي المسائل الخاصة بالحقوق الدستورية للشاه هي بين يدي البرلمان. .

وسألته: إذن لماذا لا يحقق مع الصحف، التي تسب الشاه بالقذف الصريح؟

أجاب بكل مرارة: لعلك قرأت الصحف التي تهاجمني كل يوم بالباطل وأنا أتركهم يشفون غليلهم وأحقادهم بالتهجم على شخصي. ورأيي دائماً أن الجريدة التي تلقى رواجاً لدى القراء، هي الجريدة التي تحترم نفسها، ولا تكتب إلا الحق. ولكني أتركهم يكتبون ما يشاؤون حتى يكلّوا ويملّوا.. وموضوع سبّ الشاه يخضع لتقدير النائب العام!

* * *

قصدت أن أسرد في هذه الصفحات أبرز الصور التي رأيتها في ايران باختصار شديد.. وقد تحدّد المصير بعد ذلك بالانقلاب الأمريكي الذي أسقط مصدق، وأتى الجنرال زاهدي إلى الحكم، واعترفت المخابرات الأمريكية بأن رئيسها دالاس كان الرأس المدبر مع شقيقة الشاه المهيمنة على القصر..

* * *

وعدت إلى القاهرة، بعد أن أنقذني سفير الأردن عبد المنعم الرفاعي، من مأزق خطير في المطار. لم أكن أعرف أن الخروج من إيران، يقتضي إذناً رسميا بالخروج.. واكتشفت ذلك بعد وصولي للمطار.. واتصلت بسفارتنا، وكان الردّ أنها مسألة صعبة. واتصلت بعبد المنعم الرفاعي، الذي أرسل مبعوثاً من السفارة، أنقذني من هذه الورطة..

لم أرسل سطراً واحداً عن ايران.. خوفاً من أن أتعرض للأذى بسبب نشر ما قد لا يرضي أحد الأطراف.. ولا أمان ولا ضمان!

وأحسست بعد النشر في القاهرة، انني وفقت في أول رحلة صحفية لي.. وساعدني ذلك على أن أبرأ من صدمة الحب الفاشل!

وفاتني أن أذكر، أنني لم أقابل الشاه في تلك الرحلة، رغم أنه تحدد موعد لهذا اللقاء..

لقد أصبت في أصبعي، من قفل باب السيارة، بعد عودتي من قم.. وعالجه طبيب، وغطى الأصبع برباط معقم..

وذهبت إلى القصر في اليوم التالي، ولما رأى رئيس الديوان، أصبعي بهذا

الشكـل، اعتذر عن عـدم اللقاء. . لأنـه لا يليق أن أرى الشاه والضـماد يغطي بعض يدي. . وقال لي أنه سيجيب على كل أسئلتي نيابة عن الشاه!

* * *

وزرت إيران بعد ذلك، في رحلة صحفية مع أنور السادات. . استغرقت ليلتين، ولم يقابل الوفد الصحفي المصري، إلا وزير الإعلام.

ولكنني رأيت الشاه في المشهد الرهيب. . عندما وصل إلى أسـوان بدعـوة من السادات. وكان خروجه من إيران بلا عودة.

كـان لا يزال عـلى العرش. . واستقبـل في مطار أسـوان استقبالاً رسميـاً كـرئيس دولة، وكـان سفير إيـران في مصر بين المستقبلين. ولكنـه قـال للسيـدة جيهـان السادات بعـد ذلك، أنـه حضر بصفته الـرسمية فقط. . ولكنـه يؤيـد الثورة. .

كـما أعد السـادات للشاه استقبـالاً شعبياً ضخـماً على طـول الـطريق من المطار، حتى المرسى المقابل لفندق أوبروي. . وركبنـا اللنش إلى الفندق. وكـان الشاه سعيداً بهذا الإستقبال، ولكن وجهه كان مثقلاً بالهموم والأحزان. .

وفى تلك الليلة ، اجتمع الشاه مع الرئيس الأمريكى السابق فورد ، ـ وكان فى أسوان ـ بحضور السادات الذى دعا سيد مرعى إلى هذا الاجتماع . وقال الشـاه لفورد: أن أمـريكا هي التي أجـبرته عـلى ترك بـلاده. . وهي التي تخطط لعزله. .

وقال السادات في تلك الليلة: إن مأساة شاه إيـران دليل واضح عـلى أن الحاكم يجب أن يعتمد عـلى شعبه، لا عـلى أية قـوة أجنبية يمكن أن تتخـلى عنه في أي وقت. . وكنت في أسوان في ذلك الحـين، لمراجعـة خطاب للسـادات، كان سيلقيه بعد عـودته إلى القـاهرة. . وفهمت منـه أن الشاه يعتمـد على الجيش في العودة. . وسألته بوضوح:

ـ هل قال لك إنه دبر ذلك. .

وأجاب السادات: لم يقل لي عن التدبير. . ولكن حديثه معي قـائم على تأييد الجيش الإيراني له. .

وفهمت بعد ذلك، أن السادات، كان يريد الحصول على أسلحة من الجيش الإيراني، وذلك خلال علاقته الطيبة بالشاه. . وصارح السادات المشير الجمسي بذلك . .

وفي ليلة وصول الشاه إلى أسوان، شاهد فيلماً أعد له في قاعة خاصة. . وكنت أجلس مع سيد مرعي في ممر يؤدي إلى هذه القاعة، ومر علينا الشاه، ودعانا لمشاهدة الفيلم معه. . ولكننا اعتذرنا، ولم يكن الجو مناسباً. .

ثم قطع الشاه رحلته إلى أسوان، وسافر إلى المغرب، بدعوة من الملك الحسن، حملها السفير المغربي إلى أسوان. . رغم إلحاح السادات عليه بالبقاء في القاهرة. . ثم اضطر إلى مغادرة المغرب إلى أمريكا. . حيث تفاقم عليه المرض في مستشفى نيويورك، وزاره سفيرنا أشرف غربال بتكليف من السادات، ليعرض عليه الحضور إلى مصر في أية لحظة. .

ولا أريد أن أطيل في ذكر ما نشر عن خروج الشاه من أمريكا. . حتى وصل إلى القاهرة قبل مؤامرة لتسليمه إلى حكومة إيران. .

وقال لي السادات: لقد أرسلت إليه طائرة خاصة. .

ولكن الوقت كان متأخراً. . واستطاع كل من كيسنجر وروكفلر أن يستأجرا طائرة حملت الشاه إلى القاهرة. .

وقد استشعر السادات الخطر على حياة الشاه بعد حديث تليفوني جرى بين الشاهبور والسيدة جيهان السادات، قالت فيه زوجة الشاه بأسلوب غامض، ما يعني أن الشاه سوف يقتل. . وعامل السادات الشاه أكرم معاملة في مصر. . وكان ذلك مدعاة للنقد من الكثيرين. .

وأذكر أننا كنا عائدين من رحلة خارجية مع السادات، أنه قال إنه سيتوجه بعد وصولنا إلى القاهرة، إلى مستشفى المعادي مباشرة لزيارة الشاه. . فقلت للسادات: لا داعي لذلك. . لماذا لا تزوره في اليوم التالي. . هذا التأييد الزائد عن حده، يثير نقد الكثيرين. .

وغضب السادات. . وقال لي إنه لا يهمه هذا الكلام الفارغ. . ولست أنا هذا الجبان، الذي يتراجع عن تأييد الشاه. .

وقد هاجمني السادات خلال وجود الشاه في مصر، في حديث على شاشة التليفزيون. كنت قد كتبت مقالاً، أشرح فيه، لماذا نستضيف الشاه في مصر.. وذكرت واقعة استضافتنا للملك السنوسي، رغم تأييدنا للثورة الليبية.. وكتبت أن عضواً بمجلس الثورة الليبي حضر إلى القاهرة، وطلب أن يقابل الملك السنوسي لإجراء تحقيق معه.. ورفض السادات ذلك، وقال إن السنوسي لاجىء كريم، له كل حقوق الضيافة..

ودهشت من هذا الهجوم؟!

واتصلت بالسادات في المساء، وكان بالإسكندرية.. وسألته: لماذا هاجمتني؟.. إن المبررات التي قلتها سيادتك، لاستضافة الشاه، في حديثك التلفزيوني، هي التي ذكرتها في مقالي..

واتضح أن السادات لم يقرأ مقالي، وأن «أحدهم» أسر إليه في الصباح، أنني أنتقد موقفه!

وضحك السادات وقال لي: معلهش.. جات فيك..

وفي حديث تلفزيوني آخر، في نفس الأسبوع، تحدث السادات عن موقف لي مع بيريز أشاد به.. وأحسست أنه أراد إرضائي!

وأعتقد أن هناك أسراراً سياسية كثيرة، تحيط بعلاقة السادات، بشاه إيران، بعد أن سعي السادات إلى تحسين هذه العلاقات.. ومنها أنه حيد الموقف الإيراني، بالنسبة لإسرائيل.. ومنها أنه كان هناك اتفاق غير مكتوب، على وضع استراتيجي معين، يجمع مصر والسعودية وإيران..

الفصل الرابع عشر

أزمة أحمد بهاء الدين.. في «أخبار اليوم»!

علاقتي مع مصطفى أمين صحفية، وعلاقتي مع على أمين عاطفيه ـ الفرق بين التوأمين ـ اتفاق على تعيين أحمد بهاء الدين رئيساً للتحرير في «الأخبار» ـ اعتراضي وحوار مع مصطفى أمين ـ عبد الناصر لا يوافق على تعيني رئيساً للتحرير في الأخبار ـ اقتراح لحل المشكلة ـ على أمين يفرض سلطانه العاطفي ـ لقاء مع صلاح سالم لأول مرة ـ عبد الناصر يوافق على تعييني رئيساً لتحرير «الجمهورية» ـ مواجهة مع مصطفى أمين ـ المصارحة بأن هيكل هو السبب ـ تعاقدت مع صلاح سالم، وتركت استقالتي، على مكتب مصطفى أمين ـ شهر عسل بين عبد الناصر وصلاح سالم.

الفصل الرابع عشر

أزمة أحمد بهاء الدين.. في «أخبار اليوم»!

تردد بين أورقة مبنى «أخبار اليوم» أن هناك اتصالات بين علي أمين وأحمد بهاء الدين ليعمل الثاني في إحـدى صحف أخبار اليـوم. . «الأخبار» اليـومية أو «أخبار اليوم» الأسبوعية أو «آخر ساعة». . أو «الجيل». .

كان ذلك خلال عام ١٩٥٩. .

كنت في ذلك الوقت أعمل نائباً لرئيس تحـرير «الأخبـار» منذ صـدورها في مارس ١٩٥٢. . ومسئولاً مسئولية كاملة عن اصدارها. . وكان يعاونني ابراهيم نـوار. . وسعيد سنبـل. . وأحمد زين. . وكنت في الـوقت نفسه رئيسـاً لتحريـر مجلة «الجيل». .

ولكنني لم أكن أطيق العمل المكتبي. .

كنت أجـري الأحاديث الصحفيـة الهامـة. وكنت رسول صحف «أخبـار اليـوم» في كل الأحـداث الخـارجيـة الهـامـة. . حققت أحـداث لبنـان في عـام ١٩٥٦. . وكل انقلابات العراق وسوريا. . وأزمة الدكتـور مصدق وشـاه ايران وأذكر أن صحيفة «أخبار اليوم» صدرت خلال أحـداث لبنان وبهـا ٨ صفحات كاملة، كتبتها عن هذه الأحداث ومن بينهـا مذكـرات صائب سـلام عن الحرب الأهلية يوماً بيوم. . وقال لي مصطفى أمين وقتها:

ـ تهنئتي لك، هي أنني كنت أتمنى أن أكتب ما كتبت. .

بين مصطفى وعلى أمين

وكان مصطفى أمين وعلي أمين يعاملانني معاملة خاصة.. محورها الثقة الكاملة في خلقي، والتقدير الكامل لتفاني في العمل..

وقد تأثرت في عملي الصحفي بمصطفى أمين.. وكنت أرى فيه المثال الأعلى لما يجب أن يكون عليه المخبر الصحفي الذي لا يستكبر على أي عمل.. ورغم أنه كان يحصل على أهم الأخبار السياسية من جمال عبد الناصر وغيره من قادة الثورة، فقد كان على صلة يومية بعبد الناصر.. إلا أنه كان لا يتواني عن الذهاب إلى قسم شرطة في المساء لتحقيق جريمة قتل، إذا لم يكن محرر الحوادث متواجداً..

ولا أنسى أنني وجدته ذات ليلة، غارقا في مجموعات صحف الأهرام والمصور وغيرها.. لمدة أربع ساعات حتى منتصف الليل، بحثاً عن صورة لإحدى أميرات الأسرة المالكة، كان يجب أن تنشر مع موضوع صحفي ستنشره «الأخبار»!.. ووجد الصورة، ونشرت في الطبعة الثانية، وربما لم تلفت نظر القارىء كثيراً.. ولكن مصطفى أمين كان لا يبخل بأي جهد في سبيل استكمال الموضوع الصحفي..

تأثرت صحفياً بمصطفى أمين.. ولكنني تأثرت عاطفياً بعلي أمين.. وكانت صلتي الشخصية به أقوى كثيراً من صلتي بمصطفى أمين!.. وكنت أطرح أسراري الشخصية أمام علي أمين.. وكان يأتمنني على نبضات قلبه.. وكنا نتناول الغداء أكثر من مرة كل أسبوع.. ونذهب إلى السينما.. وأرى فيه أخاً وصديقاً.. وكان على أمين صاحب عاطفة متدفقة.. وكان إنسانياً في سلوكه مع الناس، رغم غضباته العصبية التي لا تلبث أن تتبدد في لحظات، وتحل محلها ابتسامة جميلة، يبرز فيها وجه على أمين وكأنه وجه طفل بريء..

وكان مصطفى أمين مختلفاً. كان رجلاً عقلانياً.. يجيد المناورة، ولا يتخذ قراراً عاطفياً.. وربما يبدو الجفاف العاطفي في سلوكه..

والإثنان يكملان كل منهما الآخر في العمل الصحفي..

مصطفى أمين مخبر صحفي من الطراز الأول، وكاتب سياسي ملتهب

العبارة، جميل الصياغة.. سريع الحركة، لا يشطب كلمة واحدة عندما يكتب.. وإذا أمسك القلم فيجري بين أصابعه كأنه صاروخ..

علي أمين تخصص في الإخراج الصحفي، ورسم الصفحات، والإبتكار في هذا الإخراج.. مطلعاً على كل الصحف الأجنبية في هذا المضمار.. وهو صاحب فكرة أن تصدر «أخبار اليوم» في حجم الصحف اليومية، رغم أنها مجلة أسبوعية، متأثراً بذلك بصحيفة «السنداي اكسبرس» البريطانية.. وهو واضع أسس الإخراج الصحفي في «الأخبار» اليومية و«آخر ساعة» و«الجيل».. ولكنه كان يكتب بمعاناة بالغة.. ويمكن أن يمزق مقاله عشر مرات.. قبل أن يضعه في صياغته الأخيرة. ولم يكن صاحب نفس طويل في الكتابة.. كان يفضل المقال القصير.. أما مصطفى أمين فقد كان قادراً على المقال الطويل والقصير معاً..

وكان علي أمين يتبني محمد حسنين هيكل، ويدفعه إلى الأمام، ويرى فيه نفسه، ويدافع عن أخطائه.. ولم تؤثر علاقته بهيكل، علي علاقته بي.. ولكن مصطفى أمين كان دائم الحذر من هيكل، لا يثق به، وقد فصله مرتين من «أخبار اليوم» في غياب علي أمين في الخارج.. ولما عاد علي أمين، أصر على عودته.. ولم يستطع مصطفى أمين أن يعترض!

* * *

هذه صورة سريعة، لموقفي في «أخبار اليوم» عندما ترددت القصص عن احتمال أن يعمل أحمد بهاء الدين في صحف المؤسسة. كان بهاء رئيس تحرير «صباح الخير».. ثم تركها ليرأس تحرير صحيفة «الشعب».. إحدى صحف الثورة .. وكان حينئذ لم يمض أكثر من شهرين أو ثلاثة فى هذه الصحيفة.. ولم يستطع أن يثبت وجوده بها ـ لظروف لا أدريها ـ وكان توزيعها ضئيلاً..

وسألت مصطفى أمين عن صحة هذه الرواية.. فقال لي أنها صحيحة..

وسألته: أين سيكون موقع أحمد بهاء الدين؟..

فقال لي: سيكون أحد رؤساء تحرير «الأخبار». .

فقلت له: لا أمانـع في ذلك. . وأرحب بـه، وهو كفـاءة في كتابـة المقـال السياسي، كما أن له جاذبية لدى القراء العرب. . وأعرف أنه على أوثق الصلات بقيادات حزب البعث. . وكل ذلك فائدة للأخبار. . ولكن لي تحفظاً واحداً. .

قال: ما هو؟. .

قلت: إذا عـينّ أحمد بهـاء الدين رئيسـاً لتحريـر «الأخبار». . فيجب أن أعين أنا أيضاً رئيساً للتحرير في نفس اليـوم. . لأنه ضربـة لكرامتي، أن أكـون قائد العمل منذ إنشاء «الأخبار». . وأن أكـون المسئول الأول عن إصـدارها. . ثـم يعين غيرى رئيســا للتحـريــر مـن خــارج دار « أخبـار اليــوم » . . وأبقـى فى موقعى . .

وقـال لى مصطفـى أمين : أنـت صـاحب حـق فى مـا تقـول . . وأنـه مقتنـع تماماً بوجهة نظري. . ولكنه يعـرف أن الرئيس جمـال عبد النـاصر، لا يمكن أن يوافق على تعييني رئيساً للتحرير، بعد أن دخلت انتخـابات مجلـس الأمـة ضد مجدي حسنين في دائـرة قصر النيل. . وكنت أنـادي في المعركـة الإنتخابيـة بأنني سأمثل المعارضة في المجلس. . وأنني لن أركـع لحاكم. . وأنني سـأقول «لا». . وبعدها صدر قرار بوضعي في القائمة السوداء، ولم أكن أسـافر إلى الخـارج لأي عمل صحفي إلا بإذن خاص من مكتب سامي شرف سكرتير عبد الناصر. .

وأضاف مصطفى أمـين: هذه هي العقبـة. . وأنا لا يمكن أن أزيـل هذه العقبة. . لأن هيكل، لا يمكن أن يـرضي أن تكون أنت رئيسـاً للتحريـر، وهو سيقاوم هذا عند عبد الناصر. .

قلت له: المشكلة إذن مع هيكل قبل عبد الناصر. .

قال: هذه هي الحقيقة. . ولا تقل لعلي أمين أنني قلت لك ذلك. .

واقترحت حلاً آخر. .

ليـس مهماً أن أكـون رئيساً لتحـريـر « الأخبـار » . . ولـذلك فـإننـى أقترح ، إذا كنتم في وضع تريدون فيه أحمد بهاء الدين رئيساً للتحرير. . أن يعـين رئيسا

لتحرير «أخبار اليوم».. وبذلك يزول الحرج عني أمام زملائي..

وأجابني مصطفى أمين: التقليد الذي اتبعناه في «الأخبار» وهو وضع أسماء عديدة كرؤساء تحرير.. لا نتبعه في «أخبار اليوم».. التي يوضع عليها إسمي فقط..

واعترضت: ولماذا لا يتبع هذا التقليد في «أخبار اليوم»؟. لا أجد مانعاً من ذلك..

وانتهى الحوار. وكان على مائدة غداء، في فندق «الهيلتون».. بأن قال لي مصطفى أمين.. «الطريق مسدود. عبد الناصر لا يريدك. هيكل لا يريدك. وهما يريدان أحمد بهاء الدين في أخبار اليوم.. ولا وضع له إلا في «الأخبار»..

أما علي أمين فقد شاء أن يستخدم سلطانه العاطفي على شخصي.. وله على هذا الحق..

وبهذا السلطان أراد علي أمين أن يتعامل معي في موضوع أحمد بهاء الدين.. دعاني إلى الغداء في منزله.. وقال في غضب:

ـ عندما أتخذ أي قرار... فعليك أن توافق دون مناقشة.. فأنت تعلم كم أحبك..

قلت له:

ـ إلا كرامتي..

وتشاجرنا.. وانتهى اللقاء إلى لا شيء!.

* * *

في خلال هذه الأزمة.. اتصلت بي سيدة مجتمع معروفة، كانت دائمة التشجيع لي. مقتنعة بالدور الذي أؤديه في دنيا الصحافة.. وفاجأتني بالقول:

ـ صلاح سالم يريد أن يراك!

وتساءلت في دهشة:

ـ صلاح سالم!.. أنا لا أعرفه. ولم أقابله في حياتي. وهو رجل عدواني.. لماذا يريد أن يراني؟..

قالت لي:

ـ الصحفي الناجح، لا يرفض لقاء نجم سياسي مثل صلاح سالم.. وخاصة أنه هو الذي يريد لقاءك!

وألححت عليها أن أعرف سبب هذا اللقاء، وسألتها.. وما شأنها هي بصلاح ولقائي.. ورفضت أن تجيب.. وقالت لي أنها ستتصل بي في المساء، لتحديد موعد ومكان اللقاء..

واتصلت فعلاً في المساء.. وتحدد اللقاء، في شقة بعمارة أمام نادي الجزيرة، يسكنها مدير مكتب صلاح سالم وصديقه..

ورأيت صلاح سالم لأول مرة..

كان وسيماً، بشوشاً، مرحباً.. استقبلني كأنني صديق قديم..

ثم قال:

أنا رجل دغري.. باختصار.. أنا علمت أنك على خلاف مع مصطفى أمين وعلي أمين بسبب موضوع أحمد بهاء الدين.. وقد استأذنت الرئيس جمال عبد الناصر في أن أعرض عليك العمل معي رئيساً لتحرير «الجمهورية».. ورحب بالفكرة، لأنه يرى أنك صحفي ممتاز..

واستدركت:

ـ هل أنت متأكد أن جمال عبد الناصر رحب بهذا؟..

قال:

ـ طبعاً.. أنا لا أكذب.. ولكن لماذا تسألني هذا السؤال؟.

ولم أجبه.. لأن حيرة أصابتني. كيف يقول لي مصطفى أمين أن عبد الناصر يرفض تعييني رئيساً لتحرير «الأخبار».. ثم اكتشفت أن عبد الناصر يشجع على تعييني رئيساً لتحرير «الجمهورية»!.

ثم قال لي صلاح سالم: المرتب الذي تريده هو لك بغير مناقشة. أنت

حر التصرف في اختيار معاونيك في العمل، واستبعاد أي محرر لا تريده. كل الإمكانيات التي تطلبها سنوفرها لك!

وقلت لصلاح سالم:

ـ دعني أكون صريحاً معك.. صحيح أنني على خلاف مع مصطفى أمين وعلي أمين.. ولكنني لا أتصور يوماً أنني أستطيع ترك أخبار اليوم.. إنها في دمي.. وروابطي مع التوأمين أقوى من أي اعتبار.. وأنا مقتنع أنني سمكة في بحر أخبار اليوم.. إذا تركت الماء فقدت الحياة..

قال صلاح سالم:

ـ ولماذا لم يحترم مصطفى أمين وعلي أمين هذه المشاعر فيك؟.

فقلت له:

ـ هذا موضوع آخر له ظروفه..

وبعد حوار طويل، لم نصل فيه إلى نتيجة، اتفق الرجل معي على لقاء ثان بعد أسبوع، لكي أعاود التفكير في الأمر..

وخرجت من هذا اللقاء.. وأنا حائر..

لماذا قال لي مصطفى أمين إن عبد الناصر يرفض تعييني؟ الحقيقة إذن، أن هيكل هو الذي لا يريد.. ومصطفى وعلي أمين في حاجة ماسة إلى هيكل لأنه أصبح على صلة وثيقة بعبد الناصر.. وهما لا يريدان إغضاب هيكل..

وأردت أن أستوثق أيضاً من كلمات صلاح سالم..

ولجأت إلى ابراهيم بغدادي ـ وهو صديق قديم ـ وكان نائباً لرئيس المخابرات العامة.. كما لجأت إلى صديقي صلاح الشاهد كبير أمناء رياسة الجمهورية.. وهو أخ عزيز..

وكان سؤالي لهما أن يستوثقا من رفض عبد الناصر أن أكون رئيساً لتحرير «الأخبار».. وكان ردهما: أن موضوع رياستي لتحرير الأخبار، لم

يعرض على عبد الناصر. . وقال لي صلاح الشاهد: إنه انتهز فرصة وجوده مع عبد الناصر في زيارة لمطار بلبيس. . وسأله عن هذا الموضوع. . وقال عبد الناصر في وضوح إنه لا اعتراض له على الإطلاق. . وأن ما بلغني غير صحيح. .

وكانت الإتصالات مع أحمد بهاء الدين مستمرة حتى ذلك الوقت. . ولم يحضر بعد إلى أخبار اليوم. .

ومر أسبوع. . وعاود صلاح سالم الإتصال بي بشخصه. . واتفق معي على موعد لقاء. .

وذهبت إلى الموعد، وفي ذهني قرار واحد، وهو الإعتذار عن عدم العمل في «الجمهورية». . فلم أكن مقتنعاً أنني أعمل صحفياً، ويرأسني ضابط. . كما أن سمعة صلاح سالم، أنه عدواني، وأنه جرى مرة في ساحة مجلس الثورة، وراء صحفي، بقصد ضربه والإعتداء عليه. . وله في هذا نوادر عديدة. . ولكن فكرة الإستقالة من «أخبار اليوم» مختمرة في ذهني. . وخاصة بعد أن تيقنت أن حكاية عبد الناصر لا أساس لها من الصحة. .

وفي هذا اللقاء. . كنت في قمة الصراحة مع صلاح سالم. .

- مع شكري الفائق. . فإنني لا أستطيع التعامل معك. . وسوف نختلف بعد أيام. . لأنني لا أقبل أي عدوان على كرامتي، واحترامي لذاتي. .

وضحك الرجل طويلاً. . وظل يروي لي، قرابة ثلاث ساعات. . حقائق كل الإشاعات التي لصقت به. . وفند كل رواية، وحكى تفصيلاتها. . وفي نهاية كل قصة كان يقول لي: هل أنا غلطان؟. . لو كنت مكاني، بماذا كنت تتصرف؟. .

ثم قال لي بمودة:

- ستعمل معي في الجمهورية. . وستكون بيننا صداقة عمل. . وسوف تتأكد أن صلاح سالم الذي تسمع عنه. . هو شخصية خيالية. . غير صلاح سالم الذي تعمل معه. .

ثم أضاف:

ـ وسبب آخر يدعوني إلى التمسك بأن تعمل معي.. هو صراحتك الكاملة.. ثم وفاؤك لانتمائك لأخبار اليوم.. رغم الأزمة التي تجتازها..

وانصرفت شاكراً، بعد أن وعدته بالرد عليه خلال أسبوع.

وصارحت مصطفى أمين بأن رواية عبد الناصر غير صحيحة.. فكيف يرفض رياستي لتحرير الأخبار.. ويدعو إلى رياستي لتحرير الجمهورية؟..

وأجابني مصطفى أمين:

ـ لا أكتمك إننا نراعي فعلاً، مشاعر هيكل.. ولكنك تعرف رأيي في هيكل.. وهو الذي أثر على علي أمين.. فأقبل الوضع الآن، على أن يتغير في المستقبل القريب..

وصدر قرار تعيين أحمد بهاء الدين رئيساً لتحرير «الأخبار».. وتسلم عمله في «أخبار اليوم»، وزرته في مكتبه مرحباً به، فليس بيني وبينه إلا كل خير.. وموقفي لا علاقة له بشخصه.. وبدا لي أن بهاء كان قد فهم الموقف خطأً من هيكل طبعاً، وهو أنني معترض على عمله في دار أخبار اليوم.. ولذلك بدا بهاء سعيداً بهذه الزيارة، سعادة لا تخلو من الدهشة!..

وكان حديث مصطفى أمين وعلي أمين معي، بعد ذلك، هو أن أحمد بهاء الدين لن يتدخل على الإطلاق، في تحرير «الأخبار»، أو في مسئوليتي في عملي.. وليس الأمر أكثر من وضع اسمه على الجريدة مع باقي رؤساء التحرير. وهذا ما حدث فعلاً.

ومضت أسابيع.. وأنا في صراع نفسي عنيف.. أقلب الأمر من جميع وجوهه.. وخاصة أن «الجمهورية» كانت ضعيفة التوزيع، لا تأثير لها في محيط الرأي العام، وأن إمكانيات العمل بها محدودة.. وكنا نعتبر أن رئيس تحرير الجمهورية لا يوازي في مكانته الصحفية، أي محرر في «الأخبار» التي كان توزيعها مكتسحاً في ذلك الوقت، وخاصة بعد أن أغلقت الثورة صحيفة «المصري» اليومية.. التي كان لها دوي ورنين وتوزيع مرتفع..

ولكنني في النهاية، لم أتحمل وضعي في «الأخبار». . كما لم تكن تهمني رياسة تحرير مجلة «الجيل» رغم نجاحها وذيوعها. . وأحسست أن كرامتي مهانة أمام تخطيط هيكل. . وانصياع مصطفى وعلي أمين لرغباته. . تدعيماً لصلتهما بعبد الناصر الذي كان يضع هيكل في المقام الأول. .

ثم اتخذت قراري. .

واتصلت بصلاح سالم وقلت له: قبلت. .

واستقبلني في منزله على الفور. . وأمر بإعداد مكتب لي يلاصق مكتب كامل الشناوي. . كما أعطى تعليماته بأن ينشر خبر تعييني رئيساً لتحرير الجمهورية في الصباح التالي مع صورة كبيرة في الصفحة الأولى. .

ومررت على دار «أخبار اليوم»، وتركت استقالتي في مظروف بعثت به إلى مكتب مصطفى أمين. .

واحتفل كامل الشناوي بالمناسبة. . وكانت سهرة في منزل الموسيقار محمد عبد الوهاب. . وكنت أضحك، وأشارك كامل الشناوي دعاباته. . ولكنني في أعماقي، كنت أحس بفراغ كبير. .

كيف أترك «الأخبار» إلى «الجمهورية»؟!
كيف أترك القصر الكبير إلى بيت صغير؟!. .
كيف أترك أسرتي، لكي أعايش أسرة غريبة عني؟!.

وانتحى بي الموسيقار عبد الوهاب جانباً وقال لي: «ليه عملت كده؟ بصراحة أنا مش موافق».

ونمت ليلتي أرقاً. . ولكنني قررت أن أثبت وجودي. . مهما كانت الظروف. .

وبدأت العمل من اليوم التالي في فدائية مندفعة. . وقمت بأعمال صحفية عديدة. . تحقيق ثورة كوبا. . تحقيق ثورة اليمن. . تحقيق الإنفصال السوري. . إخراج جديد للجمهورية. . وكنت لا أترك مكتبي إلا عند طلوع

الفجر.. وبعد أن أكون أجريت تعديلات الطبعة الثالثة.. وكان كل همي أن تظهر «الجمهورية» أنجح من «الأخبار» شكلاً وموضوعاً.. وكانت منافسة قاتلة، تعرضنا فيها لعدوان «الأهرام» علينا، بتخطيط من محمد حسنين هيكل.. وانتصرنا.. وتعمقت روابطي بصلاح سالم، وفتح لي قلبه.. وأصبحت صديقه الأول.. وكان صلاح سالم سعيداً بعودة علاقاته مع عبد الناصر.. وكان عبد الناصر سعيداً بالنجاح الذي حققته «الجمهورية»..

ثم فجأة.. انهارت العلاقات من جديد بين عبد الناصر وصلاح سالم.. وبدأ صلاح سالم رحلة المتاعب التي لازمته فيها ليل نهار!

الفصل الخامس عشر

المرحوم «تولستوي» في مصر.. ويتحدث العربية!

مندوب الجمهورية يبحث عن «تولستوي» في جميع فنادق القاهـرة ـ محمد سـالم يطلب فيلسـوف الجيل أحمـد لـطفي متصـوراً أنـه الـذي أنشـأ المسرح في مصرا ـ أقوال كامل الشناوي أروع من سـطوره ـ العقاد ينصب الشنـاوي أميراً للشعر ـ الحب الصامت للفنانة كاميليا ـ مـاذا وراء قصيدة «لا تكـذبي» ـ إطلاق النكـات على الماريشـال عبد الحكيم عـامر ـ الإتهـام بالمصروفـات السريـة ـ ثمن مقالات أبو نواس مقدماً ـ أمر باعتقال رشدي صالح ـ وقف المطبعة حتى يرسـل الشناوي اليوميات في الثانية بعد منتصف الليل.

الفصل الخامس عشر

المرحوم «تولستوي» في مصر.. ويتحدث العربية!

عندما تسلمت عملي رئيساً لتحرير «الجمهورية» قال لي صلاح سالم: لك مطلق الحرية في ترتيب عمل التحرير كما تشاء..

وكانت خطتي أن أبذل جهداً في تحسين ما هو قائم، والإستفادة الكاملة من كل الجهود، وخلق جو الأسرة الصحفية المترابطة..

ولكن الكفاءات كانت محدودة . وكنت من المؤمنين ــ خطأً أو صواباً ــ بأن الصحفى الذى لا يتخرج من مؤسسة « أخبار اليوم » لن يكون صحفياً ناجحاً . .

وكان كامل الشناوي، يتندر دائماً، لعدم كفاءة المحررين. . من ذلك أن كامل الشناوي كان يرى أن مندوبنا في رياسة الجمهورية، محدود الثقافة. وأنه يكتب ما يملي عليه. وأراد الشناوي كعادته أن يسخر منه بدعابة. . فاستدعاه إلى مكتبه، وقال له بكل الجدية والصراحة:

ـ أنت نائم يا أستاذ. . الكاتب الروسي العظيم «تولستوي» موجود في مصر، بدعوة من الرئيس عبد الناصر. . وأنت مندوبنا في الرياسة ولا تعلم!

وارتج على المحرر، وقال مدافعاً عن نفسه إنه لا يترك مقر الصحفيين في الرياسة دقيقة واحدة، وإنه يتابع كل مقابلات الرئيس. . ولم يقل له أحد في الرياسة إن تولستوي في القاهرة. .

ورد عليه كامل الشناوي مستمراً في جديته وصرامته:

ـ لقد أخفوا عنك الخبر الخطير. . وعليك أن تلتقي بتولستوي، وتجري معه حواراً عن زيارته لمصر. . والأمر سهل لأن «تولستوي» يعرف اللغة العربية. .

وتساءل المحرر:

ـ ولكن أين أجده يا كامل بك. . لعلها زيارة سرية. ولن يسمح لنا بمعرفة مكان إقامته. .

ونهره كامل الشناوي وهو يقول:

ـ اسأل في الفنادق الكبرى. . إنني متأكد أنه في أحد هذه الفنادق. .

وانصرف المحرر مهموماً، ولكنه أراد أن يثبت لكامل الشناوي عدم تقصيره. . وقام بجولة على جميع فنادق القاهرة الكبرى، وكان يسأل عن «تولستوي». . وكان الإجابة طبعاً أنه غير مقيم بالفندق. .

واستمر في هذا الجهد أربع ساعات كاملة، عاد بعدها إلى الجريدة، ليبلغ كامل الشناوي. . أنه لم يجد «تولستوي» في أي فندق. .

وقال له الشناوي: حاول غداً. . لا أريد أن تنفرد «الجمهورية» بعدم نشر حديث مع تولستوي. .

وخرج المحرر، لينفجر كامل الشناوي ضاحكاً، وهو يروي الحكاية لكل أصدقائه بالتليفون، ويجعلها حديث السهرة، مندوب الجمهورية الهمام، لا يعرف أن الكاتب الروسي تولستوي قد توفاه الله منذ عشرات السنين!

وكان كامل الشناوي مولعاً بهذا المقالب التي يسخر فيها من الزملاء. .

حدث أن عاد إلى القاهرة، قادماً من أمريكا، شاب درس الإخراج التليفزيوني في جامعة كاليفورنيا، وكان قد أمضى بأمريكا سنوات طويلة، قطعت صلته تماماً بمصر. . وكان هذا الشاب، هو المخرج محمد سالم، الذي أصبح نجماً كبيراً بعد ذلك. .

وكنت قد قابلته في لوس أنجلوس عـام ١٩٥٣، خلال زيـارتي للولايات المتحدة الأمريكية مدعواً من حكومتها، لمدة ثلاثة أشهـر، انتقلت فيها بـين كل الولايات.. وقدم لي محمد سالم نفسه، على أنه شاب يدرس الإخراج في جامعة كاليفورنيا.. وهو في وقت فراغه يعمل مدرساً للرقص.. لكي يكسب قوتـه.. وأعجبت بـه كـل الإعجـاب. وكتبت عنـه مقـالاً في مجلة «الجيـل».. وبعـد سنوات، تلقيت منه رسـالة أنـه أنهى دراسته، وأنـه قادم إلى مصر، ويتمنى لـو وجد عملاً في «التليفزيون» الذي كان قد بدأ الإرسال فعلاً. وحضر إلى مصر، وقدمته للدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام، الذي قرر تعيينه على الفور..

وكان محمد سالم.. كالسائح الغريب في مصر.. انقطع سنـوات طويلة، ولا يعرف شيئاً عن أسماء السياسيـين المشهورين، أو نجـوم المسرح والسينما، أو نجـوم الصحافـة.. وضمه كـامل الشنـاوي إلى مجلسه، وإلى سهـراتـه، وكـان يسميه المستشرق الأمريكي محمد سالم!

وذات ليلة، كان محمد سالم يعرض فكرة يريـد أن ينفذهـا في التليفزيـون عن استضافة عدد من النجوم.. والحوار معهم..

واستعـرض محمـد سـالم الأسـماء التي اختـارهـا، وطلب مشـورة كـامـل الشنـاوي في أسماء أخـرى.. وتساءل كـامل الشنـاوي في دهشـة: كيف نسيت اسم أحمد لطفي السيد؟..

وأجاب محمد سالم في براءة صادقة:

ـ «لا أعرف هذا الإسم يا كامل بيه..»

وازدادت دهشـة كامـل الشناوي: «كيف لا تعـرف ـ وأنت فنـان ـ أحمـد لطفي السيد أول من أنشأ التمثيل المسرحي في مصر؟»..

واعتذر محمد سـالم عن جهله بهذه الحقيقـة.. وقال لكـامل الشنـاوي إنه سيتصل به، ويستضيفه في البرنامج!

وعاد محمد سالم في اليوم التالي، ليقول إنـه لم يجد رقم تليفـونه.. ويـريد من يساعده للوصول إليه..

وكـانت دعابـة كبرى. . فـإن فيلسوف الجيـل أحمد لـطفي السيد، رئيس الجامعة ووزير الخارجية، ومترجم مؤلفات أرسطو. . لا علاقة لـه على الإطـلاق بأي نشاط مسرحي. . كما أنه توفي منذ بضعة أعوام!

ولكن هـذه «القفشة» كـانت موضـوع سهرات كـامل الشنـاوي لأكثر من أسبوع!

وكان كامل الشناوي، يضيق بالكتاب الّذين يكتبون بسرعـة، وبدون أي تجديد فني في الأسلوب. . وكـان يطلق عليهم «رصـاصو الحـروف». . أي أنهم يرصون حروف الكلمات، دون إبداع أو فن. .

وكان كامل الشناوي، مبدعاً سريع البديهة، عندما يتكلم. . ولكنه كـان يعاني معاناة قاسية عندما يكتب. وإذا كتب في بيته، فهـو لا بد أن يهيء نفسـه للكتابة، ويرتدي «الـروب دي شامـبر» فوق البيجـامة. . ويهيء لنفسـه «قلماً» رشيقـاً يكتب بـه من بيـن عشرات الأقـلام التي يهـوى جـمعهـا. . مثـل «الكـرافتـات» الأنيقـة، والسـاعـات الـرشيقـة. . وكـان يـردد: «الكتـابـة لهـا احـترامها. . وكيف ألتقي الكلمـة دون أن أكون في زي محـترم أنيق». . وكـان يمضي وقتاً طويلاً، في انتقاء العبارة. . ويشطب كثيراً. . ويمزق الورق، ويكتب من جديد. .

ولذلك، فإن مصطفى أمين كان يردد دائماً، أن كل من يجلس مع كامل الشناوي يجب أن يحمل جهاز تسجيل. . لكي يسجل كل ما يقوله. . إن أقواله أروع كثيراً من سطوره. .

وكـان كامـل الشناوي يعشق ثـلاثة. . المـوهبة. . والمـال لكي يبـدده. . والجمال.

إن كل أعلام الصحافة المصرية اليوم. . مواهب قدم لها كامل الشناوي، يد العون والتشجيع. . محمد حسنين هيكل. أحمد بهاء الـدين. أنيس منصور.

فتحي غانم. سعيد سنبل. المرحوم كمال الملاخ. وغيرهم في دنيا الفن. مثل عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة..

وهو قادر على أن يجعل المدينة كلها تتحدث عن مقال لشاب موهوب، قرر الشناوي أن يشجعه.. يكفي أن يجلس إلى التليفون نصف ساعة، لكي يعبر عن إعجابه بالمقال القنبلة للعديد من أصدقائه في كل المواقع..

وهو في المقابل يشن حرباً عنيفة ضد أدعياء الموهبة والفن. ولذلك فقد كان لا يؤمن بالشعر الحديث غير الملتزم بالقافية.. وكان يعتبره من قبيل رص الحروف.. وكان يتحدى هؤلاء الشعراء أنه قادر على نظم عشرين قصيدة من هذا النوع في عشرين دقيقة.. وكان يفعل ذلك أمامنا!

وكان هو مقلاً في شعره..

وذات ليلة، أقفل سماعة التليفون أمامي، ليقول لي:
ـ هل تعرف من كان المتحدث؟..
ـ لا.. طبعاً
ـ إنه العملاق عباس محمود العقاد.. لقد قال لي إنني أمير الشعر الآن..

وكان سعيداً بهذه الشهادة، من العقاد، الذي كان ضنيناً في إعجابه بأي إنتاج أدبي أو ثقافي لغيره..

وكان كامل الشناوي، يحب المال!.. لكي يبدده في سهرات مآدب العشاء التي يدعو إليها.. وعلى المائدة الخضراء!

ولم يكن يملك غير مرتبه.. ولذلك فقد كان يقترض مرتبه لعام قادم!.. وكان يقترض من جميع بنوك مصر!.. وكان شعاره الضاحك «الدول تقترض.. فلماذا لا نقترض؟..»

والغريب أنه كان يخسر دائماً على المائدة الخضراء!.. والغريب أنه كان يختار أصحاب الملايين، لكي يشاركهم اللعب.. وكانوا يكسبون وكان يخسر!

وكان قلبه يدق دائماً، للمستحيل في الحب!

في الأربعينات، لمعت في سماء الفن، نجمة سينما اسمها كاميليا. . كانت قمة في جمال الإغراء. وكانت على علاقة بمليونير من رجال الأعمال، صديق للشناوي. وذات صيف في الإسكندرية، وكانوا يقيمون جميعاً في فندق وندسور، اضطر المليونير للسفر إلى الخارج لمدة أسبوع. وكان يخشى أن تعبث محبوبته اللعوب في غيبته. فطلب من كامل الشناوي أن يكون عينه عليها، وألا يفارقها أبداً. . مطمئناً تماماً، إلى أن كاميليا لن تعبث معه. . ولم يكن يدري أن الشناوي كان يحبها من جانبه، وكان ينظم فيها الشعر، ولكنه لم يعبر قط لها عن هذا الحب. . وقد لاحظت هي بذكاء الأنثى، من نظرات عينيه الوالهة، إنه يحبها. . ولكنه صامت يخشى أن يبوح، وعلى مائدة القمار، لاحظت أنه يتعمد ألا يستخدم أوراقه الرابحة، لكي تربح هي. . وتكرر هذا كثيراً. وبعد أن انتهى اللعب، صعدت إلى حجرتها. وطلبت منه أن يحضر إليها. . وقالت له:

ـ أعرف أنك تحبني. . وقد خسرت الليلة مبالغ كبيرة، لكي أكسب أنا. . وأنا أعرف أنك لست مليونيراً مثلهم. . وهذا قمة الحب. هأنذا بين يديك. . مستجيبة لحبك!

. . . .

. . . .

وفى عالم الطرب، أحب فى أوائل الأربعينات. . مطربة لبنانية «نور الهدى» اعتزلت الغناء الآن. . أيضاً من جانب واحد ، وكان من عادتها أن تضغط بيدها على يد من تسلم عليه. . وتصور هو أن هذا الضغط ، هو تعبير عن حبها. . ثم فوجى بالصدمة القاصمة. . أنها لم تفكر فيه لحظة واحدة ، كحبيب!

وكان حبه الأكبر، لمطربة مصرية لا تزال تغني. .

كان يسمي صوتها «الضوء المسموع»!. . وكتب عنها كثيراً، وطلب من تلاميذه وأصدقائه في كل صحف مصر، أن يرحبوا بكل أغنية جديدة لها. . وأقام لها حفل عيد ميلاد فاخراً في بيتها، غير الهدية القيمة. . وكل ذلك

بـالإقتراض والـدين. . وذات ليلة، انصرف من سهرتهـا. . وشك في أن أحـد الزمـلاء على علاقة معها. . وعاد الشناوي فجأة بعد انتهـاء السهرة إلى بيتهـا، لكي يفـاجأ بـوجود هـذا الزميـل. . وكان ذلـك أكبر صـدمات حيـاته، ونـظم قصيدته الرائعة. .

لا تكذبي. . إني رأيتكما معاً!

وكنا جميعاً نحترم عاطفـة كامـل الشناوي. . وكنـا نأسى لأنـه كان دائمـاً يختار الحب المستحيل!

وهو فنان في التعبير عن إعجابه. .

كـان يرى أن المـرحومـة مذيعـة التليفـزيـون سلوى حجـازي، نمـوذجـاً مكتمـلاً، للوجـه التلفـزيـوني النـاجـح. . وكـان معجبـاً بـرقتهـا. . وبـذوقهـا وتهذيبها. . وكان يصف رقتها بقوله:

ـ إنها رقيقـة إلى درجة أنها إذا أرادت أن تفتـح درج مكتبها. . فـإنها تنقر بأصابعها على الدرج بكل حنان وتقول له: تسمح لي أفتحك!

وكان كامل الشناوي، يخاف الوحدة دائماً. . ويخاف الظلام!

ولذلك كـان يمضي الليل، بعـد فراغـه من عمله، في سهـرة بفنـدق، أو منـزل صديق، أو بيت فنـان حتى مطلع الفجـر. . ثم يطلب عنـد الإنصراف، من أحد أصدقائه، أن يقود السيارة في شـارع الهرم، لكي يشـما الهواء النقي. . وكان يستغرق في النوم. . ويوصله الصديق إلى باب عمارتـه في جاردن سيتي. . وكان البواب ينتظر كامل الشناوي، بعصا، يمسكها الشناوي وهو يصعـد السلم ويضرب بها في هواء الظلام. . وكأنه يطرد الأشباح!

وكنا جميعاً نحبه. .

ولم يستطع قادة الثورة بعد نشـوبها، أن يتجـاوبوا مـع كامـل الشناوي. . كان بطبيعة تكوينه ساخراً. . وأطلق النكات على الثورة وقادتها، وخاصة عندما عين عبد الحكيم عامر، قائداً للقوات المسلحة ومنح رتبة المشير. . فكان يـروي

القصص الخيالية، عن المعارك الوهمية التي قادها عبد الحكيم عامر، حتى استحق رتبة الماريشال.. وكان يروي أيضاً قصص اللقاء «الخيالي» بين الماريشال عبد الحكيم عامر والماريشال مونتجمري قائد معركة العملين، وتبادلهما ذكريات الحروب التي خاضها كل منهما!

لم يتقبل قادة الثورة هذا المسلك من كامل الشناوي، مع أنه كان في أعماقه من مؤيدي الثورة، ولكنها طبيعة الدعابة والسخرية..

ولذلك، فقد أعلنت الثورة، في نطاق ضجرها من موقف كثير من الصحفيين، أنها ستكشف للرأي العام، أسماء الصحفيين والكتاب والصحف، الذين كانوا يقبضون من المصروفات السرية.. وأذاعوا بياناً به إسم إحسان عبد القدوس وكامل الشناوي.

وأذكر أنني كنت في مكتب كامل الشناوي بالدور الأول في «أخبار اليوم».. وكنت نائباً لرئيس تحرير «الأخبار».. ودق التليفون، وطلبني مندوبنا في قيادة الثورة ليملي على أسماء الصحفيين في كشف المصروفات السرية..

وكان إلى جواري كامل الشناوي، يتابع الأسماء التي أكتبها.. وقد كتبت كل الأسماء، ولم أكتب إسمه عندما أملاه على المندوب..

واستراحت نفس كامل الشناوي.. وقد كان في قمة القلق. وصعدت إلى مكتب مصطفى أمين في الدور العاشر، وأبلغته بما جري.. وقد رأى مصطفى أمين أن يبلغه بالحقيقة.. لأنه سيعرفها بالحتم.. ونزل مصطفى أمين إلى مكتب الشناوي، وأنفرد به.. وصارحه بما جرى..

وفقد الشناوي أعصابه.. وأمسك القلم وكتب برقية إلى جمال عبد الناصر، قال فيها أن ما أذيع غير صحيح.. وأنه مستعد للتحقيق.. وأنه يقبل أن يشنق في ميدان عام، لو كان صحيحاً أنه قبض مصروفات سرية من أية حكومة قبل الثورة.. ومنذ تلك الليلة.. أصيب الشناوي بحالة اكتئاب..

كان كامل الشناوي، كاتباً صحفياً، فناناً، يبدأ المعركة السياسية بالكلمة الملتهبة، والموقف الشجاع.. ولكنه لم يكن يقوي على الإستمرار.. كان صاحب رأي، ولكنه لم يكن مقاتلاً شرساً بطبيعته.

كـانت له مـواقف وطنية رائعـة . . عندمـا أراد فؤاد سراج الدين في عـام ١٩٥١ إصدار تشريعات تقيد حرية الصحافة، وتوجب عـدم نشر أخبار الأسرة المـالكـة . . كـان الشنـاوي من نجـوم الإجتـماع الكبـير الـذي عقـد في نقـابـة الصحفيين، احتجاجاً على هذا القانون . . .

وكان كامل الشناوي، يعارض بعنف معاهدة صدقي بيفن . . وقـد كانت مشروعـاً انتهى إليـه صـدقي بـاشـا رئيس الـوزراء مـع بيفن وزيـر الخـارجيـة البريطاني، في مباحثات الجلاء البريطاني من أرض مصر . .

وكتب الشناوي مقالاً عنيفـاً، يرفض فيـه هذه المعـاهدة، عـلى صفحات «أخبار اليوم» . . وكتب مصطفى أمين في نفس العدد بعنوان «أوقعها وألعنها» . .

ولكن الشناوي . . بطبعه قصير النفس . .

وكان مصطفى أمين يطلق عليه وصف «القصيدة الناقصة . .» . .

كان الشناوي يريد قرضاً من خـزانة «أخبـار اليوم» . . وهـو من قبل قـد اقـترض مرتبـه لعـام مقبـل . . فعـرض عليـه مصـطفى أمـين أن يكتب سلسلة مقالات عن الشاعر «أبو نواس» . . على أن يقبض ثمن المقالات مقدماً . . وقبل مصـطفى أمـين . وكتب الشنـاوي ثـلاث أو أربـع مقـالات رائعـة . . ولكنـه لم يكمل!

كـان دائماً، ملولاً، ضـائقاً، لا يستـطيع الإستقـرار والإستمرار . . وقـد عاش عمره بعد الثورة، وهـو يشعر في أعـماقه . أن اجـراء غـادراً سيصيبـه! . . وكـان يخشى دائماً، أن يجـبر على تـرك عمله . وكان طـوق نجاتـه الوحيـد، هو عـلاقته بمحمـد حسنـين هيكـل . . كـان يـرى فيـه الحـمايـة لـه من المفـاجـآت والمؤمـرات . . وكـان هيكل يحب كـامـل الشنـاوى . . وكـان باراً بـه . وكـان دائماً العنصر الملطف، في أزمات كامل الشناوي . .

وبعد وفاة صلاح سالم . . وبعد أن تولى «الحناوي» رياسة مجلس إدارة دار التحرير «الجمهورية» . . وبعد أن حرض الحنـاوي عدداً من الكتـاب، لمهاجمـة الشناوي على صفحات «الجمهورية» . . لجأ الشنـاوي إلى هيكل . . وطلب منه

أن يزوره في مكتبه بالجمهورية. . وكانت زيارة هيكل ـ أقرب الناس إلى عبد الناصر ـ تعني أن كامل الشناوي موضع رضاء. .

وكنا اثنين في مستشفى الدكتور عبد الله الكاتب، عندما لفظ الشناوي أنفاسه الأخيرة بعد منتصف الليل. . محمد حسنين هيكل وكاتب هذه السطور. .

وبكى هيكل. . وبكيت.

ما أبشع الموت. كامل الشناوي الذي كان يملأ الدنيا بفنه. . مات وحيداً في ظلام المستشفى. . ولم تكن بجواره، إلا طالبة شابة، كانت تراه أستاذها. . وكان يتبنى موهبتها. .

وحتى قيام الثورة، وبعد قيامها. . كنت قريباً جداً إلى الشناوي. . وإلى قلبه.

وكامل الشناوي هو أول من وضع «بقلم موسى صبري» على مقالاتي.

وقد كنت دائماً أحفظ له هذا الجميل. .

وكانت أول مرة أرى فيها كامل الشناوي. . عندما قصدت إلى مكتبه في «الأهرام» بعد استقالتي من «الزمان» مع زملائي. . وليلتها أبلغني أنني سأعمل في «الأهرام». . ثم اعتذرت عن عدم القبول.

وكنت قبل ذلك قد سمعت صوته في التليفون وأنا أعمل سكرتيراً لتحرير الزمان. . عرض علي أن أعمل في صحيفة يومية جديدة، قرر إصدارها بتمويل من أحمد حمزة باشا عضو الوفد. وكان العرض مغرياً. وفكرت في القبول. ولكن جلال الحمامصي نصحني بالرفض. قال لي أن كامل الشناوي صاحب طبيعة شاعرة حالمة. ولن يستمر في إصدار هذه الصحيفة. .

ثم التقينا في «أخبار اليوم». . وكان دائم التشجيع لي، حتى استقال، وعمل في «الجمهورية». . ورحب بي كثيراً عندما عملت معه رئيساً للتحرير. . ولم نختلف يوماً. .

وكان لا يتأخر عن مساعدة أي زميل صحفي يواجه محنة..

وكان مكتبه يتحول في المساء إلى ندوات وسهرات ومساجلات أدبية وشعرية.. وكان يتجمع فيه الفنانون والأدباء والصحفيون من الشبان، الذي يقربهم إليه إذا ما لمس فيهم موهبة..

ومآدب العشاء في هذا المكتب.. لم تكن تنقطع أبداً. الرنجة المقلية، الكباب. السمك المشوي. وكان يحب الطعام الذي له مذاق.. ولا بأس بعد العشاء، أن يأخذ «الشلة» إلى فندق هليوبوليس (مقر رياسة الجمهورية الآن) لتناول الآيس كريم..

وكان كريماً بلا حدود..

ولكنه لم يكن يقدم مقاله في موعده قط.

هو بطبيعته مقل في الكتابة.. بطيء في تسطير الكلمة.. ولا يكتب إلا في الدقيقة الأخيرة!

أذكر أنني أوقفت المطبعة ذات ليلة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. حتى ينتهي كامل الشناوي من كتابة اليوميات في منزله.. وكان يرسلها لي ورقة ورقة.. لقد غلبه النوم في المساء، واستيقظ قبيل منتصف الليل، وكان لم يكتب اليوميات بعد!

وهكذا كانت الرفقة طيبة في «الجمهورية».. ولكن الأمر لم يخل من أزمات!

الفصل السادس عشر

الأزمة الثانية مع طه حسين.. وأزمات أخرى!

ألم عبد الناصر من فشل «الجمهورية» ـ تعيين حسين فهمي رئيساً للتحرير ـ تفصيلات الإستقالة من «الزمان» ـ خلافات الحمامصي وحسين فهمي في «الجمهورية» ـ إشراف طه حسين على المواد الأدبية ـ أزمة أدب العفاريت ـ مقال عنيف عن طه حسين يتهم رؤساء التحرير بالجهل ـ حل وسط يقدمه صلاح سالم ـ لقاء المصالحة مع طه حسين ـ عبد الناصر يفصل ابراهيم نوار بالتليفون ـ تقرير ملفق من المخابرات ـ عقدة هيكل تحكم ناصر النشاشيبي ـ معركة مع أحمد سعيد ـ وضع مدير إدارة الجمهورية تحت الحراسة ـ لجوئي إلى البغدادي للتوسط ـ كمال الدين حسين يهدد بإغلاق مجلة «الجيل».

الفصل السادس عشر

الأزمة الثانية مع طه حسين.. وأزمات أخرى!

رويت في فصل سابق كيف غضب الأستاذ الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، لأنني لم أغير مانشيت «الجمهورية» كما أراد. طلب أن يكون المانشيت «ديجول في حرج». . وكتبته كما كان بعد استشارة كامل الشناوي «ديجول في أزمة». .

وقال طه حسين لصلاح سالم رئيس مجلس الإدارة:

- إنني أقبض مرتب رئيس تحرير، ولا أؤدي عمل رئيس تحرير. . وأنا لا أقبل أجراً بغير عمل. . ولذلك فإنني مستقيل. .

وكان من المستحيل أن يقبل صلاح سالم استقالة طه حسين. فقد كان ذلك سيحدث ضجة كبرى، ويسيء إلى سمعة صحيفة «الجمهورية» وقد بدأ توزيعها يزداد. . وكان صلاح سالم سعيداً بما يسمعه من عبد الناصر، من أنه أنقذ «الجمهورية» من البوار. . وأنه صنع معجزة بنجاح الصحيفة. . وكان عبد الناصر يائساً من ذلك. وكان يردد جملة تعبر عن ألمه من فشل «الجمهورية» وقد كان صاحب امتياز اصدارها. . جملة يقول فيها «أنا مثل مالك الفيلا الثري، الذي وفر لولده كل سبل الحياة الكريمة. . ولكنه يفاجأ، برسوب ولده كل عام في الجامعة. . بينما يرى ابن البواب الذي يسكن مع أسرته في حجرة صغيرة في الحديقة. . ينجح بتفوق كل عام». .

وقد وفر عبد الناصر لصحيفة «الجمهورية»، كل أسباب النجاح فعلاً. . وخصصت لها اعتمادات ضخمة، وعين بها محررون عديدون بمرتبات كبيرة. . وكان يرأس مجلس إدارتها أنور السادات، ويشرف على التحرير جلال الدين

الحمامصي نائب رئيس مجلس الإدارة ويرأس التحرير حسين فهمي . . ثم رأس التحرير جلال الدين الحمامصي . . وهبط التوزيع . . وغضب عبد الناصر، عندما شنت «الجمهورية» حملة عنيفة ضد توفيق الحكيم، واتهمه المرحوم رشدي صالح، بأنه اقتبس كتابه حمار الحكيم من أديب إسباني معروف له كتاب بنفس الإسم . . ورداً على هذه الحملة، كرم عبد الناصر توفيق الحكيم، ومنحه وساماً . . ولم يكن عبد الناصر يطيق عناد الحمامصي . .

وأذكر عند الإعداد لإصدار «الجمهورية» . . وقبل أن يختار اسماً لها، أن أنور السادات اتفق مع جلال الحمامصي على أن يكون نائبه في رياسة مجلس الإدارة، وأن يخطط لإصدار الصحيفة . . وكنا نعمل في «أخبار اليوم» الحمامصي وكاتب هذه السطور . . وقال لي الحمامصي، إن أنور السادات سوف يفاتحني لكي أعمل في الجريدة الجديدة . . وكان ردي هو الإعتذار عن عدم العمل . .

وسألني الحمامصي: لماذا؟ . .

ـ وقلت: لا أريد أن أعمل في صحيفة مؤيدة . .

ـ وقال الحمامصي: ستكون الصحيفة مستقلة . . معبرة عن الثورة . . وأنت تؤيد الثورة .

ـ وأجبت: لن تكون مستقلة . .

ولم يتصل بي أنور السادات . .

وكان السادات يحب الحمامصي ويحترمه. وبدأت علاقته به في معتقل الزيتون عام ١٩٤٣، حيث إعتقل الحمامصي بعد فصله من عضوية مجلس النواب، بواسطة الأغلبية الوفدية لإنضمامه الى مكرم عبيد (باشا) في حملته ضد فساد حكومة الوفد، وإنسلاخه من حزب الوفد وتأليف حزب الكتلة الوفدية، المستقلة، ثم إصداره «الكتاب الأسود» سراً . . ولعب الحمامصي الدور الأول في إصدار هذا الكتاب . .

وقد عرفت السادات والحمامصي معاً، عندما اعتقلت في معتقل الزيتون . . وكانت صداقتهما وطيدة . . وكان كل منهما ينادي الآخر باسمه الأول . . «يا أنور» و«يا جلال» . . وعندما قامت الثورة، وتألفت أول وزارة

اشترك فيها فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري والدكتور نور الدين طراف. . اقترح الباقوري علي عبد الناصر، اختيار الحمامصي وزيراً للشئون البلدية. . وأبلغ بذلك الحمامصي. . ثم عدل عبد الناصر عن الفكرة. . وكان رأي الثورة في الحمامصي، انه شاب وطني نظيف ممن اشتركوا في حرب الفساد الحزبي قبل الثورة. .

ووافق عبد الناصر على اقتراح أنور السادات، بأن يشرف الحمامصي على تحرير «الجمهورية». . وكانت المشكلة هي في اختيار رئيس تحرير. . واعتذر الصحفيون اللامعون عن عدم قبول رياسة التحرير. . وأخيراً جرى التفكير في اختيار حسين فهمي. وكان حسين فهمي قبل الثورة، رئيساً لتحرير صحيفة «الزمان» اليومية المسائية التي كان يملكها رجل القصر الملكي «أدجار جلاد باشا». . ولذلك قصة. .

كان الحمامصي رئيساً لتحرير «الزمان». . واختارني سكرتيراً للتحرير، كما اختار صديقه حسين فهمي سكرتيراً للتحرير أيضاً. ولم يكن حسين فهمي قد عمل بالصحافة قبل ذلك. . كان يعمل في وظيفة قانونية بوزارة الشئون الاجتماعية. . وكان صاحب أسلوب في الكتابة. . وكنا نعمل في حجرة واحدة. واتفق على توزيع العمل بيننا. . حسين فهمي يراجع المواد الثابتة. . وأنا. . مسئول عن المواد الإخبارية واخراج الصحيفة حتى تطبع. ولم يكن حسين فهمي مقبلاً على العمل. . كان يفضل أن يكتب مقالاً أو تعليقاً ثم ينصرف. . وتحول الأمر، الى أنني كنت أقوم بكل مسئوليات العمل. . وكان مرتب كل منا ثلاثين جنيهاً.

وبعد العام الأول. . قرر لي ادجار جلاد علاوة ١٥ جنيهاً.

وفي العام الثاني أعطاني مكافأة مائة جنيه تعويضاً عن علاوة أخرى، بشرط أن يبقى الأمر سراً مراعاة لشعور حسين فهمي. .

وكان العمل يبدأ في (الزمان) في الساعة السابعة صباحاً، وكان حسين فهمي يحضر في العاشرة صباحاً أو بعد ذلك. . وكنت أمضي فترة الصباح حتى الساعة الواحدة بعد الظهر في عمل متصل، في رسم الصفحات، وإقرارها من

الحمامصي، ثم «توضيب» الصفحات في المطبعة.. والإشراف على كل شيء، حتى تدور ماكينات الطباعة، لكي نلحق القطار الذي ينقل الصحيفة الى الوجهين البحري والقبلي.. وحتى تصدر الصحيفة في القاهرة، عند موعد انصراف الموظفين في الثانية بعد الظهر..

وكنت أتناول غدائي في الجريدة، واستريح بعض الوقت، ثم أتابع مراجعة المواد الثابتة وتوضيبها من الخامسة بعد الظهر حتى منتصف الليل.. وكان حسين فهمي يحضر في السابعة مساء، ويحييني ثم ينصرف وهو يردد «البركة فيك يا أبو الأمواس».. وكنت سعيداً بذلك، لأنني كنت أشبع هوايتي المجنونة بالعمل الصحفي دون راحة..

وبدأنا العمل في «الزمان» عام ١٩٤٧..

وجرت الأمور، على أحسن ما نشتهي.. وساعدتنا الأحداث، على الخدمة الصحفية السريعة ثم زيادة التوزيع.. الانفجارات في المتاجر التي يملكها اليهود المصريون.. ثم انفجارات في حارة اليهود.. وانفجار في سينما مترو.. ثم مقتل النقراشي رئيس الوزراء.. ثم اغتيال وزير المالية في حكومة الوفد أمين عثمان.. والمحاكمة.. وكان أنور السادات «اليوزباشي» بالجيش في مقدمة المتهمين.. ثم حرب فلسطين وهزيمة الجيوش العربية.. كلها أحداث زادت من توزيع «الزمان» حتى وصل الى ٧٠ ألف نسخة.. وكان ذلك رقماً قياسياً، بالنسبة لصحيفة تصدر في المساء..

ثم جاءت الانتخابات العامة في نهاية عام ١٩٤٩.. وأشارت كل الدلائل إلى أن حزب الوفد سوف يفوز بالغالبية..

وهنا استدعاني ادجار جلاد باشا وقال لي: صحيح أنا متفق مع الحمامصي رئيس التحرير ومعكم على أن تكون سياستنا مستقلة.. ولكن السياسة ليست خطاً ثابتاً..

هناك اتجاه للتعاون بين القصر الملكي والوفد.. ولذلك فإننا سنؤيد الوفد.. جلال الحمامصي ليس مقتنعاً بذلك. جلال يتصور أن السياسة هي هندسة.. مسطرة وقلم وقواعد ثابتة.. لا.. السياسة هي المرونة، ومواجهة الأحداث..

وذهل ادجار جلاد عندما سمع مني:

ـ إنني أؤيد الأستاذ جلال في موقفه.. لقد عملنا هنا مجموعة من الشباب الجامعي.. على أساس أن تكون الصحيفة مستقلة.. ومستحيل أن أعمل مؤيداً للوفد..

وأمضى ادجار جلاد باشا معي أكثر من ساعتين.. وتجدد اللقاء.. لكي يقنعني بالبقاء..

وقال لي:

ـ أنا مهتم بك جداً، أكثر من الحمامصي.. الحمامصي عنيد ومخه ناشف.. وواخد المسألة عند... وكل عمله معي مشاكل.. وسوف أقبل استقالته بمجرد أن يقدمها.. ولكن الذي يهمني هو أنت.. أنت الآن عمرك ٢٥ سنة.. وسوف أعينك رئيساً للتحرير، وسوف تكون أصغر رئيس تحرير صحيفة يومية في مصر.. وسوف أرفع مرتبك الى مائة جنيه.. ولا تكن متهوراً مثل الحمامصي.. وفكر في الأمر..

ولم يكن الأمر، يستوجب مني أي تفكير.. كنت لا أتصور أنني سأكون مدافعاً عن حزب الوفد، الذي كان رمزاً للفساد بالنسبة لي.. ولهذا تظاهرت في الجامعة ضد الوفد.. واشتركت في توزيع الكتاب الأسود.. واعتقلتني حكومة الوفد عاماً كاملاً.. فكيف أناقض نفسي؟..

وقدمت استقالتي الى جلاد باشا، قبل أن يقدم جلال الحمامصي استقالته بيومين.. وكان في جيبي «ثلاثون قرشاً»..

وتألم جلاد باشا من هذا الموقف.. وعندما سويت حسابي مع الخزانة.. اكتشفت أنه خصم من مستحقاتي مبلغ الـ ١٠٠ جنيه، التي حصلت عليها كمكافأة.. ولم أهتم.. كنت ممتلئاً بحماسة الشباب، سعيداً، بأنني ملتزم بالمبدأ..

وتركت «الزمان».. وأصدر جلاد باشا قراره بتعيين حسين فهمي رئيساً للتحرير..

وقـامت الثورة بعـد عامـين ونصف عام. . واستـولت على مبنى صحيفـة الزمان، الذي كان يضم صحيفـة «جورنـال ديجبت» التي وكانت تصـدر باللغـة الفـرنسية، ويملكهـا جلاد بـاشا ويـرأس تحريـرها. . كـما استولت عـلى مطابـع «الزمان». . وتركت لجلاد باشا صحيفته الفرنسية. .

وعـرض على حسـين فهمي أن يكون رئيسـاً لتحـريـر «الجمهـوريـة». . وقبـل. . وكان هـذا القبول مـدعاة لـرضاء جمـال عبد النـاصر، لأنـه الصحفي الوحيد الذي قبل رياسة تحـرير «الجمهـورية» بعـد أن اعتذر عن عـدم القبول، كل كبار الصحفيين. .

وثارت خلافات عديدة بين جلال الحمامصي، المشرف على التحرير، وبين حسـين فهمي. . ثم تـرك حسـين فهمي العمـل، وانفـرد جـلال الحـمامصي بـاختصـاص نـائب رئيس مجلس الادارة، ورئيس التحـريـر. . ثم ضـاق عبد الناصر، بالحمامصي. . وترك الجمهورية كما تركها أنور السادات الى مناصب أخرى. . ثم أسند عبد الناصر رياسة مجلس الادارة ورياسة التحرير الى صـلاح سـالم. . وعين كـامـل الشنـاوي وابـراهيم نـوار (كـان سكـرتـيراً للتحـريـر في «الأخبار») رؤساء للتحرير. . ثم عين الدكتور طه حسين رئيساً للتحرير . . ثم عينت رئيساً للتحرير مسئولاً عن إصدار الجريـدة. . ووصل تـوزيع الجمهـورية الى أرقام قياسية. . ثم ثارت الأزمة مع طه حسين!

قـال لي صلاح سـالم: ما العمـل؟ يجب أن نرضي طـه حسـين. . إن لـه مكانة خاصة لدى عبد النـاصر. . وهو الـوحيد الـذي كتب بعد الانفصـال عن سوريا مقالاً لا يتفق مع سياسة الثورة، وقبل عبد الناصر ذلك، لأن الكاتب هو طه حسين. . وأنني أريد أن أرضي عبد الناصر وطه حسين معاً. .

ووجد اقتراح، لست أذكر مصدره. . بـأن تعرض كـل المواد الأدبيـة على الدكتور طه حسين قبل النشر. . لإقرارها أو رفضها أو تعديلها. .

وأقنعه صلاح سالم بقبول هذا العرض، لأنه من المستحيل عليه أن يتابـع الأخبـار السياسيـة، ولأن الظروف السيـاسية متقلبـة. . وأن العمـل الإخبـاري

اليـومي، يستدعي السرعـة والتصرف وتغيير الـطبعات. . وخـلال ذلـك كله، يتعذر، أن يعرض عليه كل ما يجري. .

واستراح طه حسين لهذا العمل. .

وأذكر أن الكاتب القصصي سعد مكاوي، كلف بـأن يجمع المـواد الأدبية من زمـلائه الكتـاب، التي تنشر على مـدى اسبوع أو أقـل. . ويتـوجـه الى طـه حسين في «فيلته» بالهرم. . لكي يقـرأ لـه هـذه المواد. . وهي مقـالات وقصص وخواطر أدبية. . وكان ينفذ بشأنها كل ما يشير به طه حسين. .

وكانت «الجمهوريـة» عامـرة بعدد كبـير من ألمع الكتـاب. . عبد الـرحمن الشرقاوي. يوسف إدريس. الدكتور محمد مندور. أحمد عباس صـالح. نعـمان عاشور. رشدي صالـح. سامي داود. اسـماعيل الحـبروك. سعد الـدين وهبه. وغيرهم كثيرون. ولم يتوافر هذا العدد من الكتاب لصحيفة يومية من قبل.

وسارت الأمور بعض الوقت على هذا النهج. . وكانت كل توجيهات طـه حسين تنفذ بكل دقة. .

وحـدث أن توعـك الرجـل. . فقد كـان يواجـه مرحلة مـرض متقـطع، يقتضي منـه قلة الحركـة. . وكثيراً مـا كان يعتكف في حجـرة نومـه. . مما تعـذر معه أن تعرض عليه المواد الأدبية. .

ثم فجأة. . أثار طه حسين أزمة كبرى!

نشر ابراهيم الورداني مقالاً ملتهباً، هاجم فيه الكتـاب الأدباء. . قـال ما معناه أن من يطالبوننا بدراسة الأدب اليوناني القـديم. . إنما يـطالبوننـا بدراسـة أدب العفاريت والخرافات والأساطير التي ليست لها أي قيمة. .

واعتبر طه حسـين هذا المقـال، معبراً عن قمـة الجهل. . وأن هـذه دعوة خطيرة الى التخلف. . وكان طه حسين يأخذ على أدباء الجيـل الجديـد، إنهم لا يقرأون، وأنهم لا يعرفون شيئاً عن تاريخ الأدب العالمي. . ولذلك فهو لا يقـرأ لهم. .

واحتج طه حسين، بأن هذا المقال التخريبي لم يعرض عليه!

ودار تحقيق.. كيف لم يعرض هذا المقال على طه حسين..

ووجدت عشرات الأعذار.. ولكن طه حسين لم يقبل عذراً واحداً.. وأملى سكرتيره مقالاً ملتهباً.. هاجم فيه هذا الجهل الذي تنشره الجمهورية.. وقال انه يأسف لأن اسمه مطبوع في صفحتها الأولى رئيساً للتحرير.. واتهم طه حسين رؤساء التحرير الآخرين، بأنهم لا يقرأون ما ينشر في الصحفية.. واذا كانوا قد قرأوا هذا الجهل وأباحوا نشره فهذه مصيبة أعظم..

وقرأت بروفة مقال طه حسين قبل النشر.. وأحسست أن الرجل الكبير، ذبحني وظلمني.. ووجه الي إهانة على صفحات الجريدة وهو يعلم أنني رئيس التحرير المسئول..

وقلت لكامل الشناوي وكانت حجرته تجاور حجرتي، ويفصلهما باب مفتوح:

- إذا أصر الدكتور طه على نشر هذا المقال، فلن يكون لي وجود في «الجمهورية».. وهذه استقالتي. إنني أحمل له كل الإجلال والإكبار.. ولن أنسى له يوماً أنه ساعدني بعد تخرجي دون أن يعرفني.. وهو من قبل ومن بعد استاذ أجيال، وعميد الأدب العربي الذي نفاخر به.. ولكن إهانتي على صفحات الجمهورية، ليس لها حل إلا أن أقدم إستقالتي..

وإتصل كامل الشناوي بصلاح سالم في منزله.. وأبلغه بما جرى..

واتصل بي صلاح سالم قائلاً: حد يزعل من طه حسين..

قلت له: إنك لا ترضى لكرامتي أن تهان..

قال: دع الأزمة تمر.. إن الرجل يحبك ولا يقصدك..

ودار حوار طويل، أصررت فيه على الإستقالة.. ولكن صلاح سالم اقترح حلاً رضيت به، وهو أن ينشر مقال الأستاذ الدكتور طه حسين، وفي وسطه برواز يكتب فيه أنني سأرد غداً على المقال.

وانصرفت الى اعداد رد على اتهامات طه حسين لرؤساء التحرير بالجهل والإهمال في إداء الواجب..

ولعـل هذا المقـال ، هـو أحـد أعمالي الصحفية ، التـي ندمـت عليهـا ندمـاً شديداً . .

جاءني الأستاذ رشدي صالح في صباح نشر مقالي، وقال لي: «ليس هكذا يخاطب طه حسين. ولم أكن أحب لك هـذا الموقف. هـذا أستاذ أجيـال، ومهما كتب. . فعلينا أن نناقشه بالرفق واللين. . ».

وإعترفت لرشدي صالح ، بأنني إندفعت في الرد بعـاطفة طـائشة. . فقـد كنت اتفـاني في عملي ليـل نهار. . وأساءني أن أتهم بجهـل أو إهمال. . وتملكتني حماسة عنيفة. . واتصلت على الفور تليفونيـاً بالـدكتور طـه حسين. . وأخجلني أنه رد علي بترحاب ومـودة. . وطلبت موعـداً لزيـارته، واستجـاب الرجـل على الفور.

وذهبت اليه في منزله. . وكان الوقت مساء. .

رأيته جالساً على مقعد كبير، يغطي ساقيه حتى قدميـه بملفحة صـوفية. . وقد ارتدى «البدلة» في أناقة. . وكان يدخن سيجارة في متعة. . وسمع اسمي، فابتسم وجهه. . وقال لي:

ـ مرحبا بك أيها المتمرد.

قلت:

ـ جئت لأعتذر. .

قال ضاحكاً:

ـ تخاصمني في زفة. . وتصالحني في عطفة. .

قلت:

ـ لا . . أنني سأكتب كل كلمة أقولهـا لك. . انها غضبـة شاب لم تـطحنه التجربة بعد. .

وكان الرجل رقيقاً. .

قـال لي: يجب أن تعلم، أنني أقـرأ كـل مـا تكتبـه. . أنت بـالـذات، وأستمتـع بأسلوبـك، وسلاسـة أفكارك، وقـدرتـك عـلى التعبـير بلغـة عـربيـة سليمـة. . أنت عنـدي غـير هؤلاء الذيـن يسمـون الأدب اليـونـاني أدب

عفـاريت. . أو غـير الأدبـاء الشبـان الذيـن لم يثقفـوا أنفسهم قبـل أن يمسكـوا القلم. .

وأخجلني طه حسين بكلماته. .

وأمضيت معه وقتاً طويلاً. . وأهـديته كتـابي عن «ثورة كـوبا» وكنت قـد سافرت إلى كـوبـا بعـد اندلاع الثـورة التي قادهـا فيدل كـاسترو. . وأمضيت هنـاك قرابـة شهرين. . والتقيت بكـل قادة الثـورة، وقـرأت عن تـاريـخ حكم عمـلاء أمريكـا في كوبـا. . وسجلت كل ذلـك، في أول كتاب يصـدر بـاللغـة العربية عن هذه الثورة. .

ولم أترك طه حسين، إلا بعد أن شعرت أن زيارتي أزالت من نفسـه، أي ألم من مسلكي. . وقلت له أنني لن أنسى موقفه مني بعد التخرج في الحقوق. .

وانتهت الأزمـة الكـبرى. . واسـتراحت نفسي، أن الـرجـل الكبـير قبـل اعتذاري، ودعاني أن أزوره مرة أخرى. .

* * *

ولكن ثارت أزمة أخرى. .

* * *

أزمة من نوع خاص، لم يحدث في تاريخ الصحـافة المصريـة، أن تعرض لها صحفي. . وكان ضحية هذه الأمـة، هو زميـلي المرحـوم ابراهيم نـوار، وقد كان أحد رؤساء تحرير «الجمهورية». . وكان من قبل، مساعـداً لي في «الأخبار» عنـدما كنت نـائباً لـرئيس تحريـر «الأخبار». . وكـان يمتاز بكفـاءتـه في إخـراج الصفحات، ثم هدوء أعصابه، وأخلاقه القويمة. . وكانت علاقاته مع الجميع، طيبة، وكلها مودة. .

كان ابراهيم نوار يتولى «السهرة» في الجريـدة، ثلاثـة أيام كـل أسبوع. . ويشرف على الطبعتين الأولى والثانية. . ويكتب «اليوميـات» أسبوعيـاً، ويكتب بـين الحين والحـين تعليقـاً سيـاسيـاً. . ولكن مسئـوليتـه الأولى كـانت في إدارة العمل. .

وذات ليلة، كنت في مكتب كامل الشناوي، وكان يتلقى مكالمة تليفونية من الدكتور عبد القادر حاتم وزير الاعلام.. ورأيت وجه الشناوي يكفهر، وقد بدأ عليه ضيق شديد، وتحولت تحيته الضاحكة عند بدء المكالمة، إلى صمت حزين بعد أن أستمع إلى حديث حاتم معه.. ثم اقتصر على القول.. حاضر.. حاضر.. وأقفل السماعة. وصمت طويلاً.

- ماذا يا كامل بيه؟

وتردد في الاجابة ثم قال: لا أعرف كيف أتصرف. مصيبة. كارثة.

وزادت لهفتي.

- خيرا..

وأجاب: صدر قرار من الرئيس عبد الناصر، بفصل ابراهيم نوار، ورفع اسمه من برواز رؤساء التحرير، وعلى أن ينفذ القرار فوراً!

وسألته: لماذا؟..

أجاب: لا أدري..

والحقيقة أن الدكتور حاتم أبلغه بالأسباب، ولكنه تظاهر أمامي، بعدم العلم..

وأصبت بصدمة قاسية. كيف يفصل صحفي كبير، بقرار تليفوني، دون معرفة الأسباب!.. وماذا نقول للمحررين، عندما يسألوننا عن سبب هذا الفصل المفاجىء؟!.

واستطاع كامل الشناوي. أن يبلغ ابراهيم نوار القرار، بلباقة شديدة.. على أنها أزمة عابرة، وسوف تمضي.. وأنه سوف يعرف الأسباب.. ولا بد من حل.. إلى آخر كلمات المجاملة التي تقال في مثل هذه المناسبة!

واستمر الأمر سراً فترة طويلة..

ثم بدأت الأنباء تنساب. وكانت مفاجأة محزنة مضحكة بالنسبة لنا جميعاً. وكنا مقتنعين تماماً، بما لا يقبل الشك، أنها أسباب كاذبة ملفقة.

لقد تلقى جمال عبد الناصر، تقريراً من المخابرات، بأن ابراهيم نوار

عضو في جمعية سرية لتبادل الزوجات والأزواج! . . وأن أعضاء هذه الجمعية هم من الأزواج والزوجات المنحلين، الذين يعقدون اجتماعات وسهرات مبتذلة، يختلط فيها الحابل بالنابل بلا أية معايير أخلاقية!

وكان هذا التقرير، من محض خيال مريض. . لأن ابراهيم نوار، رجل فاضل، كما أن زوجته سيدة فاضلة، وهي أم ممتازة، وربة بيت، وليست من النوع الذي يحضر حفلات أو سهرات. . وكنا جميعاً نعرفها عائلياً، ولها منا كل الاحترام.

وكان بحثنا، من كتب هذا التقرير الملفق، للقضاء على سمعة ومستقبل ابراهيم نوار؟ . .

واهتدينا إلى أنه من اختراع، ضابط في المخابرات، كانت بينه وبين ابراهيم نوار ضغائن شخصية. . وأراد أن ينتقم منه هذا الانتقام الرخيص. .

ولجأنا إلى كل السبل، لكي تصل الحقيقة إلى جمال عبد الناصر.

والمؤسف أن ذلك استمر وقتاً طويلاً. . واستعنت في هذا بوجيه أباظة الذي يعرف ابراهيم نوار حق المعرفة. . كما استعنت بمصطفى أمين. . وكنا قد تصالحنا. . وأخيراً وصلت الحقيقة إلى عبد الناصر وألغي القرار!

وعاد ابراهيم نوار. . بكل تقدير واحترام زملائه له. . وبكل الاستنكار لهذا الأسلوب الدنيء التي اتبع معه. .

* * *

وتعرضت «الجمهورية» لأزمات عابرة، لم تكن تثير إلا الضحك، مع زميلنا ناصر الدين النشاشيبى، وكان قد عينّ أحد رؤساء تحرير «الجمهورية» للشئون العربية . .

كان ناصر النشاشيبي، عضواً في أسرة مؤسسة «أخبار اليوم». . وقد بدأ عمله في «أخبار اليوم» مراسلاً متجولاً في دول الشرق الأوسط. وكان نشطاً، وصاحب أسلوب جذاب، حلو النكتة والدعابة. . وكان يضفي إثارة على تحقيقاته الصحفية، ببعض الخيال! . . لا ضررا . . ولكنه كان حجة في الشئون العربية، وعلى علاقة متصلة بالزعماء العرب. .

وقد عرفته القاهرة، من مجالس كامل الشناوي، الذي كان يستعذب روايات ناصر النشاشيبي عن ذكرياته وهو يعمل تشريفاتياً في قصر جلالة الملك عبد الله ملك الأردن. كان ناصر يروي عنه من الدعابات.. عن شعر الملك، وأسلوب تعامله معه.. مما يثير انتباه الجميع، ومرحهم..

ولا أعرف تماماً، كيف جرى الاتفاق معه، لكي يعمل في «أخبار اليوم».. ولكن الأمر، استقر بناصر أن يقيم في القاهرة، مع زوجته (حينئذٍ) كريمة الزعيم اللبناني الكبير رياض الصلح..

وعلم ناصر، بقصة التوتر في العلاقات بيني وبين مصطفى وعلي أمين.. ثم استقالتي، وزارنا في منزلنا مع السيدة قرينته.. وفي هذه الزيارة، أبدى ناصر لي رغبته في أن يعمل في «الجمهورية».. وطلب مني أن أتحدث مع صلاح سالم في هذا الشأن.. وقلت له أنني سأقترح على صلاح سالم أن يكون رئيساً لقسم الشئون العربية.. ودبرت له بعد ذلك موعداً معه..

وخرج ناصر من لقائه مع صلاح سالم، بالاتفاق معاً على أن يكون رئيساً للتحرير للشئون العربية..

وكنت على أحسن العلاقات مع ناصر.

واخترت له حجرة كبيرة، بجوار حجرتي.. يفصل بينهما باب مفتوح..

وكان أول تصرّف اتخذه ناصر.. هو قفل هذا الباب!

وكان يكتب مقالاً.. في عدد «الخميس».. وهو العدد الأسبوعي للجمهورية، الذي يقابل «أخبار اليوم» بالنسبة «للأخبار»..

ووضح لي أن ناصر مصاب بعقدة «هيكل».. رغم حسن العلاقات بينهما. وطلب مني ناصر، أن يبدأ نشر مقاله، في الصفحة الأولى، بصورته.. ثم تكون البقية في الصفحة الثالثة، على أن تكون مساحة النشر في الصفحتين الأولى والثالثة، وحجم العناوين، وحجم صورته.. بمثل مقال محمد حسنين هيكل في «الأهرام» تماماً.. وكان ناصر يغضب لو تهاون سكرتير التحرير «راجي عنايت» في هذه المقاسات!.. ويهدّد بالاستقالة..

وكنت أقوم دائماً بمصالحته.. ولكنه كان يمسك المسطرة، ويقيس

العناوين ومساحة الصورة.. ولو وجد أنها تنقص نصف سنتيمتر أو ربع سنتيمتر، عن مساحات هيكل.. أرى وجهه يحمر.. وهو يتصور أنها مؤامرة من سكرتير التحرير.. ويهدد بترك العمل!

* * *

ثم واجه ناصر موقفاً صعباً!

نشبت معركة عنيفة بينه وبين أحمد سعيد رئيس صوت العرب.. ولا أذكر من بدأ المعركة، ولكنني أذكر أن ناصر النشاشيبي، واجه أحمد سعيد بكلمات قاسية عنيفة.. وكان أحمد سعيد، في قمة الشعبية، وكان صوته يجلجل في كل أنحاء الوطن العربي، وكان له موقع هام في نظام الحكم..

وقد تحمّست لناصر كل الحماسة. وكتبت مؤيداً له، مهاجماً أحمد سعيد.. ورأى الدكتور حاتم، ومعه كامل الشناوي، أننا نوسع الفجوة.. وأنه ليس من الصالح استمرار هذه المعركة..

وأصرّ ناصر على الاستمرار.. وشجعته، وشاركته في إصراره.. ولماذا يكون أحمد سعيد فوق مستوى النقد؟.

ثم أمكن أخيراً، تهدئة الموقف، باتفاق كل الأطراف..

* * *

وفي ظل هذه الأزمات، كانت الأحوال المالية «للجمهورية» تسوء، رغم النشاط الاعلاني، ورغم زيادة التوزيع الذي وصل فعلاً إلى أرقام قياسية.. ولكن عبء المرتبات الضخمة، ثم العلاوات التي ضاعفها صلاح سالم.. كان بأكثر ما تحتمله ميزانية صحيفة..

وكالعادة.. اجتمع المسئولون عن الادارة، وكان ذلك في غيبة صلاح سالم في الخارج، وأصدروا قرارات بالاستغناء عن خدمات عدد كبير من الكتاب والمحررين.. الذين لا يقدمون أي إنتاج للصحيفة.. أو أن انتاجهم لا يوازي مرتباتهم..

وقال المسئول الاداري الأول، أنه استأذن عبد اللطيف البغدادي في هذا التصرف.. وأنكر البغدادي ذلك..

وفصل المحررين، كان تقليداً ثابتاً في «الجمهورية» منذ صدورها!..

إسراف في التعيينات، دون مقتضٍ، ودون وضع أساس اقتصادي.. ثم خسارات مادية.. والحل هو الفصل!

وعاد صلاح سالم.. وحاول إصلاح الموقف.. ولا أذكر كيف.. ولكنه أصدر قرارات بالوقف عن العمل. بالنسبة للاداريين الذين اتخذوا هذه القرارات.. وأذكر ذات ليلة أن طلبني صلاح سالم لزيارته في منزله، وقال لي أن الأحوال المالية سيئة.. وأنه قرر أن يستخدم مبلغاً كبيراً في أحد البنوك، كان عبارة عن تبرعات من عدد كبير من الشركات، والقراء، لمساعدة الطلبة الجامعيين الفقراء.. كان صلاح سالم قد أعلن هذا المشروع الذي تتبناه «الجمهورية» ودعا إلى حفل ساهر خصص إيراده لهذا الغرض.. واستخدم صلاح سالم نفوذه. لدى عدد كبير من الشركات، لكي تقدّم تبرعات ضخمة.. وقد أودعت كل هذه التبرعات في أحد البنوك.

وحاولت كثيراً، أن أقنعه بالعدول عن ذلك.. لأننا لا نملك هذه الأموال، والمفروض أن تخصص لمعاونة الطلبة..

ولكنه قال لي أنه لا يجد أمامه حلاً آخر.. وسوف يعتبر التصرف فيها، كأنه قرض.. وعندما تتحسن الأحوال المالية، سيعيد هذه الأموال..

ثم فوجئنا، بوضع أحد مديري «الجمهورية».. تحت الحراسة، بقرار من جمال عبد الناصر!

هذا المدير، ضابط سابق في القوات المسلحة، ومن الضباط الأحرار.. وترك العمل العسكري، واستقر به المطاف مديراً إدارياً لصحيفة «الجمهورية» وكان على صلة صداقة ومودة مع صلاح سالم. وعرفنا عنه بين المحررين، أنه رجل «دوغري».. يعطي كل ذي حق حقه..

.. كان جمال عبد الناصر يركب سيارته، ومعه عبد اللطيف البغدادى.. وفي أول طريق الكورنيش، من ناحية شبرا، رأى عمارة على ناصية.. وسأل

عن اسم مالكها، وعرف أنه مدير إدارة «الجمهورية». . وكان يعرفه بطبيعة الحال، وأصدر على الفور قراراً بوضع العمارة تحت الحراسة. . وقال: من أين أتى بهذه العمارة؟!.

وكان على الرجل أن يقدم المستندات الرسمية، على أن هذه العمارة، هي من ماله المشروع، ومال زوجته. . وكان صادقاً في ذلك. وجمع الرجل كل المستندات. . ولكن من يتسلم المستندات، ومن يقرر أنه على حق؟.

وطلبت موعداً مع البغدادي، وكان نائباً لرئيس الجمهورية، في ذلك الوقت واستقبلني الرجل أحسن استقبال، وقصدته أن يوضح الحقيقة للرئيس. . وكل المستندات موجودة. وأوفى الرجل بوعده. . ورفعت الحراسة!. . ولكن ذلك استغرق أشهراً طويلة، إنهارت خلالها أعصاب الرجل.

* * *

وأقصد من سرد كل هذه الروايات عن فترة عملي رئيساً لتحرير الجمهورية، أن أقول أنها كانت صحيفة صاخبة!. . عامرة بالزوابع. وكانت بالنسبة لي، تجربة فريدة، لأنني في «الأخبار» كنت بعيداً تماماً، عن هذه الأجواء، ولم تكن لي أدنى صلة، بأي من رجال الثورة. . ولم أكن أعرف الصلات بين رجال الثورة. . وربما اقتصرت متابعتي للأحداث على رحلة صحفية مع كمال الدين حسين عندما كان وزيراً للتربية والتعليم. . وكان يشغل مناصب سياسية وتنفيذية عديدة، إلى صعيد مصر. . وكان في ذلك الوقت في قمة الحماسة لزعامة جمال عبد الناصر. . وكان يطلق عليه في خطبه أنه الزعيم الملهم. . هذا قبل الخلاف بين الرجلين.

وأذكر بالمناسبة أنه كان لي موقف مع كمال الدين حسين وهو وزير للتربية قبل هذه الرحلة. .

أبلغني زميلي حامد دنيا (نائب رئيس تحرير أكتوبر) وكان مندوب الأخبار في وزارة التربية والتعليم، أن كمال الدين حسين قرر إغلاق مجلة الجيل التي كنت أرأس تحريرها. . بحجة أنها صحيفة غير أخلاقية، وأنها تخرج على

حدود الآداب العامة. . وفزعت. . لأنه اتهام ظالم، لا أساس له من الحقيقة. . فقد كانت الفكرة من تحرير «الجيل» أنها مجلة للشباب. . وكنا نشجع النجاح والنبوغ بين الشباب في مختلف النشاطات العلمية والإجتماعية والفنية. . وكانت تحمل ثقافة سياسية واجتماعية سهلة الهضم من عقول الشباب. .

وخشيت أن يصدر قرار الاغلاق!

وأسرعت وطلبت موعداً من كمال الدين حسين. . وذهبت إليه، وكنت ألقاه لأول مرة، وصارحته بكل ما سمعت. . وقد حملت معي عشرين عدداً من مجلة «الجيل». . وقلت له:

ـ أرجوك أن تقرأ هذه الأعداد، وإذا وجدت فيها موضوعاً واحداً، منافياً للآداب العامة، فيحق لك أن تتخذ ما شئت من قرارات. .

وقال لي أنه سيفعل. .

واستمرت «الجيل» في الصدور!

الفصل السابع عشر

الشيوعي.. والميوعي.. والرجوعي

صلاح سالم يؤيد القرارات الاشتراكية ـ خبر مضلل عن مجدي حسنين ـ انقسام الشيوعيين في «الجمهورية» حول القرارات ـ سخرية كامل الشناوي من الشيوعي والميوعي والرجوعي ـ وقيعة مع عبد الرحمن الشرقاوي ـ إنقاذ رشدي صالح من الاعتقال ـ حقد الشيوعيين على يوسف ادريس ـ رواية شاهد ملك! ـ نوادر يوسف ادريس ـ الخميسي يكتب التحقيق الصحفي من أجل بدل السفر ـ الدكتور محمد مندور يتشنج في مكتبي ـ تحقيق صحفي عن الأردن كتبته المخابرات المصرية! ـ لقاء في إدارة المخابرات ـ رحلة كوبا حسنت علاقتي مع الشيوعيين.

الشيوعي.. والميوعي.. والرجوعي!

كانت العلاقات لا تزال ودية بين جمال عبد الناصر وصلاح سالم، حين صدرت القرارات الاشتراكية. وقد نشر صلاح سالم مقالاً طويلاً في الصفحة الأولى، باسمه، يؤيد فيه هذه القرارات. وكان كاتب المقال ماركسي قديم هو عبد العزيز فهمي، وكان قد صحب صلاح سالم في رحلته إلى موسكو. واتصل عبد الناصر بصلاح سالم، وامتدح المقال، وقال له: «كويس جداً أنك كتبت هذا المقال، وأنا أعرف أن لك صلات شخصية بناس كتير لن تعجبهم القرارات الاشتراكية». .

وفي هذا الوقت، أعلن مجدي حسنين تنازله للدولة عن عدد كبير من الأسهم، التي يملكها، ونشرنا في ذلك الحين قيمتها بمبالغ ضخمة. وغضب عبد الناصر. . وقال إن هذا النشر عملية نصب، لأن هذه الأسهم أصبحت معدومة القيمة، وتنازل مجدي حسنين عنها. يعني أنه تنازل عن لا شيء. .

وكان صلاح سالم هو الذي أعطاني خبر التنازل، لنشره في الصفحة الأولى. . ثم مرّ على مكتبي، بعد أن تحدّث إليه عبد الناصر غاضباً، وقال لي: «إذا سألك الدكتور حاتم عن قصة هذا الخبر، فقل له أن مجدي حسنين هو الذي طلب نشره». .

وكان صلاح سالم يراعى في هذا، مشاعر عبد الناصر نحوه. . ولم يتصل بي الدكتور حاتم. .

وقد هلل الكتاب الشيوعيون في «الجمهورية»، للقرارات الاشتراكية. . وقدروا الأمور على أن عهداً جديداً قد بدأ، ستكون لهم فيه السيادة. . ولكنهم انقسموا. وكان بعضهم يرى أنه لا قيمة للقرارات الاشتراكية بغير الديمقراطية. . ولعل الوحيد الذي عبّر عن هذا الرأي هو عبد الرحمن الشرقاوي، بأسلوب غير مباشر. ولم يكن عبد الرحمن الشرقاوي شيوعياً. كان يقيم نظرته، على أنه مقتنع ببعض المبادىء الاقتصادية في الماركسية. . وكان يرى أنه يعبّر عن اليسار الوطني. . وكانت له وجهة نظر قاسية، في بعض التجمعات الشيوعية، واستمر ينشر وجهة نظره حتى آخر لحظة من حياته، في المقالات العنيفة التي تبادلها، مع عدد من الشيوعيين عن تحرير صحيفة «الأهالي» لسان حال حزب التجمع الوحدوي، وترتب عليها قضايا رفعت من الجانبين. وفشلت محاولات الصلح بين الشرقاوي وخالد محيى الدين. وكان الشرقاوي يحترم خالد محيي الدين، ويخرجه من نطاق حملاته. . ولكن خالد محيي الدين، وقف إلى جانب زملائه في الأهالي، الذين هاجموا الشرقاوي هجوماً لاذعاً. واستمرت خصومتهم بكل أسف، حتى بعد موت الشرقاوي، فنشروا خبر الوفاة في أسطر قليلة، كما أنهم رفضوا نشر مقال لمحمود أمين العالم يؤبن فيه الشرقاوي. . وكتب لطفي الخولي مقالاً يؤبن فيه الشرقاوي، نشرته الأهالي، في مكان غير بارز.

وأشهد أنني كنت متحمّساً للقرارات الاشتراكية، وأنا أضع نفسي في خندق اليسار غير الشيوعي. . ونشرت سلسلة مقالات بعنوان «ونحن نبني الثورة الثانية» جمعتها بعد ذلك في كتاب. .

وكان منهجي مع الكتاب الشيوعيين في «الجمهورية»، هو نشر كل ما يتفق مع الخط السياسي للدولة، وكنت أشطب من المقالات، السطور التي تحمل دعوة للشيوعية، ولم يحدث أن اصطدمت مع أحد منهم، فقد كنت أشرح للكاتب سبب عدم النشر، وكان يقتنع.

وكان كامل الشناوي رحمه الله ـ يسخر من الكتّاب الشيوعيين بنكاته

اللاذعة التي كان يطلقها، في سهرات مكتبه، المجاور لمكتبي.

كان الشناوي يقول:

ـ هناك الشيوعيون.. والميوعيون.. والرجوعيون!.. الشيوعي هو الذي يقبض عليه ويعتقل.. والميوعي هو الذي لا يقبض عليه أبداً.. أما الرجوعي فهو الذي يوصل زملاءه إلى المعتقل، ثم يرجع إلى مقر عمله!

وكان الشناوي يقصد بهذه السخرية، أن الميوعي هو شيوعي متعاون مع الحكم.. وأن الرجوعي هو شيوعي متعامل مع مباحث أمن الدولة!

وكان الشيوعيون، لا تريحهم العلاقة الوثيقة التي تربطني بعبد الرحمن الشرقاوي، توأم عمري.. لقد تصادقنا في كلية الحقوق منذ عام ١٩٣٩، حتى تخرجت في عام ١٩٤٣.. واستمرت روابط صداقتنا العميقة، دون أن تهتز لحظة واحدة، رغم اختلاف وجهات نظرنا.. وفي عام ١٩٤٦ أمرت حكومة اسماعيل صدقي بالقبض على جميع المنتمين للفكر الماركسي.. واختبأ عبد الرحمن الشرقاوي في منزل أسرتي في شبرا، أكثر من أسبوع، حتى هدأت الأحوال، وضمن عدم اعتقاله.. هكذا كانت الرابطة بيننا..

وأوقعوا بيني وبين الشرقاوي، في مقال كتبه تعليقاً على مقال لي عن الاشتراكية. لقد انتقد الشرقاوي المقال بعنف، وكنت قد استخدمت في مقالي، جملاً من التي جاءت على لسان عبد الناصر في شرح القرارات الاشتراكية. وغضب عبد الناصر من مقال الشرقاوي، واتصل بالدكتور حاتم وزير الاعلام.. ولعل ذاكرتي تكون صائبة إذا قلت أنه منع من الكتابة. وقال الشيوعيون لعبد الرحمن الشرقاوي أنني أوقعته في المصيدة، لأنني لم أذكر في مقالي أن هذه كلمات عبد الناصر.. وقد كنت بريئاً من هذا الاتهام. ولم أكن أعرف أن الشرقاوي سيعلق على مقالي.. ولو كان قال لي لنبهته إلى أنها كلمات عبد الناصر.. وأذكر أن أزمة الشرقاوي حلّت بعد وقت قصير.. ولكن برود العلاقات بيننا، لم يستمر أكثر من ليلة واحدة.. وبمجرد أن التقينا تصافينا، وهذا مالم يعجب الشيوعيون.. الذين كانوا يريدون اتخاذ موقف ضدى، لأننى معروف بهجومي الدائم على الشيوعية.. ولأنني خريج «أخبار اليوم» التي كانوا يرون فيها معقل الرجعية!.

وخلال عملي « بالجمهورية » . . جرت حملة اعتقالات واسعة للشيوعيين ، شملت زميلنا وصديقنا المرحوم أحمد رشدي صالح . لقد بدأ رشدي صالح حياته ماركسياً . . وأنشأ صحيفة أسبوعية، دعا فيها إلى الفكر الاشتراكي . . وكان عضواً في تنظيم سري . . وحكم عليه بالسجن . . ولكنه نفر من الشيوعيين نفوراً كبيراً، عندما خالطهم في السجن، واكتشف أن أخلاقياتهم منعدمة . . ولذلك فقد خرج من السجن محتفظاً بآرائه ومعتقداته . . ولكنه لم يشترك في أي تنظيم شيوعي، ولم يشارك في أي نشاط . . واتهمه الشيوعيون بالردة. وانصرف رشدي صالح إلى الأدب الشعبي . . وإلى الاهتمام بالمسرح . . وعينّ رئيساً لمؤسسة المسرح في فترة ما . . بل إنه انقطع عن الكتابة السياسية . . وكان عمله في «الجمهورية»، مع سامي داود، مراجعة الجانب الأخباري قبل نشره. وكان يؤدي عمله على أكمل وجه . .

ولكن أوامر القبض على الشيوعيين شملته!

وكان كامل الشناوي، يكن له احتراماً خاصاً، وطلب من السيدة زوجته أن يكتب رشدي صالح برقية إلى جمال عبد الناصر، يؤكد له فيها، أنه مواطن مخلص وأنه بعيد تماماً عن أي نشاط شيوعي . . واتصل كامل الشناوي بجمال عبد الناصر، وقال له أنه يضمن صدق رشدي صالح . . وأمر عبد الناصر بالافراج عنه.

* * *

وكان الشيوعيون داخل صحيفة «الجمهورية»، يشكلون أحزاباً متناقضة . . وكانوا يشهرون ببعضهم البعض . . وكان معظمهم يحمل على الدكتور يوسف ادريس حملة شعواء في كل ما يكتبه . . وكانوا ينتقدون قصصه ومسرحياته نقداً قاسياً، ويتهمونه بالنفاق . . ومرة كتب قصة عن زوج يغار على زوجته . . فأطلق أحمد عباس صالح في كل مكاتب «الجمهورية» أن يوسف ادريس، يكتب مشكلته الخاص، في قصة!

وأذكر أن معركة صحفية عنيفة نشبت بين يوسف ادريس والمرحوم يوسف السباعي، لا يحضرني موضوعها الآن . . وقد أبرز السباعي رسالة خاصة

كتبها إليه يوسف ادريس تمجيداً في شخصه. . وانتهز الشيوعيون هذه الفرصة، وهاجموا بشماتة، في مجالسهم مواقف يوسف ادريس المتناقضة. . ولكن موهبة يوسف ادريس كانت أقوى من كل هجومهم. . وكنت أشعر نحوه بعاطفة خاصة. وعندما دعاني يوسف ادريس إلى غداء عائلي في منزله. . أطلق كامل الشناوي، دعاباته ـ أن يوسف ادريس ينافق رئيس التحرير الجديد!. . وقد تعرّض كامل الشناوي لمحنة في علاقته مع النظام. . وهاجمه لصالح النظام. . أكثر من قلم ماركسي!. . وكان ذلك عندما تولى «الحناوي» رياسة مجلس الادارة. . وهو الذي كان يحرّض الكتاب على هذا الهجوم. . وعلمت أنه اتصل بيوسف ادريس لهذا الغرض، وأن يوسف ادريس استجاب له. . واتصلت بيوسف ادريس، معاتباً في شدة، وأقنعته بأنه ليس من الأخلاقيات أن يهاجم كامل الشناوي. . واقتنع يوسف ادريس. ولكن الضغط عليه من الحناوي كان مستمراً. . ونشر يوسف ادريس المقال!.

كنت أشعر بعاطفة خاصة نحو يوسف ادريس، وكنت أحترم موهبته، وإن كنت أعارض بشدة كثيراً من مواقفه.

واتصل بي يوماً، وأبدى إعجابه الشديد، بمؤلف لي صدر في حينه بعنوان «قصة ملك و ٤ وزارات». . وكان هذا المؤلف يروي كل ما جرى على المسرح السياسي يوماً بيوم، منذ حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، حتى قيام الثورة في ٢٣ يوليو. كنت أعيش هذه الأحداث، في مواقعها، ومع أبطالها. . وقد سجلت كل أسرارها يوماً بيوم، في هذا الكتاب، بدءاً من تولى على ماهر باشا الوزارة بعد حريق القاهرة. حتى تولية أول وزارة بعد الثورة (تفصيل ذلك في فصل سابق).

قال لي يوسف ادريس:

ـ ان الكتاب مبدع. . وقد كشف أسراراً خطير. . ولم أكن أتصوّر أنك عشت كل هذه الأحداث بهذا العمق. . وسوف أكتب في اليوميات تعليقاً على هذا الكتاب. .

وعلق يوسف ادريس على الكتاب في يومياته فعلاً. . ولكن بعنوان

«شاهد ملك»!.. والشاهد الملك في القانون، هو المتهم المشترك في الجريمة، الذي يعترف ويبلغ عن زملائه فيعفى من العقوبة.. وهكذا وصمني ادريس بأنني شريك في هذه الجرائم، مع أنني لم أكن أكثر من مخبر صحفي نشط، يغطي الأحداث، واستطاع أن يعايشها ويعايش أبطالها!

وعتبت عليه غاضباً!.. وتظاهر بأنه لا يعرف معنى شاهد ملك في القانون!

كان يوسف ادريس يخشى الشيوعيين.. وهو قد جاملهم بما كتبه عن مؤلفي حتى يأمن شرّهم!..

* * *

ولكنني كنت مقتنعاً تماماً بموهبة يوسف ادريس في القصة القصيرة والرواية والمسرحية.. ورأيي دائماً، أن صدق يوسف ادريس يتجلى في هذه الفنون.. أما المقال السياسي، فانه يخضع للموازنات السياسية، التي يخضعها لتقديرات مواقفه.

ولذلك أردت أن أستفيد من موهبة أدريس القصصية.. وفي رأيي أن التحقيق الصحفي الناجح، هو سيناريو ناجح..

وطلبت منه، أن يبدأ هذه التجربة، في رحلة إلى الجزائر، حيث كان القتال مشتعلاً بين المقاومة الجزائرية وجيش الاحتلال الفرنسي..

واقتنع يوسف ادريس بالفكرة.. وكتب سلسلة من التحقيقات الصحفية الممتازة عن حرب الجزائر..

إن موهبة يوسف ادريس العارمة تغفر له تناقضه الفكري، إذا كتب المقال السياسي.

ان مشاعره الأولى، هي التي تعبّر عن حقيقة آرائه.. ولكنه لا يلبث أن يشكل الرأي بعد تفكير في الموازنة السياسية!

أذكر أنه استطاع أن يقنع الملحق الصحفي الأمريكي، بدعوته إلى

أمريكا، لرؤية هذا العالم الجديد.. ورحب الملحق الأمريكي بالفكرة.. فقد لمس من يوسف ادريس وهو كاتب يساري، رغبة في الاعجاب بالتقدم الأمريكي.. وأعد له الدعوة رغم أن عدداً من الكتاب اليساريين المصريين، كان ممنوعاً من دخول أمريكا مثل سامي داود.. وغيره..

وعاد يوسف ادريس من أمريكا، وكنا نمضي عطلة الصيف معاً، في بورسعيد.. عاد ليروي لنا مشاعر إعجابه العارمة، بما رآه في أمريكا.. وكنا نستمع إليه في شغف شديد لأنه محدث ذكي بارع في خطف الانتباه..

وداعبته حينئذ بأنه أصبح رأسمالياً.. وقال انه سيكتب عن رحلته بالإعجاب، سلسلة مقالات في «الجمهورية»..

ثم ألقى القبض على مصطفى أمين في ذلك الوقت، ونشر أنه متهم بالتعامل مع المخابرات الأمريكية..

ونشر يوسف إدريس مقاله الأول.. وذهلت لأن المقال كان نقداً عنيفاً جداً، لما شاهده في امريكا..

وسألت يوسف إدريس: «ماذا جرى؟.. لقد تحول الإعجاب الشفهي الى عدم إعجاب تحريري..»

وأجاب ضاحكاً: وأنا مالي يا عم.. أنت مش شايف اللي حصل لمصطفى أمين!

وضحكنا..

وهذه الواقعة تذكرني بما كتبه في إحدى مؤلفاته أخيراً، عن فضيلة الشيخ شعراوي. هاجمه هجوماً لاذعاً، ووصفه بأنه راسبوتين..

ولما وجد الحراب توجه اليه في عنف، كتب يوسف إدريس وبسرعة، أنها أخطاء مطبعية!.. وسد الباب ليستريح من إندفاع الريح!

وفي كل ذلك، أنت لا تستطيع إلا أن تحب يوسف إدريس.

أعود الى فكرة الاستعانة بالروائيين في كتابة التحقيقات الصحفية..

لقد أقنعت عبد الرحمن الخميسي أيضاً بهذه الفكرة.. كان دائماً في حالة ضيق مالي.. فقلت له:

- اقترح موضوعات لتحقيقات صحفية عن المشكلات الداخلية في محافظات مصر.. وعندئذ يمكن أن نقرر لك بدل سفر. وهذا هو السبيل الوحيد لفك ضائقتك..

وأبدى ترحيبه..

وقام بكتابة عدة تحقيقات صحفية.. ولكنه بعد ذلك، كان يقبض بدل السفر، ولا يسافر الى أي جهة!.

وكان في إعتذاره عن العمل، خفيف الروح، حلو النكتة، لا يثير الغضب أبداً!

* * *

ومررنا بأزمة عصبية مع الأستاذ الدكتور محمد مندور..

كان الدكتور مندور يقود حركة النقد الأدبي والفني على صفحات «الجمهورية» وهو رجل له وزنه واعتباره. وقد عاد من دراساته في فرنسا. بفكر جديد، ورؤى جديدة.. وكان له معجبون وحواريون.. وأذكر أنني حضرت في مقتبل حياتي وأنا لا أزال طالباً في الجامعة في عام ١٩٤٠ ـ. محاضرة دعت اليها جماعة أنصار التمثيل التي كان يرأسها المرحوم سليمان نجيب.. ومن ألمع أعضائها عبد الوارث عسر. وكان المحاضر هو الدكتور محمد مندور عن «الواقعية في المسرح المصري».. وكان رائعاً. وعندما كنت معتقلاً في عام ١٩٤٣، أذكر أن مقالاً للدكتور مندور عن تحطيم سجن الباستيل، بمناسبة ذكرى الثورة الفرنسية.. أثر في وجداني، وربطني بكل ما يكتبه الدكتور مندور..

وقبل الثورة، كان الدكتور مندور من الطلائع الوفدية، التي تمثل الجناح التقدمي في حزب الوفد.. ورأس تحرير صحيفة «صوت الأمة».. وكانت له مقالات ملتهبة ضد موقف الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء، عندما طالب

بدخول مصر الحرب مع الحلفاء، لكي يكون لنا صوت في الأمم المتحدة. . وقد اغتيل أحمد ماهر بسبب هذا الموقف.

وكان مندور كاتباً شريفاً، وكان مناضلاً بالفطرة. .

هذا هو تقديري للدكتور محمد مندور، عندما رأست تحرير «الجمهورية» وهو واحد من ألمع كتابها. .

ثم وقعت الأزمة!

كان الدكتور مندور، قد دعا عدداً من أساتذة النقد الفني، وتناقشوا في موضوع أدبي بالغ التخصص عن مذهب النقد عند الشاعر الانجليزي «اليوت»، وكتب الدكتور مندور عرضاً لهذه الندوة، كان مفروضاً أن ينشر في العدد الأسبوعي من «الجمهورية» الذي كان يشرف عليه سامي داود.

وقرأت المقال. ووجدته بالغ التعقيد، واتسم بأسلوب علمي متخصص، ليس مجاله صحيفة يومية سيارة، يقرؤها كل الناس، والمفروض أن تصل كلماتها الى بواب العمارة. . والى أستاذ الجامعة. .

واستعنت برأي سامي داود، وهو الصديق الأقرب للدكتور مندور. . وهو المسئول التنفيذي عن العدد الأسبوعي. . وأقرني على وجهة نظري. ولم ينشر المقال.

ودخل الدكتور مندور مكتبي، وقد أصفر وجهه، وبدت على قسماته دلائل الغضب الثائر. . وصرخ بعنف. . من الذي منع نشر مقالي. .

وأجبته بهدوء. . أنا. . وأيدني سامي داود. وشرحت له وجهة نظري. وجاء سامي داود ليدافع أيضاً عن وجهة نظري. . وكانت تتلخص في أنه في كل الصحف العالمية، هناك المحرر العلمي الصحفي، الذي يأخذ المادة العلمية من العلماء. . ويبسط مقالاتهم في أسلوب صحفي يفهمه العامة والخاصة، دون أن يتجاهل الحقائق العلمية.

وقلت للدكتور مندور: مقالك للخاصة فقط. . ونحن جريدة لكل الناس. .

وانتفض الدكتور مندور.. وصدرت منه كلمات احتجاج عنيفة غاضبة.. وبكى!.. ثم فجأة رأيته يرتمي على المقعد الكبير الذي كان يجلس عليه..

وأصابني خوف عظيم على حياته، لأنني كنت أعلم أنه يعاني متاعب مرضية قاسية، في بعض خلايا المخ..

واندفعت نحوه.. وقبلته.. وأرضيته.. وقلت له:

ـ المقال سينشر.. مهما كانت وجهة نظرنا. ولكن أسمح لي أن ندخل في حوار صحفي، على صفحات «الجمهورية»، حول ما يجب أن تنشره الصحف اليومية.. وأسلوب النشر..

وبشت أسارير الرجل الكبير، وقال لي وهو يحتضنني: موافق..

وهكذا إنتهت الأزمة، وجرت مناقشات طويلة، على صفحات «الجمهورية»، كنت أنا طرفاً فيها، وكان الطرف الثاني عدد كبير من النقاد أساتذة الجامعة، أذكر منهم الدكتور عبد القادر القط..

* * *

وخلال عملي «بالجمهورية».. ثارت معي أزمة مع ادارة المخابرات المصرية!

كانت العلاقات بين مصر والأردن، على أسوأ ما تكون العلاقات.. وكانت حملات الدعاية السياسية بين البلدين في قمتها الساخنة..

وتقدم لي محرر زميل في «الجمهورية» بتحقيق صحفي كبير، عن أحداث داخلية في الأردن، فيها تفصيلات مبهرة.

وأعجبني التحقيق، وسألت المحرر: ما هو مصدرك في هذه المعلومات الخطيرة؟..

وأجابني: مكتب الدكتور حاتم..

ونشرت الموضوع، واخترت منه مانشيت للصفحة الأولى.. وفي المساء كان الدكتور عبد القادر حاتم يتحدث اليّ في بعض الأمور الصحفية.. ثم

سألني عن هذا الموضوع المنشور.. فأجبته بأن مصدره هو مكتبك..

ودهش الدكتور حاتم، لأنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن الموضوع.. وقال لي أنه سيتصل بي بعد عشر دقائق. وقال لي في إتصاله الثاني، أن مكتبه لا علاقة له بهذا الموضوع على الإطلاق..

واستدعيّت المحرر، وواجهته.. وأرتج عليه.. وقررت وقفه عن العمل. ولجأ الى صلاح سالم.. وأصررت على قرار الوقف، ووافقني صلاح سالم.. وكنت في قمة الألم. كيف ننشر موضوعاً سياسياً مفبركاً، لا أساس له من الصحة. إن هذا النشر يهدر احترام الجريدة..

ثم تلقيت مكالمة من شخص لا أعرفه، قال لي أنه عبد الفتاح أبو الفضل نائب مدير المخابرات، ودعاني الى فنجان قهوة في مكتبه..

ودخلت مبنى المخابرات المصرية، لأول مرة ـ وآخر مرة ـ في حياتي.. وقادني رسول من مصعد الى مصعد، حتى أوصلني الى حجرة بها مكتب ومقعد، وطلب مني الانتظار. وطال انتظاري بعض الوقت، وأنا لا أعرف سبباً لذلك كله.. ثم جاء من دعاني الى مكتبه، ودخل في الموضوع مباشرة.. ورجاني أن ألغي قرار وقف المحرر، لأن المخابرات هي مصدر هذه المعلومات..

قلت له أن الموضوع مفبرك.. وهذا غير لائق بالنسبة لجريدة محترمة، وأجابني بأن الأردن يذيع عنا، عشرات الأخبار التي لا أساس لها من الصحة.. وأن هذه حرب إعلامية، ولكنني لم أقتنع. ولم أعدل عن قرار الوقف..

* * *

ولكن علاقتي بالزملاء الماركسيين في «الجمهورية».. تحسنت بعد أن عدت من رحلة صحفية الى كوبا!

طلب مني صلاح سالم، أن أسافر إلى «كوبا» لكتابة تحقيقات سياسية عن نجاح الثورة التي قادها فيدل كاسترو. وقد بدأت هذه الثورة بعلاقات طيبة بين جمال عبد الناصر وفيدل كاسترو. وسافرت إلى «هافانا» مروراً بنيويورك. وكلف

سفيرنا هناك عمر الجمال، الملحق الدبلوماسي بالسفارة نهاد العسقلاني (**مساعد وزير الخارجية الآن**)، بأن يرتب لي المواعيد مع قادة الثورة. . فقد استطاع هذا الشاب، أن ينشيء صلات طيبة مع فيدل كاسترو قائد الثورة وجيفارا، وراؤول كاسترو. . ومعظم قادة الثورة، لأنه يجيد اللغة الاسبانية، علاوة على أنه يتمتع بالذكاء، وسرعة الحركة، والفهم السياسي.

وأمضيت في هافانا قرابة ثلاثة أسابيع، وكنت أعمل يومياً من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل، واستطعت أن أعيش أجواء الثورة الجديدة، في الشارع والحقول والمواقع الرسمية. وكان لقائي برئيس الحزب الشيوعي هناك أهم اللقاءات إذ قال لي «أسأل فيدل كاسترو. . هل اشترك الشيوعيون معه في الزحف المسلح على هافانا. . أم لا؟» وكان يؤكد لي بهذا السؤال أن الشيوعيين شركاء في الثورة. .

وكان فيدل كاسترو شخصية أسطورية. . كان معبود الجماهير، الذي أتى بالحرية والديمقراطية بعد حكم «باتستا» العميل الأمريكي، الذي أثرى وزوجته ثراء فاحشاً، وكان يحكم بالحديد والنار. . وقد حول هافانا إلى مقصد للسائحين الأمريكيين، حيث الفنادق الكبرى للعب القمار، وحيث عيادات الأطباء الذين يقومون بعمليات الاجهاض. . وحيث الاستشارات الأمريكية بلا حساب. وكانت أمريكا، ترى في «كوبا» مقاطعة أمريكية. وكانت تتحكم في الاقتصاد الكوبي بشراء السكر وهو أكبر انتاج في كوبا يشكل دخلها. . وكانت تقدم البترول لكوبا، عدا كل المنتجات الأمريكية. . مع وجود القاعدة العسكرية الأمريكية. وقالوا في أمريكا أنها ثورة شيوعية، لأن جيفارا وراؤول عضوان في المنظمات الشيوعية. . وكانت الغطرسة الأمريكية لا تتصور أبداً سقوط حكم عميلها «باتستا». . ولذلك اتخذت موقف العداء من الثورة. . رغم كل محاولات فيدل كاسترو للتفاهم مع الإدارة الأمريكية. وقال لي فيدل كاسترو في ذلك الحين، أنه ليس شيوعياً، ولن يكون شيوعياً، وأن الثورة التي قادها هي ثورة انسانية لتحقيق العدل الاجتماعي، ويكفي أن الفلاح في كوبا كان لا يستطيع أن يأكل اللحم. . حتى في الأعياد. .

وحضرت الاحتفالات العامة، التي كان يخطب فيها كاسترو، قرابة أربع

ساعات.. ويثير جنون الآلاف اعجاباً به.. والشعب الكوبي شعب فنان..
فكانت الفرق الموسيقية في هذه الاجتماعات الضخمة، وكان هناك من يهتف
بشعار.. ثم لا يلبث الموسيقيون أن يصنعوا لحناً لهذا الشعار، وإذا بالآلاف
تغني!.. وهو شعب راقص محب للحياة.. وكان مشهوراً عن كاسترو أنه زير
نساء.. وأن له غزوات غرامية كل ليلة.. وكان الشعب معجباً بفروسيته!

لقد انفعلت بكل مشاعري، بهذه الثورة التي أيدها الشعب بكل
مشاعره.. وانفعلت بأهداف هذه الثورة.. وعدت ومعي سلسلة من
التحقيقات السياسية، التي أخرجتها في كتاب بعد ذلك..

وقد أعجبت هذه التحقيقات، الزملاء الشيوعيون في «الجمهورية»..
لأنها كشفت عن الطغيان الأمريكي في كوبا.. ولأن ثورة كوبا، ستكون
مشجعاً لباقي دول أمريكا اللاتينية على الثورة أيضاً ضد النفوذ الأمريكي..
وهذه منطقة بكر بالنسبة للاتحاد السوفيتي.. وهذه الثورة تعني فاتحة خراب
على أمريكا.. وباباً جديداً يدخل منه النفوذ السوفياتي.. ولذلك، فإن موسكو
عرضت كل أنواع المساعدات على فيدل كاسترو، ووصلت هذه المساعدات إلى
مليون دولار يومياً.. وكان السفير السوفياتي في كوبا، في أقصى درجات
سعادته، كلما تأزمت الأمور بين كاسترو، والادارة الأمريكية..

وبدأت موجة رضا من الزملاء الشيوعيين في «الجمهورية» على كاتب هذه
السطور، وقال لي بعضهم: نحن لم نكن نتصور أنك ستساند هذه الثورة وأنك
ستكتب عن فظائع السياسة الأمريكية في كوبا..

وسألت: ولماذا لم تكونوا تتصورون؟

وأجابوا: كان رأينا أنك أمريكاني.. خريج أخبار اليوم!

الفصل الثامن عشر

اللقاء الأخير.. بين عبد الناصر وصلاح سالم

صداقة عميقة مع صلاح سالم ـ رفض جمال سالم أن أرى شقيقه على فراش الموت ـ لقاء غريب مع جمال سالم ـ قرار عبد الناصر بالإستغناء عن صلاح سالم في كل مناصبه ـ حكايات النفاق ـ أعضاء مجلس الثورة حول سرير صلاح سالم، ودسيسة إلى عبد الناصر ـ جاسوس على صلاح سالم في رحلة العراق ـ رحلة موسكو ـ قصة الحب مع الأميرة فايزة ـ صلاح سالم كان يستخدم سيارة عبد الناصر في مواعيده مع الأميرة ـ أزمة نفسية بعد تطهير الإذاعة ـ رحلة الموت إلى أمريكا ـ زيارة الوداع من عبد الناصر في الإسكندرية.

الفصل الثامن عشر

اللقاء الأخير.. بين عبد الناصر وصلاح سالم

منذ الأيام الأولى لعملي رئيساً لتحرير «الجمهورية في عام ١٩٦٠، اقتربت كثيراً من صلاح سالم. . واقترب مني هو أكثر، بل شجعني على صداقة عميقة تشبعت بها في مودة وحب. . وكانت وفاته بعد ذلك، من أكبر صدمات حياتي. . وقد سرت في جنازته حتى مقره الأخير، وأنا أبكي فراقه بدموع ساخنة. .

وأذكر أن خبر وفاته، ثم تشييع جنازته عسكرياً، لم تزد مساحة نشره في «الأهرام» على عمودين في يسار الصفحة الأولى وفي أسطر محدودة. . ولكنني في صحيفة «الجمهورية»، كرمت وفاته في كل الصفحات وعلى مدى أيام. . وكنا نصدر بشارات السواد في الصفحة الأولى وفي كل الصفحات. . بل إن الحرفة الصحفية أجبرتني أن أعد موضوعات الرثاء. . والتحقيقات عن حياة صلاح سالم وكل ما أنجزه، قبل الوفاة بأسبوع على الأقل. . بعد أن تأكد رأي الأطباء، أنه يمضي في مستشفى الطيران بالعباسية ساعاته الأخيرة. .

* * *

والغريب أنني لم أر صلاح سالم وهو على فراش مرضه الأخير. . وكثيرون زاروه، وأمضوا معه جلسات الوداع. . وكان في مقدمتهم جمال عبد الناصر، والباقوري، وأعضاء مجلس الثورة، وعدد من أقاربه. .

عاد صلاح سالم من الخارج، بعد أن دبر الأطباء نقله إلى القاهرة، لكي يمضي آخر أيامه في وطنه وبين أفراد اسرته. .

وكان شقيقه المرحوم جمال سالم، هو الذي يشرف على شئونه في المستشفى.. وهو الذي يحدد من يزوره ومن لا يزوره..

وبعد وفاة صلاح سالم بأيام، التقيت لأول مرة بشقيقه جمال سالم في منزله بناء على طلبه، وقال لي:

ـ أريد أن أفضي لك بسر.. لقد طلب مني صلاح سالم أكثر من مرة، أن يراك.. وكان يسألني أين أنت؟.. ألم يحضر؟.. ولكنني تعمدت ألا أتصل بك.. لأنني عرفت منه أنك قريب جداً الى قلبه.. وأنه يرى فيك صديقاً عزيزاً.. ولم أكن أود لك أن ترى صديقك في حالته وشكله ووضعه.. كلها في منتهى القسوة..

وفي هذا اللقاء الأول والأخير مع جمال سالم، سمعت منه ما أذهلني..

كنت مع المرحوم محمد علي بشير (ضابط سابق ونائب ومدير بالجمهورية).. وكان على صلة طيبة بكل من جمال سالم وصلاح سالم وعمل معهما في مناصبهما الرسمية.

طلب مني جمال سالم، أن أكتب شكراً باسم الأسرة، لمن واسوهم في وفاة صلاح سالم.. لنشره في الصحف، ثم قال:

ـ أريد أن يكون النشر هكذا.. موسى صبري ومحمد علي بشير بالنيابة عن الأسرة يتقدمان بالشكر لكل ما واساهم في وفاة صلاح سالم، ثم تذكر بعد ذلك رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الثورة والوزراء الى آخره..

وقلت لجمال سالم:

ـ الشكر يجب أن يكون باسمك. فأنت شقيق الفقيد، وأنت رب الأسرة.. فكيف يكون الشكر بأسمى واسم محمد علي بشير..

وأجاب:

ـ أنتما صديقان قريبان جداً لصلاح سالم..

ولم أكن أفهم، كيف يطلب جمال سالم هذا الطلب الغريب، الذي أصر عليه، واستمر حوارنا أكثر من ساعة حتى اقتنع بأنه مطلب غير معقول.

وفهمت بعد أن غادرنا منزله، وبعد أن اتفقنا على أن يكون الشكر باسمه هو. . قال لي محمدعلي بشير: أن جمال سالم لا يريد أن يشكر بإسمه جمال عبد الناصر.

وأذكر أنني عرضت على جمال سالم أن نكتب اسم صلاح سالم في الشكر، مسبوقاً بكلمة «الشهيد». . ولكنه رفض ذلك وقال:

ـ هذا حكم الله عليه، إذا كان شهيداً أولا. . وأفضل كتابة اسمه دون أن تسبقه أي صفة. .

لقد كان جمال سالم حتى تلك اللحظة، مقاطعاً جمال عبد الناصر. . وليست بينهما أدنى صلة. . وكان بالغ العنف في هجومه على عبد الناصر في مجالسه الخاصة. . وإن كان هذا الوضع قد تغير تماماً، عند مرض جمال سالم. . وكان قد اقترب من النهاية، وأصيب جسده كله بشلل تام، ولم يبق واعياً إلا مخه!. . وزاره جمال عبد الناصر، وكان معه أنور السادات الذي روى لي هذا المشهد. . وكان ذلك بعد هزيمة ٦٧ . . . ولعل آخرين من أعضاء مجلس الثورة كانوا في هذه الزيارة الأخيرة. . لقد نسي جمال سالم كل خلافاته مع جمال عبد الناصر، وقال للحاضرين وهو على فراش الموت:

ـ البلد لا تحتمل أي خلاف بينكم. . التفوا جميعاً حول عبد الناصر. . إن وحدتكم بقيادة عبد الناصر، هي سبيل النجاة الوحيد لإنقاذ البلد. .

* * *

أعود إلى عملي في «الجمهورية» مع صلاح سالم. .

كان صلاح سالم، كتلة من النشاط، وكان خلاقاً مبتكراً، يعرف كيف يجذب الأضواء، ويحرك المشاعر. . وكان سعيداً جداً، بعودة العلاقات الطيبة مع عبد الناصر، الذي كان قد فصله من جميع مناصبه. .

وروى لي الكثير، مما عاناه من الناس والأصدقاء، بعد قطيعته مع جمال عبد الناصر. كل زملائه تقريباً انقطعوا عن زيارته تماماً، خوفاً من غضب عبد الناصر. . وكان قرار الفصل قد صدر من عبد الناصر، وأبلغ به صلاح سالم في سطرين اثنين. تقرر الاستغناء عن خدماتك في جميع الأعمال التي

تتولاها. وكانت اذاعة لندن، قد أذاعت خطأ، أن جمال عبد الناصر ينوي أن يستعين بصلاح سالم في منصب كبير. وفهم المسئولون عن الاذاعة من ذلك، أن صلاح سالم سيعود وزيراً للارشاد، ومسئولاً عن الاذاعة. وتجمع أكثر من واحد منهم، وتوجهوا مع رئيس الإذاعة في ذلك الوقت إلى منزل صلاح سالم لتهنئته.. وأرسل رئيس الاذاعة بطاقته مع بواب «الفيلا» وعليها عبارات رقيقة، طلباً للمقابلة.. واستقبلهم صلاح سالم في الصالون..

وبدأ رئيس الاذاعة الحديث، معبراً عن سعادتهم جميعاً، بعودته إلى منصبه.. وتسابق أكثر من واحد من الزوار في تمجيد الفترة التي عملوا فيها تحت رياسة صلاح سالم.. وتركهم صلاح سالم، يتحدثون، حتى انتهوا تماماً، من كل عبارات المودة والاجلال والاكبار.. ثم فاجأهم بالقول:

ـ لقد فصلت اليوم من جميع مناصبي.. وهذا هو القرار!

ووقع عليهم الخبر كالصاعقة..

وارتج عليهم الأمر.. وأبدى رئيس الاذاعة، أسفه.. وراقبه صلاح سالم، وهو يمد يده في هدوء، ليعيد بطاقته من على المائدة، إلى جيبه.. وذلك حتى لا تكون دليلاً ضده، على أنه يرحب بصلاح سالم!

وتظاهر صلاح سالم، بأنه لم يره، وهو يسحب البطاقة!

وكان صلاح سالم يروي لي هذه القصة وغيرها، وهو يتأسى على أخلاق الناس، ونفاقهم..

ورغم أنني كنت أعمل بأقصى طاقات جهدي ليل نهار، في «الجمهورية».. فقد كان صلاح سالم يتصل بي تليفونياً، من منزله، وكان قريباً إلى منزلي بالزمالك. ويطلب مني أن أمر عليه.. واستراحت نفسه، أن يفضي إلي، بكل ما يخزنه في صدره من آلام!

إن شهر العسل، لم يستمر طويلاً، بينه وبين عبد الناصر..

وبعد أن كان الاتصال التليفوني بينهما، يستمر بالساعات، كل يوم، إذا به يفاجأ بأن تليفون عبد الناصر لا يرد!.. وإذا طلب السكرتير، فإنه يسمع

الاجـابة: «حـاضر يا أفنـدم. . سوف نتصـل بسيادتـك. سيادة الـرئيس عنـده اجتماع!».

وفهم صلاح سالم إنها القطيعة:
واستطاع أن يستنتج السبب. .

* * *

كانت نوبات «الكلى» تفاجئه بين الحين والحين. . واضطر للاعتكاف على سرير المرض لبعضة أيام. . وزاره جميـع أعضاء مجلس الثـورة تقريبـاً. . والتفوا حـول سريره. . وتحـدث إليهم، عن سعـادتـه بعـودة العـلاقـات الـطيبـة مـع عبد الناصر. . ولكن واحداً منهم، نقل قصـة هذه الزيارة إلى عبد الناصر، على أن صلاح سالم كان يوجه إليه النقد العنيف، ويحرضهم ضد عبد الناصر!

وهكذا قاطعه عبد النـاصر بعد فـترة وفاق قصـيرة!. . وحاول أن يتصـل بـه، ليروي لـه حقيقة مـا جـرى، ولكنـه لم يتمكن من ذلـك، وتـطوع خـالـد محيى الدين، بأن كتب رسالة إلى عبد الناصر، أكد فيها أن الزيارة كانت عاديـة، وأن صلاح سالم لم يقل شيئاً سيئاً. . ولكن عبد الناصر لم يغير موقفه. .

وكـانت السيدة الفـاضلة زوجة صـلاح سالم، تقـول لي: «همه كـده مـع بعض من أول الثورة. . لقد اتفقت مع حرم عبد الناصر، على أننا لا نتدخل في هـذه الخلافـات. . وقالت لي مـرة، أنها سمعت صوت صـلاح سالم، مـرتفعـاً صارخاً، وهو يهدد عبد الناصر، بأنه سيصدر ضده كتـاب أسود. . ثم تصـالحا بعد ذلك!.

وروى لي صلاح سالم الكثير من علاقته بعبد الناصر. .

قال لي أنه عندما أرسله جمـال عبد النـاصر إلى العراق، لكي يبلغ نـوري السعيـد رفض مصر لمشروع الدفـاع المشترك. . فـوجيء في الـطائـرة، بـوجـود شخص مبعوث من عبد الناصر، انضم الى الوفـد المصري، بدون علم صـلاح سـالم. . (هذا الشخص عـين سفيراً لمصر في أمـريكـا بعـد ذلـك). . وفهم أن عبـد الناصر أرسـل من قبله من يتجسس عليه. . وعـاد صلاح سـالم ليفاجـأ بمن أبلغ عبد الناصر، أنه وافق على آراء نوري السعيد. . ولم يكن هذا صحيحاً. .

وفوجيء مرة أخرى، بأن عبد الناصر ينسب إليه أنه قرر القضاء عليه، باغتياله أو بوسيلة أخرى (لا أذكر تماماً). . وأن صحفياً، كان مع صلاح سالم في رحلة إلى السودان، تقدم إلى عبد الناصر بمذكرة، أورد فيها ذلك، وأنه سمعه من صلاح سالم!

وقال لي صلاح سالم إن القصة مختلقة تماماً. . وكيف أقول بهذا أمام صحفيين. . وبذل صلاح سالم جهداً كبيراً مع عبد الناصر لإقناعه بأنها أكذوبة. .

* * *

وفي أيام صلاح سالم الأولى، رئيساً لمجلس ادارة دار التحرير «الجمهورية» قام برحلة صحفية إلى الاتحاد السوفييتي لتغطية محاكمة الطيار الامريكي الذي أسقطوا طائرة التجسس التي كان يقودها داخل الحدود الروسية. . ونجح فيها نجاحاً كبيراً، واجتمع سراً برئيس المخابرات السوفييتية، واتفق معه على خطوط سياسية هامة. . وكان يبلغ عبد الناصر بذلك أولاً بأول من موسكو. . وسعد عبد الناصر بالنتائج التي توصل إليها صلاح سالم، وطلب إليه أن يتوجه إلى لندن للاشتراك في المباحثات الخاصة بقناة السويس. . واستعد صلاح سالم لذلك، ولكن عبد الناصر غير رأيه فجأة. .

كان صلاح سالم يروي لي كل هذه القصص بتفصيلاتها، لكي يؤكد لي، أنه كان هناك دائماً من يوقع بينه وبين عبد الناصر. . وأنه كانت هناك دائماً أزمة عدم ثقة. .

* * *

وذات يوم، نمى إلى علم عبد الناصر، أن صلاح سالم، على علاقة غرامية بالأميرة فايزة. . شقيقة الملك فاروق. . وسأل صلاح سالم عن حقيقة القصة، فروى له الحكاية بكل تفصيلاتها. .

قال صلاح سالم: ذات يوم حضر إلى زيارتي، الضابط طيار عمر الجمال (عين سفيراً لمصر في كوبا بعد ثورة كاسترو) وأبلغه شكوى من الأميرة فايزة على لسان صديق له. . بأن ضابطاً شاباً، ذهب لتفتيش قصرها، ووجه لها اهانات

بالغة، وكان يخرج ملابسها الداخلية من الدواليب، ويعبث بها أمامها. . وقال عمر الجمال لصلاح سالم: الثورة ليس معناها اهانة الناس، وقلة الأدب، وهي تريد أن تقابلك لكي تعرض شكواها. .

وحقق صلاح سالم في الأمر، ووقع عقوبة على الضابط الشاب. . واستقبل الأميرة فايزة التي جاءت لشكره. .

وكانت فايزة رائعة الجمال، وكانت مشهورة بقصص مغامراتها وكان آخرها قبل الثورة، علاقة حب، بملحق عسكري في السفارة الأمريكية. . وكان معروفاً أنها على أسوأ العلاقات مع زوجها وهو من أصل تركي اسمه «محمد علي رؤوف». . وكان الناس يطلقون عليه «محمد علي خروف». .

وفي هذا اللقاء، بدأت صداقة بين أميرة الأسرة المالكة، وأحد قواد الثورة التي أسقطت الملك!

وتحولت الصداقة، إلى حب عنيف. . وكان صلاح سالم، يذهب إلى لقائها، في شاليه بمنطقة الهرم. . وهو يقود «سيارة جيب» عسكرية. . وكان كل أعضاء مجلس قيادة الثورة يستخدمون هذه السيارات في تنقلاتهم، تعبيراً عن الطهر الثوري.

قال صلاح سالم:

ـ استمع مني عبد الناصر إلى القصة بانصات كامل. . ولم يعترض. . وقال لي. . لا داعي يا صلاح أن تذهب إليها في سيارة جيب. . وربما يراك أحد معها في هذه السيارة، وستكون فضيحة. . خذ سيارتي «الاوستن» الخاصة. . عندما تكون على موعد معها. .

واستخدم صلاح سالم، سيارة جمال عبد الناصر الخاصة، في مواعيد لقائه مع الأميرة فايزة. . وكان كثيراً ما يعود في الثانية صباحاً، ويجد عبد الناصر ساهراً، ليروي له كل ما جرى بينهما بالتفصيلات الكاملة، دون أن يخفي عنه شيئاً. .

وذات يوم، فوجيء صلاح سالم بقرار منشور في الصحف، بمصادرة

أملاك أسرة محمد علي. . ولم يكن صلاح سالم يعرف شيئاً عن هذا القرار. ولما فاتح جمال عبد الناصر في ذلك. كيف لا أعرف؟. . أجابه عبد الناصر: «كنت أخشى أن تبلغ الأميرة فايزة بهذا القرار قبل صدوره.

وروى لي صلاح سالم، أن فايزة خرجت من مصر، ولكنه لم يذكر لي أنه ساعدها في تهريب مجوهراتها، كما شاع بعد ذلك. . وقال لي أنه قابلها مرة في الخارج في احدى العواصم الأوروبية، خلال احدى رحلاته. .

* * *

كان صلاح سالم، عصبي المزاج، طيب القلب، سريع الانفعال، يتحول من موج صاخب إلى ماء هادىء في لحظات!. . وكان نقي المشاعر بحيث يواجه دائماً صراع النفس. . إذا شعر أنه أخطأ.

حدث عندما تولى وزارة الارشاد، أن قدمت إليه شكاوى عديدة، بضرورة تطهير الإذاعة، من المشكوك فى سلوكهم . . وألف صلاح سالم لجنة قضائية، قدمت تقريرها بفصل عدد من الاذاعيين. .

وكان ابنه الأصغر مصاباً بمرض شلل الأطفال. . وساءت حالته. . واستدعى الأمر ضرورة الحصول على جهاز طبي خاص من أمريكا، لعلاجه. . وفشل سفير مصر في أمريكا الدكتور أحمد حسين في الحصول على هذا الجهاز. . وعانى صلاح سالم آلاماً نفسية قاسية، وهو يرى طفله عاجزاً عن الحركة. . فإذا به يتوجه إلى الله، في نداء باك من الأعماق: «يا رب. . هل مرض ابني، بسبب دعاء أسر هؤلاء المفصولين بالانتقام مني!. أنا لم أظلم أحداً. أنها تقارير لجنة قضائية».

ثم قرر صلاح سالم، أن يقوم بمساعيه الخاصة، لكي يعين كل من فصلهم في وظائف أخرى، حتى يستريح ضميره!. . وقد فعل. .

هذه هي طبيعة صلاح سالم من الداخل. .

كان يثور لأن محرراً قصر في عمله. ويطلب توقيع عقوبة عليه. ثم يطلب هذا المحرر لقاءه. ويبرر تقصيره في العمل، بأسباب انسانية خاصة

بحياته. ويرق قلب صلاح سالم.. ويقرر له مكافأة أو زيادة في المرتب!

حدث أن كان المرحوم الكاتب عبد الرحمن الخميسي، لا يحضر إلى الصحيفة مطلقاً، ولا يكتب شيئاً.. فقرر صلاح سالم، خصم أيام من مرتبه، واستدعاه، للقائه، لكي يؤنبه، وينذره بالفصل!

وحضر عبد الرحمن الخميسي... وخرج من لقائه بصلاح سالم بعلاوة!..

* * *

وعندما اشتد به مرضى الكلى ـ وكان في الاسكندرية ـ قبل سفره إلى امريكا، في آخر رحلة لعلاجه، (وقد لحقه فيها المرحوم الدكتور أنور المفتي).. عرضت عليه ادارة «الجمهورية» العلاوات الدورية للمحررين.. فقرر مضاعفتها.. ولم يستمع إلى اعتراض الادارة بأن الميزانية لا تتحمل.. وكان مجموع العلاوات مبلغاً ضخماً، أثار الدهشة في باقي المؤسسات الصحفية..

وكنت أعرف من الدكتور المفتي، أن مرض صلاح سالم، وصل إلى درجة اليأس الكامل من العلاج الطبي.. وأن عمره محدود.. وكان هو لا يعرف هذه الحقيقة.. وفشلت كل المحاولات، في أن يتصل به جمال عبد الناصر أو يزوره.. ولكن أشقاء عبد الناصر توسطوا لديه بأن يزوره في الاسكندرية، وأبلغوا عبد الناصر أن مرضه ميئوس من علاجه.. وكان صلاح سالم، قد منح عز العرب عبد الناصر (شقيق عبد الناصر) مدير مكتب «الجمهورية» في الاسكندرية، علاوة كبيرة.. كما زاد من النسبة التي يحصل عليها الليثي عبد الناصر «الشقيق الآخر» من الاعلانات التي يقدمها إلى الصحيفة.. وزاروا صلاح سالم، الذي شكا إليهم من موقف عبد الناصر منه..

وأبلغ صلاح سالم، بأن جمال عبد الناصر سيزوره في منزله، وسيبقى معه نصف ساعة، قبل أن يستقل عبد الناصر القطار من الاسكندرية إلى القاهرة.. وسعد صلاح سالم بذلك.. وامتدت الزيارة إلى ثلاث ساعات!

كان عبد الناصر يرى أنها زيارة الوداع.. ولذلك، كان بالغ الرقة معه، واستعاد مع صلاح سالم كل الذكريات.. وقال له: «لو تكلف علاجك مليون جنيه، فسوف تتحملها الدولة.. المهم أن تعود إلينا بصحتك..».

وتأثر صلاح سالم.. وبكى..

وسافر بعد هذه الزيارة إلى أمريكا، وهو مستريح النفس.. أن عبد الناصر زالت من نفسه، أية أسباب لفتور العلاقات..

وكان صلاح سالم، يتصل بي تليفونياً من مستشفى بوسطن كل يوم تقريباً. وكنا نطمئن على أنه يتقدم.. إلى أن انقطع الاتصال، وعلمت فيما بعد، أنه تعرض لغيبوبة كاملة لمدة ثلاثة أيام.. وقال الأطباء.. هذه الغيبوبة أما أن يكون سببها جلطة. وهنا لا أمل. أو توقف الكلى عن العمل توقفاً كاملاً.. وهذه الإغماءة تعويض عن عمل الكلى.. وهنا بعض الأمل. وأفاق صلاح سالم، ليطلب الذهاب إلى طبيب الأسنان، في قسم آخر من المستشفى!.. وكان رأي الأطباء ألا يتحرك وأن يوفر جهده لرحلة العودة إلى مصر.. فقد كانوا يريدون له أن يعود لتأكدهم من النهاية.. ولكنه أصر وانتزع الأجهزة الطبية من جسده، وذهب إلى طبيب الأسنان.. واصابته الإغماءة من جديد أكثر من نصف ساعة.. وأفاق يطلب من طبيب الأسنان الاستمرار!.. ولكنه وقع على الأرض واصابته الغيبوبة للمرة الثالثة.. ونقلوه إلى سريره.. وأعاد الأطباء الأجهزة إلى جسده.. وهم ينتظرون معجزة من السماء!

هكذا كانت ارادته. التحدي. مهما كان الثمن.

وكان كل جهد الدكتور أنور المفتي، مع الأطباء الأمريكيين، أن يقوي صلاح سالم على ركوب طائرة العودة.. وكانت حالته قد تدهورت، حتى أنه لم يكن يميز شيئاً.. ولم يعرف أنور المفتي عندما رآه..

وعاد إلى القاهرة.. وأمضى في مستشفى الطيران أيامه الأخيرة.. كانت تصيبه الاغماءة، ثم يفيق ليطلب رؤية أصدقائه.. ورأى الباقوري وقال له: «سامحني لقد أخطأت في حقك».. ورأى عبد الناصر، في ساعاته الأخيرة.. حتى حانت اللحظة المحتومة..

وكانت جنازة صلاح سالم موكباً شعبياً رهيباً.. وعلمت أن عبد الناصر علّق على ذلك بقوله: «أن هذه الجماهير كانت تودع صلاح سالم.. لأنه عضو مجلس الثورة التي يؤيدها الشعب».

* * *

وشعرت بوحدة قاتلة، وأنا أؤدي عملي في «الجمهورية» بعد فقد صلاح سالم. وتكاتفت ضدي قوى عديدة داخل الجريدة، لم تكن مستريحة إلى علاقتي بصلاح سالم وثقته المطلقة بي.. وأوقعت بيني وبين رئيس مجلس الادارة الجديد «الحناوي» وهو أحد الضباط الأحرار، وكان معروفاً بميوله اليسارية.. وكان يظهر لي غير ما يبطن وبدأت الأزمات..

ثم كان الخلاص..

نجح مسعى مصطفى أمين في أن أعود إلى «الأخبار» رئيساً للتحرير.

الفصل التاسع عشر

قرار بالفصل من «الأخبار».. بعد اليوم الحزين

كيف جرى العمل بـ «الجمهورية»؟ ـ سعد وهبة المدير الثاني للتحرير ـ منشور ضدي من ٣٤ صفحة ـ الحناوي رئيس مجلس الادارة بعد وفاة صلاح سالم ـ العودة للأخبار ـ إلى «الجمهورية» مرة أخرى ـ صلاح نصر أسد غضنفر في قفص الاتهام ـ أزمة الرقابة الصحفية في جلسة المحاكمة ـ مقال اليوم الحزين ـ خطاب لعبد الناصر معناه فصلي من «الأخبار» ـ قرار من الاتحاد الاشتراكي بابعادي عن الصحافة ـ هيكل ينكر أنه يعرف ـ استمراري في «الأخبار» تحت رياسة محمود أمين العالم ـ هيكل يتهم علي صبري بمؤامرة فصلي ـ علي صبري يقول: هيكل كذاب ـ موقف كريم من فتحي غانم ـ نقل احسان عبد القدوس واصابته في حادث سيارة ـ مقالات تبرر فصلي ـ هيكل يؤجل القرار حتى تهدأ الزوبعة ـ حذف توقيعي من تحقيق صحفي ـ الدكتور أبو النجا ينشر مؤلفي رغم اعتراض الدكتور اسماعيل صبري عبد الله الماركسي ـ عمود آدم يصرخ وحواء تستغيث ـ السفر إلى الخارج . . كيف ؟ ـ العودة ، من اليابان ولقاء علي صبري .

الفصل التاسع عشر

قرار بالفصل من «الأخبار».. بعد اليوم الحزين

كيف كان يجري العمل بجريدة «الجمهورية» عندما انتقلت إليها رئيساً للتحرير، في عام ١٩٦٠، بعد أن استقلت من مؤسسة «أخبار اليوم»؟..

كان كامل الشناوي مشرفاً عاماً على التحرير.. وكان ابراهيم نوار يعد الجريدة للطبع ثلاثة أيام كل أسبوع.. وكنت أتولى مسئولية رئيس التحرير التنفيذي المسئول. وقبل أن أتسلم مسئوليتي كان هناك مدير للتحرير هو عبد الحميد سرايا يعاونه محسن محمد ومحمد عبد الجواد.. وكان سرايا مشرفاً أيضاً على القسم الخارجي. ثم كانت هناك الأقسام الأخرى للتحرير.. الإخبارية والتحقيقات الصحفية والألعاب الرياضية وغيرها..

وقد غضب سرايا عندما عينت رئيساً للتحرير. كان يرى أنه الأحق. وأرضاه صلاح سالم بعلاوة مجزية. وكان الزملاء العاملون مع سرايا، يكونون «شلة» واحدة.. حزباً كاملاً منحازاً إلى ابراهيم نوار، وهم المسيطرون على كل أقسام الجريدة.

وبدأت أضع «ماكيت» جديداً للجمهورية.. وكانت سكرتيرية التحرير، دون مستوى سكرتيرية تحرير صحف «أخبار اليوم».. كان ينقصهم فن علي أمين في الإخراج الصحفي الذي تعلمناه في أخبار اليوم..

وقد وجهت عناية كاملة إلى هذه الناحية. وكنت أرسم الصفحات، وأشرف على إخراجها في المطبعة.. وكان هدفي أن أكون منافساً ناجحا «للأخبار»..

ثم كـان اهتمامي بـالتحقيقات الصحفيـة . . وكـونت قسمـاً جـديـداً من مجموعة من الشباب أذكر منهم وحيد غازي (رئيس تحرير صحيفة الأحرار الآن) ومحمـد العزبـى « رئيـس تحرير الاجبشيـان جـازيـت . . اخيرا» وبعض المحـررات النشطات . . وأطلقت عليهـم اسم « نجوم التحقيقات الصحفيـة » . . وأعلنت عن مولد هذا القسم، على صفحات الجمهورية . . وكان ذلك تشجيعاً لم يألفوه من قبل!

وبدأت عجلة العمل تدور، وخاصة أنني لم أكن أغادر الجريدة إلى منـزلي إلا عند الفجر. . كنت أقـرأ كل سـطر. . وأراجع كـل كلمة. . وأنشـأت بابـاً جـديداً للمقـالات القصيرة، بعنـوان «هذا رأيـي» استكتبت فيـه كـل الأسـماء الـلامعة مثـل الـدكتـور محمـد منـدور وسـامي داود وعبـد الـرحمن الشـرقـاوي والدكتور لـويس عوض وأحمـد عباس صـالح وابـراهيم الورداني وأحمـد رشدي صـالح . . وكـان كل يكتب في تخصصـه. كما حـددت من يكتبون (اليـوميـات) واشترطت أن تكون سطورها بعيداً عن السياسة . . وقررت منع المعارك القلمية بين كتاب الجمهورية، منعاً باتاً . . وكان هـذا مرضـاً في هذه الصحيفـة، لأنهم كانوا من شيع فكرية مختلفة. لا بأس من الرأي الآخر، ولكن دون مهاتـرات. هكذا التزموا معي جميعاً.

* * *

وظهرت آثار هذا التنظيم التحـريري، واضحـة في صفحات الجـريدة . . ولكنني لاحظت، أن عبد الحميد سرايا مدير التحـرير، وفـرقته . . يستعـرضون بين الحين والحين عضلاتهم . . وكأنهم دولة مستقلة داخل الجريدة . . وقررت أن أضرب هذه الشللية . .

وكانت وسيلتي، هي اقتراح أن يكون للجريدة مديران للتحرير، يتناوبان العمل، ثلاثة أيام كل أسبوع . .

وكـان سعد الـدين وهبة، متحمساً، لتولي هـذا المنصب . . واقتنعت أنـه سيحقق توازناً في العمل . . وزاد اقتناعي، عنـدما لاحـظت أن مديـر التحريـر وفرقته تغيبوا عن العمل يوماً لحضور مباراة كرة القدم!

وسافر معي سعد الدين وهبة إلى الإسكندرية، للقاء صلاح سالم. . الذي اقتنع بالفكرة، ووقع القرار مع علاوة لسعد الدين وهبة. .

وثارت الزوبعة. .

وأعلن عبد الحميد سرايا، أن هذه هي دسائس موسى صبري. . ولكن سار العمل بعد ذلك، في دقة وانتظام. . وانتهت الشللية. .

* * *

ولكنني ووجهت بعقبة أخرى. .

هناك عدد محدود من المحررين، الذين يعتمدون على «الزعامة» في عملهم. . لا على الكفاءة الصحفية. .

وكانوا يشكلون عنصر ارهاب، لأي مسئول عن التحرير. . صوتهم مرتفع، ولسانهم طويل، وهم أيضاً «ثوريون»!

وكان مبدئي هو «لا نشر لأي سطور غير صالحة للنشر». . ولذلك كنت ألقى بكل الكلام الفارغ الذي يكتبونه في سلة المهملات. . وهكذا بدأت ضدي حرب المنشورات. . «أنني ضد الثورة. . وأنني عدو القومية العربية. .» إلى آخر هذه التفاهات. . وأذكر أنهم أصدورا منشوراً واحداً من ٣٤ صفحة!

ولم أهتز. . ولم أغير سياستي. . وإن كانت مقاومة هذه التيارات، التي لم توجد في صحيفة غير الجمهورية، اقتطعت الكثير من وقتي. . ولكنني لم أتراجع. .

وكل هذه التيارات، وجدت فرصتها، عندما مات صلاح سالم، وعين الحناوي رئيساً جديداً لمجلس الإدارة. . وكانت لا ترضيه سيطرتي الكاملة على الصحيفة، وعلى ما ينشر. . وخاصة أنه سافر مرة في رحلة إلى الشرق الأقصى، وأرسل مقالاً، رأيت أن بعض فقراته غير صالحة للنشر وشطبتها. . ولما عاد سألني: «هناك من شطب جملاً عديدة من مقالي. . هل كان هذا اختصاراً. . وأجبته: «لا. . أنا الذي شطبتها، لأنها لا تليق أن تنشر»!

وتضاعفت الأزمات بيني وبينه. . إلى أن تم الإتفاق مع الدكتور عبد

القادر حاتم وزير الإعلام، أن أترك «الجمهورية».. وأعود إلى «الأخبار» رئيساً للتحرير.. في مقابل عودة سامي داود من «الأخبار» إلى «الجمهورية»، وكان قد نقل إلى «الأخبار» عندما تولي كمال رفعت رياسة مجلس ادارتها.. ووجد مصطفى أمين خلافي مع الحناوي، فرصة لعودتي إلى «الأخبار».. وللتخلص من سامي داود.. وكان حلاً سعيداً. فقد كنت أتمنى أن أعود فعلاً إلى «الأخبار» بعد تجربتي القاسية مع فوضى الجمهورية!

وقد قمت أثناء رياستي لتحرير «الجمهورية» بعدد من الرحلات الصحفية الهامة.. رحلة إلى الكويت.. ورحلة إلى كوبا بعد أن قامت ثورة فيدل كاسترو.. ورحلة إلى اليمن بعد ثورة السلال.. كما سبق أن ذكرت.

وكان مصطفى أمين، يتابع كل ما أحققه من عمل صحفي في «الجمهورية»..

وكنا قد التقينا مصادفة، بعد استقالتي في منزل المذيع جلال معوض.. حيث كنت مدعواً للعشاء، وفوجئت بوجود مصطفى أمين.. وتعانقنا وتصافينا.. وعادت صلاتنا الشخصية. وهو الذي أبلغني بالإتفاق بالعودة إلى «الأخبار».. وكان طبيعياً أن أعود رئيساً للتحرير ونشر الخبر في الصفحة الأولى مع صورتي..

* * *

ثم جرت الأيام..

وعدت إلى «الجمهورية» مرة أخرى.. ولكن على الرغم مني، ولم أعد إليها بأي منصب، أو بأية مسئولية..

كان ذلك في عام ١٩٦٨. وفي أوائل هذا العام، قامت مظاهرات الشباب الجامعي. مطالبة بالحرية بعد هزيمة ١٩٦٧. ثم قامت مظاهرات العمال في حلوان تحتج على ضعف العقوبات ضد المسئولين عن سلاح الطيران. ووقع الخلاف الحاسم بين عبد الناصر وعبد الحكيم، الذي انتهى بتحديد اقامه عامر.. ثم انتحاره.. ثم القبض على شمس بدران وصلاح نصر وعباس

رضوان، وتقديمهم إلى محاكمة عسكرية برياسة حسين الشافعي بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم. . ثم قدم صلاح نصر فى قضية خاصة بإفساد المخابرات، لحساب شهواته الخاصة.

وكنت أحضر هذه المحاكمات يومياً. ولأول مرة أرى رؤية العين صلاح نصر وشمس بدران. . وكان مجرد ترديد اسم أيهما، مثيراً للرعب في القلوب. . وكان مشهداً مثيراً أن يكون في قفص الاتهام. .

وكان زميلي أحمد لطفي حسونة نائب رئيس التحرير، يسجل الجلسات يومياً، كما حدثت. . وكنت أكتب تعليقاً على كل جلسة في صفحة كاملة، يعطي الصورة الانسانية، ويسجل انطباعي بما كان يجري. .

وحضر أولى هذه الجلسات الصحفي اللبناني الكبير سعيد فريحة. ووجه من مقعده في صالة المحاكمة سؤالاً إلى صلاح نصر، عن شعوره وهو في قفص الاتهام. . وإذا بصلاح نصر، يعنفه بأقسى الشتائم. . واصفر وجه سعيد فريحة وصمت. كان صلاح تصر يبدو في قفص الاتهام، كأنه أسعد غضنفر، وكأنه مستخف بكل شيء. . ودخل إلى قاعة المحاكمة، مفتوح الصدر، منتفخ الأوداج، عالي الرأس، يحلي سترته، بملفحة من حرير. .

* * *

وكان يحدث بعد كل جلسة، أن يجتمع المدعي العام، وممثل المخابرات العامة، لكي يحددوا لمندوبي الصحف، ما يجب أن يحذف عند النشر، سواء في أقوال المحكمة أو المتهمين أو الشهود.

وذات يوم سألني الأستاذ محمد علي رشدي محامي شمس بدران (وزير العدل الأسبق) عن حذف بعض أقوال شمس بدران عند النشر، فقلت له أن الرقابة هي التي حذفت. فقد كانت كل البروفات تعرض على رقيب في وزارة الإعلام. وكانت البروفة الواحدة تمر على ثلاثة رقباء، حتى يضمنوا عدم وقوع أي خطأ.

وفوجئت في الجلسة. بأن شمس بدران، يقول لرئيس المحكمة، أن الرقابة تحجب الحقائق عن الشعب.

وهنا غضب حسين الشافعي رئيس المحكمة غضبة كبرى، وضرب المنصة بيده، واحمر وجهه وهو يقول:

ـ الصحافة حرة تكتب ما تشاء. . لا توجد رقابة على الصحف. . وقال شمس بدران:

ـ عرفت هذا من أحد الصحفيين. . وتضاعف غضب حسين الشافعي:

ـ من هو هذا الصحفي الذي ادعى هذا القول الكاذب. .

ولكن شمس بدران، لم يتكلم. . وكذلك محاميه. . ومرت لحظات أحسست فيها، برهبة. . ومن يدري، فقد يتخذ رئيس المحكمة إجراء ضدي. .

ولكن الموقف مر بسلام!

وكانت الجلسات مثيرة. ولم يكن من السهل أن يسيطر حسين الشافعي على محاولات شمس بدران لكي يشعر رئيسها، أنه كان يعلم من أسرار الدولة ما لا يعلمه رئيس المحكمة. . وكان أخطر أيام المحاكمة، هو اليوم الذي انكشفت فيه قضية الذهب!

لقد ظهر أن عبد الحكيم عامر عمل على تخبئة كمية من الذهب، كانت لديه من الملك سعود لتوزيعها على القبائل اليمنية في مكان مجهول. . وحدث هذا يوم الهزيمة. كما ظهر أن القيادات التي تحاكم كانت تملك كميات من العملات الصعبة وأموال الدولة. . وهزت هذه الشهادات مشاعري، فكتبت مقالي بعنوان «اليوم الحزين». . وفيه قلت أن هذه الشهادات كشفت كيف كانت تحكم مصر. . وسردت كل الوقائع الخطيرة، وكنت أختم فقرات المقال، بعبارة واحدة وهي «. . هكذا كانت تحكم مصر، وما خفي كان أعظم». .

كتبت: «. . الكلمات التي أنشرها ليست من عندي. لقد قيلت على لسان عباس رضوان. وهي تكتب فصلاً حزيناً من أيام تاريخنا. تاريخنا الذي نجهل الكثير من أسراره، حتى جاءت هذه القضية لتعلننا نحن الجماهير بأعلى الصوت. . انتبهوا وتنبهوا واسمعوا بكل الآذان، كيف كان نفر من قادتكم

يحكمون مصيركم. من منا يستطيع أن يقوي على عينه فلا تذرف الدمع الحـزين على هذا البلد.

وقرأ بروفات هذا المقال ثلاثة رقباء، في وزارة الإعـلام، كل عـلى حدة. ولم يشطبوا حرفاً واحداً منه.. ودخـل إلى مكتبي أحد الزملاء، وكـان قد قـرأ الصفحة في صالة التحريـر وقال لي: «هـذا مقال خـطير، وستكـون لـه عـواقب ضـدك..» .. وطلب مني، بعاطفـة زمالـة واشفاق ألا أنشر المقـال. ولكنني لم أفكر لحظة واحدة في ذلك، كنت قد عقدت العزم بعد هزيمة ٦٧ أن أكتب كـل ما يثور في صدري وليكن ما يكون.

وظهر المقال.. ولم يحدث شيء..

* * *

ونشرت بعـده أكـثر من مقـال، إلى أن فـوجئت بخـطاب يلقيـه جمـال عبـد النـاصر ، أمـام اتحاد الصحفيين العـرب أثنـاء لقـائه بهم ، قـال فيـه إنـه يؤمـن بحريـة الصحافـة ، ويؤيـد قرارات الاتحاد بضرورة تـأمين الصحفى فى عملـه من الفصـل والعزل تمكينـاً لحريتـه في أداء واجبـه.. ولكنـه لا يقبـل أن تحـول الصحـافـة قضيـة المؤامـرة، إلى قضيـة فسـاد حكـم.. كـما فعـل رئيس تحـريـر «الأخبار»، وقال أن المتآمرين كـانوا يستعينـون بالمـال في المؤامرة، كـما استعانـوا بـالدبـابـات. واستيلاؤهم على أمـوال الـدولـة لا يعني فسـاداً في الحكم ولكن لاستخدامها في المؤامرة.

واتصلت بجلال الحمامصي تليفونياً من منزله وسألته: هل سمعت خطاب عبد الناصر؟..

قال: نعم...
قلت: ما رأيك؟
قال: لقد فهمت من الخطاب أنه أصدر قراراً بفصلك.
قلت: وأنا أيضاً.. ولكنني لا أزال أباشر عملي..

وبعد ذلك، دخل إلى مكتبي الزميل ابراهيم يونس وقال لي:

ـ أنت جالس. هنا. . وفي الدور الرابع اجتمعت لجنة الاتحاد الاشتراكي واذاعت القرار الذي تلقته من الأمانة العامة، وهذا نصه:

١ ـ موسى صبري أفسد قضية المؤامرة، وحولها إلى قضية فساد للنظام. ولذلك تقرر إبعاده من الصحافة.

٢ ـ تقرر تعيين محمود أمين العالم رئيساً للتحرير.

كانت الساعة قد جاوزت السابعة من المساء، فاتصلت بمحمد حسنين هيكل تليفونياً في منزله، وكان وقتئذ ـ رئيساً لمجلسي ادارة مؤسستي «الأهرام» و «أخبار اليوم» معاً، بعد اخراج خالد محيى الدين من مؤسسة أخبار اليوم، وقد كان رئيساً لمجلس ادارتها، بعد الافراج عن الشيوعيين من المعتقلات، وتعيين عدد كبير منهم في المجال الاعلامي.

قلت لهيكل:

ـ هل من اللائق أن أعزل من الصحافة نهائياً، دون أن أخطر بذلك، على الأقل، حفظاً لكرامتي، كان يجب أن تبلغني بذلك، حتى أجمع أوراقي، وأبقى في منزلي، قبل أن يعلن قرار عزلي في اجتماع عام بأخبار اليوم. . وأنا جالس في مكتبي، أباشر عملي. . صحيح أنني استنتجت من خطاب عبد الناصر عند الظهر، أن شيئاً ما سيحدث لى . . ولكن لم أكن أتوقعه بهذه السرعة. . ولم أكن أتوقع ألا أبلغ به. .

ونفى محمد حسنين هيكل هذا الذي جرى تماما.

وقال لي:

ـ هذا غير صحيح. .

قلت:

ـ ما هو غير الصحيح؟. . أنني أقول لك قرار عزلي من الصحافة، أعلن رسمياً في نادي «أخبار اليوم». . بالدور الرابع من المبنى.

قال: ليس لي علم بهذه الواقعة. . وأؤكد لك أنك باق رئيساً لتحرير

الأخبار. . وأنني أنا الذي سأترك أخبار اليوم. وسوف يرأس محمود أمين العالم مجلس إدارة أخبار اليوم من بعدي!

وبعد هذا الحديث توجه محمد حسنين هيكل إلى منزل الحمامصي، حيث صارحه بالحقيقة التي أخفاها عني.

قال له هيكل:

ـ أنه فضل ألا يصدر قرار إبعادي عن الصحافة، وهو رئيس مجلس ادارة أخبار اليوم. ولذلك فقد اقترح أن يعين محمود أمين العالم رئيساً لمجلس الادارة، بدلاً من رئيس تحرير للأخبار، ثم بعد ذلك يصدر قرار فصلي وهو بعيد عن أخبار اليوم.

وكان هيكل ضائقاً بأخبار اليوم، لأن العلاقات بينه وبين التحرير، وصلت إلى طريق مسدود من عدم التفاهم، وتفاقم الأمر إلى أزمات عديدة، سببها شطب الرقابة للأخبار التي يحصل عليها المحررون، مع إباحة نشرها في الأهرام. . لأن الرقيب طبعاً لم يكن ليجرؤ على شطب سطر واحد في الأهرام، إذا قيل له أن الأستاذ هيكل أجازه. بل إن صفحات كاملة، كانت لا تعرض على الرقيب مطلقاً، ويكفي أن يقال أن هذه أوامر الأستاذ هيكل.

وقال له جلال الحمامصي:

ـ ولكن معنى هذا أن موسى صبري سيفصل بعد فترة قصيرة. . وأنه تقرر ذلك.

ورد هيكل:

ـ ولكنني رفضت أن يفصل وأنا على رأس المؤسسة.

وضحك الحمامصي:

ـ وما الفرق؟. . المهم أن قراراً صدر بفصله وأنت تعلم.

* * *

وسألت هيكل في الصباح التالي:

ـ من الذي دبر مؤامرة فصلي. .

قال: علي صبري.. بل إنه طلب مني ذلك من قبل.

وطلبت موعداً من علي صبري.

وكانت هذه أول مرة ألقاه.

ودهشت أن الموعد تحدد في الصباح التالي على الفور.

ودهشت أكثر أنه أحسن استقبالي، وترك مكتبه، وجلسنا على أريكتين في صدر الحجرة، وطلب لي قهوة، وقدم سيجارة..

كيف هذا التكريم، من رجل طلب ابعادي عن الصحافة ـ أي تشريدي تماماً ـ بالأمس فقط.

وسألته على الفور:

ـ لماذا طلبت سيادتك ابعادي عن الصحافة؟.. وماذا تريدون من الصحفي في العهد الاشتراكي، الا نزاهة القصد، وأمانة الكلمة، والتفوق في مهنته؟..

فقال علي صبري:

ـ ومن قال لك أنني طلبت ابعادك؟..

قلت:

ـ لقد أبلغت أمانة الاتحاد الاشتراكي، وحداته، بالقرار.. وأعلن ذلك في مؤسسة أخبار اليوم، وقال لي هيكل أنك أنت صاحب القرار..

قال (مندهشاً):

ـ هيكل كاذب، هوه كل حاجة تحصل في البلد يقولوا علي صبري.

قلت:

ـ ولكن القرار أبلغ إلى وحدات الاتحاد الاشتراكي.

قال:

ـ حدث خطأ من عبد المجيد فريد.. وكل ما يجري في الصحافة، مسئول عنه هيكل، وهذا معروف.

ثم قال لي:

ـ ولكي تتأكد من صدق قولي، اسأل شعراوي جمعة، أنا لم أر محمود أمين العالم حتى هذه اللحظة، وقد قلت لشعراوي جمعة، أبلغ نصيحتي إلى محمود العالم، ألا يغير مطلقاً من هيئة التحرير في أخبار اليوم، لأنهم كلهم صحفيون متمرسون وناجحون، فكيف يتفق قراري هذا مع قراري بفصلك..

قلت:

ـ ولكن هيكل قال لي أنك سبق أن طلبت فصلي في مناسبة سابقة.. كما طلبت فصل محمد وجدي قنديل من آخر ساعة.

قال:

ـ هذا عير صحيح.. أنت باق في عملك. وتستطيع أن تتعاون تعاوناً كاملاً مع محمود أمين العالم، ولم يتخذ أي اجراء ضدك. ولن يتخذ. ونحن نريد لجريدة «الأخبار» أن تنجح.

والحق أنني كنت أعتزم، بعد ابلاغي قرار محمود أمين العالم، في نفس الصباح، أن اعتذر عن عدم القيام بأي عمل تنفيذي في الجريدة. وكان قراري أن أقدم المشورة الصحفية إذا طلبها أحد مني، ولن أتحمل مسئولية اصدار الجريدة.

ولكنني بعد هذا اللقاء مع علي صبري.. ولاقتناعي أن هيكل لم يقف معي وقفة الزمالة والمسئولية.. ولأنه وافق على أن يكون فصلي بعد تركه هو لأخبار اليوم.. قررت أن أستمر في عملي ومسئوليتي.

ولم أذكر لهيكل أنني قابلت علي صبري.

وكنت على موعد معه، لكي يجري التعارف بيني وبين محمود أمين العالم.. في دار أخبار اليوم، ثم ينصرف هيكل إلى «الأهرام».. بعد تركه لكل مسئولية في أخبار اليوم.

والتقينا.

وانصرف هيكل.

وقلت لمحمود العالم، أنني كنت اعتزمت عدم الإلتزام بأية مسئولية في العمل، ولكن بعد لقائي بعلي صبري، وتأكيده لي أن هيكل هو السبب. . فإنني سوف أعمل.

وفجأة وبعد حوالي أربعة أسابيع . . اتصل بي ظهراً جلال كشك (وكان يعمل في الاتحاد الإشتراكي في أمانة الدعوة التي كان يرأسها عبد الفتاح أبو الفضل نائب مدير المخابرات السابق) ظهراً وقال لي:

ـ لقد صدر قرار بفصلك من «الأخبار» وبنقلك إلى الجمهورية . .

قلت: متى؟

قال:

ـ هذا الصباح. . والقرار الآن في مكتب محمود أمين العالم!

وفي العاشرة من المساء. . سألت أمين العالم. . فأجابني: بكل أسف. صحيح.

وأقسم أنه حاول منعه. . وأنه فوجىء. . إلى آخر كلمات المجاملة التي تقال، في هذه المناسبات.

إذن. . فإن كل ما قاله هيكل، منذ الليلة الأولى، هو الذي حدث. سأبقى إلى حين، ثم يصدر القرار!

وكان القرار بتوقيع علي صبري!

ويحتوي على مادتين:

الأولى: تقرر نقل السيد موسى صبري إلى دار التحرير والنشر (الجمهورية).

الثانية: ينفذ القرار ابتداء من اليوم.

وهذا يعني عزلي من رياسة التحرير، ونقلي إلى الجمهورية بدون عمل محدد.

وتوجهت إلى «الجمهورية» في اليوم التالي، وكان واضحاً لي أنني ممنوع

من الكتابة بتوقيعي. وأنه ليس مطلوباً مني أكثر من أجلس إلى المكتب، وأن أقبض مرتبي في نهاية الشهر.

وكان يهمني أن أتأكد من صرف مرتبي، فأنني لا أملك غير المرتب.

ورغم كل هذه الظروف، فانني أسجل أن فتحي غانم رئيس مؤسسة دار التحرير حينئذ أحسن وأكرم معاملتي.

وقبل أن يصدر قرار نقلي إلى الجمهورية.. كان قد صدر قرار بنقل احسان عبد القدوس رئيس تحرير «أخبار اليوم» إلى روز اليوسف، بنفس صياغة قرار نقلي.

ولم يكن احسان، ولا أحد منا يعرف سبب نقل احسان، وقد صدر القرار صباح يوم صدور «أخبار اليوم»، وكان بها مقال بقلم احسان عبد القدوس، كله تحية وتأييد لجمال عبد الناصر!!

وقال لي محمد فايق وزير الاعلام، ان هيكل هو الذي أقنع الرئيس عبد الناصر، بنقل احسان عبد القدوس بهذه الصورة المهينة.

ويؤسفني أن أسجل، أن ما دفع هيكل إلى ذلك، هو أسباب شخصية بحتة، لا يليق أن أذكرها، وأراد هيكل ـ وهو في أكبر مركز قوة ـ أن يعاقب احسان.. وبامتهان لأنه يعلم أن من المستحيل على احسان أن يعود إلى روز اليوسف كاتباً أو محرراً، وكل المسئولين فيها.. رئيس مجلس الادارة.. رئيس التحرير، كلهم من الماركسيين، وزرت احسان عبد القدوس في منزله أكثر من مرة.

وكان يتساءل في مرارة.. فقط.. أريد أن أعرف السبب.

ثم كنت على موعد معه، بعد أيام من قرار نقله.. في نادي الجزيرة، وذهبت إلى النادي، وتأخر حضوره، وسألت عنه، وفوجئت بأنه صدمته سيارة وهو يعبر الشارع أمام منزله، شارد الفكر، وقد نقل إلى مستشفى العجوزة بين الحياة والموت، وأسرعت إلى المستشفى.

وبعدها بأيام.. صدر قرار عزلي من أخبار اليوم.

* * *

وأذكر أنني بعد أن فصلت، ظهرت المقالات التبريرية في بعض الصحف، لفصلي، ومنها:

* مقال بعنوان «لماذا تفقد بعض التصورات الصحفية سلامتها؟ ان الذين تصوروا أن ما يجري في محكمة الثورة فرصة للاثارة ونشر المسلسلات والمغامرات حول الكنز والذهب.. ولم يتصوروه على حقيقته فصلاً سياسياً هاماً في التاريخ، قد أساءوا إلى الشعب وإلى التاريخ»..!!!

* مقال آخر يقول: بين النقاط الهامة العديدة التي أبرزها الرئيس جمال عبد النصر في كلمته إلى الصحفيين العرب، ما نبه إليه من عدم الوقوع في الشرك الذي تنصبه الحرب النفسية المعادية، بالدعوة إلى الخلط بين المبادىء والانحرافات وتحويل مواجهتنا الصادقة الأدلة للانحراف، إلى تشكيك في مبادئنا ذاتها»..!!

* ومقال ثالث: «البعض يحاول أن يجعل من هذه الاعترافات معولاً يهدم به الثورة، ويطيح بكل انجازاتها التي تمت خلال السنوات الأخيرة.. والبعض يستند إليها كأدلة في حملة التشكيك التي يحاول أن يغرق فيها المجتمع.. ان الذي يقف في قفص الاتهام.. ليس النظام.. ولكن المتآمرين عليه.. ان محكمة الثورة تحاكم مؤامرة محدودة، ولا تحاكم النظام، بل هي تؤكد قدرته وقوته»..!!

ولكن لماذا أبدل هيكل قرار ابعادي عن الصحافة تماماً، بقرار ابقائي لفترة في عملي رئيساً لتحرير الأخبار.. ثم التصرف في شأني بعد ذلك، بفصلي أو بوقفي!

بعد أن ذاع وشاع قرار ابعادي عن الصحافة في المساء.. كان الموقف يشكل فضيحة أمام الصحفيين العرب. لقد أعلن لهم الرئيس ترحيبه بقراراتهم عن حرية الصحافة وتأمين الصحفي في عمله من الفصل.. وكان ذلك عند

الـظهر. فكيف يصـدر قرار بفصـل رئيس تحريـر صحيفة يـومية في مسـاء نفس اليوم؟ . .

وهنـا. . جاء دور هيكـل، وخاصـة بعد أن تجمـع عـدد من الصحفيـين العرب في فندق سميراميس، وقرروا ارسال برقية احتجاج. .

كان اقتراح هيكل الذي نفذ هو أن أبقى حتى تهدأ الزوبعة. ولذلـك فقد ألـح على أن استمـر في حضور جلسـات قضية المؤامـرة، وأن استمر في التعليق عليها، وكنت قد قررت عدم الاستمرار.

وقـد ذهـل حسـين الشـافعي رئيس المحكمـة، عنـدمـا رآني في الجلسـة المسائية، وكنت قد امتنعت عن حضور الجلسة الصباحية، وشاع بـين المحامـين وفي المحكمة، قرار ابعادي عن الحضور!

بـل أذكر فى ذلـك اليـوم ، أنـه كـان موعـد كتـابتـى لليوميـات فى الصحفـة الأخيرة من الأخبار، وأصر هيكل أن أكتب اليوميات بأي شكل.

وكنت لم أكتب حـرفاً واحـداً، ولم تكن في ذهني فكرة للكتـابة، في هـذا الجو الرهيب. . وقد كتب محسن محمد فقرة من اليوميات، لإكمالها. . كان المهم عنـد هيكل أن يـظهر اسمي مهـما كـانت الـظروف، حتى يكـون الحـديث عن ابعادي عن الصحافة، مجرد اشاعة كاذبة. .

وبعـد أربعة أسـابيع عـلى ما أذكـر. . وبعد أن هـدأت العاصفـة، صدر القرار المهين في صياغته بنقلي إلى «الجمهورية».

ولم يدهشني أن علي صبري هو الذي وقع القرار، رغم أنه كان قد ذكر لي أنه بعيد تماماً عن هذا الموضوع. بل نصح محمود أمين العالم بإبقـاء كـل محرري مؤسسة أخبار اليوم في مواضعهم. . لم يدهشني. . لأنه كان مجرد تـوقيع بـاسمه على القرار بوصفه أميناً للاتحاد الاشتراكي المالك للصحافة. . وأن الأمـر بذلـك صدر من الرئيس جمال عبد الناصر.

المهم أنني صارحت هيكل بهذا. . بعد انتقالي إلى «الجمهورية». .

ورويت له ما قاله علي صبري. وعتبت عليه هذا الموقف.

لقد كان هيكل يروي في «الأهرام» بعد اعتقال الدكتور جمال العطيفي، أنه سوف يستقيل من الأهرام، إذا لم يفرج عن الدكتور العطيفي. وكان قد اعتقل لأنه كتب مقالاً في الأهرام كشف فيه، أن قانوناً ينفذ لم ينشر في «الوقائع الرسمية»..

* * *

وقد عتبت على محمد حسنين هيكل موقفه مني، وطلبت منه شيئين:

الأول.. الأذن لي بالسفر إلى الخارج.

والثاني.. السماح لدور النشر أن تقبل مني مؤلفات..

ووعدني هيكل، بأن يحصل لي على الميزتين!.. نعم فقد كانت ميزة أن يستطيع صحفي في قائمة المغضوب عليهم أن يسافر إلى الخارج.

ولكن هيكل، لم يتصل بي بعد ذلك لإبلاغي بأي قرار. وحرصاً على كرامتي لم أتصل به.

وقال لي بعد وفاة عبد الناصر، وتولى السادات، أنه كان يريد أن يفاتحني في ذلك اللقاء، بأن أعمل معه في «الأهرام».. ولكنه خشي من التعقيدات الداخلية، وأن هذا يؤكد نواياه الحسنة نحوي..

أعود فأقول أنني ذهبت إلى «الجمهورية».. وأنا أعلم أنني ممنوع من الكتابة بطبيعة الحال..

وخفف من وقع الصدمة، أن رئيس مجلس الادارة كان صديقي فتحي غانم الذي استقبلني ـ كما ذكرت ـ أحسن استقبال، وجمع مجلس الادارة، وقال في الاجتماع:

ـ ان انضمام موسى صبري إلى أسرة الجمهورية، تقوية لها.. ومكانه الطبيعي هو في مقعد رئيس مجلس الادارة.. ونحن نرحب به كل الترحيب.

وأخليت حجرة لي.. وطلب مني فتحي غانم، أن أبحث في الأسواق، عن طاقم المكتب الذي يعجبني.. ليفرش مكتبي.. وفعلت..

وقال لي أنني لست ممنوعاً من العمل. وممن الممكن أن أختار ما أكتب.

واخترت فعلاً أن أجري تحقيقاً صحفياً، عن ظاهرة الآلاف من الرجال والنساء، الذين يجتمعون كل ليلة، بعد أن شاع أن مريم العذراء تظهر كل ليلة في كنيسة الزيتون. . وكتبت التحقيق. . ووقعته. .

وظهرت «الجمهورية» في الصباح التالي، وبها التحقيق بغير توقيعي. .

واعتذر لي فتحي غانم، بأنه لم يكن يعلم أنني ممنوع من الكتابة بإسمي. . وكنت قد أكدت له ذلك، عندما أبلغني بأنني لست ممنوعاً من الكتابة.

* * *

ولكنني قررت أن أمضي كل وقتي في عملي الصحفي. . وكنت أذهب كل صباح إلى «دار الكتب» وأطلع على الصحف القديمة، وجمعت كل ما نشر لي من مقالات وتحقيقات منذ بدئي للعمل الصحفي. . كما وأظبت على الحضور إلى «الجمهورية» كل يوم، بعد انتهائي من دار الكتب، ثم في المساء، لكي أعيد كتابة ما جمعت. . ورحب بي كل الزملاء، وكنت موضع تكريمهم. . باستثناء زميل واحد هو محمد الحيوان، الذي كتب في صحيفة الحائط التي كان يصدرها محررو «الجمهورية». . محتجاً على عملي في «الجمهورية». . وكان ذلك صدمة لي.

* * *

وجمعت تحقيقاتي عن الثورات في المنطقة التي نعيشها. . السودان. . اليمن. . سوريا. . العراق. . ايران. . ثم ثورة كوبا. . وأعدت الصياغة. وجمعتها في كتاب بعنوان «مخبر صحفي وراء ١٠ ثورات». .

وذهبت بالكتاب إلى الدكتور سيد أبو النجا مدير دار المعارف. . ورحب الرجل. وأحال الكتاب إلى لجنة خاصة للقراءة. . وفوجئت بأن قرار اللجنة هو عدم صلاحية الكتاب للنشر!

ثم علمت أن الدكتور إسماعيل صبري عبد الله، (وزير التخطيط بعد ذلك) ومستشار دار المعارف، هو الذي تحمس لعدم إجازة النشر. . بسبب

خلافنا السياسي، فهو ماركسي أصيل، ومن الطبيعي أنه لا يطيق أن يصدر كتاب لي عن دار المعارف..

وأذكر للتاريخ، أن الدكتور سيد أبو النجا، تصدى لهذا الموقف.. وأعتقد أنه استشار محمد حسنين هيكل الذي كانت تتبعه دار المعارف.. وتقرر إعطاء الأصول للأستاذ الدكتور السعيد مصطفى السعيد أستاذ القانون الجنائي، ورئيس جامعة القاهرة الأسبق.. وقد تحمس الرجل، لإصدار الكتاب. وسجل رأيه..

وصدر الكتاب.. وفزعت عندما حدد الدكتور أبو النجا، ثمن النسخة بثمانين قرشاً.. وكان هذا رقماً مرتفعاً جداً في ذلك الحين!

واعترضت.. وشرح الدكتور أبو النجا، فلسفته في التوزيع.. وهو أنه كلما ارتفع سعر الكتاب، زاد الإقبال عليه.. وصدقت نظريته فعلاً.. واختفى الكتاب من السوق بعد وقت قصير..

ولا أزال أذكر هذا الموقف الكريم للدكتور أبو النجا.. فقد كان التقليد أن من يمنعه عبد الناصر من الكتابة في الصحف، هو أن تقفل في وجهه كل الأبواب.. لا تلفزيون لا إذاعة.. لا ناشر لمؤلفاته.. بل يحذف إسمه من على فيلم إذا كان من تأليفه!

وخرق سيد أبو النجا هذه القاعدة..

والتقيت مصادفة بعد ذلك، بالدكتور إسماعيل صبري عبد الله، في حفل بالسفارة السوفيتية، وحاول أن ينفي لي أن موقفه كان بسبب خصومة سياسية.. ولكنني لم أقتنع بالأعذار التي أبداها..

وأحسست بعد ذلك، بالفراغ المفزع في وقتي.. واقترحت على فتحي غانم أن تصدر «الجمهورية» ملحقاً يومياً ملونا، منوع الأبواب.. وأن أشرف على إصدار هذا الملحق، وكانت به صفحة للمرأة..

ووافق.. وانشغلت في هذه المسئولية اليومية التي اخترعتها لنفسي!.. وكنت أكتب يومياً عن المرأة.. وكيف تصففين شعرك؟.. وكيف تجعلين بشرتك ناعمة؟ إلى آخر هذه الأبواب!.

ثم اخترعت باباً جديداً، هو نصف عمود يومي، عن حوار مستمر بين آدم وحواء.. بعنوان «آدم يصرخ.. وحواء تستغيث».. وكان ينشر يومياً في شكل رسالة من آدم إلى حواء.. ثم رد حواء على آدم فى اليوم التالى.. وكان من أنجح الأبواب..

وهكذا استطعت أن أملأ الفراغ، وأن أتوجه إلى مكتبي كل يوم في الصباح والمساء.. وأراجع الملحق. وأكتب أبواب المرأة، ثم الباب اليومي الجديد..

* * *
* * *

ولكنني شعرت بالضيق الشديد..

وفكرت في السفر إلى الخارج..

ولكن كيف؟.. أن اسمي في القائمة السوداء.. وأنا ممنوع من السفر. وهذا يحتاج إلى قرار من عبد الناصر.. وكيف أصل إلى عبد الناصر؟!

وتدبرت الأمر مع فتحي غانم. وقال لي: سأدبر لك السفر بتذاكر سفر اعلانات.. وعليك أن تتحمل نفقات الاقامة في الخارج.. ولكن قبل ذلك، عليك أنت أن تحصل على اذن بالسفر!

ولكن.. إلى أين أسافر؟.. وكيف أحصل على إذن السفر؟

الفصل العشرون

اسقاط الحكم الشيوعي في أخبار اليوم!

الماركسيون يساعدونني في الحصول على تأشيرات الدخول للدول الشيوعية! ـ لقاء مع شعراوي جمعة ـ صحيفة بولندية يغذيها السوفيات ـ متعطشة للحب في المانيا الشرقية ـ سطور عن رحلة الاتحاد السوفياتي والهند واليابان ـ رسالة لي في طوكيو: عد فوراً إلى القاهرة ـ حوار مع السادات قبل لقاء علي صبري ـ عرض بالمسئولية عن التحرير في «الجمهورية» ـ السادات ينصح بلقاء سامي شرف ـ رسالة من علي صبري: لن تعود إلى «الأخبار» ـ السادات يصارحني بحقيقة رأي عبد الناصر ـ لقاء مع السادات بعد منتصف الليل ـ مفاجأة سارة بعد يأس! ـ العمل فوراً في الطبعة الثانية من «الأخبار» ـ اقالة محمود أمين العالم ـ بدأت المتاعب مع هيكل ـ السادات يطلب مني تنفيذ تعليمات وزير الاعلام هيكل! ـ التوزيع يرتفع إلى ٤٠٠ ألف! ندوة السادات ـ خبر عن صحة السادات ـ مات عبد الناصر.

الفصل العشرون

إسقاط الحكم الشيوعي في أخبار اليوم

أين أسافر إلى الخارج؟

كان هذا هو السؤال، الذي قررت تحديد اجابته في الأشهر الأولى من عام ١٩٦٨، وأنا أعمل في «الجمهورية» بلا عمل!

وأذكر بالعرفان أن أصدقائي من الماركسيين، ساعدوني على تلقي دعوات من حكومات بولندا والمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفياتي. .

تدخل في ذلك خالد محيي الدين، وفيليب جلاب، ومحمد سيد أحمد. . وكانت حجتهم لدى سفراء هذه الدول في مصر، أنني كاتب وطني، وأنني صادق في وجهة نظري. . فلماذا لا يتيحون لي الفرصة، لزيارة دولهم، والتعرف على أسباب تقدمهم. .

وتلقيت الدعوة من بولندا، والمانيا الديمقراطية. . وتعثرت دعوة الاتحاد السوفياتي أكثر من شهرين.

وكان سفير الهند في مصر، من أقرب أصدقائي. . وكانت لنا حوارات طويلة، عن الحكم في مصر وفي الهند. . وهو الذي بادر بتوجيه الدعوة لي لزيارة طويلة للهند لمدة أسبوعين أو ثلاثة. . واتضح لي بعد وصولي إلى دلهي، أنه قدمني أحسن تقديم، وطلب معاملتي كضيف ممتاز، ولذلك خصصوا لي دبلوماسياً في درجة رفيعة لمرافقتي طوال فترة الرحلة التي جبت فيها عدداً كبيراً من ولايات الهند. .

ثم قررت أن أتابع الرحلة من الهند الى ماليزيا. . ثم هونج كونج. . ثم اليابان، وكان ذلك على حسابي الخاص. .

وسبب ذلك، أنني فكرت في أن تكون رحلتي للمقارنة بين نظم شيوعية كاملة مثل ألمانيا الديمقراطية، والاتحاد السوفيتي. . ونظام شيوعي معتدل ـ اذا صح التعبير ـ مثل بولندا. . ثم نظام اشتراكي ديمقراطي في الهند. . ونظام رأسمالي في اليابان. .

ودبر لي فتحي غانم، بمعونة عبد الحميد حمروش العضو المنتدب بالجمهورية، تذاكر سفر فيها لم تتضمنه الدعوات. . ودبرت ما سوف أصرفه على حسابي الخاص. . وكنت متلهفاً فعلاً، على القيام بهذه الرحلة، هرباً من الملل الذي كنت أعانيه، ورغبة في المعرفة على الطبيعة. . وزودني خالد محيي الدين بخطاب توصية خاص، الى رئيس الحزب الشيوعي في اليابان. .

ولكن بقي إذن الخروج من مصر. .

* * *

لجأت الى صديقي المستشار القضائي عبد الحميد يونس. أنه على صلة صداقة وقرابة بشعراوي جمعة وزير الداخلية. . ورتب لي موعداً معه. واستقبلني الرجل أحسن استقبال. وقال لي عندما أعود ستكون مشكلتي قد حلت. . وإعطاني إذن الخروج، وشكرته على رقيق معاملته.

وقال لي المستشار عبد الحميد يونس بعد ذلك، إنه قال لشعراوي جمعة. . لماذا يضطهد موسى صبري؟. . انه ليس من اعداء الثورة. . وهو قد نشر رأياً. . وليس له أي نشاط سياسي معاد.

وإقتنع شعراوي جمعة. .

وبدأت الرحلة. . التي سجلتها بعد ذلك في مؤلف من جزئين بعنوان «شيوعيون في كل مكان». .

* * *

ولفت نظري في بولندا، أن مرافقي الرسمي وهو صحفي قديم، كان من أشد الناقدين لنظام الحكم في بولندا. . كما قدمني الى صحفية في وكالة الأنباء الرسمية، تعرضت للتعذيب من الحكم السوفيتي، وكانت ناقمة على كل

شيء. . ورأيت أن الناس في وارسو لا يخافون، إنهم يتكلمون كثيراً، ولا يخشون إرهاب الحكم. .

كما أثار دهشتي وجود عدد كبير من «المومسات» في بهو الفنادق الكبيرة الثلاثة في وارسو. . وهن يعرضن أنفسهن مقابل الدولار. . وقيل لي أنهن عملاء للمخابرات أيضا للحصول على معلومات. .

* * *

وفي ألمانيا الديمقراطية، رافقتني صحافية عجوز. . كانت سعيدة بمهمتها. لأنها تتناول طعامها، وتقيم في أفخر الفنادق على حساب الدعوة. . وكانت تجيد الانجليزية. . ودعتني الى منزلها المكون من غرفة واحدة تعيش فيها مع أمها. . وكانت متعطشة للحب! . . وفي برلين الشرقية قابلت عدداً من المصريين الذين اختاروا الإقامة الدائمة والعمل في ألمانيا الشرقية، وكلهم بطبيعة الحال من الماركسيين. وأشهرهم هو الدكتور هيكل، الذي كان على علاقة بالفنانة برلنتي عبد الحميد قبل أن يترك مصر.

* * *

وفي موسكو رافقني شاب من المؤمنين بالنظام. ولاحظت أن الروس معتزون ببلادهم، فخورون بتاريخهم وبكفاحهم الأسطوري ضد الغزو الألماني. . كما لمست أن هناك طبقية. . ففي وكالة نوفستي تناولت طعام الغداء، في غرفة خاصة بالمديرين، وكانت الخدمة راقية. . وفي المصانع رأيت العمال يأكلون طعاماً دون المتوسط، كما أن مظاهر حياتهم رقيقة. . وكان كل من قابلت من رجال الصحافة ثائراً ضد كاتبنا محمد التابعي بسبب مقال عنيف كتبه ضد الاتحاد السوفيتي بعد الهزيمة، وحمل الاتحاد السوفيتي أوزار هذه الهزيمة. .

* * *

وفي الهند أحسست كأنني في مصر. . القرى الهندية مثل القرى المصرية. ورغم الحكم الاشتراكي الديمقراطي، فهناك الفوارق بين الطبقات. . ولمست الصراع الحزبي العنيف. . واتضح لي أن انديرا غاندي شخصية قوية مسيطرة، وقد استطاعت أن تأكل «ثعابين» حزب المؤتمر، كما كانت تلقبهم. . وكانوا

يصفونها بأنها أشد بأساً من والدها جواهر لال نهرو الذي لمست بصماته في كل تقدم في الهند.. وخاصة مدينة الذرة التي لا يعمل بها إلا علماء شبان من الهند..

* * *

وفي اليابان رأيت النظام الرأسمالي في أروع صوره.. وقيل لي هناك أن خروتشوف تزعجه تجربة اليابان، والنجاح الخطير الذي حققته.. وان خبراء الاتحاد السوفيتي يدرسون بدقة هذه التجربة للتعرف على أسرار نجاحها. والأحزاب هناك تتبادل الاتهامات الفظيعة بالفساد.. وحركات الشباب عنيفة. وقد شاهدت على شاشة التليفزيون يوم وصولي معركة داخل الجامعة بين الطلبة وقوات الأمن.. استمرت ساعات طويلة، ووقع فيها الضحايا من المصابين من الجانبين.. وعرفت أن هذا الشعب المهذب في تعامله، المشهور بابتسامة التواضع وانحناءة السلام، يخفى عنفاً وشراسة لا حدود لهما. ولكن شخصية الياباني، هي شخصية الانسان المؤمن بالواجب الى درجة الانتحار اذا شعر أنه قصر في إداء واجبه. ولم تعد الزوجة اليابانية هي الخادمة المطيعة التي تعامل رجلها كأنه آلهة. لقد تأمركت.. والجيل الجديد من اليابانيات، هو جيل القرن العشرين المتطور. وزرت مصنعاً للسيارات، وهالني أن فترة الراحة للغداء هي ٧ دقائق فقط! بعدها تدور الآلات. وسألت: ولماذا. لا تكون عشر دقائق؟.. وكانت الإجابة إحصائية دقيقة عن الخسارة التي تلحق بالمصنع، لو تبددت ثلاث دقائق بلا عمل!.. وقد أقمت في أرخص فندق بطوكيو، أوصاني به صديق صحفي ياباني في القاهرة.. وراعني أن مساحة الحجرة لا تتجاوز ١٥٠ سنتيمتر طولاً، و١٠٠ سنتيمتر عرضاً.. ولكن بها سرير، ودولاب، وتليفزيون، ومقعد للراحة!..

* * *

المهم.. أنني في آخر يوم لإقامتي في طوكيو، تلقيت رسالة من زوجتي تقول: «هناك أخبار في الوسط الصحفي، بأن مشكلتك في طريق الحل. وقد اتصل بي أكثر من صديق ومنهم كمال الملاخ وقالوا لي: مبروك. كما أن مكتب علي صبري إتصل بك أكثر من مرة وهم يطلبون عودتك في أسرع وقت»!.

وكان علي أن أستقل طائرة مباشرة من طوكيو الى القاهرة، وقلبي عامر بالأمل!

واتصلت صباح ليلة وصولي، بحسني الحديدي، مدير مكتب علي صبري. . وأدهشني أنه رحب بمبالغة عاطفية. . وحدد لي موعداً للقاء علي صبري ظهر اليوم التالي!

ولم أستطع أن استنتج ماذا سيقوله لي علي صبري. .

ولذلك اتصلت بأنور السادات. . وطلبت أن ألقاه قبل لمائي بعلي صبري بساعة. . وكان مكتبه في مبنى الاتحاد الاشتراكي مجاوراً لمكتب علي صبري. .

وقال لي أنور السادات، في حضور محمد عبد السلام الزيات. .

ـ في غيابك. . أسند لي الرئيس مهمة الإشراف على صحف أخبار اليوم. . وأسند الى علي صبري الإشراف على دار التحرير «الجمهورية» ودار روز اليوسف. . أما الأهرام فهو من اختصاص الرئيس. وأعتقد أن علي صبري سيعرض عليك أن تكون مسئولاً عن تحرير «الجمهورية». .

وقلت له: إنني سأعتذر. . وإذا كانت مشكلتي قد حلت، فإن الوضع الطبيعي هو عودتي الى «الأخبار». . .

وطلب مني أنور السادات، أن أتخلى عن هذا العناد الصعيدي. . وإلا أعقد الأمور. . وبعد عودتي للعمل للجمهورية، سيسعى هو من جانبه لدى عبد الناصر لعودتي الى أخبار اليوم. .

ثم قال: هناك حساسية شديدة بيني وبين علي صبري. . وأنا لا أريد أن أتدخل الآن. .

وكان ذلك صدمة لي. . فليس من آمالي أن أعمل في «الجمهورية» على الإطلاق.

ودخلت الى مكتب علي صبري. .

وترك مكتبه، ورحب بي بحرارة، ودعاني الى الجلوس الى جواره في المقعد الكبير، وطلب لي فنجاناً من الشاي. .

وقال لي: أنت الآن مسئول عن تحرير «الجمهورية». . وعندك «كارت بلانش». . أن تفعل ما تشاء. تعين من تريد. وتستغني عن خدمات من تريد. المهم أن تنجح الجمهورية.

وشكرته على مشاعره، ولكنني قلت له أنني أريد العودة الى «الأخبار». .

ثم سألني: ولماذا لا تريد العمل في «الجمهورية»؟

قلت: أنا لست مسيحاً، لكي أحقق معجزات. ان «الجمهورية» جثة هامدة، ومن المستحيل أن تعود اليها الحياة. . انهم لا يملكون حتى سيارات كافية لتوزيع الصحيفة. .

قال: سأذلل لك كل الصعاب. . وأنت لك مطلق التصرف. .

وسألت: وما هو وضع فتحي غانم؟. .

قال: اعتبر أنه غير موجود. .

وقد آلمتني هذه الإجابة. ان فتحي غانم مدرج في قائمة أصدقاء علي صبري. . فكيف يضحي به هكذا؟. . وقد أحسن فتحي غانم استقبالي، فكيف أقبل ما يعني إلغاء وجوده؟. .

ودار حوار طويل بيني وبين علي صبري، استغرق قرابة الساعة. . وأصررت فيه على موقفي. ولما رأى الرجل إلحاحي على الرفض. . قال لي: معلهش فكر شوية. . وسنلتقي ثانية.

وتركت مكتبه، وعدت الى لقاء أنور السادات. .

وأبلغته أنني اعتذرت. وضاق بموقفي، وقال لي ألم أنصحك بالقبول، حتى لا تتعقد الأمور. .

ثم بادرني بالسؤال:

ـ هل تعرف سامي شرف؟. .

قلت له: لم أقابله في حياتي..

قال: أطلب لقاءه. وأشرح لـه أنك تـريد العـودة الى «الأخبار». وأنـك طلبت مني ذلك، ولكنني إعتذرت عن عدم التدخل..

ولكنني قلت للسـادات، أنني لن أفعـل هـذا.. وليس لـي سبيـل الى عبد الناصر. ألا هو..

وعدت الى «الجمهورية» ورويت لفتحي غانم كـل ما جـرى.. وقلت له أن إعتذاري نهائي ولا رجعة فيه.

وبعد يومين.. مر علي فتحي غانم في مكتبي ليقول:

ـ أنني مكلف بإبلاغك رسالة من علي صبري.. وهو أنـك سوف تعمـل في «الجمهورية» شئت أم أبيت.. وأنـك لن تعود الى «الأخبـار».. وهذا قـرار نهائي..

* * *

وضـاقت الدنيـا في صدري، طلبت مـوعداً من أنـور السادات في منـزله بـالهرم. سـألته: أرجـوك أن تجيبني بصراحة كـاملة، عن موقف عبـد النـاصر من عودتي الى العمل..

قـال لي: سأروي لـك كل شيء كـما حدث. عنـدما كلفني عبـد النـاصر بالإشراف على مؤسسة «أخبار اليوم» لاحظ أن علي صبري قابـل هذا التكليـف بشعـور بعدم الـرضا ظهـر على قسـمات وجهـه. ذلـك لأن عبـد النـاصر كلفـه بـالإشراف على الجمهوريـة ودار روز اليوسـف.. وهـى صحف فـاشلة، وأحـوالها المالية متردية.. وأراد عبـد الناصر أن يخفف من وقـع هذا عليـه، فقال لـه.. الجمهورية يمكن أن تنجح إذا أعطيت مسئوليتها لموسى صبري..

ولهذا عرض عليك علي صبري أن تكون مسئولاً عن الجمهورية.. ولكن عبد الناصر قال لي في اليوم التالي، أنا عارف أن موسى صـبري لن يعمل مـع علي صبري!

قلت: وإذا كان عبد الناصر يعلم أنني لن أعمل مع علي صبري.. فلماذا إذن لا أعود الى «الأخبار»..

قال لي السادات: قليل من الصبر يا موسى. أبدأ العمل في «الجمهورية».. وبعد شهرين أو ثلاثة يمكن أن تعود الى «الأخبار»..

* * *

وبدأت العمل فعلاً.. ولكن بنفسية منقبضة..

واستمر ذلك بضعة أشهر..

وذات ليلة، دق التليفون في منزلي في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. وكان المتحدث هو أنور السادات..

قال لي: تقدر تيجي لي دلوقت..

قلت: طبعاً.. في البيت؟.

قال: لا.. في «أخبار اليوم».

وإرتديت ملابسي على عجل.. وأسرعت الى الدور العاشر، حيث مكتب أنور السادات، وهو نفس مكتب مصطفى أمين..

فدخلت الى المكتب، فوجدت أنور السادات جالساً مطرقاً، وعلى وجهه دلالات حزن شديد. وأمامه كان الدكتور قاسم فرحات المدير العام للمؤسسة جالساً في نفس حالة الحزن.

سلم على أنور السادات، ونظراته تنبىء بحدث سيىء.. وقال لي: اقعد.. أردت أن أخبرك بنفسي، حتى لا تتعلق بأمل كاذب..

قلت: خيرا

قال: لقد بذلت كل ما في وسعي لكي تعود الى «الأخبار».. ولكن «جمال» رفض، وتمسك ببقائك في «الجمهورية».. وأرجو ألا تتألم. وكل إنسان يصادف عقبات في حياته.. وأنت واجهت عقبات عديدة.. وأدعو الله أن تتحسن الظروف في المستقبل القريب..

ونـزلت علي هـذه الكلمات كالصـاعقة. وقلت لـه وأنا أحـاول أن أخفي ألمي:

ـ عـلى كل.. أنـا لا أطلب من سيادتـك أكثر ممـا فعلت. ويكفيني هـذا الشعـور الـطيب. ونهضت لكي أنصرف، ولكنـه طلب مني أن أبقى، حـتى يدخل الى دورة المياه الملحقة بالمكتب. وتركني مع قاسم فـرحات الـذي لم ينطق بحرف واحد.

ثم خرج من دورة المياه.. ونـظر لي.. وابتسم. ثم تحولت ابتسـامته إلى ضحكة كبيرة.. وفاجأني بقنبلة مدوية..

قـال لي، وهو يمـدّ ذراعيـه لكي يحتضنني.. «مـبروك. لقـد عـدت إلى بيتك»!

وعلت ضحكته. وكذلك قاسم فرحات..

وحـل على الجلسة فرح عظيم!

وقال لي: التوزيع منهار. لقـد نزل إلى ١٦٠ ألف نسخـة. كل مـا أرجوه منك أن يزيد التوزيع إلى ٢٠٠ ألف نسخة خلال ثلاثة أو أربعة أشهر..

قلت: سأبذل المستحيل.

قـال: وتتسلم عملك من الآن!.. عليـك أن تشرف فوراً عـلى الطبعـة الثانية من «الأخبار»!

وبدأت عملي على الفور!!

* * *

ولكن ماذا جرى لكي يتم هذا التحوّل فجأة؟..

رأى عبد الناصر، أن تجـربة إسنـاد رياسـة مجلس الادارة ورياسـة تحريـر «الأخبار» إلى محمود أمين العالم قد فشلت.

لقـد تحولت صحف أخبـار اليوم، إلى صحف مـاركسية، وأسنـد محمـود أمين العالـم المناصب الرئيسية إلى ماركسيين. وبدأ التوزيع يهبط. ولذلك تقـرر إخراج محمود أمين العالم.

ولم يصارح السادات أحداً، بهذا السبب.. ولكنه طلب من الدكتور قاسم فرحات - وكان لا يطيق العمل مع الشيوعيين - أن يكتب مذكرة بأن الأحوال المالية للمؤسسة تتدهور بسبب سوء الادارة.

وتقرر أن يكون هذا هو السبب المعلن، لإخراج محمود أمين العالم!

وكان طبيعياً بعد ذلك أن أعود إلى رياسة تحرير «الأخبار».. كان مصطفى أمين حينئذ في السجن. وكان احسان عبد القدوس يتولى رياسة تحرير «أخبار اليوم».. وقد أعاده أنور السادات إلى العمل، وكان موقوفاً في بيته.. وزاره السادات في البيت، واصطحبه معه إلى «أخبار اليوم»..

* * *

وفي اليوم التالي عقدت اجتماعاً لقيادات التحرير.. واتصل بي أنور السادات تليفونياً خلال الاجتماع، وطمأنته أن كل شيء يجري على خير ما يرام.

واستغرقني العمل بطاقة هائلة..

ولكن بدأت المتاعب مع محمد حسنين هيكل. كان قد عين وزيراً للاعلام، فوق عمله في الأهرام. ووزير الاعلام هو الرقيب الأول على الصحف.

وشكا من أنني لا ألتزم بتعليمات الرقابة. وكان قد ظهر وباء الكوليرا، في مصر.. ونشرنا خبراً في برواز في الصفحة الأولى.. ووجدت منير حافظ وكيل وزارة الاعلام، يتحدث إليّ قائلاً أن «الأستاذ» هيكل ينبه إلى ضرورة تنفيذ تعليمات الرقابة..

وأجبته أنه لا علاقة لهيكل بالأخبار..

وكرّر أنه يحدثني بتكليف من «الأستاذ» هيكل..

وأجبته.. هيكل (بغير استاذ) لا علاقة له بالأخبار..

وفي اليوم التالي سألني أنور السادات.. ماذا حدث. ورويت له هذا الحوار، وقلت له.. هيكل يحل عنا.. كفاية..

وأجاب بهدوء: طيب أنا حأشوف الحكاية . .

وفي المساء، اتصل بي السادات وقال لي: هيكل وزير الاعلام ويجب أن تنفذ تعليماته الرقابية .

وعلقت: مش معقول هيكل يفصل ورايا . .

وقاطعني، وهو يضغط على كلماته:

ـ هيكل وزير الاعلام . . وأنا أنور السادات اللي بقولك الكلام ده . . وبلاش تعمل مشاكل يا موسى .

وأجبت في ألم: حاضر . .

وفي الأسبوع التالي، بعد عودتي رئيساً لتحرير «الأخبار» . . ارتفع التوزيع إلى ٤٠٠ ألف نسخة!

وكان أنور السادات في غاية الدهشة . كان كل أمله أن يرتفع التوزيع من ١٦٠ ألفاً إلى ٢٠٠ ألف في أربعة أشهر . . فكيف حدث هذا؟ . .

وتفسير ما حدث، أنه بعد أن أعلن ترك محمود أمين العالم لمؤسسة «أخبار اليوم»، وعودة احسان عبد القدوس، وعودتي . . عاد قارىء صحف «أخبار اليوم» الطبيعي إليها . . وهذا القارىء كان قد امتنع عن شرائها، بعد أن تحولت إلى صحيفة ماركسية . .

وبدأنا نحقق انتصارات صحيفة ضخمة . .

وكان عبد الناصر، قد أعطى سلطات جديدة لأنور السادات نائب رئيس الجمهورية . وقام السادات بجولة في كل محافظات مصر، وعقد ندوات شعبية ناجحة، كان هو خطيبها .

واقترح على عبد الناصر، أن يعقد هو (أي السادات) ندوة أسبوعية في أكبر قاعات الاتحاد الاشتراكي في المساء . تكون الدعوة إليها مفتوحة، ويجري فيها الحوار حراً مع الحاضرين في كل مشكلات الساعة . . واجتذبت الندوة عدداً كبيراً من الحضور . وكان من بينهم فنانون وأدباء .

وكنت أحضر هذه الندوة، وأسجل ما يدور فيها، كـأنها جلسة بـرلمان. . وكان السادات في ذلك الوقت على أطيب العلاقات مع عبد الناصر.

ثم مرض أنور السادات. وعلمنا أن نوبة قلبية فاجأته. فـاعتكف في بيته في قرية ميت أبو الكوم. . وراجت إشاعات أنه مرض سياسي. وأن عبد الناصر غاضب عليه. .

وحـل الصيف. . ومرّ عـلى فوزي عبـد الحافظ السكـرتير الخـاص لأنـور السادات في كابينتي بالمعمورة. . وقال لي أن السادات يريد أن يراني، وكان قـد وصـل إلى الاسكنـدريـة. وذهبت للقـائـه. وقـال أنـه أصبـح صحيحـاً معـافى بحمـد الله وأن عبـد النـاصر زاره. . وطلب مني أن أكتب خـبراً مختصراً، يقتصر عـلى أنه شفي من مـرضه، وسـوف يباشر عمله، واشـترط أن يكتب الخبر عـلى عـمود واحد. ولكنني وجدت أنه خبر هـام، يحمل معنى سيـاسيـاً. نشرت الخـبر عـلى عمودين في الصفحـة الأولى، مع صـورة للسادات. وأرسـل لي مـع فـوزي عبد الحافظ يقول أنني خالفت الاتفاق. وكان يجب نشر الخبر على عـمود واحد.

وفهمت أن أنـور السـادات كـان يتحـاشى أن ينسب إليـه، أنـه يستغـل وضعه في مؤسسة أخبار اليوم، لينشر عن نفسه أخباراً. . !. .

وجـرت الأمور صـافية عـلى هذا النحـو. . إلى أن وقـع الحـادث الجلل. موت عبد الناصر!

الفصل الحادي والعشرون

أزمة المارشال زوكوف.. مع «الأهرام»

التعاقد مع مكتب الأعلام السوفيتي على الانفراد بنشر مذكرات المارشال زوكوف ـ حملة دعاية واسعة للمذكرات ـ «الأهرام» تفاجئنا بنشر المذكرات رغم تعاقدنا ـ اتصال مع علي صبري ـ هجوم على الاهرام ـ عبد الناصر يوافق على أن نقاضي الأهرام ـ مذكرة قانونية عنيفة أمام القضاء ـ رد من «الجمهورية» على «الأهرام» ـ هيكل لا يستطيع الاتصال بعبد الناصر ـ مقال من الاهرام عن حقوق النشر ـ مقال ثان من الأهرام عن كيفية حصولهم على المذكرات ـ رد آخر من «الجمهورية» صور زنكفرافية لحملة صحفية شنها الحمامصي على «الأخبار» ـ مقال أزمة التقاليد الصحفية ـ تصحيح وقائع كاذبة نشرها «الأهرام» ـ لعبة الأختام ـ سخرية من «الأهرام» في تقاليده الصحفية ـ سابقة في التاريخ القريب للصحافة المصرية ـ حادث السطو ـ تحكيم نقابة الصحفيين ـ ثلاث جلسات في مجلس النقابة بلا قرار ـ بيان مهدىء من النقابة ـ الأهرام تتراجع وتوقف نشر مذكرات زوكوف.

الفصل الحادي والعشرون

أزمة المارشال زوكوف.. مع «الأهرام»

الزمان.. مايو ١٩٦٩..

بدأت أعمل على الرغم مني، رئيساً تنفيذياً لتحرير «الجمهورية» دون أن يوضع اسمي على صدر الجريدة، بعد أن رفض علي صبري رغبتي في أن أعود إلى أخبار اليوم، وبعد أن أبلغني فتحي غانم على لسانه، أن هذا قرار واجب التنفيذ غير قابل للمناقشة!.. وبعد أن كنت قد يئست من نجاح مساعي أنور السادات نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت، في إعادتي إلى أخبار اليوم، بإقناع جمال عبد الناصر، كما وعدني بذلك..

ولاحت أمامي فرصة لنصر صحفي كبير..

كان عبد الله نوار (شقيق ابراهيم نوار رئيس التحرير التنفيذي الآخر) ـ وكانت بيني وبينه مودة ـ على علاقة طيبة، بمكتب الاعلام السوفيتي في مصر، وبممثل وكالة نوفستي للأنباء (السوفيتية) في القاهرة.. وكان يشرف على مطبوعاتهم التي تصدر باللغة العربية.. كما كان يكتب لهم كتباً ونشرات دعائية..

جاءني ذات يوم ليقول:

ـ أنني أتحدث الآن مع رئيس مكتب الأعلام السوفيتي، على أن تحصل «الجمهورية» على حق نشر مذكرات أكبر قواد الجيش السوفيتي في الحرب العالمية، المارشال زوكوف..

ـ وكيف؟..

ـ ستصدر هذه المذكرات فى كتاب باللغة الروسية . . وسيقدمون لنا هذا الكتاب، بمجرد طبعه في الاتحاد السوفيتي ، وقبل عرضه في الأسواق . .

ـ ومن يترجم لنا من اللغة الروسية إلى المصرية . .

قال عبد الله نوار. أن هناك أكثر من مصري يعملون في مكتب الأعلام ، ويجيدون هذه الترجمة ، وخشيت أن يوزع السوفيت هذا الكتاب على الصحف المصرية ، فمن صالحهم أن تنشر هذه المذكرات عن دورهم في الحرب العالمية الثانية في استسلام ألمانيا . . في كل الصحف . . وقد قدرت خطورة وأهمية هذه المذكرات ، لأنها سابقة جديدة في النظام السوفيتي ، أن يكتب قائد عسكري أو سياسي كبير ، مذكراته . . كما أن المارشال زوكوف بالذات ، قد حظي بتقدير عالمي كبير . . وقد أطلق عليه لقب «قاهر هتلر» . .

فطلبت من عبد الله نوار ، أن يرتب لي اجتماعاً مع رئيس مكتب الاعلام ، وقد كنت أعرفه . . كما أنني أنشأت رابطة صداقة مع مدير وكالة نوفوستي عندما زرت الاتحاد السوفيتي . . وكان هدفي من اللقاء ، أن نتعاقد مع الوكالة على الانفراد بالنشر ، مقابل مبلغ كبير . . وتم اللقاء فعلاً . . وبعد محاورات عديدة ، تقرر كتابة العقد ، مقابل ٨٠٠ ثمانية مائة جنيه تدفع عند التعاقد ، كما شمل التعاقد نصاً ، على إصدار هذه المذكرات بعد نشرها في الجمهورية في مؤلف . . وتكون أرباح المؤلف ، مناصفة بين دار التحرير التي تتبعها «الجمهورية» . . ووكالة نوفوستي . .

ووقع العقد عن دار التحرير عبد الحميد حمروش المدير العام لدار التحرير . .

* * *

وكان يوم فرح كبير في «الجمهورية» يوم أن وقعنا العقد . . وخاصة عندما علمنا أن «الأهرام» كان يريد شراء هذه المذكرات ، وفشل في ذلك . . وجاء التعاقد معنا ، قاضياً على كل محاولاته للحصول على هذه المذكرات الخطيرة . .

وعقدنا اجتماعاً في الجمهورية ، حضره فتحي غانم رئيس مجلس الإدارة ، وحمروش ، وابراهيم نوار ، وأنا ، وعبد الله نوار . . للإتفاق على أسلوب النشر . .

وتقـرر أن يسبق النشر حملة دعايـة واسعة لهـذه المذكـرات في التليفـزيـون ودور السينما وفي المجلات. .

واتفق عـلى أن أتولى كتـابة هـذه الحملة الدعـائية. . وتعـاقدنـا مـع روز اليوسف وصباح الخير والمصور وحواء والكواكب. . على نشر الإعلانـات. . كما تم التعاقد مع التليفزيون، وعدد من أكـبر دور السينما في القـاهرة والإسكنـدرية وعواصم المحافظات. .

وكانت كلمات الإعلانات عن المذكرات كما يلي:

مذكرات المارشال زوكوف. .
قاهر هتلر. . فاتح برلين. . محرر أوربا الشرقية
لأول مرة. . أخطر مذكرات عسكرية وسياسية
في التاريخ المعاصر، تروى أسرار قيادة الكرملين
في الحرب العالمية الثانية كما كتبها المارشال
زوكوف قائد القوات السوفيتية. .
لأول مرة. . يذاع على العالم دور ستالين في الحرب.
لأول مرة. . ينشر القائد السوفيتي أسرار العلاقات العسكرية بـين الإتحاد السوفيتي وأمريكا وبريطانيا خلال الحرب.
لأول مرة ١٦٠ صورة جديدة عن الحرب العالمية مع المذكرات

وكنـا نختم كل إعـلان بجملة «حقوق النشر في الشرق الأوسط لجـريـدة الجمهورية». . وكنا قد شرعنا فعلاً في الإتفاق مع عـدد من الصحف العربيـة، على نشر هذه المذكرات في نفس أيام نشرها في «الجمهورية». .

وكنـا قد وقعنـا العقد عـلى الإنفراد بـالنشر مساء يـوم الثـلاثـاء ٦ مـايـو ١٩٦٩. .

وأذعنـا صباح الأربعـاء ٧ مايـو أن «الجمهـوريـة» ستبـدأ نشر مـذكـرات الجنرال زوكوف يومياً ابتداء من الخميس ١٥ مايو.

ونشرنا صورة زنكغرافية للعقد مع وكالة نوفوستي.

* * *

وفوجئنا صباح الأحد ١١ مايو، بـأن صحيفة «الأهـرام» بدأت نشر هـذه المذكرات!!

وقـدمت للنشر، ببرواز كبـير في الصفحة الأولى تحت عنـوان «مـذكـرات المارشال زوكوف». . وكتبت في هذا البرواز ما يلي:

«كـانت مذكـرات المارشـال زوكوف، أبـرز القادة السـوفييت في الحـرب العـالمية الأخـيرة ـ وأبرزهم تـأثـيراً في السيـاسـة السـوفييتيـة حتى سنـوات قليلة مضت ـ من أهم الكتب التي ظهرت في الإتحاد السـوفييتي في الفترة الأخـيرة، لما احتوته من حقائق وأسرار وتجارب إنسانية عميقة.

ومنذ شهر عهد «الأهرام» إلى مجموعة من المـترجمين المتخصصـين في اللغة الـروسيـة، بـترجمـة مـذكـرات زوكـوف التي صـدرت تحت عنـوان «ذكـريـات وتـأملات». وينشر «الأهـرام»، ابتداء من اليـوم، عـرضـاً وافيـاً لكـل فصـول الكتـاب على أن تكـون الترجمـة كاملة وحـرفية بـالنسبـة للفصـول ذات الأهميـة الخاصة.

ومما يذكـر أن هناك تـرتيبات بـاللغة الإنجليـزية، لأن هنـاك مجموعـة من القراء، يعرفون زوكوف في الحـرب العالميـة الثانيـة، إلى جانب صـداقته الـودية بعدد من كبار القواد الأمريكيين والبريطانيين في تلك الحرب، وأبرزهم الجنـرال إيزنهاور والمارشال مونتجمري.

وعلى الصفحتين السادسة والسابعة يبدأ اليوم نشر الجـزء الأول من كتاب الماريشال زوكوف «ذكريات وتأملات». .

وقع علينا هذا النشر كالصاعقة!

لأنـه أولاً عدوان يحمـل معنى الإستعلاء والغـطرسة، بعـد إعلاننـا بكـل وسائل الإعلان عن أننا سننشر هذه المذكرات

لأنه تعمد أن يسبق في النشر، وكنا قد أعلنا أننا سنبدأ النشر يوم الخميس ١٥ مايو. . والأهم من هذا كله، أنه سطو على حقنـا في الإنفراد بـالنشر، طبقاً لتعاقد نشرنا صورته الزنكغرافية. .

ثم سبب شخص أثار أعصابي..

منذ أن تمَّ التعاقد، أفرغت كل وقتي ليل نهار، لإعداد هذه المذكرات.. وهذه هي طبيعتي عند التحمس لأي عمل.. أن أعطيه كل أعصابي وفكري.. مما يتعذر معه أن أنام!.. كنت أراجع كل كلمة، وأختار العناوين، وأرسم الصفحات المعدة للنشر.. مع إشرافي على الحملة الإعلانية.. وكنت على ثقة أن نشر هذه المذكرات، سيفيد «الجمهورية» معنوياً من الناحية الأدبية.. ثم في زيادة التوزيع..

وكل من في الجمهورية كان متحمِّساً لهذا العمل..

وفكَّرت أول ما فكَّرت، في كتابة مقال ملتهب، أهاجم فيه محمد حسنين هيكل، بكل العنف والقسوة، وأنا مشحون بطاقة غضب عظيم!

وشرعت فعلاً في كتابة المقال.. ولكن فتحي غانم رئيس مجلس الادارة والمسئول السياسي الأول عن النشر.. اقترح عليَّ أن أتمهَّل..

* * *

وأجرى فتحي غانم اتصالاً مع علي صبري، يشكو هذا العدوان من «الأهرام».. وكان علي صبري، على أسوأ العلاقات مع هيكل.. وعاد لي فتحي غانم، موافقاً على أن أكتب نقداً موضوعياً لهذا الموقف غير القانوني من «الأهرام»..

ثم اتخذنا قراراً آخر أن نبدأ نشر المذكرات في اليوم التالي مباشرة.. أي صباح ١٢ مايو!..

واقتضى مني ذلك أن أعمل ٢٤ ساعة متصلة.

كان عليَّ أن أكتب الرد على «الأهرام»..

وكان عليَّ أن أعدّ للنشر فوراً، جزءاً كبيراً من المذكرات، يتجاوز ما نشره «الأهرام»، بكثير، بحيث إذا استمر في النشر، فإنه يكون معيداً لما تنشره «الجمهورية» قبله!..

وكتب الرد بعنوان: «سابقة خطيرة في تقاليد الصحافة «الجمهورية» صاحبة الحق القانوني في الانفراد بنشر مذكرات زوكوف». . في أربعة أسطر، على ثلاثة أعمدة في الصفحة الأولى من «الجمهورية»، وكان أيضاً مقدمة وإشارة، لما نشر في الصفحات الداخلية من المذكرات.

وبعد أن انتهيت من كتابة الرد عند الظهر. . جاء فتحي غانم إلى مكتبي ليقول لي:

ـ لقد التجأنا إلى القضاء. إن القانون يعطينا الحق في مصادرة جريدة الأهرام إذا استمرّت في النشر!

ودهشت من هذا الموقف الجديد!

«الجمهورية» تقاضي «الأهرام» وتطلب مصادرته!

وفهمت أن الرئيس جمال عبد الناصر وافق على هذا الإجراء!

ـ كيف؟ . .

لقد عرض علي صبري عليه حقائق الموقف. . ولم يكن جمال عبد الناصر حينئذ في حالة رضاء كامل عن محمد حسنين هيكل، لأسباب أخرى، وقد سأل علي صبري:

ـ هل يقف القانون في صف «الجمهورية»؟ . . وأجابه علي صبري بنعم. فقال له عبد الناصر. . خلاص. . خذوا حقكم بالقانون.

وعلى الفور. . أعدّ أحمد وجيه قابل المستشار القانوني لمؤسسة دار التحرير، طلباً قانونياً تقدَّم به في اليوم نفسه (١١ مايو) إلى رئيس محكمة مصر الابتدائية. .

وقال في مذكرته: «إن المؤسسة ـ بعد نشر الأهرام ـ بادرت إلى الاتصال بوكالة نوفوستي للأنباء والنشر، فأكدت لها في خطابها المرفق التزامها بنصوص العقد التي تخوّل لدار التحرير وحدها، ودون غيرها، حق النشر والترجمة في الجمهورية العربية المتحدة، وفي منطقة الشرق الأوسط كلها.

«وكنا قد اتصلنا بوكالة نوفوستي، خشية أن يكونوا قد سمحوا للأهرام

بالنشر، رغم تعاقدهم معنا، فنفوا ذلك، وأرسلوا خطاباً يؤكِّد التزامهم معنا وحدنا». .

واستند الطلب المقدم إلى المحكمة، إلى المادة ٤٣ من القانون رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤، الذي يعطي رئيس المحكمة، الحق في توقيع الحجز على كتاب زوكوف ونسخه. وكذلك توقيع الحجز على المواد التي تستخدم في إعادة النشر، وحصر الإيراد الناتج من النشر بمعرفة خبير، وتوقيع الحجز على هذا الإيراد في جميع الأحوال.

وهكذا طلبنا صدور أمر بوقف النشر، وتوقيع الحجز على المصنف الأصلي ونسخه في الأهرام، وتوقيع الحجز على البروفات ومسودات الترجمة والحروف المجموعة والكليشيهات والصور، وكل ما يكون معداً من المواد للنشر.

ونص الطلب القضائي، على أن الجمهورية سوف تعرض دعواها على قضاء الموضوع خلال الخمسة عشر يوماً التي حدَّدها القانون.

وتكهرب الجو الصحفي. . وخاصة بعد نشر ردنا على الأهرام!

وتكهرب الجو السياسي أيضاً. . وانتشرت التفسيرات، والتكهنات، والإشاعات. . عمَّا وراء هذا الهجوم الصحفي، والقضائي، على محمد حسنين هيكل!

* * *

وكان ردنا على الأهرام عنيفاً، على الرغم من أن فتحي غانم خفَّف بعض كلماته، وحذف البعض الأخر. . وكانت سطوراً قليلة. .

ماذا قلنا في الرد؟. .

في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء ٦ مايو تم توقيع عقد بين جريدة الجمهورية وبين مؤسسة نوفوستي للطبع في موسكو، ويعطي هذا العقد لجريدة الجمهورية جميع حقوق نشر مذكرات المارشال زوكوف باللغة العربية ليس في مصر وحدها، ولكن في منطقة الشرق الأوسط.

* * *

وفي صباح الأربعاء ٧ مايو أذاعت «الجمهورية» أنها ستبدأ بنشر مذكرات المارشال زوكوف يومياً ابتداء من الخميس ١٥ مايو. ولم نكتف بمجرد ذكر أننا تعاقدنا على حقوق النشر مع مؤسسة نوفوستي السوفياتية، ناشرة هذه المذكرات في الاتحاد السوفياتي، وصاحبة كل الحقوق عليها. . ولكننا نشرنا أيضاً صورة زنكوغرافية للعقد الذي وقعه بالنيابة عن مؤسسة نوفوستي الدكتور نيقولاي كوستاريف مدير مكتبها في الجمهورية العربية المتحدة، وعن جريدة الجمهورية الأستاذ عبد الحميد حمروش مدير عام مؤسسة دار التحرير التي تصدر عنها الجمهورية.

وينص العقد على:

١ ـ حق جريدة الجمهورية في نشر المذكرات باللغة العربية، وحقها في إصدارها في كتاب في الجمهورية العربية المتحدة وفي دول الشرق الأوسط.

٢ ـ تدفع جريدة الجمهورية إلى مؤسسة نوفوستي مبلغ ٨٠٠ جنيه ثمانمائة جنيه ثمن حق النشر.

٣ ـ عند طبع الكتاب باللغة العربية يكون لمؤسسة نوفوستي الحق في ٥٠ في المائة من أرباح الكتاب.

٤ ـ لجريدة الجمهورية الحق في بدء نشر الدعاية عن المذكرات بمجرد توقيع العقد.

نشرنا صورة العقد

وتم توقيع العقد في الساعة الخامسة من مساء يوم الثلاثاء ٦ مايو ونشرنا صورته في اليوم التالي، ووعدنا القرَّاء ببدء نشر المذكرات في العدد الأسبوعي من الجمهورية الذي يصدر يوم الخميس المقبل ١٥ مايو.

كما نشرنا في اليوم نفسه ترجمة للفصل الأول الذي كتبه المارشال زوكوف وقدَّم به مذكراته.

وبدأنا في اليوم نفسه حملة دعاية عن هذه المذكرات تقديراً لأهميتها التاريخية على شاشة التلفزيون، وفي جميع دور السينما، وفي صحف المصور وحواء والكواكب وروز اليوسف وصباح الخير، وتعاقدنا على هذه الحملة مع

مؤسسة التليفزيون، ومؤسسة دار الهلال، ومؤسسة روز اليوسف، ودور السينما.

وبدأنا الإعلان عن نشر هذه المذكرات في «الجمهورية» وفي دور السينما وعلى شاشة التليفزيون يومياً منذ الخميس الماضي ٨ مايو.

وتم التعاقد مع الدعاية عنها في الصحف، على أن تكون في عددي الكواكب الصادرين يومي الثلاثاء ١٣، ٢٠ مايو. وفي عددي المصور يومي الخميس ١٥ و٢٢ مايو، في عددي روز اليوسف ١٢ و١٩ مايو وفي عددي صباح الخير يومي ١٥ و٢٢ مايو.

مفاجآت.. من جريدة «الأهرام»

وفوجئت أسرة تحرير «الجمهورية»، بأن جريدة الأهرام نشرت أمس بعض فصول من هذه المذكرات، وقدمت لها بإعلان بارز في صفحتها الأولى!!

الحقوق القانونية

المفاجأة الأولى: إن جريدة الأهرام - لأول مرة في تاريخها - لم تشر من قريب أو بعيد إلى أنها حصلت على حقوق نشر هذه المذكرات.. رغم حرصها الدائم فيما سبق أن نشرته من مذكرات عن مصرع كنيدي وغيرها، أن تسجل بأبرز الحروف في صفحتها الأولى أنها تنشرها بعد الحصول على حق النشر. وأنها تنفرد بالنشر أعمالاً لحقها القانوني.

بل إن جريدة «الأهرام» تحرص أيضاً، على تسجيل حقها القانوني في النشر، في كل ما ترى أنه حق قانوني لها. وأقرب الأمثلة على ذلك ما سجلته في صفحتها الأولى يوم الإثنين ٣ مارس الماضي عن أن هناك اتفاقاً بين جريدة «الأهرام» وبين «النيويورك تايمز» الأمريكية، وهو اتفاق - وهذا نص كلمات الأهرام - .. يعطى للأهرام وحدها حق النشر باللغة العربية لكل مواد - نيويورك تايمز - ولذلك فإن الأهرام حصل على النص الكامل لحديث أدلى به الرئيس جمال عبد الناصر إلى هذه الصحيفة. وكان للأهرام - وهذا حقه الصحفي والقانوني - أن ينفرد بنشر هذا الحديث، ولكنه لفائدة القارىء العربي

عموماً في هذه الظروف، بعث بنسخة من نص الحديث إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط كي تضعه في نشرتها وليكون متاحاً لبقية الصحف العربية. .

هذا هو مدى حرص جريدة «الأهرام» على احترام حقوقها القانونية. .

ومثل آخر. . ننقل فيه أيضاً نص كلمات جريدة «الأهرام» في صفحتها الأولى بعد يوم الجمعة ٩ مايو ـ أي منذ ثلاثة أيام فقط ـ. .

قالت جريدة الأهرام، أنها ستنشر تحقيقات أعدها الدكتور ثور هايردال عن رحلة قارب البردي «رع» الذي سيعبر الاطلنطي إلى المكسيك. ثم قالت ما نصه: «وينشر الأهرام اليوم على صفحته السادسة أول تحقيق أعده الدكتور هايردال من سلسلة تحقيقاته عن هذا الموضوع، وقد اشترى الأهرام حق نشر كافة تحقيقاته باللغة العربية». .

التقاليد الصحفية

المفاجأة الثانية: أن جريدة الأهرام، فوق تجاهلها الحقوق القانونية «للجمهورية» التي تترتب على نشرها ما ليس حقاً لها، فأنها تجاهلت أولاً وقبل كل شيء، التقاليد الصحفية التي لا عذر لجريدة كبرى إذا لم تحترمها. ويؤسفنا أن هذه التقاليد محترمة في دول العالم كله شرقاً وغرباً احتراماً كاملاً، إلى مستوى الصحف الصغيرة.

أول ترجمة

المفاجأة الثالثة: أن جريدة الأهرام قالت في صفحتها الأولى أمس، وهي تقدم للمذكرات في مكان بارز أن ما تنشره يعتبر أول ترجمة لكتاب الماريشال زوكوف في العالم، خارج روسيا. . وتجاهلت أن «الجمهورية» نشرت يوم الأربعاء الماضي ٧ مايو مقدمة الكتاب وعليها توقيع زوكوف. كما نشرت الجمهورية في اليوم التالي السطور التي تحدث فيها زوكوف عن طفولته. . وقد أعادت «الأهرام» نشر المقدمة. . وسطور طفولة زوكوف!!. . وهذا لا يتفق حتى مع فكرة السبق الصحفي على حساب حقوق الغير!

قضية مؤسفة

وعلى الرغم من كل ذلك.. فان أسرة تحرير «الجمهورية» مع قرارها أن تبدأ اليوم نشر مذكرات زوكوف ـ بدلاً من الخميس المقبل كما أعلنا ـ حماية لحقوق قرائها.. أن أسرة «الجمهورية» ترفع هذه القضية الخطيرة.. قضية احترام حقوق النشر، على الرأي العام، الذي أصابته الدهشة بعد أن أعلنت «الجمهورية» على أوسع نطاق، أنها سوف تنفرد بنشر مذكرات زوكوف، وأنها صاحبة الحق القانوني والصحفي في ذلك.. ثم وجد أن جريدة «الأهرام» تنشر نفس المذكرات!.. فأصبح من واجبنا أن نفسر للقارىء هذا الموقف المؤسف!

كما تطالب أسرة «الجمهورية» باجتماع لمجلس نقابة الصحفيين، لكي يحسم هذا الأمر الخطير، حماية للحقوق الصحفية، وحماية للتقاليد، وحماية لثقة الجماهير في المبادىء التي تحكم العمل الصحفي.

كيف نشروا؟

وقد يسأل القارىء.. ومن حقه أن يسأل.. كيف حصلت جريدة «الأهرام» على مذكرات زوكوف، على الرغم من أن «الجمهورية» اشترت حق الانفراد بنشرها..

والجواب بسيط..

لقد أصدرت مؤسسة نوفوستي للنشر والطبع في موسكو، مذكرات المارشال زوكوف في كتاب باللغة الروسية منذ ثلاثة أسابيع أو أكثر. وهي صاحبة كل الحقوق على هذا الكتاب. وقد حصلنا على الكتاب، بمجرد صدوره في موسكو، كما حصلت عليه جريدة «الأهرام».. وكما يمكن أن تحصل عليه أي جريدة.. ولكننا لم نجرؤ على الاعلان عن نشر المذكرات، قبل أن نشتري حقوق النشر من مؤسسة نوفوستي صاحبة هذه الحقوق. ولم نتصور أن من حقنا أن نذيع حرفاً واحداً من الكتاب، قبل توقيع العقد..

أننا نعلم أن جريدة الأهرام كانت قد شرعت في مفاوضات مع مؤسسة نوفوستي لشراء حق نشر الترجمة الانجليزية أو الفرنسية للمذكرات عند

صدورها.. ولكن هذه المفاوضات لم تنته إلى نتيجة.. وقد تم شراؤنا لحقوق النشر. وقد نص البند الثالث من تعاقدنا مع نوفوستي على ما يلي:

«يقدم الطرف الأول (نوفوستي) للطرف الثاني (الجمهورية) جميع المواد والصور الخاصة بالكتاب باللغة الروسية مبدئياً، وباللغة الانجليزية والفرنسية عند اتمام الترجمة من جانب الطرف الأول».

حقوق الصحف العربية!

بقيت مسألة بالغة الأهمية، ربما لم تفطن إليها جريدة «الأهرام» عندما تجاهلت حق الجمهورية في الانفراد بنشر مذكرات زوكوف.. وهو أن عقدنا مع مؤسسة نوفوستي ـ الذي سبق أن نشرنا صورته الزنكغرافية ـ ينص على بيع جميع حقوق نشر المذكرات في الشرق الأوسط.. وقد اتصلت «الجمهورية» فعلاً بزميلات في لبنان والجزائر والسودان.. وجرت المفاوضات لكي يشتروا حق النشر، في نفس اليوم، الذي تبدأ فيه الجمهورية النشر.. فالاعتداء ليس علينا فقط.. ولكن على الصحافة العربية أيضاً..

وبعد.. أننا مضطرون ـ احتراماً لحق القارىء ـ أن نبدأ نشر المذكرات اليوم.. ونعتذر لقرائنا عن تقديمنا لموعد النشر فالسبب واضح.

انتهى رد «الجمهورية» على «الأهرام».

* * *
* * *

أعود فأقول.. تكهربت الأجواء بعد هذا الهجوم منا على «الأهرام»..

وتردد أن هيكل لم يستطع الاتصال بالرئيس عبد الناصر لتوضيح موقفه، والدفاع عن نفسه.. وقال لي زميلنا صبري أبو المجد، أن هيكل طلب تحديد موعد للقاء الرئيس، ولم يتحدد الموعد فوراً، كما جرت العادة.. مما خلق جواً من الارتباك والحيرة داخل صفوف الأهرام..

ونشرت «الأهرام» موضوعين للرد على «الجمهورية» وتبرير عدوانها.. صباح اليوم التالي (١٣ مايو) استغرقا صفحة كاملة!

الموضوع الأول كان بعنوان «ملاحظات على حقوق النشر الصحفي» على خمسة أعمدة..

والموضوع الثاني، على ثلاثة أعمدة بعنوان «كيف نشر الأهرام مذكرات زوكوف؟»..

وحاول الموضوع الأول أن يجد العذر القانوني، في أن مصر لم تنضم إلى اتفاقية «برن» التي تنظم حقوق النشر في العالم..

وقال الموضوع الثاني أن لطفي الخولي، كان قد حصل على وعد شفهي بنشر هذه المذكرات من مدير وكالة نوفوستي في سبتمبر ١٩٦٧!

لقد نشر محمد حسنين هيكل هذين الدفاعين في صفحة كاملة، تقديراً منه لخطورة الموضوع على سمعة «الأهرام».. ومحاولة منه أن يشرح للرئيس عبد الناصر في سطور منشورة.. ما لم يكن قد استطاع أن يحدثه به، لأن موعد المقابلة لم يتحدد..

وأسجل في هذا الكتاب، النص الحرفي لما نشره «الأهرام»، لأنه يعتبر وثيقة في هذه الأزمة الخطيرة، التي لم يتعرض لها «الأهرام» في تاريخه الطويل.. وحتى تكون كل جوانب الموضوع، في مكنة طلاب الصحافة، وطلاب البحث العلمي في حقوق النشر.

- كتبت «الأهرام»:

ملاحظات عن حقوق النشر الصحفي

بين حين وآخر، وفي عدد من المناسبات يثار في الوسط الصحفي سؤال:

ـ ما هو معنى حقوق النشر الصحفي؟

وفي الحقيقة فان هذا سؤال شديد الأهمية، لأن الاجابة عليه تتصل بمسائل متشابكة منها ما يترتب على القانون وعلى الاتفاقيات الدولية، وعلى التقاليد المعمول بها والتي رسمت بالممارسة خطاً واضحاً وظاهراً.

ومسألة القانون والاتفاقيات الدولية جوانب في الموضوع يحيط بها فيما

يتعلق بمصر وبمعظم الدول العربية لبس شديد، لأن بعض هذه الدول لم توقع بالانضمام إلى اتفاقية «برن» التي تنظم حقوق النشر في العالم إلى جانب تعديلات أدخلت عليها فيما عرف بتعديلات روما وبروكسيل.

ومع محاولات متكررة جرت لكي تنضم كل الدول العربية إلى اتفاقية برن وملحقاتها، إلا أن التأخير في الانضمام إليها كان دائماً يتأخر تحت منطق أن هذه الدول في مرحلة نمو، وأنها في حاجة إلى كل أفكار العالم بغير قيود، وأنها لا تزال بعد في مرحلة استهلاك الفكر ولم تدخل بعد مرحلة التصدير، ومن ثم فان الانضمام إلى الاتفاقية وملحقاتها قد يضع عليها من الأعباء أكثر ما يعطيها من المزايا. .

ولم تكن هناك بعض الدول العربية في ذلك الموقف وحدها، ومن هذه النظرة دائماً كانت هناك دول كبرى ترى بهذا الرأي نفسه وبينها الاتحاد السوفياتي مثلاً والصين.

ومع هذه الظروف فان الممارسة خصوصاً فيما يتعلق بالنشر الصحفي، وخاصة فيما له قيمة اخبارية كالمذكرات السياسية وما يشابهها من الأعمال ـ حاولت أن تضع أسلوباً في العمل يحقق أكبر قدر ممكن من الفائدة مع مراعاة الظروف العملية ومقتضياتها، وهكذا برز الأسلوب التالي وأصبح تقليداً معمولاً به:

١ ـ عندما تكون هناك مذكرات سياسية هامة أو ما يشابهها من الأعمال فان الترتيب للنشر الصحفي يبدأ عادة قبل أن يطرح الكتاب الذي يحتويها في السوق، ذلك لأنه بعد ظهوره في السوق فعلاً يصبح التحديد أمراً بالغ الصعوبة.

٢ ـ مؤدي ذلك أن أي كاتب لمذكرات سياسية هامة أو ما يشابهها مما يهم الصحف في العالم، يقوم قبل طبع أي عمل على شكل كتاب ـ بأعداد ما ينشر منه وتباع حقوقه بعرضها على الصحف المهتمة به.

وفي العادة فان ما يعد للنشر الصحفي المسبق يكون عرضاً عاماً للكتاب

ولا يحتوي كل ما فيه، وإلا أصبح الكتاب نفسه بعد ظهوره غير ذي فائدة، لأن كل ما يضمه بين دفتيه قد ظهر من قبل وذاع.

٣ ـ ولو أردنا مثالاً عملياً لذلك لكان أبرز الأمثلة هو الكتاب الذي كتبه ويليام مانشستر عن مأساة الرئيس الأمريكي الأسبق «جون كنيدي» تحت عنوان (موت رئيس).

والذي حدث في هذا الكتاب عملياً على النحو التالي:

* كتب «ويليام مانشستر» كتابه في الموضوع وبدأ فيه مباشرة بعد المأساة وباع حقوق نشره في شكل كتاب لمؤسسة «هاربر آندرو» كما باع حقوق النشر الصحفي له أو ما يسمونه «Serialisation» إلى مؤسسة «كاولز» وهي مرتبطة بمؤسسة «هاربر آندرو» وكان هو الذي قام بإعدادها بنفسه للنشر الصحفي.

* بدأ نشر المسلسلات الصحفية من الكتاب عالمياً يوم ٢٤ يناير ١٩٦٧.

* اشترى الأهرام حقوق نشر هذه المسلسلات الصحفية من مؤسسة كاولز، وبترتيب خاص معها فقد تمت الموافقة له على بدء النشر يوم ١٥ يناير.

* وفي ذلك كله لم يكن الكتاب الذي يضم النص الكامل لما كتبه ويليام مانشستر قد ظهر في السوق، بل إن الموعد الذي كان مقرراً لظهوره على شكل كتاب هو أول مايو ١٩٦٧ أي بعد بدء النشر الصحفي بأكثر من أربعة شهور تتاح فيها لكل الصحف التي اشترت حقوق النشر الصحفي فرصة كاملة.

* وعلى سبيل المثال فانه بعد أن بدأ الأهرام في النشر بعدة أيام حاولت بعض صحف القاهرة أن تستجلب بسرعة صحفاً أخرى في العالم كانت تنشر المسلسلات الصحفية عن كتاب «ويليام مانشستر» وترجمت منها فصولاً عديدة نشرتها وأفاضت في نشرها، مع أن المسلسلات كلها كانت مختومة بالخاتم الذي يظهر على أي كتاب يحتفظ بهذه الحقوق، وهذا الخاتم الدولي هو حرف «C» داخل دائرة وهو الحرف الأول من كلمة Copy Riyht أي «حقوق النشر محفوظة».

٤ ـ ان هناك بلداناً كثيرة، خصوصاً من تلك التي لم تنضم بعد إلى

اتفاقية برن وملحقاتها لا تطبع علامة حقوق النشر المحفوظة على ما ينشر فيها ومن هذه البلدان الاتحاد السوفياتي، وعلى سبيل المثال فإن هذه العلامة ليست موجودة على كتاب «ذكريات وتأملات» الذي نشر فيه الماريشال «زوكوف» مذكراته وقصة حياته.

ولم يتبع في أمر ذلك الكتاب ـ على سبيل المثال ـ ما هو معمول به تقليداً في الصحافة العالمية، وهو اعداد مسلسلات صحفية تنشر منه قبل موعد نشر الكتاب بشهور، وانما طبع الكتاب ووزع في الاتحاد السوفياتي وأصبح متروكاً للاهتمام العالمي به على اختلاف الاجتهادات.

هذه كلمة في موضوع حقوق النشر الصحفي بصفة عامة.

- انتهى مقال «الأهرام» الأول، وهذا هو المقال الثاني الذي نشر في نفس الصفحة:

كيف نشر الأهرام مذكرات زوكوف؟

في سبتمبر ١٩٦٧ تم اجتماع في المركز الرئيسي لوكالة نوفوستي بموسكو. وذلك بين مديرها العام السيد بوريس بوركوف وبين لطفي الخولي ممثلاً للأهرام. وكان حاضراً الاجتماع الاستاذ خالد محيى الدين (وهو عضو نقابة الصحفيين) والدكتور نيقولا كاتساريف مدير مكتب الوكالة بالقاهرة.

وفي هذا الاجتماع عرض السيد بوركوف أن الوكالة بصدد طبع مذكرات الماريشال زوكوف في كتاب. وطلب لطفي الخولي الحق في نشر هذه المذكرات بالأهرام فور صدورها، ووافق على ذلك المدير العام للوكالة.

ولما عرض لطفي الخولي المناقشة في قيمة المقابل المادي الذي تطلبه الوكالة لقاء النشر، قرر المدير العام لنوفوستي أن الوكالة لا تطلب أي مقابل مادي وأنه يكفيها أن تنشر المذكرات باللغة العربية في الأهرام.

ولما كان السيد خالد محيى الدين قد سبق لطفي الخولي بالعودة إلى القاهرة، فقد رجاه أن يتحدث إلى تحرير الأهرام بهذا الاتفاق. وبالفعل قام السيد خالد محيى الدين بذلك. وأبرق تحرير الأهرام بالموافقة إلى لطفي الخولي في موسكو.

وتم أيضاً الاتفاق مع الوكالة على أن يكتب المارشال زوكوف مقدمة خاصة للمذكرات باللغة العربية عند نشرها في الأهرام، كما وافق زوكوف نفسه على الإدلاء بحديث خاص للأهرام يبدأ به نشر المذكرات. بيد أنه في العام الماضي أخطرتنا الوكالة بأنها تعتذر عن امكانية كتابة زوكوف للمقدمة أو الإدلاء بحديث خاص وذلك بسبب مرضه الشديد، وان الكتاب جار طبعه وسيرسل للأهرام فور صدوره بناء على اتفاق ١٩٦٧.

وقبل شهر وفور طرح الكتاب في الأسواق بموسكو تلقى الأهرام نسخة منه وبدأ في اعدادها للنشر. وبعد ذلك بأسبوع جاء الدكتور نيقولا كاتساريف بنسخة أخرى منه إلى الأهرام تنفيذاً للتفاهم السابق.

وعرض الدكتور نيقولا كاتساريف أن تقوم الوكالة ـ مقابل المصاريف الفعلية ـ بالترجمة من اللغة الروسية إلى اللغة الانجليزية أو الفرنسية ثم يقوم الأهرام بالترجمة منها إلى اللغة العربية. ولكنه أبلغ أن الأهرام شرع فعلاً في ترجمة الكتاب عن اللغة الروسية مباشرة. وأنه يفضل الاستمرار في ذلك مراعاة للدقة الكاملة، وأنه عهد إلى مجموعة من المترجمين العرب المتخصصين في اللغة الروسية بترجمة المذكرات وذلك باشراف «ماهر عسل». وعدا هذه الوقائع كلها فإن «الأهرام» لا يعتبر أن هناك حقوق نشر خاصة يمكن أن تترتب على النشر الصحفي لمذكرات زوكوف وذلك لعدة أسباب مشروحة من قبل، وأولها أن الكتاب نفسه أصبح الآن مطروحاً في أسواق موسكو ـ ومنذ عدة أسابيع ـ وذلك يجعله في تناول الاهتمام العام. .

[رد الجمهورية]

وقد أثارتنا تبريرات «الأهرام» لهذا العدوان الجارف على «الجمهورية». . ولذلك قررنا الرد الفوري، في الصباح التالي ١٤ مايو ١٩٦٩ . .

وبدأ الرد في الصفحة الأولى، بعنوان على ثلاثة أعمدة في سطرين «أزمة التقاليد الصحفية ـ رد على جريدة الأهرام» ثم استغرق باقي الرد الصفحة الثالثة كاملة وثلاثة أعمدة كاملة من الصفحة التاسعة. . وكانت العناوين الداخلية في سطرين على ٨ أعمدة «حقوق النشر. . واحترام التقاليد الصحفية كما نفهمها ـ رد واضح على جريدة الأهرام». .

وفي هذا الرد نشرنـا ثلاث صور زنكغرافية لبراويز كبـيرة سبق أن نشرها «الأهرام» وأعلن فيها عن حصوله على حقوق النشر باللغة العربية لكتاب «موت رئيس» الـذي كتبه الصحفي الأمـريكي «وليم مـانشسـتر» عن اغتيـال الـرئيس الأمـريكي كنيدي. . وكـانت الأهرام قد نشرت فصول هـذا الكتـاب في ينـايـر ١٩٦٧. .

وهذا يعني أن «الأهرام» تعرف تماماً معنى حقوق النشر المشتراه، والمتعاقد عليها. .

كـما نشرنا صـوراً زنكغرافيـة، لحملة شنها جـلال الدين الحـمامصي، على صحيفـة «الأخبار» لأنها نشرت فصـلاً من كتاب «غـرام مارجـريت». . بعد أن كـانت «الجمهوريـة» قد حصلت عـلى حق النشر، وأذاعت ذلك. وكـان مقـال الحمامصي بعنوان «درس في الصحافة والأخلاق!» جريـدة «الأخبار» إلى أين؟. . المهم هو المبدأ قبل كل شيء». .

وحتى تكـون الصـورة مكتملة أمـام القـارىء. . فـأنني أنشر في السـطور التالية نص ردنا على الأهرام». .

أزمة التقاليد الصحفية

رد على جريدة «الأهرام»

كانت أسرة «الجمهورية» تتوقع بعد أن احتكمنـا أمس إلى الرأي العـام. وإلى حكم القانون، وإلى التقاليد الصحفية، في قضية اعتداء جريـدة «الأهرام» عـلى حقوق «الجمهـورية» في الإنفـراد بنشر مـذكـرات المـارشـال زوكـوف التي اشتريناها من مؤسسة نوفوستي السوفيتية بعقد موقع، في ١ مايـو ١٩٦٩، نشرنا صورته الزنكغرافية، ينص أيضاً عـلى حقنا في طبعهـا في كتاب، تتقـاسم أرباحـه معنا مؤسسة نوفوستي. .

الإعتراف فضيلة

كانت أسرة «الجمهورية» تتوقع أحد أمرين من جريدة «الأهرام».

* أولهما. . موقف شجاع، كان جديراً منا بالإشادة والتكريم. . وهـو أن

تعتذر جريدة «الأهرام» عن خطئها، وخاصة أننا نشرنا صورة العقد، وأعلنا عن موعد نشرنا للمذكرات على أوسع نطاق في دور السينما وعلى شاشة التليفزيون وفي خمس مجلات أسبوعية، عدا صفحات كاملة من الجمهورية خصيصاً لذلك..

وكان يستتبع اعتذار جريدة «الأهرام» أن تتوقف عن نشر ما ليس حقاً لها..

* والموقف الثاني الذي توقعناه.. هو أن تقابل جريدة «الأهرام» دعوانا بالصمت.. استمراراً في تجاهل حقنا القانوني الواضح الصريح في الإنفراد بنشر المذكرات..

وقد كنا مهيئين لتفهم موقف الصمت..

ولكننا فوجئنا ـ وما أكثر مفاجئات جريدة «الأهرام» ـ بأن الزميلة الكبيرة لم تتخذ الموقف الأول.. فلم تعتذر، ولم تتوقف عن نشر مذكرات المارشال زوكوف.. بل هي تعمدت أن تقفز في اختصار بعض الفصول، لكي تحاول اللحاق بما تنشره «الجمهورية».. وأن كان الوقت لم يسعفها.. فنشرت أمس صفحتين كاملتين هما تكرار وإعادة لكل ما نشرناه أول أمس!..

ولسنا نظن، أنه من حسن الخدمة الصحفية، التي تقدمها جريدة «الأهرام»، أن يستعيد القارىء على صفحاتها قراءة ما سبق أن قرأه ـ وبمزيد من التفصيل الأمين، لأننا نشرنا النص الحرفي ـ على صفحات «الجمهورية» قبل نشر تلخيص له في جريدة «الأهرام» بيوم كامل!..

كما فوجئنا أيضاً ـ أو لعله كان يجب ألا نفاجأ ـ بأن جريدة «الأهرام» لم تتخذ أيضاً الموقف الثاني.. فهي لم تصمت!.. وهي لم تتجاهل!.. بل نشرت ردا مطولاً في صفحة «الرأي!» «بها بعنوان عريض على ٥ أعمدة.. وقدمت لردها في الصفحة الأولى..

مقطوعتان

والرد الذي أرادت جريدة «الأهرام» أن تحتمي به، من سيادة القانون، ومن تقاليد الصحافة، وآداب المهنة، يتكون من «مقطوعتين»!

المقطوعة الأولى.. عن قصة محاولتها الحصول على حق الإنفراد بنشر مذكرات المارشال زوكوف في «الأهرام»!.. والقصة كما نشرتها - ولا نريد أن نتجاوز أية واقعة منها - يمكن تلخيصها في جملة واحدة، وهي أن جريدة الأهرام سعت للحصول على هذا الحق، ولم ينته مسعاها إلى شيء!..

وما دامت لم تصل إلى أي تعاقد مع مؤسسة نوفستي، على حقوق النشر.. فهي قد قررت أن تنشر المذكرات لأنها صدرت في كتاب.. ولأن جريدة «الأهرام» اشترت هذا الكتاب من السوق.. وما دام الكتاب قد طرح في الأسواق فإن ذلك يجعله في تناول الإهتمام العام.. ووسيلة «الأهرام» إلى احترام هذا الإهتمام العام، هو ألا تحترم تعاقد «الجمهورية» مع مؤسسة نوفستي على الإنفراد بحقوق النشر.. فتنشر هي المذكرات!

إن ما نردده هو ما نشرته جريدة الأهرام، فعلاً تحت عنوان «كيف نشر الأهرام مذكرات زوكوف؟»..

قالت جريدة «الأهرام»: أنه في سبتمبر ١٩٦٧ تم اجتماع في المركز الرئيسي لوكالة نوفوستي بموسكو، بين مديرها العام السيد بوريس يوركوف، وبين لطفي الخولي ممثلاً للأهرام، حضره الأستاذ خالد محيي الدين، والدكتور نيقولا كوتساريف مدير مكتب نوفوستي بالقاهرة..

وأن ممثل «الأهرام» طلب من السيد بوركوف «الحق في نشر هذه المذكرات فور صدورها».. ولما عرض ممثل الأهرام المناقشة في قيمة المقابل المادي الذي تطلبه وكالة نوفوستي لقاء النشر.. قرر المدير العام للوكالة أنها لا تطلب أي مقابل مادي وأنه يكفيها أن تنشر المذكرات باللغة العربية في الأهرام..

وقبل أن نستطرد في ذكر بقية القصة كما نشرتها جريدة «الأهرام» نود أن نصحح بعض الوقائع..

التصحيح واجب

إن السيد بوريس بوركوف مدير وكالة نوفوستي لم يحضر هذا الإجتماع.. لسبب بسيط واحد، هو أنه كان متغيبا عن موسكو في ذلك الوقت!!.. وقد

حضر هذا الإجتماع السيد زايد شيكوف نائب مدير الوكالـة، وقال زايـد شكوف أنه متعب لأنه يشرف على إعداد مذكرات زوكوف للطبع.. فطلب ممثل الأهرام حق نشرهـا فرد زايـد شيكوف بقـوله «لا مـانع».. واتفق عـلى اعـداد مشروع للعقد.. ثم رئي مناقشة التفصيلات في القاهرة مع الدكتـور كوتسـاريف مديـر مكتب الوكالة بالقاهرة..

أما القول بأن مدير مكتب الوكالة قال لممثل جريدة «الأهرام» أن الوكـالة لا تـطلب أي مقابـل مادي.. فـلا تظن أن أحـداً يمكن أن يفسر هـذه العبـارة المجاملة الرقيقة.. على أنها تـوقيع من مـدير الـوكالـة على عقـد يعطي جـريدة الأهرام حق النشر مجاناً وبدون أي مقابل!!

وأظننا نسمع هذه العبارة يومياً عشرات ومئات المرات في سوق التعامـل، عند العرض بالشراء.. الذي تصحبـه مجاملة من الـطرف الثاني، حتى إذا كـان اللقاء بدون تعارف، بأنه مستعد للبيع بلا مقابل.. ولا نتصور أن مشترياً يمكن أن يلتقط هذه المجاملة، فيسرع بوضع يده على موضوع التعاقد، ويحمله مسرعاً بالإنصراف.. شاكـراً ذوقه!.. ثم يعتـبر نفسه مـالكاً.. ويتصـور أنه تعـاقد، ووقع عقداً!!

وعلى كل.. فليس هـذا هو الـطريف الوحيـد في رد «الأهرام».. ولكن هناك ما هو أطرف.. قال الرد: أنه بعد إصدار وكالة نوفوستي لكتاب مذكرات زوكوف، زار الأهرام، الدكتور نيقولا كوتساريف مدير مكتب الوكالة بالقاهرة، وقدم نسخة من الكتاب، وعرض أن تقوم الوكالة ـ مقـابل المصـاريف الفعلية ـ بالترجمة من اللغة الروسية إلى اللغة الإنجليزيـة أو الفرنسيـة، ثم يقوم الأهـرام بـالترجمـة منها إلى اللغـة العربيـة، ولكن «الأهرام» لم يقبـل هذا العـرض، لأنه فضل أن يترجم عن طريقه من الروسية إلى العربية!..

وانتهت القصة!!

وكان مديـر وكالـة نوفـوستي في القاهـرة، قد قـدم إلى جريـدة «الأهرام» نسخة ـ المذكرات على أنها هدية مجانية!.. وكأن وكالة نوفـوستي ليست مؤسسة عالمية للنشر!

إن الذي حدث هو أن مدير وكالة نوفوستي في القاهرة، اتصل بجريدة «الأهرام».. كما اتصل بالجمهورية.. وقدم فعلاً للجريدتين نسختين من الكتاب.. لكي يتم إجراءات التعاقد على حقوق النشر مع أي من الصحيفتين.. وقد حدد الرجل يوم ٦ مايو كآخر موعد لتلقي العروض المادية من الجريدتين.. أيهما يريد أن ينفرد بحقوق النشر.. وتقدمت «الجمهورية» بعرضها وهو مبلغ ٨٠٠ جنيه «ثمانمائة جنيه» للنشر في جريدة «الجمهورية»، مع اقتسام الأرباح مناصفة مع مؤسسة نوفوستي في حالة اصدار المذكرات في كتاب باللغة العربية.. وأن حقوق النشر للجمهورية تشمل الجمهورية العربية المتحدة ومنظمة الشرق الأوسط..

ومع ذلك فإن مدير مكتب الوكالة في القاهرة، لم يتعجل في قبول عرض الجمهورية.. واتصل بالسيد ميشيل كامل المحرر بجريدة الأهرام، وحدد له الساعة الخامسة من مساء يوم ٦ مايوم لتقديم عرض جريدة «الأهرام».. ونبهه أن «الجمهورية» تقدمت بعرضها.. ولم ترد جريدة «الأهرام»..

ولم تقدم أي عرض..

ووقعت «الجمهورية» العقد مع مدير مكتب مؤسسة نوفوستي في القاهرة..

وكان المكتب الرئيسي لنوفوستي في موسكو، قد أحيط علماً، بالبرقيات، والإتصال التليفوني، بتفصيلات كل هذه الإتصالات، وبتحديد الساعة الخامسة من مساء يوم ٦ مايو، موعداً يقرر فيه مدير مكتب نوفوستي في القاهرة، اختيار أي العرضين والتعاقد مع «الجمهورية» أو «جريدة الأهرام»!

وسمح لنا العقد أن نعلن عن نشر المذكرات والإنفراد بهذا الحق بمجرد التوقيع..

الخلاصة إذن.. أن جريدة «الأهرام» سعت فعلاً للحصول على حق نشر هذه المذكرات.. وأن محاولتها لم تصل إلى نتيجة أو تعاقد..

أين العقد؟

ومن الطبيعي أن «الجمهورية» لم تعتبر مساعيها السابقة على التعاقد للحصول على حق النشر سنداً يخول لها نشر المذكرات.. فإذا كان ممثل الأهرام قد قابل أحد رؤساء وكالة نوفوستي في موسكو مرة واحدة.. فنحب أن نقول لجريدة «الأهرام».. أن ممثلاً عن «الجمهورية» طلب بإسمها حق نشر المذكرات في ٢٢ سبتمبر عام ١٩٦٤ في مقر وكالة نوفوستي في موسكو.. أي قبل طلب جريدة الأهرام بثلاث سنوات.. ثم تكرر هذا الطلب في يناير عام ١٩٦٦ عندما حضر السيد بوريس بوركوف المدير العام للوكالة إلى القاهرة، في جلسة خاصة شهدها الأستاذ مصطفى بهجت بدوي رئيس مجلس إدارة دار التحرير «التي تصدر الجمهورية» حينئذ، والأستاذ إبراهيم نوار رئيس تحرير الجمهورية، وناديم سنيلنكوف مستشار السفارة، والدكتور نيكولاي كوستاريف مدير مكتب نوفوستي في القاهرة، ودار الحديث حول التعاون بين الجمهورية ووكالة نوفوستي، ورغبة الجمهورية في نشر الكتب والمذكرات التي تصدرها الوكالة.. وهنا أشار بوركوف إلى مذكرات زوكوف ووعد بدراسة الموضوع..

ومرة ثالثة في يناير ١٩٦٧ عندما حضر إلى القاهرة السيد شربانكو نائب مدير الوكالة.. وفي مقابلة مع إبراهيم نوار، أثيرت مسألة مذكرات زوكوف، ووعد شربانكو بدارسة الأمر..

ثم علمنا أن مذكرات زوكوف وصلت إلى المطبعة، فاتصلنا بمدير مكتب نوفوستي في القاهرة، وطلبنا إليه أن يتصل بموسكو ليتعجل تعاقدنا على حق نشرها.. وقد أبلغنا في ٢٠ ابريل الماضي أنه أبرق بذلك إلى موسكو.. وقال أن لنا منافسين آخرين.. وحدد جريدة «الأهرام» بالذات..

وهكذا استمرت الإتصالات حتى انتهت بتوقيع العقد الذي نشرنا صورته الزنكغرافية.. هذا العقد الذي تجاهلته جريدة «الأهرام».. وتجاهلت كل ما يقرره من حقوق قانونية.. إلا إذا أريد لنا أن نتصور أن عبارة المجاملة الرقيقة التي قالها ممثل وكالة نوفوستي لمندوب «الأهرام» منذ عامين، وهي أنهم راضون بنشرها مجاناً في «الأهرام».. إلا إذا أريد لنا أن نتصور أن ذلك يعني أن عقداً كتب ووضعت بنوده، ووقع عليه من الطرفين!

للمسلسلات قصة

بقيت «المقطوعة» الثانية من رد جريدة «الأهرام»!

لقد أرادت جريدة «الأهرام» أن تدخلنا في متاهات بحث متعجل مبتور، عن اتفاقية برن الدولية التي تحفظ حقوق النشر في بعض الدول، وأن مصر ليست مشتركة في هذه الإتفاقية، وكذلك الإتحاد السوفييتي.. وانتهت إلى نتيجة تثير الإبتسام على وجوه العارفين بالقانون، هي أن نشر المؤلفات الأجنبية مباح في مصر.. مجاناً.. وبلا مقابل.. وبدون أي حماية للمؤلف!..

أما نشر المسلسلات.. مثل التي نشرتها عن مصرع كنيدي، فهذا هو الذي يستلزم التعاقد!..

ومفهوم طبعاً.. لماذا تعمد بحث جريدة الأهرام أن يستثني المسلسلات.. لأنها سبق أن اشترت حق نشر كتاب «موت رئيس» بقلم الكاتب الأمريكي وليم مانشستر. وحذرت باقي الصحف المصرية في ذلك الوقت من الإعتداء على حقها في الإنفراد بالنشر.. وقد كانت «الأهرام» في دعايتها عن شرائها لحقوق نشر هذا الكتاب، تصفه بأنه كتاب.. أما اليوم... فقد تحول إلى مسلسلات!

ولم يكن هناك ما يدعو جريدة «الأهرام» إلى التلاعب بالألفاظ، لأن القانون عندما حمى المؤلف والناشر لم يفرق بين كتاب أو مسلسلة!

لا نريد أن ندخل مع جريدة «الأهرام» في متاهات البحث القانوني عن حقوق النشر على النطاق الدولي والعالمي..

إننا هنا لا نطبق اتفاق «برن».. ولكننا نطبق القانون المصري، ونحرص على سيادة القانون المصري، ونحمي حقوقنا بما قرره القانون المصري، ولن نحتكم الى قوانين دولة أخرى.. لأن هذه القوانين لا تحكمنا.. ولكن تحكم رعايا دولها.

قانوننا يحمينا

ماذا يقول القانون المصري الذي نطالب جادين بسيادته؟

ينص قانون حماية حق المؤلف «رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤) في مادته الثالثة على أن يتمتع بالحماية من قام بترجمة المصنف الى لغة أخرى أو بتلخيص أو بالتعليق عليه بأية صورة تظهره في شكل جديد، وذلك كله مع عدم الاخلال بحقوق المؤلف أو المصنف الأصلي.

ثم تنص المادة الخامسة على أن للمؤلف وحده الحق في تقرير نشر مصنفه وفي تعيين طريقة هذا النشر. وله وحده الحق في استغلال مصنفه مالياً بأية طريقة من طرق الاستغلال، ولا يجوز لغيره مباشرة هذا الحق دون إذن كتابي سابق منه أو ممن يخلفه.

ثم تنص المادة السابعة على أن للمؤلف وحده الحق في ترجمة مصنفه الى لغة أخرى، ولا يجوز لغيره أن يباشر شيئاً من ذلك، أو أن يباشر صورة أخرى من الصور المنصوص عليها في المادة الثالثة إلا بإذن كتابي منه أو ممن يخلفه.

وتنص المادة الثامنة على أن تنتهي حماية حق المؤلف وحق من ترجم مصنفه الى لغة أجنبية أخرى في ترجمة ذلك المصنف الى اللغة العربية اذا لم يباشر المؤلف أو المترجم هذا الحق بنفسه أو بواسطة غيره في مدى خمس سنوات من تاريخ أول نشر للمصنف الأصلي أو المترجم.

ويبين من هذه النصوص بوضوح ان القانون يضفي الحماية على حق المؤلف المباشر في مصنفه، بما فيه حق استغلاله مالياً، وأن هذا الحق يشمل المصنف واشتقاقاته التي عددت صورها المادة الثالثة من القانون ومنها الترجمة أو التلخيص بحيث لا يجوز أن تتم إلا بإذن كتابي منه.

هذه هي نصوص القانون المصري، الذي نرجو أن تشاركنا جريدة «الأهرام» الحرص على سيادته.. ولا نظنها ترفض احترام احكامه، لمجرد أن مصر لم تشترك في اتفاقية برن!!

إذا كنا حريصين فعلاً على سيادة قانون بلادنا، واحترام الحقوق التي يحميها قانون بلادنا.. فلا تظن أن الموقف بعد ذلك يواجه أي التباس.. ان القانون المصري يحمي حق المؤلف «وهو المارشال زوكوف».. وقد آل هذا الحق الى الناشر «وهي وكالة نوفوستي السوفيتية للنشر».. وقد نقلت وكالة نوفوستي

هذا الحق الى جريدة «الجمهورية» وهي جريدة عربية مصرية تتعامل بالقانون المصري وبمقتضى عقد واضح صريح موقع عليه في ٧ مايو ١٩٦٩ . .

وقانونه . . يحميه

وما دام الطرف الثاني في التعاقد مواطناً سوفيتياً. فإن القانون يفرض علينا أيضاً احترام حقوقه التي نص عليها قانون الاتحاد السوفيتي . .

ونرجو أن تعرف جريدة «الأهرام» أن قانون حق المؤلف في الاتحاد السوفيتي قد صدر منذ ٤١ عاماً، وبالتحديد في ١٦ مايو عام ١٩٢٨، تحت رقم ٢٤٥ و٢٤٦.

وتنص مادته الأولى: «على حماية حق المؤلف في مؤلفه أو في مخطوطه أو مشروع مؤلفه على الأرض الروسية له ولورثته بصرف النظر عن جنسيته».

ولقد انتقل الينا هذا الحق في مصر والشرق الأوسط. وقانوننا المصري بنصوصه السابقة يحمي حقنا.

كما تنص المادة الرابعة من القانون السوفيتي على أن «حقوق المؤلف تنطبق على كل عمل أدبي وعلمي وفني أياً كانت الصورة التي تعطى له وبصرف النظر عن قيمته أو الغرض منه، مثل الأعمال الشفوية، والمصنفات المكتوبة، والأعمال المسرحية أو المسرحية الموسيقية والترجمات».

فماذا تريد جريدة «الأهرام» بعد ذلك؟

أي قانون تريد لنا أن نطبقه؟ . .

لعبة . . الأختام!

ومع ذلك . . فهل يجدي الدخول في متاهات اتفاقية برن «التي لم ننضم اليها» . . لأن هذه الاتفاقية وغيرها، هي تنظيم على نطاق عدد من الدول، قائم أساساً على عدم التعارض مع نصوص القانون المحلي . . كما أنها تشير في الفقرة الثانية من مادتها رقم ٩ الى ضرورة الاحتفاظ بحقوق النشر لكل ما ينشر في الصحف فيما عدا الأخبار اليومية أو المعلومات المتنوعة . . كما تنص هذه المادة

أيضاً على أن النتائج القانونية المترتبة على خرق هذا الحق تتحدد بقوانين البلد الذي سجلت فيه حماية للحق.

ونحن نريد أن نطبق قانون بلدنا..

* * *

وبقيت فوق كل ذلك.. ملاحظة ترسم ما هو أكثر من الدهشة على وجوه العارفين بالقانون.. تقول جريدة الأهرام: أن الكتاب الروسي لا يحمل على غلافه حرف C.. وفسرت ذلك بأن هذا الحرف هو الخاتم الدولي الذي يحفظ لمؤلف الكتاب حقوقه.. وما دام كتاب المارشال زوكوف لا يحمل حرف C.. إذن فهو مال مباح!

ونريد أن نوضح أنه لا يوجد شيء اسمه «خاتم دولي»!!.. وأن حرف C هو اختصار لكلمة Copy Right أي «حقوق النشر محفوظة..».. ومن الطبيعي أن كل مؤلف يسجل على كتابه حقه في الاحتفاظ بحقوق النشر، باللغة التي يكتب بها.. أو لغة بلده..

المترجم معذور

وقد فات المحرر الذى نشر فى جريدة « الأهرام » أنه يقوم بترجمة مذكرات زوكوف من اللغة الروسية الى اللغة العربية.. وانه حريص على المحافظة على روح اللغة الروسية.. فات المحرر أن يلفت نظر زميله في جريدة «الأهرام» الذي تولى الرد علينا.. ان مؤسسة نوفوستي سجلت بالأحرف السوداء الواضحة على رأس الصفحة الأخيرة من الكتاب باللغة الروسية العبارة التالية: «كتاب ج. ك. زوكوف» ذكريات وتأملات «تصدره مجموعة من مؤسسات النشر في الخارج باتفاقيات مع وكالة نوفوستي الصحفية».

أي أن مؤسسات النشر غير السوفيتية، اشتركت باتفاقيات مع وكالة نوفوستي السوفيتية في إصدار مذكرات المارشال زوكوف..

وهي اتفاقيات مكتوبة وموقع عليها، وليست من نوع «الاتفاق» بعبارة مجاملة رقيقة!

اتفاقيات تحترم القانون، وتحتمي بالقانون، ولـذلك كـان مستحيلاً علينـا أن ننشر الكتاب، بغير تعاقد مكتـوب مع وكـالة نـوفوستي التي لم تكتف بـوضع علامة ما، ولكنها وضعت جملة مفيدة واضحة لأسس التعامل معها.

ولسنا ندري.. كيف فات المترجم، أن يقرأ هذا التحذير.. ولكن لعـل له العذر.. فالتحذير مطبوع على الصفحة الأخيرة من الكتاب..

للتقاليد.. أمثلة

ولكن.. لنعترف جدلاً..

أن جـريدة «الأهـرام» لا تعترف بحقـوق وكـالـة نـوفـوستي فيـما تصـدره وتنشره.. وأن جريدة «الأهرام» لا تعترف تبعا لذلك، بحقوقنـا التي اشترينـاها من مؤسسة نوفوستي بعقد مكتوب مسجل..

وأن جريدة «الأهرام» تريد أن تستبعد في تعاملها مـع الصحف الأخرى.. أسلوب التطبيق القانوني، لأن علاقة الزمالة، ربمـا تكون أقـوى في نفوذهـا على السلوك، من حكم القانون..

لنفـترض أن جـريـدة «الأهـرام» تـريـد أن تحتكم فقط الى التقـاليـد الصحفية..

فهل هي احترمت حقا هذه التقاليد؟..

لا نريد أن نأتي بأمثلة خارج نطاق صفحات جريدة «الأهرام»..

إننـا نجد جـريدة «الأهـرام» في تاريخهـا الحديث، متمسكـة بحقوقهـا في النشر، متشبثـة بها، فخـورة بالسبق في الحصـول عليها.. لا في المـوضـوعـات الكبرى ذات الاهتمام العـالمي فحسب.. ولكن في أبسط الموضـوعات شـأناً.. حتى في مقالات تنشرها نقلاً عن صحيفة أجنبيـة.. انها حريصـة دائما عـلى أن تسجل أنها اشترت حقوق النشر باللغة العربية..

ولسنا نريد أن ندخـل القارىء في متـاهات، فليس هـذا أسلوبنا.. إننـا نضرب الأمثلة ونقدم الدليل..

الصفحة الأولى من جريدة الاهرام ٣٠ ديسمبر ١٩٦٦

نشرت الأهرام العنوان التالي:

«الأهرام يشتري حقوق نشر الكتاب الذي يتحدث عنه العالم. كتاب (موت رئيس) ينشر مسلسلاً ابتداء من يوم ١٠ يناير.

ثم نشرت تحت هذا العنوان ما نصه:

«اشترى الأهرام حقوق النشر باللغة العربية لكتاب (موت رئيس) الذي أثار - حتى من قبل أن ينشر - ضجة عالمية لم يسبق لها نظير، رشحته ومن الآن لأن يكون كتاب السنة القادمة ١٩٦٧ بغير منازع . . .

وبعد مفاوضات مع (مؤسسة كاولز) التي اشترت من مؤلف الكتاب، وليم مانشستر كل حقوق النشر الصحفي، وقع الأهرام عقداً يحصل بمقتضاه على حقوق النشر الصحفية لهذا الكتاب التي دفعت فيها الصحف العالمية الراغبة في شرائه - وبينها الأهرام - مبلغاً وصل حتى الآن الى مليون دولار».

الصفحة الأولى من جريدة الأهرام ٨ يناير ٦٧

نشرت الأهرام العنوان التالي:

«كتاب موت رئيس - الأهرام يبدأ نشره في يوم ١٥ يناير».

ثم كتبت تحت هذا العنوان ما نصه:

يبدأ الأهرام - يوم ١٥ يناير في نشر كتاب موت رئيس الذي اشترى الأهرام حقوق نشره باللغة العربية، والذي أثار ضجة عالمية ما زالت اصداؤها تتردد في كل مكان».

الصفحة الأولى من جريدة الاهرام ١٣ يناير ٦٧

العنوان: «الأهرام» يبدأ بعد غد في نشر كتاب موت رئيس. وتحت العنوان: يبدأ الأهرام بعد غد، الأحد ١٥ يناير في نشر الكتاب الذي أثار ضجة عالمية كبرى من قبل صدوره. وكان الأهرام قد اتفق مع مؤسسة «كاولز»

للنشر في الولايات المتحدة الأمريكية التي حصلت على كل حقوق النشر الصحفية للكتاب، على أن تحتفظ له بكل حقوق النشر باللغة العربية . . ».

الصفحة الأولى من جريدة الأهرام ١٤ يناير ٦٧

العنوان: «موت رئيس . . الكتاب الذي يبدأ الأهرام في نشره غداً».
العنوان: «لم يسبق أن أثار عمل صحفي ضجة في أنحاء العالم كله مثل كتاب موت رئيس. حتى قيل انه بحق أول عمل صحفي يتحول الى حدث تتابعه صحافة العالم في حد ذاته. وتستأثر بنشره كبريات صحف ومجلات العالم، وتدفع فيه مبلغاً تعدى حتى الآن مليون دولار» .

وفي نفس اليوم ١٤ يناير ٦٧

العنوان: «لوك تقاضي مجلة شتيرن لنشرها موت رئيس».

تحت العنوان: «نيويورك في ١٣ ـ رويتر ـ أعلن متحدث باسم مجلة «لوك» الأمريكية أن المجلة تتخذ الإجراءات القانونية ضد مجلة «شتيرن» التي تصدر في ألمانيا الغربية لخرقها الاتفاق الخاص بنشر مسلسلة «موت رئيس» الذي ألفه وليام مانشتر والذي أثار ضجة عالمية كبيرة».

الصفحة الأولى من جريدة الأهرام ١٥ يناير ٦٧

العنوان (مانشيت): «الكتاب الذي أثار أكبر ضجة في العالم. الأهرام يبدأ من اليوم في نشر كتاب موت رئيس».

تحت العنوان: «يبدأ الأهرام اليوم بنشر فصول الكتاب الذي أثار في العالم دوياً لم يبلغه كتاب آخر. . ولقد حرص الأهرام على شراء حقوق نشر الكتاب باللغة العربية». .

مبادىء الأسماء

وبعد. . أليس من حقنا، ومن حق الرأي العام، أن يتساءل. . هل يمكن أن يختلف احترام المبادىء واحترام سيادة القانون واحترام التقاليد، بإختلاف الأسماء. .

هل يمكن أن يواجه أحد.. أي أحد.. جماهير الرأي العام، بأن وضع اسم «الجمهورية» بدلاً من اسم «الأهرام».. ووضع اسم مؤسسة «نوفوستي السوفيتية» بدلاً من اسم «مؤسسة كاولز الأمريكية».. ووضع اسم «المارشال زوكوف».. وزير الدفاع السوفييتي وألمع القواد العسكريين في العالم.. بدلاً من اسم «وليم مانشتر.. الصحفي الأمريكي الذي اتهمته جاكلين كنيدي بأنه أذاع أسراراً خاصة ائتمنته عليها»..

هل يمكن أن يواجه أحد.. أي أحد.. جماهير الرأي العام.. بأن تغيير الأسماء.. يمكن أن يجعل جريدة كبيرة مثل زميلتنا «الأهرام» تكيل بكيلين.. وتحكم بمنطقين.. وتؤيد رأيها.. بحجتين متناقضتين..

حقوق النشر باللغة العربية محترمة ـ بل واجبة الاحترام ـ بالنسبة لكتاب موت رئيس.. لأن جريدة الأهرام اشترتها وتعاقدت عليها.. وحقوق النشر باللغة العربية مباحة ـ بالنسبة لكتاب «مذكرات زوكوف» الذي ألفه الماريشال زوكوف.. لأن «الجمهورية» هي التي اشترتها وتعاقدت عليها..

هناك فرق واحد فقط بين الحالتين..

أن «الجمهورية» احترمت حقوق «الأهرام» في عام ١٩٦٧، وصدقت ما أعلنته عن شرائها لهذه الحقوق مع أنها لم تنشر صورة زنكغرافية لتعاقدها..

وأن جريدة «الأهرام» في عام ١٩٦٩ ضربت عرض الحائط، بصورة التعاقد التي نشرناها..

بل أن جريدة «الأهرام» حريصة على تسجيل حقوقها في النشر باللغة العربية التي تشتريها.. لا في الكتب الهامة، ولكن حتى في المقالات التي تنشرها المجلات الأجنبية!

ودليلنا على ذلك:

الصفحة الأولى من جريدة الأهرام ٢٠ اكتوبر ٦٧

العنوان: «موضوعات الأهرام الخاصة. جذور المرارة».

تحت العنوان: «في مسلسلة موضوعات الأهرام الخاصة يظهر على الصفحتين الرابعة والخامسة من عدد اليوم موضوع تحت عنوان «جذور المرارة» اشتراه الأهرام وحصل على حق نشره باللغة العربية من مجلة لايف الأمريكية».

الصفحة الأولى من جريدة الأهرام ٢٧ اكتوبر ٦٧

العنوان: «جذور المرارة»..

تحت العنوان.. ينشر الاهرام اليوم على الصفحتين الرابعة والخامسة الجزء الثاني والأخير من موضوع جذور المرارة الذي حصل على حق نشره باللغة العربية من مجلة لايف الأمريكية..

وغير ذلك من الأمثلة العديدة التي لا تكلف أي قارىء أكثر من مراجعة سريعة لمجموعة جريدة «الأهرام».

وقد نشرنا أمس الأول، يوم أثرنا قضية احترام حقوق النشر وتقاليد الصحافة.. أمثلة أخرى.. لا داعي لتكرارها.

سابقة منذ ١١ عاماً

ولكن هل يقع مثل هذا الحادث الخطير.. الاعتداء على حقوق الغير في النشر.. هل يقع في بلادنا لأول مرة..!.. هل تواجهه الصحافة المصرية مع جريدة الأهرام في عام ١٩٥٩ فقط!..

الجواب.. لا..

أن لهذا الموضوع الخطير، سابقة هامة في التاريخ القريب للصحافة المصرية..

وتشاء المصادفة أن تكون «الجمهورية» هي الطرف المعتدى عليه أيضاً!.

حدث ذلك في يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٥٨.
أي منذ أحد عشر عاماً!

كان الصحفي الكبير الأستاذ جلال الحمامصي يرأس تحرير «الجمهورية» في ذلك الوقت وقد اشترى باسم الجمهورية حق نشر مذكرات عن الأميرة

البريطانية مرجريت باللغة العربية في الشرق الأوسط، وكانت وكالة اليونايتدبرس الدولية هي الوسيط في إتمام العقد، وفي نفس الوقت اشترت جريدة «الديلي ميل» اللندنية حق نشر هذه المذكرات في بريطانيا.

وقبل ٢٦ سبتمبر عام ١٩٥٨، أعلنت الجمهورية في صفحتها الأولى عن شرائها لحقوق نشر كتاب الأميرة مرجريت في الشرق الأوسط وأنها ستبدأ النشر بعد أيام..

وفي صباح ٢٦ سبتمبر عام ١٩٥٨ فوجئت أسرة تحرير «الجمهورية» بأن جريدة «الأخبار» التي تصدر عن دار أخبار اليوم، نشرت الفصل الأول من هذا الكتاب نقلاً عن اعداد جريدة الديلي ميل التي كانت قد وصلت إلى القاهرة.. وتجاهلت تجاهلاً كاملاً، الاعلان الذي أذاعته «الجمهورية» وشرائها لحق النشر في الشرق الأوسط..

حادث سطو

ولم تسكت الجمهورية عن حقها..

واحتكمت إلى الرأي العام.. تطلب إليه حماية القانون وحماية التقاليد الصحفية..

وكانت «الجمهورية» عنيفة في صرختها..

فقد نشرت على صفحتها الأولى صباح ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨ تحت هذا العنوان «فضيحة.. حادث سطو خطير».. نشرت تقول:

«ارتكبت جريدة الأخبار الصباحية التي تصدر في القاهرة من دار أخبار اليوم صباح أمس حادث سطو خطيراً.. طيرت وكالات الأنباء أمس نبأ هذا الحادث الذي سطت به الأخبار بالقوة على فصل من كتاب غرام مارجريت الذي اشترت جريدة الديلي ميل اللندنية حق نشره في المملكة المتحدة، واشترت جريدة الجمهورية حق نشره في الشرق الأوسط. أن جلال الدين الحمامصي يكتب على الصفحة الثالثة من عدد اليوم عن هذا الحادث الخطير، وتفاصيل استيلاء «الأخبار» بالقوة على حق ليس لها.. حق نالته «الجمهورية» بمفاوضات

استمرت أسبوعاً كاملاً كان الوسيط فيها وكالة اليونيتدبرس الدولية بطريق البرق.

ونشر جلال الدين الحمامصي مقالاً ملتهباً بالحماسة والغيرة على التقاليد الصحفية بعناوين ضخمة بعرض الصفحة.. وكانت عناوينه «فضيحة حادث سطو - درس في الصحافة والأخلاق - جريدة الأخبار.. إلى أين؟ - المهم هو المبدأ قبل كل شيء»..

واعتذر المعتدي

وبدأ مقاله بقوله «لست أدري كيف أبدأ.. أنها مهمة شاقة.. والموضوع له حساسية فريدة، لأنه يتعلق بالزمالة والمهنة، وأكثر من ذلك يتعلق بدستور الصحافة وحقوق النشر والأخلاق. يتعلق بمبادىء هامة لا بمبدأ واحد فقط»..

ثم قال: «أن المبادىء الصحفية يجب أن نحددها ونحترمها. إذ لا احترام لصحافة لا تقوم على المبادىء، ويوم تضحى صحافة بمثل هذه المبادىء من أجل سبق في نشر ما لا حق لها في نشره.. يوم..».

ولا نجد داعياً لإكمال نشر هذه العبارة، لأن قسوتها رغم عدالتها، قد لا تحتمل..

ثم قال «أن القانون يستطيع حماية صاحب الحق، ولكني أكره أن يتدخل القانون في أي شأن من شئون الصحافة أو العلاقة بين الزملاء، ذلك لأن حق الزمالة هو الذي يجب أن يقوم مقام القانون أولاً وأخيراً»..

وقال «ان جميع الصحف البريطانية أقرت حق الديلي ميل. وتراجعت عن السطو الذي اعتدناه في صفحاتنا المصرية دون غيرها من الصحف المحترمة في العالم».

ومن حق القارىء أن يسأل ماذا حدث بعد ذلك؟..

الجواب.. ان صحيفة «الأخبار» توقفت فوراً عن النشر واعترفت بخطئها.

حدث ذلك في عام ١٩٥٨.

أمـا جريـدة «الأهرام». . فلم تتـوقف عن نشر مذكـرات زوكوف، رغم مرور أحـد عشر عاماً. . ومع أنه لا خلاف على أن صحافتنا تتـطور إلى إرساء وتعميق تقاليد جديدة ومع أنه لا خلاف حول الدور الهام «الخطير الذي تقوم به جريدة الاهرام، والذي يفرض عليها مسئوليات أكبر وأكبر.

وساطة نحترمها

وبعد. . ماذا نريد؟. .

ماذا تريد أسرة تحرير «الجمهورية». .

إن مـا يهمنا في المقـام الأول، هو احـترام التقاليـد الصحفية. . ولـذلـك دعونا إلى تدخل نقابة الصحفيـين، لكي تحسم هذا الأمـر. . حتى لا يتكرر من صحيفة أخرى. . أو مع صحيفة أخرى. .

ولقد كانت هناك وساطة ممن نقدره ونحترمه تدخلت لكي يقبل الـطرفان ـ الأهرام والجمهورية ـ تحكيم نقابـة الصحفيين وحسم هـذا الموقف، ولقد قبل الطرفان هذا التحكيم.

ونطالب اليوم أن يتم وفي أسرع وقت إتخاذ قرار في هذا الأمر الخطير.

* * *

أما استمرار جريدة الأهرام في نشر مذكرات زوكوف أو تـوقفها عن النشر فهذا أمر تقرره الآن نقابة الصحافة. . وهو أولاً وأخيراً متروك لضـمائر العـاملين معنا في ميدان واحد. .

« أسرة الجمهورية »

انتهى مقال «الجمهورية» ردا على « الأهرام » . .

الوساطات. . وتدخل النقابة

وبعـد أن تقـدمت «الجمهـوريـة» إلى القضـاء، بـطلب مصـادرة أصـول المذكرات في «الأهرام». . وبعد أن مثل المحاميان. . محامي الجمهـورية ومحـامي الأهرام . . أمام القاضى . . تدخل عنصر مفاجىء ، لا أدرى سره حتى الآن . .

وعرض في المحكمة اقتراح، بأن يحتكم الطرفان إلى نقابة الصحفيين، بدلاً من القضاء. . وقبل الطرفان!

وسألت فتحي غانم في ذلك الوقت: ماذا جرى؟. .
ولم أسمع منه إجابة واضحة. .
وسألته أخيراً ـ خلال كتابة هذا الكتاب: فقال لي إنه لا يذكر. .

وبدأ مجلس النقابة، برياسة النقيب كامل الزهيري بحث موضوع النزاع. .

وطالت الجلسات وامتدت، ولا قرار!

لقد عقد جلسة مساء الأربعاء ١٤ مايو امتدت من الثامنة مساء وحتى الواحدة والنصف صباحاً. .

ثم عقد جلسة ثانية في الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس ١٥ مايو امتدت حتى الثانية والنصف بعد الظهر. .

ثم عقد جلسة ثالثة في نفس اليوم، من الثامنة مساء، حتى منتصف الليل.

وكان علي حمدي الجمال ـ رحمه الله ـ يدافع عن موقف «الأهرام» في كل هذه المناقشات التي طالت وتشعبت على مدى ١٣ ساعة. . وكان الغرض الذي تقوم به «الأهرام» للتوفيق، هو أنه سينشر آخر حلقة من المذكرات يوم الإثنين التالي، ولن ينشر بعد ذلك.

وقال لي صبري أبو المجد أخيرا، إن علي حمدي الجمال، تلقى مكالمة تليفونية من سكرتيرة هيكل في خلال الجلسة الأخيرة، عاد بعدها مستريح الأعصاب. . إذا أبلغته السكرتيرة، أن موعد لقاء الرئيس لهيكل قد تحدد، وأنه ـ أي هيكل ـ في طريقه إلى بيت الرئيس. .

وقيل إن تحديد الموعد لهيكل، كان مؤشراً، لانتهاء حالة عدم الرضا. .
ولذلك رأى عقلاء المجلس، التهدئة دون الإشعال، والخروج بقرار متوازن. .

والحق أننا لم نكن ـ في الجمهورية ـ راضين عن قرار النقابة. . لأن

جانـب الحق مع «الجمهورية» كان في منتهى الوضوح، ولا يحتمل أي تـأويل أو شك . .

ولكن الموضوع عولج سيـاسياً . . ولم يعـالج صحفيـاً . . ويبدو لي أنـه لم يكن أمام مجلس النقابة إلا اتخاذ الحل الوسط . .

ونظراً لاهتمام الأجواء الصحفية البالغ بهذا النزاع الخـطير . فقد أرسـل مجلس النقابة، رسالة بقراره . . إلى جميع أعضاء النقابة . .

وهذا نص الرسالة :

بيان نقابة الصحفيين
حول الخلاف
بين الأهرام والجمهورية

السيد الزميل

تحية طيبة وبعد،

من خلال الخلاف الذي نشأ بين جريدتي الأهرام والجمهورية برزت عدة نقاط هامة وحيوية في مجال العمل الصحفي، أحس مجلس النقابـة أن من واجبه مواجهتها على الفور . ولعل أهم هذه النقـاط هي وضع قـواعد راسخـة لأسس التعـامل بـين الصحف وتـرسيـخ آداب المهنـة والحفـاظ عليهـا وتحـديـد أسس التحكيم في المنازعات التي قد تنشأ بين أعضاء أسرتنا . .

وفي البداية نعود إلى قصة الخلاف الذي حدث بين الجمهـورية والأهـرام حول حق كل منهما في نشر مذكرات زوكوف .

فقد تلقى مجلس النقابة طلباً من الجمهورية بناء على قرار قاضي المحكمـة الوقتية وبـاتفاق ممثـلي الجمهوريـة والأهرام رسميـاً في المحكمة ـ بتحكيم مجلس نقابة الصحفيين في الفصل في النزاع القائم .

ولقد أولى المجلس هذه القضية كل جهده على أساس أنها سابقة هامـة في تحكيم مجلس النقـابة لحـل خلاف بـين مؤسستـين صحفيتـين كبـيرتـين ارتضيتـا تحكيمه وتنفيذ قـراره . وعقد لـذلك جلسـة واحدة مستمـرة امتدت من الثـامنة

مساء الأربعاء ١٤/٥/١٩٦٩ حتى الواحدة والنصف صباحاً ورفعت لتستأنف عملها في الحادية عشرة صباح ١٥/٥ حتى الثانية والنصف ثم رفعت مرة أخرى لتبدأ في الثامنة مساء نفس اليوم حتى الثانية عشرة.

ولقد كرس المجلس كل وقته وحشد إمكانياته وأفسح صدره لمناقشة هذه القضية الهامة وبحث تفاصيلها وسماع ممثلي وجهتي النظر من طرفي النزاع مباشرة وناقش معهم كل ما يتعلق بظروف القضية وإجراءات التحكيم وأسلوبه محققاً الحياد التام بين الطرفين المتنازعين، مستهدفاً من كل ذلك الخروج بعدة نتائج أهمها:

أولاً: تسوية النزاع بين الجمهورية والأهرام بما لا يضر مصالح صاحب الحق.

ثانياً: تحديد قاعدة مهنية وأخلاقية للتعامل بين المؤسسات الصحفية.

ثالثاً: ترسيخ وتقوية آداب المهنة والمحافظة عليها.

رابعاً: تأكيد دور مجلس النقابة كهيئة تحكيم في حل المنازعات وتسوية الخلافات في المهنة كلها.

خامساً: تنوير الرأي العام على المستوى الصحفي وعلى المستوى العام بحقيقة هذه القضية التي أثارتها الصحيفتان على صفحاتها.

وبعد الجهد المخلص لمجلس نقابتكم مستعيناً بكل جهد أطراف النزاع والمستشارين القانونيين للنقابة - توصل الطرفان - الأهرام والجمهورية - إلى التصالح وإنهاء هذا الخلاف بروح ودية حفظت للزمالة كرامتها والمهنة أخلاقياتها وقدم الطرفان مشروع اتفاق طالباً المجلس كهيئة تحكيم الموافقة عليه وجاء المشروع كالتالي: -

«رغبة من الطرفين في إنهاء الموضوع محل نظر المجلس الموقر صلحاً، وحرصاً منا على أواصر الزمالة والتقدير المتبادل، فقد اتفقا على أن يطلبا من المجلس إثبات الصلح بينهما على أساس صدور قرار من المجلس يحفظ حق كل مؤسسة صحفية تشتري حق النشر من مؤلف أجنبي من أن تلاحقه مؤسسة

أخرى بالنشر. ويقترحان لذلك إصدار القرار الآتي من المجلس الموقر حتى يصبح قاعدة للتعامل وليرسي تقليداً صحفياً يراه الطرفان كريماً وضرورياً. وصيغة القرار المقترح هي:

«يقر مجلس النقابة أنه لا يجوز لمؤسسة صحفية أن تتعرض لحق النشر الذي تشتريه مؤسسة صحفية أخرى من مؤلف أو ناشر أجنبي عن مصنف نشر في الخارج بأية صورة من صور الترجمة أو الإشتقاق أو التلخيص التي يعينها القانون وذلك بصرف النظر عن الأوضاع القانونية بين بلد الناشر والجمهورية العربية المتحدة..

وإزاء اتفاق الطرفين على تسوية خلافهما.. صدق المجلس على صيغة الإتفاق الموقع بينهما حفظاً لروح الزمالة وتأكيداً لروح حياد مجلس النقابة بين خلافات الأعضاء والمؤسسات..

وإيماناً من المجلس بأن قضية الخلاف حول مذكرات زوكوف كانت جزئية واحدة في مجال أخلاقيات التعامل المهني، فقد رأى المجلس أن من واجبه الإسراع في بلورة مبادىء هذه الأخلاقيات وإرسائها بصورة حاسمة وواضحة، فشكل لجنة من بين أعضائها وبرئاسة النقيب لتتولى العمل فوراً في وضع قواعد محددة لأخلاقيات المهنة تحكم علاقات الأفراد والمؤسسات. ومن المقرر أن تستعين اللجنة بأكبر عدد من الزملاء أعضاء الجمعية العمومية للاسترشاد برأيهم في كل ما يتعلق بأخلاقيات العمل الصحفي. ومن المقرر أيضاً أن يعرض مجلس النقابة عمل اللجنة على الجمعية العمومية عندما يتبلور ذلك في مشروع متكامل لمناقشته والتصويت عليه.

وبعد.. فإن المجلس يرجو أن يكون قد أرسى قاعدة هامة تنظم العمل مستقبلاً بين المؤسسات في موضوع النشر عندما أصدر قراراً يحفظ لكل مؤسسة حقها في النشر وفي عدم تعرض مؤسسة أخرى لها إذا ما حصلت على مصنف أجنبي من مؤلف أو ناشر أجنبي.

ويرجو المجلس أن ينهى عمله في تجديد أخلاقيات المهنة وقواعد التعامل بين الزملاء والمؤسسات في شكل مشروع متكامل يقدمه لجمعيتكم العمومية الموقرة.

ويرجو المجلس من الزملاء الـذين لديهم الإستعـداد للإسهـام بآرائهم في عمل اللجنة المتفرعة عن المجلس، والمكلفة بوضع أخلاقيات المهنة . . أن يتصلوا بالنقابة في أقرب وقت حتى تباشر اللجنة الفرعية المختصـة عملها مستعينـة بكل رأي سليم وبكل مناقشة بناءة.

وتقبلوا بقبول فائق الشكر . .

السكرتير العام
صلاح الدين حافظ
١٩٦٩/٥/٢٠

نقيب الصحفيين
كامل زهيري

* * *

وتوقف نشر مذكرات « زوكوف » فى الأهرام . . (*)

واستمرت «الجمهورية» في النشر يومياً . . وعلى مدى طويل.

وهكـذا انتهت أخطر أزمـة تعرض لهـا «الأهـرام» مـع مؤسسـة صحفيـة أخرى، ولأول مرة . .

(*) كانوا يسمونه «زوكوف، مارشـال روسيا العـظيم»، بدأ يلمـع عالميـا عندمـا عين رئيسـاً لأركان حرب الجيش السوفييتي في أكتوبر ١٩٤٠، بعد اندلاع الحـرب العالميـة الثانيـة. وظهر نبـوغه العسكري عندما قاد القوات المدافعة عن موسكو ١٩٤١. أشرف بعد ذلك على تنـظيم جميع جبهات القتال داخل الإتحاد السـوفييتي. ثم تولى القيـادة العامـة للقوات السـوفييتية في ألمـانيا ١٩٤٤، وأصبح قائدا عاماً للقوات البريـة السوفييتية عام ١٩٤٦. ثم عين وزيراً للدفـاع في عـام ١٩٥٣ واستمر في منصبه حتى عام ١٩٥٧. كـان عضواً في اللجنـة المـركـزيـة للحـزب الشيوعي السوفييتي، وحمل أكبر عدد من النياشين والأوسمة. كان يقول إنه لا يستطيـع ارتداء حلته العسكرية الرسمية أكثر من ساعة، بسبب ثقل وزن النياشين. حصل على وسام لينـين، ووسام النصر، ونيشان المحبة من الدرجة الأولى.

● يحتـوي كتابـه على ١٨ فصـلاً في ٧٥٠ صفحة. تنـاول القصـة الكـاملة للحـرب، في معاركها الأولى، ولمـاذا انسحب الجيش السوفييتي إلى لينـنجراد. وكيف جرت معـركة مـوسكو بين قوات هتلر والقـوات السوفييتيـة، وكيف استمرت بعـد ذلك المعـارك الطاحنـة على أرض

وكان معروفاً، أنني أنا الذي كتبت كل ردود هـذه المعركـة، ولو لم أوقـع باسمي.. كان التوقيع «أسرة الجمهورية»..

وهذه الواقعة، وغيرها، تركت آثاراً في العلاقات بيني وبين محمد حسنين هيكل..

= الإتحاد السوفييتي. روى لي القصة الكاملة لمعركة ستالينجراد وانسحاب الألمان، ثم طرد قوات هتلر من أوكرانيا.. ثـم القصة الكاملة للزحف عـلى برلـين، والتفاصيـل الدقيقـة لاستسلام ألمانيا بدون قيد أو شرط.

الفصل الثاني والعشرون

ثورة و٣ انقلابات.. في عشر سنوات

إعدام الملك فيصل والأمير عبد اللاه ــ إعدام عبد الكريم قاسم ـ مقتل عبد السلام عارف ــ البحث عن قصة الثورة ــ صورة صحفية تقودنا إلى كل الأسرار! ـ أقسمت بشرفي ألا أنشر أسماء الضباط ـ كلمة «أنا» في مؤتمر صحفي ٣١١ مرة! ـ مناورة عبد الكريم قاسم مع الوفد اليمني ـ لقاء عارف بعد إعدام قاسم ـ محاصرة وزارة الدفاع بالدبابات ـ شروط قاسم للتسليم ـ آخر حوار بين قاسم وعارف قبل الاعدام ـ عارف يطلب من قاسم أن يقسم على المصحف الكريم ـ اتفاق إعلان الوحدة بعد شهرين من الثورة ـ أزمة عبد المجيد فريد ـ حكم الأمراء لا حكم الفقراء ـ جثة قاسم ـ حياة عارف في السجن ـ سيارة وقصر ــ الحرس البعثى يحكم الشارع ــ طائرة تقصف القصر الجمهورى وبداخله عارف ـ الاشتراكية الماركسية ـ جنازة رهيبة بعد مصرع عارف ـ انقلاب حسن البكر.

الفصل: الثاني والعشرون

ثورة و ٣ انقلابات.. في عشر سنوات!

ـ «احتفظ دائماً بجواز السفر جاهزاً في جيبك . .»

كان هذا هو شعارنا في «أخبار اليوم»، وخاصة أن المنطقة العربية تتعرض لهزات مفاجئة . .

وهكذا كنت في مطار بغداد، في اليوم السادس عشر من يوليه ١٩٥٨ . . أي بعد قيام الثورة التي قادها عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، وأطاحت بالنظام الملكي في العراق، وحكم نوري السعيد بثمان وأربعين ساعة . .

وصلت الى العراق، وكان قد تم إعدام الملك فيصل، وولي العهد الأمير عبد الالآه رمياً بالرصاص. كما تم قتل نوري السعيد أثناء هربه من أحد المنازل، وهو مختف في زي امرأة!

* * *

وجرت الأيام، وقاد عبد السلام عارف انقلاباً أطاح بعبد الكريم قاسم وانتهى إلى إعدامه رمياً بالرصاص في ١٤ رمضان عام ١٩٥٨ . وكان هذا الانقلاب بالتعاون مع حزب البعث.

وبعد ٢٤ ساعة كنت في بغداد. . وفي مكتب عبد السلام عارف رئيس الجمهورية الجديد. .

* * *

ثم جرت محاولة للاطاحة بحكم عبد السلام عارف، من المتطرفين في

حزب البعث، وضرب القصر الجمهوري بقنابل طائرة حربية قادها أحد المعتقلين. . وانتصر عبد السلام عارف.

وكنت في مكتبه في بغداد في اليوم التالي. . .

* * *

ثم كان مقتل عبد السلام في طائرة هيلوكبتر. . وسافرت إلى بغداد.

واشتركت في تشييع جنازته، وتابعت أخبار الحاكم الجديد. . شقيقه عبد الرحمن عارف. ولم يستمر حكم عبد الرحمن عارف كثيراً. . لقد أطاح به إنقلاب بقيادة أحمد حسن البكر، أسقط حكمه في ١٧ يوليو ١٩٦٨. .

* * *

وتعرضت في رحلة الثورة الأولى، لتجربة صحفية، يجدر أن أسجلها. . تؤكد أن السعي وراء الأخبار، طريق غير مسدود. . وأن ملاحظة يمكن أن تقود الصحفي إلى الكنز الذي تصور أنه فشل في العثور عليه!

لقد قابلت في رحلتي الأولى قائد الثورة عبد الكريم قاسم، أربع مرات، وعرفت كل شيء عن حياته الخاصة، وتاريخه في الجيش وتطلعاته للمستقبل. . وعرفت أن سر نجاحه، هو حذره الكامل، وقدرته على الخداع. . وقد كان لصيقاً بقيادات الحكومة والجيش، وكان يظهر الولاء التام، والطاعة التي تصل إلى حد النفاق. . ولهذا لم يكن موضع شك قط. .

وقابلت الرجل الثاني عبد السلام عارف مرات، كان رجلاً شجاعاً مفتوح القلب، يحب مصر إلى أبعد الحدود، ويسعى إلى تحقيق الوحدة مع مصر بكل الايمان. . وكان يقيم وينام مع عبد الكريم قاسم في حجرة واحدة. . كما سافرت معه في أكثر من رحلة إلى مختلف نواحي العراق. . ولكنه رفض رفضاً قاطعاً، أن يروي لي كيف تم التدبير للثورة، في ظل حكم له جواسيسه في كل مكان، ويسيطر على الجيش سيطرة كاملة. . .

كان حجة عبد الكريم قاسم في الرفض، أن التخطيط للثورة يجب أن يبقى سراً، حتى تفيد منه قوى الثورة في دول عربية أخرى. .

وكانت حجة عبد السلام عـارف في الرفض، أنـه تعاهـد مع قـاسم على الكتمان. . ولذلك لن يبوح.

وعنـدما كنت إلى جـواره في طائـرة رحلاتـه، كان يتـظاهر بـالنـوم، حتى يتهرب من اجابتى على السؤال الذى حيرنى . . كيف قامت الثورة ؟ .

وأمضيت أسبوعين. . وعرفت قصة إعدام الملك وولي العهد. . ووجدت وثائق رسمية في قصر الملك، عبارة عن مراسلات بينه وبين ولي العهد. . وبـين رجاله في القصر، كشفت الشيء الكثير من أسرار الحكم. .

والتقيت بـالرجـل الذي قبض عـلى نوري السعيـد خـلال هـربـه في زي امرأة، وانتهى الأمر إلى قتله. . إسمه وصفي طاهر، وقد كان الحارس الخـاص لنوري السعيد الذي لا يفارقه ليل نهار!

كما أجريت أحاديث مع عـدد كبير من الوزراء الجدد. . وكتبت تحقيقـات عن هذه الأمور ولكن بقيت قصة التخطيط للثورة وتنفيذهـا سراً مغلقاً عـلى. . وكنت قـد أمضيت أسبوعـين في العراق. . وكـان عـلي أن أعـود إلى القـاهـرة. وأصابني يأس كامل، من إمكانية الحصول على أسرار هذه الثورة.

وفي اليوم الأخير قبل سفري، كنت على موعد مع عبد السلام عـارف في مطار حربي قريب من بغداد لكي أصحبه في جولة إلى إحدى منـاطق العراق. . تنتهي في المساء. . ثم أسافر إلى القاهرة، في اليوم التالي. .

وأسرعت إلى سيـارة التـاكسي مـع زميـلي المصـور الصـحفي خميس عبد اللطيف وإذا بالسائق يضل الطريق إلى المطار. . وإذا بنـا نصل بعـد إقلاع طائرة عبد السلام عارف. . وقيل لنـا أنه انتـظرنا خمس عشرة دقيقـة. . وكانت صـدمـة لي لأنني كنت لا أزال آمـل في أن يـروى لي قصـة الثـورة. . وكـانت العلاقات بيننا قد توطدت. . وكنت قد شعرت أنه بدأ يثق بي. .

ما العمل؟ . .

وكيف أمضي اليوم؟ . .

قال لي خميس عبد اللطيف: هيا بنا نعـود إلى وزارة الدفـاع. . لأستكمل تصـوير الشخصيـات العاملة في الـوزارة. . ومن يدري ربمـا لمع منهم نجـوم في

المستقبل. . وحاول أنت أن تقابل عبد الكريم قاسم لعلك توفق في إقناعه بالكلام. .

وقبلت على مضض. . وقد استولت على نفس تعاسة شديدة. . إنني أمقت الفشل كما أمقت الموت. .

وصعدنا درجات وزارة الدفاع. . وقد أصبحنا خبراء في معرفة دهاليزها ومكاتبها من كثرة ما ترددنا عليها. .

ولفت نظري لافتة على باب كتب عليها «سكرتير عام الوزارة». . وقال خميس: هيا ندخل لأصوره. .

ودخلنا. . وجدت صاحب المكتب شاباً أسمرة البشرة، هادىء الوجه قصير الشعر. . لامع العينين. . طويل القامة. . عريض الصدر. . يوحي إليك من النظرة الأولى أنه يتمتع بشخصية تجذبك إليها بالحب والاحترام. . وكنت قد لاحظت في زياراتنا السابقة لوزارة الدفاع، أنه يكثر من الدخول إلى مكتب عبد الكريم قاسم. . وأن الباب يفتح على الفور دون المرور على السكرتير. .

وأدركت أنه لا بد أن يكون له دور في هذه الثورة. .
وقررت أن أستدرجه. .

إن الصحفي عندما يتصور أنه وقع على صيد ثمين. . يتحول إلى ثعلب. . يمكر ويلف ويدور ويداعب غرور صيده. . حتى يحوله إلى فريسة طيعة. .

قلت له: إن الثورة تقع الآن في خطأ كبير. .
قال: كيف؟!. .

قلت: بعدم إذاعة القصة الكاملة لتدبيرها ونجاحها. . لقد نشرت استنتاجات في بعض الصحف العربية في مصر ولبنان. . كلها بعيدة عن الحقيقة وسيحدث هذا النشر إنقساماً في صفوف الجيش. . لأن بعض الصحف نسبت نجاح الثورة إلى لواء معين. . وبعضها نسبته إلى فرقة أخرى من فرق الجيش.

قال: هذا صحيح. . ولكن ليس من الصالح العام في شيء أن تنشر

أسماء الضباط الأحرار أو أدوارهم، لأن هذا النشر سيثير الحفيظة والشحناء بينهم.

قلت: أنا معك.. إن نشر أسماء الضباط بالغ الخطورة.. ولن يسمح لي ضميري حتى لو عرفت أسماءهم أن أنشرها.. إنني أنصحكم فقط بنشر الحقائق الموضوعية فقط..

* * *

وهنا دخل ضابط كبير كان قد نشأت بيني وبينه شبه صداقة، وكنت قد زرته في بيته والتقطنا له عدة صور.. وكان قد روى لي شيئاً عن دوره في الثورة.. ولكن دوره لا يكون عشرة أسطر من قصة الثورة إذا طبعت في مجلد كبير..

وإذا بهذا الضابط يقول لي فجأة:

ـ آه.. يا مندوب أخبار اليوم.. أخيراً استطعت أن تصل إلى الرجل الذي يعرف كل أسرار الثورة بأدق التفاصيل..

وكانت هذه العبارة مفاجأة كبرى!..

وتظاهرت بأنني أعرف هذه الحقيقة.. وقلت:

ـ إن عندي فكرة عن دوره.. وأعرف أنه يخفي كل الأسرار.. ولذلك لجأت إليه اليوم، حتى لا أنشر قصة مشوشة تضر ولا تنفع..

وضحك صاحب المكتب.. ولم يتكلم.. ولكنني أحسست أنه يفكر. لقد بدأ يتردد..

وتدخل الزائر المفاجىء.. قائلاً له: «.. ولماذا لا تروى له كل شيء. إنه صحفي أمين.. ولن يكتب إلا ما يتفق معك على كتابته..».

وتطور الأمر بسرعة في لحظات..

وقال صاحب المكتب: هل تعدني بشرفك ألا تنشر الأسماء..؟

قلت: هذه مسئوليتي.. إنني أعرف من غيرك أسماء كثيرة اشترك أصحابها

وأعرف أدوارهم. . ولكنني لن أنشرها مع أن أصحابها راغبون في الدعاية عن أنفسهم. .

واقتنع الرجل. .
واستمر يروي أكثر من أربع ساعات!!

وبعد أن نشرت القصة في أخبار اليوم. . تزاحم الصحفيون العالميون والعرب حول عبد السلام عارف يسألونه عن صحة ما نشر. . فقال لهم بالحرف الواحد: أن ما نشرته أخبار اليوم هو الشيء الوحيد الصحيح الذي يروي القصة الكاملة للثورة. . وهذا ما أبلغني به سليم اللوزي. .

والتزمت بوعدي مع صاحب المكتب. . وقد اتضح أنه كان رئيس الخلايا السرية للضباط الأحرار في بغداد. . وأنه هو الذي تولى الاستيلاء على معسكر الرشيد الذي تركزت فيه كل الأسلحة التي كانت معدة لحماية الحكم الهاشمي. . ثم كشفت لي الأيام بعد ذلك أن محدثي من أقطاب العمل السياسي السري. . وقد تولى الوزارة أكثر من مرة. . واختلف مع عبد السلام عارف. . وكان له دور خطير في أحداث العراق اللاحقة. . .

إن إسمه «عبد الستار عبد اللطيف».
ولا أعرف أين هو الآن. .

واستمر حكم عبد الكريم قاسم خمس سنوات. . وانتهى إلى إسقاطه، بانقلاب قادة عبد السلام عارف، ثم إعدامه رمياً بالرصاص، بعد معركة دامية، هاجمت فيها قوات الانقلاب وزارة الدفاع التي كان يقيم فيها، حتى سلم قاسم نفسه، عندما لجأ إلى مبنى البرلمان المجاور لوزارة الدفاع. . وكان عبد الكريم قاسم، بعد الخلاف مع عبد السلام عارف، قد أرسله إلى الخارج. . ثم سجنه. . ثم أفرج عنه. . وكان عارف يدبر للانقلاب في الخفاء متعاوناً مع حزب البعث. .

والحق أن قاسم كان شخصية غريبة. . وتعددت في وصفه الآراء. . لقد تحالف تحالفاً كاملاً مع القوى الشيوعية المحلية في العراق. . ونسب له خصومه كل ما يمكن أن يتخيله الانسان من الاتهامات. . قيل أنه مجنون يؤمن بأنه ظل

الله على الأرض. . وأنه لم يعد تستهويه إلا مشاهد الدماء. . وأنه يتحالف مع كل من يتصور أنه سيكون سنداً له في بقائه حاكماً أوحد. . وأنه لم يعد يختار للعمل معه إلا من يضفون عليه ألقاب الخلود وصفات الآلهة. . وردد الخصوم بأنه كان مقتنعاً بأنه خالد خلود الآلهة، وأنه كان لا يدور إلا حول نفسه حتى أنه استخدم كلمة «أنا» في مؤتمر صحفي واحد ٣١١ مرة!

وكان آخر وفد عربي اجتمع بعبد الكريم قاسم في بغداد قبل مصرعه. . هو وفد الثورة اليمنية برياسة عبد الله جزيلان وزير دفاع اليمن حينئذ. . لقد سافر الوفد إلى بغداد يطلب اعتراف قاسم بثورة اليمن. .

لقد دعا قاسم الوفد اليمني للاجتماع به يوم وصولهم. . واستمر الاجتماع أربع ساعات كاملة. ولم يترك عبد الكريم قاسم فرصة لأحدهم أن يتحدث ولو بكلمة واحدة. . جلسوا أمامه يستمعون إلى خطبه من جهاز تسجيل. وبين وقت وآخر يوقف جهاز التسجيل ليقول لهم: «هل سمعتم هذا التصفيق المدوي؟. . هذا هو صوت الشعب. . «ثم يتابع إدارة التسجيل ويوقفه فجأة ليقول «هنا لخبطة. . بعض الخونة حاولوا التشويش ولكنني أفحمتهم. . انتبهوا جيداً للفقرة التالية من خطابي». . وهكذا استمر الاجتماع أربع ساعات دون أن يتكلم واحد منهم عن ثورة اليمن واعتراف قاسم بها. .

وأتفق معهم على لقاء في اليوم التالي. . وأخذ يحدثهم عن محاولة اغتياله. . وعن كونه الزعيم الأوحد في الشرق الأوسط الذي يخشاه الاستعمار. . وعن تحرير فلسطين على الخريطة. . وعن خططه السرية لتحرير الخليج العربي. . وكلما انتهز واحد منهم فرصة توقفه لحظة. . وحاول أن يفتح موضوع الاعتراف بثورة اليمن، قاطعه قاسم: « انتظر انتظر » . . ثم يتابع حديثه عن نفسه وعن زعامته. . وانتهى الاجتماع الثاني بعد ثلاث ساعات. .

وخرج أعضاء الوفد اليمني ليعقدوا اجتماعاً خاصاً ويدبروا خطة مضادة. . لقد اتفقوا على أن يتكلم عبد الله جزيلان في الاجتماع الثالث مع قاسم. .

ودخلوا على عبد الكريم قاسم وبدأ يتكلم. . وهنا قاطعه عبد الله

جـزيلان في عنف وقـال-له: «يـا سيادة الـزعيم.. اننا سعـداء جداً أن نسمـع منك.. ولكننا جئنا إلى بغداد في مهمة سريعة نريد جواباً منك بنعم أو لا. هل ستعترف بثورة اليمن.. أولاً؟.. هذا هو السؤال الـذي ننتظره منـذ ثلاثـة أيام وليس لدينا وقت نضيعه في غير ذلك..».

ولم يرد قاسم على السؤال وبدأ يتكلم عن الاستعمار في الخليج العربي..

وقاطعه عبد الله جزيلان للمرة الثانية قائلاً: «أحب أن أوضـح لك أنـك لن تكسب شيئاً من سعود وحسين.. ومعلوماتي أنهم لن يقفوا معك حتى لـو لم تقف معنا..».

وهنا لمعت عينا قاسم وسأل جزيلان: «ما هي معلوماتك في هذا؟..».

وروى له جزيلان قصة خيالية.. ثم سأله عـلى الفور: «والآن.. أعـطنا كلمة صريحة حاسمة.. هل ستعترف أو لا تعترف بثورة اليمن..».

وقال قاسم أنه سيعترف..

ثم تـركه أعضـاء الوفـد يتكلم كما يشـاء عن نفسه وعن زعـامته.. وعن قدرته الخـطابية وعن حب الجـماهير لـه.. واستبقاهم أكـثر من ساعتـين. وأعاد إذاعة التسجيلات. ثم اعتـذروا له بـأنهم لا بد أن يسـافروا اليـوم، ولم يتركـوه حتى أعلن رسمياً اعترافه بالثورة.

* * *

أعدم عبد الكريم قاسم في الرابع عشر من رمضان عام ١٩٥٨..

وأصبـح عبـد السـلام عـارف رئيسـاً للجمهـوريـة.. وأسرعت إلى أول طائرة، وكنت أول صحفي يصل إلى بغداد، ويلتقي بالرئيس الجديد..

وفي هـذه المرة، روى لي عبـد السلام عـارف، حقيقة مـا جـرى.. لقـد تحـالف عـارف مـع البعث لضرب قـاسم وأصبـح أحمـد حسن البكـر رئيسـاً للوزارة.. ولو أن شهر العسل بعد ذلك لم يستمر طويلاً.

التقيت بالضابط الذي قبض على عبد الكريم واقتاده إلى مبنى الإذاعة.. حيث جرت محاكمته مع فـاضل المهـداوي (رئيس المحكمة الهـزلية التي أنشـأها

قاسم للقضاء على خصومه).. كما التقيت بالضابطين اللذين نفَّذا حكم الإعدام في الاثنين..

قال الأول: كان قاسم مرتجفاً. عيناه جاحظتان مشتعلتان ببريق جنونه المعروف. وعندما رأى الجنود يطلقون آلاف الأعيرة ابتهاجاً بأسره، امتقع وجهه، وجلس داخل الدبابة، وعندما وصلنا إلى دار الإذاعة كانت ركبتاه ترتعشان ونزل من الدبابة في صعوبة، حتى أوصلته إلى أحد استوديوهات الإذاعة.

وقال الثاني: كان قاسم يجلس في ركن الحجرة، ممدد الساقين. وقد أرخى يده على مستوى المقعد، وكذلك كان المهداوي. حتى عندما جاء أعضاء هيئة المحكمة، وقرأ رئيسها نص قرارها بالإعدام رمياً بالرصاص حتى الموت، لم يقفا. ونفذ فيهما حكم الإعدام وهما جالسان.

أطلق هذا الضابط، وضابط ثان، نيران مدفع صغير في يد كل منهما. أصاب الرصاص صدر قاسم وبطنه. وأصيب رأس المهداوي.

وقال لي عبد السلام عارف:

«طوال صداقتي مع قاسم قبل نجاح ثورة ١٤ تموز (يوليو) كنت مندفعاً إلى صداقته وتقديره بكل عواطفي وجوارحي. كنت مؤمناً بأنه رجل مبادىء، زاهد، لا يريد من الدنيا غير تحقيق مبادئه. ولم أبدأ في ملاحظة تغيير سلوكه الذي يعبر عن جوهره، إلا بعد مجيئي من الشام، حيث ذهبت لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر. بدأت أرى قاسم على حقيقته شيئاً آخر.»

* * *

ثم يروي عبد السلام عارف القصة الكاملة، لتسليم قاسم، والحوار التاريخي الأخير بينهما قبيل تنفيذ حكم الأعدام.

قال: أذيعت بيانات الثورة.. وتم قصف مبنى وزارة الدفاع بصواريخ وقنابل الطائرات.. ثم تمت محاصرة المبنى بالدبابات.. ثم بدأ الهجوم واقتحمت القوات المبنى.. وطاردت عبد الكريم قاسم والقوات التي كان

يحتمي بها. . وعند المساء كان عليه أن يسلم، حوالي السابعة مساء. لقد قطع الاتصال التليفوني عن كل المبنى. . ولكن قاسم حماية لحياته هرب من خلف مبنى الوزارة حيث تقع مكاتب الانضباط العسكري إلى مبنى مجلس الشعب. . هذا المبنى كان منذ أيام الملك فيصل وهو خلف زاوية وزارة الدفاع. . ووجد قاسم حجرة في المبنى بها تليفون. . فدخل إليها من باب خلفي كسره. . ثم طلب الأخ اللواء طاهر رئيس أركان الجيش. . وقال متوسلاً إنه يريد أن يسلم. . وله بعض الشروط. . فقال له الأخ اللواء طاهر إن الأمر ليس بيده. . هناك مجلس وطني وهناك رئيس للجمهورية. . فاتصل تليفونياً بالإذاعة وطلب أن يتحدث إليّ، وحتى قبل هذا الاتصال أرسل قاسم شخصاً إلى اللواء طاهر. . وطلب باسمه أن يسلم، وجاء هذا الشخص إلى دار الإذاعة وقال انه موفد للتسليم ويريد أن يتكلم معي. . . ولكنني أعرف مراوغات قاسم وحيله تماماً. . كنت أعرف أنه يريد أن يتحايل بكل وسيلة لكي يكسب وقتاً ثم يغدر بالضباط. . وقد ثبت نية غدره فعلاً. . عندما تحدث إليّ بالتليفون قال إن عنده ٣٠ جندياً فقط. . ثم اتضح بعد أن استسلم أنه كان لديه ثلاثمائة (٣٠٠) جندي باقون. . لقد تحدث إليّ بالتليفون لأنه يعرف أنني لست خائناً ولا غادراً مثله وتصور أنه قادر على خديعتي. . ولكنني كنت قد خدعت منه بما فيه الكفاية. . لقد صور لي نفسه قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ على أنه مؤمن بالقومية العربية والوحدة العربية وعدو للاستعمار. . وكنت أصدقه. كان يتصل بي بالتليفون في الليل أيام العدوان على بورسعيد ويقول لي: «هل نمت يا عبد السلام؟». . وكنت أجيب: «وكيف أنام يا عبد الكريم ومصر تضرب بجيوش الاستعمار». . وكان يقول: «عندك حق. . أنا أيضاً لا أستطيع أن أنام». . لقد جعلني أؤمن بأنه وطني حر مؤمن بالعروبة ثم خان الأمانة في أول فرصة. .

أعود لاتصاله بي. . طلبني وأخذ يقول لي إنه أخي وانه لن ينسى العيش والملح الذي أكلناه معاً. . وإن اخوتنا فقط هي كل شيء. . قلت له: أنا لن أنسى الأخوة. . ولن أتنكر لها يا عبد الكريم كما تنكرت أنت لها. . . ولكننا في ميدان مبادىء وانقاذ وطن الآن. لقد قرر المجلس الوطني أن تسلم رافعاً يديك مع نزع رتبك كأسير، كما قرر المجلس الوطني أن يتم التسليم من الباب

النظامي (الرئيسي) لوزارة الدفاع..

وقال قاسم في توسل مخز: «أنا أرجو أن يأتي إليّ الضباط في مبنى المجلس الشعبي».. فقلت له: إن قرار المجلس الوطني أن يسلم نفسه وألا تقل المسافة بينه وبين الضباط الذين سيتقدم اليهم عن ١٥ متراً.

لقد كنا نخشى أن يغدر بالضباط ولذلك اشترطنا هذه المسافة.. ولكنه عاد للتوسل من جديد وأخذ يقول: تذكر علاقتنا العائلية يا عبد السلام.. تذكر اخوتنا.. فقلت له من جديد «أنا أذكر كل شيء.. أنا لم أخن علاقتنا ولن أخونها مثلك.. هذا قرار لإنقاذ البلاد لا رجعة فيه»..

فعاد يقول في التليفون: «هل تريدون إهانتي.. هل تريدون الانتقام مني.. ألا يوجد حل يحفظ كرامتي؟».. فحددنا له أن يسلم بالليل.. فطلب أن يتأجل موعد التسليم وتوسل من جديد أن نعيد النظر في مطلبه.. افحددنا له أن يتم التسليم في السابعة صباحاً حتى نفوت عليه أي مكيدة يريد أن يجريها قبل أن تبزغ الشمس..

ثم عاود الاتصال بي صباح السبت بعد أن انقضى يوم الجمعة. وقال لي منهاراً وأشد توسلاً من أسلوب أمس: «هل تسمحون لي أن أغادر البلاد.. بحق اخوتنا.. احفظوا لي حياتي».. قلت له: «هل تريد أن تكون مثل تشومبي.. لن تكون العراق مثل الكونغو.. ولن تتدخل الأمم المتحدة.. التسليم بلا قيد أو شرط.. وطبقاً للقرار الذي أصدره المجلس الوطني أمس..»

قال: أنا أريد أن تحترمني..
قلت: إننا نكفل لك كل الاحترام.

قال: لقد كنت أقوم على شئون الدولة.. وعندي شئون سرية خطيرة من مصلحة الوطن أن تطلعوا عليها..

قلت: إنك تدعي أنك وطني.. فإذا كنت وطنياً ويهمك أن نعرف أسرار الحكم فيجب عليك أن تخرج وتسلم نفسك بصفتك المسئول الأوحد.

قال: أرجوك.. أرجوك.. أرجوكم.. أنتم اخواني.. لماذا تريدون أن

أسلم بهذه الدرجة من الذلة . . .

قلت: الوطنية فوق المظاهر . . أنت قد أخذتنا الى السجون وأنا واحد منهم ونحن مكبلون بالحديد، ولكننا الآن نخدم الوطن .

قال: هذا انتقام مني . .

قلت: نحن لسنا بمنتقمين . . إننا محررون . .

وأكمل عبد السلام عارف رواية هذه القصة التاريخية بقوله :

«وأخذ يراوغ بكل أسلوب . وكان بين آن وآخر لا يجد جواباً ولا يجد تفسيراً لموقفه» . .

وأخيراً قلت لعبد الكريم قاسم بعد أن أطال في الوقت محاولاً أن يتأخر أي زمن لاحتمال أن يكسب من ذلك شيئاً . . قلت له «انتهت المدة المحددة لك للتسليم بأمر المجلس الوطني» . .

وأقفلت السماعة . وأصدرنا الأمر بقطع التليفون عن بناء المجلس الشعبي ، وكما أمرنا كل القطاعات أن تتقدم فوراً لتنفيذ خطتها بإتمام السيطرة على وزارة الدفاع والقبض على عبد الكريم قاسم ومن معه . . .

وبعد أقل من نصف ساعة . . وصلت إلى دار الاذاعة مدرعة وفيها عبد الكريم قاسم . . ثم سيارة مصفحة وفيها الباقون . . جاء قاسم أسيراً .

كيف كان منظره؟ . . لا أراك الله . . تخاذل وجبن وذهول وارتجاف . لم يستطع أن يقف على قدميه عندما نزل من المدرعة . . وتبعه المهداوي وكان منظره مثيراً للاحتقار والاشمئزاز . . ثم طه الشيخ أحمد الذي بدا كالأخرس وضابط آخر اسمه كنعان خليل سليم . . كان تخاذلهم إلى درجة تؤسف أنهم ضباط بالجيش . . وأدخلوا إلى إحدى غرف الاذاعة . . وجلس قاسم في ركن . . وجلس المهداوي في ركن مقابل وبينهما الاثنان . . ودخلت إليهم ومعي أعضاء المجلس الوطني ورئيس الوزراء والوزراء وعدد من الضباط المشتركين في الثورة وكل الاخوان . . وأخرجت من جيبي المصحف الكريم . . نفس المصحف الذي أقسمنا عليه في ثورة تموز ١٩٥٨ على أن نحفظ العهد وألا نخون المبادىء وأن نعمل للوحدة والقومية العربية . .

وأخرجت المصحف من جيبي، ولكن قبل ذلك جرى حديث طويل مهم. كل غايته التوسل للابقاء على حياتهم مع الاعتراف ضمناً أنهم مقصرون إلى درجة الخيانة.

قال المهداوي: إنه فعلاً أصدر قرارات ضد القانون ولكنه ليس مسئولاً.. المسئول هو عبد الكريم قاسم. وعاد المهداوي أيضاً يتحدث عن الأخوة.. قلت له: أنت لا تنسى الأخوة وخصوصاً تحيات الحمد والشكر التي توجهها إلى عبد السلام عارف عند افتتاح كل جلسة في محكمة الشعب!

ثم استطرد الرئيس عبد السلام عارف قائلاً:

ـ أمسكت المصحف الكريم وقلت لعبد الكريم قاسم: للحقيقة والتاريخ أسألك أمام المجلس الوطني وأمام اخواننا الضباط.. أسألك أن تقسم على هذا المصحف الكريم هل قمت أنت بوضع خطة ثورة ١٤ تموز؟

وصمت قاسم ولم يتكلم.. خرس..

ورفعت المصحف ثانية وسألته: هل تستطيع أن تقسم بهذا القرآن الكريم أنك كنت تعرف تفصيلات خطة ثورة ١٤ تموز؟

وخرس قاسم..

وسألته مرة أخرى: أقسم أيضاً بهذا القرآن الكريم، أنك قد أعددت البيان الأول لثورة ١٤ تموز؟.. أو أن لديك النسخة الأصلية منه؟..

وخرس قاسم...

وعدت أسأله: هل تقسم يا عبد الكريم قاسم بالقرآن الكريم أن ثورة ١٤ تموز لم تقم على الوحدة العربية؟.. ألم يكن الاتفاق يا عبد الكريم.. ألم يكن القسم بالقرآن الكريم على أن ثورة ١٤ تموز هدفها أن يعلن العراق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة بالذات في ظرف شهرين فقط.. وأنك أنت الذي حددت التاريخ.. أقسم يا عبد الكريم..

وسكت قاسم ولم يتكلم..

ثم أقسمت على المصحف الكريم أمام الجميع.. أن هذا كان هو اتفاقنا المقدس على خطة ثورة ١٤ تموز...

وعدت أسأل قاسم: أقسم يا قاسم على هذا المصحف الكريم أننا قد اتفقنا حتى على طريقة الاستفتاء الشعبي في العراق على الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وأنك وافقت على أن أقوم بزيارات لكل أنحاء العراق ثم أعود إلى بغداد وأعلن للملأ نتيجة زياراتي بأن الشعب يريد الوحدة وتطبيقاً لذلك سيجري استفتاء ويعين تاريخه. أقسم يا عبد الكريم أننا اتفقنا على أن يجري الاستفتاء بطريقة شعبية بسيطة. وهي أننا نطبع بطاقتين بطاقة عليها «نعم» وبطاقة عليها «لا».

وخرس قاسم ولم.. يتكلم.

وأمسكت المصحف الكريم وقلت:

للحقيقة والتاريخ أقسم أنني نظمت البيان الأول لثورة ١٤ تموز. وقد اطلع عليه عبد الكريم قاسم.. وعلى ما أذكر بعد الاطلاع.. وعسى ألا أكون مخطئاً قدمنا أو أخرنا كلمة واحدة. وهذا البيان هو النسخة الأصلية ولا يملك قاسم أى مسودة. إن لك الحرية المطلقة يا قاسم أن ترد على كلامي وتصححه. والله ينتقم مني وأنا صائم إذا كنت كاذباً بالقرآن الكريم..

ولم يتكلم قاسم!

ثم سألته: لقد أمرت باعدام الشهيد رفعت الحاج سري وكانت تهمته أنه وضع تليفوناً خاصاً مباشراً بين وزارة الدفاع ومكتب الملحق العسكري في سفارة الجمهورية العربية المتحدة.. وأن سفارة الجمهورية العربية أقامت جهازاً لاسلكياً للاتصال بالقاهرة.. هل تنكر يا عبد الكريم.. هل تستطيع أن تدعي أن هذا التليفون لم يوضع بموافقتك وبأمرك؟ هل تنكر أننا اتفقنا على أن يكون لعبد المجيد فريد مكتب في أركان وزارة الدفاع.. وأن جهاز اللاسلكي أقيم في السفارة بموافقتك وبأمرك.. فكيف تحكم باعدام رفعت الحاج سري بهذه التهمة على أنها خيانة مع أنك أنت الذي أمرت بذلك؟ كيف رضي ضميرك بهذا وأنت تعلم أنه باطل؟..

ولم يجب. واستمر صامتاً مذهولاً.

* * *

ثم قلت له: لماذا افتريت على عبد الناصر؟ هل من الضمير أن تتهم جمال

عبد الناصر بالخيانة! وأن تتهمه بأنه تآمر عليك.. وأنت تعلم أن تهمتك كاذبة غير صحيحة، وأنت تعلم أنه أوصاني خيراً بك أنت بالذات.. وأنه كان يقول لي دائماً: قاسم أخوك من زمان.. ومن مصلحة الشعب ألا تختلفا.. وأن تتحمله وأن تعامله، ومع ذلك أنت تقول أن جمال عبد الناصر تآمر عليك بينما الحقيقة هو أنك أنت الذي تآمرت على جمال عبد الناصر.

واستمر عبد السلام عارف يزيح الستار عن هذا الحوار التاريخي وقال: قلت لقاسم.. لماذا اعتديت على رجال سفارة الجمهورية العربية المتحدة؟ لماذا لفقت لهم التهم.. هل كنت تتصور أن الجمهورية العربية المتحدة ستثور لهذا التصرف فتسحب جميع رجالها من العراق وتغلق سفارتها في بغداد.. كان هذا قصدك؟.. ولكن الله موجود يا قاسم. إن الجمهورية العربية المتحدة لن تقطع العلاقات أبداً مع العراق.. لماذا كنت تعمل ضد العروبة والقومية العربية يا عبد الكريم؟

وهنا تكلم عبد الكريم قاسم.. قال: أبداً.. أنا كنت أحب القومية العربية، وأنا عقدت مؤتمر وزارة خارجية الدول العربية في بغداد.. أنا كنت أدعو للدول الاسلامية وللدول العربية.

فقلت له: يؤسفنى أن أقول لك أن هذا غير صحيح.. كانت دعوتك دائماً ضد العروبة والوحدة وضد السلام.. أنت شعوبي.. ضد القومية العربية..

* * *

وهنا أراد قاسم أن يدافع عن نفسه بالكلام عن سلوكه كحاكم في الداخل. وجمع أطرافه المنهارة.. وخرجت الكلمات من فمه المرتعش ضعيفة خائرة.. فإذا به يقول: أنا كنت أعمل لمصلحة الفقير. أنا بنيت آلاف البيوت الصغيرة للفقراء..

وقال عبد السلام عارف أنه رد عليه بقوله:

- «لا يا عبد الكريم.. حكمك لم يكن حكم فقراء.. كان حكم

الأمـراء. . حكم شقيقـك الأمـير «حـامــد». . والأمـراء الآخــرين أقـاربــك ومحاسبيك. . »

* * *

لقد كان عبد السلام عارف يقصد حامد قاسم شقيق عبد الكريم قاسم. لقـد كان قبـل الثورة رجـلاً فقيراً يكـاد يكـون معـدماً. وهنـاك واقعـة لم يشأ عبـد السلام عـارف أن أنشرهـا. . وكـانت دليـلاً عـلى أن قـاسم نشـأ في أسرة متواضعة. لقد توفيت شقيقة قاسم وحـامد. . ورأت أسرة عبـد السلام عـارف أن تدعو أبناء حامـد إلى منزلهم حتى ينتهي العـزاء في عمتهم. . وجاء الأطفـال بلا أحذيـة لقد كـانت حالـة والدهم (شقيق عبـد الكريم قـاسم) لا تسمح لـه بشراء أحذية لأطفاله. . ولم يكن هذا يعيبه. . لأن الفقر لم يكن عيباً يوماً ما. . وكانت بغداد تروي هذه القصة في أوائل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ دلالة على نـزاهة عبـد الكريم قـاسم. . فماذا جـرى لحامـد بعد الثـورة؟. . أصبح مليـونـيراً. . وأصبح رئيساً لنادي التجارة. . وأصبح يطير إلى عواصم أوروبا. .

أصبحت له أموال باسمه في بنوك أوروبا وأمريكا تحت أرقام سرية!

* * *

ويتابع عبد السلام عارف حديثه قائلاً: قلت لعبد الكريم قاسم. . حكم الفقراء. . أم حكم الأمراء. . أصبحت حكومة البرنس حامد. . نوري السعيد كان له ولد واحد فاسد. . وأنت كل أقاربك أصبحوا أمراء. . برنسـات. . هل هذا هو حكم الفقراء. . حامد يصبح رئيساً لنادي التجـارة؟ ويصبح من غـلاة الأثرياء؟. .

وأنت يا قاسم. . أنت تدعي للشعب أنك لا تملك سوى القميص الذي ترتـديه، وقد رأيت بـأم عيني الجناح الخـاص الذي أقمتـه في وزارة الدفـاع من أموال الدولة الذي لا يحلم به سكان مـونـاكـو أو جزيـرة كابـري؟. . لماذا كنت تكذب وتدجل على الشعب؟. .

وسكت قاسم. . ولكنه عـاد بعد قليـل يتهته بـالقول: أنـا بنيت مساكن للفقراء. . فقلت له: يعني من خلف أبوك؟. .

ثم انسحبنا كلنا من الحجرة وتركنا قاسم والمهداوي والاثنين الآخرين. واجتمع المجلس الوطني وقرر تشكيل محكمة قضائية كاملة لمحاكمتهم محاكمة قانونية فيها الادعاء والدفاع وأعضاء المحكمة. وفوض المجلس الوطني هذه المحكمة بمحاكمة قاسم. وقد اختلت المحكمة وأتمت اجراءاتها وفق الأصول القانونية في جلسة سرية. وبعد أن انتهت المحاكمة قدم رئيسها قرارها إلى المجلس الوطني. وقد اجتمع المجلس الوطني وقرر بالاجماع الموافقة على الحكم وتنفيذه على الفور. . كان الحكم بالاعدام رمياً بالرصاص حتى الموت. .

وقال عارف:

- «ولم أحضر تنفيذ الاعدام. . ولم أشاهد جثة قاسم بعد الاعدام. . إن ذكريات حياتنا قبل ثورة ١٤ تموز. . وحتى خان الثورة. . كلها منعتني أن أحضر هذا المشهد الأليم. .».

* * *

وروى لي عبد السلام عارف، قصة سجنه بأمر قاسم. وكيف عومل في السجن، قال: هل تتصور يا أخي أنه لم يسمح لي بمقابلة أي شخص. . أي مخلوق طوال مدة سجني ثلاث سنوات وعشرين يوماً. . هل تصدق أنه أمر بأن يحجب عني النور. . نور النهار. . لقد أمر بتغطية نوافذ حجرة السجن ببطانيات سوداء من الداخل حتى لا أرى أحداً ولا يراني أحد في حجرة مقفلة. . إلا من طاقة صغيرة. . هل تتصور أن ضميره أباح له أن يقطع عني راتبي؟. لم يصرف لي فلساً واحداً؟!

ومرة جاء عبد الكريم قاسم إلى السجن. . ومر أمام حجرتي أربع مرات بحيث يمكنني أن أراه من الطاقة الصغيرة. . وكان يتصور أنني سأناديه من هذه الطاقة بمجرد رؤيته وأركع وأتوسل أن يفرج عني. . نعم مر أربع مرات. . ولكنني كنت منشغلاً عنه. كنت أصلي لله تعالى. اتجهت إلى القبلة وأفرغت كل نفسي وفكري وقلبي للصلاة ولم ألتفت لعبد الكريم قاسم ووقف هو خارج حجرة سجني نصف ساعة منتظراً أن أتوسل إليه. . ولما وجد أن هذا مستحيل، انصرف غاضباً. . وبعد انصرافه دخل على الضابط (آمر الانضباط) موفداً من

قبله وبادرني بقوله: الزعيم عبد الكريم عـاتب عليك. لقـد جاء لـزيارتـك.. فلماذا أغفلت تحيته؟

قلت له: لأنني كنت منشغلاً..

قال: وأنت وحدك..؟

قلت: كنت منشغـلاً مع من يقـرر مصيري ومصـيره.. مع من هـو أعلى مني ومنه..

قال: من؟

قلت: مع الباري جل جلاله.. مع الله سبحانه وتعالى..

وخرج رسول عبـد الكريم قـاسم.. وأصدر أمـراً بمد سجني ستـة أشهر أخرى مع أنه أفرج في ذلك الوقت عن جميع رجال عهد نوري السعيد!!

وعاد عبد السـلام عارف إلى إكـمال قصة سجنـه بأمـر عبد الكـريم قاسم قال:

ـ وعندما وجد قاسم أنه لا مفر من الإفراج عني بعد أن أفرج عن عملاء الاستعمار جاءني من يقول إنه يريد أن يزورني. قلت: يتفضل. أنـا لا أرد زائراً في السجن. وإذا بـه يخرجني من السجن في سيـارته ويـطلب مني أن أقابله بـين وقت وآخر..

وطلب مني الاخوان أن أحقق ذلك وألحوا عليّ في زيارته بين وقت ووقت حتى تأخذ الأمور مظهراً عادياً.. فقبلت.. والمؤسف أنه كان على أثر كل زيارة يـطلق أبواق الـدعايـات بأنـه أسدى إليّ كـل جميل. وأعـطاني سيـارة. ومنحني قصراً. ومنحني راتبـاً كبيراً. وكـل هذا كـذب وافتراء ولم يحـدث منه شيء عـلى الإطلاق. لقد أمر المختصين في الدوائر الحكومية بعدم صرف راتب لي بأكثر من رتبة عقيد. لقد أحرجهم بهذا الأمر لأنهم اضطروا إلى مخالفـة مرسـوم جمهوري براتبي كنائب للقائد العـام وهو بـدرجة وزيـر. على كـل.. هذه أشيـاء تافهـة رخيصة.. لقد جرني إليها الحديث والله ما كنت أريد أن أقولها.

وقد عرفت أنه كان يسجـل كل كـلامي معه في أي لقـاء. ولذلـك كنت أواجهه بصراحة بـرأيي في المطالب العـامة، حتى إذا مـا أذاع الحديث كـان هو

المفضوح.. أنا لم أعدل عن مبادئي وآرائي والحمد لله في أي كلام معه.. كنت أطلب منه طلبات شعبية. لقد علمت أنه قرر الإنسحاب من الجامعة العربية، فطلبت منه ألا ينفذ هذا القرار.. وبعد مناقشات طويلة قال إنه سيكتفي بمقاطعة الجامعة العربية. كان مصمماً على الانسحاب. كان يتبنى آراء الشعوبيين.. وأشياء عامة كثيرة ناقشته فيها، وكان يظهر لي الموافقة وكنت أرى الخديعة مرتسمة على وجهه. كان يحقد على كل صاحب مبدأ أو رسالة. لقد أثبتت لي التجربة المُرة أنه كان لا يحب إلا نفسه.. كان يدعي الزهد وقد بنى جناحاً له في وزارة الدفاع لا يسكنه الملوك. كان يحب الحياة أكثر من الحياة ذاتها.. وشاء ربك أن يحرم من الحياة.. نال القصاص العادل قتل الآلاف لينفرد بالحياة.. ثم انتهى مصيره بالقتل..

* * *

واستمر عبد السلام عارف رئيساً للجمهورية منذ فبراير ١٩٦٣.. حتى قامت محاولة انقلاب ضد رياسته في نوفمبر ١٩٦٣.

لقد أراده البعثيون، رئيساً يملك ولا يحكم..

وقدم استقالته أكثر من مرة، ولم تقبل..

ثم قرّر الجناح المتطرف في البعث، التخلص من حكم عبد السلام عارف..

وكان علي صالح السعدي ومعه شباب الحرس البعثي في جانب.. وكان في الجانب البعثي الآخر عبد الستار عبد اللطيف وطالب شبيب وحازم جواد..

وتفاقمت الأمور.. وتم إبعاد الفريقين عن العراق.. بعد تدخل الزعيم الروحي للبعث ميشيل عفلق ومعه أمين الحافظ..

تحول شباب الحرس البعثي تحت اسم الحرس القومي، إلى جيش آخر.. يحكم الشارع، ويصدر أحكام السجن والإعدام..

ولكن عبد السلام عارف استطاع في الساعة السادسة من صباح يوم ١٨ نوفمبر أن يسيطر على الموقف، وأن يعلن القضاء على حكم الحرس القومي..

وكان من المستحيل أن أطير من القاهرة إلى بغداد مباشرة، فلا إذن عندي

بالدخول. . كان عليّ أن أسافر إلى بيروت، ومنها أحاول الوصول إلى بغداد. .

ولجأت إلى عبد الستار عبد اللطيف. . لكي يساعدني في دخول بغداد، بعد أن علمت أنه في بيروت.

إنه عضو جناح الحزب البعثي المتعاون مع عبد السلام عارف. . وهو الذي روى لي خطة القيام بالثورة الأولى وتنفيذها في يوليو ١٩٥٨. . وكان الرجل يحترم عملي، لأنني كتبت القصة دون تحريف، والتزمت معه بكلمة الشرف، ألّا أنشر أسماء الضباط الذين اشتركوا في الثورة. .

وفعلاً قابلته في بيروت في سفارة العراق. . واستطعت بعد يومين أن أركب أول طائرة إلى بغداد. . وهناك عرفت الحقائق الرهيبة. أن الحرس القومي يتكون من ٢٥ ألف مقاتل في بغداد وحدها. . وهم يحتلون كل المرافق العامة. . وتدخل عبد السلام عارف بقوات الجيش كان يعني حرباً أهلية وآلاف القتلى.

كما أن هناك بعض قيادات في الجيش، من المناصرين للجناح المتطرف في البعث. . واستطاع ضابط طيار اسمه منذر الونداوي أن يستولي على طائرة، ويقذف بها بعض المواقع في بغداد، كما قصف القصر الجمهوري وعبد السلام عارف بداخله! . . وقصف وزارة الدفاع. .

واستطاع حردان التكريتي، أن يطارده بطائرة أخرى. . حتى أجبره على الهبوط في مطار الحرانية، وقرر عبد السلام عارف تدمير مقر قيادة الحرس القومي، وأصبح أكواماً. .

واستطاع بعد ذلك أن يسيطر على الموقف. .

* * *

وفي الرابع والعشرين من نوفمبر، كنت مع عبد السلام عارف في مكتبه. .

صارحني الرجل بأنه قدم استقالته في اليوم الرابع لتوليه الرياسة بعد اسقاطه حكم قاسم. . وكان الوسطاء يتدخلون.

وقال إن القرارات الجمهورية كانت تصدر باسمه دون أن يوافق عليها. .

وسر الخلاف كما قال لي: إن لي رأيي الخاص في اشتراكيتهم. لن أقبل أبداً الاشتراكية الماركسية اللينينية. أنني أريد اشتراكية عربية تحقق العدالة الاجتماعية. وهذا ما يعرفه عني جمال عبد الناصر، وبن بيلا. .

واستمر عبد السلام عارف يحكم ثلاث سنوات. .

وفي يوم الأربعاء ١٣ أبريل عام ١٩٦٦، نقلت إلينا وكالات الأنباء خبراً صغيراً يقول إن طائرة هيلوكوبتر كان بها الرئيس عبد السلام عارف ضلت طريقها وسط الزوابع قريباً من البصرة، ولا يزال البحث عنها مستمراً. .

وصباح يوم الخميس، أذاع راديو بغداد أن الطائرة تحطمت، ومات عبد السلام عارف وجميع مرافقيه. .

بكيت من أعماقي، لقد أحببت هذا الرجل، لأخلاقه، وشجاعته، وصدقه. وكنت أتبادل معه الرسائل، وأقابله في كل مرة يحضر فيها إلى مصر. .

وسافرت إلى بغداد للمرة الرابعة، لأشترك في تشييع جنازته. .

وأمضيت يومين حزينين في بغداد. .

كانت الجنازة رهيبة، عبر الشعب العراقي بدموعه، نساء ورجالاً. عن حبهم لهذا الرجل. وقد تردد أن الحادث قد يكون مدبراً. ولكنني لم أقتنع بهذا التفسير، لأن عبد السلام عارف كان بطبيعة قدرياً، ولا أشك أنه أصدر أمره لقائد الطائرة بعدم الهبوط، رغم العواصف. وكنت بقيت إلى جوار جثمان الفقيد في القصر الجمهوري حتى الثالثة من الصباح. .

وفي ساعة متأخرة من الليل، انعقد مجلس الوزراء والدفاع الوطني، وتقرير اختيار عبد الرحمن عارف رئيساً للجمهورية. . وقد كان رئيساً لأركان الجيش بالوكالة، وهو الشقيق الأكبر لعبد السلام عارف. كان هناك اتجاه إلى اختيار عبد الرحمن البزاز رئيس الوزراء، على أن يكون هذا الاختيار، دليلاً على التحول إلى الحكم المدني. . وحصل البزاز على غالبية الأصوات رغم أنه لم يرشح نفسه. . ولكنه تنازل، حفاظاً على الوحدة الوطنية. . وعدت إلى القاهرة، بعد أن قابلت عبد الرحمن عارف، وعبد الرحمن البزاز. .

وحدث ما توقعته.. لم يستمر حكم عبد الرحمن عارف طويلاً، تولى أحمد حسن البكر (البعثي) رياسة الدولة، بانقلاب سريع.. في ١٧ يوليو ١٩٦٨.

وتطورت الأمور.. ولكنني لم أسافر إلى العراق بعد ذلك!

بل إنني اعتذرت عن عدم قبول دعوة لزيارة العراق، قدمها لي سفير العراق في مصر، باسم الرئيس صدام حسين، في السبعينات، خلال حكم الرئيس السادات.

الفصل الثالث والعشرون

دخلنا سوريا.. في لوري خضراوات!

مباحث أمن الدولة أنزلتني من الطائرة ـ الحكم البوليسي في سوريا واشاعات غرام المشير عامر بالمطربة وردة ـ «أبو خالد» الأسطورة ـ ٤ ساعات على الحدود ـ مندوب الإذاعة المصرية يتسلل من الحدود ـ مع ضباط الانقلاب ـ لهم شروط للوحدة مع مصر ـ لؤي الأتاسي قاد الانقلاب من سجن المزة ـ نقد لثورة ٢٣ يوليو ـ المرأة السورية: تواجه ميشيل عفلق ـ قول لعبد الناصر ما ينشف دماغه علينا ـ لقاء مع الملك حسين ـ استقبال بارد للسادات ـ قرار باعتقال السادات في مطار دمشق! ـ اعداد خطاب السادات أمام الكنست ـ نسخة من التوراة بالإنجليزية.

الفصل الثالث والعشرون

دخلنا سوريا.. في لورى خضراوات!

عندما سافرت إلى دمشق في عيد الوحدة الثالث في فبراير ١٩٦١، وقع لي حادث مؤلم في مطار القاهرة. .

كان السفر بالبطاقة الشخصية. . واتصلت بضابط مباحث أمن الدولة المختص، وأبلغته باعتزامي السفر، لأنني كنت منذ دخلت انتخابات مجلس الأمة في عام ١٩٥٧، في قوائم الممنوعين. . وأجابني بأنه لا إجراءات بالنسبة لسفري إلى سوريا. .

وبعد أن جلست في مقعدي بالطائرة، نودى على اسمي. . وطلب مني أن أغادر الطائرة، لأنني من الممنوعين، وكان مشهداً مهيناً أمام ركاب الطائرة ومعظمهم من الفنانين المسافرين لإحياء عيد الوحدة كما تعودوا في العامين السابقين. . ووصلت مديحة يسري إلى دمشق، وأبلغت زملائي بما حدث. . وانزعجوا. ولم يسترح خاطرهم حتى وجدوني أمامهم في اليوم التالي.

وقد لاحظنا جميعاً أن هناك غيوماً في أجواء الوحدة بين مصر وسوريا. أو بين الاقليمين الشمالي والجنوبي في «الجمهورية العربية المتحدة». . كما أطلقوا على الدولة الجديدة. . وكان اختفاء اسم مصر يمثل فزعاً في قلوب المصريين. .

وكان الرأي العام في مصر، يشكو من أن الاخوة السوريين، سيطروا على السوق التجارية في مصر. . وكان الرأي العام في سوريا، يشكو من الاجراءات الاقتصادية التي حددت حرية التجارة. . والتجارة تجري في دمائهم. .

وكانت قد انتشرت اشاعات، عن علاقة غرام للمشير عبد الحكيم عامر بالمطربة وردة.. وانتشرت صور لهما!

وكانت هناك شكوى عامة، من الحكم البوليسي الذي كان يسيطر عليه عبد الحميد السراج.

وقد اخترت أن أحقق موضوعاً هاماً عن الإصلاح الزراعي الذي حققته حكومة الوحدة، في أكثر المناطق فقراً في سوريا.. وسافرت إلى محافظة الحسكة التي تقع على الحدود السورية التركية.. حيث تكسوها الثلوج في هذا الوقت من العام، وحيث لا يوجد أي نوع من الخدمات الصحية أو التعليمية.. وحيث كان يملك الأرض عدد من الأسر الاقطاعية، ويعيش باقي سكانها حياة الأجراء المغلوب على أمرهم..

ورغم ما تحملته من مشقة السفر، بطائرة صغيرة، ثم بسيارة لأميال طويلة، ثم الحياة القاسية في حجرة كأنها الكهف.. فقد كنت مستريح الخاطر. كنت أريد أن أقنع الناس بجدوى الإصلاح الاجتماعي الذي حققته الوحدة..

ولكن المشاعر العامة، لدى الشعب السوري، أصبحت فاترة!

نعم.. لقد تجمعت الجماهير كالعادة، أمام قصر الضيافة.. وكانوا ينتظرون خروج عبد الناصر اليهم من الشرفة ليستمعوا إلى كلماته الملتهبة.. ولكن مظاهر البهجة والفرح كانت مختلفة عن العامين السابقين..

لقد كان عبد الناصر معبود الجماهير في سوريا.. ولا أعتقد أن زعيماً عربياً، حظي بمثل هذا الحب الشعبي.. كما حظي به عبد الناصر من الشعب السوري. كانوا يحملون سيارته. كانوا يخرجون من الليلة السابقة على حضوره بزوجاتهم وأبنائهم ويبيتون في الطرق العامة، انتظاراً لقدوم عبد الناصر.. كان «أبو خالد» اسطورة...

ولذلك فقد قيل أن سوريا كانت هي غرام عبد الناصر، الذي مزق قلبه بعد الانفصال.

* * *

ثم جاءتنا الأنباء على الوكالات الصحفية.. بسقوط حكم الانفصال!

وكان طبيعياً أن أركب أول طائرة إلى بيروت.. لمحاولة الوصول، بطريق البر إلى دمشق.. التي كان مطارها مغلقاً..

وكان معي زميلي محمد الليثي، وفوميل لبيب، وعدد كبير من المراسلين الأجانب..

ووصلنا إلى الحدود.. وكنا نرتجف من البرد، داخل معاطفنا..

ومن مخفر الحدود كان لا بد أن ترسل إشارة تليفونية بأسمائنا إلى إدارة الأمن العام، فهي ترسل الأسماء إلى القيادة العسكرية بدار الأركان.. وهذه ترسلها إلى الشرطة العسكرية التي تقوم بمخابرة الحدود تليفونياً بالموافقة.. وهكذا أمضينا أربع ساعات واقفين على الحدود والبرد القارس يتسلل إلى عظامنا.. ونشوة دخول سوريا الثائرة هي التي تدفئنا...

وعندما جاءت إشارة الدخول، وقعنا في مشكلة..

السيارات ممنوع دخولها إلا بإذن خاص.. وإذا سمح بالسيارة اللبنانية التي أقلتنا، فلن يسمح لسائقها.. وفكرت أن أقود السيارة بنفسي وأرجعها إلى صاحبها في لبنان.. لولا أن زملائي حذروني من أن هذا العمل يعتبر سرقة لن تغفرها الظروف الثورية...

وضابط الحدود حائر معنا، يعتذر كل دقيقة.. ولا يعرف كيف يتصرف..

أعطنا سيارة عسكرية.

واعتذر الرجل بأن السيارة التي عنده تحت تصرف ضباط وجنود الحدود فقط.. وجاء الفرج..

وصلت إلى الحدود، سيارة لوري لنقل الخضر قادمة من دمشق.. لقد سمع سائقها من الإذاعة أنه سمح لسيارات النقل باجتياز الحدود.. ولكن ضابط الحدود خيب ظنه، لأن السماح مشروط بموافقة إدارة الأمن العام..

وكان السائق سينتظر حتى يحصل على الإذن، ولكننا ساومناه على صفقة

أثمن وأربح من اجتيازه الحدود. . عرضنا عليه أن يعود بنا إلى دمشق مقابل عشر ليرات لكل صحفي عربي و ٢٢ ليرة لكل صحفي أجنبي! . . وانبسطت أسارير السائق لهذا العرض، فالمسافة من الحدود إلى دمشق لا تزيد على خمسة وأربعين كيلو متراً!

وركبنا. . وانطلق اللوري. . وبدأت الرياح المثلجة العاتية تنهش جسدي. . والمعطف الثقيل الذي أحتمي به كأنه غلالة شفيفة من حرير! . .

وعند أحد المخافر. . في منتصف الطريق تقريباً. . أوقف اللوري. . وبدا لنا ضابط شاب متهجم الوجه، يطلب منا النزول من اللوري. . وكان غاضباً بغير سبب مفهوم.

فسألته:

لماذا أنت غاضب؟

فقال:

لأنه لا يليق أن تتسللوا من الحدود. . وهي مقفلة بأمر عسكري!

قلت:

ـ لم نتسلل يا سيد. . وهذه جوازات السفر مؤشراً عليها عند الحدود!

ورأي التأشيرات. . واستراحت نفسه. وعرفت على الفور سر شكوكه بمجرد أن فوجئت برؤية صديقي سعد القاضي مندوب الإذاعة جالساً داخل المخفر!

وعرفت القصة. . .

لقد أراد سعد القاضي أن يكون سباقاً إلى دخول سوريا. . واستطاع من لبنان أن يعرف ثغرة على الحدود السورية يتسلل منها. . وأمضى الليل كله في الصقيع، حتى نجحت خطته. . ثم رأى نفسه تائهاً بين الوديان والجبال. . وما ان واجه أول مخفر للشرطة حتى سلم نفسه واعترف بما اقترف!

وكانت مشكلة. . هل يرسلونه إلى دمشق للتحقيق معه. . أو يحتجزونه حتى يؤذن له. وكانت نواياه الحسنة موضع التقدير، فأعادوه إلى الحدود مرة أخرى. . ودخل منها دخولاً مشروعاً. .

ووصلنا في المساء إلى دار الأركان. .

وسمح لنا بالدخول. وتجمع عدد كبير من الصحفيين في القاعة الكبرى. ثم جاء من يقول: مجلس الوزراء الجديد ينعقد الآن. .

وانصرف جميع زملائي، وقررت البقاء. . . فما جدوى أن أنتظر انعقاد مجلس الوزراء؟!

أنني هنا في عرين الأسد. . مع الضباط الذين قاموا بالانقلاب. . وقد علمتنى الخبرة، أنه فى الساعات الأولى، لأى انقلاب، فإنه من السهل أن تتحدث إلى قيادته، ومن السهل أن يتحدثوا هم فى غمرة الفرحة بالنصر. . وبعد ذلك تأتي القيود. . ولذلك فقد اختبأت في ركن من القاعة، حتى أنصرف جميع الصحفيين. . وبدأت أتجول في دار الأركان، دون أن يمنعني أحد، في القاعة. . حتى وصلت إلى قائد الانقلاب. . لؤي الأتاسي الذي أصبح قائداً عاماً، ثم نائبه. .

وجرت بيني وبينهما. . ثم مع ضباط آخرين، أحاديث طويلة، استمرت حتى مطلع الفجر. . هذا الذي قاد القوات من الحدود حتى دمشق. . وهذا الذي استولى على دار الإذاعة وأذاع البيانات. . وهذا الذي قصد إلى سجن المزة وأفرج عن السجناء السياسيين وعلى رأسهم الفريق لؤي الأتاسي الذي أصبح قائداً للانقلاب. .

وأحسست بمشاعر مختلفة. . .

إن هؤلاء القادة، جاءوا إلى الحكم، بمنطق مختلف. . لقد أسقطوا حكم الانفصال، ولكن لهم شروطهم في الوحدة مع مصر!

ووضح لي أن الانقلاب، في عموم قياداته، بعثي. . وأن في تخطيطهم فكرة اقتنعوا بها. . وهي إجراء مباحثات في سبيل وحدة ثلاثية تجمع العراق وسوريا ومصر. . وأن الأمور لن تسير بسهولة في العلاقات بين القاهرة ودمشق!

ولم أنشر كل ما جرى من أحاديث. . لقد نشرت ما يعطي فكرة عامة، دون أن يكشف عن العقبات. ولكني كتبت نص هذه الأحاديث، وأعطيتها لمصطفى أمين الذي أبلغها بدوره إلى جمال عبد الناصر.

قـائد الانقـلاب لؤي الأتاسي كـان من صانعي محـاولة انقـلاب سابقـة، بدأت في حلب، ثم فشلت. وأبعد إلى أمريكا. ثم استدعي شاهداً في محاكمـة ضباط حلب، وكانت شهادته فضحا لحكم الانفصال، فتقـرر اعتقالـه في سجن المزة. ولكنه كان على اتصال بالخلايا السرية، التي صنعت الانقلاب الجـديد. . وكان يقود كل التحركات، بسرية مطلقة، وبأوامر يصدرها من داخل السجن، وتصل إلى باقي الضباط، في أوراق مدسوسة في الملابس!

قـال لي إن قوى الانفصـال كانت تـطلق الإشاعـات بـين الشعب، حتى يقتنع بأن حكم عبد الناصر يواجه أيامه الأخيرة، بعد الخسائر الفادحة في حرب اليمن. . وأن مصر على أبواب ثورة داخلية. . وكان الضباط السوريون يقاومون هذه الشائعات، بكل الوسائـل ومنها اطـلاق النكت. . ومن ذلك نكتـة تقول: سئل طالب في المدرسة. . من هو أبطأ حيوان في العالم؟. . فأجاب الطالب على الفور: الإمام البدر.

وقال لي إن حكم الانفصال كان منهاراً انهياراً كاملاً. وقد كانت الدهشـة ألا تنجح الثورة. لأن القيـادة الانفصاليـة لم تكن لتستطيـع أن تحمي نفسها من الإجماع على الإطاحة بها.

وقال لي: إن ثورة حلب كانت البذرة الأولى للتنظيم السري الذي صنـع الحدث الجديد. وعدد كبـير من المشاركـين في الحكم الجديـد، كانـوا من أبطال ثورة حلب التي قدر لها الفشل. وكانت لهم مواقفهم البـطولية أثنـاء محاكمتهم، وعنـد الحكم عليهم بـالإعـدام والسجن. لقـد أنشـد أحـدهم «والله زمـان يـا سـلاحي» بعد أن سمـع الحكم عليه بـالسجن عشريـن عامـاً. وارتفع صـوت ملازم شاب قائلاً كما قال «دانتون» لروبيسير «سوف تلحقني عما قريب». . وقال أحد الجنود «لن أطلب الرحمة لأنني صاحب قضية». . وتعـرضوا في سجن المـزة لأبشع أنواع التعذيب. . ولكنهم كانوا يصيحون وينشـدون في سجن المزة «غـير عن ظهـر الـدبـابـة مـا بنـطالـع». . أي لن نخـرج من السجن إلا عـلى ظهـر الدبابات. .

ولكن لمست في مكتب الأتـاسي، ونائبـه «القـطيني» مـرارات قـاسيـة من أخـطاء عهد الـوحدة. . وكـانا صريحـين في كـلام مبـاشر عن أخـطاء نسبـاهـا

للقاهرة. وكانا يعيبان على مصر عدم وجود تنظيم شعبي سياسي سليم يحمي الثورة. قال لؤي الأتاسي: يا أخي.. لو تعهدتم الصبية في سن العاشرة بالتوعية السياسية، لنشأوا عقائديين فدائيين بعد ١١ عاماً من الثورة..

وجرت بعد ذلك مباحثات في القاهرة اشترك فيها لؤي الآتاسي. وقابلته في مصر، وأمضيت معه ساعات طويلة في منزل الفنان فريد الأطرش.. وكان ممتنعاً عن أي تصريح.. رغم أنني قلت له أن كل ملاحظاته، أبلغت إلى جمال عبد الناصر. ثم عاد الفتور بين القاهرة ودمشق.. واتخذت العلاقات أشكالاً متعددة. وتحول الحكم الذي أسقط الانفصال الى حكم لحزب واحد، انشق على نفسه أكثر من مرة!

ثم كانت هزيمة ١٩٦٧. وتغير الوضع، وتعمقت العلاقات من جديد بين القاهرة ودمشق، لمواجهة العدوان الإسرائيلي، والاستعداد لحرب اكتوبر ١٩٧٣.

أعود إلى الأيام الأولى لحكم الآتاسي، الذي أسقط عهد الانفصال..

لقد أمضيت ثلاثة أيام في دمشق.. لم أنم خلالها إلا ساعة ونصف ساعة. كانت المشاعر الشعبية متدفقة ملتهبة نحو الوحدة مع مصر، بلا شروط، الشعب كان في قمة الحماسة، على عكس القيادات التي كانت تريد أن تفرض شروطها!

القصص التي سمعتها، والوجوه التي لقيتها، والمظاهرات العارمة التي كانت تبدأ منذ الفجر ولا تقف إلا عند الغروب.. كلها أعادتني إلى ذكريات الوحدة في قمة التهابها..

شعار واحد يغلي «بدنا الوحدة باكر باكر.. مع هاالأسمر عبد الناصر» وانك لتدهش كيف كانت الجماهير تحتفظ بصور جمال عبد الناصر، وتماثيله، وأعلام الجمهورية العربية المتحدة.. تتدفق هكذا بالآلاف في أيدي المتظاهرين.. حتى الأطفال الصغار كانوا يمسكون بالأعلام الصغيرة ويلوحون بها كأنهم في حفلة عرس أو عيد.

والفتاة السورية هي بكل اندفاعها المؤمن بالوحدة.. تطالب بالوحدة

العاجلة وإعادة الجمهورية العربية المتحدة على الفور. . بلا مباحثات. بلا اتصالات. بلا خطوات.

ولذلك فإن الاقتراحات التي حملها وفد البعث العراقي برياسة ميشيل عفلق إلى دمشق بعد نجاح الانقلاب، وفحواها وضع أسس ثلاثة تمهيدية للوحدة بين الجمهورية العربية وسوريا والعراق. . لم تقابل من الشعب السوري إلا بمزيد من المظاهرات الصاخبة التي تطالب بإعادة الجمهورية العربية المتحدة أولاً. . وقد تعرض ميشيل عفلق لمناقشة حامية من عدد من الطالبات السوريات في قصر الضيافة أمامي، وقلن له بالكلمة الصريحة المندفعة (نحن الشعب. . نحن نقرر المصير. . الوحدة مع مصر أولاً). .

واشتراك المرأة السورية في العمل السياسي القومي، تقليد متوارث منذ أيام العرب عندما كانت المرأة تشجع الرجل وتلهب حميته على القتال.

. . ولن أنسى مشهد السيدة السورية التي جاوزت الخمسين من عمرها التي التقيت بها في منزل أحد الضباط. كان منزل الضابط مهرجاناً للمهنئين له بالإفراج عنه من سجن المزة بعد الحكم عليه بالسجن عشرين عاماً. . وما أن علمت السيدة بوجودي حتى اقتحمت غرفة الاستقبال الغاصة بعشرات الرجال ومعظمهم من الضباط وهي تطلق الزغرودة السورية، وترددها باقي السيدات المهنئات، ثم توجه لي الكلام كمصري (قول لعبد الناصر ما ينشف دماغه علينا. . عاوزينه. عاوزين أبو خالد بحلوه ومره. . فوق راسنا. .) ثم توجه حديثها إلى الضباط (ما في غيره أبو خالد يا ضباط يا أحرار. . .).

وتقسم لى السيدة أن قدمها لم تخط نحو ساحة قصر الضيافة منذ آخر مرة رأت فيها جمال عبد الناصر هناك. لقد اعتادت أن تبقى أمام القصر من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساء كلما ذهب عبد الناصر إلى قصر الضيافة، وتبقى طوال النهار بلا طعام محملقة نحو شرفة القصر حتى يظهر عبد الناصر، فتزغرد وتهتف له وهذا هو كل آمالها في الحياة. .

وقد أخرجت لي من جيبها منديلاً حريرياً عليه صورة عبد الناصر، وهي فخورة بأنه هدية لها من مصر. . وهي تنتظر اليوم الذي يعود فيه عبد الناصر لتلوح له بهذا المنديل. . .

هذا هو الشعور الذي كان يحكم الرأي العام في سوريا. .

رجل الشارع. الطالب. العامل. الشباب. المرأة في بيتها وخارج البيت الوحدة أولاً مع مصر.

وهؤلاء لا يتحدثون عن أخطاء للوحدة. ولا يتكلمون عن شروط لتجنب الأخطاء، ولا يدخلون في أي تفصيل أكثر من المناداة بعودة الوحدة فوراً. .

وقد خرجت مع هذه المظاهرات العارمة. . مظاهرات أخرى قليلة العدد من الشباب البعثي تطالب بالوحدة الكبرى. . والوحدة الثلاثية المقترحة. . ولكنها كانت ضئيلة لا تظهر أمام طوفان الجماهير المطالب بالوحدة الفورية مع مصر. .

والأزمات العصيبة التي اجتازتها سوريا في فترة الانفصال التي امتدت إلى عام ونصف عام، لم تعرف في يوم منها معنى الاستقرار. . عمقت الإيمان بعودة الوحدة في نفوس الجماهير. . ولم تفلت طائفة واحدة من اضطهاد الانفصاليين. .

التقيت في مكتب الوزير جهاد ضاحي بعدد من زعماء العمال. . وسمعت منهم القصص المذهلة عن مطاردات السجن والتعذيب بمجرد الشك في أنهم وحدويون، ومرة صاح أحد زعماء العمال في وجه الزبانية المعذبين قائلاً:

تذكّروا أننا عرب. . ولسنا من اسرائيل.

فجاءت الإجابة: أنتم أخطر من إسرائيل! . .

والتقيت بعدد من كبار رجال التعليم. . وتتابعت رواياتهم عن الوسائل البشعة التي استخدمها وزراء الانفصال في تشريد المعلمين الذين رفضوا تزوير التاريخ ومحو عهد الوحدة من الصفحات! . .

وقد قاوم كبار رجال التعليم هذه الفوضى. . وتحايلوا بكل الأساليب على عدم تنفيذ أوامر الانفصال.

ولذلك فإن كل طوائف الشعب تطالب بأن يكون الحكم الجديد، حكماً ثورياً. بكل معنى الكلمة. حكماً يجتث كل رواسب الانفصال ويقضي على كل

ذيوله بلا هوادة، والشعار الذي سمعته يتردد على أكثر من لسان (ثورة أو لا ثورة). . ولا مجال للتمييع أبداً، ولا موضع للمهادنة أبداً. فهذا هو سبيل الاستقرار الوحيد.

* * *

وفي كل هذه المعاني جرت المناقشة في أول اجتماع لمجلس الوزراء. . وطالبت جبهة من الوزراء ببحث موضوع الوحدة مع مصر أولاً. . لأنه يعني أولاً وقبل كل شيء محو كل آثار الانفصال، وتعميق الفكرة الوحدوية التي تؤمن بها الجماهير، وتأكيد الهدف الثوري للثورة على الانفصال. .

* * *

ثم جرت مباحثات القاهرة. . التي انتهت إلى الفشل. .

وكانت هزيمة ٦٧. .

وتولى السادات، وبدأ عهد جديد في التعاون المصري السوري. . بعد خلافات وشد وجذب. . .

وتلقت نقابة الصحفيين في مصر، دعوة لزيارة سوريا والأردن. . وتألف الوفد الصحفي المصري، برياسة يوسف السباعي. . وضم علي حمدي الجمال وصبري أبو المجد وأمينة السعيد والدكتور مصطفى محمود. . وكاتب هذه السطور.

والتقيت في سوريا بالرئيس حافظ الأسد، وعدد من قيادات البعث السوري، وكان وزير الإعلام أحمد اسكندر، من اللامعين على المسرح السياسي، وكانت الخلافات بين البعث السوري والبعث العراقي في قمتها. وسمعنا الاتهامات للعراق بالتخلي عن سوريا في معركة ١٩٦٧.

وعوملنا أكرم معاملة. ولمسنا من المواطنين في سوريا، كل المشاعر الطيبة. . وخلال إقامتنا القصيرة في دمشق، تفجرت مفرقعات، واغتيل قائد الطيران. . وأرسل أحدنا الخبر إلى صحيفته، واستاء وزير الإعلام السوري، ولكنه لم يغضب. لقد كنا في رحلة مودة.

وسافرنا إلى الأردن، ومعنا زميل صحفي من البعث السوري. . وكانت سوريا والأردن قد أعلنتا خطوات وحدة. . والتقينا بالملك حسين، وقيادات الجيش الأردني، وعدد من الوزراء. . واستمعنا إلى محاضرة عسكرية، أوضحت أجواء التشاؤم من المستقبل لدى القادة العسكريين. .

ثم سافرنا إلى بيروت. . واستقبلنا زملاؤنا اللبنانيون، بفرح وبشاشة. . وأذهلنا أنه على الرغم من أحداث التخريب. . فإن الأسواق مفتوحة على أرصفة الشوارع، تعرض أحدث المنتجات الأوروبية في الملابس والأحذية والعطور!

* * *

. . ثم كانت الرحلة الأخيرة إلى دمشق. .

كنت مع رؤساء تحرير الصحف المصرية، الذين رافقوا الرئيس السادات في رحلته الأخيرة إلى دمشق، قبل أن يطير إلى اسرائيل بيومين. .

وكان الاستقبال بارداً. .

ولم يجتمع معنا وزير الإعلام، بل ترك أمر استضافتنا لنقيب الصحفيين. .

وكان السادات قد قرر الاجتماع بحافظ الأسد، لكي يطلعه على وجهة نظره في قراره بالسفر إلى اسرائيل. . واستمر اجتماع الرجلين من المساء حتى ساعة متأخرة من الليل. وكانت وجهة نظر السادات أنه يتحمل وحدة نتائج قراره. وإذا حققت خطة السادات للسلام أهدافها، فهي خير للعرب جميعاً. . وإذا فشلت خطته فهذه مسئوليته وحده. والأمر لا يخرج عن خلاف تقدير، ولا بأس أن يعارض الأسد فكرة الزيارة وتنفيذها. ولكن ذلك لا يوجب خصومة بين البلدين. .

ولكن الأسد جادل السادات حتى الساعة الرابعة صباحاً. . ولم يقتنع.

ثم تكشفت حقائق بعد ذلك، عرفتها من الدكتور أسامة الباز. في نفس الوقت، اجتمعت قيادات حزب البعث السوري، وقرروا أن يعتقلوا السادات في مطار دمشق قبيل ركوبه الطائرة عائداً إلى القاهرة. . وأرسلوا من يبلغ الأسد بهذا القرار في المطار، أثناء توديعه للسادات. . ولكن الأسد رفض القرار!

وقد أمضينا وقتنا في الفندق، خلال اجتماع السادات والأسد، وتجولنا في شوارع دمشق. . وكان استقبال رجل الشارع لنا بكل المودة والترحيب. وسمعنا كلمات كثيرة تؤيد خطوة السادات.

كما أن نقيب صحافة سوريا، قال لزميلنا محمد عبد الجواد رئيس وكالة أنباء الشرق الأوسط، أن قرار السادات، هو الخطوة العملية الصحيحة التي تتعامل مع الواقع بشجاعة. .

وبعد أن وصلنا القاهرة، كان راديو دمشق يطالب برؤوسنا جميعاً، على أننا خونة! . وأصدر نقيب الصحافة بياناً يوجه فيه إلينا تهمة الخيانة!

وفي طائرة العودة، طلبني السادات في جناحه بالطائرة، وطلب مني أن أعد خطابه الذي سيلقيه في الكنيست الإسرائيلي. وقال لي أنه يريد خطاباً إنسانياً، يخاطب المشاعر، ويدعو إلى صفاء القلوب، هذا مع التمسك بكل الحقوق العربية دون أدنى تفريط. .

وتوجهت إلى منزلي، بعد وصولنا، وتفرغت لكتابة الخطاب.

وكنت ممتلئاً نشوة وحماسة لكتابته. وأذكر أنني انتهيت منه في وقت قصير. ولعلني لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت أنه أسرع خطاب كتبته للسادات.

واتصلت خلال ذلك، بالمرحوم الأنبا صموئيل أسقف الخدمات في الكنيسة القبطية، ورجوته أن يبحث عن آيات في التوراة، تتحدث عن السلام. . وبعد عشرين دقيقة اتصل بي ليقول انه لم يجد إلا آيتين فقط. الأولى فيها كلمة السلام. والثانية تحمل المعنى بأسلوب غير مباشر! . كما أملاني الأيات التي تتحدث عن السلام في الإنجيل. .

وخلال ذلك اتصل بي نائب رئيس الجمهورية، حسني مبارك، وأبلغني

أن محمد رياض قابله، وطلب قبول استقالته، بعد استقالة اسماعيل فهمي!..
ودهش حسني مبارك لهذا الموقف، لأنه كان مرحباً بتوليه وزارة الخارجية..

وسافرت في صباح اليوم التالي إلى الإسماعيلية، حيث كان يقيم السادات في استراحة شركة القناة. ووجدته جالساً في الحديقة مع كل من النائب وأسامة الباز. وكان يستمع من أسامة الباز إلى ورقة مكتوبة. وطلب مني السادات أن أنتظر داخل الاستراحة، حيث وجدت المهندس عثمان أحمد عثمان.

وبعد دقائق.. جاء السادات إلى صالة الاستراحة، وطلب منا جميعاً أن نصعد إلى الدور الأول، واعتذر عثمان احمد عثمان قائلاً: اتركم يا سيادة الرئيس لعملكم.. ولكن السادات قال له مازحاً: لا.. تعال يا عثمان علشان تتعلم!

وجلس السادات على كنبة في شرفة الدور الثاني، وجلسنا حوله.. حسني مبارك وأسامة الباز وعثمان احمد عثمان..

وبدأت أتلو ما كتبت..

وأعجب السادات بكل السطور التي كتبتها..

وقال لأسامه: خذ الخطاب من موسى.. وأضف إليه الجانب القانوني الخاص بالحقوق العربية.. ثم ترجموه الى الانجليزية..

وبدا لي أن أسامه الباز لم يكن متحمساً لفكرة أن يكون الخطاب إنسانياً.. ولكننا وبعد أن ألقى السادات خطابه في الكنيست، وأحدث أثره العالمي الخطير. التقينا في بهو فندق الملك داود.. وقال لي أسامه: عندك حق.. الجانب الانساني كان لازماً..

وفي طائرة الرئيس السادات إلى القدس، كان سليم رزق الله كبير مترجمي رياسة الجمهورية يراجع الترجمة بالانجليزية للخطاب التي قدمتها وزارة الخارجية.. ولكنها لم تعجبه.. وبدأ يعيد الصياغة.. وأكمل ذلك في فندق الملك داود حتى ساعة متأخرة من الليل، حيث طلب آلة كاتبة باللغة الانجليزية، كما قدمت إليه موظفة بالسفارة الأمريكية تجيد الكتابة على الآلة

الكـاتبة. وقـد منعت من الاتصال بـأي شخص، حتى بـدأ السـادات في القـاء خطابه بالكنيست.

وحوالي الساعة الواحـدة بعد منتصف الليـل، إتصل بي سليم رزق الله، وقال أنه يريد نسخة من التوراة باللغة الانجليـزية. . حتى يعـثر على الآيـة التي تتحدث عن السلام. فليس من المعقول أن يترجمها من العربية، كما كتبتها، إلى اللغة الانجليزية. .

ونزلت إلى صالة الاستقبال في الفندق، وسألت موظف الاستقبال. . هل توجد لـديهم نسخة التـوراة. وأتى لي بموظفـة من الفندق. . وسـألتني: من يريـد التوراة؟. . قلت لها: الرئيس السادات. .

وبكت من الفرحة، وقالت لي: سأحضرها من منزلي بعد دقائق. .

وأتت بها فعلاً.

وقبل أن نتوجه إلى الكنيست. . كنا في الأتوبيس، ومع كـل منا، نسخـة من الخطاب، وأذكر أن صحفياً اسرائيلياً، حاول بكل الأساليب أن يحصل على نسخـة. . وفهمنا أنهم يـريدون معـرفة مـاذا سيقـول السـادات، قبـل أن يلقي خطابه. . حتى يستعدوا له. وامتنعنا عن إعطائه النسخة.

* * *

وحتى كتابة سطور هذا الكتاب، لم أزر سوريا مرة أخرى.

وكـانت لي حملات عنيفـة، في مقـالاتي «بـالأخبـار» عـلى سيـاسـة البعث السـوري. . واطلقت عـلى وزيـر الاعـلام السـوري ـ رحمـه الله ـ صفـة «الفتى الأملس». .

وكـان آخـر لقـاء لنـا مـع الـرئيس الأسـد في السعـوديـة مـع الـرئيس السادات ، ثـم فى مطار القاهرة حيـث توقف فى طـريق عودته إلى دمشـق . . وقلت لـه في لقاء المـطار، وأنا مـع زملائي رؤسـاء تحريـر الصحف، أننا نبـدأ عهـداً جديداً في العلاقات الصحفية مع سوريا، بكـل النقاء. . وقلت لـه أن الرئيس

السادات كان أشد الناس ألماً للحملات الصحفية المتبادلـة، وكان يقـول لنا أنـه لن ينسى أنك رفيق السلاح. وهذا صحيح.

وأذكر في ذلك اليوم، أن الصحفيين السوريين المـرافقين للرئيس الأسـد، قالوا لي.. نـريد القيـام بحملة صحفية مشـتركة، حتى يكـون بترول السعـودية والخليج لكل العرب..

الفصل الرابع والعشرون

لم أستطع أن أشهد إعدام صديقي شنقا..

عرفت السودان من ثلاثة أصدقاء ـ لماذا العنف والدم في الأحداث؟ ـ تجربتي مع السودان من نهايتها ـ لماذا لم أهاجم نميري بعد سقوطه؟ ـ زيارة لنميري في قصر الطاهرة ـ كيف خدعته التقارير ـ لماذا أعدم الشيخ العجوز؟ ـ تسجيل بيانات بصوته إلى الشعب السوداني ـ أول لقاء مع نميري في مايو ١٩٦٩ ـ في سيارة جيب ـ ارتباطه بالاتجاهات اليسارية ـ أخشى أن تنقسموا ـ انقلاب شيوعي ـ مبعوثان سريان من السادات إلى هاشم العطا ـ نميرى يزحف على يديه ويظهر أمام الجماهير ـ حضرت محاكمات الشيوعية بجوار منضدة نميري في يوليو ١٩٧١ ـ هربت من رؤية عبد الخالق محجوب يحاكم ويعدم ـ أزمة عبد الرحمن الشرقاوي وإحسان عبد القدوس ـ السادات يمنع سفري إلى السودان ـ لقاء الجمعة مع نميري في مكتب وزير الإعلام ـ نميري يشكو من نشاط الدكتور طلبة عويضة ـ أزمة جديدة بسبب تصريح لنميري عن أنه لن يزور مصر ـ مقال عنيف ومنع صحف أخبار اليوم من دخول السودان ـ كل هيئة السفارة في استقبالي بالمطار. . لماذا؟ ـ سفري الى السودان مع السادات وحل الأزمة ـ الاشتباه في قنبلة في حقيبة يدي ـ نميري يعزي في وفاة السادات.

الفصل الرابع والعشرون

لم أستطع أن أشهد إعدام صديقي شنقا..

لى تجارب عديدة ، مع الأحداث السياسية فى السودان . . وقد سافرت كثيراً إلى الخرطوم، وعشت حياة السودان من الداخل. . ولكن شيئاً غريباً في طبيعة الشعب السوداني، لا يزال بعيداً عن فهمي. .

لقد ربطني بالسودان ثلاثة أشخاص منذ عام ١٩٣٩، حين دخلت كلية الحقوق. . وكان معنا طلبة، يشاركون في حركاتنا الوطنية، ومظاهراتنا، ويرفعون بإخلاص شعار «وحدة وادي النيل». .

ومن هؤلاء - عرفت وتوأم عمري عبد الرحمن الشرقاوي - ما هو السودان. .

الثلاثة هم:

الدكتور عقيل أحمد عقيل، وهو زميل دفعة ١٩٤٣، وقد وصل إلى منصب نائب وزير الخارجية، ورشح في إحدى الأزمات رئيساً لحكومة السودان، وانتخب نقيباً للمحامين، واشتغل بالمحاماة حتى وفاته. .

والثاني هو الدكتور أحمد السيد حمد، وقد تخرج بعدنا بعامين، وهو من ألمع نجوم السياسة في السودان حتى الآن، وكان وزيراً أكثر من مرة. . وهو من المستميتين في بناء وحدة مصر والسودان. .

والثالث هو أحمد الطيب عبدون، وقد تولى الوزارة وقتاً قصيراً مع الرئيس جعفر نميري. . وعمل ممثلاً للسودان في بعض الهيئات الدولية، وهو أيضاً من فرسان الوحدة. . وتوفي منذ أعوام قليلة. .

وعـرفت منهم، أنهم أصحاب عقيـدة ومبدأ، وأن الصـداقة في عـلاقاتهم بالغير، جوهر أصيل. . كما أنهم يحملون مشاعر إنسانية رقيقة. .

ومنهم تصورت أن الشعب السوداني، شعب مسالم. . وأنه يكره العنف، والدم. . .

ولكن أحداث السودان التي عايشتها، وحققت أحداثها، كشفت لي صـور عنف ودم، لم أكن أتصـور وقوعهـا في السودان. . ولعـل أبرزهـا مـا حـدث في الانقلاب الشيوعي العسكـري الذي وقـع لإسقاط جعفـر نميري في يـوليو عـام ١٩٧١. . لقد قتل ضابط من قوة الانقلاب، بمدفعـه الرشـاش وحده، ثـلاثين ضابطاً. . أجهز عليهم في نصف ساعـة، وقد تعقب واحـداً منهم كان في دورة المياه، وقتله!

وكثيراً ما تطورت أحداث المظاهرات في السودان، في مختلف العهود، إلى العنف، وإلى وقوع القتلى. .

وهذا ما أحار في تفسيره حتى الآن، عن طبيعـة الشعب السوداني. . فهـو في تعامله، رقيق، وعاطفي، وكيِّس، ومجامل!

* * *

وأريد أن أبدأ الكتابة عن تجربتي مع السودان، من نهايتها!

ونهايتهـا، هي توقف الـرئيس جعفر النمـيري في القاهـرة في ٢٦ مـارس ١٩٨٥، وهو عائد من أمريكـا، بعد أن قـام الانقلاب ضـده. . وبقائـه لاجئاً سياسياً في مصر، حتى كتابة هذه السطور. .

لقد هاجمتـه الأقلام المصريـة، في قسوة شـديدة، وأطلقت عليـه أوصاف الدكتاتور، والطاغية والخائن. . إلى آخـر هذه الأوصـاف التي اعتدنـاها عنـدما يسقط حاكم عربي. .

وأزعم أنني الكـاتب المصري الـوحيـد، الـذي لم يهـاجم الـرئيس جعفـر نميري. . لسبب بسيط واحد، وهو أنني أرفض أن أكون بهلواناً. . لقد كنـا على أوثق وأحسن العلاقات، مع نميري. . ومجموع ما كتب في الصحـافة المصريـة،

تمجيداً لنميرى ، يمـلأ ناطحات سحاب ! . . فكيـف هكذا ننقلب عليـه بين عشية وضحاها؟!

* * *

وقـد زرت الرئيس نميري، في قصر الطاهـرة بعد وصولـه إلى القـاهـرة بأيام. . وناقشته طويلاً فيما جرى. . ولعـل هذا هـو الحديث الصحفي الـوحيد الذي لم أنشره. .

سـألته: كيف لم تفـطن إلى أن هناك انقـلاباً يعـد لإسقـاطـك. . وكيف أخّـرت عـودتـك من أمـريكــا طـوال هــذا الـوقت مــع وجـود اضــطرابـات ومظاهرات؟. . .

وكانت إجابة جعفر النمـيري، أنه كـان يتابـع الموقف يـومياً، وكـان يتلقى ثلاثة تقارير. . أولها من مدير الأمن العام، وثانيها من قصر الـرياسـة، وثالثهـا من الاتحاد الاشتراكي. . وكانت كلها تؤكد له، أن ما يحدث هو مجرد زوبعـة في فنجان. . وأن الأمور مستقـرة. . وأنه لا داعي لأن يـوقف علاجـه، ويحضر إلى السودان. .

كما أن التقارير التي تلقاها حتى آخر لحظة من الخارجية الأمريكية، كانت تتفق مع ما كان يتلقاه يومياً من الخرطوم. .

والسبب الثاني، أنه كان يثق ثقة مطلقة في الفـريق سوار الـذهب. . فهو الذي مد خدمته استثنائياً، وعينه وزيراً للدفاع وقائداً للجيش. . كما أنـه سعى له من قبل، أن يندب للعمل في إحدى دول الخليج، حتى تـزيد مـوارده. . ولم يكن يتصور لحظة أن سوار الذهب يمكن أن ينقلب ضده. .

والسبب الثـالث أن نمـيري كــان عـلى يقــين من أن تنـظيــمات الاتحـاد الاشتراكي، قادرة على القضاء على أي مقاومة للحكم. .

ونـاقشت جعفر نمـيري، طويـلاً، في أخطاء حكمـه. . وأولهـا، تطبيقـه للشريعة الاسلامية، بأسلوب لا يتفق مـع طبيعة الشعب السـوداني، ثـم إصدار الحكم بالإعـدام على شيخ جاوز السبعين من عمره بتهمة الكفر. . وغير ذلـك

من الأحداث.. ولكنني وجدت نميري مقتنعاً اقتناعاً كاملاً، بصحة سياسته، متمسكاً بكل قرار أصدره.. ودافع عن ذلك وقتاً طويلاً..

وأذكر بهذه المناسبة أن الرئيس حسني مبارك، أرسل مبعوثاً خاصاً إلى الرئيس نميري في الخرطوم، هو الدكتور أسامة الباز، طالباً إليه عدم إعدام ذلك الشيخ. واستجاب نميري، ولكنه أعدمه بعد ذلك. برر نميري تنفيذ الاعدام، بأنه استدعى الرجل وأبلغه أنه لن يعدمه، فكانت اجابته: لا يهمني سواء أعدمتني أم لا.. فأثارت هذه الاجابة الرئيس نميري وقرر تنفيذ حكم الاعدام.

* * *

وانتقل جعفر نميري بعد ذلك، من قصر الطاهرة، إلى فيلا صغيرة في مصر الجديدة، خصصت لاقامته والسيدة قرينته.. وزرته في هذه الفيلا مع أحد الأصدقاء، وكانت زيارة مجاملة، لم يثر فيها أي جدل سياسي إلا في حوار متقطع سريع..

وأدهشني أن كثيراً من السياسيين السودانيين الذين يحضرون إلى القاهرة، يزورون جعفر نميري رغم الخلافات السياسية، وأنه على صلة كاملة بكل ما يجري في السودان من أحداث.. وكان عدد من أنصاره، يحاكم بتهم فساد، في ذلك الوقت.. ومنهم الدكتور بهاء وزير القصر في عهد نميري.. وكان نميري يتلقى الأخبار أول بأول.

* * *

ثم أرسل لي نميري، مع صديق، أنه ينوي تسجيل بيانات بصوته، على أشرطة كاسيت، يتوجه بها إلى الشعب السوداني، وأنه يريد مني كتابة هذه البيانات.. ولكنني اعتذرت عن عدم الاشتراك في هذا العمل.. لأن حدود عملي هي الصحافة فقط.. وقد عرفت بعد ذلك أنه سجل شريطاً، بعث به إلى السودان، وتسابق الناس إلى سماعه من بيت إلى بيت.. وقد قدم لي أحد المسئولين هذا الشريط، طالباً مني التأكد من أنه صوت نميري.. وعلمت بعد ذلك أنه قد لفت نظره، بأسلوب مهذب، بعدم القيام بأي نشاط سياسي طوال مدة اقامته في القاهرة.. وخاصة أن الرئيس مبارك، رفض مبدأ تسليمه إلى

النظام الجديد في السودان، رغم كل الضغوط التي تـوالت في هذا الشـأن، من كل القوى السياسية المعارضة لنميري، والتزم نميري بذلك.

* * *

ولكن. . كيف رأيت جعفر نميري لأول مرة؟. .

كان ذلك في اليوم السادس والعشرين من مايو عام ١٩٦٩. (كنت رئيس تحـرير «الجمهـورية»). . نقلت إذاعـات العالـم في اليـوم السابق، أن الجيش السـوداني قام بثـورة ضد النـظام القائم، وتـألف مجلس للثورة، بـرياسـة اللواء جعفر نميري. . وقد أطلق على هذه الثورة بعد ذلك اسم «ثورة مايو». .

وكـان مطار الخـرطوم مغلقـاً. . ولكن مندوبنـا في المـطار «سمـير رجب» رئيس مجلس إدارة دار التحرير ورئيس تحـرير المسـاء الآن ـ أبلغني بأن طـائرة مصريـة ستقلع إلى الخـرطـوم. . وأسرعت إلى المـطار ـ ومعي المصـور المخضرم عبده خليل، وكنت في الخرطوم بعد ساعات. .

وبعض الـظهر. . دعيت من أحـد الوزراء الجـدد ـ وهو زميـل الدراسـة وصديقي أحمد الـطيب عبدون ـ بـالتوجـه إلى القصر الجمهوري، لحضـور آداء الـوزارة الجديـدة بريـاسة بـابكر عـوض الله اليمين الـدستوريـة. . أمام مجلس الثورة. .

وهنا رأيت نميري لأول مرة. .

وبعد أداء اليمين، اصـطحبني في سيارتـه العسكريـة الجيب، إلى معسكر قادة القوات المسلحة، حيث تم اللقاء.

وقد كتبت في وصفه حينئذ:

«شـاب مـديـد. عـريض الصـدر. منتصب القـامـة. خفيف السمـرة. ابتسامته متواضعة. ولكن خطواته سريعـة جسورة. لا أعـرف كيف أصف لك قسمات وجهه، حتى بعد أن جلست إليه أكـثر من ساعـة ممتعة. فـالنظرة الأولى اليه لا بد أن تشمله كله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. والجلسة إليه، تلهيك فيها أقواله وكلماته عن التطلع إلى قسماته. .

وكان هذا اللقاء الأول، أول تعريف للرأي العام في مصر والبلاد العربية لقائد الثورة جعفر نميري . .

ولعل أهم ما قاله لي في هذا اللقاء، أنه لا يعتزم إصدار دستور جديد، بعد إلغاء الدستور القائم. وأن الشعب كفر بحكم الأحزاب وفساد هذه الأحزاب وقد صبر الشعب طويلاً، ولكنه شعب صبور عند الضائقة، غضنفر عندما ينفجر. . .

وقال لي أن ثقافته أمريكية، فقد تلقى دراسته العسكرية العليا في كلية أركان الحرب في أمريكا. . وهو يقاوم النفوذ الأجنبي الاستعماري الذي تعاونت معه الحكومات السابقة. . وهو يرى أن المعونات الأمريكية، تشكل تسللاً استعمارياً. . وهو ليس ليبرالي التفكير. . يرى نفسه اشتراكياً غير متطرف، مؤمناً بالقومية العربية. .

وأحسست أن نميري مرتبط بالاتجاهات اليسارية. .

وقد دخل الوزارة وزير شيوعي، هو فاروق أبو عيسى. ويرى فيه بابكر عوض رئيس الوزراء نموذجاً للشباب الوطني القادر على العمل في إيجاد تنظيم سياسي واحد يمثل قوى الشعب العامل (مثل الاتحاد الاشتراكي في مصر).

والتقيت في ذلك اليوم بالضباط الشبان أعضاء مجلس الثورة. . وبعد حوار طويل رفعت الكلفة بيننا. وقلت لهم والدموع في عيني. .

ـ أنتم طليعة نظيفة طاهرة في أفكارها الوطنية. . ولكنني أخشى عليكم من أنفسكم. .

سألوني: كيف؟

ـ أخشى أن تنقسموا، وتدمركم الخلافات. .

وقبل أن أستطرد إلى رواية علاقتي مع جعفر نميري وتطورها. . أوضح للقارىء أن ثورة مايو ١٩٦٩. . جاءت لتزيل الحكم الذي أسقط نظام عبود في اكتوبر ١٩٦٤. . وسمي بثورة أكتوبر. وكان نظام عبود قد بدأ بانقلاب عسكري في عام ١٩٥٨.

لقد أسقطت الجماهير المنظمة حكم عبود، بعد أن تجمعت كل الهيئات

والفئات في عصيان مدني، بعد موت طالب في المظاهرات اسمه قرشي. . وتضامن رجال القضاء، مع العصيان. .

وأسفرت المباحثات والاتصالات بعد ذلك، بين مختلف القوى الوطنية بما فيها القوى الشيوعية وقيادات الجيش. . عن تأليف وزارة برياسة مدني محايد إسمه سر الختم خليفة، كان يعمل في شئون التعليم. . ومثلت كل الأحزاب في هذه الوزارة. . ثم دبت الخلافات بين هذه الأحزاب، وانتشرت قصص فساد عديدة. . حتى قامت ثورة مايو ١٩٦٩، ورأس الوزراء، القاضي بابكر عوض الله. . الذي كان مشتركاً في تخطيط الانقلاب مع الضباط الأحرار. وقد كان واضحاً إتجاه وزارته إلى اليسار، ولكنه قال لي أن الوزارة بها شيوعيان فقط، هما جوزيف قرقر الوزير الجنوبي، والثاني فاروق أبو عيسى وزير الدولة لشئون الرياسة. . كما قال لي: «أنا يا أخي لا أفرق بين شيوعي وغير شيوعي ما دام وطنياً صميماً، وأنا بحكم ممارستي للقضاء، اعتدت ألا أتأثر بما يقال عن الناس، ما دمت أرى الحق وألمسه.

وقال لي: أن الحكم سيلتزم بالتطبيق السوداني للاشتراكية. .
وسألته: تقصد الاشتراكية العلمية؟
أجاب: أقصد المبادىء التي ننقلها من الاشتراكية العلمية. .
قلت: وماذا ترفض منها؟
قال: وهل أسألك أنا ماذا رفضتم من الاشتراكية العلمية؟
قلت: رفضنا دكتاتورية الطبقة. .

قال: ونحن أيضاً. . وطبعاً لا بد من الاختلاف في أساليب التطبيق الاشتراكي في البلاد العربية. .

وتوثقت صلتي بوزارة الحكم الجديد. . وجاء سر الختم خليفة رئيس الوزراء إلى مصر، مع عروسه (وكان قد تزوج). . وأقمت له مأدبة عشاء في بيتي. . وكنا لا نفارقه مع باقي الوزراء الشيوعيين وغير الشيوعيين. .

* * *

وتغيرت الأمور. . وانتهت كل شهور العسل بين نميري، والحزب

الشيوعي السوداني. . واستطاع عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السودانى ، أن يرتب انقلاباً عسكرياً مع عدد من ضباط الجيش الشيوعيين . . واعتقل الانقلاب الرئيس جعفر نميري في أحد غرف قصر الرياسة، وظل ثلاثة أيام بلا نوم ولا طعام لا يدري شيئاً عما يجري في الخارج. . وتم إغتيال ثلاثين ضابطاً في مذبحة رهيبة كما قلت. .

ووضح أن كل الأمور، قد استقرت بالنسبة لنظام الحكم الجديد. . وقد أعلن عن نجاح الانقلاب في يوليو ١٩٧١!

وأراد السادات أن يؤمن حياة نميري، فاختار اثنين للسفر إلى الخرطوم والتفاهم مع قائد الانقلاب هاشم العطا. وهما أحمد حمروش الصحفي، وأحمد فؤاد رئيس بنك مصر. . وكلاهما ماركسي. ولأحمد حمروش روابط طيبة بالحزب الشيوعي السوداني، وخاصة سكرتيره وزعيمه عبد الخالق محجوب.

وقد التقيا بهاشم العطا، بصفة سرية، وعادا، واقترحا على السادات الاعتراف بنظام الحكم الجديد!

وكان السادات ينوي تعيين أحمد حمروش عضواً في اللجنة المركزية، ولكنه عدل عن ذلك وشطب إسمه بسبب هذا الموقف. .

وبذل السوفيت ضغوطاً شديدة على السادات للاعتراف بنظام الحكم الجديد، ولكنه رفض. . وأعلن بكل الوضوح، أن الشيوعية لن يكون لها وجود في المنطقة العربية. مما أثار أزمة عدم ثقة بينه وبين موسكو.

وطرت على الفور إلى الخرطوم. . وكنت قد عدت إلى «الأخبار» رئيساً لتحريرها. . طرت إلى الخرطوم بعد أن أعلنت المفاجأة المذهلة، التي لم يكن يتوقعها أحد!

لقد قاوم الشعب الانقلاب العسكري الشيوعي. .

واستطاع نميري أن يهرب من قصر الرياسة، وزحف على يديه وقدميه، حتى اعتلى السور، وظهر أمام الجماهير!

وتوجه على الفور إلى مقر رياسة الجيش. . وكانت قوات الجيش ضد

الانقلاب الشيوعي، وما أن ظهر نميري حتى تغير كل شيء!

طرت وأنا واثق من لقاء الرئيس نميري، بعد وصولي مباشرة.. فقد توثقت صلتي به، وكنت أراه كثيراً عندما يحضر إلى القاهرة.. وكان يفضل الاقامة بالفنادق، بدلاً من قصور الضيافة.. وكنا نجتمع في جناحه مع عدد من المثقفين في مصر، ذوي الميول اليسارية.. ونبقى ساهرين حتى الصباح في حوارات سياسية لا تنتهي!

* * *

وكنت قد عرفت أيضاً عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني. وكان شخصية فذة شديد الذكاء. له قدرات تنظيمية. يجيد اللغة الانجليزية. وكانت الخرطوم هي مقر القيادة الشيوعية لكل الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط. وكان فوق ذلك، رجلاً ضاحكاً، منشرحاً دائماً، ودوداً في معاملته. وقد عرفني به أحمد حمروش..

طرت على الفور إلى الخرطوم، في السابع والعشرين من يوليو ١٩٧١.. وطارت أيضاً زميلتي مريم روبين. وهي من أقدر الصحفيات، معرفة بكل الأجواء العربية، ثم هي محققة ومخبرة صحفية ممتازة.. قادرة على العمل في مثل هذه الأحوال، ٢٤ ساعة متصلة دون نوم..

واتصلت بالقيادة العسكرية..

* * *

وأرسلوا لي في الصباح المبكر، سيارة عسكرية.. ورأيت جعفر نميري..

كان يشرف بنفسه على التحقيقات التي جرت مع المشتركين في الانقلاب، ويتابع أنباء القبض عليهم.. وقال لي أنه لم ينم منذ أربعة أيام.. وكان قد أصدر قرارات بتأليف محكمة عسكرية.. وبتنفيذ الأحكام على الفور. وقد تم ضبط كل وثائق الانقلاب، وبياناته، ومحاضر الاجتماعات الشيوعية التي تقرر فيها الانقلاب، واختير فيها أعضاء الوزارة الجديدة..

وكان قد تم القبض على شفيع أحمد الشيخ، وهو قطب هام في الحركة العمالية الشيوعية وسكرتير إتحاد العمال.. وتم إعدامه شنقاً.

وكان عبد الخالق محجوب هارباً . . ثم تم القبض عليه . .

وكان نميري يجلس في غرفة صغيرة الى مكتب، به تليفون . . وكان يتولى مناقشة قيادات الانقلاب . .

وأمضيت اليوم بطوله . . جالساً الى يمين مكتب نميري أرتب كل ما يجري .

وكانت مشاهد رهيبة . .
إلى أن جاءت الأنباء بالقبض على عبد الخالق محجوب . .

وتقرر أن يمثل أمام نميري في الصباح التالي، ثم تجري محاكمته علنياً على الفور . . ولكن أعصابي لم تتحمل أن أشهد محاكمة عبد الخالق محجوب . .

لقد نشأت بيننا مودة، وكنت لا أريد له أن يراني جالساً إلى جوار نميري . . وهو ماثل أمامه، حافي القدمين، مقيد اليدين من الخلف، في مشهد من ينتظر إعدامه . .

وعدت إلى القاهرة، وقامت مريم روبين بتغطية محاكمة محجوب، والباقين .

وعندما رأى عبد الخالق محجوب، مريم روبين . . وعرف أنها مندوبة الأخبار سألها عني . . وتم إعدام محجوب بعد محاكمته على الفور .

ويشهد له التاريخ ، أنه لم يتراجع ، ولم يضعف، وقال أنه كان يريد حكماً اشتراكياً .

* * *

وكان لما جرى في السودان ، انعكاسات على الماركسيين في مصر . .

ورغم أني لا أعتبر عبد الرحمن الشرقاوي ماركسياً، إلا أنه كتب مقالاً في «الأخبار» ـ وكان قد عين عضواً بمجلس الادارة وكاتباً بمؤسسة أخبار اليوم ـ أثار أزمة مع إحسان عبد القدوس رئيس مجلس الادارة . . وعنفت الخصومات بين الاثنين . . وكان مقال عبد الرحمن، فيه دفاع مستتر عن الحركة الشيوعية في السودان .

ولم أكن أعرف سبيلاً، إلى التوفيق بين إحسان وعبد الرحمن.. فإنني من الناحية السياسية كنت مؤيداً رأي إحسان.. ولكنني من الناحية العاطفية، كنت لا أريد أن أغضب توأم عمري عبد الرحمن..

وحل الرئيس السادات هذه الأزمة في أخبار اليوم.. بأن أصدر قراراً بتعيين عبد الرحمن الشرقاوي، رئيساً لمجلس إدارة روز اليوسف، ورئيساً لتحريرها!

* * *

استقرت الأمور في السودان، بعد فشل الانقلاب الشيوعي، ومحاكمة قادته وإعدامهم... وسارت الأمور في مجراها الطبيعي، في العلاقات بين القاهرة والخرطوم.. ولكن بدأت تثور أزمات عنيفة بين نميري والسادات.. وتطورت الأمور إلى تصريحات من نميري، لا تحمل معنى المودة..

وأذكر أن إحسان عبد القدوس، كتب مقالاً طويلاً. هاجم فيه سياسة جعفر نميري.. وصادر نميري «أخبار اليوم» ومنع دخولها إلى السودان..

ولم أكن أعرف الأسباب الخفية لهذه الأزمات. ولكنني كنت حريصاً على تحسين الأجواء..

وقد عرفت أن اتصالات سرية قد جرت بين الرئيس السادات، وأحمد صادق المهدي رئيس حزب الأمة، وخصم نميري..

وعرض المهندس سيد مرعي على السادات أن يسافر إلى السودان، لتهدئة المشاعر الغاضبة، ولكن السادات رفض بشدة.. وقال لي السادات حينئذ: «سيد عاوز يبوظ لي كل حاجة أنا بأرتبها»!

وبعدها.. طلبت من السادات أن أسافر إلى السودان، كصحفي، لكي أتبين حقائق الأحوال هناك.. ووافق بشرط ألا أنشر حديثاً لنميري.. واتخذت إجراءات السفر، ولكن إحسان عبد القدوس اتصل به. وأقنعه بعدم سفري، لأنه سيفهم في السودان ـ بسبب علاقتي بالسادات ـ كأن السادات أرسلني للمصالحة.. وأيد سيد مرعي هذا الرأي.. والغيت سفري..

ثم جاءت مناسبة أخرى. . وتمكنت من إقناع السادات بسفري. . وسافرت. .

وأمضيت قرابة عشرة أيام في السودان، كنت أرى خلالها الرئيس نميري كل يوم . . وسافرت معه إلى الجنوب حيث أمضينا يوماً كاملاً . . وكان كل حواري الطويل معه، عن أسباب الأزمة. .

وروى لي تفصيلات عديدة، عن النشاط السياسي المصري في السودان، ونشاط المخابرات المصرية. . وكانت هذه شكواه الرئيسية.

وبعد وصولي، اقترح أحد مساعدي نميري، أن تجري معي مجلة القوات المسلحة حديثاً صحفياً، امتدح فيه الرئيس نميري. . وقال لي أن هذا سوف يؤثر في مشاعره تأثيراً كبيراً، لأنه أولاً وأخيراً رجل عاطفي. . ولأنه يحب مصر بكل النوايا المخلصة. .

وفعلاً أجرى معي هذا الحديث. . وكان له أثره الطيب على مشاعر الرئيس نميري. .

وفي يوم خميس، قال لي نميري. . سنلتقي غداً، بعد صلاة الجمعة في مكتب وزير الاعلام، عمر الحاج موسى. .

وأفهمني الوزير، أنهم يعقدون كل يوم جمعة بعد الصلاة في مكتبه. . اجتماعاً بالجلاليب البيضاء، بعيداً عن الرسميات. . ويتحاورون في كل الأمور، بصراحة، وبروح عائلية. .

وتوجهت ظهر الجمعة، إلى مكتب الوزير. . وجاء نميري. . الذي قال لي:

ـ سأثبت لك أن العلاقات بين مصر والسودان، فوق الأشخاص، وفوق الحكومات، وفوق السادات والنميري. . كل من سيحضر الآن. . سأباغته بسؤال عن علاقته بمصر. . واسمع أنت الإجابات واحكم. .

وفعلاً. . بدأ الكثيرون يتوافدون. . ونميري يوجه لكل منهم نفس السؤال. . وكانت الإجابات مذهلة. وهي أنه لا يوجد سوداني ليس له علاقة

بمصر.. إما زواج.. وإما تجارة.. وإما علاج.. وإما أنه لا يزال يحصل على معاش بعد تركه الخدمة في مصر.. إلى آخر هذه الروابط..

وقد فعل نميري هذا، لكي يدلل، على حسن النوايا.. ولم يكن هكذا في الأيام الأولى لوصولي.. كان يشرح وجهة نظره بألم غاضب.. أما بعد الحوارات الطويلة. فقد لانت صلابته..

وعدت من السودان.. ورويت للرئيس السادات كل ما جرى.. وكان من أبرز شكاوي نميري نشاط الدكتور طلبة عويضة رئيس الجامعة المصرية في الخرطوم، واتصالاته السرية والعلنية بمختلف الجهات السياسية.. وتصورهم هناك أنه يعمل لحساب المخابرات المصرية.. وقد ترك الدكتور عويضة منصبه.. ولكنه عاد بعد ذلك، ومنحه نميري أعلى أوسمة الدولة!..

وتطورت الأمور، بوساطات واتصالات عديدة.. وعادت العلاقات إلى أحسن ما تكون..

* * *

وكانت حرب أكتوبر.. وما لحقها من إجراءات السلام، ومؤتمر بغداد.. وكان موقف السودان، مسانداً لمصر.. إلى أن أدلى جعفر نميري بتصريح خلال زيارته لإحدى دول الخليج.. شعرت أن فيه مساساً بمصر.. ولعله قال في هذا التصريح «لن تطأ قدمي أرض مصر»..

وانفعلت..

وشعرت بألم عظيم..

وأذكر أن السادات رد على هذا التصريح بقوله: أن أرض مصر طاهرة..

وكتبت مقالاً عنيف العبارات، هاجمت فيه تصريح الرئيس نميري، بكل الانفعال..

وعلى الفور أصدر نميري قراراً، بمنع دخول جميع صحف مؤسسة أخبار اليوم إلى السودان.. واستدعى القائم بالأعمال المصري (لم يكن لنا سفير حينئذ) وأبدى احتجاجه الشديد على هذا المقال..

والحق أنني لم أهتم بكل ما جرى، لأنني كنت مندفعاً في تأييد نميري، بكل عاطفتي.. وساءني جداً، تصريحه الجاف..

ثم حدث ما يضطرني إلى أن أسافر إلى السودان!!

لقد نجح ابني الأصغر في شهادة الثانوية العامة، ونقص مجموعه درجتين، عن المجموع الذي يهيىء له قبوله في كلية الطب..

وقال لي الدكتور مصطفى كمال حلمي وزير التعليم العالي، ـ حينذاك ـ أن هناك اتفاقية علمية بيننا وبين السودان، تتيح لعدد من الطلبة المصريين أن يتعلموا في جامعة الخرطوم (وهي الجامعة السودانية ـ وليست جامعة مصر في الخرطوم) مقابل عدد من الطلبة السودانيين يتعلمون في مصر.. وقال لي إن كلية الطب في هذه الجامعة على مستوى مرموق، وشهادتها معترف بها في انجلترا.. أي أفضل من بكالوريوس الطب المصري..

وكان من الطبيعي أن أتصور، أن ابني سيرفض قبوله.. لأن التقدم بالطلب سيعرف.. وسوف يأمر نميري بالرفض..

وعرضت حيرتي على حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية.. فقال لي: لا تعل هما.. سأكتب رسالة شخصية إلى نائب رئيس الجمهورية في السودان، وهو صديقي..

وتسلمت الرسالة من الدكتور أسامة الباز، الذي أرسل برقية بالشفرة إلى سفارتنا في الخرطوم، بموعد وصولي..

وكان إحد عشر طالباً مصرياً، قد تقدموا بنفس الطلب..

* * *

ووصلت طائرتي إلى الخرطوم، في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.. وفوجئت بوجود كل هيئة السفارة في المطار.. القائم بالأعمال. الملحق العسكري. المستشار. رئيس مكتب الإعلام.. واندهشت، فقد كان من الطبيعي أن يرسل القائم بالأعمال من يستقبلني.. ولكن وجود كل هيئة السفارة أزعجني!

وفاجأني القائم بالأعمال بالقول: أنت ستنزل في ضيافتي بمنزلي. .
قلت: شكراً. . أريد أن أقيم في فندق الهيلتون. .

ولكن الرجل أصرّ. . كما أنني أصررت من جانبي، لأنني لا أتصور أن أكون عبئاً على القائم بالأعمال وأسرته، وأنا لم تربطني به علاقة معرفة أو صداقة. .

ثم انتحى بي الرجل جانباً، في صالة استقبال كبار الزوار، وقال لي:

ـ دعني أصارحك بالحقيقة. أن حضورك إلى السودان، غير مرغوب فيه من الرئيس جعفر نميري. وبصراحة أنا مسئول عنك هنا. . وأخشى من أي ضرر يقع عليك. . .».

وروى لي القائم بالأعمال، قصصاً عن غضب الرئيس نميري من مقالي. .

ولكنني أصررت على النزول في الفندق. . واتصل القائم بالأعمال في الصباح المبكر، بمدير الأمن العام. . وتخصصت حراسة لي!

وطلبت أن أقابل الرئيس نميري، لأشرح له، أن قسوة عبارات مقالي، سببها الحب. . لأن تصريحه كان صدمة لي. .
ولكن أحداً من القصر، لم يرد عليّ طلبي. .

بل إن وزير القصر الدكتور بهاء، تهرب من الحديث معي في التليفون. .
واستقبلني الصديق العزيز علي شمو وزير الشباب أكرم استقبال. وبذل كل مساعيه للمصالحة، ولكنه فشل. .

كما استقبلني وزير الخارجية، وقد كان سفيراً في مصر، ووعد بالتحدث مع الرئيس نميري. . وتحدث معه فعلاً، وأبلغني أنه يرفض لقائي. .

وتركت رسالة النائب حسني مبارك، مع الملحق العسكري، الذي وعد بإيصالها إلى نائب رئيس الجمهورية، الذي كان في رحلة خارج العاصمة. .
وعدت إلى القاهرة في اليوم التالي. . وأنا واثق أن طلب ولدي سيرفض. ولكن المفاجأة. . أنه قبل مع باقي زملائه الطلبة المصريين!

* * *

وبعد شهرين. . قرر الرئيس السادات زيارة السودان، مع السيدة قرينته جيهان.

وبعثت الرياسة، بأسماء رؤساء تحرير الصحف، المرافقين للرئيس السادات في رحلته إلى رياسة الجمهورية في السودان. وكان أسمى من بينهم.

وتلقت القاهرة، اعتراضاً من الخرطوم، على وجودي ضمن الوفد الصحفي. .

وعرض الأمر على الرئيس السادات، ورفض هذا الاعتراض. .

وفي طائرة الرئيس من القاهرة إلى الخرطوم، تعرضت لمداعبات من جميع الزملاء ـ وكانت السيدة جيهان السادات تجلس معنا ـ تدور كلها حول أن نميرى سيقطع رقبتي بمجرد وصولي!

وتحاشيت في كل الاستقبالات والاجتماعات الرسمية، أن أكون قريباً من الرئيس نميري. . حتى جاء اليوم الأخير للزيارة، وعقد الرئيسان مؤتمراً صحفياً. .

وذهبت إلى قاعة المؤتمر، واخترت أن أجلس في آخر الصفوف. . وتقدم مني وكيل وزارة الإعلام، ودعاني للجلوس في مقعدي في الصف الأول. . واعتذرت، ولكنه ألح للمرة الثانية ثم المرة الثالثة، ولم يكن لي مهرب من الجلوس، في مواجهة المائدة التي سيجلس إليها الرئيسان.

وقبل دخول الرئيسين ومعهما زوجتاهما. . تلقيت ورقة صغيرة، بتوقيع الدكتور بهاء وزير القصر يقول لي فيها: «مبروك. . انتهت الأزمة». .

ودخل الرئيسان. . وجلسا. . وإذا بالسيدة جيهان تقول للرئيس نميري ضاحكة: ها هو موسى صبري. . ونظر إليّ مبتسماً ومحيياً، فتقدمت إليه وسلمت عليه. . وسلم عليّ بحرارة!. . . وهو يقول: إنه صديقي وما حدث هو سحابة صيف.

وصدر القرار بإعادة دخول صحف أخبار اليوم إلى السودان!

* * *

وفي طائرة العودة. . فتحت حقيبة يدي الجلدية الصغيرة، التي أحتفظ فيها بأقلامي ومفاتيحي، وبعض الأوراق الصغيرة. . فإذا بي أجد بها جسماً صلباً، على شكل طلقة بندقية. .

واشتبهت في الأمر. . وعرضت هذا الجسم على ضباط حرس الرئيس. . واختلفوا في أمره. . وشكوا في أن يكون نوعاً من المفرقعات. .

وساد الطائرة كلها جو من الارتباك. . وصلت القصة إلى السادات في جناحه، وتركت السيدة جيهان مكانها مع الرئيس وجاءت إلينا تستطلع الأمر. . وحاولت أن تهون من الانفعالات، بعد أن رأت اصفرار وجهي وخوف الجميع. . وأمر الرئيس بأن تهبط الطائرة في أسوان، على أن ينتظر أحد خبراء المفرقعات في المطار، ليتسلم هذا الجسم الصلب. .

ومرت علينا ثلاثون دقيقة، حتى هبطنا في أسوان، وكأنها ثلاثون ساعة، الكل مرتبك، ولا أحد قادر على التصرف. وتسلم الخبير قطعة الصلب. . وارتفعت الطائرة بنا، وتنفسنا الصعداء. .

وبعد العودة، اتصل بي رئيس أمن الرياسة، ليخبرني أن هذا الجسم مجرد قطعة صلبة ممغنطة. .

ولم أكن أعرف كيف وصلت هذه القطعة إلى حقيبتي. . إلى أن اكتشفت أن سكرتيرتي كانت قد أخذت الحقيبة لإصلاحها، ونسي من أصلحها هذه القطعة الممغنطة التي يستخدمها في جذب المسامير!!

ولا أدري كيف تسرب الخبر. . ونشرت الصحف العربية قصة كبرى، عن اكتشاف مفرقعات في طائرة السادات!

* * *

ومات السادات. . وكان نميري هو الرئيس العربي الوحيد الذي جاء معزياً. . وبعد تشييع الجنازة، وقف يتقبل العزاء مع السيدة جيهان، وحسني مبارك، وأفراد الأسرة . . واحتضنني بحرارة ، واختلطت دموعنا . .

وسافرت إلى الخرطوم، في كل رحلات الرئيس حسني مبارك إليها. . ولم

تكن هناك أخبار هامة في هذه الرحلات.. رغم وضع ميثاق التكامل الاقتصادي، الذي لم ينفذ إلا في جانب قليل منه..

وأخيراً.. نجح الانقلاب ضد نميري، وبقي في القاهرة، ولم أزر السودان إلا في عيد الاستقلال في ٣١ ديسمبر ١٩٨٩... في صحبة الرئيس مبارك.. وكانت زيارة لساعات، وعقد مؤتمر صحفي مع قائد «ثورة الانقاذ الوطنى» حضرته مع رؤساء تحرير الصحف المصرية.. وكانت أسئلتى إليه عن الاتهامات الموجهة للحكم الجديد بأنه ينتمى إلى «الإخوان المسلمون».

الفصل الخامس والعشرون

السادات وهيكل.. بعد موت عبد الناصر

السادات يتصل بي تليفونياً بعد جنازة عبد الناصر ـ صورة ثابتة لعبد الناصر في الصفحة الأولى ـ السادات يكلفني بحملة إعلامية لاستفتاء الرياسة ـ السادات يقابل بغدادي فقط ـ أول خطاب للسادات في مجلس الأمة ـ استقالة هيكل ـ السادات يقرأ خطاب هيكل لا خطابي! ـ سؤال إلى السادات. . ما هو حقيقة موقفك من هيكل ـ لست هيكل العهد الجديد ـ لقاء مفاجىء مع السادات بعد قرار تعيين أحمد حمروش ضمن رؤساء تحرير «الأخبار» ـ ضياء الدين داود يطلب مني كثرة الاتصال بالسادات لحجب هيكل ـ أسلوب السادات مع عبد الناصر ـ التمهيد لزيارة محكمة الجنايات ـ موت طفلة السادات ـ معاش للفنان الذي انتحر ـ دخولي انتخابات النقيب ـ مناورات المعركة ـ تعيين رؤساء مجالس الإدارات دون علم هيكل ـ حديث مع السادات عن حلمي مراد وعصام حسونة.

الفصل الخامس والعشرون

السادات وهيكل.. بعد موت عبد الناصر

قبل وفاة جمال عبد الناصر، كان السادات حذر في الحديث عن محمد حسنين هيكل. وأذكر عندما أمر عبد الناصر بالقبض على الكاتب المعروف لطفي الخولي وسكرتيرة هيكل، بعد أن سجلت المخابرات حديثاً لهما مع آخرين، يهاجمهون فيه عبد الناصر.. أذكر أنني سألت السادات وكان في مكتبه بأخبار اليوم:

ـ كيف تقبل عبد الناصر الهجوم عليه، من أقرب الناس إلى هيكل؟.. لعله في مرارة لأنه أعطى هيكل ما لم يعطه لبشر. أسرار الدولة أولاً، ثم كل الاستثناءات من قوانين الدولة في بناء الأهرام.

وكان تعليق السادات متحفظاً ولم يزد على قوله لي:

ـ هيكل فعلاً في موقف حرج..

* * *

ومات عبد الناصر..

وتجمع الكثيرون في مكتبي... وكنت أعد عدداً خاصاً عن عبد الناصر بها نشيت.. « فقدنا عبد الناصر ».. وكان الكل مصدوماً وشارداً، وكأن ملامحهم تقول.. وهل يموت عبد الناصر مثل سائر البشر؟!..

ويوم تشييع الجنازة ـ وكان يوماً رهيباً ـ تلقيت أنباء بأن أنور السادات وعلي صبري قد أغمي عليهما، ونقلا إلى مبنى مجلس الثورة.

وخشيت أن تكون النوبة القلبية قد عادت إلى السادات. ولم أستطع أن أتصل بأحد لكي يطمئنني على صحته . .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر. دق جرس التليفون . . وجاء صوت خافت على التليفون يقول:

أنا أنور.

ولم أعرف صوت المتحدث . . وسألت: أنور مين؟

قال: أنا أنور السادات يا موسى.

سألت في لهفة: من أين تتكلم؟ . . أريد أن أطمئن.

قال: الحمد لله: أصبت بإرهاق، وأعطاني الأطباء منوماً . . وأنا أتحدث من قصر القبة . .

قلت: كانت جنازة رهيبة.

قال: لم يعرفها تاريخ مصر . . وأريد منك أن تضع صورة أو رسماً ثابتاً لعبد الناصر في «ترويسة الأخبار» . . على يمين الاسم . . وتكتب تحتها «مؤسس دولة مصر» . . كده زي صورة لينين على «البرافدا» . .

قلت: أفضل أن تكون رسماً . . وسوف أطلب من بيكار هذا الرسم . . وسنبدأ نشره غداً . .

قال: أريد أن يستمر هذا الرسم على صدر «الأخبار» . .

وكان معي في مكتبي زميلي مصطفى طيبة (ماركسي)، وآخرون. وامتدح مصطفى طيبة الفكرة.

وفي اليوم التالي، طلبني فوزي عبد الحافظ السكرتير الخاص للسادات، وقال لي: ان السادات يريد أن يراني على الفور، في قصر العروبة بمصر الجديدة . .

وتوجهت فوراً الى القصر. ورأيت فوزي عبد الحافظ يجلس إلى مكتب صغير تحت السلم الخشبي الذي يصل الى هذا المدخل، بالدور الثاني . . وكان يستخدم كراسة مدرسية بها أرقام تليفونات . .

* * *

وانتظرت حتى انتهى السادات من اجتماع حضره أمين هويدي وكمال رفعت. . وقال لي السادات:

ـ أريدك أن تعد حملة إعلامية لاستفتاء الرياسة. . هل عندك مؤلفاتي؟.

أجبت:

ـ واحد منها فقط. .

وكلف فوزي عبد الحافظ بالبحث عن باقي المؤلفات. . وطلب مني أن أنشر قصص كفاحه الأولى. . وقصة الثورة. . وطلب عدم الإشارة في هذه القصص إلى أسماء أخرى من أعضاء مجلس الثورة. .

وقال لي إن بغدادي وكمال الدين حسين وعضواً آخر من مجلس الثورة، طلبوا لقاءه، وأرسلوا له مذكرة بإنشاء جمعية تأسيسية. . وقال إنه سيستقبل عبد اللطيف بغدادي فقط. . والمهم أن نزيل آثار العدوان، قبل أن نتحدث في أي شيء داخلي. .

ولم أكن أدري في ذلك الوقت، كيف تم الإتفاق على تولي السادات الرياسة المؤقتة، وكنت قد سمعت من الوزير التونسي ابن الحبيب بورقيبة، أن حسين الشافعي قال للوفد التونسي: أنه ليس من حق السادات دستورياً أن يتولى الرياسة. . وكان ذلك في منزل الفنان مدحت عاصم. . ونقلت ما سمعت الى السادات الذي علق بقوله إن الشافعي «مخه راكب شمال». .

وتم الاستفتاء. . وكنت قد نشرت مقالات عديدة، أعرف فيها القارىء بتاريخ السادات، ونضاله الوطني حتى قيام الثورة. .

وتحدد موعد لأن يلقي الرئيس الجديد خطابه أمام مجلس الأمة. . واستدعاني السادات في قصر العروبة أيضاً، وقال لي:

ـ أريد خطاباً يعرض كل مشاكل مصر. . ويقدم برنامج عمل. . مثل خطاب العرش الذي كان يفتتح به الملك البرلمان. .

ثم قال:

ـ سأقول لك خبراً هاماً، أحتفظ به سراً. . هيكل قدم إستقالته من وزارة الاعلام، وأنا قبلتها على الفور. .

قلت:

ـ عظيم . .

قال:

ـ ولكنني سأحفظ له «البرستيج» . . سأرد على كتاب استقالته، بكتاب شكر . . كما قررت تأليف لجنة لاحياء تراث عبد الناصر برياسته . .

قلت:

ـ مش مهم . . المهم أنك تخلصت منه في الوزارة . .

وذهبت إلى منزلي على عجل، وأعددت الخطاب، وبذلت فيه جهداً ضخماً . . وأرسلته إلى السادات . .

ولكنني فوجئت عندما شاهدت جلسة مجلس الأمة على شاشة التليفزيون، بأن السادات ألقى خطاباً آخر، باستثناء المقدمة . . وبضعة سطور من خاتمة الخطاب. واستنتجت أنه أسلوب هيكل!

وذهلت! . . ماذا جرى؟ . .

ولم أفاتح السادات في هذا التحول المفاجىء بالنسبة لي . . واستطعت أن أعرف أن هيكل ذهب إلى السادات، وعرض كل خدماته، وقال أن قلمه سيكون صوت السادات، كما كان صوت عبد الناصر، وأنه سوف يعمل في جبهته . . وطلب منه أن يحميه فقط من علي صبري . . واستلمح السادات الفكرة!

* * *

وبعد أعوام . . وعندما تأزمت الأمور مع هيكل، سألت السادات:

ـ أعرف رأيك في هيكل . . ولذلك فإنني مندهش، كيف قبلت استمراره متعاوناً معك؟

وكان رد السادات . . أنه كان يعلم مقدماً، أن علي صبري لن يهدأ . . وكذلك مجموعة مراكز القوى . . وفضل أن يحتضن هيكل لهذا السبب. وهناك سبب آخر قوي . . لقد كان جمال عبد الناصر يطلع السادات على أدق التفاصيل

في علاقتنا بالاتحاد السوفييتي.. ولكن السادات لم يكن يدري شيئاً عن اتصالات عبد الناصر بأمريكا. وكان هيكل هو الذي يقوم بهذه الاتصالات.. ولذلك رأى الإبقاء عليه ليعرف منه ما كان خافياً عليه..

وكان السادات قد طلب مني بعد اللقاء الثاني، أن أتعاون مع هيكل، في حملة الاستفتاء الاعلامية، كان شعارها، «الاستمرار والاستقرار».. وطلب أن أتصل بهيكل.. وفعلاً اتصلت به تليفونياً، واتفقت على موعد لزيارته، وكان هيكل في قمة السعادة، فقد كان الرائج في الوسط الصحفي، وبين المراسلين الأجانب، أنني سأكون هيكل السادات.. وقد تجمع عدد كبير من المراسلين في مكتبي، ووجهوا إلى هذا السؤال:

- هل صحيح أنك هيكل العهد الجديد..

وكانت اجابتي: لقد كنت ضد هذه الهيكلة.. وأرجو أن يكون عهد السادات لكل الصحفيين.. لا نريد عودة الصحفي الأوحد تحت أي اسم..

وأبلغت هذه الواقعة للسادات.. وقلت له: سيادتك على صلة شخصية بعدد كبير من رجال الصحافة.. وبعضهم تربطك بهم صداقات.. ولتكن صلتك بالجميع.. وبهذا سوف تعرف الأخبار الصحيحة، والرأي الصحيح.. لأن علاقتي بك، قد تجعلني مجاملاً، أو مخفياً عنك الحقيقة..

واستراح السادات لهذا التفكير.

* * *

وكانت مؤسسة أخبار اليوم، بلا مجلس إدارة.. وبالتالي بغير رئيس مجلس إدارة. وكان الدكتور قاسم فرحات هو المخول بالشئون المالية والادارية. واحسان عبد القدوس رئيساً لتحرير «أخبار اليوم» ويوسف السباعي رئيس تحرير آخر ساعة.. وأنا رئيس لتحرير الأخبار.

* * *

وذات يوم، دعاني أحمد حمروش إلى الغداء في منزله.. وقال لي أن شعراوي جمعه وعلى فائق (وزير الاعلام) عرضا عليه (أو اتفق معهما) على أن

يعين رئيساً للتحرير في «الأخبار». . أي يوضع اسمه مع باقي أسماء رؤساء التحرير. وقد سألاه: هل يوافق موسى صبري؟. . وأجابهم أنني صديق ولن أعترض.

ولكنني اعترضت. .

وقلت لحمروش. . أنني لا أعترض لو كان تعيينه رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم. أما رياسة تحرير «الأخبار». . فإنني أرفض. أنا رئيس التحرير المسئول قانوناً، ولن نتفق فيما سوف تكتبه، لأنك تعبر عن اتجاهك الماركسي.

وطلب مني حمروش أن أعيد التفكير، حتى لقاء آخر.

وأبلغت ما جرى إلى كل من إحسان عبد القدوس، وقاسم فرحات. واتفقنا على أن نتوجه فوراً إلى استراحة «القناطر الخيرية» ونطلب لقاء السادات، دون موعد سابق، للاعتراض على هذا الأمر.

وفعلاً ذهبنا. . وأخطره فوزي عبد الحافظ، واستقبلنا السادات في حجرة نومه، وكان يرتدي «البيجاما» والروب وقال ضاحكاً:

ـ لما قال لي فوزي. . أنتم الثلاثة هنا. . قلت لازم حاجة خطيرة اللي تخلي الفرسان الثلاثة ييجوا مع بعض. . والله أنا كنت باسمع غنوة للست.

وأشار إلى جهاز تسجيل إلى جوار سريره. . وكان يقصد بالست. . أم كلثوم.

وعرضت عليه ما حدث. . وقلت أن هذا سوف يسبب مشكلات عديدة. . وخاصة أن حمروش صديقي.

وقال السادات: الحقيقة أنا وافقت على أساس أن يوضع اسمه شكلاً فقط على الأخبار. . لكن ما دام هذا رأيكم. . خلاص. يعتبر القرار لاغي.

وطلب مني أن أتصل بمحمد فايق وزير الاعلام، وأخطره باسم الرئيس بالغاء القرار. ثم تحدثنا في أمور عامة، أهمها مذبحة القضاء. . وقلت للسادات. . لقد زارني عدد من المستشارين، ومن حقهم العودة جميعاً. وقال السادات: خطوة. . خطوة. . لقد أعدت بعضهم، والباقي في الطريق.

وقال قاسم فرحات، أنه يذكر السادات بوعده له أن يكون رئيساً لمجلس إدارة المؤسسة. . ولم يعطه السادات جواباً شافياً. . .

وانصرفنا سعداء، بعد أن انفرد احسان بالسادات بعض الوقت. . وقال السادات ضاحكاً:

ـ أوعو تفتكروا أني اتفقت مع إحسان على حاجة سر.

* * *

وكان اتصالي بالسادات في ذلك الحين شبه يومي.

ولم تكن قد نشأت أزمة مراكز القوى. ولكن وضح لي أن الصراع بين هيكل، وبعض مراكز القوى الأخرى قد بدأ.

لاحظت هذا من أكثر من دلالة. .

طلب ضياء الدين داود عضو اللجنة التنفيذية العليا، أن ألقاه. . وفي هذا اللقاء قال لي:

ـ نريد أن يزيد اتصالك بأنور السادات. أنت رجل وطني ونظيف، ولن تنقل له إلا الشيء الصحيح. . واتصالك المتعمق يمكن أن يحميه من محمد حسنين هيكل. .

وأجبته مخلصاً:

إنني لا أتصل بالسادات، إلا إذا كانت هناك ضرورة. . أو إذا كان يريد مني شيئاً.

وكرر لي هذا الطلب، محمد فايق وزير الاعلام. . وكانت بيني وبينه مودة خاصة، وكان لا يحترم محمد حسنين هيكل.

ثم فوجئت بعبد المجيد فريد وقد كان أميناً للاتحاد الاشتراكي في القاهرة ـ وكان من أنشط العناصر التنظيمية في حياة جمال عبد الناصر ـ بدعوته لي على فنجان قهوة في مكتبه بالاتحاد الاشتراكي. وأكرم الرجل وفادتي، وعاملني بكل مودة. . وقال أنه يريد أن يكون هذا الاجتماع فاتحة تعاون بيننا. . ورحبت بطبيعة الحال وشكرته.

ولكنني لم أغير مسلكي، في الاتصال بالسادات.

* * *

واستمررت في نشر الحملات الصحفية، لتعريف المواطنين بشخص السادات وتاريخ كفاحه.. ولم تكن الجماهير تعرف إلا أقل القليل عنه.. لأنه تعمد أن يكون في الظل طوال حكم عبد الناصر.. وكان يريد أن يقنع عبد الناصر دائماً، بأنه لا طموح لديه. وقد عين وزيراً لفترة قصيرة، وطلب أن يترك المنصب الوزاري. كما أخطره عبد الناصر يوماً، أنه قرر اختياره رئيساً لمجلس الأمة.. ثم عدل عبد الناصر عن ذلك.. واختار عبد اللطيف البغدادي.. وقبل السادات منصب وكيل مجلس الأمة دون أية غضاضة.. حتى في فترة مرض عبد الناصر عندما ألف لجنة برياسة السادات، لادارة الدولة بحيث لا يرجع إلى عبد الناصر إلا في القرارات الخطيرة.. كان السادات يتخلف عن حضور هذه اللجنة التي كانت تضم علي صبري وشعراوي جمعة وأمين هويدي ومحمد حسنين هيكل. كان كل ما يهم السادات، هو صلته الشخصية بعبد الناصر دون أن يدخل في أية صراعات. وقال أمام جميع أعضاء مجلس الثورة أن صوته أثناء غيابه عن أي اجتماع مع ما يقرره عبد الناصر. فقد لاحظ في إحدى جلسات مجلس الثورة، أن عبد الناصر تأزم من طريقة كلام السادات في الاجتماع، وقال له ما معناه أنه يظن نفسه رئيساً للمجلس.. ومنذ ذلك اليوم، في بداية الثورة، التزم السادات بأسلوب التأييد الكامل لعبد الناصر دون مناقشة.

* * *

كان لا بد إذن أن تعرف الجماهير تاريخ أنور السادات..

ومن ذلك ـ أنه اتصل بي يوماً، وأسر إلى أنه سيزور قاعة محكمة الجنايات التي وقف فيها متهماً باغتيال أمين عثمان (الوزير الوفدي السابق عام ١٩٤٧).. وقد برأته المحكمة. وأنه يريد الاجتماع بالمستشارين الذين نظروا القضية.. وكان له فيها موقف تاريخي وهو في قفص الاتهام.. عندما تحدث وكيل النائب العام أنور حبيب في ذلك الوقت، وهاجم الاستعمار البريطاني.. فاحتجت السفارة البريطانية وغضب القصر.. وحضر النائب العام الجلسة بشخصه في

اليوم التالي،وأعلن أن كلمات أنـور حبيب لا تعبر عن رأي النيـابة. . هنـا وقف السادات وصرخ من قفص الاتهام: أفضل أن يحكم علي بالاعدام وأن أشنق في ميدان عام، عن أن أسمع ما قاله النائب العام ضد الوطنية المصرية. .

وطلب مني السادات أن أمهدْ لهذا الاجتماع، بنشر هذه الروايـة التاريخيـة كاملة. . وقد فعلت. كـما قال لي أنـه سيكـرم أنـور حبيب في منحه وسـاماً. . وقد طلبت أنور حبيب وزارني في مكتبي وأبلغته بما يعتزمه السـادات. . وقد عـين السادات ـ بعد ذلـك ـ أنور حبيب في منصب المـدعي العام الاشـتراكي. وكان أنور حبيب يطمع في منصب وزير العدل.

* * *

وفي أشهر حكمه الأولى، عقد السادات اجتماعاً للجنة المركزية، وتحـدث إليهم عن العـدل الاجتـماعي الـذي يـرجـو أن يحققـه. . وروى قصـة مـواطن مصري، ماتت طفلته لأنه عجز عن أن يشتري لها الدواء. .

واتصل بي السادات وقال لي: هل تعرف من هو هذا المواطن؟. .

قلت: لا. .

قـال: أنـا هــذا المـواطن. . وهــذا مــا أريــد أن أجنب أي مصري من بـلائه. . إن حق العـلاج يجب أن يكون لكـل مصري. . ولا بـد من التـأمـين الصحي. .

واستأذنته في أن أكتب قصة طفلته، وأن أكشف هذا السر. . ووافق.

كان السادات متشبعاً بكل مشاعره للتأمين الاجتماعي. وقد قرر معاشات الفنـانين. . وكـان لا يتردد في إصـدار قرارات العـلاج بـالخـارج من الأمـراض المستعصية على حساب الدولة، حتى لو كان المريض من الخصوم السياسيـين. . أو من يهـاجمون السـادات بـلا هـدف. . ومن هؤلاء الكـاتب يـوسف ادريس، الذى أمـر بسفره على الفـور للعلاج ، وكـان بين الموت والحياة . . والمؤسف أن يوسـف ادريس تجاهـل ذلك ، بعد وفاة السـادات ، وكتب أن السادات مصاب بكـل أنواع الانحطاط الخلقى ، التى عرفت ، والتى لم تعرف !

وأذكر أن السادات اتصل بي يوماً، وسألني إن كنت أذكر فناناً كوميدياً معروفاً، قرأ عنه قبل توليه الرياسة، إنه انتحر حرقاً بسبب الفقر.. ولم أتذكره. وأبلغني باسمه، وطلب مني أن أرسل صحفياً ليتحرى حالة أسرته.. وفعلت. وأرسلت زميلي اسماعيل يونس، الذي قدم لي تحقيقاً مصوراً ـ لم ينشر ـ وأرسلته إلى السادات، وبعث إليهم بالمعونات المادية اللازمة..

* * *

وحل موعد الانتخابات الجديدة لنقيب الصحفيين.. واستأذنت السادات أن أدخل هذه الانتخابات، وكان ذلك بعد إحداث ١٥ مايو.. ووافق. ودخل الانتخابات حافظ محمود.. وفوجئت بدخول علي حمدي الجمال!.. لقد أوعز إليه محمد حسنين هيكل أن يدخل ضدي، وهيأ له كل إمكانيات «الأهرام» المادية والمعنوية..

وقد حاولت عبثاً أن أقنع حافظ محمود بالانسحاب، حتى لا تتفتت الأصوات.. وعقدنا من أجل ذلك اجتماعاً في بيت الفنان رخا حضره حافظ محمود ويوسف السباعي ومصطفى بهجت بدوي وزملاء كثيرون. ولكن حافظ محمود أصر على الاستمرار، لأنه يريد أن ينتقم لما حدث له من قبل في انتخابات سابقة.

وفوجئت بأن كل قوى حكم عبد الناصر تتكتل ضدي..

هيكل وكل من يتبعه..

الشيوعيون.. وكان هذا موقفاً غريباً منهم، لأنني بعد أن أخرج عبد الناصر خالد محيي الدين من رياسة مجلس إدارة أخبار اليوم.. أحسنت معاملتهم، وحميتهم من أي عدوان.. وكانت الأجواء تغلي ضدهم بين محرري أخبار اليوم، وكانوا يسمونهم «التتار»!.. وأذكر أن كلا من مصطفى طيبة وفيليب جلاب قد فشلا في إقناع الشيوعيين باتخاذ موقف مؤيد.. وكنت قد زرت خالد محيي الدين في منزله، وطلبت منه أن يقفوا على الحياد.. ووعدني بذلك، ولكنه أخلف وعده!.. بل حضر إلى دار النقابة يوم الانتخابات، ولم يغادرها إلا في ساعة متأخرة من الليل، وهو يقود المعركة ضدي..

كل أعضاء التنظيم السري في عهد عبد الناصر، تكتلوا أيضاً ضدي . .

وكـانت معركـة ضاريـة، تصديت لهـا بكـل جهـدي ليـل نهار . . وكـان شعاري صحافة حرة بعد سقوط مراكز القوى . .

وأطلقت عدة إشاعات لاسقاطي . . منها أن السادات منع كلا من سـامي داوود ومحمد عودة من الكتابة في «الجمهورية» . . وهذا يعني أن حرية الصحافـة خـرافة بعـد ١٥ مايـو . . ولكن مصـطفى بهجت بـدوي رئيس مجلس إدارة دار التحرير حضر اجتماعاً صاخباً في النقابة، وأعلن أن هذا غير صحيح!

ومن ذلـك، أنهم اتفقوا سراً، مـع جميل عـارف المحرر بـآخـر سـاعـة، ليخـطب في أحد الاجتـماعـات ضـدي . . ونسب لي وقـائـع كـاذبـة . . وأرادوا بذلـك أن يشـوهوا مـوقف زملائي في أخبـار اليوم مني! . . والغـريب أن جميل عارف قبل هذا التآمر مع الشيوعيين ضـدي، مع أنـه كان أول من يـريد طـردهم من أخبـار اليوم بعـد خروج خـالد محيـي الـدين، وأنا الـذي تصديت لـه . . وأعلنت أن كـل صحفي في أخبـار اليـوم بقـدر بعمله وانتـاجـه لا بـاتجـاهـاتـه السيـاسية . . كـما نشروا أقـذر المنشـورات ضـدي التي وصفتني بـأنني «مـوشيـه ديان» . . ولكن تكتل محرري أخبار اليوم معي كان رائعاً . .

وسقط حافظ محمود في الجولة الأولى . .

وبقيت انتخابات إعادة بيني وبين علي حمدي الجـمال . . وخسرت المعركـة بعدد محدود من الأصوات، لأن عدداً من أنصـاري، تركـوا النقابـة بعد إعـطاء الأصوات في الجولة الأولى، وتعذر استدعاؤهم من منـازلهم . . وكان هيكـل قد سخر أتوبيسات الأهرام، لنقل المحررين!

كما أن حافظ محمود، وكان في قمةالألم لسقوطه، رفض أن يشجع أنصاره على التصويت معـى . . برغم أن يوسـف السباعى قال لـه إن التصويت لعلى حمدى الجمال معناه التصويت لعلي صبري ومراكز القوى . . .

وخسرت المعركة!

وتـألم السادات لـذلك، ألمـاً عظيمـاً . ولم يكن يعرف حقيقـة ما جـرى . واستدعاني إلى لقـائه في ميت أبـو الكوم، وكـانت جلسة طـويلة استمرت أربـع

ساعات. . وكان موضع دهشة السادات، أن الشيوعيين استجابوا إلى هيكل في التصويت ضدي، مع أنهم كانوا ينسبون إليه أنه عميل الاستعمار، وأنه رجل أمريكا. . ولما رويت للسادات كل ما جرى اقتنع بأن كل فلول مراكز القوى، والشيوعيين والتنظيم السري، قد حددوا موقفهم ضد ١٥ مايو. . وضد نظام السادات.

وفي هذه الجلسة الطويلة اقترحت على السادات، أن يدعم الحكومة بوزيرين يتمتعان بسمعة وطنية طيبة. . الدكتور حلمي مراد وزير التعليم في عهد عبد الناصر، وعصام حسونة وزير العدل السابق.

وقال لي السادات أنني مخدوع في حلمي مراد. . وإن كل ما رواه حلمي مراد عن مواقفه ضد عبد الناصر، هي أكاذيب. . وأنه كان يراه كيف يتعامل مع عبد الناصر بالطاعة الكاملة. . وقال السادات: أنا لا أحب هذا النفاق السياسي. داخل الجدران المغلقة مسالم ومستكين. . وخارجها أسد غضنفر. . إن لي تجارب معه. . وأنا أعرف به منك. .

ولم يتحمس لعصام حسونة دون إبداء أسباب واضحة. .

ولكنني رجوته، وألححت عليه، ان يجتمع بكل منهما على انفراد. . ووافق على مضض، ولكنه لم يفعل.

* * *

وبالنسبة لهيكل. . انزعج السادات من تحالفه مع الشيوعيين وفلول مراكز القوى. . وكان هيكل في ذلك الوقت، على صلات طيبة بالسادات، وكانت له كل امتيازاته في عهد عبد الناصر. وكان يرى السادات كثيراً. . وبدأ يفتح أبواب الاتصالات التحتية مع أمريكا . . ولذلك دهش السادات من تحالف هيكل مع خصومه. .

وأراد السادات أن يكشف هيكل أمام الصحفيين الشيوعيين والناصريين، الذين تحالفوا مع هيكل، على أساس أنه حاميهم بسبب صلته بالسادات. .

وفكر السادات في أن يصدر حركة تعيين رؤساء مجالس إدارة الصحف ورؤساء التحرير بحيث تكون مفاجئة لهيكل دون أن يعلم عنها شيئاً. .

وقال لي: أنت رئيس أخبار اليوم..

وأجبته معتذراً. وقلت له بكل صدق: إن إحسان عبد القدوس أحق مني بذلك.

وامتدح السادات هذا الموقف مني.

واقترحت يوسف السباعي، لرياسة دار الهلال...

وقال لي السادات. توجه على الفور إلى الدكتور حاتم، وتفاهما سراً في إعداد الحركة.. حتى تصدر مفاجئة..

وقد كان.. وكانت مفاجأة قاصمة، بالنسبة لهيكل الذي كان يدعي علمه بقرارات السادات قبل إصدارها.

جرى هذا بعد أحداث ١٥ مايو..

ولكن ماذا كان الموقف في الصحافة، وعلى المسرح السياسي قبل ١٥ مايو؟!

الفصل السادس والعشرون

١٤ مايو.. الليلة العصيبة!

خلاصة للموقف قبل أحداث مايو ـ إقالة علي صبري ـ السادات يتظاهر بأنه لا يدري ما يجري وراء الستار ـ تأييد للسادات في الصفحة الأولى ـ تجمع في مكتبي ـ في منزل السادات ـ حديث مع السادات من وراء الستار ـ في الإذاعة مع الزيات ـ تعيين حاتم وزيراً ـ السادات يحدثني في السابعة صباحاً ـ عودة مها عبد الفتاح إلى أخبار اليوم ـ آمال فهمي ترفض العودة إلى الإذاعة ـ هيكل أخفى واقعه حصار الإذاعة عن السادات ـ خوف هيكل ـ مقال عبد الرحمن الشرقاوي ـ هجوم من أحمد بهاء الدين ومحمد سيد أحمد ـ إحسان عبد القدوس يزورني في المستشفى ـ خلافي مع إحسان ـ علاقتي بإحسان ـ أزمة مع الشرقاوي ـ إحسان يعترض على الهجوم على هيكل ـ استقالتي ـ الحل الوسط ـ وقف نشر مقالات إحسان لترضية القذافي.

الفصل السادس والعشرون

١٤ مايو.. الليلة العصيبة!

تكهربت الأجواء، بين أنور السادات، وبين من اصطلح على تسميتهم بمراكز القوى، وأسفرت النتيجة عن القبض عليهم ومحاكماتهم أمام محكمة خاصة، أصدرت عليهم احكاماً قاسية.

ولا أريد في شريط الذكريات، أن أتعرض بعمق للأحداث السياسية، لأنني أسجل هنا مواقف صحفية من أحداث سياسية.

حاولت مراكز القوى في أول الأمر، أن تذبح محمد حسنين هيكل، وعقدت اللجنة التنفيذية العليا لمناقشة مقال كتبه بعنوان «عبد الناصر ليس أسطورة» وقام بالاتهام في هذا الاجتماع الدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الأمة. ولكن السادات تصدى لحماية هيكل.

ثم طرح مشروع الاتحاد أو الوحدة بين مصر وسوريا وليبيا الذي لم يشترك فيه جعفر نميري. وسألته ـ بعد ذلك ـ لماذا لم يشترك، فقال إنه لا يشترك مع رجل لا يحترم كلمته مثل حافظ الأسد، ومع رجل مجنون هو القذافي. وكان فكرة السادات عن هذا الاتفاق، أن يدعم موقف مصر في العالم العربي، وفي أية اتصالات خارجية فى قضية السلام .

وكان واضحاً في اجتماع اللجنة المركزية، أن علي صبري استطاع أن يجند رأياً عاماً ضد مشروع الاتفاق، وهاجم موقف السادات بعنف دون أن يستخدم عبارة نابية. . والتقط السادات رأياً أبداه الدكتور مصطفى أبو زيد (المدعي الاشتراكي بعد ذلك) مصادفة. . أنقذ به الموقف، ولكن السادات تأكد بعد ذلك أن التفاهم أصبح مستحيلاً مع مراكز القوى.

وأذكر أنه استدعـاني إلى استراحة القناطر، وكان الوقت ليلاً، وقال لي إنه سيجعل كل منـاصب الاتحاد الاشـتراكي بالانتخـاب من القاعـدة إلى القمة . . وكـانوا هم يسيـطرون على الاتحـاد الاشتراكي . . وحـان موعـد الاحتفال بعيـد العمال في حلوان، وكان الجو متوتراً . . ودبروا هتـافات بحيـاة عبد النـاصر، كما نـظمـوا من رفعـوا مئـات الصـور لعبـد النـاصر في وجـه الســادات . . بقصـد استفزازه . .

وكـان السادات قـد طلب من هيكـل أن يكتب خـطاب عيـد العـمال . . وطلب منه أن يكتب فقرة عن مراكز القوى . . ولكن هيكل كتب الخـطاب، ولم يكتب هذه الفقرة . . ولماذا لم يكتبها هيكل؟ . . جرى التقليد، أن الخطاب بعـد كتابته يـرسل إلى مكتب سـامي شرف في رياسـة الجمهوريـة لكتابتـه على الآلـة الكـاتبة بحـروف كبـيرة . . وكـان هيكـل متـأكداً من أن عـلي صـبري سيقـرأ الخطاب. ولذلـك لم يشأ أن يـدين نفسه بكتـابة هـذه الفقرة. وتسلم السـادات الخـطاب، وأضاف بقلمـه هذه الفقـرة، التي كانت إعـلاناً من السادات بتفجير الموقف .

وراجت قصص مـراكز القـوى في الشـارع المصري . . وكـانت الجـماهـير متعاطفـة مع السادات الـذى كان يمثل أملاً مشرقـاً جديداً . . وكـانت ضائقـة من حكم القهر بواسطة هذه المـراكز في عهـد عبد النـاصر . . ولكن الجماهـير كانت مشفقة على السـادات. إنهم يسيطرون عـلى القوات المسلحـة والشرطة والاتحـاد الاشتراكي . . فكيف يفلت السادات؟ . . .

* * *

واستخدم السادات كل دهائه السياسي . .

أصدر قراراً بإعفاء علي صبري من منـاصبه . . وأخـطر السفير السـوفييتي بذلك، قبل إعلانـه، حتى لا يتصور السـوفييت أنه قـرار عدائي بـالنسبة لهم، لأنهم يعتبرون علي صبري من أكبر مؤيدي سياسة الوفـاق المصري السوفييتي . . وقال السادات للسفير السوفييتي : أنتم تتعاملون مع دولة لا مع أشخاص .

وتظاهر السادات بعد ذلك، بأنه لا يدري بما يجري خلف الستار! . . مع

أنه كان ينام في تلك الأيام، ومسدسه بجوار سريره!.. وكان يحيل كل الشكاوي التي يتلقاها من القرارات التي كانت تصدرها لجان الاتحاد الاشتراكي ضد سياسته إلى شعراوي جمعة بوصفه أميناً للتنظيم!.. وكأن هذه القرارات كانتْ تصدر من وراء ظهر شعراوي جمعة!

وكان السادات يتهرب من الحديث مع أحد في هذا الموضوع.. وكثيراً ما حدثته في التليفون عما يجري، وكان لا يعلق.. مما يثير حنقي ودهشتي من مسلكه!

ولكنني قررت أن أتخذ موقفاً..

وبدأت أنشر براويز في الصفحة الأولى بتوقيعي، تؤيد موقف السادات ضد مراكز القوى.. وثبت من الأحاديث التليفونية المسجلة، التي عثر عليها بعد ذلك، وكانت من أدلة الاتهام.. أن علي صبري كان يصفني بأنني «سافل ابن كلب»..

ثم كانت المفاجأة بالاستقالة الجماعية للفريق محمد فوزي وشعراوي جمعة ومحمد فايق ولبيب شقير والباقين..

واتصل بي فوزي عبد الحافظ، وأملاني خبراً بأن الرئيس قبل هذه الاستقالات، وكانت قد أذيعت من الراديو في نشرة الساعة الحادية عشرة مساء!

وكنت قد كتبت بروازاً باسمي، فيه تأييد واضح لموقف السادات..
وجاء زميل كبير إلى مكتبي، من أقرب أصدقائي وهمس في أذني أنه من المستحسن ألا أنشر كلمتي. قال ذلك، إشفاقاً عليّ، فلم يكن أحد يتبين في تلك الليلة الخطيرة كيف يتطور الموقف حتى الصباح، ومن ستكون له الغلبة.. ولكنني لم أستمع إلى نصيحة زميلي التي أسداها بعاطفة صادقة.

وتجمع في مكتبي، وكان الليل قد انتصف عدد كبير من الزملاء والزائرين والكل يتساءل.. ماذا سوف يحدث؟!

وقررت أن أتوجه إلى منزل السادات في الجيزة.. وكنت قد اتخذت قراراً لا رجعة فيه. أن أؤيد موقف السادات، وليكن ما يكون. ولا أذكر أنني كنت قوياً ثابت الوجدان، وكلي ثقة في نفسي، مثلما كنت في تلك الليلة. وقد مر

بخاطري، أن مراكز القوى قد تنتصر وربما تعلق رأسي على حبل المشنقة.. وأسعدني أنني لم أهتز.. ولم أفكر في الموت بأدنى مشاعر خوف!

هذا ما حدث، وهذه شهادتي أمام الله..

ووصلت إلى منزل السادات. كان كل شيء هادئاً حول المنزل.. ودخلت إلى مكتب فوزي عبد الحافظ، ورأيته غارقاً، في تلقي إشارات تليفونية.. وقلت له.. أريد أن أتحدث إلى الرئيس..

وأعطاني تليفوناً، يختفي وراء ستارة سميكة.. وتحدثت إلى السادات... وقلت له إن كل شيء على ما يرام. وموقف جميع الزملاء في أخبار اليوم ثابت. واقترحت عليه أن أتوجه إلى منزل الدكتور عبد القادر حاتم، وأستدعيه ليتولى وزارة الإعلام.. فهو الوحيد القادر على السيطرة على الإذاعة والتليفزيون في تلك الليلة.. وخاصة أن تنظيمات مراكز القوى السرية منتشرة في هذا المبنى. وهو يعرفهم واحداً واحداً. وأجابني السادات بأنه أرسل محمد عبد السلام الزيات إلى الإذاعة للسيطرة على الموقف. ثم اقترحت عليه أن أتوجه إلى منزل أمين هويدي في مصر الجديدة، وأستدعيه لكي يتولى رياسة المخابرات العامة. فقال لي السادات.. اطمئن. لقد اخترت شخصاً قادراً على هذا المنصب، وهو موضع ثقتي، وكان المشير أحمد إسماعيل..

وقال لي السادات: اذهب إلى الإذاعة.. وكن بجوار عبد السلام الزيات..

وفعلاً ذهبت. وبقيت إلى جوار عبد السلام الزيات. وكان معه ضابط من الحرس الجمهوري اسمه «حتاتة».. وكان مستعداً بالمدفع في يده لأي طارىء!

وكانت ليلة عصيبة..
ومر كل شيء بسلام.

* * *

وذهبت إلى منزل الدكتور حاتم في الصباح المبكر.. لكي أبلغه بما عرضته على السادات. وقلت له.. لعل فرصة أخرى في الطريق. وأجابني

حاتم، بأن السادات اتصل به، وكلفه بتولي وزارة الإعلام وسوف يحلف اليمين عند الظهر. . وفرحت بذلك.

والحق أن حاتم كان يطلب مني طوال الشهر الفائت، أن أبلغ رسائل منه إلى السادات، ومنها رسائل تحذير، ومنها رسائل عن مشروعات ضخمة لديه يستطيع أن ينفذها بالتعاون مع اليابانيين في التليفزيون. وكان حاتم قد طلب مني أن أبلغ السادات اقتراحاً منه بأن يتولى ممدوح سالم وزارة الداخلية. . ولكن السادات في كل هذه الاتصالات، لم يكن يظهر حماسة لحاتم. . وكان يكتفي بأن يستمع دون أن يعلق. .

وفي تلك الليلة، أمضى الدكتور عزيز صدقي كل الوقت حتى مطلع الفجر، في الاتصال التليفوني بالقيادات العمالية، للقيام بمظاهرات في الصباح التالي، تأييداً للسادات. . وقامت فعلاً مظاهرات ضخمة عارمة. .

وكتبت مقالاً في الصباح التالي. . عن ١٤ مايو. . واتصل بي السادات في الساعة السابعة من الصباح. . وقال لي إنه قرأ المقال أربع مرات. . ووصفه بأنه قطعة من الشعر. .

وهنا قلت له: في هذا اليوم المفترج. . لي عندك مطلبان. . أن تعود آمال فهمي إلى الإذاعة، وكانت قد أوقفت عن العمل. وأن تعود مها عبد الفتاح إلى أخبار اليوم. . وكانت موقوفة عن العمل أيضاً. .

وحكاية آمال فهمي، هي أنها أذاعت في برنامجها «على الناصية» أن توصيل الكهرباء إلى القرى، يخضع للمحسوبية. . وأن أسلاك الكهرباء، تجاوزت عدة قرى، لتصل فقط إلى قرية علي صبري. .

وتقرر وقفها. .

أما زميلتنا مها عبد الفتاح، وهي من ألمع المحررات في أخبار اليوم (الآن نائبة رئيس تحرير الأخبار للشئون الخارجية ومديرة مكتب واشنطن). . . فقد خضعت لمطاردات رهيبة من المخابرات العامة، لكي تكون عميلة لهم. . رفضت. وكان صلاح نصر قد حاول من قبل أن ينتزع منها أقوالاً تتهم مصطفى أمين بالعمالة، ولكنها رفضت. وهكذا أوقفت عن العمل. وكنت قد تحدثت

بشأنها إلى أنور السادات من قبل، ووعدني بإعادتها. . حتى جاءت الفرصة، عندما تحدث إليّ بالتليفون في الصباح الباكر. .

واتصلت على الفور بآمال فهمي. . وفاجأتني بأنها ترفض مجرد العودة إلى الإذاعة. . وهي لا تقبل إلا أن تعود رئيسة لإذاعة الشرق الأوسط.

ومررت على مها عبد الفتاح بمنزل أسرتها، وهي جارتي، واصطحبتها معي إلى «أخبار اليوم»، وجبت معها على جميع مكاتب المؤسسة.

وكان يوم عيد. .

* * *

وكتب هيكل أكثر من مقال، أخباري، عن أحداث ١٥ مايو. . وأراد أن يبرز أنه خطط لهذا اليوم مع السادات. وهذا غير صحيح. وقد اكتشف السادات واقعة خطيرة كان هيكل قد أخفاها عن السادات. لقد أبلغه أحد محرري «الأهرام» أن مراكز القوى حاصرت مبنى الإذاعة والتليفزيون. . وكان الهدف واضحاً. . وهو القبض على أنور السادات إذا لجأ إلى الميكروفون. وأسر هيكل بذلك إلى فوزي عبد الحافظ وأكد عليه ألا يبلغ السادات! . . ولكن فوزي عبد الحافظ أبلغ السيدة جيهان.

وقد لاحظ السادات ليلة ١٤ مايو، أن هيكل كان أصفر الوجه، مرتعد الأوصال وهو في منزل السادات. . وكان يخشى مفاجآت الأحداث، وخاصة أنه اتخذ موقف الحيطة والحذر بين السادات وبين مراكز القوى ممثلة في شعراوي جمعة وسامي شرف، وكانت تربطه بالأخير أوثق الروابط. .

وبدأ السادات، يتشكك في كل مواقف هيكل. . وعندما واجهه السادات، لماذا أخفى عنه واقعة حصار مبنى التليفزيون. . زل لسان هيكل، وقال دون أن يدري، إنه لم يكن يعرف من سوف ينتصر!

كل هذا استرجعه السادات، وهو يقيم علاقته مع هيكل بعد ذلك.

* * *

وزارني عبد الرحمن الشرقاوي صباح ١٥ مايو، وطلب مني نشر مقال

بقلمه، عن القهر والاستبداد وإهدار إنسانية الإنسان في حكم مراكـز القوى. . ونشرت المقال بعرض الصفحة الأخيرة، وكان قمّة في بلاغة الكلمة. .

كما طلب مني ثروت أباظة، نشر كلمة له. . وكانت قصيرة جـداً في بضع سطور، وطلبت منه أن يعيد كتابتها حتى تأخذ شكل مقال قصير. .

ثم فـوجئت بعد أيـام، بمقالـين لأحمد بهـاء الدين، ومحمـد سيد أحمـد في «الأهرام» خلاصتهما أن من يصفون أحداث ١٥ مايو، بأنها ثورة، يريدون إلغاء ثورة ٢٣ يوليو!

وكنت أول من استخـدم هـذا التعبـير (ثـورة ١٥ مـايـو) لاقتنـاعي بـأن الانتقـال من الدكتـاتوريـة إلى الديمقـراطية، يعـبر عن ثورة حقيقيـة، تغير كـل أوضاع المجتمع. . .

وجاءني عبد الرحمن الشرقاوي، ضـائقاً بهـذا الذي نشر في «الأهـرام». . وكان الشرقاوي مقتنعاً أيضاً بأن أحداث ١٥ مايو، هي ثورة. . واستخدم هذا التعبير في مقالاته بعد ذلك. .

واتصلت بالرئيس السادات تليفونياً، وأوضحت له وجهـة نظري في هـذا الاتجـاه الجديـد الغريب الـذي ظهر في مقـال أحمـد بهـاء الـدين، ومحمـد سيـد أحمد. . وقلت له إن عبد الرحمن الشرقاوي جالس أمامي. .

فقال لي السادات:

ـ رأيي أن ما نشروه هو كلام فارغ. . وأبلغ عبد الرحمن الشرقاوي، أنني كنت أتمنى لو استطعت أن أكتب بقلمي، مـا كتبه بقلمـه. . ١٥ مايـو تصحيح ديمقـراطي لثورة ٢٣ يـوليـو. . وكيف يفهم أن ١٥ مـايـو تعني إلغـاء ثـورة ٢٣ يوليو. .

ثم قال:

ـ إن ما تكتبونه هو الخط السياسي السليم. .

وعندما صـدرت قرارات تشكيـل مجالس الإدارة الجـديدة، عـينّ الرئيس السادات، عبد الرحمن الشرقاوي، عضواً بمجلس إدارة مؤسسة أخبـار اليوم. .

وكان إحسان عبد القدوس قد عيّن رئيسا لمجلس الإدارة، بناء على اقتراحي كما ذكرت من قبل.

وخلال ذلك، كنت قد أصبت بنزلة شعبية، وعولجت في مستشفى الدكتور الكاتب.. وحضر إحسان عبد القدوس لزيارتي، وقال لي:

ـ جئت لأشكرك.. لأنني قلت للسادات عندما عرض على تعييني رئيساً لمجلس الإدارة.. وماذا عن موسى صبري؟.. فقال لي السادات، انك أنت الذي اقترحت تعييني..

وقلت لإحسان:

ـ هذا وضع طبيعي، ولا يستحق الشكر.

وخرجت من المستشفى، وقال لي إحسان عبد القدوس، انه يريد أن يفعل شيئاً يشعر به محرزو المؤسسة أن هناك تغييراً لصالحهم.. فاقترحت عليه، أن يدرس أوضاع عدد من المحررين الذين لم يمنحوا علاوات منذ أعوام.. وتصحيح هذه الأوضاع سيكون له أجمل الأثر..

فطلب مني إحسان ـ لأنه لا يعرف شيئاً عن المؤسسة ـ أن أدرس هذا الموضوع، وأقدم له مذكرة تفصيلية باقتراحاتي.. وفعلت. وأمضيت أكثر من أسبوع، في المقارنات حتى تكون القرارات عادلة. وأرسلت المذكرة الى إحسان، فإذا به يردها لي، وقد كتب عليها: «هذه الأمور من اختصاص رئيس مجلس الإدارة، ولا شأن لك بها»..

وذهلت!.. فهو الذي طلب مني؟..

واتصلت به على الفور في منزله، وقلت له.. ما معنى هذه التأشيرة؟.. هل أنا تطوعت بذلك؟.. ألم تطلب أنت مني؟..

وضحك إحسان وهو يقول: أصل أنت ما تعرفش أسلوبي في الإدارة..

وقلت له غاضباً وفي حسم: «يا إحسان.. أنا لا أقبل هذا الأسلوب الملتوي في التعامل.. وأرى فيما كتبته أنت على مذكرتي، إهانة مرفوضة تماماً».

وهكذا. . فتح إحسان باب الشك في نواياه، في علاقتنا معاً.

* * *

لقد بدأت علاقتي بإحسان عبد القدوس، عندما رأيته لأول مرة في مكتب ادجارجلاد (باشا) صاحب جريدة «الزمان» المسائية، عندما كنا نستعد لإصدارها، برياسة جلال الدين الحمامصي. . كنت من قبل أراه من بعيد في كلية الحقوق في الفترة ما بين ١٩٣٩ و١٩٤٢. . كان طالباً في الكلية يسبقني بعام، وكان مشهوراً بين الطلبة، لأنه كان يعمل فعلاً بالصحافة، في صحيفة والدته. . ولكنني لم أتحدث إليه قط.

وجاء عمله معنا في صحيفة «الزمان» كمخبر سياسي. . علاوة على عمله في روز اليوسف، فرصة لكي نتعارف. . في عام ١٩٤٧.

وكان أنيقاً، بشوش الوجه، فيه روح مودة. . وكان يتردد علينا بين الحين والحين، ونتبادل المناقشات. . ثم أصدر أول مجموعة له من القصص القصيرة، وقدمها لي، وطلب مني أن أكتب عنها. . وأكد أنه لن يغضب من النقد. وقد كتبت نقداً خلاصته أن الجنس هو الغالب فى قصصه . . وغضب ! . . ومنذ ذلك الوقت، وأنا أرعى مشاعره، لأنني لم أكن أريد أن أفقده. وكان موقفه الصحفي من الفساد قبل الثورة، ومن حاشية الملك فاروق والأسلحة الفاسدة موقفاً شجاعاً، يستحق كل التقدير. . وكذلك كان تحديه لسلطات اللورد كليرن السفير البريطاني في قمة الوطنية. .

وبعد أن انقطعت صلتي بالزمان، في عام ١٩٥٠. . بدأت أتردد على إحسان عبد القدوس في مكتبه في «روز اليوسف». . ودعاني إلى منزله أكثر من مرة واستمرت علاقاتنا على مودة كاملة، دون اختلاط غير عادي. . وعندما اعتقله عبد الناصر في أول الثورة، كنت في قمة التعاطف معه. . وكانت والدته السيدة روز اليوسف في قمة الغضب وكانت تردد. . إن إحسان هو صانع الثورة. .

ثم كانت تجمعني به سهرات كامل الشناوي. . وكان إحسان قد بلغ حينئذ قمة شهرته ككاتب قصة. . كما كان مشهوراً بغزواته الغرامية. . وهو في

كل ذلك لطيف المعشر. وعندما اقترح هيكل تعيينه رئيساً لتحرير «أخبار اليوم» رحبنا به أجمل ترحيب، وأذكر أنه بدأ نشر رواية على حلقات، رفعت التوزيع منذ الحلقة الأولى خمسين ألف نسخة.

ولكن العلاقات ساءت بعد تعيينه رئيساً لمجلس الإدارة.. وكان ذلك من جانبه، ثم تضاعف هذا السوء، بعد الإفراج عن مصطفى أمين، وعودته إلى «أخبار اليوم».. لقد رأى احسان التفافنا جميعاً حول مصطفى أمين وشعر أنه غريب عن هذه الأسرة.. وطلب من السادات نقله.. وفعلاً تم نقله إلى الأهرام.

بدأ التوتر مع إحسان.. بسبب مقالات كتبها عبد الرحمن الشرقاوي عن السودان.. بعد فشل الانقلاب الشيوعي هناك. وطلب إحسان تغيير بعض فقرات من أول مقال، ورفض الشرقاوي.. واحتج إحسان بأن هذا رأي السادات.. ثم عاد وعدل عن ذلك.. وكانت مواجهة عنيفة بينه وبين الشرقاوي.. وعشنا في جو مكهرب، كنت فيه محايداً حيدة كاملة.. وحسم السادات الموقف، بتعيين عبد الرحمن الشرقاوي رئيساً لمجلس إدارة روز اليوسف.. كما سبق أن ذكرت.

وبلغ التوتر قمته بيني وبين إحسان.. عندما كتبت مقالاً أهاجم فيه موقف محمد حسنين هيكل من الحرب، بعد أن نشر مقالاً في «الأهرام» كان له أسوأ الأثر على معنويات الضباط والجنود في القوات المسلحة.. فقد كانت خلاصة المقال، أن العبور، وتحطيم خط بارليف، هو العمل المستحيل..

وكان هيكل في ذلك الوقت، على أطيب الصلات بأنور السادات!

وكما ذكرت من قبل، كان هيكل ـ في عهد عبد الناصر ـ هو الذي أخرج إحسان من «أخبار اليوم».. وبقي إحسان في منزله، حتى أعاده السادات وهو نائب رئيس الجمهورية، عندما أشرف على صحف أخبار اليوم.. قبل أن يعيدني إليها بوقت قصير.

واتصل بي إحسان في المساء كالعادة.. يسألني عن الأخبار.. فأجبته..
لا جديد

وسألني: هل لك مقال غداً؟..

قلت: نعم (وفهمت أن أحداً أبلغه بما في المقال)..

وسألني: ما موضوعه؟

قلت: إنني أهاجم في المقال موقف محمد حسنين هيكل من الحرب.. وهو المقال الأول.. وسأنشر الثاني في اليوم التالي..

فقال لي: ليس من رأيي مهاجمة هيكل..

قلت: وأنا من رأيي مهاجمة هيكل..

قال: على أية حال.. سأحضر إليك..

كان في منزله.. وحضر إلى المؤسسة.. والتقينا في مكتبه.. وقال لي أنه يعتقد أن هيكل شخص تافه.. وأنه لا يستحق أن تهاجمه..

وقلت: هيكل ليس تافهاً.. هيكل كاتب كبير له قلمه المؤثر.. وقد كان يحكم مصر..

وقال: ولكنني لا أرى داعياً للهجوم عليه.

قلت: هذا رأيك.. ولكنني رئيس التحرير المسئول في «الأخبار» وهذا رأيي..

قال: حقي كرئيس لمجلس الإدارة، يبيح لي أن أقرر عدم نشر المقال..

قلت: إذا لم ينشر هذا المقال، فإنني مستقيل..

قال: هل تقبل أن تحتكم إلى الرئيس السادات؟

قلت: لا دخل للرئيس السادات في هذا الموقف..

قال: ما دمت ترفض الاحتكام إلى الرئيس السادات.. فإنني أقرر عدم نشر المقال..

وهنا فقدت أعصابي، وكتبت استقالتي في سطرين.. ورميت الورقة على المكتب، وانصرفت إلى مكتبي..

وبعد أقل من عشر دقائق.. جاء إحسان إلى مكتبي، وقال لي بأسلوب مودة:

ـ لا يليق أن نختلف ونحن أصدقاء. . وعلى كل ما دمت مصراً على النشر. . فلا اعتراض لي.

ودهشت من هذا التحول المفاجىء. .

ثم قال: ولكن أرجو أن تقبل وجهة نظري. . لا داعي لاسم محمد حسنين هيكل. . وسوف يفهم القارىء من تعنيه. .

وقبلت.

ونشر المقال الأول، ثم الثاني. .

وكنت قد رفضت الاحتكام إلى الرئيس السادات، لأنني سبق أن اتصلت بالرئيس، وقلت له. . مع احترامي لعلاقتك مع هيكل. . وعمله معك. . فإن له مقالاً، لا يمكن إلا أن أرد عليه. .

وأجاب السادات: أنا لم أتدخل فيما تكتب. . أنت حر. .

ولم أشأ أن أقول لإحسان ذلك. . لأنني لا أريد أن أدخل الرئيس طرفاً في الموضوع.

ثم علمت، أن إحسان اتصل بالرئيس السادات، وعرض عليه الموقف. . وقال له إنني قدمت استقالتي. . ولكن السادات لم يؤيد وجهة نظره في عدم النشر. ولهذا جاء إحسان إلى مكتبي، وتفاهمنا. .

وطبيعتي دائماً، هي التفاهم. . ما دام هناك سبيل إلى ذلك، لأن الخلافات بين قيادات العمل في مؤسسة صحيفة واحدة، سينعكس على العمل ذاته. . ولم يعلم أحد في المؤسسة بما جرى.

* * *

وكان الوضع في الأشهر الأولى من تولي إحسان رياسة مجلس الإدارة، يدعو إلى الغرابة. كان السادات دائم الاتصال بي، في الشئون الخاصة بالتحرير. . وكان إذا أراد من إحسان شيئاً طلب مني أن أبلغه به. . وكان هذا محرجاً بالنسبة لي. ولاشك أنه ترك حزازة في نفس إحسان. . .

ثم بدأ السادات يتصل بإحسان. . واستراحت مشاعري. . .

ثم جاءت أزمة السادات مع نميري . . وقررت السفر إلى السودان، ورفض السادات، بعد أن أقنعه إحسان بذلك، وضقت بهذا الموقف من إحسان، لأنه جرى من وراء ظهري . .

ولكنني سافرت بعد ذلك بوقت قصير . .
ثم سافر سيد مرعي . . وتحسنت العلاقات.
ثم ثارت أزمة مع معمر القذافي . .

وكتب إحسان عبد القدوس مقالاً عنيفاً ضد القذافي الذي شكا إلى الرئيس السادات فكان رده عليه: الصحافة في مصر حرة . . وعليك أن تلجأ إلى القضاء كما نفعل في مصر.

وتقدم القذافي فعلاً بشكوى إلى النيابة العامة.

واتصل الدكتور حاتم بإحسان، وطلب إليه أن يتوقف عن الكتابة بعض الوقت، ارضاء للقذافي . . وأن السادات كلفه بأن يطلب منه ذلك.

وتوقف إحسان فعلاً عدة أسابيع . . ولكنه كان في قمة الألم. وتكتم الأمر، حتى لا يحرج أمام المحررين. وكنت أعرف، ولم أشأ أن أفاتحه في هذا الموضوع، احتراماً لمشاعره.

وفيما عدا هذا جرت الأمور عادية مع إحسان عبد القدوس، ثم كانت واقعة الإفراج عن مصطفى أمين . . التي لم يتحمل إحسان بعدها البقاء في أخبار اليوم مع وجود مصطفى أمين بها!

الفصل السابع والعشرون

الأحداث الرهيبة في يناير

فشلي في تغطية حريق القاهرة ـ القرار السريع لرفع الأسعار ـ الندوة التليفزيونية ـ مخازن أخبار اليوم تحترق ـ الجمسي يرسل سيارة مدرعة لأخبار اليوم ـ حوار عنيف مع حلمي مراد في التليفزيون ـ إسماعيل فهمي يريد إصلاح العلاقات مع الروس ـ السادات يوافق على الهجوم على الروس ـ القيادات تحمل الصحافة مسئولية الحريق! ـ إسماعيل فهمي يخطط لإبعاد الفريق سعد الشاذلي ـ رفضت المؤامرة ـ إسماعيل فهمي والعرب ـ السادات يقابل حلمي مراد ـ القطيعة مع حلمي مراد ـ قضية أحد الزملاء ضدي أمام المحكمة ـ رفضت طبع جريدة «الشعب» في أخبار اليوم ـ محاولة تفتيت مؤسسة أخبار اليوم من الداخل ـ مظاهرات داخل أخبار اليوم من العمال ـ سياستي مع العمال ـ منشورات طائفية ضدي ـ لقاء مع الرئيس مبارك ـ معركة صحفية مع الكاتب الماركسي صلاح حافظ ـ استقالة الشرقاوي من روز اليوسف.

الفصل السابع والعشرون

«الأحداث الرهيبة في يناير»

الفشل الصحفي، الذي اعترف به، هو في التغطية الفقيرة العاجزة، التي ظهرت بها «الأخبار» في الصباح التالي لحريق القاهرة في ١٨ يناير ١٩٧٤.

واعترف أنني السبب في هذا الفشل.. ولا أقبل أن أقدم الأعذار لنفسي..

عدد كبير من المحررين لم يتمكنوا من الوصول إلى المؤسسة..

لم نعقد أي اجتماع في الصباح لتوزيع العمل..

انشغلت بمتابعة الموقف السياسي، ومدى إمكانية الأمن في التصدي لأحداث التخريب ووقفها.. كما اهتممت بتأمين المؤسسة من عدوان المظاهرات.

الزملاء الذين أوكلت إليهم، متابعة الأحداث.. لم يقدموا التغطية الصحفية الواجبة.. وصدرت «الأخبار» بلا صور هامة تعكس مدى خطورة الأحداث.. وبلا تحقيقات دقيقة مستفيضة تسجل ما جرى..

أما «الأهرام» - وكان يوسف السباعي هو رئيس التحرير - فقد صدرت وكل صفحاتها صور ضخمة عن آثار الحريق، بحيث يهيأ للقارىء أن القاهرة كلها قد احترقت بكل مبانيها من أقصاها إلى أقصاها.. وكان هذا أيضاً خطأ صحفياً..

واستطعت في اليوم التالي أن أجمع قواي مع زملائي، لتقديم تغطية جيدة، تعوض فشلنا الذريع في اليوم الأول..

وقد كونت رأيي عن هذه الأحداث، بأنها بدأت بصدى طبيعي من الاستنكار لقرارات رفع أسعار السلع.. ولكن التنظيمات الشيوعية السرية استطاعت أن تركب الموجة، وأن تفجر الأحداث في مناطق عديدة في وقت واحد، قام بها عدد محدود من القيادات الشيوعية.. كانوا يظهرون، ويوجهون الجماهير إلى التخريب، ويبدأون به، ثم يختفون.. ويظهرون في مناطق أخرى..

وقال السادات بعد ذلك، أن هذا هو أسلوب لينين في الاستيلاء على موسكو عندما أشعل شرارة الثورة البلشفية..

وقد اكتشفنا من متابعة الأحداث، أنها جرت في القاهرة والاسكندرية وأسوان ومعظم مدن الجمهورية بتكتيك واحد، وشعارات واحدة، وهتافات واحدة.. ولا يمكن أن يتم ذلك تلقائياً كما حاول الشيوعيون أن يدافعوا عن أنفسهم..

وكان التكتيك.. هو اشعال الحرائق في مكان.. واشعال سيارات ووضعها في مداخل مواقع شرطة اطفاء الحرائق، لمنع سيارات الاطفاء من الخروج.. وكذلك وضعها أمام أقسام الشرطة، لإحداث الشلل في عملها.. هذا مع المظاهرات بهتافات موحدة من الاسكندرية إلى أسوان!

وساعد على تفجر الموقف، أن تصريحات المسئولين من الوزراء وغيرهم، على مدى أشهر، كانت عن جهود الحكومة في تثبيت الأسعار.. بل قال بعضهم.. خفض الأسعار.. ثم فجأة صدرت قرارات مجلس الوزراء برفع الأسعار، في عدد من السلع التي يستخدمها عامة الشعب..

* * *

والواقع أن الحكومة لم تقدر خطورة نتائج هذه القرارات.. وإلا لما أقدمت عليها، وخاصة أن رئيس الوزراء ممدوح سالم، هو رجل شرطة، وكان مسئولاً عن مباحث أمن الدولة لسنوات طويلة في الاسكندرية.. وكان محافظاً.. وله خبرة في الاصداء الشعبية للقرارات التي تمس القوت اليومي.. وكذلك وزير الداخلية السيد فهمي، الذي قال لي بعد ذلك أنه كان ضد صدور هذه القرارات.

والحق أنني لم أكن أدري بما يجري وراء الأستار، في دراسة موضوع رفع الأسعار.. ولكنني فوجئت ذات يوم، وكنا في مأدبة غداء تكريماً لوفد سوداني، في فندق الميريديان، أن انتحى، بي ممدوح سالم رئيس الوزراء جانباً، وقال لي: سنضطر إلى رفع أسعار بعض السلع.. وأن القرارات ستعلن بعد ثلاثة أيام.. وأنه لا مهرب اقتصادياً، من إصدار هذه القرارات.

وقلت له أن الوقت قصير جداً، للتمهيد لذلك، أمام الرأي العام..

ولكنه أفهمني أنها ضرورة.. ولا حل آخر. وعلمت بعد ذلك أن مجلس الوزراء بحث ما عرضه عليه الدكتور عبد المنعم القيسوني وزير المالية في ثلاث جلسات.. وأن المجموعة الاقتصادية أفهمت السادات أنه إذا لم يتقرر زيادة الأسعار، فإن البلاد ستقدم على كارثة..

* * *

عندما بدأت المظاهرات.. كانت قيادات الأمن، تتصور أنها طبيعية.. ولم يكن في تقديرهم أن عملاً سياسياً منظماً، سوف يستثمر هذه المظاهرات.. وكانت أوامر وزير الداخلية، عدم التعرض بالعنف للمظاهرات.. ولما اتسعت واستشرت. وبدأت عمليات الحرائق والتخريب.. تعذر على قوات الشرطة أن تتصدى.. وصدر القرار بتدخل القوات المسلحة.. التي أعادت الأمن إلى نصابه في الليلة الثانية وفي أقصر وقت، بعد حظر التجول، لكن بعد أن كان التخريب في مواقع عديدة قد تم..

* * *

وأذكر أن من الحلول لتهدئة الموقف، كان دعوة رؤساء تحرير الصحف، إلى ندوة تليفزيونية بعد التاسعة والنصف مساء، مع الدكتور عبد المنعم القيسوني وزير المالية.. حضرتها كما حضرها علي حمدي الجمال رئيس تحرير «الأهرام» وآخرون.. وقدم المذيع طاهر أبو زيد للندوة تقديماً مثيراً، وقال إن ما جرى هو نتيجة مظاهر الترف في الفنادق الكبرى.. إلى آخر هذا المعنى!!.. وناقشنا وزير المالية طويلاً، في ضرورة حذف عدد من السلع الجماهيرية، من قرار رفع الأسعار.. وقد وافق في الندوة.. وبعد أن انتهى التسجيل، وكنت

أستعـد للعودة إلى «أخبـار اليـوم» جـاءني من همس في أذني بـأن «أخبـار اليـوم» تحترق! . .

وفضلت العـودة سيراً عـلى الاقدام، حتى لا يعتـدي أحد عـلى سيـارتي، ووصلت إلى «أخبـار اليوم» من طـرق جانبيـة في حواري بـولاق. . وكـان كـل السكـان ساهـرين. . حتى دخلت من الباب الخلفي للمؤسسـة الذي يقـود إلى مـاكينات الطبـاعـة . . وكـان النور منطفئـا . . ووصلـت إلى مكتبـي ببطاريـة . . واستـطعت من نافـذة المكتب، أن أشاهـد مخازن الـورق، القريبـة من المؤسسة (على بعد ٧٠٠ متر) وقد اشتعلت فيها الحرائق. . وأمامها عدد كبير من الصبيـة لا يتجاوزون العاشرة من أعمارهم، وهم يقذفـون المخازن بقـطع القماش المبللة بـالجاز. . وكـان المشهد رهيبـاً . . وكان يعني ذلـك، احتمال وصـول النيران إلى مبنى المؤسسة وإلى مكتبي في دقائق!

هكـذا نسيت العمـل الصحفي . . وكـان همي هـو حمـايـة المؤسســة من الاحتراق. . وكنت أتابع الاتصال التليفوني بكافة الجهات المسئولة . .

وكـان قـد صـدر القـرار بتـدخـل الجيش. . واتصـل بي المشـير الجمسي، واستمع مني سريعاً، إلى تقرير عن الحـالة . . وأبلغني أن سيـارة مدرعـة ستصل إلى المؤسسـة في دقـائق. . ومـر وقت طـويـل، ولم تصـل المـدرعـة. . فعـاودت الاتصـال بالمشـير الجمسي، الـذي قـال لي أن سيـارتـين واحـدة لنـا، والثـانيـة للأهرام، تم احتجازهما خطأ أمام مبنى وزارة الداخلية. . ولكنهما سيصلان على الفور. .

ووصلت المـدرعة بعـد دقائق فعـلاً . . وأمكن ابعـاد الصبيـة عن مخـازن الورق على الفـور. . وبدأنـا استدعـاء، سيارات المـطافىء، لمقاومـة الحرائق. . واستمرت عمليات الاطفاء أربعة أيام متصلة!

وأمضيت الليل كله ساهراً في مكتبي . .

وعقدت في الصباح اجتماع التحرير، الذي قررنا فيه أن نعوض مـا فاتنـا في اليوم الأول، ورتبنا العمل، على تغطية وافية . .

* * *

وعنـد الثالثـة بعد الـظهر، شعـرت أنني أتسـاقط. . وذهبت إلى منـزلي، أستريح ساعة أو ساعتين. . وما أن بدأت أغمض عيني، بعد أن تناولت حبـوباً مهدئة. . حتى دق التليفون، وكان المتحدث هو الدكتور حلمي مراد. .

وانقـطع الحديث أربـع أو خمس مرات، لأن الخـطوط مع مصر الجـديدة (حيث كـان يتكلم) لم تكن جيدة. . ولكن استمـر الحديث الصـاخب، وانتهى إلى شجـار عنيف مني. . وخاصـة أنني أحسست أن حلمي مـراد كـان يسجـل حديثه معي. . وبعض الظن إثم!

قـال الـدكتـور حلمي مـراد إن البلد في ثـورة شـاملة أخـطر من ثـورة ١٩١٩ . . ويجب على الـرئيـس السـادات أن يسقـط الـوزارة فـوراً ، وأن يـدعـو إلى عقد جمعية تأسيسية . . للنظر فيما يجب أن تكون عليه الأمور . .

وكـانت وجهة نـظري أن البلد ليست في ثورة. . وأن الحـركة الشيـوعيـة استثمـرت استنكـار النـاس لـرفـع الأسعـار، ووجهت الـدهمـاء إلى الحـرائق والسرقات. .

وأصر حلمي مراد على أنها ثورة شاملة من الاسكندرية إلى أسوان. .

ولما ضقت ذرعاً، وهاجت أعصابي. . قلت له:

ـ ولماذا تحدثني أنا، لإبلاغ السادات بهذا الكلام. .

قال:

ـ لأنك قريب منه. .

قلت له:

ـ أنا لست سكرتيراً للسادات. . وأنت نائب، وتستطيع أن تبلغ السادات بذلك. .

وأقفلت السماعة وأنا في قمة الغضب. .

* * *

وكان السادات قد حضر من أسوان، بعد أن ألغيت زيارة الماريشال تيتـو للقاهرة. . وأعلن الغاء قرارات الأسعار، وقرر الاجتماع بالقيـادات العمالية في قصر عـابدين. ونصحت الحكـومة أن يعقـد الاجتماع في اسـتراحة القنـاطـر. .

ولكن السادات رفض. وتحركت النقابات العمالية لتأييد السادات. وانتهى الأمر.

وكنت على اتصال بالسادات في أسوان. ونصحت بألا أتحدث إليه، لأنه كان في قمة الحزن. ولم يكن يتصور أن يكون هذا جزاء من أتى للبلاد بنصر أكتوبر، وقال لي السادات بعد عودته للقاهرة، أن أحداً لم يخطره بأنني طلبت الحديث إليه، ولام السكرتارية على هذا التصرف. وخلال مظاهرات اليوم التالي، كان السادات يقول لي في التليفون. . لاتهتزوا هذه زوبعة في فنجان. أكدت له أننا ثابتون جداً، ولن نهتز. وجرى بيني وبينه حوار غير قصير حول موقف الاتحاد السوفييتي من الأحداث.

كان اسماعيل فهمي وزير الخارجية، قد دعاني إلى فنجان قهوة في مكتبه قبل أحداث يناير بأكثر من شهر. . وقال لي أن الروس مستاءون جداً من هجومي على سياستهم. صحيح أن السادات يهاجم، ولكنه رئيس الدولة ولهذا حسابات خاصة. وطلب مني من أجل الصالح العام، أن يتوقف الهجوم، وأن أحاول اصلاح الموقف. ووافقت على ذلك بطبيعة الحال، لأنني ملتزم بسياسة الدولة في الشئون الخارجية. .

وكتبت مقالاً فعلاً. . واتصل بي اسماعيل فهمي سعيداً، وقال إنه قرأ المقال أربع مرات، وامتدح صياغته، فليس فيها تراجع، ولكنه فتح الباب للتفاهم والعلاقات الحسنة. .

ثم وقعت أحداث ١٨ و ١٩ يناير. . وفوجئت بتعليقات معادية من وكالة تاس السوفيتية، مؤيدة لما جرى، وأطلقت عليه أنه انتفاضة شعبية. .

فاتصلت باسماعيل فهمي، لأسأله الرأي في هذا التحول. . بعد أن اعتدل موقفنا. . ولم أجده.

واتصلت بممدوح سالم رئيس الوزراء، الذي قال إن هذا أمر يقرره الرئيس. وتحدثت إلى السادات، وقال لي يجب الرد على هذا الهجوم، بكلمات قاسية. . إن اسماعيل مخدوع في السوفييت. . وسوف يتبين الحقائق.

وقد فعلت.. واتصلت بعلي حمدي الجمال في الأهرام.. وأبلغته بما جرى..

* * *

وعقد السادات اجتماعين لمجلس الأمن القومي لدراسة الموقف، وتقييم الأحداث..

واقتنع السادات، بأنها ليست مجرد مظاهرات.. ولكنها تدبير شيوعي، كان مستعداً لركوب أي موجة من أجل إسقاط النظام..

كانت إدارة المخابرات برياسة كمال حسن علي، قد حذرت قبل الأحداث ببعض الوقت، بأن التنظيمات الشيوعية تستعد للقيام بتحرك ضد النظام..

وقد تدارسوا هذا التقدير مع مباحث أمن الدولة.. وانتهى الرأي إلى القيام بحركة وقائية.. بمعنى اعتقال القيادات الشيوعية، لإجهاض التكتيك..

ولكن السادات رفض.

ولعله رفض، لكي يعطي إسماعيل فهمي فرصة لتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي التي كانت قد ساءت بعد حرب أكتوبر..

واتضح له بعد الأحداث.. إن موقف الروس لم يتغير.

وفي هذا الاجتماع، وضع المسئولون بعضاً من مسئولية الأحداث، على شماعة الصحافة.. وبالذات صحيفة «الأخبار»!!

وعلمت من بعض أعضاء هذا المجلس ما جرى..

قال إسماعيل فهمي:

- إن موسى صبري يفسد علاقاتنا مع السوفييت، رغم اتفاقي معه على اتجاه تحسين العلاقات.. وقد هاجم وكالة تاس، وسياسة الاتحاد السوفييتي هجوماً عنيفاً..

وفوجىء إسماعيل فهمي بأن السادات يقول له.. أنني أخذت رأيه، وهو الذي وافق على الهجوم!

ثم تحدث ممدوح سالم، وقال إن الأخبار نشرت أكثر من موضوع في الصفحة الأولى، وبحروف بارزة، عن قضايا الفساد. . وهذا ساعد على سخط الجماهير. .

وقد تحدثت إلى الرئيس السادات في هذا، وقلت إن تعليق المسئولية على شماعة الصحافة، لعبة سئمناها. . إن خطاب تكليف ممدوح سالم بتأليف الوزارة، ركّز على أن تكون مهمتها مقاومة الفساد. . وعندما ننشر عن قضايا الفساد المقدمة إلى القضاء، فهذا دليل على أن الحكومة تنفذ السياسة المطالبة بها. .

وكان السادات مقتنعاً. .

* * *

والحق أنني لم أكن مستريحاً، للعمل الصحفي مع إسماعيل فهمي وزير الخارجية. . لعدة أسباب، اكتشفتها بعد أن مارست التعاون الصحفي معه. .

هو أولاً. . معتد بنفسه إلى درجة الغرور. . وهو يتصور أنه يحرّك سياسة العالم بأفكاره وتكتيكاته. .

وهو يريد أن يستثمر الصحافة فى تنفيذ مناوراته الشخصية . .

وهو لا يقول الحقيقة، فيما يدلي به إلى الصحفي موضع الثقة. .

وكان يسيئنى أنه يتعمد أن يظهر فى الصور مع الرئيس السادات ، وقد استرخى في مقعده، ووضع ساقاً على ساق، والسيجار بين يده وفمه. . وكنت أرى أن هذا مظهر غير لائق. .

ما علينا. .

وكان هو يتصور، أنني أدس له، لدى السادات!!. . ولاحظت ذات صيف أنه كان يتعمد حجب الأخبار، عن مندوبي «الأخبار». . بينما يمد بها مندوب «الأهرام». . ثم يشكو أن صحيفة «الأخبار» تقاطع وزارة الخارجية!

وقد زارني مرة الدكتور أسامة الباز ـ وكان ساعده الأيمن ـ في كابينتي

بالإسكندرية، وصارحني، بأن إسماعيل فهمي لديه شعور، بأنني أوقع بينه وبين السادات. . وذهلت. وأكدت لأسامة أن هذا غير حقيقي. . وليس هذا من عادتي. .

وبعد أن عينّ الفريق سعد الشاذلي، سفيراً في لندن، أراد إسماعيل فهمي أن يبعده عن هذا المنصب. . وكان يريد تعيين سفير دبلوماسي من اختياره. وقدّم للسادات تقريراً بأن سعد الشاذلي أدلى بتصريحات في حوار عام، ضد سياسة مصر. . وضد السادات. .

فأمر السادات على الفور، باستدعائه وإجراء تحقيق معه. . واستدعاه إسماعيل فهمي، وحاوره فيما هو منسوب إليه بحضور المشير الجمسي. . واعتبر أن هذا هو التحقيق، مراعاة لكيانه الأدبي. . وقال سعد الدين الشاذلي، أنه مستعد أن يجري حديثاً صحفياً، يكذب فيه هذه الافتراءات ضده وأشترط أن أجري أنا معه هذا الحديث، لثقته في نزاهتي.

ولم أكن أعلم بكل ذلك، وطلبني إسماعيل فهمي، لزيارته في مكتبه. وروى لي ما جرى، بمودة شديدة. . ثم قال لي:

ـ أريد أن توجه حديثك الصحفي معه إلى إدانته!!

وفوجئت بهذا الطلب. وأحسست أنه يطعن كرامتي. . واعتذرت على الفور عن عدم إجراء هذا الحديث.

واستدرك إسماعيل فهمي بسرعة، وقال لي أنه لا يقصد. . وأنه يعني أنني سأكتشف أنه لا يقول الحقيقة. .

وقلت لإسماعيل فهمي. . سأجري الحديث بكل أمانة وصدق.

وانصرفت. . والتقيت بالدكتور أسامة الباز أثناء انصرافي، ورويت له غاضباً ما جرى، وقلت لست من هذا النوع من الصحفيين. .

وطيب أسامة الباز خاطري، بكلمات مودة ومجاملة.

وقابلت الشاذلي في منزله، ونشرت حديثه كاملاً، كما أدلى به، دون أي

تجن أو تعليق. . وكان ينفي تماماً، كل ما نسب إليه[1].

* * *

(١) . . وهكذا رفضت أن أكون أداة في يد إسماعيل فهمي وزير الخارجية، لكي يتخلص من سعد الدين الشاذلي.

كما أنني صححت موقف الشاذلي في كتابي «السادات الحقيقة والأسطورة» من الثغرة، فقد نشرت على لسان المشير الجمسي، أنه ليس صحيحاً ما قاله السادات من أن الشاذلي أصيب بانهيار لوقوع الثغرة.

ولكنني لم أقر على الإطلاق، نشاط الشاذلي خارج مصر، بعد أن اتخذ مقراً له في ليبيا، وكان من المهللين لمقتل السادات. بل أنه زعم بأسلوب غير ماشر، أنه كان من المدبرين لاغتيال السادات. .

وأفصح عن ذلك، في حديث نشرته له مجلة «دير شبيجيل» الألمانية، في ١٢ أكتوبر ١٩٨١.

السؤال: جنرال شاذلي، لقد أعلنت منظمتك المسماة بتحرير مصر، مسئوليتها عن حادث الاعتداء على حياة الرئيس السادات، تماماً، مثل غيرها من المنظمات الأخرى. . هل أنت الذي أمرت رجالك باغتيال السادات؟ . .

الشاذلي: إننا سعداء بأن تعلن أكثر من منظمة أنها اغتالت السادات. . إنه دليل على أن السادات كان مكروهاً من أناس عديدين، وأنهم يتسابقون للحصول على شرف اغتياله.

السؤال: هل أعطيت الأمر أم لا؟ . .

الشاذلي: إن الأمر يستدعي. . اقرأ بياننا رقم واحد، الذي قلنا فيه بمنتهى الوضوح أن واجب المعارضة المصرية هو اغتيال السادات، وأننا نعتبر تصفيته هي الخطوة الأولى لإزالة النظام الساداتي.

ثم تحدث الشاذلي عن حسني مبارك، وقال إن مبارك ليس في انحطاط ولا سفالة السادات: انه صديق ورفيق حرب.

ولكن الشاذلي، عاد في حديث صحفي آخر، نشرته صحيفة القبس الكويتية في نفس اليوم (١٢ أكتوبر) ليقول: «اننا لا نستطيع بسهولة قبول مواقف السيد مبارك، لذلك قررنا مهاجمة النظام الذي نعتبره استمراراً لنظام السادات، تحت اسم آخر».

وسئل: «هل يتضمن النضال ضد مبارك، اغتياله؟ . . ».
وأجاب الشاذلي: «يجب عدم استبعاد ذلك». .

وقد هاجمت تصريحات الشاذلي، في أكثر من مقال على صفحات «الاخبار». ورفع

= ضدي أكثر من دعوى قضائية. . وقد طلبت من محاميه عبد الحليم رمضان، أن يتصل به ليوقف هذه القضايا، وأن يتذكر مواقفي السابقة معه، وعلاقاتنا الشخصية، وأبلغني المحامي، أن الشاذلي رفض. وقد حكم القضاء، برفض كل دعاواه ضدي.

وكان الشاذلي، يحمل في قلبه مرارة شديدة، من أنور السادات بسبب عدم الإنعام عليه بنجمة سيناء، مع أبطال حرب اكتوبر، وكانت سوريا قد أعطته نجمة التكريم.

وقال لي في منزله: إنه كان يتمنى أن يكون تكريمه من مصر، لا من سوريا.

وكان الشاذلي مقتنعاً تماماً، بأن المشير أحمد إسماعيل، هو الذي دس له لدى السادات، والخلاف قديم بين الشاذلي وأحمد إسماعيل.

وروى لي الشاذلي قصة خلافه القديم مع المشير أحمد إسماعيل، في منزله، بعد حرب أكتوبر، ولكنه رفض أن أنشرها على لسانه.

وعدت إلى مذكراتي، ووجدت أنني سجلت السطور التالية عن هذا الخلاف:

* بدأ الخلاف في الكونغو، كان الشاذلي (برتبة عقيد) قائداً لقوات الأمم المتحدة. فوجىء بمجيء بعثة برياسة العميد أحمد إسماعيل. رفض أن يتعاون معه. كان يرسل تقاريره للسفير مراد غالب، ويتجاهل أحمد إسماعيل. ذات يوم قال له أحمد اسماعيل: «أنت تريد أن تدعم موقعك في الأمم المتحدة، لكي تضمن عملاً مجزياً. «ثار الشاذلي في وجهه، وسبه، وشرع في الاعتداء عليه ضرباً. . !. . ثم أرسل برقية إلى شمس بدران. . «أحضر فوراً، الأمر هام». . وحضر شمس بدران لتسوية الموقف.

* وعندما عين جمال عبد الناصر، أحمد إسماعيل رئيساً للأركان، قدم الشاذلي استقالة مسببة، وبقي في منزله. طلب منه الوزير الفريق فوزي التواجد في انشاص لأنه سيزورها، ولكنه رفض لأنه مستقيل. بعد أربعة أيام، أرسل له عبد الناصر، زوج كريمته أشرف مروان، وطلب إليه العدول عن الاستقالة، واستجاب. وعندما ذهب إلى وزير الحربية محمد فوزي، قال له بسخرية: كان يجب أن تخصم منك هذه الأيام الأربعة.

* عين الفريق صادق وزيراً. بدأ الخلاف مع الشاذلي رئيس الأركان، حجب عنه تقارير المخابرات الحربية وتنقلات الضباط. كان الخلاف على الخطة. كانت هناك ٦ (ست) خطط. صادق كان يريد خطة لهجوم كامل. طلب معدات كثيرة غير متوافرة. نقل أحد الضباط ملحقاً عسكرياً في الخارج، بحجة أنه تابع للسوفييت. كانت الفكرة السائدة أن السوفييت يريدون ضربة قاضية تنتشر بعدها الشيوعية.

وكان الخلاف مع صادق أيضاً، حول دبابات جديدة من نوع معين.
هل يخصص لها لواء جديد. أو توزع على الألوية. كان رأي الشاذلي تشكيل لواء جديد. رأي صادق أن توزع. حدث اجتماع في اليوم التالي مع الخبراء السوفييت الذين رأوا وجوب

وكنت لا أنشر تصريحات إسماعيل فهمي، التي أحس أنها مغايرة للحقيقة. أذكر أننا كنا نحضر مع الرئيس مؤتمر عدم الانحياز في سيرالانكا. وعلم الصحفيون أن السادات سيقابل الماريشال تيتو في يخت كان يقيم فيه الرئيس اليوغوسلافي.. وسألنا إسماعيل فهمي عن موضوع هذا اللقاء.. فإذا به يقول:

هذا لقاء تاريخي، سوف تنتج عنه أخطر القرارات..

كان هو يناور، بإعطاء أهمية لهذا اللقاء، لحاجة في نفسه.. وشعرت بذلك، ولم أنشر التصريح..

وقد ظهر إسماعيل فهمي، بعد استقالته، بسبب زيارة السادات للقدس، أنه نصير العرب، المؤمن بالقيادات العربية.

وهذا غير صحيح. كان إسماعيل فهمي يشكو دائماً من أنه يضيع وقته مع العرب، وأن أسلوب تعاملهم هو الجهالة.. وكان يردد أنه مستعد أن يقابل دبلوماسياً أجنبياً عشرين ساعة.. ولا يضيع وقته عشرة دقائق مع عربي!

وعندما قامت أحداث لبنان.. وعندما أرسل الأسد قواته إلى لبنان.. كان السادات يريد أن يقود حركة احتجاج.. ولكن اسماعيل فهمي أقنعه بالصمت، وقال له: من حسن حظنا أنهم يضربون بعضهم البعض. ولو لم يفعلوا، لكان يجب أن نشجعهم على ذلك!

* * *

= تشكيل لواء جديد. تصور الفريق صادق، أن الشاذلي متفق مع الروس من وراء ظهره.

* قرر السادات إبعاد الفريق صادق، وتعيين أحمد إسماعيل وزيراً، استدعى السادات الشاذلي وأبلغه بذلك. فكر الشاذلي لحظات في الاستقالة. كان هذا مستحيلاً، وإلا ظهر كأنه متضامن مع صادق قال للرئيس: ـ أعمل مع أي شخص تختاره وزيراً. استراح الرئيس وقال له: أنا عارف أنك مختلف مع أحمد إسماعيل، ولكن تأكد أنه سيعاملك كويس.

استمر شهر العسل فعلاً، ستة أشهر.. ثم بدأت الخلافات.

* اشتدت الخلافات في فترة الحرب. كان من رأي الشاذلي أن قرارات أحمد اسماعيلي بطيئة. وأن كلامه عن التضحية بأرواح كثيرة من القوات الخاصة غير صحيح. والمقصود به ضرب الشاذلي. قال الشاذلي أن السجل العسكري اليومي، هو الذي يثبت كذب ادعاءات أحمد إسماعيل. هذا السجل يثبت أعمال القوات الخاصة وأثرها.

أعود إلى الوضع الداخلي بعد أحداث ١٨ و ١٩ يناير. .

لقد رويت للسادات ما جرى بيني وبين الدكتور حلمي مراد. . وعلق السادات ضاحكا:

ـ هوه كان فاكر أنها هتخرب. . وعلى كل لقد طلب تحديد موعد لقاء. . ولن أستقبله إلا بعد أن ينتهي مجلس الشعب من مناقشته الأحداث. . حتى لا يزعم أنني أردت بهذا اللقاء أن أؤثر عليه كنائب معارض. . إنني أتركه ليقول ما يشاء تحت قبة المجلس!

وفعلاً قابله السادات. . وبدأ حلمي مراد حديثه مع السادات، أنه لا يعرف كيف يبدأ الحديث معه. . وهو يعتبر نفسه جندياً أمام القائد. . وتركه السادات يتكلم ويتكلم، دون أن يعلق بكلمة واحدة على ما يقول. . ولما أفرغ حلمي مراد كل ما في صدره. . وقف السادات إيذاناً بانتهاء المقابلة وهو يسلم عليه، ويقول: متشكر يا دكتور حلمي!

وفي هذا الوقت زارني أستاذ جامعي، زميل لحلمي مراد، ونبهني إلى ملاحظة. . عندما قامت مظاهرات الطلبة في عهد عبد الناصر، وحطمت الأتوبيسات، وأشعلت النيران في بعض المرافق. . كان الدكتور حلمي مراد وزيراً للتربية والتعليم. وقد انعقد اجتماع في الاتحاد الاشتراكي، لمناقشة هذه الأحداث. . . وتحدث فيه حلمي مراد أمام جمال عبد اناصر. وهاجم عمليات التخريب، وقال إنها ضد صالح الوطن في خطاب طويل. .

ورجعت إلى الأرشيف. . ووجدت هذا الخطاب. .

وتصادف أن طلبني الدكتور حلمي مراد بعدها، ليسأل عن عدم نشر تعقيب له، على شيء نشرناه في «الأخبار». . فقلت له: لن ننشر التعقيب. .

وسأل: كيف؟

قلت: لأنني ضد الحرية والديمقراطية ! . . ولكننا سننشر لك شيئاً آخر . .

قال: ما هو؟

قلت: خطابك في الاتحاد الاشتراكي الذي كنت تهاجم فيه التظاهر والتخريب. .

فقال: إذن أنت تتعقبني..

قلت: نعم..

وبدأت خصومة سياسية عنيفة، بعد ذلك، بيني وبين الدكتور حلمي مراد.. وأنا الذي كنت ألح في إقناع السادات بأن يستعين به وزيراً في حكومته.. عن اقتناع كامل بكفاءته واستقامته..

واتضح لي أن حلمي مراد لا يبقى في خصومته على أي خط رفيع للعلاقات الشخصية..

لقد دأب على الكتابة ضدي، في صحيفة حزب العمل، مطالباً بإخراجي من مؤسسة أخبار اليوم، متهماً إياي بأنني أحد أسباب اغتيال السادات!!.. بل وصل به الأمر أنه اتهمني بأنني استغل وضعي الصحفي، لأنني نشرت شكراً في الأخبار للأطباء الذين قاموا برعاية زوجتي وهي على فراش الموت!

وبعد أن تولى حسني مبارك رياسة الدولة، استقبل الدكتور حلمي مراد الذي طالبه بإخراجي من عملي!

وعندما تعاقدت مع محمد عبد المنعم مراد لكتابة عمود يومي في الأخبار.. هاجم حلمي مراد هذا التصرف، وادعى أنني أستكتب أحد الساداتية!.. ولم يكن الرئيس مبارك يعرف عبد المنعم مراد، وتابع مقالاته، ودهش من هذا الاتهام الكاذب.. والصحيح أن محمد عبد المنعم مراد لم يعرف السادات في حياته، ولا ألتقي به، رغم صلاته بجمال عبد الناصر وكل أعضاء مجلس الثورة!

وكان حلمي مراد في صراع مع رئيس تحرير صحيفة «الشعب».. حامد زيدان، وهو من أبناء أخبار اليوم.. وكان يتهمه بصداقتي!.. واضطر حامد زيدان أن يهاجمني مرة على غير العادة.. وفهمت أنه يريد أن يتصدى لصراع حلمي مراد الذي أراد أن يسيطر على الصحيفة سيطرة كاملة!

* * *

وحاول حلمي مراد أن ينال من ذمة ونزاهة الدكتور مصطفى خليل، في

اتفاقية التليفونات. . ولكنه فشل في ذلك. . لأن مصطفى خليل تصدى له بالمدفعية الثقيلة! . .

وكان أحد الزملاء في «أخبار اليوم» قد قاضاني، في حياة السادات، بسبب إجراء إداري خاص بمحاسبة عن بدل سفر. . وبعد أن مات السادات، تولى القضية ضدي الدكتور حلمي مراد متطوعاً. . وحولها إلى قضية سياسية. . بحجة أنني منعت هذا الزميل من الكتابة. واستخدم حلمي مراد كل الأساليب ضدي أثناء نظر الدعوى. ولكن آلمني أسلوب واحد. كانت الدعوى تنظر أمام المحكمة الاستئنافية، وكان رئيس الدائرة قبطي الديانة. . فأرسل حلمي مراد محاميا يحضر عنه، ويطلب رد القاضي، بتهمة محاباتي لأنني مسيحي!!. . ولم أعرف رئيس الدائرة، ولم أقابله في حياتي حتى الآن وقد تخلى عن نظر القضية. ونظرها قاض آخر. ولكن هذا هو أسلوب حلمي مراد في خصومته السياسية!. . إنه يحرق وراءه كل الكباري، كما يقول المثل الانجليزي!. .

* * *

ورغم استمرار هذه الخصومة السياسية لسنوات. . إلا أنها انتهت بالتصالح الشخصي. . وبمبادرة مني. . لأنني لا أخلط الخصومة السياسية بالعلاقة الشخصية. . ولا أنسى لحلمي مراد ماضيه. . وخاصة أنه شقيق زوجة المرحوم أحمد حسين الذي أكن له أكبر الاحترام والتقدير. .

وبعد أن بدأ حلمي مراد حملته الظالمة اتهاماً للدكتور مصطفى خليل في ذمته المالية. . قررت ألا أجدد التعاقد مع حزب العمل، على طبع صحيفة الحزب «الشعب»، في أخبار اليوم. . لقد قدرت أن الأمور، سوف تتطور إلى مهاترات. . وأن السادات يمكن أن يتخذ إجراءات ضد الصحيفة وأردت أن أجنب مؤسسة أخبار اليوم كل هذه الأمور. . وزارني المهندس إبراهيم شكري رئيس الحزب في مكتبي، وحاول إقناعي، ولكنني اعتذرت عن عدم تغيير هذا الموقف. وقد تصوروا أن السادات هو الذي طلب مني ذلك. . ولم يكن ذلك حقيقة، بدليل أنهم تعاقدوا مع «الأهرام». .

ولكن حلمي مراد بدأ بعد ذلك يتطاول على السيدة جيهان السادات، بحجة المطالبة بتحديد وضعها الدستوري. . وطلب السادات من عبد الله عبد الباري رئيس مجلس إدارة الأهرام، أن يمنع عنهم الورق، بحجة عدم وجود كميات كافية. . وكان هذا عذرا غير صحيح. وطلب السادات من إبراهيم نافع رئيس تحرير «الأهرام» إعداد هجوم عنيف على حزب العمل، في صفحتين كاملتين. .

واتصل بي السادات، واقترح على أن أكتب استمرارا في هذا الهجوم. . ولم أقتنع. . وقلت للرئيس السادات: إن حزب العمل لا يحلم بأكثر من أن يهاجم في صفحتين بالأهرام. هذا أكبر دعاية له. والأمر لا يستاهل أكثر من بضعة سطور. وغضب السادات وقال لي: «أنت حر. . مش عاوز تهاجمهم أنا مش هاضغط عليك!».

* * *

ولكن الدكتور حلمي مراد، لم يكتف بما دأب على كتابته ضدي في حملة تشهير متصلة. . وبتطوعه بالحضور كمحام، في قضية زميل ضدي عن خلاف إداري، أراد أن يحوله إلى قضية سياسية متصلة بحرية الرأي. . لم يكتف بذلك، ولكنه جنح إلى محاولات الإشاعة والقلق والاضطراب في مؤسسة «أخبار اليوم» من الداخل، حتى يثبت أنني عاجز عن إدارتها!

لقد حرض محررين شابين في آخر ساعة، على مقاضاتي، بحجة حقوقهما المسلوبة. . وأوردا في عريضة الدعوى، ما يسيء إلى شخصي. . وتدخلت نقابة الصحفيين بواسطة أعضاء مجلسها المخالفين لي في الاتجاه السياسي، مظهرين التحدي لأي قرار اتخذه في هذا الموضوع. .

وكل ذلك كان يستغرق بعضاً من وقتي وأنا في أمس الحاجة إليه، وخاصة أننا كنا نعد لبناء الدار الجديدة لأخبار اليوم، بأحدث أنواع المطابع في العالم المتحضر. . وهو مشروع تكلف أكثر من ٢٥ مليوناً من الجنيهات، واستفدنا فيه من قروض المعونة الأمريكية المقدمة للدولة. . وكان صاحب الفكرة هو المرحوم علي أمين الذي أقنع وزير الاقتصاد المرحوم الدكتور زكي الشافعي، بأن تشمل المعونة المطابع الصحفية. .

ولم يفلح الدكتور حلمي مراد فيما خططه.. وتنازل الزميلان الشابان في «آخر ساعة»، عن القضايا.. وتصالحا بمودة، وصارحاني بأنهما اكتشفا، أنهما يستخدمان في نزاع سياسي لا شأن لهما به..

* * *

أعود إلى أحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٥..

وأؤكد أنها كانت أحداثاً مدبرة من التنظيمات الشيوعية، لركوب أي موجة عدم ارتياح شعبي.

وأقول إن هذه التنظيمات، خططت لأن تقع مثل هذه الأحداث، داخل مؤسسة أخبار اليوم، بعد أن توليت رياسة مجلس إدارتها..

كيف؟..

إن أخبار اليوم، هي القلعة الصحفية التي حاربت الشيوعية في مصر..

وجاء حكم السادات، لتكون صحف أخبار اليوم، هي المساندة لنظام السادات، المؤيدة لحكمه..

فلماذا لا تخرب من الداخل؟!

حدث في السابعة من الصباح، أنني تلقيت تليفوناً في منزلي، يبلغني أن الوردية الأولى من عمال «أخبار اليوم» في حالة إضراب وامتناع عن العمل.. وأنهم متجمعون خارج المؤسسة في الطريق.. العام.. كما أن هناك تجمعاً داخل المطبعة، وخطباء يحرضون العمال على الفوضى، احتجاجاً على ظلم الإدارة.. وأكل حقوق العاملين..

وقررت أن أواجه الموقف.. وخاصة بعد أن علمت بأسماء المحرضين، وأكثرهم من المتصلين اتصالاً وثيقاً باليسار الشيوعي..

وأسرعت إلى مبنى المؤسسة.. وخطبت في العمال، داعياً إلى اجتماع عام في نادي المؤسسة بالدور الرابع، لمناقشة كل الأمور...

وخلال ذلك، مرت مظاهرة من العمال، في الدور الذي تقع به مكاتب المديرين.. وحطمت بعض النوافذ، وهتفت بسقوط الإدارة الظالمة..

ولم أشأ أن أستعين بأي جهة مسئولة في مواجهة هذا الموقف، الذي وضح لي، أنه مدبر تماماً . .

وتكلم المحرضون في الاجتماع العام، وتكلمت. . وكانوا حريصين في كلماتهم على عدم المساس بشخصي لعلمهم بأنني على علاقة طيبة بالعاملين. . ولكنهم تعمدوا التهييج ضد المديرين الذين ينهبون الحقوق. .

واستغرق كل ذلك ساعات. . وكانوا يحتجون بالـلائحة الجديدة للعاملين، التي بدأت كل مؤسسة في وضعها. .

وهدأ الموقف تماماً، عندما دعوت إلى اجتماع مع اللجنة النقابية في مساء اليوم التالي، وقررت دعوة زميلنا لويس جريس العضو المنتدب لمؤسسة روز اليوسف، وكذلك رئيس نقابة العاملين في الصحف. .

وقلت في هذا الاجتماع، أنه لا خلاف على أن مؤسسة روز اليوسف، مؤسسة تقدمية الفكر، وأنها تعطي لعمالها أقصى الحقوق. .

وناقشنا ما طبق في روز اليوسف. .

وعرضت أنا حقوقاً جديدة في اللائحة للعمال الفنيين والعمال غير الفنيين. . وانتهى الاجتماع بأن أعلن سيد فرحات رئيس اللجنة النقابية ـ وله جذوره الفكرية اليسارية ـ شكره واعتذاره عما حدث. .

* * *

ولكنني كنت قد قررت أمراً آخر. .

منذ أن طبقت القرارات الاشتراكية على مؤسسة أخبار اليوم وتم التأميم. . كان هناك الصراع الدائم، بين ثلاث قوى في المؤسسة: التحرير ـ الإدارة ـ العمال.

العمال يرون، وخاصة بعد دعوة الاشتراكية، أن المحررين يحصلون على أكثر من حقوقهم. . وهم الذين يعملون على آلالات. . أما المحررون فهم مدللون يعملون على المكاتب. . وقد حدث بعد التأميم وبعد أن تولى كمال رفعت (ممثل الثورة) رياسة مجلس إدارة المؤسسة، أن قرر ضم الأجر الإضافي للعمال، عن عملهم أكثر من الساعات الرسمية، إلى مرتباتهم. .

واحتجت الإدارة. . وقالت أن هذا سوف يخرب المؤسسة، التي لا تفي مواردها بهذه الزيادة في الأجور، وما يتبعها من زيادة التأمينات. . وكان احتجاج الإدارة في غير موضعه.

وكان «التحرير» يتصور أن الاداريين يجورون على حقوق التحرير، ويوجدون العقبات أمام صرف مكافآتهم، أو بدل سفرهم في الرحلات. . بينما ينال الاداريون، ما لا حق لهم فيه. .

. . إلى آخر هذه الصراعات وكلها مادية. .

كما أنني لمست، أن هناك حقوقاً اجتماعية لجميع العاملين، لا ينالونها بالأسلوب الصحيح الواجب. . وأهمها حق العلاج. . وبعض العمال يعيش في ظروف قاسية. .

وكل هذه المتاعب، تلعب عليها القوى الشيوعية، في تهييج العمال واثارتهم. .

وقررت أن أواجه بنفسي كل المتاعب. .

وقمت بجولات يومية، في جميع الورديات، واجتمعت بكل العمال تقريباً، في هذه الورديات، واستمعت إلى كل ما يشكون منه. .

كما اجتمعت بقيادات رجال الادارة، وأوضحت لهم بحسم كامل، أن سياستي هي، أن يحصل كل صاحب حق على حقه، بغير أي تسويف أو تعويق.

ثم خصصت في مكتبي موظفاً، لتلقي جميع الشكاوي. . وكنت أفحص كل شكوى، وأقابل صاحبها. . وأتعرف على وجه الحق، وأصدر القرار الذي ينفذ على الفور. .

وبدأت في اتخاذ قرارات عامة فورية. .

. . بالنسبة للائحة العاملين، عدلت فيها، بما لم يكن يحلم به العاملون!

وقررت علاج العاملين، لدى الأطباء الكبار، وفي المستشفيات الكبرى، على حساب المؤسسة بلا حدود. . وكان الأمر مقصوراً على مستشفى

«الجمهورية» ولدى أطباء محدودين بأسمائهم. . كما قررت مبدأ العلاج في الخارج في الأمراض المستعصية مع تطبيق ذلك على الجميع. .

وشكلت لجان، لرفع كل مرتبات المحررين. .

وانشأت مطعماً، لكل العاملين، بلا تمييز بين عامل ومحرر، تدعمه المؤسسة، ويقدم وجبات رخيصة جداً. .

وقررت زيادة الاعانات المالية التي تقدم، في الأعياد، ومنح المدارس وغير ذلك من المناسبات. .

كما قررت زيادة الأرباح التي تصرف للعاملين، فقد كانت الادارة، تقتطع جزءاً كبيراً من هذه الأرباح، لضمه إلى الاحتياطيات، وميزانية المشروعات. . ورأيت أن زيادة الأرباح لا تؤثر على الاطلاق. .

فعلت كل ذلك، بقرارات فردية وسريعة. . ونزعت البساط تماماً، من تحت أقدام اللجنة النقابية. . ووجدوا أنفسهم جميعاً، وليس لديهم ما يقدمونه للعاملين!

وهنا طلبت اللجنة النقابية الاجتماع بي، لتحسين العلاقات، واشراك اللجنة النقابية، فيما يتخذ، من موقع تعاون كامل مخلص، لا موقع تنابذ ومزايدة. . واستجبت على الفور. .

فقد كنت مقتنعاً بأن تعاون كل الأجهزة في المؤسسة مع مجلس الادارة ورئيس المجلس، يذلل كل الصعاب، ويخلق جواً عائلياً، يتوهج فيه العمال، بالحماسة للعمل وترتفع المعنويات. .

وأشهد أن رئيس اللجنة النقابية، كان على وعده. . وتعاون معي تعاوناً وبكل إخلاص. وأصبح صديقاً كريماً شهماً أعتز بصداقته وأصبح يدافع عن أي ظلم. . لمحرر أو إداري. . وتحقق الترابط بين العمال، والادارة والتحرير. . وحقق ذلك مكاسب جديدة للعاملين. . فقد قررنا أن من يحال إلى المعاش، يستمر علاجه على حساب المؤسسة. كما قررنا إنشاء مصيف للعاملين في رأس

البر، ونفذ المشروع . . واتسعت دائرة العلاج في الخارج على حساب المؤسسة. وكنا بصدد تنفيذ مشروع بعلاج أسر العاملين. .

* * *

ولكن هذه الأجواء الطيبة، التي أطلق عليها العاملون «العصر الذهبي لأخبار اليوم». . لم تعجب قوى المعارضة، متمثلة في الدكتور حلمي مراد والشيوعيين ومدعي الناصرية. . وبدأوا حرباً خسيسة. .

بدأوا ينشرون، ويوزعون في الخفاء، منشورات، تتهمني بأنني أدير المؤسسة على أساس طائفي، وأنني أحابي الأقباط!! . . وهي بالنسبة لي، أحقر تهمة يمكن أن توجه لي. .

وقد كنت متنبهاً إلى هذه الأجواء، بعد أن ثارت الفتنة الطائفية في البلاد، وكنت على علم بأسرارها وأغوارها، وخاصة بعد أن كلفني الرئيس السادات، أن أكون حلقة الاتصال بينه وبين البابا شنودة. .

وكنت قد اتخذت قراراً حاسماً، الزمت به جميع المديرين بمنتهى الدقة، بعدم تعيين أي موظف مسيحي في المؤسسة، سواء كان عاملاً أو محرراً أو ادارياً. . وحدث استثناءان فقط، في تعيين محرر بصحيفة أخبار اليوم، بناء على طلب والحاح عبد الحميد عبد الغني رئيس التحرير، وبمذكرات متلاحقة منه. . وتعيين مهندس الكتروني، لم يوجد غيره للقيام بهذا العمل، وكان ذلك بناء على إصرار أمين محمد عدلي المدير العام ثم العضو المنتدب. .

وكان مبدئي أن أعرض كل ما يجري، على مجلس تحرير «الأخبار الذي كان ينعقد كل يوم. . وعلى مجلس الإدارة الذي حرصت على أن يجتمع مرة كل شهر على الأقل. . كل شيء على المكشوف. .

وطلبت كشوفات كاملة من الإدارة، بعدد المعينين منذ أن توليت رياسة مجلس الإدارة، حتى أثيرت هذه الإشاعات الكاذبة. . وجاءت الكشوف، وفيها الحقيقة التي تقتل هذه الإشاعة تماماً. . كما طلبت بياناً بمرتبات ومكافآت بعض المحررين الذين نسب إلي، أنني أغدقت عليهم لأنهم مسيحيون، مثل نبيل

زكي رئيس القسم الخارجي، وايريس نظمي رئيسية القسم الفني بآخر ساعة.. وتبين طبعاً بالدليل، كذب الادعاءات..

وعرضت هذه الكشوف في الاجتماعات العامة، وقدمت صوراً منها إلى جميع الجهات المسئولة.. كما أنني طلبت مقابلة الرئيس حسني مبارك.. وتم اللقاء في منزله، وعرضت عليه كل ما جرى.. وأخرجت الكشوف من حقيبتي.. ورفض الرجل أن يأخذها.. كما رفض أن أسترسل في هذا الموضوع، وقال لي: تأكد أنني أعرفك، أكثر مما تتصور. «ولكنني ألححت عليه، في أن أتركها له,.

وهكذا فشلت كل محاولات تخريب المؤسسة من الداخل...

سواء بالاضراب والمظاهرات، أو تحريض العمال، أو إثارة نزعات التعصب..

وجرى كل شيء في مجراه الطبيعي..

* * *

وأعود إلى إحداث الإضراب العمالي في أخبار اليوم.. فأقول أنني قابلت جميع المسئولين.. ممدوح سالم رئيس الوزراء، والدكتور مصطفى خليل أمين اللجنة المركزية.. ووزير الداخلية في ذلك الوقت.. وحذرت بأن هذه تجربة يحاول الشيوعيون بها، هدم صرح كبير من صروح النظام.. وكلهم استمعوا لي فقط. ولذلك لم أحاول اللجوء إلى القضاء لمحاسبة من حرضوا أو خربوا وفضلت الحل السياسى على أرض الواقع .. الذى أدى إلى الاستقرار والأمان .

* * *

ثم جاءت أحداث ١٨ و١٩ يناير كما رويت..

ونشرت رأيي فيها، كما كتب مصطفى أمين مؤيداً رأي السادات بأنها انتفاضة حرامية لا انتفاضة شعبية..

ولكن مؤسسة روز اليوسف، برياسة صديقي عبد الرحمن الشرقاوي، رفعت شعار «إنتفاضة شعبية» في كل ما نشرته عن هذه الأحداث.. سواء في

التحقيقات أو المقالات.. بل نقلت عن صحف أجنبية أنها ثورة الجياع.. ووضعت المسئولية كلها فوق رأس ممدوح سالم رئيس الحكومة!

ودار في ذلك جدل طويل، بيني وبين الكاتب الماركسي الموهوب صلاح حافظ.. وكان حوار المقالات عنيفاً، ولكن تميز بالموضوعية والاحترام المتبادل.

وكان السادات يحترم عبد الرحمن الشرقاوي، ويرى فيه يسارياً وطنياً.. وأنه من القمم الفكرية في مصر التي يجب الحرص عليها.. كما أنه يحب ويحترم صلاح حافظ، ولا يشك في وطنيته ومصريته.. ولم يكن أحد ليدري، إلام سينتهي الموقف في مؤسسة روز اليوسف..

وزارني عبد الرحمن الشرقاوي، وقال لي انه لا يريد الاستمرار في رياسة مجلس إدارة روز اليوسف ورياسة تحريرها، وأنه يفضل أن يتفرغ للعمل كاتباً.. وكتب في مكتبي إستقالته إلى الرئيس السادات، وطلب مني إيصالها إلى الرئيس.. واقترح فيها أن يعمل كاتباً في «الأهرام»..

وكانت سطور الاستقالة كلها، تقديراً وإجلالاً لدور السادات الوطني، وزعامته..

وقدمت إستقالة الشرقاوي إلى السادات.. واقترحت أن ننشرها، ولكن السادات رأى أنه لا داعي لنشرها.. ولم أعرف لذلك سبباً.. كان يرتب شيئاً آخر. لقد أصدر السادات قرارين.. قراراً بتعيين الشرقاوي رئيساً للمجلس الأعلى للفنون والآداب، بدرجة وزير. وقراراً بأن يعمل كاتباً في الأهرام..

واستمر صلاح حافظ، قريباً إلى قلب السادات.. وموضع حبه واحترامه.

* * *

والفصل التالي، يروي قصة المعركة الصحفية، بيني وبين صلاح حافظ.. وأقول إنها نموذج لحوار موضوعي نظيف.. رغم قسوة العبارات في بعض السطور.

الفصل الثامن والعشرون

نموذج لمعركة صحفية نظيفة

ثورة جياع ـ مقال «الزواج والطلاق ودافيد» ـ اليسار لا يستنكر الهجوم الإعلامي السوفييتي ـ الزواج الكاثوليكي ـ إذاعة ليبيا تنشر ضدنا ـ حكاية الكاتب الأجنبي دافيد هيرست ـ صلاح حافظ يرد: موسى صبري. . وأنا ـ إنذار أمريكي وقح ـ لست ناظر مدرسة ـ السادات ليس ممن يقبلون الانذارات ـ مدرسة قنابل الدخان ـ أين السلام الاجتماعي ـ عقدة الذنب عند صلاح حافظ ـ أرتكاريا الشيوعية ـ لماذا الحصانة للإتحاد السوفييتي؟ ـ مسئولية كل مصري ـ لا دعوة لحرب أهلية ـ قبل أن تجمعنا زنزانة واحدة.

الفصل الثامن والعشرون

نموذج لمعركة صحفية نظيفة

ما أكثر المعارك الصحفية التي إقتحمتها طوال عمري الصحفي على امتداد نصف قرن من الزمان. وكانت متنوعة. أدبية وسياسية. ولعل المعركة التي طالت، هي الحوار العنيف مع حزب الوفد الذي استمر قرابة خمس سنوات، وانحدرت به صحيفة الوفد إلى أقذر العبارات وأكبر الأكاذيب. . وكانت قمته من جانبي عندما نشرت عشر رسائل بعنوان «رسائل إلى الباشا سراج الدين». . كشفت الآثار السلبية لقيادة سراج الدين لحزب الوفد قبل الثورة، بما انتهى إلى فساد مفزع، وتحالف مع القصر والسفارة البريطانية.

ولكن. كانت هناك معارك صحفية، على مستوى رفيع في الحوار والحجة والموضوعية، والحرص على صالح الوطن.

ولا أزال أذكر منها، ذلك الحوار الساخن الذي جرى بيني وبين صلاح حافظ عام ١٩٧٧ وقد كان رئيساً لتحرير «روز اليوسف». . بعد أحداث ١٨ و ١٩ يناير التي تعرضت فيها القاهرة للحريق والسرقة والنهب، وكان من الممكن أن تودي بالنظام. وهي التي وصفتها «موسكو» ومن بعدها الشيوعيون المصريون والناصريون. ، بأنها إنتفاضة شعبية. . ووصفها أنور السادات بأنها «إنتفاضة حرامية»!

كان واضحاً لكل منصف سياسي، صاحب خبرة، أن يستنتج أنها تحرك ماركسي سريع ومنظم كان معداً من قبل لركوب أي موجة ضد النظام. وجاء قرار رفع الأسعار، الذي صدم المشاعر الشعبية، وانتهزت العناصر الماركسية الفرصة، وركبت موجة الغضب، ووجهت الجماهير إلى الحريق والتخريب

والنهب. ودليـل ذلك بسيط، وهـو أنها قامت في عـدة مـدن وفي وقت واحـد، بنفس الشعـارات. . وبنفس الأسلوب، وهو مهـاجمـة أقسـام البـوليس، وسـد الطريق أمام سيارات الإطفاء، بالسيارات واللوريات. . والهروب إلى الشـوارع الجـانبية، ثم العـودة إلى الميادين والشـوارع الرئيسيـة. . نظام واحـد، لا يقدم عليه، إلا المدربون عليه.

وأراد «صلاح حافظ». . بالاتفاق مع قيادات روز اليوسف، أن يستثمروا ما حدث على أنه ثورة شعبية. .

(وقال لي فتحي غانم بعد ذلك أنه كان معـترضاً). . ونشر صـلاح حافظ تحقيقاً صحفياً مطولاً، نقلاً عن صحيفة «الهيرالد تريبون» الأوروبية. . نقلاً عن «نيويورك تايمز» الأمريكية، وصف ما جرى بأنه ثورة الجياع. .

وهنا رأيت من واجبي الوطني أن أتدخل. .

وكان سجالاً بيني وبين صلاح حافظ. .

وأعتقد أنه نمـوذج طيب، للحوار الصحفي. . ولـذلك رأيت أن أسجـل المقالات المتبادلة في هذا الكتاب. .

وهي بالترتيب التالي. .

* * *

بعـد أن نشرت «روز اليوسف» المقـال الأمريكي، لكي تـروج أنها ثـورة جياع شعبيـة ، مع تعليق مؤيـد من صلاح حـافظ . . كتبت فى « الأخبار » بتـاريخ ٣١ يناير ١٩٧٧ تحت عنوان «الزواج. . والطلاق. . ودافيد»!. .

وهذا نص المقال:

الزواج. . والطلاق. . ودافيد!

إن مـا نشرتـه بعض الصحف الغـربيـة مثـل «الفينـانشيـال تـايمـز». . و«الهيرالدتريبون» التي تصدر عن «الواشنطون بوست». . و«النيويورك تـايمز». . وصحيفة «الموند» الفرنسية. . إن ما نشرته هذه الصحف، عن مؤامرة التخريب والحـريق في مصر. . يؤكد للسـادة الذين يتهمـون مصر، بـأنها بـاعت «النفـوذ

السـوفييتي». . لكي تشتري بهـذه البيعة «النفـوذ الامريكي»، بـأن هذا الاتهـام كلام فارغ. . وتضليل للأفكار. . وتسميم لعقول الشباب. . وتشهير بكل قرار مصري لإثارة الشكوك وزعزعة الثقة.

* * *

إن من يتجاهل أن قـوى مؤثرة كـبرى في الصحافـة الغربيـة، هي القوى الصهيونية التي لا تريد لمصر ـ وخاصة بعد إنتصار أكتـوبر الخـالد ألا أن تنفجـر من الداخل. . إنما يتجاهل حقيقة هي، أن أمريكا بدأت علاقات طيبة جـديدة مع الأمة العربية. . لأنها وجدت أن مصالحها القومية، أصبحت تتأثر بانحيـازها الكامل لاسرائيل، مع وقفة عداء ضد العرب. . فـاختارت أن تحسن عـلاقاتهـا مع العرب. . القوة السادسة في العالم بعد حرب أكتوبر. . دون أن تغير التزامها بحماية الوجود الاسرائيلي. . بل دون أن توقف هذا السيل المتدفق من المعـونات المالية والعسكرية. .

* * *

وهـذا الالتزام بحمـاية إسرائيـل، وضمان وجـودها. . هـو التزام سـوفييتي أيضاً. . وهو التزام معلن. ولم يقل الاتحاد السوفييتي يوماً أو لحـظة، أنه يتحـرر من هذا الالتزام. . الأمريكي / السوفياتي. .

* * *

ولكننا لا نتصور أن الالتزام السوفياتي، بحماية إسرائيل وضمان وجودهـا، يعني أن يهـاجم الإعـلام السـوفييتي النـظام المصري. . ويعني أن تخـرج كـل صحف الحزب الشيوعي السوفييتي وإذاعاته ووكالات أنبـائه بحملة تشهـير ضد مصر. . تدافع فيها عن مؤامرة التخريب والحريق. . وتنفي أن منظمات شيوعيـة سرية، قادت هذه المؤامرة. . وتـرجع سبب كـل ما جرى إلى سياسـة الانفتاح نحـو الغـرب. . والاتحـاد السـوفييتي هـو الـذي انغلق علينـا. . وهـو يعلم أن انفتـاحنا هـو على جميـع دول العالم. . بـإرادة حـرة، وبـلا تبعيـة، وبـلا وجـود عسكري لأية دولة كبرى على أرضنا.

* * *

ومع ذلك، فإننا لم نقرأ كلمة لحزب اليسار.. ولم نسمع صوتاً من حزب اليسار.. يستنكر هذا الهجوم الإعلامي السوفييتي على مصر ونظام مصر..

وليس لهذا إلا واحد من تفسيرين:

إما أن حزب اليسار يؤيد الهجوم السوفييتي..
وإما أن حزب اليسار لا يستطيع أن يناقش موقفاً سوفيتياً ولو كان ضد مصر، وشعب مصر، ونظام مصر..

* * *

ولست مع رئيس تحرير «روز اليوسف» زميلنا الماركسي الاستاذ صلاح حافظ، عندما يقول إن «صحفنا نشرت رأي جميع الأطراف في حوادث الأربعاء الأسود في مصر، إلا الطرف الأمريكي!».

ولست معه حين يقول أيضاً.. إن الرأي الأمريكي، أهم من رأي السوفييت!

ثم هو لا ينشر كلمة واحدة، مما ردده الاتحاد السوفييتي، ولا يناقشها.. ولا يتعرض لها.. مبرراً ذلك بأن «السوفييت أصبحت صلتهم بمصر صفحة من الماضي، وأصبح دورهم فيها دور المطلقة التي لم يعد بيننا وبينها إلا اللوم المتبادل»..

وهذا كلام خطير عندما يصدر من الأستاذ صلاح حافظ..
.. فهل هو يرى أن علاقتنا بالاتحاد السوفييتي كانت زواجاً كاثوليكياً!.

لعل الكاتب يذكر أن هذه العبارة من الوزير الأسبق، أمين عثمان، كلفته حياته.. عندما عبر عن أن علاقتنا ببريطانيا «العظمى» هي علاقة زواج كاثوليكي، غير قابل للطلاق!

وكان معروفاً أن أمين عثمان هو أحد ألسنة الاستعمار البريطاني في مصر..

لا أقول هذا عن صلاح حافظ.. ولكن أن يصف علاقتنا الآن ـ بالاتحاد السوفييتى ـ إنها علاقة طلاق!.. وأنه «لم يعد بيننا وبين السوفييت إلا اللوم

المتبادل!». . فهذا ما يثير دهشتي. . لأن ما دأبت صحف الحزب الشيوعي السوفييتي الحاكم. . وإذاعاته. . ووكالات أنبائه على نشره وإذاعته منذ أحداث بيلا. . وفي مؤامرة التخريب. . لم يكن إلا تبريراً للتخريب. . وتحريضاً عليه. . وهجوماً سافراً على النظام المصري. . ودفاعات غريبة تقول إنه ليس في مصر تنظيمات شيوعية سرية!!. . ولا يدخل هذا في باب «اللوم» والعتاب. .

كما لا يدخل في باب «اللوم»، أن يشهر الإعلام السوفييتي بمصر ويقول كذباً، أن مصر تعيش الآن في ظل الإرهاب والمعتقلات. . .

* * *

نعم. . لست مع الكاتب الماركسي حين يقول إن صحفنا تجاهلت ما نشر في الصحف الأمريكية الغربية. . لقد واجهناه. . ولقد كتبت صباح الأربعاء الماضي في هذا المكان من «الأخبار» ما نصه:

«ولا نفهم بعد ذلك، سر دفاع الاتحاد السوفييتي عن التخريب، الذي يجيء في وقت واحد مع اتجاه الإعلام الإسرائيلي. . ومع اتجاه القوى الصهيونية في صحافة الغرب. .».

ثم قلت أيضاً: «وبقي أن تعرف صحف الاتحاد السوفييتي. . وبقي أن تعرف إسرائيل. . وبقي أن تعرف الصهيونية في الغرب. . أن أعلامنا لن تنتكس، وأن رقابنا لن تنحني. . وأن أقدامنا واقفة على أرض ثابتة. . ولن نركع. . وعاشت مصر يا كل الشامتين». .

ولكننا لم ننشر مقالات البرافدا. . ومقالات راديو موسكو. . ومقالات وكالة تاس. . ومقالات صحف إسرائيل. . ومقالات القوى الصهيونية في صحافة الغرب. .

. . لأن هذا النشر، هو مساهمة منا، في إذاعة هذه السموم على شعبنا. .

* * *

ولذلك، فإن نشر رئيس تحرير روز اليوسف، لتحقيق كتبته صحيفة «الهيرالد تريبون». . في ثلاث صفحات كاملة، هو ترويج لهذه الآراء التي تلتقي مع آراء اعلام الاتحاد السوفييتي، وأعلام إسرائيل.

ورئيس تحرير روز اليوسف يعلم.. أنه لا هم لإذاعة ليبيا الآن إلا نشر مثل هذه المقالات!

أما التعليق الذي كتبه رئيس التحرير في اثنين وعشرين سطراً.. على تحقيق مسموم من ٤٠٠ سطر.. أفرد له أكثر من ثلاث صفحات.. فهذا ما يدعو إلى التساؤل؟..

هل نحن في حاجة إلى أن ننشر وصف مراسل أجنبي غربي لأحداث مصر.. عن وجهة نظر لا تخدم إلا القوى الصهيونية؟.. وهل كل السموم التي جاءت في هذا التحقيق تحتاج من الأستاذ صلاح حافظ إلى عشرين سطراً للتعليق؟!

* * *

كم كنت أتمنى أن يضيف الكاتب، ولو عشرة أسطر أخرى تعليقاً على ما ينشره ويذيعه الإعلام السوفييتي.. والإعلام الإسرائيلي.. والإعلام الليبي.. وكلها التقت على محاولة ضرب النظام المصري.. وضرب الشعب المصري.. والتشكيك في إرادتنا وفي قدرة النظام المصري، على فرض السلام العادل الدائم الذي لا يفرط في شبر من أرض.. أو ذرة من حق عربي..

* * *

أو لم نسمع عن الكاتب الصهيوني المأجور «دافيد هيرست»، مراسل الجارديان؟..

لا أعتقد أن هذا الاسم، مجهول لعدد كبير من الكتاب الشيوعيين والماركسيين في مصر..

ولا أعتقد إلا أن له صلات عمل وثيقة بهم.. وله معهم لقاءات عديدة ـ كما يصرّح هو بذلك ـ لم تبدأ في هذه الأحداث الأخيرة.. بل هي قديمة ترجع إلى عام ١٩٧٢..

لقد كان هذا الكاتب المأجور ـ حينئذ عام ١٩٧٢ ـ يكتب مقالات تكاد تكون يومية عن النظام المصري، وعن الرئيس أنور السادات.. وكلها لا تعبر إلا عن عداء صارخ للنظام المصري، وعن إسهام كامل في تشويه سمعة

مصر.. وكان يكرر في كل مقالاته إن النظام المصري لن يعيش أكثر من ثلاثة أشهر، وأن ادعاءنا الإعداد لقتال تحرير الأرض هو أكذوبة كبرى، لأن جيشنا أعجز من أن يقاتل..

وجاء هذا الكاتب المأجور يناقشني.. ويستفزني.. ويروي لي أسماء الكتاب المصريين الذين استمد منهم معلوماته! ويؤسفني أن أقول أنهم كتاب شيوعيون. نعم كان هذا موقف بعض الكتاب الشيوعيين بعد ثورة ١٥ مايو. وكان هذا موقفهم في مرحلة الإعداد للحرب..

خلاصة القول.. إن هذا الصحفي المأجور.. وجد بغيته في مصر في الأحداث الأخيرة.. وانتهزها فرصة للتشهير بمصر.. وبنظام مصر.. على صفحات الجارديان. وردد في مقالاته كل ما يحيي التخريب والتآمر.. تخريب مصر والتآمر على أمنها واستقرارها.

وأخيراً.. ومنذ يومين فقط، طلبت إليه السلطات المصرية مغادرة البلاد.

وكان يجب على هذه السلطات أن تمنع دخوله أصلا. وكل دول العالم لها هذا الحق.

* * *

وبطبيعة الحال.. لم يتصل بي هذا الصحفي.. منذ لقائه معي في عام ١٩٧٢.. ومنذ أن كتبت عن هذا اللقاء، وعلقت عليه.. وقلت إنه مأجور ضد مصر..

وما كتبه أخيراً.. عن أحداث التخريب.. يؤكد من جديد أنه مأجور ضد مصر.. وما كتبه طوال الأعوام الماضية، لا يخرج عن ترديد كل الأكاذيب التي تشوه القيادة في مصر.. وتشوه النظام المصري.. وتشوه الشعب المصري. وهو يزيد بكلمات وقحة وعبارات حقيرة عما نشرته صحيفة «الهيرالد تريبون».. وأعاد نشره على صفحات روز اليوسف.. الأستاذ صلاح حافظ رئيس تحريرها، في أكثر من ثلاث صفحات كاملة، وبالعناوين الكبيرة.. ثم علق عليه في عشرين سطراً..

* * *

وبعد. . إن هذا التوافق الكامل بين إعلام موسكو. . وإعلام تل أبيب. . وإعلام كل صحافة غربية تسيطر عليها القوى الصهيونية. . وإعلام ليبيا. . يمكن أن يفسر لنا تماماً، أن مصر ذات السيادة. . مصر الإرادة الحرة. . مصر صاحبة القرار. . مصر ٦ أكتوبر. . هي القاهرة لكل هذه التحديات. . وكل هذه المؤامرات. . دفاعاً عن حريتها وإرادتها واستقلالها وكرامتها.

مضى زمن التبعية. . ولن يعود. .

وفي الأسبوع التالي صدرت «روز اليوسف» وبها مقال عنيف بقلم صلاح حافظ، يرد على مقالي. . بعنوان:

موسى صبري. . وأنا!

مدرسة قنابل الدخان والغاز المسيل للدموع. .

قال فيه:

لا أستبعد أن أصحو من نومي غداً فأجد نفسي المتهم الأول بمحاولة حرق القاهرة في يناير الماضي!

وإذا حدث هذا، فإن الذي يتهمني لن يكون النيابة، وإنما «أخبار اليوم» وسيكون الاتهام بالتأكيد بقلم رئيسها الزميل: موسى صبري!

أما ان الاتهام سيصدر عن أخبار اليوم، فلأنها سباقة إلى اتهام الوطنيين بوجه خاص: بدأت عددها الأول بالطعن في ولاء الزعيم الوطني مصطفى النحاس لمصر، وانتهت بعد أكثر من ثلاثين عاماً إلى الطعن في الذمة المالية للزعيم الوطني جمال عبد الناصر!

أما أن الاتهام سيكتبه الزميل موسى صبري، فلأنه معجب جداً بي: لا يتصور أن يشن حملة على غيري ويتجاهلني، ولا يطاوعه ضميره أن يضبط مؤامرة لا أكون طرفاً فيها!

ولما كانت القاهرة قد تعرضت لحريق إجرامي في يناير الماضي، وأخبار اليوم قد سبقت النيابة والقضاء إلى اكتشاف جميع الخبايا وراءه، وكتبت قرار الاتهام وأصدرت الأحكام. فقد كان على الزميل موسى صبري أن يسارع بحجز

مقعد لي في قطار الاتهام، حتى لا ألومه بعد ذلك على أنه خان صداقتنا وترك القطار يفوتني!

وهكذا.. صحا الناس صباح الاثنين الماضي ليقرأوا على الصفحة الأولى من «الأخبار» قرار اتهام موسى صبري لي، وطعنه في وطنيتي، بعنوان: الزواج والطلاق، ودافيد!

ولا شك أن الهوان لم يصل بي، ولا بأي مصري، حد انتظار شهادة بمصريته من الأستاذ موسى صبري، ولا من أية جهة في هذه البلاد. والأستاذ موسى صبري ليس إدارة الجوازات والجنسية. وانتماء المصري لوطنه لا تملك أن تنفيه أية سلطة على هذه الأرض، رسمية كانت أو صحفية شرعية كانت أو بلطجية!

لكن ما كتبه موسى صبري يستحق الاهتمام من زاوية أخرى، أخطر من ذلك كله..

سين.. جيم!:

كان الموضوع تحقيقاً نشرته كبرى الصحف الأمريكية على الإطلاق:

صحيفة الهيرالد تريبون. كان تسجيلاً لما حدث في القاهرة يومي ١٨ و ١٩ يناير، وتحليلاً لهذه الأحداث ينتهي إلى نتيجة تستفز مشاعرنا القومية: وهي أنه لا نجاة للنظام في مصر إلا بالاستسلام الفوري والكامل لإسرائيل!

كان تحقيقاً أقرب إلى «الإنذار المقنع» لمصر، ولأنور السادات.

وقامت روز اليوسف بترجمة هذا التحقيق ونشره، لكي يعرف الرأي العام ما تبيته أمريكا.. وردت روز اليوسف على الإنذار المقنع بقولها: «إنه رسالة أخطأت العنوان فلا مصر بلاد تتلقى الوحي من خارجها.. ولا السادات ممن يقبلون الإنذارات».

وكنا نتصور، عندما نشرنا هذا الموضوع أن الصحافة المصرية المشغولة بالرد على حملة الإعلام السوفييتي سوف تتنبه أيضاً إلى هذا الانذار الأمريكي الوقح.. وتشاركنا التصدي له.

ولكن ما تصورناه كان مجرد وهم.

فالصحافة المصرية تظاهرت بأنها لم تأخذ علماً، لا بما نشرته أمريكا ولا بما ترجمناه عنها.. «والاخبار» اختارت ـ بدلاً من الانضمام إلينا في رفض الانذار الأمريكي ـ أن تقدمنا للمحاكمة بتهمة عدم الولاء لمصر!

واختارت الأخبار شخصي الضعيف متهماً.

واختار الزميل موسى صبري ـ من باب ولعه الشخصي بي ـ أن يكون وكيل النيابة! فماذا قال؟

سألني، على طريقة وكلاء النيابة: لماذا أعيد نشر كلام في صحيفة أمريكية، يسيء إلينا كما تسيء الدعاية السوفيتية؟

والسؤال واضح السذاجة. ويستطيع أي مبتدىء في عالم الصحافة أو عالم السياسة أن يجيب عليه.

أننا نعيد نشره. يا سيدي، لأن فيه إنذاراً صريحاً إلى الشعب المصري ورئيسه. ومن الخبل أن ندع العالم كله يسمع بهذا الانذار إلا الشعب الموجه إليه الانذار!

أما ان كلام الصحيفة الأمريكية يكرر ما يقوله السوفييت، فهذا سبب آخر لنشره. فمنذ وقعت الحرائق لم يسمع الشعب المصري إلا أن السوفييت لهم تعليقات غير ودية عليها. وكان علينا لكن نكون امناء مع شعبنا، أن نخطره بأن القوة الأخرى ـ أمريكا ـ لها أيضاً تعليقات مماثلة. وكان يجب أن نرد على هذه التعليقات بنفس المنطق الوطني الذي يملي الردود على السوفييت، وبنفس الحرارة.. لأن الوطنية من وجهة نظرنا لا تتجزأ.

ثم واصل موسى صبري استجوابه كوكيل للنيابة الصحفية، بسؤال أكثر إثارة.. وهو: لماذا لم أعلق على ما يذيعه الإعلام السوفييتي.

وهو سؤال، لا يقل سذاجة عن سابقه.

لم أعلق يا سيدي، لأن الموضوع الذي كتبت فيه كان «رأي أمريكا»، لا رأي السوفييت.

ولم أعلق لأنه. . في نفس العدد من روز اليوسف. . كان الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي يتناول رأي السوفييت ويناقشه.

ثم إن ما أختار الكتابة فيه مسألة تخصني ولا تخصك، فلا أنت ناظر مدرسة تكلف التلاميذ بالكتابة في هذا الموضوع أو ذلك، ولا نحن تلاميذ نصدع بالأوامر، وقد امتنع عن تناول الموقف السوفييتي من أجل صالح مصر، كما تتناوله أنت من أجل صالح مصر أيضاً، والهجوم على موسكو «بسملة» يجب أن تسبق كل كلام مكتوب، وليس وضوءاً يجب أن يسبق كل صلاة من أجل بلادنا.

أليس كذلك؟

أكثر من سلاطة:

على أن أهمية ما كتبه موسى صبري ليست في هذه الاسئلة من حد ذاتها. . انما هي في الايحاءات التي ترمى إليها، والتي تسبقها وتتلوها.

فالسؤال الأول (لماذا تعيد نشر ما كتب الأمريكان) يعنى أنني متعاطف مع تشهيرهم بمصر، والسؤال الثاني (لماذا لا تهاجم دعاية السوفييت) يعني أنني متعاطف مع تشهيرهم أيضاً.

وحصيلة السؤالين أنني رجل أبحث عن التشهير ببلادي حيثما جاء التشهير، وأنني من فرط العمالة لموسكو أصبحت مستعداً أن أروج لتشهير واشنطن!

ولكي يبلع الناس هذه الصورة غير الصالحة للبلع، فان الأستاذ موسى لا ينسى أن يتبلها بتوابل تصرف النظر عن فجاجتها، وسلاطات خارج الطبق الرئيسي تفتح الشهية للبقاء على المائدة:

* سلاطة رقم واحد:

قلت يا صلاح حافظ إن دور السوفييت في مصر أصبح «كدور المطلقة التي لم يعد بيننا وبينها إلا اللوم المتبادل»، فهل أنت ترى أن علاقتنا بالسوفييت كانت زواجاً كاثوليكياً؟ هل نسيت أن الوزير الأسبق أمين عثمان وصف علاقتنا

ببريطانيا بأنها زواج كاثوليكي، غير قابل للطلاق فكلفته هذه العبارة حياته؟

والسلاطة كما نعلم أساسها الخلط، والخلط هنا واضح، وأن كان غير متقن: فكلمة «الطلاق» فيما كتبت مجرد تشبيه أدبي يفهمه تلاميذ المدارس، ووجه التشبيه هو اللوم المتبادل بين القاهرة وموسكو، بعد الود الذي كان بينهما، وأنا لم أصف هذا الود المفقود بأنه زواج، ولم أصفه بأنه كان كاثوليكياً، ولو خطر ببالي أنه زواج لتصورته على سنة الله ورسوله، أي قابلاً للطلاق من طرف واحد.. ولما تصورته زواجاً أبدياً من نطاق تعاليم أية كنيسة.

* سلاطة رقم ٢:

نشرت يا صلاح حافظ ما قال الأمريكان في ٤٠٠ سطر، ورددت عليهم في ٢٢ سطراً فقط، فهل هذا يكفي؟

والسلاطة هنا أيضاً من صنع طباخ غير حاذق، يتصور أن المقادير يجب أن تكون متساوية في أي طبق. وأن كيلو الخيار يجب أن يوضع معه كيلو من الملح. لقد رددت حقاً على الانذار الأمريكي بعشرين سطراً، ولكن نصها كان:

هذا بالنص رأي أمريكا في حوادث الأربعاء الأسود الحزين:

وهو بالطبع ملىء بالمغالطات.. وأولها الأغفال التام لدور أمريكا في صنع كل هذه المتاعب: وبالذات تبريرها لحرب ١٩٦٧، ثم تدخلها لوقف انتصارنا في حرب اكتوبر... وحمايتها حتى الآن للاحتلال الاسرائيلي، وتدعيمه بالمال والسلاح والخبز والزبد.. والدعاية!

على أن الأهم من مغالطات هذا التحليل الأمريكي هو الدرس الذي يريد ابلاغه لنا، والحل الذي ينصحنا به.

إنه باختصار يقول إن مصدر جميع متاعبنا هو رفض الاستسلام لاسرائيل، وانه ما لم نستسلم فوراً، وهذا العام، فلا بقاء للنظام.

وهو لا يعني بذلك أن نمد يدنا للسلام، فهي في الواقع ممدودة طول الوقت، ونحن الذين نطالب بمؤتمر جنيف واسرائيل هي التي تتلكأ، وإنما هو

يعنى أن نقبل السلام الاسرائيلى المعروض بشروطه ، وبأى ثمن ، وفوراً ، وإلا . .

هذه الرسالة، أو النصيحة . . أو «الانذار المقنع»، هي جوهر الموقف الأمريكي من أزمتنا، وهي جديرة بأن تستفز مشاعرنا الوطنية وتستثير كرامتنا، أكثر من أي شيء آخر.

ونحن هنا ننشرها، وليس لدينا تعليق، لأننا نراها ـ في النهاية ـ رسالة أخطأت العنوان:

فلا مصر بلاد تتلقى الوحي من خارجها.

ولا السادات ممن يقبلون الانذارات!

أما موسى صبري فرد على كل ما نشرت أمريكا بثلاثة عشر سطراً كان نصها:

«ولا نفهم بعد ذلك سر دفاع الاتحاد السوفييتي عن التخريب، الذي يجيء في وقت واحد مع اتجاه الاعلام الاسرائيلي، ومع اتجاه القوى الصهيونية في صحافة الغرب.

وبقى أن تعرف صحف الاتحاد السوفييتي، وبقى أن تعرف اسرائيل، وبقى أن تعرف القوى الصهيونية في الغرب، أن اعلامنا لن تنتكس. . وأن رقابنا لن تنحنى، وأن أقدامنا واقفة على أرض ثابتة، ولن نركع. وعاشت مصر يا كل الشامتين».

ثلاثة عشر سطراً، لم تذكر فيها كلمة «أمريكا» ولم يرد فيها موسى صبري إلا على «القوى الصهيونية في صحافة الغرب»، وهو تعبير يلتمس العذر لهذه الصحافة، ويقصر الاتهام على قوى معينة فيها، ويعفي أمريكا من الحساب بجعل الاتهام على المشاع بين دول الغرب بصفة عامة.

ومع ذلك فهو يرى تقصيراً فادحاً في أن نرد بعشرين سطراً على أمريكا بالاسم، وأن نفضح في هذه السطور المغالطة الأساسية في منطقها، ونرفض انذارها المهين، باسم الشعب المصري وقائده معاً.

* سلاطة رقم ٣:

«لست مع رئيس تحرير روز اليوسف، زميلنا الماركسي الأستاذ صلاح حافظ عندما يقول أن. . الخ».

وأساس السلاطة هنا هو كلمة «الماركسي» تفرش في الاناء قبل أن تبدأ الخلطة، وفي الأحوال العادية تؤدي هذه الكلمة الحريفة إلى ايقاظ حواس الجالسين حول مائدة المناقشة، ولكن الأستاذ موسى صبري يبدأ بها بعد حريق ألصقت بالماركسيين تهمة تدبيره، وفي صحيفة متفرغة لإثبات الخيانة الوطنية عليهم، وعلى صفحات نصف ما فيها دعوة صريحة إلى إباحة دمهم، وفي هذه الحالة يكون المعنى المقصود بكلمة «زميلنا الماركسي» هو بالتحديد: زميلنا المتهم بكل ما نشرنا، وما سننشر، من جرائم.

وهو معنى يجعل السلاطة أكثر إثارة للشهية بلا جدال، والزميل موسى صبري يحب عادة أن تكون طبخاته شهية، ولكن البعض قد لا تفتح شهيته رائحة الدم المباح في هذا النوع من السلاطات.

مدرسة قنابل الدخان.

لكننا حتى الآن لم نقل ما هو المهم في مقال موسى صبري: الزواج، والطلاق، ودافيد.

انه ليس ما كتب في المقال، وإنما الأسلحة التي استخدمت فيه، وهي جديرة بشد الانتباه.

* السلاح الأول: أن توضع في فمك كلمات لم تقلها، مثل حكاية الزواج الكاثوليكي وهو سلاح أشبه بما تفعل المباحث حين تقبض عليك، وتضيف إلى مضبوطاتك قطعة حشيش من درج حضرة الضابط، أو منشوراً مطبوعاً في مطابعها الخاصة.

* السلاح الثاني: أن يسحبوك من أرض المباراة إلى معركة خارجها تتصدى لانذار أمريكي فيجروك إلى قضية مع السوفييت، وهو أسلوب شبيه

جداً بما جرى أخيراً مع التنظيمات الشيوعية: تشكلت مخالفة للقانون، فسحبوها إلى المحكمة لمحاسبتها على الحرائق!

* السلاح الثالث: أن يذبحوك بابتسامة فأنت «زميل»، ولكنك عدو لبلادك، وأنت «أستاذ» ولكنك خائن مأجور، ينهشون شرفك الوطني، ويحلون ذلك، ولكن بأدب ورفق وفروسية، وهو نفس الأسلوب الذي تجري به الآن «محاكمة» السياسيين اليساريين في مصر.

فالحزب اليساري الشرعي الوحيد مدان بالخيانة، ولكن بقرار ديمقراطي من حزب الاغلبية، والمقبوض عليهم من اليساريين تمت أدانتهم في جميع الصحف، ولكن القضاء سينظر في أمرهم بعد ذلك.

وهكذا.. يلخص المقال على السطور بعض ما يجري الآن على الساحة السياسية ويستخدم على صفحات الأخبار بعدما تستخدم أجهزة الأمن منذ فاجأتها جرائم التخريب يومي ١٨ و١٩ يناير الماضيين.

ومن هنا بالتحديد أهمية ما كتب الزميل موسى صبري.

فهو يدل على أن ما نلوم عليه وزير الداخلية السابق، وبعض أجهزته ليس مرضاً خاصاً بهما.. وإنما مدرسة فكرية متكاملة.. تطرقت أساليبها حتى إلى أقلام بعض كتابنا الوطنيين: إذا اعوزهم دليل الاتهام ضدك أضافوه من عندهم، وإذا كان مركزك في القضية سليماً سحبوك إلى قضية مختلقة. وفي الحالين يسترون المغالطة ببعض قنابل الدخان والغاز المسيل للدموع.. على سبيل تضليل المحكمة.

وقد بلغ من رسوخ هذه المدرسة في الفكر والسياسة أن منهجها فرض نفسه على معظم ما قرأنا في الأيام الأخيرة، لا في الأخبار وحدها، ولكن في صحفنا اليومية الثلاثة على حد سواء.

* في الجمهورية، على سبيل المثال، قرأنا اقتراحاً بوضع الشيوعيين جميعاً في طائرة، وأرسالهم إلى موسكو!

* وفي الأهرام قرأنا هجوماً على الحكومة لأنها تسمح للماركسيين

بالكتابة. . كما قرأنا إتهاماً للاتحاد السوفيتي (الذي هو سيدهم طبعاً!) بأنه الذي دبر هزيمة ١٩٦٧، وانفصال سوريا، وحرب اليمن. . وكل ما يخطر بالبال من شرور، باستثناء دودة القطن!

* وفي «أخبار اليوم» الأسبوعية قرأنا لكاتب (من عملاء صلاح نصر السابقين) أن أي خلاف بين التيارات الاشتراكية في مصر أو في العالم ليس إلا مناورة متفقاً عليها.

والقاسم المشترك بين هذه الطرائف جميعاً هو المدرسة التي تنتمي إليها: مدرسة قنابل الدخان والغاز المسيل للدموع. والقاسم المشترك بين كتابها هو الانتهازية والسبق إلى استثمار الفرص وركوب الموجات.

والمؤسف في حالة موسى صبري أنه رجل مختلف، فهو يكتب تحت تأثير وطنية ملتهبة، ويتصور كل من لا يلتهب مثله مقصراً في حق وطنه، لكن دخان وطنيته يؤدي في النهاية إلى نفس النتيجة، ويستدرجه دون أن يشعر إلى نفس المدرسة.

انه، على عكس كتاب الطرائف، يؤمن بدور وطني للماركسيين. . ولا يرى تعارضاً بين الماركسية والوطنية. . ويميز جيداً ما بين الفكر المسئول للاشتراكية العلمية والعبث الهزلي لليسار الجديد المعادي لها، وهو قد قرأ الماركسية وعرف عداءها للفوضوية والمراهقة والتخريب. وهو قد طاف العالم ورأى المعارك بين الشيوعيين وبين المنظمات التي تديرها المخابرات الأمريكية تحت رايات أكثر «شيوعية» منهم.

لكن دخان وطنيته جعله لا يرى. وانساه حتى ما سبق أن رأه. . واستدرجه إلى موقف يساند كتاب الطرائف الانتهازية دون أن يشعر.

موقف ينهي كل أمل في وحدة الشعب المصري: لأنه يتصيد نقط الخلاف لا نقط الاتفاق. ثم يحول الخلاف في الرأي إلى انقسام وطني لا رجعة فيه. ثم يطور الانقسام إلى حرب أهلية، يرى كل طرف فيها أن مصير الوطن رهن بتصفية الطرف الآخر وإباحة دمه.

وقد يكون لدى موسى صبري ألف «مبرر وطني» لاتخاذ هذا الموقف.

ولكن ذلك لا ينفي أنه موقف لا يخدم مصر.. لأنه يمزقها شيعاً في وقت لا يزال العدو فيه يحتل بعض أرضها، ويستعد ليل نهار لتوجيه ضربة إليها، ترد بعض هيبته التي دفنها السادات منذ أعوام في تراب سيناء.

وهو موقف يفتح الباب على مصراعيه للحرب الأهلية، في وطن تصرخ قيادته ليل نهار ضد «الصراع» الطبقي، وتلزم كل مواطن فيه بالمحافظة على «السلام» الاجتماعي!

صلاح حافظ

* * *

وآثرت أن يكون ردي على صلاح حافظ، على صفحات روز اليوسف.. واتصلت به، وابديت هذه الرغبة، ورحب بذلك..

ونشر المقال التالي:

موسى صبري يرد على صلاح حافظ:

لماذا.. عقدة الذنب عند صلاح حافظ.
اطمئن.. سيادة القانون
حماية لك من أحلام الرعب

لم أكن أعرف أن الأستاذ صلاح حافظ الزميل القديم، ورئيس تحرير «روز اليوسف»، يمكن أن يغضب كل هذا الغضب الذي انتشر في سطور مقاله «موسى صبري.. وأنا» لأنني قلت أنه ماركسي!، وكأنني تهجمت عليه باللعنات، وكأنني وصفته بالزندقة، وكأنني نسبت إليه فعلاً فاضحاً في الطريق العام، وكأنني اعتديت على حرمته كمواطن بالتخريب والحريق!

لم أكن أعرف ذلك، لأنني أعرف أن صلاح حافظ لا ينكر ماركسيته. ولا يتستر عليها بأنه «حاج».. أو أنه يؤدي العمرة.. أو بالوضوء وأداء الصلوات في مواعيدها.. أو يتستر عليها حتى بالكلمة!

ومن قبل امتدحت له شجاعته، بعد ثورة ١٥ مايو، عندما أعلن أنه كان عضواً في التنظيم السري الذي كان يرأسه شعراوي جمعة، ولكنه لم يكن يكتب التقارير السرية على زملائه، ولم يكلفه أحد بذلك، وأنه كان يؤدي دوراً وطنياً.

ولذلك.. فإنني مندهش حقاً، من هذا الذعر الذي أصاب الكاتب الماركسي صلاح حافظ.. عندما قلت أنه ماركسي!.. ولماذا هذا المقال المرتجف الذي كتبه بعد كابوس مزعج أقلق نومه، وخلخل أعصابه، وجعله يتصور، أنه متهم بحريق القاهرة في المؤامرة التخريبية يومي ١٨ و ١٩ يناير؟!

وكنت أتصور أن صلاح حافظ كاتب شجاع.. وهو المناضل الذي ذاق في سبيل ماركسيته.. كل صنوف القهر وراء أسوار السجن.. ولسنوات طويلة.. ولم يتراجع عن ماركسيته.. فلم كل هذا الارتجاف؟.. وهل أذعت أنا سراً.. عندما قلت أنه ماركسي!، وهل هو أمر دفين مستور، أو هل هو سر شخصي ائتمنني عليه صلاح حافظ.. ثم خنت الأمانة.. وكشفت الستر عن شيء محجوب، فحق له أن يغضب.. وأن تصرخ كلماته بالرعب... أن أحموني يا قوم من هذه التهمة الشائنة.. لأنها بلاغ إلى النيابة العامة بأنني شريك أو محرض في مؤامرة حرق القاهرة!..

الحق أنني لم أمسك نفسي عن الضحك وأنا أقرأ سطور صلاح حافظ.. لأنني أشهد أنه قد خلق بقلمه الفنان تمثيلية هذا الرعب المرتجف، بأسلوب درامي ممتع.. وقال (إن هذا الاتهام ليس غريباً عليّ.. لأن «أخبار اليوم» بدأت عددها الأول بالطعن في ولاء الزعيم الوطني مصطفى النحاس في مصر... وانتهت بعد أكثر من ثلاثين عاماً إلى الطعن في الذمة المالية للزعيم الوطني جمال عبد الناصر).

ومالي أنا، بطعن أخبار اليوم في عام ١٩٤٣ ـ وكنت لا أزال طالب حقوق ـ في وطنية النحاس؟.. وإذا كان صلاح حافظ يقصد ما كتبه الأستاذ جلال الحمامصي عن ذمة عبد الناصر المالية.. فهو أيضاً قد قرأ بقلمي ما يعارض ويفند ما كتبه الأستاذ الحمامصي، وعلى صفحات «الأخبار».

عقدة الذنب!

ولكن صلاح حافظ.. يحس فعلاً بعقدة الذنب!

وجاء مقاله عني، تنفيساً عن هذه العقدة، ومحاولة للخلاص منها، أمام نفسه، وأمام القراء..

ولا أقصد أنه يحس بعقدة الذنب، لأن له صلة ما، بحرق القاهرة.. أو بجرائم تخريبها، حتى لو صورت له كوابيس الأحلام هذا الاتهام.. ولكني أقصد ـ فعلاً وصدقاً ـ أنه أحس بعقدة الذنب، بعد أن نشر مقال صحيفة «الهيرالد تريبون» الأمريكية، عن أحداث القاهرة، كاملاً، سطراً بسطر، وكلمة بكلمة، والمقال خبيث.. والمقال طعن في استقرار النظام المصري.. ورياسة أنور السادات.. والمقال يصور ما جرى وكأنه ثورة شعبية ضد النظام، والمقال يسجل أن السلام مع إسرائيل.. ـ أي الخضوع لمطالب إسرائيل ـ هو الحل الأوحد لإنقاذ النظام!

وكان من الممكن أن يكون تعليق صلاح حافظ على هذا المقال الحقير، شاملاً لكل ما جاء به.. ولكنه اقتصر في تعليقه (٢٢ سطراً) على بعض نقط مما حواه المقال الذي امتد إلى ٤٠٠ سطر. على الإنذار المقنع بالاستسلام لإسرائيل. وكتب التعليق بكلمات وطنية ملتهبة. ولكنه لم يعلق بسطر واحد، على معظم سطور مقال الهيرالد تريبون ـ الذي لا أشك في صهيونية كاتبه ـ ومعظم السطور كانت تعبر عن التخريب بأنه ثورة جوع وانتفاضة شعبية ـ كما تقول إذاعة موسكو ـ وكانت تنفي أن مخططاً سرياً، لتنظيمات شيوعية، ركب موجة صدى قرارات رفع الأسعار.. ونفذ التخريب والحريق بأسلوب مخطط مدروس، هاجم مباني الشرطة والحريق والسكك الحديدية والمطافىء.. بأسلوب واحد في أكثر من عشر مدن كبرى.

إنني أريد أن أفترض حسن النوايا، في هذا النشر على أربع صفحات كاملة، وبغير تعليق على هذا الجانب الأكبر من المقال.. افترض حسن النوايا، على الرغم من أن التحقيق السابق عن مؤامرة التخريب، في «روز اليوسف» الذي وقعه صلاح حافظ باسمه.. ينتهي أيضاً إلى مثل النتيجة التي انتهت

إليها صحيفة «الهيرالد تريبون» بقلم كاتبها الصهيوني. . وان اختلف الوصف والتحليل.

تحقيق صلاح حافظ انتهى بأنها جرائم تلقائية من مجموعة من الصبية!

ارتكاريا الشيوعية:

وقد ناقشت صلاح حافظ تليفونياً في كل هذا. . وقلت له. . أنتم مصابون «بالارتكاريا» من كلمة اسمها ماركسية أو شيوعية. . فإذا قيل أن تنظيماً شيوعياً سرياً، خطط وارتكب أبشع جريمة في حق الوطن. . فإن كلمة «شيوعي» هذه. . تثير ميكروب »الارتكاريا» ولا بد من إبعاد أية صفة شيوعية عن هذا العمل التخريبي. . وكأنكم مسئولون عن أي شيوعي في مصر. . وكأنكم مسئولون عن أية جماعة متطرفة فوضوية تدين بالشيوعية كما يتصورونها.

وفرق كبير بين صلاح حافظ الشيوعي بقلمه، وفكره. . فهو يمارس حقاً مشروعاً. . وبين أي شيوعي آخر اختار الممارسة بالتخريب والحريق وتخطيط ثورة مضادة لإسقاط النظام وقهر الديمقراطية.

وقلت لصلاح حافظ تليفونياً: هذا ما يجب أن تتفهموه جيداً. .

وأقول وأكرر إن هناك فروقاً بين الحكم القضائي الذي يدين شخصاً، لأن الأدلة قد تجمعت حوله، وأثبتت ارتكابه الجريمة. . وبين الحكم السياسي على ظاهرة تخريب دموي. . ارتكبته تنظيمات سرية، استثمرت الشرعية وأجواء الحرية والديمقراطية. . وإذا كان التحليل السياسي لهذه الجرائم. . وخلفياتها. . ومتابعة الأحداث منذ ثورة ١٥ مايو حتى اليوم، تشير إلى مناخ جريمة التخريب. . وعناصرها. . والقائمين بها. . . فهذا أمر مشروع. . وهذا حكم سياسي تعطيه لنا حرية التعبير. . ولا توجد وصاية لأي صاحب فكر شيوعي أو ماركسي معلن، على الفكر الشيوعي أو الماركسي. . أو أي فكر متطرف آخر. . يستخدم العنف، ويسعى إلى إثارة الصراع الدموي. . وإذا وجدت هذه الوصاية فهذا أمر آخر. . وشأن آخر.

ليس إذن فيما كتبناه. . أسئلة على طريقة وكلاء النيابة. . كما شاء قلم صلاح حافظ، الذكي المسيطر على تعبيره، أن يصوره، ولكنه حوار سياسي

مشروع، يفرضه علينا، احترامنا لصاحب قلم ماركسي أو غير ماركسي.. إذا كنا نريد له أن يلتمس طريق الصواب.. وأن يبرأ تماماً من عقدة الذنب التي يورثها قهر سابق.

الزواج.. والعتاب:

وعندما نقول إن صلاح حافظ عبّر بالكلمة الواضحة أن علاقتنا بالاتحاد السوفييتي كانت علاقة زواج.. انتهت بطلاق يتبادل فيه «اللوم المتبادل».. فهذا مفاجأة لكل مصري، يعرف أننا رفضنا تبعية «الزواج».. ويعرف أن كلمات «البرافدا»، و«وكالة تاس».. وكل أجهزة إعلام الحزب الشيوعي السوفييتي الحاكم.. باركت مؤامرة التخريب.. وهاجمت النظام المصري، وصورت ما جرى على أنه احتجاج شعبي على سياسة أنور السادات.. سياسة الانفتاح، وأنها تطوعت، وبرأت أي تنظيم شيوعي سري، من الاشتراك في هذا التخريب أو التحريض عليه أو التخطيط له وتنفيذه.

هل هذه الدعوة الواضحة إلى إسقاط النظام، تدخل تحت وصف «اللوم المتبادل»!

أليست تتفق تماماً مع وصف «الهيرالد تريبون» لمؤامرة التخريب، وكأنها ثورة شعبية ضد النظام؟!.. لا ثورة مضادة ضد أمن هذا الوطن وسلامته واستقراره وسيادته على أرضه.

أم هل يريد صلاح حافظ أن يلغي عقولنا، عندما يقول إنه ليس تلميذاً في مدرسة، لكي يحاسب على أنه لم يتصد لأجهزة الإعلام السوفيتية، التي تعبر عن الرأي الرسمي للاتحاد السوفييتي.. ولا تستطيع أن تنشر أو تذيع حرفاً واحداً غير الرأي الرسمي..

أنت لست تلميذاً في مدرسة.. ولن تكون.

ولكنك كاتب مسئول، من حقنا، ومن حق كل مواطن، أن يسألك وأن يناقشك، وأن يفند آراءك.

وهل أنا أذيع سراً أيضاً، عندما أقول أن رئيس تحرير روز اليوسف، لم

يكتب كلمة واحدة، يدافع فيها عن الموقف المصري.. وعن الرأي المصري.. وعن السيادة المصرية.. في كل ما جرى من خلاف بين مصر، وبين الاتحاد السوفييتي.

يصف صلاح كلماتي، التي أسفت فيها، أنه لم يرد على هجمات الإعلام السوفييتي، على النظام المصري.. بأنني أستخدم ضده سلاحاً! وما هو هذا السلاح؟.. يجيب هو بالقول «أن يسحبوك من أرض المباراة إلى معركة خارجها. تتصدى لإنذار أمريكي، فيجروك إلى قضية مع السوفييت. وهو أسلوب شبيه جداً بما جرى أخيراً مع التنظيمات الشيوعية. تشكلت مخالفة للقانون، فسحبوها إلى المحكمة لمحاسبتها على الحرائق!».

ولا أعرف لهذه العبارة معنى واضحاً!

وهل يتحمل القلم المصري فوق طاقته إذا تصدى لهجوم أمريكي وهجوم سوفييتي، على كرامة بلاده، في وقت واحد!

إن الهجوم يا سيدي لم يأت فقط من أقلام أمريكية.. ومن أقلام سوفيتية.. بل انطلق في وقت واحد، وبأنغام مختلفة، مع هذه الأقلام من صحف إسرائيل وإذاعة إسرائيل.

وهل يتحمل القلم المصري فوق طاقته إذا وضع كل هؤلاء في كفة واحدة.. هي كفة العدوان على شعب مصر، والتهجم على وطنية هذا الشعب وأصالته.. هذا الشعب الذي استنكر مؤامرة التخريب وتبرع فيه الفقراء قبل القادرين.. لإصلاح ما أفسدته المؤامرة؟.

ولكن صلاح حافظ.. بقلمه الماركسي له رأي آخر..

هو حرّ.. ومن منطلق وطني ألاّ يناقش موقف السوفييت.

جميل.. أو قبيح. فليكن هذا رأيك. وأنا لا أناقش منطلقه فليست الوطنية حكراً.

.. وليكن للاتحاد السوفييتي هذه الحصانة.. لمصلحة وطنية تراها أنت.. ولا أراها أنا.

ولكن ما هي الحصانة التي يعطيها القلم الماركسي.. للتنظيمات الشيوعية التي اتهمت في مؤامرة التخريب. ما معنى قوله «.. وهو أسلوب شبيه جداً بما جرى أخيراً مع التنظيمات الشيوعية. تشكلت مخالفة للقانون، فسحبوها إلى المحكمة لمحاسبتها على الحرائق!».

إنه يقول انها تشكلت مخالفة للقانون.

ولكنه يقول إنهم سحبوها إلى المحكمة لمحاسبتها على الحرائق.

من هؤلاء الذين سحبوها؟

أليست سلطات التحقيق القضائية، التي يتمتع المواطن المتهم أمامها الآن بكل الحصانات القانونية؟.. أليست هي سلطات التحقيق القضائية، التي تسمح الآن بزيارة المتهمين من عائلاتهم؟.. أليست هي سلطات التحقيق القضائية، التي تعمل بسيادة القانون.. للمحقق الذي يتهم.. والمواطن الذي يوجه إليه الاتهام؟.

هل سحب المتهمون إلى المعتقلات وإلى أجهزة التعذيب والقهر الإنساني.. التي يعرفها صلاح حافظ جيداً؟..

هل أجاوز الحقيقة.. أو أحمل الكلمات أكثر مما يحتمل معناها. عندما أقول إنها اتهام للسلطات القضائية التي تحقق جريمة المؤامرة؟.. هذه السلطات التي أسرعت بالإفراج عن كل من لم يثبت صلته بالجريمة؟..

وهنا.. أيضاً أعود إلى عقدة الذنب التي يعاني منها الكاتب الشيوعي.. والتي تزعجه بأحلام الكوابيس.. والتي تصور له، أنه متهم بحرق القاهرة!

وكل هذا.. لأن التنظيمات التي ضبطت، شيوعية!.. مع أنه يقول إن هذه التنظيمات الشيوعية قد تشكلت مخالفة للقانون؟!

هذا التناقض في التعبير.. وهذه الأفكار المتصارعة.. تعبر فعلاً عن رعب.. لم يقم دليل على ما يبرره.. لكي يستولي على قلم كاتب ماركسي.. أحبه فعلاً، لأنه كاتب موهوب، وصحفي موهوب، ومتخابث موهوب أيضاً!

مسئولية كل مصري:

إن المسئولية الآن، أيها الزميل العزيز، عن أمن مصر وأمانها، ليست مسئولية رجال الأمن فقط.. إنها مسئولية كل مصري على هذه الأرض الطيبة التي تريد السلام الاجتماعي.. وليس الصراع الدموي. مسئولية كل مواطن في موقعه.. أن يحمي هذا السلام.. من أعداء السلام.

وإذا كان صلاح حافظ ـ يقول مشكوراً ـ إنني أكتب تحت تأثير وطنية ملتهبة ثم يقول إن هذه الوطنية الملتهبة تستدرجني في النهاية، إلى مدرسة بوليسية، القاسم المشترك بين كتابها وهو الانتهازية والسبق إلى استثمار الفرص وركوب الموجات..

فإنني أقول له ـ منبهاً ـ إن الوطنية الملتهبة.. لا يمكن أن تستدرج أحداً إلى انتهازية.. أو إلى ركوب موجة. الوطنية الملتهبة لا تناور ولا تداور ولا تستثمر الكلمة بأساليب ملتوية. وإذا كنت تعرف عني ـ كما كتبت ـ أنني أؤمن بدور وطني للماركسيين، وأنني أميّز جداً ما بين الفكر المسئول للاشتراكية العلمية، والعبث الهزلي لليسار الجديد المعادي لها.

إذا كنت تعرف عني هذا، فأعرف أيضاً أن الأدوار الوطنية للماركسي وغير الماركسي، تبرزها المواقف من الأحداث.. المواقف الصريحة الواضحة البعيدة عن أي التواء، البعيدة عن الرعب والفزع وعقدة الذنب.. هذه المواقف الصريحة.. هي التي تبني الوحدة الوطنية، وتدعمها، وتحمي الوطن من الانقسام.. وتحمي دماء الشعب، وحريته.. وحرماته وتجربته الديمقراطية.. من عدوان دموي تخريبي، على كل قيمه، وسماحته واستقراره، وإزالة كل العقبات أمام طريق البناء.

وإذا كنت يا زميل الحبر والقلم، تصف اليسار الجديد بأنه عبث هزلي.. يعادي الاشتراكية العلمية.. في بعض سطور مقالك، فلم تدافع عن هذا العبث الهزلي في سطور أخرى.. وتصف تنظيماته السرية بأنها سحبت إلى المحكمة لمحاسبتها على الحرائق؟!

لا دعوة إلى حرب أهلية فيها نكتب وفيما ندعو إليه.. كما تصورها.. ولا يحزنون..

إن كل مجتمع يتعرض لقلة مخربة فوضوية، مهما اختلفت الشعارات التي تحملها، والمجتمع المؤمن بأرضه وقيمه قادر دائماً بالتعبير الشرعي، وبسيادة القانون أن يكون قلعة حصينة.. لهذا الشعب العظيم..

والحرية.. لا تجرم الأفكار.. ولا تغللها..

الجريمة.. والإرهاب، والتخريب.. هي التي تهدد أصحاب الأفكار، وتتعامل بالخنجر لا بالكلمة.. بالدم لا بالحبر.. بالحقد الأسود.. لا بالحب الأبيض ونقاء القلوب..

موسى صبري

* * *

ونشر صلاح حافظ مع هذا المقال ـ الذي أحسنوا عرضه ـ تعليقاً بقلمه قال فيه:

تعليق من صلاح حافظ:

قبل أن تجمعنا زنزانة واحدة!

واضح أن الزميل القديم، موسى صبري، شديد الثقة بروز اليوسف، وإلا ما اختار صفحاتها للرد عليها!

وواضح أيضاً أنه يريد أن يستمر الحوار بين ما تمثله «الأخبار» وما تمثله «روز اليوسف» لأنه طرح من قضايا الخلاف ما يحتاج إلى سنوات للمناقشة، على عكس حزب مصر الذي اختصر الطريق وطالب بإغلاق باب حزب اليسار دون أية مناقشة!

وفي اعتقادي أن أهم ما أثار الأستاذ موسى صبري هو قضية «الإدانة السياسية» لليسار المتهم بالتخريب. فهو يرى أن هذه الإدانة حق لكل صاحب

فكر وقلم. وهذا صحيح. لأنه من حق أي مواطن أن يدين أية سياسة يرى فيها خطراً على بلاده ومصالح شعبه..

لكن الأستاذ موسى صبري يتجاهل أن حملة إدانة اليسار الحالية ليست حملة إدانة سياسية، وإنما جنائية، فهي لا تتهم اليسار بأن أفكاره ضارة، أو متطرفة، أو متخلفة، أو غير صالحة للتطبيق.. وإنما تتهمه ببساطة بأنه حرق القاهرة، وأنا ـ بنفس البساطة ـ لا أصدق هذا الاتهام.

ولست أدري لماذا يعتبر الأستاذ موسى صبري عدم تصديقي هذا طعناً في السلطات القضائية التي تحقق في جرائم التخريب. فمدى علمي أن النيابة لم تفرغ بعد من تحقيقاتها. ومدى علمي أن النتائج التي ستتوصل إليها ستظل مجرد «إدعاء» تتقدم به إلى المحكمة، ولن تصبح حقيقة واقعة إلا إذا أيد القضاء هذا الإدعاء..

وفي إعتقادي أنه لن يفعل. وعندي أسباب كثيرة لهذا الاعتقاد: أبسطها أنني لم أشهد في تاريخ الشيوعية في مصر، ولم أقرأ في تاريخها خارج مصر، حالة واحدة أقدمت فيها على إشعال النار في أية ثروة يملكها الأفراد أو يملكها المجتمع. فضلاً عن أننا سمعنا أخيراً، وبينما قادة اليسار في السجن، من يعلن من ليبيا مسئوليته عن الحوادث التي سيحاكمون عليها.

وأنا إذن لا أطعن في القضاء عندما أرفض إتهام اليسار بجرائم التخريب، وإنما أقول رأيي في اتهام لم يفصل فيه القضاء بعد. إن الذين يطعنون في القضاء، ويهينونه، هم أولئك الذين إعتدوا على إختصاصه، وسبقوه إلى نظر القضية، وأصدروا من وراء ظهره الأحكام والحيثيات، ثم تمادوا فرتبوا عليها «إدانة سياسية» تقضي بحل الحزب الذي لم ير القاضي بعد أي متهم من أفراده!

إن الذين أهانوا القضاء، يا زميلي القديم، هم الذين فشلوا في مجابهة الفكر اليساري.. فسرقوا من المحكمة دوسيه قضية التخريب وحكموا فيه من ـ وراء ظهر القاضي ـ ضد جميع اليساريين. وهم الذين تمادوا فأصدروا أحكاماً ضد أفراد غير مقدمين أصلاً للمحاكمة.. كما فعل فؤاد محيي الدين سكرتير حزب الحكومة الذي أعلن أن خالد محيي الدين ـ وهو غير متهم ـ قد تنكر لبلاده ووضع نفسه في خدمة «الشيوعية الدولية»!

والذين أهانوا القضاء هم أولئك الذين نشروا ـ كما فعلت الأخبار في ٨ فبراير أن جماعات التكفير والهجرة وحرق الأضرحة هي أيضاً «صناع شيوعية إلحادية»!! فأضافوا بذلك من عندهم إلى قرارات إتهام الشيوعيين، وإلى حيثيات الأحكام التي لم تصدر بعد، تهمة فيها إستخفاف بالعقول وبالقضاء معاً.

هؤلاء، يا زميلي القديم، هم الذين أهانوا القضاء.. وما زالوا يهينونه كل يوم على صفحات جميع الصحف، بما فيها «الأخبار» التي تراس تحريرها..

وهم يفعلون هذا لأنهم في حاجة إلى «جريمة» يعاقبون اليسار عليها. وهم قد إختاروا جريمة جنائية، وحكموا فيها، وأدانوا اليسار بها. ثم تأتي أنت بعد هذا لتقول أنها «إدانة سياسية» من حقهم أن يمارسوها!!

إن هذا هو جوهر القضية بيني وبينك وليس في هذا الحوار غيرها.

فالتخريب كلنا نرفضه. واليسار الجديد كلانا ضده. والتنظيمات السرية أمرها للقانون، لا لي ولا لك، والمشكلة كلها هي أنك ترى أحداث التخريب من صنع «الشيوعيين».. وأراها أنا من صنع مجرمين محترفين، من طراز الذين استخدموا في موجة القنابل في العام الماضي، قادتهم أجهزة تنتمي بصورة أو بأخرى للإستعمار ـ حتى إذا كانت بعض هذه الأجهزة تلبس أقنعة ثورية المظهر.

ومثل هذا الخلاف بيننا لا تحسمه الحجج، وإنما الوقائع. والوقائع سوف يدرسها القضاء، ويصدر كلمته بشأنها، فلماذا نستبق الحكم؟ ماذا نفعل لو أغلقنا فعلاً حزب اليسار، وطاردنا أنصاره، والعاطفين عليه، والعاطفين على العاطفين.. ثم ظهر أمام المحكمة أن التخريب كان من صنع المافيا والمخابرات الأمريكية مثلاً؟

هل سنعتذر وقتها للذين أدنتموهم مقدماً، ونقول لهم «معلش»؟ وهل نضمن أن نكون ـ أنا وأنت ـ أحياء عندئذ لنقول لهم ذلك؟

إن التسلسل الطبيعي للأمور أن تثبت جريمة، ثم تبدأ تترتب عليها عقوبات، جنائية كانت أو سياسية، أما في حالتنا، فقد بدأنا بالعقوبة في إنتظار أن تثبت جريمة!

هذا هو كل الخلاف بيني وبين الزميل القديم موسى صبري.

أما ما يتعلق بشخصي، وفزعي، والارتيكاريا التي عندي، فكله على هامش الموضوع..

وغاية ما أحب أن أقول للزميل القديم ـ على هذا الهامش ـ هو أن فزعي حقيقي، ويكاد يخترق عظامي. لا لأنني أخشى السجن، ولكن لأنني أخشى ـ إذا دارت العجلة ـ أن تلتهم مصر كلها.. بما فيها الزميل القديم نفسه.

صحيح أنه يتكلم من منطلق وطني. ويعتقد أن الموقف الوطني يحمي صاحبه من الاستدراج إلى مواقف غير وطنية، ولكن ما أكثر ما يستدرج الإنسان إلى عكس ما يريد.. على طريق مفروش بالنوايا الطيبة..

أما عن الارتيكاريا، وتفسيرها، فلا أجد أفضل من سطور نشرتها في روز اليوسف منذ ثلاثة أعوام، عندما ظهر إقتراح في جلسات «الحوار السياسي» عام ١٩٧٤. ينادي بنشر أسماء الشيوعيين جميعاً في مصر.

يومها قلت:

«سيكون ضرورياً بالطبع أن تشكل لجنة لتعريف: من هو الشيوعي؟»..

«وإذا كنا لم نتفق حتى الآن على تعريف للفلاح الذي هو أبونا وجدنا، والعامل الذي نرى الشحم على يديه كل يوم، فما بالك بالشيوعي الذي تستتر مواصفاته داخل عقله!»..

«ستقرر اللجنة ـ في المرحلة الأولى ـ أن الشيوعي هو من سبق سجنه بتهمة الشيوعية. ولكن هناك من قدموا للمحاكم بتهمة الشيوعية وأفرج عنهم لعدم كفاية الأدلة. وهؤلاء يجب أن تضاف أسماؤهم أيضاً. وهناك من لم يقبض عليهم لأنهم حذرون، ولكن يمكن الاستدلال عليهم، من علاقاتهم بالمذكورين أعلاه أو ترددهم عليهم أو إرتباطهم بهم بصلات النسب أو الجوار أو الزمالة في المدرسة، الخ»..

«وعندما يتم إعلان أسماء هؤلاء جميعاً، سيظل أمام اللجنة ـ لكي ترضي ضميرها ـ أن تدقق في البحث أكثر. ألا يجوز أن يكون هناك شيوعيون أكثر

حذراً، لا يترددون على زملائهم، ولا يجاورونهم في السكن، ولا يناسبونهم، ولا حتى يبادلونهم التحية؟ إن الأمانة الوطنية تقضي على اللجنة، لكي تكشف هؤلاء، أن تقوم بعملية تفتيش قومية شاملة. . في عقول المواطنين. .

«وسيكون شيوعياً بالطبع كل من يقول أثناء إستجوابه، أنه مع «البروليتاريا». فهذه الكلمة هي الماركة المسجلة للشيوعيين. . وبها نطق ماركس وانجلز ولينين وماوتسي تونج».

«ولكن هناك من سيقول أنه مع «العمال». . . وهذا يجب أن يكون شيوعياً أيضاً: لأن العمال هم البروليتاريا!»

«وهناك من سيقول أنه مع وحدة الطبقات من أجل التحرر الوطني، وهذه أيضاً فكرة نادى بها الماركسيون. فلا بد من باب الأمانة والدقة أن يضاف كل إسم يرددها».

«ثم يأتي الدور على الذي يرفض الماركسية ولكنه يؤيد بقاء القطاع العام الذي يملكه الشعب. فملكية الشعب لأدوات الإنتاج إختراع شيوعي. والمتحمسون له يلتقون مع ماركس دون أن يشعروا. أي أنهم في الطريق إلى الشيوعية.

«ثم يأتي بعد هذا دور الذين يشتكون الفقر ويهاجمون الأغنياء (صراع طبقى شيوعى) . ثم الذين يعملون بأجور تساوى قيمة عملهم (نظرية فائض القيمة الشيوعية) » .

«ثم الذين ينقدون سوء توزيع العمالة في البلاد (نظرية التخطيط الاقتصادي الشيوعية). ثم الذين يطالبون بتوفير الإمكانيات، ووسائل الإنتاج، والحوافز وتعبئة الطاقات العاملة (كلمات من إبتداع الشيوعيين)، ثم الذين لا يطالبون إلا بالخبز والثوب والمأوى (مطالب شيوعية حيوانية). ثم الذين يقرأون ما ينشر في العالم الخارجي «شيوعيون يؤيدون الثقافة المستوردة». ثم الذين يحبون (شيوعيون إباحيون). ثم الذين يصلون يوم الجمعة فقط (شيوعيون يمثلون على الجماهير). ثم الذين يصلون الصلوات الخمس (شيوعيون أكثر خداعاً للجماهير). ثم العلماء (ماديون ملحدون). ثم المرضى في المستشفيات

(شيوعيون عاقبهم الله). ثـم الموتى (شيوعيون أهلكهم الله). ثم أقـارب هؤلاء جميعاً، وأصحابهم، وجيرانهم، وجيران الجيران.

«ولكي تتسـع السجـون لكـل هؤلاء، سيضـطر كـل سجن في مصر أن يشـتري الأحياء المجـاورة، ويضعهـا داخـل أسـواره، حتى تـدخـل مصر كلهـا السجون. أو تصبح مصر هي السجن!».

وهذا نص ما كتبت في روز اليوسف عام ١٩٧٤.

فهل يصلح يا ترى تفسيراً للارتيكاريا التي عندي؟ أم أن الزميل القـديم موسى صبري لن يقبله إلا يوم يجد نفسه فعلاً إلى جواري في زنزانة فاشستيـة.. بعد أن يكون الخصوم الحقيقيون لثـورة يوليـو، ولأنور السـادات، قد وثبـوا إلى السلطة؟..

ملاحظة: تعمدت ألا أتناول موضوع الإتحاد السوفييتي هذه المرة أيضـاً، لأنه طرف في الخلاف بين كاتبين مصريـين، ولأن القضية المـطروحة أهم منـه، ولأنني ـ وهـذا هو الأهم ـ لا أقبـل أن أناقش مـوقفه تحت أي إيحـاء بـأن ولائي لبلادي مشكوك فيه.

صلاح حافظ

* * *

ولم يكتف صلاح حافظ بذلك، ونشر في أسبوع لاحق إجابته على تساؤل طرحته، عن سر إنزعاج الكتاب الماركسيين، عند إتهام أي شيوعي..

موسى صبري
يسأل:

.. ونحن نجيب!

سؤال وجيه جداً طرحته الزميلة «الأخبار» هذا الأسبوع.

ألقى السؤال الأستـاذ موسى صـبري، رئيس التحريـر، صبـاح الأربعـاء الماضي. وكان نصه:

لا أفهم لمـاذا ينـزعـج أي مـاركسي أو شيـوعي مصري من الاتهـام

القضائي أو السياسي بأن هناك تنظيماً شيوعياً سرياً؟ لماذا يتلقى الخبر بأنه إتهام لكل الماركسيين والشيوعيين؟ لماذا يعتقد الماركسي ـ الشيوعي المصري أنه مقصود بأي إتهام بوجود تنظيم شيوعي سري، أراد التخريب والدمار؟

والسؤال هام بلا جدال، والإجابة عليه هامة أيضاً.

إن ما يزعج الماركسي المصري، في حدود علمنا، ليس الإتهام القضائي في حد ذاته، وإنما الحملة الصليبية الشاملة التي تتذرع به لتدين كل من يحمل فكرة تقدمية، وتحرض الرأي العام ضده، وتطالب بنفيه من حظيرة الوطن.

في يوم الأربعاء الأسود، والقاهرة توشك أن تحترق، لم تتهم وزارة الداخلية التنظيم الفلاني أو العلاني، وإنما أذاعت عشرات المرات، وفي جميع نشرات الأخبار، أن المظاهرات تتجه إتجاهاً تخريبياً خطيراً «بقيادة الشيوعيين».

وفي يوم الجمعة خطبت جميع المساجد، لا ضد المخربين على إختلاف انتماءاتهم وأهدافهم ودوافعهم، ولكن ضد «الشيوعية».

وفي يوم الجمعة التالي تساءلت «الأهرام» كيف يسمح للماركسيين بالكتابة، وتساءلت «الاعتصام» كيف يسمح لحزب التجمع الوطني بالبقاء.. وهكذا.

وكل هذا ليس «إتهامات قضائية وسياسية»، وإنما دعوات فتنة بين المواطنين، وتحريض على إشعال حريق أهلي أكثر تدميراً وهمجية من حريق الأوبرج وعربات التروللي باس.

والماركسيون إذا اختاروا التنظيم يعرفون أنهم بذلك يتعرضون لعقوبات القانون، وليس لهم أن يحتجوا.

لكن ما يزعجهم ـ في حدود علمنا ـ ذلك الإصرار الدائم على تحويل أي اتهام قضائي محدد إلى صرخة حرب أهلية وخلط أوراق القانون بأوراق الفكر والسياسة، ونقل القضية من ساحة القضاء المبصر إلى ساحة التحريض الأعمى، وتحويلها من محاكمة أفراد إلى محاكمة تيار، ومن المحاسبة على أعمال إلى المحاسبة على أفكار.

وما يزعج هنا ليس الخطر على النفس، وإنما الخطر على الوطن: وحدته، وأمنه، وحضارته، ومستقبله.

وهو خطر نعتقد أن الأستاذ موسى صبري أيضاً ينزعج له، ويهمه أن يتصدى للذين يعرضون البلاد له.

ولعله أن يتجه بسؤاله إلى هؤلاء!

روز اليوسف

* * *

ولم يؤثر كل ذلك في الصداقة الطويلة التي ربطتني بصلاح حافظ.. ولكنه لا ينسى أبداً، في مختلف المناسبات، أن يشكني بدبوس!.. وإن كانت مناسبات متباعدة. مرة.. حشر نفسه بلا مبرر في دعوى قضائية مرفوعة ضدي من أحد الزملاء.. ولم أرد عليه كتابة، ولكن جرى بيننا حديث تليفوني طويل.. ثم مرة بعد صدور كتابي عن «السادات الحقيقة والأسطورة» بعد كتاب هيكل الذي تعمد فيه أن يجرح السادات.. «خريف الغضب».. وكان مقال صلاح حافظ بعنوان «من نصدق.. سادات هيكل أو سادات موسى صبري».. وكان المفروض أن ينشر هذا المقال في «أخبار اليوم» ولكن إبراهيم سعده رئيس التحرير، فضل ألا تخوض «أخبار اليوم» هذه المعركة.. فنشره صلاح حافظ في روز اليوسف.. وقد ضحكت طويلاً عند قراءته.. بسبب أسلوبه الساخر، وذكائه في المقارنة..

وترجع أهمية هذا المقال، إلى أن مصطفى أمين، قرر أن يكافيء صلاح حافظ عليه بجائزة «مصطفى وعلي أمين للصحافة».. وكانت شيكاً بمبلغ خمسة آلاف جنيه!

وأرسلت لصلاح حافظ برقية تهنئة!

الفصل التاسع والعشرون

الافراج في أخبار اليوم
بعد الافراج عن مصطفى أمين

ثلاث صدمات في حياتي ـ تهريب الرسائل إلى مصطفى أمين من المعتقل ـ أول لقاء في الأهرام ـ العمل في أخبار اليوم ـ صورة من الداخل لمصطفى أمين ـ مقالات لماذا ساءت العلاقات بين القصر والنحاس ـ المرأة في حياته ـ مع إسماعيل صدقي في لندن ـ آمال فهمي وأم كلثوم ـ الملكة دينا والسفير كافري ـ صناعة الأخبار مع الزعماء ـ حديث علي ماهر ـ مقال أخرج أيها الوزير الصغير ـ كريم ثابت ثمن الوزارة ـ القبض على التوأمين بعد الثورة ـ إتصالي بالسادات للإفراج ـ تليفون صباح ـ الانتخابات ضد مجدى حسنين ـ زواجى فى نادى أخبار اليوم ـ تسجيلات قضية مصطفى أمين فى أخبار اليوم ـ تعليق هيكل ـ محاولات سعيد فريحة والأمير طلال للإفراج ـ لقاء على أمين فى لندن ـ رسالة من على أمين إلى جيهان السادات ـ قرار الإفراج فى اليوم التالى للفرح ـ أول زيارة فى قصر العينى ـ مقالتان فى الأخبار ـ على أمين يعمل فى الأهرام ـ أزمات مع إحسان عبد القدوس ـ الخطابات الخاصة لمصطفى أمين .

الفصل التاسع والعشرون

الافراح في أخبار اليوم.. بعد الافراج عن مصطفى أمين

تلقيت أقسى ثلاث صدمات في حياتي في عام واحد.. الصدمة الأولى كانت مقتل السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١. والثانية كانت وفاة زوجتي السيدة أنجيل رياض بعد ذلك بأشهر. والثالثة كانت خلافي مع مصطفى أمين.

عاش مصطفى أمين في وجداني وأنا بعد طالب في الجامعة منذ عام ١٩٣٩.. كنت لا أزال في الخامسة عشرة من عمري عندما قبلت طالباً في كلية الحقوق.. وكنت أقرأ مقالات «مصمص» و«ابن البلد» في مجلة الاثنين، بقمة المتعة. وكنت أسعى وراء أي خبر ينشر عنه..

وعندما اعتقلت في عام ١٩٤٣، كنت أهرب الرسائل إليه من معتقل الزيتون..

وعندما قابلته لأول مرة في مكتبه في «الأهرام».. وكتب عني مقالاً وصفني فيه بأنني نابغة.. وطالب بقبولي في نقابة المحامين.. كنت أقابل فارس أحلامي..

وعندما عملت سكرتيراً لتحرير صحيفة «الزمان» اليومية المسائية في عام ١٩٤٧.. كان طموحي الأول أن أعمل في «أخبار اليوم»!.. كنت أمر على مبنى «أخبار اليوم» كل يوم مرتين أو أربع مرات، في طريقي إلى «الزمان».. وإلى بيتي.. وأتأمل هذا المبنى الجميل في شارع الصحافة.. وأسائل نفسي.. هل يقدر لي يوماً، أن أدخل إلى هذا المبنى صحفياً، مثل القلة التي تعمل في أخبار اليوم.. ويتناولون طعام الغداء معاً، كل يوم جمعه، في صالة كبيرة.. ثم

يخرجون علينا صباح كل يوم سبت، بأشهى المقالات والأخبار والصور ورسوم الكاريكاتير! . .

وعندما طلب مني جلال الحمامصي، أن أقابل مصطفى أمين في مكتبه في يناير عام ١٩٥٠، لأنه يريدني أن أعمل في «أخبار اليوم». . كنت وكأنني ذاهب إلى عرسي! . . وعندما قال لي لا أستطيع أن أقرر لك مرتباً أكثر مما كنت تأخذ في «الزمان» ٤٥ جنيهاً، لأن أحسن محرر عندي وهو هيكل، يتقاضى أقل من هذا المبلغ. . عندما قال لي مصطفى أمين ذلك، لم أكن أسمع كلماته. . كنت أعيش الحلم السعيد أنني أصبحت محرراً في أخبار اليوم. . ولذلك كان ردي بلا تكلف. . وبلا تفكير. . الفلوس لا تهمني. . أريد أن أعمل هنا. .

* * *

كان ذلك منذ قرابة نصف قرن من «الزمان». .

وطوال سنواتي في «أخبار اليوم» كنت أراقب هذا الفارس. . أتلمس القصص والإشاعات، عن حياته، وعاداته، واتصالاته. . وكان أسلوب عمله يبهرني، دائماً بالقميص الأبيض القطني والبنطلون. . انه لا يلبس الحرير، لأن والدته أصرت على أن يقاوم هو وتوأمه نعومة الحياة. . ولا سيارة لهما رغم أن للأسرة سيارة. . عليهما أن يركبا الترام والأتوبيس. . ثم ما يرويه لنا كامل الشناوي. . بأن مصطفى أمين الذي يعبد صوت أم كلثوم، يحضر حفلاتها ولا يسمعها. . انه يراقب الآهات وأثرها على الناس. . أنه يلتقط بحسه كل خبر عن الصوت الذي لا يسمعه، ويصفه في سطوره بأروع الكلمات. . ثم براعة الأسلوب. . لقد أمضى أعواماً، يقاوم حزب الوفد، ويسخر من سذاجة النحاس باشا، وينشر قصص الفساد. . ويصدر عدداً خاصاً يؤثر على الناخبين يوم التصويت. . وبعد ذلك كله، يفوز حزب الغالبية ويتولى الحكم. . وتنتظر كل المشاعر. . ماذا سيكتب مصطفى أمين بعد هذه الهزيمة المروعة له. . ويكتب عمود الموقف السياسي في أخبار اليوم، الذي يعترف فيه بالهزيمة، ويرجو أن تثبت الأيام أنه كان مخطئاً فى دعوته . . وأرى أمام مبنى نقابة الصحفيين الأستاذ العزب موسى المحرر الكبير في «الأهرام». . وهو يقرأ مقال مصطفى

أمين، ويهتف. . رائع!. . قمة الذكاء. . لقد تقبل الصفعة، واستعد للمعارك القادمة!. .

وكانت الناس، تنتظر مقالات مصطفى أمين من عام ١٩٤٤، التي بدأها مع أول عدد من «أخبار اليوم». . لماذا ساءت العلاقات بين القصر والنحاس؟». . وكان القراء يلتهمون السطور، من جمال العرض، وسخرية الأسلوب، وروعة القصص التي يرويها. . والتي يصور فيها النحاس باشا، وكأنه أراجوز ساذج!

كنت أتابع، كل حركة، وكل لفته، وكل همسة وكل نظرة، لمصطفى أمين. . بهرني أنه أسرع من يقرأ وأسرع من يكتب. . ثم هو في نشاط وزن الريشة عندما يتحرك ليقفز إلى سيارته وراء موعد أو حادث. . ولا يستكبر على أي عمل. يخرج ليحقق حادثاً في قسم البوليس. . كما يخرج للقاء الملك أو رئيس الوزراء. . ويبقى في مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل، لكي يبحث عن صورة نشرت منذ ثلاثين عاماً، أو يستكمل خبراً للطبعة الثانية.

وكان يمتعني أن أراه وهو يستقبل محمد التابعي أو يودعه. . كان يقف بكل الاحترام، ولا يقول له إلا. . يا أستاذ. . حاضر يا أستاذ. . زي ما أنت عاوز يا أستاذ. .

كان يبهرني هذا الوفاء، كما كانت تبهرني القصص التي كان يرويها عن ذكريات عمله مع التابعي في آخر ساعة وهو لا يزال طالباً. .

وكنا نسمع أن المرأة ليس لها مكان فى حياة مصطفى أمين ، إلا بقدر النصف ساعة أو أقل ، التى يحتضنها فيها . ثم يعود إلى معشوقته الأولى والأخيرة . . الصحافة ! . . ولذلك فهو نهم إلى أن يعرف كل نساء العالم . . وأن يترك كل نساء العالم . .

ثم أحاديثه الطلية عن المستقبل. المجتمع يتطور. يمكن أن تفاجئني إبنتي عندما تكبر، أنها أحبت عاملاً، وسوف تتزوجه. . ولن يكون أمامي إلا الرضوخ. في سن الخمسين، سأعتزل العمل. أتمنى أن أعمل مراسلاً متجولاً

لصحف أخبار اليوم في كل عواصم العالم. «أخبار اليوم يجب أن تكون ملكاً للعاملين فيها بأسهم.

ونسمع أن كل موارد أخبار اليوم، لا تدخل جيب مصطفى أمين أو علي أمين. أنها مخصصة لتنمية أخبار اليوم. مطابع جديدة. تحقيق أحلام متجددة مستمرة!..

وكنت دائماً أكذب كل الناس.. وأصدق مصطفى أمين!

كان ـ في وجداني ـ هو الإنسان الذي لا يخطىء.. ولا يكذب.. ولا ينافق..

وعلى الرغم من أنني اقتربت عاطفياً من علي أمين.. كما خالطته اجتماعياً أكثر من مصطفى أمين.. ووصلنا إلى حدود المصارحة بالمتاعب الشخصية ونبضات القلوب.. إلا أنني عشت متأثراً في حياتي الصحفية بمصطفى أمين الذي لا يحصل على الأخبار فقط.. ولكنه يصنع الأخبار أو يشارك في صنعها! دائماً له دور على مسرح الأحداث. ودائماً نسمع منه.. سألني رئيس الوزارة، رأيي في كذا.. وقلت له كذا وكذا.

ويروى لنا القصص عن أسرار ما وراء الأخبار، ونستمع إليه مبهورين شاردين!.. كيف سافر مع اسماعيل صدقي إلى لندن لتغطية مفاوضات صدقي بيفن.. واستطاع الحصول على جميع المحاضر السرية للمفاوضات؟.. لقد جعل من السكرتيرة التي تسجل المباحثات على الآلة الكاتبة صديقة له. أعطاها نصيبه من السكر، فى وقت كانت لاتجد فيه السكر لإطعام طفلتها بسبب قيود الحرب.. اكتسب حبها وثقتها.. وكانت تعطيه نسخة كربونية مما تكتبه! وكنا نصدق. أي شيء يقوله مصطفى أمين.

ثم الروايات عن قوة بصره.. أنه يستطيع أن يقرأ أي مذكرة على مكتب المسئول الذي يزوره بالمقلوب.. وهكذا يعرف أسراراً خطيرة!

وبعد أقل من أربع سنوات على عملي في «أخبار اليوم» وافق مصطفى أمين على تعييني رئيساً لتحرير مجلة «الجيل» بناء على اقتراح من صديقنا بحري سكرتير التحرير!

وكان يرشحني للسفر في الرحلات الهامة إلى الخارج.. الرحلة الأولى إلى ايران عام ١٩٥٢ كانت بترشيح من علي أمين.. وكل الرحلات بعد ذلك، بترشيح مصطفى أمين وتشجيعه وإعجابه بما أصل إليه من أخبار وخبطات صحفية.

وعندما راجت القصص، عن علاقة لي بمطربة معروفة في عام ١٩٥٥.. انتهز مصطفى أمين فرصة وجود توفيق الحكيم في مكتبه.. ووجودي، وبدأ مناقشتي في هذه العلاقة وأثرها السيىء على عمل الصحفي.. مجلة الجيل هي مجلة الأسرة.. وكل أسرة في مصر ترفض أن تقرأ مجلة يعيش رئيس تحريرها مع غانية.. واستعان بتوفيق الحكيم لاقناعي بقطع هذه العلاقة..

ودائماً كنت لا أخفي عنه أي شيء عن مصادر أخباري.. كنت أرى أنه بئر الأسرار..

ولما روت لي آمال فهمي، حديثاً دار بينها وبين أم كلثوم عن مصطفى أمين، يفهم منه أنها لا تزال تحبه.. أسرعت إلى مصطفى أمين وأعدت عليه ما سمعت.. ثم فوجئت بأنه أبلغ أم كلثوم بما قلته!.. وغضبت أم كلثوم وعاتبت آمال فهمي.. وسألته هل قلت لأم كلثوم؟.. قال: نعم! (وقد ذكرت تفصيل ذلك في فصل سابق).

وتألمت.. لم أكن أتصور إلا أنه الحفيظ على الأسرار.. ولكن ذلك، لم يؤثر على علاقتي به..

وعندما طلبت مني الملكة دينا، بعد عودتها من الأردن، وطلاقها من الملك حسين، أن ترى مصطفى أمين، لكي يساندها في مطلبها أن تحصل على إبنتها.. فوجئت بكلمات ألم من الملكة دينا، لأن مصطفى أمين نشر كلاماً عن طلاقها ائتمنته عليه.. وكان ما نشيت «أخبار اليوم»..

وتألمت.. ولكن ذلك لم يؤثر على علاقتي به..

وعندما روى لي جلال الحمامصي.. أنه بعد لقاء له مع السفير الأمريكي كافري، قال لمصطفى أمين ما جرى في هذا اللقاء.. وفوجيء الحمامصي بنشره

مانشيتات في أخبار اليوم، وتألم إلى درجة البكاء.. لأن السفير الأمريكي ائتمنه على ما قال.. فكيف يواجهه بعد ذلك؟.. وتألمت.. ولكن ذلك لم يؤثر على علاقتي بمصطفى أمين..

كنت مؤمناً في أعماقي، أنه العبقرية التي تغفر لها كل الأخطاء!

وهذه هي طبيعتي عندما أندفع بعاطفتي إلى حب إنسان..

وتدرجت في نشاطي الصحفي كمحرر سياسي.. وأصبحت أشارك مصطفى في التواجد في مواقع مصادر الأخبار.. منزل نجيب الهلالي باشا.. منزل ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الحزب السعدي.. منزل الدكتور أحمد حسين باشا.. عوامة علي ماهر باشا.. وكثيراً ما كنا نقوم بهذه الزيارات معاً، ونجلس بعد كل زيارة، لنستنتج ماذا أخفوه في كلماتهم.. وماذا تعمدوا أن يصرحوا به.. وبدأت أعرف مهنة «صناعة الخبر» الصحفي.. لا مجرد تلقيه من مصادر الأخبار.. وكيف يستطيع الصحفي أن يكون مؤثراً في توجيه الأحداث، احتراماً من مصادر «الأخبار» لخبرته.. وكان مصطفى أمين «لعيباً» في هذا الملعب.. يجيد تحريك الكرة، وتحقيق «الأجوان».. وكان يلعب بخيال السياسيين وطموحهم.. باستخدام ذكائه في اهدائهم خبراً، لكي يحصل على خبطة صحفية دون أن يدروا!

وتوثقت علاقتي بعلي ماهر الذي تولى الوزارة في ٢٧ يناير ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة.. وكنت أزوره كل أسبوع مدعواً إلى مائدته على مدى عامين قبل تولية الوزارة.. وكان مصطفى أمين يحذرني: سوف يبهرك في أول الأمر.. ثم تكتشف أنه مناور ومخادع! وكان يصحح لي المعلومات التي أحصل عليها من علي ماهر.. ومرة كتبت حديثاً مع علي ماهر.. وأعجب به مصطفى أمين، ولكنني فوجئت بنشره محرفاً بحذف وإضافات على لسان علي ماهر.

واحتج علي ماهر.. وغضبت.. وعاتبت مصطفى أمين الذي قال لي: لقد أضفت إلى تصريحاته ما أراد أن يخفيه عنك..

تألمت.. ولكن ذلك لم يؤثر على علاقتي بمصطفى أمين..

* * *

وكان مصطفى أمين يحترم علاقتي بمصادر أخباري حتى لو كان على أسوأ العلاقات مع هذه المصادر. .

كنت على صلة وثيقة بالدكتور محمد هاشم باشا زوج إبنة حسين سري باشا رئيس الوزراء، والوزير في وزارته. . وفجأة قرأت مقالاً لمصطفى أمين في «آخر لحظة» وكانت تصدر ملحقاً لآخر ساعة. . المقال بعنوان «أخرج أيها الوزير الصغير» موجهاً إلى الدكتور هاشم، وكان من أروع ما كتب مصطفى أمين في النقد السياسي. . وظل هذا المقال عالقاً في ذاكرة جمال عبد الناصر. . وكان يقول لمصطفى أمين. . «عاوزك تكتب مقال عن فلان. . مثل مقال أخرج أيها الوزير الصغير». .

وكان مصطفى أمين يقول لي: لا تصدق كل ما يقوله الدكتور هاشم. .

وكان مصطفى أمين على حق، عندما اكتشفت أن الدكتور هاشم، أخفى عني، الإتفاق على أن يكون كريم ثابت المستشار الصحفي للملك، الموصوم بالفساد، وزيراً في وزارة حسين سري قبيل الثورة. . وأن هذا الإختيار هو ثمن تكليف حسين سري بتأليف الوزارة.

* * *

وبعد أن قامت الثورة. . قبض على مصطفى وعلي أمين باتهام أنهما قاما باتصالات بوزارة الخارجية البريطانية بعد قيامها. . واتصلت لأول مرة بأنور السادات في ثكنات مصطفى باشا بالإسكندرية، ورجوته، وأبلغته رجاء محمد التابعي، في الإفراج عنهما. . وكانت إجابته أن الأمر سيحقق سريعاً، ولن تظلم الثورة أحداً. . ثم لقيته بعد ذلك في بولكي وأعلن الإفراج عنهما. واعتذار الثورة عن هذا الإجراء. وتبين أنه بلاغ كاذب من محرر بصحيفة «المصري». . وشككنا حينئذ أن أحمد أبو الفتح وراء هذا الإتهام. .

ثم استدعينا بعد أشهر إلى الشرطة العسكرية معاً، بعد أن غضب الرئيس محمد نجيب، مما نشر في مقال لي عن السودان. . وعدنا معاً إلى «أخبار اليوم». . وهكذا كانت تتدعم العلاقات بيننا. .

وكل ذلك أشرت إليه في فصول سابقة، ولكنني استعيده في هذا الفصل، حتى تكتمل الصورة في ذهن القارىء، وأنا أعرض في هذا الفصل والذي يليه، تطور علاقتي مع أستاذي مصطفى أمين على مدى قرابة نصف قرن من الزمان . .

* * *

واستطاع مصطفى أمين أن ينشىء صلة قوية بجمال عبد الناصر . . وأقنعه بعقد أول مؤتمر صحفي، يظهر فيه أعضاء مجلس قيادة الثورة، للصحافة الأجنبية، في مبنى أخبار اليوم . .

وكنت بعد كل رحلة صحفية إلى الخارج . . أجلس إلى مصطفى أمين لكي أسرد عليه الأخبار الهامة حول الرحلة التي لا تنشر . . وكان يكتبها أمامي . . ثم يتصل بجمال عبد الناصر ويبلغه هذه الأخبار . . وكان لعبد الناصر حاسة صحفية وسياسية في تحليل مثل هذه الأخبار التي كان يهوى الاستماع إليها . .

* * *

وعندما قرر جمال عبد الناصر وقفي عن العمل، بسبب سطور المذيعة همت مصطفى في مقال نشرته في «الجيل» . . اتصل مصطفى أمين بهمت مصطفى، ورجاها أن تتراجع عن موقفها ضدي، ورفضت . . وكتب عنها خبراً كبيراً أنها مذيعة عالمية . . ورفضت . . ثم قررت الإستقالة . . ورن جرس التليفون في مكتب مصطفى أمين . . وخطوت إلى الباب منصرفاً، ولكنه طلب مني أن أبقى . . كان عبد الناصر يتحدث إليه . . ودافع عني مصطفى أمين طويلاً . . ولم يقتنع عبد الناصر . . وعندئذ قررت العدول عن الإستقالة . .

* * *

وذات يوم حذرني من الحديث في التليفون في السياسة مع المطربة صباح التي كانت في بيروت . .

وعجبت كيف عرف ما جرى بيننا من حديث . .

قال لى مصطفى أمين : لقد سألتك صباح . . أخبارك ايه ؟ . . فأجبت أنك

تعبان قوي لفراقها. . لقد أبلغني عبد الناصر بهذا الحديث. . ولذلك أنبهك أن التيلفونات مراقبة، فلا تتحدث في السياسة!

* * *

وعنـدما دخلت انتخـابـات مجلس الشعب في عـام ١٩٥٧، ضـد مجـدي حسنين. . حذرني مصطفى أمين من العواقب، ولكنه لم يمنعني. . وعندما سمع أن مجدى حسنين أبلـغ عبـد النـاصر أن السفـارة الأمــريكيـة هـى التـى تصرف على دعايتي. . قدمت كشفاً بكل مـا صرفت، ومصادره إلى مصـطفى أمين بنـاء على طلبه. . وأبلغ به جمال عبد الناصر. .

* * *

وعنـدما قـررت الزواج، اقـترح مصطفى أمـين أن يتم حفلة العـرس في نـادي أخبار اليـوم. . وحضرها كـل الفنانـين. . وكان مصـطفى أمـين يستقبـل المدعويـن. . وفوجئنا بعبد الحليم حـافظ يعلن أنه سيقـدم أغنية بنـاء على طلب مصطفى أمين. . وإذا به يغني «ماكنش يومك»!

وقبيل الزواج. . عندما أصـابني خوف عـظيم من هذه الخـطوة. . وكنت متردداً. . كان مستشاري هو مصطفى أمين. . وفكرنا معاً في فسخ الخطبة. . ثم عدلت. وكان مصطفى أمين يقيم حينئـذ في فندق هيلتـون، بعد أن تم طـلاقه من زوجته!

* * *

وهكـذا كانت الصلة. . حتى استقلت من أخبـار اليـوم، بسبب تـدخـل هيكـــل في عدم تعييني رئيســاً لتحـريــر «الأخبـار» وعملت رئيســاً لتحـريــر «الجمهورية». . ثم عدت بعد وفاة صلاح سالم رئيساً لتحرير «الأخبار». . وبعد ذلـك ألقى القبض على مصـطفى أمـين. . وكـان الشيـوعيـون «يحتلون» أخبـار اليوم. .

كانت الصدمة مروعة. .

وحاولت المخابرات العامة، أن تقنع المقـربين من مصـطفى أمين، أنـه لم

يكن مخلصاً لهم. . فأتوا بتسجيلات الحوار بين مصطفى أمين ورجل المخابرات الأمريكية. . وأذاعوا بعضها. . وكان منها سؤال رجل المخابرات: هل موسى صبري شيوعي؟. . واجابه مصطفى أمين: موسى صبري ولا حاجة!

وقال رجل المخابرات. . وها أنت تسمع يا أستاذ موسى رأي مصطفى أمين عنك، انك ولا حاجة. .

ولم أتأثر بذلك. . لأن إجابة مصطفى أمين لم تكن تعني هذا المعنى. . كانت تعني أنني لست شيوعياً أو رأسمالياً. . وليست لي ميول معينة.

وجلس معي محمد حسنين هيكل بعد هذا اللقاء، ليعبر عن تعاسته وصدمته في مصطفى أمين. . وكيف أن هذا الموقف منه، يدعوه إلى القيء. . كل ذلك لكي يحطم اعجابي الخيالي بمصطفى أمين. .

وعندما نشر اعتراف مصطفى أمين، بعد أن شطب منه هيكل كثيراً من العبارات، أحسست أن مصطفى أمين مظلوم. . وإلا فلماذا يشطبون جملاً من بيانه؟. .

ثم اطلعت على التحقيقات. . ورأيت أن كثيراً من الأخبار التي قدمتها إلى مصطفى أمين ولم تنشر، كان يقولها لرجل المخابرات على أنه سمعها من الرئيس عبد الناصر. .

ولم أطق أن احضر المحاكمة التي تحولت إلى سرية. .

وجاءتني خيرية خيري زوجة علي أمين في منزلي، لتقنعني أن مصطفى أمين بريء. .

ويوم صدور الحكم ضده، كنت في حزن عميق. .

* * *

وكنت اتلهف على كلمة من الصحفى الكبير سعيد فريحة، أنه تحدث إلى الرئيس عبد الناصر للافراج عن مصطفى أمين. . وكنت أسعد بأي أمل يعطيه لنا محمد محجوب رئيس حكومة السودان أن عبد الناصر سيفرج عن مصطفى أمين. .

ولكن لا شيء أكثر من هذه الأحـلام. . حتى توفي جمـال عبد النـاصر. . وتولى السادات.

. . ثم زارتني سيدة في مكتبي، هي السيدة زيزي قريبة مصطفى أمـين، وشقيقـة محمد طنـطاوي مديـر تحـريـر «أخبـار اليـوم». . حملت لي رسـالـة من مصطفى أمين في سجنه. . ثم أخرى.

قالت رسالة مصطفى أمين الأولى:

عزيز موسى

أنني مدين لك بشكرين!

الشكر الأول، أنك انقذت ابنتي من الموت! أعدتها الى الحياة بعد أن دفنت في التراب! . . فأنا أشعر أن «الأخبـار» هي إحدى بنـاتي. . وكنت أتعذب وأنـا أراها تموت أمـامي. كنت أتمزق وأنـا أراهم يصلبونها، ولا استـطيع أن أمـد لها يدي! ثم رأيتك أنت وأخوانك يعيدون الروح إلى ابنتى!

أما الشكر الثاني، فهو لأنك فعلت في حملة انتخاب أنـور، كل مـا تمنيت أن أفعله. أحيـاناً تمنيت أن أخـرج من هذا المكـان، لأكتب كل مـا كتبت، ثم أعود إلى زنـزانتي من جـديد، كـانت أصابعي تـأكلني، لأكتب نفس ما كتبت، ولكن يدي كانت مقيدة بالسلاسل والأغلال!

فـرحت بالأخبـار اثنـاء حملة الـترشيـح، وبعـدهـا. شعـرت بـالحيـاة في سطورها. في عنواناتها. في صدرها. في صورها الحية. شممت في الحـبر رائحة الصـــدق والاخـلاص والحـماس. شممت رائحتي! أحسست أن ابنتي بفضلك عادت شابة. . كلها حياة من جديد!

وأنـا أكتب إليك وأقـول أنني متفائـل بنجاح أنـور. وأنا أتمنى لـك من كـل قلبي النجاح. وقلبي وعقلي وانفي الصحفية تؤكد أنه سوف ينجح. ويكفي أن أقرأ كلمته عن الـذين قالوا «لا» لأعرف أن صفحة جـديدة، قـد فتحت في كل البلاد العربية لا في مصر فقط.

وكـان كثيرون، ينتـظرون أن يصدر الـرئيس عفواً شـاملاً بعـد انتخابـه.

واعتقد أن مشاغله هي التي منعته من اتخاذ هذه الخطوة حتى الآن. وأنني اعتقد أن هذه الخطوة ضرورية. فإن مصلحة البلد تقتضي وضع نهاية لمسألة المسجونين السياسيين. وكل واحد منهم مأساة إنسانية. والجميع هنا يريدون أن يبدأوا صفحة جديدة. ولو كان من حقهم أن يشتركوا في الاستفتاء لقالوا جميعاً «نعم». إن قراراً كهذا سوف يعيد الحياة لألوف من الموتى، وانصاف الموتى. سوف يفتح بيوتاً خربت. سوف يعيد الابتسامة إلى ألوف من انصاف الأرامل وانصاف الثكالى وانصاف اليتامى!

ولقد كنت أتمنى أن يكون تطبيق بيان ٣٠ مارس، باعادة المحاكمات التي تمت أمام محاكم استثنائية، وتحويلها إلى محاكم عادية. وخاصة بعد أن ظهر أن الذين لفقوا هذه القضايا، دمغتهم أحكام محكمة الشعب بالتلفيق ووضعتهم في السجن مع الذين لفقوا ضدهم!

ولكن قد يقال أن مثل هذا الطلب العادل، لا يتفق مع الظروف الحاضرة.

وأنه يجب ألا يعلو أي صوت على صوت المعركة. ولهذا أعتقد أن الاسراع بتصفية المعتقلات، وتصفية المسجونين السياسيين، سوف يساعد على فتح الصفحة الجديدة، ويعبىء كل قوى البلد في معركتها الكبرى.

انني أجد أن من يشاركونني قيودي ـ على اختلاف ظروفهم ـ متفائلون بالرئيس أنور السادات تفائلاً شديداً. انهم يرون فيه الفجر في ظلامهم الدامس.. والنهار بعد ليلهم الطويل.

وإذا كانت توجد أسباب لا أعرفها تمنع من اتخاذ هذه الخطوة الضرورية لاعادة الحق إلى نصابه، ولرفع الظلم عن المظلومين، فلا أقل من أن ننتظر من أنور خطوة إنسانية.. إذا عزت الخطوة السياسية.

انني عرفت أنور عن قرب. كنت أراه في السنوات الأولى للثورة كل ليلة تقريباً. ولمست أن الإنسان فيه أقوى جوانب شخصيته. بحثت دون جدوى عن الرجل البطاش الظالم المستبد، فلم أجد هذا الرجل فيه. وأنا أتوقع أن البلد

سوف ترى الانسان في أنور أكثر مما قرأت حتى الآن. ولكن العدالة بطيئة والظلم سريع!

ولقد كان أنور مسجوناً . وهو أول مسجون فى مصر يصبح رئيساً للجمهورية . ذاق عذاب السجن. عرف مرارته. شعر بضنى الحرمان من أطفاله. أحس بقسوة القضبان والزنزانة. فهم حياة السجن الرهيبة ومآسيه!

ولا يعقل أن يتولى حكم مصر، رجل عرف مظالم السجون، ولا يشمل السجون بنظرة رجل أكل الاسفلت من جسمه أكثر مما أكلت السنون!

وطالما سمعت أنور يحدثني عن آلام السجن ومتاعب المسجونين. وقد كان له في الماضي الفضل في تحطيم السلاسل والأغلال في أقدام المسجونين وأيديهم. . وكم أتمنى أن يحطم باقي القيود. . ويصدر أمراً واحداً بمعاملة المسجونين كآدميين!

وكم أتمنى أن يحطم باقي القيود. . ويكفي المسجون عذابه بفقد الحرية!

كان المسجونون السياسيون في الماضي يعالجون في المستشفيات العامة إذا مرضوا، والآن هذا ممنوع، بحجة أن السجون أصبح فيها مستشفيات! . . وهي أكذوبة كبرى لا يحس بها إلا السجين المريض، المحروم من الدواء والرعاية والعلاج!

إن السجون في حاجة إلى إصلاح جذري. في حاجة إلى أن تتحول إلى مصحات نفسية، وهي الآن قبور أحياء!

ومن الأسف أن المشرفين على السجون، يعاقبون إذا كانوا رحماء. . ويثابون إذا كانوا وحوشاً! بعضهم رأى السجون في عهد قدماء المصريين. وأصبحوا يقارنون حالها الآن بحالها في الماضي السحيق، ويقولون «مفيش كده»!

وفعلاً «مفيش كده»! مفيش مسجون ينام على الأرض. . على الأسفلت إلا في بلادنا!

ولو قارنوا السجون بسجون عالمنا، لعرفوا أن الفرق بين سجوننا وسجون

البلاد المتمدينه كالفرق بين الموت والحياة!. . كالفرق بين عشش الترجمان والدقي!

ومن سخرية القدر أن وزير الداخلية الذي وضع لائحة السجون مسجون الآن. . وهو عباس رضوان وزير الداخلية السابق.

ومن الأسف أن صحافتنا لا تجرؤ على أن تكتب الحقيقة عما يجري في السجون. . مع أن صحف العالم تكتب مقالات مستفيضة عن ضرورة اصلاح السجون.

وإذا رأيت أن الوقت غير ملائم للتحدث مع الرئيس أنور السادات، في مسألة المسجونين السياسيين، فإن لي طلباً متواضعاً، وهو أن أنقل الى مستشفى خاص للعلاج على حسابي، أو مستشفى عام.

انني مريض بالسكر: مريض بالنقرس، مريض بالروماتيزم، ومرض السكر وحده يحتاج إلى رعاية خاصة، وعناية طبية خاصة ويحتاج إلى طعام خاص. وكل هذا مستحيل في الليمان. واهمال مرض السكر سيؤدي حتماً إلى الذبحة الصدرية وتصلب الشرايين.

وكل ما أرجوه منك، أنك إذا أحسست، أو شعرت، أن حديثك في موضوعي سوف يسبب لك حرجاً، أو مضايقات، أو متاعب، فأرجوك أن تمزق هذا الخطاب.

ويجب أن تتأكد أنني أفضل أن أموت هنا، على أن أكون سبباً في أي ضيق أو متاعب لأحد أبنائي الذين أحبهم.

أفضل أن اتعذب في قيودي، على أن تحرم «الأخبار» من رعايتك، أفضل أن تحطمني سلاسلي على أن أرى إحدى بناتي تموت أمامي.

وفقك الله. .
وإلى اللقاء القريب
بإذن الله،

مصطفى أمين.

* * *

وأنا أعرف الحالة النفسية لمصطفى أمين، من سطوره. إذا كان هادئاً فإن سطوره تجيء مرتبه، وبخط صغير. وهذا ما بـدا لي في هذه الـرسالـة. كان لـه أمل أن يفرج عنه السادات. . وكان مقتنعاً أن هذا الأمل سيتحقق. .

ثم تلقيت رسالة ثانية من مصطفى أمين. . حملتها لي أيضاً السيـدة زيزي قريبته (أصبحت زوجته بعد الافراج عنه).

كانت حروفها كبيرة، وسطورها غير منتظمة. .

كان في حالة نفسية سيئـة، لأن ضابـطاً في السجن اعتدى عليـه، ونسب إلى مصطفى أمين أنه المعتدي. . وصدر قرار بـأن يحرم مصـطفى أمين من كـل امتيازات في المعاملة تقـررت له من قبـل. ثم الغى ممدوح سـالم هذا القـرار. . ولكن مصطفى أمين فوجىء بأن هذا الضابط عاد ليتولى حراسته.

وكتـب لى مصطفى أمين هـذه الـرسالـة التـى يحتـج فيهـا على قـرار ممـدوح سالم.

قالت الرسالة:

كنت أريد أن أكتب إليك لتشكر السيد ممـدوح سالم نـائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية لأنه أصدر أمراً باعادة معاملتي كما كنت أعامل سـابقاً، قبـل أن يصـدر قراره بحـرماني من جميـع الامتيازات لأنني «اعتـديت» على النقيب عبـد السيد منصور الذي كان يتولى حراستي!

وكـأن الوزيـر يتصور أنني ضربت الضـابط. ولم يكن معقـولاً أن يسكت على أن أضرب أحد ضباط الشرطة!

وقد شكوت يومها أن هذا القرار صـدر بدون تحقيق معي، وأن الضـابط نفسه لم يقل انني ضربته! والذي حدث أنه هو الذي رفع يده يحاول أن يضربني فنهرته لأنه يحاول أن يضرب مريضاً مصـاباً بـالذبحـة الصدريـة أثناء وجـوده في المستشفى! وقـد اعتبر الضـابط الكونستـابل رفضي أن اتلقى الضربـة، اعتـداء عليه!

وهكذا أسعدني أن نائب رئيس الوزراء أعاد الحق إلى نصابه. وما كـدت

أحمد الله حتى فوجئت في نفس اليوم بقرار أذهلني! وهو قرار أن يعود هذا الضابط بالذات لحراستي ابتداء من صباح يوم السبت!

وعجبت أن يصدر هذا القرار في نفس الوقت الذي صدر قرار بإنصافي!

لقد كان هذا الضابط دائم التحرش بي، وشكوته لكل الجهات. والكل يعلم أن مشادة حدثت بيني وبينه، وأنني عوقبت بسببه، وأن منشوراً وزع على جميع ضباط شرطة القاهرة، يعلن أن نائب رئيس الوزراء عاقبني لأنني اعتديت على الضابط.. وكل الجهات تعلم أنني كنت أقفل على نفسي باب غرفتي، وامتنع عن الذهاب إلى اقسام العلاج طوال مدة وجوده تفادياً من التحرش بي!

فما هو المقصود من اعادته هو بالذات للاشراف على حراستي؟

لا أظن أن نائب رئيس الوزراء يقصد إذلالي أمام جميع ممرضات وأطباء ومرضى العنبر الذين رأوا بعيونهم هذا الضابط، وهو يتحرش بي ويحاول الاعتداء عليّ! أم المقصود هو أن أحد الذين لم يعجبهم قرار نائب رئيس الوزراء باعادة معاملتي كما كنت، أراد أن يعيد هذا الضابط للاشراف عليّ لعل وعسى أصطدم به، فيصدر نائب رئيس الوزراء قراراً بحرماني. من جديد من رؤية أسرتي مرتين في الشهر! وأنا اعتقد أن السيد نائب رئيس الوزراء في زحام أعماله لا يعرف مثل هذه الصغائر التي يراد إثارتي بها، وأنا مريض بانسداد في الشريان التاجي الأمامي ومريض بالضغط ومريض بالسكر ومريض بالاعصاب، ومريض بانهيار في الكلى.

إن الموظف الذي يصدر هذه القرارات يقصد امتحان قوة أعصابي، أو قدرتي على الصمود.. أو لعله يجري على تجربة كيف يمكن إصابتي بذبحة صدرية جديدة بمثل هذه التصرفات!

وأعتقد أنه لو كان قرار السيد نائب رئيس الوزراء بإعادة معاملتي كالسابق قد أعلن في منشور، كما حدث لقرار إنزال العقاب بي، لما خطر ببال الموظف المختص، أن يعود إلى معاقبتي بإعادة الضابط عبد السيد للإشراف على حراستي!

أو لعل هذا الموظف لا يعرف أنني مريض بكل هـذه الأمراض، وصحتي لا تتحمل هذه الدعابات التي تشبه الصواعق!

إنني ما كدت اتنفس الصعداء حتى فوجئت بقرار يكتم أنفاسي!

إنني آسف للإثقال عليك، بهذه المسائل الصغيرة، ولكنها مسائل كبيرة جداً بالنسبة لمريض مثلي يشكو كل هذه العلل، والأمراض إلى جانب الحرمان من الحرية.

مصطفى أمين

* * *

ولا شك أن بقاء مصطفى أمين في السجن قرابة تسع سنوات.. جعلته يقدس عن إيمان ثابت الدعوة إلى الحرية. ولعله كرر كلمة «الحرية» في مقالاته بعد الإفراج عنه حتى اليوم، مئات الألوف من المرات. وهو يحشر الدعوة إلى «الحرية» في أي مقال له ولو كان عن أزمات التموين..

وهذه المدة الطويلة، التي أمضاها في السجن، ومعاناته خلالها.. تختفي وراءها حملاته العنيفة على جمال عبد الناصر وحكمه.. على الرغم من أنه كتب ٨ مقالات في صفحة واحدة «بالأخبار» ـ قبل القبض عليه ـ يدعو فيها إلى إعادة انتخاب جمال عبد الناصر، باسم الحرية والديمقراطية، وباسم الشباب، وباسم العمال..

* * *

وكانت السيدة زيزي هي التي تتردد على مصطفى أمين في سجنه.. وهي سيدة قوية صاحبة إرادة. وفي زيارة أخرى علمت منها، أنها زارت السيدة داليا حرم محمود أبو وافية وشقيقة السيدة جيهان، في منزلها في الهرم، مع حرم المرحوم حمادة الناحل محامي مصطفى أمين.. لكي تتحدث مع الرئيس السادات في أمر الإفراج عن مصطفى أمين..

وقالت لي السيدة داليا بعد ذلك، أن السادات قال لها كيف يفرج عن جاسوس وعميل أمريكي.. وأن كل شيء ثابت عليه!

وكانت هذه الكلمات صدمة لي. . لأنها كانت تعني أن السادات لن يفرج عن مصطفى أمين. .

ثم قالت لي السيدة زيزي يوماً، إن مصطفى أمين مريض، ويريد النقل إلى مستشفى. . وانتهزت فرصة لقاء لي مع السادات في القناطر، وأبلغته. . وقال السادات: في المسائل الإنسانية، أنا ليس عندي اعتراض. .

وذهبت إلى ممدوح سالم وأبلغته. . وأظهر الموافقة. ولكنه واجهني بعد ذلك أن مصطفى أمين في المستشفى. . وأن السادات كان يقصد مستشفى السجن!

وأبلغتني السيدة زيزي بعد ذلك أن الأمير طلال بن عبد العزيز، زار الرئيس السادات، الذي وعده بالإفراج عن مصطفى أمين. .

وذهبت إلى ممدوح سالم. . وقال لي إن السادات لم يبلغه بذلك.

وطلبت زيارة مصطفى أمين. . . وقال لي ممدوح سالم أن هذا الأمر يقتضي موافقة الرئيس السادات. . ولم يعطني السادات هذا الإذن. .

وهكذا كانت كل الشواهد تؤكد أن نفقد الأمل تماماً في الإفراج عن أستاذنا.

* * *

وخلال ذلك، سافرت إلى لندن. . والتقيت بعلي أمين لأول مرة، منذ ترك القاهرة. وبعث معي برسالة إلى مصطفى أمين. ولم أترك علي أمين لحظة واحدة، طوال إقامتي في لندن. . وكان متفائلاً. . وكنت أرجو أن أكون متفائلاً مثله. . وطلب مني أن أتحدث إلى السادات لكي تنشر «فكرة» في «الأخبار» بدون توقيعه. . وكان في ذلك الوقت ينتقل بين بيروت والقاهرة، ويشرف على صحيفة «الأنوار» التي يملكها سعيد فريحة. . ويكتب «فكرة» في «الأنوار» كل صباح.

ثم سمح السادات، بحضور علي أمين إلى مصر. . كان علي أمين قد أعطى رسالة منه إلى السادات، إلى جلال الحمامصي في لندن. . وأعطاها

الحمامصي للأستاذة أمينة السعيد، التي تمكنت من إيصالها الى السادات، بواسطة صديقتها السيدة جيهان.

وقال السادات: إنني لا أحرم مصرياً من العودة إلى وطنه.

وذهبنا وفداً من «أخبار اليوم» لاستقباله في مطار القاهرة.. كان يوم فرح عظيم.. وكانت مظاهرة حب.

وقدمته - مع صديقي أحمد رجب - إلى محمود أبو وافية.. الذي كان يسكن في نفس العمارة التي بها شقة علي أمين.. وكانت كريمته صديقة لكريمة علي أمين..

وكتب علي أمين رسالة إلى السيدة جيهان.. يرجوها أن تتدخل للإفراج عن مصطفى أمين.. وكان السادات قد أذن لعلي أمين بزيارة شقيقه في السجن..

وطلب علي أمين من محمود أبو وافية أن يبلغ السادات أنه لم يعد في العمر بقية.. ويكفي ما لقيه مصطفى أمين بعد سجن ثماني سنوات..

وكان محمود أبو وافية متحمساً لفكرة الإفراج عن مصطفى أمين.. واقترح أن نحيط بالسادات ليلة فرح كريمته.. ونطلب منه الإفراج..

وفي الرابعة صباحاً، وبعد أن انتهى الفرح.. احطنا بالسادات.. علي الجمال. احمد رجب. محسن محمد. المطرب عبد الحليم حافظ وأنا والمرحومة زوجتي.. وألححنا عليه أن يفرج عن مصطفى أمين الذي يعاني المرض.. وقال أحمد رجب.. إذا كان ضرورياً أن يسجن أحد ظلماً، فإنني مستعد أن أسجن بدل مصطفى أمين..

ولم يتكلم السادات..

وتحمست السيدة جيهان.. وأيدتنا بحرارة..

وعند ظهر اليوم التالي، اتصل بي السادات ليبلغني قراره بالإفراج عن مصطفى أمين، وإعفاءه من إجراءات الإفراج، ليكون في منزله اليوم!

وفقدت اتزاني.. وصرخت.. صحيح يا ريس.. ودعوت للسادات.

وأسرعت في سيارتي الصغيرة، إلى قصر العيني.. وكان يوماً ممطراً.. ورأيت مصطفى أمين لأول مرة منذ القبض عليه.. كان مستلقياً على سرير سفري صغير، وعليه بطانية.. وأبلغته بالخبر. واحتضنته وبكيت!

وطلب مني أن أسرع إلى علي أمين في مكتب دار الصياد في ميدان التحرير، لكي أبلغه بالخبر، وأمنعه من زيارة هيكل في الأهرام.. حتى لا يدعي هيكل بعد الإفراج أنه هو الذي أقنع السادات بالإفراج. وكان هناك اتفاق مسبق بين علي أمين وهيكل على أن يلتقيا في «الأهرام»..

وعدت إلى قصر العيني ومعي علي أمين...

ولم يكن مصطفى أمين واثقاً، من أنه سيفرج عنه. قال لي انه سمع خبر الإفراج عنه قبل ذلك عدة مرات.. ولم يتحقق. وأكدت له أن الرئيس السادات هو الذي أبلغني بقرار الإفراج بشخصه.

أما أول عمود، كتبه يوم الإفراج عنه، فإن له قصة.

بعد أن أبلغني الرئيس السادات بقرار الإفراج عن مصطفى أمين حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر.. اتصل بي محمود أبو وافية في الساعة الرابعة وطلب مني أن اتحدث إلى الرئيس السادات، لكي يسمح بأن يكتب مصطفى أمين وعلي أمين بضعة سطور لشكره، لكي تنشر في الأخبار..

وأذكر أنني قلت لمحمود أبو وافية:

ـ أنا لا أستطيع أن أطلب من السادات شيئاً بعد قرار الإفراج.. كفى أنه استجاب لنا..

وقال محمود أبو وافية:

ـ أنا سأتحدث إليه..

وبعد دقائق أبلغني أبو وافية أن الرئيس السادات وافق..

وأسرعت إلى علي أمين في شقته بعمارة ليبون، وأبلغته بذلك، وكان معه أحمد رجب وصلاح جلال.. وتركته للذهاب إلى قصر العيني وإبلاغ مصطفى أمين بذلك، على أن أعود إليه لتسلم المقال..

ولما أبلغت مصطفى أمين، وكان مستلقياً على السرير السفري في الحجرة الصغيرة. . اعتدل وترك السرير، وجلس على مقعد أمام مائدة صغيرة وأمسك القلم. . وقال:

ـ لما أشوف. . هأعرف أكتب ألا لأ. .

قلت له:

ـ أنت سيد الكلمة. .

وأمسك القلم. . وفي أقل من دقيقتين. . كان قد كتب العمود!

ولما عدت إلى علي أمين، كان لا يزال يحاول كتابة العمود. . كان يكتب سطراً ويمزق الورقة. . ثم يكتب سطراً جديداً ويقترح عليه أحمد رجب أو صلاح جلال تعديله، فيكتب من جديد. . وهكذا وجدت أمامه كومة من الورق!

وأخيراً تمكن من كتابة العمود، واستغرق ذلك أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات!

وهذا هو الفرق الحرفي بين الكاتب مصطفى أمين والكاتب علي أمين. .

مصطفى أمين يندفع قلمه كالسهم ولا يتوقف. . ويقيني أنه أسرع كاتب عرفته مصر. .

وعلي أمين يكتب، ويشطب، ويعيد الكتابة. . وكأنه في ولادة متعسرة. .

* * *

كتب مصطفى أمين:

اليوم «أعبر أول خطوة من خطوات الحرية، بعد أن عشت في ظلام السجن حوالي تسع سنوات.

ولا أستطيع وأنا أخطو إلى الهواء الطلق خطواتي الأولى، إلا أن أذكر الرجل الذي فتح لي باب الحرية، وفتح قبل ذلك أبواب الحرية أمام ألوف المعتقلين، وأعاد العدالة لمئات القضاة، ووفر لقمة العيش لآلاف من الذين وضعوا تحت الحراسة، أو حرموا من وظائفهم بلا ذنب جنوه.

من حق هذا الرجل أن يطلق على عصره «عصر العبور». .
عبور الجيش المصري من الهزيمة إلى النصر.
وعبور الشعب المصري من الانقسام إلى الوحدة.
وعبور سمعة العرب من الهوان إلى الكرامة.
وعبور المظلومين من الظلم إلى العدل.

وعبور الخائفين من القلق والرعب إلى الطمأنينة والأمان والاستقرار. .
وعبور المقيدين في الأغلال إلى حياة الأحرار.
وسوف يعبر بعد هؤلاء كثيرون.

إن ٦ أكتوبر أعطتنا درساً عظيماً، وهو ماذا يستطيع الإنسان المصري أن يفعل وهو حر، وبغير أن يعتقل فرد واحد في أثناء المعركة سوى أسرى الأعداء.

مصطفى أمين

* * *

وكتب علي أمين تحت عنوان «يا رب». . .
يا رب! لم يهتز إيماني بك في يوم من الأيام. .
كنت أعرف أنك لن تتخلى عنا. لأنك تنصر كل مظلوم.
كنت أحس بيدك وهي تسندنا حتى نواجه قسوة الأيام.

يا رب! . كنت أعرف أنك ستملأ طاقة صبرنا قبل أن تفرغ، وتقوّي قوّة احتمالنا قبل أن نضعف.

ولذلك لم أكفر بك، وسحب الظلام تطاردني. . كنت أعرف أنك ستضيء لي أنوار الفجر، كما أضأتها لكل مظلوم.

وكنت أحس أن السماء ستفتح لنا أبوابها غداً. . ولما لم تفتح أبوابها في الغد، انتظرتها بعد الغد، ثم بعد عام، ثم بعد عامين، ثم بعد تسعة أعوام!. لم أكفر بك! لم أتململ من طول الانتظار.

كنا نقف في طابور المظلومين، ننتظر دورنا في الإنصاف.

لم نحاول أن نختصر فترة الانتظار. لم نحاول أن ندفع الذين يقفون أمامنا حتى نحتل مكانهم في صفوف الإنصاف الأولى.

كنا نعرف، أن هناك من هم أحق منا بالإنصاف.. فانتظرنا دورنا.

وكنا نعرف السادات منذ ثلاثين سنة. كنا نعرف أن الرجل الذي ذاق مرارة الظلم واكتوى بناره لن ينسى مظلوماً واحداً.

كنا نعرف أن اليد التي أعادت الحريات للشعب، وردت للقضاء استقلاله، وردت للجندي العربي سمعته، وأعادت للشعوب العربية كرامتها.. كنا نعرف أن هذه اليد ستحطم القيود وتحطم الأغلال.

وبدأ السادات يطرد جيوش الإحتلال من بلاده، ويسترد كل شبر من الأرض، ويعيد للشعب العربي اعتباره بين شعوب الدنيا، ويمهد الطريق لعودة شعب فلسطين إلى أرضه.

ثم جاء دورنا اليوم.
وخرجنا من طابور المظلومين!
وعاد مصطفى أمين إلى بيته.
وعدت إلى بلادي.

علي أمين

* * *

ونشرت الكلمتين في «الأخبار» دون علم إحسان عبد القدوس رئيس مجلس الإدارة.. الذي اتصل بي في ساعة متأخرة ليسأل عن الجديد في الأخبار.. فأبلغته بنبأ الإفراج عن مصطفى أمين، وأننا سننشر له سطور شكر..

والواقع أنها لم تكن سطور شكر.. بل كانت مقالتين من أروع ما كتب التوأمان.

وفي الصباح التالي.. كان مصطفى أمين في منزله.. وكانت وفود المهنئين من أسرة أخبار اليوم، وكل رجال الصحافة لا تنقطع..

كان مهرجان أفراح . .

وكان السادات قد أخرج محمد حسنين هيكل، وعين الدكتور حاتم رئيساً لمجلس إدارة الأهرام . .

وطلب علي أمين من حاتم أن يعمل معه ولو سكرتيراً فنياً . . ولما سمع السادات بذلك من حاتم قال: هوه علي أمين مش عارف قيمته وإلا إيه . . يعين مديراً لتحرير الأهرام!

وكان مصطفى أمين يطلب غرفة مكتب في أخبار اليوم ليستقبل فيها زائريه . . ولكن السادات وافق على عودته للعمل في أخبار اليوم . .

وثارت الأزمات مع إحسان عبد القدوس . . الذي أراد أن يعدل سطوراً من أول مقال كتبه مصطفى أمين، وثار مصطفى أمين وتراجع إحسان الذي كان قد حدد أن ينشر مقال مصطفى أمين على يمين الصفحة الأولى، لا على يسارها، حيث يكتب هو مقاله!

واعترض إحسان عبد القدوس أن نقيم حفلة لتكريم مصطفى وعلي أمين في أخبار اليوم . .

ورجاني مصطفى أمين أن أعدل عن فكرة الحفل . .

واعترض احسان على أن ننشر في الأخبار أن وفداً من أسرة أخبار اليوم توجه إلى قصر عابدين، ليسجل الشكر للرئيس السادات على الإفراج . . وقال إن هذا عمل فردي ولا ينسب إلى أخبار اليوم . .

وكتبت مقالاً طويلاً، ملتهباً، أرحب فيه بعودة مصطفى أمين . .

ووجد إحسان أن استمراره في أخبار اليوم مستحيل، بعد عودة مصطفى أمين، والتفاف كل الأسرة حوله . .

ونقله السادات إلى الأهرام . . وأعاد علي أمين من الأهرام إلى أخبار اليوم . .

وأعجبني في مصطفى أمين أنه لم يلتفت إلى الصغائر. كان لطفي حسونة

قد كتب في يوميات الأخبار، خلال سجن مصطفى أمين، كلمة سخيفة عن علاقة مصطفى أمين بالمطربة شادية..

ولكن مصطفى أمين أحسن إستقبال لطفي حسونة.. وقال لباقي المحررين.. ان لطفي إبني.. «وهوه عملها على بنطلوني».. وانتهى الأمر!

وسارت العلاقات على أشهى ما نتمنى..

واقترح على أمين وحاتم أن أتولى رياسة مجلس إدارة أخبار اليوم.. ورفضت.

واقترب علي أمين جداً من السادات، وكان يصحبه في رحلاته. وكان يمده بأخبار الغد.

وكنا في أفراح متصلة..

وذات يوم.. قال لي مصطفى أمين ـ ونحن معاً في مكتبه ـ إنه لا يستطيع أن يأتمن أحداً على أسراره الشخصية إلا أنا.. ولذلك فهو قد قرر أن يسلمني كل خطاباته وأوراقه الخاصة، لتكون في حوزتي.. فلا أحد يعرف مفاجآت الأيام والأعمار بيد الله.

ولكن بدأت.. بعد ذلك الأزمات!

الفصل الثلاثون

حكاية عمر طويل

إقتراب علي أمين من السادات ـ مصطفى أمين يهاجم إنتفاضة الحرامية ويؤيد إبعاد دافيد هيرست من مصر ـ السادات يوافق على مؤتمر صحفي يعلن فيه التوأمان براءة مصطفى أمين من تهمة التجسس ـ وزير الإعلام يرفض والسادات يصمت ـ محاولة فاشلة للصلح ـ مجلة تطبع في «الأهرام» تهاجم التوأمين ـ السادات لا يعترض ـ السادات يعترض على الهجوم على عبد الناصر وتشويه سمعته ـ تعييني رئيساً لمجلس الإدارة بعد ثبوت فشل إتهام عبد الناصر في ذمته ـ السادات لا يزور علي أمين خلال مرضه ـ أزمة مقال «مرحباً بالوفد الجديد»ـ مهاجمة حزب السادات ووقف مصطفى أمين عن الكتابة ـ الصلح في حفل زفاف جمال السادات ـ الكتابة في صحيفة الشرق الأوسط السعودية التي تهاجم مصر ـ قرار السادات بتعيين إبراهيم سعده رئيساً لتحرير أخبار اليوم ـ الهجوم على السادات بعد وفاته ـ الرئيس مبارك يدعونا إلى إجتماع خاص ـ مصطفى شردي يشهر بي، ومصطفى أمين يرحب به ـ رفض الشهادة في دعوى أمام القضاء ـ إستمرار الشكوك ـ جوائز الصحافة.

الفصل الثلاثون

حكاية عمر طويل

الأزمة التي كنت أنا ضحيتها بين المطرقة والسندان.. كانت بسبب تطور علاقة السادات بكل من مصطفى أمين وعلي أمين.

كان علي أمين قد اقترب جداً من السادات. وكان يلقاه كل أسبوع ويمده بالأخبار. وكان يستمع إلى علي أمين طويلاً، وهو يحاوره في إلغاء الرقابة على الصحف، وتعديل الدستور، وإقامة الديمقراطية على أساس نظام الحزبين الكبيرين، مثل حزب المحافظين والعمال في انجلترا...

وكان مصطفى أمين يكتب بحرارة مؤيداً للسادات.. ولكل قراراته.. وأيد طرد دافيت هرست ممثل الجارديان الذي كان يشهر بحكم السادات، كما شارك في وصف ١٧ و١٨ يناير بأنها إنتفاضة حرامية.. وكان هدم سجن أبو زعبل من إقتراح علي أمين مثلما هدم سجن الباستيل في باريس..

ثم بدأت المتاعب..

كان مصطفى أمين وعلي أمين، يريدان محو كل أثر لإتهام مصطفى أمين بالتجسس. وأجرى المدعي الإشتراكي تحقيقاً، خرج منه بقرار محو الجريمة.. وصدر قرار من السادات بالعفو.. ورفع الحراسة..

وكان التوأمان سعيدين كل السعادة..

واقترح مصطفى أمين على السادات، أن يعلنا ذلك في مؤتمر صحفي تحضره الصحافة الأجنبية.. ورحب السادات بالفكرة.. وطلب إليه أن يتفاهم

مع الدكتور كمال أبو المجد وزير الإعلام، في ترتيب المؤتمر الصحفي، وإعلانه في التليفزيون..

وأبلغ مصطفى أمين وزير الإعلام بقرار السادات.. ولكن الدكتور كمال أبو المجد لم يكن مقتنعاً، وخاصة بالتحقيق الذي أجراه المدعي الإشتراكي.. وطلب من السادات مهلة كي يفكر في الأمر.. وبعد المهلة، أبلغ السادات بوجهة نظره أنه لا داعي لهذا المؤتمر الصحفي.. واقتنع السادات.

ولما تحدث إليه مصطفى أمين.. طلب الوزير التأجيل.. ثم وضح أنه ضد الفكرة.. وانتظر مصطفى أمين تحركاً من السادات.. ولكن السادات أهمل الموضوع..

كانت هذه واحدة..

* * *

وكتب علي أمين مقالاً عنيفاً في «فكرة» ضد كمال أبو المجد.. وساءت العلاقات، وحاولت أن أتوسط، واتفقت علي لقاء على مائدة غداء في منزل مصطفى أمين لتسوية الموقف.. ولكن علي أمين فقد أعصابه بعد الغداء، ووجه عبارات قاسية لوزير الاعلام.. وانتهت الجلسة، إلى زيادة شقة الخلاف.. وكنت في غاية الحرج.. وانصرفت مع الدكتور أبو المجد محاولاً أن أجد تبريراً لما حدث..

ثم صدرت مجلة أسبوعية كانت تطبع في «الأهرام».. للشباب، ولم نكن نعرف من يحررها.. وشنت حملة عنيفة ضد مصطفى أمين وعلي أمين، ووجهت إليهما كل الاتهامات..

واندهش التوأمان من هذه الحملة.. وكنا نتصور أن محررها هو مكرم محمد أحمد، معبراً عن إتجاهات هيكل.. وثبت أخيراً، أن مكرم لم يكن له علاقة بهذه المجلة، وصرح بذلك، خلال معركته الانتخابية لمنصب النقيب..

وطلب إليَّ مصطفى وعلي أمين أن أتحدث في هذا الأمر إلى السادات.. وكان منطقهما أنهما لا يتأثران بهذا الهجوم.. ولكن أن تصدر صحيفة في ظل

حكم السادات، وتهاجمها وهما يؤيدان السادات.. فهذا يعني هجوماً على السادات لا عليهما..

وتحدثت مع السادات في هذا الأمر أكثر من مرة.. ولكنني لم أحصل منه على أي جواب..

وفسرا هذا الموقف، على أنه برضا السادات..

وهذا يعني أن هناك تحولا في موقفه منهما..

* * *

ثم بدأ مصطفى وعلي ينشران أخباراً وتحقيقات عن القهر والدكتاتورية في حكم عبد الناصر.. وتدخلت أكثر من مرة، لمنع أخبار غير صحيحة، أو مبالغات تفتقر إلى الدليل.. ولكنهما كانا في قمة الحماسة لهذه الموضوعات والأخبار.. وكان منها موضوع قتل الدكتور أنور المفتي بالسم بأمر عبد الناصر.. وهذا موضوع خيالي جملة وتفصيلاً.. وكان السادات ضائقاً بهذه الموضوعات..

ونبهني إلى ذلك أكثر من مرة.. لكي أبلغهما.. وكانت إتصالاته قد قلت بعلي أمين..

وكانت وجهة نظر مصطفى أمين، أن السادات يقدم الحرية والديمقراطية.. وهذا مجده. ويظهر ذلك أن ننشر النقيض..

وكان مصطفى أمين يعترض في ذلك الوقت على أن ينشر جلال الحمامصي، سطوراً تعارض السادات بين السطور.. وكان يقول: نحن نؤيد السادات.. ونحن لا نقوم بدور هيكل.. وكان مصطفى أمين يناقش الحمامصي بهذا المنطق..

ثم كان أن نشر مصطفى أمين في أخبار اليوم فصلاً من كتاب جديد لجلال الحمامصي، يشكك في ذمة عبد الناصر.. بأنه استولى لشخصه على قرض قدمه الملك سعود لمصر..

وقال مصطفى أمين للسادات أن الحمامصي يملك الدليل على ما يقول..

وأمر السادات بإجراء تحقيق. . وانتهى الأمر إلى أن الموضوع لا أساس له. .

وبدأت غضبات السادات. .

وقرر منع الحمامصي من الكتابة. . واستطعت أن أقنعه بعد حديث تليفوني طويل، بعدم جدوى هذا الإجراء. . وعدل عنه.

وكانت صحف المعارضة وإذاعات الرفض تروج أن أنور السادات يستخدم مصطفى أمين وعلي أمين وجلال الحمامصي. . في تشويه حكم عبد الناصر وسمعته. . وهذا ما كان يضاعف من عصبية السادات، لأن موقفه على النقيض من ذلك. .

وهكذا غير السادات في مجالس إدارات الصحف بعد أن ألقى بياناً في مجلس الشعب عن موضوع الإتهام الكاذب لعبد الناصر في ذمته. وقال السادات أنه يستغرب أن يحدث هذا من جلال الحمامصي بالذات. . وهو الذي أنقذ رقبتي بشهادته في صالحي في قضية إغتيال أمين عثمان.

وعينني السادات رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم ـ وكنت قد اعتذرت عن عدم قبول هذا المنصب مرتين ـ ورئيساً لتحرير الأخبار. . وخرج مصطفي أمين وعلي أمين والحمامصي وحسين فهمي من رياسة التحرير. . وكانت كل هذ الأسماء، ومعها إسمى، في «ترويسة» واحدة في الصفحة الأولى من «الأخبار» تحت عنوان: رؤساء التحرير.

* * *

وبدأ مصطفى أمين، يتخذ سياسة المعارضة. . واستمر الحمامصي في خطه المعارض وأصبحت أنا حارس الهدف. . الذي يتلقى كرة من هنا. . وكرة من هناك! وحاولت التوفيق بشتى السبل، وفشلت. .

وتوفي علي أمين إلى رحمة الله. . وبلغنا الخبر، في باريس، وكنا في رحلة مع السادات في العاصمة الفرنسية.

وكان مصطفى أمين أيضاً، متألماً، لأن السادات لم يزر علي أمين خلال مرضه بالمستشفى. . وإن كانت السيدة جيهان السادات قامت بهذه الزيارة. .

* * *

وبدأت بالتفاهم مع مصطفى أمين احذف من فكرة الكلمات أو العبارات التي يمكن أن تثير حنق السادات وغضبه.. ولم يعترض مصطفى أمين.. وحرصنا نحن الاثنين، على إستمرار علاقتنا القوية.. فقد كان يقدر مسئوليتي كرئيس للتحرير.. وكنت أحترم رأيه فيما لا يثير أزمات جديدة بينه وبين السادات.. ولم يتجاوز التعديل خمس أو ست مقالات في فكرة.. وفي أسطر محدودة.

وعندما أباح السادات تكوين الأحزاب.. بدأت إتصالات بين مصطفى أمين، وفؤاد سراج الدين، وكان الدكتور نعمان جمعه (نائب رئيس الوفد) يحضر كثيراً للقاء مصطفى أمين.. وكتب مصطفى أمين مقالاً بعنوان «مرحباً بالوفد الجديد».. وثارت أعصاب السادات.. واتصل بي ليقول: لقد عرفنا فساد الوفد، وفساد سراج الدين من مقالات مصطفى أمين في أخبار اليوم! الآن يكتب مرحباً بالوفد الجديد! سبحان الله.

وطلب مني أن أبلغ مصطفى أمين، أن يكتب سلسلة مقالات عن فساد حكم الوفد.. ورهن ذلك، باستمراره في الكتابة أو منعه عنها!

واستغرق دور الوساطة مني جهداً فظيعاً.. واتفقت مع مصطفى أمين أن يكتب في فكره عن فساد الماضي.. وكتب. ولم يقنع السادات.. وكان يصر.. «حلقات.. سلسلة.. كما كان يكتب قبل الثورة..».

وكذبت على السادات.. وقلت له أنه يعد لهذه المقالات.. ثم فجأة وعلى غير توقع مني، عدل السادات عن رأيه وعن إنذاره!

* * *

وعندما دعا السادات إلى تأليف الحزب الوطني.. كتب مصطفى أمين فكرة عن النواب الذين هرولوا إلى الحزب الجديد، دون أن يسألوا عن مبادئه.. ووضع السادات في موقف محرج مع النواب الذين يؤيدونه.. وقرر منع مصطفى أمين من الكتابة.. ولما قيل للسادات بعد ذلك أن مصطفى أمين اتصل بصحفيين أجانب، وأدلى لهم بتصريحات عن منعه من الكتابة، إتصل بي السادات.. ثم أكد لي مصطفى أمين أن هذا لم يحدث.. وأنه إمتنع عن لقاء

المراسلين الأجانب. . وأنه لن يكون محمد حسنين هيكل. . ولكن ثبت بعد ذلك ـ لدى السادات ـ أنه اتصل بمراسلة أجنبية.

* * *

وكان مصطفى أمين قبل ذلك متألماً من رفض السادات أن تصدر مؤسسة أخبار اليوم صحيفة أكتوبر. . وقد طلب مني مع علي أمين، تحديد موعد مع السيدة جيهان السادات. . وزرناها في منزل السادات بالجيزة. . وحاول الاثنان إقناعها، بأن تؤثر على الرئيس السادات في عدم إسناد رياسة التحرير لأنيس منصور. . وقالا في هذا كلاماً كثيراً. . ولكن السادات لم يهتم باعتراضهما. . وهذه طبيعته إذا إقتنع بشيء، فإنه أقوى من أي تأثير.

واستمر منع مصطفى أمين من الكتابة ثلاثة أسابيع. . ولما عاد السادات من كامب دافيد، دعا مصطفى أمين إلى حفل زفاف نجله جمال. . وكان مصطفى أمين رافضاً تلبية الدعوة، وتمكن أحمد رجب من إقناعه وأنا. . وذهب. . واستقبله السادات أحسن إستقبال، وكرمته كل أسرة السادات. .

وانتهت المشاكل. . لتبدأ مشكلة جديدة!

* * *

ثارت مشكلة كتابة مصطفى أمين في صحيفة الشرق الأوسط السعودية، وكانت تصدر مهاجمة سياسة السادات. . وحاولت عبثاً إقناع مصطفى أمين بعدم الكتابة، ولكنه رفض وأصر. . حتى أن أحمد رجب بكى من التأثر. . وكذلك فشل سعيد سنبل في إقناعه. .

ولهذا أصدر السادات قرار تعيين إبراهيم سعدة رئيساً لتحرير أخبار اليوم، بعد أن إعتذر عن عدم التعاقد مع الشرق الأوسط بمرتب كبير. . وكان هدف السادات أن يلقن مصطفى أمين، وإحسان عبد القدوس درساً، في أن شاباً صحفياً، رفض العمل في هذه الصحيفة رغم الإغراء المادي. .

وأعلن السادات، أن الصحفيين الذين يريدون الكتابة في صحف عربية، عليهم أن يتخلوا عن مواقعهم في الصحف المصرية. . وأصدر كل من

مصطفى أمين وإحسان عبد القدوس بياناً بصيغة واحدة، أنهما إختارا صحافة مصر. .

وكانت السيدة جيهان قد تحدثت إلى مصطفى أمين في ذلك، واعتذر عن عدم تلبية رجائها. . والحق أنني كنت قد أوعزت إليها، أن تتدخل لدى مصطفى أمين. . لأنني كنت حريصاً على تحسين العلاقة بينه وبين السادات. .

واستمر الموقف هكذا، معلقاً بين السادات ومصطفى أمين. . ولا أريد أن أذكر في هذا الكتاب، تفصيلات عديدة، ذكرتها في كتاب «السادات الحقيقة والأسطورة». . ويمكن للقارىء أن يعود إليه.

ثم مات السادات برصاصات جبانه. .

وتولى الرئيس حسني مبارك. .

وبدأت مرحلة جديدة من الأزمات. .

* * *

بعد موت السادات، كنت في حالة ألم، وعزلة في غرفة مكتبي، وتحول الأمر إلى إكتئاب. . ثم فوجئت بمقال فكرة من مصطفى أمين يهاجم السادات!

وطلبت من أحمد رجب أن يبلغ استاذنا، الذي كان طريح الفراش بسبب أزمة قلبية، إنني لن أنشر كلمة واحدة في «الأخبار» تهاجم السادات بعد موته. . ما دمت حيا. .

واستمر مصطفى أمين في هجومه. .

وكنت أشطب السطور التي تهين ذكرى السادات. .

إلى أن فوجئت باستدعائي لمقابلة الرئيس مبارك في قصر العروبة، حيث وجدت مصطفى أمين والحمامصي وأحمد أبو الفتح. . وتدخل الرجل لتسوية الأمور على أساس عدم إهالة التراب على زعمائنا. . وقال لنا: أنتم شيوخ الصحافة. وأرجو ألا يثور بينكم أي خلاف.

ولكن مصطفى أمين لم يتوقف. . وكذلك الحمامصي. .

ثم جدت أمور أخرى، بدأت تقيم حوائط عدم الثقة بيننا، بعد عشرة العمر الطويل. .

صدرت صحيفة الوفد، ورشح مصطفى أمين لرياسة تحريرها مصطفى شردي، ووافقت بوصفي رئيساً لمجلس الإدارة، بل رحبت. .

ثم بدأ مصطفى شردي، يشهر بحياتي الخاصة، ويجرح أبنائي. . وآلمني أن مصطفى أمين، لم يستنكر هذا الأسلوب. . ولم يبذل أدنى جهد ليوقف هذا التبذل. . رغم أنني لم أترك مناسبة للإشادة بمصطفى أمين فيها أكتب في يوميات آخر ساعة أو الأخبار. . بل كان مصطفى أمين يدعو شردي إلى الغداء والعشاء، وعلى إتصال يومي به. . وكأنه يشجع هذا النهج على حياتي الخاصة، وأبنائي. .

ثم ثار موضوع دعوى أمام القضاء، رفعها ضدي أحد الزملاء، وكانت شهادة مصطفى أمين بكلمة الحق، تسقط هذه الدعوى. . ووافق أن يقدم شهادته الصادقة. . ولكنه عدل عن ذلك في اليوم التالي! . . ولم أكن أتوقع هذا الموقف، وخاصة أنني أعرف رأيه الشخصي في سلوك الزميل الذي رفع الدعوى. . بل إن تصرفي الإداري مع هذا الزميل، كان متأثراً برأي مصطفى أمين فيه. .

ومع ذلك لم أفتح فمي بكلمة واحدة، معاتباً مصطفى أمين على هذه المواقف. . ولكنه بدأ هو يشكو لأحمد رجب من مواقف لي ضده، لم تحدث على الإطلاق. . كأن ينسب لي أنني هنأت رئيس تحرير روز اليوسف. لأنه ينشر مقالات عبد الله أمام التي تؤكد إدانة مصطفى أمين بالتجسس. . وهذا لم يحدث.

وكيف يحدث وأنا الذي كتب في هذا الموضوع مرات عديدة، أدفع هذا الإتهام الظالم عن مصطفى أمين. . وسجلته في كتابي «وثائق ١٥ مايو». .

ثم اتصل بي أحمد رجب، ليقول لي أنني نشرت حديثاً في مجلة «اليقظة» الكويتية هاجمت فيه مصطفى أمين . . وأرسلت عدد المجلة إلى أحمد رجب . . الذي عاد للإتصال بي ليقول أن ما قلته هو مديح في مصطفى أمين !

ثم جاءت قصة جوائز مصطفى أمين وعلي أمين للصحافة. . وأنا عضو مؤسس في هذه الجوائز. . والمفروض أن نعقد لجنة كل عام، لاختيار الفائزين. . ولكن مصطفى أمين تعمد أن يعطي الجائزة لكل زملاء جيلي. . رغم معرفتي برأيه الشخصي في سلوكهم وتعمد أن يتجاهلني !

ثم وضحت مشاعره تماماً، عندما أعطى جائزة «صحافة» للممثلة سهير البابلي. . لمجرد أنني هاجمت خروجها على النص المسرحي، واستخدامها ألفاظاً نابية لا تليق بالمسرح! . . وتساءل محررو «الأخبار» وما دخل سهير البابلي بجائزة الصحافة! . . وأبدوا استياءهم من هذا التصرف الذي تمنوا لو لم يصدر عن أستاذنا!

ومن أجل هذا كله. . وحرصاً على عشرة العمر. . وذكريات هذه الحياة الطويلة، بحلوها ومرها. . قررت أن أعزل نفسي عن لقاء مصطفى أمين. . واستمر ذلك لأكثر من عام. .

ثم وقع له حادث كسر في عظام القدم، عندما كان يصعد الدرج إلى شقته في الزمالك. ونقل إلى المستشفى. وبمجرد أن علمت حضرت من الاسكندرية لزيارته ثلاث مرات. . ثم سافر إلى لندن لاستكمال العلاج. . وزرته في مكتبه بعد عودته. .

وهذه هي طبيعة علاقتي مع مصطفى أمين.

لا أستطيع أن أنتزع حبه من قلبي. .

ولا أستطيع أن أفصل دمي عن ذكرياتنا الطويلة. . وهكذا الحياة. . تجمع وتفرق. . وكلنا إلى تراب.

الفصل الحادي والثلاثون

أعنف حوار مع القذافي في أخبار اليوم
يستمر ٥ ساعات!

حدثان رفعا معنويات عبد الناصر بعد الهزيمة ـ زيارتي لليبيا مع السادات ـ معمر في سيارة «فولجس» صغيرة ـ السادات يدافع عن القذافي أمام الزعماء السوفييت ـ تأثر طلبة الجامعات في مصر بدعوة القذافي ـ محاضرة رائعة للدكتور رفعت المحجوب في جامعة عين شمس ـ دعوة الزحف الشعبي من ليبيا إلى مصر ـ السادات يقول للقذافي: اجتمع بمن تشاء في مصر ـ اجتماع روز اليوسف ـ القذافي يطلب زيارة أخبار اليوم ـ أمينة السعيد تقول للقذافي: مصر ليست شارع الهرم ـ القذافي يهاجم ـ أمريكا والاتحاد السوفيتي واليمن الجنوبية التي تطبق الشيوعية ـ لا يهاجم السعودية ودول الخليج والكويت من أجل مصر ـ سؤال أنيس منصور عن النظرية الثالثة ـ الفرق بين المرأة والمرة! ـ خوف المسيحيين من الوحدة مع ليبيا ـ الليبيون في شارع الهرم! استمرار الحوار العنيف بين أمينة السعيد والقذافي ـ رشدي صالح يطالب القذافي بالإنفتاح على حضارة العالم ـ اضطهاد الأساتذة المصريين في ليبيا ـ حوار عن تطبيق الشريعة الإسلامية مع محمود أبو وافية ـ قومية المعركة والثورة الشعبية ـ الحوار بعنف مع عبد المنعم الصاوي ـ معنى الديمقراطية في فكر القذافي ـ بيان القذافي في ٦ أكتوبر أن مصر تخسر الحرب ـ مصالحة وحضور القذافي مجلس الشعب ـ أحداث أسيوط في إذاعة ليبيا قبل وقوعها.

الفصل الحادي والثلاثون

أعنف حوار مع القذافي في أخبار اليوم.. يستمر خمس ساعات!

حدثان بعد الهزيمة في يونيو ١٩٦٧، رفعاً من معنويات جمال عبد الناصر. .

الإستقبال الأسطوري الذي رحب به في الخرطوم عندما ذهب لحضور اجتماع القمة العربية. . وقالت صحف العالم، إنه أول قائد مهزوم يلقى هذا التكريم الخيالي. . وكان عبد الناصر في قمة اليأس، وقال للملك حسين حينئذ: إفعل ما تشاء لكي تسترد الأرض. . فاوض الأمريكان. . أفعل أي شيء. .

وذلك على الرغم من أن المؤتمر قرر اللاءات الثلاثة الشهيرة. . لا صلح . . لا مفاوضة . . لا اعتراف . .

وقالت بعض الدوائر أن المخابرات المصرية، مهدت لهذا الإستقبال الخطير. . ولكن مهما كان دور المخابرات، فإن حماسة الجماهير واندفاعها نحو عبد الناصر، كان لا يمكن أن يكون موضع تدبير. .

مثلما كانت مظاهرات ٩ و١٠ يناير في مصر، بعد أن أعلن عبد الناصر عن تنحيته. . لقد اشترك الإتحاد الإشتراكي في التدبير. . ولكن مشاعر الجماهير المندفعة نحو الزعيم تطالب ببقائه كانت فوق كل تدبير. . ولم تكن أسرار الهزيمة قد عرفت بعد.

الحدث الثاني الذي رفع معنويات عبد الناصر. . هو قيام الثورة الليبية بقيادة معمر القذافي أو ثورة الفاتح من سبتمبر كما أطلق عليها بعد ذلك . .

ومات عبد الناصر. .

وتولى السادات. . وقام الاتحاد بين مصر وسوريا وليبيا. . وسارت العلاقات الطيبة بين مصر وليبيا. . وسافرت مع السادات إلى طرابلس ـ عندما دعا القذافي إلى مؤتمر قمة في طرابلس ـ وفشل هذا المؤتمر، لأن معظم الملوك والرؤساء لم يحضروا، احتجاجاً على أسلوب القذافي الجاف في توجيه الدعوة إليهم. وقال السادات للقذافي حينئذ: أنا استحملك يا معمر. . الملوك والرؤساء يجب مخاطبتهم بأسلوب آخر. .

وطلب مني الرئيس السادات، أن أبقى بضعة أيام في ليبيا، لكي أقدم الثورة الليبية، وما شرعت في تحقيقه للقراء في مصر. . لتعميق الروابط. . وأذكر أيضاً بعد أن تولى السادات، أن كلفني بإرسال محرر ممتاز إلى ليبيا لينشر عدة تحقيقات عن الأوضاع في ليبيا. . بدلاً من الإعلانات. . واخترت محسن محمد نائب رئيس تحرير الأخبار، لهذه المهمة. .

بقيت في طرابلس بضعة أيام. . وقابلت هناك أمين بسيوني (رئيس الإذاعة الآن) وكان قد أوفد إلى ليبيا لإنشاء الجهاز الإعلامي بها. . وبذل في ذلك جهداً ممتازاً. .

وحضرت مؤتمراً صحفياً لمعمر القذافي، لاحظت فيه أن الصحفيين الليبيين ينادونه «يا معمر». . كما لاحظت البساطة التي كان يعيشها القذافي. . وقد كانت انتقالاته في سيارة «فولجس فاجن» صغيرة، يقودها بنفسه. .

وفي تلك الأيام، قيل لي من المصريين العاملين في ليبيا، أنهم يشعرون بأحاسيس الإستياء من الليبيين تجاههم. . ويتصور الليبييون أن المصريين جاءوا لانتزاع أرزاقهم منهم. .

وكان السادات في تلك الرحلة، يعامل القذافي كولده تماماً. . وهذا ما لمسته عن قرب. .

وكان السادات يقول لي: إن في معمر طهارة قلب، تغفر له اندفاعات كلامه، وخاصة ضد الاتحاد السوفييتي. . وكانت موسكو تشكو للقاهرة من تصريحات القذافي التي كان يهاجم فيها الشيوعية وسياسة موسكو، بلا هوادة،

وبأفظع الكلمات. . وكان السادات هو المدافع عنه أمام الزعماء السوفييت.

وعدت من طرابلس، بعد أن أمضيت هناك سبعة أيام. . بمشاعر قلقة. .

* * *

وجرى الوقت. . وبدأت خلافات عديدة تثور بين ليبيا ومصر سببها الأول والأخير إصرار القذافي على وحدة ثورية. . واقتناعه أنه خليفة عبد الناصر في زعامة العالم العربي. .

وبدأت قوى ليبية تحرض الطلبة في الجامعات، وبالذات في جامعة عين شمس . . وقد اجتمعت بقيادات طلبة هذه الجامعة ، ثلاثة اجتماعات طويلة تجاوز مجموعها الخمس عشرة ساعة. . ووجدتهم غير قابلين للمناقشة!

وقصد إليهم الدكتور رفعت المحجوب بوصفه أستاذاً جامعياً، وألقى محاضرة سياسية رائعة. . حدثت السادات عنها. . وكانت الصلات مقطوعة بينه وبين السادات. . ثم ألقى الدكتور رفعت محاضرة ثانية، حدثت عنها السادات أيضاً. . وبدأ بعدها السادات يفكر في الإستعانة السياسية بالدكتور رفعت. . ثم اختاره أميناً عاماً للجنة المركزية. . ولكن الدسائس عاقت عن استمرار هذا التعاون، وخاصة بعد أن أعلن رفعت المحجوب تصريحه المشهور عن «القطط السمان». . وكان يقصد من أصابهم ثراء غير مشروع. .

* * *

واشتدت الأزمات بين السادات ومعمر الذي كان يريد خطبة إبنة السادات، لأحد أقاربه، ورفض طلبه. واعتذرت السيدة جيهان السادات عن عدم الإستجابة إلى طلبه.

وجاءت عملية الزحف الشعبي من ليبيا إلى مصر، ومنع ممدوح سالم رئيس الوزراء استمرار هذا الزحف بالقوة ووضعت الحواجز التي حالت دون تقدم السيارات وسمح بوفد ليبي، وصل إلى القاهرة وعقد لهم الدكتور حافظ غانم أمين الاتحاد الإشتراكي اجتماعاً ـ حضرته ـ شرح لهم فيه الخطوات الواجبة نحو الوحدة. . ثم قابلوا الرئيس السادات الذي صحح المعلومات الخاطئة التي

حشوا بها أذهانهم في طرابلس . . وقال لهم السادات بكل وضوح : لست ضد الوحدة . .

وبعدها . . حضر القذافي إلى القاهرة، فجأة، كما اعتاد أن يفعل، فلم يكن يخطر بحضوره إلا وطائرته فوق مطار القاهرة!

* * *

وقال لي السادات: معمر مش فاهم أن الشعب المصري يرفض هذه الوحدة الفورية. . ولا يريد أن يقتنع . . وأنا طلبت إليه بأن يجتمع بمن يشاء في مصر ليعرف حقيقة النبض الشعبي.

وطلب القذافي الإجتماع برجال الدين المسلمين والإقباط. . ورأس هذا الإجتماع الذي حضره عدد كبير من المشتغلين بالسياسة حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية، وأدلى القذافي بآراء لم يتقبلها منه أحد. . وتقرر إنهاء الإجتماع . .

ثم حضر اجتماعاً مع التنظيمات النسائية. . وفاجأ المثقفات في مصر، بآرائه عن عمل المرأة. . وفترة الحيض وغير ذلك من الأمور التي أثارت غضب سيدات مصر. . وأرادت أمينة السعيد أن تقاطعه وترد عليه. . ولكن السيدة جيهان السادات، طلبت منها الصمت حتى لا تحدث أزمة. .

وقد حضرت هذين الإجتماعين، وأحسست أن التوتر يزداد.

وفوجئت مؤسسة روز اليوسف، بطلب من القذافي للإجتماع بمحرريها وغيرهم من الصحفيين في دار روز اليوسف، ودعيت إلى هذا الإجتماع، وفوجئت بأن القذافي صحب معه مصوري التليفزيون الليبي، والمذيعين. . كما أنه وجه الدعوة إلى صحفيين أجانب.

وتحدث في هذا الإجتماع، أكثر من زميل. . وكلهم أيدوا الوحدة الفورية في حماسة!. . وكان في مقدمتهم حافظ محمود شيخ الصحفيين. . ولم يكن أحد منهم، يعرف ما كان يجري وراء الستار. .

وطلبت الكلمة. . وعندما سمع القذافي إسمي. . ابتسم وقال: أهلاً

وسهلاً. . وقال لي أنه قرأ كتابي عن ثورة كوبا، أثناء الاعداد للثورة، وكذلك عدد من زملائه، وأنهم تأثروا بهذا الكتاب. .

ووجهت إليه ثلاثة أسئلة، تؤكد كلها أنني عارف بعناصر الأزمة. . واختلاف أوجه النظر. . وابتعد القذافي في حواره معي عن عدم الاجابة عن الأسئلة. . ولكنني واجهته بأنه لم يجب على أسئلتي. . وأعدتها عليه. . واكتفى بالقول بأن هناك فعلاً اختلاف في وجهات النظر. .

ولم تثر مناقشات جادة في هذا الاجتماع. .

ثم فوجئت بمن يتصل بي، من حاشية القذافي، ويحدد موعداً سيزور فيه القذافي مؤسسة أخبار اليوم. . ورأيت أن يكون إجتماعاً إيجابياً، ولذلك دعوت إليه عددًا من الكتاب والسياسيين من خارج المؤسسة ، من بينهم النائب محمود أبو وافيه، والأستاذة أمينة السعيد، والاستاذ عبد المنعم الصاوي، والاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي والاستاذ أنيس منصور. . وغيرهم. .

وكان هذا الاجتماع الذي استمر قرابة ٥ ساعات حتى منتصف الليل، معركة سجال ساخن. . وكنت أنظم الحوار. وحاول أحد زملائنا وهو اسماعيل النقيب، أن يجرح القذافي بكلام جارح. . ولكنني منعته عن الكلام. .

ولكن ماذا دار في هذا الاجتماع؟. .

كان الاجتماع ودوداً، وان كانت الآراء التي طرحت من الكتاب والمفكرين كلها معارضة للقذافي.

قالت له أمينة السعيد، أن مصر ليست شارع الهرم، وأن رواد هذا الشارع هم الليبيون. . وقالت إن المرأة المصرية أصبحت في وضع متقدم، ولن تفيد شيئاً من الوحدة مع ليبيا. وطالب أحمد رشدي صالح بالإنفتاح الثقافي على العالم لا الإنغلاق كما يفهم من كلمات القذافي، رغم أنه استخدم عبارة الإنفتاح. . وطالبه محمود أبو وافيه، بتحديد واضح عن تطبيق الشريعة الإسلامية. .

وهاجم القذافي في هذا الإجتماع الصحافة المصرية التي لا تنشر الكثير عن ليبيا، وطالب بتغيير قيادتها، ودافع عن فكرة اللجان الشعبية الثورية التي يرى أنها الديمقراطية.. وهاجم أمريكا والاتحاد السوفييتي.. وهاجم اليمن الجنوبية التي تطبق الشيوعية.. وقال: يفهموا ايه في الشيوعية؟.. وهاجم الأخوان المسلمون.. وقال أنه من أجل مصر.. لا يهاجم السعودية والكويت ودول الخليج على الرغم منه!

والخلاصة أن المناقشات، التي كانت كلها مهذبة، لم تسفر عن اتفاق مع القذافي في كل ما طرحه من أفكار..

وهذه هي خلاصة وافية للمناقشات كما جرت في اليوم الثامن من أغسطس عام ١٩٧٣.

بدأت الندوة بكلمة ترحيب مني، وقلت إن الندوة هي استمرار للأسلوب الديمقراطي في مناقشة قضية الوحدة..

ثم بدأ الحوار..

* الرئيس القذافي: إنني أشكر مؤسسة أخبار اليوم والرجال القائمين عليها ولا أشعر بأنني ضيف هنا، بل بين أخوة وفي بيتنا ونعالج قضية الوحدة من أجل مستقبلنا الواحد..

* موسى صبري: أرجو الأستاذ أنيس منصور أن يبدأ الحوار.. وأدعوه للكلام..

* أنيس منصور: موسى صبري أغناني وأغنانا جميعاً عن الترحيب بالأخ العقيد معمر القذافي.. وأريد أن أسأل الأخ معمر عن مفهوم النظرية الثالثة.. ما هو اجتهادك في هذه النظرية!

النظرية الثالثة

* الرئيس القذافي: طرح الأستاذ أنيس منصور لقضية النظرية الثالثة في هذه المناسبة دليل على أن لها علاقة بقضية الوحدة العربية. لأن النظرية الثالثة هي تنظيم لتطبيقات اقتصادية وسياسية واجتماعية ويمكن اعتبارها التحدي الفلسفي لقضية الوحدة أو قضية العالم الثالث..

إن ما يطبق في مصر يطبق بعد الثورة في ليبيا. وقد حاولنا تنظير هذا التطبيق. والتطبيق والتنظير مكملان لبعضهما. والتنظير ضرورة حتى لا نشعر بالفراغ وخاصة بين المثقفين الذين يتأثرون عادة بالنظريات الجاهزة.. وربما هذا ما خلق من بعض العرب شيوعيين أو تلاميذ للمدرسة الغربية..

النظرية الثالثة جانبها الاقتصادي هو الاشتراكية.. ومصر أول دولة اشتراكية في الوطن العربي. الميثاق تكلم عن الاشتراكية. ونحن نقول إن هناك نظاماً ثالثاً يختلف عن النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي. الرأسمالية أطلقت الحرية للملكية الفردية إلى ما لانهاية. والنتيجة أنها تحولت إلى طاحونة. وأصبحت الرأسمالية هي سبب الحروب والتعاسة في أجزاء كثيرة من العالم.

والشيوعية ترى حل المشكلة الاقتصادية بإلغاء الملكية الخاصة نهائياً. فتحول الفرد فيها إلى ترس في عجلة أيضاً. وأصبح الحزب الشيوعي في الدول الشيوعية هو الذي يملك السلطة والثروة، مثل الطبقة الرأسمالية في المجتمع الرأسمالي. نحن نبني من جديد، ولا نقبل نتائج الرأسمالية والشيوعية..

طريقنا هو الاشتراكية التي طبقتها مصر. ونحن نكمل التطبيق بالتنظير. إننا لا نعطل إرادة الفرد. إننا نريد الاشتراكية التي تتيح الفرصة لإرادة الإنسان أن تكون خلاقة باستمرار لحل قضايا المجتمع.

الاشتراكية تسمح بنزع الملكية أحياناً.. والتأميم.. وبوضع قيود على الملكية.. يعني أن المشكلة الاقتصادية خاضعة للظروف التي يمر بها المجتمع.

والاشتراكية يمكن أن تطبق في أي بلد في العالم. إسلامي. أو مسيحي. أو غير مسيحي. والأديان السماوية تؤكد على العدل الاجتماعي وتقاوم الاستغلال. وهذا موجود في الإسلام والمسيحية.

ونحن لا نقول اشتراكية اسلامية أو اشتراكية عربية. لأن الاشتراكية نظر اقتصادي يطبق في أي بلد.

أما الجانب السياسي في النظرية الثالثة، فهو يمثل الحياد الإيجابي والتعايش السلمي. وهذا موجود في مصر من ٢٠ سنة. وهو شيء في حاجة إلى تنظير لتحديد شخصية هذه الأمة.

إننا اشتراكيون، ولكن لا نقبل أن نكون في المعسكر الاشتراكي بقيادة روسيا. لأنه معسكر شيوعي وليس اشتراكياً. هنا مغالطة في التسمية. ولا نقبل أن نكون داخل العالم الحر بقيادة أمريكا . . لأنه عالم مستعبد ، وكلمة الحرية فيه مغالطة .

ووسائل الإعلام في مصر تخلط بين الاشتراكية والشيوعية. المعسكر الشيوعي ليس هو المعسكر الاشتراكي ، وكيف أقول بالحياد الإيجابي ثم أكون تحت لواء المعسكر الشيوعي أو الرأسمالي . . ودخول واحدة من الدول الكبرى في معسكرنا يعني أننا لسنا محايدين، هذا إفساد للحياد الإيجابي.

وتفسير التاريخ لنظريتنا، أن التاريخ يحركه الدين والقومية ولا يحركه الاقتصاد كما تقول الشيوعية. والشواهد في العالم على ذلك كثيرة. مثل الهند وباكستان. وباكستان وبنجلاديش. العامل الاقتصادي يمكن أن يتدخل. ولكنه تدخل ثانوي. وتفسير التاريخ على أساس الدين والقومية يقود إلى شيء هام، وهو أن القومية العربية تعتبر قومية انسانية وليست قومية عدوانية. الدعوة القومية في ألمانيا كانت دعوة عدوانية.

إننا أبعد ما نكون عن التعصب العرقي والتعصّب القومي. الدين موجود. والقومية موجودة. وإلغاء الدين والقومية لا يحل مشكلة قائمة فعلاً. وللقضاء على الحروب يجب احترام كل قومية للقومية الأخرى، واحترام كل دين لغيره من الأديان. ما دام الاعتداء على القومية وعلى الدين يسبب الحروب.

والجانب الفلسفي للنظرية الثالثة . . وهو ما يهم الاستاذ أنيس منصور . . أننا لا يمكن أن نضع الكتب السماوية التي تفسر ما وراء الطبيعة على الرف، وندخل بدلها كتب ماركس ولينين وسارتر أو غيرهم.

والدين هو الذي يجيب على ما وراء الطبيعة . . هو الذي يجيب على الكينونة والصيرورة.

لماذا خلق الإنسان؟ . . لماذا خلق الحيوان؟ . . الإنسان لا يستطيع أن يجيب. لا مكان هنا للاجتهاد. القرآن وضع إجابات صريحة لقضية الميتافيزيقيا. وليس هذا تعصباً للدين الإسلامي. وفي الميثاق تنظير إلى حد كبير للقضية

عندما تكلم عن الجانب الروحي والجانب المادي وعدم طغيان أحدهما على الآخر. يجب أن يكون هناك مصدر للنظام الخلقي، وإلا انعدم الفرق بين الإنسان والحيوان. . الحيوان يتصرف بغريزية. الدين هو مصدر النظام الخلقي. إننا نخاف الله ونتجنب الشر سواء كنا مسيحيين أو مسلمين. . الخوف من القانون لا يمكن أن يكون مصدراً لنظام خلقي. لأن الإنسان يمكن أن يتحايل على القانون. إننا نفعل الخير لأننا نخاف الله لا القانون. إن التحرر ليس التحرر من العدو الموجود في سيناء فقط. التحرر يجب أن يأتي من النفس ويتصاعد حتى تتحرر الأرض. كما يقول الله: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. التغيير يأتي من الداخل.

الخمر. القمار. الفقر. كلها تؤدي إلى استعباد الإنسان. سيطرة الفرد. سيطرة الحزب. . . هي استعباد يمنع من الاجتهاد، والحل هنا هو تحالف قوى الشعب العاملة. . وهذا ما أخذناه في ليبيا عن مصر.

هذه باختصار الخطوط العريضة للنظرية الثالثة.

* موسى صبري: هل يريد الاستاذ أنيس منصور أن يعلق. .

* أنيس منصور: لا. . . شكراً.

حقوق المرأة

* موسى صبري: من ضيوف اليوم الأستاذة الكبيرة أمينة السعيد. . وعندما دعوتها قالت لي أن شرطها هو أن تتكلم بصراحة عنيفة. . وقلت لها إن هذا أيضاً شرط الأخ العقيد القذافي. .

* أمينة السعيد: في الواقع. . عندما دعاني الزميل والأخ العزيز موسى صبري. . طلبت أن أكون صريحة، ولكنني لم أطالب بعنف.

«ضحك».

. . هناك أسئلة استفسر بها من الرئيس القذافي. . القطاع النسائي المصري في قلق شديد، والوحدة تثير فيه مخاوف لأكثر من سبب. الحركة النسائية في مصر عريقة بدأت منذ أكثر من ٥٠ عاماً، وقد انبثقت من الصراع

الوطني والصراع في سبيل الحرية، خرجنا من بيوتنا في ثورة ١٩١٩، قاتلنا مع الرجال. حاربنا الانجليز في ١٩ وبعدها. .

. . أنا شايفة الرئيس بيبص وراه وبيضحك خير إن شاء الله، يعني الشهيدة نبوية محمد وزميلاتها معروفين، كانوا من ضحايا ثورة ١٩ وبعد ذلك في جميع الثورات اشتركت فيها المرأة المصرية، وهي بلا حقوق ولا مكانة وأدت واجبها الوطني كاملاً . . ومن ثم استحقت ما أخذته من ميزات، أو من مكاسب، وأعتقد أن سيادة الرئيس يذكر ما قاله الرئيس جمال عبد الناصر لما أعطى بعض الحقوق للمرأة قال: اكتسبت المرأة هذه الحقوق بجهدها وبكفاحها الوطني.

إحنا وصلنا الآن إلى مكاسب عظيمة، مكاسب وصلتنا ودفعتنا إلى الأمام، بلا شك إلى مراتب نفخر بها في العالم العربي، ربما لا نفخر بمقارنتها بنساء العالم المتقدم. . ولكن بلا شك احنا كنساء عربيات قد اكتسبنا، أو احرزنا مكاسب كبيرة نفخر بها، ولكنها ليست كل المكاسب التي نريدها، بل كمجرد بداية نريد بها أن نكمل المسيرة.

الآن بعد كثير من الكلام الذي أخافنا وأزعجنا وأثار المخاوف في قلوبنا، أحب أن أعرف. . إذا تمت الوحدة، طبعاً نحن جميعاً ولدنا في بيوت وحدوية. العالم العربي الناضج كله وحدوي ابن وحدوي. وأنا عشت وتنفست، كما عاش أبي ومات وهو يحلم بوحدة العرب الكبرى.

فنحن أبناء الوحدة. . ونحن أبناء شعب واحد، ولغة واحدة، وحضارة وثقافة واحدة. .

ولكن ترحيبنا بالوحدة سيكون إذا كانت الوحدة تدفعنا إلى الأمام، إذا كانت الوحدة ستضيف إلى مكاسبنا مكاسب، والله سنموت في سبيل هذه الوحدة . **لكن إذا كانت الوحدة ستدفعنا إلى الخلف ، أو تحرمنا بعض مكاسبنا المحدودة ، فإننا سنكون في شدة الضيق والهم . ولذلك أحب أن أسأل الرئيس القذافي ما هي المكاسب ، أو ما الذي تعطيه الوحدة للمرأة إذا اندمجنا مع ليبيا . .**

ماذا تقدمه لنا الوحدة من أسباب الدفع إلى الأمام وفي الاستفادة بالمكـانة التي نريدها وهي مكانة المواطن الصالح الذي يخدم بلده بقدر ما يخدم الرجل، ويموت في سبيل بلده مثلما يموت الرجل.

* الرئيس القذافي: أنا أستغرب من وجود المخاوف. أو مـا هي العلاقـة بين الوحدة والخوف على المرة (ضحك وضجيج). .

* أنيس منصور: اختفاء الهمزة هو سبب الخوف.

* الرئيس القذافي: ليس هناك فرق بين المرأة والمـرة. . ونحن في ليبيا لا ننطق الهمزة. . فنقول هيه بدلاً هيئة. . وهكذا. .

* الرئيس القذافي: في البادية بصورة عامة لا ينطقون الهمزة.

(الضحك مستمر). .

* الـرئيس القذافي. . إذا كـان الخوف في الهمـزة بكرة نعمـل لكم همـزة كبيرة خالص. . (ضحك). . وفي الواقع مفيش أي داع للمخاوف يعني الواحد بيستغرب جداً. . جـداً. . تثار المخـاوف على مستقبـل المرأة. . كـأننا وحـوش عايزين يتحدوا مع آدميين. . حتى تقولوا ما مصـيرنا بـل أنا أؤكـد أن الميثاق في ليبيا يقيم لهم حقوقاً أكثر من الميثاق في مصر.

أنتم عندكم بيت الطاعة وعندكم الراجل يـطلق زوجته زي مـا هو عـايز ويحـرم أولادها منهـا. . بيحصل هـذا، إحنا مـا عندنـاش. بعد الثـورة وضعت تشاريع على أساس الدين الإسلامي. وتبين أن الإسلام ثورة خالدة فعلاً وثـورة دائمة وثورة عالمية تصلح لكل مكان وزمان وتعطي كل ذي حق حقه. . احنا ما عندناش هذا. إذا كان الرجل له الحق أنه يطلب الطلاق، فـالمرأة لهـا الحق في أن تطلب الطلاق من زوجها. ولا يوجد في ليبيا امرأة تقدر تجبرها علشان تبقى مع زوجها إذا كانت هيـة ما تحبـوش، أو فيه أي سبب من الأسبـاب المشروعة التي تدعو هذه المرأة لعدم العشرة مع زوجها.

واحنا بالنسبة للأولاد ما نرضاش الزوج أو المرأة تأخذ الأولاد بالقوة. فيه شرع وفيه أصول يتحدد على أساسه مصير الأبناء. يمكن العكس في الـوحدة إذا

سادت القوانين الليبية أو أخذت بعين الاعتبار سوف تتحقق مكاسب للمرأة أكثر مما تحقق لها الآن.

ليس عندنا فرق بين المرأة والرجل في المعاملات الإنسانية أبداً لأننا بنطبق الشريعة الإسلامية.

خوف المسيحيين في مصر من الوحدة:

إننا نضع الدين في مكانه الصحيح.. وكان فيه خوف من الوحدة حتى من المسيحيين في مصر. مش عندكم خوف؟!

ونظر الرئيس القذافي إلى موسى صبري وسأله: مش كان فيه خوف عند المسيحيين من الوحدة مع ليبيا!

* موسى صبري: ولا يزال.

(ضحك).

* الرئيس القذافي: لازم نقضي عليه الآن.. لازم نقضي عليه الآن.. هناك أكاذيب حول تطبيق الشريعة الإسلامية.. مثل ما نشرته صحيفة لبنانية مأجورة من أن وفداً لبنانياً وصل إلى ليبيا وفي المطار منعوا واحد مسيحي من الوفد من دخول ليبيا. رجعوه من المطار وهذا كذب ولم يحدث إطلاقاً.. المسيحيون موجودين في ليبيا. ولهم كنائس. والمسيحيون من كل البلاد في ليبيا.. ما نشروه هو صورة مشوهة صورة ساذجة. ولا أحد يصدق هذه الطريقة الساذجة..

في زيارتي السابقة لمصر قيل لي أن فيه تخوف من قبل المسيحيين في مصر.. تخوف من التعصب في ليبيا. وتكلمت عن هذه القضية في الاتحاد الاشتراكي.

أنا تكلمت عن تصورنا احنا للإسلام أو للدين، القرآن تكلم عن الإسلام.. موجود عندكم هنا أن المسلمين هم أتباع سيدنا محمد باعتبار أن سيدنا محمد مسلم.. وغيره مش صحيح.. روحوا للقرآن وشوفوا الآيات اللي تبين ان الذين مع عيسى وكانوا مع موسى كانوا مسلمين، إن سيدنا ابراهيم كان

مسلم ونـوح كان مسلم، آيـات في القرآن. . لما نجيب القرآن نـلاقيه مـوجود فيه. . حتجد في كل عصر من العصور الناس اللي آمنوا كانـوا مسلمين. . جـه سيدنا محمـد في النهايـة برسـالة الإسـلام. . باعتبـارها خـاتمة لكـل الرسـالات الإسـلامية. . بس إن كـان هذا بيسمـوهـا مسيحيـة. أو يهـوديـة أو بيسمـوهـا نصرانية. . دي تسميات. . فيه تفسير للنصرانية انها جاية من مدينة الناصرة. . إذن هـذه تسميات البشر لهـذه الـديـانـات. . لكن الـديـانـة في أصلهـا ديـانـة إسـلاميـة. . من أسلم لله سبحـانـه وتعـالى. . وأنـا قلت المسلم هـو من اسلم لله. . . من كـان يعبد الله عن طـريق الكنيسة، أو عن طـريق الجامـع. . وهذا التصـور مش عندنـا ده موجـود في القرآن واحنـا الآن بنـأخـذ القـرآن وبنفسره وبنشوف ايش يقول. . القرآن بيقول أن الإسـلام مش معناه الـلي آمن بسيدنـا محمد فقط، ولكن الإسلام يبدأ من سيدنا إبراهيم لغاية سيدنا محمد. . وكل هذه الأمم التي آمنت برسلها هي مسلمة. والرسل كلهم من الأنبياء المسلمين. وعليه فالتصور الإلهي للإسلام يختلف تماماً عن تصوركم أنتم هنا. . تصـور البشر. . احنـا منذ يـومين مـررنا عـلى مدينـة الفسطاط في مصر القـديمة. المسـاجد الـلي موجودة فيها والمآذن التي بنيت في صـدر الإسلام أيـام عمرو بن العـاص شبيهة إلى حد كبير جداً بنظام بناء الكنائس، حتى الهلال شفتوه مقفـول مثل مـا بيعملوا الآن وشكل المآذن زي الكنيسة بالضبط. .

أنـا قلت للرئيس السادات هـذا دليل عـلى أن في ذلك الـوقت ما كـانش المسلم يتحرج من الاقتراب من الكنيسة أو من التشبه بالكنيسة. ومعنى هذا أنه كـانت الكنيسة والمسجـد بيوت لعبـادة الله. . قريبـات من بعضها. وهـذا غـير مـوجود الآن، لأنـه فيه عـداء أكبر. . الكنيسـة والمسجد الآن يكـادان يكونـان في صراع. . وهــذا غـير سليم، لأن الإســلام الصحيــح أو المسلمــين في صــدر الإسـلام. . احنا مـا كانش عنـدنا هـذه النظرة إلى المسيحيـة لكن عندنـا الآن. . هذه غذّاها الاستعمار وغذتها اليهودية وغـذتها تجـارب كثيرة في التـاريخ أسـاءت للإسلام، وأساءت للمسيحية، وأساءت للدين عامة. . الإسلام مـا كانش بعيـد عن المسيحيـة بهذا الشكـل. لأنـه تعبـير إن الإسـلام خـاتم لكـل الـرسـالات والكنائس شبيهة بالمساجد. . والمساجد بنوها على غرار الكنائس، وكانوا في ساعة من الساعات بيعملوا الناقوس هذا إيذاناً للصلاة لغاية مـا غيروه وعملوا الأذان

هذا بدلاً من الناقوس. . معناه أنهم ما كانوش يتحرجوا انهم يعملوا الجرس في المسجد، وأن المسجد كان شبيه الكنيسة. . هذا التصوير عندنا احنا بهذا. . لأن احنا ثورة. . يتطور كل شيء فعلاً. . بنعيد النظر في موقفنا في كثير من النواحي. . بنفسر القرآن. . وبنشوف إيه. .

إذا كفرنا بعيسى فإحنا مش مسلمين، إذا لم نصدق عيسى وموسى ونوح وإبراهيم فإحنا مش مسلمين. وما دام احنا مسلمين، فإذن احنا أقرب لهؤلاء الناس. ويجب أن نوفر لهم احترامهم باعتبارهم قريبين منا. إن كنا أهل الكتاب ومؤمنين هذا ما كانش معروف في مصر. . وبالعكس كانوا يعتقدون أنه في ليبيا التعصب. إن الدين الإسلامي لا يدعو إلى التعصب، لأن الإسلام دين عالمي علني ما فيهوش تعصب بين الأسود والأبيض، كلكم من آدم وآدم من تراب. . ولا بالصفر ولا بالمسيحي ولا باليهودي ولا بالمسلم. .

الدين الإسلامي هو الدين العالمي المتسامح الذي لا يفرق بين أي واحد وواحد ـ بالعكس فيه تعصب عند اليهودية وتعصب في نواحي أخرى وربما عند المسيحية تعصب ولكن الدين الإسلامي ما فيهش. إذا سمعتم بأن واحد مسلم حقيقي ما تخفوش منه. . معناه انه ما فيش تعصب. . . لا تعصب عرقي ولا تعصب ديني ولا أي شيء من هذا، ولا تعصب للرجل ضد المرأة ولا من المرأة ضد الرجل. لأن هذا ضد الإسلام، إذاً كنا نحن مسلمين ورجعنا للإسلام سوف نجد أهل الأديان كلهم بيكونوا أسرة واحدة وكله متجه إلى إله واحد. . ونجد الذكر والأنثى والكبير والصغير كلهم في صف واحد وبيسود التعاون والاحترام والتآزر بينهم.

تفهم الإسلام من جديد:

إذاً احنا ما كناش مؤمنين فعلاً، ممكن واحد يغلب المرأة على الرجل، وواحد يغلب الرجل على المرأة، وواحد يغلب طبقة، وواحد يغلب دين على دين. . احنا في حاجة إلى تفهم الإسلام من جديد. . إحنا مش عارفين وثقافتكم من أين جاءت لكم. . لازم ثقافتكم جت لكم من كتب المستشرقين. . ومن التراجم اللي كلها مدسوسة. . اللي كلها من شأنها تفتيت وحدتنا الوطنية ووحدتنا

القومية ووضع الضباب على عيوننا.. وعليه لازم هذه الثورة الثقافية تبدأ من هنا. وفي ليبيا فيه ثورة ثقافية.. بدأت فعلاً لبحث التراجم وقمعها، لفحص كتب المستشرقين.. من المستشرق اللي كان صادق في كتاباته ومين اللي كان مدسوس علينا.. ولازم نشوف الإسرائيليات اللي دخلت في الدين، ولازم نشوف الأفكار السليمة وغير السليمة.. ولهذا فعلاً في الجمهورية العربية الليبية فيه إعادة نظر في المكتبات، في الإنتاج الأدبي والفني.. فيه إعادة نظر في المناهج.. فيه إعادة في المراكز الثقافية.. إعادة نظر في كل هذه الأمور الثقافية حتى لا يخرج جيل خاضع للتضليل.. ممكن يطلع عندكم جيل مضلل.. مضلل تماماً لأنه لم يعش ثورة ثقافية.

إن الخوف هو نتيجة سوء الفهم.. روحوا لليبيا وعيشوا فيها، وافهموها، وشوفوا أين هو الإسلام.

* أمينة السعيد: إحنا رحنا.

* الرئيس القذافي.. بدلاً ما ييجي واحد لشارع الهرم ويعتبر مصر دي شارع الهرم.. ضحك..

* أمينة السعيد: السيد الرئيس دائماً يعيرنا بشارع الهرم وما في شارع الهرم.. وأنا أرجو السيد الرئيس أن يزور شارع الأهرام.. وملاهي الأهرام.. ليرى من يتردد عليها..

* الرئيس القذافي: الليبيون طبعاً..

* أحد مرافقي الرئيس القذافي.. إمنعوهم..

الثقافة الإنسانية

* أمينة السعيد: لا لا نمنعهم إحنا بنعطيهم ما يرضيهم.. واحنا ناس منفتحين واحنا ناس بنقدر أمزجة الناس الآخرين.. (ضحك).. ولكن هذا الشارع ليس مصرياً إلا فيما لا يزيد عن ٥ في المائة. دي كلمة. والكلمة الثانية أنا سألت سيادتك ما هي المكاسب التي نالتها المرأة الليبية في الثورة.. وماذا تنوي الثورة إذا إتحدنا.. فسيادتك لم تقل شيئاً في هذا.. وأنا جت لي الحقوق

السياسية وجت لي الحقوق المدنية، وجت لي المساواة مع الرجال. . فماذا ستعطيني الوحدة فوق هذا؟؟ وماذا ستعطيني من أبواب التأكيد والحماية لهذه المكاسب حتى إذا لم يمكن الاستزادة منها.

النقطة الثانية اللي أحب أقولها لسيادة الرئيس بكل صراحة. هي إنني سمعته أكثر من مرة يحمل على الثقافة الغير عربية. وأنا باعتبر وأظن كثيرين يشتركون معي في هذا بأن الثقافة تراث إنساني وليست ملكاً لأحد دون أحد. هي ملك للإنسانية أينما وجدت، وللعالم أن يغترف منها ولكل من يريد أن يغترف منها. وأما الشعوب الصغيرة التي لم تتح لها الفرصة لكي تنال قسطها أو تصل وتبلغ الدرجة اللي تمكنها من الثقافة فمن حقها أن تغترف من ثقافة الآخرين. . بل واجب مقدس عليها وليس حرام أننا نأخذ من ثقافة الآخرين مادامت هذه الثقافة هي سبيلنا إلى التقدم. . وأننا نستطيع عندما نتثقف أن نميز ما بين الطيب والرديء، وأننا نأخذ بعد ذلك ما نريد. . لكن الثقافة تراث إنساني وليست حكراً. . وليست لفرقة دون فرقة وليست لشعب دون شعب. .

ثانياً ـ أنا سمعت كثيراً وسمعوا معايا السيدات بيقولوا تطبيق الشريعة حرفياً. أو قيل لي أن سيادتك قلت هذا في أكثر من مجال. تطبيق الشريعة حرفياً. . وأنا أحب أقول أن الشريعة الإسلامية بنت عليها أوروبا والغرب كله حضارته، وقد اعترف بذلك كله نابليون أعظم الرجال والمؤرخين، ومارسيل لوبلون وغيرهم من قادة الفكر. . قالوا من العرب أخذنا أصول التشريع وأصول الفروسية. بمعنى الشهامة مش الفروسية. . ركوب الخيل، وأخطر ما يمكن أن يوجه إلى الدين الإسلامي يعني أخطر دعوة أن يقال أننا حنطبق الإسلام حرفياً. . لأن حرفية النص وراءها فلسفة الهدف، والمعنى وراءه الروح الذي أملى هذا النص. . ومراعاة الروح مع النص من أهم ما يمكن، والإسلام دين الفطرة. . والفطرة هي الحياة والحياة في تطور مستمر. .

فإذا لم تستطع الروح اللي تقف وراء النص أن تحقق هذا التطور. . وتلحق المسلمين بركب الحضارة فلا يمكن أن يكون للمسلمين مستقبل . . لقد طفت العالم يا سيدي الرئيس ورأيت ماذا فعل التمسك بالحرفية في إيذاء الشعب الإسلامي وكيف أن التمسك بحرفية النص جمد الفكر وجمد

المسلمين. . وبعد أن كانوا قادة العالم تخلفوا، ورأيتهم في الهند وافريقيا وشفتهم في كل مكان. حتى عبدة البقر وعبدة النار، وعبدة القردة أصبحوا أكثر منهم حضارة وتقدماً وهذه محنة للإسلام. . اللي أوروبا والغرب كله بنى حضارته عليه. . ولماذا بنى حضارته وتقدم واحنا لا . . ؟ لأننا جمدنا عند النصوص ولأننا جعلنا لهذه النصوص قدسية. . حالت بيننا وبين تصريف أمورنا وتطورها مع الروح. . في حين أن أوروبا ما اعطتش لهذه التشريعات القداسة ولذلك أمكنها أن تتطور بها إلى ما يحقق رفاهية شعوبها. . هذا أكبر خطر يوجه للدين الإسلامي وهو الدعوة إلى الحرفية أو تطبيقه حرفياً. واحنا هنا بنعاني من الحرفية. . والعالم الإسلامي كله بيعاني من الحرفية. . لأن هذه الحرفية جمدت الفكر الآلهي، ومكنت قلة من الناس من السيطرة على المفاهيم الدينية بما لا يمكن أن يحقق الحضارة والتقدم. . واحنا مشكلتنا مع إسرائيل هي ليست معركة يهود ومسلمين، وليست معركة شرق وغرب. . هي معركة حضارية. . قلة متقدمة بتحارب كثرة متخلفة. . وهذه الكثرة كانت في يوم من الأيام بتقود العالم. . لكن لما جمد الإسلام عند النص تخلفوا وآل مآلهم إلى ما نراه الآن.

* الرئيس القذافي: هذا الكلام اللي بتقوليه الأخير ده هو نفس ما قلته في إجتماع الإتحاد الإشتراكي هذا الصباح. إننا يجب أن نناقش بعيداً عن الحرفية. مثلاً النص على قطع يد السارق. . يا ريت يجيب لنا واحد التفسير. . أو بتفسير له أساس على أن قطع اليد ليس المقصود منها المعنى المادي. نقبل هذا الجدل داخل الإسلام. . ولكن الذي أرفضه هو أن نترك الإسلام جانباً ونبني قواعد أخرى. . إننا نحكم بقوانين فرنسية وانجليزية وإيطالية وبلجيكية من حقي أن أرفض هذه المصادر. . ماداموا يرفضون القرآن، ويجب أن نشجع الاجتهاد في الشريعة الإسلامية. . الإسلام ثورة دائمة قائمة في كل مكان وزمان. . قابلة للتغيير. . قابلة للاجتهاد. . لكن أنا أحب أصحح معلوماتك في نقطة وهو مفهوميتك للثقافة. .

* أمينة السعيد: أن من حق كل إنسان أن يقتبس من القرآن. .

* الرئيس القذافي: عفواً. . لازم تصححي معلوماتك في الناحية دي. . فيه فارق بين إثنين. . فيه فرق بين علم وثقافة. . أن هذا الميكروفون مصنوع

في اليابان.. هذا علم.. يجب أن نأخذه من أي مكان ومن حقنا أن نتعلمه..

ده ملك للجميع.. عالم ياباني صنع هذا لا يمكن أن نرفضه لأنه ياباني.. لأن دينه يختلف عني.. هذا هو الجهل.. وهذا هو التعصب.. العلم ده ملك للجميع.. ومن الجهل أن نقول أن الصعود للقمر كفر..

أما الثقافة فهي موضوع آخر، لازم نفهمه..

* أمينة السعيد: الثقافة هي العلم والفن والأدب وكل المجالات..

(جمال وتراب وشيوعية!)

* الرئيس القذافي: الثقافة هي مجموعة سلوك بشر في ظروف معينة في مكان ما خاص بهم.. ما يصلح لهذه المجموعة من البشر من سلوك قد لا يصلح لغيرها.. ثقافة الأسكيمو مثلاً تبيح للزوج أن يقدم زوجته للضيف..

هل هذا يقبل هنا؟ هل نحن نأخذه ونقول هذه تجربة إنسانية.. وهذه ملك لنا جميعاً؟ طبعاً لا، ولكن يجب أن نقرأ عن عادات الأسكيمو وثقافة الأسكيمو وسلوك الأسكيمو.

والذي يحدث الآن أن شخصاً عربياً أو من العالم الثالث المتخلف يتشبه بالخنافس اللي في بريطانيا أو يتشبه بالهيبيز.. يجب أن نعرف ظاهرة الهيبيز كظاهرة إجتماعية أو نتاج الثقافة الأمريكية لها أسباب. وإذا كانت الأسباب غير موجودة عندنا.. فمن الغباء أنك أنت تأخذ هذا الشكل اللي هو نتاج ثقافة معينة وسلوك معين..

طيب المجتمع الأمريكي في آلة تطحن في الإنسان.. فيه ٥ آلاف قنبلة ذرية مخزونة.. فيه دولة أخرى تمتلك نفس القنابل والصواريخ العابرة للقارات، والإنسان الأميركي يعيش باستمرار تحت خوف اندلاع حرب عالمية ثالثة.. تنسف حضارته وتنسف وجود قارته كلها. الإنسان الأمريكي يعيش تحت خوف حرب فيتنام ـ وبأنه يرسل بالإكراه إلى فيتنام.. والإنسان الأمريكي بيعيش في تفرقة عنصرية شنيعة وده أسود وده أبيض.. دي ثقافة المجتمع الأمريكي.. التي أنتجت التفرقة والحرب.. والرعب.. أنتجت جيلاً يرفض

هـذا المجتمع . . فهـل نتحول إلى دولـة تقلد التقاليـع فقط . . نعمـل هيبيـز في الصعيد . نعمل هيبيز في الصحراء . **لأيه ده ؟ وفي اليمن الجنوبي اللي عندهم جمال وتراب وآل عايزين يبقوا شيوعيين ؟ بيفهموا إيه دول ؟ (ضحك متواصل) . .**

الأدب الإنجليزي والأدب الفرنساوي مثلاً . . الأدب الإنجليزي يعبر عن الذات من الداخـل ومغلق على نفسـه . والأدب الفرنسـاوي أدب مفتوح ويعـبر عن تفـاعلات الإنسـان مع البيئـة التي حولـه . . البيئة دي عنـدي مشكلة لازم تقـول البيئة بـالهمزة . (ضحـك متواصـل) . . زي المرة والمـرأة (ضحـك) لماذا يختلف الأدب الانجليـزي عن الأدب الفرنسـاوي؟ لأن الطبيعـة الانجليزيـة أو الطبيعة . .

إذن الثقـافـة الانجليـزيـة والأدب الانجليـزي لا يصلح للمجتمـع الفرنسي . . والأدب الفرنسي لا يصلح للمجتمع الانجليزي . والأدب العربي لا يصلح لغير العرب . والأدب الأمريكاني لا يمكن أن يصلح للعرب . . دي ثقافـة ودي ثقـافة . . وده ذوق وده ذوق . . . مثـل آخـر لهـذه الثقـافـة واختـلافهـا . . المـوسيقى . . اللي عنـده ذوق سليم لا يتذوق إلا المـوسيقى العربيـة ، وإذا كـان واحـد منكم يتذوق المـوسيقى الغـربيـة معنـاهـا أنـه عنـده شـذوذ في الـذوق . (ضحك) . .

جه واحد عربي من الدول الإسكندنافية في شمال أوروبا وجايب معـاه آلة موسيقية ومطول شعره قال لنا تعالوا شوفوا الموسيقى الجميلة يا متخلفين يا بتوع الربابة تعالوا شوفوا الموسيقى . موسيقى اليكترونيـة . . زي واحد واخـد صحن وقاعد يخبط عليه . وهذه هي الموسيقى الأليكترونية . . هل إحنا نتذوقهـا؟ . دي الثقـافة . . كـل واحد ليـه ذوق . . يمكن أن إحنا نتـذوق الـربـابـة والنـاي دي ثقافة . . ودي ثقافة . . يعني ثقافة قـوم لا تصلح لثقافـة آخرين . . واحنـا نقول أن الثورة الثقافية لازم تصحح هذه المفاهيم ، إحنـا عندنـا ذوق لازم نربيـه ولازم نحافظ عليه . إحنا عايزين ثورة على النفس . ثورة من الداخل . .

* موسى صبري : الحقيقة مادام الحوار قد جرنا لموضوع الثقافة فلا بد أن

نستمع في هذا للأستاذ رشدي صالح وهو من طليعة كتابنا الذين كتبوا عن هذا الموضوع، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن له آلاف المقالات والأبحاث.

الانفتاح . . والحضارة

* رشدي صالح : في الواقع أنا سعدت غاية السعادة عندما التقيت بالرئيس الأخ معمر القذافي لأول مرة في اللقاء الذي تم بينه وبين مجموعة من الصحفيين في روز اليوسف. سعدت لأني اكتشفت فيه نقاء ومثالية وصراحة شديدة واحتمالاً شديداً أيضاً للنقاش. . وسعدت لأن نبض الشباب ونبض الفكر كما لاحظته في مناقشاته كان واضحاً متجدداً. . وسعدت أيضاً بآراء كثيرة قالها عن تأهيل الطابع القومي لنا كأمة عربية وتأصيل الفكر القومي. . وتأصيل الشخصية العربية. . لكني أستأذن الأخ العقيد في إبداء بعض الملاحظات.

الملاحظة الأولى. . إن الحضارة العربية الإسلامية حينما أقيمت وأسست كانت فلسفتها الانفتاح على العطاء الفكري العالمي السابق عليها علماً وفلسفة وطباً وفلكاً ومختلف الاضافات التي أضافتها الحضارات السابقة. إتخذت منها الحضارة العربية الإسلامية وهي تبني موقف الانفتاح والقدرة على الاختيار. . الترشيد في الاختيار. بهذا استطاعت أن تفتح ذراعيها لفلسفات وحضارات وعلوم لم تكن مؤمنة بدين من الأديان السماوية. . ثم اتخذت منها موقفاً ناقداً. ومصححاً. . عن طريق هذا الحوار أضافت الكثير إلى الفكر الإسلامي العربي وأبرزت الشخصية العربية. . بفضل هذا الموقف إستطاع العرب أن يبنوا قوتهم الذاتية في العمران وفي الاقتصاد وغيرهما وأن يبسطوا كلمة الإسلام في الخافقين وأن يرفعوا دعوة محمد بن عبد الله زكية ظاهرة قوية مدعمة بهذا الانفتاح العلمي الكبير. . الآن نحن أمة معتدي عليها. . على أرضها وسيادتها. . وشخصيتها. . أمة تواجه عالماً لا يرحم. . فيه دولتان قويتان طامعتان، وفيه صهيونية جبارة وخبيثة. . وفيه علم باطش شديد. . لا نستطيع أمام ذلك كله أن نغلق على أنفسنا الأبواب والنوافذ أو أن نطارد الفكر أيا كان، وإنما ينبغي أن ننفتح على العالم. .

ينبغي أن ننفتح على الحضارة العلمية الحديثة. . ينبغي أن نتخذ موقف

الاختيـار الرشيـد من هذه الحضـارة. . وإذن فالثـورة الثقافيـة في مفهـومـي هي الثورة إلى أحسن. . إلى إنفتاح أكثر. إلى ترحيب بـالعلم والمعرفـة العلمية. إلى تأصيل للفكر العربي الإسلامي القومي. هـذا ما أتصـوره عن الثورة الثقـافية. ولن تكون الثورة الثقـافية مـطاردة لبعض الكتب أو حرقـاً لها أو تحكيمـاً للأدنى عـلى الأعلى. . لأنـه ليس من المتصـور أبـداً أن يحكم الـطالب عـلى أستـاذه أو القارىء على مفكر، وإنما يحكم المفكر على مفكر. . والأستاذ على أستاذ. . وبغـير هذا فإننا نعطي العتاد المدمر لرجل الشارع لكي يعصف بالفكر طيبه وفاسـده. وبهذا نتخلف في وقت نحن محتاجون فيه أشـد الحاجـة إلى أن نتسلح بالعلم. . والعلم ليس فقط القانون وليس فقط التشريع. ولا هو الدراسات الإنسانية، إنما نظريات وأصول المعرفة. . أيا كانت هذه المعرفة. . الطب له نـظريات وقـوانين يجب أن نعـرف أحدثهـا. . يجب أن نعرف الفلسفـة العلمية التي أنجحت هـذا التجريب وأفشلت هذا التجريب. أيضاً الفلك أو علوم الفضـاء. ونحن نعيش في علوم الفضـاء لا بـد أن نعـرف الفلسفـة التي وراءهـا. ولا بـد أن نعـرف نظرياتها. .

ومن الغـريب أننا لسنـا مهزومـين فقط، ولسنا مشتتـين فقط، وإنما نحن أيضاً متخلفون وفي حاجة إلى تنمية علمية واقتصادية واجتـماعية. ومن الغـريب أنني سمعت في الندوة الماضية تساؤلاً حول الموقف بـالنسبة للوطن العـربي. هل يكون الموقف منطلقاً من نقطة الوفاق واللقاء بـين البلاد العـربية لا في السيـاسة وحدها، وإنما في كل منـاحي الحياة اقتصـاداً وثقافـة وخبرات بشريـة. . أم أن يكون الموقف تفريقاً لهذا الصف العربي.

ورأيي أننا جربنا أن نقف موقف ضيق الأفق وكـانت النتيجة أن هـزمنا. وإنني أدعو الأخ معمر القـذافي. . وأدعو قـادة الثورة الثقـافية إلى الانفتـاح على العالم. . الإنفتاح على الخبرات العربية العلمية على اختلافها. . لأننـا في حاجـة إلى الإستفادة من هذه الخبرات. . خاصة أن عددها قليل. . وخاصة أنها تحـاول جهداً مستميتاً. أن تلاحق موكب الحضارة والعلم في عالمنا المعاصر. . .

وأخيراً فإنني أرحب بك هنا كـما رحب بك الأستـاذ موسى صـبري ضيفاً كريماً وأخاً كريماً. وكنت أتمنى أن تبدأ هذه اللقاءات مـرة ومرات قبـل الآن، حتى

نتعرف عليك وعلى فكرك وحتى تتعرف علينا أنت. فترى في مصر شيوخاً جربوا الكثير وأطلقوا الشعارات ثم وقفوا موقف النقد من نتائج هذه الشعارات، لأن التجربة كانت فادحة.. ولأن النتائج تدعو إلى التغير صوب الأمام.. صوب مزيد من الإنفتاح، صوب حياة أفضل والسلام عليكم..

* الرئيس القذافي: احنا مش مختلفين على الحاجات إللي تفضلت بها أبداً. ومافيش ناس في الشارع بنطلعها إلى المكتبات..

* رشدي صالح إحنا سمعنا أن بعض الأساتذة المصريين الذين لهم جهد كبير وخريجين ممتازين من الجامعة لقوا عنتاً شديداً.

حكاية الأستاذ المصري

* الرئيس القذافي: لا مافيش غير أستاذ واحد، يعني معروف واحد طردناه. ولا يهم إذا كان مصري أو ليبي. أنا لا أحب أتكلم عن قصة هذا الأستاذ، لكن أنا لا أنصح ألا يكون هو مصدر المعلومات عن الجمهورية العربية الليبية.. مش معقول. إنسان تضرر وتفرض أنه مظلوم يكون حاقد وجائر في أحكامه. يعني إذا كان مظلوم يبقى فعلاً لا يتخذ كمصدر. لكن هل معقول يعني مصر كلها بتسمعه.. يعني أستاذ مطرود وأوقف كام يوم وبعدين طرد مظلوم واللا مش مظلوم دي قضية أخرى قانونية.. لكن إنه واحد تضرر على أي حال تضرر.. هل من المعقول أنه يكون هو مصدر للمعلومات عن ليبيا.. هذا مصدر ماحدش يوافق عليه. السبب هو سكوتكم أنتم وعدم إطلاعكم على ما يجري في ليبيا. يعني لبنان بتطلع أكثر وفرنسا بتطلع أكثر. وبريطانيا بتطلع أكثر، وصحفها بتقدم للقارىء صورة حقيقية وتخليه يحكم. لكن إحنا هنا حقائق الأشياء عن ليبيا لا تنشر في مصر. وهذا تقصير من الصحافة المصرية. هذه مسئولية كل صحفي إختار مهنة الصحافة.. هذا تقصير في حق المواطن المصري هنا.. لأنه ما يقدرش يسافر إلى ليبيا ليعرف الأخبار. هو يقرأ كل يوم. بيقرأ أخبار اليوم.. بيسمع الإذاعة.. ما بيسمعشي فيها شيء.. **أنتم هنا لازم محتاجين لثورة ثقافية.. ثورة ثقافية لازم تحطم كل هذه المعوقات.. إللي تخلي القارىء ما عندهوش علم. أنتم غصب عنكم وهذا واجبكم.** مادام

إخترتم هذا المكان لازم تزودوه بالأخبار. مش عايزين تزودوه بالأخبار اتركوها لواحد آخر وأنتم اشتغلوا في السكة الحديد أو في الزراعة أو أي حاجة. (ضحك).. طبعاً إحنا بنلوم كثير على الصحافة المصرية..

* موسى صبري: (ضاحكاً) إحنا يظهر حنترفد كلنا بعد الوحدة (ضحك.. من جميع الحاضرين).

* أمينة السعيد: أنا آسفة أن شارع الهرم والثقافة المصرية نالوا من السيد الرئيس نقد أكثر من أي شيء..

لا نكفر بمصر

* الرئيس القذافي: ما دام زبائن شارع الهرم أغلبهم ليبيين.. يبقى الثورة الثقافية لازم تقف في ليبيا.. ما دام زبائن الهرم هم الليبيين. (ضحك)..

فعلاً.. أنتم مش عارفين ما يجري في ليبيا.. ما اتطلعتوش على ما يجري في ليبيا.. إن ما يجري في ليبيا مفروض يكون موضع فخار لمصر لأنه إمتداد لثورة مصر. إن ثورة الفاتح من سبتمبر إحنا ما بنقولش الثورة الرافدة.. إذن ما يجري في ليبيا المفروض أنتم تتبنوه هنا.. لأنه نتاج ما حصل في مصر. ليه تفرطوا فيه؟.. وليه بتفرضه علينا العزلة؟.. يعني أنتم بتقولوا لنا أنتم ليبيين لازم تنعزلوا عنا. ولازم تكفروا بيننا. ولازم تديروا ظهركم لنا.. يعني أنتم باستمرار تقولوا لنا ذلك.. وشوفوا الصحف متجاهلة. الإذاعة متجاهلة ولا ينشروا الشيء إللي ممكن يفيد.. إحنا بنجرب الآن وبنسجل خطوة جديدة في ثورة الفاتح من سبتمبر لازم تنشر وتذاع أخبارها.

إذا لم يتغير موقف الصحافة هنا.. بعد هذه اللقاءات وبعد هذه المرحلة نكون ما عملناش حاجة.. ولازم نشوف تغيير حقيقي أنتم روحوا حرروا الصحف الليبية.. روحوا ذيعوا في الإذاعة الليبية.. روحوا إنضموا للمقاومة.. رئيس اللجنة الشعبية للمقاومة.. رئيس اللجنة الشعبية بكلية التربية في الجامعة الليبية مصري. واحد من الأساتذة المصريين إللي في الصراع

داخل الكلية هو إللي أثبت وجوده ونجح في الصراع. . أساتذة ليبيين طردوا ولكن هناك وحدة حقيقية. . روحوا ذيعوا في الإذاعة الليبية. . روحوا خذوا جماعة يصلحوا الإعلام. . إحنا ناس بنبحث عن الخبرة. . بنعتمد على مصر الخبرة ، وبنعتبر ما تقوم به ليبيا إمتدادا لما يجري في مصر . . وإحنا الثورة الوحيدة إللي نحاول ما نخلهاش تكفر بمصر. . لكن فيه ضغوط علينا علشان نكفر. . ضغط باستمرار علشان نكفر بيكم. . واحنا مش عايزين نكفر بيكم. . وأنتم بتقولوا لا لازم تكفروا (ضحك). صحيح. . والله إحنا علينا ضغط كبير. . لكن إحنا منطلقين من مبادىء. . واحنا رافد لثورة ٢٣ يوليو. . إحنا جيل يجدد ثورة ٢٣ يوليو. . واحنا الوحيدين إللي باستمرار بندافع عن مصر. . وبندافع عن شعب مصر. . في كل البلاد العربية إحنا بنتخانق مع الجزائريين ومع اليمنيين ومع السوريين ومع العراقيين ومع السودانيين علشان مصر. . ساءت العلاقة بين ليبيا والسودان علشان مصر. . كلكم لازم تعلموا وتعرفوا إنه في عام ٧٠ لما قبلت مصر مشروع روجرز وشفتم رد الفعل إللي حصل من البلاد العربية كلها. . عدا الجمهورية العربية الليبية. وأنا جيت للرئيس هنا الله يرحمه. قال الرئيس. . والله أنتم أحرار شوفوا الموقف إللي عايزين تتخذوه، وكان متوقع أن إحنا حنجري ورا العرب. . وكل عربي يقولوا له ده مصر خلاص. . ومشروع روجرز ـ كفر ـ وبيع للقضية. . إحنا طلعنا بيان في صالح مصر لم ينشر إلا مقتطفات منه هنا في مصر. . طلعنا بيان وهو البيان الوحيد إللي طلع في البلاد العربية يعلن أننا لا نقبل حملات التجريح ضد عبد الناصر لأن عبد الناصر ما يمثلش شخصه. . يمثل ثورة الأمة العربية وآمال الأمة العربية ويمثل مرحلة تاريخية للأمة العربية. .

قلنا بالنص هذا. . وقلنا إن الصراع بيننا وبين اسرائيل هو صراع وجود. . صراع حضاري واحد منا لازم يبقى. . وواحد لازم ينتهي. . ما اتكلمناش مباشرة ضد المشروع لكن قلنا. . اننا نرفض إيقاف الصراع مع العدو. . لأن العدو الصراع بيننا وبينه لازم يستمر حتى ينتهي واحد منا وقلنا. . ان احنا لا نقبل التشكيك في مصر. . أو النيل من مصر في مرحلة من المراحل. . واحنا نعترف بفضل مصر على كل البلاد العربية ونحيي شهداء الشعب المصري على كل الأرض العربية. . قلناه بهذا الشكل في الجزائر. . في

فلسطين. . في اليمن. . في كل مكان كان فيه شهداء الشعب المصري. . وهـذا حقيقي مش تلفيق ولا تدليس ولا كذب. . الشعب المصري قدم ضحايا جمة في سبيل الأمة العربية وفي سبيل القومية العربية. . ضحى من ماله. . وضحى من دمه. . وفعلاً قام اليوم واحد في الاتحاد الاشتراكي وقال. . لـو احنا وفـرنا كـل الجهد وكل المال اللي صرفناه على الأمة العربية لكنا بنينا مصر قوية . . وهذا كلام صحيـح . يعني مصر ضحت في الجزائـر وضحت في اليمن وضحت في سـوريـا وضحت في العراق وضحت الآن في ليبيا وأنا باقـول للشعب الليبي. . ان مصر رغم مـا هي فيه الآن نـطلب مدرسـين بييجوا مـدرسين ونـطلب خبراء بييجـوا خـبراء. . نطلب وزيـر بيجي وزير. . نـطلب أي واحـد نـطلبـه رغم أن مصر مزنوقة ومحتاجة لكل شيء. .

أنـا طلبت دبابـات أول ما قـامت الثورة. . مـا كان عنـدنا ولا دبـابة. . طلبت دبابات عبد الناصر سحبها من الجبهة وجابت الدبابات في ليبيـا. . طلبنا جنود جاب لنا كتائب علشان تدربنا. . وهذا ما أؤكده للشعب الليبي. . بـأقول لهم شوفوا الشعب المصري. . وعارفين التركيز عـلى مصر. . الاستعمار بيشكـك في مصر. . الرجعية بتشكك في مصر. . كل واحـد بيشكك في مصر. . وبلدان عربية كبـيرة ذهبت ضحية هـذا التشكيك. . ونجحـوا فعلاً في عـزل مصر عن ثورات كبيرة ممكن تكون روافد لثورة مصر إلا احنا. .

أنـا بأقـول في ليبيا أن المصري هـو الوحيـد اللي مـا يتركش أرضـه. . ما تفكروش أن فلاح مصري حيترك الغيط بتاعه ويهاجـر إلى ليبيا. . ايش بيعمـل بليبيا. . من الصعب أنك تطلع واحد بالقوة من الأرض. . وده اللي جعل مصر بـاستمرار صـامدة لكـل الغزوات ولكـل الضغوط الـلي عليهـا. . ومصر دائمـاً تتمسك بالأرض. . ولذلك كانت مقبرة للغزاة فعلاً. . احنا بعد سيطرة الطليان لليبيا. . الليبيين فروا. منهم من جاء إلى مصر ومنهم من ذهب لتشـاد. . ومنهم من ذهب لتـونس. . بلدان كثيرة لمـا غزاهـا الأجـانب فـر أهلهـا وهـاجـروا. . الشعب المصري لا يترك النيل ولا يترك أرضه لذلك فهو شعب عريق. . ولهـذا فإن كل الغزوات لم تؤثر في مصر. . وعـايزين منكم عـلى الأقل لمـا نقولـوا احنا أنتم تكرروه هنا. . (ضحك).

* أنيس منصور: بس عايزين الليبيين يقتنعوا بيه. .
* أمينة السعيد: احنا عاوزين الشعب الليبي يقتنع به. .

* الرئيس القذافي: احنا طالبنا في ليبيا بنسخ من الصحف المصرية تطلع في ليبيا حتى تقضي على حاجة اسمها صحافة مصرية وصحافة ليبية. . عايزين تصدر في ليبيا صحف مصرية. طالبنا ان احنا نشبك الاذاعات على بعض بحيث تصبح إذاعة واحدة. . تذيع البرامج المصرية. . أنا بأقول لهم روحوا للريف المصري وجيبوا الموال المصري وجيبوا الربابة وجيبوا الأغاني الشعبية واعملوها في الاذاعة الليبية حتى تعرفوا الليبي بهذا الفن الأصيل. . وهذا هو الفن الأصيل اللي أنتم لا تذيعوه في إذاعتكم. . أنتم ما تزالوا تسمعوا الموسيقى الاليكترونية (ضحك) الموسيقى الغربية وغير الغربية. لازم تطلعوا الأغاني الشعبية. . تطلعوا الربابة وتطلعوا الناس على المواويل اللي شاطىء النيل والحاجات كلها علشان نسمعها. . هذه اللي بتعبّر عن الأصالة وبتعبّر عن الفن وعن الشعبية وتعبّر عن شعب مصر هنا. . واحنا اللي بنحطها في إذاعتنا وأنتم ما بتحطهاش. . ولو عملناها في إذاعتنا أنتم ممكن تشوشروا على الاذاعة. . (ضحك متواصل) لازم تغيّروا كل شيء. .

* موسى صبري: من ضيوف الندوة الأستاذ محمود أبو وافية عضو مجلس الشعب وعضو اللجنة المركزية وهو صحفي قديم منذ عشرين سنة. . وله كلمة. . وأنني أدعوه للميكروفون. .

عودة إلى الوحدة

* محمود أبو وافية: انني أحب أن أنقل الحوار لموقع أكثر قرباً من قضية الوحدة. . عندي ثلاثة أسئلة الحقيقة تحتاج إلى إجابات من سيادتك عليها. .

السؤال الأول صريح ومباشر. . سيادتكم تعلمون أنه كان في مصر تنظيم للاخوان المسلمين موجود من قبل الثورة وبعد الثورة. وتعلمون أيضاً الظروف اللي واجهت هذا التنظيم على اعتبار أنه كان بيعمل بالسياسة من واقع إسلامي. . هل يسمح لمثل هذا التنظيم بالقيام في ليبيا؟

حاجة ثانية متعلقة بنفس هذا الموضوع. . في دورة مجلس الشعب الماضية تقدم أحد الزملاء من أعضاء المجلس باقتراح ونحن في صدد سن تشريع حماية الأموال العامة. تقدم بتشديد العقوبة في جرائم اختلاس الأموال العامة إلى قطع يد السارق. . هذا الاقتراح حينما عرض في المجلس وكان تعديل بسيط في احدى المواد. لاقي تأييداً من عدد من أعضاء مجلس الشعب، ولاقى معارضة من عدد آخر، ولم يتبين رئيس المجلس الأغلبية في هذه الجلسة. . كانت صباحية. . فقرّر إرجاء الموضوع إلى جلسة مسائية لمناقشة أوسع. .

في المناقشة الأوسع طرح تساؤل: هل نحن نأخذ العقوبة دون ما علاقة بالاجراءات التي حدّدها القرآن الكريم. بالنسبة لإقامة الحد مثلاً؟. . يعني عقوبة قطع يد السارق وردت في القرآن الكريم. لم ترد مجردة. ولكنها وردت أيضاً بما هو ثابت في السنة وفي الشريعة الاسلامية من أنه لا يمكن فصل قطع يد السارق والعقوبة عن إقامة الحد، وهي من قبيل ما نسميه الآن قانون الاجراءات الجنائية وهو قانون وضعي بمعنى طريقة إثبات الجريمة نفسها. .

* * *

طبعاً طريقة إثبات الجريمة كما هو معروف. . وأسمح لي أن أضرب مثلاً وكلنا في هذا المقام على مستوى عال من الفكر والثقافة. . قيل لرسول الله ﷺ. . واحد جاله وقال له يا رسول الله لقد زنيت. . فقال له الرسول وكان يجلس مع بعض الصحابة. لعلك عانقت. . قال يا رسول الله لقد زنيت. . قال له لعلك قبلت. . قال لقد زنيت. . قال له الرسول ﷺ لعلك فاخذت. . قال لقد زنيت حتى ذقت ثمالتها. . فقال أقيموا عليه الحد.

معنى هذا أن درء الحدود بالشبهات مبدأ لا يمكن فصله بحال من الأحوال عن الأخذ بالعقوبة. فإذا ما أخذنا بمبدأ درء الحدود بالشبهات، وأعتقد في مثل هذا المجتمع المعقّد الكبير المتشابك عملية صعبة جداً. . وسنجد أنه يمكن ٩٠ في المائة من اللي بيقدمه من محاكم الجنايات تقطع المحكمة ببراءتهم لعدم ثبوت التهمة ثبوتاً ظاهراً وقاطعاً. . وطالما هناك شبهة في إقامة الجريمة أو في الادانة يجب البراءة في الحال حسب الشريعة الاسلامية. . هذا منطق أثير في

مناقشة المجلس، وكان من مقتضى هذه المناقشة أن رفض المجلس بأغلبية الاقتراح المقدم بالأخذ بمبدأ قطع يد السارق.

علمنا أن هذا المبدأ مقرّر إلى جمهورية ليبيا العربية وهو أيضاً معمول به في المملكة العربية السعودية ونحن نحتاج في الواقع إلى إيضاح أكثر من سيادتكم في هذه النقاط.

النقطة الثانية.. سيادتكم منذ سنتين تبنيت الدعوة الى قومية المعركة، ونذكر أننا تابعنا بقلوبنا وعيوننا وأنت تطوف عواصم الدول العربية داعياً إلى قومية المعركة.. اليوم بتجري في ليبيا ثورة شعبية.. وفيها نقدر قد لا تكون مقبولة من الدول العربية الأخرى. وبالنسبة لهذا الموقف.. هل تعتبر الدعوة إلى قومية المعركة.. وما زلنا في أشد الحاجة الى المعركة.. أصبحت دعوة الدرجة الثانية بعد الثورة الشعبية. ان الثورة الشعبية تأتي في المقام الثاني للمعركة.. هذا هو السؤال الثاني..

النقطة الثالثة بالنسبة للوحدة.. لقد كانت لنا تجربة فاشلة مع سوريا وكنا في أشد الألم وفيها نقرأ عنك أنك أنت أيضاً حينها علمت بالانفصال تألمت.. نعلم ذلك.. لا نريد إطلاقاً أن تتكرر هذه المأساة. ولذلك نحن نريد لهذه الوحدة أن تقوم على أسس قوية مفيش حاجة متكونش اندرست مفيش حاجة متكونش نوقشت، نرى اليوم دول غرب أوروبا تتجه نحو الوحدة ولكن على أساس من الدراسة والعلم الحديث حيث تتناول جميع الجوانب التي تنتهي إلى الوحدة الشاملة بين الدول كلها.. وبدأت مثلاً بالجمارك.. وبدأت بالعملة.. وهكذا.. واحنا بنقول أنه احنا أيضاً في مصر وفي ليبيا نتيجة الاختلاف الاجتماعي الموجود من زمان.. نتيجة أيضاً اختلاف في الثورة بين مصر وليبيا.. كل المسائل دي لا بد تندرس ولا بد تندرس على أساس أنه نبقى واضحين مع أنفسنا.. نبقى واضحين تمام الوضوح مع أنفسنا. مثلاً في ليبيا تجارة حرة.. القطاع الخاص حر في الاستيراد.. هنا. الاستيراد ١٠٠ في المائة للقطاع العام. موضوع توحيد العملة بين البلدين وسعر الصرف بالنسبة للجنيه الليبي واختلافه عن سعر الصرف للجنيه المصري. كل هذه المسائل يجب أن احنا نتفق عليها كشعب وكشعبين مع بعضنا داخلين في وحدة.

الموقف من الاخوان المسلمين

* الرئيس القذافي: السؤال الأول عن الاخوان المسلمين.. مش كده؟

* موسى صبري: سؤال مطروح الدعوة بتطبيق أحكام الاسلام.. الناس فاهمين هنا أنه هذا يتسع لتقبل الاخوان المسلمين في ليبيا. فيه ناس بتقول كده.

* الرئيس القذافي: احنا اتكلمنا كثير عن فلسفة الديمقراطية اللي طبقتوها هنا بتحالف قوى الشعب العامل.. إذا سمحنا للاخوان أنهم يعملوا حزب، معنى هذا أن الحزب سوف يسيطر.

.. يعني يريد أن يحكم. يبقى المجتمع تحت رحمة حزب، وإذا سمحنا أنه يسيطر على المجتمع، معناه أن طبقة تسيطر على المجتمع. يعني ممكن يحصل.. لكن الثورة أساساً قائمة في ليبيا لكي تمارس الجماهير السلطة بدون وصاية.. احنا ضد واحد يتصرف نيابة عن الجماهير..

يعني ثورة ٢٣ يوليو تخطت هذا لأن هي باستمرار تدخل مدخل ديمقراطي ويتمكن الجماهير من ممارسة الديمقراطية باستمرار. ولكن الثورة الشعبية قالها عبد الناصر.. قال: إن الثورة الثقافية ضرورية وسيأتي اليوم الذي أعلن فيه الثورة الثقافية، ودي قالها في اللجنة المركزية ومسجلة.. وقال بالحرف أني سأقوم بثورة على الثورة..

فإذا كان احنا سمحنا للاخوان المسلمين معنى كده أن ده حزب آخر. طبقة مثلاً.. ولا أعتقد أن الاخوان المسلمين يمثلون فلسفة إسلامية بالمعنى الصحيح.. اننا نعتبر الاخوان المسلمين عملاء الاستعمار والشيوعيين بنعتبرهم عملاء الاستعمار الشرقي.. فاحنا بنرفض هذه العمالة.. بنعتقد أن الاخوان المسلمين ضد الاشتراكية وضد الوحدة العربية وضد القومية العربية.. ضد صداقتنا مع روسيا.. لا بد أن يتحالف معاها الاستعمار الغربي.. الاستعمار ضد الوحدة يبحث عن أي واحد من الداخل ضد الوحدة.. والاخوان المسلمين هم أول ناس ضد الوحدة العربية لأنهم بينادوا بالوحدة الاسلامية.. هم ضد الاشتراكية، ولا بد الاستعمار يبحث عن واحد من الداخل ضد

الاشتراكية، يجد هؤلاء الناس. لا بـد أن يتحالف معهم بشكـل أو بآخـر. واحد ضد صداقة الاتحاد السوفيتي.. ضد الصداقة.. وأنـا أتكلم عن الصداقـة ولا أتكلم عن النفـوذ ولا المعـاهـدات ولا الاحتـواء ولا شيء من هــذا القبيـل.. بـاتكلم عن الصـداقـة.. أنـك تعـاملني معـاملة الند للنـد ـ هـذا مـا أقصـده بالصداقة.

تحالف قوى الشعب العامل.. للفلاحين والعمال والمثقفين والرأسمالية غير المستغلة.. دي كلها القوى المنتجة في المجتمع اللي هي تحالفهـا يحل محـل الحزب والطبقة النخبة والطليعة.. وكلها أنواع من الديكتـاتوريـة مرفـوضة.. والبـاب مقفول أمام أي تنظيم من شأنه التسلط على المجتمع. لكنه مفتـوح أمام تحـالف قـوى الشعب العاملة.. أنت عنـدك أفكار عن الاسـلام تخش في الحـال قـوى الشغل العاملة عندك أفكار عن الشيوعية بتخش في تحالف قوى الشعب العاملة وتعلـن أني متـأثر بكتـابة مـاركس مثـلاً رأيي كـذا وكـذا.. تتكلم لكن مش تعمل لي حزب وخلايا وتنظيم.. يعني معناها محاولة الاستيلاء عـلى السلطة.. ما فيش أي بلد تسمح بهذا.

واحنا علشان مصر مهادنين السعودية ومهادنين الكويت ومهادنـين الخليج ومهادنين تونس ومهادنين الدنيا كلها.. ومهادنين روسيا علشان مصر واحنا لولا مصر ما حدش يسكتنـا.. ما احنـاش محتاجـين لا للسعوديـة ولا للكويت ولـلا للخليـج ولا للاتحـاد السـوفيتي. أي واحـد من دول مـا احنـاش محتـاجـين لـه ومستعـدين إن احنا نحـدد موقفنـا منه. وعنـدنا أجهـزة اعـلام بتـوصـل لكـل العالم.. بيعرفونا لما بنتكلم. بتسمعنا الجماهير العربية وبنستـطيع أن احنـا نقلب عليهم الدنيا.. لكن احنا مش عاوزين مهاترات والحـرب الكلاميـة، وبعدين؟ علشان مصر مش عاوزين نعلن في هذه الفترة..

قطع يد السارق دي الحدود اللي وردت في القرآن.. يـا ريت يجينا فقيـه ويتحمـل مسئوليـة قطع اليـد ويجيب تفسير آخـر.. يـا ريت الفقهـاء والمشـرع الاسلامي يجيب لنا تفسير من داخل القرآن ويقول لا ده مش معناه كده.. احنا تفسير القرآن نقبله.. يا ريت يطلع واحد يقول التفسير الموجود في ليبيا خطأ.. لأن يـد السارق ليس معنـاها تقـطع بالسكـين ولكن معناهـا كـذا وكـذا.. يـا ريت..

* محمود أبو وافية: في القرآن الكريم مسموح الزواج من الجواري وما ملكت أيمانكم.. هذه الرخصة قائمة في القرآن ولكنها لا تستعمل الآن.. هي وجدت في القرآن واستعملت في عصر من عصور الاسلام.. استعملت بالفعل ولكن زي ما احنا متفقين جميعاً أن الاسلام دين متطور ودين يناسب كل زمان ومكان. في وقت من الأوقات أصبحت هذه الرخصة القائمة في الدين الاسلامي غير مطروحة لأن أنا لا أتصور أن فيه واحد النهاردة رايح يشتري الجواري علشان يتزوجها أو علشان تبقى ما ملكت يمينه..

اذن دي أيضاً قطع يد السارق في تقديري أنا هي رخصة أيضاً في ظرف كان يعاصر الاسلام في الأول. لم يكن هناك دولة حتى تقيم سجون تودع فيها المسجونين وتطعمهم.. يعني كان الأمر يحتاج. النهاردة اللصوص يتحبسوا في سجن، فينبغي أن يأكلوا.. يفطروا ويتغدوا ويتعشوا وفيه حراس عليهم.. هذا لم يكن في إمكان الدول الاسلامية الفتية في نشأتها، ولذلك رئى أن تقطع يد السارق ويترك.. النهاردة ما دام المجتمع الاسلامي تحضّر وأصبح قادراً على إقامة سجون أصبحت هذه الرخصة أيضاً كرخصة ما ملكت أيمانكم.. ممكن ما نستعملهاش هذا رأيي.. هذا رأي إجتهاد شخصي..

الرئيس القذافي: أنا أقول إذا كان فيه اجتهاد.. تفسير للقرآن بنقبل بيه.. يا ريت احنا كلنا نقبل الاسلام.. نقبل الشريعة الاسلامية مصدراً للتشريع.. أما أنك أنت ترفع هذا المصدر وتقول نشرع احنا برضة نرفض المصدر الآخر..

القانون اللي احنا عملناه قطع يد السارق مش معناه واحد جعان يسرق نقطع يده.. لا.. الجعان ده ما علهش لوم أبداً.. واحد محتاج وراح سرق نقوم نقطع يده لا.. ده ذنب المجتمع.. المجتمع لازم يوفر هذه الحاجات.. لكن قطع اليد يطبق على الشخص غير المحتاج وغير الجائع وليس في حاجة إلى هذا الشيء المسروق ولكنه يسرق. ولكي نردعه ونردع غيره لا بد أن نوقع به هذه العقوبة.. فعقوبة الجلد للزاني وقطع اليد للسارق هي العقوبات الوحيدة الزاجرة لهاتين الجريمتين.. منع الزنا ما فيش حاجة اسمها رجم. القرآن ما قالش رجم أبداً.. القرآن فيه جلد «الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة

جلدة ولا تـأخذكم بهما رأفة في دين الله» خـلاص. . قـال ميت جلدة. . ميت جلدة وفعلاً وجدوا أن هذه الجريمة ما فيش حاجة زاجرة لها إلا أنـك تجيب هذا الانسان أمام جمهرة أخرى وتجلده ميت جلدة. . يقـوم الحقيقة الـلي يعمل هـذا العمل أو اللي يسرق ده شخص هـو شاذ أو شخص هـو حقير يستحق ان احنـا لازم ننـزل بيه هـذه العقوبـة. . أنـك تسرق مـال بـدون وجـه حق وأنت مش محتاج. . هذا عمل يصدر من انسـان جرثـومة المجتمـع لازم نتصرف معاه غـير التصرف العادي. .

قومية المعركة

* مـوسى صبري: فيـه بعد كـده قومية المعـركـة. . وهـل تـأتي الآن في الدرجة الثانية بعد الثورة الشعبية؟

* الرئيس القذافي: طبعاً قومية المعركة مستمرة من قبل الثورة الشعبية. . قـوميـة المعـركـة واضحـة. وإذا كـان العـرب كلهم بملكيـاتهم بجمهــوريـاتهم بتقدميتهم برجعيتهم هم الآن في مواجهة العـدو المشترك يعني اسرائيـل قبل مـا تهدد القتال ممكن تهدد المدينة المنورة. . وفعـلاً ده مخطط ان هم يـوصلوا المدينـة المنـورة. . ممكن يهددوا الجـزائر. . ممكن يهـددوا أي بلد عربي زي السـودان. . دي قضية لازم نحشد لها إمكانياتنا المادية والمعنوية لمواجهتها. . إنـك أنت تدي فلوس وانك أنت تدي الـرجال. . لكن هـذه لا تغلي التنـاقضات الحقيقيـة اللي هي قائمة غصب عنا. .

التناقضات الداخلية قائمة ولكن غير متفجرة. . لما تنتهي مرحلة التحـرر القومي تدخل البلد في مرحلة التحرر الاجتماعي. .

لما نأتي للصراع في الداخل. . لازم الصراع بين الثورة وبـين الرجعيـة. . بين التقدمية وبين الرجعية. . إحنا قلنا نحب نـواجه اسرائيـل جنب الصراع في الداخل. ممكن نتفق على هدنة في الداخل لكن الهدنة لازم يكون لها ثمن وهي ان كلنـا نشترك في قـومية المعـركة. . نـأخذ من السعـودية كـذا. . من الكويت كذا. . من أبو ظبي كذا. . من تونس كـذا. . من الجزائـر كذا. . من المغـرب كذا. . من ليبيا كذا. . مطلوب لقومية المعركة أمام عدو مشترك. . المتناقضـات

فعلاً موجودة لكن بنجمدها. . قامت ثورة الفاتح من سبتمبر في مرحلة كانوا متفقين في مؤتمر الخرطوم على الهدنة ووحدة الصف ومرحلة الصمود ولغاية ما نخلص من العدوان. . لكن كانت الطبيعة للعمل في المنطقة لا تقبل بهذا المنطق. . كانت الثورة مستمرة. . كنا احنا من عشر سنوات بنظم، وجه وقت وانفجرت الثورة وحطمت الرجعية اللي كانت موقعة الهدنة في الخرطوم وقامت الثورة. . انتصرت الثورة. . الثورة الآن تعتمل في كل منطقة عربية. .

قومية المعركة ما زال إحنا بنقول مطلوب من الدول العربية انها تحشد كل امكانياتها للقضاء على اسرائيل.

احنا نقدر نعتمد على أنفسنا ونحمي أنفسنا من العالم كله. لكن إحنا كلامنا كله يتكلم على مصر. لا بد الكلام على مصر. هو الكلام لمصلحة القومية العربية. . الكلام على مصر مش علشان مصر فقط. . علشان مصلحتنا كلنا لأن القضاء على مصر قضاء علينا كلنا، وصمود مصر. . صمود لنا كلنا. . أعداء مصر هم أعداء هذه المنطقة. . أعداء مصر أعداء الثورة العربية. وانا قلت ان الرجعية لها مصلحة في بقاء الاحتلال. . لأن مصر هي اللي المستهدفة، ويؤسفني جداً أني أرى ترويج للرجعية في الصحف المصرية. مش عارف ليه؟

* موسى صبري: بعد أن يوضح الأخ العقيد النقطة الرابعة من تساؤلات الأستاذ محمود أبو وافية. . ندعو أحد ضيوف هذه الندوة وهو الزميل الكاتب الأستاذ عبد المنعم الصاوي نقيب الصحفيين لكي يعبر عن رأيه.

تجربة الثورة الفرنسية

* عبد المنعم الصاوي: الواقع أنا سعيد جداً بحضور هذه الندوة وسعيد أكثر باللقاء مع العقيد القذافي. . وهو يتدفق بالنبض الوطني الحقيقي. . القذافي بيمثل شباب جديد متدفق بالقوة. متدفق بالعزم وده اللي بيخلينا بنلتقي بيه حقيقة، ونحب مصارحته. يعني أرجو ألا يضيق من المناقشة لأن ده يمكن نتيجة حب له شخصي، ونتيجة تقدير له، وبالتالي كلما كنا حريصين عليه. . كنا أكثر صدقاً وأكثر صراحة في مواجهته بما نشعر به وبما نحسه.

مش عايز أطول أنا بانضم الى صديقي الأستاذ رشدي صالح في ضرورة

الانفتاح على العالم. وأنا يمكن بانتهز الفرصة وبأرد على ملاحظة بسيطة أرجو أن يتسع لها صدر الأخ القذافي وهي الخاصة بالموسيقى. هو حقيقة أضحكنا جداً على الخربشة الاليكترونية اللي موجودة في الموسيقى الغربية، لا بس إحنا أيضاً بنسعى الى نشر موسيقانا العربية.. الى نشر موسيقانا العربية في العالم كله.. وبعدين مخططنا كدولة وكأمة عربية أن هذه الموسيقى تنشر في كل مكان وبعدين حقول لسيادتك ما حدث.. أنا كنت في إحدى المؤتمرات في اليونسكو أخيراً وحكى لي مندوبنا الدائم السفير المصري الموجود في اليونسكو وقال لي أنه فوجىء بفرقة من الآلات الشعبية المصرية الأرغول والسمسمية وكل هذه الآلات راحت في فرقة ما يعرفش مين اللي نظمها.. وبعدين دعي وكان رايح وهو خايف جداً أن تثير التهكم بين الفرنسيين.. ورايحين بلبسهم المصري بالجلابية المصرية ورايحين بكل زيهم وبكل طعمهم الأصيل. وأول ما صعدوا على المسرح كان هو يرتجف من الخوف لأنه لأول مرة بيشوف هذا المنظر في باريس. فلم يمض أكثر من ثلث ساعة حتى شارك الشعب الفرنسي هذه الفرقة رقصاً وغناء وقعد يصفق لها بشكل حماسي منقطع النظير وبعد ما كان البرنامج عبارة عن ساعتين استمر أكثر من أربع ساعات. ليه؟ لأنهم قدموا الشخصية المصرية الأصيلة بشكل حقيقي فقابلت هذا الاستحسان حتى في الزي..

طيب إذا كنا بنطلب هذا وبنطلب ان العالم يستمع الى موسيقانا. فإنه من واجبنا ألا نرقص موسيقى الآخرين اطلاقاً خاصة وقد دخلت التراث الانساني، يعني أنا ما أقدرش استبعد أبداً من مكتبة مثقف مصري عربي الموسيقى الانسانية اللي استقرت في وجدان العالم. ما قدرش أقول لدارس للموسيقى العربية أنك تبقى درست الموسيقى العربية اذا استبعدت فعلاً الموسيقى الانسانية اللي استقرت كعلم وكحقيقة في وجدان العالم كله.. يعني في الحالة ديه يبقى ثقافته الموسيقية ناقصة. وبعدين ما يقدرش يتطور التطور العلمي المضبوط اذا لم يدرس كيف تطورت الموسيقى الغربية.. إزاي ضبطت.. إزاي وضعت في قوالب محددة.. إزاي كتبت النوتة بتاعتها.. إزاي ضبطت الآلات بتاعتها.. أكاديمية البحث العلمي في مصر تقوم بمحاوية للتسجيل الموسيقى بحيث تستطيع أن تضع ضوابط علمية لكيفية كتابة النوتة وكيفية صنع الآلات

بحيث ما نلاقيش عود مختلف عن عود ثاني. النهاردة كلها اجتهادية.. عملية قائمة على الارتجال..

أنا لا أستطيع يعني أنا بأستأذنك في إني أقول إن الانفتاح على العالم يعني أن نقبل الثقافة الانسانية.. نحن لسنا أعداء ثقافة انسانية.. نحن أعداء الثقافة الاستعمارية..

نحن أعداء الثقافة التي تفرض علينا متنافية مع قيمنا.. نحن أعداء الثقافة التي ترجح سيطرة الجنس الأبيض على سواه من الأجناس.. نحن أعداء الثقافة التي تدعو الى الاستعباد والى الذل. لكننا لسنا أعداء الثقافة الانسانية التي تدعو الى التحرر وتدعو الى سعة الأفق الانساني والتي تدعو الى ممارسة الانسان للنمو البشري فيه كإنسان يمارس حقه الطبيعي في النمو لهذا..

أنا أرجو. أنا بأستأذنك في تعديل بسيط لأنه بيفهم من الكلام الذي يلقى وأحياناً سيادتك بتبقى مندفع ويتبقى متحمس جداً وبيفهم من الكلام انه أنت من أنصار الانغلاق داخل منطقتنا في دولتنا المشتركة في الدولة الاندماجية الجديدة.. إحنا نرجو أن نقتنع معنا بأنه فيه انفتاح لا بد أن يتم وإحنا حقيقة لم نستطع أن نحقق حقيقتنا ووجودنا إلا عندما كان هذا الانفتاح حقيقة في حياتنا. عندما إنفتحنا على الثقافة الانسانية وأعطيناها وأخذنا منها..

إحنا والحمد لله أمة معطاءة كثيرة العطاء. اللي أعطيناه للانسانية أكثر مما أخذناه منها.. الأمة العربية هي التي حفظت التراث الإغريقي للعالم.. ضاعت المكتبة الاغريقية فلم يجدوها إلا في الترجمات العربية. عندئذ لا نستطيع أن ننكر هذا الدور في الأخذ والعطاء. وعلينا أن ندرسه بحيث نسمح بما يعطينا مزيداً من المد في ثقافتنا وفي وجداننا القومي ولا نحرم أنفسنا من التطور الانساني حيث يكون.. دي نقطة أولى..

النقطة الثانية هي أنه مع تقديرنا لكل دوافع الثورة ومع كل تقديرنا للجان الثورية والكتائب التي شكلت في ليبيا.. فإننا نخشى أنه عندما تفتقد هذه اللجان الضوابط..

يعني عندما تفقد المقاييس الحقيقة بتبقى المسألة خاضعة للاجتهاد

الشخصي. وبعدين الاجتهاد الشخصي ده يعني إحنا استفدنـا منه في تجـربتنا في مصر استفادة مهولة عندما اكتشفنا أخطاء بترتكب بإسم الثورة وبـاسم الحريـة. نـاس اتجروا بـاسم الثورة في وقت من الأوقـات وأصبحت الثـورة هي تجارتهم وأصبح الحديث عن الثـورة أو إدعاء الثـورة لغيرهم غـير مسموح بـه. ومن هنا استغلوا الموقف لحسابهم مما أدى بالـرئيس السادات أن يعلن ثـورة التصحيح. . لماذا؟. . لكي يضع الضوابط والقواعد والأصول.

هـذا ليس وفقاً للثـورة وللمد الثـوري، إنمـا ده تنـظيم طبيعي وقـانـوني وشرعي يقتضيـه الصالـح العام ويقتضيـه حق المحافـظة على أمن المـواطن وعلى حريته بحيث ما تبقاش الثورة وبالاً على الثوار ومـاتكلش الثورة ابنـاءها زي مـا حصل في كثير من الثـورات في عهودهـا الأولى. . الثورة الفـرنسية. . كـما تعلم سيـادتك أكلت ابنـاءها. أكلت زعـماءها. قضت عليهم بـدعاوي كلهـا كيديـة وبـترويـج الشـائعـات ولأنها خضعت لـلاعتبـارات الشخصيـة والاجتهـادات الشخصية، وده اللي أدى بيها الى الانتكاس. الثورة الفرنسية التقدمية أول ثورة في العـالم بتـطالب بحقـوق الانسـان واضـطرت أن تـرمي نفسهـا في أحضـان دكتاتورية. انتكس بها حتى استـطاعت أن تلتقط أنفاسهـا وأن تستيعد وجـودها كثورة قائمة على الشرعية وعلى المفاهيم الحقيقة المقننة. .

يعني إحنا محتاجين لشبابـك ولقوتـك ولحماستـك أن تقف مع الثـوار ومع الأحرار. ونحن نرجو أن تتم الوحدة وأرجو ألا يؤخذ هذا الكلام على اعتبار أنه تشكيك في الوحدة. .

إحنا مع الوحدة وينبغي أن تتم الوحدة، إنمـا ينبغي أن تكسب مع الـوحدة ومـع القيادة الـرشيدة الـلي سيادتـك اتكلمت عنها الصبـح النهـاردة وهي قيـادة رئيسنا السادات. . نكسب منها معمر القذافي كمدافع عن هذه القيم وكمـدافع عن هذه الحريات، مدافع عن الانفتاح على العالم الخارجي بحرية.

مدافع عن حرية الرأي. مدافع عن الضوابط الدستورية والقانـونية الـلي تحكم تصرفات الأفراد، وأنا في النهاية سعيد جداً بلقائك.

* موسى صبري: لقد تأخر بنا الوقت. . والمفروض أن يكـون رد العقيد القذافي هو التعليق الأخير في الندوة.

تأصيل الشخصية

* العقيد معمر القذافي: هذا الكلام للأستاذ عبد المنعم مفيش خلاف عليه أبداً.. والفرقة المصرية التي تحدث عنها نالت الإعجاب لأنها أثبتت شخصيتها المصرية وهذا نوع الصراع القومي.. وهذا ما نريده، والثورة ضد مسخ شخصيتنا. إنك أنت تطلع بجلابية لباريس ده ليس عيب ما دام ده زيي لازم أطلع بيه، ليش الهندي يطلع بالزي بتاعه في العالم.. الثورة الثقافية مقصود بها هذا الشكل..

أما إحنا ندرس.. لازم ندرس الموسيقى وفيه علوم انسانية ثانية. فيه علوم انسانية مشتركة كل الناس تلتقي فيها. هذه ما حدش يلغيها. لكن مش معناه نمسخ شخصيتنا وتحل محلها شخصية أخرى.. هذا اللي إحنا بنواجهه الآن.. لأن شبابنا ممكن يصبحوا هيبيز دون ما ضرورة.

التقدم مش في الزي وانك انت تقلد الغير في القشور.. صنعوا الطائرة إصنع الطائرة.. صنعوا المذياع.. إصنع المذياع.. صنعوا الكهرباء.. إصنع الكهرباء.. الثورة الثقافية هي أن لا نقبل ثقافة استعمارية. لا يمكن نقبل مسخ لشخصيتنا إحنا بنثبت هذه القيم. واللي قال التأصيل هذا مضبوط.. عملية التأصيل اللي عايزين نهتم بيه، وبدون ثورة ثقافية ما تحصلش..

أخطر شيء.. الغزو من الداخل، هو أخطر شيء، لكن الغزو من الخارج مهواش خطر.. ده بيحرك فيك عوامل التحدي. يعني وجود العدو في سيناء ده بيخلينا باستمرار نحشد إمكانياتنا ونتحدى ونرتفع الى مستوى التحدي هذا. لكن لما واحد يغزوني من الداخل.. لما واحد يفقدني ثقافتي، يفقدني إخلاصي قضى علي من الداخل، حط قنبلة في داخلي وتفجرت من الداخل وانتهيت أنا من الداخل. لكن لو بيجي لي من الخارج في يده سكين أنا حاتحداه.. إحنا الثورة الثقافية لازم نكون عندنا نفس من الداخل، ولما إحنا نكون أقوياء ثابتين إفتح معهد الموسيقى حتى حتى الغربية، ادرس الموسيقى أشوف التراث الإنساني اطلع عليه، لكن إحنا الآن في مرحلة مش قادرين نقف على رجلينا.. أي واحد يقدر يخدعنا.. يقدر يبتلعنا.. محتاجين لثورة ثقافية..

محتاجين الى ثورة شعبية.. الى أن الجماهير تثور في كل مكان لتمارس السلطة مباشرة.. وليس بالنيابة. محدش في مجلس الثورة ناوي يمارس السلطة سنة وسنتين وثلاثة بعد الآن نيابة عن الجماهير. في ساعة من الساعات بيجدوا الفرصة إن إحنا ندعي ان احنا نفهم كل شيء نيابة عن الجماهير.. وإن إحنا نعرف كل شيء ونعبر عن الجماهير.. وبالتالي أي تعبير من الجماهير حتى لو كان تعبير شرعي نعتبره معارضة ونتحول نحن الى سلطة دكتاتورية ضد الجماهير.

لكي لا نتحول الى دكتاتورية ضد الجماهير علينا بسرعة نبادر قبل أن يتأله المجلس.. إحنا ممكن تعبدنا الناس.. ممكن تترك لنا كل شيء، وتطلع مراكز قوة متطفلة علينا تسيء للجماهير زي ما حصل مع جمال عبد الناصر.. عبد الناصر الجماهير بايعته.. بكل قبضتنا عبد الناصر بايعناه؛ وما حدش يناقش عبد الناصر.. عبد الناصر إحنا عارفين إن هو مش حيعمل شر.. ولكن عبد الناصر هو بالتالي انسان.. لا بد أن يتعاون معاه واحد آخر في أشياء ممكن تخفي عليه.. وهكذا تكونت حوله أشياء أساءت للجماهير اللي بتحب عبد الناصر.. وعبد الناصر لا يريد الاساءة.. هذا اللي حصل.

* محمود أبو وافية: ممكن تعقيب صغير..

* موسى صبري: هذه مقاطعة

* الرئيس القذافي: تفضل إني مستمع..

* محمود أبو وافية: في الواقع لا خلاف بيننا في الحتة دي بالذات.. والكلام اللي بتقوله سيادتك كلام نحن مسلمين به.. الخلاف في نقطة واحدة فقط.. هو أن الجماهير الشعبية نحن نرى انها يجب أن تكون منظمة للاستيلاء على السلطة في شكل انتخابي.. أو في شكل تزكية من الجماهير.. بالانتخاب ولمدة محدودة تتولى السلطة.. أما أن الجماهير بنفسها تزحف لتحتل موقع معين فهناك خطورة أن يكون من بين هذه الجماهير من ينتمي عقائدياً لفكر ضد الثورة.. إذن هناك خطورة من ترك أمر الثورة الشعبية للجماهير.. علشان تذهب هي بنفسها وتحتل المواقع وتديرها.. آدي موقع الخلاف في الرأي. فهذه النقطة دي فقط هي تنظيم الثورة الشعبية في شعار أو في سياج قانوني دستوري ومن هنا كانت دعوتنا الى دولة المؤسسات.

* الرئيس القدافي: الثورة الشعبية منظمة تماماً، ولحد الآن لم يحصل شيء من الأشياء اللي أنتو بتخافوا منها. . الجماهير بتسيطر على مرفق وبتتخذ قيادة شعبية لها. وبتطلع دستور لهذا المرفق. بيصبح هو تقنين. . اللجان الشعبية منتخبة من الجماهير. يعني إحنا هنا في هذه المؤسسة بنصبح متساويين. . موسى صبري زي أي عامل موجود هنا، زي موظف، زي أي محرر كلنا متساويين. . إيش اللي بيحصل؟ بيحصل ان احنا بنعمل قيادة جديدة. . ممكن يطلع فيها موسى صبري. . ممكن ما يطلعش فيها. ممكن واحد كان تحت يطلع فوق. بيجي واحد يسأل. . أنت يا موسى صبري عاوزين منك كذا وكذا. . وبيطلع برضه الأستاذ موسى صبري ويتكلم عن واحد آخر يقول له أنت كذا وأنت كذا. . هذا الصراع يكون مستمراً يوم يومين، اسبوع اسبوعين، شهر شهرين. . تستمر الأوضاع بهذا الشكل. . ولكن مع شرط ألا يتوقف الانتاج. . حصل عندنا. . عامل واحد بمصنع التبغ سَكَّر المصنع. وطلب من العمال عدم دخول المصنع ليستمر الصراع لغاية ما ينتخبوا لجنة شعبية. .

هذا العامل الجماهير نفسها اللي قدمته للمحكمة. .

لا بد أن نقبل بعض التضحيات لما تدخل حتحرر سيناء حتحررها بأهلاً وسهلاً لازم تقبل التضحيات وتحررها. احنا مش عاوزين الواقع. احنا عاوزين نغير. نقضي على البيروقراطية ونقضي على مراكز القوى وبذلك نمكن الجماهير من الإستيلاء على السلطة. ولا بد أن نقبل بعض التجاوزات وبعض التضحيات لا بد منها دي مقبولة لا تساوي شيئاً أمام نجاح التجربة ككل. . لا نحكم على التجربة ببعض الأخطاء الصغيرة. .

الثورة الفرنسية فعلاً أكلت أولادها. . وفعلاً سيطر الرعاع والغوغائية على فرنسا بشكل غير منظم. . وهذا كان يمكن يحدث لو قمنا احنا ليلة الفاتح من سبتمبر وطلبنا من الجماهير أن تطلع وتحطم وتسيطر وتسيطر. . كان ممكن ناس تندبح وناس تتقتل وكنا فقدنا ناس كثيرة. . لكن هذا لم يحصل. الثورة الفرنسية في ١٤ يوليو هاجموا الباستيل. . وانتقلت العدوى إلى بقية المرافق، راح

كل واحد عند قصر أمير يمثل باستيل استولى عليه وقامت المجالس الشعبية في كل مكان واللجنة الوطنية وأقاموا المقاصل.

ولكن الحاصل الآن في ليبيا غير هذا طبعاً. اللجان واعية جداً وحريصة على الإنتاج.. اللجنة الشعبية للشركة الوطنية قررت الغاء عقود العاملين المؤقتة وجعلتها عقوداً دائمة.. أنتم عندكم فكرة مختلفة تماماً عن اللجان الشعبية..

ممكن تحصل بعض التجاوزات.. قالوا عن خلاف في الإذاعة زي ما أنتم نشرتم. ولم يحصل أي شيء ولا واحد قتل ولا واحد طردوه ودي تجاوزات بسيطة لا تقاس بنجاح التجربة لما تنجح.

.. ولازم قانون.. ولكن القانون الذي يمنع الجماهير من أن تسيطر مرفوض.. القانون اللي بيحمي البيروقراطية متحطم.. القانون اللي بيحمي مراكز القوى متحطم. القانون اللي بيحمي التخلف متحطم.. اللي بيضع حد للخلق والإبداع متحطم.. لهذا احنا قضينا على القوانين.. ولكن بعدين تقنن هذه الأمور بتقنين جديد.. بعدين سيادة القانون برضه.

القانون طالع مننا.. ممكن أي واحد يقدر يسن قانون ويقول سيادة القانون، ويقول ده قانون لازم يحترم.. لكن إحنا نبحث أول عن مصدر القوانين.. مصدر القوانين الأول. هل المصدر احنا متفقين عليه كمجتمع أم لا.؟ الحاكم والمحكوم في الأصل هم عبارة عن أفراد مجتمعنا.. ولكن في الأصل فلسفة السلطة هي عقد ما بين أفراد المجتمع وكل واحد منا يمشي في حاله.. أنا مش عايز سلطة، الحاكم ما يشعرش أنه أعلى من هذا الشعب.. ليه لأن المجتمع وزع الأدوار بهذا الشكل.

إنما مصادر القانون لا بد أن احنا نتفق عليها وبعدين نقتن.. وعمر ما فيه مجتمع يعيش بلا قانون.. لا بد يكون له قانون ولو العرف.. حتى بريطانيا ما عندهاش دستور عندها قواعد عرفية محترمة اتفق عليها الجميع.. احنا بنقول الحاجة ملحة إلى الشريعة الإسلامية فتبقى المصدر للقوانين.. الشريعة الإسلامية كلنا متفقين عليها.. وبعدين الحاكم يشرع منها ونعطيه الصلاحية واللي يخرج عن الشريعة يُقَوَّم بالسيف.. وهذا موجود في الإسلام.

* * *

* موسى صبري: سيدي الرئيس في ختام هذا الحوار الممتع حقيقة الذي استمر قرابة خمس ساعات نشعر فعلاً بعقدة الذنب أننا أرهقناك كثيراً.. ففي الصباح ناقشت ثلاث ساعات، وبالأمس ناقشت، وأول أمس في روز اليوسف. ونحن لا نحسدك على شبابك بل نسأل الله أن يضاعف من قوتك وصحتك وشبابك. ولعلك لمست فعلاً أن آراء كثيرة طرحت هنا.. وخلافات كثيرة طرحت هنا ولكنها طرحت فعلاً بقلب مفتوح وبعقل مفتوح وبعاطفة صادقة. وكل من حضر هذه الندوة استمتع بها. ولا أدل على ذلك من أن أكثر من ٥٠ زميلاً ظلوا واقفين على أقدامهم خمس ساعات.. ولم يشعروا بملل.. بل لعل فيهم طمع إلى مزيد..

بالنيابة عن أسرة «أخبار اليوم» عمالاً ومحررين نكرر لك الشكر الصادق الحقيقي من الأعماق ونأخذ عليك عهداً بزيارة لهذه المؤسسة في كل مرة تحضر إلى القاهرة..

* * *

وبعد كل لقاءات القذافي في مصر، التي ترك له السادات اختيارها كما يشاء.. عرف القذافي أن الشعب المصري، يرفض الوحدة الفورية ويرفض فلسفة الحكم في ليبيا، ويرفض اللجان الشعبية الثورية..

وعاد القذافي إلى ليبيا ضائقاً بهذه الحقيقة..

ونشبت حرب اكتوبر.. وأذاع القذافي بياناً يوم نشوب الحرب، بأن مصر سوف تخسر هذه الحرب!.. وكان غاضباً، لأن السادات لم يطلعه على خطة القتال، وموعده..

وكان لتصريحات القذافي أسوأ الأثر في مصر.. وفي مشاعر قيادات القوات المسلحة ورجالها، وقد عبر أحدهم للسادات عن ذلك بقوله، أنه كان يتصور عند سماعه إذاعة ليبيا أنها إذاعة إسرائيل.

ومع ذلك.. فتح السادات صدره لفرصة مصالحة أخرى مع القذافي.. وفي احتفال مجلس الشعب بتسليم الأوسمة العسكرية لقيادات حرب اكتوبر، دعاه لحضور هذه الجلسة..

وقد كان متوقعاً، أن يشن بعض النواب، هجوماً على موقف القذافي. . ولكن أحداً لم يطلب الكلمة، باستثناء العضوه فاطمة عنان التي صرخت بعبارات تندد بالقذافي. . وقالت لها السيدة جيهان السادات بعد الجلسة: لقد كنت الرجل الوحيد في الجلسة!

ومع ذلك، فلم تستمر هذه المصالحة طويلاً، وجرت أعمال تخريب داخل مصر. . وضبطت أكثر من مؤامرة. . ووجهت أجهزة الأمن إتهاماً إلى المخابرات الليبية. . وكان آخرها مؤامرة لاغتيال السادات، بتهريب بندقية بعدسة مقربة، مثل البندقية التي استخدمت في اغتيال الرئيس الأمريكي كينيدي. . وكان التهريب داخل سيارة في جمرك الاسكندرية. وقد عرض النبوي إسماعيل وزير الداخلية هذه البندقية على السادات الذي استدعى أسرته لمشاهدتها، وهو يقول لهم: معمر كان عاوز يقتلني بالبندقية دي!

واشتدت حملات الصحف المصرية على القذافي، وشاركت بقلمي في هذه الحملات بنصيب وفير. . وكان الكاريكاتير الذي يزعج القذافي، هو من أفكار أحمد رجب ومصطفى حسين. . «القذافي مع القصرية». .

وتولى حسني مبارك، ولم تنصلح أحوال هذه العلاقات. . رغم أن القذافي أرسل مبعوثين أكثر من ٢٢ مرة للقاء الرئيس مبارك، ورغم تدخل وساطات عديدة. كانت هناك أزمة عدم ثقة. .

وكان المطلب الرئيسي للعقيد القذافي هو إعادة فتح الحدود بين مصر وليبيا. . ولكن الأمور كانت تتأزم كلما لاحت فرصة للاتفاق. . وحدث أن استغنت الحكومة الليبية عن خدمات المصريين العاملين بها، دون أن تصرف لهم مرتباتهم أو تعويضاتهم. .

. وأعلن جلود أن هذا الإجراء مقصود به ضرب الإقتصاد المصري. .

والتقت وفود عديدة من المعارضة بالقذافي وجلود في ليبيا، وفشلت كل جهودها في تسوية مستحقات المصريين. .

ثم ألقى القذافي خطاباً قال فيه: أن الرئيس مبارك حشاش، ويتاجر في المخدرات!.

وكان ياسر عرفات من بين المستمعين لهذا الخطاب، ويذكر له أنه كان له دور في وساطة المصالحة المصرية الليبية.

واستمر الوضع متوتراً، إلى أن سافر الرئيس مبارك، إلى اجتماع القمة العربية في الدار البيضاء..

وكنت ضمن الوفد الصحفي المرافق للرئيس..

وكان الاجتماع حفلة تكريم لمصر، بمناسبة عودتها إلى الجامعة العربية.. وراجت إشاعات عديدة، عن لقاءات تمت بين الرئيس مبارك والقذافي وحافظ الأسد..

وفي لقاء خاص مع الرئيس مبارك.. فهمنا أن اللقاءات كانت ناجحة مع القذافي.. وكان وسيطها رئيس الجزائر.. وجرت مصارحات كاملة.. والطريف أن الرئيس مبارك قال للقذافي: هل كان يليق أن تقول عني في خطاب عام أنني أتاجر في المخدرات..

وتأثر القذافي.. وعاتب مبارك، أنه أحرجه أمام الرئيس الجزائري.. وقال له: هذه الأشياء نسويها فيما بيننا..

وكان هذا دليلاً على أن الثقة عادت بين مبارك والقذافي..

وبدأت صفحة جديدة في العلاقات..

والتقى مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين، مع العقيد القذافي، وأجرى معه حديثاً طويلاً، عند أول زيارة لمبارك إلى ليبيا.. وكانت تصريحات القذافي، تؤكد عدوله تماماً عن أي أسلوب إرهابي.. وقال إن التجارب غيرت كثيراً من مفاهيمه..

وأبلغني مكرم محمد أحمد أن القذافي حمله تحية لشخصي..

ونشطت العلاقات التجارية بين مصر وليبيا.. وفتحت فرص العمالة للمصريين.. وبدأت فعلاً صفحة جديدة..

ثم كان لقاء طبرق الأخير في مارس ١٩٩٠.. الذي حضره الأسد ورئيس اليمن الشمالية..

وكانت أجواء مودة.. وأشاد القذافي في خطابه، برفض مبارك للطلب الأمريكي باتخاذ مصر قاعدة للهجوم على ليبيا، رغم انقطاع العلاقات تماماً بين مصر وليبيا.. وتبادل الهجوم الإعلامي..

وكتبت مرحباً بالقذافي، عندما زار مصر، قبل اجتماع طبرق..

* * *

ملاحظة جوهرية.. أثبتها.. ولم أجد لها تفسيراً.

إن إذاعة ليبيا، أعلنت قبل وقوع أحداث أسيوط الدامية، بعد موت السادات، عن وقوع الأحداث.. وقالت أن ثورة شعبية قامت في أسيوط..

وقد اتصلت باللواء النبوي وزير الداخلية، استفسر منه عن هذه الأحداث، فاتصل بمدير أمن أسيوط، وأنا معه على سماعة التليفون، وأكد له أن كل شيء هاديء في أسيوط..

وبعد أيام وقعت الأحداث..

وليس عندي تفسير استنتاجي لذلك، إلا أن طرابلس الرسمية كانت على علم مسبق بهذه الأحداث.. ولكن تغير تاريخ وقوعها.. فأذاعتها خطأ قبل وقوعها..

وقد سألت أيضاً اللواء حسن أبو باشا، وزير الداخلية بعد النبوي، عن ذلك، فلم أجد لدي أجهزة الأمن في مصر، أية معلومات عن صلة ليبيا بأحداث أسيوط التي استشهد فيها أكثر من ١١٠ أشخاص، معظمهم من رجال الأمن، وذلك عندما حاولت الجماعات المتطرفة الإستيلاء على المدينة..

الفصل الثاني والثلاثون

٤٠ ساعة غيرت وجه التاريخ

في الطائرة إلى القدس مع السادات ـ المقاتلات الإسرائيلية تحيط بطائرة السادات! ـ استقبال المطار ـ حوارات مع ديان ومائير وبيريز وشارون ـ في فندق الملك داوود ـ البحث عن التوراة ـ في الكنيست ـ بين بيجين وزوجته ـ اجتماعات كل الأحزاب ـ مائير تداعب السادات ـ اجتماع دمشق مع الأسد ـ قرار باعتقال السادات في مطار دمشق ـ المطالبة برؤوسنا ـ قرار الزيارة بعد الإجتماع مع تشاوسيسكو ـ في جامعة فرمونت ـ رحلة حيفا ـ نافون رئيس إسرائيل يتراجع في بير سبع ـ فشل مباحثات الإسماعيلية ـ الرحلة إلى القدس مع إبراهيم كامل ـ لقاء مع بيجين ـ أزمة حفل العشاء ـ قرار من السادات بقطع المباحثات ـ ديان معنا في المطار حتى الثالثة صباحاً ـ مؤتمر صحفي مصري مع بيجين ـ إجابات بيجين مستفزة ـ رحلة شرم الشيخ ـ السادات في قمة الغضب: تصرف بيجين يعبر عن سفالة وانحطاط ـ أزمة كامب دافيد ـ خبر انسحاب السادات من كامب دافيد يحدث دوياً عالمياً ـ كيف حصلت على الخبر؟ ـ السادات يستريح لنشر الخبر ـ توقيع الإتفاق ـ السادات يستثمر استقالة إبراهيم كامل ـ السادات سبق عصره.

الفصل الثاني والثلاثون

٤٠ ساعة غيرت وجه التاريخ!

كان كل اهتمامي، وأنا في الطائرة التي تحملنا إلى إسرائيل لأول مرة في حياتي، مركزاً في مراقبة كل انفعالات أنور السادات.. ما هي مشاعره وهو مقدم على هذه الزيارة التي هزت أنباؤها مشاعر البلايين في العالم كله؟.. هل يفكر في الموقف العدائي الذي تحالفت به القيادات العربية ضده.. وما نتائجه؟.. هل يتوقع رصاصة مجنونة تصيبه داخل إسرائيل من متطرف صهيوني؟.. هل هو هادىء حقيقة كما يبدو؟.. ماذا سيقول عندما يمد يده للسلام على بيجين في مطار بن جوريون الذي سنصل إليه بعد أربعين دقيقة، منذ غادرنا مطار أبوصوير العسكري؟.. وماذا يرى في تخلف إسماعيل فهمي وزير خارجيته عن الرحلة. وقراره بالإستقالة؟..

كنت أتأمل وجه السادات، وأنا سارح بخواطري في هذه التساؤلات، بينما أحاط به أشهر رجال الإعلام في العالم الذين حضروا من أمريكا، ليصطحبوه في هذه الرحلة التاريخية التي يقوم بها رئيس أكبر دولة عربية، إلى أرض الأعداء، وبعد أربع حروب راح فيها آلاف الضحايا.. لكي يبشر بدعوة السلام؟!.

كان حوله والتر كرونكايت وبربارة والترز الشهيرة بمرتب المليون دولار. وبيتر جنس معلّق الـ A.B.C.، ووالتر وين ممثّل «تايم»..

ما هو شعورك الآن..

ويجيب بصوته الواثق:

ـ كما تروني أمامكم.

ثم هـزنا نحن المصريـين مشهد غـريب علينا. . تـابعته عيـوننـا بفضـول ساخن. .

طـائرات مقـاتلة إسرائيلية، تحيط بـطائرة الـرئيس. . لكي تصحبـه حتي الهبوط في مطار بن جوريون!

كان لهب هذه الطائرات، ظاهراً لنا من النافذة بجوار السادات!

وأسرع المصورون الأجانب لتسجيل هذا المشهد. .

أمـا نحن. . يوسف السبـاعي وأمينـة السعيـد ومـرسي الشـافعي ومحمـد عبد الجواد وهمّت مصطفى. . فقد التقت عيوننا في تسـاؤل صامت يقـول. . ما أغرب المفارقة!

وعندما هبطت الطائرة في الساعة الثامنة مساء ٢٢ نوفمبر عـام ١٩٧٧. . نـظر كل منـا إلى الآخر، وبمشـاعـر نعجـز عن وصفهـا، وتسـاءلنـا «هـل هـذا صحيح؟». . «هل هذا حقيقي؟».

الأنوار الكاشفة تضيء المطار كله على أكبر مشاهد التاريخ. .

آلاف متجمعـة في صدر المـطار. . في صفوف مـدرج كبـير يمتـد بعـرض المـطار كله، ومعـظمهم يحمـل الكـامـيرات. . ومعـظمهم تقـوم عيـونهم بـدور العـدسـات الكبـيرة!. . وكلهم في لهفـة شـديـدة وفـرح عـظيم وهم يـركـزون أبصارهم على باب الطائرة. . حيث سيظهر القادم الكبير. . عملاقـاً من القرن العشرين!. . ثم صفـوف حرس الشرف إلى يسـار المطار، تمثـل كـل وحـدات جيش إسرائيل. . الجيش الذي واجهنـاه بأروع صـور البطولـة. . الجيش الذي فقـد عشرة آلاف مقـاتـل في حـرب اكتـوبـر التي قـادهـا القـائـد الأعـلى أنـور السادات. . هذا الجيش قـد جاء بممثـلي وحداتـه، لكي يرحب بـالقائـد الذي انتصر، ويؤدي له التحية العسكرية!

ثم إسرائيل كلها. . بوزرائها، وقادتها، وأحزابها، ورجال الدين. . يهـوداً ومسلمين ومسيحيين. . والجامعات. . والعرب. . وكل الوجوه التي عرفها العالم متصلة بالحرب. . جولدامائير. . مـوشي ديان. . بـيريز. . شـارون. . رابين. . نراها أمامنا لأول مرة. . ثم رجال السلك الدبلوماسي ممثلين لدول العالم. .

كلهم من جلال الموقف، في حالة نفسية نادرة، لن تتكرر أبداً في التاريخ الإنساني!

ولعلهم كانوا يشعرون أن أقدامهم أعجز من أن تحمل أجسادهم.. ولعلهم كانوا يشعرون أن رؤوسهم بعقولهم، معلقة إلى الهواء.. ولعلهم كانوا يشعرون أن عيونهم ترى ولا تصدق.. ولعلهم كانوا لا يشعرون أن دموعهم ترقرقت على وجوههم بفرح عظيم، واضطراب عظيم!

هبط السادات من الباب الأمامي للطائرة...

وهبطنا من الباب الخلفي.. وعيوننا عليه.. وعلى المشهد كله..

المشهد كله، وكل هذه الجموع تهتف وتصفق لبطل السلام.. للزعيم الشامخ الذي امتدت قامته إلى ما لانهاية.. نعم، والحق أقول، أن أنور السادات في هذه اللحظات، وأمام هذه العيون، وأمام العالم كله الذي كان يشاهد هذه اللحظات من كل بقاع الأرض.. أنور السادات في هذه اللحظات.. لم يكن جسداً محدداً لإنسان.. كان هالة مجد، وعظمة، أكبر من هذا المشهد كله..

وتقول أمينة السعيد هامسة:

ـ هيا نسأل.. أين السيارات التي ستقلنا إلى القدس؟.. سوف نضيع في هذا الزحام..

وأقول لها:

ـ فلنكن آخر من يغادر المطار.. أننا نعيش التاريخ!

ويتقدم رئيس دولة إسرائيل الذي لم نكن نعرف اسمه..

ونعرف مناحم بيجين رئيس الوزراء من صوره.. قصيراً، بصلعة لامعة، ونظارة تخفي عينيه.. وأراه يبتسم ويقول للسادات:

ـ سيادة الرئيس.. هل تسمح أن تحيي هؤلاء الذين جاءوا من كل مكان، لاستقبال سيادتك في هذا اليوم التاريخي؟..

السادات:

ـ ولم لا؟.. هيا..

وأحشر نفسي وسط المزدحمين المحيطين بالسادات..

وألتقط بكل مشاعري وبصري المشاهد الخاطفة المثيرة..

رجال الدين اليهود، وكلهم في أكبر العمر:

ـ ندعو الله أيها الزعيم الشجاع أن يوفقك لإقرار السلام..

موشي ديان:

ـ مرحباً بك يا سيادة الرئيس.. هذا يوم خالد..

جولداماثير:

ـ كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل..

بيريز:

ـ قطعت رحلتي في أمريكا لكي أحيي سيادتك.. أحيي الزعيم البطل..

وأنور السادات لا يفقد أبداً، صفاء ذهنه، وانتقاء عباراته..

عندما رأى شارون قائد معرك الثغرة.. قال له الرئيس:

ـ كنت قد أعددت خطة لاصطيادك يا شارون.

. شارون:

زيارتك لنا هي أروع من كل خطة يا سيادة الرئيس.

وعندما رأى السادات، رئيس أركان حرب جيش إسرائيل، الذي صرخ منذ أيام، بأن قرار السادات، هو مجرد إعلان يخفي به قرار الحرب..

قال له الرئيس:

ـ لعلك وثقت الآن من أنني لا أخدع..

ـ لك كل الحق يا سيادة الرئيس..

وجاء من ينادي.. أعضاء الإعلام المصري.. هذه سياراتكم..

وركبنا في سيارات (ميني بص).. ولاحظت أن إلى جوار كل منا، إسرائيلي، أو إسرائيلية.. وجلست إلى جانبي من هي في قمة الجمال (رأيتها

بعد ذلك في أمريكا) . . وانهال كل اسرائيلي على كل مصري ، بالأسئلة المتلاحقة طوال الطريق . .

ـ ما رأي السادات في إنشاء دولة فلسطين؟. . هل تتوقعون الانسحاب الكامل؟. . ومن يعارض السلام في مصر؟. . وماذا ستفعلون مع الدول العربية. .

أسئلة مباشرة، تريد أن تعرف حقيقة نوايانا. . وماذا جئنا به إلى إسرائيل. وكلهم طبعاً سيقدمون تقاريرهم. .

وطوال الطريق. . والظلام حالك، إلا من أعمدة الكهرباء. . جموع متراصة من الآباء والزوجات والأطفال. . كلهم يحيّون الموكب المصري. . مبتسمين. . صائحين. . مهللين. . حتى وصلنا إلى الفندق. . فندق الملك داود الشهير. .

العيون كلها متطلعة إلينا. . كأننا قادمون من كوكب آخر!

* * *

وصعدت إلى حجرتي. . السيدة الإسرائيلية المسئولة عن الحجرة، تعرف العربية، وتصرخ بلا وعي عندما رأتني. . أهلاً بك، ثم تهتز في بكاء متصل. . وتشهق. . ويتضاعف بكاؤها. . اعذرني. . لم أكن أصدق. . هل صحيح أننا مقبلون على السلام؟. . هل أقول هذا في صلاتي لروح ولدي الذي فقدته في الحرب؟. . .

وأتلقى مكالمة من يوسف رزق الله. مترجم الرياسة. . لم تعجبه اللغة الانجليزية، التي ترجم بها خطاب الرئيس في وزارة الخارجية. . والذي سيلقيه في الكنيست (غداً) أنه يعيد الترجمة، ومعه كاتبة على الآلة الكاتبة. . إن في الخطاب آية من التوراة. . وهو يريد نسخة من التوراة باللغة الإنجليزية، لكي ينقل منها الآية، بدلاً من ترجمتها من العربية الى الانكليزية. .

ونزلت إلى مكتب الاستقبال. . سألت عن التوراة. . .

وأجاب الموظف: ليس عندي. .

وتقدمت سيدة إسرائيلية من موظفات الفندق:
ـ من يريدها؟..

قلت: الرئيس السادات.

قالت: صحيح.. سأذهب إلى بيتي على الفور لأحضرها..

وكانت سعيدة أنها تلبي طلباً للسادات!

وفي الصباح.. كان الفندق محاطاً بالآلاف.. الكل يتطلع إل رؤية السادات في طريقه إلى الكنيست متجهاً لإلقاء خطابه.. شباب. شيوخ. نساء. كلهم لم يتركوا الشوارع التي يمر بها موكب السادات، وهم يرفعون الأعلام المصرية.. ويحملون لافتات بالعبرية والعربية تحمل كلمات.. السلام.. نحيي بطل السلام.. ثم ورود يقذفوننا بها، والسعادة الكبرى على وجوههم، وفي أصواتهم وبريق عيونهم..

رؤى لا يتصورها عقل أو خيال..

وكل هؤلاء جنود في جيش إسرائيل.. وكلهم يتدرب على أحدث الأسلحة لقتال جديد.. يعلنون للسادات.. لا نريد الحرب.. نرجو انتصارك في معركة السلام.. وبعضهم ارتدى الملابس البيضاء، ورفع الأعلام البيضاء، ومعهم أطفال في عمر الزهور..

* * *

وركبنا أتوبيساً في الطريق إلى الكنيست..

وكان مع كل منا، نسخة من خطاب الرئيس.. وركب معنا صحفيون إسرائيليون، حاولوا بكل الطرق أن يحصلوا على نسخة قبل أن يلقيها الرئيس.. ولم نعطهم.. أساليب الصحفيين الإسرائيليين تشككنا في نواياهم.. هم يريدون اخطار بيجين بما سوف يقوله الرئيس.. هذا ما كنت مقتنعاً به، بسبب الحاحهم..

ودخلنا إلى الكنيست.. وأخذت أبحث عن الخريطة التي ترسم إسرائيل بحدود من النيل إلى الفرات.. وفي الزحام لم أستطع تبين موضعها..

وجلسنا في الشرفة، نرقب الوجوه، وتحركات الأعضاء.. ورأينا بيجين يشير بالتحية إلى سيدة تجلس في صف بجوارنا.. وعرفت انها زوجته.. ثم رأيت سيدة في الخمسينات من عمرها.. سألتني.. من أنت؟.. قلت: صحفي مصري واسمي كذا.. قالت: أريد أن أراك؟.. أنا زوجة رئيس الدولة.. وحددت لي موعداً في منزلها، لأتناول فنجان شاي.. ووعدت أن تبعث برسول يصحبني. وقيل لي من صحفي إسرائيلي مولود في مصر.. انها ليست طبيعية.. وهي مريضة عصبياً. وفي الصباح التالي تلقيت مكالمة بإلغاء الموعد..

ورأينا شامير رئيس الكنيست.. وعرفنا أنه من أكبر أعداء السلام!

وخطب السادات.. بصوته ذي الرنين.. وبوقفه ثابتة..

وكان بيجين يدون ملاحظات.. وكذلك بيريز زعيم المعارضة.. وصفق الجميع بعد انتهاء خطابه.. وتكلم بيجين مرتجلاً، ومستعيناً بنقاط كتبها.. وكانت كلماته صدمة لنا.. خطاب السادات في أعلى.. وخطاب بيجين على الأرض!.. وقيل لنا: اعذروه.. إنه لا يستطيع أن يقول إلا هذا.. إن له ثلاثين عاماً يخطب في الناس، بمعتقدات تهتز الآن..

ونظر بيجين إلى زوجته بعد انتهاء خطابه.. وابتسم عندما بدا منها أن كلماته أعجبتها!

وتكلم بيريز.. كان متوازناً!

وانتهى الاجتماع.. وانصرف الصحفيون.. ولكنني توجهت إلى حيث وجد السادات. بعد الاجتماع.. كان مقرراً أن يعقد اجتماعات خاصة مع مختلف المجموعات البرلمانية.. الليكود.. العمل.. الشيوعيون..

حضرت هذه الاجتماعات التي استمرت قرابة ساعتين. كان أطولها اجتماع الليكود.. تحدث ١٤ عضواً.. كلهم تحدثوا بلغة قديمة عن تأمين إسرائيل. لم تختلف كلمات اعضاء حزب العمل، باستثناء المداعبات بين جولدامائير والسادات. قالت للسادات: أنت تلقبني دائماً بالسيدة العجوز!.. وقدمت له هدية رمزية لأنها سمعت أنه أصبح جداً هذا الصباح.. قال لهم

السادات: أستطيع أن أتناقش معكم لساعات.. ولكن دعونا نطرح الماضي جانباً. لقد اتخذت القرار الصعب، بالحضور إليكم. وعليكم أن تتخذوا القرار الصعب. كل ما نريده لإسرائيل لأمنها.. أنا موافق عليه. ولكن لا توسع.. ولا عدول عن حقوق الشعب الفلسطيني في سبيل السلام. ولتكن حرب اكتوبر هي آخر الحروب..

عدت إلى الفندق.. تقدمت إلى سيدة، عرفت أنها مديرة بالفندق.. وجهها يعبر عن عمر أكبر من الستين. عيناها منتفختان وآثار الدموع تملأ كل قسماتها.. ولم تتهالك نفسها قبل أن تتكلم معي.. واهتزت في البكاء..

صدقني.. لقد فقدت وعيي تماماً.. لقد احتضنت التليفزيون دون أن أدري والرئيس السادات يتكلم.. لا أصدق.. لا أصدق.. سننعم جميعاً بالسلام.. هذا حلم!

اجتماعات في غرف الدكتور مصطفى خليل والدكتور بطرس غالي.. واجتماع مع السادات حتى ساعة متأخرة من الليل.. حضرها بيجين ووايزمان.. كلها حوارات لجس النبض.. لا نتائج..

عند الفجر.. السادات يؤدي الصلاة في المسجد الأقصى.. أمهات فلسطينيات يصرخن.. يطلبن الإفراج عن الأبناء السجناء.. ثم زيارة لكنيسة القيامة.. عالم جديد نراه أمامنا.. السادات يزور بعد ذلك رئيس الدولة.. ثم المؤتمر الصحفي الضخم ـ قبيل العودة ـ الذي حاول فيه بيجين أن يبدو متفائلاً بالسلام، حتى يبدد الأثر السيىء لخطابه الجاف..

في هذا المؤتمر كانت عدسات المصورين، تؤدي لعبة مع السادات.. كما كان السادات يلاعب أيضاً هذه العدسات!.. لقد فتن المصورين طريقة السادات في إشعال عود الكبريت، لكي يشعل دخان البيبة.. ثم ينفث دخانها بعمق وعلى مهل.. وكرر ذلك عدة مرات.. وكنت لا تسمع إلا أصوات تكتكة مئات العدسات.. وهي تسجل الحركة!

وعدت من مطار القاهرة، إلى سهرة عشاء في منزل أصدقاء.. كان عدد المدعوين كبيراً.. وتحولت السهرة كلها إلى أسئلة لي عن مشاعري.. وكانت

تعليقـاتهم في صـوت واحـد. . كنـا نضـع أيـدينـا عـلى قلوبنـا ونحن نشـاهـد التليفـزيون. . كنـا نخشى أن يقتلوا السادات. . كنـا نعد الـدقـائق حتى يعـود سالماً!

ماذا كانت نتائج هذه الرحلة؟

ولا أقصد هنا سلوك القيادات العربية أو قيادات منظمة التحرير. . فهـذا أمره معروف ومتوقع. . لقد وصفوها بالخيانة الكبرى!

وإذا جريت بسـطوري إلى المـوقف الآن في عـام ١٩٩٠. . أي بعـد ١٣ عـاماً. . نجـد منظمـة التحريـر تسعى إلى أن تحقق بعض ما حققـه السـادات. . الجلوس على مائدة مفاوضات مع إسرائيل، بعد أن اعـترفت المنظمـة بإسرائيـل وبقرارات مجلس الأمن التي كانت ترفضها!. . ولا يزال هذا المسعى متعثراً. . !

وهذه كلمة حق، يجب أن يعـترف بها، كـل من انزلقـوا إلى التهجم على السادات، والتحريض على قتله!

نعم. . لقـد بدأ التحـريض على القتـل، منذ عـودتنا من دمشق. . كـان السادات قد سافر إلى دمشق ـ وكنا معه ـ للاجتماع بالرئيس حافظ الأسد، لكي يقنعه بسياسته. . وقال له: إذا فشلت فإنني أتحمـل النتائـج. . فالنجـاح للأمـة العربية كلها. . وكان مطلب السادات من الأسد، أن يعارض. . هـذا حقه. . ولكن دون قطيعة أو خلاف. . وكنا نتصور في العودة من دمشق، أن الأسـد قد اقتنع بموقف المعارضة دون الخصومة. . ولكن إذاعة دمشق طالبت بـاغتيال كـل مصري سافر إلى اسرائيل. . ونشرت صحف البعث صورنا جميعاً. . واستمـرت في هذه الدعوة الشريرة. .

وماذا كانت النتيجة؟. . قتل يوسف السباعي في قبرص، وهو الذي أعطى أكبر جهده لقضية الشعب الفلسطيني!

ثم كان اغتيال السادات.

وقد سجلت في فصل سابق، أن حزب البعث، قرر خلال اجتماع السادات بالأسد الذي استمر حتى الفجر. . اعتقال السادات في مطار دمشق عند العودة!. . ولكن حافظ الأسد رفض هذا القرار عندما أبلغ به وهو يودع السادات!

وقد تعددت التساؤلات. . متى اتخذ السادات قرار السفر إلى إسرائيل. .
وأقول في حدود علمي، إنه اتخذه ونحن في الطائرة عائدون من رحلة إلى رومانيا. . بعد أن التقي بالرئيس الروماني تشاوسيسكو. . لقد زاره السادات، بعد زيارة سابقة لبيجين للرئيس الروماني واجتماعهما لأكثر من ست ساعات. وسأل السادات الرئيس الروماني: هل تعتقد أن بيجين جاد في تحقيق السلام؟. .

وكانت إجابة تشاوسيسكو: نعم. .

وأذكر أن السادات كلفني ونحن في الطائرة، بكتابة خطاب سوف يلقيه أمام مجلس الشعب بعد عودتنا، ومرورنا بالسعودية. . وقال لي السادات:

ـ أترك في الخطاب فقرة أخيرة، سأعلن فيها مفاجأة خطيرة. .
وسألته:
ـ ما هي هذه المفاجأة؟. .
قال:
ـ أتركها لي. .

وكانت المفاجأة هي اعلانه في مجلس الشعب، أنه مستعد أن يذهب إلى آخر الدنيا، إلى أي مكان. . ولو في عقر اسرائيل. . لكي يتحقق السلام.

* * *

إن نتيجة رحلة السادات إلى اسرائيل. . هي في اتمام هذه الرحلة.

هذا هو الخبر والأثر. .

ان الرحلة هزت العالم كله. . وبددت تماماً أن العرب وحوش يريدون إلقاء اسرائيل المحبة للسلام في البحر. ان رئيس أكبر دولة عربية، في يدها مفتاح الحرب والسلام، هو الذي قصد إلى العدو. . وفي يده غصن الزيتون. .

وأصبح السادات، أمل البلايين في العالم كله. . في تحقيق السلام.

وأذكر أنني سافرت الى امريكا، مع المرحومة زوجتي لاستكمال علاجها. . وما أن علم رئيس جامعة «فرمونت» حيث كانت تعالج في مستشفى الجامعة،

بأنني كنت مع السادات في رحلة القدس.. حتى دعا إلى حفلة غداء كبرى، لكي أتحدث إليهم عن رحلتي إلى اسرائيل..

وفي الطائرة من القاهرة إلى نيويورك.. كان كل الركاب يتقدمون الينا، عندما علموا أننا مصريون.. لتحيتنا، واعلان تقديرهم للسادات بطل السلام..

* * *

وقد سافرت بعد ذلك مع السادات في رحلته البحرية إلى «حيفا».. وكانت معه أسرته.. وكان الاستقبال الشعبي مروعاً.. وعندما اكتشف الاسرائيليون وجود كريمته الصغرى في أحد المتاجر، تجمع حولها الآلاف.. وسدوا كل الطرق أمام المتجر..

وقد دعانا الفلسطينيون الذين لا يزالون يقيمون في اسرائيل، إلى عشاء ثم سهرة تمثيلية في ناد لهم.. وخلال الحوار.. وقف أحد الداعين. وأعلن لنا أنهم يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية.. وأنهم يعيشون في ارهاب.. وان اجراءات تفتيشهم في المطارات عند سفرهم أو عودتهم تتنافى مع أبسط مبادىء احترام آدمية الانسان..

* * *

وسافرت مع السادات في رحلته إلى «بير سبع».. وكان استقباله الشعبي مروعاً.. ولكنه عدل عن خطابه المكتوب.. وارتجل كلمة رد فيها على كلمة «نافون» رئيس الدولة الذي يجيد اللغة العربية ـ وهو من أصل مغربي ـ عندما قال نافون: لقد أعدنا لكم سيناء، وتنازلنا عن حق استراتيجي. قال السادات في كلمات حازمة: ان أرضنا مقدسة، ولا يملك أحد أن يقول أنه يعطينا أرضنا. لقد حاربنا من أجل الأرض. وأكرر لكم أنه لا سلام مع الاحتفاظ بالأرض أو التوسع. السلام هو حياة جديدة، تبنى على الحب والتعاون واحترام حقوق الآخرين. وإذا أردنا السلام، علينا أن نبدأ صفحة جديدة، نتخلص فيها من الأفكار البالية القديمة.. أفكار التوسع والحصول على أرض الغير.

وارتبك «نافون». . وعندما جلس مع السادات بعد ذلك، اعتذر له، بأنه لم يقصد الإساءة. . ولكن السادات، في كلمته، في احتفال الجامعة به. . أكد أنه لا سلام إلا بإقرار حقوق الشعب الفلسطيني على أرضه كاملة. .

وفي هذا الحفل. . كانت هناك فرق موسيقية كبيرة. . وفنانة اسرائيلية تغني «أعدك يا ولدي. . أن هذه الحرب ستكون آخر الحروب». .

وقبل ذلك. . وفي ١٥ يناير عام ١٩٧٨. . كانت رحلتنا الثانية إلى القدس مع وزير الخارجية محمد كامل ابراهيم. . حيث ثارت أزمة كبرى، وأمر الرئيس السادات بإشارة لاسلكية من القاهرة، بقطع المباحثات، وعودة الوفد العربي إلى القاهرة. . رغم أن فانس وزير الخارجية الأمريكية، كان قد وصل إلى القدس. . للاشتراك في المباحثات. .

ولهذه الرحلة قصة سياسية طريفة. .

كانت مباحثات بيجين في الاسماعيلية مع السادات والجانب المصري. . قد انتهت إلى فشل واضح. واشترك في هذه المباحثات وزير الخارجية الجديد محمد ابراهيم كامل، الذي حضر من المانيا حيث كان سفيراً، وأقسم اليمين الدستورية في استراحة الاسماعيلية. . وليس صحيحاً أنه رفض أن يقسم اليمين، لأن بيجين كان موجوداً في مبنى الاستراحة. . بل إنه كان سعيداً بتعيينه وزيراً للخارجية. . وكانت هذه السعادة بادية عليه، كما رأيته بعيني. . وبشهادة حسن كامل رئيس الديوان. .

وأعقب المباحثات مؤتمر صحفي ضخم أقيم في سرادق كبير. .

ووضح في هذا المؤتمر، أن إعلامنا المصري يفتقد إلى التنظيم. . وأن صحافتنا لم تعد لهذا الأمر عدته. . وكانت الأسئلة الصحفية المصرية ضعيفة، باستثناء هدى توفيق مندوبة الجمهورية. . وكانت أسئلة الصحفيين الاسرائيليين منسقة وواصلة الى أهدافهم. .

ولم يتخل بيجين عن صلافته في اجاباته. . وكان لا يزال يطلق على الضفة الغربية. . الاسم العبري على أساس أنها من أرض اسرائيل. .

ولأول مرة يدلي عثمان أحمد عثمان بتصريحات سياسية للصحفيين

الأجانب، في السياسة الخارجية! ولكن السادات، أراد لهذه المباحثات ألا تكون نهاية المصير. . واقترح تأليف لجنة سياسية ولجنة عسكرية من الجانبين، تستمران في المباحثات. .

وبدأ انعقاد اللجنة العسكرية في مصر بعد ذلك. .

* * *

وتقرر أن تنعقد اللجنة السياسية في القدس. . وهكذا سافر محمد ابراهيم كامل، ومعه الدكتور عصمت عبد المجيد والدكتور بطرس غالي. . وأدلى في مطار بن جوريون عند وصوله ببيان أكد فيه الانسحاب الكامل وإنشاء دولة فلسطين. .

ومن هنا ثارت الزوابع. .

وعقد موشي ديان مؤتمراً صحفياً، قال فيه: إن اسرائيل لن تقبل التفاوض، والسكين المصري مغمودة في صدرها. .

وتكهرب الجو. . وفشلت أول جلسة للمباحثات. . وحضر فانس وزير الخارجية الأمريكي، وحاول انقاذ الموقف بتقديم صيغ مختلفة لإعلان بيان المبادىء في المباحثات. . ورفضت مصر كل الصيغ. .

واجتمع محمد ابراهيم كامل، بالمستر بيجين في مكتبه بالكنيست. . الذي كان قد أخلف وعده بعدم الادلاء بتصريحات تعوق المباحثات. .

وقال بيجين لابراهيم كامل: ان كل المباحثات تتعرض لخلافات. . ولكنني أرجو صديقي الرئيس أنور السادات الذي أكن له كل الاحترام والتقدير ألا يرمينا بتصريحات قاسية. . لقد صرح الرئيس السادات أنه طلب إلينا أن نحرق المستعمرات وهذا أمر يسيء لكرامتنا. .

ابراهيم كامل:

ـ ألم تحرقوا المنشآت في سيناء قبل أن تتركوها بالانسحاب. .

موشي ديان:

ـ هذا صحيح. . وأنا الذي أمرت باحراقها. .

ابراهيم كامل:

- إذن.. أنت الذي أسأت يا مستر بيجين.. عندما شبهت الرئيس السادات بالامبراطور نيرون الذي حرق روما..

بيجين:

- أنا لم أقل هذا على الاطلاق.. بل قلت أنه أجدر بالاسرائيليين والمصريين، أن يتركوا الحريق لنيرون.. وعلينا أن نحل خلافاتنا بالمفاوضات..

ابراهيم كامل:

- وكالات الأنباء، لم تنقل تصريحك بهذا الأسلوب..

بيجين:

- ظلمتني وكالات الأنباء.. أنا أكن كل التقدير والاحترام لصديقي الرئيس السادات.. ولكن صحافتكم توجه لي شخصياً اهانات قاسية، وتهديدات بالحرب .. أحد كتابكم (يقصد مصطفى أمين) شبهني بشيلوك مصاص الدماء في رواية شكسبير «تاجر البندقية».. وهذه الشخصية التي اخترعها شكسبير استخدمت أسوأ استخدام في العداء للسامية والتشهير بالشعب اليهودي.. وكاتب آخر (يقصد يوسف السباعي) هددني بحرب اكتوبر جديدة، ونحن نتحدث عن السلام.. إننا نؤمن بحرية الصحافة.. ولكن يمكننا أن نرجو الصحافة أن تقدر حساسية الموقف، وأن تساعد على خلق الأجواء الحسنة..

ابراهيم كامل:

- ان كل ما نشر وأذيع في مصر، كان رداً على مواقفكم التي أثارت الاستياء في مصر، أننا نرفض بقاء المستوطنات على أرضنا.. ومع ذلك.. فإن وزراءكم يطلبون بناء مستوطنات جديدة.. ثم نقرأ أن مجلس الوزراء قرر تعزيز المستوطنات الحالية. وهذا موقف استفزازي. ثم إنك تهدد بالاستقالة إذا لم تبق المستوطنات.. كما أنك تذيع فقرات مبتورة من أحاديث جرت في المباحثات الرسمية السرية في الاسماعيلية، وتريد بها فقط أن تؤيد وجهة نظرك. وهذا خارج على كل عرف وتقليد.

ودافع بيجين عن حسن نواياه، وقال: إنه لم يقصد ذلك على الاطلاق. وأنه كان يتحدث فقط في غرفة مغلقة إلى وفد من الكونجرس الأمريكي وهم الذين اذاعوا بعض كلماته. .

وانتهى هذا اللقاء إلى التزام من الطرفين بالتوقف الكامل عن التصريحات المتبادلة.

وعاد إلينا ابراهيم كامل في فندق الهيلتون. . وأبلغ الرئيس السادات عن طريق الخط الساخن بكل ما جرى. .

واستعددنا جميعاً، لحضور حفل العشاء الذي دعا إليه بيجين، تكريماً للوفد المصري، في أكبر قاعات الهيلتون. .

وكانت الأجواء مرحة قبيل العشاء وبيجين وقرينته، ومعه موشي ديان وقرينته يستقبلون المدعوين . . وكان بيجين سعيدًا . . وعندما سلمت عليه ، قال مجاملاً ومرحباً:

ـ اذن. . أنت رئيس تحرير أكبر صحف مصر. .

وقال لي ديان وهو يقدمني إلى زوجته:

ـ انها فتاة حسناء. .

وقلت:

ـ أعرفها من صورها. . وأنت أيضاً ألست زوجاً حسناً؟

فأشاح بيده مؤكداً ما معناه:

ـ يا ريت!

وقبلها كان ويزمان وزير الدفاع يقول لي:

ـ لقد اصطحبت معي ولدي الذي أصيب في حرب أكتوبر بما أعجزه، لكي يرى أن المصريين اللذين أصابوه بطلقاتهم ليسوا وحوشاً. . بل هم آدميون انسانيون مثلنا. . ولكنها الحرب. .

ثم قال ضاحكاً:

ـ الاتصال الشخصي سوف يحل كل المشكلات. . أؤكد لك أنني أحببت

الجنرال الجسمي، وأنني ازداد اقتراباً منه يوماً بعد يوم.. حتى أنني أخشى أن أضعف أمامه ونحن نتناقش في العمل.. أخشى أن يأخذ مني كل شيء..

وجلست في أجواء مودة وبهجة.. ووقف بيجين يتكلم:

وقال لي جاري الاسرائيلي:

- انه لن يفوت هذه الفرصة للكلام.. أنه محروم من موقع الصدارة منذ ثلاثين عاماً.. أنه الآن يعوض هذا الحرمان كل يوم بالكلام أمام العدسات..

وقبل أن ينتهي بيجين من خطابه كان الجو قد تكهرب تماماً..

لقد تحدث بيجين عن حق تقرير المصير، وقال أنه أسيء استخدام هذا الحق كما حدث في الثلاثينات من النازيين.. هذا الموقف لا يذكره وزير الخارجية المصرية لأنه كان صغيراً حينئذ.. أما جيلنا أنا ومستر فانس.. فإننا نذكر ذلك جيداً.. وسخر من تصريحات ابراهيم كامل في المطار عند وصوله..

لقد أراد أن يظهر وزير الخارجية المصرية أنه «عيل»!

وتوقف محمد ابراهيم كامل، واشرأبت إليه كل الأعناق، وحل صمت رهيب..

لقد تكلم دقيقة واحدة فقط.. قال إن مستر بيجين أراد أن يحول هذه المناسبة الاجتماعية إلى جلسة مباحثات.. وإنني أكرر أن ما قلته في المطار، يشكل الأسس التي لن يقوم سلام بدونها.. وأنني أستطيع الرد على كل ما قاله بيجين.. ولكن مائدة العشاء ليست مكان ذلك.. ولذلك فإنني احتفظ بآرائي لأقولها في مكانها الصحيح وشكراً.

وجلس دون أن يدعو إلى شرب الانخاب تحية للداعي.. كما فعل بيجين تحية للمدعوين.. ودوت القاعة بالتصفيق..

وعدنا إلى الفندق، في هذا الجو العصبي.. ليتلقى ابراهيم كامل أمراً من السادات بقطع المفاوضات والعودة فوراً إلى القاهرة.. ثم أبلغني الدكتور عصمت عبد المجيد بإشارة من السادات، بأن أتوجه إلى لقائه فور وصولي إلى القاهرة، للاعداد لخطاب يلقيه السادات في مجلس الشعب.. وأذيع أن السادات دعا المجلس إلى عقد جلسة طارئة!

وبدأنا في اعداد الحقائب. . واتصل كارتـر من واشنطن بـالسادات، كـما اتصل به فانس في محاولة للانقاذ. . ورفض السادات. .

وذهب معنا موشي ديان إلى المطار. .

وخرجنا وكانت صالـة الفندق قـد امتلأت بـالمئات من الاسرائيليـين الذين بـانت عليهم دلائل الحـزن الصارخ لفشـل المباحثـات. . وودعـونـا بعـواطف هادئة. .

وسألني التليفزيون الاسرائيلـي: ما رأيك فيما حدث بين بيجين وابـراهيم كامل. .

وقلت: أراد بيجين أن يبتلع ابراهيم كامل. . ولكن وزيرنا أكله. .

وانتظرنا في المطار حتى الثالثة بعد منتصف الليـل. . بسبب تأخـر وصول الطائرة المصرية الخاصة. . وكانت أحاديث ديان معنـا إجتماعية. . وكأن شيئاً لم يحـدث. . وتكلم كثيراً عن ابنتـه التي تحترف الكتـابـة، وتكسب من قلمهـا. . وكان حريصاً على أن يأكل «عجة» من البوفيه!

وفي الصبـاح كنت في اسـتراحـة القنـاطـر أتلقى نقـاط الخـطاب من السادات. . وكان ابراهيم كامل قد انتهى من لقائه مع السادات بحضور ممدوح سالم. .

* * *

وأقـول إنني استفـدت من هـذه الـرحلة التي لم تستغـرق أكـثر من ليلتـين كثيراً. . لقد رتبت مع زملائي اجتماعاً في حجرتي بالفندق مع مستر بيريـز رئيس حزب العمل وزعيم المعارضة. . وتناقشنا في كل شيء، بلا قيود، وبالتزام بعدم النشر. . واستطعنا أن نفهم أنه رجل سلس، يحسن العبارات الطيبة الخادعـة، ولديه حلول وسط. .

ورتبت اجتماعاً مـع مستر بيجـين اقتصر على الصحـافة المصريـة. . وكان الاتفاق أنه ليس للنشر، ولكن بيجين أذاعه دون علمنا. .

وفي هـذا الاجتماع، فهمنـا تمامـاً، أن مجرد الجلوس إلى بيجـين هو عبء

ثقيل، وان الاستماع إليه كفيل بإثارة الأعصاب..

وأضرب مثلاً واحداً..

قلت له:

ـ اننا لا نفهم يا مستر بيجين تصريحات ومواقف متناقضة لك.. وعلى ذلك أمثلة عديدة.. لقد التزمت مع وزير الخارجية المصرية بوقف التصريحات لتوفير جو النوايا الحسنة للمفاوضات.. وبعد ساعتين نقضت هذا الالتزام مع أنك كنت الداعي لمأدبة العشاء.. بل أردت أن توحي أن وزيرنا لا يزال صغير السن وهو في الرابعة والخمسين.. وهذا له معناه.. ثم تمسكت بكل مواقف اسرائيل ضد الانسحاب الكامل وتقرير المصير..

ورد بيجين:

ـ هذا سؤال عدواني للاستفزاز.. ومع ذلك فانني أشكرك لأنني أريد أن أوضح موقفي..

ثم أكملت له الأمثلة:

ـ أنت تقول أن كل شيء قابل للمفاوضات.. ومع ذلك تهدد بالاستقالة ولا أن تجلو المستوطنات عن سيناء!.. ثم أنك صرحت في التليفزيون الأمريكي بعد لقائك بالرئيس كارتر بأن تعبير الحكم الذاتي في الضفة الغربية يتماثل مع تعبير تقرير المصير..

بيجين (مقاطعاً):

ـ لم أقل هذا..

قلت:

ـ عندي النص الكامل لتصريحاتك يا مستر بيجين..

ثم أكملت:

ـ ولكنك في مباحثات الاسماعيلية، وعندما ووجهت بتصريحاتك من الدكتور عصمت عبد المجيد أنكرت تماماً أنها صدرت عنك..

وأجاب مستر بيجين إجابات طويلة جداً، وهذا هو أسلوبه في مناورة

الحوار. انه يخرج بك من قصة إلى قصة إلى رواية التاريخ.. حتى تضيع النقطة التي تريد الاجابة عليها..

قال ان تصريحات الرئيس السادات وصلت خطأ إلى القدس، ولم تصحح إلا بعد أيام. وأنه التزم بعدم الكلام. ولكن ما قاله على مأدبة العشاء هو تصريحات سياسية وليست تصريحات تفسد المفاوضات.. وكيف يقول وزير خارجية مصر وهو على أرض اسرائيل أنه يجب تقسيم القدس عاصمة اسرائيل. هل أستطيع أن أقول في مصر أنه يجب تقسيم القاهرة؟

قلت:

ـ إن مصر لا تحتل القاهرة يا مستر بيجين.. والقاهرة ليست من أرض الغير!.

بيجين:

ـ لا تقاطعني.. من حقك الرد بعد أن أتكلم..

وأفاض في شرح الاهانات التي لحقته من وصفه بأنه شيلوك في الصحافة المصرية.. وهذه حرب للسامية!.. وتهرب من الاجابة على تناقض موقفه الآن. مع تصريحاته للتليفزيون الأمريكي.. ومضى يعدد المزايا والتساؤلات التي قدمها لعرض الحكم الذاتي في الضفة الغربية، أنكم لم تعرضوا الحكم الذاتي على غزة..

وقاطعه علي حمدي الجمال رئيس تحرير الأهرام:

ـ أنت تعرف يا مستر بيجين وضع مصر بالنسبة لغزة، وغزة ملك للشعب الفلسطيني لا لنا.. ونحن نطالب لهم بحق تقرير المصير..

بيجين:

ـ أنا الذي قدمت التنازلات.. أنا قدمت السيادة الكاملة على سيناء.. وأنا قدمت الحكم الذاتي للضفة الغربية.. أما أنتم فماذا قدمتم.. أنتم لم تقدموا شيئاً على الاطلاق..

وهنا قاطعته:

ـ ألم يقل الرئيس السادات في خطابه أمام الكنيسة.. أننا مستعدون

للاعتراف باسرائيل. . وأننا مستعدون للاعتراف بحق اسرائيل في الوجود. .

وقاطعني:

ـ لا تغضب يا صديقي وأنت تتكلم. .

ـ أنا مبتسم يا مستر بيجين. .

وإذا به هو الذي يتكلم في حدة بعد ذلك.

ـ نحن لم نطلب، ولا نطلب. اعتراف أحد بإسرائيل. لسنا في حاجة إلى هذا الاعتراف. ونحن لا نطلب اعتراف أحد بحقنا في الوجود. اسرائيل موجودة. دولة مستقلة لها سيادتها. . من قال إننا طلبنا هذا؟

قلت:

ـ أنت إذن لا تريد علاقات طيبة بين اسرائيل والدول العربية. . أعرف أن هذا أول مطالبكم الملحة. . وكيف تكون هناك علاقات بغير اعتراف؟

وتهرب بيجين من الاجابة بأسلوب المناور البرلماني. .

* * *

وكانت رحلتي الخامسة والأخيرة. . مع السادات للقاء بيجين في شرم الشيخ. . وكانت لا تزال تحت الاحتلال الاسرائيلي. .

كان بيجين يخوض معركة الانتخابات. . وكان بيريز يتهمه بأنه أساء إلى علاقات اسرائيل بكل دول العالم. . وآخرها ألمانيا الغربية. وحتى السادات. . فإن بيجين أساء العلاقات معه. .

وكان السادات يتمتع بشعبية مكتسحة في اسرائيل، على أساس أنه بطل السلام. . وهذه الكلمات من بيريز يمكن أن تؤثر على الرأي العام الاسرائيلي ضد بيجين. .

فأرسل بيجين مبعوثه شارون إلى السادات في القاهرة، حيث قابله في استراحة القناطر. . وحصل منه على تصريحات متعاطفة مع بيجين، نشرتها صحف اسرائيل، في صفحاتها الأولى. .

ثم وافق السادات، على أن يجتمع مع بيجين في شرم الشيخ. . كدليل

على حسن العلاقات بينهما. . وكان الاجتماع تحت ستار إجراء مباحثات! والحقيقة أنه لم تكن هناك أي مباحثات. . وأن الاجتماع بهدف تأييد بيجين في الانتخابات. وكاد بيريز أن يجن من ذلك!. . كان يطمع أن يسانده السادات. . ولكن السادات، رغم اعترافه بأن بيريز فيه مرونة سياسية مفتقدة في بيجين . . فإنه يفضل التعامل مع بيجين . . لأنه زعيم قادر على إقناع الشعب الاسرائيلي بما يتفق عليه . صحيح أنه متعب ، مرهق للأعصاب في تعامله ، وفي المباحثات. . إلا أنه قادر على تنفيذ الكلمة التي يعطيها .

وركبنا الطائرة مع السادات إلى شرم الشيخ. .

وتم الاجتماع في مبنى صغير. . ولم نرّ في شرم الشيخ إلا فندقاً عادياً جداً أقامته اسرائيل، ومحطة للغطس. . والباقي صحراء جرداء. .

وأدلى السادات وبيجين بتصريحات مؤداها أن المباحثات مستمرة بينهما لخير البلدين!

وبعد يومين فقط. .

قامت اسرائيل بتدمير المفاعل الذري العراقي. .

وهذا يعني أن السادات كان يعلم مقدماً، بهذا التدمير في لقاء شرم الشيخ. .

وغضب السادات. . واستدعى السفير الاسرائيلي في القاهرة. . «ومسح به البلاط» وهو يحدثه بصوت مرتفع هائج، كالنمر الجائع. . وقال السادات ان هذا تصرف كله سفالة وحطة. .

وكان ذلك، أكبر أزمة تعرضت لها العلاقات بين السادات وبيجين. .

* * *

ثم قامت الأزمة الكبرى . في كامب دافيد . .

كان دخول الصحفيين ممنوعاً إلى كامب دافيد. .

وأقامت الادارة الأمريكية مركزاً صحفياً، في منتصف الطريق، بين واشنطن وكامب دافيد، حيث يجري كل صباح مؤتمر صحفي للمتحدث

الأمريكي. . وكان يجتمع في هذا المركز أكبر أعلام الصحافة والتلفزيون والاذاعة في أمريكا. .

وكانت الأخبار عن كامب دافيد مغلقة تماماً. . حتى التصوير كان ممنوعاً. . وكان المتحدث الرسمي هو الذي يوزع الصور التي يريدون نشرها. . وكانوا يختارون الصور التي تعبر عن الأجواء الودية بين السادات وبيجين وكارتر. .

وذات يوم، حضر مدير أمن الرياسة الذي كان يتوجه كل يوم إلى كامب دافيد. . إلى فندقنا في واشنطن، وملامح وجهه تنم عن حدوث شيء. .

وسأله زميلنا محمد عبد الجواد. . ايه الحكاية؟.

وأجاب الرجل:

ـ يظهر المسألة هتتطربق. . الريس هيسيب كامب دافيد ويعود إلى واشنطن. .

وقصدت إليه، بعد أن علمت من زميلي محمد عبد الجواد، بهذا الحوار. . وأخذت أسأله تفصيلاً عما جرى، وعما سمعه ورآه. .

وقال لي: أن السادات استدعى حسن كامل رئيس الديوان، وطلب إليه، اتخاذ إجراءات مغادرة كامب دافيد. . وطلب من فوزي عبد الحافظ، إعداد الحقائب. . وطلب من السفير أشرف غربال، أن يستعد لاستقباله في بيته في واشنطن. .

واتصلت بمنزل أشرف غربال، وأجاب ابنه «علي» أنهم يعدون المنزل لاستقبال الرئيس السادات. . وكان هناك ضيوف من أصدقاء عمر، ابن السفير. . وطلب إليهم عمر الانصراف!

أدركت أن هذا خبر خطير. .

وحاولت الاتصال بأحد أعضاء الوفد المصري في كامب دافيد. . وفشلت.

وأخيراً، وبعد أن تأكدت أن الخبر صحيح. . بما رآه مدير أمن الرياسة،

وبما سمعته من عمر أشرف غربال. . اتصلت تليفونياً «بالأخبار» وأبلغت الخبر، وطلبت وضعه في برواز ٣ أعمدة في الصفحة الأولى. . بعنوان: . . السادات ينسحب من كامب دافيد. .

وقرأ المراسلون الأجانب في القاهرة، الخبر، بعد منتصف الليل في القاهرة، وأبرقوا به إلى واشنطن. . (توقيت واشنطن السادسة صباحاً). .

وبدأ التليفون في حجرتي لا ينقطع عن الرنين. . لأن الخبر كان مكتوباً باسمى. . ومن يسأل. .

أكبر الصحفيين والمعلقين في أمريكا!

وشعرت بالخوف، أن يكون الخبر غير صحيح، وأنني سأتسبب في فشل المفاوضات! ولونت إجاباتي لكل من سأل، بما لا يقطع بصحة الخبر. .

وذهبنا إلى المركز الصحفي قبل الظهر كالعادة. .

وكانت كل أسئلة مئات الصحفيين، حول هذا الخبر. . ونفى المتحدث الأمريكي الرسمي، صحة الخبر. . وقال إنه من خيال صحيفة «الأخبار»!. .

وتضاعف خوفي. .

ولم أعلق. ولم أتكلم. . ولكنني استطعت أن أتصل بالسفير أشرف غربال، بعد ذلك، الذي أكد لي صحة الخبر. . وقال لي أنه أبلغ الرئيس السادات، بما نشرته. .

وكانت إجابة السادات في غضبه:

ـ أحسن. . عمل طيب!

واستراحت نفسي!

* * *

واستطاع الرئيس كارتر أن ينقذ الموقف. . وتم الاتفاق، على بنود كامب دافيد. . وجرى احتفال في البيت الأبيض بتوقيع الاتفاق. . ولكن ابراهيم كامل وزير الخارجية، قرر عدم حضور الاحتفال، وكان قد قابل السادات في كامب دافيد، وأبلغه رغبته في الاستقالة، التي قبلها السادات على الفور. .

واستثمر السادات هذه الاستقالة، في الحصول على تعديل من كارتر يتفق مع وجهة نظرنا، لأحد البنود.. بعد أن قال له السادات: لقد استقال وزير خارجيتي!

وجرت محاولات من حسن كامل، وأشرف غربال، وفوزي عبد الحافظ.. لإقناع ابراهيم كامل، بأن يحضر الاحتفال، حتى لا يثير غيابه تساؤلات.. ولكنه أصر. ولم يهتم السادات. وكان تعليقه: هذه عقلية موظفين.. لا سياسيين.

وعدنا بعد الاحتفال إلى منزل السفير.. وكنا قد اقتربنا من منتصف الليل. وجلسنا حول السادات في حجرة صغيرة، وكان يرتدي الروب الصوف فوق البيجاما.. وكان في قمة الارهاق.. وشرح لنا كل بنود الاتفاق.. ثم أمضينا وقتاً طويلاً مع أسامة الباز، لكي نتناقش في أهم موضوعات الاتفاق التي يجب أن تبرز في العناوين.

وانتهت بذلك قصة اتفاق السلام..

* * *

وأقول في هذه السطور التي أسجل بها مذكراتي الصحفية في قرابة نصف قرن من العمل الصحفي.. أن السادات كان يستحق مائة جائزة نوبل.. لا نصف جائزة.. لمجرد أنه إستطاع أن يروض بيجين، وأن يتحمل ثقل ظله، وصلابة كلماته، وجفوة أسلوبه في التعامل السياسي..

كان السادات يملك صبر أيوب، وهو يغالب نفسه، أن يجلس إلى بيجين وحدهما، أو مع الغير، ست وسبع ساعات متصلة!.. يسمع فيها كل ما يدعو إلى اليأس من هدف السلام..

ولكن السادات تحمل.. إلى أن فقد أعصابه في كامب دافيد، وصب كل لعناته فوق رأس بيجين أمام كارتر.. وكان لا يلقبه إلا.. بهذا الرجل This Man! إلى أن تم الاتفاق..

ولن أنسى إستقبال الملايين للسادات عند عودتنا..

ولا أتصور أن زعيماً في العالم، حظي بمثل هذا الإستقبال من شعبه..

واختفى بيجين من المسرح السياسي، وعاش في عزلة، يعاني من الإكتئاب.. فهو لا يتصور كيف عادت سيناء إلى مصر.. وكان يردد.. أعطانا السادات ورقة.. وأعطيناه سيناء..

ودفع السادات حياته، فداء لقضية السلام..

ويسجل حاضر التاريخ له، أنه سبق عصره.. وحقق المعجزة المستحيلة..

الفصل الثالث والثلاثون

من العريش إلى بير سبع

لحظات خالدة في حياة الصحفي ـ ماذا حدث في ٢٩ مايو ١٩٧٩ ـ الصحفية الإسرائيلية تشعر بالإنقباض ـ دموع رحلة قاسية طويلة ـ أم الشهيد تقبل العلم ـ يوسف المصري في اسرائيل ـ رئيس البلدية في «بير سبع» عراقي ـ لقاء مع جوزيف تكواه ـ السادات يغضب ويترك نص الخطاب المكتوب ـ من هو جاعون صديق بيجين؟ ـ لماذا لم نرفع علم إسرائيل؟..

الفصل الثالث والثلاثون

من العريش الى بير سبع

هناك لحظات في حياة الصحفي، تبقى خالدة في ذاكرته، ولا يمكن أن ينساها..

ومنها.. هذه اللحظات التي عشتها، وأنا أرى العلم الإسرائيلي ينزل عن العريش.. لكي يرتفع العلم المصري..

لم يستطع الصحفيون الإسرائيليون أن يمنعوا دموعهم..

ولم يستطع الصحفيون المصريون أن يخفوا فرحتهم..

وبعد رحلة العريش.. كانت رحلتنا مع السادات إلى بير سبع في إسرائيل، إحتفالاً بالسلام.. وحيث سمعنا المطربة الإسرائيلية تنشد «أعدك يا ولدي أن هذه الحرب ستكون آخر الحروب»..

وفي بير سبع، غضب السادات.. واعتذر له رئيس اسرائيل..

ولكن كيف كانت هذه الساعات التاريخية..

هذا ما سجلته في ٢٩ مايو ١٩٧٩:

* * *

عشت اليومين الماضيين في مزيج زاخر من عاطفة ساخنة فجرت دموعي وأثارت فرحتي وجعلتني أتأمل الحاضر والمستقبل وكأنني ناسك يتعبد.. يستلهم الخير والنور وسط زوابع الظلام والشرور التي يثيرها حقد التجني، من قلوب

تريد لنا عودة إلى الـوراء. . ولكن الموكب يتقـدم. . موكب مصر يحـرر الأرض ويرفع أعلام السلام. .

علم ينزل. إنه علم اسرائيل على أرض العريش. .

وقـالت لي الصحفية الإسرائيليـة التي كـانت تغـطي حـدث الإنسحـاب الإسرائيلي من العريش:

ـ لا أنكر أنني شعرت بالإنقباض. أكذب لو قلت أنني كنت مـرتاحـة. لم أتحمل المشهد. إن عمري ثلاثون عاماً. . هو عمر دولة إسرائيل. وأشفقت على الجندي الإسرائيلي الذي أنزل علم إسرائيـل. . إنني أعرف مشـاعره. لعله تمنى أن جندياً غيره أنزل العلم. ولكن كان لا بد لإسرائيلي أن ينزل علمـه. . وكان لا بد لصحفي إسرائيلي أن يسجل هذا الحدث. ولم أشأ أن أتحـدث إلى الجندي الذي أنزل العلم. فقط كتبت عن إسمه ورتبته وحيـاته العسكـرية. قـطعاً أنـا أعرف مشاعـره في هذه اللحـظات أنها نفس مشاعـري. . وعدت إلى تـل أبيب وأمضيت الليـل أفكر أيهـما أفضل. علم لا ينـزل، أو سلام يتحقق، وانتصرت نفسي لآمال السلام وهكذا استراحت نفسي.

ثم سألتني الصحفية الإسرائيلية

ـ وأنت. أين كنت؟

قلت:

ـ كنت أشاهد علم مصر يرتفع. .

وسألت:

ـ وكيف شعرت؟

قلت:

ـ بكيت. هزتني دموعي. دموع رحلة قاسيـة طويلة. أحسست أن هنـاك من هو أجدر مني بهذا العلم يرتفع. آلاف الشهداء الـذين سقطوا وهـذا العلم في أيديهم. ها هو ذا يرتفع لعل أرواحهم تشاركنا هـذا الحفل المهيب. نحن لا نراها ولكننا نحس بجوارهـا لعلها هـائمة في قلب كـل منا. لعلهـا تترنم حـولنا بأناشيد السلام ونحن نبكي. ومعنا في حفل التـاريخ بعض من أسر الشهـداء. أرامـل. أمهات وأبـاء. أبنـاء وبنـات. واحـدة منهن لا تـزال تـرتـدي الثيـاب

السوداء. صرخت عندما إقترب الرئيس موسداً العلم بيديه. . «أريد أن أقبل العلم». اندفعت كالصاروخ. . إختفت من عيني في زحام تقبيل العلم. لازلت أسمع صرختها أريد أن أقبل العلم.

ارتجف صدري. دفع سيلاً حبيساً من الدمع إلى عيني. طوبي لك يا أم الشهيد. يا أم هذا اليوم المشهود. يا أم الأرض تعود. يا وريثة هذا العلم. يا صاحبته. يا مصر كلها. .

وضاعت دموعي في زحام عواطفي. . كما ضاعت أم الشهيد في زحام الجماهير. . واهتزت الأرض. واهتز الفضاء يدوي. . هتاف واحد. . مصر. . مصر. . تحيا مصر.

كانت أم الشهيد عائدة من الزحام. . رأيتها. .
كانت تهتف أيضاً. . مصر. . مصر. . تحيا مصر.
لقد قبلت العلم. .

بللته بدموعها. أنقى الدموع. أطهر الماء من نبع القلب ونظرت إلينا وهي تصيح. . قبلت العلم.

كأنها تقول لنا. . هنئوني. . إفرحوا من أجلي. لقد بعثت رسالتي إلى شهيدي وشهيد العلم. كان زوجها هو العلم. كان العلم هو صدره الحنون الذي فقدته. كأن الغائب عاد. هو الأرض. هو العرض. هو صانع السلام.

إلى بير سبع

وعدت إلى القاهرة. . لأستعد لرحلة الفجر إلى بيرسبع في اليوم التالي. . وركبنا طائرة عسكرية هبطت بنا بعد تسعين دقيقة في مطار عسكري.

كانت في إنتظارنا رئيسة مكتب الصحافة في الحكومة الإسرائيلية. . ومدير تليفزيون إسرائيل العربي.

إسمه يوسف. ولد في مصر. تعلم في مصر. نال إجازة الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٥٧. ترك مصر إلى إسرائيل بعد العدوان الثلاثي. في

إسرائيل الآن عشرون ألفاً من المصريين اليهود الذين تركوا مصر في ذلك العام وأصبحوا أبناء دولة إسرائيل.

برنامجنا حتى يحضر الرئيس السادات في الثانية بعد الظهر هو أن نزور بلدية بيرسبع أو «بيرشاييه» كما تنطقها اللغة العبرية. ثم زيارة لرئيس جامعة بن جوريون. وبعدها نحضر إحتفالات المدينة الرابعة في إسرائيل باستقبال أنور السادات.

رئيس البلدية المنتخب أربع مرات (١٦ عاماً). إسمه «الياهو» أي إيليا. إنه من أصل عراقي. هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٩.. مائة وعشرون ألف عراقي يهودي ركبوا الطائرات حينئذ من بغداد إلى تل أبيب. يتحدث العربية طبعاً بطلاقة. وهو قد خطب في الحفل الشعبي ترحيباً بالرئيس باللغة العربية. وقدم له مفتاح المدينة. ثم الخبز والملح والماء. فهذه مدينة إبراهيم. وهم يقدمون الخبز والملح والنبيذ. ولكنهم قدموا الماء بدل النبيذ للرئيس. وحوار طويل يدور مع العمدة إيليا الذي دعا إبنه الشاب معنا على الإفطار والقهوة.

إيليا.. عضو في حزب العمل المعارض. ولكنه رفض قائمة الحزب وترشح مستقلاً وكسب. والسؤال الذي وجهته إليه:

ـ هل صحيح ما يقال من أن حزب العمل لو كان يحكم.. لما إستطاع أن يوقع معاهدة سلام مع مصر.. لأن بيجين القوى في المعارضة ما كان يعطيهم الفرصة بكل أفكاره القديمة عن أرض إسرائيل والمستوطنات؟

وقال عضو حزب العمل:

ـ نعم هذا صحيح. أن بيجين ينادي منذ ثلاثين عاماً بأرض إسرائيل الكبرى.. وكانت معارضته ستشتد.. ولم يكن حزب العمل ليقوي على هذه المعارضة.. ولكن الموقف الآن قد إنعكس. بيجين هو الذي يتخلى عن آرائه القديمة وهو في الحكم. وهو القادر على أن يتنازل في المفاوضات.

وقال إسرائيلي آخر:

ـ ولعلكم لاحظتم أن بيريز زعيم المعارضة اليوم هو الذي يعارض إخلاء المستوطنات في سيناء.

ـ وكيف تفسرون أن اليهود الشرقيين في إسرائيل (القادمين من البلاد العربية وتركيا واليونان) هم المؤيدون لبيجين على مدى السنوات الثلاثين في حياة إسرائيل رغم أن معظمهم من الطبقة العاملة المفروض أن تؤيد حزب العمل؟!

ـ لأن بيجين تبنى قضاياهم داخل إسرائيل والتزم أمامهم بتحقيق كل الأحلام . .

ـ وما تفسير أن اليهود العراقيين هم أول من هاجروا إلى إسرائيل؟

ـ إن معاملة اليهود في العراق لم تكن مثل معاملة اليهود في مصر. لقد تعرض اليهود لضغوط عنيفة في العراق. أما في مصر فقد كان التسامح والتعامل الطبيعي على أرض وادي النيل. وكان نوري السعيد رجلاً ذكياً. كان يقول إذا اضطهدتم اليهود تكتلوا . . وإذا تركتموهم فإنهم سيختلفون ويتقاتلون . . وهذه هي طبيعة اليهود.

وقال اسرائيلي ثالث:

ـ إن الاسرائيليين الذين قدموا من مصر لهم حنين خاص لمصر. الحنين للنيل. لشعب مصر. لكل ذكرياتهم. وهي ذكريات طيبة. لقد شعروا بالقلق بعد حرب ١٩٥٦.

الماء المالح والرمال

والاسرائيليون فخورون بمدينة بيرسبع. كانت منذ خمسة وعشرين عاماً مجموعة من الخيام والبيوت الصغيرة. أصبحت اليوم رابع مدينة في إسرائيل كل ما فيها على أحدث طراز في العمارة والإدارة. ولكن أهم ما فيها أنها إشعاع النجاح لتحويل الصحراء إلى أرض مزروعة تصدر إنتاجها إلى أوروبا. كل ذلك بالعلم والتخطيط. هذه تجربتهم التي يفخرون بها. ثم من الأرض يستخرجون المواد الكيماوية في شتى استخداماتها.

ونخرج إلى ساحة البلدية لنرى الاستعداد الضخم للمؤتمر الشعبي، إعلام مصر فوق كل مكان بالآلاف. الفرق الموسيقية. فرق الرقص من الشباب. (البروفات) على قدم وساق.

وانتقلنا إلى مكتب مدير جامعة النقب أو جامعة بن جوريون. رئيسها معروف على الساحة الدولية. أنه «جوزيف تكواه» مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة لسنوات طويلة. خريج هارفارد. وأستاذ في القانون الدولي. وهجر ماضيه السياسي والقانوني وجاء رئيساً للجامعة. إنه يقول: ثلث أرض العالم من الصحراء. والسؤال الذي حققنا إجابته.. لماذا لا نحقق سعادة الإنسان في الصحراء؟.. هذه الجامعة عمرها عشر سنوات. وهدفها.. جذب الإنسان إلى حياة الصحراء ليبني فيها حياة جديدة.. مريحة.. حياة إجتماعية وثقافية. أشعر أننا نجحنا. كنا قرية منذ ٢٥ سنة. وأصبحنا المدينة الرابعة في إسرائيل. جذبنا الصناعة المتقدمة إلى الصحراء. فالجامعة هنا أداة تطور. نبذنا الفكرة القديمة وهي أن الأساتذة يعيشون في برج عاجي. كلياتنا تعيش مشاكل البيئة. الطالب هنا (٤٠٠٠) يندمج منذ العام الأول مع مشاكل الصحراء الاجتماعية والصحية والصناعية. أوجدنا الطبيب الشاب المستعد للبقاء في المنطقة والذي يعامل المريض لا على أنه مريض فقط.. بل على أساس أنه شريكه في هذا المجتمع الجديد. نحن نستفيد من كل تجارب العالم. ونستفيد من تجاربكم في مصر. لدينا معاهد مختلفة منها معهد أبحاث الصحراء. توصلنا إلى أن الماء يمكن أن يفلح في زراعة الصحراء. لدينا تجارب على «الطماطم» التي يمكن أن تحتفظ بنضجها ثلاثة أشهر بعد زراعتها دون وضعها في ثلاجات.

وقال أستاذ في الجامعة: لقد استفدنا من التجربة المصرية في زراعة القمح.. ولدينا أبحاث الدكتور القصاص الأستاذ المصري في جامعة القاهرة.

وقال العميد: نحن نستخرج الآن الزيت من الصحراء وما ينطبق على صحراء النقب يمكن أن ينطبق تماماً على صحراء سيناء. الصحراء يمكن أن تكون أداة إرتباط بين شعبينا. إن أساتذة عندنا مبهورون بأبحاث العلماء المصريين. عن الوادي الجديد في مصر. لدينا فكرة صندوق للأبحاث يخصص له ١٠٠ مليون دولار. نرجو أن يشارك فيه العلماء المصريون ويشتركون في إدارته. نرجو أن يدار من الجامعتين. جامعة القاهرة وجامعة النقب.

وتركنا مكتب مدير الجامعة.. إلى ساحة الاحتفال الشعبي.

إستقبال الجماهير للسادات لا يمكن أن يوصف.

وخطب ايستهان نافون رئيس الدولة مرحباً بالسادات باللغة العربية. أنه من أصل مغربي. ولكن عائلته تقيم في فلسطين منذ ثلاثمائة عام. وهو صديق قريب لبيجين الذي أيد اختياره لأنه يعبر عن اليهود الشرقيين.

ثم تحرك الموكب من ساحة البلدية.. إلى مبنى الجامعة. ولم أكن أتصور أن كل عائلة في هذه المدينة قد خرجت إلى الطريق تحمل أعلام مصر.. وصور الرئيس السادات.. ولافتات السلام.. ثم الهتاف المدوى والتصفيق الملتهب.. لأنور السادات بطل السلام. الطريق على جانبيه والذي استغرق ساعة بالسيارات فقد تسابقت إليه كل عائلة.. الأب يحمل أطفاله على كتفيه والآلاف ترفع الأعلام.. وكلهم يهتفون..

لا يمكن أن ينكر إنسان أن الشعوب تحب السلام.. وترحب بالسلام وعلى مدى الطريق أكثر من فرقة موسيقية تغني أناشيد السلام.

من هو «جاعون»؟:

وبعد أن ألقى رئيس الجامعة كلمته.. ثم الرئيس السادات.. ثم بيجين.. أعطيت الكلمة لرجل إسمه «جاعون».

أكتب كلمة عنه لنعرف أن وحدة اليهود في العالم كله هي التي أنشأت إسرائيل.. وهي التي حمت إسرائيل.

هذا الرجل من أصل مصري. وسافر إلى السودان. واشتغل بالتجارة. ثم تركها إلى أوروبا. ومركزه جنيف. وهو زعيم الجاليات اليهودية في أوروبا. أنه من أصحاب الملايين ولكنه لم يبخل بملايينه على إسرائيل.

واسمعوا يا عرب.

كل أصحاب الملايين في العالم من اليهود.. أعطوا ملايينهم لإسرائيل.

كل العلماء اليهود في العالم كله أعطوا ثمرة علمهم لإسرائيل. أنهم يختلفون. أنهم يتشاحنون. أنهم ينقسمون إلى أحزاب. ولكن شيئاً واحداً لا يختلفون عليه هو إسرائيل. وبقاء إسرائيل. ولذلك أعطوها ويعطونها كل شيء.

وهم يديرون اليوم بنوك العالم التي تستثمر أموال أصحاب البلايين العرب!.

ولعل بيجين أراد أن يكرم صديقه «جاعون» فأعطاه شرف أن يتكلم في هذا اليوم التاريخي في حياة مدينة «بير سبع» ودعاه من قبل إلى حفل تسلمه جائزة نوبل في أوسلو، كما دعا كل أصحاب الملايين من مختلف بقاع العالم الذين ساعدوا على إنشاء إسرائيل واستمرار إسرائيل. كما دعاهم أيضاً إلى حفل توقيع معاهدة السلام في واشنطن.

(أسئلتهم لا تنتهي):

وعدت من بير سبع بعد أن استمعت إلى أسئلة عديد من الصحفيين الإسرائيليين الذين التقوا بنا:

ـ لماذا في القاهرة رفعتم علم إسرائيل عند وصول بيجين.. ثم أنزلتموه على الفور من أي مكان في القاهرة بمجرد مغادرة بيجين للمكان.. وأنت ترى أننا نرفع آلالاف من أعلام مصر دون أن ننزلها..

ـ هل أنت واثق أن السلام سيتحقق على المدى البعيد؟

ـ لماذا لم يفكر صحفي مصري واحد في زيارة طويلة لإسرائيل لكي يتعرف على هذا الشعب الذي سيعيش معكم في سلام.. وعشرات الصحفيين الإسرائيليين يتلهفون على زيارة مصر وترفض طلباتهم؟..

ـ لماذا لا تحضرون للإجتماع بالفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة لكي تعرفوا كيف يفكرون وما هي علاقتهم بالملك حسين وما هي علاقتهم بمنظمة التحرير وما هي آمالهم وتخوفهم من المستقبل؟..

ـ لماذا لا تصل الصحف المصرية إلى الضفة الغربية وغزة ليعرف الفلسطينيون وجهة نظر مصر؟.. أنهم يقرأون فقط الصحف الرافضة التي تتسرب إليهم من الأردن؟

ـ ما هي الشروط التي ستضعونها لفتح الحدود بين مصر وإسرائيل؟.. أن عشرين ألف إسرائيلي من أصل مصري يتلهفون على زيارة مصر.. هذا عدا كل إسرائيلي يتعطش لرؤية الحضارة المصرية؟..

وفي المطار العسكري ببير سبع . . عادت الصحفية الإسرائيلية لتسألني:

ـ ما هو شعورك الآن وأنت في مطار عسكري إسرائيلي . . وأنت ترى أسرارنا؟ . .

وقلت لها:

ـ أعرف ـ كما تعرفين ـ أن أسراركم العسكرية ليست هنا!

وعادت تسأل ـ والصحفيون الإسرائيليون لا يملون الأسئلة أبداً . . ـ ما هو شعورك وأنت عائد إلى مصر . .

وقلت بكل الصدق:

ـ لم أكن أتوقع أن يكون الإستقبال الشعبي للسادات على هذه الصورة الرائعة . . أنها أكبر من كل خيال . .

وقالت: هل أنت مقتنع أننا نريد السلام؟ .

قلت: نعم . . شعب إسرائيل يريد السلام . . بعيداً عن مناورات السياسيين .

وعدت إلى بيتي في منتصف الليل . . وكنت غادرته عند الفجر . . الأبناء يستيقظون . . وسؤال واحد لاحقني منهم قبل أن أجلس إلى مقعد لأستريح :

ـ هل يمكن بهذه المعايشة . . أن يتحقق الإنسحاب الكامل من سيناء في أقل من ثلاث سنوات .

وأجبت: نعم . . إن مشاعر الشعوب قادرة على اختصار المسافات . . إن عجلة السلام لن تتوقف عن التقدم السريع .

الفصل الرابع والثلاثون

هيكل.. الظاهرة والأعماق

هيكل ظاهرة في الصحافة المصرية ـ أرض الأهرام ـ من روز اليوسف إلى أخبار اليوم ـ مصطفى أمين يفصل هيكل ـ تدرج مرتبه ـ استمرار مرتبه في أخبار اليوم بعد انتقاله للأهرام ـ عقدتان: الأسرة الفقيرة والشهادة المتوسطة ـ إعلانات عبود ـ مديح في عهد الفاروق ـ نماذج من الإعلانات في أخبار اليوم وآخر ساعة ـ مهاجمة عبود بعد الثورة ـ مواجهة من المدعي العام الإشتراكي ـ خطابات من المدعي ومصطفى أمين وعثمان العبد وعبد العزيز عبد العليم عن الإعلانات ـ بداية علاقة هيكل بعبد الناصر ـ ٣ روايات كاذبة ـ الحقيقة يكتبها جلال ندا ـ لماذا أعجب به عبد الناصر في باندونج؟ ـ تبرير كل قرارات القهر ـ علاقة هيكل بالتوأمين ـ حقيقة اتهام مصطفى أمين بالجاسوسية ـ هل طلب وقف معونة القمح؟ ـ قلم الصحفي لا يموت ـ مبنى الأهرام وقتل حرية الصحافة ـ فصل ٣٨ محرراً من أخبار اليوم ـ إرجاع محررين ـ قتلة السادات أبطال وطنيون! ـ محاولة للتراجع.

الفصل الرابع والثلاثون

هيكل.. الظاهرة والأعماق

عندما أسجل في هذا الكتاب، كثيراً من التجارب التي خضتها، في ساحة الصحافة، منذ عام ١٩٤٤ . . فإنه لا يمكنني أن أغفل الحديث عن محمد حسنين هيكل. . الذي أصبح ظاهرة في الصحافة المصرية لا يمكن تجاهلها.

وأذكر أن مصطفى أمين عندما كان يلقى محاضرات على طلبة الصحافة في الجامعة المصرية، أن أجرى بين طلبته استفتاء. . من هو الصحفي الذي تتمنى أن تكون مثله. . وكانت الإجابات بالإجماع. . محمد حسنين هيكل. وكان ذلك في أواخر الخمسينات.

ومن ينكر على هيكل أنه صحفي لامع، وكاتب مثير جذاب. . ينكر حقيقة لا تزال تعيش حتى الآن، وبعد أن ترك هيكل رياسة تحرير «الأهرام» بسنوات طويلة. .

وعندما أتناوله في سطوري، فيجب أن أعترف بأنه أنشأ «أهراماً» صحفياً، بإقامة المبنى الجديد لمؤسسة «الأهرام» على أحدث طراز فني، بعد أن كانت «أخبار اليوم» هي صاحبة السبق في هذا المضمار. وقد تنبأ الصحفيون الكبار أمثال الحمامصي أن مؤسسة الأهرام الجديدة، سوف تواجه الخسارة المؤكدة، بسبب ضخامة التكاليف. . وأثبتت الأيام عدم صحة هذا التوقع. . وبقيت مؤسسة «الأهرام» بمبانيها الجديدة، علامة مضيئة من علامات الصحافة المصرية. .

وبغض النظر عن الأساليب، التي اتبعها هيكل في بناء «الأهرام» الجديد. . فإنه قد تم بناؤه وأصبح أثراً واضحاً. .

كان السادات يقول أن عبد الناصر هو الذي بنى الأهرام وبنى هيكل. .
وكان السادات يقصد من ذلك، أن عبد الناصر استثنى الأهرام من كل قيود الإستيراد والعملة الصعبة. . وهذا صحيح. ولكني أرى أنه إذا كان هذا الإستثناء من أجل بناء صرح صحفي، فإنه استثناء جائز ومقبول، أما القول بأن عبد الناصر بني هيكل. . فإنه قول صحيح. وقد استطاع هيكل أن يكون الصحفي الأوحد، إلى جانب عبد الناصر. . ثم تطور إلى أن أصبح شريكاً حقيقياً في الحكم. . حتى أن عبد الناصر أصدر أمراً، بأن ترسل إلى هيكل، صورة من كل وثائق الدولة في الخارجية والمخابرات وأجهزة الأمن وأجهزة رياسة الجمهورية. . وفي هذا لا يوجه اللوم إلى هيكل الذي استطاع أن يصل إلى هذه الثقة الكاملة من عبد الناصر الذي كان قليلاً ما يعطى ثقته إلى أحد من العاملين معه. .

بنى هيكل الأهرام الجديد، واستخدم في ذلك كل الوسائل. .

وأذكر في ذلك، واقعة واحدة، شاهدها هو عبد العزيز عبد العليم مدير مؤسسة «أخبار اليوم» السابق. . وقد قدمها لي مكتوبة.

قال في شهادته:

مذكرة بخصوص أرض الأهرام

كانت «أخبار اليوم» تريد أن تشتري أرضاً من أملاك وقف الأزهري الواقعة أمام مطابع الأهرام. وقد عرضنا في مفاوضات مع هذا الوقف أسعاراً وصلت إلى خمسة عشر جنيهاً للمتر الواحد. ولم يوافق صاحب وقف الأزهري على هذا السعر.

وعندما علم الأستاذ هيكل بمفاوضاتنا لشراء هذه الأرض. اتصل بوقف الأزهري وطلب منه أن يبيعه كل قطعة الأرض الموجودة أمام مطابع الأهرام لحاجة مؤسسة الأهرام التوسعية إليها، وكانت تقدر مساحة هذه الأرض بحوالي ثمانية آلاف متر مربع، ولكن وقف الأزهري اعترض على السعر الذي عرضه الأستاذ هيكل. فما كان من الأستاذ هيكل إلا عمل على وضعه تحت الحراسة.

ومن هنـا أجبره عـلى السعر الـذي حدده لـه بأن وضعـه أمـام واحـد من اثنين.

أولاً: أن يرضى أن يبيع الأرض كلها ومساحتهـا حوالي ثـمانية آلاف مـتر بسعر أربعة جنيهات في مقابل رفع الحراسة عنه.

ثانيها: أو يستولي الأستاذ هيكل على الأرض ويبقيه تحت الحراسة.

فما كان من صـاحب وقف الأزهري إلا أن قبـل البيع بـالسعر المفـروض عليـه وقدره أربعـة جنيهات حتى تـرفع عنـه الحراسـة ما دامت قـطعـة الأرض ستؤخذ منه بأية صورة..

وجدير بالذكر أن الحراسة رفعت عنه فعلاً بعد إتمام الصفقة بأربعة أيام. هذا في حين أن «أخبار اليوم» كانت في شديد الحاجة إلى قطعة الأرض الموجودة خلف مؤسسة «أخبار اليوم» وتقدر مساحتها بحوالى ١٢٠٠ متر مربع. طلبنا من وقف الأزهري بيعها لنا وكان ذلـك في عهد المـرحوم كـمال رفعت وزير العمـل والقائم بأعمال مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم. إلا أن صـاحب وقف الأزهري تمسك بسعر ثلاثة وثلاثين جنيهاً للمتر. فلما قيل له أنه باع للأهرام المتر الواحد بسعـر أربعة جنيهـات.. قال أن الـظروف تغير الأحـوال. وقال أنـه يعتبر قـطعة الأرض هذه «الماظة وجدها في الوحـل» وعبثاً حـاولنا تخفيض هـذا الثمن ولكنه تمسك به وأصر عليه.

فما كان من المؤسسة لحاجتهـا الملحة إلا أن قبلت هـذا السعر عـلى الرغم من وجود وزير الثورة على رأس المؤسسة.

* * *

ولكن كيف بدأ هيكل عمله الصحفي؟..

وكيف بدأت صلته بعبد الناصر؟.. وإلام انتهت؟..

حصـل محمد حسنين هيكل، عـلى شهادة مـدرسة التجـارة المتـوسـطة، واستطاع أن يجد له مكاناً في مجلة «روز اليوسف».. وبعد وقت قصير كان قريباً جداً إلى السيدة روز اليـوسف.. ثم تركهـا إلى «آخر سـاعة» وبعـد وقت قصير

كان قريباً جداً إلى صاحبها ورئيس تحريرها «محمد التابعي». . وعندما باعها التابعي إلى مصطفى أمين وعلي أمين في عام ١٩٤٦، وكانا يصدران «أخبار اليوم»، عينا عدداً من العاملين في آخر ساعة. . وقد طلب إليهما التابعي، أن يحققا رجاء له، وهو تعيين محمد حسنين هيكل. . واستجابا إلى رغبة التابعي الذي كانا يكنان له احتراماً كبيراً، ولا يناديانه إلا بلقب «الأستاذ». . وبعد وقت قصير، استطاع هيكل أن يكون قريباً جداً إلى علي أمين الذي أعجب به كثيراً، وتعهده بالرعاية والتشجيع. . وتبناه بكل عواطفه واقتناعه. ودفعه إلى قفزات كبيرة إلى الأمام.

وقال لي يوماً إحسان عبد القدوس تعليقاً على ذلك. . هذه هي طريقة هيكل. . الإستيلاء على الرأس الكبيرة في أي مكان. . استولى على عقل والدتي. . ثم عقل التابعي. . ثم عقل وقلب علي أمين. . ثم عقل جمال عبد الناصر!

ولكن هيكل فشل في الإستيلاء، على عقل أو قلب مصطفى أمين!

كان مصطفى أمين، منه على حذر. . ولكن هذا الحذر، لم يمنع علي أمين من الإندفاع بكل مشاعره نحو هيكل. .

وقد حدث مرتين أن مصطفى أمين أصدر قراراً بفصل محمد حسنين هيكل. . المرة الأولى عندما سافر إلى سوريا لتغطية مؤتمر للملوك والرؤساء العرب، وأبرق بما سماه أحاديث مع الملوك والرؤساء ثم اتضح أن هذه الأحاديث، هي كلماتهم في الجلسة الإفتتاحية العلنية للمؤتمر. . وتوسط كامل الشناوي في إلغاء القرار، وكذلك علي أمين. والمرة الثانية عندما اجتمع محررو آخر ساعة بمصطفى أمين، وأعلنوا عن استقالتهم إذا استمر هيكل نائباً لرئيس التحرير. . وكان من بينهم سعد كامل، وسعد التائه ومحمد البيلي. . وقرر مصطفى أمين إبعاد هيكل. . وعاد علي أمين من رحلة إلى الخارج في اليوم التالي، وألغى قرار مصطفى أمين. . واجتمع بمحرري آخر ساعة الشاكين، وأبلغهم بأن هيكل باق. . وإذا أرادوا الإستقالة فالباب مفتوح على مصراعيه!

وعمل هيكل في كل مجال. . تحقيق الجرائم. . أخبار المجتمع. . تغطية

حفلات رأس السنة ومسابقات الجمال والأزياء.. وهيئت له فرصة النجاح والإسم اللامع، عندما سافر إلى فلسطين لتغطية حرب ١٩٤٨.

عين هيكل في أول مايو عام ١٩٤٦ بمرتب ٣٠ جنيهاً. ثم حصل على علاوة ١٠ جنيهات في أول مايو ١٩٤٨، ثم علاوة ١٠ جنيهات في أول يناير ١٩٤٩، ثم علاوة ٥٠ جنيهاً في أول يوليو ١٩٥٢ عندما عين رئيساً لتحرير آخر ساعة.. ثم حصل في أول ابريل عام ١٩٥٤ على ٥٠ جنيهاً بدل تمثيل و٢٠ جنيهاً بدل بنزين وتصليح. ثم عين ـ مع آخر ساعة رئيساً لتحرير الأخبار ـ في يونيو ١٩٥٦، وأرسل علي أمين القرار التالي إلى الدكتور السيد أبو النجا المدير العام وهذا نصه:

الدكتور أبو النجا:

حيث إن رياسة تحرير جريدة «الأخبار» قد اسندت إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل فوق عمله في آخر ساعة وأخبار اليوم، لذلك يرفع مرتبه الإجمالي ومخصصاته في العام إلى خمسة آلاف جنيه تشمل علاوة الغلاء.

وذلك من أول يونيو ١٩٥٦.

التوقيع
علي أمين
أول يونيو ١٩٥٦

وهذا المبلغ ـ ٥ آلاف جنيه ـ هو الحد الأقصى للمرتبات في ذلك الحين ـ وكان تفصيله في الحسابات كالآتي:

	جنيه	مليم
مرتب أصلي	٣٣١	,٦٦٦
غلاء معيشة	١٥	
بدل تمثيل	٥٠	
بدل انتقال	٢٠	
المجموع	٤١٦	,٦٦٦

وصدر القرار بذلك في ٣٠ يونيو ١٩٥٦.

وقد اتخذ علي أمين هذا القرار، حتى يمنع انتقال هيكل إلى «الأهرام» رئيساً لتحريرها. وكانت هذه رغبة جمال عبد الناصر الذي كان يريد أن يكون «الأهرام» معبراً عنه.. ورحب أصحاب «الأهرام» بذلك، لرغبتهم في إرضاء عبد الناصر.. ولكن علي أمين أقنع هيكل بالبقاء في دار «أخبار اليوم» وأسند إليه رياسة تحرير «الأخبار» مع باقي رؤساء تحريرها.. وكان التوأمان حريصين على استبقاء هيكل، بعد أن توثقت صلته بعبد الناصر، كنوع من الحماية لهما..

ولكن هيكل لم يستمر.. وترك «أخبار اليوم» إلى «الأهرام» في أول ـ يوليو ١٩٥٧.

وسويت مكافأة نهاية خدمته (١١ سنة و٢ شهر) في أخبار اليوم، وقبض مستحقاته وهي مبلغ ٣٩٨٢ جنيهاً و ٣٢٤ مليماً.

ولكن علي أمين، كان يحول له مرتبه الشهري من «أخبار اليوم»، إلى البنك.. رغم تركه «أخبار اليوم» إلى «الأهرام».. واستمر ذلك وقتاً طويلاً.. وذلك بحجة أنه يقدم أخباره إلى صحف أخبار اليوم.. وأنه اتفق مع علي أمين على العودة إلى «أخبار اليوم».. وهذا ما قاله لي علي أمين.

وكان القصد من ذلك، ضمان استمرار الصلة الطيبة بهيكل، خشية أي إجراء من جمال عبد الناصر ضد التوأمين..

وكان هيكل معقداً من شيئين.. الأول أنه من أسرة فقيرة.. حتى أنه لما توفي والده، اكتفى بنشر خبر في «الأهرام» أن جمال عبد الناصر زاره في منزله للتعزية، ولم يقم صواناً للعزاء، أو ينشر نعياً لوالده في صفحة الوفيات. والمفروض أن يكون فقر أسرته، مفخرة له. وقد طلب مرة من جليل البنداري، أن يكتب عنه مقالاً يذكر فيه أن والده أرسل له مائتين وعشرين جنيهاً، عندما علم أنه صرف مرتبه قبل نهاية الشهر!..

والشيء الثاني.. أنه حصل فقط على شهادة مدرسة التجارة المتوسطة. ولذلك ادعى أنه حصل على شهادة بالمراسلة من معهد أجنبي في فن الإعلام.. وكان يحشر في سطور بعض المقالات عبارة «ولما كنا في الجامعة».. وادعى أيضاً

أنـه حاصـل على شهـادة في الاقتصاد من مـدارس الليسيـه. . ولم يكن في هـذه المدارس قسم للاقتصاد! . . والمفروض أن يفخر هيكل بذلك، فقد كان العقـاد العـظيم حاصـلاً على الشهـادة الابتدائيـة فقط. . كما أن هيكـل تلقى درساً في اللغـة الانجليزيـة بعـد عمله في الصحـافـة، وأصبـح يتحـدث بهـذه اللغـة في طلاقة. .

وكل ذلك لا يهم. . فـلا تقييم لإنسان نـاجح بـأسرته، أو بشهـاداته. . ولكن هيكل، في نطاق حاجته إلى المال. . سخر قلمه وأسلوبه، خلال عمله في «أخبار اليوم» وحتى قبيل الثورة. . في كتابة المقـالات الإعلانيـة عن أحمد عبـود باشا، المليـونير المعـروف في ذلك الـوقت. . وكان يتقـاضى عن الإعلان الـذي يستغرق صفحة كاملة في أخبار اليوم عشرة جنيهات. . وإعـلان آخر سـاعة في صفحتين، عشرة جنيهات أيضاً. وهذه بعض الأمثلة لما كتبه هيكـل تمجيداً فـي عبود باشا:

الصفحتان ٧ و ٨ من عدد «أخبار اليوم»
في ١١ فبراير ١٩٥٠.

عنوان: هذا كله تحقق: في عهد الفاروق
صورة لفاروق مع عبود بعنوان: التشجيع والآلام

جـلالة الملك عـلى ظهر البـاخرة «محمـد علي الكبـير» عام ١٩٣٦ وخلفـه سعـادة عبود بـاشا، مـا أكثر ذلـك الذي حققتـه مصر في هذه الثـلاثـين عـامـاً الأخـيرة. الثلاثـين عامـاً التي بدأت بميـلاد جلالـة الملك فاروق في ذلـك اليوم المجيد من سنة ١٩٢٠، والـواقع أن الجـزء العلمي من تقدم مصر تـركز كله في هذه الفترة من تاريخها.

وقـد أحس كل من في مصر أن الـوطن على أبـواب نهضة جـديـدة وقـام الذين رأوا من واجبهم أن يساهموا بجهودهم في هذا العهد الجديد المجيـد وراء الملك الشـاب بكل قـواهم وإيمـانهم ليحققـوا لمصر في كـل نـواحي التقـدم مـا يستلهمونه من ملكها العظيم.

وكـان أحمد عبـود باشـا عـلى رأس هؤلاء الـذين أحسّـوا بنهضـة الـوطن

الجديدة وهبوا يضعون كل جهودهم لتحقيق ما يتمناه الملك لشعبه من رفاهية وتقدم.

* * *

وتحدث عن كفاح عبود باشا في تمصير شركة السكر.

ثم قال: وقصة شركة التقطير قصة يستحق صاحبها أحمد عبود باشا تقدير وطنه كله.

لقد انتزع لمصر من أيدي الأجانب المحتكرين صناعة هامة وركزها في أيدي المصريين بأموال المصريين.

ثم قال: ولقد كان لجلالة الملك فضل التوجيه والإرشاد في هذه النهضة. الصناعية الجديدة. هذه النهضة التي تحققت كلها في عهده العظيم.

* * *

* وفي ٢٦ يناير ١٩٥٢.. وهو يوم حريق القاهرة، كتب هيكل صفحتين (٧و ١٠) في «أخبار اليوم» بعنوان:

عبود باشا يقول
التجربة العملية خير برهان
أنا أتحدى كل أسمدة العالم

مع صورة لعبود باشا وصورة لحسن بدراوي باشا.

وكتب هيكل في هذا المقال الإعلاني:

ولقد ذهبت «أخبار اليوم» إلى سعادة عبود باشا، تسأله عن رأيه في أقوال حسن البدراوي باشا فقال سعادته:

ـ وهل هذه الأقوال تحتاج إلى تعليق مني. إنها شهادة ناطقة. أحمد الله فهي نتيجة جهد سنوات طويلة، كنت فيها أنام وأصحو وليس في تفكيري إلا مصنع السماد. هذا كله عدا تسعة ملايين من الجنيهات جندت لتحقيق المشروع.

وكان ذلك تعليقاً على حديث لحسن البدراوي باشا في نفس الإعلان، يمتدح فيه أسمدة عبود باشا.

* وفي ١٢ فبراير ١٩٤٩ . . كتب هيكل صفحتين في «أخبار اليوم» عن بنك مصر الذي يساهم فيه أحمد عبود باشا . . بعنوان «٢٩ عاماً في سبيل مصر».

* وفي ٢٢ أكتوبر ١٩٤٩ . . كتب هيكل صفحتين في «أخبار اليوم» (٧ و ٨) عن عبود باشا بعنوان:

أحدث مصنع في العالم
قصة معجزة خليج السويس.

وقال في هذا المقال:

أراد عبود باشا أن يحصل على ٧ ملايين دولار. وقالت الحكومة الأمريكية: «تحت أمرك» . . .

وقال عبود باشا: ألا تريدون ضامناً.
قالوا: يكفينا توقيع أحمد عبود.

وهكذا تحققت كل المعجزة.

* وكتب مرة أخرى عن «العلم الأخضر» فوق البحار . . ونشر صورة كتب تحتها: صاحب الجلالة الملك يزور الباخرة التي أذن والده العظيم أن يطلق عليها اسم جده «محمد علي الكبير» . .

* وفي ٢٠ مايو ١٩٥٠ كتب هيكل في «أخبار اليوم» صفحتين (٧ و ٨) عن معجزة الصناعة في مصر:

يصف جولة في مصنع السماد ويقول تحت عنوان «تملكه مصر» وبدأت الجولة الحافلة. وطار المدعوون في بداية الجولة فخراً وهم يسمعون: إن مصنعكم هذا هو أحدث مصنع للسماد في العالم.

ثم عاد القائل يكمل عبارته:

ـ مصنعكم هذا هو ثاني مصانـع العالم حجمـاً. والمصنع الأول في العـالم تملكه أمريكا أغنى دولة في العالم والمصنع الثاني تملكونه أنتم.. تملكه مصر.

عمل وطني

ثم بـدأت الجولـة.. إن هـذه المصـانـع الضخمـة لم يكن الهـدف الأول لإنشائها هـو مجرد الـربح المـادي. كان لهـا هدف عـام. هدف يتجه للمصلحة العليا لمصر. قبل أن يتجه للمصلحة الخاصة للمساهمين. وذلك الهدف هو توفير السماد. من أجل هذا رسم احمد عبود في ذهنه خطة إنشاء مصنع للسماد.. وتم للرجل ما أراد.

* وفي أول يوليو ١٩٥٠ كتب هيكل صفحتين (٧ و٨) في «أخبـار اليوم» تحت عنوان:

١٢٣ فداناً من الصحراء تتحول إلى مدينة صناعية جبارة.

الخبراء الإنجليز والأمريكيون والهـولنديـون والفرنسيـون والألمان يشيـدون بضخامة المشروع.

وقـال هيكل في هـذا المقـال.. عن اجتـماع الجمعيـة العمـوميـة للشركـة المصرية للأسمدة والصناعات الكيماوية:

وكـان اجتماع الجمعيـة في القاعـة المواجهـة لمكتب صاحب السعـادة أحمد عبود باشا في شركة السكر، وجلس عبود باشا وبجواره شريف صبري باشا، ثم بـدأ بعض أعضاء الجمعيـة العموميـة يتكلمون.. وقـال بعض الأعضاء لعبـود باشا:

ـ نحن نكتفي بأن عبود يعمل معنا. وهذا وحده مدعاة للاطمئنان.

* وفي ٢٠ فـبراير ١٩٥٢ كتب هيكـل في «آخر سـاعـة» صفحتـين (٢٠ و٢١) تحت عنوان:

أخبار سارة في اجتماع الجمعية العمومية لشركة التقطير.
المساهمون يطلبون مشروعات جديدة من عبود باشا.

وقال في هذا المقال:

كانت الأوساط الاقتصادية متجهة باهتمامها في الأسبوع الماضي إلى شركة التقطير المصرية.

فقد أذيع أن شركة التقطير في السنة الثانية من عمرها قد قررت أن توزع أرباحاً قدرها عشرون في المائة على كل سهم من أسهمها.

وبدت هذه الأوساط متفائلة، وسرى هذا التفاؤل منها إلى أعضاء الجمعية العمومية للمساهمين الذين قالوا لعبود باشا في بداية الاجتماع: إنهم يريدون شراء أسهم جديدة، وقال عبود باشا إنه ليست لديه أسهم. وضحك وقال:

- إن شركة التقطير هي أول شركة أنشأتها ولا أحتفظ لنفسي من أسهمها إلا بعدد قليل جداً.

* كما نشر مقالاً إعلانياً في آخر ساعة في ٥ مارس ١٩٥٢، يدافع فيه عن أحمد عبود، في موقف الحكومة منه في موضوع سعر السكر.. وجاء في هذا المقال:

إن عبود باشا يوافق مساهمي شركة السكر على أن الأرباح ضئيلة ويرجع الأسباب إلى أن الحكومة تفرض علينا سعر القصب الذي نشتريه لنصهره ونستخرج منه السكر. ومن ناحية أخرى فإن الحكومة تحدد لنا السعر الذي نبيع به السكر الذي ينتج.

إننا نطالب بوضع سياسة ثابتة للسكر لا تضيع حق المساهمين في الشركة.

* ولم يكتف هيكل بكتابة المقالات الإعلانية عن عبود باشا.. ولكنه كتب أيضاً عن المرحوم الخواجه بيني زوربيني ومن بعده ديمتري زربيني أصحاب «شركة أقطان كفر الزيات» ومصانعها بالإسكندرية وكفر الزيات.

وقال في هذا المقال:

«وبفضل الجهود المتواصلة التي قام بها مؤسس هذه الشركة المرحوم الخواجة بيني زربيني ومن بعده جناب المحترم ديمتري زربيني أصبحت مصانعها مفخرة للتقدم الصناعي المصري فهي إذن قصة الصبر والكفاح والإيمان.

كـما أن الشركة لم تنسَ واجبهـا نحو عـمالها فهي تسـاهم في حمايتهم وقـد أمنت عليهم وقـدمت لهم كل مـا في وسعها من معـونة ومسـاعـدة وأعـدت لهم كفايتهم من الغذاء الجيد وهي تقوم الآن بإنشاء مـطعم على أحـدث الأنظمـة، ويتنـاول العمال طعـامهم يوميـاً بالمجـان، كما أنها أنشـأت عيادة كـاملة، وتقدم الشركة الدواء بالمجان لعمالها وعائلاتهم بعـد أن يفحصهم الأطباء المتخصصـون وهي لا تتـوانى بعد في إرسـالهم إلى المستشفيات الخـاصة كلما دعت الحـالـة إلى ذلك».

* كما كتب هيكل عن أسرة «سباهي». صفحة كاملة في «أخبار اليوم» في العدد ٦٥ بتاريخ ٣ يناير ١٩٤٨ . . وقال في مقاله، تحت عنوان:

قصة أسرة . . وكفاح نصف قرن

القصـة ضمن أسرة سبـاهي «شركـة سبـاهي الصنـاعيـة لخيط الغـزل والمنسوجات وصور من المصنع بعضهـا يمثل المنشـآت الاجتماعيـة تظلهـا مئذنـة المسجـد» تحدث عن كفـاح كل أجيال الأسرة البطولي . . حتى وصـل إلى الجيل الخامس من الأسرة فقال:

وفي هذا الجيل . . الجيـل الخامس من الأسرة . . أطفـال لا يزيـد عمرهم على سنة أو سنتين. ولكنهم منذ الآن يلبسون ملابس العـمال الزرقـاء ويسمعون أول ما يسمعون في حيـاتهم دوي الآلات والأنوال ومـاكينات النسيـج والطبـاعة والصبـاغة وتمـتزج في دمهم التقاليـد التي سارت عليهـا أسرة «سباهي» بـالاتجاه الذي اختطوه لأنفسهم ولم يخرجوا عنه قط..

* * *

ونشر صـورة لعميد الأسرة . . وصـورة أخرى لـطفل من الأسرة يـرتدي ملابس العمال!

وهذه أمثلة قليلة، مما كتبه هيكل عن عبود باشـا، مقابـل عشرة جنيهات عن كـل مقـال إعـلاني . . وربمـا كـانت هـذه، من أكـبر السقـطات في حيـاتـه كصحفي . . لأن صـاحب القلم، لا يسخـر قلمـه في خـدمـة الإعـلانـات المدفوعة . . فهذا إهدار لكرامة القلم . . وحرية الرأي . .

ومن هذه الصلة بين قلم هيكل وإعلانات عبود باشا، نشأت بعد ذلك صداقة بين الاثنين هيكل وعبود.. ولكن هيكل، بعد أن قامت الثورة، وبعد صدور القرارات الاشتراكية بتأميم شركات عبود، وتطبيق قانون الإصلاح الزراعي على ممتلكاته... كان من أول الأقلام التي هاجمت عبودا.. أو في القليل أصبح هيكل اشتراكياً يتحدث عن حقوق الفقراء أمام أصحاب الملايين!.. وأصبح يعرض أضرار الاقتصاد الرأسمالي الذي يعطي نصيب الأسد لأمثال عبود باشا!

وكل هذا يفقد الثقة في مواقف صاحب القلم!

كتب هيكل مثلاً في ٦ نوفمبر ١٩٦١ في «الأهرام» تحت عنوان:

المراكز الممتازة في الاقتصاد المصري وكيف تم احتلالها؟

ليس بقصد الإساءة إلى أحد أرسم هذه النماذج.. ولكن من أجل الحقيقة!

«وإذا نظرنا إلى الثروات في مصر لوجدنا أشياء تثير التأمل.

وأنا مثلاً أعتبر أن السيد أحمد عبود صاحب دور في الصناعة المصرية لا يمكن إنكاره.

ولكنني أريد أن أرسم صورة لثروة السيد أحمد عبود، وما لحق بها في عهد الثورة الاجتماعية.

إن مجموع ما أخذته الحكومة من السيد أحمد عبود هو كما يلي:

٦ مليون جنيه ثمن ٦ آلاف فدان في أرمنت وسعر الفدان فيها ألف جنيه. وقد تم الاستيلاء عليها بمقتضى قانون الإصلاح الزراعي الأول.

٧ مليون جنيه تقريباً قيمة ضرائب كانت متأخرة على السيد أحمد عبود ودخلت بها الحكومة شريكة في شركة السكر التي كان يملكها السيد أحمد عبود.

٤ مليون جنيه تقريباً قيمة أسهم كان يملكها السيد أحمد عبود في بنك مصر وشركاته، وكان السيد أحمد عبود يملك في أسهم بنك مصر وحده ثمانين ألف سهم.

٥ مليون جنيه تقريباً قيمة أسهم كان يملكها السيد أحمد عبود في شركة البوسته الخديوية وكانت حافظة الأوراق المالية في هذه الشركة تساوي ثلاثة ملايين جنيه.

٢ مليون جنيه تقريباً قيمة أسهم كان يملكها السيد أحمد عبود في شركة السماد.

٦ مليون جنيه تقريباً قيمة أسهم كان يملكها السيد أحمد عبود في عدد مختلف من الشركات الصناعية والتجارية.

٣ مليون جنيه تقريباً قيمة أسهم كانت تمتلكها كريمته السيدة مونا عبود وقرينها السيد محمد علي حسين.

وبذلك يكون المجموع هو ما يقرب من ٣٣ مليون جنيه ثروة حصل عليها السيد أحمد عبود خلال حياته العملية.

ومع تقديري للذي قام به السيد أحمد عبود، فلست أتصور أن فرداً واحداً يستطيع في حياته إذا كان يدفع ضرائبه بانتظام، أن يكدس ٣٣ مليون جنيه في بلد لم يكن يزيد متوسط الدخل فيه عن ٣٦ جنيهاً في السنة للفرد قبل الثورة وعن ٥٠ جنيهاً في السنة للفرد بعد ٩ سنوات من الثورة..

وأذن كان هناك سوء في توزيع الثروة، فاحش ومخيف!

* * *

وبعد وفاة عبد الناصر، كتب محمد حسنين هيكل، يتباهى بأنه يكسب ملايين الجنيهات الاسترلينية من مؤلفاته التي تنشر في الخارج.. بل أنه حدد الثمن الذي يتقاضاه بالعملة الصعبة عن الكلمة الواحدة!.. ونسي هيكل مسألة سوء توزيع الثروة!

* وكتب في ٢١ فبراير تحت عنوان:

النجاح والحظ وجهاً لوجه:

وأحمد عبود يرحمه الله كانت القيمة الاسمية لإحدى شركاته وهي شركة بواخر البوستة الخديوية لا تزيد على مليون جنيه، وكانت قيمتها الفعلية تصل

إلى ثمانية ملايين، والفارق احتياطيات مختبئة، أو مدخرات.

وكان ذلك هو حال معظم الشركات الكبرى.

كان الفارق بين قيمتها في الدفاتر وقيمتها الفعلية عند إعادة التقدير على الواقع فارقاً خيالياً يمثل في الواقع ما استطاعت أن تراكمه من مدخرات.

وإذن كان هنا مجال الادخار الحقيقي ولم يكن المجال في أيدي جمهور المستهلكين.

وصحيح أنه ينبغي تشجيع جمهور المستهلكين على الادخار.

ولكن ذلك التشجيع لا ينبغي له أن يتناسى أوعية الادخار الضخمة داخل وحدات الانتاج.

ولعله في هذه النقطة يكمن الرد على الذين ينادون وحدات الانتاج الاشتراكية بأن تبيع منتجاتها بسعر التكلفة وبغير ربح.

* وكتبت في ٢١ يناير ١٩٦٦ تحت عنوان:

«وعي التاريخ وحساباته الدقيقة»:

عن الاقتصاد العربي قبل الثورة:

المواقع الثلاثة هي:

* مجموعة بنك مصر، ويلفت النظر أنه عندما جرى حصر أسهمه كان عدد الذين يملكون فيها عشرين سهماً أو أكثر هو ٢٥٠٢ .شخص ينتمون إلى حوالي خمسين أو ستين أسرة فقط ونصيبهم في ملكية أسهم البنك هو بنسبة ٨٦ في المائة من مجموعها!

وكان المليونير أحمد عبود يملك وحده ثمانين ألف سهم من أسهم بنك مصر يوم تأميمه. وفي نفس الوقت كانت هناك مصالح أجنبية ظاهرة في بعض شركاته.

شركة البيضا التي كانت تسيطر عليها مجموعة «برد افورد» البريطانية كانت شريكاً ضخماً في شركة كفر الدوار أحدث وأكبر شركات الغزل الرفيع التي يملكها البنك وقتئذ.

بعض الشركات البريطانية كانت تمتلك حصة مؤثرة في شركة مصر للتأمين.

* مجموعة أحمد عبود وفضلاً عن اتصالها بالمصالح الأجنبية فإنه يكفي في شأنها أن صاحبها ـ يرحمه الله ـ لم يكن يدفع ضرائبه وكان صدامه مع رئيس وزراء مصر الأسبق نجيب الهلالي بسبب إقدام حكومته لأول مرة على مطالبة عبود بأحد عشر مليون جنيه من الضرائب المستحقة بغير دفع، والقصة الذائعة تروي كيف أن عبود دفع مليون جنيه للملك فاروق لكي تتغير وزارة الهلالي بوزارة أخرى تسكت عن ضرائب عبود حتى تسقط بالتقادم وذلك حدث بالفعل. وان كان قيام ثورة في ٢٣ يوليو قد ربك الخطة وأفسدها وكان دخول الحكومة لأول مرة في شركة السكر مع عبود هو تطبيقاً لقرار تحكيم قضائي أثبت حقها في خمسة ملايين ونصف المليون من متأخرات الضرائب على أحمد عبود.

* * *

وعندما واجه المحقق في مكتب المدعي العام الاشتراكي، محمد حسنين هيكل، بأنه كان يكتب مقالات إعلانية عن عبود باشا مقابل جنيهات معدودة.. ويروج له كصاحب ملايين، ويدعو للاقتصاد الرأسمالي.. مما يتنافى أولاً مع رسالته كصحفي لا يليق أن يكتب إعلانات.. ومما يتنافى ثانياً مع ما كتبه بعد الثورة ضد رأسمالية عبود، واستغلاله، وتهربه من دفع ضرائب الدولة..

قال هيكل في إجابته.. ان كل الصحفيين يتولون تحرير المواد الاعلانية، وأنه ربما أجرى تصحيحاً أو إعادة لصياغة هذه المواد الاعلانية لحساب أخبار اليوم التي كانت تعاني في هذا الوقت أزمة مالية..

وهذه إجابة كاذبة، لأن الصحفيين الذين يحترمون أقلامهم، لا يكتبون إعلانات، ولكن كيف وصل الأمر إلى المدعي العام الاشتراكي؟..

تلقيت خطاباً مؤرخاً في ١٩ سبتمبر ١٩٨١ من المستشار يوسف دراز مساعد المدعي العام الاشتراكي هذا نصه:

سري وشخصي

صادر برقم ٤٠٦ ض / و

السيد الأستاذ رئيس مجلس إدارة مؤسسة
دار أخبار اليوم

تحية طيبة وبعد:

نرجو موافاتنا بالملف الخاص بالسيد محمد حسنين هيكل.

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام

مساعد المدعي العام الاشتراكي
رئيس المكتب الفني
يوسف دراز

تحريراً في ١٩٨١/٩/١٩

وقد أرسلت ملف محمد حسنين هيكل كاملاً، وبه كل أوراقه، ومنها توقيعه على إيصالات عديدة بتسلم مبالغ مقابل كتابة مقالات عبود.

وفي ١٨ نوفمبر تلقيت الخطاب التالي من مساعد المدعي العام الاشتراكي وهذا نصه:

السيد الأستاذ رئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم
تحية طيبة، وبعد:

بمناسبة تحقيق ما تضمنه ملف خدمة الأستاذ محمد حسنين هيكل الوارد إلينا من مؤسستكم متصلاً بتقاضيه مبالغ مالية لقاء تحرير مواد صحفية إعلانية لشركات عبود باشا.

نرجو الاحاطة أنه لدى سؤاله بخصوص هذه الواقعة قرر أن كل الصحفيين يتولون تحرير المواد الاعلانية وأنه ربما أجرى تصحيحاً أو إعادة لصياغة هذه المواد الاعلانية لحساب جريدته التي كانت تعاني في هذا الوقت أزمة مالية.

ونرجو موافاتنا بجميع المواد الصحفية الاعلانية التي حررها المتحفظ عليه المذكور وما عساه يكون قد نشر في صحف مؤسستكم في هذا الشأن.

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام..

مساعد المدعي العام الاشتراكي

رئيس المكتب الفني

تحريراً في: ١٩٨١/١١/١٨ (يوسف دراز)

وقد أرسلت إلى مكتب المدعي العام الاشتراكي، جميع المقالات الاعلانية التي كتبها محمد حسنين هيكل.. ومرفق بها:

خطاب من عثمان العبد مدير عام الاعلانات، يقرّر فيه أن كبار الصحفيين لا يكتبون مقالات إعلانية.

وخطاب من مصطفى أمين عن الموقف المالي للمؤسسة.

وخطاب من عبد العزيز عبد العليم مدير المؤسسة عن موقفها المالي.

وهذه نصوص الخطابات المتبادلة في هذا الشأن:

١٩٨١/١١/١٩

السيد الأستاذ مساعد المدعي العام الاشتراكي

(رئيس المكتب الفني)

تحية طيبة..

رداً على كتاب سيادتكم لنا المؤرخ في ١٩٨١/١١/١٨ بشأن علاقة الأستاذ محمد حسنين هيكل بالمواد الاعلانية التي كانت تنشر لشركات عبود باشا أتشرف بأن أرفق:

١ ـ خطابي إلى الأستاذ مصطفى أمين يطلب توضيح الوقائع المشار إليها في كتاب سيادتكم، ورد الأستاذ مصطفى أمين بوصفه كان صاحباً لدار أخبار اليوم في ذلك الوقت ورئيساً للتحرير.

٢ ـ رد الأستاذ مصطفى أمين.

٣ ـ كتاب من الأستاذ عبد العزيز عبد العليم المدير العام للمؤسسة عن

الـوضع المـالي لصحيفة أخبـار اليوم منـذ صدورهـا. وهو يعمـل بالمؤسسـة منذ إنشائها.

٤ ـ كتاب من الأستاذ عثمان العبد المـدير العـام للاعـلانات عن أن كبـار الصحفيين لا يكتبون إعلانات ولا يتقاضون أي أجر من إدارة الاعلانات، وهو يعمل بالمؤسسة منذ إنشائها.

ولسيادتكم كل الشكر،

رئيس مجلس الادارة

موسى صبري

ملحوظة: مرفق في مظروف بعض من اعداد صحف أخبار اليوم التي نشرت بها إعلانات عبود باشـا وشركة أخرى.

الأستاذ موسى صبري

رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم

تحية طيبة:

ردآ عـلى خـطاب السيـد مسـاعـد المـدعي العـام الاشـتراكي المؤرخ ٨١/١١/١٨ أذكـر أنه غـير صحيح أن كـل الصحفيين يتـولـون تحـريـر المـواد الاعلانية، وأنه غير صحيح أن أخبار اليوم كانت تعاني أزمة مالية واعتمدت على إعلانات شركات عبود باشا للخروج من هذه الأزمة.

تحريراً في ١٩٨١/١١/١٨ **مصطفى أمين**

القاهرة في ١٨ نوفمبر ١٩٨١

السيد / الأستاذ مصطفى أمين

تحية طيبة وبعد...

لقد صدرت جـريدة أخبـار اليوم في ١٩٤٤/١١/١١ ولقـد ولدت هـذه الجريدة عملاقة منذ صدورهـا ومن أجل ذلـك كانت البنـوك وشركات التـأمين تتهـافت على التعـامل معهـا، لإقتناعهـا بفكرة إصـدار هـذه الجـريـدة وثقـة في صاحبيها الأستاذين مصطفى أمين وعلي أمين.

١ ـ فقامت شركة مصر للتأمين بتمويل شراء الأرض الخاصة بهذه الجريدة ومقرها ٦ شارع الصحافة.

٢ ـ كان البنك العربي يموّل بعض مشاريعها مثل شراء ماكينة طباعة الروتوغرافور (Thrissel) وبعض ماكينات أخرى كما قام بتمويل شراء قطعتي الأرض رقمي ٥ و ٧ شارع الصحافة ببولاق.

٣ ـ قام بنك مصر بتمويل ماكينة الطباعة الروتاتيف Scott Vickers.

هذا وقد تكلفت هذه المشاريع أموالاً كثيرة.

إن تهافت البنوك وشركات التأمين على مشاريع أخبار اليوم دليل على قوة إقتصادها.

هذا ولم يحدث في يوم من الأيام أي منذ صدور الجريدة في ١١ نوفمبر ٤٤ ولغاية ٢٣ مايو سنة ١٩٦٠ وهو تاريخ تنظيم الصحافة إن كانت دار أخبار اليوم في ضائقة مالية أو لجأت إلى عبود باشا للخروج من هذه الضائقة بل أن شركات عبود باشا هي التي كانت تلجأ إلى صحف أخبار اليوم للاعلان عن منتجاتها أسوة بغيرها من العملاء.

وتفضلوا بقبول وافر التحية..

المدير العام
عبد العزيز عبد العليم

القاهرة في ١٩٨١/١١/١٨

السيد الأستاذ رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم

تحية طيبة وبعد..

رداً على استفسار سيادتكم بشأن هل المحررون كانوا يتولون تحرير المواد الاعلانية أو يتقاضون أجراً عنها فأتشرف بأخباركم بأنه من المدة ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ يوم صدور أخبار اليوم إلى مايو سنة ١٩٦٠ وهو تاريخ تنظيم الصحافة لم يتقاض أي واحد من كبار الصحفيين المذكورة أسماؤهم أي أجر عن أي إعلان ولم يكتبوا إعلاناً واحداً.

السادة:

محمد التابعي
توفيق الحكيم
أحمد الصاوي محمد
محمد توفيق دياب
عباس محمود العقاد
جلال الحمامصي
موسى صبري
مصطفى أمين
علي أمين
كامل الشناوي
محمد زكي عبد القادر
ابراهيم عبد القادر المازني

وتفضلوا سيادتكم بقبول تحياتي..

المدير العام
عثمان العبد

احتضن علي أمين الصحفي الواحد محمد حسنين هيكل.. وكان يرى فيه كفاءة وموهبة.. وعاونه كثيراً في حياته، وقدم له المزيد من الفرص.. وأسهمت «أخبار اليوم» في تأثيث منزل هيكل، حتى يظهر بالمظهر اللائق.. وكذلك في تكاليف زواجه.. حتى بدأت علاقة هيكل بجمال عبد الناصر بعد قيام الثورة تولد وتنمو.. ومن هنا بدأ هيكل يفكر في بناء نفسه وحده بعيداً عن التوأمين.. وخاصة بعد أن اقترب من عبد الناصر الذي كان يريد صحفياً يعبّر عنه.. وبعد أن لاحظ أن عبد الناصر لا يثق في التوأمين..

وحدث مرة أن كان الدكتور أحمد حسين سفيرنا في واشنطن، في لقاء مع عبد الناصر في برج العرب وكان معه هيكل.. وفي ذلك الوقت ـ وكانت قد بدأت فجوة في العلاقات بين عبد الناصر وأمريكا ـ كان عبد الناصر غاضباً من خبر أو مقال (لا أذكر) نشر في أخبار اليوم، وأعرب عن غضبه أمام الدكتور

أحمد حسين وهيكل بعبارات ساخنة أخفها «أنا عارفهم كويس. . دول عملاء أمريكا. . وأنا أعرف أوقفهم عند حدهم ازاي». . وعاد السفير وهيكل معاً، وفي الطريق قال السفير لهيكل. . لازم تقول لمصطفى وعلي وتنبهم إلى ما قاله عبد الناصر. وكان رد هيكل: أنا ما ليش دعوة . . ولكن أحمد حسين أبلغ التوأمين بكل تعليق عبد الناصر، حتى يكونا على بينة من أمرهما.

* * *

ولكن كيف بدأت علاقة هيكل بعبد الناصر. . وكيف نمت إلى مستوى الثقة الكاملة؟. .

قصة البداية، كتبها هيكل في أربع روايات مختلفة. وهذا ما كشفه الصحفي رشاد كامل المحرر بدار روز اليوسف. وقد أورد هذه الروايات بتواريخها. . وتساءل أي رواية نصدقها؟!.

وهذا هو أسلوب هيكل، الذي شارك في صحافة الإثارة في أخبار اليوم. . وهو أن يطلق لخياله العنان، في كثير من الوقائع.

وفي إحدى روايات هيكل، قال أنه قابل الضابط جمال عبد الناصر لأول مرة في ٢ يونيو ١٩٤٨ في «المنشية». . والحقيقة أنه قابل الضابط جلال ندا في ذلك اليوم. وقد أصبح جلال ندا محرراً في أخبار اليوم، بعد أن ترك الجيش بإصابة خطيرة. . واقترب منه هيكل، وكان جلال ندا على صلة قوية باللواء محمد نجيب قبل الثورة، وصحب هيكل معه لزيارته في منزله في ١٨ يوليو ١٩٥٢. . ودخلا إلى المنزل، ووجدا اليوزباشي حسن فهمي حافظ مع اللواء نجيب. . ووصل بعدهما يوسف صديق وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. .

وسأل هيكل، جلال هامساً «مين ده؟» مشيراً إلى جمال عبد الناصر. فقدمه إليه جلال ندا. ولم يشأ الضباط أن يتحدثوا في شيء مع محمد نجيب أمام هيكل الذي انصرف مع جلال ندا.

ولكن هيكل كتب ـ بعد وفاة عبد الناصر ـ أنه ناقشهم في حركة الضباط. . وأنه قال لعبد النّاصر، أن الجيش يجب أن يرد كرامة نفسه. . وأنه

بعد أن انصرف وجد سيارة عبد الناصر عاطلة، وبها عبد الحكيم عامر، ووقف ثلاثتهم في محطة بنزين.. وخلال هذه الوقفة قال له عبد الناصر:

ـ «لو حصل أي شيء فإن الإنجليز سيتدخلون». ورد هيكل: لا أعتقد أن الإنجليز في وضع يسمح لهم بالتدخل، وراح يشرح لعبد الناصر على أي أساس بنى اعتقاده.

وقد نشر جلال ندا مقالاً في صحيفة الدستور، بتاريخ ١٨ اكتوبر ١٩٧٦ في الصفحة العاشرة، يكذب هذه الرواية من أساسها، ويقول أنه انصرف مع هيكل إلى أخبار اليوم مباشرة..

كما كذب رواية أخرى كتبها هيكل، عن لقائه لعبد الناصر وعبد الحكيم عامر، في ليلة ٢٣ يوليو.. في مبنى قيادة القوات المسلحة. وقال أن هيكل ذهب معه إلى مبنى القيادة، ليلة الثورة.. وأن مصطفى أمين اتصل به ليعرف ما يجري، وأن كل ما زعمه هيكل عن حوار دار بينه وبين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.. هو من خيال هيكل.

واستشهد جلال ندا في مقاله، بحديث لجمال عبد الناصر قاله في أول أغسطس ١٩٦٣، في حفل اليوبيل الفضي لدفعة يوليو ٣٨ في مقر أنطونيادس أمام ٩٠ ضابطاً من الدفعة. قال جمال عبد الناصر لزملائه: إحنا قبل الثورة رحنا عند نجيب علشان نبلغه عن تاريخ الثورة.. ولقينا جلال وهيكل وده صحفي، ولو عرف حاجة عن الثورة كنا رحنا في داهية..

* * *

إنني أذكر هذه الوقائع لكي أدلل فقط على خيال هيكل فيما يكتب.

ولكن المهم أنه عرف جمال عبد الناصر.. وأصبح يتردد على موقع القيادة مندوباً عن صحف أخبار اليوم.. وبدأ يكتب الأخبار التي يريدها عبد الناصر.. وكان يذهب إليه بالصور التي سينشرها في آخر ساعة ويعرضها عليه.. وحصل على بعض من مذكرات عبد الناصر.. وهكذا أخذ يقترب خطوة خطوة من القائد الحقيقي للثورة، بعد أن عرف أنه الرجل الأول، وأعجب عبد الناصر بأسلوبه.. واستعان به في كتابة «فلسفة الثورة».. وفي

ذلك الوقت كان عبد الناصر يستقبل كل الصحفيين.. وكان إحسان عبد القدوس ومصطفى أمين وحلمي سلام وحسين فهمي يتصلون بعبد الناصر تليفونياً، ويقابلونه.. إلى أن سافر عبد الناصر إلى مؤتمر باندونج.. والتقى لأول مرة بعدد كبير من زعماء العالم، الذين أبدوا اعترافاً واقعياً بزعامته.. وكان مثل هذا المؤتمر الدولي الكبير، حدثاً جديداً على تجربة عبد الناصر.. وكان يهمه أن يعرف ما يدور في كواليس المؤتمر، وأخبار هؤلاء الزعماء، والصدى الخارجي.. وكان هيكل في هذه الرحلة، وكان يقابل عبد الناصر يومياً مثل باقي الصحفيين المصريين، ولكنه تميز عنهم لدى عبد الناصر بشيء هام.. كان باقي الصحفيين يسألون عبد الناصر، ما الأخبار؟.. أما هيكل فقد كان يقدم لعبد الناصر الأخبار التي يريد سماعها.. وكان يجمعها من اتصالاته في المؤتمر وخاصة مع الصحفيين الأجانب.. وهكذا زاد اقتناع عبد الناصر به.. حتى انتقل إلى «الأهرام» رئيساً للتحرير.. وبدأ يكتب خطابات عبد الناصر، ثم مقاله الأسبوعي بصراحة، الذي كان يرسل بروفاته إلى عبد الناصر، ويعدل فيها كما يريد.. على عكس إدعاء هيكل بعد ذلك، بأنه كان يكتب ما يشاء.. وأن عبد الناصر كان يفاجأ بمقاله صباح يوم الجمعة!.. وقد روى لي عز العرب عبد الناصر شقيق عبد الناصر، كيف أن شقيقه كان يمضي وقتاً طويلاً في مراجعة مقال هيكل وتعديله بالشطب أو الإضافة..

ثم أمر عبد الناصر بإذاعة مقال هيكل اسبوعياً.. وإرساله بالبرقيات إلى سفاراتنا بالخارج، لأنه التعبير الصحيح عن الخط السياسي للدولة.. وكان السفراء ينتظرون مقال هيكل، لكي يتفهموا منه اتجاهات عبد الناصر..

وكان هيكل بارعاً، في تبرير كل قرار لعبد الناصر.. ولم يكتب حرفاً واحداً، بطبيعة الحال، عن الاعتقالات، أو عمليات التعذيب أو مآسي الوضع تحت الحراسة وامتهان كرامات الناس.. إلى أن وقعت الهزيمة المنكرة في ١٩٦٧.. وقامت مظاهرات الطلبة.. ووقعت أحداث مؤامرة عبد الحكيم عامر على السلطة، وانتحاره، وتقديم صلاح نصر وشمس بدران للمحاكمة العسكرية.. وهنا أراد هيكل بالإتفاق مع عبد الناصر، امتصاص غضب الرأي العام.. وتبرير كل أحداث قهر الحريات.. فكتب عدة مقالات، ألقى فيها

بـالمسئوليـة كلها فـوق رأس صلاح نصر. . ومنهـا مقـال عن زوار الفجـرا!. . وتقـرر إصدار بيـان ٣٠ مارس الـذي يعد بـالحياة الـديمقراطيـة بعد إزالـة آثار العدوان!

وتوفي عبد الناصر، وهيكل في أوج قوته ونفـوذه. . وتحالف مـع السادات ضـد باقي مـراكز القـوى، بعد أن أخـذ وعداً من السـادات بحمايتـه. . وكتب خطب السادات في المرحلة الأولى، حتى حرب أكتوبر. . ثم تغير الموقف، بعـد أن حد السادات من سلطاته، وأبعده عن دائرة الحكم التي كان سيدها في عهـد عبد الناصر. . وأخرجه من «الأهرام». . وتفصيل ذلك كله في كتابي «وثائق ١٥ مايو» و «السادات. . الحقيقة والأسطورة». .

وأعود إلى علاقة هيكل بمصطفى وعلي أمين. .

حـرص التوأمـان على استمـرار العلاقـة. . وكان هيكـل يتنـاول الغـداء أسبوعياً، على مائدة مصطفى أمين، بعد عمله في الأهرام. .

وكان عبد الناصر، قد قطع صلته بمصطفى أمين. . ثم عـين خالـد محيى الـدين رئيساً لمجلس إدارة أخبـار اليوم. . وتم الإفـراج عن الشيوعيـين، وعين الكثـير منهم في «أخبار اليـوم». . وشعر التـوأمان، أن الشيـوعية تحكم مصر. . فسعى علي أمين، أن يعمل في «الأهرام» مراسلاً لها في لندن. . وحقق له هيكل هذا المطلب، وحصل له على موعد من عبد الناصر، وقابله لوقت قصير، قبيـل سفره بالطائرة إلى لندن. .

أما مصطفى أمين، فقد استقر رأيه، أن يهرب من أموالـه ما يستـطيع إلى الخارج. . وأن يؤدي دوراً سياسياً، بصلته الطيبة مع الأمريكـان، وقد كـان هو وهيكـل رسولي عبـد الناصر الى الامـريكان في معـظم الأحداث الهـامة. وكـان مصطفى أمين يقدم أخباراً هامة إلى عبد الناصر نتيجة لهذه الصلة. . وفي الفترة الأخيرة، التي امتنع فيهـا عبد النـاصر عن لقاء مصـطفى أمين أو التحـدث إليه بالتليفون، أوجد مصطفى أمين صلة مع رجل المخابـرات الأمريكيـة في السفارة الأمريكية. . وكان يحاول الحصول منه على أخبار يمكن أن يقدمها لعبد الناصر، وكـان يقدم لـه في الوقت نفسـه أخباراً زاعمـاً أنـه حصـل عليهـا من الـرئيس

عبد الناصر. . وجرى هذا في صمت، إلى أن القى القبض فجأة على مصطفى أمين، بتهمة التخابر مع جهة أجنبية. .

كان خبر القبض على مصطفى أمين مفاجأة كبرى. . وكان الاتهام له مؤلماً. وخاصة أنه أذيع أن التسجيلات للأحاديث بين مصطفى أمين ورجل المخابرات الأمريكية، تثبت أن مصطفى أمين حرض الأمريكان، على وقف ارسال القمح الى مصر. . عقاباً لعبد الناصر على حلفه الجديد مع الشيوعيين. .

وانتهى الأمر بمحاكمة عسكرية سريعة. وقضى على مصطفى أمين بالأشغال الشاقة المؤبدة. والسؤال هو. .

ـ ما هي حقيقة هذا الاتهام؟. .

وما هو موقف هيكل من اتهام مصطفى أمين بالتجسس؟. .

أبدأ فأقول أن مصطفى أمين لم يكن جاسوساً، ولن يكون جاسوساً. وأن القانون المصري، يعاقب بجريمة التخابر، حتى لو كانت الأخبار التي يقدمها المصري إلى جهة أجنبية، عامة، ومعروفة، ومنشورة في الصحف، وليست سراً عسكرياً أو اقتصادياً أو سياسياً. .

لقد أراد مصطفى أمين أن يلعب دوراً سياسياً، يصل فيه إلى الحصول على خبر كبير عن الإدارة الأمريكية يقدمه إلى عبد الناصر، لكي يستعيد صلته بعبد الناصر. وفي الوقت نفسه كان يحرض السياسة الامريكية ضد سياسة عبد الناصر المتحالفة مع الشيوعية. . وكان مصطفى أمين يقدر، أنه لا حياة له إذا سيطرت الشيوعية في مصر. .

ووقع في المصيدة. . فلم يكن يتصور أنه مراقب، وأن تليفوناته مراقبه، وأن كل ما يدور داخل شقته بالزمالك يسجل في حينه. .

ولكن. . هل كانت القضية تلفيقاً من المخابرات المصرية. . وبالذات من صلاح نصر؟. .

الحقيقة أن مصطفى أمين لم يكن مراقباً. وكانت المخابرات تراقب

الأمريكي ممثل المخابرات تحت ستار العمل دبلوماسياً في السفارة الأمريكية. ولاحظوا أنه يتردد كل يوم أربعاء، على العمارة التي يسكنها مصطفى أمين.. وأنه يركن سيارته في أماكن مختلفة بعيداً عن العمارة، وأنه لا يصعد في الأسانسير إلى الدور السادس مباشرة حيث شقة مصطفى أمين.. بل يصعد إلى دور أعلى ويهبط، أو إلى دور أسفل، ويكمل على السلم..

وهكذا بدأت المراقبة والتسجيلات..

وقد عرض صلاح نصر الأمر على جمال عبد الناصر، وأمر بالاستمرار..

ولما قدمت التسجيلات إلى عبد الناصر، أبرز فيها الكلام المنسوب إلى مصطفى أمين تحريضاً للأمريكين على وقف معونات القمح إلى مصر.. (مع ملاحظة أن مصطفى أمين ينكر إنكاراً تاماً أنه قام بهذا التحريض، ويؤكد أن هذا من تلفيق المخابرات لإيغال صدر عبد الناصر ضده).

وهنا فقد عبد الناصر أعصابه.. وخاصة بعد أن سمع مصطفى أمين يدعي أخباراً ويقول لرجل المخابرات أن الرئيس هو الذي أخبرني بها!

ولهذا.. وافق عبد الناصر على محاكمة مصطفى أمين.

وماذا عن موقف هيكل؟

إن مصطفى أمين يعتقد حتى كتابة هذه السطور، أن هيكل هو الذي أوقعه في هذه الجريمة، وأنه السبب الأول والأخير في القبض عليه وسجنه..

ورأيي أن هذا غير صحيح.

والسبب بسيط. لقد كان هيكل أكثر المذعورين من القبض على مصطفى أمين بهذه التهمة. وكان يخشى أن تجر رجله الى القضية، على أنه شريك في الجريمة، لأنه كان يقابل مصطفى أمين في منزله اسبوعياً، ويمده بأخبار كثيرة.. ولا شك أن هذه المقابلات مسجلة!.. ولذلك فإن هيكل، في سبيل ـ الخلاص بجلده كما يقولون ـ شن ضد مصطفى أمين حملة شحواء، استنكاراً للجريمة البشعة..

ولم يهدأ لهيكل بالاً، حتى اطمأن إلى أنه خارج نطاق الاتهام..

وكان علي أمين يرى أيضاً ـ على عكس اقتناع مصطفى أمين ـ بأن هيكل ليس له يد في الإيقاع بمصطفى أمين. .

وعندما سمح السادات لعلي أمين بالعودة إلى مصر. . كان دائم الاتصال بهيكل. . ولكن عواطفه تبدلت نحو هيكل، بعد الإفراج عن مصطفى أمين الذي أمكنه التأثير على شقيقه. .

ولكننا جميعاً، لا نقر هيكل في سلوكه الأخير، بإصدار كتاب عن قضية مصطفى أمين، أراد فيه، وبذكاء، أن يثبت إدانة مصطفى أمين بتهمة التجسس. . وهذا ظلم لمصطفى أمين، وتصرف غير أخلاقي في الوقت نفسه.

* * *

وكل ذلك، لا يحجب حقيقة أن هيكل ظاهرة في الصحافة المصرية. . فعلى عكس كل التوقعات، فإن هيكل لم يمت كصحفي بعد أن أخرجه السادات من «الأهرام». . لقد بدأت مقالاته تظهر في الصحافة العربية، وبأجر كبير، وكانت هذه الصحافة تستخدمه في التشهير بحكم السادات. . وأخطأ السادات مرتين. . عندما عرض على هيكل منصباً وزارياً بعد أن أخرجه، وفي مرحلة صلح. . فقد رفض هيكل، وكان طبيعياً أن يرفض. . لأنه كان يعلم أن السادات سوف يخرجه من الوزارة بعد حين. . وتاجر هيكل بهذا العرض. وأخطأ السادات مرة أخرى عندما قرر اعتقال هيكل، والتحقيق معه أمام المدعي العام الاشتراكي. كان الاعتقال رصيداً جديداً يضيفه هيكل إلى نفسه. . كما أن التحقيق فقد كل أساس لأي اتهام. . بسبب عرض السادات المنصب الوزاري على هيكل. . فإذا كان هيكل يحمل كل البلاوي وجرائم الفساد السياسي. فلماذا عرض عليه أن يكون وزيراً معه؟. . وانتقم هيكل من السادات بعد موته شر انتقام. وأصدر كتاب «خريف الغضب» المليء بالأكاذيب التي تشهر بالسادات. وتوليت الرد على كل هذه الأكاذيب في كتابي «السادات. . الحقيقة والأسطورة». .

* * *

بقي الحكم الموضوعي. . على «ظاهرة هيكل» في الصحافة المصرية. .

هيكل بنى «الأهرام» الجديد.. وهذا له. ولكنه قتل الصحافة المصرية. كان من أشد المناصرين لفرض الرقابة القاسية على الصحف.. في الوقت الذي كان هو لا يراقب.. واحتكر نشر كل الأخبار الممنوعة.. وعمل هو رقيباً عاماً على الصحف. سواء عندما كان وزيراً، أو قبل ذلك..

فكانت أمور النشر الهامة، تعرض من وزير الأعلام على هيكل بأمر من جمال عبد الناصر. وقد حدث هذا، عندما أذيع ما سمي باعترافات مصطفى أمين التي كتبها من السجن بعد القبض عليه.. لقد أرسلها محمد فائق وزير الأعلام إلى هيكل، بأمر من عبد الناصر، وحذف منها ما شاء قبل النشر..

وحدث هذا أيضاً بالنسبة لبيان النائب العام عن حادث انتحار المشير عبد الحكيم عامر، لقد حذف منه هيكل سطوراً من فقرات عديدة.

لم يكن هيكل إذن، سواء بشخصه، أو باختصاصه، أو بقلمه مع حرية الصحافة.. في أي وقت.

وهيكل مسئول، عن جيل من الصحفيين، نشأ في ظل هذا القهر، وتحول إلى جيل من الموظفين.

وكان هيكل هو الذي أمر بفصل عدد كبير من الصحفيين من مؤسسة أخبار اليوم وتعيينهم في شركات القطاع العام..

وهو ينكر هذه الواقعة، ولكنها صحيحة جملة وتفصيلاً.. وكنت شاهد عيان.

عندما قرر جمال عبد الناصر، إخراج خالد محيي الدين من رياسة مجلس ادارة أخبار اليوم، وعين محمد حسنين هيكل رئيساً لها، مع رياسته لمجلس إدارة الأهرام.. قال لي ذات صباح.. لقد قررت توفيراً في الميزانية، إخراج عدد من المحررين.. واعترضت. وحذرته من عاقبة هذا القرار. وأردته أن يعدل، فقلت له إن ثورة ستقوم في نقابة الصحفيين. ولكنه رد علي بكل ثقة: طظ.. أنا ما يهمنيش النقابة.

ولما حوسب هيكل على ذلك، بعد وفاة جمال عبد الناصر.. أنكر الواقعة إنكاراً تاماً، ونسبها إلى علي صبري!

إن كل ما فعله هيكل لتأمين نفسه، أنه لم يوقع قرار الفصل والنقل، واتفق أن تتلقى أخبار اليوم قراراً رسمياً بذلك. وتصور أنه يكون بذلك في مأمن من المحاسبة. وحتى لو صدر القرار من الحكومة ـ وهذا فرض غير صحيح ـ كان يستطيع هيكل، لو كان مؤمناً بحماية حق الصحفي في العمل، أن يرفض القرار. . وكان هو صاحب النفوذ الأكبر. .

وأذكر أنه في اجتماع مجلس التحرير، برياسة هيكل، الذي أعلن فيه، قرار الاستغناء عن عدد من الصحفيين، أن ذكر أمام الزملاء أنني معترض على القرار.

وهذا هو نص القرار:

مكتب
نائب رئيس الوزراء
للثقافة والإرشاد القومي
٤٨٧
٦٦/٦/٤
رقم: ٦٥/٦/٢/١٠

الدكتور قاسم فرحات
أخبار اليوم
تحية طيبة وبعد،

نرسل لسيادتكم مع هذا صورة من الكشف المرفق بكتاب من مكتب السيد رئيس الوزراء رقم ١٦٥٦ بتاريخ ١٩٦٦/٢/٨، ومرفق به الكشف المشار إليه بأسماء السادة محرري أخبار اليوم الذي تقرر نقلهم الى المؤسسات الموضحة قرين اسم كل منهم. . برجاء التنبيه باتخاذ اللازم وإبلاغ المؤسسات بالبيانات اللازمة عن كل منهم ومرتباتهم.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

١٩٦٦/٢/٩

وكيل الوزارة

فتحي بركات

صورة لمكتب السيد رئيس الوزراء (السيد وزير الدولة ـ شعراوي جمعة)

بيان بأسماء من تقرر نقلهم من مؤسسة أخبار اليوم الى المؤسسات العامة

١ ـ السيد محمد السعيد عارف
٢ ـ السيد نسيم عمار
٣ ـ السيد حسين القباني
٤ ـ السيد رفعت السعيد
٥ ـ السيد سمير أمين تادرس
٦ ـ السيد أسعد حليم المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
٧ ـ السيد محمد جلال مظهروكالة أنباء الشرق الأوسط
٨ ـ السيد ابراهيم يونس المؤسسة المصرية العامة للسينما
٩ ـ السيد محمود عبد العزيز حنفي المؤسسة المصرية العامة للسياحة والفنادق
١٠ ـ السيدة عواطف شرباص المؤسسة المصرية العامة للنقل الجوي
١١ ـ السيدة فاطمة عنان المؤسسة العامة للدواجن
١٢ ـ السيدة ليلى حنفي ياسين الهيئة العامة للإنتاج الزراعي
١٣ ـ السيد عبد الحليم أحمد طه المؤسسة العامة للحوم
١٤ ـ السيد علي الشيخ
١٥ ـ السيد أحمد نوار المؤسسة المصرية التعاونية الزراعية العامة
١٦ ـ السيد علي الشلقاني المؤسسة المصرية العامة للصناعات المعدنية (شركة الحديد والصلب المصرية)
١٧ ـ السيد نشأت اسكندر المؤسسة المصرية العامة للصناعات الهندسية
١٨ ـ السيدة كريمة عبد الرازق المؤسسة المصرية العامة للتعاون الانتاجي والصناعات الصغيرة
١٩ ـ السيد سعيد حبيب المؤسسة المصرية العامة للبترول
٢٠ ـ السيد أحمد طه المؤسسة المصرية العامة للأبحاث الجيولوجية والتعدين
٢١ ـ السيدة نوال منير المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية
٢٢ ـ السيد ابراهيم العربي المؤسسة العامة للصناعات الكيماوية
٢٣ ـ السيد أحمد وجيه عباس المؤسسة المصرية العامة للمطاحن والمضارب والمخابز

٢٤ ـ السيد حنفي عاشور
٢٥ ـ السيد عمر فتحي ولايةالمؤسسة المصرية التعاونية الاستهلاكية
٢٦ ـ السيد اسماعيل الحكيمالهيئة العامة للتأمين والمعاشات
٢٧ ـ السيد اسماعيل يونس الهيئة العامة للتأمينات والمعاشات
٢٨ ـ السيد داود عزيز
٢٩ ـ السيد وليم اسحق الهيئة العامة لشئون المعارض والأسواق الدولية
٣٠ ـ السيد محمد عبد المنعم عبد العزيزالمؤسسة المصرية العامة للتجارة
٣١ ـ السيد سعد التائه المؤسسة المصرية العامة للأدوية والكيماويات والمستلزمات الطبية
٣٢ ـ السيد يوسف عبد الحليمالمؤسسة المصرية العامة لتعمير الصحاري
٣٣ ـ السيد محمود شبانة المؤسسة العامة للنقل البري للركاب بالأقاليم
٣٤ ـ السيد سعيد اسماعيل محمدالمؤسسة المصرية العامة للنقل الداخلي
٣٥ ـ السيد سامي حكيم المؤسسة المصرية العامة لبناء الاسكندرية
٣٦ ـ السيد سمير مسعود
٣٧ ـ السيد محمد المستجير المؤسسة المصرية العامة لأعمال التشييد والبناء
٣٨ ـ السيد مازن البندك جاري بحث حالته

* * *

وفي ١٨ نوفمبر ١٩٦٧ ، وتحت ضغط من أنور السادات رئيس مجلس الشعب، أعاد هيكل الى أخبار اليوم، كلا من ابراهيم يونس واسماعيل يونس وسعيد حبيب. . بعد رجاء من أحمد يونس عضو مجلس الشعب وشقيق كل من ابراهيم واسماعيل.

وهذا نص القرارات:

القاهرة في ١٨ نوفمبر ١٩٦٧

الى ادارة أخبار اليوم

تقرر اعادة السيد اسماعيل يونس للعمل بالمؤسسة بنفس مفردات المرتب

الشهري الكامل الذي كان يصرف له وقدره ٤٧,٠٥٧ (فقط سبعة وأربعون جنيهاً وسبعة وخمسون مليماً لا غير).

وذلك اعتباراً من أول ديسمبر سنة ١٩٦٧ ـ

رئيس مجلس الادارة
محمد حسنين هيكل

ونفس نص القرار بالنسبة لابراهيم يونس بمرتب ٢٠,٠٩٢ (فقط عشرون جنيهاً واثنان وتسعون مليماً) والسعيد حبيب بمرتب ٢٩,٥٦٧ (فقط تسعة وعشرون جنيهاً وخمسمائة وسبعة وستون مليماً لا غير).

* * *

وقد حاول هيكل في كل المناسبات، أن يتبرأ من كل مواقفه السابقة خلال حكم عبد الناصر، تأييداً لقهر الحريات والتعذيب، وقتلاً لحرية الصحافة، وتشريداً للصحفيين.. ثم غطى كل هذا الماضي، بحملة شريرة مسعورة على حكم أنور السادات، رحبت بها بعض الصحف العربية التي كانت تعبر عن كل القوى المناهضة لمصر..

ولعل من أكبر سقطات هيكل.. الحديث الذي نشره له صديقه رئيس تحرير السنداي تايمز (وقد عزل) في ٢١ فبراير ١٩٨٢ الذي قال فيه ان قتلة السادات أصبحوا أبطالاً وطنيين، وأن محاكمة القتلة تحولت الى محاكمة للسادات.. وأن الشعب سيعيش يوم أحزان، إذا أعدم القتلة!..

وقد رددت عليه بمقال في الأخبار يوم ٢ مارس ١٩٨٢ بعنوان «رسالة الرجال.. لا دور الأفاعي».. ثم حاول أن يتنصل من وصف القتلة بالأبطال، في حديث مع «المصور» قال فيه انه يقصد إعجاب الناس بمعنى البطولة، بما يشبه الإعجاب بمجرم الصعيد المشهور «الخط» أو بطل حلقات دالاس التليفزيونية!

وأسجل أنني تلقيت من القراء، عدداً ضخماً من رسائل الإعجاب بما كتبت، والاستنكار لسلوك هيكل اللاأخلاقي.. ولا زلت أحتفظ بهذه الرسائل، لأنني أعتز بهذه المشاعر المصرية النظيفة في سطور أبناء الشعب.

وعندما تولى حسني مبارك رياسة الدولة، حاول هيكل أن يكون له دور قريباً من الرياسة. . وفشلت كل محاولاته، ولم يستطع أن يحوز على ثقة مبارك.

ولكن. . يبقى هيكل، الكاتب المقروء، والصحفي صاحب الأسلوب، والمحقق الجذاب. . ولم يبتعد عن النشاط العام.

ولكن كلماته فقدت بريقها وتأثيرها. . لأن مقاله خلال حكم عبد الناصر، وفي الفترة الأولى من حكم السادات، كان يعتمد على ما به من أخبار وأسرار كان ينفرد بها. ولما خرج هيكل الى نطاق المنافسة العامة، بغير أي تميز، استمرت تحقيقاته مقروءة ولكن دون ذلك البريق الذي كان يخطف الأبصار. .

الفصل الخامس والثلاثون

أزمات مع السادات!

أخطر أزمة ـ لم أحرم من مرتبي في عهد عبد الناصر ـ الدكتور عبد القادر حاتم اقترح فصلي وكان يظهر لي المودة ! ـ حدود علاقتي مع السادات . . الصلة لا الاتصال ـ أزمة أشرف مروان ـ أزمة عثمان أحمد عثمان ـ السادات يهاجمني على شاشة التليفزيون بسبب مقال عن الشاه ـ الألم الحقيقي للسادات شعوره أنني أجامل مصطفى أمين على حسابه ـ أقطاب المعارضة طلبوا من حسني مبارك فصلي ـ تعيين حلمي سلام في آخر ساعة .

الفصل الخامس والثلاثون

أزمات مع السادات!

واجهت في عملي الصحفي، أزمات عديدة، ربما كان أخطرها، القرار الذي صدر من الاتحاد الاشتراكي العربي، بإبعادي عن الصحافة بحجة أنني حولت قضية المؤامرة ضد نظام الحكم المتهم فيها صلاح نصر وشمس بدران الى قضية فساد حكم.. وقد عرضت لهذه الأزمة في فصل سابق.. وكان أخطر ما فيها، أنه فصل من عملي، وحرماني من مرتبي الذي لا أملك غيره.. ثم عدل القرار، الى فصلي من رياسة تحرير «الأخبار» ونقلي الى «الجمهورية» بلا عمل، مع استمرار صرف مرتبي..

وأشهد، أنني لم أحرم من مرتبي طوال حكم الرئيس عبد الناصر. وكان رأيه، طبقاً لما سمعته من شقيقه المرحوم عز العرب عبد الناصر الذي كان صديقاً عزيزاً، اني كفء في عملي، ولست خائناً للنظام، ولست عميلاً، ولكن لي شطحات.. وعندما قرر وقفي عن العمل، بسبب أزمة المذيعة همت مصطفى، كان القرار المقترح من الدكتور عبد القادر حاتم ـ بكل أسف ـ هو فصلي لسوء خلقي.. ولم أعلم بهذه الحقيقة، إلا عندما كشفها أخيراً الزميل الصحفي عبد الله أمام المحرر في «روز اليوسف» ونشر صورة ضوئية، لمذكرة الدكتور حاتم الى الرئيس عبد الناصر، باقتراح فصلي.. وذهلت!.. فقد كان حاتم يظهر لي المودة الكاملة، وكنا صديقين.. وعندما تولى السادات رياسة الدولة، سعيت لدى السادات، بناء على طلب من الدكتور حاتم أن يكون قريباً منه!.. ولم يكذب الدكتور حاتم هذا الخطاب..

وتولى السادات.. وكنت على أحسن العلاقات به، وكنت مقتنعاً به ـ

مؤمناً بخطه الوطني، وكان دائماً يردد أنني أفهم ما بداخله، أكثر من أي شخص آخر. . وكنت أراعي دائماً، أن تكون هناك مسافة بينه كرئيس للدولة. . وبيني كصحفي صديق. وكنت أخشى دائماً تجاوز هذا الحد. ولذلك عبرت عن ذلك، بأنني كنت أكثر الناس صلة بالسادات، وأقل الناس اتصالاً به.

ولكنني لم أكن راضياً، عن وضع أشرف مروان، في مكتبه. . الذي تطور فأصبح مركز قوة. . وبدأ أشرف مروان يستثمر هذا الوضع لصالحه الشخصي. . وكثيراً ما حدثت السادات في هذا الأمر. . ثم لعبت دوراً في تحقيق المدعي العام الاشتراكي مع أشرف مروان الى أن اقتنع السادات أخيراً، بإبعاده عن رياسة الجمهورية. . ولما صدر قرار الإبعاد، نشرت الخبر، في برواز على ثلاثة أعمدة في الصفحة الأولى من «الأخبار» مع قصة صحفية عن أسباب الإبعاد تحت عنوان «سقطت دولة أشرف مروان». . وغضب السادات. . وامتنع عن الرد على تليفوني. . وقررت الاستقالة. . وتدخلت السيدة جيهان السادات، واتصل بي السادات وسوى الموقف. .

وقد فشلت كل محاولاتي مع السادات، بالنسبة لوضع المهندس عثمان أحمد عثمان. . حتى أصدر عثمان كتابه عن تجارب حياته، وفيه هاجم ذمة جمال عبد الناصر، فكانت القطيعة التي أعلنها السادات. . ومنع عثمان من دخول بيته وانتهت الأزمة باستقالة عثمان من الوزارة. . وقرر السادات لقاءه، في يوم مقتله!

ثم ثارت أزمة مع السادات، عندما فوجئت به يهاجمني علناً بسبب مقال كتبته عن الأسباب التي دعتنا الى قبول لجوء شاه ايران الى مصر. . والغريب أن المقال كان تأييداً لوجهة نظر السادات، وأسبابه التي أبداها لعرض لجوء الشاه الى مصر. . واتضح لي بعد سماع السادات في التليفزيون، انه لم يقرأ المقال. واتصلت به وأوضحت موقفي. . ثم عاد فأشاد بموقف لي، في مؤتمر صحفي عقده بيريز في فينا. . وكان ذلك ترضية لي.

ثم ثارت أزمة أخرى، غضب فيها السادات، لأنني انتقدت طريقة معالجة موقف مع صحيفة «الشعب» الناطقة بلسان حزب العمل. . عندما منع

عنها الورق من «الأهرام».. وأشرت الى تفصيل ذلك، في فصل سابق..

ثم كان إعتراضي على قرار السادات بأن يفصل مجلس الشعب، الشيخ عاشور الذي كان قد هتف بسقوط رئيس الجمهورية تحت قبة المجلس..

ولكن كل هذه الأزمات، لم تستمر لأيام.. وكانت تعود العلاقة قوية كما كانت، مدعمة بالثقة الكاملة..

وكان الألم الحقيقي للسادات، مني، هو اقتناعه بأنني أجامل مصطفى أمين على حسابه!.. وكان مصطفى أمين في نفس الوقت يعتقد أنني أراعي علاقتي بالسادات، على حسابه هوا.. واستمررت في جدل طويل مع السادات حول موقفه من مصطفى أمين.. وموقف مصطفى أمين منه..

وفقدنا السادات.. وتولى حسني مبارك.

وقد كان مطلب بعض أقطاب المعارضة من الرئيس مبارك، هو إبعادي عن «أخبار اليوم».. كتبوا ذلك، وتحدثوا في شأنه مع الرئيس مبارك.. وكان أكثرهم حماسة هو الدكتور حلمي مراد..

والحق أن الرئيس مبارك، كان كريم الموقف معي.. فهو يرى أنني لم أخرج عن الخط الوطني في كل ما كتبت، كما تحقق الرجل من أن ذمتي المالية بريئة من أي عبث.. وكان يردد أن أحداً لم «يكسر» عيني..

ولقيت منه كل العون والتقدير.. وفوجئت بقراره بتعييني عضواً في مجلس الشورى.. ثم بتجديد هذا التعيين دون طلب مني.

واستمرت العلاقة، قائمة على احترام متبادل عميق.. كان له أكبر الأثر الطيب في نفسي.

وكثيراً ما استمع الرجل، الى آراء لي لا يقرها، برحابة صدر، وتقدير كامل، انني لا أصدر فيها أقول عن هوى أو غرض.

وأذكر، أنني اتصلت بالرئيس مبارك، مستأذناً في أن يعمل زميلنا القديم حلمي سلام في آخر ساعة.. بعد أن أبعد عن الصحافة سنوات طويلة..

فوافق الرئيس على الفور. . وقد حدث ذلك، بعد أن نبهني خـالد محمـد خالـد الى وضع حلمي سلام. وأسفت أنني لم أتنبـه الى هذا الـوضع لـزميل قـديم. . قبل ذلك.

الفصل السادس والثلاثون

موقفي من صحف المعارضة

نشأت منذ شبابي معارضاً ـ حالة يأس قبل الثورة ـ قيام الثورة ـ دخولي الانتخابات تحت شعار المعارضة في ١٩٥٧ ـ لم أكن معادياً للثورة ـ تحقيق الثورات ـ القرارات الاشتراكية ـ موقف عبد الناصر من الشيوعيين و «الأخوان المسلمون» ـ تسرب قصص تعذيب المعتقلين وقتل بعضهم ـ هزيمة ٦٧ نقطة تحول في كياني ـ مقال اليوم الحزين ـ حديث مع السادات عن الديمقراطية في أول لقاء معه بعد ترشيحه للرياسة ـ تعيين سراج الدين في اللجنة المركزية ـ مقالات المعارضين في «الأخبار» وحملة هضبة الأهرام ـ نسبة الـ ٩٩ في المائة ـ مساندة صلاح قبضايا في رياسة تحرير صحيفة «الأحرار» ـ ترشيح حامد زيدان بعد قبضايا ـ «الأهالي» و «الوفد» تطبعان في أخبار اليوم ـ أول جفاء مع حزب العمل سببه حلمي مراد ـ اتهام الدكتور مصطفى خليل في ذمته ـ السادات يقول لي : أنت خايف تكتب عنهم ـ استثمار قضية للتشهير بي ـ لقاء مع مبارك ـ أزمة مقالات المستشار العشماوي ـ زيارة مبارك لأخبار اليوم ـ قصة الخلاف مع صحيفة الأهالي ـ مؤامرة الشيوعيين لإبعادي عن أخبار اليوم ـ عودة خالد محيي الدين من موسكو ـ استمراري في أخبار اليوم ـ أخبار كاذبة في الأهالي ـ اتهامات باطلة للسادات ـ استثمار محاكمة عصمت السادات ـ خروج حسين عبد الرازق من الأهالي ـ استقالة محمود المراغي ـ تأييد التطرف الديني ـ الموقف من صحيفة الوفد ـ لقاء مع سراج الدين بعد قضيته ضدي وبراءتي ـ تطور العلاقة مع مصطفى شردي ـ تعيين شردي مديراً لتحرير آخر ساعة ـ علاجه في أمريكا على حساب أخبار اليوم ـ مع شردي في المستشفى ـ بداية أخبار التشهير ـ قصص كاذبة عن أبنائي ـ تقييم للصحافة الحزبية ومستقبلها . .

الفصل السادس والثلاثون

موقفي من صحافة المعارضة

حققت معي النيابة العسكرية في أكتوبر عام ١٩٤٤، وأنا طالب في ليسانس الحقوق، لأنني اشتركت في قيادة حركة معارضة، لحكومة الوفد مع زملائي عبد الرحمن الشرقاوي، وسعد كامل، وأحمد السيد حمد(*). . وكانت النيابة تستجوبنا طبقاً للأمر العسكري الذي يعاقب بالحبس والفصل من الجامعة إذا تجمع أكثر من ثلاثة طلاب معاً!!

وكان سبب حركتنا، هو احتجاجنا، على تدخل حكومة الوفد في استقلال الجامعة، ومحاولة اجبار العميد الأستاذ علي بدوي، على قبول طلبة في كلية الحقوق استثناءاً من القاعدة التي طبقها في عدد الدرجات. . وكان هؤلاء الطلبة من أبناء أقطاب حزب الوفد . . ورفض العميد ، وعزل من العمادة ، ونقل أستاذاً بجامعة الاسكندرية . .

واعتقلت بعد ذلك، فترات قصيرة، وقبض علي في أقسام الشرطة، حيث نمت على «البرش» مما سبب لي أمراضاً لا أزال أعانيها في شيخوختي. . ثم اعتقلت في يوليو ١٩٤٣ في معتقل الزيتون والمنيا وسجن الأجانب لمدة عام، لأنني كنت أعارض الفساد في حكومة الوفد، واشتركت في مظاهرات عديدة، وفي توزيع «الكتاب الأسود» الذي أصدره مكرم عبيد (باشا) سراً، وسجل فيه كل فضائح الرشوة واستغلال النفوذ والثراء غير المشروع. .

(*) سعد كامل هو الكاتب المعروف في «الأخبار» . . وأحمد السيد حمد هو عضو حزب الاتحاد السوداني ، والوزير في حكومة السودان أكثر من مرة . وقد حصل على الدكتوراه من جامعة السوربون في باريس .

أي أنني نشأت في باكورة شبابي معارضاً بطبعي.. متمسكاً بكل الايمان بطهارة المبادىء والقيم الشريفة..

وعندما خطوت إلى العمل الصحفي، كان من أول اهتماماتي أن أتوغل في كواليس الأحزاب السياسية القائمة، وأن أتعرف إلى زعمائها ونجومها، وكلي أمل في الاصلاح والتخطيط لبناء مصر.. وقد فجعت في كل الأحزاب، باستثناء حزب مصر الفتاة الذي كان يتزعمه أحمد حسين.. فقد كان حزباً ثورياً، يعبر عن نبض الشباب.. ولكنه لم يستطع أن يغير من حقائق الأوضاع شيئاً.. وان كان أشعل الروح الثورية المتحمسة للتغيير في نفوس الشباب..

ثم عايشت الحياة السياسية في الداخل، في أدق أسرارها وأخطر أحداثها، وخاصة في الأشهر الستة التي سبقت قيام ثورة يوليو.. عشت في الكواليس، يوماً بيوم وزادت صلتي الصحفية بصناع الأحداث، واقتربت تماماً من خيوط اللعبة، ومحركي هذه الخيوط.. وسجلت ذلك في كتابي «قصة ملك و ٤ وزارات».. ووصلت إلى منحدر اليأس الكامل، من إمكانية إجراء أي اصلاح، بعد أن وصل الأمر إلى أن الملك كان يؤلف الوزارات، وهو يلعب حتى الفجر على موائد القمار!

ولذلك كنت من أسعد الناس، عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو.. وبدأت التطهير والاصلاحات الجذرية، وفي مقدمتها قانون الاصلاح الزراعي..

وفي ذلك الوقت، كنت نائباً لرئيس تحرير «الأخبار».. ثم رئيساً لتحرير مجلة «الجيل».. وكنت قد بدأت العمل في دار «أخبار اليوم» في يناير ١٩٥٠.. وانغمست في العمل الصحفي، بكل جهدي وأعصابي.. وأصبح المطبخ الصحفي هو بيتي وحياتي..

وشعرت فعلاً، أنني ابتعدت عن الحياة السياسية.. وأصبحت من أبناء الحياة الصحفية، داخل دار «أخبار اليوم».. في الاخراج الصحفي، وكيفية اصدار الجريدة.. ولم تكن لي صلة بأحد من قيادات الثورة، باستثناء صلة مودة مع أنور السادات.. وصلة شخصية عميقة مع الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي أصبح من وزراء الثورة.. وكنت من مؤيدي أي قرار تصدره الثورة.. وهي حلمي الذي تحقق..

وأصبح عملي داخل مطبخ الجريدة، باستثناءات قليلة، منها ترددي على البرلمان، كمحرر برلماني، ولكنني لم أكن ملماً، بأغوار ما يجري وراء الكواليس. . وكنت وغيري من زملائي، نكتفي بمعرفة ما وراء ما يجري، من الأستاذ مصطفى أمين كما يرويه لنا. . أو من روايات كامل الشناوي أو اجتهادات بعض الزملاء. .

ولكنني بدأت أن أكون ضجراً، من حكم التنظيم السياسي الواحد. .

كانت آمالي وأنا طالب في الجامعة، وبعد أن تخرجت، هي أن تجد مصر الحاكم الدكتاتوري العادل، بعد أن امتلأت يأساً من حكم الأحزاب، وتعفن هذا الحكم.

وجاء عبد الناصر ليحقق لي هذا الحلم. .

ولكن استمرار حكم الفرد، بدأ يدق أبواب تفكيري. . وخاصة أنني عانيت في إصدار «الأخبار» و«الجيل». . من الرقابة القاسية. . حتى أنني هددت يوماً أحد الرقباء، عندما أوقف المطبعة، بسبب اعتراضه على خبر هام، بأن اعتدي عليه بالسكين لو نفذ ما يريد. وأسرعت إلى «بوفيه» أخبار اليوم، وأخذت سكيناً وشهرته في وجه الرقيب!

ولاحت لي الفرصة، أن أعبر عن نفسي، عندما أعلن عن إجراء انتخابات لمجلس الأمة في عام ١٩٥٧، بعد العدوان الثلاثي، وأذاع عبد الناصر، أن الترشيح متاح للجميع، وأن الانتخابات ستجرى حرة نزيهة. .

وقررت الترشيح في دائرة قصر النيل، حيث كان المرشح أمامي أحد أقطاب الثورة وهو الصاغ مجدي حسنين. . وكان يتولى مديرية التحرير، وبدأت روائح الفساد تنبعث من إدارته. .

واخترت شعارات معارضة في المعركة الانتخابية. .

منها «انتخبوا موسى صبري. . الكاتب الحر الذي لم يركع لحاكم».

ومنها «سأدخل البرلمان، لكي أقول: لا». .

ومنها «انتخبوا موسى صبري، الذي لم يؤسس مديرية التحرير». .

وكنت مؤمناً، أنني سأؤدي دوراً تحت قبة البرلمان.. وهكذا بدأت أعود إلى الصحافة السياسية..

وأحسست بثقل حكم الفرد..

وعانيت الكثير، بسبب ترشيحي..

وأقنعوا عبد الناصر، بأنني ضد الثورة..

ودسوا لديه، بأن السفارة الأمريكية هي التي تصرف على معركتي الانتخابية..

وفي احدى لحظات الضيق فكرت في إرسال برقية الى جمال عبد الناصر أكتب فيها «أنت ظالم».. وحذرني مصطفى أمين، من مغبة هذا التصرف.. ولم أرسل البرقية..

وأقفل عبد الناصر ٥٥ دائرة انتخابية، على المرشحين من ضباط الجيش.. بمعنى أنه أبطل ترشيح أي مواطن آخر في هذه الدوائر.. بحجة أن هؤلاء الضباط الأحرار، من حقهم الانفراد بالترشيح جزاء ما قدموا من تضحيات، لإشتراكهم في الثورة.

ومنعت من الكتابة بعض الوقت..

ووضع إسمي في القوائم السوداء، عند السفر إلى الخارج.. وكان لا يصرح لي بالسفر في أي عمل صحفي، إلا بعد إذن مباحث أمن الدولة، ومكتب سامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر.. (واستمر هذا الوضع حتى بعد أن أصبحت رئيساً لتحرير «الجمهورية» صحيفة الثورة!).

وبكل هذه الاجراءات.. شطب ترشيحي، ومنعي من الكتابة، ومنعي من السفر إلا بإذن.. أصبحت في الملعب المعارض..

ولكنني لم أكن معادياً للثورة..

وكنت مؤمناً، بالأثر الخطير الذي أحدثه عبد الناصر، في المنطقة العربية، من أقصاها إلى أقصاها، وتحديه للاستعمار، الذي ظهر في قرار تأميم قناة السويس.. ثم في العدوان الثلاثي.. ثم انتشار روح الثورة في البلاد العربية..

وهكذا اتجهت إلى تحقيق الثورات في المنطقة العربية، وما يجاورها. .

وكنت قد حققت الموقف في ايران في عام ١٩٥٣. . وحققت احداث لبنان في ٥٦. . ثم ثورة العراق. . وثورات سوريا أو انقلاباتها. . وثورة اليمن. . وثورات السودان. . ثم ثورة كوبا بقيادة فيدل كاسترو، وقد كان من المتحمسين لثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبد الناصر.

وكنت خلال ذلك، بعيداً عن الأحداث الداخلية، غير مخترق لأسرارها. . وكان العمل الصحفي الداخلي في إصدار الجريدة. . هو همي الأول. .

ثم أصدر عبد الناصر القرارات الاشتراكية. .

وتحمست لهذه القرارات، بكل مشاعري ووجداني. . وأنا واحد ممن عانوا قسوة الايراد المحدود، خلال تعليمي الجامعي. . حتى أن والدي اضطر يوماً إلى أن يرهن «دبلة» زواجه، لكي يسدد ديناً صغيراً، من ديونه الكبيرة التي تحملها، لكي أتعلم. . ووصل ضيقي في ذلك الوقت من الظلم الاجتماعي، إلى أنني فكرت في ارتكاب جريمة!!.

لقد تلقيت انذاراً بحرماني من الامتحان في احدى سنوات دراستي بالحقوق، لعدم تسديد المصروفات. . وطلبت لقاء العميد علي بدوي، وعرضت عليه المشكلة. . وطلبت منه أن تقسط علي المصروفات. . ولكنه رفض. . ولم أنم ليلتي. وقررت أن اشتري «مسدساً». . وأن أتدرب على إطلاق الرصاص. . وأن أفاجيء العميد في مكتبه وأطلق عليه الرصاص. . ثم أعلن للملأ أنني قتلته لأنه يحرمني من الامتحان، بسبب فقري!

جاءت القرارات الاشتراكية، بعد أن عانينا طويلاً من حكم الاقطاع ورأس المال المستغل. . وأيدتها بحرارة، وقرأت أكبر عدد من المؤلفات عن الاشتراكية. . وكتبت مؤلفاً بعنوان «ونحن نبني الثورة الثانية». .

* * *

كما أنني كنت أؤيد سياسة عبد الناصر في ناحيتين. .

موقفه من الأخوان المسلمين. .

وموقفه من التنظيمات الشيوعية السرية . .

وكنت أردد، أن عبد الناصر يحمينا، من أن نحكم يوماً، بجماعة الأخوان، أو بحزب شيوعي . .

وسبب موقفي من الأخوان، أنني لست متعصباً بطبعي ونشأتي، وبموت مؤمناً بكل الأديان، لسبب بسيط، وهو أنه لم يوجد الشخص الذي أختار دينه . . كما أن القيم والأخلاقيات والمبادىء السامية، قائمة في كل الأديان . . والخلافات في رأيي، فلسفية وتعصبية . . ولذلك فأنا ضد رجال الدين، سواء كانوا مسلمين أومسيحيين . . وكم عانت أوروبا من سيطرة الكنيسة، واستبداد حكم القساوسة والبابوات . .

ولكنني . . أسجل أمام الله وضميري . . أنني لم أكن أعرف شيئاً، عما جرى في تعذيب «الأخوان المسلمين» إلا في أواخر أيام حكم عبد الناصر . . عندما تولى شمس بدران أمر القضاء على الأخوان المسلمين وتعذيبهم . .

وسبب موقفي من الشيوعين، أنني لا أقبل، حكم الحزب الواحد، والقضاء على الحريات، والقضاء على الخصوم بالاغتيال . . لقد كنت أنفر من الاقطاع، ورأس المال المستغل، وأحلم بالعدل الاجتماعي . . ولكنني رفضت خنق الحريات، والغاء الأديان . .

وبدأت تتسرب قصص الاعتقالات والتعذيب وقتل بعض المعتقلين، بحجة أنهم هربوا . .

ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧، وكانت نقطة تحول كبرى، في كياني والتزامي الوطني كصحفي . لن أنسى مشهد ولدي، وكان لا يزال في السابعة من عمره، عندما بكى وهو يصرخ في وجهي . . كلكم كذابون . وكان في أول الأمر سعيداً مهللاً بأخبار الانتصارات الكاذبة المذاعة من راديو القاهرة . . وقررت بعد الهزيمة أن أكتب ما أريد أن أكتب . . وليكن ما يكون . .

وجاءت محاكمات ما سمي بمؤامرة المشير وشمس بدران وصلاح نصر . . في أوائل عام ١٩٦٨، وحضرت كل جلسات هذه المحاكمات . . وكنت أكتب تعليقاً في صفحة كاملة، عن وقائع هذه القضية . . وكتبت مقالاً بعنوان «اليوم

الحزين» . . وهو يوم الهزيمة، وكيف كانـوا منشغلين بتهريب الـذهب والعملات الصعبـة . . ورددت في المقال عبـارة «ان ما خفي كـان أعظم» . . وصـدر قـرار عبـد الناصر بـإبعادي عن الصحـافة ثم عـدل القرار بفصـلي من منصب رئيس تحرير الأخبار، ونقلي إلى الجمهورية مع حرماني من الكتابة . .

وأعتقد أن هذا المقال، كان أشجع مقال معارض ينشر في جريـدة قوميـة في عهد عبد الناصر . .

واستطاع السادات أن يعيدني إلى الأخبار قبيل وفاة عبد الناصر .

ولما تولى السـادات . . وطلب مني كتابـة أول خطاب له أمام مجلس الأمـة قلت له : هل تعرف ما يريده الشعب يا سيادة الرئيس؟ . .

قال : نعم . . الديمقراطية . . ولها خطوتها المقبلة في التوقيت الصحيح . .

وبـدأ السـادات، يفكـر فعـلاً في الخـطوات الـديمقـراطيـة . افـرج عن المعتقلين . ألغي الرقابة على الصحف . بحث تعديل الدستور .

ولما قلت له أن رئيس الجمهورية يكون بالانتخاب الفردي المباشر . . قال لي ضاحكاً : قديمة . . هذا أول ما فكرت فيه . .

وأقرنا في المناقشات التي اشترك فيها عديله المرحوم محمود أبو وافية، عـلى تعديلات واجراءات عديدة يجب أن تتخذ . .

ولما قلت له في وقت مبكر أن أشرف مروان أصبح مركـز قوة، سخـر مني وغضب . وقال : ما عنديش مراكز قوة . .

وعنـدما انتهى بـه الأمر، الى أبعـاد أشرف مروان عن العمـل في رياسـة الجمهورية، كتبت مقالاً في الصفحة الأولى من «الأخبار» في برواز على ٣ أعمدة بعنوان «سقطت دولة أشرف مروان» وغضب السادات، ورفض أن يتحدث الي في التليفون، وقدمت استقالتي، ولكنه صالحني في اليوم التالي .

واقتنع السادات، بفكرة المنابـر داخل الحـزب الواحـد، ومرة سـألني : ما رأيك . . في تعيين فؤاد سراج الدين في اللجنة المركزية . .

وأجبت: أنني موافق جداً. . هذه خطوة نحو تجمع كل الآراء. .

وكنت مقتنعاً أن سراج الدين لم يعد له دور. وعندما كتب أحمد أبو الفتح مقالاً، أشار فيه الى دور فؤاد سراج الدين. . علقت على ذلك، بمقال عنيف مؤداه أنه لا موضع للباشا في حياتنا السياسية بعد أن أفسد الحياة السياسية قبل الثورة. وقاضاني فؤاد سراج الدين لأنني وصفته بأنه وجه قميء في السياسة المصرية. وكان محامي هو المرحوم فتحي رضوان. وحكم ببراءتي. وكان ذلك قبل السماح بتكوين الأحزاب.

وفي هذه الفترة، بعد إلغاء الرقابة، والتقدم بخطوات نحو البناء الديمقراطي، نشرت في «الأخبار» أكبر عدد من المقالات بأقلام المعارضين، وفي مقدمتهم الدكتور حلمي مراد. . ولم يعترض السادات. .

كما نشرت «الأخبار» أول الحملات الصحفية في موضوع «هضبة الأهرام» . . وأفسحنا أكبر مساحة للدكتورة نعمات فؤاد التي قادت هذه الحملة .

وعندما تألفت الأحزاب. . أعلنت في حديث تليفزيوني، وفي أكثر من مقال ، أنني لو اخترت أن أكون حزبياً ، لأنضممت إلى حزب العمل المعارض . .

وأذكر عند تقرير الاستفتاء على رياسة السادات الثانية، أن قلت له أن الشعب يسخر من نسبة الـ ٩٩ و٩ في المائة. . فلماذا لا نتركها لتكون ٨٠ في المائة. . وأجاب السادات: وحتى ٦٠ في المائة. .

وطلب مني أن أبلغ ممدوح سالم رئيس الوزراء بذلك. وكنت سعيداً، وتظاهر ممدوح سالم بالموافقة على وجهة نظري. ولكن عند بدء فرز الأصوات أدركت أنه كان يسايرني!

إنني أسرد كل ذلك، لكي أقول، إنني كنت متجهاً بفكري، إلى ضرورة وجود المعارضة، لكي تؤدي دورها في البناء الديمقراطي. .

ولكن الأمور، تطورت، بيني، وبين الأحزاب المعارضة إلى غير ما أشتهي. .

كل الأحزاب المعارضة، لجأت إلى أخبار اليوم، لكي تطبع لهم صحفهم. .

بـدأت ذلك صحيفـة الأحرار، ووافقت عـلى أن يكـون صـلاح قبضـايـا المحرر بالأخبار، رئيساً لتحريرهـا. كانت موافقتـي لازمـة، بحكم كوني رئيس مجلس إدارة مؤسسـة أخبار اليـوم، سـألني السـادات عن رأيي فيـه، فقلت أنـه صحفي ممتاز. .

وقاد صلاح قبضايا حملات عديدة، أهمها، حصـول أقارب أحـد الوزراء، على مساكن شعبيـة. . وكانت وقـائع هـذا التحقيق، صحيحة. . وحقق الأمـر الـدكتور مصـطفى خليل ـ بتكليف من السـادات ـ وكان خـارج الحكم، وأبلغ السادات بأن النشر صحيح. . .

ثم صـدرت صحيفة حـزب العمل، ووافقت عـلى ترشيـح حامـد زيدان المحرر بالأخبار، لرياسة تحريرها. . وسألني السادات عنه، وقلت لـه أنه شـاب ملتزم، ومن أبناء ثورة ٢٣ يوليو. .

وسخر مني ضاحكاً: إياك أن يكون مثل قبضايا. .

ولكن صحيفة حزب العمل، كانت مصابة بعقدة أن السادات هـو الذي شجع على تكوين هذا الحزب برياسة المهنـدس إبراهيم شكـري. . فجنحوا إلى معـارضة مثيرة. . وشبهوا يـوماً حكم السـادات، بأنـه حكم إسماعيـل صدقي (وكان إسماعيل صدقي رمزاً لطغيـان السلطة قبل الثـورة). . فقال لي السـادات ساخراً: هذا هو اختيارك الرائع لرئيس التحـرير!. وقلت لـه أن حامـد زيدان صحفي نظيف ووطني. . ولكنه لا يستطيع أن يقاوم الأجواء التي يعمل فيها. . وخاصة بعـد أن بدأ الـدكتور حلمي مـراد يكتب في صحيفة «الشعب» ويحـاول السيطرة عليها. .

وكنا نطبع أيضاً صحيفة «الأهالي» لسـان حال حـزب التجمع. . وكـانوا يهـاجمونني في عنف في كـل عدد تقـريباً. ولم أسمـح لنفسي أن أقرأ «الـبروفات» وكان هذا في مقدوري. . وحدث أن جاءني سكرتير تحريـر «الأهالي» وشكـا من أن العمـل متأخـر في المطبعـة عن عمد. . وقصـدت فوراً إلى المـطبعة، ولمست إهمالاً. . وغضبت، وحاسبت المسئول عن التأخـير. وقررت أن تـطبع «الأهـالي» في تلك الليلة، قـل أن تـطبـع «الأخبـار». . وكـانت تـطبـع بعـد الانتهـاء من «الأخبار». .

ثم كانت «الوفـد» تطبـع أيضاً في «أخبـار اليوم». . وقـد وافقت على أن يعمـل مصطفى شردي المحـرر في «الأخبار» ومـدير تحـرير «آخـر ساعـة» رئيساً لتحرير الـوفد. واتصـل بي فؤاد سراج الدين تليفـونياً، وقـال إنه يشكـرني على موافقتي. وقلت للباشا: أنني أرسل لك هدية هي مصطفى شردي. .

هكذا كان وضعي مع صحف المعارضة عند صدورها. .

محررو «الأخبار» هم رؤساء تحرير كل الصحف المعارضة. .

لكل صحيفة «معارضة» مكتب في مبنى الأخبار. .

من حقهم الاستعانة بأرشيف أخبار اليوم، في الصور والمعلومات. .

رعـاية كـاملة لسرية عملهم الصحفي، وإنجـاز مـطبـوعـاتهم في الـوقت الصحيح. .

ولكن ماذا جرى بعد ذلك؟. . .

لـماذا تطورت الأمـور، حتى أصبحت خصومـة ملتهبة، إستخـدمت فيهـا صحف المعارضة ضـدي أبشع العبارات، التي تتجاوز القذف والسب، وتنهش حياتي الخاصة بالكذب والقصص المفبركة؟

لعـل أول جفاء حـدث مع حـزب العمـل!. . مـع أنـه أقـرب أحـزاب المعارضة إلى قلبي، بسبب صلتي القـويـة بـالمرحـوم الأستاذ أحمـد حسين الأب الروحي لأعضاء هذا الحزب.

وسبب هذا الجفاء هو الدكتور حلمي مراد.

اختار الدكتور حلمي مراد، أن يكون عضواً في حزب الوفد الجديد تحت زعامة فؤاد سراج الدين. وهذا ما نفرني منه. لأنه من الشاركين في الـرأي القائـل بأنه لولا الافساد السياسي الذي قـاده سراج الدين في حـزب الوفـد، وفي الحياة السياسية بصفة عامة، قبل الثورة. . لما قـامت ثورة ٢٣ يـوليو. . وقـد حاكمتـه الثورة على هذه الجرائم السياسية. . كما أن سراج الدين كـان رمز الاقـطاع قبل الثورة. . فكيف يتحالف معه الإشتراكي حلمي مراد!

رأيت في هذا الموقف إنتهازية سياسية. .

ولكن حلمي مراد، ترك حزب الوفد بعد ذلك، ولا أعرف السبب. . ويبدأ يكتب في صحيفة «الشعب» لسان حال حزب العمل، دون أن ينضم إلى الحزب. .

وفي مقال له، بدأ يغمز ويلمز، متهماً الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء في ذمته المالية، في صفقة التليفونات. . وكتب غمزه ولمزه بأسلوب ملتو. . .

وأثارني هذا الأسلوب، لأن مصطفى خليل فوق مستوى الشبهات في ذمته المالية. . وكنت معجباً به كل الإعجاب، ولا أنسى أن السادات قال لي: «لا تصدق أن وزيراً أو سياسياً كان يجادل جمال عبد الناصر. . الوحيد الذي كان «يزرجن» مع عبد الناصر هو مصطفى خليل فقط». .

ونبهت مصطفى خليل إلى سطور حلمي مراد.

وكان من رأيي أن يرد. . وأن يبلغ النيابة العامة، فليس أخطر عندي من الاتهام في الذمة المالية.

وتحمس مصطفى خليل، لذلك. . ووصل في تحدي الدكتور حلمي مراد إلى آخر المدى. . وكتب أكثر من بيان، مدعماً بالوثائق. . وطلب إجتماع الهيئة البرلمانية لحزب الغالبية، وعرض عليهم الموقف. . وقال إنه سيقدم إستقالته لو لم يحز على ثقة الحزب. . وصوتوا بالاجماع ثقة به. .

ومن جانبي، كتبت مقالات ملتهبة، مدافعاً عن مصطفى خليل ـ دون طلب منه ـ، مهاجماً هذا الأسلوب الشاذ الذي يلجأ إليه الدكتور حلمي مراد. .

ولا شك عندي، أن حلمي مراد لعب الدور الأول، في أن تتجه صحف المعارضة إلى حملات التشهير والاثارة. وكان حامد زيدان رئيس تحرير «الشعب» مغلوباً على أمره، وكان عاجزاً عن مقاومة نفوذ حلمي مراد في الحزب، رغم أنه لم يصبح ـ بعد ـ عضواً به. .

وأحسست أن هذه الصحيفة، ستسبب لنا كثيراً من المشكلات، بطبعها في مؤسسة أخبار اليوم . . مقدراً أن الإستمرار في هذا الأسلوب، سيسبب لنا

أزمات، نحن في غنى عنها. . ولذلك رفضت أن تستمر المؤسسة في طبعها. .

وناقشني كثير من أعضاء حزب العمل، ولم أعدل عن موقفي، وجاء المهندس إبراهيم شكري لزيارتي، وفشل في إقناعي. . وغضب، متصوراً أن هذا الموقف مني هو بتعليمات من الرئيس السادات. . ولم يكن هذا صحيحاً. كان قراري. بدليل أن «الأهرام» تعاقد معهم على الطبع، ولو كان رأي السادات عدم الطبع. . لما وافق الأهرام على التعاقد. .

وحدث ما توقعته. .

بدأت حملات التشهير في صحيفة «الشعب» بقيادة حلمي مراد. . ووصل الأمر إلى التعرض لما أسماه حلمي مراد «الوضع الدستوري لحرم رئيس الجمهورية». . وكان إبراهيم شكري مصاباً بعقدة، أن السادات هو الذي ساعد على تأسيس حزب العمل. . وشجع نواباً من حزب الغالبية على الانضمام إليه. . واتهم المتطرفون في الحزب من قدامى حزب مصر الفتاة، إبراهيم شكري، بأنه من نبت السادات!

وغضب السادات غضباً شديداً. . وقرر إتخاذ إجراء ضد الصحيفة، بوقف طبعها في «الأهرام» بحجة عدم وجود ورق طباعة!

ونشرت «الشعب» بضعة سطور، تحتج فيه على موقف «الأهرام» وتؤكد أن الأمر يتعلق بحرية الصحافة. . لا بعدم وجود ورق للطباعة لأنه متوافر. .

واتصل بي السادات تليفونياً، وقال لي: «اقرأ غداً الأهرام. . وقل لي ما رأيك». . ورفض أن يفصح لي بشيء عما سوف أقرأه. .

وتلهفت على قراءة «الأهرام» في الصباح التالي، فإذا بي أجد صفحتين كاملتين، من المقالات والتحقيقات، التي تهاجم حزب العمل، وصحيفته. .

وذهلت. ! إن هذا أكبر دعاية لحزب العمل لا يحلم بها. . صفحتان كاملتان للهجوم عليه!

واتصل بي السادات في اليوم التالي، وكانت رنة صوته تعبر عن سعادة، وسألني «إيه. . ؟ ما رأيك؟». .

وأجبته بكل الصدق: «هذا تصرف خاطيء من الأهرام.. إن هذه دعاية لا يحلم بها حزب العمل، أو إبراهيم شكري»..

فقال لي: «مش مهم حكاية الصفحتين.. إيه رأيك في المادة المكتوبة؟»

وأجبت: هـذه المادة كان يمكن إختصارها في عـمود واحد..»

وغضب السادات وقال لي: أنت يـظهـر خـايف تكتب عنهم.. أنـا لم أطلب منك أن تكتب.

ودهشت.. لماذا يغضب السادات، وقلت لـه: سيادتـك تعلم يا ريس، أنني لا أخاف.. إنني لم أخف في ١٥ مايو من مراكـز القوى.. هـل أخاف من إبراهيم شكري؟..

ثم أنهى السادات المكالمة.. على أن نتحدث في هذا الموضوع فيما بعد..

واتصلت بابراهيم نافع رئيس تحرير «الأهرام» وسألته: «لماذا.. صفحتان كاملتان للهجوم.. هذه أكبر دعاية لهم»..

وأجـابني إبـراهيم نـافـع، بـأن الـرئيس السـادات، هـو صـاحب فكـرة الصفحتين..

وهكذا، فهمت، لماذا غضب السادات من رأيي..

* * *

وبدأ حلمي مراد يتربص بي، في صحيفة الشعب..

وانتهز فرصة أن أحد زملائنا في «أخبار اليوم» رفع ضدي قضيـة، بسبب خلاف على بدل سفر في رحلة لهذا الزميل.. وكان محـاميه هـو الأستاذ عصمت الهواري.. ووافق حلمي مراد أن يكون المحامي الثاني في القضية ضدي.. ثم ضم إليه الأستاذ ممتاز نصار، عضو الوفد!

وحول حلمي مراد، قضية بدل السفـر، إلى قضية سيـاسية.. وهي أنني استخدمت سلطتي كرئيس لمجلس الإدارة، في منع هذا الزميل من الكتـابة!.. ولم يكن هـذا صحيحاً، كـان إعتراض رئيس تحـرير «أخبـار اليوم».. عـلى أن

يكتب هذا الزميل عموداً أسبوعياً. . وكان ينشر له كل ما يقدمه من تحقيقات أو أخبار باسمه!

وبدأت صحيفة الشعب، تتبنى القضية ضدي، وتنشر عنها أخباراً تسيء لي، وتصورني وكأنني قاتل لحرية الرأي!

وكنت أرد على كل مقال ضدي . . والتهب الموقف مع حزب العمل .

ولم يكتف حلمي مراد بدوره في القضية ، ولكنه أراد قيادة عملية تخريب لأخبار اليوم من الداخل . . ضدي ! وأشرت الى ذلك في فصل سابق ، وهذا هو التفصيل .

لقد شجع محرراً شاباً في «آخر ساعة» على أن يرفع دعوى قضائية ، بحجة اضطهادي له. . وكذلك فعل مع محرر آخر. . وبدأوا يشيعون في المؤسسة وفي الوسط الصحفي، أنني أدير المؤسسة بسياسة طائفية، تحابي الاقباط. . وذلك في التعيينات والعلاوات، والمكافآت. . وزعموا أنني رفعت مرتب نبيل زكي (رئيس قسم الخارجي) مائة وعشرة جنيهات دفعة واحدة. . وكذلك فعلت مع إيريس نظمي رئيسة القسم الفني في آخر ساعة. . وغير ذلك. .

وكانت كل هذه المزاعم كاذبة. .

فقد عشت في قلب إحداث الفتنة الطائفية، وكنت الوسيط بين السادات والبابا شنودة في هذه المحنة، بناء على طلب السادات. . وعرفت كل ما يجري وراء الأستار، لإنتشار هذه الفتنة.

ولذلك كنت حريصاً بالغ الحرص، في إدارتي لمؤسسة أخبار اليوم. . واتخذت قراراً أبلغت به الأستاذ أمين عدلي المدير المسئول في المؤسسة، بعدم تعيين قبطي واحد ، في الإدارة ، أو في العمال . . وكذلك فعلت بالنسبة للتحرير .

وعلى مدى سنوات، لم يستثن من هذا القرار إلا مهندس الكتروني، أصر عليه أمين عدلي، لأنه لا يوجد مثيل له في سوق عمالة المهندسين. . ومحرر شاب في «أخبار اليوم» أصر عليه الأستاذ عبد الحميد عبد الغني رئيس تحرير «أخبار اليوم» في ذلك الوقت. . ثم عامل واحد. . وكان هذا على مدى سنوات، عين فيها أكثر من مائتي شخص في مؤسسة أخبار اليوم. .

كما أنني إتخذت إجراءات أخرى . .

لاحظت أن عدد المعينين الإقباط في مجلة «آخر ساعة» بالذات، قبل أن أتولى رياسة مجلس الإدارة بسنوات، أكثر مما يجب . . وكلهم عينهم مصطفى أو علي أمين . فقررت نقل بعضهم من آخر ساعة إلى «أخبار اليوم» و«الأخبار» . . وانطبق ذلك على الدكتور رفعت كمال، ورأفت بطرس محرر الحوادث .

وتوجه الصحفيان الشابان، اللذان دفعهما الدكتور حلمي مراد، إلى الدكتور صبحي عبد الحكيم رئيس المجلس الأعلى للصحافة، وقدما له مذكرة تتهمني بالطائفية . .

وأدركت أن هذه المعلومات الكاذبة يمكن أن تستشري بالباطل . . وتحدث أثرها لدى ضعاف النفوس . . وأثرت الموضوع، في أكثر من إجتماع عام في أخبار اليوم، مؤيداً بالأرقام . . كما أنني طلبت مقابلة الرئيس حسني مبارك . . وكان ذلك في أول عهده بالرياسة .

واستقبلني الرجل في بيته، وكان لا يعلم سبب طلبي للمقابلة . . وشرحت له الموقف، وفتحت حقيبتي، لأخرج منها البيانات بعدد المحررين والإداريين والعمال، وعدد المعينيين من الأقباط . . وإذا بالرجل يقول لي في إصرار: «أنا لست في حاجة إلى أن أقرأ هذه البيانات . . أعدها إلى حقيبتك لأنني لن أقرأها» . .

وقلت له: «لا يا سيادة الرئيس . . أرجوك . . هذا إتهام لا بد أن تتحقق سيادتك بنفسك من صحته أو عدم صحته» . .

وقال الرجل: «يا فلان . . إنني أعرف عنك، أكثر مما تتصور أنني أعرفه عنك . . وأنت فوق هذه الصغائر . .» .

قلت: «أشكرك يا سيادة الرئيس على هذه الثقة . . ولكن اسمح لي أن أقرأ لك البيانات» . .

ورفض الرجل أن يستمع . . ولكنني أصررت . . وتركت له كل البيانات .

وليس هـذا أول مـوقف كـريم للرئيس حسني مبارك معي بعـد وفـاة السادات. .

لقد استقبل في أول عهده عدداً من المعارضين. . وكان حلمي مراد أحـد الـذين استقبلهم. وكان مطلب حلمي مراد من الرئيس مبارك، أن يخرجني من أخبار اليوم. .

وكـان رد الرئيس القـاطع: «لا يـوجد ضـد موسى صـبري مـا يشينـه أو يجرحه. . وهو رجل وطني، صاحب رأي واضح. . فلماذا أتخلص منه؟ . .».

وكـانت الحجـج التي تقـال لإخـراجي من «أخبـار اليـوم». . إنني رجـل السادات. . ولكل عهد رجاله. . وأنني لن أكون إلا صوت السادات». . .

ولم يستمـع حسني مبارك إلى هـذا المنـطق. . بـل إنـه أصـدر قـراراً دون علمي، بتعييني عضواً في مجلس الشورى!

وهذا لم يفعله السادات. . رغـم أنه عين رؤساء تحريـر غيري! . . بـل أنه استشارني في بعض الأسماء التي اختارها لعضوية الشورى!

وعنـدمـا صـدرت قـرارات تعيـين اعضـاء الشـورى، لم يكن اسمي من بينهم، ولم أفاتحه في هذا الموضوع على الإطلاق إلى أن مات!

وكنت أقدر موقفه. .

كـانت الفتنة الـطائفية قـد وصلت إلى أقصاهـا في ذلك الحـين. . وكـان السـادات يؤجل المـواجهة مـع التيارات الإسـلامية المتـطرفة. . وكـان من بـين اعتراضات هذه التيارات، وضعي على رأس مؤسسة أخبار اليوم. . وخـاصة أن المـرحوم الشيـخ عبد الحليم محمـود، شيخ الجـامع الأزهـر كان يتصـور بـأنني من المتعصبين، وشجعه على هذا التصور، أن زميلي عبـد الوارث الـدسوقي المشرف على الصفحة الـدينية في «الأخبـار» نشر عدة مـوضوعـات ـ وكنت غائبـاً خارج مصر ـ يهاجم فيها شيـخ الأزهر. . ولـما عدت وعـاتبته، قـال لي إن الإسلام لا يمنع نقد شيخ الأزهر، ولكنني غضبت، وأصدرت قراراً واضحـاً بعدم نشر أي سطر يمس شيخ الأزهر. وفوجئت بأن الشيخ عبـد الحليم محمود، يتصـور أن هذه الموضوعات موحي بها، من البابا شنودة. . رغم أنني كنت على أسوأ العـلاقات

مع البابا شنودة في ذلك الوقت.. ولا تزال القطيعة مستمرة بيني وبينه حتى لحظة كتابة هذه السطور..

وحدث كذلك، أنني نشرت ثلاث مقالات للمستشار سعيد العشماوي، الذي قدمه لي المرحوم الأستاذ توفيق الحكيم.. ورأي شيوخ الأزهر في هذه المقالات، إساءة في تفسير القرآن.. وعقد اجتماع في الأزهر حضره عشرة آلاف ـ شاب، واتخذوا قرارات، كان أولها المطالبة بضرورة طردي من «أخبار اليوم» وكل ذلك مفصل في كتابي «السادات.. الحقيقة والأسطورة»..

وتدخل الدكتور مصطفى محمود في الأمر، بدون طلب مني، وزار شيخ الأزهر، وأكد له أنني أبعد الناس عن التعصب.. وحدد لي موعداً لزيارته.. وزرته.. وتصافينا.. وأهداني كل مؤلفاته.

وفي هذه الأجواء، فضل الرئيس السادات، عدم تعييني، في مجلس الشورى.. ولما تولى الرئيس حسني مبارك، أصدر قرار تعييني.

ثم كان للرئيس حسني مبارك، موقف آخر معي.. عندما انتهت مدة خدمتي القانونية، بحكم القانون (٦٠ عاماً).. حدثني سيادته أكثر من مرة مشكوراً، بأنه كان يتمنى لو عدل هذا القانون.. وأرجأ التطبيق أكثر من ستة أشهر، رغم أنني كتبت مقالاً في الصفحة الأولى من «الأخبار»، أعلنت فيه أنني لن أباشر مسئولية رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير، في اليوم التالي لبلوغي سن الستين..

وكان مبارك كريماً، عندما قرر استشارتي فيمن يتولى رياسة مجلس الإدارة، ومن يتولى رياسة التحرير من بعدي.

ولما انتهينا، من إقامة المبنى الجديد لمؤسسة «أخبار اليوم».. الذي حوى «المطابع الجديدة».. وانتقل إليه التحرير.. كان الرئيس مبارك سعيداً بأن يفتتح الدار الجديدة.. وكتب لي باسمه في دفتر الزيارات، ما لم يكتبه لأي مواطن مصري في أي موقع زاره.

وهذا نص ما كتبه الرئيس مبارك:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنني سعيد جداً بزيارتي لمؤسسة أخبار اليوم، وزيارة الدار الجديدة للمؤسسة بما فيها من مطابع وأجهزة فنية على أحدث التطورات العلمية، وكل ذلك قام بالجهود المصرية المشرفة..

وقد خرجت من الزيارة التي استمرت أربع ساعات، بأطيب وأجمل المشاعر وذلك لما لمسته من روح عائلية، تجمع أسرة كل العاملين، مع ترابط انساني رائع.. كما أعجبني المستوى الرفيع في الحوار الذي جرى مع أسرة التحرير.. وبهذا تحقق النجاح لهذا البناء الشامخ..

ويسعدني أن أسجل تقديري الكبير للأستاذ موسى صبري رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير الذي وضع جهده المستمر وإخلاصه المتفاني للعمل والمبدأ في تولي مسئوليته المهنية والوطنية بنزاهة وشرف.

وأهنىء أيضاً أعضاء مجلس إدارة المؤسسة على هذا النجاح المرموق.. وكل نجاح هو نجاح لمصر.. ومن أجل مصر..

مع تحياتي أسعد تمنياتي.

محمد حسني مبارك

* * *

خلاصة القول، إن حلمي مراد استخدم كل الأساليب، لحربي خارج أخبار اليوم وداخلها.. وارتكب في ذلك، حماقة، لم يكن يخطر على بالي، أنه سيترتكبها..

في إحدى مراحل القضية المرفوعة ضدي، كانت هيئة المحكمة الاستئنافية التي تنظرها، برياسة مستشار قبطي. ولم أكن أعرف هذا المستشار.. ولم ألقه حتى الآن. وعند نظر الدعوى، تخلف الدكتور حلمي مراد عن الحضور، وأرسل محامياً بالنيابة عنه، معروفاً بالشغب، والتطاول على القضاء.. وطلب

رد رئيس المحكمة، وأعلن في الجلسة، أن القاضي يتخذ إجراءات غير عادية في هذه الدعوى، مجاملة لي، لأن اسمي موسى صبري شنودة!

وتنحى المستشار عن نظر الدعوى.. وأحيلت إلى دائرة أخرى، حكمت ضدي بتعويض أكثر من ٣٠ ألف جنيه.. ونقضنا الحكم.. وقبلت المحكمة النقض.. وألغت الحكم. وأعيدت القضية إلى دائرة أخرى.

أما الشابان اللذان حرضهما حلمي مراد على مقاضاتي، فإنهما اكتشفا استخدامهما أداة ضدي.. وتنازلا عن الدعوى، وأصبحا من أقرب الناس إلى قلبي..

وفشلت كل مؤامرات حلمي مراد!

وكان قد صعّد الهجوم ضدي، بعد وفاة الرئيس السادات..

وما أكثر الموضوعات التي نشرت في صحيفة الشعب، تتهمني بأنني أحد قتلة السادات!

* * *

أما دوري مع صحيفة «الأهالي».. فقد كان الترحيب بصدورها. ورأس تحريرها الأستاذ حسين عبد الرازق، المحرر بالأخبار.. كما أنه تربطني بالأستاذ خالد محيي الدين رئيس حزب التجمع كل روابط المودة والاحترام المتبادل.

ولي تاريخ معه في «أخبار اليوم» عندما رأس مجلس إدارتها، وكنت رئيساً لتحرير «الأخبار» يحسن أن أشير إليه..

كان تعيين خالد محيي الدين (الماركسي)، رئيساً لمجلس إدارة «أخبار اليوم».. وتعيين أحمد فؤاد (الماركسي) رئيساً لروز اليوسف.. مفاجأة كبرى في الوسط الصحفي.. وعلمت أن القرار كان بتعيين خالد محيي الدين في روز اليوسف.. ولكنه طلب أن يكون في أخبار اليوم.. واستجاب عبد الناصر إلى طلبه.

إن موقفي من الشيوعية معروف.. فكيف سيكون التعاون مع خالد

محيي الدين. . ثم مع عـدد كبير من المـاركسيين، عينـوا أيضاً في «أخبـار اليوم» ومعظمهم كان معتقلاً. . وأفرج عنهم عبد الناصر، بعد المصالحـة مع الأحـزاب الشيوعية. .

تقرر أن أتبادل مسئولية رياسة التحرير، مع زميلي حسين فهمي. . ثلاثـة أيام لكل منا أسبوعياً.

وتقرر أن يكون مصطفى أمين مشرفاً على التحرير. . وأراد مصطفى أمين أن يجتاز هذه العاصفة المدمرة، فأبدى هو وعلي أمين، روحاً طيبـة للتعاون مـع خالد محيـي الدين. . وقال له مصطفى أمين «أنا على الصحافة. . وأنتم عليكم الاشتراكية». . وكان يكتب المانشتات. . ولا يتدخـل في شئون التحـرير. . كـما ذكرت في فصـل سابق.

ولكن الشيـوعيين كـانوا يضمـرون كل مشـاعر الكـراهية لمصـطفى وعلي أمـين. وأذكـر أنهم عقـدوا اجتـماعـاً في إحـدى صـالات المؤسسـة، في إحـدى المنـاسبات. . وحضر إلى هـذا الاجتماع مـاركسيـون من الاتحـاد الاشـتراكي. . وتحدثوا عن الديمقراطية. وحاول أحدهم في كلمة أن يجـرح التوأمـين، بأسلوب غـير مباشر، بـالنسبة لمـاضيهما، ولكن مصـطفى أمين وعـلي أمـين سيـطرا عـلى عـواطفهما بكـل قوة. وتكلم مصـطفى أمـين عن الـديمقـراطيـة، ومجـد مـوقف عبد الناصر في أول الثورة، عندما هدد بالاستقالة من مجلس الثورة عندما صوت أعضاؤه على الحكم الدكتاتوري، وكان صوته هو الوحيد مع الديمقراطية. .

ولكن علي أمين سعى أن يسـافر إلى انجلترا ليكـون مراسـلاً للأهـرام في لندن، وذلك بمعونة محمد حسنين هيكل. ورتب له هيكل لقاء مـع عبد النـاصر صباح يوم سفره. وبقي مصطفى أمـين في «أخبار اليـوم» يحاول أن يجـد طريقـاً للخـلاص. ثم قرر عبـد الناصر عـدم استمرار خـالد محيـي الـدين في «أخبـار اليوم». . وعين بدله محمد حسنين هيكـل رئيساً لمجلس الإدارة، مـع احتفاظـه برياسة الأهرام. وعرف مصطفى أمين الخبر من هيكـل قبل إذاعتـه، وأعلنه في مجلس التحرير، وكـذب خالـد محيـي الدين الخـبر. وألصق إعلانـاً في طرقـات المؤسسة بأنها إشاعات كاذبة. ولكن خـالد محيـي الـدين فوجىء ذات صبـاح، بعد أيام قليلة، بمحمد حسنين هيكل يزوره في مكتبه، ويبلغه بالقرار!

ثم وقع بعد ذلك حادث القبض على مصطفى أمين.

وأصبح زميلنا سعد التائه مشرفاً على التحرير . . وكان سعد محرراً قديماً في أخبار اليوم ، ثم قبض عليه في قضايا شيوعية . وأمضى سنوات طويلة سجيناً ومعتقلاً ، حتى أفرج عنه ، وعينه خالد محيي الدين .

وبدأت المناصب الرئيسية توزع على الماركسيين . .

عين علي الشلقاني مشرفاً على الإدارة . . وهو محام ناجح . وزميل دفعتي في كلية الحقوق . ولي صلة شخصية به ، لأن خاله هو أحمد حسين باشا . (الوزير قبل الثورة والسفير بعدها) والذي كنت من أقرب الناس إليه . . وسافر خالد محيي الدين إلى موسكو . . وبدأت أشعر بأن مؤامرة تدبر لإبعادي من رياسة التحرير!(**).

(**) روى لي الدكتور أحمد حسين (باشا) هذه القصة عن ابن شقيقته علي الشلقاني. قال: كنت على علاقة مودة مع الرئيس جمال عبد الناصر. وفي مرحلة معينة، أصدر عبد الناصر أمراً باعتقال مجموعة من الشيوعيين. وكان ابن شقيقتي علي الشلقاني من بين المطلوب القبض عليهم. ولكنه اختفى عن أعين البوليس، وفشلوا في العثور عليه. وكنت في لقاء مع عبد الناصر، وسألني: أين يختفي علي الشلقاني؟. وأجبته: لا أعرف. وكان هذا صحيحاً، فلم أكن أعرف. ولكن عبد الناصر قال لي: حاول أن تتصل به عن طريق زوجته. . ولا داعي لاختفائه. لأنني ألغيت الأمر باعتقاله.

واتصل الدكتور أحمد حسين فعلاً، بزوجة علي الشلقاني، وأبلغها بقرار عبد الناصر. وما أن ظهر علي الشلقاني، حتى وجد البوليس في انتظاره، وتم اعتقاله فعلاً.

وقد أفرج عنه بعد ذلك، مع غيره من الشيوعيين. وتمت المصالحة مع عبد الناصر. وعينه خالد محيي الدين في مؤسسة أخبار اليوم.

وكان يجتمع يومياً، مع محمد حسنين هيكل في مكتبه بالأهرام، في المساء، ويطلعه على كل تفصيلات ما يجري داخل المؤسسة، ويأخذ رأيه فيما يجب أن يصدره من قرارات. وأعتقد أن هيكل هو الذي حرضه على تدبير مؤامرة إبعادي.

وعلمت أن علي الشلقاني، كان أحد الشيوعيين الذين حذروا جمال عبد الناصر، من أن إسرائيل قررت شن الحرب في يونيو ١٩٦٧ . وقد تلقى هذه المعلومات من تنظيمات شيوعية في فرنسا، وأبلغها إلى عبد الناصر، الذي كان مقتنعاً باستحالة أن تبدأ إسرائيل الحرب.

كان أنور السادات رئيس مجلس الشعب، قد سافر في رحلة برلمانية إلى الخارج، ولما عاد كتب محمد نزيه مندوبنا البرلماني، موضوعاً عن هذه الرحلة.. وكان مما قاله لي، وهو يقدم لي الموضوع: ان السادات عاد معجباً جداً، بالتقشف في إحدى الدول الشيوعية.. فقد طلب طبقاً ثانياً من طعام أعجبه، على مائدة الغداء، فقيل له أنه ليس لديهم إلا طبق واحد لكل شخص، ورأيت أن هذا خبر جدير بالنشر، ويشجع على دعوة ترشيد الاستهلاك في مصر فأضفته إلى الموضوع..

واستاء السادات من هذا الخبر، واستشعر أن نشره يظهره، وكأنه جشع في الطعام.. وانتهز علي الشلقاني هذه الفرصة، فأرسل لي خطاباً تحمل سطوره ما يشبه التوبيخ لي، فرددت عليه، برسالة في منتهى القسوة.. فأصدر قراراً بوقفي عن العمل، فأرسلت له القرار، ومعه رسالة مني، لا أعترف فيها بالقرار، ولا أعترف بأهليّته القانونية في إصداره.. واستمررت في عملي. فأرسل خطاباً دورياً إلى جميع إدارات الصحيفة، ومنها ادارة المطابع، بعدم تسلم أي ورقة مني.

واشتدت الأزمة...

واستدعاني الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام، للقائه.. وأبلغني أن الرئيس عبد الناصر قرر إرجاء البت في هذا الموضوع حتى يعود الأستاذ خالد محيي الدين، لأنه مفوض سلطاته إلى علي الشلقاني.. وطلب مني البقاء في منزلي، وعدم الذهاب إلى المؤسسة.

وبقيت في منزلي، حتى عاد الأستاذ خالد محيي الدين.. فإذا بي أتلقى منه خطاباً رسمياً، بأنه قرر استمرار الأوضاع على ما هي عليه، حتى ينتهي من التحقيق في الأمر..

وتركني معلقاً في الهواء!

كان يمكنه أن يجري هذا التحقيق، في ساعة واحدة..

ومضت أيام طويلة. . فاتصلت به، وطلبت لقاءه. . وعرضت عليه الحل الذي أراه. .

قلت له: أنني أطلب نقلي إلى دار التحرير «الجمهورية». . ان مصطفى بهجت بدوي رئيس مجلس إدارة دار التحرير، يرحب بي. كما أنني سأكون سعيداً في العمل بعيداً عن أخبار اليوم. وهكذا سأخفف عنك حرج بقائي في أخبار اليوم، مع الأخوة الماركسيين.

ووافق خالد محيي الدين على ذلك.

ورحب مصطفى بهجت بدوي. .

وكانت المفاجأة، أن الرئيس جمال عبد الناصر، رفض ذلك، ولم يشأ عبد الناصر، أن يكون للماركسيين حق إخراج رئيس تحرير. .

وأذكر في هذه المناسبة واقعة كريمة لأحمد بهاء الدين معي، في ذلك الوقت. كان رئيساً لمجلس إدارة دار الهلال، وذهبت لزيارته، وعرضت عليه أن أعمل في دار الهلال. ورحب بي، وقال لي أنه على استعداد كامل، لاتخاذ هذا القرار. .

وهذا فضل له، يجب أن أعترف به. ولا يقدر قيمة هذا الفضل، إلا صحفي عانى من فصله من عمله، وأصبح قعيد بيته لا يؤدي أي عمل. وتقفل في وجهه جميع أبواب أجهزة الإعلام، حتى دور النشر، ترفض أن تطبع له كتاباً. .

وعدت إلى عملي بعد قرابة شهرين.

واستمرت علاقتي طيبة بالأستاذ خالد محيي الدين. . الذي أظهر مراراً تقديره لكفاءتي، وأمانتي في عملي. .

وعندما قرر جمال عبد الناصر، إخراج خالد محيي الدين من أخبار اليوم،

وتعيين محمد حسنين هيكل بدله.. كنت ضائقاًبهذا الوضع، رافضاً للتعامل مع هيكل.. والطريف أن الأستاذ خالد محيي الدين كان يواسيني، وانتحى بي جانباً في مكتبه، وشجعني على الإستمرار، وقال لي «أن كفاءتك هي سلاحك..».

وهكذا جرت علاقتي طيبة مع الأستاذ خالد.. ولا تزال.

وصدرت «الأهالي».. وكانت تطبع في «أخبار اليوم».. وكنت حريصاً جداً، على مواعيد صدورها، وعلى تقديم كل التسهيلات لأسرة تحريرها..

وأذكر في أول أعدادها، أن الأستاذ خالد محيي الدين، رد على مقال لي في «الأخبار» حول علاقته بالرئيس السادات.. وكان رده مهذباً وموضوعياً..

كما أذكر أن الدكتور إسماعيل صبري عبد الله وزير التخطيط السابق، وعضو حزب التجمع، كان قد كتب مقالاً اقتصادياً، رأيت فيه إيجابية وموضوعية، وعلقت عليه في «الأخبار»، طالباً من القراء المشاركة في إبداء الرأي.. وقصدت بذلك أن أثير حواراً مثمراً مع كاتب معارض.. وبذلك تزدهر فكرة الرأي والرأي الآخر..

ولكنني فوجئت بعد ذلك، وبغير ما سبب، بصحيفة الأهالي، تهاجمني بتجريحات شخصية، لا تتفق مع كونها صحيفة عقائدية.. واستمرت على هذا النهج.. مما أفسد الأجواء الواجبة بين أبناء المهنة الواحدة، مهما اختلفت آراؤهم..

وحدث أن نشرت «نشرة» الحزب، بعد توقف الجريدة لبعض الوقت، أن هناك قضية تمرد في القوات المسلحة.. وأن هناك تنظيماً للضباط الأحرار. وأوردت أسماء بعض المشتركين في هذا التنظيم..

وتعقبت الأمر، فوجدت الموضوع كاذباً، جملة وتفصيلاً، ولا أساس له من الصحة.. ونشرت تحقيقي، وبه أسماء الضباط الذين أدعوا أنهم مقبوض

عليهم بتهمة التآمر. . كما نشرت مواقع عملهم في المعسكرات المختلفة. .

ولم تستطع نشرة «الأهالي» أن تعلق بحرف واحد.

ثم عادت الصحيفة إلى الصدور. . ونشرت في أول أعدادها بعد غيبتها، خبراً في الصفحة الأولى، يتهم عز الدين هلال وزير البترول الأسبق في ذمته المالية، وذكرت أن هناك تحقيقاً يجري معه. .

وتحريت الخبر، ووجدته كاذباً. . وحدث أن التقيت بالأستاذ خالد محيي الدين، في نقابة الصحفيين في مناسبة عامة، ونبهته إلى ذلك. . وقلت له أن الصحيفة يجب أن تلتزم بالصدق. . وأجابني بأن حسين عبد الرازق رئيس التحرير متأكد من صحة الخبر. .

واستمرت حملات «الأهالي» التشهيرية. . بقصص صحفية فيها مبالغات واضحة. . ونشرت محاكمات عصمت السادات شقيق الرئيس السادات، على أنها محاكمة للزعيم الراحل. . وكانت تكتب المانشيتات الحمراء «اتهام السادات بكذا وكذا». . وهذا تجاوز للتشهير بالسادات، لأن الإتهامات كانت موجهة إلى عصمت السادات لا أنور السادات.

واستنكرت هذا الأسلوب. . ولكن لا حياة لمن تنادي.

ثم كانت الإتهامات للرئيس السادات، بأنه يريد إنشاء قواعد عسكرية أمريكية في مصر. . وهي اتهامات باطلة. . وقد رددت عليها، بنشر مقال كان كتبه لطفي الخولي في مجلة «الطليعة» بعد هزيمة ١٩٦٧، يطالب فيه بإنشاء قواعد عسكرية سوفيتية في مصر!

وتحديتهم أن يردوا بحرف واحد. . ولكن أحداً لم يعلق، وكان كل همهم هو التشهير الكامل بحكم السادات، وأسرته، وكل من ساند السادات. .

وكان هناك اتجاه في الحزب ضد هذه الغوغائية التي قادها حسين عبد الرازق والسيدة قرينته فريدة النقاش، وصلاح عيسى وقرينته شقيقة فريدة

النقاش وقد أطلقت عليهم إسم «عصابة الأربعة».. نقلاً عن زملاء شيوعيين لهم، مختلفين معهم.

كان واضحاً أن هذا الأسلوب الغوغائي، أثر على توزيع «الأهالي».. وأخيراً، قرروا تغيير قيادات التحرير.. وعزل حسين عبد الرازق من رياسة التحرير، كما عزل صلاح عيسى من إدارة التحرير. وعين لطفي واكد، ومحمود المراغي رئيسان للتحرير... وبدأت الأهالي تنتهج نهجاً موضوعياً، باستثناء ثغرات مؤلمة.. مثل نشر أقوال لأحمد الريان المتهم في قضايا توظيف الأموال، بأنه دفع رشوة للدكتور رفعت المحجوب.. وهي اتهامات باطلة يوجهها أكبر نصاب في تاريخ مصر، لمجرد التشويش.. كما أنه عدل عنها بعد ذلك، وأدعى أن أحد ضباط الرقابة الإدارية، أجبره على الإدلاء بها. كما نشروا كذباً أن الجمعية العمومية لمحكمة النقض، ناقشت عدوان وزير الداخلية زكي بدر على القضاء. وهذا لم يحدث. ونشرت تصريحاً واضحاً لرئيس محكمة النقض كذب فيه هذه الواقعة.. كما أنه أبلغ النائب العام للتحقيق مع «الأهالي».

وانتهى الأمر في «الأهالي» باستقالة محمود المراغي من رياسة التحرير، بعد خلاف مع لطفي واكد رئيس التحرير الثاني، وضح أن سببه هو الصراع بين التيار الماركسي في الحزب، والتيار الناصري..

ثم عين فيليب جلاب (ماركسي) رئيساً للتحرير، مع لطفي واكد. وهو كاتب ساخر الأسلوب، يتميز بالإتزان في الحكم على الأمور، في موضوعية حزبية، وله علاقات طيبة بأطراف المسرح السياسي.

وقد جنحت «الأهالي» في أول الأمر إلى تأييد مستتر لتيارات التطرف الديني والإرهاب.. واستمر ذلك لوقت طويل، وكان موقفاً ممجوجاً ومستنكراً من كل المثقفين.. ولكنهم عدلوا عنه.

* * *

وماذا كان الموقف من صحيفة «الوفد»؟..

الموقف من هذه الصحيفة، مرتبط بالموقف من الباشا فؤاد سراج الدين.

كان الأستاذ أحمد أبو الفتح ، كتب مقالاً في «الأخبار» تحدث فيه عن فؤاد سراج الدين. وكان ذلك قبل تأليف «المنابر». ورددت على أحمد أبو الفتح، بمقال استنكرت فيه الإشادة بمبادىء سراج الدين السياسية قبل الثورة، ورويت العديد من وقائع إفساد الحكم والحياة السياسية. . وقلت إنني لا أقبل أن يعود هذا الوجه القبيح إلى ساحة السياسة المصرية.

ورفع فؤاد سراج الدين دعوى جنحة مباشرة ضدي، بتهمة القذف والسب، كما ذكرت في أول هذا الفصل من الكتاب.

ونصحني صديقي المستشار عبد الحميد يونس، بأن أوكل عني في الدعوى، الأستاذ فتحي رضوان.

واستمر نظر الدعوى، شهوراً، وقدم فتحى رضوان المذكرة بالدفاع، وكانت آية في الأدب السياسي والقانوني. . حتى أننا طبعنا منها مئات النسخ. وفضح في هذه المفكرة، تاريخ فؤاد سراج الدين، منذ دخوله الحياة السياسية بتاريخ ميلاد مزور في الإنتخابات. . إلى أن قامت الثورة. .

وقضت المحكمة ببراءتي. .

وجرت الأيام. . وقامت المنابر. . ثم قامت الأحزاب. . ومنها حزب الوفد الجديد. .

وزارني صديقي وزميل الحقوق الأستاذ سعد فخري عبد النور، عضو الهيئة العليا للوفد. . ووالده هو المرحوم فخري عبد النور عضو الوفد المعروف قبل الثورة. . وقال لي أن فؤاد باشا يتصور أن هناك خلافاً شخصياً بينك وبينه. . وأن هذا هو سبب هجومك عليه.

وأوضحت لسعد وجهة نظري، وهو أنني مقتنع بأن فؤاد سراج الدين، دمر تاريخ الوفد، بسياسة الوفاق مع الملك والإنجليز. . وأنه حمى فساد الحكم. . ولولاه، لما قامت ثورة ٢٣ يوليو. .

وقال لي أن فؤاد باشا لا يهمه أبداً خلاف الرأي السياسي. . وهو يريد أن يتأكد من أنك لا تحمل له ضغينة شخصية، بسبب اعتقالك في عام ١٩٤٣ وهو وزير للداخلية. .

وأكدت لسعد أن الخلاف سياسي فقط. . وهنا، سألني: هل تمانع في تناول الغداء على مائدتي مع فؤاد باشا. .

وأجبته. سأريحك من هذا الغداء والعناء. أنني مستعد لزيارة فؤاد سراج الدين. .

وكان سعد فخري عبد النور، سعيداً بهذه الروح مني. . وتم اللقاء فعلاً في منزل سراج الدين ومكثت معه أكثر من ثلاث ساعات. . وتناقشت في كل الأمور السياسية، وتأكد أنني لا أحمل له أي ضغينة شخصية. . ورحب بالخلاف السياسي.

ثم زرته بعد ذلك، ودعوته لحضور الإحتفال بخطبة إبني الأكبر في كنيسة بالجيزة. . وقد حضر الرجل، وكان مرحِّباً به كل الترحيب.

ثم دعوته، كما دعوت مصطفى شردي إلى حفل الزواج. . وحضر شردي، وهو يحمل لي اعتذار الباشا عن عدم الحضور، بسبب مرض في عينه. . وأرسل بطاقة ورود. وشكرته.

وعندما كانوا يستعدون لإصدار صحيفة الوفد، اقترح مصطفى أمين أن يكون مصطفى شردي رئيساً لتحريرها. . وتقدم مصطفى شردي يطلب السماح له بذلك. ووافقت، بوصفي رئيساً لمجلس الإدارة. وكتبت مقالاً ضمن يومياتي في آخر ساعة قدمت فيها رئيس تحرير الوفد الجديد، بكل المودة والتقدير.

* * *

إذن كيف تطورت الأمور بعد ذلك، إلى حملات شخصية للتشهير بي، على صفحات الوفد؟. .

قبل أن أجيب على هذا السؤال. . يحسن أن أذكر عجالة عن علاقتي الشخصية مع مصطفى شردي. وعلاقة العمل معه في أخبار اليوم.

كان مصطفى شردي، مراسلاً لصحف أخبار اليوم، في مكتبنا في «بورسعيد». . وكان يعمل في هذا المكتب شقيقه الأكبر، في جلب الإعلانات. وعمل معه مصطفى شردي في جلب الإعلانات أيضاً، من هيئة قناة

السويس. . وكان يكتبها بأسلوب جيد. كما أنه كان صحفياً نشطاً، وكنت أنشر لـه بعض الأخبـار والتحقيقـات في مجلة «الجيـل» أيضـاً، عنـدمـا كنت رئيس تحريرهـا. وتكونت رابـطة شخصية بيني وبينـه، لأنني كنت أمضي وأسرتي شهر أغسطس في عطلة الصيف ببورسعيد. وكان يزورني ويكرم وفادتي، مع أسرته.

وكان على علاقة طيبة بمحافظ بـورسعيد عـماد رشدي. . وعينـه عضواً في مجلس المحـافظة، وعهـد إليه بـأصـدار مجلة المحـافـظة. . وذات يـوم حضر لي مصطفى شردي من بورسعيد وقال لي أن المحافظ أصدر قراراً عسكرياً بنفيه من بورسعيد! . . لأن المجلة صـدرت، وبها مـوضوعـات غير صحيحـة عن مستشفى بورسعيد وطلب إليّ أن أتوسط لدى المحافظ لإنهاء الأزمة. .

وسافرت فعـلاً إلى بورسعيـد. . وقابلت المحـافظ، واستمر حـواري معه أكثر من ساعتين، حتى عدل عن قراره، وانتهت الأزمة. .

واستمرت علاقتي بمصطفى شردي، طيبة كأي زميل أشجعه في عمله. . وخلال العدوان على بورسعيد في عام ١٩٥٦، استطاع أن يلتقط صوراً لضحايا العدوان. . وعاد بها إلى القاهرة، وقدمها إلى مصطفى أمين الذي استثمرها مـع الصحافة العالمية لإثارة مشاعر الرأي العام العالمي ضد وحشية إسرائيل. .

وأذكر أن علي أمين قال لي في ذلك الوقت:

ـ مصطفى شردي أصابتـه لوثـة! . . لقد طلب مني أن يسـافر إلى أسـوان على حساب أخبار اليوم للإسترخاء وإراحة أعصابه!

وقلت لعلي أمين:

ـ معذور. . الحياة في بورسعيد أثناء العدوان مرهقة للأعصاب. .

وقال علي أمين:

ـ كان يتحدث إليّ، وكأنه كان زعيم المقاومة الشعبية في بورسعيد. .

قلت له ضاحكاً:

ـ لا بأس!

ثم سافر مصطفى شردي إلى إحدى دول الخليج، في إجازة بدون مرتب.. ورأس تحرير صحيفة «الاتحاد» لسان حال دولة الإمارات.. وكان معه عدد من الزملاء محرري أخبار اليوم.. وكان يحضر إلى القاهرة بين الحين والحين، ويطلب رأيي في عمله الصحفي، باعتباري أستاذاً له.. وكان يرسل لي خطابات مودة مستمرة يبدأها بعبارة «أستاذي.. فلان»..

ثم عاد إلى القاهرة، بعد أزمة بينه وبين المسئول عن الإعلام في أبو ظبي.. ورتبت له عملاً في «الأخبار»..

وخلا منصب مدير تحرير «آخر ساعة».. وقررت تعيينه في هذا المنصب. واعترض الأستاذ وجدي قنديل رئيس تحرير آخر ساعة.. كما فوجئت بثورة داخل «الأخبار».. وسبب ذلك، أن الشعور العام بين المحررين، هو أنه قد سافر إلى الخارج للعمل، وتكفيه الفائدة المادية التي حصل عليها.. وليس من العدل أن يعود ليحتل منصباً. كما تدخل عدد من قيادات التحرير في «الأخبار» وطلبوا أن أتروى في قراري، وقالوا لي أنك مخدوع في سلوكه.. لأن زملاءه المصريين ذاقوا منه الأمرين هناك.. ولكنني سددت أذني عن سماع كلمة واحدة تسيء إلى مصطفى شردي.. وأصدرت القرار بتعيينه مديراً لتحرير آخر ساعة، بعد أن أقنعت محمد وجدي قنديل بوجهة نظري..

وتسلم عمله.. وكان دائم الشكر لي، على هذا التشجيع.. وعندما حاول الدكتور حلمي مراد إثارة المتاعب، داخل أخبار اليوم، بتحريض أحد محرري آخر ساعة على رفع قضايا، والترويج بأنني أدير المؤسسة بسياسة طائفية، كان مصطفى شردي متحمساً ضد هذا التخريب بكل مشاعره..

وطلب أن يسافر إلى أمريكا للعلاج من أزمة قلبية على حساب المؤسسة.. وطلبت منه كالعادة تقريراً من طبيبه المعالج.. فاتصل بي إبراهيم سعده وقال لي: أن حالته خطيرة جداً.. ولو أطلع على تقرير الطبيب، فإنه سيموت من الخوف!..

وأمام هذا الإعتبار الإنساني، استثنيته من تقديم تقرير الطبيب.. ثم طلب مرافقاً له في السفر.. وحدد السيدة زوجته، وكنت قد استحدثت في

«أخبار اليوم» العلاج في الخارج على حساب المؤسسة في الأمراض الخطيرة، ولكن ميزانيتنا لم تكن تسمح بتسفير مرافق.

ولكنني، تقديراً لخطورة حالته، وافقت على سفر السيدة زوجته معه على حساب «أخبار اليوم». .

وعاد من رحلة العلاج شاكراً ممتنناً. . واستمر في عمله. . وشكا لي محررون عديدون، من سوء معاملته لهم، ولكنني كنت دائماً في صفه، ثقة في سلوكه وعمله. .

وعندما وافقت على عمله في صحيفة الوفد. . كان في قمة الشكر والامتنان. وحدث ليلة صدور العدد الأول من «الوفد». . أن أصيب بأزمة خطيرة في إمعائه، وأسرع أحد الزملاء في آخر ساعة، إلى مستشفى القوات المسلحة، مستنجداً بطبيب مشهور. . ما إن كشف عليه حتى قرر إجراء جراحة فورية له في مستشفى بحي المهندسين، إنقاذاً لحالته. وزرته بعد الجراحة. . وقررت أن يكون علاجه في المستشفى على حساب مؤسسة أخبار اليوم، رغم عمله في الوفد. .

وكان في قمة السعادة بزيارتي، وقال لي أمام الحاضرين: أريد فقط رأيك في العدد الأول الذي صدر. . إن رأيك الصحفي هو أهم شيء عندي. .

فلما قلت: أن العدد ناجح صحفياً. .

قال: هذه شهادة من أستاذي أعتز بها مدى الدهر!

وخرج من المستشفى. . وكان يزورني بعد صدور كل عدد ويقدم لي الصحيفة قبل عرضها في الأسواق. . ويستمع إلى رأيي سعيداً، وشاكراً لي هذا التشجيع.

وحدث أنني عرفت، أن هناك من يتآمر لإخراجه من صحيفة الوفد. . وروى لي أحد أقطاب الوفد قصة هذه المؤامرة. . فاتصلت تليفونياً على الفور، بمصطفى شردي، وطلبت إليه أن يحضر إلى مكتبي على الفور. . وحضر. . ونبهته إلى ما يجري ضده من وراء ظهره. . وشكرني على هذا الإهتمام به. .

وقال لي: فعلاً. . هذا الشخص الذي ذكرت لي إسمه، يعمل ضدي من وراء ظهري.

وهكذا جرت العلاقة مع مصطفى شردي. .

ثم فوجئت يوماً، بخبر منشور عني في «الوفد». . يقول أنني تزوجت المطربة صباح!. . .

وذهلت. الخبر كاذب. ثم إنه خبر شخصي عني. فكيف لا يسألني مصطفى شردي؟. .

وطلبته في منزله، وفي مكتبه، وتهرب مني. . وتحدثت إلى السيدة زوجته، وقلت لها. . هذا آخر ما أتوقعه من مصطفى.

وقابلت جمال بدوي «زميلنا في الأخبار» مدير تحرير الوفد، مصادفة في مكتب إبراهيم سعدة. . وعاتبته على هذا التشهير. . وسألني: ماذا يرضيك؟. . قلت: تكذيب الخبر مع الإعتذار. وفعلاً صدر العدد التالي، وفيه التكذيب والاعتذار.

وحضر مصطفى شردي إلى مكتبي، وعاتبته، وأقسم أنه لم يقرأ الخبر المدسوس قبل النشر. وكنت أحس أنه كاذب. ولكنني أردت تصديقه.

وقلت له: نصيحة مني يا مصطفى. إبتعد عن الأخبار الشخصية، خاصة إذا كانت كاذبة، وابتعد أيضاً عن نشر أخبار سيئة عن زملائك الصحفيين. . وضربت له مثلاً بخبر سخيف نشر عن صلاح جلال. . .

فإذا به يقول لي: وهل تنسى يا أستاذ موسى. . موقف صلاح جلال ضدك، عندما أراد حلمي مراد تخريب أخبار اليوم من الداخل. .

وقلت له: لا يهم وجود أي خلاف بيني وبين صلاح جلال. المهم أن لا تنشر خبراً شخصياً وسيئاً عن أي زميل. هذه هي تقاليد المهنة التي يجب أن تحترمها.

وخلال هذه الفترة، كتبت أكثر من مقال نقدي لفؤاد سراج الدين. . وحضر مصطفى شردي الى مكتبي، وسألني:

ـ هل من الممكن أن لا تهاجم الباشا. .

ـ وكيف يا مصطفى. . أنا لا أهاجم شخصه. . ولكنني أهاجم سياسته. . وهذا موقف. . وعلاقتنا الشخصية على أحسن ما يرام. .

وكرر كلماته قائلاً: هذا رجاء شخصي مني. .

قلت له: آسف. . أنني لا أجرح ولا أتناول شخصه. . ولكن رأيي في تاريخه السياسي واضح. .

وانصرف مصطفى شردي. ولم أكن اتصور أن هذا الحوار، كان إيذاناً بشن أبشع حملة تشهير شخصي ضدي في كل عدد من الوفد صدر بعد ذلك!

وكنت قد أعلنت أنني لا أقاضي صحيفة أو صحفي. . وشجعهم هذا الاعلان من جانبي على أن يتبذلوا الى أقصى المدى. . ولذلك قررت أن أقاضي سراج الدين، وشردي. . وحكم لصالحي في ثلاث قضايا، وجرمتهما المحكمة في اتهام القذف والسب، وعلاوة على التجريم، حكم لي بتعويض عشرة آلاف جنيه في قضية، ثم خمسة آلاف جنيه في ثانية، وألفي جنيه في ثالثة. . ولا تزال هناك ثلاث قضايا متداولة أمام المحاكم. . ولكنني أوقفتها بعد وفاة مصطفى شردي.

وبجمل حملات التشهير، أنني رجل زير نساء، حياتي في نوادي الليل، وبين الغواني. . وانني أطرد من بيوت الراقصات، الى آخر هذا الاسفاف الحقير.

ولم يكتفوا بشخصي. ولكنهم تعقبوا أبنائي، ونسبوا لي أن إبني الأصغر دخل كلية الطب بمجموع ٥٠ في المائة!. . وهذا معروف أنه مستحيل تماماً. وإنني عينت إبني الأكبر (مهندس) في شركة البيضاني مقابل أن أدافع عن البيضاني على صفحات الأخبار. . وهذا كذب حقير لأنني لم أكتب حرفاً واحداً عن شركة البيضاني، كما أن إبني إستقال من هذه الشركة وعمل في شركة أخرى، وهو حاصل على بكالوريوس الهندسة بدرجة الامتياز. . ونسبوا إلى إبني الأوسط (خريج الجامعة الأمريكية ـ إدارة أعمال) أنه صاحب شركة كبرى. . وهذه أيضاً فرية. .

ثم بدوا يغمزون عن علاقة اختلقوها لي مع المطربة ياسمين الخيام. والهدف الرخيص الخسيس مفهوم. فهي إبنة المرحوم الشيخ الحصري عميد القراء المصريين. . فكيف يكون لها علاقة بمسيحي!!

وربما كان هذا هو الخبر الوحيد الذي آلمني.. واتصل عبد الرحمن الشرقاوي بدافع من ضميره بالباشا أكثر من مرة، ووعد بتكذيب الخبر، ولم يفعل. واتصلت به ياسيمن الخيام.. ولم يفعل. وأمضت أياماً بلياليها تبكي هذا التشهير بسمعتها وهي إبنة الشيخ.. وحدث خلال ذلك أن دعاني إبراهيم سعدة إلى حفل زفاف لأحد أقاربه، ورأيت مصطفى شردي على مائدة مجاورة، فخلعت حذائي، وصممت على ضربه!.. لولا تدخل الزملاء.

وانتهز شردي فرصة، هجومي على أعمال النصب التي قامت بها شركات توظيف الأموال، فكتب أكثر من مقال رخيص، يدعي فيه بأن هجومي على هذه الشركات سببه التعصب الديني!

وكان هو الصحفي الوحيد في مصر، الذي دافع عن جرائم الريان وغيره.

كما كتب أكثر من مرة، يعلل موقفي المعادي للإرهاب والتطرف، بأن سببه أن المتطرفين والإرهابين مسلمون!

ولا أريد أن أحصي في هذا المؤلف ـ عن عمري الصحفي ـ مئات الأخبار والمقالات الرخيصة التي نشرها الباشا للتشهير بي.. واستخدم في ذلك مصطفى شردي، ولكن السؤال الذي كان يلح على كل الزملاء والأصدقاء.. كيف ألقى جزاء سنمار من صحفي زميل وصديق.. وكل ما قدمته له، هو التشجيع والعلاج من المرض، وتعيينه في منصب مدير تحرير آخر ساعة.. إلى آخر ما قدمته له من خدمات؟..

لا أريد أن أطيل في الإجابة على هذه الأسئلة.. بعد وفاة مصطفى شردي..

وعلينا أن نصمت أمام جلال الموت.

* * *

وكانت الهجمات تعنف وتشتد بيني وبين صحيفة الوفد.. ولكن علاقتي السوية مع أستاذي الدكتور وحيد رأفت نائب رئيس حزب الوفد، استمرت طيبة دائماً. كنت تلميذه في السنة الثانية بكلية الحقوق (١٩٤٠) في مادة

القانون الإداري. وكان له إحترام خاص بين الطلبة. وكان يمزج تدريس المادة القانونية، بالأخلاقيات الوطنية. ولهذا أحببناه واحترمناه. وأذكر في ذلك العام، أن الملك فاروق كان ينعم بالرتب، على من يتبرعون لمشروع الحفاء. كان الهدف من المشروع الحصول على أحذية للحفاة. وأنعم الملك برتبة البكوية على موريس دوس الطالب بالحقوق. واستنكر الطلبة هذا الموقف.. فكتبنا على السبورة قبل أن يدخل الدكتور وحيد رأفت المدرج.. يعيش وحيد بك رأفت.. كيف تمنح البكوية للطالب ولا تمنح للأستاذ..

وقرأ الدكتور وحيد السبورة، ولم تعجبه المقارنة.. كان يرى أنه أكبر كثيراً من رتبة ملكية.. وطلب محو المكتوب. ثم صرخ غاضباً: أنا ما عنديش عشرة آلاف برطوشة علشان أشتري بكوية!

وكان وحيد رأفت ضد فساد الملك والأسرة الملكية، ولكنه رأى بعد الثورة، أن النظام الملكي هو أصلح لحكم مصر، بشرط أن الملك يملك ولا يحكم.. وكتب مقالات في هذا المعنى، ربما قبل إعلان الجمهورية أو بعدها (لست أذكر تماماً).. وكان قريباً لعلي صبري رئيس الوزراء في عهد عبد الناصر، ولكنه كان من أشد وأعنف المناهضين لحكم الفرد.

وعندما أنشيء حزب الوفد الجديد، كان وحيد رأفت نائباً لرئيس الحزب. ولم تكن مثالياته لتتفق مع مناورات فؤاد سراج الدين.. ولا مع البذاءات وحملات التشهير الشخصية الكاذبة التي كانت تنشر في صحيفة «الوفد».. ولكن وحيد رأفت لم يكن يملك القدرة على التأثير على القرار.. وكان يكفيه أن يبدي رأيه فقط...

وكم دخلنا في سجالات سياسية موضوعية، محترمة.. وكنت دائماً أناقشه بكل التوقير. وكان ذلك يثير حفيظة فؤاد سراج الدين.. ومرة كنا في حفل استقبال في منزل السفير أشرف غربال، وقال لي الدكتور وحيد: فؤاد باشا يرى أنك تريد الإيقاع بيننا..

وضحكنا وأنا أقول: هذه تهمة لا أنفيها!

وحدث مرة، أن أرسل لي مقالاً، ولم ينشر المقال. وغضب لذلك غضباً

شديداً. والحقيقة أن المقال لم يصلني على الإطلاق. وسجلت ذلك. فما كان من الرجل إلا أن كتب إعتذاراً علنياً، على إتهامه لي بعدم نشر المقال..

وقد بدأت حملة صحيفة، لإنقاذ الصحافة، من المستوى المتدني الذي وصل إليه الأسلوب الصحفي في صحيفة الوفد.. ووجهت نداء إلى الدكتور وحيد رأفت، وإبراهيم فرج (باشا)سكرتير عام الحزب.. أن يتدخلا لإنقاذ صحيفة الوفد من هذا التلوث..

وأرسل لي الدكتور وحيد رأفت، تعليقاً على حملتي.. يؤيد الحملة، ويعترض على أنني استخدمت أسلوباً لا يرتضيه..

وأنشر هذه الرسالة، للتعريف بأسلوب الدكتور وحيد رأفت في الجدل السياسي، الذي إحترمته دائماً...

* * *

رمل الإسكندرية في ٦ أغسطس ١٩٨٥

السيد المحترم الأستاذ موسى صبري.

تحية طيبة وبعد، فأرجو أن تصلكم كلمتي هذه بعنوانكم بالقاهرة، قبل مغادرتها ربما للإجازة، وذلك رغم هذا الجو الرطب الخانق الذي نعيشه هذه الأيام حتى في ثغر الإسكندرية الذي كان فيما مضى جذاباً وهادئاً، فتحول إلى صورة طبق الأصل من القاهرة بزحامها وضوضائها وتلوث جوها، وغياب اللون الأخضر بعد تقلص الحدائق العامة والخاصة فيها!

وهي في الجملة عوامل لا تساعد على هدوء الأعصاب، بل تدفع بالعكس إلى توترها وانفلاتها أحياناً!.. فتنعكس هذه الظاهرة المرضية على شتى مظاهر حياتنا اليومية، بما في ذلك صحافتنا وبخاصة الصحافة الحزبية عموماً، كما لاحظه بحق الكثيرون ممن تعرضوا مؤخراً لأسلوب الحوار الصحفي عندنا، وهبوطه بدرجة لافتة للنظر!.. وحملكم شخصياً على توجيه ندائكم بجريدة «الأخبار» في الثلاثين من يوليو الماضي إلى العزيز إبراهيم فرج سكرتير عام حزب الوفد الجديد، وإلي شخصياً كنائب لرئيس الحزب، من أجل التعاون جميعاً، لإنقاذ صحافتنا من سموم الصحافة الصفراء، والالتزام، بقيم الحوار،

وعدم الانزلاق إلى الأساليب الهابطة أو إلى التهجم والتشهير ونشر الأكاذيب..

وعززتم هذا النداء الكريم، بأكثر من مقال بجريدة «الأخبار» قرأتها جميعها بكل الاهتمام الواجب..

وإني إذ أشكركم على ثقتكم في شخصي الضعيف، وتذكيركم السادة القراء بأنني كنت أستاذاً لكم بكلية الحقوق، وهو مازلت أعتز به، إلا أني أعتب عليكم رغم ذلك لسببين:

الأول: إن بعض الألفاظ والتلميحات الواردة في ندائكم بتاريخ ٣٠ يوليو أو في «يومياتكم» بمجلة آخر ساعة بعددي ١٧ و٣١ يوليو، لا تتمشى بل تتعارض تماماً مع طهارة القلم والكلمة التي تدعون إليها! وقد ينطبق عليها على العكس من ذلك قولة أستاذنا الكبير عبد الرحمن الشرقاوي ـ وقد استشهدتم به في مقالكم في «الأخبار» بتاريخ ٤ أغسطس.. «إن البغاء قد يكون في الأقلام كالأجسام»!!.. وكم كنت أتمنى لو أنكم لم تنساقوا إلى إستخدام ذات الأسلوب الذي تنتقدونه بشدة، لاسيما وأنتم علم من أعلام الصحافة، وصاحب مدرسة صحفية تخرج فيها العديد من الشبان المشتغلين بالصحافة اليوم، والذين ينتظرون منكم أن تكونوا لهم القدوة في جميع الظروف، وسواء كنتم في موقع الهجوم أو الدفاع!.. فهذه في نظري هي «ضريبة الاستاذية»!..

أما العتاب الثاني، فلأنكم ركزتم في ندائكم وكتاباتكم على صحافة الوفد وحدها، وكأنها المتزعمة للتيار الهابط الذي تحدثتم عنه بإفاضة، فقلتم مثلاً «إن الأسلوب في صحف الوفد قد تدنى إلى مستويات غير لائقة ولا أخلاقية، وتقدم أسوأ القدوات، وهو موقف خطير يجب التصدي له من كل من يهمهم الأمر لإنقاذ الصحافة من هذا الوحل، ومسح هذا العار الذي يمس الصحفيين جميعاً».. وأضفتم «إن ما ينشر اليوم في صحيفة الوفد وصل إلى إستخدام ألفاظ لا تسمع إلا في المواخير، ولا تليق ولا يجوز أن تنشر في صحيفة يقرأها الناس»!

ثم إنتقلتم من الحديث عن صحيفة الوفد ولسان حاله والتي يرأس مجلس إدارتها رئيس الحزب، إلى الحديث عن «الصحيفة التي تنشر باسم شباب الوفد، ويرأس مجلس إدارتها الأستاذ إبراهيم فرج سكرتير عام الحزب، وذكرتم أمثلة

علـى بعض ما ورد فيهـا للتدليـل على «الأسلوب الهـابط واللاأخـلاقي لصحف الــوفد»! وهي عـلى مـا أعلم ليست صحيفـة تبـاع في الأسـواق، بــل «نشرة» يتولاها بعض شباب الوفد وتوزع بالمجان!

ويعتقد البعض ربما خطأ، أن الدافـع على هـذه الحملة من جانبكم عـلى صحيفة الوفـد أو «صحف الوفـد» هو الحقـد الدفـين على حـزب الوفـد قديمـه وحديثه!.. وهو شعور لا نبادلكم إياه على الإطلاق، وثبت ذلـك لكم من أكثر من مناسبة لا داعي لتـذكيركم بهـا (يقصد حضـور فؤاد سراج الدين وحضـوره حفل زفاف ابني).. هذا فضلاً عن أن حزب الوفد الجديد، يتسع صـدره لكل نقد شريـف، ولكل خصومة شريفة، ولا يحمل حقداً لأحد، ولا لخصـومه وهـم كثيرون!

ومن الظلم البين إتهام صحيفة الـوفد بـأنها مصدر أزمـة لغة الصحـافة، وانهيـار مستـوى الحــوار الصحفي، كـما ذهبتم إليــه في نـدائكم وكتــابـاتكم الـلاحقة!.. والكـل يعلم أننا نـواجه ظـاهرة عـامة يشـترك أكثر من طـرف في خلقها! وهذا هـو المؤسف والمحزن حقـاً! ولكنه لا يـبرر في نظري الخـروج عن الجادة، حتى لو كان الخارج عليها هو الطرف المعتدي عليـه، أو أنه لم يلجـأ إلى التشهير والهجوم إلا دفاعاً عن النفس. أو من قبيل المعاملة بالمثل! ولا أظن أنـه بالامكان علاج هذه الظاهرة العامة والمؤسفة جملة أو بين عشيــة وضحاهـا!.. ولكن يمكن لهذا العلاج أن يؤتي ثماره ولو بعـد حين، إذا ألـزم كل طـرف نفسه باتباع الأسلوب السليم الشريف والحـوار النظيف، دون إنتـظار للمعاملة بـالمثل من جانب الآخرين!

ولست أشك في أنه يسعد صحيفة الـوفد، أن يكـون لها شرف البـدء في إنتهاج هذه «المثالية» وهو ما يجب عـلى كل منـا أن يعمل عـلى تحقيقه في حـدود صلاحياته وامكاناته وبكل وسيلة! لتعود إلى الصحـافة عنـدنا، جـديتها وحسن سمعتها، ومكانتها السامية.

وأنتهـز هذه المنـاسبة لأكـرر لكم التحيـة مـع أطيب التمنيـات بـالصحـة والسعادة والتوفيق الدائم.

المخلص

وحيد رأفت

* * *

وهكـذا يرى القارىء منهج وحيد رأفت . إنه لا يـدافع عن سقـطات صحيفة الوفد، ويعترف بها، ويرى أنها ظـاهرة عـامة تستـوجب العلاج. . وإن كان يأخذ على الخصوم السياسيين أيضاً أنهم واقعون في نفس الخطأ.

* * *

* * *

وخلاصة القول. .

ما هو تقييمي للصحافة الحزبية في مصر، بعـد أن أطلقت حريـة تكوين الأحزاب. .

أقول أن التجربـة، تهددهـا الفشل في كثـير من الأحيان. . وكـان الهدف الأول، هو الإثارة والتشهير. . والكل يريد أن ينـال من النظام بـأي ثمن، مهما اختلفت الاتجاهات. وقـد أثر هـذا في ثقة القـراء، فهبط توزيـع هذه الصحف هبـوطاً كبـيراً. . ويكفي أن أسجل أن صحيفـة الوفـد قد ارتفـع تـوزيعهـا إلى ٧٠٠ ألف نسخة في وقت ما. . هبطت إلى مائتي ألف نسخـة. . ولكنني أتصور أن صحيفتي الشعب والأهالي استفادتا من التجربـة. . وبدأتـا تتجهان إلى قـدر من الموضوعية . . كما أن صحيفة «الوفد» بعد تولي جمال بدوي رياسة تحريرها ـ قد التزمت الموضوعية في غالب الأحيان ، باستثناء صفحة «العصفورة» التي لا تزال تكتب بأسلوب غرز الحشيش!

وقد تعرضت صحيفة الوفد، لأكبر فضيحتين. .

الأولى. . عندما قدم أحد محـرريها بتهمـة الحصول عـلى رشوة مـائة ألف جنيه، من الدكتور عبد الرحمن البيضاني، مقابل وقف الهجوم عليه. وقد سانـد الاتهـام شريط تليفزيـوني، سجل كـل خطوات وقـائع الحـدث. ولكن المحكمـة أصـدرت حكمهـا بـالـبراءة، وبنت الحيثيـات عـلى أسـاس بـطلان إجـراءات التسجيل، لأن القانون يشترط أن يسمح القاضي بـالتسجيل، بعـد أن تقدم لـه التحريات اللازمة. وقدر القاضي أن التحريات لم تكن كافية.

أي أن المحكمة في حكمها بالبراءة، لم تتعرض لحدوث واقعـة الرشـوة أو عدم حدوثها. ولكن الحكم بنى على بطلان الاجراءات.

والثـانية. . عنـدما قـدم أحد محـرري الوفـد، إلى النيابـة العامـة، بتهمة اعـترافه بـتزوير صـور التعذيب التي كـانت نشرتها صحيفـة الوفـد، إذ قـال في تسجيل تليفزيوني، أنه هو الذي كان يقوم بالتزوير، وتصوير الأشخاص في مبنى صحيفة الوفـد، وفي حمام منـزله حيث تـوجد أسيـاخ في نافـذة الحمام تبـدو أنها قضبان. . كما أنه كان يقوم باستخدام أقلام «الروج» التي تتزيّن بها السيدات في رسم علامات على الأجسام. تبدو في الصورة أنها آثار تعذيب. .

ولكن تحقيق النيابة العامة في هذا الاتهام لم يستمر.

* * *

وبالنسبة للتجربة الحزبية أقول. . أن الشوط لا يزال أمامنـا طويـلاً. ولا يـوجد حـزب له مبـادىء واضحة إلا حـزب التجمـع عـلى أسـاس أنـه حـزب ماركسي. وأنصار حزب الغالبية (الوطني) لا يبذلون النشـاط الحزبي المرتجى، كما أن كادرات الحزب على مختلف المستويات، لم تحدد ولم تكون رغم مرور سنـوات على إنشائه. . ولا يوجد به تنظيم من شباب الحزب، ينمو عـلى مبادئـه ويدرب على العمل السيـاسي، كما تفعـل كل الأحـزاب الديمقـراطية في أوروبـا. كما أن حـزب العمل تحـوّل من الاتجاهـات الاشـتراكيـة، إلى الاتجـاهـات الـدينيـة. . وليست له قواعد كافية في مختلف أنحاء البلاد، وحزب الأحـرار يكاد أن يكـون لا وجود له. وحـزب الأمة، هـو النكتة بـين الأحزاب، فـلا يمثله إلا رئيسه. وحركة تنقلات الأعضاء مـن حزب إلى حزب، وخـاصة في فـترة الانتخابـات، تؤكـد أن الانتماء الحـزبي، ليس انتماء عقيـدة ومبدأ، والقـوة السياسيـة الحقيقية القائمة على المسرح السياسي، هي الجماعات الاسـلامية، والاخـوان المسلمون. وهؤلاء ليسوا منتظمين في حزب. ولكن لهم تنظيماتهـم المنتشرة، والتي تخضـع لنظام عمل دقيق.

ولا أتصور أن جيلي سوف يشهد تطوراً في الحياة الحزبية، إلى الكـمال. . ربما تجدي الممارسة في اكتساب خبرة وتجربة. . ولكن الأمر يحتاج أولاً ـ وأخـيراً. إلى مولد جديد، وبناء جديد، بالنسبة لكل الأحزاب المصرية على الساحة. .

الفصل السابع والثلاثون

خلافات.. مع رؤساء الدول

برقية استنكار إلى رئيس لبنان، تغضب عبد الناصر ـ أزمة مع نميري بسبب تصريح له ـ مخابرات القذافي دبرت لاغتيالي ـ هجوم على صحافة الكويت ـ مهاجمة مصر مقابل الدنانير والدولارات ـ قرار من أمير الكويت بوقف الدستور وحق تعطيل الصحف ـ حديث صحفي معي عن قرار الأمير ـ عزة كمال المصرية التي اتهمتني المعارضة بأنها من اختراعي ـ مقال عن اتفاق سياسة أمير الكويت مع الأحزاب الشيوعية ـ هجوم على المصريين العاملين في الكويت ـ رد عنيف بمقال «يا سفير الكويت تكلم» ـ صحيفة القبس تقول: «موسى صبري، غلطة مطبعية في صحافة مصر» ـ مبارك يطلب من صحافة مصر عدم مهاجمة الدول العربية ـ رسالة من مبارك إلى رئيس عربي ـ رسائل إلى الملوك والرؤساء العرب ـ رسالة إلى الملك فهد ـ اتصالات بين الرياض والقاهرة بعد المقال ـ حوار مع الأمير طلال ـ إقامتي في مستشفى القوات المسلحة بالرياض ـ صفحة جديدة في العلاقات ـ مؤتمر الدار البيضاء وعودة مصر إلى الجامعة العربية ـ عدوان صدام حسين على الكويت ـ أزمة سابقة بين العراق والكويت في يوليو ١٩٦١.

الفصل السابع والثلاثون

خلافات.. مع رؤساء دول!

أحمد الله أنني خلال هذا العمر الطويل، في بلاط صاحبة الجلالة.. حاولت جهد الطاقة، أن أحترم نفسي، وأصون كرامتي، وأنا أؤدي عملي الصحفي..

وأذكر عند بدء اشتغالي بالصحافة عام ١٩٤٤، وكنت لم أجاوز العشرين من عمري، نحيل الجسم، صغير الحجم.. أنني طلبت لقاء مع عبد المجيد باشا صالح وزير الأشغال، وكان من أقطاب حزب الأحرار الدستوريين.. ولما دخلت عليه، لاحظت أنه بدأ التحدث معي، وأنا واقف أمامه. فبادرته على الفور بالسؤال عن ابنه الذي كان زميلاً لي في الحقوق.. وأدرك الرجل أنني أحتج على تركي واقفاً.. وأسرع بالقول: تفضل أجلس.. تفضل.. لا يبدو عليك أنك تخرجت في الجامعة..

وجلست.. واستراحت نفسي.

* * *

وسافرت إلى لبنان في عام ١٩٥٨، بعد أحداث الفتنة الطائفية، التي تولى بعدها الرئيس شهاب، رياسة الدولة.. وأجريت تحقيقاتي الصحفية مع كل الأطراف، وبقي أن أقابل رئيس الدولة..

وطلبت اللقاء أكثر من مرة، ولم يخطرني أحد بموعد، ولجأت إلى الزعيم اللبناني صائب سلام، وقد كان طرفاً على قمة الأحداث.. وتحدد لي موعد. وذهبت إلى القصر الذي كان يقيم فيه رئيس لبنان.. وانتظرت في الصالون، حتى جاءني مدير مكتبه، وقال لي: تفضل.. الرئيس سيقابلك..

وفوجئت بأن الرئيس شهاب، خارج من مكتبه.. وقد توقف عند السلم المؤدي إلى سيارته، لكي يستقبلني.

ولكنني رفضت.. وقلت لمدير مكتبه:

- لست من صحفيي السلالم.. وأنني أمثل أكبر صحيفة في الشرق الأوسط.

وانصرفت غاضباً.. وذهبت على الفور إلى مكتب البريد، وأرسلت برقية إلى الرئيس شهاب، عنيفة الكلمات، قاسية اللهجة، احتج فيها على هذا الأسلوب الذي لا يحترم الصحافة.. وتطاولت بعباراتي على رئيس لبنان.

وعدت إلى القاهرة.. ونشرت كل تحقيقاتي.. وبعد أيام، أبلغني مصطفى أمين أن الرئيس جمال عبد الناصر، تلقى إحتجاجاً من الرئيس شهاب على تطاولي عليه، وأنه تقرر منع دخولي إلى لبنان، كما قرّر عبد الناصر ألا أسافر إلى الخارج.. وقال لمصطفى أمين: هو موسى صبري صحفي ولا زعيم.. هل يريد أن يفسد علاقات مصر بلبنان..

وشرحت لمصطفى أمين ما جرى.

وحضر بعد ذلك بوقت صائب سلام إلى مصر.. وعرف ما جرى، وتوسّط لدى الرئيسين، لإنهاء هذا الموقف.. وشكرته على جميل مسعاه..

* * *

ومنذ أن تولى جعفر نميري، رياسة الحكم في السودان، توطدت الصلات القوية بيني وبينه.. وكنت دائم الاتصال به، سواء باللقاء أو بالتليفون في كل الأحداث التي واجهها. وعندما تأزمت العلاقات بينه وبين الرئيس السادات.. وكان السادات يخطّط لإنهاء حكم نميري، وجرت اتصالات سرية مع المهدي بهذا الهدف .. سافرت إلى الخرطوم ، وأمضيت وقتا طويلا وكنت أرى الرئيس نميري يومياً، وسافرت معه إلى الجنوب وأدليت بحديث إلى مجلة القوات المسلحة السودانية، لكي أهدىء من غضبه.. وشعرت أنني أديت دوراً إيجابياً في تحسين العلاقات.. وبعدها سافر المهندس سيد مرعي إلى الخرطوم.. ثم

عادت العلاقات طيبة بين السادات ونميري. . وحفظ لي نميري هذا الموقف. . (ذكرت تفصيل ذلك في فصل سابق).

ولذلك فوجئت، بعد توقيع اتفاق كامب دافيد، بتصريحات أدلى بها الرئيس نميري في إحدى دول الخليج، قال فيها أنه لن يطأ بقدمه أرض مصر. . وغلا الدم في عروقي من هذا العدوان على كرامة مصر. . وأذكر أن السادات تحدث حينئذ وقال ان أرض مصر طاهرة. . ترحب بمن يفد إليها. . ومن لا يريد أن يحضر إلينا، نحن أيضاً لا نريده. . ثم كتبت مقالاً ملتهباً في الصفحة الأولى من الأخبار. . هاجمت فيه هذا الموقف من الرئيس نميري، هجوماً عنيفاً. . وكان أن أصدر قراراً بمنع جميع صحف أخبار اليوم من دخول السودان. . وقال نميري لمعاونيه بعد ذلك، الذين تحدثوا معه في هذا الأمر. . لم يهمني ما جاء في المقال من تهجم. . ولكن همّني أن هذه الكلمات صادرة من صديقي موسى صبري. . وكان عليه أن يركب الطائرة إلى الخرطوم، ليستوضح مني صحة صدور هذه التصريحات. . لأنها نشرت محرفة. .

واضطررت بعد ذلك أن أسافر إلى الخرطوم، لتقديم أوراق ابني إلى كلية الطب السودانية، ورفض الرئيس نميري إستقبالي. . كما تهرّب وزير القصر الجمهوري من الردّ على بالتليفون. . واستقبلني علي شمو وزير الشباب، وأحسن وفادتي. . وأجرى اتصالات بأقرب الناس إلى نميري، وقال أن دور موسى صبري في القضية السودانية المصرية لا يمكن أن يجحد. .

وتحدث إلى نميري في ذلك. . وكنت قد غادرت السودان.

ثم سافرت إلى الخرطوم، في صحبة الرئيس السادات. . وسوّى الموقف وعانقني الرئيس نميري. . وعادت العلاقات الشخصية إلى ما كانت عليه. .

* * *

وخلال رحلة العودة إلى مصر، على طائرة السادات، حدثت الواقعة المثيرة التي أشرت إليها في «الفصل الرابع والعشرين»، وهي عن الاشتباه في وجود قنبلة في حقيبة يدي!

وكنا قد تعرضنا من قبل، لموقف يثير الخوف ويدعو إلى الحيطة والحذر عندما حضر السادات مؤتمر القمة الأفريقية في «منروفيا».

كانت معلومات أمن الرياسة في مصر، أن الأمن في هذه العاصمة الأفريقية، لا يمكن أن يحمي قرية! . . وكانت المشاعر معبأة ضد الرئيس السادات بعد رحلته إلى القدس، وراجت إشاعات، أن هناك مؤامرة لاغتيال السادات أثناء انعقاد المؤتمر. . وأذكر أن السيدة جيهان السادات، أصرّت على أن ترافق زوجها في هذه الرحلة. . (أقرأ تقرير من منروفيا في فصل مقبل). .

وعندما وصلنا منروفيا. . عرفنا أننا سنقيم في باخرة يونانية. . كل أعضاء الوفد المرافق للرئيس. . وأذكر أنني وضعت وزميلي علي حمدي الجمال، في كابين صغير، به سرير من دورين. . وكانت صنابير الحمام مفلوتة! . . ولك أن تتصوّر مدى قذارة المكان. . ولكن هذا لم يكن مهماً. .

كان المهم، هو الحذر من محاولات الاعتداء على الرئيس. .

وأذكر أن قوات أمن الرياسة قد انتشروا في القاعة، بملابسهم الملكية التي تخفي أسلحتهم. . وكان أمن مصر، يحيط بكل وفد حضر إلى المؤتمر!

وتضاعفت الشكوك. . عندما وصل معمر القذافي. . وكنت قد كتبت ضده، حملة من المقالات الملتهبة. . ورآني من بعيد، وتهامس مع أعضاء وفده. . وشعرت أنا بالخطورة، فاختفيت من قاعة المؤتمر!

ثم رأينا خارج القاعة، أحد قيادات منظمة التحرير، يجلس في الكافيتريا. وكان معروفاً بعدائه لمصر. . (وقد اغتيل بعد ذلك في كان بفرنسا). . وأنه من مخططي العمليات الفدائية. . وضاعف ذلك من شعورنا بالخطر. .

وكنا نعد الساعات، لكي نفارق هذا البلد. . الذي لا توجد به أدنى احتياطات أمنية. . ولكن الله سلّم، ومرّت الرحلة بسلام!

وفي إحدى رحلات الرئيس السادات إلى أمريكا، قرر أن يتوقف في النمسا ليومين أو ثلاثة أيام للراحة. . ثم قرر الرئيس فجأة، العودة إلى القاهرة مباشرة. . وعرفنا أنه تلقى رسالة عاجلة من المستشار كرايسكي مستشار

النمسا، يرجوه فيها إلغاء الرحلة.. لأن سلطات الأمن النمساوي، وضعت يدها على مؤامرة لاغتياله، من الفلسطينيين، وقد عرف بعد ذلك أن «أبو إياد» هو الذي وضع تخطيط الاغتيال.. وان كان قد نفى لي ذلك، عندما لقيته في القاهرة بعد التصالح مع منظمة التحرير في عهد الرئيس مبارك.. وقال لي أنه كان مختلفاً مع السادات، ولكنه كان يحبه ومن المستحيل أن يفكر في اغتياله. وقد عدت بعد هذا النفي من أبو إياد إلى مصادري في هذا الموضوع، فأكدوا لي أن المؤامرة كانت حقيقية، ولم تكن استنتاجاً، وأن سلطات الأمن النمساوي قبضت على فلسطينيين، حضروا إلى النمسا قبل الموعد المقرر لوصول السادات، ومعهم أسلحة اغتيالات.

وعندما سافرنا مع الرئيس حسني مبارك، إلى دار السلام.. وكانت الزيارة بدعوة من الرئيس نيريري.. أقام الصحفيون، في فندق متواضع. وكانت الحالة الاقتصادية منهارة. لم يكن هناك خبز أو صابون.. وأمضينا الليلة الأخيرة في الفندق، استعداداً للرحيل على طائرة الرئيس في اليوم التالي..

وفجأة، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، جاء رئيس أمن الرياسة الى الفندق، وأيقظنا جميعاً في حجراتنا، وكان يقول لكل منا هامساً.. أعدوا حقائبكم على الفور، سنتحرك الى المطار خلال نصف ساعة!

ثم طلب منا عدم التحدث في التليفون مع أي شخص.. وعدم تبادل الحديث بيننا في الحجرات!

وسألنا: ماذا جرى؟..

وكانت الإجابة المريبة: لا شيء!

ونزلنا الى بهو الفندق، حيث وجدنا كمال حسن علي وزير الخارجية، والدكتور بطرس غالي وزير الدولة! وكل منهم ممسك بحقيبة يده، وفي حالة صمت كامل.. إلا من ابتسامة باهتة! وبعد دقائق.. طلب إلينا أن نغادر الفندق من الباب الخلفي!.. ووجدنا اتوبيسات صغيرة في انتظارنا.. ركبناها وإنطلقت بنا، ونحن نتساءل.. ايه الحكاية؟!

ولم تتجه الاوتوبيسات الى الطريق الرئيسي الموصل للمطار، ولكنها كانت

تقطع طرقاً جانبية عديدة، وضيقة. . حتى وصلنا الى المطار حوالي الساعة الرابعة من الصباح! . .

وهرولنا جميعاً الى سلم الطائرة. .

وبعد لحظات. . كان الرئيس مبارك، قد وصل الى المطار. . واستقر في صالونه بالطائرة. ثم تحركت الطائرة على الفور!

وكان لا بد أن نعرف ماذا جرى؟!

لقد تلقى الرئيس نيريري، في الساعة الحادية عشرة من المساء، تقريراً عاجلاً من السفارة الأمريكية، بأن معلومات المخابرات الأمريكية تؤكد، أن هناك مجموعة اغتيالات اجتازت الحدود، وهي مكلفة باغتيال الرئيس مبارك، ونسف طائرته! . وأكد السفير الأمريكي أن هذه المعلومات صحيحة مائة في المائة. وكان الرئيس نيريري مقتنعاً أيضاً بذلك. وعلى الفور بدأ أمن الرياسة، في تنفيذ تخطيط سريع لمواجهة الموقف.

تغير موضع انتظار طائرة الرئيس في المطار. . وضوعفت عليها الحراسة.

عرض رجال الأمن على الرئيس، أن يغير حجرته في قصر الضيافة ولكنه رفض. .

تقرر السفر في أسرع وقت. .

أعد موكب للرئيس من قصر الضيافة الى المطار، وركب الرئيس مبارك في سيارة غير السيارة المخصصة له التي حملت ركاباً آخرين. .

ولم يطمئن رجال الأمن. . إلا عندما أقلعت الطائرة. . وكانت قد اتخذت احتياطات في المطار، لضمان عدم وجود مختبىء يرميها بصاروخ!

ولعل أصعب موقف تعرضنا له في إحدى رحلات الرئيس السادات. . أن عجلات الطائرة، لم تتحرك، ولم تنزل للاستعداد للهبوط. . حدث خلل في الجهاز الالكتروني. . ومعنى ذلك استحالة النزول. . أو انفجار الطائرة عند احتكاكها بأرض المطار. . وبدأ الطيار يحوم بالطائرة، بما تبقى من وقود فيها. .

وأخطر الرئيس السادات. .

وبدا هادئاً. . ولم يعلق بشيء. .

وبعد أن دارت الطائرة أكثر من عشرين دقيقة، تمكن أحد ملاحيها، من تحريك العجل وإنزاله بيديه. .

واهتزت الطائرة، بصرخات الفرح. . وصفقنا. . وكلنا يقول في صوت واحد الحمد لله. . الحمد لله. .

وأخطر الرئيس السادات. .

وبدا هادئاً أيضاً. . ولم يعلق بشيء!

* * *

* * *

أعود الى الحديث عن الرئيس نميري.

صفت الأجواء. . وعادت الصلات. . ولقيته بعد ذلك في القاهرة والاسكندرية. . وأهداني مؤلفه عن الحكم الإسلامي. . وسافرت الى الخرطوم بصحبة الرئيس مبارك أكثر من مرة، الى أن وقع الانقلاب ضده، وهو في مطار القاهرة. . وآليت على نفسي ألا أكتب سطراً واحداً ضد حكمه. . على عكس ما فعلته جميع الأقلام المصرية التي أطلقت عليه أقسى النعوت. . وأبسطها أنه كان دكتاتوراً باطشاً، عميلاً لاسرائيل، يحكم بالحديد والنار، وأنه هرب أمواله الى الخارج!

وقابلته في قصر الطاهرة، في اليوم التالي لوصوله. . ثم قابلته في الفيلا التي خصصت له في مصر الجديدة. .

* * *

ولعل الرئيس العربي الذي تعرض لأعنف الهجمات، في مقالاتي، هو العقيد معمر القذافي، وخاصة عندما أذاع يوم ٦ أكتوبر. . وكانت قواتنا المسلحة تعبر القناة، أن مصيرنا الى الهزيمة!. . واستمر على هذا النهج، الى أن طلب من السادات الحضور الى مصر. . وشاهد جلسة مجلس الشعب الشهيرة التي وزعت فيها الأوسمة على قيادات القوات المسلحة. . واعترضت نائبة

واحـدة فقط على حضـوره، وهي فاطمـة عنان. . ويـومها قـالت عنهـا السيـدة جيهان السادات: ان فاطمة هي الرجل الوحيد في مجلس الشعب!

وكانت مخابرات العقيد القذافي، قد دبـرت مؤامرة لاغتيـالي. . واكتشفت المؤامرة، وشددت الحراسة على بيتي وأولادي منذ ذلك اليوم. .

* * *

ولعلني بـدأت الهجوم، عـلى الصحافـة العربيـة، بنقد عنيف وجهتـه الى صحافة الكويت بالذات. . لقد فـوجئنا في مصر، في عهـد الرئيس السـادات، باتفاقات عقدتها صحافة الكويت مع عدد من الكتاب المصريين، لنشر مقـالات كلها تجريح عن مصر. . وكان ثمن هذه المقالات مرتفعاً بالدينار والدولار. .

وكان ذلك، موقفاً مخجـلاً. . للكتاب المصريـين أولاً. . ولهذه الصحـافة التي كانت تعبر عن اتجاهات شتى. . منها من كان لساناً للعقيد القذافي. . ومنها من كان صوت سوريا. . أو منظمة التحرير. . أو غيرها.

كانت مؤامرة ضد مصر. .

وكان هؤلاء الكتاب يلتمسون العذر لأنفسهم، بأن الهجوم على السادات ليس هجـومـاً عـلى مصر! وأنهم لا يستـطيعـون التعبـير عن آرائهم في مصر. . فلماذا لا يعبرون عنها في صحف عربية. . وكلا الحجتين باطلة. .

لأن السادات هو رمز مصر. . ومناقشـة سياسته شيء، وتجريحه بأسفـل الاتهـامات شيء آخـر. . كما أن صحف المعـارضة في مصر، تستـوعب نشر كل الآراء المعـارضـة. . ولكن إغـراء الـذهب. . بكـل أسف، كـان محـور هـذه المؤامرة. .

* * *

وكتبت مقـالاً في «الأخبار» بعنـوان «تحذيـر الى صحافـة الكويت» في ٢٩ أغسطس ١٩٧٦. . قلت فيه/«أرجو من بعض الأقلام في مصر، الـذين تسعى اليهم بعض صحف الكـويت، لكي تنشر مقالاتهم، مقـابـل بضـع مئـات من الدنانـير، أرجو من هؤلاء الـزملاء، ألا يسمحـوا، بتحويـل النقد الـذي تبيحه

حرية الكلمة في مصر، الى تجارة استيراد «نقد» بالعملة الصعبة.. للتشهير بسمعة مصر..»

«.. ومن العار أن تعطى الفرصة لأصحاب الصحف الكويتية ـ وكلهم تجار وأصحاب رؤوس أموال، أن يتفاخروا أنهم يستثمرون الأقلام المصرية التي تنقد الأوضاع في مصر.. ويؤسفني أن أقول أن بعض الأقلام المصرية. حينما تقع في هذا المحظور، تحاول أن تحسن بضاعتها لكي ترفع من سعر رواجها، فتتمادى في استغلال النقد المباح، الى كتابة ما هو تجريح لأرضنا وشعبنا، وما هو قذف في كرامة الانسان المصري، الذي يكفيه فخراً وخلوداً انه حقق انتصار اكتوبر الخارق. كأن نقرأ بقلم يقول «تعالوا ننظف مصر..» وكأن مصر الكبرى قد تحولت الى صندوق زبالة!.. وهذا لكي يرتفع سعر المقال المصري في صحيفة كويتية، يملكها من لا يعرف كتابة اسمه!»

وقلت في المقال: «أن البلد الذي يبيع صحافته، يستبيح عرضه، وان الكلمة ليست كاباريه لمن يدفع أكثر. وبعد أن تحولت صحافة لبنان، الى صحافة مشتراة، في معظمها، كان من العسير على لبنان أن يحتفظ بكيانه ووجوده.. وأنني أرى بكل أسف، هذه البشائر في صحف الكويت.. أو في معظمها..».

«... والغريب أن صحف الكويت المملوكة لعائلات السلطة في الكويت، لا يمكن أن تنشر سطراً واحداً، ولو تحت ستار النقد الاجتماعي يمس أي شيء في الكويت.. وكأن الكويت قد أصبحت هي الجنة المثالية للانسان.. وكأن بضع آبار من البترول، قد حققت المعجزة التي ينشدها الانسان على الأرض.. ولكن هذه الصحف تستبيح التهجم على كل شيء مصري.. ولو أردنا أن تعامل الصحف المصرية الكويت، كما تعامل الصحف الكويتية مصر.. لما استطاعوا منافستنا في هذا المجال. ولدينا من الفضائح وقصص العفن، ما يملأ مجلدات..».

ثم قلت: «ان الكيل قد فاض بنا، ونحن نسمع أقوالاً منسوبة الى العتيق وزير مالية الكويت في اجتماعات الاستثمار العربي، تمس كرامة مصر، ولا تصدر إلا ممن يريد أن ينصب نفسه مندوباً سامياً، ورقيباً محتلاً لخزانة

مصر. . ولا أتصور أنه بهذا السلوك الاستفزازي، يعبر عن سياسة الحكم في الكويت، ولن ترهن مصر نفسها. وإذا كان هذا هو ثمن المعونة، فلتذهب المعونة الى الجحيم. . . وأعود فاحذر صحافة الكويت من هذا اللعب بالنار». .

* * *

وإتصل بي حسني مبارك نائب رئيس الجمهورية حينئذ، وكنا بالاسكندرية، وسألني:

ـ هل كانت لديك معلومات عما سيتقرر في الكويت بالنسبة لصحافتها. .

قلت:

ـ لا. .

قال:

ـ كأنك إذن كنت تتنبأ. . لقد صدرت قرارات من أمير الكويت بوقف الدستور، وحل البرلمان، وتخويل مجلس الوزراء حق تعطيل الصحف وإلغاء تراخيصها عندما تخدم دولة أجنبية، وعندما تقبض مالاً حراماً، تحت أي حجة أو تسمية، وفي أي صورة، ولأي سبب.

وانتظرت البرقيات. . وقرأت القرارات. . وكتبت تعليقاً طويلاً في اليوم التالي، قلت فيه أن القرارات جاءت في وقتها المناسب لأن كل خيوط المؤامرة قد تكشفت، ولأن الأموال التي جاءت من محترفي التخريب، قد ظهرت واضحة في سطور الصحف. . ويقتضي الضمير القومي أن أكون مخلصاً لقيادات الكويت ان اصابع المؤامرة لن تتوقف عن اللعب في الظلام. . وكل ما أرجوه أن تظهر في الكويت صحافة كويتية. صحافة عربية صحافة تدعم الوحدة والتضامن والكيان، وتعرف أن الدنانير ـ كما قال بيان أمير الكويت ـ لم تشرع للأطماع الشخصية أو إثارة الأحقاد أو تضليل الناس وخلق الصراعات». .

ونشرت الصحف الكويتية نص المقال الطويل التي اخترت منه هذه الفقرات. . ونشرت لي صحيفة النهضة في الكويت بعد ذلك في ٩ اكتوبر ١٩٧٦ حديثاً عن سبب هجومي على صحافة الكويت. .

وقالت في مقدمة الحديث «الغريب الذي أثار الاستفسار، أن موسى صبري نشر تحذيره الى صحافة الكويت، في صباح نفس اليوم الذي اتخذت فيه الكويت حركتها التصحيحية في ٤ رمضان، ومن هنا كان مقال موسى صبري محل أخذ ورد ونقاش وتساءل: هل كانت مصر تعلم بما سيحدث في الكويت؟ . . هل تلقى موسى صبري توجيهات من الرئيس السادات؟ . . وهز مقال موسى صبري أركان الصحافة الكويتية، فكتبوا يردون على موسى صبري بعنف، واتهموا مقاله بأنه يقطر حقداً على الصحافة الكويتية المتفوقة وأنه يثير التقزز والقرف . .

* * *

وهذا بعض من الحوار معي الذي نشرته صحيفة النهضة الكويتية؟

س ـ لقد زرعت الكراهية لك في الصحافة الكويتية؟

جـ ـ أرجو ألا يكون الأمر قد وصل الى حد الكراهية. فأنا لم اكتب ما كتبته إلا حرصاً على أن تستمر الصحافة الكويتية في خطها الوطني الذي عرفت به، وألا تغرق في المستنقع الذي غرقت فيه الصحافة اللبنانية، عندما فقدت الولاء للوطن الأم وباعت نفسها لكل من يدفع أكثر، ففقدت الاحترام والتصديق، وقادت لبنان الى الخراب والدمار والنار والدم . .

س ـ كان هجومك عنيفاً وقاسياً وظالماً . . حتى اتهمت بالحقد والغيرة . .

جـ ـ أنني أقرأ لك تصريحات لسمو ولي عهد الكويت . . وسوف تقول أين ما كتبته أنا مما قاله الشيخ جابر الأحمد . . لقد قال في تصريحاته ما نصه: ان ترك حبل الصحافة على غاربها، واطلاق الحرية لها بغير ضوابط، جعل بعض الصحف، أدوات طيعة لخدمة أغراض غريبة عن وطننا، تعمل لإفساد مجتمعنا، وترويج الشائعات المغرضة، ونشر التفاهات وإثارة الفتن في صفوفنا . .

ثم قال ولي عهد الكويت: اذا كانت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدولة عزيزة علينا قد فرضت عليها أن تطلق العنان لصحافتها بلا ضوابط أو حدود، حتى أصبحت معظم صحفها أدوات مأجورة لمختلف الصراعات الدولية والعقائدية، مما جر هذا البلد الشقيق الى حاضر رهيب مليء

بالموت والخراب والدمار. . فإن الحرية غير المسئولة قد أتاحت للكثيرين أن ينقلوا هذا الصراع الى صحافتنا، محاولين خلق الفتن في بلدنا الآمن مثلما فعلوا بالبلد الشقيق. وهكذا استغل نظامنا الديمقراطي من قبل فئة سخرته لمآربها، وفرضت من خلاله إرهاباً فكرياً لإسكات كل صوت يرتفع بكلمة حق. أصبحت ديمقراطيتنا وسيلة للفوضى واللامسئولية!»

* * *

وهاجمت هذا الوضع بأقسى الكلمات، في مقالات عديدة أخرى. .

ثم فوجئت بمدرسة مصرية، عاملة في المملكة السعودية، أسمها «عزة كمال»، تنشر مقالاً من نار في صحيفة السياسة الكويتية، تستنكر موقف هؤلاء المصريين. . وكانت سطورها تنبض وطنية وصدقاً وغيره على سمعة مصر. .

وكتبت عن هذه المصرية الوطنية المجهولة. .

وتلقيت منها عدة رسائل. .

وأشار الرئيس السادات، في إحدى خطبه اليها، وهو يندد بموقف هؤلاء الكتاب الذين باعوا أقلامهم للشيطان. .

وإتهمتني صحف المعارضة في مصر، بأن عزة كمال هذه شخصية وهمية اخترعتها. . وأنه لا وجود لها في الحقيقة!

ونشرت بالزنكغراف رسائلها. . ولكنهم لم يقتنعوا، واتهموني بأنني زورت هذه الرسائل أيضاً!. .

إلى أن فوجئت، بعزة كمال في مكتبي بأخبار اليوم، تطلب لقائي!

واستقبلتها بالترحاب، والتقطت معها عديداً من الصور، ونشرتها. . وكانت هذه الصور هي الرد المفعم. . وأكبرت فيها اعتزازها بمصريتها ووطنيتها. .

* * *

والغريب. . الذي أثار دهشتي. . أن دولة الكويت، اتخذت بعد اتفاق

السلام نفس الخط السياسي، في التشهير باتفاق السلام، الذي اتخذه الاتحاد السوفييتي. . والأحزاب الشيوعية في الوطن العربي. .

وكتبت في هذا المعنى، مقالاً تساءلت فيه: هل أصبح أمير الكويت سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي في الأرض العربية؟. . .

وقيل لي أن حكومة الكويت، لم تصادر عدد «الأخبار» الذي صدر به المقال. . وقال وزير الإعلام في ذلك الوقت، أن قراءة الكويتيين للمقال. . هو أحسن رد عليه، لأنه لا أحد يصدق أو يعتقد أن أمير الكويت أصبح شيوعياً!

ولكن حملة بعض صحف الكويت، تحولت بعد ذلك، إلى هجوم شرس على المصريين العاملين في الكويت. . وتطور الأمر إلى اعتداء من الطلبة الكويتيين على المدرسين المصريين. وتفاقمت الأزمة. وأعلن الدكتور مصطفى كمال حلمي وزير التعليم، تصريحاً حاسماً طالب فيه مكاتبنا الثقافية في الخارج، أن تنهي إعارة أي عامل مصري في بلد عربي، يقبل أدنى امتهان لكرامته، أو يصم أذنه عن أية كلمة تجرح احترامه لنفسه، أو تهون من الرسالة الجليلة التي يؤديها لأبناء الأمة العربية، ذلك أن كرامة الوطن هي من كرامة المواطنين، وأن كرامة كل مصري. هي كرامة مصر كلها. .

ومن أمثلة ما نشر في صحافة الكويت، تجريحاً للمصريين، ما كتبه من يدعى «صالح الشايجي» في صحيفة القبس الكويتية. وقال فيه: «إن الضيف إذا ما أكرمته ، وأحسنت وفادته ، وكسيته وأطعمته ، وأعطيته مصروفه ، فليس من حقك إجباره على البقاء في ضيافتك وتذكيره بمحاسنك هو أن أراد الرحيل! . . وما عليك إلا أن تودعه وتلقي وراءه سبع صخرات. «ثم تساءل هذا الـ «صالح الشايجي» في قحة وغرور: «لكنني أتساءل مجرد تساؤل. . لماذا نحن متشبثون بهؤلاء الضيوف الثقلاء؟. . لماذا لا نودعهم ملقين وراءهم الصخرات السبع؟. . لماذا نحرمهم من إرث أجدادهم العظيم الذي أخذناه منهم، عنوة، طمعاً وتهالكاً منا، على أموال اليتامى؟. لماذا لا نعطي دعاة الفرعونية وورثتها، اهراماتهم الثلاثة، ومومياوات رمسيس وتحتمس وخفرع، ومنقرع، يعالجونها في باريس؟. . . لماذا لا نعطيهم أبا الهول الذي لو اقتدوا به وصمتوا لكان خيراً لهم». . .

وكتب أيضاً: «وحينما يفاجئك خادمك بطلب حسابه، ويكون هذا الخادم غشيما غريرا في شغل المنزل، فنعطيه حسابه، فلا شك أنك موقن بأن هناك من قدم له عرضاً أجود، وراتباً أكبر مما تعطيه أنت»... ولكن بعدما يكتشف السيد الجديد خادمك، ويعرف مقدرته واستطاعته المحدودتين، فسيطرده من خدمته، وهذا الخادم سيعود من جديد، يطرق بابك لتعيده إلى العمل عندك، أو أنه سيبقى خارج سور بيتك، عند صندوق القمامة، يأكل ما تلقيه من فضلات».

وقد رددت بعنف، على هذا التهجم البذيء.. في مقال وجهته إلى سفير الكويت في مصر.. بعنوان: «يا سفير الكويت.. تكلم».. وقلت في هذا المقال:

«دنيا!
عالم عامر بالأعاجيب!

أصبح هذا الـ«صالح الشايجي».. أصبح هذا النكرة.. أصبح هذا الجلف.. سيداً، وأصبحنا خدماً، وعبيداً، يطردنا سيد، لكي نركع تحت أقدام سيد آخر.. فإذا طردنا السيد الآخر وقفنا عند سور البيت، وأمام صندوق القمامة، نأكل ما يلقيه من فضلات!

ثم يدعي هذا العبد.. هذا الخادم لشهواته السادية.. هذا المفتون بدينار لا يصنع سيداً، بل يصنع خزانة حديدية، أو حيواناً شرهاً.. بل يصنع موائد اللئام.. ثم يدعي هذا العبد أنه عربي، وأنه ينتمي إلى أرض عربية!

أي بيت لك، يا هذا الإمعة، يمكن أن يكون فيه مائدة، ويمكن أن تكون لها فضلات.. إلا كان هذا البيت صندوق قمامة تفرز مثل نماذجك الدخيلة على عالم الإنسان!».

* وقلت في المقال:

«إنني أطالب سفير الكويت في مصر، أن يؤدي مسئوليته الدبلوماسية والسياسية والقومية. أنني اطالبه بالاعتذار الكامل، عن هذه القمامات التي تظهر في صحف الكويت.. انني أطالبه أن يعلن رأيه في مجتمع الخدم.. الخدم

الـذين صنعوا مجـد أكتوبـر الخـالـد.. الخـدم الـذين رفعـوا رأس أمثـال هـذه الـ «صالح الشـايجي» من أن تكون روثـاً في زبالـة التاريـخ.. إنني أسأل سفـير الكويت في مصر، إذا كان يشرفه، أن يكون رسـول بلاده إلى مجتمـع الخدم.. أن يعلن كلمته..».

وقلت:

«إذا كانت حكومة الكويت، قد أعلنت من قبل، عن فـترة انتقال تتطهر فيها الصحافة الكويتية، من مثل هذه القاذورات، فإننا لا نعرف كيف يمكن أن تسكت، عن هـذا القـذف اللئيم السـافـر.. في حق شعب مصر.. شعب الأسياد والأمجاد. شعب الرجال عندما عز الرجال».

* * *

وردت صحيفة «القبس» في ٢٤ اكتوبر ١٩٧٧، بمقال في صـدر صفحتها الأولى داخل برواز بعنـوان على ٣ أسـطر: «موسى صـبري، غلطة مطبعيـة، في صحافة مصر»...

وجاء في المقال:

موسى صبري
غلطة مطبعية في صحافة مصر!

الأستاذ موسى صبري، رئيس مجلس الإدارة ورئيس تحرير الزميلة الكبرى «الأخبار» المصرية، كتب مقالاً في العدد الذي وصل الكويت أمس، رد فيه على مقال نشرته «القبس» في ٣ سبتمبر الماضي، أي منذ شهر و ١٩ يوماً.[1].

ويؤسفنا أننا لا نستطيع نقل مقال موسى صبري ولا فقرات منه، ولا كلمات واردة فيه، لأنه يقع في باب الممنوعات التي ألزمنا نفسنـا بعدم نشرهـا اختياراً، لأسباب تتعلق بالحرص على الذوق العام...[2].

---

(١) مقال صالح الشايجي في «القبس» بتاريخ ٧٧/٩/٣ بعنوان «إلى دعاة الشعوبية والإقليمية والفينيقية والفرعونية».

(٢) مقال موسى صبري في «الأخبار» بتاريخ ٧٧/١٠/٢١ بعنوان «يا سفير الكويت تكلم».

ونعترف بأننا لا نريد، بل لا نستطيع مجاراة الأستاذ موسى صبري في أفكاره وقيمه وأسلوبه وأخلاقه. ونحن لا نؤمن بالشتيمة وسيلة للتخاطب، لا بين زملاء المهنة الواحدة، ولا بين الأشقاء في الوطن العربي الكبير. وكل إنسان، مهما كانت مهنته، هو أسير تربيته وماضيه. وإذا كان الأستاذ موسى صبري حراً في توزيع طبق من الشتائم والكلمات التي يمجها الذوق العام، صباح كل يوم مع صدور صحيفته الكبرى، فإننا لا نسمح لأنفسنا بتقديم «وجبة» مماثلة لقرائنا، لأننا نؤمن بحقهم في الكلمة النظيفة والفكر النظيف، مع طالع كل صباح.

والمؤسف أن الأستاذ صبري لم يكن أميناً ولا منصفاً ولا شجاعاً عندما اجتزأ المقال واستشهد بفقرات غير كاملة منه، بسوء نية، وعن سابق قصد وتصميم. ثم جعل من مقال «القبس» «بتوقيع اسم هو بالنسبة لنا من ظلال النكرات»، على حد تعبير الأستاذ صبري، وكأنه قضية عالقة بين مصر والكويت تستوجب اعتذار السفير الكويتي في القاهرة!

أية فتنة تسعى إلى إيقاظها يا موسى؟

* * *

مقالة الأستاذ صبري لن تزعجنا. وهي أوهى من أن تهز شعرة واحدة في العلاقات الأخوية الراسخة بين الكويت ومصر. وعندما يعتز موسى صبري بدور مصر القومي، فإنه يعبر عن خلجات كل كويتي وكل عربي. لكنه عندما يشهر قلمه للشتم فإنه لا يعبر عن أكثر مما في نفسه. ولا يحتاج العرب، لا في هذه المرحلة ولا في سواها، إلى أن يقيموا «مجمعاً لغوياً للبذاءة» يتولى فيه الأستاذ موسى صبري منصب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير.

ونحن ندرك تماماً أوضاع الصحافة في الشقيقة مصر، التي أدت حتى الآن، إلى إجراء سلسلة من عمليات التصحيح، بعد أن أصبح عاليها سافلها، وسافلها عاليها، ونحن ندرك أيضاً أن حركة جديدة تعد، ونرجو أن تنجح هذه المرة في وضع أصحاب الأقلام والأفكار النظيفة في مراكز القيادة الإعلامية. .

وموسى صبري ليس ناطقاً بلسان مصر. .

وحاشا لمصر أن يكون لها ناطق مثل موسى صبري. .

ونحن نظن أن موسى صبري، في أفكاره وقيمه وأسلوبه وأخلاقه، ظاهرة غير قابلة للحياة طويلاً لا في مصر ولا في سواها. . .

موسى صبري نفسه غلطة مطبعية في تاريخ الصحافة المصرية سوف يصححها الرئيس السادات. . أو يصححها الزمن!

القبس

والمؤسف. . أن أحداً من الكتاب المصريين، الذين كانوا يتعاملون مع صحف الكويت، لم يحتج على هذه الإهانات لشعب مصر. . باستثناء مقال كتبه أحمد بهاء الدين، ولا أزال أذكره، وقال فيه ما معناه أن كل عامل مصري، على أرض عربية، عليه أن يؤدي عمله، وهو مرفوع الرأس، موفور الكرامة. . لأنه لا يتسول. . بل يقدم جهداً شريفاً، وعرقاً طاهراً، وخدمة للمجتمع الذي يعمل به. .

* * *

المهم. . ساءت الأمور على هذا النحو. . الصحف العربية في معظمها تهاجم مصر. . وسياسة مصر. . ويتطاول بعضها على رئيس دولة مصر، بأقلام مصرية. . وأقلام مصرية في صحف القاهرة تتصدى لهذا الوضع المؤلم. . طوال حكم السادات. .

ثم تولى الرئيس مبارك المسئولية الأولى. وعقد اجتماعاً في الأسبوع الأول لحكمه، لرؤساء تحرير الصحف، وقيادات الإذاعة والتليفزيون. . وطلب إلينا جميعاً وقف الهجوم على الدولة العربية وقفاً كاملاً. .

وسألته في الاجتماع: حتى لو هاجمونا؟. . .
وأجاب بحزم: نعم. . حتى لو هاجمونا. .
والتزمت بذلك تماماً. .

وبذل الرئيس مبارك، كل جهد ممكن، في سبيل تحسين العلاقات مع القيادات العربية. . ذهب إلى السعودية على رأس وفد كبير للعزاء في وفاة ملك

السعودية والتقى بأمراء الخليج في مؤتمر عدم الانحياز في دلهي. . والتقى بولي عهد السعودية ونحن في عمان، احتفالاً بالعيد القومي للسلطنة لقاء طويلاً. . فعل الرجل المستحيل. . ولكن الموقف العربي كان سلبياً. . ولم يتقدم خطوة نحو الخطوات التي تقدم بها الرئيس مبارك. .

وحدثت خلال ذلك واقعة أثارت مشاعري. .

أرسل الرئيس حسني مبارك، رسالة خطية خاصة، إلى أحد الرؤساء العرب، يطلب فيها قرضاً عاجلاً بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار. . لأداء دين حال. ومضت شهور طويلة ولم يتلق رداً بالقبول أو الرفض. . وكنا نعاني قساوات الأزمة الاقتصادية.

ثم كان الموقف المتردد، من الجميع، نحو قرار من الجامعة العربية بعودة مصر. . وسمعنا في ذلك الأعذار العديدة، التي تعبر كلها عن موقف عربي متفكك، عاجز حتى عن عقد مجرد اجتماع للملوك والرؤساء. . وخاصة بعد أن بادر الملك حسين بإعادة العلاقات مع مصر. . وبعد أن كانت الاتصالات جارية ومستمرة، بين الملوك والأمراء والرؤساء والرئيس حسني مبارك. .

وتقطعت حبال الصبر. . وقررت أن أتناول كل هذه المواقف، في عدة مقالات، في شكل رسائل إلى الملوك والرؤساء العرب، أطالبهم فيها، بأداء مسئوليتهم القومية نحو مصر. .

وهي رسائل إلى الرئيس حبيب بورقيبة، بسبب موقف تونس، من تأخير أذن المرور الجوي، للطائرة المصرية، التي حملت الفلسطينيين، بعد حادث الباخرة المشهورة. . ومطاردة الطائرات الأمريكية لها، حتى أضطرت للهبوط. . ثم إلى جلالة الملك فهد. . مكتفياً أنها تعبر عن نفس الآراء إلى أمراء الخليج. . ثم رسالة إلى الملك الحسن. . بعد أن أعلن في لقائه بالرئيس مبارك في نيويورك، أن أول قرار له بعد العودة إلى المغرب، هي إعادة العلاقات مع مصر. . مع أن مبارك لم يفتح معه. . ثم الصمت الطويل بعد ذلك. .

* * *

وكانت الرسائل في مجموعها ، قاسية العبارة ، عنيفة التعبير .

وأحدث نشرها ضجة كبرى ، وجرت اتصالات من الرياض بالقاهرة . . وانتهى الأمر الى تهدئة الموقف .

وحدث أن زار الأمير طلال بن عبد العزيز مؤسسة أخبار اليوم ، واتصل بي مصطفى أمين ، وقال لي : ان سمو الأمير في مكتبه ويريد لقائي . . واجتمعت به قرابة ساعة ونصف ساعة . وعتب على الأمير طلال رسالتي إلى جلالة الملك فهد فأوضحت له الخلفية الكاملة لهذه الرسالة وباقي الرسائل .

وجرت الأيام . . وزادت اتصالات القاهرة ، بالعواصم العربية عمقا . . وقرر الرئيس مبارك القيام بالجولة في عدد من الدول العربية ، أولها المملكة العربية السعودية . . واختارني الرئيس عضوا في الوفد الصحفي المرافق لسيادته . .

ولا أنكر انني شعرت بالحرج . . وفي الوقت نفسه بالرغبة الملحة في متابعة هذه الرحلة . وكان منطقي مع نفسي أن كل هجوم لي على قرار أو موقف عربي من مصر ، كان نابعا من مصلحة مصر . . وسياسة مصر . وما دامت العلاقات مع مصر ، قد تطورت الى الأوضاع الطبيعية . . فان قلمي في خدمة هذا التطور ، وليس ضده ، فليس بيني وبين هدف الترابط أي عداء . .

ووصلت طائرة الرئيس الى الرياض في ٩ يناير ١٩٨٨

وقد توجهت مع زملائي الى قصر الضيافة . . وفجأة أحسست بآلام قاسية في صدري ، وقرر اطباء الرياسة ، أن هناك اشتباها في أزمة قلبية . . ولا بد أن أنقل الى المستشفى فورا . . وكان ذلك عند منتصف الليل .

وهكذا تخلفت عن باقي الرحلة . .

وقد عوملت في مستشفى القوات المسلحة ، التي أمضيت بها أسبوعين ، أكرم وأحسن معاملة . وثبت أن آلامي سببها احتقان في المرارة ، بعد أن أجريت «الاسترا» في القلب . . ثم اجريت لي جراحة استئصال المرارة .

والحق أن التقدم الحضاري في السعودية ، أذهلني . .

ولم أكن أتصور أنه توجد بالسعودية ، خدمات طبية على هذا المستوى ، الذي يفوق كثيرا من مستشفيات أمريكا وأوربا . . ولم أكن أتصور أن هناك أطباء سعوديين بهذا النبوغ . .

لقد كانت آخر زيارة لي للسعودية ، مع الرئيس أنور السادات . . ولم تكن مدينة الرياض بهذا البناء العمراني الضخم . .

وكانت معاملة الأمراء السعوديين لي ، على أكرم وجه . والحق أنني لم أكن أتوقع هذه المعاملة ، وأنا الذي هاجمتهم كثيرا ، وعلى مدى سنوات . .

زارني الأمير سلطان بن عبد العزيز ، والأمير بدر بن عبد العزيز ، والأمير سلمان بن عبد العزيز . . كما زارني الأمير طلال ثلاث مرات . . عدا سؤالهم اليومي عن صحتي ، صباح مساء . .

وأمليت مقالا بالتليفون ، ونشر في الصفحة الأولى من «الأخبار» . . وصفت فيه مشاعري . . واذاع التليفزيون السعودي المقال ، في أول نشرته الأخبارية ، كما نشرته الصحف السعودية . .

وخرجت من المستشفى ، وقمت بزيارة شكر لأصحاب السمو الذين تفضلوا بزيارتي ، والتقيت بالكثيرين من أبناء الشعب السعودي ، ولمست الخدمات الضخمة التي حققها الحكم السعودي في مختلف المجالات . .

وسجلت رأيي هذا في أكثر من مقال . .

وعندما انعقد مؤتمر عمان الذي قرر أن من حق كل دولة عربية ، أن تعيد علاقاتها مع مصر . . علمت من أوثق المصادر أن جلالة الملك فهد كان هو المدافع الأول عن هذا القرار . . وسجلت له هذا الموقف ، في مقال «بالأخبار» . .

وعندما هاجمت صحيفة «صوت العرب» المملكة العربية السعودية ، وانحرفت في هجومها الى سيدات الأسرة المالكة السعودية ، هاجمت ما نشر . . وأوضحت أن سببه المختفي ، هو تدمير العلاقات بين القاهرة والرياض بعد أن تحسنت . . وأن دولة عربية واحدة ، هي المستفيدة من هذا الهجوم . . وكنت أقصد «ليبيا» . .

وجرت الأيام وتقرر أن تعود الجامعة العربية إلى مقرها القانوني في مصر ، وهو ما ينص عليه ميثاق الجامعة . .

وأشارت كل هذه البوادر إلى أن مرحلة جديدة ، فى التضامن العربي قد بدأت . . ثم وقعت الواقعة !

هاجم صدام حسين ، بقوات العراق المسلحة في ٢ أغسطس ١٩٩٠ ، أرض الكويت ، واحتلها ، ثم ألغاها من الخريطة ، وأعلن أنها محافظة عراقية . .

وارتفع حسنى مبارك ، إلى قمة الشعبية ، عندما أعلن موقف مصر ، المستنكر للعدوان . . المطالب بالإنسحاب الفورى وعودة الحكم الشرعى . .

وطلبت السعودية ، العون من أمريكا . . وجاءت القوات الأمريكية ، والإنجليزية والفرنسية . . وتجمعت قوات ٢٩ دولة . وأرسلت مصر قوة محاربة ، وكذلك فعلت سوريا ، والمغرب ودول ـ الخليج .

وكتبت عشرات المقالات مدافعًا عن موقف الكويت ، مهاجمًا العدوان العراقي البربري . . وأمضيت فى جبهات القتال عل أرض السعودية ، ودولة الإمارات قرابة أسبوعين . . ونشرت تحقيقات متصلة عن حقائق الموقف العربي ، وحديثًا شامّلا مع الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودي وفتح لي سموه كل الأبواب المغلقة في تحركاتي على أرض السعودية ، وكانت أوامره صريحة : لا تخفوا عنه شيئا . ثم كان حديثه معي الذي نشرته «الأخبار» تعبيرا صادقا عن صفحة جديدة في العلاقات الطيبة . . بين مصر والسعودية .

وحتى مثول هذا الكتاب للطبع . . لا زال الموقف العسكري ، بلا حركة . . ولا زال عناد صدام حسين وإصراره على عدم الإنسحاب . . وتحدى العالم كله !

* * *

وعدت بذاكرتى إلى تهديد عراقى سابق ، باجتياح الكويت . .

كان ذلك فى يوليو منذ ٢٩ عامًا (١٩٦١) . . وكان عبد الكريم قاسم يرأس العراق . .

وطرت إلى الكويت فى ذلك الحين . . لتحقيق الأزمة . فماذا وجدت ؟ . .

الفصل الثامن والثلاثون

الرحلة اليتيمة

١٠ أيام في الكويت بعد تهديد عبد الكريم قاسم بغزوها ـ الأصوات تتساءل : أين عبد الناصر ـ من يحكم الكويت ـ قصص المعاهدات البريطانية ـ المرأة الكويتية لها دور ـ اللورد كريتزون يقول للشيوخ : لقد حميناكم . . وسوف يبقى النفوذ البريطاني في المنطقة .

الفصل الثامن والثلاثون

الرحلة اليتيمة

كان يجب أن أسجل في هذا الكتاب، صورة عن رحلتي اليتيمة إلى الكويت التي قمت بها في الخامس من يوليو عام ١٩٦١ . . بعد أن أعلن عبد الكريم قاسم حاكم العراق، أنه سيضم الكويت إلى العراق بقوة السلاح، واحتشدت قوات قاسم على الحدود، ودقت اذاعاته طبول الحرب، وتألفت التمثيليات التي وعدت قاسم، أن تقدم له رأس حاكم الكويت على طبق من ذهب!

لقد أمضيت في الكويت عشرة أيام . .

وكانت المشاعر العامة، بعد حماستها البالغة نحو مصر . . قد تحولت إلى قلق . . وإلى تساؤل عن موقف مصر . . وكيف تأخر جمال عبد الناصر، في إرسال القوات المصرية إلى أرض الكويت لكي تواجه الغزو العراقي؟ . .

وكانت الكويت قد طلبت التدخل البريطاني . . وهبطت القوات البريطانية فعلاً أرض الكويت . .

* * *

ونشأ ما يشبه الأزمة الباردة، بين مصر والكويت . .

ثم حضر وفد رسمي من الكويت إلى مصر . . واجتمع بالرئيس جمال عبد الناصر، وانتهت الأزمة . .

واستمرت العلاقات طيبة، ومات عبد الناصر بعد أن ودع رئيس الكويت في مطار القاهرة، وكان قد حضر اجتماع الملوك والرؤساء العرب الذي

دعـا إليه جمـال عبد النـاصر، بمناسبـة أزمـة «أيلول الأسـود» في الأردن. . مـع المقاومة الفلسطينية. .

وتولى السادات. .

وزار الكويت أكثر من مرة. .

ولكن نشأت الأزمات بعد ذلك، بعد أن أصبحت صحف الكويت مجندة للهجوم على سياسة أنور السادات. . واستجاب لذلـك، بكل أسف، عـدد من الكتاب المصريين الماركسيين، أو الذين يصفون أنفسهم بـأنهم ناصريـون. . كما ذكرت في الفصل السابق.

ولم أكن لأتـرك سـطراً واحـداً، يهـاجم مصر، أو المصريـين، أو رئيس مصر، دون الرد عليه بعبارات أعنف وأقسى. .

وهكذا. . انهارت كل الصلات بيني، كصحفي وكاتب مصري. . وبـين الكويت حكومة وصحافة. .

وحـدث بعد أن فقـدنا أنـور السادات، وتـولى الرئيس مبـارك الحكم أن أصـدرت مؤلفاً عن السـادات بإسم «السـادات. . الحقيقـة والأسطورة». . وفي زيارة لأحمد الجار الله صاحب ورئيس تحرير صحيفة السياسـة إلى مؤسسة أخبـار اليوم في القاهرة، عرض علي أن ينشر كتابي، حلقـات، قبل عـرضه في السـوق ككتاب. . وتعاقدنا على النشر. . وتسلم الأصول. .

ولكن قامت أمامه عقبات في سبيل النشر. .

كان قد طلب مني، أن ينشر في «السياسة» يومياتي في «آخر ساعة» في يوم صدورها. ونشر فعلاً، ثلاث «يوميات» عـلى مدى ثـلاثة أسـابيع. . ثم تـوقف عن النشر. .

وأبلغت بـأن حكـومـة الكـويت، احتجت عـلى أن ينشر لي أي مقـال في صحف الكـويت. . ولكن أحمـد الجـار الله، ظـل يـدافـع عن نشر مؤلفي عن السادات، أكثر من ثلاثة أشهر، بحجة أن العلاقات قـد عادت طبيعيـة وحسنة بين مصر والكويت. . وأن هجومي على صحافة الكويت وحكومتهـا، قد قـابله

هجوم على صحافة مصر وحكومتها. . وأن صفحة جديدة يجب أن تبدأ. .

ونجح أحمد الجار الله أخيراً في نشر كتاب السادات على حلقات، استمر أكثر من سبعين يوماً متصلة. .

وهكذا ذاب الثليج. .

ثم فوجئت عام ١٩٨٧، برئيسة مكتب مجلة «اليقظة» الكويتية، في مصر، تزورني في مكتبي وتعرض علي نشر مقالات بقلمي في «اليقظة». . وتعاقدنا. ونشرت المقالات فعلاً في عام ١٩٨٧، ثم في عام ١٩٨٨. وقد زار الأستاذ أحمد يوسف بهباني صاحب «اليقظة» ورئيس تحريرها في القاهرة، والتقينا، وتعارفنا، ونشأت بيننا صداقة عميقة. . وقد لمست فيه خلقاً حميداً، وروحاً طيبة، وإيماناً ثابتاً بالترابط العربي.

* * *

أعود إلى أزمة العراق والكويت في يوليو ١٩٦١. .

بمجرد أن ثارت الأزمة، طلب مني صلاح سالم رئيس مجلس إدارة صحيفة «الجمهورية» وكنت رئيساً لتحريرها حينئذ أن أطير إلى الكويت لأحقق الحدث.

وصلت الكويت فجر يوم الثلاثاء ٥ يوليو عام ١٩٦١. . وأنا أتصور أن الطائرة ستهبط بي وسط-قلعة حربية، وكنت مشفقاً على نفسي من برقية مجللة بالسواد ربما تصل إلى القاهرة لتقول أن رصاصة طائشة أصابت صحفياً في معركة الكويت. . وبعد لحظات من هبوط الطائرة، والتقائي بعشرات الوجوه في المطار. . كنت مشفقاً على نفسي، لأن حاستي الصحفية قد خانتني هذه المرة في اختيار أرض الحوادث والأخبار. . فكل شيء رأيته كان «هادئاً في الميدان»! . .

* * *

لا شيء. . لا شيء على الاطلاق في هذا المطار يوحي بأن هذا البلد قد تلقى منذ أيام أقل من أصابع اليد الواحدة، انذاراً بالحرب من بغداد. . لا شيء يوحي بأن هذا البلد قد طلب معونة عسكرية من بريطانيا هبطت عليه بالبوارج وحاملات الطائرات وهزت أنباؤها عواصم العالم. . ألم أسمع قبل

ركوبي الطائرة من القاهرة إذاعة بغداد وفيها تمثيلية يقول أحد أبطالها أنه سيحضر رأس الأمير عبد الله سالم الصباح حاكم الكويت على طبق؟.. ألم يعلن العراق أن القوات المسلحة العراقية تنتظر إشارة من عبد الكريم قاسم للزحف؟.. ألم تعرف كل إذاعات العالم أن جنود قاسم على بعد أميال من حدود الكويت؟..

وهأنذا في مطار المدينة التي يتهددها الحرب.. ولا أرى كويتياً واحداً يحمل مدفعاً؟.. ولا أرى أية تحصينات عسكرية في مهبط الطائرات الوحيد، في بلد البترول؟.. واجراءات الجمرك عادية سريعة.. وحقائبنا لم تلمسها يد بالتفتيش والناس في حركة وحديث وعمل عادي.. وكأنني في مطار جزيرة سعيدة لم يسمع سكانها بكلمة الحرب!..

وخرجت من نطاق المطار إلى الطريق الموصل للمدينة، وكانت الساعة قد بلغت السادسة من الصباح.. وإذا بمئات السيارات من كل الأصناف تملأ الطريق وتجري في كل اتجاه وإلى كل اتجاه.. والوجوه التي تقودها وتركبها تستقبل الشروق بكل ثقة واطمئنان..

وقال لي قائد السيارة: الناس هنا تبدأ عملها مبكراً لمقاومة الحرارة الشديدة التي تصل في الظل إلى ٥٤ درجة..

- وأين نستطيع الإقامة أيها الأخ؟..

- لدينا فندق جديد افتتح أمس فقط، في مثل فخامة فنادقكم في القاهرة..

- ما هذا؟.. وسط التهديد بالحرب وحشد الجيوش، تفتحون فندقاً جديداً..

وضحك الرجل وهو يقول.. لا.. الحمد لله.. كل شيء في المدينة يجري في مجراه الطبيعي.. ان قاسم لن يستطيع أن يفعل شيئاً الآن بعد أن وصل الانجليز..

ومن هنا نستطيع أن نمسك بمفتاح الموقف في الكويت..

فبعد الأيام العشرة التي أمضيتها في الكويت متنقلاً بين كل طبقاتها..

من قصر «السيف» الذي يدير منه حاكمها سمو الأمير عبد الله السالم الصباح شئون الحكم على شاطيء البحر. . إلى الأسواق الشعبية حيث يتزاحم الناس من كل الألوان. . فلسطينيون وعراقيون وهنود ولبنانيون. . وحيث المتاجر في الشوارع الضيقة القديمة التي تبيع بالآف الدنانير في لحظات. . إلى مكاتب الشيوخ والوزراء المتناثرة وسط المدينة الجديدة بمبانيها العصرية الضخمة التي صنعت كثيراً منها لمسات المهندس المصري سيد كريم. . إلى حلقات الأصدقاء داخل البيوت. . إلى الكازينوهات الجديدة التي أنشأها اللبنانيون هذا الصيف على مشارف الأمواج حيث يجلس المتزوجون في مكان منفصل عن مكان العزاب. . بعد هذه الأيام العشرة بكل لهيبها استطعت أن ألمس أثر الذعر الفظيع الذي أصاب سكان المدينة عندما تصوروا أن قوات قاسم تقترب من حدودهم. .

صورة واحدة فقط هزت قلوبهم بالهلع والأحلام السوداء. . ستبدأ عمليات السحل وتعليق الأجساد عارية في مشانق الشوارع، وحمامات الدم التي عرفتها العراق! . .

طبقة الحاكمين. . أسرة آل صباح. أميرها وشيوخها وسطوتها وقصورها وكل مرتبط بها، تأكدوا أن هذا هو شرع قاسم. .

طبقة التجار. . وهي أقوى طبقة في الكويت لها نفوذها الذي لا يقل - بل قد يزيد في بعض الأحيان - على نفوذ الطبقة الحاكمة. . فمن بينها أعضاء في المجلس الأعلى للحاكم. . ومن بينها من يملك البلايين وتتسع تجارته من أقصى العالم إلى أقصاه. . ومن بينها أصحاب أنساب تهيىء لهم السطوة. . طبقة التجار هذه عرضت أن تتبرع بأي مال يعين على صد القوات الغازية. . فكل شيء يهون إلا تقطيع الرؤوس والأجساد والتمثيل بها في الشوارع والميادين. وهذا هو المنتظر من تهديد قاسم. .

ثم طبقات المستوطنين من فلسطين ولبنانيين وعراقيين وهنود وايرانيين. . وكلهم هاجروا إلى هذا البلد الذي تفجر فيه البترول منذ سنوات قليلة، فاتسعت حلقة الأعمال، وضمنوا لهم رزقاً، وحلموا بمستقبل واسع. . بل أن بعضاً من هؤلاء أصبح من أصحاب النفوذ القريبين من الطبقة الحاكمة. .

والطبقة التاجرة. . كلهم لم يناموا الليل أرقين من أبشع مصير ينتظرهم لو أعيدت سنة المهداوي وأحكامه، والمهداوي هو رئيس المحكمة العسكرية في العراق. . (وقد أعدم مع عبد الكريم قاسم، يوم سقوط حكم قاسم، وتولى عبد السلام عارف رياسة الدولة).

ثم الطبقة المثقفة الواعية التي سخرت وعيها وايمانها في هذا البلد الوليد، لنشر دعوة القومية العربية، والعمل على وضع دعائم وحدة عربية، تنبثق عن ارادة الجماهير ونظرتهم البعيدة العميقة إلى مصلحة العرب العليا في تشابك الأيدي وبعث المجد القديم الذي حطمه المستعمرون وذيولهم. . هؤلاء أيضاً تمثلت أمام أبصارهم صور المآسي الدامية التي لقيها القوميون في العراق من شريعة البرابرة التي فرضها الشيوعيون المحليون.

* * *

الشعب الكويتي إذن، الذي يقال أنه بلغ في التعداد الجديد ٣٠٠ ألف نسمة (عام ١٩٦١). . أكثر من ثلثيهم من المهاجرين سعياً وراء الرزق. . قد صدمته الضربة المفاجئة من عبد الكريم قاسم. التهديد بالحرب. مع أن موقف عبد الكريم قاسم من الكويت لم يكن مفاجئاً تماماً. فهو في برقية التهنئة التي بعث بها إلى حاكم الكويت بمناسبة اعلان الاستقلال، قد وصف حاكم الكويت بأنه «سيادة الأخ الشيخ الجليل عبد الله السالم الصباح. . الكويت» ولم يسجل في برقيّة أنه الحاكم. ثم هو وصف معاهدة ١٨٥٩ بين الكويت وبريطانيا التي ألغيت، بأنها عقدت «بين الانجليز وبين الشيخ مبارك الصباح قائمقام الكويت التابع لولاية البصرة دون علم أخوته، ودون علم السلطات الشرعية في العراق آنذاك». .

وهو أيضاً قد خطب في بغداد في حفل تخريج دفعة ضباط في أواخر ابريل الماضي. . وقال ان الكويت والعراق بلد واحد، وليست هناك حدود بينهما، وان الاستعمار هو الذي خلق هذه الحدود الوهمية. . وأشار قاسم إلى أن ما تناثر من أخبار في ذلك الوقت من أن الكويت تطلب الانضمام إلى الكومنولث البريطاني. . وهدد قاسم تهديدات كثيرة إذا حدث هذا الانضمام.

وكان هذا الخطاب من قاسم إبان المفاوضات التي كانت تجري في سرية

تامة بين الكويت والحكومة البريطانية حول الغاء معاهدة ١٨٩٩ وابدالها بمعاهدة جديدة. وقد أذاعت حكومة الكويت في ذلك الوقت بياناً رسمياً، نشرته في الجريدة الرسمية ردت فيه على خطاب قاسم، ولكن بأسلوب هادىء بعيد عن الاستفزاز. . إذ قال البيان الذي صدر في أول مايو. «لقد نشرت بعض وكالات الأنباء في الآونة الأخيرة أخباراً ملفقة مفادها أن الكويت عازمة على الانضمام إلى رابطة الشعوب البريطانية. وحكومة الكويت إذ تكذب هذا الخبر جملة وتفصيلاً، تؤكد أنها سائرة بخطى ثابتة نحو استكمال سيادتها التي بدأت باستقلال القضاء وإصدار العملة الوطنية والاشتراك في المنظمات العربية والدولية. وستكون بعون الله وتوفيقه عوناً وسنداً للدول العربية الشقيقة. وفي طليعة الأمم المحبة للأمن والسلام. والله ولي التوفيق».

* * *

هكذا نرى أن بيان حكومة الكويت رداً على خطاب قاسم الأول. . كان هادئاً وديعاً، يكذب الخبر، ولا يستفز مشاعر قاسم. .

* * *

ان شعب الكويت كان يتصور أن يأتي العداء من حكومة ايران التي كانت حتى خمس سنوات مضت لا تعترف بجواز السفر الكويتي. . بل كان الكويتي يدخل ايران بلا جواز. وكان الايراني يخرج من ايران إلى الكويت بتأشيرة تفيد أنه مسافر إلى إحدى الضواحي! . .

بل أن بعض الكويتين كان يتصور أنه ربما نشبت أزمة بين الحكومة السعودية وحكومة الكويت، وخاصة أن مفاوضات تحديد ملكية البترول تحت ماء البحر بين البلدين معلقة. . وكانت هذه المفاوضات قد بدأت في زيارة الملك سعود للكويت في ابريل ١٩٦٠. . ولم يكتب لها النجاح. .

ولكن الذي حدث فاجأ منطق الكثيرين. .

ان عبد الكريم قاسم لا يهدد بمجرد أزمة. . ولكن بالزحف المسلح على الكويت.

أما شاه إيران فقد كان أول المهنئين للكويت، وأرسل وفداً رسمياً يحمل الهدايا برياسة رئيس مجلس الشيوخ. .

وأما الملك سعود . . فقد كانت تهنئته متحمسة فرحة باستقلال الكويت . ثم أنه أسرع بارسال قوات سعودية لتدافع ضد التهديد القاسمي. ثم جاء خطاب الشيخ جابر رئيس بعثة الشكر الكويتية إلى الملك سعود يقول: إن صوت الملك كان قوياً في الدفاع عن استقلال الكويت.

* * *

وأحدثت المفاجأة، ذعراً في كل الطبقات. . رددوا أقوال قاسم أنه مغرم باستخدام عنصر المباغتة في حركاته وتصرفاته. . وأيقنوا أنه سينفذ تهديده بالزحف المسلح. ومعنى ذلك أن الكويت ستبتلع في ساعتين. فجيش الكويت صغير محدود العدد والقدرة. وأغلب رجاله من أصل عراقي أو أصل ايراني. والأنباء تتواتر أن عبد الكريم قاسم يملك ٧٠ طائرة ميج!! ولكل هذا هب شعب الكويت هبة رجل واحد في مظاهرات غاضبة تطالب بالسلاح وتهتف بحياة عبد الله السالم الصباح وجمال عبد الناصر. حملت الآلاف الصور لزعيم القومية العربية ولحاكم الكويت معاً. وظهرت المرأة الكويتية المحجبة تهتف بالقومية العربية. واعتلت فتاتان سيارة، ورفعتا الحجاب. وكشفت واحدة علم الكويت وعليه وجه جمال عبد الناصر. وكشفت الثانية علم الجمهورية العربية المتحدة وعليه وجه عبد الله السالم الصباح. وكانت المشاعر ناراً متأججة تطالب بالحرب. وكان صوت الجماهير واحداً يرفع شعار القومية العربية. .

وهذا الشعار له جذوره العميقة الخصبة في الكويت. .

- في الكويت - دار للشباب المثقف تحمل اسم القومية العربية .. وقد احتفلوا بأكثر من عيد للوحدة بين مصر وسوريا .. كما أن صحف الكويت لا تنطق سطورها إلا بالقومية العربية .. ومن هنا حتى قبل أزمة قاسم بأيام - كان الشباب الواعى يعمل على تهريب صور جمال عبد الناصر إلى المناطق التي يتعقب فيها الاستعمار حتى صورته ، وكانت الفتيات والسيدات هن اللائي يهربن صوره تحت ثيابهن !. . وهكذا تحمل الكثيرون التضحيات

العديدة في سبيل فكرة الوحدة العربية . . وقد تشربت عقول بالشعارات الاقتصادية للقومية العربية . . مؤمنين أن الجمهورية العربية تقوم بدور الرائد فى الدعوة لهذه الشعارات . وقد تعرضت كل هذه النداءات للمقاومة الرسمية . وقام الشعب بمظاهرات جبارة احتجاجاً على العدوان الثلاثي . . وحرقوا حجرة في مكتب المعتمد البريطاني ونسفوا واحدة من أنابيب البترول . . وكتبوا على محلاتهم العامة «ممنوع دخول الانجليز والكلاب» . . وفشلت كل محاولة بريطانية أمام هذا التيار الشعبي الجارف، لإنزال قوات بريطانية. وكان موقف شعب الكويت بعد انتهاء العدوان، هو موقف الأخ الشقيق . . ولكن الدسائس استطاعت أن تحارب دعوة القومية العربية في صور عديدة يحدثك عنها الشباب القومي العربي بمزيد من المرارة . . ثم جاءت أزمة العراق.

* * *

جاء تهديد قاسم بالغزو المسلح . . وشعرت كل الطبقات أنها في مهب الريح . . وطلبت حكومة الكويت تأييد الجمهورية العربية. وأعلنت القاهرة رأيها أنها ضد الضم. وأنها تؤيد وحدة الشعب العربي بارادته لا بالغزو المسلح. وأنها ضد أي اتجاه يعارض أهداف النضال العربي. ولم تطلب حكومة الكويت المساعدة العسكرية من الجمهورية العربية. ولكن شعب الكويت المؤمن بقوة عبد الناصر وزعامته . . كان يتصور أن قوات الجمهورية العربية ستصل حتماً إلى الكويت! . .

وبدأت الألسنة البريئة تتناقل أخباراً كثيرة عن موقف القاهرة. عبد الناصر سيصدر أمره فوراً. المشير عبد الحكيم عامر سيحضر بين لحظة وأخرى. وساعدت كل القوى صاحبة المصلحة في ترويج هذه الأخبار على أنها حقيقة مفروغ منها. وكان اقتناع الشعب الكويتي بها سهلاً بسيطاً. انهم في محنة. محنة تصوروها بقاء أو فناء.

حكم قاسم يهددهم بالسحل والشنق وقتل الأطفال والنساء ورمي الجثث في الشوارع. كثيرون من أبناء الكويت كانوا يفكرون في مصير زوجاتهم وأطفالهم. والانسان في هذه الحالة لا يمكن أن يفكر الا بعاطفته . . أحكام العقل والنظر البعيد، وتحليل الأحداث بمقوماتها ونتائجها كلها اختفت أمام

الإحساس بالخطر الجارف. . الأعصاب متوترة وشبح الحرب يدق كل باب. . فأين من يفكر في تاريخ الانجليز في هذه المنطقة؟. . منطقة الخليج العربي كلها منذ أكثر من مائة عام. . لقد اعتمدوا في تثبيت أقدامهم في كل المنطقة على الخلافات والحروب المستمرة بين القبائل العربية. استطاعوا بالحيلة وبغير سلاح أن يقنعوا كل القبائل المتحاربة أن وجود الانجليز هو المأمن الوحيد لهم من الغزو وأعمال القرصنة. وكافح الانجليز طويلاً حتى أخلوا المنطقة من نفوذ التجار البرتغاليين والهولنديين. ثم النفوذ العثماني وخطر التوسع الألماني. ومنعوا في الوقت نفسه روسيا القيصرية من أن تطل برأسها في المنطقة. ان معاهدة الكويت مع الانجليز عام ١٨٩٩ عقدها الانجليز مع الشيخ مبارك شيخ الكويت خوفاً من نفوذ الألمان والروس الذي أطل بعينيه في هيئة مشروعات للسكة الحديد وغيرها. .

* * *

وكان الشيخ مبارك ـ كما يقول الانجليز ـ قد طلب منهم الحماية أكثر من مرة خوفاً من تركيا. ولكن انجلترا آثرت أن تترك الكويت مغنماً لتركيا. وعندما أحست بالخطر الروسي والخطر الألماني الذي سوف يهددها لا في الكويت فحسب. . بل في باقي مناطق الخليج العربي، قررت عقد المعاهدة مع الشيخ مبارك! . . معاهدة مثل المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع باقي شيوخ الخليج العربي في سنة ١٨٢٠ وفي سنة ١٨٥٧ . . ثم معاهدة جماعية في سنة ١٨٩٢ تنص على ألا تعقد هذه البلاد أي معاهدات أخرى إلا مع بريطانيا وألا تسمح بأي تمثيل سياسي خارجي إلا بموافقة بريطانيا. . وألا تتصرف في أي أرض من حدودها إلا بإقرار من بريطانيا. .

ثم عقدت بريطانيا اتفاقاً ثانياً مع الكويت في عام ١٩٠٤ بألا تسمح الكويت بإنشاء مكاتب بريد أخرى غير المكاتب الهندية. وفي عام ١٩١١ بألا تتصرف في الاسفنج واللؤلؤ إلا عن طريق بريطانيا. وفي عام ١٩١٣ بألا تتصرف في البترول إلا بواسطة بريطانيا.

وقد زار اللورد كيرزون منطقة الخليج العربي والكويت في نوفمبر عام ١٩١٣ واجتمع بكل شيوخ المنطقة وقال لهم بالحرف الواحد:

«لقد حميناكم من أن تقعوا في أيدي جيرانكم. وفتحنا هذه البحار بكل سفن العالم أن تسير في أمان. اننا لم نستول على أرضكم ولم نحطم استقلالكم بل حافظنا عليها. ولكننا لن نضحي أبداً بكل ما تكلفناه ـ في غير أنانية ـ طوال هذا القرن. ان النفوذ البريطاني الكامل سيبقى في هذه المنطقة»..

ووافق جميع الشيوخ، الذي أقنعتهم انجلترا بأن نفوذها هو الذي يحميهم من بعضهم البعض، وهو الذي يؤمن تجارتهم في البحر التي يأكل أرباحها الانجليز. وفضلوا أن ينفرد كل منهم بحدود معينة، له فيها مظاهر الحكم بفضل الانجليز!

وجاء البترول..
وتناحرت الأطماع البريطانية والأمريكية!

انجلترا تريد أن تنفرد بالاستقلال. وحكومة أمريكا تتدخل تدخلاً سافراً باسم الشركات الأمريكية ليكون لها نصيب.. إلى آخر القصة. وأمام تيار القومية العربية الجارف، استطاعت الكويت أن تعدل أخيراً معاهدة ١٨٩٩ إلى معاهدة جديدة تنص على:

١ ـ إلغاء إتفاقية ٩٩ لكونها تتنافى مع سيادة واستقلال الكويت.

٢ ـ تستمر العلاقات بين البلدين مسيرة بروح الصداقة الوثيقة.

٣ ـ عندما يكون ذلك مناسباً، فإن الحكومتين ستتشاوران مع بعضهما في الأمور التي تهم البلدين..

٤ ـ لا شيء في هذه النتائج يؤثر على إستعداد حكومة صاحبة الجلالة في مساعدة حكومة الكويت إذا طلبت حكومة الكويت مثل هذه المساعدة.

٥ ـ تظل هذه الاتفاقية سائرة المفعول ما لم يخطر أحد الطرفين الطرف الآخر إنهاءها بأخطار يسبق هذا الإلغاء بثلاث سنوات على الأقل..

* * *

معاهدة الاستقلال الجديدة إذن تنص على حق بريطانيا في التشاور مع الكويت في الأمور التي تهم البلدين. وعلى إستعدادها للمساعدة إذا طلبت

حكومة الكويت ذلك. والنص على الاستعداد لتقديم المساعدة يسير في نفس الخط الاستعماري القديم. إشعار الكويت أن بريطانيا هي حامية الإستقلال.

فإذا ما فوجىء العالم العربي بعد توقيع المعاهدة بساعات، بالإعلان من عبد الكريم قاسم أنه سيضم الكويت بالقوة.. في الوقت الذي يعرف فيه أن معاهدة الكويت مع بريطانيا تنص على طلب المساعدة.. فماذا يمكن أن تعني هذه المفاجأة؟..

لقد فوجىء العالم العربي بإعلان عبد الكريم قاسم ضم الكويت بالقوة، بعد أن إتفقت الدول العربية ـ ومن بينها العراق والأردن ـ لأول مرة على تأليف قيادة مشتركة للجيوش العربية.. فماذا يمكن أن تعني هذه المفاجأة؟

وإذا ما هددت دولة عربية، شعباً عربياً بالغزو المسلح.. وقد التزمت القاهرة بمبدأ أعلنته أكثر من مرة، وهي أنها لن تسمح بجندي عربي أن يقاتل جندياً عربياً.. فماذا يمكن أن تعني هذه المفاجأة؟..

هذه هي الأسئلة التي لم يفكر فيها شعب الكويت بكل طبقاته، وهو متوتر الأعصاب.. تضطرب عاطفته في طريقه للخلاص من التهديد بالسحل وتعليق الجثث في الشوارع. وراديو عبد الكريم قاسم يذيع منذ الفجر حتى منتصف الليل البيانات والتمثيليات والأحاديث والأناشيد عن غزو الكويت .

ولكن هذه الأسئلة فكر فيها الانجليز جيداً.. وفكر فيها عبد الكريم قاسم جيداً.. فكر الانجليز أن تهديد الكويت بالغزو هو سبيلهم الوحيد إلى طلب الكويت للمساعدة تنفيذاً للمعاهدة الجديدة.. وهو إعادة لكلام اللورد كيرزون الذي قال لكل شيوخ الخليج في عام ١٩١٣ .. «لقد حميناكم من أن تقعوا في أيدي جيرانكم».. انه يقال في عام ١٩٦١ ، ليس لحكومة الكويت فقط.. ولكن لكل المحميات البريطانية في منطقة الخليج العربي التي انتشرت فيها دعوة الوحدة العربية وتسربت إلى قلوب أبنائها عقيدة القومية العربية.. بل إن الآمال الطيبة التي امتلأت بها قلوب أبناء الكويت الذين أعلنوا وقت العدوان على السويس.. «ممنوع دخول الانجليز والكلاب»..

الآمال الطيبة البريئة التي تصورت أن جمال عبد الناصر سيأمر قواته على الفور بالإلتحام مع قوات الجيش العراقي.. هذه الآمال هي كل رجاء بريطانيا في الكويت. أنت تسمع الآن من يقول لهم في الكويت «ماذا فعل لكم جمال عبد الناصر!.. هل هو الذي أوقف غزو الكويت؟».

والتقى تفكير عبد الكريم قاسم.. بتفكير الانجليز..

إن تهديده بالغزو المسلح للكويت، هو المسمار الذي يوضع في قلب تكوين قيادة عربية مشتركة لأول مرة. كيف يمكن أن يكون وضع هذه القيادة المشتركة، أمام رغبة منفردة بغزو عربي لمنطقة عربية؟..

وتهديده بالغزو المسلح.. هو تقديمه الفرصة لبريطانيا أن تعرض مساعدتها العسكرية على حكومة الكويت في توقيت متفق مع تجمعات الحشود الإسرائيلية على حدود الاقليم الشمالي (سوريا) وتحرشاتهم التي بدأت منذ أكثر من شهر.

واضح إذن أن عبد الكريم قاسم مهد لهذا التهديد، فافتعل أزمة إنضمام الكويت للكومنولث التي أشرت إليها من قبل، وانتظر إلى الوقت المناسب له.. ولنوايا الاستعمار البريطاني في المنطقة.

ولذلك فقد إختارت الجمهورية العربية (مصر) أن تواجه الداء من جذوره لا من مظاهره السطحية.. إن الحمى قد تسكنها حبات الإسبرين ولكنها لا تقضي عليها.. وقد آثرت القاهرة أن تعالج المرض الأصيل. لذلك طالبت القاهرة بجلاء القوات البريطانية..

ويبدو لي أن حكومة الكويت بدأت تتخلص من التفكير العصبي المتعجل.. ولهم العذر وأفكارهم كانت تدور وكأن رؤوسهم بين أنياب وحش مفترس.. ويبدو لي أن شعب الكويت البريء بدأ ينتبه للمؤامرة..

* * *

وقد كنت أتصور أن وفد حكومة الكويت الذي حضر إلى القاهرة، كنت أتصور أن يكون هذا الوفد في القاهرة منذ أول ساعات الأزمة، ولا يقتصر

التشاور بين البلدين على برقيات متبادلة. فالموقف أخطر من أن تكشف أسراره في برقيات عامة. .

ورئيس هذا الوفد، الشيخ جابر الأحمد الصباح (أمير الكويت الآن) شاب يتمتع بنفوذ ضخم في بلاده. وهو رجل حسن السمعة، نظيف الجوهر، لم تمس حياته العامة أو الخاصة شائبة. وهو الذي نادى بضرورة التخطيط الاقتصادي في بلاده. واختلف أوسع الخلاف مع الشيخ عبد الله المبارك الصباح الذي كان يتولى ثلاث أو أربع وزارات في الكويت، ويصنع أدوات سيارته من الذهب الخالص، ويصرف الملايين عبثاً ولهواً. إختلف معه، وطالبه بميزانية عن مصروفات الدولة، فرفض عبد الله المبارك وهدد بالإستقالة. ولكن حاكم الكويت الشيخ عبد الله السالم قال له: أنت مقال. .

وترك الكويت واستقر في لبنان. .

وإذا كان الأمير عبد الله السالم حاكم الكويت، الذي يعتبر من أغنى أصحاب الملايين في العالم كله، ويستثمر أمواله في إنجلترا. . إذا كان هذا الرجل يمثل الحاكم العادل الطيب في الكويت، الذي يفتح أبوابه للجميع، ويعيش حياة زاهدة لا أثر لمظاهر البذخ فيها. . إذا كان هذا أمره، فلا شك أنه يدرك أن الانجليز أسرعوا بتقديم المساعدة العسكرية له في أقل من يوم. لا حباً. ولا إخلاصاً. إنهم بعينهم أبناء اللورد كيرزون الذي قال للشيخ مبارك، وكل شيوخ الخليج: إن النفوذ البريطاني يجب أن يبقى وسيبقى. . والذي فرض على الكويت إتفاقاً يحرمها من مقومات الإستقلال والسيادة. . وهم الذين يعتمدون في حياتهم على بترول الكويت.

* * *

وقد لمست أن محاولات عديدة، بذلت، وتبذل لتشوية العلاقات بين الكويت والجمهورية العربية. لا في هذه الأزمة الأخيرة، ولكن في خلال الأعوام الأربعة السابقة. .

. . ولهذا يجب أن نتساءل. . لماذا لا ننظر معاً إلى المستقبل البعيد؟. .

إن التطور الآن يفرض نفسه فرضاً. .

وليس أبقى للعربي من أخيه العربي.. رغم كل الأزمات التي لازالت تثور حتى الآن، ويختفي وراءها اصبع الإستعمار، صاحب المصلحة الأولى في الخلاف.. والأمل كبير في مجتمع المستقبل. مجتمع يحس فيه كل مواطن عربي بكل الطموحات الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية التي تهيىء له حياة حرة كريمة.

والتأمين الحقيقي لاقتصاديات العالم العربي.. ينبع من العالم العربي، ويتم بعقول العرب..

* * *

هذا ما سجلته منذ تسعة وعشرين عاماً!

وفي الثاني من أغسطس ١٩٩٠، إحتلت قوات العراق أرض ـ الكويت!

وترددت تحليلات، أن قوى أجنبية هي التي دفعت العراق إلى هذا التصرف الغادر المجنون..

ولا أزال أقول، بعد أن علمتني تجربة نصف قرن من العمل الصحفي، أن أبحث وراء الأغوار.. لا أزال أقول، أن عدوان صدام حسين مهما تغلف بالشعارات.. فإن الأصبع الأجنبي يختفي وراءه..

وحقائق التاريخ، لن تختفي يوماً، وإن كان الكشف عنها لا يتيسر إلا بعد عشرات السنين.

الفصل التاسع والثلاثون

تقرير من منروفيا

الرئيس الذي إختفى ـ صبية السياسة العربية ـ إنسحبوا قبل أن يتكلم السادات ـ القنبلة ـ أهداف أربعة لضرب مصر ـ بطرس غالي في اللجنة حتى الفجر ـ المؤامرة تحولت إلى زبالة.

الفصل التاسع والثلاثون

تقرير من منروفيا

كانت الخصومة العربية لمصر، التي قادتها حكومة العراق.. بعد إتفاق السلام، هي من أهم وأخطر الأحداث في المنطقة العربية. وتألف من بعدها، ما سمي بجبهة الرفض. وطاردت الدول العربية باستثناء عمان والسودان ـ مصر في كل التجمعات الدولية. وفرضت عليها حصاراً إقتصادياً. وكان من بين الأهداف تعليق عضوية مصر في مؤتمر عدم الإنحياز.. وسبق هذا المؤتمر الذي عقد في هافانا (كوبا) وفشل العرب في تحقيق هذا الهدف.. سبقه المؤتمر السادس عشر لدول المنظمة الافريقية الذي عقد في منروفيا عاصمة نيجيريا..

وقد كتبت في فصل سابق، كيف أننا كنا نخشى على مؤامرة لإغتيال السادات في هذه المدينة الصغيرة.. وخاصة بعد أن ظهر في منروفيا زهير محسن عضو منظمة التحرير.. ولكن هذه قصة أخرى.

إن النجاح الذي حققه السادات في مؤتمر منروفيا هو القصة الكبرى..

ومن أجل التاريخ.. أسجل في هذا الكتاب، تقريري عن هذا المؤتمر في حينه (عام ١٩٧٩)..

وهذا هو التقرير:

إنتهى المؤتمر السادس عشر لدول المنظمة الافريقية التي أصبحت الآن ٤٩ دولة يصل تعدادها إلى أكثر من ٤٠٠ مليون نسمة يزيدون إلى ٨٠٠ مليون نسمة في عام ألفين. وتزيد معهم مشكلات القارة الكبيرة التي يمثل فيها الدخل القومي للفرد أقل نسبة في العالم.. فدخل الفرد لا يتجاوز ٣٦٠ دولاراً في

العام. . وهذه أخطر أزمة تواجه إفريقيا الآن لأن معدلات التنمية تسير في بطء شديد. . كما أن طاقاتها تستنفد في خلافاتها الدامية بعد الإستقلال. . وفي النزاع على الحدود. . وفي ضخامة أرقام اللاجئين. . هذا عدا التدخل الأجنبي الذي ينقل صراعاته إلى داخل القارة. . والنظام القبلي الذي لا يزال يحكم ويسيطر. . وكفاح التحرير العاتي ضد عنصرية الغول الأبيض في بعض مناطقها. . وعدم الإستقرار الذي يشكل ظاهرة واضحة. .

الرئيس الذي إختفى

وعندما حضرنا المؤتمر الرابع عشر منذ عامين في كمبالا عاصمة أوغندا كان الرئيس المضيف هو عيدي أمين. . وقبل أن يتقدم رئيس نيجيريا إلى المنصة ليلقي كلمة بلاده كانت الأنباء قد وصلت بأن إنقلاباً عسكرياً وقع في نيجيريا وأصبح الرئيس الحاضر رئيساً سابقاً. . واختفى من المؤتمر في لحظات واستقل طائرة واختفى بها وظهر في لندن.

وفي هذا المؤتمر الذي ينعقد في منروفيا عاصمة ليبيريا كان الذي إختفى هو عيدي أمين. . وجلس رئيس جديد في مقعد أوغندا. . وتقدم رئيس نيجيريا الجديد يحتج على غزو تنزانيا لأوغندا. وكان نميري رئيس السودان قد أثار المشكلة باعتبارها سابقة خطيرة أن تغزو دولة إفريقية دولة أخرى. . وكان الإتهام موجهاً إلى نيريري رئيس تنزانيا الذي وقف يدافع عن مسلكه وانتهت مشكلة أوغندا وأصبح عيدي أمين في خبر كان. . وبدأ المؤتمر يناقش مشكلات إفريقيا. . وما أكثرها وما أقساها. .

صبية السياسة العربية

ولكن صبية السياسة العربية أرادوا أن يعبثوا في مؤتمر منروفيا بمثل ما عبثوا في مؤتمر بغداد. . وتصوروا أن لعب الصغار يمكن أن يؤثر في مكانة مصر كرائدة تحرير وعزة وكرامة. . على المسرح الإفريقي. .

وصبية السياسة العربية الذين حضروا. . هم صبية الصبية. . لأن رؤساءهم لم يحضروا . غاب القذافى . . وأرسل التريكى . . وغاب بورقيبة وأرسل أكثر من صبي. . وغاب الملك الحسن الذي كان قد طلب أن يقابل

الرئيس السادات في منروفيا. . ولم يحضر إلا رئيس الجزائر الجديد. . وحضر من منظمة التحرير الفلسطينية كمراقب عميل سوريا زهير محسن الذي إشتهر بسرقة السجاجيد «العجمي» في حوادث السلب والنهب السورية في لبنان. .

وتصور الصبية أن تجمعهم في منروفيا يمكن أن ينال من مصر العملاقة. . واتفقت كلمتهم على أن تتحدث تونس باسمهم. . وكانت سعادة صبية تونس واضحة على وجوههم وفي تحركاتهم. . لأنهم أصبحوا يحتلون موقع زعامة. بل تخيلوا أن حصولهم على منصب أمين جامعتهم العربية هو صك الاعتراف بهذه الزعامة. . وأرادوا أن يثبتوا أنهم قادرون على مسئوليات هذه الزعامة وهي مسئوليات تنحصر في هدف واحد هو تجريح مصر والتشهير بها وعزلها عن المجتمع الإفريقي.

القرار الخطير

ورأيتهم في قاعة المؤتمر وخارج القاعة يجتمعون وينفضون ويخرجون ويدخلون. . ودلائل الجد والارتياح بادية على وجوههم وكأنهم وصلوا إلى قرار خطير سوف يهز الدنيا بأسرها!

وكان أكثرهم سعادة واحد من صبية تونس الذي كان الرسول المشترك بينهم جميعاً والذي كان يقفز بين المقاعد وينحني على الآذان. . ليهمس ويبدو فرحاً جذلاً بهذا الدور الجديد. . وأدركنا على الفور ما هو القرار الخطير!

وعجبنا وعجبت الوفود الافريقية لتفاهة هذا القرار. . لقد قرروا أن ينسحبوا من القاعة. . قبيل أن يلقي الرئيس السادات خطابه. . وقلت لزملائي. . إذا كان هؤلاء الصبية سينسحبون فلا أتصوّر أن رجلاً وقوراً مثل رئيس الجزائر يظهر لأول مرة على مسرح دولي يمكن أن يجاريهم في هذا التصرف الصغير ولكن ثبت أنني أخطأت التصور. . وانسحب فعلاً رئيس الجزائر. .

ولم يشعر بانسحابهم أحد. .

ولولا أن المصريين في المؤتمر كانوا يراقبون ويتابعون هذه الحركات ما كنا شعرنا أو أحسسنا بهذه الحركة «الهابطة». .

القنبلة :

وبدأ السادات يتكلم . .

وحل على القاعة الكبرى التي تضم أكثر من ألفي إفريقي في القاعة والشرفات . . حل صمت الاهتمام الكامل . . وكأن الأنفاس كلها قد توقفت لتستمع إلى كلمة مصر . .

وكانت المفاجأة الكبرى التي هرب الرؤساء العرب والأفارقة من مواجهتها .

وعندما ترك أنور السادات الكلمة المكتوبة المعدة وانطلق مرتجلاً لأكثر من ساعة يشرح موقف مصر ويفضح هذا العبث الذي حاول أن ينقل الخلاف العربي إلى مؤتمر أفريقيا وأن يخدع الرؤساء الأفارقة بالأكاذيب والقصص المفبركة لكي يشوّه أكبر حدث في هذا العصر . . وهو حدث السلام . .

وانتهت كلمة السادات . . وإذا بالقاعة تدوي بالتصفيق الملتهب الذي تابع الرجل من منصة الخطابة حتى عاد إلى مقعده وبعد أن استقر في مقعده طويلاً . .

وقالت التعليقات السريعة من الأفارقة الذين كانوا يجلسون حولنا . . هذا رجل شجاع ومستقيم . . هذا رجل مؤمن بما يفعل ويقول . . هذا زعيم جدير باحترام العالم .

وعاد من انسحبوا إلى مقاعدهم في القاعة ووجوههم صفراء . . وعيونهم شاردة . . وخطواتهم مهتزة ورؤوسهم منكسة . . فلم يكن يخطر على أذهانهم الحاقدة أن مصر ستملأ المؤتمر بهذا الكيان العملاق . .

وقال الدكتور بطرس غالي وزير الدولة الذي مثل مصر في اجتماعات وزراء خارجية أفريقيا التي سبقت وواكبت المؤتمر . قال بطرس غالي ووجهه يشرق بابتسامة صافية : الآن أستطيع أن أركب الطائرة وأعود فوراً إلى مصر دون أن أحضر باقي الاجتماعات لأنني أصبحت واثقاً من قرار المؤتمر .

ماذا حدث؟

ولكن. . ماذا حدث قبل أن يصل السادات إلى منروفيا؟

لقد تكتلت في إجتماعات وزراء الخارجية الجزائر والمغرب وليبيا وتونس. . مع دولتين أفريقيتين يسيطر عليهما الاتحاد السوفيتي. . وأرادوا أن يصلوا بالمناقشات إلى دوامات ومتاهات لكي يحققوا أكثر من هدف. .

** الهدف الأول هو تعليق عضوية مصر في المنظمة الأفريقية. . وقد خاب هذا الهدف منذ الدقائق الأولى وعرفوا أن ما يستطيعوه في بغداد لن يستطيعوه في مؤتمر أفريقيا.

** الهدف الثاني هو أن يقنعوا الوزراء الأفارقة أن معاهدة السلام هي خروج على قرارات المنظمة السابقة. . وفشلوا في ذلك لأن القرارات السابقة التي أصدرها مؤتمر - ١٩٧٣ وبناء على طلب مصر - لم تكن إلا تحرير الأرض وإنشاء دولة فلسطين. . وليس فيما سلكته مصر أي خروج على هذه القرارات. بل أن عدداً كبيراً من الأصوات الأفريقية قالت: إن تحرير سيناء هو تحرير لأرض أفريقية ولا يمكن أن يكون ذلك موضع ممارسة من أحد أو خروجاً على قرارات سابقة.

** الهدف الثالث هو أن يزعموا أن مصر تتحدث باسم الفلسطينيين وتسعى إلى إصدار قرارات من مصيرهم. والفلسطينيون لم يطلبوا من مصر هذا التوكيل. . وكأن الرد المصري أن مصر لم تزعم لنفسها هذا الحق ولا تقبله. . ولأن كل شعب هو الذي يقرر مصيره. ولكن ما فعلته مصر هو العمل على رفع المعاناة عن الشعب الفلسطيني المحتل الذي يقاسي عذاب السجون. . ولذلك كان اتفاق كامب دافيد لإنهاء الحكم العسكري الاسرائيلي في الضفة وغزة. . وإنهاء الحكم المدني الاسرائيلي وانسحاب القوات الاسرائيلية إلى مواقع أمينة وإقامة الحكم الذاتي تمهيداً لتقرير المصير الذي يملكه الفلسطينيون فقط. .

** والهدف الرابع الذي يسبق كل هذه الأهداف هو أن وصولهم إلى قرار يدين مصر في المؤتمر الأفريقي. . هو سابقة يستندون إليها في المؤتمر المقبل

لعدم الانحياز الذي ينعقد في سبتمبر القادم في كوبا. ولـذلك كـانت استماتتهم بكل دعاوي ومزاعم التشهير بمصر.

نقطة نظام:

وكم امتدت اجتماعات المجلس الوزاري إلى مطلع الفجر.. وكم استمـر الاجتماع الواحـد أكثر من إحـدى عشرة ساعـة. وكان الـدكتـور بـطرس غـالي بشهـادة الجميع الصـوت الشريف المتيقظ المقنع بغـير إسفاف أو مهـاترات.. لم يتخلف عن اجتماع.. بل لم يتأخر عن اجتماع.. وكان أول الحـاضرين. وكان آخـر المنصرفين.. وبـين كل الاجتـماعات كـان حـركـة دائبـة من الاتصـالات المستمـرة التي اعتمد فيهـا على صـلاته القـديمة والعتيـدة قبل أن يتـولى منصبه الـوزاري وقبل ذلـك الاتصالات التي أجـراها من مـوقعه الـوزاري في التمهيـد لأعمال هذا المؤتمر..

وليس سراً أن عضواً عربياً في هذه الاجتـماعات الـوزارية حـاول مرة أن يزجّ باسم الرئيس السادات في المناقشات فتحـول الدكتـور بطرس غـالي إلى نمر مفترس. وهو ينبه رئيس الجلسة (وزير خارجيـة ليبيريـا) إلى نقطة نـظام.. تمنع من الزجّ بأي رئيس، كان موقف رئيس الجلسة حازماً وحاسماً.. وتراجع العضو العربي وصمت إلى آخر الجلسة.

زبالة المؤتمر:

وقبـل أن تنتهي جلسـات المؤتمـر كـانت صحف العـالم ـ مجمعـة بـأقـلام مندوبيها في المؤتمـر ـ على أن مؤامـرة الرفض قـد فشلت ضد مصر.. وأصبحت من «زبـالة المؤتمـر» الذي أظهـر كل تقـديره للمـوقف المصري الـذي أرادوا أن يشوهوه، وكأننا نعمـل ضد حقـوق الشعب الفلسطيني.. أو كـأننا تنكـرنا لأي مبـدأ التزمنـا به تـاريخياً وقـومياً.. حتى وصلت المهـانة بصبيـة دول الرفض إلى محاولة تصوير أن حرب اكتوبر كانت بالاتفاق بين مصر واسرائيل وأمريكا! وكان السادات في قمة تأثره عنـدما قـال في خطابـه أن أول شهيد في الـدقائق الخمس الأولى لحرب اكتوبر.. هو عاطف السادات شقيقه الذي كـان في موضـع الابن منه.. ومن العار أن يقال هذا الاسفاف عن مصر التي قدمت عشرات الألـوف

من أطهر الشهداء وضحت بمائة بليون من مواردها..

وغادرنا منروفيا ليشهد المؤتمر الخلافات بين الدول العربية التي التحمت في موقف موحّد ضد مصر.. وهي تعاني من أزماتها.. وكان ما هو معروف من انسحاب المغرب من المؤتمر احتجاجاً على قرار المؤتمر عن الصحراء الذي صدر مناصراً لموقف الجزائر وفشل صبية تونس في التوفيق بين حلفاء اللحظة!

وغادرنا منروفيا ورؤوسنا عالية.. وهاماتنا مرفوعة.. واحترام مصر وتقدير دورها التاريخي يحيط بنا من كل جانب.. ويكفي أن أردد ما سمعته من زعيم أفريقي مرموق وهو يقول: لو كانت هذه الدول الرافضة قد بذلت نصف الجهد الذي تبذله الآن ضد مصر في مقاومة اسرائيل لما بقيت اسرائيل على خريطة العالم.

الفصل الأربعون

فضيحة شركات توظيف الأموال

غضب الرئيس مبارك وطلب المحافظ تليفونياً ـ تحذير على نجم ـ لجنة برياسة عاطف صدقي ـ الصحافة والتليفزيون يروجان للريان ـ إعلانات إرهابية ـ حوار مع رئيس الوزراء ـ سعيد سنبل أوقف المهزلة ـ بدأت الحملة في ١١ أغسطس ١٩٨٧ ـ حبس أحد الشركاء ـ رئيس الشركة وقع ضحية الإدمان ـ تحذير في ٤ مايو ١٩٨٨ ـ مقال الأشقاء الثلاثة في ٢٣ مايو ١٩٨٨ ـ موقف صحيفة الوفد ـ كاتب توظيف الأموال رقم ١ ـ نموذج من الشتائم ـ جريمة استعمارية صهيونية!

الفصل الأربعون

فضيحة شركات توظيف الأموال

دعاني الرئيس حسني مبارك، إلى حضور اجتماع، ضم بعض المسئولين، لمناقشة موضوع عام..

وخلال المناقشة، أثار أحد الموجودين، أن محافظاً ظهرت صورته في إعلان كبير مع صاحب شركة توظيف أموال.. وأن هذه الشركة تسهم مع المحافظة في مشروع معين، كما قال الإعلان..

وغضب الرئيس.. وطلب المحافظ تليفونياً، وأصدر إليه أمراً بعدم الدخول في أي مشروع مع شركة توظيف أموال..

كان هذا هو موقف الرئيس.. ومع ذلك، فإن الحكومة لم تتقدم بالتشريع الخاص بهذه الشركات إلا بعد وقت طويل..

وكان علي نجم قد حذّر من خطورة هذه الشركات على الاقتصاد القومي.. وأصدر تصريحاً عن تعرض شركة توظيف أموال، لخسارة مائتي مليون دولار بسبب المضاربات.. وقد نشر عن ذلك في الصحف الأجنبية.. وكتب علي نجم مذكرات عديدة، إلى كل الجهات المسئولة، لوقف هذا الخطر.. وترك علي نجم موقعه في البنك المركزي.. ولم يتخذ أي إجراء يحمي المواطنين من استغلال هذه الشركات..

واستمر الموقف مائعاً..

فريق من الرسميين يرى أن تدخل الحكومة، يمكن أن يؤدي إلى أزمة اقتصادية خطيرة، وخاصة أن أرقام الأموال المودعة في هذه الشركات ضخم جداً.. ولذلك نصحوا بالتريث..

وفريق آخر كان يرى أن كل يوم، يمضي، دون الحد، من خطر هذه الشركات، سيجعل الموقف يتفاقم.. ويصعب مواجهته بأي علاج..

وتألفت لجنة برياسة الدكتور عاطف صدقي رئيس الوزراء، كانت تناقش الأمر، وعلى مدى أشهر طويلة..

والناس في حيرة..

صفحات إعلانية كاملة، في كل الصحف القومية والحزبية، تتحدث عن أمجاد هذه الشركات.. شاشة التليفزيون عامرة بالموضوعات الاعلانية عن هذه الشركات.. و«شركة الريان» على الخصوص.. وجاء شهر رمضان، وقدمت القناة الثالثة مسابقة باسم شركات الريان، وكان إقبال الجمهور على المسابقة رهيباً، لدرجة أنه شل الاتصال التليفوني في القاهرة.. وحجة إدارات الاعلانات في الصحف، لقبول هذه الاعلانات الرهيبة.. أن أحداً لم يخطرها، بأن هذه الشركات غير قانونية..

وكانت هي نفس حجة جهاز التليفزيون، الذي لم يشأ أن يحجب عن دخله، إيراداً إعلانياً كبيراً..

وكانت إعلانات هذه الشركات، تتخذ أسلوباً ارهابياً، تجاه من يحاول التصدي لها بنقد.. فهي ترفع راية الاسلام.. وأصحابها يرتدون الجلاليب البيضاء ويطلقون لحاهم، ولا يتحدثون إلا بآيات القرآن الكريم.. والناس ترى الصحف والتليفزيون تدعو لهذه الشركات، فيتضاعف إقبالهم على إيداع أموالهم.. ومن يرفض أن يكسب ٢٥ جنيهاً إذا أودع مائة جنيه؟!.. والمؤلم أن كثيرين من المثقفين، وأصحاب المناصب الرفيعة، ورجال الأعمال.. قد اندفعوا في إيداع مدخراتهم، بكل الرضا والسعادة.. ووقعوا على أوراق، لا تقيد هذه الشركات بأي التزام في حالة الخسارة!

وراجت إشاعات عديدة، من أن هناك مسئولين كبار، ووزراء سابقين، ضالعون مع هذه الشركات.. وأنه لا توجد قوة في مصر، تستطيع أن تتصدى لها!..

كما راجت قصص عن حياة البذخ التي يعيشها بعض أصحاب هذه

الشركات. . والقصور والسيارات واليخوت التي يملكونها. . ثم زواجهم بأكثر من واحدة، والإغداق على الزوجات بالمجوهرات وهدايا الفيلات. .

والتقيت مع رئيس الوزراء في حوار - لم يكن للنشر - عن مصير هذه الشركات. . وأطلعني الرجل على تقارير رسمية، تثير الفزع، عن نشاط هذه الشركات، وتسللها إلى مواقع عديدة، وأموالها المهربة في الخارج. . وتغلغلها في وسائل الاعلام. .

وقد أقرضت إحدى هذه الشركات، المؤسسات الصحفية، ملايين من الدولارات. . قرض كبير للأهرام. . وقرض صغير لأخبار اليوم وتعاقد على مطبوعات. . واتفاق سري مع صحيفة الوفد. . وصحف المعارضة الأخرى، التي كانت تدافع عن هذه الشركات، دفاعاً مستميتاً، أخجلني كصحفي أمتهن هذه المهنة الشريفة التي دنّسها المال. .

وكان هدف هذه الشركات، السيطرة الكاملة على كل صحافة مصر. .

بل أن إحداها، عرضت مشروعاً على عضو بمجلس نقابة الصحفيين، بأنها مستعدة لإقراض الصحفي أي مبلغ. . وأن تدفع له أرباحاً على هذا القرض، يسدّد بها قيمة القرض! رشوة سافرة. والمؤسف أن عدداً من الصحفيين رحب بهذا العرض. . ودافع عنه في اجتماعات مجالس إدارة بعض الصحف!

واستطاع سعيد سنبل رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم، أن يوقف هذه المهزلة. .

ثم بدأت أسمع القصص عن عدد من الصحفيين، الذين جندتهم هذه الشركات، لتسريب أخبار إلى الصحف، مقابل أموال ضخمة. . ظهرت في سيارات إقتناها هؤلاء الصحفيين، ومستوى معيشة رفاهية ارتفعوا إليه، بهذه الأموال الحرام. .

وكنت ضائقاً بهذا الموقف المهين. . للصحافة. . وللعاملين بها. .
ولكنني كنت في حرج. .

هذه الشركات، ترفع أعلام الاسلام، في دعايتها وعملها.. مما يجعل أي نقد مشوباً بتهمة التعصب!

ولكنني ـ في الوقت نفسه ـ ومن معلوماتي الصحفية، أعرف أنهم أبعد الناس عن الالتزام بقيم الدين وفضائله..

واستمر هذا الصراع في داخلي، وقتاً غير قصير.. ولكنني في النهاية قرّرت أن أعلن رأيي، وليكن ما يكون..

وكتبت في ١١ أغسطس ١٩٨٧، مقالاً في الصفحة الأولى من «الأخبار» ذكرت فيه أن العدد الغالب من أصحاب هذه الشركات كان من تجار العملة المعروفين.. وتساءلت لماذا تركت الحكومة هذه الشركات بلا أدنى رقابة من الدولة سنوات عديدة، حتى استشرى شرها؟.. أليس هذا دليلاً على أننا لا نتابع السوق الاقتصادي بعين يقظة، واستراتيجية اقتصادية مرسومة؟.. وطالبت أن يكون القانون الذي تزمع الحكومة إصداره بشأن هذه الشركات، متكاملاً، يحمي المودعين، ويحمي الاقتصاد، ويحقق إشراف الدولة الفعلي.

وكانت النيابة العامة قد ألقت القبض على واحد من أصحاب شركة الريان.. وحكمت عليه محكمة أمن الدولة بالحبس سنتين، بتهمة المتاجرة في مواد تموينية بالمخالفة للقانون.. وفي أوائل مايو ١٩٨٨، صدق رئيس الوزراء على الحكم بالحبس..

ثم علمت أن شقيقه الذي يشاركه ملكية شركة الريان، ويرأس الشركة.. أصيب بمرض خطير، وهو الإدمان.. وتحريت هذا الخبر من أكثر من مصدر، وتأكدت من صحته، ومن أنه يمضي يومه في حالة تخدير كامل، وأن زوجته شكرية هي التي تشتري له الدواء المخدر..

وكتبت في ٤ مايو ١٩٨٨.. إن هذا المرض يعني أنه يفقد صلاحية اتخاذ القرار. وهو المسئول الأول في شركة يتداول عملها في مئات الملايين من الجنيهات، التي يملكها آلاف المودعين من المواطنين.. وطالبت في المقال بضرورة إسراع الحكومة في إصدار التشريع الذي وعدت به، والذي يضع اشرافاً قانونياً على أعمال هذه الشركات، يحمي حقوق المواطنين..

وأحـدث هذا المقـال دوياً ضخمـاً. . فقد كـان ينشر لأول مرة أن رئيس شركة الريان، مدمن، ومريض، وفشل علاجه، وفي حالة غيبوبة مستمرة.

ولم يستطيع أحد أن يكذب هذا الخبر الخطير. .

وتـابعت هذا المقـال، بمقال آخـر في العاشر من مـايو ١٩٨٨. . بعـد أن شنوا ضدي حملة عنيفة تتهم كلماتي بأنها مشبوهة!

واختلف الأشقاء. . .

وكتبت المقال الثالث في ٢٣ مـايو ١٩٨٨. . وقلت في هـذا المقال بعنـوان «المـوضوع أصبـح مفزعـاً» قلت فيه: «إن الأشقـاء الثلاثـة، الـذين لهم سلطة التصرف في مئات الملايـين من الجنيهات، التي قـدمها لهم المـواطنون للحصـول عـلى فوائـد ضخمة. كبـيرهم مريض بـالإدمان، ويعـالج في مستشفى للصحـة النفسيـة، بأدويـة تفقد الإدراك. . وأحـدهم محكوم عليـه بالسجن مـع الشغل عـامين. . والثـالث أصبـح رئيسـاً لمجلس الإدارة، بعـد أن تم خلع الأول! . . وهذه أمور بالغة الخطورة، والموضوع مرتبط بمئات الملايـين من الجنيهات، وهي مدخرات المواطنين التي تستثمرها هـذه الشركة، وقـد كانت خـافية عـلى هؤلاء المـواطنين، حتى صـدر الحكم بـالحبس وحتى أبلغت زوجـة الشقيق الأكـبر عن الحالة المرضية لزوجها التي تفقده الإدراك».

وقلت: «إن هذا يجعلني ألح بشدة، على السيد رئيس مجلس الوزراء، أن يتخذ الإجراءات القـانونيـة التي يراهـا كفيلة بأن تحمي أمـوال المواطنـين. . أنه موضوع مفزع، لا يتحمل التأخير في مواجهته بسيادة القانون.

وبعد هذا المقال أيضاً، تعرضت لحملة إعلانات إرهابية. .

ولم يعجب هذا الموقف المبدئي، لصالـح آلاف المودعـين المفترى عليهم، صحيفة الوفد على عاداتها ـ حينئذ ـ في التشهير بـأي موقف بقصـد المعارضـة. . فقـد تحالفت الصحيفـة مع شركـات توظيف الأمـوال. . وأخذت بكـل أسف، جانب الدفاع عنها! . . ونشرت روز اليوسف خبر اتفاق سري بين شركة الريان وفؤاد سراج الـدين حضره رئيس تحريـر الصحيفـة. . وبعـدهـا بـدأت حمـلات الدفاع عن أكبر جريمـة نصب في تاريخ مصر. . ولكن صحيفة الـوفد لم تكتف

بذلك، بل شنت هجومها على شخصي.. محذرة من أن هذا موضوع إسلامي، لا يجوز لي أن أتدخل فيه بدافع التعصب!!.. وشنت الوفد هجومها أيضاً على سعيد سنبل رئيس تحرير «الأخبار» بنفس المنطلق الحقير. وقد أطلق سعيد سنبل وصف، «كاتب توظيف الأموال رقم ١» على رئيس تحرير الوفد.

وكتبت في «الأخبار» في ٢٨ يونيو ١٩٨٨ «غريب ما يجري الآن على الساحة الصحفية. حملة إرهاب وتشهير وشتائم بأحط الأساليب، يشنها هذا الصحفي الذي وصفه بحق سعيد سنبل رئيس تحرير «الأخبار» بلقب، كاتب توظيف الأموال رقم واحد.. حملة طائشة عابثة، على أقلام شريفة لا تقبل المال الحرام، ولم تستطع قوى الحرام أن تصل إلى جيوبها..

وهذه نماذج من شتائم «كاتب توظيف الأموال رقم واحد» لحساب بعض شركات توظيف الأموال..

* في ٢٤ مايو نشر أنني موتور، وأنني أدبر مؤامرة جهنمية لشركات توظيف الأموال، مع رئيس تحرير «الأخبار»!

* وفي ١٥ مايو، نشر يطالب الحكومة بعدم إصدار القانون الخاص بشركات توظيف الأموال، ويحذرها من «المجزرة» التي نصبتها ـ أنا ـ لهذه الشركات.. وأنني مثل الإرهاب الذي يريد قتل شخص واحد، فينسف الطائرة وفيها مئات الركاب الأبرياء..

* وفي ١٨ مايو نشر أنني مجرم استخدمت مؤسسة صحيفة كبرى لتحقيق أهداف شخصية.. وأنني ذئب وضبع وثعلب!

* وفي ٢٢ مايو نشر أنني موتور، وأنني وضعت خطة مع موتورين آخرين، تستغل سذاجة الحكومة، بهدف تدمير شركات توظيف الأموال من أساسها، من خلال خلق حالة من الذعر الخطير، حتى تتقوض نهائياً أركان ودعائم هذه الشركات، وهذه خطة جهنمية، وتفكير إجرامي، هدفه الوحيد الانتقام من حفنة من أصحاب شركات توظيف الأموال!

وغير ذلك كثير. مما اعتبره أكبر سقطة في تاريخ الصحافة المعارضة.. وهي التخلي عن المبدأ، وعن حماية حقوق الآلاف من المودعين المفتري عليهم..

في سبيل معارضة الحكومة، ومقابل إعلانات.

وسارت الحكومة في إجراءاتها القانونية.. وقدمت أخوان الريان للمحاكمة عن الجرائم التي ارتكبوها واستمرت المحكمة وقتاً طويلاً، حتى قدم محامي الريان مفاجأة.. وهي أن لديه من يشتري أملاك شركات الريان، بأموال كافية، لرد حقوق المودعين. وكان في ذلك، حل للمشكلة الخطيرة، ولا تزال إجراءات هذا البيع مستمرة حتى كتابة هذه السطور.

وكان الرئيس حسني مبارك، قد تحدث عن هذا الموضوع، في اجتماع للنادي السياسي للحزب الوطني الديمقراطي قال فيه ما نصه: «أين الذين كانوا يدافعون عن هذه الشركات؟.. لقد وضح الفساد الآن. لماذا لا يعترفون بهذا الفساد ويهاجمونه بعد أن انكشف سره. الرجوع إلى الحق فضيلة. وإذا كانوا دافعوا وهم لا يعلمون.. فعليهم أن يوضحوا هذا الفساد للشعب بعد أن تبينت جوانبه. سبحان الله.. انهم يطالبون الحكومة بمطاردة الفساد، وإذا طاردنا الفساد سكتوا.. كيف أفسر هذا؟..».

والغريب أن الأمر وصل ببعض السطور المعارضة إلى القول بأن محاسبة شركات توظيف الأموال، هي جريمة استعمارية صهيونية!

الفصل الحادي والأربعون

تحت القبة

هواية العمل البرلماني ـ جلسة تاريخية بعد الهزيمة بطلها علوي حافظ ـ جلسة مصطفى مرعي المشهورة في مجلس الشيوخ عن فساد حاشية الملك ـ السادات يفشل في تهدئة الطلبة الثائرين المطالبين بالحرية ـ فصل الشيخ عاشور ـ بيتهوفن مديرية التحرير ـ صور من جلسات مجلس النواب عام ١٩٥٠ ـ عبد السلام جمعة يحمي الأقلية ـ الدكتور محمد هاشم لا ينسى الوزارة! ـ غضبة من الدكتور محمد مندور ـ معركة بين حشيش والبدراوي باشا ـ طه حسين يعلن مجانية التعليم.

الفصل الحادي والأربعون

تحت القبة

لم أفقد هواية عمل المحرر البرلماني منذ سبعة وأربعين عاماً، عند بدء اشتغالي بالصحافة، حتى اليوم!

أحب دائماً أن أتابع حضور الجلسات الهامة.. ولكني قبل أن أصل إلى مقعدي في شرفة الصحافة أكون قد استوعبت ما يجري وراء الكواليس قبل الجلسة، من اتفاقات ومناورات!

ومن أهم الجلسات التي حضرتها بعد هزيمة ١٩٦٧، جلسة مسائية تكلم فيها النائب علوي حافظ، عن فساد الحكم الذي أدى إلى الهزيمة!

كان أنور السادات يرأس هذه الجلسة، وقد رئي أن تعطى الكلمة لعدد من النواب، لمجرد التنفيس عن المشاعر بعد الهزيمة.. وتكلم أربعة أو خمسة نواب، كلاماً سريعاً تناولوا فيه جوانب مختلفة، ولكن بشيء من الحذر في التعبير عن آرائهم.. ثم أعطيت الكلمة لعلوي حافظ، فإذا به قنبلة تنفجر!

وكان في قمة موهبته الخطابية، كما كان في قمة اندفاع الشجاعة بلا حدود.. وتحدث عن الفساد في بطانة جمال عبد الناصر، ورأيت أنور السادات يتململ فى مقعد الرياسة.. كانت كلمات علوى حافظ العنيفة منصبة فوق رأس علي صبري.. وفي هذا إحراج للسادات رغم أنه لم يكن يحب علي صبري. كان السادات يتبنى علوي حافظ.. أو بالتعبير الدارج كان علوي حافظ «محسوباً على السادات» على أنه من رجاله.. ومن هذا يمكن أن يفهم، أن السادات هو الذي أوعز لعلوي حافظ أن يشن هذا الهجوم القاسي.. ولكن

السادات لم يستطع أن يوقف علوي حافظ، لأنه كان مندفعاً كالصاروخ، ولأن النواب جميعهم كانوا منصتين إليه في شغف شديد..

وما أن انتهت الجلسة، حتى استدعى السادات، علوي حافظ إلى مكتبه، وعنفه تعنيفاً شديداً وبصوت مرتفع.. وترك علوي حافظ مكتب السادات، وانتقل إلى حجرة الوزراء، وكان في حالة هياج عصبي.. وتقدم منه شعراوي جمعة محاولاً تهدئته، فتضاعف صياحه وهو يصرخ بأعلى الصوت.. أنتم اللي خربتم البلد..

وأخيراً تمكنوا من تهدئته حتى انصرف إلى منزله..

ومن الجلسات التي لن أنساها في مبنى مجلس الشيوخ، عدا جلسة مصطفى مرعي المشهورة عن فساد حاشية الملك التي نوهت عنها في فصل سابق.. جلسة مسائية أيضاً عقدت في مبنى مجلس الشيوخ (ولم يكن قائماً) في يناير ١٩٦٨ بعد مظاهرات الطلبة التي طالبت بالحرية..

كان طلبة كلية الهندسة معتصمين لعدة أيام داخل كليتهم، مطالبين بالديمقراطية وإطلاق الحريات.. وقد اتفق على أن ينهوا اعتصامهم، على أن يجتمعوا في قاعة مجلس الشيوخ بأنور السادات.. وجاء الطلبة وهم في حالة يرثى لها بعد الاعتصام الطويل.. وتكلم كثيرون منهم متشنجين معلنين أنهم لن يقبلوا غير الحرية..

وأذكر أن عصام حسونة وزير العدل حينئذ كان يجلس إلى جواري، فهمس في أذني «أنني أرى مصر الجديدة في هذا الشاب»..

وتحدث إليهم السادات طويلاً، محاولاً أن يمتص هياجهم.. وقال لهم إن كل لافتات الثورة قد سقطت بعد هزيمة ٦٧، ولم تبق إلا زعامة عبد الناصر.. ولكن كل بلاغة السادات لم تفلح في أن يفتر غليانهم..

ثم كانت الجلسة التي رأسها المهندس سيد مرعي في عهد السادات.. والتي هتف فيها الشيخ عاشور نائب الإسكندرية بسقوط السادات.. وقد صمم السادات بعد ذلك على فصله من المجلس، حتى يكون عبرة لغيره في عدم التطاول على شخص رئيس الجمهورية.. وأذكر أن عدداً من القضاة

زاروني في مكتبي، وقالوا لي انهم مؤمنون بزعامة أنور السادات، ولـذلك فـإنهم حريصون على ألا يتخذ السادات أي إجراء ضد الشيخ عاشور. لأنه شخصية تـافهة، ولا تستـاهل من السـادات أبداً، أن يضـع نفسه في كفـة مقابلة لـه. . واتصلت بالرئيس السادات ورويت له ذلك، مؤيداً، واقترحت عليه أن يـرسل خطاباً إلى رئيس مجلس الشعب، يعلن فيه تنازله عن حقه في محاسبة النـائب. . واقتنع السادات وطلب مني أن أكتب هذه الرسالة، ثم أقرأها له في التليفون. . وطلب أن تكون قصيرة جداً وفي بضعة أسطر.

وكتبت الرسالة فعلاً، واتصلت بسيد مرعي الـذي رحب جداً بـالفكرة، ووعدني بأن يتحدث إلى السادات مؤيداً. ثم اتصلت بالسـادات، وقرأت عليـه ما كتب، ولكني فوجئت بأنه عدل عن رأيه، وأصر على ضرورة فصل النائب.

وعلمت أن ممدوح سالم اتصل بالسـادات، مؤيداً الفصـل، معترضـاً على الرسالة.

وحضرت الجلسة التي فصل فيها كمال الدين حسين، بعد أن أرسل برقية إلى السادات عن تزوير الانتخابات، اتفق الجميع على أن فيها مسـاساً بشخص رئيس الدولة. وقد جرت محاولات عديدة مع كمال الدين حسين، أن يتلو بيانـاً يعتـذر فيه عن أسلوب الـرسالـة. . ولكنه رفض، وحضر الجلسـة وتلا بيـاناً لم يتراجع فيه عن موقفه. . وكان أن قرر المجلس فصله.

إن متـابعة جلسـات البرلـان متعة للمشـاهـد. . وهي من أروع مـظاهـر الديمقراطية. . وكثير من برلمانات العالم، يحدث بها اشتبـاك بالأيـدي. . وحدث في البرلمان الإسباني، أن أطلق الرصاص على الأعضـاء من مجموعـة من الضباط هـاجمته. . ولم تخـل جلسـات الـبرلـان المصري، من المشادات العنيفـة والانسحابات. . ولكنني لا أذكر أن الأمر وصل إلى حد الاشتباك بالأيدي. .

والصحفي البرلماني اليقظ يستـطيع أن يقـدم إلى المسرح السياسي وجـوهاً جديدة لامعة يرشحها للمناصب القيادية. والنجاح البرلماني كان إحدى دعامات الاختيار للمناصب الوزارية في الحياة الحزبية، وقد استمر هذا التقليد على نطاق

ضيق بعد الثورة.. ولكنه سيفرض نفسه كلما توغلنا في طريق الممارسة الديمقراطية..

* * *

ولا يزال تسجيل اللقطات الصحفية من الجلسات العامة مادة مقروءة يقبل عليها الناس.. لأنها تشعر القارىء أنه يعيش جو الجلسة.. وكنت قد بدأت تسجيل هذه اللقطات في «أخبار اليوم» منذ فبراير عام ١٩٥٠ بعد انتخاب مجلس النواب بغالبية وفدية. واستمررت في ذلك إلى عهد قريب.. وفي فترة معينة اشتاق مصطفى أمين إلى هذا النوع من العمل الصحفي.. فبدأ يكتب «تحت القبة».. وكانت تمتاز بالتركيز والروح.. الساخرة.. ومن الجلسات التي لا تنسى وسجلها قلم مصطفى أمين تلك الجلسة التي كان يناقش فيها استجواب عن الفساد في مديرية التحرير وكان يرأس مجلس الأمة عبد اللطيف البغدادي.. ولا أنسى وصفاً لعضو المجلس «شفيق أبو عوف» الذي عيّن في مديرية التحرير في منصب وهمي خاص بالإشراف على الموسيقى!.. وصفه الكاتب عندما جاء ذكره في الاستجواب بأنه «بيتهوفن مديرية التحرير»!! وأذكر أن جمال عبد الناصر استلمح هذا الوصف وضحك منه كثيراً.. ولكنه أوقف المناقشة بعد ذلك ضد «مجدي حسنين»..

* * *

وأنشر الآن وصفاً لإحدى الجلسات الأولى لمجلس النواب الوفدي في عام ١٩٥٠ حتى أتيح فرصة للقارىء أن يقارن بين الأجواء البرلمانية الآن.. ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً قبل الثورة.

كان العنوان: «تعال معي إلى مجلس النواب»..

المشهد الأول:

عبد السلام فهمي جمعة باشا رئيس مجلس النواب يثور ثورة صاخبة ويعلو صوته مطالباً نواب الغالبية بالسكوت وعدم المقاطعة. ولا تجدي ثورته شيئاً فيمسك الناقوس بيد مرتعشة ولكنه لا يجيد إمساكه ويهزه في يده أكثر من مرة ولا يدق فيقف غاضباً مشوحاً بيديه (لا.. لا.. ده مش كلام).. ويهدأ

قليلاً ويضع يديه في جيبي بنطلونه وتحمر أوداجه وينتفخ صدره ثم يخرج يده اليمنى من جيبه ويرفعها مشيراً بسبابته ثم يقول في لهجة خطابية ناجحة «إذن.. فإني سأترك مقعد الرياسة.. لن أسمح لكم بالمقاطعة.. لقد جئت هنا لأحمي الأقلية»..

ولكن الغالبية تعود إلى المقاطعة من جديد..

المشهد الثاني:

النائب المحترم محمد هاشم باشا يتقدم إلى منبر المجلس تماماً كما يدخل يوسف وهبي بك إلى خشبة المسرح في كبرياء مصطنعة ثم يطاطىء الرأس قليلاً تحية لتصفيق الجماهير! ويتكلم هاشم باشا بصوت مجلجل وتغلبه أحلام الماضي فيقول «بصفتي وزيراً..» ويتنبه إلى هفوته فيعيد الجملة بصوت أعلى: «بصفتي كنت وزيراً»..

فيصيح أحد نواب اليسار قائلاً «كان زمان».. ثم تضحك المعارضة. وهنا تعود لرئيس المجلس ثورته، ويضرب مكتبه بيديه ويستدير نحو مقاعد اليسار ويقول «لا.. لا.. أنا أحب المعارضة، وأشجع المعارضة، ولكنني لا أسمح لأحدكم أن يقاطع»..

ويستمر الرئيس في نوبة غضبه قائلاً: «سأطبق اللائحة التي تعطيني سلطة إخراج أي نائب من القاعة ولن أهتم بمن سيقولون أنني خنقت المعارضة.. فالكل شاهد، والصحافة شاهدة على أني أرحب الناس صدراً بالمعارضة»..

فتصفق الغالبية.. ويقف نائب معارض لشكر الرئيس..

المشهد الثالث:

رجل بدين على عينيه نظارة ضخمة سوداء وتحت أنفه شارب أسود وفوق رأسه طربوش فاتح اللون.. يرفع الرجل يده من مقعده في صفوف المؤيدين، طالباً الكلمة أكثر من مرة ولا يلتفت اليه الرئيس أو لعله تجاهله.. فيقف الرجل ويتكلم في لهجة مستهجنة وصوت غليظ: «ايه ده.. أنا عاوز أتكلم» ويكشر الرئيس عن أنيابه ويقول: «إقعد يا دكتور مندور.. إقعد بلاش هرجلة»..

ـ هرجلة.. والله عال.. يعني ما نتكلمش؟..

ـ أيوه نتكلم.. لكن بنظام.. تطلب الكلمة وأنا أصرح لك ثم تقف لتتكلم في دورك.. مفهوم؟

ـ لا مش مفهوم.. أنا طلبت الكلمة أكثر من مرة ولم تصرح لي وبالتالي لم أتكلم..

ـ إقعد يا أستاذ.. وإلا طبقت اللائحة..

فيغضب النائب من كلمات الرئيس ويقول هائجاً: «امال احنا جايين هنا نعمل ايه.. لازم نتكلم»..

ويتدخل كثير من النواب، ويتدخل فؤاد سراج الدين باشا ويطلب الجميع من النائب أن يهدأ ولكنه يصمم على الكلام ويقول للرئيس: «يجب أن نحتكم الى المجلس».. وينظر الى من حوله من النواب، فيجد منهم رغبة في أن يسكت.. فيسكت ويجلس ولا يحتكم الى المجلس!

المشهد الرابع:

السيد باشا البدراوي.. جالس في تحفز في آخر مقعد من القاعة وكله آذان صاغية لفؤاد سراج الدين باشا وهو يدافع عن حيدة وزارة سري باشا في إجراء الانتخابات التي أتت بالوفد الى الحكم واذا بالبدراوي باشا ينتفض فجأة ويصيح «سامع ياسي حشيش.. اسمع الكلام ده كويس.. وإلا يعني نسيت حكاية الصوان»!

وتتعالى أصوات النواب «ايه حكاية الصوان؟»..

ويحتج سي حشيش (وهو الأستاذ عبد المنعم حشيش النائب السعدي) على إقحام المسائل الشخصية تحت قبة البرلمان..

فيأمر رئيس المجلس، البدراوي باشا، بعدم المقاطعة فيصمت منتهزاً فرصة قريبة، وحانت الفرصة، عندما طلب الأستاذ حشيش الكلمة وبدأ يتكلم فضجت القاعة بصوت البدراوي باشا: «كذاب.. كل كلامك تهويش.. وحشيش»..

ويرد الأستاذ حشيش «طيب اتلهى»!!

المشهد الخامس:

الـدكتور طـه حسين بـك يدخـل الى القاعـة مستنداً الى ذراع سكـرتـيره الخاص ويمشي بخطوات بطيئة مضطربة محركاً يـده اليمنى قليلاً في الهـواء.. ثم ينـزل درجات السلم المؤدي الى صف الـوزراء.. ثم يلتمس من الصف مكانـاً يجلس فيه ووجهه مبتسم، وجسده منكمش، وكأنه يخشى لفحة هـواء باردة. ثم تتقارب يداه حتى تتشابك أصابعه. ويرفع يديه المتشابكتين في هـدوء الى صدره ثم يسندهما على ركبتيه المتلاصقتين ويميل برأسـه قليلاً الى يمـين ويسار. وعنـدما يحس صوت أحد الـوزراء يهمس في أذنه محييـاً تنفرج شفتـاه عن ابتسامـة شكر وامتنان ثم يعتدل برأسه وكله آذان صاغية لكل صوت يعلو بين النواب.

ويستمع الدكتور طه الى فؤاد سراج الدين باشـا وهو يـرد باسم الحكـومة على ملاحظات النواب على خطاب العرش ولا يستطيـع أن يخفي ابتسامـة رقيقة ساخرة عندما يلحظ أن وزير الداخلية يخطىء كثـيراً في قواعـد النحو. ويستمـر «سراج» الوفد في كلمته ويعرج على الكلام عن مجانية التعليم فيتململ الدكتـور طه قليلاً في مقعده ويميل برأسه الى من بجـواره ويسر اليه في استحيـاء أنه يـريد أن يتحدث الى النواب عن هذا الموضوع فيتقدم رسول الى المنبر لينبه فؤاد باشـا الى ذلك فيعتذر ويقول للنواب.. «أن أستاذنا الدكتور طه حسين سيتنـاول هذا الموضوع»..

فيستقر الأستاذ في مقعـده، وتبدو عـلى وجهه مـلامح الجـد والتفكير فيـما سيقوله للنـواب.. ثم يتلمس منضدة مقعـده بيده ويقف في هـدوء ووقار وسط عاصفة طاغية من التصفيق المدوي.. ويتقدم اليه سكرتـيره ليقوده الى درجـات المنبر فيستقر عليه واقفاً وقد شمل القاعة سكون رهيب..

وفي هذا السكون يتلمس الدكتور طه بأصابع يده موضع منضدة المنبر منه حتى تستقر يداه على وضع مريح ويبدأ خطابه بكلمات واضحة ومنتقـاة وبصوت متهـدج مؤثر وأسلوب سـاطع البيـان.. ويتلو كلماتـه وهـو يضغط عـلى مخـارج الألفاظ ضغطاً راسخاً.

حتى إذا قال: «ان رجال الحكومات السابقة قد عجزوا عن انتزاع اللقمة

من أفـواه الناس». ضـج النواب الـوفديـون بالتصفيق وصيحـات الإعجـاب، ويستجيب هو الى عواطفهم فيتابع هجوماً عنيفاً لاذعاً..

وهكذا حتى يختم خطابه فتمتد يد الأستاذ شافعي اللبان الى كتفه وتمتد يد أخرى الى احدى يديه.. وينزل الوزيـر درجات السلم بـين اليدين حتى يصـل الى مقعـده فتمتد اليـه يد معـالي الأستاذ ابـراهيم فرج حتى يستقـر في مجلسه.. وتصفيق النواب له لا يزال مستمراً.

الفصل الثاني والأربعون

الصحافة.. والنقابة.. والسلطة

حسين سري باشا يهدد بحل نقابة الصحفيين إذا انتخب طه حسين ـ دور للنقابة قبل الثورة، ضد التشريعات المقيدة للحرية ـ لا دور للنقابة في حماية الصحفيين من الفصل التعسفي ـ انتخابات النقيب ضد علي حمدي الجمال ـ أزمات مع النقابة حلها تدخل المهندس سيد مرعي ـ المعارك الانتخابية في عهد حسني مبارك ـ السادات يقرر حل النقابة ـ لماذا انشىء مجلس الشورى؟ ـ الغاء ٢٠ مادة من لائحة قانون الصحافة ـ اجتماع السادات مع القيادات الصحفية في استراحة المعمورة ـ حافظ محمود ينتقد الموقف ـ لا أزمات في عهد مبارك ـ علاقة مبارك بالصحفيين مختلفة عن علاقة السادات بهم ـ مبارك يتدخل في خلاف مع مصطفى أمين والحمامصي ـ اعادة النظر في الأوضاع الصحفية..

الفصل الثاني والأربعون

الصحافة.. والنقابة.. والسلطة!

كنت سعيداً بأن أصبح عضواً في نقابة الصحفيين في أوائل الأربعينيات عند بدء حياتي الصحفية. كانت هي المكان الذي أرى فيه نجوم الصحافة وأجالسهم.. وعندما رشح ادجار جلاد باشا صاحب جريدة الزمان نفسه للنقابة في عام ١٩٤٨، وكنت لا أزال أعمل سكرتيراً لتحرير «الزمان» التي يملكها.. قلت له بكل وضوح أنني سأعطي صوتي للدكتور طه حسين!.. وهذا يدل على حرصي على صوتي الانتخابي في نقابة الصحفيين.

وأذكر أن حسين سري باشا رئيس الوزراء، هدد في ذلك الوقت بحل نقابة الصحفيين، إذا أتى الدكتور طه حسين نقيباً.. وكانت هذه رغبة الملك فاروق الذي كان يرى أن طه حسين شيوعي!

ولا أذكر أنه كان للنقابة دور سياسي ملحوظ، إلا في عام ١٩٥٠ عندما أراد فؤاد سراج الدين أقوى وزير في حكومة الوفد، والمسيطر على الحزب، أن يستصدر من مجلس النواب تشريعات تقيد حرية الصحافة، في نشر أخبار الأسرة المالكة. لقد تضامنت النقابة مع الأصوات القوية المعارضة للتشريع.. وعقد اجتماع كبير للصحفيين، خطب فيه كامل الشناوي ضد هذه التشريعات.. وكان أن سحبتها حكومة الوفد..

وعندما اعتقل جلال الحمامصي في عام ١٩٤٣، انتخب وهو معتقل، عضواً في مجلس النقابة، وكانت هذه لفتة وفاء، وصوت معارضة للاعتقال..

وكانت الانتخابات لمجلس النقابة تسفر عن نجاح عضو هو المرحوم صادق سلامة.. وكان صاحب مطبعة في المنيا، ثم أصدر صحيفة أقليمية

اسمها «الإنذار». . وأثرى من هذه الصحيفة، وكان يحضر الى القاهرة ويقيم الولائم، ثم يوجه دعوة كل عام الى أكثر من خمسين صحفياً، ليقيموا أياماً في ضيافته في المنيا!

وبوفاته إختفى صوت الصحافة الإقليمية في مجلس النقابة. .

* * *

وجاءت الثورة. . وتقرر تطهير النقابة من الأعضاء الذين قبضوا مصروفات سرية قبل الثورة، واعيد القيد في الجدول. . وانتخب صلاح سالم نقيباً للصحفيين. . وصدر قانون جديد للنقابة. . وبدأت المتاعب، عندما كان أحمد بهاء الدين نقيباً في عام الهزيمة (١٩٦٧) وأصدر مجلس النقابة بياناً يطالب فيه بالحريات. .

ولكن صوت النقابة كان ضعيفاً طوال سنوات حكم عبد الناصر. . ولم تستطع النقابة أن تعيد صحفياً واحداً. فصل فصلاً تعسفياً من جريدته. . وقد تميزت صحيفة «الجمهورية» وهي صحيفة الثورة، بأنها كانت تفصل كل عام دفعات من المحررين باعداداً كبيرة. . وكانت الجمعية العامة تنعقد، وتحتج على الفصل، وتصدر قرارات لا تحرك ساكناً. . وكأنها لم تصدر.

* * *

وعندما تولى أنور السادات، دخلت انتخابات النقيب. . وأوعز محمد حسنين هيكل الى زميلي وصديقي علي حمدي الجمال أن يدخل المعركة ضدي. . وتكتلت مع علي حمدي الجمال كل القوى المناهضة لثورة ١٥ مايو، التي قضت على مراكز القوى. . الشيوعيون والناصريون وأعضاء التنظيم الطليعي. . وكان أن اعيدت الانتخابات بيني وبين علي حمدي الجمال. . وفاز هو بمنصب النقيب. .

وبدأت بعد ذلك المتاعب بين أنور السادات ونقابة الصحفيين. . فكان مجلس النقابة الذي سيطرت عليه غالبية معارضة لحكم السادات، يناصر مظاهرات الجامعة، ويطالب باعتبار صحافة الحائط في الجامعة، صحافة يحميها قانون النقابة. . وثارت أزمات. وكان مكرم محمد أحمد عضو المجلس، هو

القوة المحركة لكثير من هذه التحركـات النقابيـة المضادة. . وأمكن تسـوية كـل هذه المواقف بوساطة المهندس سيد مرعي، بوصفه أميناً للاتحاد الاشتراكي.

ثم تحـولت الانتخابـات، طوال عهـد السادات، وحتى يـومنـا هـذا، الى صراع سيـاسي بـين الصحفيـين المعـارضـين. . والصحفيـين المؤيـدين لنـظام الحكم. . والتهبت معارك الانتخابات، سواء داخل مبنى النقابـة، أو داخل دور الصحف. .

وكنت، ولا أزال، اشارك في كل المعارك الانتخابية. .

عارضت انتخاب صديقي يوسف ادريس. . وسقط. .

وعارضت انتخاب غيره من المرشحين المعارضين، أمثال جـلال الحمامصي وكامل زهيري، ومحمود المراغي، وغيرهما وسقطوا. .

وفي انتخابات صلاح جلال، ثم ابراهيم نافـع ثم مكرم محمـد أحمد، في عهد حسني مبارك، استطاعت الغالبيـة المؤيدة أن تتكتـل، وأن تتجمع بـأعداد ضخمة لم تعرفها انتخابات النقابـة من قبل. . ونجـح صلاح جـلال دورتين. . وكذلك ابراهيم نافع. . وأخيراً مكرم محمد أحمد. .

وقد بدأت في دار أخبار اليوم تقليـداً جديـداً في الانتخابـات، وهو دعـوة المرشحين الى اجتماعات داخل المؤسسة. . يتحدث فيها المـرشحون، ويـنـاقشهم المحررون. . وسرى هذا التقليد بعد ذلك في كل المؤسسات الصحفية. .

وحـاولت العناصر المعـارضـة التي تنجـح في انتخـابـات عضـويـة مجلس النقابة، أن تتحول بالنقابة الى قيادة سياسية معارضة. . ووضح ذلـك بعد وفـاة السادات، عندما حاولت هـذه العناصر، تـأليب عناصر داخـل أخبار اليـوم. . ضدي عندما كنت رئيساً لمجلس الادارة، ولكن هذه المحاولات انتهت كلها الى الفشل. .

وكان أنور السادات ضائقاً كل الضيق، بمواقف النقابة. . وكان يفكـر في أسلوب جـديد لتنـظيم مهنة الصحـافة، ومسـاءلة الصحف. . وكـان يقول أن الـوزير مسئـول أمام الـبرلمان. . وكـذلك رئيس الجمهـورية. . كـما أن القاضي

مسئول أمام المجلس الأعلى للقضاء. . ولكن الصحفي اذا أخطأ، ليس مسئولاً أمام أحد. . وقد مرت الأعوام الطويلة، على إنشاء مجلس نقابة الصحفيين، ولم يحدث أن حوسب صحفي تأديبيا على أي خطأ ارتكبه يمس بشرف المهنة. .

ولذلك قرر حل نقابة الصحفيين. . وتحويلها الى ناد، مثل نادي القضاة. . على أن ينشأ مجلس أعلى للصحافة، تكون مهمته محاسبة الصحفي اذا أخطأ. . وأصدر قانوناً جديد للصحافة يحدد حقوق الصحفيين وواجباتهم. . على أن تؤول ملكية الصحف، الى مجلس الشورى الذي استحدث في تعديل الدستور. .

وتصادف أن كنت على موعد مع الرئيس السادات، بعد مقابلة له مع الدكتور صبحي عبد الحكيم. وقال لي السادات: «لقد عرضت عليه رياسة مجلس الشورى. . وقلت له. . سيبك من أي اختصاص لمجلس الشورى. . أنا المهم عندي الصحافة. . أنا عاوز مقاومة حقيقية للانحرافات في الصحافة».

وكان إنشاء مجلس الشورى، في ذهن السادات، هو الإجابة على سؤال حائر استمر حائراً، منذ تأميم الصحافة في عام ١٩٦١، وتحويلها الى ملكية الشعب. . دون وضع تنظيم لهذه الملكية، باستثناء تكوين مجالس الادارة. .

وكان مجلس الشورى بعد تكوينه هو الذي يضع اللائحة التنفيذية لقانون الصحافة. . واشترك في وضع هذه اللائحة، بالنصيب الأكبر، الدكتور أحمد سلامة، وضمنها مواد ليست موجودة في القانون، وفيها قيود شاذة على الصحافة. . في نطاق التصور أن السادات يريد أن يحاصر الصحافة. وبدأنا مناقشة اللائحة في مجلس الصحافة. . واتخذت موقفاً معارضاً عنيفاً لهذه المواد. . ولكن لم أرى مفراً، من كتابة مذكرة قدمتها الى الرئيس السادات بحذف أكثر من ٢٠ مادة من اللائحة، تسيء الى الصحافة. . وتحدثت الى السادات. . واقتنع. وكان أن حذفت هذه المواد. .

ولكن. . لماذا لم يستمر السادات، في تنفيذ فكرته، وهي إلغاء نقابة الصحفيين؟. .

مهد السادات لهذه الفكرة، بتصريح أدلى به الدكتور صوفي أبو طالب

رئيس مجلس الشعب، عن تحويل النقابة الى ناد مثل نادي القضاة. .

وأحدث هذا التصريح، ضجة في أوساط الصحافة. . ووضحت معارضة كل الصحفيين لهذه الفكرة. . فأراد السادات أن يواجه الصحفيين برأيه. . وكانت المواجهة هي جزء من طبيعته عندما يقتنع بفكرة. .

ودعا السادات الى اجتماع كبير، في استراحة المعمورة. . في الثامن من أغسطس عام ١٩٧٩. . وقال ان هذا الاجتماع للمناقشة الحرة، حول بناء الصحافة، وقال انه سيستمع الى مختلف الآراء ثم يرد.

وتكلم صلاح جلال. . وبعد أن امتدح السادات طويلاً، بوصفه كبير العائلة. . اعترض على إلغاء النقابة.

وكذلك تحدث علي حمدي الجمال. .

وانبرى لهما السادات في حديث طويل، عن صحافة ما قبل الثورة، وما بعدها. . وأنه في عهد حرية ما بعد ١٥ مايو، يريد للصحافة أن تكون لها مكانتها سلطة رابعة. . مثل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية. . ولذلك فلا موضع أن تكون لها نقابة. . وفرق كبير بين أن تكون الصحافة سلطة من سلطات النظام. . وبين أن تكون مهنة لها نقابة. . وأفاض في هذه المعنى طويلاً. . وقال إن الصحفيين المصريين في مجموعهم وطنيون وشرفاء. . ولكن هناك من ارتكب الجرائم قبل الثورة. . مثل من وصف الملك فاروق بأنه أسطورة. . ومن أخطأوا بعد الثورة، ممن كتبوا في الصحف العربية أن مصر قذرة.

واحتد الموقف. .

وتقدم حافظ محمود، إلى الميكروفون. . وحيا السادات بأنه هو الذي سجل في دفتر زيارات نقابة الصحفيين بعد الثورة، أن الصحافة المصرية أدت دورها الذي مهد لقيام الثورة. . وقال حافظ محمود إن من حق الصحفيين أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم، واقترح تأليف لجنة من الصحفيين، لكي تضع قانوناً ينظم الصحافة. .

وكان هذا الإقتراح، هو السبيل لتهدئة الموقف. . بعد أن التهب الحوار

بين السادات والصحفيين الذين تكلموا ورفضوا فكرة النادي. . ووافق السادات على اقتراح حافظ محمود.

وتألفت اللجنة ولم أكن عضواً بها. . ووضعت مشروع قانون الصحافة الجديد. .

ثم وضعت اللائحة التنفيذية التي ناقشها المجلس الأعلى للصحافة. . وفقد القانون الهدف الأول من إصداره، وهو أن يكون المجلس الأعلى للصحافة سلطة محاسبة للصحفيين. وبقيت هذه السلطة لنقابة الصحفيين. .

ثم كان نص القانون الذي يحيل الصحفي إلى المعاش في سن الستين، مع جواز مد خدمته سنوياً حتى الخامسة والستين بموافقة المجلس الأعلى للصحافة.

وكان المقصود من هذا النص إخراج مصطفى أمين وجلال الدين الحمامصي. .

ولم يتحقق ذلك. . لأن من حق المؤسسة التعاقد مع من تشاء في أي سن ولو جاوز الخامسة والستين. .

وصارحت السادات بكل هذه الحقائق. .

وقد كانت الإنتخابات لمنصب النقيب. . سبباً في إساءة العلاقات بيني وبين جلال الدين الحمامصي الذي أكن له كل الإحترام. . لقد صارحته بأن موقفي ضد انتخابه لأسباب سياسية. . ولم يتقبل هذا الموقف. وتباعدنا. . وتصالحنا. . إلى أن توفي فجأة رحمة الله عليه. .

ولم أدع ضد انتخابه. . لأن صداقة العمل الطويلة بيننا، كانت تمنعني من ذلك. . ولكنني كنت أدعو لمنافسه.

ولعن الله السياسة. .

ولم تقع بين مجلس نقابة الصحفيين، وحكم حسني مبارك أية أزمات عنيفة. . وخاصة بعد إطلاق حرية الصحافة.

لقد برد الإلتهاب السياسي . . وثارت خلافات محدودة مع زكي بدر وزير الداخلية . . ولكنها لم تتسع .

واستطاع إبراهيم نافع ، ومن بعده مكرم محمد أحمد ، أن يجمع بين العلاقات الطيبة بالحكومة ، وبين تسجيل المواقف النقابية ، دفاعاً عن حرية الصحفي ، وحرية الصحافة . .

وسار هذا التوازن ناجحاً حتى الآن . .

وقد اختلفت علاقة حسني مبارك بالصحافة . . عن علاقة السادات بها .

كان هناك صحفيون مقربون إلى السادات ، يتحدث إليهم طويلاً ، ويمضي معم أوقاتاً في منزله . . فعل هذا مع هيكل ، ومعي ، ومع أحمد بهاء الدين . . ثم أنيس منصور الذي كان يزوره كل أسبوع وخاصة بعد إصدار «أكتوبر» . . ثم إبراهيم سعدة بعد أن اختاره لرياسة تحرير صحيفة مايو . .

أما حسني مبارك ، فإن علاقته عادية وطبيعية مع جميع روءساء تحرير الصحف . . وهو دائماً حريص على وضع مسافة تحدد هذه العلاقة ، التي لا تجاوز اجتماعات العمل ، أو الاتصالات التليفونية الخاصة بالعمل . ولم يحدث أن دعا صحفياً إلى منزله ، للشاي أو الغداء أو العشاء . . ولم يقرب إليه أحداً لكي يمضي معه وقتاً طويلاً خارج نطاق الرسميات . . انه يستقبل الصحفي في مكتبه بالرياسة . . أو في منزله في اجتماعات قليلة ، في ظل الجو الرسمي . . وقد عرف بمضي الوقت الكثير عن الصحفيين الذين يتعامل معهم . . ثروتهم . . اتصالاتهم . . اتجاهاتهم الحقيقية . . وهو يعامل الجميع ، بذوق وكياسة واحترام . وهو دائماً يردد أن القيادة الصحفية المصرية ، هي رائدة الإعلام العربي . .

وحسني مبارك حريص على تشجيع القيادات الشابة من الأجيال الجديدة . . ولذلك عين سمير رجب رئيساً لمؤسسة دار التحرير ، ومحفوظ الأنصاري رئيساً لتحرير الجمهورية ، ومفيد فوزي رئيساً لتحرير صباح الخير ، ومحمود التهامي لرياسة روز اليوسف . .

ونادراً ما يطلب حسني مبارك ، من صحفي أن يعبر عن فكرة معينة . . وهو إذا اعترض على رأي أو خبر . . فإنه يعاتب الصحفي ، ويشرح له الحقائق

الخافية عليه. . وأكثر ما يضيق به حسني مبارك، هو التعرض للحياة الشخصية للأفراد، وتجريح أي شخص، واتهامه بالباطل. . وكثيراً ما عبر عن ذلك في خطبه في مناسبات عديدة.

كما أنه يضيق بما ينشر تجريحاً لجمال عبد الناصر أو أنور السادات. . وهو يكرر أن كل زعماء مصر وطنيون، وأدوا أدوارهم بإخلاص. . ولهم أخطاؤهم لأنهم بشر. .

وقد ثار خلاف عميق بيني وبين مصطفى أمين بعد موت السادات، عندما بدأ مصطفى أمين يهاجم حكم السادات، هجوماً قاسياً. وكنت في قمة الألم، لأن أنور السادات هو الذي أمر بالإفراج عن مصطفى أمين، وعودته إلى الصحافة. . وكان المفروض أن يمضي مصطفى أمين وراء أسوار السجن ١٥ عاماً. . بعد قرابة ٩ سنوات أمضاها منذ الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة. . وكان جلال الحمامصي قد اتخذ نفس الموقف. .

وعلم الرئيس مبارك بهذا الخلاف. . وفوجئت بدعوتي إلى لقائه في قصر العروبة. . ووجدت أنه استدعى أيضاً مصطفى أمين وجلال الحمامصي وأحمد أبو الفتح . . وجلس معنا ، وقال إننا شيوخ الصحافة ، ولا يجب أن نختلف واعترض على تشويه السادات أو عبدالناصر . قال إن التحليل التاريخي من حق الكاتب . . ولكن ليس الإساءة والتشهير . . وطلب منا أن نتصافى . . وتصافينا . . وعدت إلى أخبار اليوم مع مصطفى أمين في سيارته . . وهدأ الموقف . . ولكن الخلاف عاد ليثور من جديد . .

ولا أزال أرى ضرورة إعادة النظر في الأوضاع الصحفية في مصر. .

لا بد أولاً، من مراجعة لقانون الصحافة، لكي تتحدد ملكية الصحافة القومية، للعاملين بها، وللمواطنين بأسهم قليلة القيمة. . لأن ملكية مجلس الشورى للصحافة، هي في واقع الحال ملكية شكلية. .

ولا بد من تيسير إصدار الصحف. . فقد أصبح ميسراً للأحزاب فقط. . وصدرت صحف عن أحزاب معارضة، لا علاقة لها بالرسالة الصحفية أو الحزبية. . لأن المجلس الأعلى للصحافة، لا يستطيع أن يمتنع عن إصدار

ترخيص لصحيفة حزبية. . وقيود سن المعاش، يجب أن تلغى من الصحافة القومية، وهي غير واردة بالنسبة للصحافة الحزبية. .

ولا بد من الفصل الكامل، بين عمل الصحفي في جريدة قومية، وعمله في جريدة حزبية. . أن هذا الخلط. . لا يوجد في أي صحافة في العالم. والحادث الآن أن الصحف القومية تدفع مرتبات الصحفيين العاملين في الصحف الحزبية!

وقد اقتنعت المواقع المسئولة بتعديل قانون الصحافة، بالنسبة لقيد سن المعاش. . وباتخاذ إجراء يفصل بين العمل في الصحف القومية والحزبية. . ولكن عدل عن اتخاذ إجراء حاسم في اللحظات الأخيرة. .

والضرورة ملحة لإصدار صحف جديدة. . لأن المؤسسات الصحفية، تعاني من أعداد الصحفيين الزائدين على الحاجة. . كما أن خريجي المعاهد الصحفية كل عام، لا يجدون عملاً. .

ولا تزال الصحافة الأقليمية متعثرة، لأن المحافظات هي التي تصدرها. . وبذلك تفقد تماماً طابع الإستقلال، ولا تفيد القارىء إلا في الإعلان عن أعمال المحافظ. . ولا تعبر عن مشكلات الجماهير. .

وكل هذه مسئوليات يجب أن تنهض بها نقابة الصحفيين، سواء في تعديل قانون الصحافة. . أو في إحياء الصحافة الإقليمية، والمعاونة على إصدار صحف جديدة.

الفصل الثالث والأربعون

رسائل.. أحمد حسين

تأثير جيلنا بدعوة أحمد حسين التي بدأت بمشروع القرش وانتهت إلى الإشتراكية - ماذا كان يمثل أحمد حسين؟ - كيف عرفته - قضية حريق القاهرة ومؤامرة الحكم عليه - اصطدام أحمد حسين بالثورة في قضية الديمقراطية - إصابته بالشلل واستمراره في الكتابة ونماذج من رسائل أحمد حسين لي، في مراحل مختلفة، في عهد عبد الناصر، ثم بعد أن تولى السادات، وتأييده للسادات، ثم معارضته لسياسته - إصرار أحمد حسين على التبرع بأجر مقالاته للمجهود الحربي - شرطه الوحيد ألا يحذف سطر واحد مما يكتب - كتاب بقلم أحمد حسين عن السادات.

الفصل الثالث والأربعون

رسائل.. أحمد حسين

لا يوجد في جيلنا، من لم يتأثر بدعوة أحمد حسين، في الثلاثينات، سواء بالنسبة لمشروع القرش الذي دعا إليه وهو طالب في الحقوق، أو في جمعية مصر الفتاة، التي تحولت إلى حزب أصبح إسمه الحزب الإشتراكي..

كانت جماعة أحمد حسين، موجودة، ومؤثرة، في كل أحداث مصر قبل الثورة.. وقد مثل مشروع القرش، أملاً في قلب كل شاب، نحو إنشاء صناعة مصرية.. لقد بنت القروش مصنعاً للطرابيش.. ثم كانت «مصر الفتاة» صدى لجمعية «تركيا الفتاة» التي قادها أتاتورك في تركيا.. ثم كان الحزب الإشتراكي، مواكباً لإشتراكية هتلر في المانيا، واشتراكية موسوليني في إيطاليا.. وأنشأ أحمد حسين كتائب «القمصان الخضر».. مثل «القمصان السوداء» في إيطاليا.. وهم شباب الحزب الذي يلقي تدريباً عسكرياً، في معسكرات.. ويشترك في كل نشاطات الحزب. ودفع هذا حزب الوفد إلى إنشاء «القمصان الزرق».. وكانت تجري بينهما معارك رهيبة في مختلف المناسبات.

أحمد حسين.. كان يمثل الشاب، ابن الطبقة المتوسطة، الذي أراد إحياء تاريخ مصر.. وتطلع إلى حياة جديدة، وكان متحمساً، نشطاً، دارساً. وساعده على دعوته، شجاعة فذة، وقدرة خارقة على الخطابة والتأثير على سامعيه..

وعدد كبير من الضباط الأحرار، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر، كانوا من شباب مصر الفتاة.. والشيخ الباقي الآن من هذا الشباب، هو إبراهيم شكري رئيس حزب العمل.

وقد بدأت التردد على مصر الفتاة، بعد تخرجي في كلية الحقوق عام ١٩٤٣.. وصحبني إلى أحد الإجتماعات صديقي المستشار عبد الحميد يونس، وقد عمل محامياً في مكتب أحمد حسين، كما ربطتني صلات وثيقة بشباب مصر الفتاة، عندما اعتقلت في معتقلي «الزيتون» و«ماقوسه» وكان ألمعهم الأستاذ إبراهيم الزيادي المحامي.. ونشأت بيني وبينهم ألفه..

ثم كان حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، وقبض على أحمد حسين وسليمان زخاري رئيس تحرير صحيفة الحزب، بتهمة التحريض على حرق القاهرة، وقدما إلى محكمة الجنايات.. وتطوعت بالدفاع عن سليمان زخاري. لقد استند الإتهام إلى عدد من المقالات النارية، التي اعتبرت تحريضاً. وكان بعضها بغير توقيع. وأذكر أن ممثل النيابة في القضية، ساومني، على أن أحصل على اعتراف من سليمان زخاري، بأنه ليس كاتب هذه المقالات.. وهذا طريقه إلى البراءة، ولكن سليمان زخاري رحمه الله، رفض هذا العرض..

وجاءت الثورة، وأفرج عن أحمد حسين، بعد أن كان معروفاً، أن المستشار رئيس دائرة الجنايات، كان ينوي إدانته، بالإتفاق مع القصر الملكي..

وبدأت صلة جديدة تنشأ بيني وبين أحمد حسين، التي اشتهرت صحيفة حزبه بصورة تاريخية، لمصريين حفاة عراة، ينامون على الأرصفة بلا غطاء، في برد الشتاء.. وقد كتب تحتها «هؤلاء رعاياك يا مولاي»!..

واصطدم أحمد حسين مع الثورة، في قصية الديمقراطية.. ثم ترك مصر، في جولة طويلة في الدول العربية.. وفي بعض دول أوروبا.. وعلى الرغم من أنه أكرمت وفادته في الدول العربية. فإنه ـ كما قال لي بعد ذلك ـ شعر أن الإقامة في مصر، هي حلمه، مهما كانت الظروف..

وتعمقت علاقتي مع أحمد حسين في أوائل الستينات.. وكنت أزوره أسبوعياً في منزله، بمنيل الروضة.. وكنت مع زوجتي في كثير من الأحيان، وعادل حسين (أخيه) في بعض الأحيان.. وكان أحمد حسين قد عكف على الكتابة.. وانتج روايات طويلة، عن قصة كفاحه، وألف كتاباً علمياً عن الطاقة الانسانية، كما كتب موسوعة تاريخ مصر..

وكنت أستمتع بالاستماع إلى أحمد حسين. . كان حجة في التاريخ، والأدب، والفلسفة، والدين. . وكان مؤمناً بالديمقراطية إلى آخر المدى. . وكان يرى، في بداية عهد السادات، أن يطبق السادات الديمقراطية الكاملة، ولا انتقام من الخصوم. . وكان من أسعد الناس عندما انتصر السادات في ١٥ مايو في معركة صراع مراكز القوى. . وكان مقتنعاً بأن خير من يرأس الوزارة في حكم السادات، هو الدكتور حلمي مراد صهر أحمد حسين. . وهذا ما فشلت في اقناع السادات به. . بل أنني فشلت في اقناعه، بأن يتولى حلمي مراد أي منصب وزاري. .

وقد أصيب أحمد حسين بجلطة في سنواته الأخيرة، ورفض علاج الأطباء، مؤمناً بعلاج الطاقة الروحية. . ولكنه أصيب بالشلل، وكان يمضي كل وقته، جالساً على مقعد كبير. . وكان عاجزاً عن النطق السليم. . ولكنه كان في يقظة كاملة. . وكان يستطيع استخدام يده اليمنى في الكتابة. . وعكف في هذه المرحلة القاسية ـ حتى مات ـ على إكمال مذكراته اليومية. . التي كان يقرأ لي بعضاً من سطورها بين الحين والحين.

وعندما كان يتعذر اللقاء بيني وبينه، كان يكتب لي الرسائل. . ويرسلها مع ابنه (النائب الآن) أو (كريمته). . وقد طلبت إليه الكتابة في صحيفة «الأخبار». . وكتب عدداً من المقالات، ورفض أن يتقاضى عليها أجراً (مائة جنيه عن المقال). . ولما أصررنا، قرر أن يتبرع بها للمجهود الحربي. .

وقد احتفظت برسائل أحمد حسين لي. .

انها تعطي صورة لمراحل تفكيره منذ عام ١٩٦٤. . حتى توفاه الله.

وكانت أول رسالة تلقيتها منه، عندما فوجيء، بأنني قدمت كتاباً له على شاشة التليفزيون!.

وقد رأيت أن أنشر رسائل أحمد حسين، لأنها تكون بعضاً من تاريخي الصحفي. . ومن تاريخ مصر. .

ويجب أن أسجل، أن أحمد حسين فيما نشره من مقالات في «الأخبار». . كان يرفض أي نوع من الرقابة عليها، ولو رقابة رئيس التحرير. . وكان يقول

لي ـ كما كتب في احدى رسائله ـ أنه يعفيني من نشر المقال، ولكنه لا يقبل، ابدال كلمة بكلمة . .

وهذه هي أول رسائله في عام ١٩٦٤

وأحمد حسين في هذه الرسالة يشكرني، على تناول كتاب له في حديث تليفزيوني . . وقد أثر في نفسه كما عبر: «أن تختار أنت المسيحي كتاباً يتحدث عن الاسلام، من شأنه أن يسبب لك مضايقات في بعض الأوساط المتعصبة . . ومع ذلك فقد أقدمت على ذلك، وهكذا ارتفعت إلى ذروة الشجاعة الأدبية» . .

وقد دعاني في هذه الرسالة إلى زيارته مع زوجتي، لكي يستقبلني هو وزوجته وأولاده «لتحسا وتشعرا أن لكما أصدقاء يحبونكما» . .

* * *

أخي العزيز الأستاذ موسى صبري :

تحية لك من أعماق القلب وبعد . . فلست أعرف كيف أستطيع أن أرد دينك علي لأن الذي لا شك فيه أنك أصبحت تداينني بدين كبير.

لطالما قلت لك أن بنفسي إحساس عميق بصفاء روحك وشفافيتها، كما كنت ألمحها من بعض كتابتك، وفي آخر محادثة أبديت دهشتي لك عن أوصاف وصفك بها أحد الصحفيين لم أتبينها حتى ولو على سبيل الظن أو التخيل . .

فقد كانت تجربتي معك تشهد باستقامة عجيبة (رغم ما قد يطفو على السطح مما لا أعرفه أنا شخصياً) . .

وقد جاء موقفك الأخير مني يشهد لي بأن وجداني لم يخطيء أبداً . . بل لعلي لم أستطع أن أصل إلى مدى ما أنت عليه من نبل واخلاص . .

انك لا تتصور وأنت تختار كتابي وتقدمه بهذا الأسلوب في التليفزيون أي انتصار أحرزته في عالم القيم النفسية والروحية . .

لنبدأ أولاً من أنك أنت شخصياً كاتب . . وأنك تصدر كتباً وآخرها كتاب ناجح ولامع . وهذا أوجب يجعلك تفكر مرتين قبل أن تذيع كتاباً لإنسان آخر لا يستطيع أن يرد على صنيعك بالمثل، ولا يستطيع أن يرد تحيتك

ولا أن يبذل لك ولكتبك بعض ما تبذله لكتبه.. وهكذا انتصرت في هذه المعركة وسموت على الأنانية وعلى الغيرة الطبيعية بين الوصفاء والزملاء.

ثانياً: كان من الممكن أن تختار أي كتاب لأي انسان غيري تفيد من وراء عرض كتابه فائدة من أي نوع كان.. ولكنك اخترت هذا الكتاب بالذات.. وهكذا أصبحت خطواتك مجردة من كل مصلحة وهكذا اتسمت بالنزاهة.

ثالثاً: أن تختار أنت المسيحي كتاباً يتحدث عن الاسلام، من شأنه أن يسبب لك مضايقات في بعض الأوساط المتعصبة.. ومع ذلك فقد أقدمت على ذلك وهكذا ارتفعت إلى ذروة الشجاعة الأدبية.

وبعد قد لا تكون كل هذه المعاني دارت في نفسك.. وقد تكون قد أقدمت على هذا العمل في بساطة تدفعك في غير وعي نفسك النبيلة الكريمة.. ولست أريد أن أروعك أو أصفك بإظهار الجوانب غير الطيبة فيما أقدمت عليه.. ولكني أردت أن أشعرك لماذا أعتبر نفسي مديناً لك إلى الأبد.. وأني رجل فقير مجرد من كل نفوذ أو سلطان.. وكوني مديناً لك لا يؤلف كثيراً في دنيا الماديات.. ولكني متأكد بعد أن عرفت سمو روحك ونبل مقاصدك أنك ستقدر من الناحية الروحية البحتة معنى كوني مديناً لك بالروح والشكر والعرفان.

يسعدني أن تقدم احترامي لزوجتك التي لا يمكن إلا أن تكون من معدنك وما أسعدني أن تحددوا أي وقت لنستقبلكما فيه أنا وزوجتي وأولادي لتحسا وتشعرا أن لكما أصدقاء يحبونكما. ودمت لأخيك..

١٩٦٤/٥/١٠ أحمد حسين

* * *

والرسالة الثانية في ٣٠ ديسمبر ١٩٦٥. وقد تفضل بكتابتها لي، بعد أن علقت على كتابه «تاريخ الانسانية» في يوميات الأخبار..

وهذا نص الرسالة:

أخي الحبيب الاستاذ موسى صبري:

لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى تأثري بما كتبته تعليقاً على كتاب «تاريخ

الانسانية» وقد ضاعف في تأثري ربطك بين موضوع الكتاب ودعوته للتآخي البشري ونشر السلام وبين أعياد الميلاد ورأس السنة، فأوحى إلى ذلك أن أتطفل على منبرك، وأطل من كوتك، وأنضم إليك في ندائك من أجل الحب والسلام، وأتحدث بنفس اللغة التي تحدثت بها، وعرضت الكتاب من خلال لغة التسامح، وكراهية العنف والتآمر والقتال والدعوة إلى الحب والتآخي بين بني الانسان.

وإني أرفع أكف الضراعة، إلى روح الوجود وخالقه ومدبره، إلى رب الكل من مسيحيين ومسلمين وبوذيين وملحدين، أن يضع حداً لهذا الجحيم المستعر في فيتنام. أن بدني ليرتعد، وروحي تئن، كلما تمثلت هذا الذي يعانيه ذلك الشعب المنكود التعس من ويلات، بعد أن أصبح يطحن من هذا الجانب ومن ذاك، حيث يرى الأطفال أباءهم وأمهاتهم يذبحون أمامهم، أو يرى الآباء والأمهات أطفالهم وهم يموتون بين أذرعهم، ومساكنهم تغرق، ومحاصيلهم تسمم، وعجلة الموت والتعذيب. . تدور وتدور في غير توقف ليلاً أو نهاراً

وكلما أتصور أن ذلك يجري منذ خمس عشرة سنة، حيث لم تكد معركة تهدأ إلا لتبدأ معركة جديدة، فقد شاءت الكتل الدولية المتصارعة، أن تتخذ من فيتنام وشعبها حقلاً للتجارب، وميداناً للمناورات وسبيلاً للتنفيس عما يملأ القلوب من أحقاد وأطماع وغل وتارات، كلما تمثلت ذلك، وتابعت الأنباء التي تقطع بأن ضراوة الحرب تزداد يوماً بعد يوم وساعة بعد أخرى، أحسست بتمزق في كبدي، وذوبان في قلبي من الحزن والأسى، وامتلأت شعوراً بالألم والخجل.

ومن هنا رأيت يا أخي الحبيب، وقد عبدت لي الطريق أن أدعو من فوق منبرك سائر بني الانسان، على اختلاف الأديان، مسيحيين كنا أو مسلمين أو بوذيين أو موسويين، أن نرفع أيدينا في صلاة انسانية لروح الوجود ومدبره، أياً كان رأينا فيه وتصورنا له، أن يتوقف هذا الجحيم، وأن يفيق الغافلون، ويكف العابثون، ويتبينوا قبل فوات الأوان أي منحدر يسوقون إليه البشرية، حيث لن يكون غالب أو مغلوب، ولا منتصر أو مهزوم، وإنما فناء ودمار وعذاب وآلام.

ويوم أن يستجاب دعانا، وتتوقف هذه الحرب الدائرة في فيتنام. فإن

ذلك سيكون معناه، اعلان افلاس القوة المادية وانتصار روح الانسان، وأن العالم الجديد، بعد خروج الانسان إلى الفضاء واقترابه من النزول على الكواكب، قد أصبح عالم العلم لا القوة البربرية، عالم التسامح لا التعصب، عالم التعاون لا التنابز.

ولعلك يا أخي موسى قد أدركت إلى أي مدى قد استطعت أن تمس شغاف قلبي بندائك، فأخرجتني من قوقعتي وهززت وجداني. . لأدعو بني الإنسان في عيد الحب والوداعة والرحمة إلى أن يصلوا. . يصلوا. .

لإطفاء الجحيم المستعر في فيتنام.
لتبديد الظلام وانبثاق شمس السلام.
لاحلال الوئام محل الخصام.
لاعتبار مشاكل البشرية كلها قضية واحدة.

تحل من خلال التعاون والعدل والقانون والنظام ونزع كل سلاح إلا سلاح الحب والحب الشامل لكل بني الانسان, . .

ودمت لأخيك،

١٩٦٥/١٢/٣٠ أحمد حسين

وهذا خطاب في ٥ ابريل ١٩٦٧، يشكر فيه تناول كتاب «الأمة الانسانية» بالتعليق في «الأخبار» ومرفق به رسالة للنشر.

أخي الحبيب الأستاذ موسى صبري

بعينين مغرورقتين بالدموع، اكتب لك، دموع الشكر لله أن أنعم علي بقلبك الكبير وحبك وصداقتك.

ان ما عملته لي ولكتابي، شيء كبير. . كبير جداً، لا يمكن أن يقوم بثمن، إنه يجعلك تداينني إلى آخر العمر كما ظللت تداينني حتى الآن. إنني أعرف وأقدر ألف سبب كان يمكن أن يجعل مقالك عن الأمة الانسانية على غير هذا الوجه، وتظل بعد ذلك مستحقاً لشكري، ولكنك أبيت إلا أن تغرقني فكان هذا المقال الكريم بكل هذه الاستفاضة، وهذا الاخراج، وهذا العرض

الذي ينقل رسالتي للجماهير العريضة حتى ولو لم تطالع الكتاب.

ولست أملك ما أرد به على صنعك، إلا أن أرفع أكف الضراعة إلى الله يحميك ويرعاك ويتم نعمته عليك، نعمة التوفيق والصحة لك ولزوجك وأولادك.

المخلص العارف بالجميل
أحمد حسين

١٩٦٧/٤/٥

مرفق به خطاب عام للنشر

أخي العزيز الاستاذ موسى صبري.

لا أستطيع أن أبدأ تعليقي على ما كتبت في يومياتك عن كتاب «الأمة الانسانية» إلا بعد أن أسجل لك شكري العميق على هذا الجهد الذي بذلته في مطالعة الكتاب هذه المطالعة الواعية الهادفة، بحيث استطعت أن تعرضه هذا العرض الجميل، الذي لخصه وجلى فكرته. وقد زاد في أهمية مقالك تساؤلك في آخره عن إمكانية أن يعيش الانسان في سلام دائم، وأبديت شكك في هذه القضية متخذاً من موضوع الموت الذي هو ناموس الحياة، دليلاً على حتمية الصراع، وأبادر فأقول أنني عند رأيك تماماً، بل وأزيد عليه، أن السلام الدائم يعني نهاية الحضارة، إن لم يكن نهاية الحياة من أساسها، إن الوجود لا ينبثق إلا من الخفض والرفع والمد والجزر، واللذة والألم.

ونحن عندما ندعو للسلام على ظهر هذا الكوكب، فإننا لا ننفي امكان وقوع الصدام بين كوكبنا والعوالم الأخرى في الكواكب الأخرى، ولا جدال عندنا أن الانسان سوف ينتشر في أرجاء المجرة، أو لن يعدم مواطن تصلح لسكناه، وهذا من شأنه أن نفتح الباب على مصراعيه للصدام بين مختلف الأحياء.. ولكن الذي ندعو إليه في كتابنا هو أن يدرك الانسان العائش على هذا الكوكب الأرضي، أنه لم يعد قادراً (كما كان الشأن في الماضي) أن يلهو بالحرب، وأن يظل نوعه باقياً بعد ذلك. لقد توافرت في العالم اليوم، الظروف التي حملت دويلات مصر القديمة على أن تكف عن الحرب فيما بينها وتؤلف دولة واحدة، وحملت دويلات الإغريق والفرس والرومان العرب والانجليز

والجرمان والأمريكان في العصر الحديث، على التحول من قبائل متعادية متباغية تتصور الحرب بينها ناموس الحياة، إلى مجتمعات واحدة يظلها القانون والنظام.

نحن نؤمن أن لا سبيل للبلاد العربية ولشعوبها من العيش في رغد نسبي إلا أن تتحد في أمة واحدة، وكذلك الشأن بالنسبة لأفريقيا، وكذلك الشأن بالنسبة للعالم كله إذا أراد أن يتفادى وقوع كارثة الحرب الذرية، أو كارثة الانفجار السكاني..

ونحن ممن يطالبون الإرادة الإنسانية، والعقول البشرية، أن ترتفع إلى مستوى التطور العلمي الذي خلقه الإنسان، وجعله قادراً على تحطيم حضارته، بل ونوعه.

وإني لم أستبعد في كتابي (كما لاحظت أنت مشكوراً) أن يوضع حد لحضارة القرن العشرين بالفعل، بل أن يهلك الإنسان عن بكرة أبيه.

ولكن السؤال الذي وجهته في كتابي هو «هل هذا هو ما يريده الإنسان حقاً، ويسعى إليه. أم أنه يجب أن يبذل جهده في الإتجاه الآخر، إتجاه الحياة. إنه على الأقل يجب أن يحاول وهذا هو ما حاولت أن أسهم فيه في هذه المحاولة.

وبعد فلك حبي الذي تعرف، وشكري الذي لا ينتهي.

ودمت للمخلص

أحمد حسين

١٩٦٧/٤/٥

* * *

والرسالة الثالثة موجهة من أحمد حسين إلى الرئيس السادات بعد أحداث ١٥ مايو. والرسالة مؤرخة ٢٠ مايو ١٩٧١. وهو يعلن فيها تأييده للسادات ويطالبه بأن يعود إلى القيم والمثل العليا التي ديست بالأقدام.. «وأرجوك أن لا تتردد لحظة في التخلص من الماضي القريب، وأن تعود إلى ماضيك في ريعان شبابك، وأن تستلهمه في كل ما تقول وتفعل، وهو ما تفعل بالفعل.

سيدي وأخي الرئيس أنور السادات:

ما أسعدني أن يكون سفيري لديك هو الأخ موسى صبري وأشهد لقد

أحببته وأكبرته ووثقت به وما أسعدني أنه وقف بجانبك منذ اليوم الأول وانتصر معك.

سيدي الرئيس

لقد أردت أن أشكرك لإهتمامك بي، وإذ أكتب إليك في ظل الحوادث فلست بمستطيع إلا أن أهنىء مصر بك. وأسجد لله شكراً، أن حقق على يديك أعظم تصحيح لمسار مصر وشعبها، لقد أعدت الأمل إلى النفوس، والبسمة إلى الشفاه. وإذا كان لي وأنا المريض العاجز، أن أقول لك كلمة، فهو أن تمضي فيما رسمته لنفسك وما سوف يقترن باسمك إلى أبد الآبدين، لقد رأيت كيف أن كل القيم والمثل العليا التي تعذبت أنت من أجلها قد ديست بالأقدام، وقد حان الوقت لتعود إلى مكانتها واحترامها، أرجوك أن لا تتردد لحظة في التخلص من الماضي القريب، وأن تعود إلى ماضيك في ريعان شبابك، وأن تستلهمه في كل ما تقول وتفعل، وهو ما تفعله بالفعل.

حماك الله ووقاك ومتعك بالصحة، حتى تعيد بعث مصر.

والسلام عليكم،،

١٩٧١/٥/٢٠ أحمد حسين

وهذه الرسالة من أحمد حسين في ٥ أكتوبر ١٩٧٣. كنت قد أعدت نشر كتاب «قصة ملك و٤ وزارات» وكان فيه الشيء الكثير عن مصطفى أمين (السجين حينئذ). وقد أعجب هذا الموقف الأستاذ أحمد حسين، فكتب لي هذه الرسالة تقديراً لذلك، ولما سجلته عنه في الكتاب، وعن محاكمة سليمان رخاري رئيس تحرير صحيفة «الإشتراكي».

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز الأستاذ موسى صبري

تحية وحباً وبعد،

فإني أشكرك من أعماق قلبي للإشارات اللطيفة التي وردت في الطبعة الثانية من كتابك، بعد أن أضفت له بعض الحواشي، ومما يشهد لك بقوة

الشكيمة أنك كتبت كتابك هذا لأول مرة في أحلك الأوقات، وها أنت تعيد طبعه بعد أن تغيرت الدنيا فلا تغير منه حرفاً واحداً.

وأهنئك بالأكثر على أنك في آخر سطور الكتاب قد حددت بوضوح طريق النجاة وأرجو أن تكون بذلك قدوة.

المخلص

١٩٧٣/١٠/٥ أحمد حسين

وهذه رسالة أخرى، يناقش فيها أحمد حسين. ما كتبته عن محاكمة «سليمان زخاري» في جناية حريق القاهرة. وقد كان رئيساً لتحرير صحيفة الحزب الإشتراكي ورفض أن يلقي تهمة كتابة المقالات غير الموقعة على الأستاذ أحمد حسين:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب الأستاذ موسى صبري

ما تفضلت وكتبته عني فشيء فوق الشكر والله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يجزيك عني خير الجزاء.

وإني أبعث إليك بهذا الخطاب لأخي وأكبر زميلي في الجهاد في هذه الحقبة التي تحدثت عنها وهو الأستاذ «سليمان زخاري» المحامي ولأبعث له التحية ولكل من يلوذ أو يتصل به، لقد قام بدور بطولي فرضه على نفسه ليشهد الدنيا كلها، إنه في مقام حب مصر وشعبها فليس هناك مسلمون وأقباط ولكن هناك مصريون فقط.

لم تكن مساومة رخيصة:

وقد دفعك إخلاصك وحماستك أن تصف ما عرضه عليك وكيل النيابة من أن يطلب البراءة للأستاذ سليمان زخاري إذ هو قرر أنني كاتب المقالات. وهذا ما رأيت أن واجبي يحتم على أن أوضح بعض الحقائق تكريماً لسليمان زخاري ، فالمحقق لم يكن يساوم وإنما كان يعمل نص القانون الذي يقرر براءة رئيس التحرير إذا لم يكن بوسعه منع النشر. وغني عن البيان أنه لم يكن بوسع الأستاذ سليمان زخاري أن يعترض على النشر.

ولكن هكذا شاءت كرامة سليمان زخاري وإخلاصه ووطنيته أن يشاطرني المسئولية مهما كانت النتائج. سلام عليه في الأولين والآخرين إلى أبد الآبدين.

أحمد حسين

وهذا خطاب في ١٠ أكتوبر ١٩٧٣، عن مقال أرسله لي، وهو يقترح أن ينشر يوم الجمعة، لكي يقابل مقال محمد حسنين هيكل في الأهرام، وهو يؤكد في خطابه أنه حظر أن تدخل بيته جريدة الأهرام، ودعا أصدقاءه إلى فعل ذلك.. والملاحظ من هذه الرسالة، أنه نسي بعض الكلمات.

أخي الحبيب موسى صبري

أبعث لك تحيتي ودعواتي وبعد، فتجد طيه (مقالاً وكلمة لم ترد بالرسالة) وإذا رأيت أن تجعله كل يوم جمعة ليكون بالذات في مواجهة مقال الأهرام فإن ذلك يسعدني. هذا وقد حظرت أن تدخل بيتي جريدة الأهرام وأدعو أصدقائي إلى فعل ذلك على أن يطالعها في المكتب من تضطره ظروفه لمطالعتها.

مرسل لك كتابي عن «العبور» وهو ما سمحت به الرقابة من مذكراتي.

ومرة أخرى أشكرك وسترى ذلك مسجلاً في المذكرات.

المخلص

أحمد حسين

١٩٧٣/١٢/١٠

هذه رسالة في ١٨ ديسمبر ١٩٧٣، يؤكد فيها أنه لا يقبل حذف شيء من مقاله، وقال انه يؤيد السادات، ولكنه يعبر بأسلوبه ولا يسمح لأي رقيب كائناً من كان أن يغير حرفاً واحداً مما كتب..

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب موسى صبري:

تحية وشكراً وبعد فأرجو ملاحظة عدم حذف شيء من مقالتي لأي سبب من الأسباب. إنني لست ملتزماً بأي إلتزام. وإذا لم أنشر رأيي كما هو سواء في نيكسون أو في أمريكا أو روسيا فلا داعي لنشر المقالة..

ولك حبي وشكري..

أخوك

أحمد حسين

١٩٧٣/١٢/١٨

إنني أؤيد أنور السادات ولكني أعبر بأسلوبي ولست أسمح لأي رقيب كائناً من كان أن يغير حرفاً واحداً مما أكتب وأنت أميني لتنفيذ ذلك.

ثم رسالة في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣، يعلن فيها أنه لن يكتب إلا إذا ـ إستؤنف القتال أو إنسحب الإسرائيليون من الضفة الغربية.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب موسى صبري

بعد تحية الحب والشكر، فالآن وقد إنتهت المرحلة من مؤتمر السلام فإن معين الكتابة عندي قد (نضب).

وأرجو إذا إستؤنف القتال أو إنسحب الإسرائيليون من الضفة الغربية أن يعاودني نشاط الكتابة بإذن الله.

ولك شكري وحبي،

أخوك

١٩٧٣/١٢/٢٣ أحمد حسين

وهذه رسالة في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ يرفض فيها تقاضي أجر مقالاته ويطلب تحويل أجر المقال الأخير (١٠٠ جنيه) إلى المجهود الحربي.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي موسى صبري

تحية وحباً وبعد فأشكرك على المبلغ الذي فكرتم في منحه لي مقابل مقالاتي. ولكن المسألة أنني كتبت هذه المقالات باعتبارها مساهمة متواضعة في المجهود الحربي. ومن هنا فلست مستعداً أن أتقاضى عنها أي مبلغ من المال وإلا فقدت إحترامي لنفسي.

أما إذا كنتم تصرون لتسوية أوضاع حسابية فكم أكون شاكراً إذا حولتم هذا المبلغ (١٠٠ جنيه) للمجهود الحربي بإسمي وشكراً،

١٩٧٣/١٢/٢٤ **أحمد حسين**

وهذه رسالة في ٤ مارس ١٩٧٤ بعثها لي، مع مؤلف كتبه عن أنور السادات. ويطالب بالإتصال بالسيدة جيهان السادات لدعم جمعية ٦ أكتوبر.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب موسى صبري

أبعث إليك بكتابي عن أنور السادات ليكون كتاب اليوم المقبل، وأرجو أن تشرف عليه بنفسك وأن تزوده بالصور الملائمة، وإذا كان حجم الكتاب صغيراً فيمكن إكماله بمقالتي الأخيرة، والتي سبقتها، أرجو أن تكون قد إتصلت بجيهان السادات بخصوص جمعية ٦ أكتوبر. وأرجوك أن تضع كل نفوذك مع هذه الجمعية.

المخلص

١٩٧٤/٣/٤ **أحمد حسين**

وهذه رسالة في ٢٢ مارس ١٩٧٤، خاصة بكتاب أحمد حسين عن السادات، ويؤكد أنه ليس مستعداً لحذف أي سطر منه، لأنه لا يكتب للتزلف أو لمجرد الإرضاء، ولكنه يكتب فقط ما ينشط لكتابته.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز موسى صبري

لم تكن في حاجة لأن تستمهل إبنتي إيمان بضعة أيام لتقول قرارك بالنسبة لكتاب أنور السادات، فأنا أعلم أن هذا الكتاب يجب أن يعرض عليه شخصياً ولذلك أريد أن أقرر لك بعض الحقائق لتسترشد بها.

١ ـ إن هذا الكتاب حق لأنور السادات في رقبتي ومن حقه هو أن يتنازل عن هذا الحق، ولذلك فلن أحاول نشره في أي مكان إذا لم يرغب هو.

٢ ـ الكتاب بصورته وحدة متكاملة، أي أنني لست مستعداً لحذف أي سطور منه فهو صفقة إما أن تؤخذ وإما أن تترك. وأنا لا أكتب للتزلف أو لمجرد الإرضاء ولكنني أكتب فقط ما أنشط لكتابته.

٣ ـ إذا كان الكتاب في إنتظار أن يطالعه السادات شخصياً فلا مانع عندي من الإنتظار أسبوعاً آخر وبعد ذلك سأسلم الكتاب إلى جهة أخرى تلح في طلب الكتاب.

أما أنت فلك حبي وتقديري الذي تعرفه،

١٩٧٤/٣/٢٢ — أحمد حسين

* * *

وهذا خطاب في ٢٠ أكتوبر ١٩٧٤، يشكر فيه تيسيراً إستطاعت زوجتي أن تحققه، بشأن قبول طفل قريب للأسرة، في مدرسة دار الطفل التي كانت تتولى فيها منصب المدير العام.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب موسى صبري

كنت في إنتظار عودتك من موسكو بفارغ الصبر لكي أشكر زوجتك «السيدة إنجيل» (وعفواً إذا كنا رجعيين) لقد تأثرت أشد التأثر وبكيت من فرط التأثر عندما حدثتني إبنتي عن كيفية مقابلة إنجيل لها وكيف حققت لها طلبها بعد يأس.

والحق يا موسى أنني أصبحت أنوء تحت ضغط عواطفكما النبيلة. أسأل الله لكما الصحة وطول العمر وراحة البال.

المخلص

١٩٧٤/١٠/٢٠ — **أحمد حسين**

وهذه رسالة عتاب من أحمد حسين لي، لأنني زرته ولم أذكر له، شيئاً عن إكتشاف مرض زوجتي بالسرطان. والحق أنني لم أشأ أن أثقل عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الأستاذ موسى صبري

ستسمح لي أن أعتب عليك ألا تشركني في آلامك وأحزانك ويعلم الله كم حزنت عندما سمعت بالأنباء المحزنة وأن يكون سماعي بها على سبيل الإشاعة.

ولذلك أرجوك أن تتكرم وتمر علي لتحدثني عن القصة من أولها إلى آخرها الطيب بإذن الله.

ولك حبي ودعائي ولزوجتك المباركة..

المخلص

أحمد حسين

١٩٧٦/٢/٢٥

وهذا خطاب في ٢٢ مايو ١٩٧٦ عن حلقات أراد أن ينشرها في آخر ساعة، ثم يضمنه مشاعره نحوي.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب الأستاذ موسى صبري

تحية وحباً وبعد، فإني أبعث إليك بحلقة من سلسلة كانت آخر ساعة تنشرها منذ بضع سنوات، رجاء استئناف نشرها في «آخر ساعة». وإذا كانت هناك ظروف من أي نوع كان تحول دون النشر، فأرجو التكرم بإعادتها لي وأنتهز هذه الفرصة لأبلغك أمرين:

الأول: أنني كنت في مزيد الغبطة والسعادة عندما أبلغت ابنتي إيمان أن السيدة الفاضلة زوجتك على ما يرام، وأن حالتها المعنوية مرتفعة.

والأمر الثاني هو أن إخلاصك وصفاء نفسك قد استطاع أخيراً أن يغزو المجلس الاسلامي الأعلى، فقد فاجأني شخص كان كثيراً ما يقول لي «أنني على فرط حبي وتقديري لك، فأرجو أن تسمح لي أن أخالفك في حبك للأستاذ موسى صبري» هذا الانسان فاجأني منذ أيام وبدون مناسبة بقوله «أريد أن

أعترف أننا كنـا مخطئين بصدد مـوسى صبري وكنت أنت عـلى صواب» وتـركته يتحدث.

بقي أن تنوب عني في إبلاغ عزائي للأستاذ مصطفى أمـين، وأن يعلم أن للمرحوم عـلي أمين شهـادة في رقبتي وهي أنه واضـع «شارة» مصر الفتـاة، وقد كان مصطفى في أحسن أحـواله في التليفـزيون أخـيراً، ولك حبي ودعـائي لك بالتوفيق.

١٩٧٦/٥/٢٢ أحمد حسين

وفيما يلي خطاب أرسله أحمد حسين في ٣٠ نوفمـبر ١٩٧٩، مع مقـال له للنشر:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب موسى

هذا المقال أرجـو أن يلفت إليه النـظر قبل نشره أو يـوم نشره، والمهم هو إظهار أهميته.

وأشكرك على سؤالك عن الأوقات التي تستطيع رؤيتي فيهـا، ان ما بيننـا أصبح علاقة روحية لا تهم فيها الماديات..

ولك ولزوجتك وأولادك دعائي من الأعماق،

١٩٧٩/١١/٣٠ المخلص

أحمد حسين

ثم خطاب يعلن أنه يعارض الخط السياسي الجديد للسادات:

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب الأستاذ موسى صبري

أشكرك على خـوفك عـلى جريـدة الحزب، وكـما ترى فقـد استفدت من ملاحظاتك وإن كان تـأخير نشر المقـالة قـد جعلني أضيف إليها، وأرجـو أن لا

يتأخر النشر هذه المرة لأي سبب من الأسباب، وباعتبارك أحد قادة الرأي ومن زعمائها، فأرجو أن تعرف أنني لست موافقاً على الخط السياسي الذي أصبح يجري . .

ولك حبي ودعائي لك،،

١٠/٥/١٩٧٩ أحمد حسين

وهذا خطاب مجاملة بعد عودتي من رحلة علاج زوجتي في أمريكا يعرض فيه زيارتنا في المنزل لرؤية زوجتي، رغم أنه مشلول على مقعد متحرك!!

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الأستاذ موسى صبري

شعرت بعميق من الأسى وأنت تشير للدوافع الحزينة التي كانت وراء سفرتك الأخيرة إلى أمريكا، ولكن الدوافع القومية ظلت مسيطرة عليك، أرجوك إذا كانت زوجتك في أمريكا أن تبعث إليها بتحياتي ودعائي لها بالشفاء، أما إن كانت في مصر فما أسعدني بذلك، وأنا على استعداد (إذا كان في بيتكم مصعد) أن أحضر (بعد إعداد ترتيبات) لكي أزورها.

ننتقل بعد ذلك إلى المقالة المرسلة، أرجو نشرها على وجه السرعة (الأربعاء، أو الخميس على الأكثر) حتى تسبق مجيء بيجن ويعرف كيف بدأنا نرى الموقف، ويا حبذا لو لفتم لها الأنظار بإشارة على الصفحة الأولى.

وتقبل تحياتي، أحمد حسين

وخطاب آخر في ٢١ نوفمبر ١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب موسى صبري

ما شعرت بالغبطة أكثر من شعوري هذا الصباح عندما حدثني ابني مصطفى أنك قد عدت بالسلامة، وأنه تحدث معك، وقد كنت أتصوّر أنك ترسل مقالاتك من هناك.

ولو كنت أستطيع السير لهرعت نحوك لأبهج نفسي برؤيتك أنت وزوجتك اللطيفة.

وقد حدثني ابني عن المحنة التي عانيتها أنت وزوجتك، ولم يدهشني ذلك، فالمثل السائر يقول «المؤمن مصاب» وقد أعجبتني البوذية لأنها تبدأ من حقيقة «الحياة ألم» وزدت يقيناً بالاسلام وهو يقول «لقد خلقنا الانسان في كبد».

وما الصليب إلا رمز لهذه الآلام التي تحملها السيد المسيح، وما تحمل هذه الآلام إلا ليعزينا نحن البشر، وهنا يكمن سر الإيمان، فهو وحده الذي يجعل لآلامنا معنى وأننا سنكافأ عليها في حياة قادمة.

أخي الحبيب

لم أكتب لك إلا لفرحتي أن أرى من جديد أخاً أحبه هو وزوجته، فكلما طال بنا العمر أدركنا الثروة التي نمتلكها في اخواننا القدامى.

واني أنتظر في صبر ولهفة تسلم مصر لحقل بترولها كي أشيد بهذا النصر العظيم.

وإن كنت ستفعل ذلك تلقائياً، ولكن لا يمنعني من أن أرجوك أن تطالع هذا الخطاب لزوجتك تلك السيدة الشجاعة الوفية الممتازة والتي تشبه أن تكون ذهباً يزداد تألقاً مع المحن.

ودمت، لأخيك

الأربعاء ١٩٧٩/١١/٢١ أحمد حسين

* * *

وبعد. لقد نشرت هذا الكم من رسائل الزعيم الراحل أحمد حسين، لكي يجد فيها متابعو التاريخ، صوره حقيقية للجوهر الانساني في قلب أحمد حسين ولاحترامه لقلمه ورأيه.. وروحه الديمقراطية، بعد أن انهالت عليه إتهامات من كثيرين من معارضيه، أنه كان فاشستياً.. وأنه كان عدواً للديمقراطية.. وأنه كان متقلب الآراء والأهواء.

الفصل الرابع والأربعون

رسالة لم تنشر
من جيهان السادات إلى وسيلة بورقيبة

الرسالة الأولى إلى الأم الاسرائيلية ـ مصطفى أمين كتب خطابين للسيدة جيهان السادات ـ رسالة من وسيلة بورقيبة تتهم السادات بأنه باع القدس ـ رد عنيف ومهذب من جيهان السادات ـ جيهات تستقبل وسيلة في مصر. .

الفصل الرابع والأربعون

رسالة لم تنشر
من جيهان السادات إلى وسيلة بورقيبة

استعانت بي السيدة جيهان السادات، في كتابة خطبها التي كانت تلقيها في المناسبات التي تدعى إليها. وكانت كلها خطباً قصيرة ومركزة وسهلة. وفي العامين الأخيرين من حياة السادات، تضاعف نشاطها الاجتماعي.. وكانت تلقي ثلاث أو أربع خطب أسبوعياً، بعد أن تكاثرت طلبات الجمعيات والمؤسسات.. وفي فترة غياب لي عن مصر، كتب لها مصطفى أمين خطابين حازا إعجابها الشديد.

وقد طلبت مني كتابة رسالتين. الأولى، كانت إلى سيدة اسرائيلية بعثت إليها عن طريق الصليب الأحمر، خطاباً تطلب فيه ـ بعد حرب اكتوبر ـ معونتها في العثور على جثمان ولدها الذي فقدته في مياه بورسعيد. وكان رد السيدة جيهان مؤثراً، ونشر في الصفحات الأولى في كل صحف اسرائيل، وأعطى أثراً طيباً عن أن السيدة الأولى في مصر من مريدي السلام. وقد لمس كرايسكي مستشار النمسا، بنفسه أثر هذه الرسالة عندما زار اسرائيل، وجرى حديث سائق التاكسي معه عن روعة هذه الرسالة وهذا ما قاله لي عندما لقيته في فيينا.

أما الرسالة الثانية، فقد كانت إلى السيدة وسيلة بورقيبة، زوجة الحبيب بورقيبة بعد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل.

لقد بعثت السيدة وسيلة إلى السيدة جيهان برسالة قاسية العبارة، تتهم فيها السادات بأنه باع القدس!.. وأذاعت تونس هذه الرسالة قبل وصولها إلى السيدة جيهان. وحدثتني السيدة جيهان في شأن هذه الرسالة، وطلبت مني إعداد رد عليها، وناقشتني في النقاط التي يجب أن يتضمنها الرد.

وهذا نص رسالة جيهان إلى وسيلة:

حضرة الأخت الفاضلة / وسيلة بورقيبة

حرم فخامة رئيس جمهورية تونس

سيدتي الفاضلة..

تلقيت رسالتك البرقية.. وعلى الرغم مما نمى إلى علمي أن الرسالة قد أذيعت قبل أن أتسلمها.. فإنني أرحب بالرد عليها من موقعي كمواطنة مصرية عربية مسلمة.. على أرض مصر قلعة الجهاد.. ومنطلق الوعي الاسلامي.. كما عبرت رسالتك.. التي تسجلين فيها ـ مشكورة ـ مدى المودة التي تكنينها لي.

ولكنني.. لا أستطيع أن أخفي عليك.. وأنت السيدة الأولى لدولة عربية شقيقة.. تربطنا بشعبها العربي.. أوثق روابط النضال والمحبة.. لا أستطيع أن أخفي.. دهشتي البالغة من السطور التي قرأتها عن موقف مصر من الحق العربي.. ومن قضية القدس.. فهذه السطور تزعم بغير مبرر أو مقتضي أن مصر تساند الادعاءات الاسرائيلية.. في ضم المدينة المقدسة وجعلها عاصمة للدولة الصهيونية..

إن دهشتي بالغة.. وألمي كبير.. لأنني لا أتصور.. أن سيدة عربية.. في مستوى مسئوليتك العربية والقومية والاسلامية يمكن أن تكون منعزلة أو محجوبة عن حقائق موقف مصر المعلن.. مرات ومرات.. في جميع عواصم العالم المحبة للسلام التي تؤيد وتساند قيادة مصر وشعب مصر وإرادة مصر في مواقفها التاريخية من أجل السلام وكل حقوق العروبة والاسلام..

وليس موقف الرئيس محمد أنور السادات ـ محاطاً بتأييد الملايين ـ من قضية تحرير الأرض المحتلة.. وإقرار حقوق الشعب الفلسطيني.. ومن قضية القدس.. إلا موقف نضال إيجابي وأصالة عربية وإسلامية.. أيقظ الضمير العالمي.. بالفعل والتحرك والتضحية والشجاعة.. بعيداً عن المتاجرة بالشعارات والمزايدة بضجيج الأصوات الجوفاء..

وإذا كنت.. لا أرى حاجة إلى توضيح جوانب هذا الموقف المعلن مرات

ومرات.. خاصة من قضية القدس.. على لسان رئيس مصر ووزير خارجيتها وكبار مسئوليها.. في المحافل الدولية وكل وسائل الاعلام.. وأقربها إلى الأذهان.. موقف مصر من المفاوضات مع اسرائيل.. وموقف مصر في الاجتماعات الأخيرة للأمم المتحدة ومجلس الأمن.. وكلمتي كرئيسة لوفد مصر في المؤتمر العالمي للمرأة في كوبنهاجن.. على الرغم من العبث الأرعن الذي وقع من بعض سيدات الوفود العربية.. واستهجنته نساء العالم.. وأساء إلى كل امرأة عربية.. قبل أن يسيء إلى شخصي..

إذا كنت.. أيتها الأخت الفاضلة.. لا أرى حاجة إلى هذا التوضيح فإنني بعد رسالتك.. التي تتجاهل كل ما جرى ويجري.. فانني أرجو أن أوضح أن موقفنا يقوم على مبادىء ثابتة.. لا يجهلها سوى من لا يبالون بالشرق العربي.. ولا بما يقع فيه من أحداث كبار.. وهذه المبادىء هي:

- القدس الشرقية جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية..
- القدس الشرقية والضفة الغربية أرض عربية تحتلها اسرائيل..
- ولم تعترف مصر - ولن تعترف - بالقدس عاصمة لاسرائيل..
- ولم تعترف - ولن تعترف - بشرعية المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية وغزة..
- ولم تعترف مصر - ولن تعترف - بقانونية التغييرات التي تجريها اسرائيل في الأرض المحتلة عنوة بما ترفضه الاتفاقات الدولية..

السيدة الفاضلة..

مصر الرائدة.. لم تفرط ولن تفرط..

مصر التضحية والبسالة والشموخ.. هي الدرع الأول الصلب للحق العربي والحق الإسلامي.. على كل أرض عربية محتلة..

ومصر يحدد موقفها التاريخي.. قرارها وسيادتها وإيمان الملايين من شعبها.. بأنهم جزء لا يتجزأ من الأمة العربية.. وبأن قيادة مسئولية المصير هي قدرنا الذي نقبله عن طيب خاطر..

اطمئني بالاً.. واهدئي نفساً.. وكوني على يقين.. أن مشاعر الكرامة والإباء.. هي مشاعري كمواطنة عربية مسلمة.. تشارك ملايين شعب مصر العربي الأبيّ.. وقفته الخالدة.. بقيادة وزعامة الرئيس محمد أنور السادات الذي لا يتحدث بلغتين.. ولا يتصرف بوجهين.. ولا يزايد بشعارات الخداع ولكنه يقتحم الأخطار.. ويتخذ القرار محاطاً بقلوب وعقول الملايين.. على الأرض العربية والإسلامية.. وفي كل بقاع العالم..

وهذه.. هي مصر دائماً..

الأخت الفاضلة..

آمل.. من سيدة في مثل تجاربك.. أن تكوني قادرة على أن تتبين الحق.. وأدعو الله أن يمكنها من الالتزام به والدعوة إليه..

وفقنا الله جميعاً.. إلى خير الإنسان العربي.. وتحرير كل شبر سليب.. وإلى السعي نحو الرخاء والتقدم..

وتقبلي تحيات الأخت التي تحفظ المودة القديمة.. وتحرص على الكلمة الطيبة.. وتتفاءل بالمستقبل المشرق.. لأمتنا العربية عندما تخلص النوايا.. وتبرأ القلوب من كل نوازع الأنانية وأطماع الذات..

ونسأل الله سبحانه وتعالى ـ لنا جميعاً ـ التوفيق والثبات والرشاد..

جيهان السادات

* * *

وجرت الأيام، واغتيل السادات. وحضرت السيدة وسيلة، بعد انفصالها عن زوجها، في رحلة سياحية إلى مصر، واستقبلتها السيدة جيهان أحسن استقبال. وهذه إحدى ميزاتها. مرونة كاملة، في التعامل مع الناس، وعبور للمسائل الصغيرة!

الفصل الخامس والأربعون

مقال التابعي.. وموسكو!

محمد فايق أقنعني بمهاجمة حكومة إيطاليا ـ هيكل يعترض ـ مقال للتابعي يهاجم الاتحاد السوفييتي ـ الأهرام ينشر عن حملة مدبرة ضد الاتحاد السوفييتي ـ هيكل يحذف ويضيف في مقال التابعي ـ اجتماع بين الصحفيين المصريين والسوفييت في موسكو بعد الأزمة ـ عندكم ترسانة كاملة من الأسلحة ـ هاجموا إسرائيل من قواعد سوريا.

الفصل الخامس والأربعون

مقال التابعي وموسكو

بعد الهزيمة في يونيو عام ١٩٦٧.. كان هناك ارتباك في الإعلام المصري.

مثلاً اتصل بي محمد فايق وزير الإعلام، وأقنعني بضرورة مهاجمة الحكومة الإيطالية، لمساعدتها لإسرائيل ضد مصر.. وكانت لدينا معلومات، أن هناك أسلحة إسرائيلية (أغلب الظن دبابات) أعيد تصنيعها في ايطاليا لحساب اسرائيل بإضافة معدات فنية اليها.. وهكذا قال لي فائق وزير الإعلام.. وكتبت في هذا المعنى..

واتصل بي هيكل وكان رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم.. يستفسر عن سبب كتابة هذا المقال العنيف.. وأوضحت له ما جرى.. وبدا من هيكل استنكار لتصرف وزير الإعلام الذي لا يعلم الحقائق. وفهمت من هيكل أن سياستنا بعد الهزيمة، هي كسب أصدقاء، لا كسب خصوم جدد..

وكان الأستاذ محمد التابعي، قد علق في يومياته بالأخبار على الهزيمة، متهماً الاتحاد السوفييتي بالتخلي عنا..

ونشرت الأهرام في برواز رأي الأهرام أن هناك حملة مدبرة مقصودة ضد الاتحاد السوفييتي..

وحدث لقاء بين التابعي وهيكل.. واتفق أن يكتب التابعي، تصحيحاً لمقاله ينفي فيه اتهامه للاتحاد السوفييتي بأنه سبب الهزيمة بأسلوب لائق..

وكتب التابعي فقرة تحت عنوان «رأي الأهرام» تنفيذاً لاتفاقه مع هيكل..

واتصل بي هيكل، قبل نشر سطور التابعي، وقرأتها له. . وطلب مني إرسال البروفة وأجرى بها تعديلاً بالشطب والإضافة.

كتب التابعي في ١٥ يونيو ١٩٧٦:

نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر أمس الأول الثلاثاء كلمة داخل إطار عنوانها «رأي للأهرام». . وقد قالت فيها إن هناك حملة مدبرة مقصودة ضد الاتحاد السوفييتي، وهذه الحملة تغذيها بعض الدوائر الاستعمارية (أضاف هيكل: ويجب أن نفتح عيوننا عليها، ولا ننساق فيها ولو بحسن النية).

ولما كنت أول من كتب في هذا الموضوع، فقد ذهبت وقابلت الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وسألته هل هو يقصدني بهذه الكلمة. فقال لي ان اسمي لم يخطر لأحد ببال عندما كتب الأهرام هذه الكلمة.

ثم سألني هل أنت تنكر مساعدات الاتحاد السوفييتي لنا؟.

قلت. . كلا. . فقد وقف السوفييت معنا في أزمات كثيرة، وقدموا لنا مساعدات كبيرة، منها مثلاً. . مساعدتهم لنا في بناء السد العالي. . وتزويدهم لنا بالأسلحة. . وإرسال كميات ضخمة من القمح عندما امتنعت حكومة إسرائيل التي تقيم في البيت الأبيض بواشنطن، عندما امتنعت عن بيع القمح لنا.

ومضيت أقول. . إنني لا أنكر هذا كله. .

وهنا قال الأستاذ هيكل:

ـ هذا هو إحساسي أنا أيضاً. . وكما قلت له ينبغي ألا ننساق وراء عواطفنا، وألا ننسى (هذه الجملة التي شطبها هيكل) أن الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية هم من أهم أصدقائنا. . وهم يقفون اليوم إلى جانبنا.

ووافقته على ذلك.

ثم اتصل بي هيكل وأملاني فقرة تضاف إلى سطوره، تقول:

«وقد استغلت إذاعة لندن وصحفها، كما استغلت إذاعة إسرائيل

وصحفها ما كتبته على أوسع نطـاق. وهكذا كان انسياقي وراء عواطفي سبباً في أنني قدمت لأعدائنا سلاحاً يحاربوننا به.

ثم عاد وطلب مني حذف هذه الفقرة الجديدة التي أملأها.

* * *

وكنت قد كتبت مهاجماً موقف الإتحاد السوفييتي.. جاءني صحفي سوفيتي شـاب، أرسل حـديثاً إلى مصر، ونـاقشني فيـما كتبت في عصبيـة بـالغـة.. ثم اجتمعنـا في منزل الفنـان مـدحت عـاصم مـع صحفيـين سـوفييت آخـرين.. وفهمت أنهم وضعوني في قائمة الأعداء مع محمد التابعي.

ونقلت بعد ذلك إلى صحيفة «الجمهورية» ممنوعاً من العمل (وهـذه قصة أخـرى) وفكرت في رحلتي إلى الخـارج، وكان أهمهـا زيارة الإتحـاد السوفيتي.. وعلى الرغم من أن علاقات طيبـة نشأت بيني وبـين الدبلوماسيين السـوفييت في مصر بعد حوارات عديدة، فإن السفارة السوفييتية رفضت إعطائي «الفيـزا».. وتدخل كثير من الأصدقاء الماركسيين، وعلى رأسهم الأستاذ خالـد محيي الدين، وأعطيت الفيزا بعد وقت طويل..

وعدت إلى «الأخبار».. وتولى السادات رياسة الجمهورية.. وقامت بينه وبين السوفييت أزمات عديـدة.. وكتبت بطبيعـة الحال مـدافعاً عن وجهـة نظر مصر.. وجاءت مرحلة لتحسـين العلاقـات، وطلب مني إسماعيـل فهمي وزير الخارجية وقف الهجوم لصالح مصر.. واستجبت..

وخلال ذلك سافر الـدكتور عـزيز صـدقي رئيس الوزراء إلى مـوسكو.. والتقى بالزعماء السوفييت، وأمكن تحسين الأجواء..

وكانت بعثة صحفية قد سـافرت مـع عزيـز صدقي.. ورئي أن تبقى في موسكو بعض الوقت، لتعقد اجتماعات مع الأعلام السوفييتي..

وكان زميلنا كامل مرسي يمثل «الأخبـار» في هذه البعثـة.. وعند عـودته، كتب لي تقريراً، أنشر منه الفقرة التالية:

كان لقاء هـاماً بـين الصحفيين المصريـين والصحفيين السـوفييت المهتمين

بالشرق الأوسط. وهم البروفيسور بريماكوف الأستاذ بمعهد العلوم السياسية والإقتصادية بموسكو والمعلق السياسي بصحيفة البرافدا. . وايجور بلاييف الصحفي بالبرافدا والذي عمل في القاهرة ١١ عاماً، والكسندر كاتنوف محرر الشئون العربية بوكالة نوفوستي، والكسندر سميرنوف محرر الشئون العربية في وكالة نوفوستي، ويافل ديفتشكو المحرر بالبرافدا، وفيكتور نيكولين مدير قسم الشرق الأوسط والعالم العربي بوكالة نوفوستي وأ. رومانوف نائب رئيس لجنة العلاقات الخارجية بإتحاد الصحفيين السوفييت، وم. أليك الصحفي بالقسم الأفريقي براديو موسكو.

وحضر اللقاء من الصحفيين المصريين ابراهيم عامر (المصور) وعبد الستار الطويلة (روز اليوسف) وعدلي جلال (الأهرام) وخليل أنور (التليفزيون) وكامل مرسي (الأخبار).

وعلى امتداد ثلاث ساعات كاملة دار حوار صريح حول العلاقات المصرية السوفيتية وزيارة الدكتور عزيز صدقي لموسكو ومستقبل العلاقات بين البلدين. .

وكان السؤال الأول من الوفد المصري عن أثر زيارة الدكتور عزيز صدقي لموسكو. .

وكانت إجابة السوفييت:

ـ لقد عبرت الرحلة عن حسن نية القيادة المصرية لتدعيم العلاقات وأنتم لمستم مدى الحفاوة والإهتمام الذي قوبل بهما الوفد المصري. وقد أشادت جميع الصحف السوفييتية وعلى امتداد أيام قبل الزيارة بإزالة سوء التفاهم الذي حدث. . ولقد تحملنا هنا الكثير من المقالات التي نشرت بالصحف المصرية والتعليقات الكثيرة التي كتبت خاصة مقالات إحسان عبد القدوس وموسى صبري رئيس تحرير الأخبار، ولم نكن حقيقة نعلم ماذا يريدون بهذه المقالات ومن المستفيد منها؟. .

وقال صحفي سوفييتي:

ـ لقد كنت منذ شهور بالقاهرة والتقيت بموسى صبري بمكتبه بالقاهرة،

ودار بيننا حوار طويل حول العلاقات المصرية السوفييتية. . وكان موسى صبري مقتنعاً بالدور الذي يقوم به الإتحاد السوفييتي بالنسبة لمشكلة الشرق الأوسط. . وعلى العموم فإن زيارة عزيز صدقي كانت ضربة في وجه الذين أرادوا ضرب الصداقة المصرية السوفييتية.

ورد صحفي مصري:

ـ إن كل ما يكتب عن هذا الموضوع كان تعبيراً من وجهة نظر الكتاب والصحفيين. .

وعلق صحفي سوفيتي:

ـ نحن نعلم تماماً أن الحكومة المصرية كانت توافق على كل ما نشر في الصحف حول هذا الموضوع لأنها تخضع للرقابة. وفهمنا نحن هنا أنها كانت حملة وليست تعبيراً عن وجهات نظر.

صحفي مصري:

ـ إن الشعور السائد في مصر أن الإتحاد السوفييتي موافق نظرياً على كل مطالب مصر ويرحب بها ولكن عملياً لا يحدث شيء. .

رد سوفييتي:

ـ هل يؤيد الإتحاد السوفييتي مصر أم لا في جميع المحافل الدولية؟ إن مصر بلد مستقل وموضوع استخدام القوة التحررية لتحرير الأرض يقرره الشعب المصري وحده. وقد سجل الإتحاد السوفييتي موقفه ولكنه ليس بالطرق السياسية وحدها تحل الأزمة بل لا بد أن تطرقوا جميع الطرق الأخرى. . والأوساط العالمية فهمت موقفنا سلبياً. . كما أن المراقبين في الغرب يرون أن الإتحاد السوفييتي يؤيد استخدام القوة التحررية لتحرير الأرض. . فحروب التحرير حروب عادلة ومشروعة. . لماذا لا تبدأون في تحرير أرضكم مثلما تفعل فيتنام. .

صحفي مصري:

ـ معلوماتنا أن سبب الوقفة في الحوار خلال الشهور الماضية أننا طلبنا أسلحة معينة. . لماذا يرفض الإتحاد السوفييتي توريدها؟ . .

جواب سوفييتي:

- رغم أننا غير عسكريين إلا أن عندكم ترسانة كاملة من الأسلحة تكفي للقتال، وأن ما يثار حول أن الأسلحة الموجودة عندكم لا تتفق والمتطلبات الحديثة للقتال لا تقوم على أساس صحيح بدليل أن طائرات الميج ١٧ و١٩ تقوم بعملها على خير وجه في فيتنام ويتم بها إسقاط الطائرات الفانتوم. .

سؤال مصري:

- الشعور السائد في مصر بين الأوساط الشعبية أنه حدث شبه اتفاق بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة خلال زيارة نيكسون لموسكو وأن الإتحاد السوفييتي يخشى مواجهة مع أمريكا بسبب الشرق الأوسط. .

جواب سوفيتي:

- هذا غير صحيح وموقف الإتحاد السوفييتي معروف ويهدم هذه الفكرة. موقف الاتحاد السوفييتي في النزاع بين الهند والباكستان. . ولو كان الإتحاد السوفييتي يخشى هذه المواجهة لما وقف خلال الأزمة هذا الموقف وأيد الهند بكل ما يستطيعه. .

سؤال مصري:

- لماذا يرفض الاتحاد السوفييتي إمداد مصر بالأسلحة المتطورة وخاصة الميج ٢٣ وخاصة أنه يعلم أن لدى إسرائيل ترسانة كاملة من الأسلحة المتطورة الحديثة ذات إمكانيات للضرب في العمق أكبر. .

جواب سوفييتي:

- لسنا نفهم إصراركم على طلب الميج ٢٣. إذا كان الهدف هو المدى الطويل لطيرانها وإمكانياتها القتالية العالية فلماذا لا تنسقون العمليات بينكم وبين سوريا؟ وفي هذه الحالة يمكن استخدام مطارات سوريا للطائرات الميج العادية وبذلك تكون قوتها ومداها مؤثراً وعمق إسرائيل قريب جداً من سوريا. . بصراحة نحن لا ندري هل تريدون الحرب أم لا. . وإذا أعطيناكم الميج ٢٣ فهل ستكفي لدخولكم المعركة. . أغلب ظننا أنكم ستطلبون بعدها

الأسلحة الذرية التقليدية ثم ينتهي بكم الأمر لطلب القنبلة الذرية.. لماذا لا تتحد الدول العربية وتتحرك لضرب المصالح الأمريكية بالمنطقة..

ودارت مناقشات حادة حول هذه المنطقة وتحدث الوفد المصري بإسهاب عن الجهود التي بذلت واللقاءات التي تتم لتنسيق العمل العربي. وانتهى إلى أن توفير نوعيات معينة من السلاح هام جداً لبدء المعركة حتى يمكن الرد على إسرائيل فوراً إذا ما لجأت إلى الضرب في العمق. وأن الدول العربية رغم ما فيها من متناقضات ستقف حتماً وراء مصر وستضرب مصالح الإستعمار بالمنطقة إذا ما أحست بأن مصر أصبحت قوية وتملك السلاح الرادع.. كما أن وجود هذا السلاح سيكون له أكبر الأثر في جعل إسرائيل تفكر أكثر من مرة قبل الضرب في العمق.. أما موضوع وحدة الدول العربية في مواجهة العدوان فسيأتي حتماً نتيجة المعركة والشواهد كثيرة على ذلك مثل ما حدث سنة ٥٦..

ـ وقال أعضاء الوفد السوفييتي أن معلوماتنا تؤكد أن عندكم أسلحة تكفي للتحرير وأن كل ما يقال غير ذلك ليس صحيحاً..

ـ يبدو أن معلوماتكم في هذه الناحية غير سليمة وإلا ما الذي يدعونا إلى عدم القتال.. نحن في سبيل إعداد قواتنا بالأسلحة اللازمة المتطورة لنواجه أسلحة إسرائيل.. وساعتها سنحدد موعد القتال..

وقال الصحفيون السوفييت: إن ما حدث خلال الأشهر الماضية أفاد أعداءكم وأعداءنا واستغل الغرب ما نشر في الصحافة المصرية وحاول جاهداً هدم العلاقات المصرية السوفييتية.. وواجبنا أن نقف جميعاً ضد هذا المخطط من أجل إعادة المياة إلى مجاريها.. وسنحاول نحن من ناحيتنا كصحفيين أن يدرك الشعب السوفييتي أن ما حدث كان عتاباً بين الأصدقاء والأخوة، ولا شك أن زيارة الوفد المصري والبيان المشترك الذي أذيع عقب الزيارة من الأحداث التاريخية الهامة في مستقبل العلاقات بين البلدين..

* * *

ولكن موقف الإتحاد السوفييتي من الحرب، تغير بعد ذلك إلى النقيض، عندما اقتربنا من الأيام الحاسمة، كانوا ينصحون بعدم الحرب، لأننا لا نعرف

آثار الحروب.. وأن الأجدر بنا أن نسعى إلى السلام، وأن نتصل بالقوى المحبة للسلام في إسرائيل.. وقد زارني في مكتبي الأستاذ خالد محيي الدين، ومعه عدد من أعضاء اللجنة المركزية في الاتحاد السوفييتي، وكان حوار السوفييت متجهاً كله إلى هدف واحد.. وهو ألا نحارب، وقد نشرت ذلك في حينه..

الفصل السادس والأربعون

الرئيس مبارك.. والصحافة

عندما رأيت حسني مبارك لأول مرة ـ أول حديث صحفي مع نائب رئيس الجمهورية ـ جلستان مع السادات ـ التغيير الوزاري ـ قلت للسادات: لا تحرق حسني مبارك ـ ترشيح مصطفى خليل لرياسة الوزارة ـ لقاء في المنتزه ـ قانون الصحافة ـ المقال في الصفحة الأولى ـ كلمة كريمه عند افتتاح الدار الجديدة لأخبار اليوم.

الفصل السادس والأربعون

الرئيس مبارك.. والصحافة

بدأت علاقتي محدودة بالفريق حسني مبارك قائد القوات الجوية، بعد حرب أكتوبر مباشرة.

رأيته لأول مرة، عندما دعى عدد من الكتاب ورجال الصحافة، إلى إحدى القاعات العسكرية، للإستماع إلى بيانات من قادة الجيش الذين حققوا نصر أكتوبر. كان ممتلئاً حيوية ونشاطاً. وتحدث بحماسة على سجيته. وشرح قصة الضربة الأولى.

وفكرت بعد ذلك في الأعداد لكتاب عن حرب أكتوبر، واتفقنا على لقاء، لكي يتحدث معي ويجيب على أسئلتي عن دور القوات الجوية، ولكن هذا الموعد لم يتحقق.. وأصدرت الكتاب، مكتفياً بما قاله في محاضرته، وكنت أنوي أن أستكمل هذا النقص في طبعة ثانية، ولكنني لم أفعل، لأن الكتاب طبع أربع أو خمس طبعات في أقل من ستة أشهر.

ثم قرر الرئيس السادات، اختيار حسني مبارك لمنصب نائب رئيس الجمهورية، واتصل بي تليفونياً، وطلب مني أن أجري حديثاً مع النائب الجديد، أقدمه فيه للقراء، وكذلك طلب من زميلي علي حمدي الجمال.

ولقيته مرتين، واستغرق اللقاءان ست ساعات. سألته في كل شيء. ولكن كان معظم حديثه عن تاريخه العسكري..

وفي هذين اللقاءين الطويلين، تبينت أنه رجل بسيط، على طبيعته، لا يفتعل قولاً أو شعوراً، وقال لي إنه قبل هذا المنصب، لكي يعمل فقط مع الرئيس السادات.. وإذا حدث أن تغير رئيس الجمهورية، فإنه لن يستمر.

وفي حالات عديدة، كان الرئيس السادات يحيلني الى النائب حسني مبارك، في توضيح بعض الأمور. . كان يقول:

ـ حسني عنده كل حاجة. . اتصل به.

وجلست مع حسني مبارك، في حضرة السادات مرتين. .

الأولى في منزل الرئيس السادات بالجيزة، في الفرندة المطلة على البحر، وكان الرئيس السادات يعد لتعديل وزاري. . وفي هذه الجلسة أخطره بقرار تعيين بطرس غالي وزيراً للدولة. . وطلب مني السادات الاطلاع على خطابات متبادلة بينه وبين الملك خالد ملك السعودية، قبيل زيارة الرئيس لاسرائيل. . وقال للنائب:

ـ ادي لموسى كل هذه الأوراق. .

وعند انتهاء اللقاء أصطحبني النائب حسني مبارك معه، في طائرة هليوكبتر من منزل الرئيس في الجيزة. . الى منزله في مصر الجديدة، وكان معنا جمال عبد العزيز سكرتير الرئيس الآن.

وهناك سلمني النائب حسني مبارك كل هذه الوثائق، التي استخدمتها في كتابي عن حرب اكتوبر. .

وكان اللقاء الثاني مع السادات في وجود الدكتور أسامة الباز والمهندس عثمان أحمد عثمان. . قبيل زيارة الرئيس لاسرائيل.

كان الرئيس قد طلب مني اعداد خطابه في القدس. . وفي الوقت نفسه كانت وزارة الخارجية قد أعدت مشروع خطاب كتبه بطرس غالي وشاركه أسامة الباز. . وكان الاجتماع في استراحة الاسماعيلية، لسماع مشروع الخارجية، ومشروع الخطاب الذي أعددته. . وفضل الرئيس السادات خطابي، لأنه تناول الجانب الانساني لفكرة السلام وهذا ما كان يريده السادات. . وطلب من اسامة أن يضم الجانب القانوني الى خطابي. .

وحدث بعد عودتنا من «كامب دافيد». . أن كنت في لقاء مع الرئيس السادات في استراحة القناطر، أتلو عليه مشروع خطاب أعددته له، لكي يلقيه

أمـام مجلس الشعب. . وكان السـادات قـد طلب مني أن أتـرك فقـرة أخـيرة في الخطاب، يعلن فيها التغيير السياسي الذي أعتزمه.

وكـان السادات قـد أخطر ممـدوح سـالم رئيس الـوزراء، قبـل سفـره الى امريكا، أنه سيجري هذا التغيير بعـد العودة من أمـريكا. . وتكتم ممـدوح سالم الأمر، واستمر في مسئـولياتـه رئيساً للوزراء، وهـو يعلم أنها أيامـه الأخيرة، ولم يخطر أحداً من الوزراء بذلك. .

وبعد أن انتهيت من تلاوة الخطاب، وسماع ملاحظات السـادات عليه. . فاجأني بالسؤال:

ـ وأنت ايه رأيك في التغيير؟ . .

كان السؤال مفاجـأة لي، وكانت هنـاك اشاعـات عديدة .

وأجبت الرئيس السادات بقولي:

ـ هناك ثلاث إشاعات. . الأولى تردد أن سيادتك ستتولى رياسة الوزارة. وهذا خطر كبـير، لأن الناس ستحملك أي خـطأ يرتكب، أو أي ـ تقصـير من أي وزير. . ومثل ذلك (وأمسكت بصحيفة الجمهورية وكـانت أمامي). . هـذا الخبر عن انعدام أنابيب الأوكسجين في مستشفى أبو الريش. . هذه مسئولية وزير الصحة. . ولكن الناس ستحملك أنت هذه المسئولية. .

وقال السادات:

ـ طيب. . والاشاعة الثانية؟ .

قلت:

الاشاعة الثانية ترشيح النائب حسني مبارك لرياسـة الوزارة، وهـذا أيضاً خطر كبير. .

وسألني:

ـ لماذا؟

قلت:

ـ سيادتك تثق في النائب حسني مبارك ثقة كبرى. وهو جدير بهذه الثقـة.

وهو رجل نزيه. ولكن المسئوليات السياسية للحكم جديدة في حياته. وهو بعيد عن أخطبوط المناصب الوزارية، ولم يتول وزارة من قبل. ومعنى توليه رياسة الوزارة، أنك سوف تحرقه.. وهذه خسارة كبيرة، لأنه رجل ممتاز..

وسألني:

- والاشاعة الثالثة؟..

قلت:

- الاشاعة الثالثة عن الدكتور مصطفى خليل. واعتقد أنه الأنسب لرياسة الوزارة في هذه المرحلة لأسباب عديدة. التحدي الاقتصادي هو التحدي الأول الذي يواجهنا. وقد اكتسب مصطفى خليل خبرة اقتصادية، مع السوق، في رياسته للمصرف العربي الدولي.. كما أن له خبرات طويلة سابقة، فقد تولى مناصب وزارية عديدة في عهد عبد الناصر.. كما أنه رجل نزيه وصاحب رأي..

قال السادات:

- فعلاً.. أنه صاحب رأي.. وأريد أن أقول لك شيئاً لا تعرفه، لا تصدق أن وزيراً كان يجرؤ على معارضة عبد الناصر في أي مناقشة.. باستثناء واحد فقط هو مصطفى خليل.. كان يختلف مع عبد الناصر، ويتمسك برأيه، و«يزرجن» معاه.. وأنا أحب الذي يناقشني ويقول لا.. بحجة ومنطق.

وأنهى السادات المقابلة.. ولم يقل شيئاً عن قراره.. ولكنني استنتجت أنه اقتنع بفكرة تولي مصطفى خليل رياسة الوزارة..

وتركت استراحة القناطر، وطرقت باب شقة الدكتور مصطفى خليل في الزمالك قبل أن أتوجه الى منزلي القريب منه..

ودهش الرجل، لهذه الزيارة بغير موعد..

ورويت له ما جرى.. وقلت له إنني أتوقع أن يستدعيه الرئيس السادات.. وفضلت أن أخطره حتى يكون مستعداً..

وفي اليوم التالي، استدعى الرئيس السادات، الدكتور مصطفى خليل، وكلفه بتأليف الوزارة..

وعرفت بعد ذلك أن النائب حسنى مبارك لم يكن مقبلا على رياسة الوزارة، واعتذر للسادات عن عدم قبول المنصب.

* * *

وإزداد اتصالي بالرئيس حسني مبارك، بعد اغتيال السادات، وتوليه رياسة الحكم.. بحكم موقع عملي الصحفي.. وأعطاني الرجل من ثقته الكاملة، ما اعتز به.. وقد عرف عني أنني لا أقول له إلا الصدق، في إجابتي عن أي سؤال يوجهه لي.. وأسعدني أنه كثيراً ما كان يتحدث عني الى ضيوفه، ويصفني بأنني صحفي نظيف، صاحب مبدأ ووفاء..

ثم جاء موعد تطبيق قانون الصحافة، بالنسبة لسن الاحالة الى المعاش..

وأشهد أن الرجل كان ضائقاً، بأن القانون سوف ينطبق علي، فأترك رياسة مجلس الادارة، ورياسة التحرير.. وعبر الرئيس عن حرجه من هذا الموقف، أكثر من مرة لعدد من الأصدقاء والزملاء..

وقلت للرئيس:

ـ لا تعل همي يا سيادة الرئيس.. ان مهمتي الأولى والأخيرة، كاتب وصحفي.. وقد عملت رئيساً للتحرير أكثر من ٢٨ عاماً.. ورئيساً لمجلس الادارة أكثر من ٩ سنوات.. ويكفيني هذا العبء الاداري..

وكنت في ذلك صادقاً، كل الصدق..

وقال لي الرئيس:

ـ مقالك يجب أن يبقى في الصفحة الأولى من «الأخبار»..

وأخذ الرئيس بوجهة نظري في ترشيح طلعت الزهيري رئيساً لمجلس الادارة، وسعيد سنبل رئيساً لتحرير الأخبار.. ووجدي قنديل رئيساً لتحرير آخر ساعة..

ثم عرض علي رياسة تحرير «مايو». . واعتذرت له شاكراً، واقتنع بالأسباب الموضوعية التي أبديتها. .

وأراد أن يكرمني، بقبول أن يفتتح الدار الجديدة لمؤسسة أخبار اليوم، التي انتهيت من بنائها مع أحدث مطابع العصر. . وتكلف المشروع الكبير ٢٥ مليوناً من الجنيهات. .

* * *

وحضر حفل الافتتاح. . وتفقد المطابع الجديدة. . واجتمع برؤساء التحرير والكتاب أكثر من ساعتين. . واستقبله كل العاملين في المؤسسة استقبالاً حافلاً رائعاً. .

وتفضل وكتب في سجل الزيارات ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. .

أنني سعيد جداً بزيارتي لمؤسسة أخبار اليوم، وزيارة الدار الجديدة للمؤسسة بما فيها من مطابع وأجهزة فنية على أحدث التطورات العلمية، وكل ذلك قام بالجهود المصرية المشرفة.

وقد خرجت من الزيارة التي استمرت أربع ساعات، بأطيب وأجمل المشاعر وذلك لما لمست من روح عائلية تجمع أسرة كل العاملين مع ترابط إنساني رائع. . كما أعجبني المستوى الرفيع في الحوار الذي جرى مع أسرة التحرير. . وبهذا تحقق النجاح لهذا البناء الشامخ.

ويسعدني أن أسجل تقديري الكبير للأستاذ موسى صبري رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير الذي وضح جهده المستمر، وإخلاصه المتفاني للعمل والمبدأ في تولي مسئوليته المهنية والوطنية بنزاهة وشرف.

وأهنىء أعضاء مجلس ادارة المؤسسة على هذا النجاح المرموق. . وكل نجاح هو نجاح لمصر. . ومن أجل مصر.

مع تحياتي وأسعد تمنياتي

محمد حسني مبارك

وكـانت هـذه التحيـة من الـرئيس مبـارك، خـير تكـريم لي، وأنـا أتـرك المسئولية الادارية في مؤسسة أخبار اليوم.

ولم يحدث في زيارات الرئيس حسني مبارك لمختلف المؤسسـات على مـدى سنـوات، أن كتب تحية لأي شخص مسئـول بالـذات في أية مؤسسـة. وكلماته التي يسجلها دائماً، هي تحية لكل العاملين بالمؤسسة الناجحة.

ولذلك فإنني أعتز بهذا التكريم لشخصي، من سيادته.

الفصل السابع والأربعون

وبعد.. حساب الأخطاء والخطايا!

مطاردة لسيدة بريطانية في مصر الجديدة ـ قصة صحفية عن فنانة بغير توقيعي ـ مقال طه حسين ـ مقاطعة أسماء من يهينون الصحافة من الفنانين والسياسيين ـ مقاطعة إسم فنان كبير في صحف دار الهلال ـ حدود النشر بالنسبة للحياة الشخصية للشخص العام ـ ميثاق شرف بين الصحف البريطانية في عام ١٩٨٩ ـ صحافة الإبتزاز قبل الثورة ـ حماية مصادر الأخبار على حساب الخبر الصحيح ـ نص غير عملي في الاستفتاء الشعبي الذي طرحه السادات عن مبادىء الحكم ـ نتائج الإنتخابات ـ معادلات صعبة في دول العالم الثالث ـ موضوع عن خالد محيي الدين ندمت بعد نشره ـ الصحافة والقضاء ـ الصحافة والإعلان.

الفصل السابع والأربعون

وبعد.. حساب الأخطاء والخطايا!

وبعد. .

لقد حاولت في هذه الصفحات الطويلة، أن أقدم تجربة قرابة نصف قرن من الزمان، في دنيا الصحافة. . وأرجو أن تكون مفيدة للأجيال الصاعدة في هذه المهنة الممتعة. . أو لهواة القراءة عن الصحافة. .

ولكن. . هل أنا الملاك الذي هبط إلى بلاط صاحبة الجلالة، متجرداً من كل الأخطاء والخطايا، مقدماً دائماً في سلوكه وسطوره على كل ما هو جميل وطاهر ونقي؟ . .

ألم تطارد صدري حراب الندم، على تصرف خاطىء، أو كلمة ظالمة، أو إقتناع أناني، أو تسخير للكلمة في غير هواها الشريف الشفيف؟ . .

إنني أحاول أن أجلس على كرسي الإعتراف. . لكي أمارس المواجهة الصعبة، حساب النفس.

* * *

لعلني تألمت أول ما تألمت من عمل صحفي جلب لي التهنئة. . عندما طاردت سيدة بريطانية، كانت قادمة من إنجلترا، خلال مرحلة العمل الفدائي في منطقة القنال. . وقد إرتكب ولدها الشاب الجندي في القوات البريطانية، جريمة، إستحق عليها الحكم بالإعدام. . لست أذكر الآن نوع هذه الجريمة. . ولكن كل ما أذكره أنني طاردت هذه السيدة في أحد فنادق مصر الجديدة، ومعي مصور «آخر لحظة»، لكي نصورها وأحصل منها على حديث. . وكانت

هي في قمة آلامها، لا تريد أن تواجه الصحافة. . لقد جاءت للقاء أخير مع ولدها، قبل أن ينفذ عليه الحكم رمياً بالرصاص. . وحاولت السيدة التهرب من الصحافة وسط إجراءات أمن مشددة. . ولكنني تحايلت على الإختفاء في ركن مستتر من سلم الفندق. . ولما إقتربت مني، وكان الوقت ليلاً. . ظهرت فجأة ومعي المصور. . وأطلقت الأم صرخة فزع وصرخت. . إبتعدوا عني؟. . احترموا قلب الأم. . ولكنني وفي نشوة الإنفراد بالصورة الصحفية لم أبتعد. . ولم أحترم قلب الأم. . والتقطت الصور. . ثم هربنا من مطاردة الأمن. . وعدت إلى «أخبار اليوم» سعيداً بهذا النجاح. . وتلقيت التهنئة عندما إنفردت آخر لحظة بصورة هذه الأم وهي صارخة فزعة. . ولكنني في لحظة صفاء بعد ذلك. . أصابني ألم عظيم. وماذا لو لم ننفرد بهذه الصورة التي عجزت عنها وكالات الأنباء العالمية؟. . ماذا لو لم تنشر أصلاً؟. . إن الثمن هو ضربة إلى قلب أم جاءت من آخر الدنيا لتقول للإبن. . وداعاً. . بل لعلها تصورت أننا وحوش. .

* * *

وأعترف أنني ارتكبت خطأ فاحشاً. . عندما قدمت إلى «أخبار اليوم» قصة صحفية، إستغرقت صفحة كاملة. . كتبتها والنار تحرق قلبي، والقلق ينهش صدري. . لقد أمضيت الليل طوله في كتابتها حتى مطلع الفجر. . وكنت أول من قصد إلي أخبار اليوم في الصباح، لكي أقدمها إلى مصطفى أمين . . الذى قرأها ، وأجاز نشرها . . واسترحت لقراره فقد كنت أخشى أن يرفض نشرها . .

كنت أواجه أزمة عاطفية قاسية، عندما إكتشفت أن الفنانة التي عرفت معها الحب عميقاً، فائقاً، يملك على الإنسان حياته، لأول مرة. وعشت في هذا الحلم الجميل، طائراً سعيداً مغرداً. . ثم إكتشفت أنها بين أحضان رجل هو زوج لفنانة صديقتها. . وكانت صدمة حطمت كياني. . ولم أنم ثلاثة أيام متصلة. . وخشيت أن أصاب بالجنون بسبب هذا الأرق والقلق. . ولجأت إلى الدكتور أنور المفتي. . الذي أقنعني بأن الحياة لم تنته، لأن إمرأة خانت حبي. . ودائماً نحن نبدأ حياتنا من جديد. . ولكنني كنت أضعف من أن أحتمل

الصدمة.. وقررت الإنتقام. وأمسكت القلم، أكتب قصة هذه الخيانة بأسمائها حتى الفجر. كتبت كل شيء، إلا أنني المحب الذي مزقته الخيانة. ولم أوقع المقال..

وعندما ظهرت «أخبار اليوم» أحسست ببعض الراحة.. وخاصة عندما إتصلت بي الفنانة بالتليفون.. تسألني: هل تعرف من كتب هذا المقال عني؟.. وأجبت: لا أعرف..

وسبب لها المقال متاعب قاسية.. وكانت تخشى أن تظهر على المسرح بعد أن أطلقت عليها صفة «سارقة الأزواج»!

حدث هذا منذ خمسة وثلاثين عاماً.. ولكنني لا أزال أشعر حتى اليوم، أنني تجردت من المبدأ، وأنني إستخدمت القلم في إنتقام شخصي.. في هذه القصة الصحفية. إنها سقطة في حياتي لم أغفرها لنفسي.

* * *

وأعترف أيضاً، أنني أخطأت خطأ كبيراً.. عندما هاجمت الأستاذ الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، عندما إستشعرت من سطور كتبها، أنه يصف رؤساء تحرير «الجمهورية» بالغفلة، وعدم الكفاءة في أداء المسئولية.. وقد كنت أنا رئيس التحرير المسئول.. وذلك في معرض إحتجاجه على نشر مقال لإبراهيم الورداني، وصف فيه الأدب اليوناني بأنه أدب عفاريت..

وبعد النشر، غضب طه حسين.. ثم قصدت إليه في منزله بالهرم، لكي أعتذر له.. وكان كريماً معي، وأكد لي أنه لم يقصدني بسطوره، وأنني الوحيد الذي يقرأ له ما يكتب.. وقد نبهني إلى خطئي، صديقي المرحوم أحمد رشدي صالح.. وقال لي ما معناه أن طه حسين قيمة كبرى.. ونحن جميعاً منه في مقام التلاميذ الصغار.. وإذا كتب.. وإذا أصابت سطورة أي واحد منا.. فهذا حق لطه حسين علينا.. حق للمعلم الكبير.

وتعلمت من هذا الخطأ، انني يجب أن أسيطر على أعصابي، في حالات الإنفعال.. ويجب ألا أبالغ في قدر نفسي، ما دام في يدي قلم.. وهناك قيم

كبيرة يجب أن يكون لها إحترامها دائماً. . وهي أبداً في منزلة الآباء لها التوقير والاحترام. .

* * *

وقد تلقينا في «أخبار اليوم» درساً، في عدم الإنحياز للعمل الصحفي. إن الصحيفة ليست ملكًا لمحرريها، إنها ملك أولاً للقارىء، الذي من حقه علينا، أن نقدم له الإعلام الصحيح جريًا على مبدأ أن من حق القارىء أن يعلم . ولذلك فإن الصحيفة يجب أن تفتح سطورها لكل الأخبار، حتى لو كانت أخبارًا عن خصومها، أو من يهاجمونها. . كنا نغضب إذا تحدث نجم سياسي أو فني عن «أخبار اليوم» بسوء. . وكنا نقول : علينا أن نقاطع هذا السياسي أو الفنان. .

ولكن المبدأ الصحفي الذي تعلمناه. . هو أن الخبر من حق القارىء. . ومن حقنا أن نعلق ونبدي رأينا. أما المقاطعة فهي ليست من حقنا. .

وأحسب أنني تجاوزت هذا المبدأ في بعض المناسبات. . وكنت أشطب أخبار من يعادينا أو يعادي صحيفتنا. . وهذا خطأ. ولكن طبيعة الضعف في الإنسان، لا يمكن أن نتجرد منها في كل الأحيان.

ويقابل هذا. . أخبار المجاملة. .

لا أستطيع أن أبرىء نفسي، بأنني جاملت بعض الأشخاص، في نشر أخبار عنهم. . قد تكون أخباراً صحيحة. . ولكن النشر في حد ذاته، كان للمجاملة، وربما لا يوجد هذا النوع من الأخبار إلا في صحافة العالم الثالث. .

* * *

وقد درجت الصحف في مصر، قبل الثورة، على أن تقرر مقاطعة إسم وزير أو رئيس وزراء، إذا صدر عنه ما يهين الصحافة.

حدث هذا. .

ولست أدري حتى الآن، هل هذا من حق الصحيفة، دفاعاً عن الكيان

الصحفي؟.. أم أن حق كل مواطن على الصحيفة ألا تقاطع إسمه.. ما دامت تملك التعليق على تصرف هذا المواطن..

وقد حدث، عندما أمر جمال عبد الناصر، بوقفي عن العمل، بسبب نقد وجهته للمذيعة همت مصطفى.. إن إتصل فنان كبير، بمحرر كبير في صحف دار الهلال، وعنفه على نشر نقد لهذا الفنان الكبير وقال له: أنت تعرف ماذا جرى لموسى صبري بسبب ما نشر..

وأذكر أن على أمين ـ وقد كان رئيساً لمجلس إدارة دار الهلال ـ ثار لكرامة الصحافة.. وأصدر أمراً مكتوباً إلى جميع صحف دار الهلال، بمقاطعة إسم هذا الفنان، وأخباره..

ولا أنكر أنني إسترحت لهذا القرار من علي أمين وشكرته عليه..

واتصل الفنان الكبير، بعلي أمين، وبي.. وأنكر ما صدر عنه. وتمّ الصلح. وعاد اسمه إلى الظهور في صحف دار الهلال..

وأعود إلى السؤال.. هل هذا من حقنا كصحفيين، نملك سلاح النشر؟..

* * *

ويثور سؤال أيضاً..

ما هو الحد الفاصل في النشر، بين ما هو حياة شخصية للانسان العام لها حرمتها، ولا يجوز النشر عنها.. وبين ما هو حق للناس أن تعرفه عن حياة الانسان العام..

وهذه المشكلة قائمة في الصحافة البريطانية الشعبية، منذ سنوات.. وقد هددت الحكومة، كما هدد عدد من أعضاء مجلس العموم البريطاني، باستصدار قانون يحمي الحياة الخاصة للأفراد من النشر في الصحف.. وقانون آخر يقرر حق الرد للمواطن الذي أصابه ضرر من النشر الذي يراه كاذباً عنه..

. وسبب المشكلة أن الصحف البريطانية الذائعة الانتشار، تجاوز كل الحدود في النشر عن الحياة الخاصة، للسياسيين والفنانين وأعضاء الأسرة

المالكة . . كما تحايلت للحصول على صور الحياة الخاصة بكل أنواع الخداع . .
كما أن الصحف لا تعترف بحق الرد المعترف به في كثير من الدول . .

واتفق رؤساء تحرير الصحف البريطانية أخيراً، في شهر نوفمبر ١٩٨٩، على إصدار ميثاق شرف، يلتزمون به . . وأذاعوه على الرأي العام . . وهو يحدد حق الصحف في النشر عن الحياة الخاصة، إذا كان ما ينشر عنه يمس المسئوليات العامة للشخص . . كما أقرّ ميثاق الشرف ، حق الرد ، إذا لم يكن الرد لتكذيب وقائع تأكدت الصحفية من صحتها وعلى مسئوليتها . .

وقد تعرض الفنانون في مصر كثيراً، قبل الثورة، للنشر عن حياتهم الخاصة، في قصص الحب والزواج والطلاق . . ولكن بعض الفنانين، وجدوا الحماية من هذا النشر، لأن لهم روابط قوية مع أصحاب الصحف . . ومثل ذلك السيدة أم كلثوم . . فإنها لم تتعرض للنشر عن حياتها الخاصة إلا نادرًا جدًا ، وفي صحف صغيرة محدودة الانتشار . .

وتضاءل النشر كثيراً، عن الحياة الخاصة بعد الثورة . . إلى أن صدرت صحيفة الوفد بعد السماح بتكوين الأحزاب . . وكانت الحياة الخاصة لكثير من الشخصيات العامة، والتشهير بهذه الحياة في أخبار كاذبة . . من أكثر ما تنشره الصحيفة . . ولكن القضايا التي رفعت على صحيفة «الوفد» وخسرتها، وكذلك الاستنكار العام لدى الرأي العام لهذا النوع من الأخبار . . اضطر تحرير صحيفة الوفد إلى التراجع بنسبة كبيرة . . وأصبح النشر عن الحياة الخاصة في نطاق محدود، في باب «العصفورة» الذي تحول إلى صفحة أسبوعية.

* * *

وأذكر أن احدى المجلات الفنية قبل الثورة . . كانت تستخدم هذا الأسلوب للابتزاز . . فكانت تشير إلى أنها سوف تنشر عن احدى الفنانات فضيحة خطيرة في عدد مقبل . . وإذا ما دفعت الفنانة لهذه المجلة ما هو مطلوب، امتنعت عن النشر!

واعترف أيضاً، أن العمل الصحفي السياسي، أوقعني في المأزق الذي يدفع إليه، كل صحفي يتخذ موقف التأييد أو المعارضة إزاء المواقف العامة . .

ان الصحفي يحتاج في ممارسة عمله الاخباري، أن يـوثق صلاتـه بمصادر «الأخبار».. وهي رأس مال الصحفي.. ولذلك فهـو مضطر إلى عـدم نشر ما يمس هذا المصدر، ولو كان صحيحاً، ولو كان النشر يخدم صـالحاً عـاماً.. بـل ان الصحفي قـد يجنح إلى حمـاية مصـادر أخباره، بـالدفـاع عنهـا، في مـوضـع لا يجوز فيه الدفاع..

كـما أن صلة الصحفي الكبير بـرئيس الـدولـة، في بـلاد العـالم النـامي، واتخاذه موقف التأييد لسياسة رئيس الدولة.. تضع الصحف في موقف محـرج، إذا ما أصدر رئيس الدولة قراراً يرى الصحفي أنـه خاطىء أو غـير صائب.. انـه في وضع لا يستطيع فيه أن يعـارض هذا القـرار وخاصـة إذا استغلته المعـارضة وكـان موضـوع حملات هجـوم.. وهو إذا احـترم نفسـه وقلمـه، يلتزم مـوقف الصمت عـلى أحسن الأحوال.. والمنـطق الـواقعي هنـا.. ان الصحفي يؤيـد وضعاً عاماً، حسناته ترجح سيئاته..

حدث لي هذا في مواقف عديدة، مع الرئيس السادات..

عندما قرر فصل النائب الشيخ عاشور من عضـوية مجلس الشعب، بعـد أن هتف بسقوطه داخل القاعة..

لقد ناقشت الرئيس السادات في هذا القرار، ووصلت إلى إقنـاعه بكتـابة خطاب إلى رئيس مجلس الشعب يتنازل عن حقـه الشخصي.. ووافق السادات على أن أكتب له هذا الخطاب.. ثم عدل عن موافقته..

ومـع ذلك.. وعنـدما أصـدر مجلس الشعب القرار.. لم أكتب معـترضاً عليه..

وعندما قرر السادات إجـراء استفتاء شعبي عـلى بعض مبادىء الحكم.. وكان منها مبدأ ألا يتولى أي شخص شيوعي، منصباً عـاماً.. نـاقشت الرئيس السادات طويلاً في هذا القـرار، لأن تطبيقـه مستحيل.. وبـأي معيار تحكم عـلى شخص بأنه شيوعي أو غير شيوعي.. واستمع لي الـرئيس السادات طـويلاً.. ولكنه لم يعدل هذا النص أو يحذفه..

وجرى الاستفتاء.. ولم أكتب معترضاً على هذا النص.

كما ناقشت الرئيس السادات طويلاً، في أن الناس تسخر من نتائج الانتخابات التي تكون دائماً أكثر من ٩٩ في المائة.. وأقتنع الرجل بضرورة العدول عن هذا.. وقال لي يكفي ٦٠ في المائة.. ان ديمقراطيات العالم، ترى أن حصول الحاكم أو النائب على نسبة ٥٢ في المائة.. نجاح كبير. وطلب مني أن أبلغ ممدوح سالم رئيس الوزراء بذلك.. ثم أجريت الانتخابات، وظهرت النتائج كالعادة أكثر من ٩٥ في المائة..

ومع ذلك لم أكتب معترضاً على ذلك.. على الرغم من أنني لا أقره..

كما ناقشت الرئيس السادات طويلاً، في موضوعين جوهريين.. صلته بالمهندس عثمان أحمد عثمان، وهو ابن الشعب الفقير.. وعثمان من كبار أصحاب الملايين.. وكيف أنها تؤثر على الرصيد الشعبي للرئيس السادات.. ثم حمايته لأشرف مروان في منصبه برياسة الجمهورية، بعد أن أصبح مركز قوة، وأثرى..

ومع ذلك، لم أكتب في هذين الموضوعين.. وغضب السادات، مما اضطرني إلى الاستقالة، عندما كتبت عن سقوط دولة أشرف مروان، بعد أن قرر الرئيس ابعاده من رياسة الجمهورية.

وكل هذه الأمثلة، تعبر عن معادلات صعبة، غير قابلة للحل، في دول العالم الثالث، عندما يتخذ الصحفي الكبير، موقف التأييد لسياسة رئيس الدولة.

* * *

خطأ آخر لا أستطيع أن أنساه..

لي موقف واضح من اتجاهين سياسيين.. الاتجاه الماركسي في حزب التجمع الوحدوي الذي أطلق عليه حزب التجمع الشيوعي.. والاتجاه المتطرّف في جماعة الاخوان المسلمين والجماعات الاسلامية..

ولا غرابة إذا حاسبت نفسي، على اندفاعي في معارك الرأي، بعاطفة ساخنة، يمكن أن تنفلت بها كلمات قاسية تجري على الورق.. ولكنني أعترف

بأنني لم أستطع أن أنسلخ عن هذا الأسلوب.. إنه جزء من طبيعتي العاطفية، إذا ما أيدت، وإذا ما عارضت.. ودائماً يداعبني أصدقائي بهذه العبارة.. «يا سعد من تؤيده.. ويا ويل من تعارضه».. نعم أعترف بأن عاطفتي تسبق كلماتي..

ولكنني لا أغفر لنفسي موضوعاً كتبته عن خالد محيى الدين، على شكل رسالة من قارىء إلى «الأخبار».. وتعرَّضت في هذه الرسالة، إلى حفل دعا إليه خالد محيى الدين، بمناسبة زفاف ابنته ووحيدته.. لقد تلقيت معلومات، أعترف أنني لم أدقِّق في صحتها، عن مظاهر بذخ بدت في هذه الحفلة.. ثم مشروبات داخت بها الرؤوس.. وكتبت الرسالة متسائلاً: هل هذه هي الاشتراكية التي يعيشها خالد محيى الدين زعيم الشيوعيين في مصر؟..

وردّ خالد محيى الدين، برسالة مهذَّبة، حدَّد فيها مصروفات الحفل، التي دفعها إلى فندق شيراتون.. وتساءل: هل كثير عليّ أن أحتفل بوحيدتي؟..

واتصلت بإدارة الفندق، وتبيَّن لي خطئي.. وصحة ما جاء في رسالة خالد محيى الدين.. وأذكر أن أمينة السعيد، اعترضت على ما نشر.. وقالت لي.. ما كنت أريد لك أن تقع في مثل هذا الخطأ..

وهذا صحيح.. إنه خطأ يجب أن أحاسب نفسي عليه..

* * *

ولا يغيب عن خاطري، مقال كتبته في الثاني والعشرين من ابريل عام ١٩٧٥، بعنوان: «خطاب مفتوح إلى وزير العدل: .. رفقاً بطهارة القضاء»..

كان أحمد حسني وزير العدل الأسبق، في السنوات الأولى للثورة، قد تقدَّم بمذكرة أقرّها رئيس الجمهورية، بأن المستشار من رجال القضاء، الذي يستقيل لكي يترشَّح في انتخابات البرلمان، يتقاضى مرتبه حتى سن الإحالة إلى المعاش، إذا لم يفز في الانتخابات. وبالنسبة لما دون المستشار فإنه يتقاضى مرتبه ثلاث سنوات. وكان الهدف من مذكرة وزير العدل الأسبق، هو تشجيع رجال القضاء، على الاشتراك في العمل السياسي، وحتى تتوافر في المجلس النيابي، عناصر قضائية تصلح للتشريع..

وقد حدث أن خلت دائرة انتخابية في منفلوط في عام ١٩٧٥، فتقدم للترشيح فيها ١٣ من رجال القضاء، بينهم ٧ مستشارين بعد أن قدموا استقالاتهم.

وعلّقت على ذلك بقولي: «إن بعض هؤلاء المرشحين، من المستشارين والقضاة، قد استقالوا من مناصب القضاء، وتقدموا للترشيح لا لكي يظفروا بثقة الناخبين وأصواتهم.. ولا لكي يصلوا إلى مقعد التمثيل الشعبي تحت قبّة مجلس الشعب.. ولكن لكي يسقطوا في الانتخابات!.. بل إنهم لن يجهدوا أنفسهم بزيارة الدائرة الانتخابية مرّة واحدة، بعد أن تحمّلوا مشقّة السفر وقدّموا أوراق الترشيح.. ذلك لكي يتناول المستشار منهم أكثر من مرتبه، بغير عمل يؤديه.

وقلت: هي إذن عملية تجارية!.. ومن بطلها؟.. قاضٍ أرادت له ثورة ١٥ مايو أن يكون جليلاً..

سيدي وزير العدل..

إنني أطمع منك.. في قرار سريع جداً، يزيل هذه البقعة السوداء، من ثوب نقي شفيف أبيض، لا نريد أن يمسّه حتى أقل الغبار»..

* * *

واتصل بي المستشار وزير العدل تلفونياً.. وتصوّرت أنه سيؤيد ما ذهبت إليه. وإذا به غاضب مرتفع الصوت، واتهمني بأنني أهين القضاء.. وأنه سيشكو أمري إلى الرئيس السادات..

وحاولت أن أتفاهم معه بالكلمة الطيِّبة.. ولكنه كان يكرِّر.. سأشكو للرئيس السادات.. وقطعت الحوار على الفور.. وقلت له في مثل غضبه: افعل ما تشاء!

* * *

وفي اليوم التالي ـ طلب لقائي مستشار ـ لا أذكر اسمه الآن ـ وقال لي إنه أحد من استقالوا للترشيح..

وروى لي الرجل، كيف أنه استخدم حقاً مشروعاً.. وكيف يلام لأنه استخدم هذا الحق، ونسى كم يتحمَّل رجل القضاء النزيه في سبيل أداء رسالته، من عنت العيش.. كيف يحرم نفسه من الملبس، لكي يشتري الملبس لأولاده.. كيف يتشعلق في الأوتوبيس، لأنه لا يستطيع شراء سيارة.. وكيف.. وكيف.. ولو كان مفرطاً في نزاهته، لما لجأ إلى هذا الترخيص القانوني، إذا استقال للدخول في الانتخابات وفشل.

كان الرجل صادقاً كل الصدق.. يتحدث بأعماق مشاعره.. ومسَّتني كلماته.. ودمعت عيناه.. ودمعت عيناي..

وغمرني ندم عظيم على ما كتبت..

وبمجرَّد انصرافه، أمسكت القلم.. وكتبت مقالاً بعنوان: «لهم.. كل الإجلال».. وقلت في مقدمة المقال:

هل أسلت دماً وما كان يجب أن يسيل؟

هل جرحت قلوباً، كان يجب أن أربت عليها بكل العطف والحنان؟..

هل تطاولت بالكلمة، حيث كان يجب أن أحبس الكلمة في صدري؟!

هذه الأسئلة تلاحقني، في قسوة، ساعة بعد ساعة، منذ صباح يوم الأحد بعد ظهور مقالي «رفقاً بطهارة القضاء»..

ثم قلت:

ـ بعض رجال القضاء تفضَّل مقدوراً، بالحديث التليفوني الغاضب، وبعضهم شرَّفني بالزيارة.. وتحدَّث والألم يعتصر قلبه، حتى آثار الوجيعة الدامعة في قلبي.. بل في عيني.. وكل هؤلاء تركز احتجاجهم في دائرة واحدة. إرفع يدك عن القاضي الذي يعاني.. سخِّر قلمك للمستشار المهيب الذي تطحنه أثقال الحياة، ولا يشكو حاجة إلى دواء، وينتظر الساعة الكاملة، أمام محطة الأوتوبيس، ويحتفظ بنزاهته، ويعلي كرامته، ويتألَّم ولا يتكلَّم، وينزف الدم، ويكتم الآهات الحزينة، ويقضي بالعدل في ملايين الجنيهات.. وهو الباحث عن مصرف يقترض منه، لمواجهة الضروريات».

ثم قلت:

ـ «وقال لي مستشار آخر.. ولماذا الاستقالة بسبب امتياز الانتخاب

التشريعي فقط. . ألم يجئك حديث خمسة مستشارين بمحكمة النقض ـ أحدهم نائب رئيس النقض ـ وهم قمم القضاء في مصر. . لقد استقالوا أيضاً، لكي يعملوا في دول عربية؟. . أوَلم تسمع عن أربعة مستشارين في محاكم الاستئناف، أحدهم رئيس محكمة الجنايات، قد استقالوا أيضاً لنفس السبب؟. . أليس كل هؤلاء خسارة قومية، أن يفقدهم قضاء مصر؟. . بعد أن أعطوا الدم والشباب وكل تجربة العمر، لمنصة رفيعة شامخة، تمثل أعلى مقام في البلاد. . ولو كانوا عبيداً للمال الحرام، يسعى إليهم يقبِّل يداً تمتد إليه، ولو كانوا من غير جوهر الشرف ومعدن النقاء. . لما فكّروا في الاستقالة يطالبهم بها، ويجبرهم عليها. . قسم أن يحكموا بالعدل. . وهو أشرف القسم». .

* * *

وشعرت بالراحة بعد كتابة هذا المقال. .

وبعد خمسة عشر عاماً. . وذات مساء من عام ١٩٩٠، تقدَّم مني رجل طيِّب القسمات، وكنا في حفل استقبال بسفارة فنلندا في مصر. . وسلّم عليّ بحرارة، وسألني: ألا تذكرني؟. .

ولم أتذكَّر. .

ثم عرفت أنه المستشار السابق، الذي زارني في مكتبي، وأسال دمعي. .

وأعدت السلام عليه بحرارة ومودة. .

وأحمد الله أن الأوضاع الحالية، لرجال القضاء، قد تحسَّنت كثيراً. . والحاجة دائماً إلى مزيد. .

خطاب مفتوح إلى وزير العدل:
. . رفقاً بطهارة القضاء

السيد المستشار عادل يونس وزير العدل. .

أعلم، وكل رجال القضاء يعلمون، أنك رمز مضيء لضمير القضاء علماً ونزاهة وكرامة. وإذا كانت مذبحة القضاء قد استهدفتك. . غياً وبطشاً، وتحطيماً لمعصوبة العينين بميزان العدل، فإن ثورة ١٥ مايو قد لأمت الجرح العميق، وانتشلت العدل والميزان، من يد الزور والبهتان، نوراً وعزة وجلالاً.

ومن موقع ثورة ١٥ مايو، التي أنكرها المنافقون، الذين كانوا يطلقون البخور للقهر، ويسبّحون بحمد من يظلمون ويقهرون، ويروّجون ـ ولا يزالون ـ لأيام سوداء، تسيّدت فيها المحن الهوجاء، وصال فيها شيطان السجن والتعذيب، وعربد فيها القلم الكاذب الشرير، وانحدرت القيم حتى أجلست الدجوى على مقعد القاضي. . من موقع ثورة ١٥ مايو. . من موقع القانون السيد. . أكتب إليك عن واقعة صغيرة. . ولكنني أستشعر منها خطراً داهماً، على سمعة القضاء.

* * *

لقد خلت دائرة انتخابية في منفلوط، فتقدَّم للترشيح فيها ١٣ من رجال القضاء بينهم ٧ مستشارين بعد أن قدَّموا استقالاتهم.

وقانون الانتخاب يستوجب أن يكون المرشح مقيَّداً بدائرة الانتخاب، ونقل بطاقة انتخاب المرشح إلى دائرة الانتخاب يستوجب أن تكون الدائرة محلاً لإقامة المرشح أو مقراً لعمله الرئيسي. . ولا أحسب أن الشرطين متوفران في معظم من قيدوا. . ولكن أوراقهم ـ في حدود علمي ـ قد قبلت خطأ.

وهذا أول تجريح للقانون. . ويؤسفني أن أستخدم هذا الوصف الذي لم أجد غيره تعبيراً صادقاً. .

وكل الرجاء أن يتدارك وزير الداخلية هذا الخطأ، عندما يصدر القرار بشرعية ترشيحهم، وأمامه عشره أيام تبدأ من اليوم.

* * *

ولكن الأهم يا سيدي. . هو سلوك القاضي

إن بعض هؤلاء المرشحين من المستشارين والقضاة، قد استقالوا من مناصب القضاء، وتقدموا للترشيح. . لا لكي يظفروا بثقة الناخبين وأصواتهم. . ولا لكي يصلوا إلى مقعد التمثيل الشعبي تحت قبة مجلس الشعب. . ولكن لكي يسقطوا في الانتخابات!

. . بل إنهم لن يجهدوا أنفسهم بزيارة الدائرة الانتخابية مرة واحدة بعد أن تحمَّلوا مشقّة السفر، وقدَّموا أوراق الترشيح.

لماذا؟ . .

كان أحمد حسني وزير العدل الأسبق في السنوات الأولى للثورة، قد تقدَّم بمذكرة أقرّها رئيس الجمهورية، بأن المستشار المستقيل إذا لم يفز في الانتخابات، فإن من حقه أن يتقاضى مرتبه حتى سن الإحالة للمعاش، وبالنسبة لما دون المستشار فإنه يتقاضى مرتبه ثلاث سنوات. والأصح أنهم يتقاضون أكثر من المرتب، لأن القرار أنه يقبض معاشه مضافاً إليه الفرق بين المرتب والمعاش. والمعاش وحده معفى من الضرائب!

كان الهدف من مذكرة وزير العدل الأسبق ـ الذي نذكره بكل التكريم ـ هو تشجيع رجال القضاء، على الاشتراك في العمل السياسي، وحتى تتوافر في المجلس النيابي عناصر قضائية تشريعية. .

وانقلب الأمر بعد ذلك، من بعض رجال القضاء ـ ويا للعار ـ إلى سوء استغلال لهذا التيسير. . وأصبحوا يتقدمون للانتخابات، لكي يسقطوا، فيتناول المستشار منهم أكثر من مرتبه، بغير عمل يؤديه. . وكذلك من دون المستشار لمدة ٣ سنوات.

هي إذن عملية تجارية!.

ومن بطلها. . قاضٍ أرادت له ثورة ١٥ مايو أن يكون جليلاً!

سيدي وزير العدل. .

إنني أطمع منك. . في قرار سريع جداً، يزيل هذه البقعة السوداء، من ثوب نقي شفيف أبيض، لا نريد أن يمسه حتى أقل الغبار.

موسى صبري

وهذا هو المقال الثاني الذي كتبته بعد زيارة المستشار لي :

لهم . . كل الإجلال

هل أسلت دماً كان يجب ألا يسيل؟!

هل جرحت قلوباً كان يجب أن أربت عليها بكل العطف والحنان؟!

هل تطاولت بالكلمة، حيث كان يجب أن أحبس الكلمة في صدري؟!

هذه الأسئلة تلاحقني في قسوة، ساعة بعد ساعة، منذ صباح يوم الأحد بعد ظهور مقالي «رفقاً بطهارة القضاء».

* * *

بعض رجال القضاء تفضل مشكوراً، وأرسل تعليقات نشرناها، تعبِّر عن الرأي الآخر. وما زعمنا يوماً، أن حرية الكلمة حق للعاملين في الصحافة فقط.. بل هي حق كل مواطن.. وإلا كنا من القوم المنافقين، ورمزهم عاش بيننا يفرض الرأي الواحد، والفكر الواحد، في حماية القهر والسلطان.

وبعض رجال القضاء تفضل مقدوراً، بالحديث التليفوني الغاضب، وبعضهم شرَّفني بالزيارة، وتحدَّث والألم يعتمر قلبه.. حتى أثار الوجيعة الدامعة في قلبي.. بل في عيني!

وكل هؤلاء، تركز احتجاجهم، في دائرة واحدة.. إرفع يدك عن القاضي الذي يعاني.. سخِّر قلمك للمستشار المهيب الذي تطعنه أثقال الحياة، ولا يشكو حاجة إلى دواء.. وينتظر الساعة الكاملة أمام محطة الأوتوبيس.. ويحتفظ بنزاهته، ويعلي كرامته.. ويتألَّم ولا يتكلَّم، وينزف الدم، ويكتم الآهات الحزينة، ويقضي بالعدل في ملايين الجنيهات.. وهو الباحث في مصرف يقترض منه، لمواجهة الضروريات.

نعم.. لعل واقعة استقالة ١٣ قاضياً من بينهم ستة مستشارين، للإفادة من امتياز الاشتراك الشكلي في انتخابات دائرة منفلوط، لعلها الحدث الغريب.. الذي ذاع لكي يثير السؤال الكبير.. لماذا؟..

وعقب مستشار أجلّه.. «ولو كانت قد خلت في مجلس الشعب عشرون دائرة انتخابية لارتفع رقم المستشارين المستقيلين إلى مائتلا وأكثرا..

وقال مستشار آخر: ولماذا الاستقالة بسبب امتياز الانتخاب التشريعي فقط.. ألم يجئك حديث خمسة من مستشاري محكمة النقض ـ أحدهم نائب رئيس النقض ـ وهم قمم القضاء في مصر.. قد استقالوا أيضاً، ليعملوا في دول عربية؟.. أوَلم تسمع عن أربعة مستشارين في محاكم الاستئناف، أحدهم رئيس محكمة الجنايات.. قد استقالوا أيضاً لنفس السبب؟.

أليس كل هؤلاء خسارة قومية، أن يفقدهم قضاء مصر؟.. بعد أن

أعطوا الدم والشباب وكل تجربة العمر، لمنصة رفيعة شامخة، تمثل أعلى مقام في البلاد، حيث لا سيادة إلا للعدل لا يفرق بين وزير وخفير. . وبين قادر وعاجز. . وبين أهل خبرة وأهل ثقة. .

ولو كانوا عبيداً للمال الحرام، يسعى إليهم يقبّل يداً تمتد إليه. . ولو كانوا من غير جوهر الشرف، ومعدن النقاء. . لما فكّروا في استقالة يطالبهم بها، ويجبرهم عليها. . قسم أن يحكموا بالعدل. . وهو أشرف القسم.

* * *

وكل هذا ـ سادتي ـ من جانبي معقول ومقبول، ولست ممن يجادلون في أن القاضي يجب أن يؤمن ويحمى، وتقدم له كل الضمانات، التي تحمي ضعف الإنسان في كل انسان، ومن أجل هذا كتبت، ومن أجل هذا، قلت، إن الاستقالة لانتخابات شكلية، فيها تجريح للقانون.

قضية تكريم القاضي. . لتأمين حياته وعدله. . لا خلاف عليها.

وقضية تكريم القاضي، لنص القانون، وروح القانون. . هي أيضاً يجب ألا يكون عليها خلاف. وندائي، في القضيتين. . يتساوى اقتناعاً وحباً وإجلالاً للقضاء.

موسى صبري

بقيت ظاهرة مؤلمة في العمل الصحفي في مصر. . يجب أن أشير إليها، وهي المزج بين العمل الصحفي، والعمل الإعلاني.

إن إدارات الإعلان في الصحف، تقدّم الاغراءات للصحفي الذي يعمل في مجالات تجلب إعلانات للصحيفة، لكي يجلب لها الإعلان مقابل نسبة يحصل عليها من أجر الإعلان، تتراوح ما بين ٥ في المائة و١٠ في المائة.

وقد قدم هذا الأسلوب، دخلاً كبيراً، لعدد من الصحفيين، بأضعاف أضعاف مرتباتهم.

ومن ناحية أخرى، قد يؤجر الصحفي، على كتابة إعلان بالأسلوب الجذّاب، دون أن يكون هو جالب الإعلان.

وإنني أعتبر هذا المسلك، إهداراً كاملاً لعمل الصحفي.. بل هو يحوّل الصحفي، إلى موقف المبتز في ظروف كثيرة..

فكيف تطمئن الصحيفة، إلى صحة أخبار مندوبيها في وزارة الصناعة مثلاً، إذا كان الصحفي، يسعى للحصول على إعلانات من الشركات التي تتبعها هذه الوزارة.. إنه في سبيل كسبه من الإعلان، مضطر أن يغمض العين عن المساوىء والأخطاء، والبعض قد يتحوّل إلى ناقد بالكذب والزور، إذا فشل في الحصول على الإعلان.

وقد قاومت هذا الأسلوب، الذي انتشر بكل أسف في كل الصحف، بكل أنواع المقاومة.. على عكس رغبة إدارات الإعلان وإلحاحهم، لأن الصحفي في موقع نشاطه أقدر على جلب الإعلان من مندوب الإعلان.. وأصدرت أكثر من قرار بتحريم هذا العمل.. وفشلت في التطبيق، وكانت الحجة المضادة، أني بذلك أقفل أبواب موارد للصحيفة.. ثم اتخذت أكثر من قرار بحرمان الصحفي الذي يعمل بالإعلانات من العلاوات والمكافآت.. وتعثّر تطبيق هذه القرارات.. وهو أمر خطير، يجب أن يحسم..

* * *

وظاهرة أخرى واضحة في الجيل الجديد من الصحفيين، أو في غالبهم.. وهي عدم إجادة اللغة العربية.. وعدم إجادة لغة أجنبية.. وقد أصبحت الانجليزية الآن هي اللغة العالمية.. ولا مهرب من أن تعد المؤسسات الصحفية، برامج تدريب على إجادة اللغة والصياغة الصحفية، وأن تشجّع على تعلّم اللغة الأجنبية، بدراسات تدفع تكاليفها..

وتبقى الكتابة على الآلة الكاتبة..

لم يعد صحفي في العالم المتقدم، يقدّم قصة للصحيفة إلا مكتوبة على الآلة الكاتبة.. حتى يسهل جمع حروفها بغير أخطاء فادحة..

وقد أقمنا في مؤسسة أخبار اليوم، دورات تدريبية لذلك.. وفشلنا في تعميم هذه الطريقة..

ولا أعرف في الصحافة المصرية من يكتب موضوعه على الآلة الكاتبة. . إلا اثنين، خيرية خيري زوجة المرحوم علي أمين. . وقد اعتزلت الآن العمل الصحفي . .

وابراهيم سعده رئيس تحرير أخبار اليوم. .

وبعد . . مرة أخرى . .

لعل لي أخطاء عديدة، أو خطايا. . في عملي الصحفي قرابة نصف قرن من الزمان. . ولعل غيري أقدر على إيضاحها. .

ولكنني أحمد الله، أنني لم أنشر خبراً، وأنا أعلم أنه كاذب. . ولم أنشر سطوراً وراءها نفع شخصي أو مادي . . ولم استثمر قلمي، في مال حرام.

وقد أعطتني الصحافة، كل ما سعدت به. . وهيَّأت لي « حياة مستورة » ولم أمدّ يدي إلا لكل ما هو حلال .

وجلّ. . من لا يخطىء. .



فى غرفة العمليات السرية . . الرئيس السادات مع قيادات الجيش يشرح لرجال الصحافة أسرار العمليات العسكرية .

مصطفى أمين فى الاجتماع الأسبوعى بأسرة أخبار اليوم ظهر يوم الجمعة .





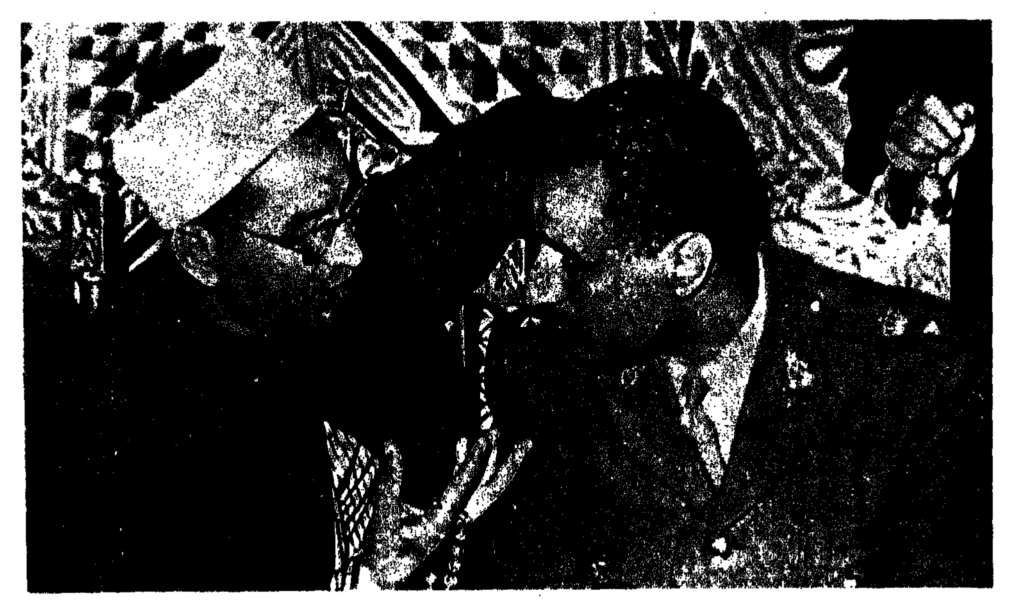
مع الرئيس حسنى مبارك منذ أن كان نائبًا لرئيس الجمهورية وبعد أن تولى الرياسة .



هذه الصورة اثارت جدلاً عن اللقاء الأول بين الملك فاروق ونجيب الهلالى باشا عندما كلفه بتأليف الوزارة قبيل الثورة .



مع على ماهر رئيس الوزراء بعد ثورة ٢٣ يوليو مباشرة فى مرسى مطروح .



فى الأيام الأولى للثورة .. عبد الناصر والباقورى.

مع أحمد حسن الباقورى فى الأيام الأولى للثورة

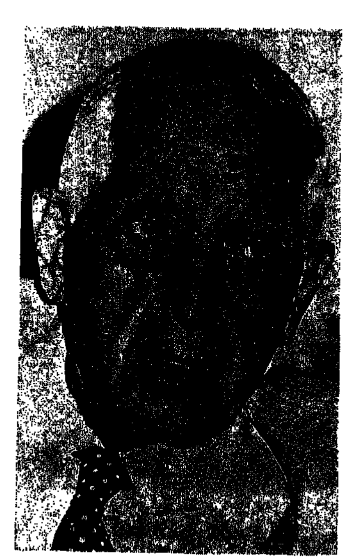


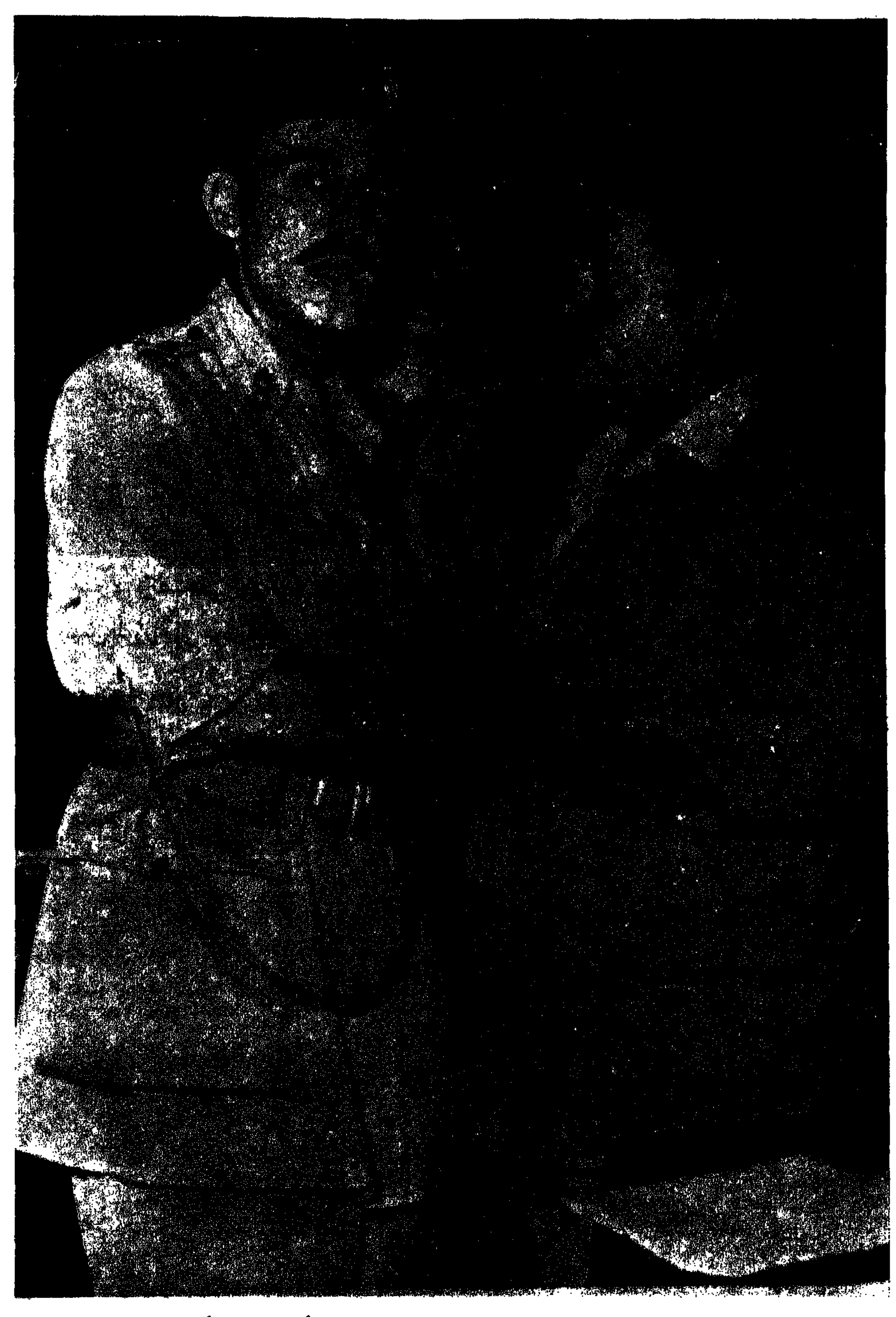


موسى صبرى والصحفى عبد الحليم الغمراوى وبينهما ضابط على سرير الملك فاروق خلال رحلة على ماهر رئيس الوزراء إلى مرسى مطروح حيث زار استراحة الملك .

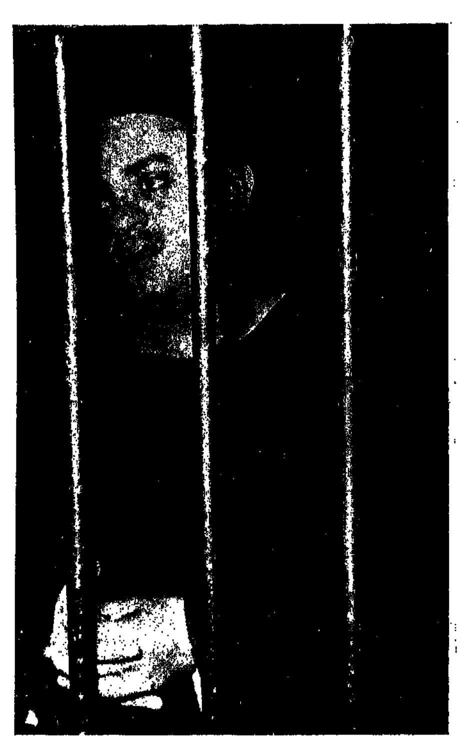
مصطفى المراغى وزير الداخلية قبل الثورة وأقوى رجال الملك فاروق والصورة الثانية له بعد عودته إلى مصر من الخارج فى عهد السادات .

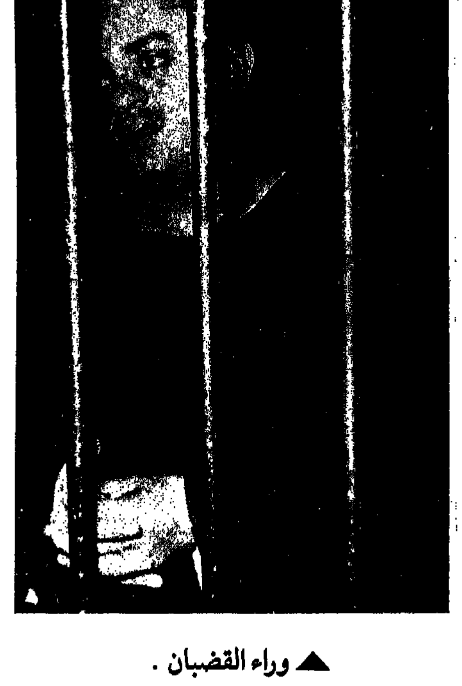






محاكمة عدلى لملوم فى المنيا بعد قيام الثورة مع حارسه محمد أحمد الذى أصبح سكرتيرا لجمال عبد الناصر .





مع والدته أثناء المحاكمة .

وراء القضبان .



والدة عدلى الملوم فى الطريق
إلى قاعة المحكمة .



فى محاكمة الاخوان المسلمون المرحوم سيد قطب خلال المحاكمة قبل الحكم بإعدامه .

أثناء محاكمة خميس فى كفر الدوار عندما قام موسى صبرى بالدفاع عنه ، وقد حكم عليه بالاعدام .





صورة عمرها أربعون عامًا فى بولكى حيث مقر مجلس الوزراء الصيفى . . موسى صبرى يسأل أنور السادات صباح يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ عن مصير الملك فاروق .

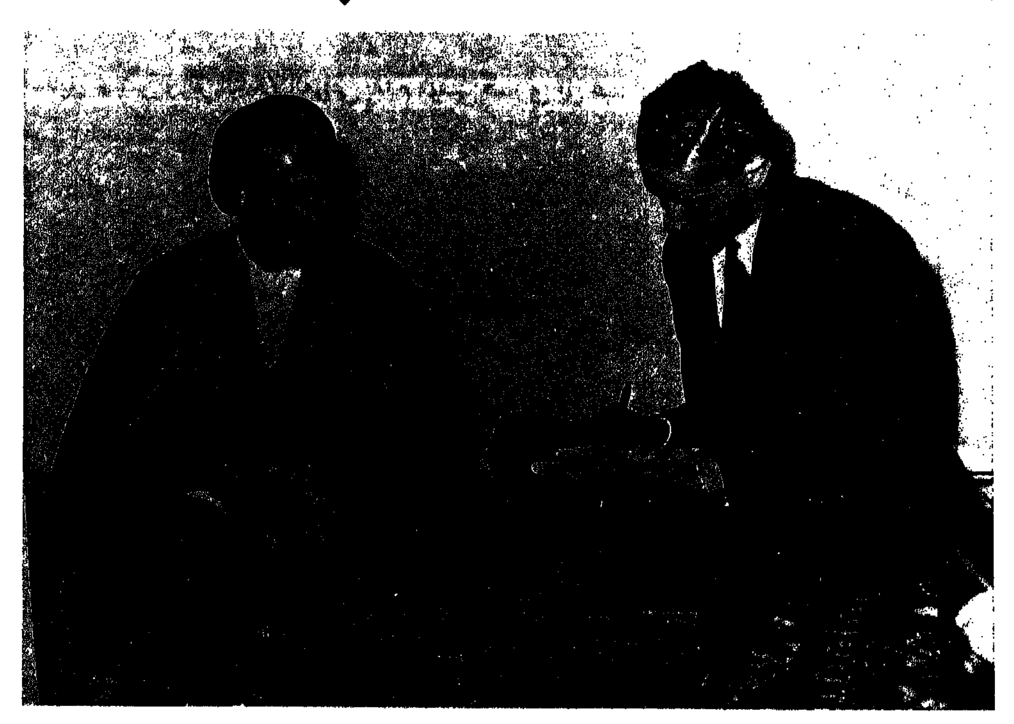
صديق شنشن وزير الاعلام العراقى يقدم موسى صبرى إلى عبد الكريم قاسم قائد أول ثورة فى العراق أنهت الملكية .



مع الزعيم الإيرانى آيه الله كاشانى .

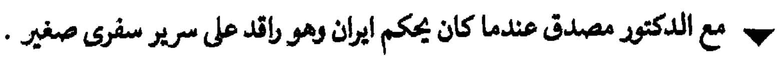


مع الارهابى الإيرانى نواب صفوى
أثناء اختبائه فى الجبل فى إيران .





صورة نادرة لمصطفى النحاس باشا رئيس حكومة الوفد عندما زار مصر قبيل الثورة



مع الدكتور مصدق عندما كان يحكم ايران وهو راقد على سرير سفرى صغير .





◀ حسن شاه . . بــدأت التجـربـة الأولى وارتـــدت مـــلابـس الكمسـارى . . وبعـدهـا فتحت شركات النقل أبوابها للفتيات .



◀ صافيناز كـاظم . . كانت أول فتاه عربيـة تقوم بمغـامرة مثيرة فى عـالم الصحـافـة . . حملت الكـاميرا وطـافـت بـدول العـالم لتسجل خواطرها ومتاعبها .



المارشال زوكوف (الروسى) . والمارشال منتجومرى (الانجليزى) خلال الحرب العالمية الثانية .

وقد أثار نشر مذكرات زوكوف أكبر أزمة عرفتها الصحافة المصرية بين الأهرام والجمهورية عندما كان المؤلف يرأس تحرير الجمهورية .

◄ فى مدينة أوسلو مع رئيسة لجنة جائزة نوبل للسلام .





المؤلف مع الرئيس جعفر نميرى فى مراحل حكمه المختلفة .





المحجــوبّ زعيــم الحزب الشيــوعى فى الســودان قبيـل الحكـم بـإعـدامـه بعـد فشـل انقلاب الشيوعيين .

عندما صمم السادات على استقبال شاه إيران فى مطار القاهرة بعد رحلة هربه المثيرة من رجال المخابرات الإيرانية .



من أغرب الصداقات فى التاريخ السياسى المعاصر ، عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف . بدأت بعهد الوفاء بالروح والدم وتطورت إلى سجن عبد السلام عارف بأمر قاسم ثم قتل قاسم بأمر عبد السلام عارف .

وصداقه . . أخرى بين السلال رئيس جمهورية اليمن والدكتور عبد الرحمن البيضانى نائب رئيس الجمهورية وانتهت بفراق أبدى .





مع بيجن رئيس وزراء إسرائيل فى رحلة مفاوضات إبراهيم كامل وزير الخارجية التى قطعت بعد ٢٤ ساعة فقط .

الصحفيون الإسرائيليون مع الصحفيين المصريين فى مدينة الاسماعيلية عندأول زيارة قام بها بيجن لمصر.





مع الرئيس الامريكى فورد فى لقاء صحفي فى النمسا .



مع الرئيس الأمريكى نيكسون عند الاحتفال به فى قصر القبة وأثناء زيارته للقاهرة .



مع الرئيس الامريكى جيمى كارتر فى البيت الأبيض .



مع الرئيس الحبيب بورقيبه رئيس تونس فى مكتبه بالرياسة قبيل حرب اكتوبر .

مع الرئيس الفرنسى ميتران ، هو وإبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام فى قصر الرياسة الفرنسى فى باريس .





مع الرئيس الامريكى فورد فى البيت الأبيض



مع الملك حسين فى العقبة



زيارة القذافى لمؤسسة أخبار اليوم بناء على طلبه
وحوار مع كبار الكتاب فى جلسة طويلة بالمؤسسة .





مع نادية لطفى .



محمد عبد الوهاب وموسى صبرى فى حديث إذاعى .



مع المخرج يحيى العلمى وصفية العمرى وباقى الأبطال عزت العلايلى ، حمدى غيث ، أبو بكر عزت .

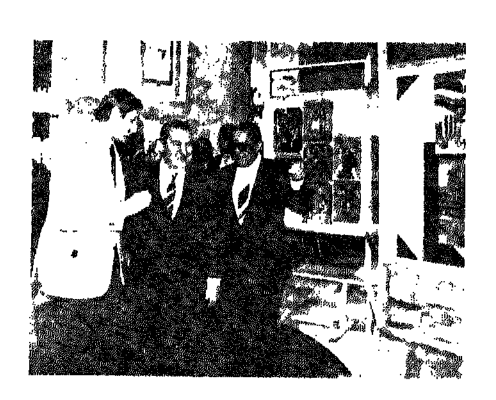


مع سمير صبرى وسلمى الشماع فى يناير ٧٤ على أرض سيناء بعد تحريرها .





الرئيس حسنى مبارك فى حفل افتتاح المبنى الجديد لمؤسسة أخبار اليوم ، وعند اجتماعه بكبار الكتاب فى صحف أخبار اليوم .





الفهـــرس

كتب صدرت للمؤلف

تاريخ معاصر:

١ ـ السادات . . الحقيقة والأسطورة
٢ ـ وثائق حرب أكتوبر
٣ ـ وثائق ١٥ مايو
٤ ـ قصة ملك و ٤ وزارات
٥ ـ ثورة كاسترو

رحلات صحفية :

٦ ـ شيوعيون فى كل مكان جزء ١
٧ ـ شيوعيون فى كل مكان جزء ٢
٨ ـ مخبر صحفى وراء ١٠ ثورات

تحليل سياسي :

٩ ـ اعترافات كيسنجر
١٠ ـ ونحن نبني الثورة الثانية

كتب صحفية :

١١ ـ الصحافة الملعونة
١٢ ـ عشاق صاحبة الجلالة
١٣ ـ نجوم على الأرض

فى الرواية :

١ ـ الجبان والحب
٢ـ كفاني يا قلب
٣ ـ غرام صاحبة االسمو
٤ ـ الحب أيضا يموت
٥ ـ دموع بلا خطايا
٦ ـ صانع الحب
٧ ـ رحلة لبنسيان
٨ ـ دموع صاحبة الجلالة

رومانسيات :

١ ـ حبيبى اسمه الحب
٢ ـ حوار العاشقين
٣ ـ آدم يصرخ وحواء تستغيث
٤ ـ قلبى يرتجف
٥ ـ قلوب تتوجع
٦ ـ العاشق الصغير
٧ ـ نحب ولا نحب

رقم الإيداع ٨٩٧٠ / ١٩٩١
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٩-٠٠٧٥-٣

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

هـذا الكتاب

● ٥٠ عامًا فى قطار الصحافة

عمل كبير يقدمه الكاتب الصحفى الكبير موسى صبرى عن تجربته الحية فى دنيا الصحافة، وقد ركب قطارها من المحطة الأولى فى أوائل الاربعينيات

● وننتطف بعض فقراته المتناثرة لبعض التعريف برحلته وحقائبه

« تضخمت الحقيبة . انتفخت ، لم تعد تتسع لكل ما يحمله المسافر . أصبحت حقائب عديدة ، أرهقه أن يحملها وحده فى هذا القطار ، قطار الصحافة الذى لم يتوقف عن المضى إلى الأمام . ولو بغير قضبان !

« ولم أترك مقعدى فى هذا القطار العجيب .. يومًا واحدًا !

لم أنزل فى محطة فرعية ، لكى أستقل قطارًا آخر

الرحلة طويلة . نعم وبلا منتهى .. ولكنها ممتعة »

● « وهأنذا ، وبعد أن شاب منى الشعر والقلب ، أنتحى ركنًا من القطار ، لكى أفرز ما ثقلت به الحقائب وأعرضها فى سطور كتابى

وحقائبى عديدة ، مختلفة الألوان والأشكال والأحجام .. .

ولم يكن أمامى أن أنتقى ما أعرض منها قبل الآخر .. **كلها عن رحلات متصلة ، وأحداث متداخلة ، لأن الرحلة الطويلة واحدة** .. وهكذا لم أستطع أن أقدمها بترتيب زمنى . أو تبويب أكاديمى . وعرضت البضاعة كلها على مائدة واحدة وللمتفرج أن يختار مايتفحصه إذا أعجبه . أو يعرض عنها . أو ينقل بصره بينها وكلها « من حقيبة مسافر ٥٠ عامًا فى قطار الصحافة » .

● وعن خطه الفكرى نقتطف له

« فى المرحلة من أوائل الاربعينيات حتى قيام ثورة ٢٣ يوليه . كنت شابًا حائرًا ، مثل غيرى من الشباب . لا أعرف إلى أين ؟ . وكيف الأمل ؟ والحياة السياسية الحزبية انحدرت إلى أسفل قاع والقصص عن الفساد والثراء الحرام تزكم الأنوف » ... .

« وكنت من غلاة المتحمسين لثورة ٢٣ يولية .. ثم وضعتنى الثورة فى خندق الخصوم، ووضعت بلا مبرر فى القائمة السوداء .. قائمة الممنوعين من السفر إلى الخارج إلا بإذن المباحث العامة ، ومكتب رئيس الجمهورية ذلك لأننى كنت ضد الفساد .. ولم أكن ضد الثورة . « وتحمست للمبادئ الاشتراكية فى الستينيات . وقرأت الكثير عنها .. وخاصمت الشيوعية والتطرف الدينى » ..

« واقتربت كثيرًا من مؤسسة الرياسة فى عهد السادات وفى عهد حسنى مبارك . »

● وهواياته الأدبية والفنية ، والتى ظهرت فى أعمال كثيرة ، قال عنها

« وفى غمار كل ذلك ، لم أبتعد عن هواياتى الادبية والفنية ، فى كتابة القصة القصيرة والرواية الطويلة والخواطر الرومانسية وكنت ـ ولا أزال ـ صاحب وجود فى الدائرة الفنية .. »

● وعن المعارك الصحفية الضارية التى خاضها ، والحملات العنيفة التى تبادلها ، فلا يبدو كبير أثر لجراحها ، ويكتفى بالقول فى ثقة واعتزاز

« ولكن ذلك كله لم يؤثر فى احترام الجميع لسلوكى الصحفى .»

والحمد الله أننى استطعت أن أقوى على ضعفى البشرى أمام كثير من المغريات ونشأ أبنائى الثلاثة ، فخورين ، **بأن أحدًا لم يستطيع أن يمس أباهم ، فى غمار الصراعات السياسية ، فى نزاهته أو طهارة قلمه**» .

« وبعد » ، فهذا ما اتسع له المقام لتقديم الكاتب الصحفى الكبير موسى صبرى ، فى عمله هذا الضخم الكبير مذكراته العبقة الممتعة عن ٥٠ عاما فى قطار الصحافة ،

محمد المعلم